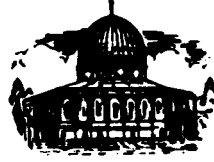


جامعة اليرموك
اربـد



الجامعة اللـارونية
عمـان

المؤتمـر الـدولي الثالث
لتاريخ بلاد الشام
« فلسطين »
المجلد الثالث

تاريخ فلسطين

الطبعة الاولى
١٩٨٣

موقف الحكومات الألمانية من الهجرة اليهودية الى فلسطين من ١٨٨٠ - ١٩٤٠ .

د. محمد فايز عبد أسعيد
الجامعة الأردنية

١ - اليهود وقضية الهجرة :

ان تشتت القبائل اليهودية في أرجاء مختلفة من المعمورة جاء كنتيجة لاحتلال القدس من قبل الرومان الذي استمر حتى عام ٦١٤ م . وبعدها تمكن الخليفة عمر بن الخطاب في عام ٦٣٧ م من إنهاء النفوذ الروماني في فلسطين مثبتا فيها اركان الديانة الاسلامية والثقافة العربية . وأصبحت الديانات الاسلامية والمسيحية واليهودية منذ التاريخ تتعايش بسلام . وأما اليهود فأكثريتهم فضلوا الهجرة والاستيطان في دول اوروية على العيش في فلسطين ، مكونين جاليات متعايشة مع تلك المجتمعات لقرون عديدة وحتى وقتنا الحاضر^(١) .

وعندما عمّت أوروبا حركات واضطرابات سياسية في القرن الثامن عشر هدفها قيام الجمهوريات والغاء الحكم الملكي حاول اليهود كذلك تكوين منظمات سياسية تابعة من صفوفهم هدفها تأسيس دولة تضم شملهم أسوة بغيرهم من الشعوب . وقد برزت هذه الحركات في المانيا وروسيا وانجلترا والولايات المتحدة الامريكية^(٢) .

ففي هذه البلدان برزت حركات مضادة لوجود اليهود (اللاسامية) . في المانيا أشار الكتاب القوميون أمثال فيشتي بضرورة رفض فكرة المساواة بين اليهود والألمان وطالب هذا حكومة المانيا بارسال اليهود الى ارض آباؤهم فلسطين^(٣) . وذهب الكاتب كونستانتين فرانتس الى حد المطالبة باحتلال فلسطين ومنحها لليهود ليسكنوا فيها^(٤) . أما باول دي لاجاردي فقد كتب يقول ان لا مكان للأمة اليهودية^(٥) .

وكتب روبرت فون مول (أستاذ قانون) في مجلة القانون والسياسة الألمانية في عام ١٨٦٩ أن لا مكان لليهود في المانيا، لأن المانيا لا تتسع لشعبين ولأن

ولاء اليهودي «ليهوديته». وجوهانس شير قال «أن اليهودية تشكل قاعدة لمجتمع مستقل ولا بد لليهود ان يعيشوا داخل دولة خاصة بهم... ان من المستحيل أن يكون الانسان المانيًا ويهوديًا في نفس الوقت»^(٧).

اضافة الى ما سبق ذكره فقد كتب العديد من المفكرين الألمان يحذرون مستشار المانيا بسمارك من خطر «تهويد المانيا» ورفعوا شعارا مفاده: «المانيا للألمان»^(٨).

وجد اليهود أنفسهم في بحر من الكراهية وقال زعيمهم موسى هيس ان الألمان عنصريون ولا ساميون وانه يشك بإمكانية التعايش الابدي بين الألمان واليهود^(٩). وبرز الى جانبه الدكتور بودنهايم الذي أسس الاتحاد الصهيوني الألماني^(٩).

وفي عام ١٨٧٨ عقد اليهود الألمان والجمعيات الألمانية المؤيدة لهم أول مؤتمر لهم في برلين، وقد رفع المؤتمر الى المستشار الألماني بسمارك التماسا بالمساعدة على انشاء دولة يهودية في فلسطين. لكن مستشار المانيا رفض هذه الفكرة وقال: «لا شك انها فكرة جنونية»^(١٠). ورغم هذا الرفض فقد واصل اليهود نشاطهم من أجل الحصول على دعم المانيا لتحقيق هدفهم بانشاء دولتهم في فلسطين. وبادروا في عام ١٨٨٤ الى عقد مؤتمر ثان لهم في مدينة كاتوفيتز الألمانية حضرته وفود من مؤيدي الحركة الصهيونية في المانيا وروسيا والنمسا. واتخذ المؤتمر قرارات بصدد تشجيع الاستعمار اليهودي في فلسطين على أن يتم تزويد المهاجرين اليهود بأموال تدفع مقدما أو منحهم قطعاً من الأرض على شكل هبات. ثم قرر المؤتمر ارسال وفد صهيوني لاقناع حكومتي تركيا والمانيا «بعدالة المطالب الصهيونية». لكن اليهود اصطدموا مرة اخرى برفض قاطع من الدولتين^(١١). من جهة اخرى فقد قامت عدة جمعيات لدعم الخطط الصهيونية منها جمعية عزرا في برلين وكذلك فرع لجمعية «محبى صهيون» وفرع «للجمعية اليهودية لاستعمار فلسطين»^(١٢). كما تعاون بودنهايمر مع زميله فولفزون في انشاء «جمعية كولن لدعم الزراعة والعمل اليدوي في فلسطين». وحين ظهر كتاب هرتسل «الدولة اليهودية» عام ١٨٩٦ تغير اسم هذه الجمعية واصبح بعدها: «الاتحاد اليهودي الوطني في كولن»^(١٣). ولقد اعلنت هذه الجمعية برنامجها السياسي وجاء فيه:

- ١ - اليهود في كافة انحاء العالم يشكلون شعبا واحدا وهذا لا يتعارض مطلقا مع انتمائهم للبلاد التي يسكنونها.
- ٢ - رفض دمج اليهود مع الشعوب الاخرى ولا بد من دولة يهودية تقام على ارض فلسطين كما جاء في التاريخ اليهودي.
- ٣ - القيام بخطوات عملية في استعمار فلسطين^(١٤).

الآ أن بعض الجمعيات اليهودية الاخرى في المانيا وقفت معارضة للمحاولات الخاصة بانشاء دولة يهودية في فلسطين. فقد قوبل اقتراح هرتسل بعقد مؤتمر صهيوني في ميونخ بمعارضة رسمية من قبل الجالية اليهودية في برلين. وكانت قد تأثرت بتصريح أعلنته «جمعية حاخامي المانيا» قررت فيه انه وان كان لا اعتراض لها على المشروع (النبيل) الخاص باستعمار فلسطين بواسطة مزارعين يهود الآ ان المحاولات الخاصة بانشاء دولة يهودية في فلسطين تتعارض مع مبادئ الدين اليهودي. الآ ان الصهاينة استطاعوا اقامة مكتب مركزي لهم في برلين قام على ادارته بودنهايمر^(١٥).

٢ - هرتسل والدولة اليهودية :

في عام ١٨٩٦ أصدر الصهيوني تيودور هرتسل كتابا بعنوان : «الدولة اليهودية»^(١٦). كان صدور هذا الكتاب بمثابة نقطة تحوّل في تاريخ الحركة الصهيونية. فقد ظهرت على اثر ذلك «الصهيونية السياسية». اكتشف هرتسل أن هناك عدااء مستحكما للسامية في الدول الأوروبية وخاصة في المانيا وروسيا وفرنسا^(١٧). واتضح له ان المشكلة اليهودية ليست الآ قضية قومية وانتهى الى ان حلّها يكمن في تحويلها الى قضية عالمية تفرض على مجالس الأمم المتحضرة، حيث ينادي زعماء اليهود بتكوين دولة يهودية^(١٨). كان هرتسل يعي الارضية الفلسفية المشتركة بين الصهيونية واللاسامية عندما قال : «ستكون حكومات جميع البلدان المتبلاة «باللاسامية» مهتمة اهتماما شديدا بمساعدتنا على تحقيق السيادة التي

نريد»^(١٩). ولقد وجد هرتسل في «اللاسامية» قوّة غامرة على اليهود أن يستخدموها لتحقيق أهدافهم وقال عنها «انها قوّة دافعة مسؤولة عن جميع آلام اليهود منذ تدمير الهيكل وكما ستستمر في جعل اليهود يتألمون الى ان يتعلموا كيف يستخدمونها لفائدتهم»^(٢٠). وجد هرتسل في «اللاسامية» حليفا غير مباشر للحركة الصهيونية. ولهذا شدّد على ضرورة تغذية «اللاسامية» حتى تستطيع الصهيونية ان تنمو^(٢١). وجاء كتاب هرتسل بمثابة برنامج واضح على الطريق لتحقيق اهداف وتطلعات اليهود.

واستطاع هرتسل من خلاله تحريك اليهود سياسيا وتجميع قواهم على أسس ثابتة^(٢٢). وكان من أهم هذه الاسس دعوته الى انشاء دولة يهودية^(٢٣). وجد هرتسل انه من الضروري لتحقيق مثل هذا الهدف اجراء مفاوضات مكثفة مع قياصرة روسيا والمانيا والنمسا وفرنسا. وقال في مقابلة له مع البارون دى هيرش «سأذهب الى قيصر المانيا وسيفهم ما أريد وسأقول له: أترك شعبنا يهاجر! لاننا غرباء في بلادكم ولسنا مؤهلين للاندماج في مجتمعكم...»^(٢٤).

أجرى الصهاينة بالفعل اتصالات مع كافة حكومات اوربا للحصول على دعم هذه الحكومات لمشاريع الصهيونية. لقد كان باستطاعة هرتسل أن يعلن بارتياح ان «اللاسامية قد نمت وتستمر في النمو... وأنا أيضا أتمو»^(٢٥). استطاع بالفعل أن يجمع المؤيدين لفكرته في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في عام ١٨٩٧ في بازل في سويسرا. إذ قرر المؤتمر دعم برنامج استيطاني يهودي واسع على الأرض الفلسطينية كمقدمة لانشاء دولة يهودية^(٢٦). وجاء في البرنامج الصهيوني الذي ووفق عليه في بازل، «ان هدف الصهيونية هو تأسيس موطن للشعب اليهودي في فلسطين... وذلك باتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على موافقة دول اوربية لتحقيق اهداف الصهيونية»^(٢٧).

كثّف هرتسل نشاطه في المانيا وليس في بريطانيا كما ذكر بعض المؤرخين^(٢٨). فقد بعث بنسخة عن كتابه «الدولة اليهودية» الى مستشار المانيا بسمارك مع

رسالة استعطاف جاء فيها. «أضع بين أيديكم مشروعى حول تأسيس دولة يهودية في فلسطين للتصرف والبث فيه، إذ أنكم بقبضتكم الفولاذية وارانتمكم الحديدية تمكنتم من توحيد المانيا المجزأة، وإذا أرتايتم واقعية مشروعى فستكون هذه الدولة من أخلص حماة مصالحكم في المنطقة»^(٢٩). وفي ١٧/١٠/١٨٩٧ بعث هرتسل برسالة الى قيصر المانيا فيلهلم الثاني يطلب مساعدته لاقامة شركة يهودية تحت الحماية الالمانية تهتم بامور الهجرة اليهودية ويطلب منه بذل جهوده مع السلطان العثماني لاقناعه بعدالة الاستيطان اليهودي في فلسطين^(٣٠). وفي ٤/فبراير/١٨٩٨ اجتمع هرتسل بالسفير العثماني في المانيا أحمد توفيق ليدل وساطته من أجل تحقيق المشروع الصهيوني مقابل قروض مالية يهودية، لكن السفير أوضح له صعوبة امتلاك فلسطين^(٣١). ويمكن القول أن عام ١٨٩٨ اعتبر العام الصهيوني- الالمانى نظرا للمحاولات المكثفة التي قامت بها الحركة الصهيونية لاقناع القيصر الألماني بالتوسط لدى حكومة تركيا. ولم يعط القيصر الألماني وعدا قاطعا بالتدخل لحساب الصهاينة. كما ان صحافة المانيا انتقدت مشروع هرتسل لانشاء دولة يهودية ووصفته بانه «محاولة يهودية لايجاد مركز سياسي كمنطلق لسيادة العالم»^(٣٢). وعلى أثر الالحاح المستمر من قبل الزعماء الصهاينة ابدى القيصر الألماني نوعا من التفهم لتطلعات اليهود وقال: «ليذهب اليهود الى فلسطين وكلما اسرعوا في ذلك كان أفضل لهم ولنا... لن أضع اعتراضات في طريقهم»^(٣٣). وكتب قيصر المانيا الى عمه غراند ديوك يطلب منه فيها أن يدرس اهتمامات الحركة الصهيونية بقلب مفتوح، وعبر عن أمله في ان تجد مطالب الصهاينة «نهاية عادلة».

وكتب يبرز موقفه بقوله: «سيقوم اليهود ببناء اقتصاد متين في فلسطين، مما يساعد تركيا (الرجل المريض) على مجابهة قضايا تدهورها الاقتصادي.... ولكنني خائف من ردّة الفعل لدى شعب المانيا الذي ستتتابه بدون شك صدمة عنيفة حين يتضح له أنني اساعد اليهود وأحميهم»^(٣٤).

وعد القيصر الألماني فيما بعد بان يحمل معه في زيارته لتركيا رغبات اليهود

لعرضها على السلطان العثماني كما أبدى رغبته في مقابلة هرتسل في القدس
« ليسمع منه المزيد من تطلعات الصهيونية »^(٣٥). فرح هرتسل بهذا التحول
لصالح حركته رغم توضيح المسؤولين الألمان له « بان لا يجوز الاعتقاد بنية المانيا في
دخول حرب من أجل اليهود ! »^(٣٦).

وثناء لقاء قيصر المانيا بالسلطان العثماني في الآستانة (اكتوبر ١٨٩٨) تحدث
القيصر بشكل حماسي عن أماني اليهود في فلسطين، ولكنه فوجيء بفثور شديد
من جانب السلطان الذي سار بالحديث نحو مواضيع أخرى بدت له اكثر أهمية .
« وهكذا وجد القيصر صعوبة كبرى في الحديث مرة اخرى عن اماني
اليهود ... »^(٣٧). وحين زار القيصر الالماني مدينة القدس قال له مرافقه آنذاك أحمد
توفيق (وزير الخارجية التركي) : « لا علاقة للسلطان بالصهيونية وليس لدينا أي
اهتمام بانشاء دولة يهودية في فلسطين » .

كان هذا الايضاح من جانب وزير الخارجية التركي كافيا لان يفقد قيصر المانيا
« بقيّة الآمال المتوفرة لديه لمساعدة اليهود »^(٣٨).

حرص هرتسل على لقاء القيصر في القدس كما حرص اليهود في فلسطين على
استقبال القيصر الألماني وزوجته استقبالا مميزا ونصبوا لهم القباب المزدانة،
واصطف هرتسل مع كبار الحاخامين وتلامذة المدارس العبرية الذين أنشدوا لهما
نشيدا ترحيبيا بالألمانية مطلعة :

“Heil Dir in Siegerkrone” ولكن رغم هذا الترحيب ورغم عرض المطالب
الصهيونية واجتماع هرتسل بالقيصر الألماني في ١١/٢/١٨٩٨، إلا انه من الثابت
أن جوابه كان غير مشجع، حيث أشار الى أن « المسألة تحتاج الى مجهود اضافي
ودراسة مستفيضة » وقال : « ان مجيئي الى القدس الشريف لم يكن مبنيا على
غايات سياسية، بل لأنني كنت أميل الى زيارة هذه المدينة المقدسة التي مات فيها
السيد المسيح »^(٣٩). إلا أن القيصر امتدح جهود اليهود للنهوض بالزراعة في
فلسطين من أجل رفاهية الدولة العثمانية « ودعاهم الى احترام سيادة
السلطان »^(٤٠).

وحيث اقترح هرتسل عليه انشاء مستوطنات يهودية في سوريا وفلسطين تحت حماية الحكومة الألمانية لم يجب القيصر بنعم أو لا واكتفى بالسكوت^(٤١)، رغم أن هرتسل لم يجد حرجا من القول ان هذه المستوطنات ستكون «قلاع حماية لمصالح المانيا في الشرق»^(٤٢). والواقع ان الزعيم الصهيوني هرتسل لم ييأس نتيجة فشله مع القيصر الألماني بل استمر في نشاطه لكسب التأييد الدولي الاستعماري وخاصة تأييد بريطانيا وروسيا الى أن مات في ١٦/أيار/١٩٠٤^(٤٣).

٣ - الحركة الصهيونية بعد وفاة هرتسل (١٩٠٤ - ١٩١٤)

بعد وفاة هرتسل تولى ولفرزون وهو يهودي الماني زعامة الحركة الصهيونية ووجد صعوبات بالغة في تجميع صفوف الصهاينة الذين دبّ الخلاف في صفوفهم حول جدوى المشاريع الصهيونية.

دعا ولفرزون الى عقد مؤتمر صهيوني في عام ١٩٠٧ في مدينة فرايبورغ الألمانية، لكن المؤتمر فشل في توحيد الجهود الصهيونية، مما دفع بالزعيم الصهيوني الألماني الى الاستقالة من منصبه في ٩/٨/١٩١١. نشط بعده في الحركة الصهيونية كل من بلومنتال ولشتهام وكذلك روزنبلات. إذ نشر لشتهام كتابه المعروف بعنوان «برنامج الصهيونية» حيث اوضح فيه ان الحل الوحيد لمشكلة اليهود في العالم تكمن في تعبتهم بكافة الوسائل من أجل الهجرة الى فلسطين^(٤٤). أما الصهيوني الألماني بلومنتال والذي لعب دورا كبيرا في اعادة تنظيم الحركة الصهيونية فقد نادى بضرورة مواصلة الكفاح من أجل «فلسطين صهيونية»^(٤٥).

حاول خلفاء هرتسل دفع حكومة المانيا للتدخل مرة اخرى لصالح اهدافهم لدى الحكومة التركية، وكان رجلهم في استنبول الدكتور فيليس الذي يعمل مديرا للدائرة الصحية في وزارة الداخلية التركية. نقل هذا الرجل افكار الصهاينة الى الحكومة التركية وحاول اقناع الاتراك «بعدالة» المطالب الصهيونية، لكنه مني بالفشل. من جهة اخرى فقد ابدى بعض الألمان تعاطفا مع الحركة الصهيونية في

مسعاها لانشاء دولة يهودية. فكتب الدكتور فون ميكفيل في ١٩١١/٧/٢٦ يقول: «لا بد لنا من الاهتمام بامور اولئك اليهود الراغبين في الذهاب الى فلسطين خاصة واننا نجني فائدة كبرى من اتقانهم للغة الألمانية...»^(٤٦). كما نادى بضرورة دعم المدارس الألمانية في فلسطين والتعاون في هذا المجال مع اليهود الموجودين في الأرض المقدسة^(٤٧).

٤ - ألمانيا والحركة الصهيونية في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)

أثبتت الحرب العالمية الأولى انها نقطة تحول هامة في حظوظ الصهاينة، اذ استطاع هؤلاء استخدام الظروف الطارئة لمصلحتهم بشكل جيد. وقد انقسم الصهليون الألمان فيما بينهم تجاه المشكلة اليهودية اثناء الحرب العالمية الأولى. فبينما كان فريق منهم يرى تركيز الجهود نحو الضغط على الحكومة الألمانية، بغية تنفيذ المخطط الصهيوني بشأن فلسطين - ركز فريق آخر جهوده في تأسيس تكوين سياسي - يضم يهود بولندا وشرق أوروبا، وكان بودنهايمر يتزعم الفريق الثاني. وقد بدأ اهتمامه بهذا المشروع منذ ارسل مذكرة الى الخارجية الألمانية أشار فيها الى المتحدثين بلغة «اليديش»^(٤٨) وطالب بايجاد عصبة تجمع بين اليهود وغيرهم في حالة انتصار ألمانيا في الحرب. وكان بودنهايمر يهدف بذلك الى تحرير اليهود في روسيا ليكونوا خير خدام لمصالح ألمانيا الكبرى^(٤٩). وقد أطلقت هذه الفكرة العنان لاهتمام كبير في الخارجية الألمانية، خاصة وأن نشاط ممثلي الصهيونية الألمانية، كان منذ بداية الحرب قد تناول عرض مساعدتهم لألمانيا في الناحيتين السياسية والاقتصادية بالاضافة الى ما يمكن أن تقدمه الصهيونية العالمية لها من عون في الحرب يدخل التجسس في نطاقه^(٥٠). وقد رحب الألمان بفكرة بودنهايمر على أمل أنها تحقق لهم فتح ثغرات في المجتمع الروسي، تمكن من تفتيت قوى الروس في الحرب الدائرة. ولتوسيع قاعدة هذا التجاوب، بدأ بودنهايمر يدعو لفكرته بين العديد من اليهود الصهيونيين الألمان. وكان أول يهودي وضع نفسه في خدمة بودنهايمر هو فرانتر أونهايمر. وكان للأخير آراء في الاصلاح الاجتماعي، مما قرب بينه

وبين بودنهايمر الذي كان يتبنى بصفته رئيسا للصندوق القومي اليهودي، فكرة إقامة مستوطنات يهودية يطبق فيها النظام التعاوني. واستمر بودنهايمر في الدعاية لمشروعة فاجري اتصالات مع عديد من الصهيونيين الألمان نجح على اثرها في كسب مجموعة منهم ضمّت فريدنمان وكلي وسترك وهانتكي وروبنسون. وقد شكل هؤلاء «لجنة لتحرير اليهود الروس» واصدروا جريدة باسمهم. كان نشاط هذه اللجنة يمثل خروجاً عن البرنامج الصهيوني الاساسي الذي يهدف الى تكوين وطن قومي يهودي في فلسطين، ليحل محلّه برنامج يهدف الى تكوين عصابة تجمع قوميات عديدة يشكل اليهود قطاعاً فيها، ليس في فلسطين وانما في المقاطعات البولندية. والى جانب ذلك اعتبرت المنظمة الصهيونية العالمية اتصال بودنهايمر بالسياسة الألمانية خروجاً على سياسة «الحياد» التي اعلنتها منذ اندلاع الحرب الكونية الأولى^(٥١). ولقد عارضت اللجنة التنفيذية الصهيونية جهود بودنهايمر ورفضت تقديم أي دعم له في تنفيذ خطته، اذ ساد الاعتقاد بين الصهاينة بأن المانيا لن تكسب الحرب.

أما الفريق الآخر الذي مثله الصهيونيون الألمان، والذي ركز جهوده نحو العمل من أجل فلسطين اليهودية، فقد فشل هو الآخر في تحقيق اهدافه. هذا على الرغم من أن أفرادهم قاموا بنشاط ملموس نحو نجدة يهود فلسطين الذين رفعوا عقيرتهم بالشكوى من «مظالم» جمال باشا التي قام بها كاجراءات أمن تقتضيها ظروف الحرب. ذلك أنهم تصدوا لكل اجراء من قبل الحاكم التركي وبصفة خاصة من مصادرة أملاك اليهود في فلسطين في ربيع ١٩١٥، مما اضطر السفير التركي في برلين الى نشر بيان للتهدئة^(٥٢). ولعل موقف هؤلاء من جمال باشا جعل الدوائر الألمانية تدرك أن الجانب الصهيوني في المانيا يمثل مركزاً للقوة لفت انتباهها بشكل واضح، خاصة وان الصحافة الألمانية بدأت منذ ذلك الحين ترسخ لضغط صهيوني مركز، جعلها تعطي اهتماماً خاصاً لبحث المسألة الصهيونية. كما أبرزت الصحافة اهمية الصهيونية في ظروف الحرب سواء أكانت مع المانيا أو ضدها.

في نفس الوقت سعى الصهاينة الى تكثيف اتصالاتهم مع بريطانيا وابدى بعضهم استعداداه للتجسس لحسابها ضد المانيا. فقد استطاعت شبكات التجسس الصهيونية العاملة في فلسطين جمع معلومات دقيقة عن حجم القوات الألمانية والتركية في الأرض المقدسة .

كذلك تمكنت الجاسوسة الصهيونية «ساره» من دخول مركز التجمع العسكري التركي الألماني في فلسطين ومحل قيادته. أقامت مع وزميلها يوسف ليشانسكي في فندق ضم بين نزلائه القائد الألماني فون كيريسن شتاين وهيئة اركان حربه . واستطاع الجواسيس الصهاينة جمع معلومات دقيقة تتصل بعدد افراد القوات الألمانية في فلسطين الذي بلغ ٥٠.٠٠٠ مقاتل وتعرفوا على اماكن تركزهم ومدى فاعليتهم الحربية واستطاعوا الحصول على خرائط عسكرية متعددة^(٥٣). كما تمكن الجواسيس الصهاينة من استقطاب شخصيات عسكرية المانية للعمل لصالح شبكة التجسس الصهيونية^(٥٤).

لكن السلطات التركية تمكنت بعد مطاردات عنيفة من اكتشاف شبكة التجسس هذه وقبضت على «ساره» وزملائها. وتبع ذلك اجراءات متعددة قام بها جمال باشا ضد الصهاينة، حيث حلّ كافة منظماتهم في فلسطين وحرّم استخدام العبرية في الكتابة على لافتات الحوانيت والشوارع وهدد باعدام من تسوّل له نفسه لصق الطوايع الصهيونية على الخطابات كما جرّد المستعمرات الصهيونية من الأسلحة^(٥٥). فاحتج الصهاينة الألمان على اجراءات جمال باشا واتهموه «باللاسامية». وحدث ان بدأ جمال باشا في تهجير اليهود من يافا بعد ان توغلت جيوش اللنبي في الاراضي الفلسطينية في خريف عام ١٩١٧، مما ترتب عليه انتشار حملات الاستنكار الصهيونية الألمانية ضد الأتراك. وكان للدعاية الصهيونية أثر كبير في ارغام حكومة المانيا على مناقشة المسألة الصهيونية في الرايخ الألماني^(٥٦).

عمدت الحكومة الألمانية الى ممارسة نوع من الضغط على الحكومة التركية،

الأمر الذي أدى الى إيقاف عمليات التهجير، ومبادرة الحكومة التركية بإرسال مساعدات مالية لليهود المتضررين، مقرونة باعتذارها وتعللها بأن عمليات التهجير هذه إنما كانت تدابير عسكرية طبقت على جميع السكان في منطقة العمليات العسكرية، دون أي تفرقة بين اليهود وغيرهم من السكان. وقد أسرعت الحكومة الألمانية بإذاعة هذا الاعتذار تهدئة لموجة الغضب الصهيوني، وأجهدت نفسها- كما جاء في تقارير المخابرات البريطانية^(٥٧) في إنكار الاتهامات اليهودية للحكومة التركية، كما علقت أهمية خاصة على مقابلة مع الحاخام الأكبر في تركيا نشرت تفاصيلها في إحدى الصحف الألمانية^(٥٨).

وبناء على ما ورد في تقارير المخابرات البريطانية لم يقتنع اليهود الألمان بتوضيحات ألمانيا وتركيا^(٥٩). ورغم ذلك فقد حرص الصهاينة الألمان على استخدام التحالف الألماني التركي لأغراضهم. حيث نشرت إحدى الصحف الألمانية خطاباً من الجهات الصهيونية جاء فيه ان نفوذ الحكومة الألمانية في مقدوره ان يمهد الطريق الى توطين اعداد كبيرة من اليهود في فلسطين، وان في امكان ألمانيا المساعدة في حصول يهود فلسطين على امتيازات في صالحهم^(٦٠). لم يجد الصهاينة آذانا صاغية فقد وضع الألمان أهمية التحالف التركي الألماني فوق أي اعتبار آخر. واذا كانت متطلبات التحالف التركي الألماني قد جعلت العمل الصهيوني الألماني ينتهي الى لا شيء بالنسبة لتحقيق انشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين، فان مقتضيات السياسة البريطانية مهدت الطريق أمام نفر من الصهونيين الى اكتشاف طريقهم لتحقيق لهم ما عجزوا عنه في ألمانيا.

ألمانيا وتصريح بلفور:

سلكت الحكومة الألمانية تجاه البرنامج الصهيوني مسلكاً حددته ظروف معينة، جعلت الجهود الصهيونية الألمانية مقيدة بسبب حساسية الموقف الناجم عن حرص الحكومة الألمانية على عدم اغضاب تركيا، غير أن اتصالات واسعة دارت بين الصهونيين الألمان والدوائر الألمانية بخصوص المسألة الصهيونية، وفي نهاية يونيو عام

١٩١٧ قدمت اللجنة الصهيونية في برلين مذكرة لوزارة الخارجية الألمانية جاء فيها :
«... نوجه انتباه وزارة الخارجية الى ان الحلفاء (بريطانيا في المقدمة) يبذلون
جهودا كبيرة من اجل كسب جانب اليهود واستغلال مصادر الثروة اليهودية في
تعضيد قضيتهم... على ان الجهود الصهيونية في كل مكان تتجه اتجاها فكريا
واحدا مفاده أنه بمساعدة الدول الأوروبية، يتأكد وضع حجر الأساس في سبيل
تحقيق الأماني الصهيونية»^(٦١).

يضاف الى ذلك ان المذكرة الصهيونية أحاطت وزارة الخارجية الألمانية علما
بان اللجنة التنفيذية الصهيونية في برلين بذلت كل ما في مقدورها منذ بداية
الحرب العالمية الأولى من أجل تهدئة الرأي العام اليهودي، كلما اتخذت الحكومة
التركية اجراء ضد اليهود^(٦٢). وكان من شأن هذه التنبهات الصهيونية أن توضح
للمسؤولين الألمان أن من مصلحة المانيا تحديد موقف نهائي من الفكرة الصهيونية.
وجاء في رد وزارة الخارجية على المذكرة المشار اليها: «ولكننا نعتقد بالنظر الى
الدراسة العامة للقضية، أن الوقت قد حان من أجل العمل على الوصول الى الحل
الذي نرتضيه، وحيث تكسب المانيا وتركيا عزيمة صادقة وامتيازات اقتصادية ذات
قيمة كبيرة»^(٦٣). وازداد الاقتراب الألماني من المسألة الصهيونية بشكل حددت
أبعاده مذكرة أعدتها المخابرات البريطانية عن موقف الحكومات المعادية تجاه
الصهيونية. فذكرت أن المسؤول الألماني فون كولمان شارك أحد الزعماء الصهيونيين
في مناقشة المسألة الفلسطينية مع جمال باشا أثناء زيارته لبرلين في أغسطس سنة
١٩١٧، وأن الكونت برنستوف تابع بحث المسألة مع المسؤولين الأتراك بعد تعيينه
سفيرا لألمانيا في الآستانة في سبتمبر ١٩١٧^(٦٤). على أثر ذلك ظهر اتجاه تزعمه
أحد العسكريين الألمان واسمه الميجر أندرس، يدعو لتشكيل لجنة فلسطينية المانية،
كخطوة نحو الاهتمام الألماني بمستقبل فلسطين. غير ان هذه الفكرة اصطدمت
منذ مولدها بنفس العقبة التي واجهت الجهود الصهيونية السابقة، وانتهى الأمر الى
أن اعلنت وزارة الخارجية الألمانية انها لا تميل الى مثل هذه الفكرة فقد يشك
الأتراك في أن اطماعا المانية تحركها^(٦٥). ولم تتجه الجهود الصهيونية نحو المسؤولين

الألمان في برلين فقط، وإنما تسربت الى الخارج، فاجتمع ممثل عن المكتب الصهيوني في كونهاجن واسمه مارتين بوزنبرت بالسفير الألماني في الدنمارك في ٢٣/١٠/١٩١٧. وكان السفير عائدا على التو من برلين، حيث شهد مناقشة مذكرة صهيونية طالب فيها واضعها جاكوبسون نيابة عن اللجنة التنفيذية الصهيونية في برلين اصدار بيان الماني يعضد الفكرة الصهيونية، غير أن السفير الألماني أخطر المندوب الصهيوني بان الاتجاه السائد في برلين يشير الى أن شيئا من هذا القبيل لن يكون في صالح المانيا في الوقت الحاضر^(٦٦). وبعد أن اتضح للصهيونيين ذلك الغموض الذي اعترى السياسة الألمانية، أيقنوا بأن الأمل في مناصرة المانيا للفكرة الصهيونية ضعيف جدا، الأمر الذي اعطى الصهيونيين في لندن فرصة كبيرة للتحرك والضغط على الحكومة البريطانية بغية الاسراع في تحقيق المطالب الصهيونية^(٦٧). ولقد سعت بريطانيا من جهتها لكسب تأييد اليهود ضد المانيا، لنفوذهم السياسي والاقتصادي الواسع في اوروبا وامريكا. فأبدت الحكومة البريطانية «تعاطفها» مع الاهداف الصهيونية وادعت بأنها الدولة الوحيدة القادرة على مساعدة اليهود كما ركزت على ان بريطانيا أفضل من المانيا لأن المجتمع الألماني لم يعترف باليهود كمواطنين ألمان رغم أن اليهود قدموا كل طاقاتهم لخدمة ذلك المجتمع^(٦٨). من جهة اخرى حرص الصهاينة على الاشارة الى ان خير رد للحملات الصحفية والسياسية التي كانت الحكومة الألمانية تشنها بهدف كسب التأييد اليهودي هو تعجل بريطانيا باصدار وعد بلفور^(٦٩). كما قام حاييم وايزمن- رئيس الاتحاد الصهيوني البريطاني آنذاك بجهود مكثفة من أجل الوصول الى تحالف صهيوني- بريطاني. إذ قام بحملة ذكية ونشطة مركزاً على كسب تأييد سياسيين أمثال بلفور ورئيس الوزراء لويد جورج. والى جانب الحجّة القائلة بان الصهيونية هي طريق ملائمة لتخليص اوروبا من يهودها، استخدم وايزمان كذلك الحجّة الامبريالية القائلة بان «فلسطين يهودية ستكون دولة واقية لآنجلترا خصوصا فيما يتعلق بقناة السويس»^(٧٠).

وكان اعلان بلفور الصادر في الثاني من نوفمبر ١٩١٧ نتيجة لهذه الجهود

الدبلوماسية. فوجد الصهاينة فيه أول نصر سياسي للحركة الصهيونية. إذ كان بمثابة اعلان صريح من جانب دولة كبرى لمساندة الصهيونية في سعيها لاقامة دولة يهودية على ارض فلسطين. وبهذا دخل نشاط الصهاينة مرحلة دولية مما كان له اثره في المانيا ايضا. فقد علق احد كبار الصحفيين الألمان واسمه مانفريد جورج على ذلك فقال: «إنا لنشعر بالاسف ان سمح لبريطانيا بان تكون الدولة الأولى في اعلان مسانبتها لانشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وكان يتحتم أن يسبق ذلك اجراء الماني حاسم»^(٧١). كما اعلنت حكومة المانيا في بيان لها: «اننا نقدر باهتمام بالغ مساعي الشعب اليهودي لتحقيق امانيه الشرعية»^(٧٢). وحين صدر تصريح بلفور، تحولت صيحات التحذير الصهيوني الألماني الى بيانات تأييد للسياسة البريطانية، فتنادى الصهيونيون الألمان بمغزى التصريح، وظهرت الانطباعات الصهيونية في التعليقات التي نشرتها الصحف اليهودية الألمانية. جاء في احداها: «أن تصريح الحكومة البريطانية يعتبر أمراً ذا مغزى غير عادي، فهي الحالة الأولى التي تعلن فيها دولة كبرى رسمياً أن لها علاقة بالصهيونية... ان اعتراف الحكومة البريطانية بالألماني الصهيونية يعتبر حادثاً ذا أهمية تاريخية عالمية، وبصفة خاصة بالنسبة للجنس اليهودي»^(٧٣). وفي ١٩١٧/١٢/٢٣ عقد صهيونيو برلين مؤتمراً أعلن البيان التالي: «الجمعية الصهيونية في برلين ترحب بكل رضا باعتراف الحكومة البريطانية رسمياً بحق الشعب اليهودي في كيان قومي مستمر»^(٧٤).

ويبدو أن الصهيونيين الألمان انتهزوا هذه الفرصة في الضغط على حكومة المانيا حتى تنال الحركة الصهيونية تنازلات تركية لصالح الوجود الصهيوني في فلسطين، إلا ان جهودهم أصابها العقم^(٧٥). فقد تمكن مراسل احدى الصحف اليهودية واسمه جولوس باخر من مقابلة الصدر الاعظم في استنبول. غير أن الصدر الأعظم أحجم عن اصدار بيان يعضد الفكرة الصهيونية، واكتفى بأن تنبأ بمنح بعض الامتيازات للوجود اليهودي في المستقبل.

ورغم عدم اقتناع الصهيونيين الألمان بهذا التغير الذي طرأ على الموقف التركي

من المسألة الصهيونية، إلا ان الصحافة الألمانية اليهودية سارعت بنشر أخبار تصوّر تجاوب الحكومة التركية مع الصهيونيين الألمان^(٧٦). وقد وجدت وزارة الخارجية الألمانية في تصريح الصدر الأعظم (طلعت باشا) المشار اليه سابقا حافزا على الاقتراب من المسألة الصهيونية. ففي ١٩١٨/١/٥ دعي الى وزارة الخارجية وفد صهيوني ضم اثنين من أعضاء اللجنة التنفيذية الصهيونية في برلين، ونفرا من الزعماء اليهود الألمان حيث قرأ عليهم السكرتير الثاني للحكومة الألمانية بيانا عن عزم الألمان على الاهتمام بالمسألة الصهيونية جاء فيه: «أما بالنسبة للألماني اليهودية في فلسطين... فان الحكومة ترحب بالبيان الجديد الذي اعلنه الصدر الأعظم طلعت باشا، معبرا عن عزم الحكومة التركية على التوافق مع وجهة النظر الودية تجاه اليهود التي تبناها دائما من أجل تنمية استقرار يهودي مزدهر غير محدد. بمقدرة الاقاليم، وحكومة ذاتية تتفق مع القوانين المتبعة في فلسطين»^(٧٧). وقد أعلنت الصحافة اليهودية الألمانية ترحيبها بهذا البيان الألماني، غير أن هذه الصيغة كانت هزيلة لا تقف في مقارنة مع ما جاء في تصريح بلفور^(٧٨).

وبعد سقوط القدس بيد الانجليز بدأت السياسة التركية تتخلى عن تحفظاتها، واعلن الصدر الأعظم ان بلاده تحترم الشعب اليهودي وان الاتراك لم يكونوا في يوم من الأيام «لا ساميين». وفي تقرير اعدته المخابرات البريطانية، جاء تعليق على تصريحات طلعت باشا (الصدر الأعظم)، يبيّن أن المقصود بها ان تكون نقطة انطلاق لسياسة التراضي بين تركيا والنمسا والمانيا^(٧٩). والحق أن هذا التحول الذي طرأ على السياسة التركية، شجّع الحكومة الألمانية على القيام بجهود تهدف الى تنظيم اليهود الألمان وتوجيههم بما يحقق مصالح المانيا. فأنشئ في اوائل سنة ١٩١٨ قسم يهودي في وزارة الخارجية الألمانية، عمل به عديد من السياسيين والصحفيين الألمان على أعلى المستويات. يضاف الى ذلك أن الحكومة الألمانية بذلت جهودا كبيرة في تكوين ائتلاف يهودي يضم كافة الجاليات اليهودية في المانيا^(٨٠).

وقد نشر التشكيل الائتلافي اليهودي بيانا صحفياً أشار فيه الى أن المانيا مؤهلة لدعم الحركة الصهيونية، وانها ستساعد على تأسيس مستوطنات يهودية تتمتع

بالحكم الذاتي في اجزاء مختلفة من تركيا الآسيوية، بما فيها فلسطين^(٨١). واستمر الضغط الألماني على الحكومة التركية بهدف الاتصال بالصهيونيين، حتى انتقل وفد من اليهود الألمان يضم عددا من الصهيونيين والمعادين للصهيونية الى استنبول في يوليو ١٩١٨ لمقابلة الصدر الأعظم طلعت باشا حيث جرت بعض المباحثات. ثم أعلن الصدر الأعظم في سبتمبر ١٩١٨ عن تغيرات في السياسة التركية تقوم على انشاء مركز ديني يهودي في فلسطين تحت حماية الترك، وايقاف القيود المفروضة على الهجرة اليهودية وعلى المستوطنات اليهودية في فلسطين. غير أن عزم طلعت باشا على تنفيذ ما أعلن عنه لم يكن عزمًا حقيقيًا، فالأرجح أنه كان يدلي بهذه التصريحات استجابة لضغط الألمان. على أن خروج تركيا من الحرب في اكتوبر ١٩١٨، وضع حدًا للتحرك الألماني في مجال الدعاية المضادة لتصریح بلفور^(٨٢). وطُرد الألمان من الشرق العربي في عام ١٩١٨ وهزم محور استنبول-برلين. ورغم ذلك واصلت الجمعيات الصهيونية نشاطها داخل المانيا وتأسست «اللجنة- اليهودية» لدعم الهجرة اليهودية الى فلسطين^(٨٣). إلا ان جمهورية فايمار التي خلفت النظام الملكي لم تعط تلك الأمور أهمية تذكر بل ركزت جهودها على اعادة بناء المانيا بعد ان انهارت في حرب طويلة مدمرة. لكن جمهورية فايمار لم تضع أية عراقيل امام استمرار الهجرة اليهودية الى فلسطين^(٨٤). وقد اتسمت الفترة بين ١٩١٨-١٩٣٣ بوجود قلاقل داخلية في المانيا حتى جاء النازيون الى الحكم.

هتلر والهجرة الصهيونية الى فلسطين:

يشكل ظهور النازية أحد العوامل التي أثرت على مجرى الأمور في اوربوا والشرق الأوسط والذي يعنينا هنا هو مدى تأثير النازية على قضية هجرة اليهود الى فلسطين. ان هناك القليل مما قيل عن هذا الموضوع، ربما لأن النازية كانت تبدو بصورة ظاهرية وكأنها على طرفي نقيض مع الصهيونية، فلذلك كان من المتوقع ان يشكل ظهور النازية خطرا حقيقيًا على مطامح الصهيونية ومنعها من خلق دولة

يهودية في فلسطين . إلا ان الحقيقة ليست كذلك بل العكس تماما^(٨٥) . ولنبدأ أولاً بموقف هتلر من اليهودية ومن الاجناس لأن ذلك سيساعد على تفهم السياسة الخاطئة لألمانيا النازية في الشرق الأوسط . لقد عاش هتلر مؤسس النازية فترة الحرب العالمية الأولى كجندي، وشهد هزيمة المانيا وتوصل الى الاستنتاج بأن تلك الهزيمة تقع على عاتق اليهودية العالمية واصبح يؤمن بان اليهود هم أصل البلاء للأمة الألمانية، لأن الأمة الألمانية تمثل أفضل عنصر بشري (العنصر الجرمانى الآري) في العالم، أما اليهود فقد اعتبرهم على أنهم مدتسو هذا العنصر الراقى والمسؤولون عن هزيمته في الحرب الكونية الأولى^(٨٦) . وفي ذلك كتب هتلر يقول : « اختارت اليهودية العالمية مجالا لدسائسها وهدفا لمؤامراتها المانيا لأن بلشفة بلادنا، أي تخريب الوجدان القومي الألماني يخضع طاقة أمتنا المنتجة لاشراف المؤسسات المصرفية اليهودية مما يشكل خطوة واسعة نحو اخضاع العالم كله للسيطرة اليهودية... »^(٨٧) .

ان نظرية هتلر النازية العنصرية لا تشمل كراهية اليهود فحسب بل انها تشمل بقية الاجناس، فقد قسم هتلر الاجناس الى أجناس متفوقة وعلى رأسها العنصر الجرمانى الآري والى اجناس منحطة من ضمنها اليهود والعرب^(٨٨) .

تولى هتلر الحكم في المانيا عام ١٩٣٣ وكان همه الأول هو تصفية المعارضة اليسارية وطرد اليهود من المانيا، وذلك طبقا لما قرره في برنامجه السياسي من ضرورة تطهير المانيا من السرطان اليهودي الى الأبد^(٨٩) . ففي نيسان ١٩٣٤ ، أعلن أول القوانين العنصرية ضد اليهود واسمه (قانون اعادة الخدمة المدنية) . وكانت نتيجة هذا القانون تجريد اليهود من مساهمتهم في الحياة التجارية والثقافية والمهنية داخل المانيا^(٩٠) . وتعليقا على ذلك كتب أوسكار يانوفسكي يقول : « في كانون الثاني ١٩٣٣ ، صار الزعماء النازيون الذين طالما اعتبرهم الأشخاص المفكرون عصابة من الديماغوجيين والمنحرفين ، فجأة ، رؤساء محترمين لحكومة عظيمة . والحقيقة أن وضعهم فقط هو الذي تغير . فصفتهم ووسائلهم بقيت كما هي ، وكان على يهود المانيا أن يتكبدوا نتائج حملة الكراهية الديماغوجية التي طالما شنتّ ضدّهم »^(٩١) .

وزاد النازيون من حملات المطاردة ضد اليهود واستطاعوا تعبئة الجماهير الألمانية باسم «اللاسامية»^(٩٤). وقاموا بطرد اليهود من كافة النقابات والجامعات والمدارس والصحافة ووسائل الاتصال الأخرى. وكانت النتيجة الحتمية لحملات العنف النازية ان هاجر اليهود الى امريكا وفلسطين^(٩٥).

ادت الاجراءات النازية الى ازدياد نفوذ الصهيونية بين اليهود في اوروبا. ففي نهاية عام ١٩٣٣ تأسست المنظمة الصهيونية المسماة: "Zentralausschuss der deutschen Juden Fur Hilfe und Aufbau" في المانيا. وكانت لهذه الهيئة ثلاثة أقسام رئيسية تهتم بالهجرة والمعونة الاقتصادية والاعاثة. وقد دعمت حكومة الرايخ الثالث هذه المنظمة في نشاطها لتشجيع هجرة الشبيبة الألمان اليهود الى فلسطين^(٩٦). كما سمح النازيون للمنظمة الصهيونية باقامة المدارس الخاصة لتدريب واعداد المهاجرين اليهود الى فلسطين. وكان الأمر الذي تطلبته الآن المصالح المشتركة للفريقين هو تسريع الهجرة الى فلسطين. ويؤكد الياهو بن اليسار: «لم تجد حكومة هتلر سببا لتخليها عن ارسال مجموعات غير قانونية من المهاجرين اليهود الى فلسطين، ولم يضع جهاز المخابرات الألماني (الجستابو) أي عقبات في طريق الهجرة»^(٩٧).

أصدر هتلر اوامره الى كافة الجهات الألمانية المسؤولة بضرورة تقديم كافة التسهيلات لتشجيع هجرة اليهود الى فلسطين^(٩٨). لقد التقت رغبة النازيين في التخلص من يهود المانيا مع رغبة الصهيين في استقدام اليهود الى فلسطين^(٩٩).

واصل هتلر سياسة تهجير اليهود، ولم يكن ليأخذ فكرة انشاء الوطن القومي اليهودي مأخذ الجد كما يبدو ذلك واضحا في قوله: «بينما تحاول الصهيونية اقناع الجزء الآخر من العالم بان حاجة الوعي القومي لليهود تلبى باقامة دولة فلسطينية يهودية يعمل اليهود على غش الكريم الغبي. انهم لا يفكرون بخلق دولة يهودية في فلسطين من أجل استيطانها، ولكنهم فقط يرغبون بمنظمة مركزية لغشهم العالمي متمتعة بمحاصنات وبعيدين عن هيمنة الآخرين، يريدون ملجأ للمجرمين ومدرسة

لتخريج سفلة المستقبل»^(٩٨). وكان صعود هتلر يشكل خطرا على يهود المانيا بصورة خاصة وعلى يهود اوروبا بصورة عامة. الا ان الصهيونية رأت في صعوده فرصة ذهبية لتحريك افواج اليهود نحو فلسطين. ولهذا عمدت الحركة الصهيونية الى اجراء اتصالات مكثفة مع قادة النازية واستطاعت الحصول على تاييدهم المطلق. لذا كتب الصحفي هاتر هايني : «ان الصهاينة لم يعتبروا توطيد اقدام النازيين في المانيا كارثة قومية، بل اعتبروه امكانية تاريخية مفيدة لتحقيق المقاصد الصهيونية»^(٩٩). ولقد أقام الصهاينة «مكتب فلسطين لتنظيم هجرة اليهود الألمان الى فلسطين» في برلين، واستطاعوا استقطاب الآلاف من الشباب والشابات الذين اعلنوا استعدادهم للذهاب الى فلسطين^(١٠٠). ثم ما لبثت العلاقة بين النازية والصهيونية ان اتخذت شكلا رسميًا في اتفاقية هي الأولى في سلسلة اتفاقيات. وبموجبها وافقت حكومة هتلر على منح اليهود الألمان المهاجرين الى فلسطين فرصة خاصة لنقل رؤوس أموالهم الى الأرض المقدسة (أرض الميعاد). وتعرف هذه الاتفاقية باسم «اتفاقية هعفرا» (بالعبرية نقل/ تحويل). وقد وقّعت الاتفاقية بين الرايخ والوكالة اليهودية لفلسطين. وبفضلها تمكنت الصهيونية من ارسال ملايين الماركات الالمانية الى المستوطنين اليهود في فلسطين كما مكنتهم من شراء آلاف المعدات الالمانية الضرورية للاستيطان^(١٠١). ويؤكد أحد الذين اشتركوا في صياغة الاتفاقية ان هتلر شخصيًا باركها واوعز الى الجهات الألمانية بتنفيذ ما جاء فيها نصًا وروحًا^(١٠٢). وقال هتلر في خطاب له في ٢٤/١١/١٩٣٣ : «ان المانيا بعكس بريطانيا تدعم الهجرة اليهودية الى فلسطين»^(١٠٣). وهكذا ازدادت الهجرة الى فلسطين من المانيا وبولندا ورومانيا كما يبين الجدول التالي^(١٠٤):

القطر	١٩٣٣	١٩٣٤	١٩٣٦	١٩٣٨
المانيا	٣٥٢	٥٣٩٢	٨٦٣٠	٩٧٠٠
بولندا	٣١٠٠	١٣٠٠٠	١٨٠٠٠	٢٧٠٠٠
رومانيا	٥٠٠	(١٤٠٠)	٢٥٠٠	٣٠٠٠

كانت هذه المواقف الألمانية منافية تماماً للدعاية التي بثتها الأجهزة النازية بين العرب من ان المانيا تؤيد القضايا العربية والقضية الفلسطينية بالذات، لأن ذلك التصرف كان قطعاً احد الأسباب التي ادت الى ايجاد الدولة اليهودية في فلسطين .

و حين قامت ثورة ١٩٣٦ في فلسطين طلب الثوار الفلسطينيون السلاح من حكومة هتلر فرفضت ذلك بل انها وقفت ضد أعضاء الجالية الألمانية في فلسطين البالغ عددهم حوالي الفين والذين كانوا ينتمون الى الحزب النازي في فلسطين حينما رغبوا ان يأخذوا جانب العرب نظراً لمخاوفهم من ازدياد النفوذ اليهودي^(١٠٥). وكان موقف الحكومة النازية يتلخص بأنه لا دخل لها في النزاع العربي- اليهودي^(١٠٦).

وقد أوعز هتلر الى الجهات الألمانية في الداخل والخارج بعدم التدخل في النزاع لصالح العرب «لأن ذلك سيؤثر على الهجرة اليهودية من المانيا الى فلسطين»^(١٠٧).

التحولات في السياسة النازية نحو فلسطين :

حتى اواسط ١٩٣٧ بقي هتلر على تأييده المطلق للهجرة اليهودية الى فلسطين . ولم تنشأ الرغبة عنده في تقدير موقفه من جديد الا بعد انتشار أخبار تقسيم فلسطين وخلق دولة يهودية . ذلك ان تقرير اللجنة الملكية البريطانية (بيل) اوضح ان الحل الوحيد لمشكلة اليهود هو تقسيم فلسطين وانشاء دولة يهودية . كان هتلر يرى في انشاء دولة يهودية خطراً على السياسة الألمانية . وقد برز التحول في السياسة الألمانية في وثيقة بعث بها وزير الخارجية الألماني فون نيورات الى سفارات المانيا في لندن وبغداد والقدس .

بيّنت الوثيقة ان علاقة المانيا بشؤون فلسطين كانت حتى ذلك الوقت تتصل باعتبارات السياسة الداخلية وخاصة بموضوع هجرة اليهود من المانيا الى فلسطين . لكن انشاء دولة يهودية في ظل الانتداب البريطاني لن يكون في مصلحة المانيا، لأن الدولة اليهودية لن تستوعب يهود العالم كافة ولكنها ستقيم مركزاً قوياً جديداً لليهودية العالمية في ظل القانون الدولي^(١٠٨). كان من المؤمل أن تغيّر

المانيا هتلرية موقفها من القضية الفلسطينية بحيث يكون ايجابياً وفقا لهذه الوثائق التي عممتها وزارة الخارجية الألمانية على بعثاتها. ولكن الأمر الغريب هو أن الموقف العملي الألماني، بعد تقرير لجنة بيل، أصبح اكثر سلبية من الماضي. فقد رفع رئيس القسم السياسي الخامس في وزارة الخارجية الألمانية والمختص بشؤون الشرق الأوسط تقريرا الى هتلر يبين فيه ضرورة استمرار الهجرة اليهودية الى فلسطين. ووافق هتلر على هذا التقرير واستمرت الهجرة اليهودية بشكل اوسع مما كانت عليه سابقا. وفي تموز ١٩٣٧ صرح مصدر مسؤول في وزارة الداخلية بان هتلر قرر دعم الهجرة اليهودية الى فلسطين بكل الوسائل^(١٠٩). وفي تشرين الأول ١٩٣٧ اعلن وزير خارجية المانيا فون نيورات تايد المانيا لمبدأ التقسيم في فلسطين^(١١٠).

دعم جهاز المخابرات الألماني جهود اليهود في الهجرة وقدم لهم جوازات سفر مزورة. وفي نوفمبر ١٩٣٨ استطاع مكتب الهجرة اليهودية في برلين ارسال الآلاف من اليهود الألمان الى فلسطين وبدعم كامل من حكومة المانيا الهتلرية^(١١١). وقد رفضت حكومة هتلر احتجاجات مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني وقالت له «ان تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين لا يعني بالضرورة قيام دولة يهودية»^(١١٢).

لقد شجعت النازية هجرة اليهود الى فلسطين طمعا منها في الحصول على تايد اليهودية العالمية في صراعها مع اعدائها. ومن ناحية اخرى فقد صمم هتلر ان تكون المانيا نظيفة من اليهود، وهذا ما ساعد الصهيونية على تنفيذ مؤامراتها في احتلال فلسطين وتشريد الشعب الفلسطيني.

ملاحظات

١ - أنظر

Wahlinowski, T Die BRD, Israel and Poland, Warschau 1968, Page 3-15.

٢ - من ابرز هذه الحركات :

حركة التنوير بقيادة موز مندلسون، حركة موسى حاييم مونتفيوري (يهودي ايطالي) حركة موسى هيس (يهودي الماني)، حركة ليون ينسكرك (يهودي روسي)، حركة بيلو، حركة عم عولام أو الشعب الابدئي بقيادة سمولنسكين ثم جمعية احباء صهيون. لقد كتب الكثير حول هذه الحركات. هنا بعض المراجع:

- أ - غسان كنفاني: الاستيطان اليهودي في فلسطين قبل مؤتمر بازل في سويسرا عام ١٨٩٧ في: مجلة آفاق عربية، العدد ٣ صادر في تشرين الثاني ١٩٧٥ .
- ب - حسن صبري الخولي: قضية فلسطين، القيادة العامة للقوات المسلحة- ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي، القاهرة.
- ج - عبد الوهاب كيالي: المطامع الصهيونية التوسعية، مركز الابحاث، بيروت ١٩٦٦ .
- د - محمود كامل: حرب المئة عام في فلسطين، القاهرة ١٩٥١ .

Gotthell, Richard: Zionism, The Jewish Publication Society of America, Philadelphia 1941.

Goodman, Paul and Arthur Lewis: Zionism, Problems and Views, London 1916.

Wolf, Lucein: The Jewish National Movement, Reprinted from the Edinburg Review, April 1917.

Stein, Leonard: Zionism, London 1932.

Andrews, Fannie Feru: The Holy land under Mandate, Boston 1931.

Simon M. Dubnow: Die neueste Geschichte des Judischen Volkes, 1789- 1914 (Berlin 1923)

٣ - أنظر:

Simon M. Dubnow: Die neueste Geschichte des Judischen Volkes, 1789- 1914 (Berlin 1923), pp 203/204

٤ - أنظر:

Louis Sauzin: The Political Thought of Constantin Frantz. London 1955. p. 145.

وانظر كذلك حول أفكار هذا الرجل:

Hans Kohn: The Mind of Germany, the Education of a Nation (New York 1960), Page 276.

- ٥ - أنظر :
Paul de Lagarde: Deutsche Schriften. Gottingen/ Germany 1903, p.34.
- ٦ - أنظر :
Peter Pulzer: The Rise of Political Antisemitism in Germany and Austria, London 1964.
وانظر كذلك :
- ٧ - أنظر :
Richard Lichtheim: Die Geschichte des deutschen Zionismus, Jerusalem 1954, Page 81.
- ٨ - أنظر :
Edmund Wermell: The Origin, Nature and Development of German Nationalist Ideology in the 19th and 20th Centuries, Page 61.
- ٩ - أنظر :
Moses Hess: Rom und Jerusalem, Berlin 1862, hier nach: Isaiah Freidman: Germany, Turkey and Zionism 1897- 1918, Oxford 1977, Page 13.
- ١٠ - أنظر :
Isaiah, Friedman: OP. Cit, Page 16.
- ١٠ - أنظر :
Richard Lichtheim: Die Geschichte des deutschen Zionismus, Jerusalem 1954, Page 37.
وأنظر كذلك :
- ١١ - أنظر :
Nathan Gelber : The Palestine Question and the Congress of Berlin, in: Historia Judaica, New York-April 1940, pp 44-47.
- ١٢ - أنظر :
محمد عبد الرؤوف سليم: تاريخ الحركة الصهيونية الحديثة، القاهرة ١٩٧٤، ص ١٦- ٢٤.
وانظر كذلك : غسان كنفاني : المرجع السابق.
١٢ - تفاصيل حول هذه الجمعيات أنظر :
- ١٣ - أنظر :
Nathan Weinstock: Das Ende Israels?
Berlin 1875, Page 81- 100.
- ١٤ - أنظر :
Friedman, Isaiah: OP. Cit. Page 16.
- ١٥ - أنظر :
Richard Lichtheim: OP. Cit. pp 134-135.
- ١٦ - أنظر :
Lears, Rufus: Israel, A history of the Jewish People, Cleveland 1966, Page 106.
- ١٧ - أنظر :
Theodor Herzl: The Jewish State, New York 1946, Page 92.
- ١٧ - الذي دفع هرتسل لتأليف كتابه هذا هي تلك النظريات التي ذكرها المؤلف الألماني أوجين دورنغ في كتابه « المشكلة اليهودية وخطرها على بقاء وحضارة الشعب الألماني ». فقد ذكر هذا الكاتب ان الجنس اليهودي خطير ومدمر وقدر . اضافة الى ذلك فقد كان هرتسل يعمل بادية الأمر مراسلا لصحيفة « Neue Freie Presse » والتي كانت تصدر في فيينا. وقد استمع الى محاكمة الضابط الفرنسي اليهودي ألفرد درايفوس في باريس حيث كان متهما بالتجسس لحساب المانيا، وقد حكم عليه بالسجن مدى الحياة في ٢٢ / ديسمبر / ١٨٩٤، وجرى من

رتبه العسكرية في ٥/يناير/١٨٩٥، فاعتقد الصهاينة وفي مقدمتهم هرتسل بان درايفوس مظلوم وانه حوكم بشكل غير عادل لأنه يهودي . (للمزيد أنظر :

Roth, Cecil: Short History of the Jewish People, London 1953, pp 410- 411.

أنظر : -١٨

Kastein Josef: History and destiny of the Jews, Trans. From the German, by: Hantleg Paterson, London 1933, Page 442.

أنظر : -١٩

Theodor Herzl: OP. Cit. P. 92.

أنظر : -٢٠

Hannah Arendt: the Jewish State. 50 years after- Where have Herl's politics led? (article in Commentary, Vol. 1, No.7, May 1946).

أنظر : -٢١

Friedman, OP. Cit. P. 53/55.

أنظر التعليقات الموجودة في كتاب هرتسل المترجم للالمانية : -٢٢

Herzl, Theodor: Der Judenstat, Versuch einer modernen Loesung der Judenfrage (1896), in: Gesammelte Zionistische Werke, Bd I, 1933, Page 25.

أنظر تفصيلا حول ذلك في : -٢٣

Hertzberg Arthur: The Zionist Idea. A Historical Analysis and Reader, NewYork 1959, Page 213.

أنظر التفاصيل في : -٢٤

The Complete Diaries of Theodor Herzl, edt. Raphael Patai, NewYork, PP 42- 43.

أنظر : -٢٥

Theodor Herzl: Diaries (Marvin Lowenthal's translation) NewYork 1956.

-٢٦ دعا هرتسل الى عقد المؤتمر الصهيوني الأول في ميونخ جنوب المانيا، لكن اكنية القادة الصهاينة أصروا على عقده في بازل في سويسرا. وعقد هناك بالفعل في ٢٩/اغسطس/١٨٩٧. وترجع فكرة عقد المؤتمر الى اقتراح قدمه اليهودي الالمانى ناتان بيرنباوم. للمزيد أنظر : حسن صبري الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين ورسالة دكتوراه اجيزت في جامعة الأزهر/القاهرة يوليو ١٩٦٧، ص ٦٨. وانظر كذلك : أحمد سويلم العمري : الشرق الأوسط ومشكلة فلسطين، القاهرة، ١٩٦١، ص ٨٩.

-٢٧ استمع المؤتمر الى تقرير قدمه الزعيم الصهيوني ماكس نورودو (رئيس اللجنة التنفيذية) وشرح فيه خطوات المسيرة نحو تحقيق الدولة اليهودية. (انظر : حسن صبري الخولي، المرجع السابق. ص ٦٨).

حول ذلك انظر : -٢٨

Holdheim, G: Der Politische Zionismus, Werden, Wesen, Entwicklung, in: Probleme des Judentums, Heft 4, 1964.

أنظر المزيد في : -٢٩

Wahlinowski, T: OP. Cit, P. 5.

- ٣٠- أنظر المزيد في :
Bein, A: Theodor Herzl, A biography, est. The Jewish Publication Society of America, 1940,
Page 280.
- ٣١- انظر، حسان حلاق : موقف الدولة العثمانية من النشاط الصهيوني الدولي ١٨٩٧-
١٩٠٤ ، في : شئون فلسطينية، العدد ٧٥/٧٤ ، شباط ١٩٧٨ ، ص ١٦٤ .
- ٣٢- تفاصيل ذلك في :
Richard Lichtheim: OP. Cit. Page 126.
- ٣٣- أنظر :
Friedman, OP. Cit. Page 59.
- ٣٤- أنظر :
Friedman, OP. Cit. Page 66.
- ٣٥- أنظر :
Nachlass Eulenburg in the "Bundesarchiv" Koblenz Nr. 52, P 298, (Germany).
- ٣٦- أنظر :
Friedman, OP. Cit. Page 69.
- ٣٧- أنظر :
Friedman, OP. Cit. Page 77.
- ٣٨- أنظر :
Bulow, Bernhard: Memoirs. London 1931, Page 250.
- ٣٩- أنظر : ابراهيم الأسود : الرحلة الأمبراطورية في الممالك العثمانية ، بعدا- لبنان/ المطبعة العثمانية
١٨٩٨ ، ص ١٢٨ .
- ٤٠- أنظر : حسن صبري الخولي : المرجع السابق ، ص ٧٤/٧٣ .
- ٤١- أنظر :
Langer: The Diplomacy of Imperialism, Page 168.
- ٤٢- أنظر المزيد في :
Dauerlein, Ernst: Die juden und die Araber, in: Die Politische Meinuug, Heft 12, Page 61, Bd
12, 1967 (W. Germany).
وأنظر كذلك في :
- ٤٣- أنظر :
Taylor, A.B.: Prelude to Israel, N.Y. 1959, P. 6.
- ٤٤- أنظر :
Skolow, N: Zionism, Problems and Views, London 1916, Page 37.
- ٤٤- أنظر :
Richard lichtheim: Das programm des Zionismus, Berlin 1911, Page 25-42.
- ٤٥- أنظر :
Judische Rundschau, 14. July. 1912.
- ٤٦- أنظر :
Friedman, OP. Cit. P. 154.
- ٤٧- أنظر :
Paul Rohrbach: Deutschland Unter deu Weltvolkern, Berlin 1918, Page 323.
- ٤٨- لغة خليط من العبرية والألمانية- ملاحظات مؤلف البحث .

- ٤٩- أنظر :
- Bodenheimer, Henriette Hannah (edt.), Prelude to Israel, The memoirs of Bodenheimer. London, 1963, PP 233- 235.
- ٥٠- أنظر : حسن صبري الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية ، المرجع السابق ص ٩٩ .
- ٥١- أنظر :
- Bodenheimer, OP. Cit. PP 235- 238.
- ٥٢- أنظر : محمد عبد الرؤوف سليم : تاريخ الحركة الصهيونية الحديثة ١٨٩٧- ١٩١٨ القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١٩٨ .
- ٥٣- أنظر :
- Anita, Engle: The Nili Spies, London 1959, PP 102-107.
- ٥٤- أنظر :
- Anita, Engle: OP. Cit. PP« 164-168.
- ٥٥- أنظر : محمد عبد الرؤوف سليم : تاريخ الحركة الصهيونية الحديثة ١٨٩٧- ١٩١٨
- Andrews, Fannie Fern: The Holy land Under Mandate, Boston 1931, Page 326O 327.
- ٥٧- أنظر :
- British Record office, Cab 24/42- G.T. 3635 Intelligence Bureau Department of Information Section E. Memorandum of the Attitude of Enemy Governments towards Zionism. P.I.
- ٥٨- أنظر :
- Frankfurter Zeitung, Mai. 1917.
- ٥٩- أنظر :
- British Record office, Cab 24/42 G.T. 3635, OP. Cit. P.2.
- ٦٠-
- Dusseldorfer Gevialanzeiger, hier nach: The Times, November. 30, 1914, Page 7.
- ٦١- أنظر :
- Stein, Leonard: The Balfour Declaration, Page 537.
- ٦٢- Ibid, P 538.
- ٦٣- Ibid, P 538.
- ٦٤- أنظر :
- Public Record office, Cab. No. 24/42- G. T. 3635. Intelligence Bureau, Department of Information Section E. "Memorandum of the attitude of Enemy Governments towards Zionism, Page 1.
- ٦٥- أنظر :
- Stein, Leonard, OP. Cit, P. 541.
- ٦٦- أنظر :
- Stein, Leonard, OP. Cit, P. 541.
- ٦٧- أنظر :
- Young, kenneth: Arthur James Balfour, London 1963, Page 390- 391.
- ٦٨- أنظر : محمد عبد الرؤوف سليم ، المرجع السابق ، ص ٣٥٥ .
- ٦٩- أنظر :
- Weizmann, Chaim: Trial and Error, London 1950, Page 238/239.
- ٧٠- أنظر :
- Weizmann, Chaim, OP. Cit, P. 243.

- ٧١- أنظر : Ben Gavriel, M.Y: Israel, Wiedergeburt eines Staates, Munchen 1957, P. 90.
- ٧٢- أنظر : Beickart Hans: Die Entwicklung Palastinas in Staats- und Volkerrechtlicher Hinsicht Vom Ausbruch des I. Weltkrieges bis Aufnahme Israels in die UNO, Frankfurt 1951, Dissertation, P.9.
- ٧٣- أنظر : Judische Rundschau, 16.11.1917.
وقد نشرت ترجمة بالانجليزية لهذا التعليق في ١٦/٢/١٩١٧ في صحيفة :
The Zionist Review:
للمزيد حول ذلك انظر :
- ٧٤- أنظر : Stein. Leonard: OP. Cit, 569-570.
- ٧٥- أنظر : Public Record office, OP. Cit. P.I.
- ٧٦- انظر : Beickart, Hans, OP. Cit.
- ٧٧- صدر البيان الألماني في ١٦/يناير/١٩١٨ ونشر في :
Stein, Leonard: OP. Cit. PP. 602-603.
The Zionist Review, Februar 1918.
- ٧٨- أنظر : Stein, Leonard: OP. Cit. PP 602-603.
- ٧٩- أنظر : Public Record office, Cab. No 24/42. G.T. 3635. OP. Cit. P. 4.
- ٨٠- أنظر : Stein, Leonard: OP. Cit.
- ٨١- :
Deutscher Reich, Feb. 1918.
- عن :
Stein, Leonard: OP. Cit. 604.
- ٨٢- أنظر : Stein, Leonard, OP. Cit. 604.
- ٨٣- أنظر : Carl Ballod: Pro- Palastina Schriften des Deutschen Komitees zur Forderung der judischen Palastina Siedlung, Heft 2, (Palastinaals judisches Ansiedlungsgebiet, Berlin 1918. PP 27-32.
في عام ١٩١٨ ، قام الأستاذ الألماني الصهيوني كارل بالود بتأسيس اللجنة الألمانية اليهودية لدعم الهجرة اليهودية والاستيطان في فلسطين واشترك معه رجال السياسة والمفكرون من أمثال : هانز ديلبروك ، هوبرت أوهاجن ، سومبرت ، وعالم الاجتماع ماكس فيبر .
- ٨٤- أنظر : رسالتنا للدكتوراه حول العلاقات الألمانية العربية والصراع الدولي في فلسطين .
Mohammad Abediseid: Die Deutsch- arabische Beziehungen, probleme und krisen, Regensburg, 1974. PP 20- 32.
- ٨٥- أنظر : سلمان رشيد سلمان : المانيا النازية والقضية الفلسطينية في : شعون فلسطينية رقم ٣١/ آذار ١٩٧٤ ، بيروت ، ص ٩٣ .
- ٨٦- أنظر : Joachim Fest: Hilter. Frankfurt 1975.
- ٨٧- أدولف هتلر : كفاحي (مترجم) بيروت ١٩٧٥ ، ص ٣٤١ .
(٨٨) أنظر :
هتلر : كفاحي - المرجع السابق ص ٣٤٦ .

- ٨٩- أنظر :
- Adolf Hitler: Mein Kampf, Munchen 1925.
- ٩٠- أنظر :
- Christopher Sykes: Cross Roads to Israel, the New English Library, London 1965, Page 143.
- ٩١- أنظر :
- Oscar Janowsky: People at Bay, London 1938, PP 126-127.
- ٩٢- أنظر :
- Wise, J, W: The Nazi Terror, New York 1934, PP 59- 60.
- ٩٣- أنظر :
- Norman Bentwich: The Refugees from Germany, London 1936, Page 30.
- ٩٤- أنظر :
- Norman Bentwich: OP. Cit. PP 142/143.
- ٩٥- أنظر : رسالة الدكتوراه التي قدمها الياهو بن اليسار وهو دكتور في العلوم السياسية ومدبر مكتب رئيس الوزراء الاسرائيلي مناحيم بيغن واول سفير لاسرائيل في مصر .
- Eliahu Ben Elissar: la Diplomatie du 111e Reich et les Juifs (Julliard, 1969) PP 15/16.
- ٩٦- أنظر : فارس غلوب : الصهيونية والنازية/علاقات واتفاقيات في : شعون فلسطينية العدد رقم ٨٤ بتاريخ نوفمبر ١٩٧٨ ، ص ٨٠ .
- ٩٧- أنظر : يوري أيفانوف : احذروا الصهيونية ، موسكو ١٩٧٠ - ص ١٠٨ .
- ٩٨- أنظر :
- Adolf Hitler: Mein Kampf, N.Y. 1939. PP 447- 448.
- ٩٩- أنظر : يوري أيفانوف : احذروا الصهيونية موسكو ، ١٩٧٠ ، ص ١٠٧ .
- ١٠٠- أنظر : يوري أيفانوف : المرجع السابق . ص ١٠٨ .
- ١٠١- تفاصيل اكثر انظر في :
- Raul Hilberg: The Destruction of the European Jews, London 1961, PP 95- 98.
- أنظر تفاصيل الاتفاقية في :
- Documents on German Foreign Policy 1918- 1945, Washington, Washington Series G.I, 661-662.
- ١٠٢- أنظر :
- Ernst Marcus: The German Foreign office and the Palestine Question in the period 1933-1939, Yad Washem Studies on the European Jewish Catastrophy and resistance II, 1958, Page 190.
- ١٠٣- أنظر نص الخطاب كاملا في :
- Norman H. Baynes (ed.): The Speeches of Adolf Hitler, April 1922-August 1939, London, Oxford University press 1942, P.730.
- ١٠٤- قارن مع :
- Melka, R: Nazi Germany and the Palestinian Question, Middle Eastern Studies, Vol.5, oct. 1969, No.3, Page 230. (London).

- ١٠٥- أنظر: لوکا هيرزوير: المانيا الهتلرية والمشرق العربي، ترجمة د. أحمد مصطفى، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨، ص ٣٦.
- ١٠٦- أنظر:
- D.G.F.P. Series D, Vol. V, P. 761, note on Dr. Von Hentig, Head of the Near Eastern Division at the German F.M. to the German Consul in Beirut (1936), Files of the Near Eastern Division VLL, V151, Political Archiv, Bonn/Germany.
- ١٠٧- أنظر:
- Apparently- Heydrch to Himmler, R 58/965, 1937, B.S.H.A. Files, Bundes- Archiv, Koblenz, Germany.
- ١٠٨- أنظر:
- D.G.F.P. (oP. Cit). Series D.V. 746- 747.
- ١٠٩- أنظر:
- D.G.F.P. (oP. Cit) D.V. 784.
- ١١٠- (أنظر:
- John and David Kimche: The Secret Roads, the Illegal Migration of a people (1938- 1948), London 1954, P. 15-44.
- ١١١- أنظر: رسالتنا للدكتوراه، المرجع السابق.

فتح فلسطين وملكيتها بعد الفتح الاسلامي

د. محمد ضيف الله البطاينه
جامعة اليرموك

ترتبط حركة الفتوحات الاسلامية عامة بداعي حمل الاسلام للناس كافة. ويرتبط فتح الشام وفلسطين خاصة بالاعمال العسكرية التي جرت في المنطقة الممتدة بين الحجاز وتخوم الشام في اثناء حياة الرسول عليه السلام في المدينة، وكان لها اكبر الأثر في نشر الاسلام في هذه المنطقة وربطها بالدولة الاسلامية عن طريق التبعية المباشرة او عن طريق الاتفاقات والمعاهدات. ويُظهر مدى فعالية هذه الأعمال العسكرية وجدواها ان البلاد ما بين الحجاز والعربة -صارت في حركة الفتح الاسلامي التي استؤنفت في خلافة ابي بكر، بيد المسلمين بغير حرب ولا قتال^(١). وكانت المعاهدات التي ابرمها الرسول عليه السلام مع بعض التجمعات السكانية المتواجدة في تخوم الشام قد ساعدت على تذليل بعض الصعوبات في اثناء عبور المسلمين الى فلسطين، وكانت معاهدة «ايلة» بما تضمنته من الالتزامات التي قطعها يوحنا بن روية على نفسه حيال المسلمين مفيدة، ووصفت بأنها فتحت الباب الخلفي لفلسطين وسيناء أمام جيوش المسلمين.^(٢)

على ان قضية فتح فلسطين لا تنفصل عن قضية فتح بلاد الشام، لجريان حركة الفتح لهذه البلاد في مجرى واحد.

ويبدو من الروايات العربية ان العزم على فتح بلاد الشام صح عند ابي بكر في السنة الثانية عشرة للهجرة^(٣) وجرى بعث الجيوش الى الشام بعد عودة ابي بكر من الحج للسنة المذكورة في مطلع السنة الثالثة عشرة للهجرة^(٤).

ويتفق موسى بن عقبة^(٥) ت ١٤١ هـ، وابن اسحاق^(٦) ت ١٥٢ هـ، وسيف^(٧) ت ١٨٠ هـ، والواقدي^(٨) ت ٢٠٧ هـ، وخليفة بن خياط^(٩) ت

٢٤٠ هـ في القول ان ابا بكر امر عمرو بن العاص وامره ان يسلك طريق ايلة عامدا لفلسطين وان بقية الجيوش الاسلامية سارت في طريق التبوكية على البلقاء من علياء الشام.

خرجت الجيوش الاسلامية تباعا نظرا للاعداد البشرية المحدودة اول مرة، ثم صار ابو بكر يمدّها بالرجال الذين كانوا يقدون على المدينة المنورة من انحاء الجزيرة العربية،^(١٠) ورواية عمر بن شبه^(١١) ت ٢٦٢ هـ، ورواية محمد بن عبد الله الازدي^(١٢) ت ٢٣١ هـ، ورواية ابي مخنف: ^(١٣) ان يزيد بن ابي سفيان كان اول الامراء الذين خرجوا الى الشام، واعتماداً على رواية الواقدي^(١٤) ورواية ابي مخنف^(١٥) وما رواه البلاذري^(١٦) بسند جمعي: ان يزيد بن ابي سفيان بلغه في اطراف تبوك ان جمعاً للروم في العربية، فوجه اليهم ابا امامة الصدى بن عجلان الباهلي فأوقع بهم وقتل عظيمهم وتبع الفلول وهزمهم ثم رجع الى يزيد.

وبينما كان طريق الجيوش الاسلامية عبر البلقاء شمالاً، لحق عمرو بن العاص على طريق ايلة مجتازاً الى فلسطين، وقد استنفر من مرّ بهم من القبائل العربية للجهاد، واعان من لم يكن منهم قادراً على ذلك.^(١٧)

ويورد نولدكه^(١٨) وميرسون^(١٩) رواية ل تيوفانس^(٢٠) مفادها ان العرب الذين كانوا في مناطق الحدود انحازوا الى المسلمين بسبب ايقاف بيزنطة المساعدات المالية السنوية عنهم فانقلب هؤلاء على بيزنطة وصاروا الى جانب المسلمين.

وفيما يتعلق بهذه الرواية فقد تصحّ بحق الذين كانوا يعملون لقاء اجر معلوم كأدلاء مثلاً ثم عملوا للمسلمين بمثل ذلك، ولكنها لا تصحّ اطلاقاً على جميع القبائل العربية من بلي وعذره ولخم وجذام وغيرها من قبائل قضاة التي كانت تنزل في مناطق الحدود، وكان عامل انتشار الاسلام بينها يمثل الدور الرئيسي في انضمامها الى حركة الفتح الاسلامي.

أما ما يتعلق باختيار المسلمين جنوب فلسطين فيرى ميرسون^(٢١) ان ذلك كان منهم بسبب ضعف دفاعات بيزنطة واهمالها في جنوب فلسطين بعد الغزو

الفارسي لبلاد الشام، خلافا لما كانت عليه منطقة البلقاء، حيث اتخذت بيزنطة فيها بعد الغزو الفارسي سياسة دفاعية لصد المغيرين، ظهرت فعاليتها بعد معركة مؤتة وتحاشاها المسلمون في اثناء خروجهم الى الشام.

ومع اعتبار رأي ميرسون منسجما مع ما عرف عن المسلمين من الوعي والتخطيط في حروبهم واتخاذ الوسيلة الى النصر، فان الروايات العربية تؤكد ان المسلمين في خروجهم الى الشام، ساروا في طريقين كان اولهما عبر البلقاء وكان ثانيهما عبر فلسطين. ثم ان موقف القبائل العربية في تخوم الشام كان تغير لصالح المسلمين في الفترة التالية على معركة مؤتة، بسبب انتشار الاسلام بين هذه القبائل (٢٢).

ولذلك فقد يكون اختيار المسلمين جنوب فلسطين، اضافة الى ما ذكر، عرقله للاتصال البري بين قوات بيزنطة في الشام وقواتها في مصر. وقد يكون هذا من الأسباب التي دعت الى توجيه عمرو بن العاص في فترة تالية من فتح فلسطين، الى مصر، لاشغال القوات البيزنطية في مصر وايقاف امداداتها البحرية الى المدن الساحلية في الشام. فضلا عن ان فتح جنوب فلسطين يعد عملا حيويا في منطقة تجاور شمال الجزيرة العربية وتفاعل فيها بعض الاعتبارات المشتركة بينهما.

وتباين الروايات حول نشاط عمرو بن العاص بعد اجتيازه ايلة الى فلسطين فيذكر البلاذري (٢٣) بسند جمعي ان عمرو بن العاص لما صار الى اول عمل فلسطين كتب الى ابي بكر يعلمه كثرة عدد العدو وعدتهم وسعة ارضهم ونجدة مقاتلتهم. وبينما تتفق رواية سيف (٢٤) وابن اسحاق (٢٥) والواقدي (٢٦) في الخبر عن كثرة جند البيزنطيين الذين ارسلوا لقتال عمرو بن العاص، يذكر سيف ان عمرو بن العاص اتعد مع القادة المسلمين الآخرين على الاجتماع في اليرموك في حين يذكر ابن اسحاق وعمر بن شبه (٢٧) ان عمرو بن العاص نزل في غمر العربات وكتب من هناك الى ابي بكر يعلمه كثرة عدد العدو ويطلب المدد منه، وان اجتماعه بالقادة المسلمين كان في اجنادين. اما الواقدي فيتحدث عن وقوع معركة بين المسلمين وبين مقدمة جيش البيزنطيين في ارض فلسطين.

ويروي ابو حفص الشامي^(٢٨) نقلا عن سعيد بن عبد العزيز^(٢٩) وعن بقية بن الوليد^(٣٠) ان عمرو بن العاص بلغ بعد اجتيازه الى فلسطين، مدينة غزة وفتحها وذلك في خلافة ابي بكر^(٣١). وتتفق في هذا الخبر الرواية العربية والرواية التي يطلق عليها جرجس^(٣٢) «الرواية النصرانية»، حيث يذكر سعيد بن بطريق^(٣٣) ان عسكر المسلمين نزلوا على غزة ومقدمهم عمرو بن العاص، وفتحوها في السنة الثالثة عشرة للهجرة. ويبدو ان موقع غزة^(٣٤) الممتاز في خطوط الاتصال مع ايلة ومصر وباقي مدن فلسطين ومعرفة اهل الحجاز بها لأنها كانت مستطرقا لهم في الجاهلية^(٣٥) كان مما شجع عمرو بن العاص الى ان يعمد اليها ويفتحها.

وقد انتهى ميرسون^(٣٦) في محاولته للتعرف على الطريق الذي اتبعه عمرو بن العاص في سيره الى غزة الى القول بأن عمرو بن العاص بعد ان فتح غزة تراجع الى غمر العربات. وقد يكون، حسب رواية ابن شبة وابن اسحاق وابن عمرو بن العاص، بعدما بلغه مسير خالد بن الوليد- وكان قدم من العراق الى الشام- ويزيد بن ابي سفيان وشرجيل بن حسنة والبي عبيدة نحو فلسطين، بعد فتح بصرى ومآب، أن مددا له سار من غمر العربات ففتح بطريقه غزة والتقى بعدها بجيوش المسلمين في اجنادين- بين الرملة وبيت جبرين- حيث كانت جموع البيزنطيين وصلت اليها. وهناك اشتبك المسلمون مع البيزنطيين وهزمهم ثم اشتبكوا معهم مرة اخرى في فحل وغلبوهم.

ويفيد البلاذري^(٣٧) بالذي أجمع العلماء عليه وهو ان عمرو بن العاص نزل على قيسارية وحاصرها في جمادى الأولى سنة ١٣ هـ. وانه كان يقيم عليها ما اقام فاذا كان للمسلمين اجتماع في امر عدوهم سار اليهم.

والتتبع للروايات العربية يجدها تختلف في زمن وقوع المعارك بين المسلمين والبيزنطيين. ولعل من اسباب ذلك قرب وقوع احداث فتح بلاد الشام بعضها من بعض ودواعي اعادة فتح الأماكن التي كان العدو يلجأ اليها ثانية، ومن شأن هذا الاختلاف ان يجعل وضع تسلسل تاريخي مثبت لهذه المعارك امرا صعبا. ومع هذا فان ابن اسحاق^(٣٨) والواقدي^(٣٩) والازدي^(٤٠) واليعقوبي^(٤١) وابن شهاب

الزهرى^(٤٢) والوليد بن مسلم^(٤٣) يتفقون في ان معركتي اجنادين وفحل كانتا في السنة الثالثة عشرة للهجرة. ويقول الواقدي^(٤٤) ان اهل الشام قاطبة وعامة رواتنا يقولون ان اجنادين كانت قبل فحل، وهذا يشير الى ان اتجاه سير المسلمين في فتح فلسطين كان من الجنوب الى الشمال .

ولكن رواية ابي حفص الدمشقي تذكر ان عمرو بن العاص فتح سبسطية ونابلس ثم فتح مدينة لُد ثم فتح بينا وعمواس وبيت جبرين وفتح يافا ومدينة رفح وقد يفيد هذا التسلسل في فتح هذه المدن الذي تذكره الرواية ان اتجاه المسلمين في فتح فلسطين كان خلافا لما ذكر آنفا. والذي يبدو ان فتح هذه المدن كان بعد معركة اليرموك التي قد تكون حدثت اعتمادا على ما رواه ابن اسحق^(٤٥) والواقدي^(٤٦) وابن الكلبي^(٤٧) وسعيد بن عبد العزيز^(٤٨) واليعقوبي^(٤٩) والليث بن سعد^(٥٠) في السنة الخامسة عشرة للهجرة، وكان البيزنطيون واتباعهم علقوا عليها آمالا كبيرة. وتجراً كثير ممن صالح المسلمين على نقض العهود^(٥١) مما ضاع معه بعض ثمار الفتح الذي احرزه المسلمون قبل معركة اليرموك. لكن نتيجة المعركة كانت شرخا في الوجود البيزنطي في بلاد الشام وتقطعت بسببها قواتهم اشتاتا بين دمشق والقدس وقيسارية^(٥٢) وصار المسلمون بعدها يعملون في ميدانين احدهما شمالي ويضم دمشق وحمص وما والاها، وثانيهما جنوبي ويضم الأردن وفلسطين .

على ان التعاون بين الجند المسلمين ظل قائما من خلال الامارة العامة للجند في الشام واتصالاتها المستمرة مع الامارة في المدينة المنورة، وتحريك الجيوش من بلد الى بلد حسب مقتضيات سير القتال بكامل جندها او ببعضها وجعل البعض الآخر مرابطا في البلاد المفتوحة . وازضافة الى ما ذكره ابو حفص الدمشقي عن المدن التي قام عمرو بن العاص بفتحها فان حديث الروايات التاريخية بعد معركة اليرموك بخصوص حركة الفتح في فلسطين يدور حول فتح بيت المقدس وقيسارية .

ويبدو مما رواه سيف^(٥٣) ان المسلمين كانوا يهاجمون قيسارية والقدس في آن واحد، فبينما كان عمرو بن العاص يحاصر القدس كان معاوية بن ابي سفيان وسعيد بن عامر بن حذيم يحاصران قيسارية^(٥٤) لقطع الاتصال بينها وبين المراكز

الداخلية في فلسطين، وحرمان هذه المراكز من ان تنجدها القوات البيزنطية التي كانت تتركز في قيسارية. ثم قدم ابو عبيدة من الميدان الشمالي، فاشترك مع عمرو في حصار القدس. فلما ضاق حال اهلها طلبوا الأمان والصلح من ابي عبيدة واشترطوا على نحو ما ذكر الازدي^(٥٥) وابن الكلبي^(٥٦) وهشام بن عمار^(٥٧) وابو حفص الدمشقي^(٥٨). ان يكون عمر بن الخطاب المتولي لاجراء العقد معهم، فاخذ ابو عبيدة الموائيق عليهم ثم كتب الى عمر بذلك، فلما قدم عمر الشام ونزل الجابية قدم اليه فيها وفد اهل بيت المقدس فصالحهم على الجزية واعطاهم الأمان وكتب لهم الكتاب سنة ستة عشرة^(٥٩) للهجرة وقيل في غير هذه السنة.

وربما لم يكن عمر قديم الشام لاجراء عقد الصلح مع اهل بيت المقدس وربما لم يكن رئيس الدولة تولى عقد الصلح معهم فقد جرى عقود صلح من قبل ومن بعد لم يذكر فيها مثل هذا الشرط الذي طلبه الذين يئسوا من المطاولة او سئموا طول الحصار. فيذكر الوليد بن مسلم^(٦٠) ان عمر بن الخطاب توجه الى الشام فولاه الله فتح بيت المقدس على صلح، مما يشير الى ان ذلك وقع على غير سابق اتفاق. ويروي القاسم بن سلام عن عبد الله بن صالح^(٦١) عن الليث بن سعد^(٦٢) عن يزيد بن ابي حبيب^(٦٣) ان عمر بن الخطاب بعث خالد بن ثابت الفهمي الى بيت المقدس في جيش وهو يومئذ بالجابية. فقاتلهم فاعطوه على ما احاط به حصنهم شيئا يؤدونه ويكون للمسلمين ما كان خارجا، فقدم عمر فأجاز ذلك. وقد تكون القضايا التي ترتبت على اعمال الفتح ونتائجه ورغبة عمر في مزج نفسه بنفوس جند الشام^(٦٤) من بواعث خروج عمر الى الشام.

وتذكر الروايات بعد ذلك ان عمر بن الخطاب توجه الى القدس فدخلها وصلى بها واقام المسجد^(٦٥).

اما ما اورده ابو جعفر الطبري^(٦٦) من ان رجلا من اليهود قال لعمر بن الخطاب لما قدم الجابية يخبره بان الله سيفتح عليه القدس قبل ان يرجع الى المدينة المنورة فهو من قبيل الاخبار التي تتحدث عن نبوءات المستقبل وتزعم نسبتها الى العلم الذي عند بني يهود. وقد تكشف هذه الرواية رغبة اليهود في فتح المسلمين

لبيت المقدس. وما يعزز ذلك ان بعض الأخبار التاريخية تشير الى تعاون اليهود مع المسلمين ضد البيزنطيين في فتح البلاد، فقد اورد محمد بن سعد عن الواقدي^(٦٧) ان يهوديا دل المسلمين اثناء حصار قيسارية على طريق في سرب فيه الماء الى حقو الرجل، فدخل منه المسلمون وفتحوا المدينة. وجاء برواية هشام بن عمار^(٦٨) عن الوليد بن مسلم ان يهود السامرة بالأردن وفلسطين كانوا عيوناً وادلاء للمسلمين^(٦٩). ولم يكن النبط من اهل البلاد اقل تعاوناً منهم فقد عملوا عيوناً للمسلمين على البيزنطيين وادلاء لهم على طرق البلاد ومسالكتها ورسلا في نقل الاخبار بين الشام والحجاز. واستأنس النصارى بالمسلمين^(٧٠). وجاء في احدى معاهدات الصلح بينهم وبين المسلمين ما يشير الى عزل انفسهم عن البيزنطيين واعتبار البيزنطيين غرباء فذكر الأزدي^(٧١) انهم سألوا المسلمين الصلح ومن كان من الروم ان يلحق بالروم ويخلى البلاد.

وبعد ان فتحت بيت المقدس بقيت مدينة قيسارية تحت الحصار حتى فتحت قسراً عام تسعة عشرة للهجرة في اصح الأقوال^(٧٢)، بينما كان عمرو بن العاص قد سار على رأس جيش لفتح مصر. وكان في طريقه يفتح المدن التي لم تكن فتحت في فلسطين فلما فتحت قيسارية كانت فلسطين فتحت جميعها وصيرت جنداً في عداد أجناد بلاد الشام.

ادى فتح فلسطين وغيرها من بلاد الشام الى ظهور مسألة ملكيتها، اذ كانت الأرض في فلسطين قبل الفتح الاسلامي موزعة بين اراضي عامة تابعة للمدينة والقرى، وارياضي امبراطورية، وارياضي تعود ملكيتها للاشراف والكنيسة وارياضي اخرى يملكها ملاكون احرار^(٧٣). اما وقد ازيل سلطان بيزنطة فقد صارت معظم الاوضاع التي كانت تحتضن اشكال الملكية السائدة في فلسطين الى الزوال.

وفيما يتعلق بالمدن فقد عقدت اتفاقيات صلح مع المسلمين ما خلا قيسارية التي فتحت عنوة. وكانت الاتفاقيات التي كتبت لهذه المدن واحدة، كانت على كتاب مدينة لَد^(٧٤)، وتشبه الكتاب الذي اعطي لاهل بيت المقدس والكتب التي

اعطيت لاهل مدن الشام الاخرى^(٧٥)، وتتضمن جميعها الامان لأهل هذه المدن :
امانا على انفسهم واموالهم وكنائسهم .

ويبدو ان وضع هذه المدن كان مختلفا عنه فيما يتعلق بالأرض ، فرواية يزيد بن ابي حبيب التي حفظها عنه الليث بن سعد وكتبها عن الليث عبد الله بن صالح وذكرها البلاذري عن القاسم بن سلام-تؤكد ان اهل بيت المقدس اعطوا المسلمين شيئا يؤدونه عما احاط به حصنهم وتركوا ما كان خارج حصنهم للمسلمين^(٧٦) . وهذه اشارة الى ان المعاملة كانت مختلفة بين المدينة التي تركت لاهلها بموجب اتفاق الصلح وبين الأرض التي كانت تقع خارج المدينة وصارت ملكا للمسلمين . ويورد القاسم بن سلام ما يفيد ان الاختلاف بين وضع المدن والأرض كان عاما قال : كل مدن الشام كانت صلحا دون ارضها^(٧٧) . واستنادا الى ما ذكره البلاذري^(٧٨) وابن عساكر^(٧٩) أنه كان يستثنى من حيز المدينة في اتفاقية الصلح ، المنازل التي جلا اهلها عنها وفضول الدور فيها واسواقها وموضع لاقامة مسجد جامع بها فكان ذلك يجعل للمسلمين .

اما الأرض فغلب المسلمون عليها ودخلت في سلطانهم وكان، منها ما جلا عنه بعض اهلها وهرب بعض من كان في ايديهم شيء منها، وقتل في المعارك بين المسلمين وبين البيزنطيين آخرون منهم، فاعتبرت وغيرها من الأرض التي كانت معدودة املاكا امبراطورية ارض صوافي للمسلمين، وصار النظر فيها الى الامام^(٨٠) ان شاء اقام فيها من يعمرها ويؤدي الى بيت مال المسلمين عنها شيئا وان شاء انفق عليها من بيت مال المسلمين واستأجر من يقوم فيها ويكون فضلها للمسلمين، وان شاء اقطعها رجلا ممن له غناء عن المسلمين، وان شاء صير عليها عشرا او عشرين او صيرها خراجا . ويبدو ان من أقطع من هذه الأرض رهط تميم بن اوس الداري، اذا صح ان النبي عليه السلام كان اقطع تميما ورهطه^(٨١) . فقد قيل ان تميم بن اوس جاء الى الرسول في عشرة نفر من قومه من الشام منصرف الرسول من تبوك، وقيل قبل ذلك، فاسلموا وطلب تميم من الرسول إن فتح الله عليه الشام ان يهب له بعض جيرته من قرى الروم : حبرى وقيل حبرون وبيت

عينون وقيل بيت عين . فكتب الرسول كتابا له بذلك . فلما فتحت بلاد الشام قيل ان ابا بكر كتب الى ابي عبيدة وقيل الى عمرو بن العاص ان يمنع من الفساد في قرى الدارين، وان كان اهلها قد جلوا عنها واراد الداريون ان يزرعوها فليزرعوها فاذا رجع اليها اهلها فهي لهم .

والذي عليه اغلب الروايات ان الذي نظر في كتاب تميم الداري كان عمر بن الخطاب وانه امضى تميم الداري ما في الكتاب^(٨٢)، وقد تكون هذه الروايات اقرب الى القبول لأنه لم يكن قد تم ظهور المسلمين في خلافة ابي بكر على ارض فلسطين . ويذكر القلقشندي في صبح الأعشى ان بلد الخليل - بيت حبرون - معمور من بني تميم الداري واخوته باقطاعهم بيت حبرون^(٨٣) .

ثم اقطع عثمان بن عفان بعد ذلك من هذه الأرض معاوية بن ابي سفيان عندما كان معاوية واليا على الشام ليقوى على الانفاق على من يقوم عليه من الوفود والرسل . واعطى الخلفاء من بني أمية اشراف الناس منها ممن كان يسألمهم قطائع الأرض^(٨٤) . اما الأرض التي بقي اهلها عليها فقد جعلت بايدي هؤلاء على خراج يؤدونه عنها ولم تقسم هي الأخرى بين الجند الذين فتحوها بل صيرت وقفا على المسلمين .

اثار وقف الأرض المفتوحة وعدم توزيعها بين الغانمين اهتمام الباحثين من مؤرخين وفقهاء، ويبدو ان مثار اهتمامهم كان مردّه في الغالب الى ان هذه الأرض كانت فتحت عنوة، وانها كانت بهذا السبب غنيمة توزع بين الغانمين . اما وقد صيرت حبوسا فقد تناولتها فهم العلماء وتنوعت فيها . الآراء .

كان اذن لا بد ان تكون بداية القضية قد نشأت على اثر فتح البلاد، فقيل ان طائفة من الذين فتحوها سألوا ان تقسم الأرض بين الغانمين^(٨٥)، وطرحت المسألة بين يدي عمر بن الخطاب فشاور فيها وانقسم اهل الشورى بين مؤيد لقسمتها وبين معارض للقسمة داع الى وقف الأرض على المسلمين كافة، وقيل ان عمر بن الخطاب كان على رأس الفريق المعارض للقسمة ووصفته بعض الروايات بانه صاحب الفكرة تبناها وادار الشورى على اساسها .

ومما يلفت النظر هنا ان حكم الغنيمة^(٨٦) واضح لا لبس فيه فلماذا ادير الحديث حول حل آخر للارض المفتوحة؟

ان هذا يدعو الى طرح عدد من الاحتمالات للاجابة عن هذا السؤال: فقد يكون ان الأرض فتحت عنوة حقا وان في فهم المعارضين للقسمة جواز اكثر من حل في الاسلام بحق الغنيمة.

وقد يكون ان الأرض لا تدخل في حساب اموال الغنيمة في فهم المعارضين للقسمة.

وقد يكون في فهم الجميع حل واحد للغنيمة ولكن الاختلاف في الوجه الذي فتحت عليه الأرض: ان كانت فتحت عنوة وكمل ظهور المسلمين عليها وقهرهم للعدو قبل اية اتفاقات معينة او انها فتحت على وجه آخر.

واذا قبلنا الصلة بين عمر بن الخطاب وقرار منع قسمة الأرض بين الغائمين فان الروايات تورط الحجاج والمبررات التي اثارها عمر في وجه معارضيها واتخذها وسيلة لاقناع مخالفيه وسندا لقراره.

وبالجمع بين ما ورد عند ابي يوسف^(٨٧) وابي عبيد^(٨٨) والأزدي^(٨٩) ويحيى بن آدم^(٩٠) وابن عساكر^(٩١) نجد ان عمر كان يقصد في وقف الأرض وعدم قسمتها ايجاد مورد دائم يصرف منه على الجند ويدفع منه العطاء وينفق منه على ادارة مصالح الدولة ويعطى منه المحتاجون الى آخر الزمان^(٩٢).

واضافة الى الأسباب الآنف الذكر، قيل ان عمر استدل على رأيه بآيات الفبيء الواردة في سورة الحشر ابتداء من قوله تعالى: «وما افاء الله على رسوله منهم... الى قوله تعالى: «الذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم» سورة الحشر الآيات (٦-١٠)، وهده تفكيه وفهمه لهذه الآيات الى انها استوعبت المسلمين في عصره ومن يأتي بعدهم الى يوم القيامة وان لهم جميعا حقا في هذه الأرض.

لذلك رأى ان يمتنع عن تقسيمها وجعلها حبوسا بيد اصحابها وضرب عليها الخراج ليكون فيئا دائما للمسلمين .

وعلى هذا فان عمر يكون قد رأى جواز اتباع حل ثان بحق الغنيمة الأرض متدرعاً بالحاجة التي دلت على شرعيتها بالآيات الواردة في سورة الحشر .

وبالرغم من ان الآيات الأنفة الذكر قد شرت في الحديث ، بسبب المال ، المهاجرين والانصار ومن يأتي بعدهم من المسلمين فانه لا اشارة الى جعل المال لهم جميعا ، وقد اطلقت هذه الآيات لفظ «الفىء» على المال الذي تحدثت عنه وذكرت انه لا ايجاف خيل فيه ولا ركاب .

اما الغنيمة فقد وردت بلفظ الغنيمة في سورة الأنفال في قوله تعالى : «واعلموا انما غنمتم فان لله خمسه وللرسول»

وذكر ابو جعفر الطبري في تفسيره^(٩٤) ، عدة روايات حول الأموال التي عنها الله في قوله تعالى : « ما افاء الله على رسوله ... »

ذكر في رواية عكرمة عن مالك بن اوس بن الحدثان ان الأموال المقصودة في هذه الآية هي الجزية والخراج ، واعتمد مالك في مقالته على الفهم الذي قيل ان عمر فهمه من هذه الآيات .

وذكر في رواية يزيد بن رومان التي رواها ابن اسحاق عن يزيد ، ان الاموال هي الغنيمة التي يصيبها المسلمون من اهل الحرب بالقتال عنوة ، غير ان يزيد بن رومان كان يروي عن عبيد الله وسالم ابني عبد الله بن عمر^(٩٥) ، وهذا يشير الى صلة روايته بموقف عمر بن الخطاب الذي قيل من الأرض المفتوحة عنوة .

وذكر في رواية قتادة ان الأموال المعنية هي الغنيمة وان ذلك كان في بدو الاسلام وكانت الغنيمة توزع بين هؤلاء الذين سماهم الله في آية الفىء ثم نسخ ذلك بآية الغنيمة في سورة الأنفال^(٩٦) واعطى الذين سماهم الله في آية الفىء الخمس فقط وجعل باقي الغنيمة بين المقاتلين الذين اوجفوا عليها .

ولذلك لا نقدر ان نقول واثقين ان الفيء المذكور هنا وهو الغنيمة او ان الغنيمة وقف على المسلمين جميعا الى آخر الزمان . وقد جاء في رواية احمد بن حنبل ورواية اسحاق بن راهويه^(٩٧) كلاهما عن عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أيما قرية اتيموها واقمتم فيها فسهمكم فيها، وإيما قرية عصت الله ورسوله فان خمسها لله ورسوله ثم هي لكم»^(٩٨).

★ ★ ★

وهناك من يذكر ان عمر بن الخطاب، في عدم قسمة الأرض المفتوحة بين الغائمين، انما اقتفى الرسول عليه السلام في معاملته لأكيدر دومة الجندل .

روى سيف عن ابي ضمرة عن عبد الله بن المستورد عن محمد بن سيرين قال : «... وانما عمل عمر والمسلمون في هذا الجزاء والذمة على اجريا ما عمل به رسول الله في ذلك، وقد كان بعث خالد بن الوليد من تبوك الى دومة الجندل فأخذها عنوة واخذ ملكها اكيدر بن عبد الملك اسيرا فدعاه الى الذمة والجزاء وقد أخذت بلاده عنوة واخذ اسيرا...»^(٩٩)

ولكن يبدو ان الحال بين دومة الجندل وفتح فلسطين مختلف لما ذكرت الروايات وقالت ان الرسول عليه السلام امر خالد بن الوليد باحضار اكيدر وقال لخالد: انك ستجده يصيد البقر^(١٠٠). وهذا يشير الى ان اكيدر لم يكن في منعة تمكنه من المقاومة خلافا لما وجده المسلمون في فتح فلسطين.

★ ★ ★

وقيل ان النبي عليه السلام وقف نصف خيبر عندما افتتحها، وكان قد افتتحها عنوة وجعل النصف الذي وقفه لنوابه. ويذكر البلاذري الرواية بطرق ثلاثة^(١٠١) ينتهي السند في كل منها الى يحيى بن سعيد عن بشير بن يسار قال :

« ان النبي صلى الله عليه وسلم قسم خيبر على ستة وثلاثين سهما وجعل كل سهم مائة سهم فعزل نصفها لنوابه وما ينزل به وما ينويه من الحقوق ... »

واضافة الى ان بشير بن يسار لم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم وانما ادرك اصحابه^(١٠٢) فان يحيى بن سعيد (ت ٢٠٦ هـ) كان مضعفا ومنكر الحديث ولا يحتاج بمحدثه. وكان يروي الموضوعات عن الثقات^(١٠٣) في حين ان الروايات الأخرى تذكر ان الرسول عليه السلام قسم خيبر غنيمة بين الغانمين^(١٠٤).

★ ★ ★

وهناك بعض الفقهاء الذين قالوا ان الأرض لا تخمس لأنها فيء وليست بغنيمة لأن الغنيمة لا توقف وجعلوا الغنيمة مقصورة على الأموال المنقولة التي يصيبها الجند في ميدان القتال .

ويبدو ان هؤلاء بنوا حكمهم على ما قيل عن فعل عمر بن الخطاب في الأرض المفتوحة عنوة وقولهم خلاف ما ورد عن الرسول عليه السلام انه قسم ارض خيبر بين المقاتلين .

★ ★ ★

وتناول الفقهاء من ائمة المذاهب الحادثة وذكروا الاحكام المتعلقة بالأرض التي افتتحت عنوة وقد اختلفوا فيها .

فقال مالك انها تصير وقفا، وقال ابو حنيفة وسفيان بن سعيد الثوري ان الامام مخير ان يقسمها او يوقفها، وقال احمد بن حنبل اذا كانت الأرض فتحت عنوة فهي لمن قاتل عليها الا ان يكون وقفها من فتحها على المسلمين ، ونجدهم جميعا يحتاجون بفعل عمر بن الخطاب^(١٠٦) .

اما الشافعي فقد انكر ان يكون للارض المفتوحة عنوة حكم غير حكم الغنيمة

وقال بقسمتها طبقا للكتاب والسنة وعارض من يقولون بعدم قسمتها ورأى ان كان عمر منع هذا في شيء من بلاد العنوة فانما استطاب انفس الغائمين كما استطاب النبي انفس من صار في أيديهم سبي هوازن بخنين. واستدل على حصول الاستطابة ان كان عمر وقف الأرض العنوة بما ورد عن استطابته نفس جرير بن عبد الله البجلي وام كرز عوضا عن حقهما فيما نفل به بني بجيلة من ارض السواد في العراق^(١٠٧).

وقال ابن حزم ان الأرض المفتوحة عنوة غنيمة شأنها شأن الأموال الأخرى لأن الله سَوَّى بينها وبين الأموال والديار في قوله تعالى: واورثكم ارضهم وديارهم واموالهم. وقال اما ما ذكر ان عمر وقف الأرض نظرا لآخر المسلمين فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان انظر لأول المسلمين وآخرهم من عمر فما رأى هذا الرأي بل ابقى لآخر المسلمين ما ابقى لأولهم، الجهاد في سبيل الله، فاما الغنيمة واما الشهادة وابقى لهم موارث موتاهم والتجارة والماشية والحراث^(١٠٨).

نجد بعد هذا العرض ان الروايات والآراء الآنفه الذكر قام معظمها على التسليم بأن عمر بن الخطاب وقف الأرض المفتوحة عنوة، ومنها ارض فلسطين، على المسلمين، ومنها ما جعل فعل عمر اساسا بنى عليه احكاما وسنّ منه سننا. ومنها ما جاء لتبوير ما قيل ان عمر فعله بحق الأرض المفتوحة عنوة. لذلك ارى ضرورة اخذ الأخبار التالية بعين الاعتبار في فهم ملكية الأرض المفتوحة عنوة:

اولا : يذكر ابن حزم ان الرواية التي جاءت عن عمر بن الخطاب ليست قوية^(١٠٩).

ثانيا : كان ما اورده الشافعي عن مسألة ملكية الأرض المفتوحة عنوة وموقف عمر بن الخطاب منها يحمل شك الشافعي فيما قيل عن فعل عمر بالأرض العنوة، قال الشافعي: واحسب ان كان عمر صنع هذا في شيء من بلاد العنوة انما استطاب انفس اهلها^(١١٠).

ثالثا : جاء في رواية حارثة بن مضرب^(١١١) ان عمر اراد ان يقسم السواد^(١١٢).

رابعا : جاء في رواية هشام بن عمار الدمشقي^(١١٣) ان عمر بن الخطاب لما قدم الجابية اراد ان يقسم الأرض بين المسلمين^(١١٤).

خامسا : جاء برواية سفيان بن وهب^(١١٥) ان امرء الاجناد بالشام كتبوا الى عمر بن الخطاب ان يقوم بنفسه لقسمة الأموال التي تجمعت، فلما قدم عمر اراد ان يستثني قوم لحم وجذام ولا يشركهم في المال لانهم قوم مقيمون في بلادهم ليسوا مثل بقية المسلمين الذين انفقوا في الظهر وساحوا في البلاد^(١١٦).

والذي يبدو من ذلك كله ان عمر كان يرى قسمة الغنيمة ولا يرى اشراك احد من غير الغانمين فيها.

الا انه يمكن القول بان الشعور العام عند المسلمين كان متجها الى عدم قسمة الأرض والابخار التالية توضح ذلك:

اولا : جاء عند ابي جعفر الطبري بسند جمعي ان سعد بن ابي وقاص كتب الى عمر بن الخطاب وقال: ... وعددنا قليل وقد كثر اهل صلحتنا وان اعمر لنا واوهن لعدونا تألفهم^(١١٧).

ثانيا : ذكر الازدي ان طائفة من الطائفتين من جند الشام قالت باقرار اهل البلاد المفتوحة في الأرض ويكونوا عمّارا لها^(١١٨).

ثالثا : جاء برواية عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان المسلمين فتحوا اليبونة- الفسطاط- قهرا فقال صاحبها لعمرو بن العاص: انه قد بلغنا فعلكم بالشام... واقراركم الأرض في ايدي اهلها يعمرونها ويؤدون خراجها فان فعلتم بنا مثل ذلك كان أردّ عليكم من قتلنا وسبينا واجلائنا. فاستشار عمرو المسلمين فاشاروا عليه بان يفعل ذلك واجازه عمر بن الخطاب^(١١٩).

رابعا : يفهم مما ذكر ابن عساكر^(١٢٠) ان المسلمين تركوا اخذ ما في ايدي

اهل البلاد المفتوحة وقسمهم تألفاً لهم حتى يمنعمهم ذلك عن قتالهم
ومظاهرة اعدائهم من الروم عليهم .

واضافة الى ما سبق فقد يكون لطاعون عمواس دور كبير في ترك الأرض بيد
اهل البلاد المفتوحة يعمرونها تألفاً لهم .

لهذا كله فقد يكون ترك الأرض وعدم قسمتها جاء تلبية للوضع العام الذي
كان يحيط بالمسلمين . الا ان ذلك لا يبدو انه كان خوفاً من ان تصير الأرض بيد
قوم من المسلمين ثم يبيدون فيصير ذلك الى الرجل الواحد او المرأة الواحدة^(١٢١)
لأن هذا التخوف مخالف للواقع، لأن من شأن التوارث ان يوزع الثروة بين الناس
ولا يجمعها في العدد الأقل .

كما ان عدم قسمة الأرض لا يبدو الغاء لقانون الغنائم^(١٢٢)، فان احدا لا يقول
بان الأموال التي كان المسلمون يحرزونها كانت لا تقسم، واما خنيفة الأرض فقد
ارتبطت بوضع عام جعل تألف اهل البلاد المفتوحة بترك الأرض في ايديهم
ومطالبتهم بخراج عنها، مقدما على قسمتها. وكان ادراك هذا الوضع عاما بين
المسلمين فاستجابوا له وهو ما يمكن ان يقوم مقام ما فرضه الشافعي من استطابة
نفوس الغائمين. وما الحكم الشرعي الا علاج لواقع يقتضيه ويتنوع بتنوع الواقع
وعلى ذلك جرى معاملة الأرض في فلسطين: تركت الارض التي بقي اهلها عليها
بأيديهم يعمرونها^(١٢٣) لقاء خراج يؤدونه عنها وجعلت الأرض الصوافي الى نظر
الامام .

- ١ - البلاذري/فتوح البلدان ص ١١٧ دار الكتب العلمية .
- ٢ - Mayerson: Article: The First Muslim Attack on Southern Palestine P. 175.
- ٣ - ابو جعفر الطبري/تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص ٣٨٧ . البسوى/المعرفة والتاريخ المجلد الثالث ص ٢٩١ ، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ج١ ص ١٢٦ .
- ٤ - البلاذري/فتوح البلدان ص ١١٦ .
- ٥ - تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ج١ ص ١٣١ .
- ٦ - الطبري/تاريخ الطبري ج٣ ص ٣٨٧ .
- ٧ - المصدر نفسه ص ٣٩٠ - ٣٩١ .
- ٨ - البلاذري/فتوح البلدان ص ١١٧ دار الكتب العلمية .
- ٢ - Mayeraen: Article: The First Muslim Attack on Southern Palestine P. 175.
- ٣ - ابو جعفر الطبري/تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص ٣٨٧ . البسوى/المعرفة والتاريخ المجلد الثالث ص ٢٩١ ، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ج١ ص ١٢٦ .
- ٤ - البلاذري/فتوح البلدان ص ١١٦ .
- ٥ - تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ج١ ص ١٣١ .
- ٦ - الطبري/تاريخ الطبري ج٣ ص ٣٨٧ .
- ٧ - المصدر نفسه ص ٣٩٠ - ٣٩١ .
- ٨ - الواقدي/فتوح الشام ص ٩ مخطوط ايا صوفية ٣٣٢٩/السليمانية/استانبول . البلاذري/فتوح البلدان ص ١١٦ .
- ٩ - خليفة بن خياط/تاريخ خليفة بن خياط ص ١١٩ .
- ١٠ - الواقدي/فتوح الشام مخطوط ص ٣-٤ .
- ١١ - الطبري/تاريخ الطبري ج٣ ص ٣٨٧ .
- ١٢ - الازدي/فتوح الشام ص ٥ مخطوط ايا صوفية ٣٣٢٦/السليمانية- استانبول .
- ١٣ - البلاذري/فتوح البلدان ص ١١٦ وانظر كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٣٩ .
- ١٤ - الواقدي/فتوح الشام ص ٤-٦ مخطوط .
- ١٥ - البلاذري/ فتوح البلدان ص ١١٧ .
- ١٦ - المصدر نفسه .
- ١٧ - الواقدي/فتوح الشام مخطوط ص ١١ ، ابن عساكر تهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ١٣٠ .
- ١٨ - نولدكه/امراء غسان ص ٤٩ .

Mayerson: Atricle: The First Muslim Attack on Southern P 157, 175, ٢١ ، ١٩
193, 198.

٢٠ - تيوفانس: راهب ومؤرخ حوليات يوناني عاش في الفترة ٧٥٨-٨١٨ م وشملت حولياته
الفترة الزمنية ٢٨٩م-٨١٣م، انظر:

Webster's Biographical Dictionary

٢٢ - بعث فورة بن عمرو بن النافرة الجذامي عامل الروم على العرب في منطقة معان، هدية الى
الرسول واعلن اسلامه فلما بلغ الروم اسلامه طلبوه حتى اخذوه فحبسوه وارادوه على الرجوع
عن الاسلام فاي فضربوا عنقه.

انظر : ابن هشام/السيرة النبوية ج ٤ ص ٢٣٧-٢٣٨

ابن سعد/الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٥٥،

اليقوي/تاريخ اليقوي ج ٢ ص ٧٩.

النويري/نهاية الأرب ج ١٨ ص ٢٩.

٢٣ - البلاذري/فتوح البلدان ص ١١٧.

٢٤، ٢٥ ابو جعفر الطبري/تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٣٩١-٣٩٣

٢٦ - الواقدي/فتوح البلدان ص ١١ مخطوط.

٢٧ - ابو جعفر الطبري/تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٤١٩.

٢٨ - ابو حفص الشامي: يظن انه عمر الدمشقي/انظر ابن حجر العسقلاني تهذيب التهذيب.

٢٩ - سعيد بن عبد العزيز: دمشقي سمع مكحولاً والزهرى وروى عنه الثوري ومات سنة ١٦٧ هـ
وهو ثقة. انظر البخاري/التاريخ الكبير.

٣٠ - بقية بن الوليد: حمصي سمع ابن المبارك وروى عنه الأوزاعي مات سنة ١٩٧ هـ وهو ثقة.
انظر ابن عساكر/تهذيب تاريخ دمشق.

٣١ - البلاذري/فتوح البلدان ص ١٤٤.

البقاعي/اخبار الجلائد في فتح البلاد مخطوط ص ٥٦.

٣٢ - جرجيس بن العميد صاحب كتاب تاريخ المسلمين. انظر ص ١٩-٢٠ من كتابه.

٣٣ - سعيد بن بطريق/التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٠-١١.

٣٤ - Mayerson Article: The First Muslim Attack on Southern Palestine P. 163.

٣٥ - ابراهيم الاصطخري الكرخي/المسالك والممالك ص ٤٤.

ابن حوقل/صورة الأرض ص ١٥٩.

٣٦ - Mayerson: Article: The First Muslim Attack on Southern Palestine P.

199.

٣٧ - البلاذري/فتوح البلدان ص ١٤٦.

- ٣٨ - خليفة بن خياط/تاريخ خليفة ص ١١٩ .
- ٣٩ - الواقدي/فتوح الشام مخطوط ص ٤٨ .
- ٤٠ - الأزدي/فتوح الشام مخطوط ص ٢٩ .
- ٤١ - يعقوبي/تاريخ يعقوبي ج٢ ص ١٣٤ .
- ٤٢ - البسوي/المعرفة والتاريخ مجلد ثالث ص ٢٩٣-٢٩٦ .
- ابن عساكر/تهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ١٤٤ .
- ٤٣ - ابن عساكر/تهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ١٤٥ .
- والوليد بن مسلم دمشقي وعالم اهل الشام كان عاقلا وعنده علم كثير مات سنة ١٩٥ هـ .
انظر : الذهبي/ميزان الاعتدال في نقد الرجال .
- ٤٤ - ابن عساكر/تهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ١٤٥ .
- ٤٥ ، ٤٦ ابو جعفر الطبري/ تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص ٤٤١ ، ٥٧٠ - ٥٧١ .
- ٤٧ - خليفة بن خياط/تاريخ خليفة ص ١٣٠ .
- ٤٨ - ابن عساكر/تهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ١٤٧ .
- ٤٩ - يعقوبي/تاريخ يعقوبي ج٢ ص ١٤١ .
- ٥٠ - ابن عساكر/تهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ١٦٠ .
- ٥١ - الأزدي/فتوح الشام ص ٥٤-٥٦ مخطوط .
- البقاعي/اخبار الجلال في فتح البلاد ص ٨٨ مخطوط .
- ٥٢ - البلاذري/فتوح البلدان ص ١٤١ .
- سعيد بن بطريق/التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق .
- ٥٣ - ابو جعفر الطبري/تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص ٦٠٤ .
- ٥٤ - خليفة بن خياط/تاريخ خليفة ص ١٤١ .
- ٥٥ - الأزدي/فتوح الشام مخطوط ص ٨٣ .
- ٥٦ - خليفة بن خياط/تاريخ خديفة ص ١٣٥ .
- ٥٧ ، ٥٨ البلاذري/فتوح البلدان ص ١٤٤ ، ١٤٥ .
- ٥٩ - يعقوبي/تاريخ يعقوبي ج٢ ص ١٤٧ .
- ابن عساكر/تهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ١٤٧ .

- ٦٠- ابن عساكر/تهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ١٤٧ .
- ٦١- عبدالله بن صالح: ابو صالح المصري/كاتب الليث بن سعد استشهد به البخاري في الصحيح ثقة ولد سنة ١٧٣ هـ وتوفي سنة ٢٢٢ هـ، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني .
- ٦٢- الليث بن سعد: ثقة، ثبت، فقيه مات سنة ٢٧٥ هـ، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني .
- ٦٣- يزيد بن ابي حبيب: مفتي اهل مصر ثقة ولد سنة ٥٣ هـ ومات سنة ١٢٨ هـ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني .
- ٦٤- انظر رواية السائب بن مهجان وكان محمد شهد خطبة عمر بالجالية .
- ابن عساكر/تهذيب تاريخ دمشق ج٦ ص ٦٢ .
- ٦٥- ابو جعفر الطبري/تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص ٦١١ .
- ابن عساكر/تهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ١٧٧ .
- ٦٦- ابو جعفر الطبري/ تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص ٦٠٧ .
- ٦٧- البلاذري/فتوح البلدان ص ١٤٧ .
- ٦٨- هشام بن عمار: ابو الوليد الدمشقي خطيب المسجد الجامع بها روى عنه البخاري وابو داود والنسائي وابو عبيد القاسم بن سلام، ثقة ولد سنة ١٥٣ هـ ومات بدمشق سنة ٢٤٠ هـ .
- تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني .
- ٦٩- البلاذري/فتوح البلدان ص ١٦٢-١٦٣ .
- ٧٠- انظر: Arnold: The Preaching of Islam P: 47, 54,5
- ٧١- الأزدي/فتوح الشام/مخطوط ص ٤٦ .
- ٧٢- البلاذري/فتوح البلدان ص ١٤٨ .
- ٧٣- دينيل دينيت/الجزية والاسلام ص ٩٣-١٠١ ترجمة فوزي فهمي جاد الله .
- ٧٤- ابو جعفر الطبري/تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص ٦٠٩ .
- ٧٥- انظر: البلاذري/فتوح البلدان- الصفحات ١٢٨، ١٣٧، ١٣٨، ١٧٨، ١٧٩ .
- ابو جعفر الطبري/تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص ٦٠٨-٦٠٩ .
- دينيل دينيت/الجزية والاسلام ص ١١٠-١١١ .
- ٧٦- البلاذري/فتوح البلدان ص ١٤٤-١٤٥ .
- ٧٧- ابن عساكر/تهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ١٥٨ .
- ٧٨- البلاذري/فتوح البلدان ص ١٢٣ .

- ٧٩- ابن عساكر/تهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص ١٨٠ .
- ٨٠- ابو يوسف/الخراج ص ٥٧-٥٨ .
- وانظر : دينيل دينيت/الجزية والاسلام ص ٥٩ .
- الدوري/مقدمة في التاريخ الاقتصادي ص ٢٧ .
- ٨١- فقد جاء حول تميم كثير من الاخبار منها :
- ان تميم بن اوس كان نصرانيا يعمل بالتجارة وخرج معه في بعض تجارته مولى للعاص بن وائل السهمي وحدث ان مات مولى العاص فاعاد تميم متاعه الى اهله ففقد اهله بعض متاعه وكان جاما من فضه فانكره تميم ثم اعترف به فقال له النبي : ويحك يا تميم ، اسلم يتجاوز الله عنك ما كان في شركك فاسلم تميم وحسن اسلامه وقيل ان تميم بن اوس لم يزل في المدينة حتى تحول الى الشام بعد مقتل عثمان وتوفي بالشام .
- ابن عساكر/تاريخ دمشق ج ١٠ الصفحات ٤٦٠ - ٤٨١ . تحقيق محمد احمد دهمان/مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق .
- وجاء في سيرة ابن هشام ان رهط تميم الداري ساروا الى الرسول من الشام واوصى لهم من خبير .
- ابن هشام/السيرة النبوية ج ٣ ص ٣٦٨ .
- ٨٢- البلاذري/تاريخ البلدان ص ١٣٥ .
- ابن عساكر/تاريخ دمشق ج ١٠ الصفحات ٤٦٣ - ٤٨٠ تحقيق محمد احمد دهمان .
- ٨٣- القلقشندي/صبح الاعشى ج ١ ص ٣٣٥ .
- ٨٤- ابن عساكر/تهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص ١٨٤ .
- ٨٥- ابو يوسف/الخراج ص ٢٦ ، الأزدي/فتوح الشام مخطوط ص ٤٧ .
- ابو عبيد القاسم بن سلام/الاموال ص ٨١ .
- ٨٦- قال تعالى : «واعلموا انما غنمتم فان لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير» .
- وقد جعلها الرسول عليه السلام على خمسة اسهم : سهم لمن سمي الله في هذه الآية واربعة اسهم قسمها بين من حضرها من المجاهدين .
- ٨٧- ابو يوسف/الخراج ص ٢٤ - ٢٦ .
- ٨٨- ابو عبيدة/الاموال ص ٨٠ - ٨٧ .
- ٨٩- الأزدي/فتوح الشام مخطوط ص ٤٧ .
- ٩٠- يحيى بن ادم/الخراج ص ٢٧ .
- ٩١- ابن عساكر/تهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص ١٨٣ .
- ٩٢- جاء عند ابي يوسف في كتاب الخراج :

قال عمر لمن اراد قسمة الأرض: اذن اترك من بعدكم من المسلمين لا شيء لهم ... فكيف
 بمن يأتي من المسلمين فيجدون الارض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ...
 فاذا قسمت ارض العراق بعلوجها وارض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور- وما يكون للذرية
 والارامل بهذه البلد وبغيره من ارض الشام والعراق ... ارايتم هذه المدن العظام لا بد لها من ان
 تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم، ارايتم هذه الثغور- لا بد لها من رجال يلزمونها.
 الصفحات ٢٤-٢٦ .

٩٣- الآيات هي: «وما افاء الله على رسوله منهم فما اوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله
 يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير . ما افاء الله على رسوله من اهل القرى
 فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء
 منكم وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب . للفقراء
 المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله
 ورسوله اولئك هم الصادقون . والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا
 يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح
 نفسه فاولئك هم المفلحون . والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين
 سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين امنوا ربنا انك رؤوف رحيم» .

٩٤- انظر تفسير ابي جعفر الطبري/سورة الحشر- آيات الفئ .

٩٥- انظر ابن حجر العسقلاني/تهذيب التهذيب- ترجمة يزيد بن رومان .

٩٦- لكن ورد ان آية الفئ وآية الغنيمة محكمتان :

انظر : يحيى بن آدم/الخارج ص ٢١ .

وابن قدامة/المغنى ج ٢ ص ٥٨٣ .

وان آية الغنيمة نسخت آية الانفال . انظر :

محمد بن الحسن الشيباني/السير الكبير ج ٢ ص ٥٩٨ .

وابن هشام/السيرة النبوية ج ٢ ص ٣٢٧ .

الماوردي/الاحكام السلطانية ص ١٣٩ .

٩٧- اسحاق بن راهوية : وهو اسحاق بن ابراهيم من حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ولقبه
 راهوية . لقبه المراوزه به لأنه ولد في الطريق . (١٦١ - ٢٣٨ هـ) . احد الائمة من سادات
 اهل زمانه فقها وعلمنا ثقة ومأمون روى عنه خلق كثير منهم : مسلم بن الحجاج النيسابوري
 والبخاري وابو داود والترمذي والنسائي واحمد بن حنبل ويحيى بن آدم ويحيى بن معين .

انظر : ابن حجر/تهذيب التهذيب . الخطيب البغدادي/تاريخ بغداد، تاج الدين
 السبكي/طبقات الشافعية . ابن خلكان/وفيات الاعيان .

٩٨- صحيح مسلم/باب حكم الفئ .

وانظر ابن حزم/المحلى ج ٤ ص ٣٤٤ .

- وتفسير أبي جعفر الطبري/سورة الحشر .
- ٩٩- أبو جعفر الطبري/تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٥٨٨ .
- ١٠٠- ابن هشام/السيرة النبوية ج ٤ ص ١٧٠ .
- ١٠١- أبو جعفر الطبري/تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ١٠٨-١٠٩ .
- ١٠١- البلاذري/فتوح البلدان ص ٣٨-٣٩ .
- ١٠٢- ابن حجر العسقلاني/تهذيب التهذيب ترجمة بشير بن يسار .
- ١٠٣- ابن حجر العسقلاني/تهذيب التهذيب ترجمة يحيى بن سعيد .
- ١٠٤- انظر بشأن هذه الروايات البلاذري/فتوح البلدان الصفحات ٣٦-٤٢ .
- ١٠٥- يحيى بن آدم/الخراج ص ٢٠، ٢٧ .
- ١٠٦- أبو عبيدة القاسم بن سلام/الأموال ص ٧٢-٧٩ .
- الماوردي/الأحكام السلطانية ص ١٣٧ .
- ١٣١-١٣٠- أبو يعلى الفراء/الأحكام السلطانية ص ١٣٠-١٣١ .
- الخطيب البغدادي/تاريخ بغداد ج ١ ص ٩ .
- ١٠٧- الشافعي/الام ج ٢ ص ٨١، ١٠٣ .
- ٨٧-٨٨- أبو عبيد القاسم بن سلام/الأموال ص ٨٧-٨٨ .
- ١٠٨- ابن حزم/المحلى ج ٤ ص ٣٤٤ .
- ١٠٩- ابن حزم/المحلى ج ٤ ص ٣٤٤ .
- ١١٠- الشافعي/الأم ج ٤ ص ١٠٣ .
- ١١١- حارثة بن مضرب العبدي الكوفي روى عن عمر وعلي وابن مسعود . ثقة وحسن الحديث .
- انظر ابن حجر العسقلاني/تهذيب التهذيب .
- ١١٢- أبو عبيد القاسم بن سلام/الأموال ص ٨٣ .
- الخطيب البغدادي/تاريخ بغداد ج ١ ص ٨ .
- ١١٣- وسند الرواية هو : هشام بن عمار الدمشقي عن يحيى بن حمزة عن تميم بن عطية العنسي عن عبد الله بن قيس الهمداني : اما هشام فقد مرّ التعريف بدواما يحيى بن حمزة الدمشقي كان قاضيا من بيت لها وهو ثقة . واما تميم بن عطية الشامي الدار فهو ثقة ومعروف واما عبد الله بن قيس فكان محمد شهد خطبة عمر بالجباية وهو ثقة .
- ١١٤- أبو عبيد القاسم بن سلام/الأموال ص ٨٣-٨٤ .
- ابن قدامة/المغنى ج ٢ ص ٥٨٠ .
- ١١٥- سفيان بن وهب الخولاني له صحبه وفد على النبي وشهد فتح مصر ومات عام ٨٢ هـ هو ثقة .
- ١١٦- ابن عساكر/تهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص ١٧٦ .
- ١١٧- أبو جعفر الطبري/تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٥٨٥ .

- ١١٨ - الأزدى/فتوح الشام مخطوط ص ٤٧ .
١١٩ - البلاذري/فتوح البلدان ص ٢١٦ .
١٢٠ - ابن عساكر/مهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص ١٨٣ .
١٢١ - انظر: القاسم بن سلام/الاموال ص ٨٣ - ٨٤ .
ابن قدامة/المغنى ج ٢ ص ٥٨٠ .
١٢٢ - انظر يوليوس فلهوزن/تاريخ الدولة العربية ص ٣٢ .
١٢٣ - انظر البلاذري/فتوح البلدان ص ١٤٤ .

مصادر البحث ومراجعته

أ - العربية

- ١ - ابن آدم : يحيى بن ادم القرشي . ت ٢٠٣ هـ . كتاب الخراج : المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٧ هـ ، تحقيق احمد محمد شاكر .
- ٢ - ابن بطريق : البطريرك افثيشيوس المكنى سعيد بن بطريق ت ٣٢٨ هـ . كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق : مطبعة الآباء اليسوعيين ١٩٠٩ . بيروت ويلييه تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي .
- ٣ - ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين احمد بن علي بن حجر . ت ٨٥٣ هـ . تهذيب التهذيب : دار صادر بيروت . طبعه بالافست عن طبعة مطبعة دائرة المعارف/الهند- الطبعة الاولى ١٣٢٥ هـ .
(أ)
(ب) الاصابة في تمييز الصحابة : دار صادر بيروت . طبعه بالافست عن طبعة مطبعة دار السعادة بالقاهرة- الطبعة الاولى سنة ١٣٢٨ هـ .
- ٤ - ابن حزم : ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم ت ٤٥٦ هـ . المحلى : المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر- بيروت .
- ٥ - ابن حوقل : ابو القاسم بن حوقل النصيبي ت ٣٦٧ هـ . كتاب صورة الأرض : منشورات دار مكتبة الحياة/بيروت .
- ٦ - ابن خلكان : ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر . ت ٦٨١ هـ . وفيات الاعيان : دار صادر بيروت . تحقيق احسان عباس ١٩٦٨ .
- ٧ - ابن سعد : محمد بن سعد ت ٢٣٠ هـ . الطبقات الكبرى : دار صادر بيروت ، ١٩٦٠ .
- ٨ - ابن سلام : ابو عبيد القاسم بن سلام . ت ٢٢٤ هـ . كتاب الأموال : تحقيق محمد خليل فراس . نشر مكتبة الكليات الازهرية .
- ٩ - ابن عساكر : علي بن الحسن بن هبة الله ت ٥٧١ هـ . تاريخ دمشق الجزء العاشر : مطبوعات المجمع العلمي العربي/دمشق (أ) تحقيق محمد احمد دهمان .

- (ب) تهذيب تاريخ دمشق: تهذيب عبدالقادر بدران. دار السيرة/بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٩ .
- ١٠ - ابن قدامة : موفق الدين بن قدامة ت ٦٣٠ هـ .
- المغني: دار الكتاب العربي بيروت/لبنان ١٩٧٢ م . ومعه الشرح الكبير/شمس الدين ابن ابي عمر بن قدامة المقدسي ت ٦٨٢ هـ .
- ١١ - ابن هشام : عبد الملك بن هشام الحسيبي ت ٢١٨ هـ .
- السيرة النبوية: دار احياء التراث العربي/بيروت. طبعة ثالثة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م . تحقيق السقا، الاياري، شلبي .
- ١٢ - ابو عبيد : القاسم بن سلام ت ٢٢٤ هـ . الأموال: نشر مكتبة الكليات الازهرية الطبعة الأولى ١٩٦٨ . تحقيق محمد خليل هراس .
- ١٣ - البخاري : اسماعيل بن ابراهيم ٢٥٦ هـ . التاريخ الكبير: دار الكتب العلمية طبعة بالافست عن طبعة حيدر اباد سنة ١٣٦٢ هـ .
- ١٤ - البسوى : يعقوب بن سفيان البسوي ت ٢٧٧ هـ . المعرفة والتاريخ- مطبعة الارشاد/بغداد ١٩٧٤ . تحقيق اكرم العمري .
- ١٥ - البغدادي : ابو بكر احمد بن علي الخطيب. تاريخ بغداد: مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة بالقاهرة/ الطبعة الأولى ١٩٣١ م .
- ١٦ - البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر البلاذري ت ٢٧٩ هـ . فتوح البلدان: دار الكتب العلمية . بيروت- لبنان . مراجعة رضوان محمد رضوان .
- ١٧ - جرجس : جرجس بن العميد ابو العامر بن ابي المكارم . تاريخ المسلمين من صاحب شريعة الاسلام محمد الى الدولة الاتابكية . نسخة مطبوعة وموجودة في مكتبة السلিমانيّة/استانبول برقم ٢١٧٣ .
- ١٨ - خليفة : خليفة بن خياط ت ٢٤٠ هـ . تاريخ خليفة بن خياط: تحقيق د . اكرم ضياء العمري . مؤسسة الرسالة بيروت/ دار القلم دمشق وبيروت .
- ١٩ - الدوري : عبد العزيز الدوري . مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي . دار الطليعة بيروت . الطبعة الأولى ١٩٦٩ .
- ٢٠ - الذهبي : محمد بن احمد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ . ميزان الاعتدال في نقد الرجال دار المعرفة- بيروت . تحقيق علي البجاوي ١٩٦٣ .
- ٢١ - الرئيس : محمد ضياء الدين الرئيس . الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية: دار الانصار/القاهرة . الطبعة الرابعة ١٩٧٧ م .
- ٢٢ - السبكي : تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي ت ٧٧١ . طبقات الشافعية: مطبعة الباني الحلبي- القاهرة . الطبعة الأولى/١٩٦٤ .

- ٢٣ - الشافعي : ابو عبدالله محمد بن ادريس الشافعي ت ٢٠٤ هـ . كتاب الام : مطبوعات دار الشعب . القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
- ٢٤ - الشيباني : محمد بن الحسن الشيباني ت ١٨٩ هـ . شرح السير الكبير : مطبعة شركة الاعلانات الشرقية ١٩٧١ م . تحقيق صلاح الدين المنجد .
- ٢٥ - الصنعاني : الحافظ الكبير عبد الرزاق بن همام الصنعاني ١٢٩ هـ - ٢١١ هـ . المصنف : تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي منشورات المجلس العربي .
- ٢٦ - الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ٢٢٤ - ٣١٠ هـ . تاريخ الرسل والملوك تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم . دار المعارف بمصر .
- ٢٧ - الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ٢٢٤ - ٣١٠ هـ . جامع البيان في تفسير القرآن . دار المعرفة للطباعة والنشر/بيروت .
- ٢٨ - الفراء : ابو يعلى محمد بن الحسين ت ٤٥٨ هـ . الاحكام السلطانية : مطبعة البابي الحلبي/القاهرة ١٣٥٧ هـ .
- ٢٩ - القلقشندي : ابو العباس احمد بن علي القلقشندي ت ٨٣١ هـ . صبح الاعشى في صناعة الانشاء : نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية . وزارة الثقافة والارشاد القومي . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .
- ٣٠ - الكرخي : ابن اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الاضطخري المعروف بالكرخي توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري . المسالك والممالك : تحقيق د . محمد جابر عبد العال الحسين . مراجعة محمد شفيق غربال ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م دار العلم .
- ٣١ - الماوردي : ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب ت ٤٥٠ هـ . الاحكام السلطانية : مطبعة البابي الحلبي/القاهرة . المطبعة الثالثة ١٩٧٣ م .
- ٣٢ - الامام مسلم : ابي الحسين مسلم بن الحجاج بن الحجاج القشيري النيسابوري ٣٦١ هـ . الجامع الصحيح : مؤسسة الطباعة لدار التحرير للطبع والنشر مصورة عن مطبعة استانبول المحققة المطبوعة سنة ١٣٢٩ هـ . القاهرة سنة ١٣٨٤ .
- ٣٣ - النويري : شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري ت ٧٢٣ هـ . نهاية الارب في فنون الأدب . نسخة مصورة عن مطبعة دار الكتب . المؤسسة المصرية العامة .
- ٣٤ - اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح . ت ٢٨٤ هـ . تاريخ اليعقوبي : ١٣٧٩ هـ ، ١٩٦٠ م دار صادر ، دار بيروت .

- ٣٥ - ياقوت : شهاب الدين ياقوت الحموي الرومي . ت ٦٢٦ هـ . معجم البلدان : دار صادر للطباعة والنشر/بيروت ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م .

ب- المعربة

- ٣٦- دينيت : دانييل دينيت . الجزية والاسلام : دار مكتبة الحياة/بيروت . ترجمة فوزي جاد الله ١٩٦٠ م .
- ٣٧- نولدكة : ثيودور نولدكة . امراء غسان : المطبعة الكاثوليكية/بيروت ١٩٣٣ . ترجمة بندلي جوزي قسطنطين زريق .

ج- المخطوطة

- ٣٨- الازدي : محمد بن عبد الله الازدي . ت ٢٣١ هـ . فتوح الشام : مخطوط ايا صوفية ٣٣٢٦ السليمانية/استانبول .
- ٣٩- البقاعي : برهان الدين البقاعي ت ٨٨٥ هـ . اخبار الجلال في فتح البلاد : مخطوط لاله لي ١٩٩٤ السليمانية/استانبول .
- ٤٠- الواقدي : محمد بن عمر الواقدي . ت ٢٠٧ هـ . كتاب فتوح السبع حصون وفتوح العراق : مخطوط/ايا صوفية ٣٣٣٤ السليمانية/استانبول . فتوح الشام : مخطوط ايا صوفية ٣٣٢٩/السليمانية- استانبول .

د- الأجنبية

- Arnold; Thomas Arnold- 41
The preaching of Islam: A history of the Propagation of the Muslim Faith. SH.
 Muhammed Ashraf Kashmiri Bazar- Lahore Pakistan.
 Mayerson: Philip Mayerson- New York University Article: The First Muslim-42
 Attacks on south
 Palestione: A.D 633-634.
 Vol. 95 1964. P. 155-199.

نص المشروع الاستيطاني لليهود في فلسطين والذي قدمته الحركة الصهيونية الى الدولة العثمانية عام ١٢٩٧ هـ - ١٨٧٩ م وموقف الدولة من هذا المشروع

د. محمد داوود التميمي
اسطنبول

بمناسبة انعقاد المؤتمر الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين)، يسرني ويشرفني ان اشارك بتقديم هذه الوثيقة التي تعتبر من اهم الوثائق لتاريخ فلسطين في القرن الأخير. هذه الوثيقة التي صاغت فيها الصهيونية آمالها واطماعها في الاستيلاء على فلسطين وذلك قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ الذي قررت فيه انشاء «وطن قومي» لليهود في فلسطين بحوالى عشرين سنة.

لقد عثرت على هذه الوثيقة تحت رقم ٣١١٤ وتاريخ ٢٨ جمادى الأولى - ٦ جمادى الثانية لعام ١٢٩٧ هـ. (٩ - ١٧ أيار (مايو) ١٨٧٩ م.) ضمن قسم وثائق «الإرادة» الموجودة في دار المحفوظات لرئاسة الوزراء في اسطنبول. وتتضمن هذه الوثيقة صورة لمحضر مجلس الوزراء العثماني الذي اجتمع لمناقشة المقترحات الصهيونية- لما اسموه بمشروع اسكان اليهود في فلسطين- المقدمة من احد زعمائها الانكليز ويدعى (لورانس اوليفانت) الذي تقدم بتلك المقترحات اثر احد اجتماعات «احباء صهيون» التي عقدت في مدينة (جاسي) في رومانيا عام ١٨٧٩^(١) اي في نفس السنة التي تحملها هذه الوثيقة.

وسنرى بوضوح الرد المناسب الذي عرضه المجلس المذكور على السلطان عبد الحميد لرفض تلك المقترحات والإغراءات التي نعتها المجلس بانها تعني تشكيل دولة داخل دولة. او كما جاء في الوثيقة حرفيا «حكومة داخل حكومة». ومما يجدر الاشارة اليه هو تنبه المجلس لردود الفعل التي ستنشأ من جانب اصحاب الأرض الشرعيين لمقاومة هذه المحاولات للاستيطان في ارضهم بمجرد قبولها.

كما تحتوي الوثيقة على عرض لرئيس الكتاب للدولة العثمانية يتضمن موافقة وتصديق السلطان على قرار مجلس وزرائه واصداره لإرادته السلطانية برفض العروض الصهيونية من اساسها.

بعد ذلك تنتقل الوثيقة الى ترجمة «اللائحة» المقدمة من الصهيونية التي عرضت فيها اولا اربعة بنود لإقناع واغراء الدولة العثمانية بقبول مقترحاتهم. ومن ثم تنتقل مباشرة الى عرض الخطوات التي صاغتها الصهيونية لالتهام فلسطين من خلالها لا لإسكان اليهود فيها كما زعمت مقترحاتهم بانشاء ما اسموه باسم «القومبانية العثمانية لإسكان المهاجرين في فلسطين».

لقد تحريت والتزمت بالأمانة العلمية، بعيدا عن العاطفة الوطنية في ترجمة هذه الوثيقة الهامة التي تسلط الأضواء على قضيتنا في مهدها، متوخيا من خلال ذلك اطلاع الباحثين والمهتمين بتاريخ بلادنا على الأساليب والمراوغات التي حاولت الصهيونية اتباعها واتبعتها فعلا في الاستيلاء على بلادنا- رغم رفضها من الدولة الحاكمة آنذاك- وذلك بمساعدة القوى الاستعمارية فيما بعد.

وقد اقتصر بحثي هذا على عرض الوثيقة دون تناولها بالتحليل والتعليق عليها لا سيما وانها تعكس نوايا اصحابها بكل صلافة ووضوح. كما ان موقف الدولة العثمانية من هذه العروض والمغريات معروف وثابت تاريخيا. وهذه الوثيقة تعتبر خير شاهد على ذلك. ورغم هذا كله فهي تشكل مادة تاريخية هامة وحيوية لقضيتنا.

قسم وثائق «ارادة- مجلس مخصوص» رقم ٣١١٤
في ٢٨ جمادى الأولى- ٦ جمادى الثانية سنة ١٢٩٧

صورة تذكرة العرض

لقد سبق عرض وتقديم «اللائحة» الخاصة بموضوع اسكان المهاجرين اليهود في ارض فلسطين من لواء البلقاء المعروضة والمقدمة من «الموسيو اوليفند» على اعتبار حضرة السلطان المعظم . وبناء على الأمر والفرمان الهمايوني لجناب السلطان المعظم باحالة اللائحة المذكورة الى الباب العالي لأجل مطالعتها وتدقيقها في «مجلس الوكلاء» واصدار قرار باقرب وقت من قبل المجلس وعرضه على العتبة العليا لحضرة الملوكية لإعطاء الرد الخاص بهذه المسألة للمومى اليه (موسيو اوليفند) فقد تم مطالعة اللائحة المذكورة في مجلس الوكلاء الخاص بموجب «التذكرة العلية الخصوصية» المؤرخة في ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٢٩٧ . وحيث عرضت نتيجة المذاكرات بموجب مضبطة ارفقت باللائحة المذكورة ، فان الامر في هذا الصدد هو لصاحب الأمر .

في ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٢٩٧ هـ

صورة مضبطة مجلس الوكلاء

بمقتضى امر وفرمان جناب السلطان المعظم بمطالعة وتدقيق اللائحة المعروضة والمقدمة سابقا الى حضرة المعظمة من طرف الموسيو اوليفند فيما يتعلق بموضوع اسكان المهاجرين اليهود في ارض فلسطين من لواء البلقاء التي امر بارسالها الى الباب العالي لأجل اصدار قرار بشأنها في اقرب وقت لعرضه على العتبة العليا لحضرة الملوكية كي يتسنى اعطاء الرد الى المومى اليه - فقد تم في مجلسنا العاجز مطالعة التذكرة العلية الخصوصية المؤرخة في ٢٨ جمادى الأولى لعام ١٢٩٧ وكذلك اللائحة المرفقة بها .

ولقد تبين ان مندرجات اللائحة المذكورة هي عبارة عن طلبات بتشكيل قومية (شركة) للمهاجرين الذين سيفقدون من اوروبا واعطائهم اربعة ملايين وثلاثمائة وكسور دونم من اراضي فلسطين مقابل ثمن معتدل، واطلاق اسم «القومية العثمانية لإسكان المهاجرين في ارض فلسطين» على تلك القومية. على ان يتم تشكيل كافة المحاكم وتعيين الاداريين والمحاسبين ومدراء الاموال للمناطق التي سيُسكنون المهاجرين فيها من بين انفسهم.

كما وتنص هذه اللائحة على تأمين الأمن والنظام العام من قبل قوة عسكرية منتخبة من بينهم ايضا. كذلك فقد عرضت انشاء خط حديدي في تلك المناطق وطالبت باعطائهم بعض الامتيازات في ادارتهم الداخلية هناك. وما الى ذلك من الاقتراحات والتفرعات الأخرى.

وقد لاحظ مجلسنا ان تلك العروض بحد ذاتها تعني «تشكيل حكومة داخل حكومة». ونظرا لان تلك المعروضات يترتب عليها عدة محاذير سياسية وادارية فهي غير مقبولة اصلا.

ورغم ان الدولة العلية ترغب ويتوجب عليها اعمار وتنظيم وإصلاح ادارة لواء البلقاء الذي تقطنه بعض العشائر والعربان الرحل لكي يصبح قابلا للاسكان، الا انه لم يان الأوان بعد لإجراء تلك الاصلاحات. كما ان قبول وإسكان المهاجرين بهذه الطريقة يسبب العديد ايضا من المحاذير والمشكلات الداخلية المختلفة ونظرا لهذه الاوضاع، فقد تم الاتفاق باتحاد الآراء على إعطاء جواب للمذكور (موسيو اوليفند) يتضمن شرح هذه الاسباب. وان الأمر في هذا الصدد هو لصاحب الأمر.

في ٢٩ جمادى الأولى لعام ١٢٩٧

منيف (افندي) ^(٢)	صبحي (باشا)	علي صائب (باشا)
وزير المعارف	(وزير الاوقاف السلطانية) (مشير الطوبخانة العامة)	
قدري (باشا)	جودت (باشا)	صوا (باشا)

(وزير الخارجية)	(وزير العدل)	(وزير التجارة والزراعة)
	(غازي) عثمان (باشا)	راسم (باشا)
	(قائد الجيش السلطاني ومشير «ما بين همايون»)	(«قبودان دريا»)
		قائد الاسطول
احمد سعيد (افندي)	محمود (نديم)	عارفي (باشا)
(شيخ الإسلام)	(وزير الداخلية)	رئيس «شورى الدولة»
حسن فهمي (افندي):	ذهني (افندي)	سعيد (باشا)
اديب (افندي)		
(وزير النافعة) (وزير المالية)	(مستشار رئاسة الوزراء)	(رئيس الوزراء)
مطابق للأصل - توقيع		
(علي جواد- باش كاتب)		

(٣) الألقاب والمناصب الموضوعة
 بين قوسين مستقاه من «سالنامه»
 الدولة لتلك السنة.

قسم وثائق «اراده- مجلس مخصوص» رقم ٣١١٤
في ٢٨ جمادى الأولى- ٦ جمادى الثانية سنة ١٢٩٧

معروض العبد الداعي^(*)

ان المضبطة الحاوية على قرار مجلس الوكلاء فيما يتعلق بمذكرة اللائحة المقدسة الى الأعتاب العلية من الموسيو اوليفند بشأن اسكان المهاجرين اليهود في ارض فلسطين من لواء البلقاء. وكذلك التذكرة الوزيرية السامية الصادرة عن دولته (رئيس الوزراء) لعرض تلك المضبطة واللائحة قد حظيت بتصويب حضرة السلطان الموفور الشوكة. وقد امر باصدار ارادته السامية باعطاء جواب للمومى اليه (موسيو اوليفند) بما يتفق والقرار الصادر عن المجلس. وقد احتفظ بالتذكرة وأصل المضبطة الآنفيتين الذكر بحوزته العلية. كما اعيدت صورتها مع ترجمة اللائحة الى صاحب الدولة. وان الأمر والفرمان هما من شان صاحب الأمر.

في ٦ جمادى الثانية سنة ١٢٩٧

علي جواد

(باش كاتب)

(*) عبارة تقليدية كانت تستعمل في مخاطبة الوزراء ورئيس الوزراء.

الباب العالى نظارة الخارجية الجليلة غرفة الترجمة

اولا : لإحداث مركز هجرة ليهود الأناضول والروم ايلي الى ارض فلسطين بحيث تكون هذه الأراضي بمثابة ملجأ لليهود الذين حررتهم معاهدة برلين . وبذلك يكون اليهود في مأمن من المظالم والتعديات . والى جانب ازالة خطر وقوع غوائل جديدة للدول الموقعة على المعاهدة المذكورة ، فان هذه الخطوة تؤمن مخرجا لرؤوس اموال اليهود بحصولهم على اراض لإجراء صناعاتهم وزراعتهم .

ثانيا : تخصص هذه الرقعة الواسعة من الأراضي الخصبة المتروكة للزراعة . ويمكن ان تكون ملجأ اميناً للمهاجرين المسلمين ايضا . وبذلك تكون الرقعة الزراعية للبلاد ايضا قد توسعت . كما يمكن مع ذلك تمدين العشائر العربان البدوية القاطنة هناك . كما يمكن اعادة الأمن والنظام لبعض الأفضية المتمردة . كذلك يمكن احياء الصناعات المحلية برؤوس الأموال التي ستنتجم عن حسن ادارة هذه الرقعة الشاسعة . وذلك بتطبيق الفنون المعاصرة في مجال الصناعة والزراعة التي سيقوم بتطبيقها المهاجرون الاسرائيليون بالتعاون مع ابناء دينهم الموجودين في اوروبا ، وكذلك بمساعدة الشعوب المسيحية التي التزمت باعادتهم الى فلسطين .

ثالثا : استفادة الخزينة الجليلة استفادة عظيمة من خلال دفع بدل الاراضي التي سيحل فيها المهاجرون والتي ستدفع فورا بمبالغ عالية ، هذا عدا عما سيجمع من خلال اجراء المعاملات التي ستجريها ادارة «جمعية المهاجرة» التي ستشكل على هيئة «قومبانية» (شركة) .

رابعا : من خلال هذه التجربة ، يمكن البحث عن كيفية تعميم الإصلاحات

في الولايات السلطانية وذلك باستفادة الدولة العلية من رؤوس الأموال الاجنبية بما يتفق والنوايا السنوية لجناب السلطان وآمال الدول الغربية .

المادة الأولى : ابتياع الأراضي الأميرية الواقعة في لواء البلقاء من الحكومة السنوية ومن ثم اعطائها (الدولة العثمانية) الصلاحية اللازمة لتشكيل قومية لالإشراف على اسكان المهاجرين من الشعب اليهودي وغيرهم في هذا القسم من ارض فلسطين . وكذلك منحها حق الإشراف على توسيع واعمار هذه الرقعة .

المادة الثانية : تسمى هذه القومية باسم « القومية العثمانية لإسكان المهاجرين في ارض فلسطين » .

المادة الثالثة : تكون هذه القومية تحت حماية وصيانة السلطان صاحب الشوكة وتحت اشراف الحكومة السنوية . ويستطيع الباب العالي تعيين مدير ومساعد مدير للإشراف على تطبيق كافة الشروط الاساسية واحكام القوانين والأنظمة لهذا الامتياز .

المادة الرابعة : توافق الحكومة السنوية على جعل تلك الرقعة متصرفية مستقلة وربطها مباشرة بولاية سورية دون احداث اي خلل في متصرفية البلقاء ، مع ابقائها على شكلها الحالي .

المادة الخامسة : تكون دار السعادة (اسطنبول) مركزا للقومية على ان يكون لها صلاحية فتح فروع لها في احدى العواصم او العديد منها .

المادة السادسة : تسهلا لتنفيذ هذا الامتياز يتم تعيين حدود القسم الواقع بين « الأردن » و « خرب الحج » من حدود لواء البلقاء مستقبلا . وبموجب الشروط المعينة في اللائحة فان الحكومة السنوية تتعهد ببيع هذا اللواء الى القومية

مقابل مبلغ معين وذلك على اقساط معينة، على ألا تدخل مدينة السلط والأراضي التابعة لها ضمن الأراضي التي ستعطى للقومبانية.

المادة السابعة: مساحة الأراضي التي ستبيعها الحكومة السنية للقومبانية من لواء البلقاء هي مليون «أقر» أي أربعة ملايين وثلاثمائة وستة وخمسين دونما. على أن يكون سعر الأقر..... غروش (*). ومع ذلك فإذا كانت مساحة أراضي لواء البلقاء الداخلة ضمن الحدود المذكورة باستثناء مدينة السلط وأراضيها تزيد عن المليون أقر فإن الحكومة السنية تتركها للقومبانية على أن تدفع ثمنها بنفس السعر الذي اشترت فيه المليون أقر الأولى.

أما إذا كانت أراضي لواء البلقاء تقل عن المليون أقر فإن الحكومة السنية تعوضها عن ذلك النقص من أراضي لواء عجلون المتصلة بأراضي لواء البلقاء.

المادة الثامنة: تباشر القومبانية بإنشاء خط حديدي من حيفا إلى طبريا ومن هناك حتى «بحر لوط» مروراً بوادي الأردن. وذلك خلال ثلاث سنوات اعتباراً من صدور فرمان العالي بمنح الامتياز. على أن تقوم الحكومة السنية ببيع كافة الأراضي الخالية والبور والقرى المهجورة التابعة للقائم مقاميات التي يمر منها الخط الحديدي للقومبانية بنفس السعر الذي بيعت فيه أراضي لواء البلقاء. كما توافق الحكومة السنية على ترك مسافة كيلو متر من كل جهة من الأراضي الميرية التي يمر منها الخط الحديدي للقومبانية مجاناً. أما إذا كان هناك أراضٍ يملكها أفراد تدخل ضمن هذه الحدود فيمكن استملاكها بمقابل تعويضات عنها.

المادة التاسعة: توافق الحكومة السنية على عدم التخلي عن أي أراضٍ في أي

(*) لم يذكر المبلغ في الوثيقة الأصلية. ولا بد أن الصهانية تركوه مبهما ليكون موضوع مساومة كما دعتهم. في حين أنهم وكما رأينا لم يهتموا بذكر الدونم السادس والخمسين بعد الأربعة ملايين والثلاثمائة وخمسة وخمسين دونماً.

جهة من اراضي فلسطين او احالة اي امر من امور النافعة (الاشغال العامة) لأية قومية (شركة) دون عرضها على «قومية اسكان المهاجرين» الآنفه الذكر. كما توافق على اعطاء هذه القومية حق الأولوية «حق الرجحان» في المزايدات الجديدة لتملك الأراضي في اي لواء جديد.

المادة العاشرة: تسمح الحكومة السنية باعطاء الاذن اللازم للقومية بتأسيس ما يسمى بـ «الصندوق الزراعي» على غرار البنوك الزراعية. وذلك لتقديم القروض حسب نظام الفوائد «الفائض» مقابل رهن الاملاك والمعادن والغابات وما الى ذلك. كذلك تقديم سلف مؤقتة مقابل المحصولات الزراعية الغير محصورة والأدوات الزراعية وما شابهها. كما يمكن لهذا الصندوق اجراء المعاملات الأخرى بموجب لائحة التأسيس. وايضا يكون مركز الهجرة يكون مركز هذا الصندوق هناك. ولتوسيع رقعة نشاط هذا الصندوق في كافة انحاء فلسطين يمكن احداث فروع له في تلك الانحاء.

المادة الحادية عشرة: يتم انتخاب المدراء (الاداريين) والمحاسبين ومدراء الأموال من المهاجرين. ويجري التصديق على ذلك من جانب الحكومة السنية. على ان يحق للباب العالي عزل من يلاحظ عليه سوء التصرف.

المادة الثانية عشرة: تتعهد القومية بدفع المصاريف المترتبة على ادارتها للحكومة السنية بنسبة الأراضي التي تملكها مستقبلا.

المادة الثالثة عشرة: يجب تواجد وكيل على الاقل للقومية في مركز اللواء كي يتم التنسيق بين هذا الوكيل وبين المتصرف.

المادة الرابعة عشرة: سيعتبر المهاجرون مهما كانت جنسياتهم من تبعة الدولة العلية. ويمكن استخدامهم في الوظائف الحكومية وخلافها على ان يكونوا تابعين

للمحاكم القائمة في الولايات السلطانية بموجب القوانين والمعاهدات المرعية .

المادة الخامسة عشرة: بما ان المحاكم التي ستشكل في الأراضي التي يسكنها المهاجرون ستكون مشكلة من المهاجرين تماما، فان الدعاوي التي تقام في هذه المحاكم تكون غير خاضعة للاستئناف .

المادة السادسة عشرة: كما ان للقومانية حق التصرف الدائم والمطلق في الأراضي التي ستشترها فان لها الحق ايضا في « حق » نزع الملكيات عند الضرورة الممنوح للقومانيات التي لها علاقة بالمصالح العامة .

المادة السابعة عشرة: ان بيع الاراضي المذكورة يشمل بيع الغابات والابنية الموجودة على سطحها وكذلك كافة المعادن الدفينة في باطنها . اما استثمار هذه المعادن فيمكن ربطه بانظمة خاصة .

المادة الثامنة عشرة: يحق للقومانية بيع واستغلال ومبادلة الاراضي التي ستشترها بموجب سندات مشروعه كما تشاء . ويتم تشكيل قلم خاص لقيده وتبادل هذه السندات في مركز اللواء . ومع ذلك فان الذين يشترون اراضي يكونوا خاضعين للأنظمة المحلية .

المادة التاسعة عشرة: يحق للقومانية التحري عن احوال المهاجرين الذين سيتم قبولهم . كما يكون لها صلاحية محاكمة الذين يخالفون انظمتها وتغريمهم بغرامات مادية، مع حق طردهم وابعادهم . وفي مقابل ذلك تكون مضطرة للأخذ بعين الاعتبار معارضة الحكومة السنية بقبول احد المهاجرين او بعضهم لأسباب خاصة .

المادة العشرين: بعد تسليم الأراضي وتركها للقومبانية يجب على الاهالي الذين سيقون في تلك الأراضي قبول حكمها ونفوذها. كما ان عليهم المشاركة بالوظائف والتعهدات الملقاة على المهاجرين وكذلك الامتيازات الممنوحة لهم بموجب هذا الامتياز.

المادة الحادية والعشرين: تتعهد القومبانية بدفع واردات الاراضي التي تباعها وتركها لها الحكومة السنية. وذلك لمدة اثني عشر سنة! بنسبة الواردات التي كانت تجنى اليوم من هذه الأراضي. ويتم تعيين هذا المبلغ باخذ متوسط الواردات السنوية لهذه الاراضي عن السبع سنوات الاخيرة. على ان تعفي الحكومة السنية القومبانية من الضرائب والتكاليف الاخرى اذا كانت قائمة عند تسليمها للأراضي المعطاة لجمعية المهاجرة.

المادة الثانية والعشرين: تقوم الحكومة السنية بتنظيم «الدفاتر» الخاصة بالاراضي العائدة لجمعية المهاجرة. على ان تضع ضريبة املاك على هذه الأراضي بنسبة لا تتجاوز ضريبة «الأعشار». وتكون القومبانية ملزمة باداء ضريبة الاملاك ورسوم الأغنام حتى بعد انقضاء فترة الاثنى عشر عاما.

المادة الثالثة والعشرين: اعفاء المهاجرين من الخدمة العسكرية وكذلك اعفائهم من التعويض المادي عنها لمدة سنتين. على ان يصبحوا تابعين للخدمة المذكورة كسائر تبعة السلطان وذلك بعد انقضاء هذه المدة.

المادة الرابعة والعشرين: بعد الانتهاء من انجاح معاملات جمعية المهاجرة هذه تفضل الحكومة السنية بتقديم التسهيلات لتوسيع هذه (الخطة) في سائر انحاء فلسطين وبنفس الشروط مستقبلا.

المادة الخامسة والعشرين: تقرر القومبانية بالاتفاق مع مهندس يعين من قبل

الحكومة السنية كافة انواع الاصلاحات وامور النافعة بحسب ضرورتها واهميتها وكذلك صورة تنفيذها. ونظرا لان الجمعية ستستوفي الرسوم التي تراها ضرورية فيجب النص في شروط الامتياز على اعتبار هذه الرسوم من واردات الجمعية.

المادة السادسة والعشرين: ان صاحب الشوكة حضرة السلطان قد امر باعطاء هذا الامتياز للقومبانية لمجرد وقاية مصالح الاهالي والبلاد. ولذلك فانه يترتب على القومبانية تقديم «دفتر» للحكومة السنية يحتوي على اجمال للمعاملات السنوية. وكذلك معلومات عن سير تنفيذ شروط هذا الامتياز. ويكون هذا الدفتر موقعا من قبل المدراء وحاويا على ملاحظاتهم حسب الظروف والاحوال.

المادة السابعة والعشرين: يتلطف صاحب الشوكة حضرة السلطان ويفضل بالتعهد بالاحذ بعين الاعتبار تقديم ما يراه مناسبا لتعديل شروط هذا الامتياز بما يتفق وتامين او تسهيل معاملات القومبانية مستقبلا.

المادة الثامنة والعشرين: ان رأس مال القومبانية في هذه «المقولة» قد حدد بمبلغ ٥٠٠٠٠ (*) ومع ذلك فلها صلاحية زيادة هذا المبلغ كما تشاء. شريطة دفع واستيفاء القيمة الاعتبارية للسندات التي تصدرها مجددا بالكامل.

المادة التاسعة والعشرين: يتم تامين الامن والنظام لجمعية المهاجرة من قوة عسكرية تشكل من المشاة والفرسان تنتخب من بين المهاجرين انفسهم. وتسدد مصاريف هذه القوة من قبل الجمعية. وتخضع هذه القوة لاوامر المتصرف. وللمتصرف ايضا حق تنصيب رئيس هذه القوة بالاتفاق مع ادارة القومبانية. وفي حالات الطوارئ يحق للقومبانية طلب قوة عسكرية من الحكومة السنية لحماية

(*) لم يذكر نوع العملة في الوثيقة.

جمعية المهجرة . كما يمكن للحكومة السنية حمايتها بقوة عسكرية في اي وقت تراه مناسباً (ضرورياً) .

المادة الثلاثين : يُسمح للقومانية باستعمال احدى اللغتين الفرنسية او الانكليزية وذلك حسب تنسيب المتصرف في مباحثاتها مع موظفي الدولة العلية .

المادة الحادية والثلاثين : يتم تشكيل القومانية وبدءها بنشاطها في فلسطين خلال سنة من صدور الفرمان العالي بمنح الامتياز والتصديق على النظام الداخلي له .

المادة الثانية والثلاثين : في حالة ظهور اي خلاف بين الحكومة السنية وبين القومانية سواء من حيث التفسير لبعض الشروط التي وردت في هذا الامتياز او من حيث الخلاف في المسائل المهمة الاخرى يحال - الامر الى مُحكمين ينتخبان من قبل الحكومة السنية والقومانية في غضون شهرين . وفي حالة انتخاب احد الطرفين فقط لمحكمة عند انقضاء هذه المدة فان لهذا المحكم حق الفصل في هذه المسائل . وفي حالة تساوي الآراء يجب انتخاب محكم ثالث لاصدار حكم نهائي وذلك قبل البدء في التحقيق في المسائل وذلك خلال فترة (**).

المادة الثالثة والثلاثين : يصدر الأمر بالتصديق على هذا الامتياز . وبعد اتفاق الطرفين على المبلغ الذي سيدفع مقدماً للحكومة السنية ويتم دفعه عن قيمة الأراضي التي ستؤول للقومانية من الطرف الاشراف للحضرة السلطانية تصبح هذه الأراضي ملكاً للقومانية .

★

(**) لم تحدد هذه الفترة في الوثيقة.

وهكذا نرى بكل جلاء ووضوح كيف وضعت الصهيونية مخططها واصدرت قرارها من جانبها بانشاء الوطن القومي المزعوم في فلسطينا قبل ان تعلن ذلك صراحة في مؤتمرها الأول في بال عام ١٨٩٧ .

-
- (١) ناظم سيالة، حوليات فلسطينية- من منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية رقم ٣- ١٩٦٩، ص. (١١).
- (٢) الألقاب والمناصب الموضوعية بين قوسين مستقاه من « سالنامه » الدولة لتلك السنة .
- (٣) عبارة تقليدية كانت تستعمل في مخاطبة الوزراء ورئيس الوزراء .

ثورة الفلاحين في فلسطين أيام المعتصم سنة ٢٢٧هـ سنة ٨٤٢م

د. صالح الحمارنة
الجامعة الأردنية

ان أقدم واشمل الروايات التي تخبرنا عن ثورة الفلاحين في فلسطين أيام المعتصم وصلتنا من الطبري^(١) ثم من اليعقوبي^(٢) وتبعهما اخرون مثل ابن الأثير^(٣) وابن كثير^(٤) وابن خلدون^(٥) وغيرهم ممن سيأتي ذكرهم في سياق الحديث .

ذكر الطبري خبر ثورة الفلاحين نقلا عن بعض أصحابه دون ذكر لاسمه. واكتفى الطبري بوصف صاحبه بانه «خبير بأمره» اي بأمر قائد ثورة الفلاحين أبي حرب المبرقع اليماني. وبودي في مطلع حديثي أن أنقل سطورا من رواية الطبري هذه لتكون المرتكز الذي سنعمد عليه في تحليلنا لهذه الثورة الاجتماعية في فلسطين في بداية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي . ولنطلع من خلالها على بعض الأوضاع في جند فلسطين خاصة وبلاد الشام عامة في تلك الحقبة من الزمن .

يقول الطبري في سبب خروج ابي حرب اليماني على السلطان «أن بعض الجند أراد النزول في داره وهو غائب عنها وفيها اما زوجته أو أخته - ابن كثير يقطع بأنها امراته^(٦) - فمانعته ذلك، فضربها بسوط كان معه، فأثقتة بذراعها فأصاب السوط ذراعها فأثر بها. وأرته الأثر الذي بذراعها من ضربه فأخذ ابو حرب سيفه ومشي الى الجندي وهو غارّ فضربه به حتى قتله^(٧)، ثم هرب وألبس وجهه برقعاً كي لا يعرف^(٨). هذا هو السبب المباشر الذي دفع بأبي حرب اليماني للخروج. على السلطان فالتجأ الى أحد الجبال في الأردن وأخذ يدعو الناس ويحرضهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «ويذكر السلطان وما يأتي

الى الناس ويعيبه». ويستمر الطبري «فما زال ذلك دأبه- المبرقع- حتى استجاب له القوم من حراثي أهل تلك الناحية وأهل القرى. وكان يزعم أنه أموي فقال الذين استجابوا له: هذا هو السفياي. فلما كثرت غاشيته وتباعه من هذه الطبقة من الناس دعا أهل البيوتات من أهل تلك الناحية فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء اليمانية... فاتصل الخبر بالمتصم وهو عليل علته التي مات فيها، فبعث اليه رجاء بن أيوب الحضاري في زهاء الف من الجند فلما صار اليه وجده في عالم من الناس... - زهاء مائة الف- فكره رجاء مواقته وعسكر بجذائه وطاوله حتى كان أول عمارة الناس الأرضين وحراثتهم وانصرف من كان من الحراثين مع أبي حرب الى الحراثة وأرباب الأرضين الى أراضيهم، وبقي أبو حرب في نفر زهاء الف أو الفين، فناجزه رجاء... وأخذ أسيرا الى سجن المطبق في سرّ من رأى^(٩).

عند مقارنة هذه الرواية مع رواية اليعقوبي نجد بعض الاختلافات، منها أن اليعقوبي يعطينا اسم المبرقع وهو تميم اللخمي ويعرفنا بأهم القبائل التي قامت معه وهي لحم وجذام وعاملة وبلقين... ويشير الى ثورات أخرى قامت في أرض الخلافة في نفس الفترة مثل قيام ابن بيهس في دمشق، وعزيزة الخفافي في طريق الحج الحجازي، وقيام قوم من البربر ومعهم قوم من قريش ببرقة وثبوا بعاملهم عبدويه بن جبلة^(١٠).

ان الشيء الذي يلفت النظر في ثورة المبرقع اليماني - الذي ثار في البدء لأسباب شخصية- أن دعوته قد لاقت قبولا واسعا وسريعا عند الفلاحين وأهل القرى وقد اتبعه خلق كثير من الحراثين وانه كان في عالم من الناس ثم استجاب له جماعة من رؤساء اليمانية. وهكذا نرى أن الثورة التي بدأت في صفوف الفلاحين والحراثين والفقراء من الناس اتسعت لتصبح حركة سياسية واجتماعية واسعة يقوم على قيادتها رؤساء اليمانية في الشام المناهضين لحكم بني العباس في العراق.

لذا سوف أتعرض في هذا البحث الى مسألة ادعاء صاحب الثورة بأنه أموي، وان رؤساء اليمانية بانضمامهم الى الثورة أرادوا الكسب السياسي لاسترجاع ما

فقدوه من امتيازات كانت لهم أيام الحكم الأموي . وسأتعرض كذلك وبشيء من التفصيل الى فكرة السفيايى المنتظر وكيف بدأت هذه الفكرة منذ أيام خالد بن يزيد وكيف تطورت لتصبح صحيحة أهل الشام، أشرافهم والعامه منهم على حد سواء، لأن هذا «السفيايى» سيعيد مجد الشام الذي فقده اشرافها ويملاً الأرض عدلا : هذا العدل الذي ينتظره عامة الناس يمينها وقيسها .

هذا وقد ربطت ثورة الفلاحين في فلسطين بغيرها من الثورات التي ظهرت في تلك الفترة لنلقي ضوءا على وضع الفلاحين الاجتماعى في القرن الثالث الهجرى وكيف ان هذه الأوضاع الاجتماعيه المترديه كانت الدافع لهم للانتفاض على السلطان. كما وتعرضت لوضع الأرض ولقضايا الاستيطان، وبيع الأراضى وبروز الملكيات الواسعة لدى الأشراف وظهور الملكيات الصغيره وصغار الفلاحين ثم عن توزيع القبائل العربيه في الأرض الشاميه في مختلف القرى والمدن كما ترد في المصادر العربيه الاسلاميه خاصه عند اليعقوبى في كتابه : البلدان (ليدن ١٨٩١- ص ٣٢٤-٣٣٠).

زعم قائد ثورة الفلاحين أنه أموي- مع أنه لخمى كما سبق وذكرنا- أما الذين استجابوا له فقالوا هذا هو السفيايى . اذن لا بدّ من الوقوف عند هذا «الشعار» الهام الذي له دلالاته السياسيه والدينيه الكبيره في أحداث بلاد الشام وفي ملاحمها واساطيرها . فالدعوة الى السفيايى هي صحيحة الشام ضد العراق بعد ان فقدت الشام مركزها الكبير في قيادة الأمة الاسلاميه وبعد ان أصبحت مجرد ولاية من ولايات الخلافة العباسيه .

أن الدعوة للسفيايى قامت في أيام الأمويين المروانيين وكانت آنذاك دعوة للفرع السفيايى من بني أميه ضد الفرع المروانى الذي تسلّم الخلافة منذ أيام مروان بن الحكم وكرم خالد بن يزيد بن معاوية من الخلافة وأبعده عنها. بل زياده على ذلك انثقص من جانبه واهين^(١١). فمنذ تلك الفترة وبتشجيع من خالد نفسه وضعت أحاديث تتنبأ بمجيء السفيايى فقد تابع خالد حركة الشيعة واخذ يحذوا حذوها في

خلق الأحاديث عن السفياي المهندي المنتظر. بل ان هذه الدعوات أخذت طابعا محددا مفاده «وينشأ رجل من قريش أخواله من كلب فيبعث اليهم بعثا»^(١٢). وحين قويت هذه الدعوة وزاد نفوذ الفرع السفياي اضطر المروانيون للرد على هذه الظاهرة لتكون الدعوة نفسها في صالحهم لا في صالح السفيايين - ولا في صالح شيعة ابناء علي ^{عليه السلام} كذلك - فأخذوا يشيعون أحاديث أن المهندي فيهم. فمدح الفرزدق سليمان بن عبد الملك بهذا المعنى . ويذكر ابن سعد- على لسان سعيد بن المسيب «هل رأيت الأشج عمر بن عبد العزيز القاعد على السرير... فهو المهندي» قال محمد بن علي «النبى منا والمهندي من بني عبد شمس ولا نعلمه الا عمر بن عبد العزيز»^(١٣). اذن فالخلاف قائم ما بين الفرع السفياي والفرع المرواني على الخلافة. ويعود ذلك الى الساعة التي توفي فيها معاوية بن يزيد الذي كما يذكر المسعودي «تنوزع في سبب وفاته. فمنهم من رأى أنه سقى شربه ومنهم من رأى أنه مات حتف أنفه ومنهم من رأى أنه طعن، وقبض وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ودفن بدمشق.» واكثر من ذلك يذكر المسعودي ايضا أنه صلى - على معاوية بن يزيد - الوليد بن عتبة بن أبي سفياي ليكون الأمر له من بعده. فلما كبر الثانية طعن فسقط ميتا قبل تمام الصلاة وهكذا. «زال الأمر عن آل حرب»^(١٤).

وحيث انقسم الفرع المرواني على نفسه انقساما واضحا وعميقا على يد الجيل الذي يتمثل في أحفاد عبد الملك بن مروان، هذا الانقسام الذي اتخذ شكلا مأساويا في الحرب التي دارت ما بين الوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد عندها نجد الفرع السفياي ينشط ويحاول أن يستعيد نفوذه وبالتالي السلطة التي فقدوها، فيقف السفيايون بقوة بجانب الوليد بن يزيد ضد يزيد بن الوليد وأخيه ابراهيم. وخرج على يزيد- بن الوليد- عام ١٢٦ هـ ابو محمد السفياي- وهو زياد بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية فأخذ اسيرا مع اخوته وسجن في دمشق... وحين دخل مروان بن محمد دمشق أخرجه من السجن وأعلن السفياي الطاعة لمروان^(١٥). واذا ما تتبعنا نشاط هذا السفياي نراه حتى بعد هزيمة مروان بن محمد

في معركة الزاب الكبرى عام ١٣٢هـ/٧٤٩م أمام العباسيين وبعد ان يدخلوا بلاد الشام منتصرين نرى هذا السفيفاني يترأس انتفاضة بعض مدن الشام ضد العباسيين. فيذكر الطبري «أن أهل قنسرين وكذلك حمص وتدمر قد «بيضوا» «والتفوا» حول «أبي محمد» - زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية وقالوا: «هذا هو السفيفاني الذي كان يذكر» وهم في نحو أربعين الف»^(١٦).

وبعد أن يستتب الأمر لبني العباس ويصبح الخليفة العباسي هو خليفة المسلمين نرى ان الدعوة للسفيفاني تأخذ طابعا جديدا أوسع واشمل عما كان عليه في السابق. فقد صارت دعوة لبني أمية جميعها لا لفرع من فروع البيت الأموي، بل أكثر من ذلك تصبح هذه الدعوة الصيحة السياسية لأهل الشام ورمزا للشوام الذين فقدوا مجدهم الغابر أيام الامويين وفقدوا كثيرا من امتيازاتهم ونفوذهم حين أصبحت بلاد الشام ولاية عباسية لا غير. ولقد تمثلت حركة الولاء لبني أمية في العصر العباسي الأول في الحركات السياسية التي كان يقوم بها رؤساء القبائل - خاصة اليمانية - وفي الدعوة «السفيفاني» المنتظر، هذه الدعوة التي أخذت تلبس لبوسا دينيا تدعو الى ظهور السفيفاني «الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر» والذي سيعيد للشام مجدها ويقم سلطانا أمويا جديدا. وما ثورة المبرقع اليماني قائد الفلاحين في جند فلسطين والأردن الا مثلا بارزا على ذلك، فالثورة كانت اجتماعية وسياسة: اجتماعية لأنها كانت تطالب بمطالب اقتصادية للفلاحين وضد الغبن الواقع عليهم، وسياسية اذ رفعت قياداتها من رؤساء اليمانية شعار السفيفاني والسعي لارجاع السلطة الى أرض الشام. لا شك ان هذه الثورة هي بمثابة امتداد لأنتفاضات رؤساء القبائل في الشام الذين كانوا يهبون بين الحين والحين مطالبين باسترجاع امتيازاتهم السابقة ويطمحون لاسترداد نفوذهم الغابر، ولكن يلوح لنا ان التوقيت التي قامت فيه ثورة الفلاحين هذه يعطيها صبغة مميزة أخرى تتلخص في صرخة أهل الشام ضد تزايد سلطة الأعاجم في الخلافة العباسية وضد نفوذ قادة الأتراك في البلاط العباسي. واستطرد هنا لأذكر بعض هذه الحركات خاصة تلك التي قام على قياداتها احد السفيفانيين مدعيا أنه هو السفيفاني المنتظر. فالذهبي

يذكر لنا خبرا مفاده انه « في سنة ١٣٧هـ قد قتل أحد الأشراف بدمشق وهو عثمان بن سراقة الأزدي. وكان قد ثوّب عند موت السفاح، وسبّ بني العباس على منبر دمشق واقام في الخلافة هاشم بن يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية الأموي، فبلغهم مجيء صالح عم السفاح، فلم يقو لحربة واختفى هاشم وضربت عنق ابن سراقة^(١٧) .

ومثل آخر على استمرار الدعوة للسفياني ويتمثل بشكل قوي هذه المرة في خروج العميطر. ففي حوادث سنة ١٩٥هـ يذكر ابن الأثير « في هذه السنة خرج السفياني وهو علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية وامه نفيسة بنت عبيدالله بن العباس بن علي بن ابي طالب وكان يقول: أنا بن شيخني صفين - يعني عليا ومعاوية- وكان يلقب بأبي العميطر، لانه قال يوما لجلسائه أي شيء كنية الحرذون؟ قالوا لا ندري، قال: هو ابو العميطر فلقبوه به. ولما خرج دعا لنفسه بالخلافة.. وقوي على سليمان بن المنصور عامل دمشق وكان اكثر اصحابه من كلب... وكان اصحابه يدعون الناس في اسواق دمشق قائلين : قوموا بايعوا مهدي الله .

واحتل السفياني الخضراء - قصر معاوية، فكان اذا خرج منها مشى في موكب بين يديه ٥٠٠ رجل على رؤوسهم القلائس الشاميات وفي أيديهم المقارع... وقد استتب له الأمر اذ دامت ثورته ثلاث سنين^(١٨).. ويذكر ابن الأثير ان منافسا خطيرا وقف بوجه السفياني بل وقهره يتمثل بزعيم القيسية محمد بن صالح بن يهس الكلابي... الذي قضى عليه عبد الله بن طاهر قائد العباسيين حين جاء دمشق واخذه اسيرا لبغداد حيث مات^(١٩).

ويعلق الدكتور شاکر مصطفى على ثورة ابي العميطر فيقول «ان أبا العميطر دون شك قد استغل انشغال الأمين بحرب أخيه، ذلك القلق الذي وقعت فيه الخلافة العباسية في السنوات الأخيرة في القرن الثاني للهجرة. والتف حول العميطر اليمانيون فقاومه القيسيون في دمشق^(٢٠). ان الأمين ادراكا منه لنقمة أهل الشام بأن

السلطة أصبحت بيد الخراسانيين الذين كان المأمون مقيما بين ظهرانهم وعليهم اعتمد في صراعه ضد أخيه حاول ان يستميل لجانبه أهل الشام. «أن أهل الشام قوم ضرستهم الحروب واوتهم الشدائد وحلمهم منقاد التي مسارع الى طاعتي».. ولكن يظهر أن الخليفة الأمين فشل في مسعاه وان أهل الشام تجنبوا الأضطدام بأهل خراسان وقال أحدهم «انكم تعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم، اعتزلوا الشرّ قبل ان يعظم وتخطوه قبل ان يضطرم شأنكم داركم داركم الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري^(٢١)».

هذا الوضع في الشام قد يفهمه بعمق المأمون والقصة التالية تؤكد صحة هذا القول:-

تعرض رجل للمأمون بالشام مرارا فقال: يا أمير المؤمنين أنظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان. فقال المأمون: اكثرت يا أخوا أهل الشام، والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل الا وانا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد، واما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحببتي قط، وأما قضاة فسادتها تنتظر السفياي وخروجه فتكون من أشياعه، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث الله جل وعز نبيه صلى الله عليه وسلم من مضر، ولم يخرج اثنان الا خرج أحدهما شاريا، أغرب فعل الله بك^(٢٢)

لم يقتصر الامر في الدعوة للسفياي والى بني أمية على بلاد الشام وحدها ولم يقتصر كذلك على انتفاضات رؤساء القبائل من يمنية أو قيسية. بل ان الأمر مع الأيام تعدى ذلك كله وأخذ طابعا جديدا طابعا مامشيا لعملية التطور الفكري والسياسي في المجتمع الاسلامي ومسائرا مختلف الاتجاهات والمدارس التي نشطت في تلك الفترة. ففي القرن الثالث الهجري نشطت حركة سياسية فكرية تدعو لبني أمية وكان مجال نشاطها في أرض الخلافة نفسها في العراق كما في غيره من الأمصار. وهذه الحركة هي حركة «الناطقة» وهي حركة فكرية سياسية تنتصر لبني أمية وتؤكد حقهم في الخلافة وترد على خصومهم من المعنزلة والشيعة وغيرهما. ومن

العجب أن خير مصدر لنا عن هذه الحركة نجده عند ألد خصومها، عند أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ « (١٥٠-٢٥٥هـ) خاصة في رسالته عن النابتة^(٢٣). هذه الرسالة الموجهة الى أبي الوليد بن احمد بن أبي داوود قاضي بغداد المعروف. وموضوع رسالة الجاحظ هذه هو طعن في حركة النابتة وهجوم عليها ونقد للأمويين ونبذ لحقهم في الخلافة وذم لهم، ولكن من بين سطور رسالة الجاحظ نطلع بعض الشيء على وجهات نظر النابتة ومدى تغلغل أفكارهم وكثرة أنصارهم وخطرهم في الدولة العباسية. وقد استفحلت أفكار النابتة في الفترة التي قامت بها ثورة الفلاحين بقيادة المبرقع اليماني في فلسطين، واستمرت بعد ذلك حتى أيام المتوكل. وكانت هذه الحركة تمثل جيلا جديدا من الشباب النابتة بدأ ينمو وينبت في المجتمع العربي الاسلامي وكانت حركته بمثابة ردّ فعل للمظاهر السياسية والفكرية والاجتماعية الأخرى المعاصرة لها.

يذم الجاحظ في رسالته بني أمية وينقض حقهم في الخلافة اذ يقول « ان معاوية استبد وكانت خلافته غصبا قسرويا... الى ان كان من اعتزال الحسن عليه السلام... فعندها استوى معاوية على الملك واستبد على بقية الشورى وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين في العام الذي سموه عام الجماعة، وما كان عام جماعة، بل كان عام فرقة وقهر وجهر وغلبة، والعام الذي تحولت فيه الامامة ملكا كسرويا والخلافة غصبا قيصريا»^(٢٤). ويهاجم الجاحظ بمرارة حركة النابتة التي تقف للدفاع عن معاوية فيقول: - «على ان كثيرا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره (معاوية). وقد أربث عليهم نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا فقال: لا تسبوه فان له صحبة، وسبّ معاوية بدعة ومن يبغضه فقد خالف السنة. ويعجب الجاحظ من حجج النابتة فيرد عليها قائلا: «فزعمت أن من السنة ترك البراءة فمن جحد السنة؟ ويصيح الجاحظ «والنابتة... اكفر من يزيد وأبيه وابن زياد لأن جنس كفر هؤلاء غير كفر أولئك. وقد كانت هذه الأمة لا تجاوز معاصيا الاثم والضلال حتى نجحت النوابت وتابعتها هذه العوام فصار الغالب على هذا القرن الكفر»^(٢٥). من غضب الجاحظ هذا ندرك مدى عمق تغلغل حركة النابتة وتأثير

الناشئة بالدعوة الأموية والتفاف العامة حولها. ويظهر لنا ان الجو الذي خلقتة حركة النابتة من الأسباب التي كانت وراء نجاح المتوكل في ضرب المعتزلة وتقريبه للفقهاء من أهل السنة الذين التف الحزب العربي في المملكة حولهم... لذلك فكر المتوكل بنقل مركز حكمه الى دمشق لكي يتخلص بالتالي من نفوذ الأتراك^(٢٦) وسيطرتهم حيث أن دمشق تكرههم وتتعصب الى السنة ضد العلويين. ويذكر المسعودي في كتابه: التنبية والأشراف «ورأيت من سنة ٢٣٤هـ بمدينة طبرية من بلاد الأردن من أرض الشام عند بعض موالي بني أمية ممن يتحل العلم والأدب ويتحيز الى العثمانية كتابا فيه نحو ثلاثمائة ورقة بخط مجموع مترجم بكتاب البراهين في امامة الامويين ونشر ما طوي من فضائلهم ابواب مترجمة ودلائل مفصلة» - .. (المسعودي التنبية والأشراف ص ٣٣٦ بيروت / ١٩٦٥) ويعكس هذا الكتاب فكرة السفياي المنتظر، وقد انقلبت الى نظرية كاملة لأحقية الامويين في خلافة المسلمين على نفس نمط الخط الذي رافق نمو فكرة التشيع لآل علي وتكامل نظرياتها حول الامام الذي سيظهر كمهدي منتظر.

بعد أن استعرضنا حركة السفياي والدعوة لبني امية.. بودي هنا أن أتعرض للطابع الاجتماعي لثورة الفلاحين ومدلولها العميق في توزيع الاراضي واستملاكها وتحول المقاتلة العرب التدرجي الى فلاحين وسكان قرى ومدن ثابتين .

ان الصفة البارزة في ثورة الفلاحين في فلسطين هي انها كانت ثورة ذات طابع اجتماعي واقتصادي اتخذت من الشعارات السياسية لبوسا بادعاء صاحبها أنه أموي وأن أصحابه آمنوا بأنه السفياي المنتظر وأنه «يدعو للمعروف وينهى عن المنكر». وهب رؤساء العشائر وكبار الملاكين على رأس هذه الثورة فصبغوها بالصبغة الشامية المعارضة لدولة بني العباس. وقد سبقها بوقت قصير جدا ثورات فلاحين مماثلة. ففي مصر ثارت القبائل العربية من ايمانية والقيسية بناحية الحوف (اسفل مصر) سنة ٢١٤هـ (٨٢٩م) وكانت ولاية مصر آنئذ لأبي اسحق (المتعصم فيما بعد). وقد كان لسياسة الولاة المالية الأثر الأكبر في قيام هذه الثورة اذ أن نائب الوالي على الخراج ظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم فانفض

أهل اسفل الارض وعسكروا^(٢٧). ثم أعقبها ثورة أخرى أكبر منها في مصر (ايضا) سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) وكانت عنيفة في المناطق الزراعية المكتظة بالسكان في مصر السفلى، واشتركت جماهير القبط مع العرب فيها محتجة على سياسة العباسيين المالية وعسف الجباة فيروي المقرئزي «فانتفضت أسفل الأرض (مصر السفلى) عربها وقبطها في سنة ٢١٦ هـ واخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخلفوا الطاعة»^(٢٨). وفي شرق الخلافة (وفي الوقت نفسه) كانت ثورة «بابك الخرمي» في أذربيجان وما جاورها من الأقطار، هذه الثورة الجارحة التي كان الفلاحون عنصرًا بارزًا فيها وكان لها طابعها الاجتماعي والاقتصادي بجانب خلفياتها الأخرى.^(٢٩) ان الشيء الذي يستدعي الانتباه في ثورة الفلاحون في فلسطين هو هذه الاعداد الكبيرة من الفلاحين والمزارعين الذين اشتركوا فيها وأن قائد الثورة كان ، في عالم من الخلق». ترى من هم هؤلاء الفلاحين؟ ومن هم سكان القرى الذين ثاروا؟ ان اليعقوبي يجيب على هذه التساؤلات بوضوح تام يقول «ووثب بفلسطين... تميم اللخمي ... ويلقب بالمربع في لحم وجذام وعاملة وبلقين»^(٣٠) وأن أتباعه «كما يذكر الطبري» من الفلاحين بتلك النواحي وأهل القرى، وأن بعضهم كانوا حراثين وبعضهم من أرباب الأرضين»^(٣١) فالفلاحون الذين ثاروا بقيادة المربع ايماني هم أبناء القبائل العربية الذين استقروا ببلاد الشام وصاروا أصحاب القرى والعاملين في أراضيها، ولربما أن اجراء المعتصم لاسقاط القبائل من ديوان العطاء كان له أثر في ذلك (محمد بن يوسف الكندي: ولاة مصر تحقيق د. حسين نصار ص ٢١٧ بيروت ١٩٥٩)

وتفسير هذه الظاهرة الاجتماعية الهامة في حياة بلاد الشام وأهاليها يرجع بنا الى الوراة قليلا، الى الهجرات العربية المتتالية من أرض الجزيرة العربية الى بلاد الشام. وكذلك الى أيام الفتوحات الاسلامية الكبرى، فالخلافة الاسلامية منذ قامت شجعت الهجرة الى الامصار واعتبرت ذلك اساسا للخروج من الأعرابية والانتماء للامة اذ اتوطن الاعراب مصرًا من أمصار المسلمين فقد خرج من الاعرابية وصار من اهل الأمصار»^(٣٢). وأن الاستيطان كان سياسة مرسومة للخلافة منذ أيام

عثمان^(٣٣). ان هجرة القبائل العربية الى بلاد الشام والجزيرة والتي تحدثنا عنها مصادرنا العربية الاسلامية بشيء من التفصيل كانت هجرة استيطانية وأن القبائل المهاجرة قد أعطيت أراضي للزراعة والرعي، كما وأن القبائل القديمة - قبل الفتوح الاسلامية- أعطيت بدورها أراضي جديدة، وكان ذلك لأعتبارات اقتصادية أو استراتيجية. وكانت هذه الأراضي أما اراضي جلا عنا أهلها نتيجة لظروف الفتح أو من اراضي الموات^(٣٤). ويعبر ابو حفص الشامي عن ذلك بوضوح حيث يقول « كل عشري بالشام فهو من جلا عنه أهله فأقطعه المسلمون فأحيوه باذن الأمم^(٣٥)». ويشير الاستاذ الدوري « بمقالته القيمة » العرب والأرض في سوريا» أن القبائل العربية بعد الفتوح الإسلامية أخذت تستقر على الأرض في القرى في أواخر العصر الأموي وأن هذا الاستقرار أخذ شكلا واضحا في العصر العباسي الأول^(٣٦). وعلى هذه الصورة فان العرب قد انتقلوا من دور المقاتلة الخالصة الى الاهتمام بالزراعة ومزاولتها. وقد شمل هذا الأمر كذلك المقاتلة في الثغور وعلى الحدود. فالبلاذري يذكر أن معاوية في عهد خلافة عثمان قد أقام حاميات قوية على طول ساحل البحر وحول الموانئ الأساسية، وأقطع جنود هذه الحاميات قطائع يضمن استمرار بقائهم، وكانت من الأراضي التي جلا عنها أهلها^(٣٧). واستمر الأمر على هذه الشاكلة ففي أيام هارون الرشيد عمل على توظيف مقاتلة الثغور في الأراضي التي يدافعون عنها. في الثغور وعلى الحدود مع البيزنطيين^(٣٨). كان جل ملاكي هذه القرى من الأمراء الأمويين وبينهم بعض الأشراف من رؤساء القبائل ومؤيديهم. وقد تكونت الاقطاعات الكبيرة وملكيات الأراضي الواسعة، وظهرت كذلك طبقة من الملاكين الجدد نتيجة الأقطاع المستمر للأراضي - خاصة الصوافي- ومنحها للعمال المتعاقبين والأعوان والأشراف والقواد العسكريين ونتيجة لعمليات البيع والشراء، التي كان معمولا بها بشكل واسع. حتى ان الأشراف من العرب كانوا يشترون الأراضي الخراجية - التي تحولت الى عشرية - وعلى نطاق واسع، مما أجبر على ابقاء الخراج على الأرض بصرف النظر عن المالك. يضاف الى ذلك ظاهرة الاجاء التي استغلها اصحاب النفوذ استغلالا ظاهرا^(٣٩). وطبيعي أن هذه الضياع الكبيرة والملكيات الواسعة تحتاج الى أيدي الفلاحين والعمال

الزراعيين الذين أخذوا يتكونون بأعداد كبيرة ويعيشون في مكان عملهم وزرقهم.
بجانب

ذلك فان الملكيات الصغيرة أصبحت مألوفة في قرى يتوفر فيها الماء، سيما وأن عامة القبائل قد تحولوا الى زراع في مجتمعات قروية^(٤٠) فيها ممتلكاتهم أو فيها تعيش عائلاتهم. ومع نشاط التجار كثر أيضا شراء الأراضي وبيوعها. اذن فالتحول نحو الأرض قد تم عند القبائل العربية وعلى نطاق واسع فأصبح هناك الأقطاعات تلكبيرة وملاكو الأراضي الواسعة من جهة ومن جهة أخرى تكونت الملكيات الصغيرة يملكها الفلاحون الصغار المنتشرون في القرى المتعددة وفي المنتجعات حيث الحياة ومساقط الأمطار والجداول الصغيرة والمروج، وأن هذا التحول قد تعمق مع الزمن. ولا ننسى هنا أن نذكر ان كثيرا جدا من أملاك بني أمية في بلاد الشام قد انتقل الى البيت العباسي، ففي مدينة الرملة نفسها حيث بدأت ثورة المبرقع اليماني أنتقلت بعض املاك بني أمية فيها الى صالح بن علي بن عبد الله بن العباس^(٤١). فلا غرابة اذن أن نرى هذه الأعداد الكبيرة من الفلاحين الذين اشتروا في ثورة المبرقع اليماني في فلسطين، هؤلاء الفلاحين الذين أصبح كسبهم يأتي عن طريق الأرض وزراعتها. لقد أصبحت الأرض مصدر رزقهم الرئيسي، لذا أخذوا يطالبون بخفض الخراج عنهم ورفع الضرائب أو تخفيفها عن كاهلهم، مما حمل المسؤولين الى اعادة النظر في الضرائب المعمول بها خاصة الخراج والعمل على تخفيفه وترغيب الفلاحين على أن يبقوا في الأرض ولا يغادروها. وهذا ما حدث فعلا في سنة ٢١٠ هـ فقد ذكر اليعقوبي أن الخراج قد خفض بنسبة الربع^(٤٢). ويذكر البلاذري أيضا أنه «في أيام الرشيد رفضت ضياع في فلسطين وتركها أهلها فوجه الرشيد هرثمة بن أعين لعمارتها، فدعا قوما من مزارعيها وأكرتها الى الرجوع اليها على أن يخفف عنهم من خراجهم وتلين معاملتهم فرجعوا، فاولئك أصحاب الردود»^(٤٣).

ويبدو أن هذا الاجراء تبعه اجراءات أخرى أيام المأمون، اذ أمر بمسح أجناد الشام من جديد لاعادة النظر في ضرائب الأرض وذلك عام ٢١٤ هـ حتى اول

تعديل وهو اجراء تطلبه تحول في وضع الزراعة في الأرياف^(٤٤).

هذه هي ثورة الفلاحين في فلسطين عند نهاية حكم المعتصم والتي قامت لمطالب اقتصادية وارتبطت بالتالي مع أصحاب المصلحة الكبرى في بلاد الشام الذين يرمون الى اعادة نفوذهم وسلطانهم فرفعت الثورة شعار السفياي المنتظر الذي سيعيد مجد الشام. واذا ما ربطنا هذه الثورة بما سبقها من انتفاضات وتمردات وقعت في بلاد الشام منذ زوال الدولة الأموية نرى أن أرض الشام بقيت غاضبة على زوال مجدها أيام العباسيين، وأن الحس الاقليمي ثم الحس العربي فيها كان شديدا وعميقا، فأهل الشام ساخطون على ضياع مكائهم ثم غاضبون تمكن الأعاجم من فرس اولاً وترك ثانياً من السلطة العباسية. فنرى الأمين يتقرب لأهل الشام ليعيد اخاه ولكنه فشل، وكذا فعل المتوكل ليتخلص من نفوذ الأتراك وتغلغلهم ففكر جدياً بنقل مركز خلافته الى دمشق ولكنه فشل هو الآخر ودفع حياته ثمناً لذلك. وأخيراً ماذا تعني لنا هذه الثورة؟ ان من أبرز منجزات الدولة الاموية هو تعريب الدواوين الذي بدأ منذ أيام عبد الملك بن مروان، فعملية التعريب بسطت سلطان اللغة العربية في كل دواوين الدولة وفي كل مناحي حياتها الثقافية والاجتماعية. وهذا العمل الحضاري الكبير رافقه ايضاً الأرض باثبات العرب فيها وتمكنهم منها. العرب الذين أتوا بلاد الشام قبل الاسلام والعرب الذين دخلوا تحت راية الدين الحنيف مجاهدين في سبيل الله واعلاء كلمته. فهؤلاء المقاتلة مع الأيام هم وابناؤهم ثبتوا في الأرض وتحولوا من مقاتلة الى فلاحين ومزارعين في غالبيتهم العظمى، ومن بين أشرافهم خرج كبار الملاكين وأصحاب القرى والملكيات الواسعة.

المصادر والمراجع

- ١ - الطبري (٥٢٢٤-٥٣١٠) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ابو جعفر محمد بن جرير ٩ ص ١١٦-١١٨ دار المعارف القاهرة.
- ٢ - اليعقوبي: ت ٢٨٢ احمد بن ابى يعقوب تاريخ اليعقوبي، بيروت ١٩٦٠: ٢ ص ٤٨٠ دارصادر
- ٣ (ابن الأثير ت ٦٣٠ محمد بن عبد الكريم الكامل في التاريخ، جزء ٦: ص ٥٢٢-٥٢٣ دار صادر بيروت ١٩٦٥
- ٤ - ابن كثير (ت ٥٧٧٤م) ١٣٧٣ ابن خلدون (ت ٥٨٠٨) العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٥٧ جزء ٣ ص ٥٧٢ - ٣
- ٥ - ابن كثير جزء ٣ ص ٥٧٢ - ٣ البذية جزء ١٠ ص ٣٣٤.
- ٦ - ابن كثير التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة (القرن الأول الهجري) دار الطليعة بيروت ١٩٦١ ص ٢٢ تاريخ ج ٩ ص ١١٦ - ١١٧ تاريخ ج ٢: ص ٤٨٠
- ٧ - احمد صالح العلي الطبري ٨ - الطبري ٩ - اليعقوبي
- ١١ - الطبري تاريخ ج ٥ : ص ٦١٠-٦١١
- ١٢ - الاصفهاني ابو فرج ابن عساكر الطبعة الأوروبية ج ص ٨٨ تاريخ دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد ج ص ٢٨٠
- ١٣ - ابن سعيد (ت ٢٣ ج ٨٤٤م) كتاب الطبقات الكبرى محمد بن سعيد مكتبة المثنى بغداد ج ٢٤٥:٥
- ١٤ - المسعودي (ت ٣٤٦ج) الفرزدق (ت ١١٤ ج/٧٣٣م) ديوان الفرزدق ١: ٢٦٦ دار صادر بيروت ١٩٦٠ حمام بن غالب
- ١٥ - الازدي (ت ٣٣٤-٩٤٥م) ابو زكريا يزيد بن محمد مروج الذهب ومعادن الجوهر تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ج٢: ٥٧ القاهرة ١٩٦٧. تاريخ الموصل من ٥٨، القاهرة ١٩٦٧ ج ٧: ٢٧٠ وما بعدها

- الطبري
-١٦- الطبري
- ج ٧ : ص ٢٧٠ وما بعدها
ج ٧ ص ٤٤٣-٤٤٧
- (١٧) الذهبي شمس الدين محمد بن احمد العبر في خبر من عبر / تحقيق صلاح الدين المنجد (ت ٥٧٤٨هـ)
ج ١ ص ١٨٧، الكويت ١٩٦٠
- (١٨) ابن الاثير
ج ٦: ص ٢٤٩ - ٢٥٠
- (١٩) ابن الأثير
ن.م. ج: ٢٤٩ - ٢٥٠
- (٢٠) شاکر مصطفى
دولة بني العباس ج ص ٧٢٠ الكويت ١٩٧٣
- (٢١) فاروق عمر
مجلة المؤرخ العربي عدد ١٥ ص ١٣٥
بغداد ١٩٨٠
- (٢٢) ابن طيفور (ت ٢٨٠ ج)
ابو الفضل احمد بن ظاهر
كتاب بغداد، تحقيق محمد الكوتزي القاهرة
١٩٤٩ ص ١٤٤ - ١٤٥
- (٢٣) الجاحظ (١٥٠ - ٢٥٥هـ)
ابو عثمان عمرو بن بحر
رسائل الجاحظ- رسالة من النابتة
الجزء الثاني القاهرة ١٩٦٠ من ٧ - ٢٣
ن . م . ص ١٠-١١
- (٢٥) الجاحظ
ن.م.، ١٤، ١٨، ٢٠
- (٢٦) الطبري
تاريخ ج ٩: ص ٢٢٢ وما بعدها
- (٢٧) المقرئزي
كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر ج ٩٩٢-١٠
الخطط والآثار القاهرة ١٣٢٦ ج ٢: ص ٩٩-١٠٠
- (٢٨) المقرئزي
ن . م . ج ص ١٠٠
- (٢٩) الطبري
الدوري
العصر العباسي الاول، بغداد ١٩٤٥ ص ٢٢٠
- (٣٠) اليعقوبي
تاريخ ج ٩ ص ٢. ما بعدها
- (٣١) الطبري
تاريخ ج ٩: ١١٦ - ١١٨
- (٣٢) الشيباني ت (٥١٨٩هـ)
محمد بن الحسن
السير الكبير ج ١ ص ٩٤ - ٩٥
- (٣٣) البلاذري ت ٢٧٩ هـ
تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٥٧
فتوح ص ١٨٠
أنساب ج ٤: ١٤٤
- الدوري
عبد العزيز
العرب والارض في بلاد الشام من صدر الاسلام
كتاب المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام
الطبعة الأولى ١٩٧٤ ص ٢٥-٣٤

- (٣٤) الدوري
دانيت
ن . م . ص ٢٧
الجزية والاسلام، ترجمة فوزي جاد الله
بيروت ١٩٦٠ ص ١٠٧
فتوح ص ١٥٢
- (٣٥) البلاذري
الدوري (٣٦)
البلاذري (٣٧)
دنيبت
فاروق عمر (٣٨)
البلاذري (٣٩)
ياقوت لمعجم البلدان ج ٣ ٣٤٣
ابن عساكر
الدوري (٤٠)
لي ستراخ (٤١)
اليقوي (٤٢)
البلاذري (٤٣)
محمد كرد علي
ابن عساكر (٤٤)
الدوري
- ن . م . ص ٣٢ - ٣٤
فتوح ص ١٥٢
الجزية ص ١٠٧
مجلة المؤرخ العربي عدد ١٥ ص ١١١، بغداد ١٩٨٠
فتوح ١٣٨، ٢٤٩
تاريخ دمشق، تحقيق المنجد ج ١: ٥٨٧-٥٨٨
العرب والارض ص ٣٠
فلسطين في العهد العباسي ترجمة محمود عمايره عمان
١٩٧٠ ص ٢٥٣
تاريخ ج ٢ : ١٤٦
فتوح ص ١٤٩ - ١٥٠
القاهرة مطبعة السعادة ١٩٥٩
خطط الشام
ج ٥: ص ٥٩، بيروت ١٩٧١
تهذيب ج ٤ ص ١٠٧
العرب والارض ص ٣٢

ملاحظات على تطور حياة اليهود في فلسطين حتى الفتح العربي الاسلامي

د. احمد صدقي الدجاني

بيروت

ميز الله أرض فلسطين وبلاد الشام عموما بمباركته اياها « سبحان الذي أسرى بعبدہ ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله ». فتميزت هي والمنطقة المحيطة بها بالمكانة التي احتلتها في التاريخ الانساني « باعتبارها الأرض المقدسة التي تتجه اليها انظار معتنقي الديانات السماوية ، والتي كان فضلها على رقي البشرية فكريا وروحيا أجل شانا من فضل اي بلد آخر » (١) . ولقد عمت الرسالة الاخلاقية التي انطلقت من المنطقة اجزاء كبيرة من العالم واهتدى بهديها الكثيرون .

ان موضوع بحثنا يتصل بتاريخ فلسطين عبر العصور . وهذا يقتضي منا بداية ان نلاحظ حقيقة توغل تاريخ فلسطين في القدم . فهو لا يقف في مداه الى بدء عصر الكتابة في فلسطين أوائل الالف الثالث قبل الميلاد ، بل يتجاوزها الى عصور ما قبل التاريخ التي شهدت ظهور « الانسان المدرك » في فلسطين . وان نلاحظ ايضا حقيقة ان تاريخ الرقعة التي تحمل اسم فلسطين هو جزء من تاريخ سوريا بكاملها وتاريخ منطقة الوطن العربي عموما . الأمر الذي يجعل من المتعذر الفصل بين تاريخ فلسطين وتاريخ المنطقة ، ويقتضي منا حين نركز على رقعة بعينها فيها ان نضع في اعتبارنا ما كانت تموج به المنطقة ككل من احداث ، وان نلاحظ اخيرا ان المكانة التي تحتلها فلسطين والمنطقة في التراث الانساني انما هي ثمرة تفاعل الانسان مع الزمان والمكان . فموقع فلسطين الاستراتيجي في قلب منطقة الوطن

العربي وبين قارات العالم الثلاث اهلها لتكون مركزا لتفاعل الثقافات وجسرا لنقل التأثيرات الحضارية من مراكز الحضارات المجاورة لها. وقد تجاوب سكانها مع معطيات موقعهم فاسهموا في التراث الحضاري الانساني.

كان تاريخ فلسطين في العصور المتتالية متصلا وحافلا بأحداث كثيرة. ويمكننا ان نقسم هذا التاريخ ونحن نعالج موضوعنا الى قسمين رئيسيين تفصل بينهما الانطلاقة العربية بالاسلام في القرن الهجري الاول- القرن الميلادي السابع. واختيارنا هذا الحدث كعلامة بارزة انما يرجع لما كان له من تأثير على فلسطين والمنطقة العربية عموما. وقد مرّ تاريخ فلسطين في كل من هذين القسمين بعدة مراحل، وكان بصفة عامة تاريخا طويلا متنوعا.

★ ★ ★

دان شعب فلسطين عبر العصور بديانات عدة تعاقبت في الظهور والانتشار. وكانت الديانة اليهودية احداها. وعاش معتنقو هذه الديانات من شعب فلسطين جنبا الى جنب. وتراوحت نسبة معتنقي اليهودية بين مجموع سكان فلسطين في العهود التي سبقت انتشار المسيحية ثم بعد انتشار الاسلام في فلسطين. واتسمت حياة اليهود في فلسطين بعد الفتح العربي بطابع معين حتى جاءت الغزوة الصهيونية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، فغيرت هذا الطابع وحملت معها اعدادا كبيرة من يهود غزة.

ان هدف هذا البحث هو التعرف على الحقائق التاريخية الخاصة بتطور حياة اليهود في فلسطين عبر العصور وصولا الى استخلاص نتائج علمية محددة من خلال النظر في هذه الحقائق وتحليلها. وتبرز الحاجة الى ذلك في مواجهة ما دأبت عليه الحركة الصهيونية من صياغة مفاهيم خاصة عن «أرض الميعاد»، وكتابة تاريخ فلسطين على هواها، ورسم صورة لمستقبل فلسطين من وحي أطماعها، وطرح مقولات مغلوطة بعد الباسها ثوب العلمية تتعلق بعلاقة اليهود الخاصة

بفلسطين . ومن هنا فان أهمية هذا البحث نابعة من كونه وثيق الصلة بالصراع الذي يدور في فلسطين والمنطقة منذ قرن بفعل الغزوة الصهيونية الاستعمارية لها . فلقد احتدم هذا الصراع بين شعب فلسطين العربي والامة العربية من جهة وبين الحركة الصهيونية- وهي حركة استعمار استيطاني غربي- من جهة اخرى ، واتخذ شكل صراع حضاري له ابعاده السياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية ويحتدم في خضمه الصراع الفكري .

نسوق كمثال على المحاولات الصهيونية في هذا الصراع الفكري ذلك الكتاب الذي اشرف دافيد بن جوربون على تحريره بنفسه واسماه « اليهود في وطنهم The Jews In Their Land » . والذي حاول كتابه فيه اثبات فكرة تعاقب « اسرائيل » منذ العصور القديمة ، فعمدوا الى صياغة تاريخ متصل لها لم يخرج في نهاية الأمر عن كونه تاريخ شعب فلسطين . وقد كان هم بن جوربون- وهو المستعمر المستوطن الذي تورقه حقيقته- ان يضع تاريخا « اسرائيليا » لفلسطين ليعيد صفة الاستعمار الاستيطاني عن حركته الصهيونية^(١) .

مثل آخر نجده في كتاب صهيوني اخر صدر عام ١٩٧٥ ، بعد ان فرضت قضية فلسطين نفسها على الصعيد الدولي ، وعنوانه « الفلسطينيين الشعب ، التاريخ ، السياسات » . فهذا الكتاب يبدأ يبحث عنوانه « فلسطين في الفترة الاسلامية والعثمانية » . ويستهل كاتب البحث بحثه بالقول « انه لصعب للغاية ، ان لم يكن مستحيلا تماما التحدث عن تاريخ سياسي لفلسطين بعد تدمير الدولة اليهودية سنة ٧٠م وبعد احباط ثورة باركوبا سنة ١٣٥م » . وهكذا يضخم الكاتب حادثتين حدثتا في تاريخ فلسطين ويغفل ما عداهما وما تلاهما من احداث على مدى ثمانية عشر قرنا في محاولة لربط اسرائيل التي اقيمت عام ١٩٤٨ بالتاريخ البعيد لفلسطين ، وضمن مقولة صهيونية تلح على الزعم بتعاقب اسرائيل منذ القدم^(٢) . وهناك أمثلة أخرى كثيرة .

يهمنا بين يدي البحث ان نحدد بداية الصلة بين ثلاثة مصطلحات تستخدم عند الحديث عن اليهود ، وهي العبراني والاسرائيلي واليهودي ، فضلا عن مصطلح

رابع حديث هو الصهيوني . وذلك شعورا منا بأهمية وضوح المصطلحات في البحث العلمي .

يقول سولومون جرايزل صاحب كتاب : تاريخ « اليهود » « تستخدم هذه المصطلحات الثلاثة في موضع بعضها البعض ، وليس في ذلك خطأ ولكن يحسن تحديد معنى كل منها . فأما العبرانيون فهم أولاد ابراهيم واسحق ويعقوب . وهذا الأخير عرف باسم اسرائيل واطلق اسمه على هذه القبائل التي اقامت في أرض كنعان وبعض الأراضي القريبة منها . وقد اسست بعض هذه القبائل فيما بعد مملكتين : اسرائيل في شمال فلسطين ، ويهوذا في الجنوب التي سميت على اسم ولد يعقوب . وكلا الشعبين يصح دعوتهما بالعبرانيين ، أو الإشارة اليهما باسم اطفال اسرائيل . وقد دعا الشماليون من أولئك انفسهم بالاسرائيليين ، ودعا الجنوبيون انفسهم باليهوديين . ودمرت المملكتان ، ولكن دولة يهوذا اعيد تأسيسها . وكلمة يهودي تطوير للكلمة يهودي . واليهود هم آخر بقايا العبرانيين والاسرائيليين »^(٤) .

ويقول فيليب حتي « ان كلمة يهودي تعني في الاصل احد افراد قبيلة او مملكة يهوذا ، ومنها جاء الاشتقاق . وقد اطلقت الكلمة بعد ذلك على اي فرد من الشعب اليهودي الذي رجع من السبي . وتطور مدلولها فشملت أخيرا كل افراد هذا الشعب في العالم ، أما كلمة « اسرائيلي » فتشير الى فرد من نسل اسرائيل اي يعقوب . ولا تزال كلمة « عبراني » أشمل تعبيرا وتضم كل الاسرائيليين »^(٥) .

اما المؤرخ أحمد سوسة صاحب « كتاب العرب واليهود في التاريخ » فيقول : « مصطلح » العبري « أو العبراني » كان يطلق في نحو الألف الثانية قبل الميلاد ، وفيما قبل ذلك على طائفة من القبائل الغربية في شمال جزيرة العرب في بادية الشام وعلى غيرهم من الاقوام العربية في المنطقة حتى صارت كلمة عبري مرادفة لابن الصحراء او ابن البادية بوجه عام ، وبهذا المعنى وردت كلمة « الابري » أو « الهبيري » و « الخبيرو » و « العبيرو » في المصادر المسماة بالفرعونية . ولم يكن للاسرائيليين والموسويين واليهود اي وجود بعد . وبلغت أحمد سوسة النظر الى ان

مصطلح عبري لم يرد في القرآن الكريم. أما اسرائيل فالمقصود به يعقوب حفيد ابراهيم وابناؤه. وهم بنو اسرائيل الذين ورد ذكرهم في الاسفار. ودورهم محصور في منطقة حاران «حران» حيث موطنهم الاصلي الذي ولدوا فيه ونشأوا. أما فلسطين فأرض غربتهم. وأطلقت تسمية اليهود على بقايا جماعة يهوذا الذين سباهم نبوخذنصر الى بابل في القرن السادس قبل الميلاد. وقد سماه كذلك نسبة الى مملكة يهوذا المنقرضة»^(١).

تتفق هذه التعريفات الى حد ليس بالقليل. ويمكننا ان نوجز تحديدنا للمصطلحات الثلاثة على ضوء ما سبق بالقول: ان مصطلح العبري او العبراني هو الاقدم، وهو يتضمن مدلول البداوة- كما أوضح سوسة- ويشمل قبائل عربية مختلفة منها قبيلة ابراهيم عليه السلام جد يعقوب. أما الإسرائيلي فهو نسبة الى اسرائيل لقب يعقوب والى فرد من نسله، ومنه جاء مصطلح يهودي فهو الاحدث وقد جاء نسبة الى مملكة يهوذا التي قامت بعد سليمان وزالت ثم اعيد تأسيسها وقد سميت على اسم احد اولاد يعقوب. وقد حمل هذا الاسم كل فرد من شعب يهوذا رجع من السبي. كما حمله الذين تهودوا واعتنقوا الديانة اليهودية من اقوام آخرين. أما مصطلح الصهيونية فحديث ظهوره ويقترن بقيام الحركة الصهيونية في القرن التاسع عشر.



أولاً: حول بدايات ظهور اليهود في فلسطين وهجرات العبرانيين الى أرض كنعان

يتوغل تاريخ فلسطين في القدم الى ما قبل هجرات العبرانيين اليها وظهور الديانة اليهودية فيها، بقرون عديدة. فاذا كانت أولى تلك الهجرات قد جاءت الى فلسطين في القرن التاسع عشر قبل الميلاد- كما يرجح العلماء- فان تاريخ فلسطين لا يقف في مداه الى بدء عصر الكتابة فيها أوائل الألف الثالث قبل

الميلاد، بل يتجاوزها الى عصور ما قبل التاريخ التي شهدت ظهور الانسان المدرك في فلسطين .

لقد ظهر هذا الانسان المدرك في فلسطين كما ظهر في مناطق مختلفة من العالم . وهناك اعتقاد بين بعض العلماء ان فلسطين ومنطقة الوطن العربي عموما هي المهدي الاول لهذا الانسان . وقد اكتشفت آثاره في عدة مواقع فيها منها جبل الكرمل وأم قطفة والزطية ومجرى نهر الأردن . وتدرج هذا الانسان في سلم الحضارة، ودخل العصر الحجري القديم ثم العصر الحجري الوسيط الذي دام في فلسطين ستة آلاف عام والذي ظهرت فيه حضارة وادي النطوف . وتلا ذلك دخوله العصر الحجري الحديث الذي دام ألف عام ثم العصر النحاسي الحجري وصولا الى العصور التاريخية مع انتشار الكتابة في فلسطين أوائل الألف الثالث قبل الميلاد .

شهدت فلسطين في بداية العصور التاريخية مجيء هجرات متتالية إليها من الجزيرة العربية حملت معها أقواما استوطنوا في فلسطين وامتزجوا بسكانها . وكان العموريون والكنعانيون أول شعبين حملتهما هذه الهجرات الى سوريا الكبرى - وفلسطين جزء منها - وقد تداخلت هجراتهما الى فلسطين . ويميز العلماء بين هذين القومين اللذين ينتسبان الى مجموعة هجرة واحدة لأن آثارهما في فلسطين تكشف عن وجود حضارتين مختلفتين . وهذا الاختلاف الحضاري ناشئ عن ان مركز العموريين الأصلي كان في سوريا، لذلك تعرضوا الى تأثيرات سومرية بابلية، بينما كان مركز الكنعانيين الجغرافي في الساحل، ولذلك كانوا متجهين نحو مصر، أما الاختلاف اللغوي فكان في اللهجة فقط، وكان الاختلاف الديني اختلافا في التطور والتكيف حسب البيئة المحلية^(٧) .

وعرفت فلسطين باسم «أرض كنعان» مع اجزاء من سوريا ولبنان . وكان هذا هو أول اسم تاريخي لفلسطين . وقد امتزج الكنعانيون بمن سبقوهم وعمروا البلاد وأصبحوا السكان الاساسيين لها، واستوطنوا جميع ارض فلسطين بما في ذلك صحراء النقب وغور الأردن وشيدوا حضارة متقدمة . وقامت بينهم وبين الشعوب

المجاورة في وادي النيل وسوريا وبلاد الرافدين علاقات وثيقة حفظت لنا اخبارها الآثار الباقية .

جاءت الهجرة العبرانية الأولى الى فلسطين- كما يرى بعض العلماء- في نحو الألف الثانية قبل الميلاد . وهي تقترن عند هؤلاء بقدم ابراهيم عليه السلام من بلاد الرافدين عبر سوريا الى فلسطين حيث نزل في شكيم « نابلس » ثم انتقل الى جهات رام الله والقدس والخليل وارتحل الى مصر مع عائلته ثم عاد اخيرا الى أرض كنعان . ويلاحظ المؤرخون وهم يوردون القصة التوراتية لقدم ابراهيم الى فلسطين ان الكنعانيين كانوا يشكلون معظم السكان حينذاك وان العموريين كانوا يسكنون المرتفعات . وقد مضى على هؤلاء وهؤلاء اكثر من الف سنة في البلاد . ويرى « حتي » ان مجيء ابراهيم وعائلته هو الهجرة الأولى في هجرات ثلاث حملت العبرانيين الى فلسطين . وقد عاصرت هذه الهجرة انتشار الهكسوس والخوريين في البحر المتوسط الشرقي . بينما يرى « أحمد سوسة » ان عصر ابراهيم هذا هو عصر عربي قائم بذاته وليست له أية صلة بعصر موسى وقوم موسى الذي يقع بعد زمن ابراهيم بسبعماية عام ، والذي شهد وفق ما يرى « حتي » الهجرة العبرانية الثانية الى فلسطين، ارض كنعان، قادمة من مصر في عصر العمارنة خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

ان الاختلاف بين المؤرخين فيما يخص تاريخ العبرانيين القديم متصل بالغموض الذي يحيط ببداية وجودهم في فلسطين وباخبار هاتين الهجرتين التي سجلت بشكل اسطوري . ويلاحظ العلماء ان التاريخ العبراني القديم وضعه كُتّاب عاشوا بعد وقوع الحوادث بمئات السنين ، وهو لذلك ليس بتاريخ دقيق وليس من السهل استخلاص الحقائق منه . ولو نظرنا في الروايات العبرية عن الهجرة الثانية لوجدناها تحكي كيف ترك ابراهيم وريثه اسحق الذي انجب يعقوب . وبعد ان اقام يعقوب في فران آرام عدة سنوات وقع عليه الاختيار ليكون صاحب الشأن دون اخيه عيسو . وتغير اسمه فاصبح اسرائيل وحمل عيسو اسم آدم ، وازيل وورثته من حياة العبرانيين شأنه شان اسماعيل بن ابراهيم وورثته من قبل . ومن بين اولاد يعقوب

الاثني عشر انتقل يوسف الى مصر وفقا للقصة المشهورة وارتفع شأنه في الدولة المصرية . وبعد ان أقام ورثته اجيالاً عديدة في مصر عادوا الى فلسطين تحت قيادة موسى عليه السلام .

كانت أرض كنعان خلال الفترة التي مضت بين الهجرتين العبرانيتين قد شهدت احداثاً هامة منها دخولها في حكم الاسرة الثانية عشرة المصرية (٢٠٠٠ - ١٧٨٨ ق.م .) ومنها مرور الهكسوس بها حين غزوا مصر ، ومعركة مجدو الفاصلة سنة ١٤٨٦ ق.م . التي انتصر فيها تحوتمس الثالث على امراء سوريا وبقايا الهكسوس . ومن هذه الاحداث ايضاً مجيء جماعات من الحثيين للسكن فيها بعد ان اقاموا دولتهم في آسيا الصغرى ، وكذلك مجيء جماعات من الحوريين اقاموا في نابلس والشمال بعد ان أسسوا مملكة ميتاني شرق الفرات . كما جاءها ايضاً «العبيرو أو الخابيرو» الذين استولوا على شكيم سنة ١٣٦٧ ق.م . وفقاً لما جاء في رسائل تل العمارنة ، وقد اختلف العلماء في اصلهم ورجحوا انهم جند مرتزقة . ثم جاءت الهجرة الآرامية من جزيرة العرب خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، فاتجهت الى سوريا وبلغت اطراف ارض كنعان .

يبدأ تاريخ بني اسرائيل الحقيقي كشعب عند عدد من العلماء - مع الهجرة التي جاءت من مصر بقيادة موسى ويوشع في اواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وهي عند فيليب حتي الهجرة العبرانية الثالثة . وقد وردت اقدم اشارة «لاسرائيل» كاسم لقوم يعيشون في فلسطين في نصب وجد بطيبة يعود تاريخه الى عام ١٢٣٠ ق.م .

ان تاريخ هذه الهجرة بايجاز هو ان قبيلة راحيل العبرانية كانت قد وجدت لها مأوى في مصر زمن الهكسوس قرب عاصمتهم افاريس ، غادرت مصر الى سيناء وفلسطين . وقد حصل هذا الخروج في عهد مرنفتاح ابن رمسيس (١٢٢٤ - ١٢١٥ ق.م .) وقضى افراد هذه القبيلة عدة سنوات في سيناء والنقب . وكان زعيمهم موسى قد تزوج ابنة شيخ صالح من مدين في القسم الجنوبي من شبه

جزيرة سيناء. وحذا حذوه بعد ذلك آخرون من قومه فتزاجوا مع المدينيين وسائر بدو شمال الجزيرة العربية. وكان موسى قد اوحى اليهم في مدين. ولم يلبث هؤلاء العبرانيون ان اتجهوا لاحتلال الأراضي الخصبة في فلسطين، فجاؤوها من ناحية شرق الأردن، وكان عددهم لا يتجاوز سبعة آلاف. وقد تجنبوا في تحركهم ممالك آدوم ومؤاب وعمون شرقي البحر الميت وشماله. وكان اول فوز لهم في شرق الأردن على ملك العموريين ثم على ملك باشان. ولم يلبثوا ان احتلوا في فلسطين بعض المدن الكنعانية المحصنة مثل لاجاش «تل الدوير» وعاي واريحا. وقد احرق يوشع اريحا بالنار بأمر الهه واحرق «كل ما بها». ولم تسقط مجدو في الشمال في ايديهم الا بعد قرن. واستعصت عليهم مدن كنعانية اخرى منها بيت شان وارشليم وجزز لفترة طويلة.

نلاحظ ان هذا الاحتلال العبراني لأجزاء صغيرة من فلسطين ارض كنعان تم من جهة بالغزو العسكري، وتم من جهة اخرى بالتغلغل السلمي البطيء الى ارض «اللبن والعسل». فبعد ان نجح هؤلاء القادمون الجدد في الحصول على موطن قدم في اراضي فلسطين المزروعة بدأوا يتغلغلون ويقوون من خلال التزاوج مع شعب فلسطين من الكنعانيين حتى تمكنوا ونجحوا في السيطرة على تلك الاجزاء بطريق المعاهدة أو الغزو او الامتنصاص التدريجي. وقد سجل مؤرخوهم المعارك التي خاضوها ابان غزوهم العسكري وغالوا في سرد احداثها وجعلوها محور مروياتهم.

بعد ان سيطر العبرانيون على بعض اجزاء فلسطين قسموها بين قبائلهم الاحدى عشرة وتركوا قبيلة لاوي الكهنوتية موزعة بينها لتهم بشؤونهم الدينية. وشملت فترة الاستيطان الربع الأخير من القرن الثاني عشر والاربع الثلاثة الأولى من القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وخلال تلك الفترة ظهر القضاة، وهم حكام قادوا شعبهم ضد الاعداء المجاورين، ومن هؤلاء القضاة ديورة وجدعون وشمشون الذي اشتهر بنزاعه مع الفلسطينيين وردد القصاصون العبرانيون قصة هذا النزاع مع اضافات كثيرة عليها⁽⁸⁾.

وكان الفلسطينيون يعيشون في ساحل البلاد الجنوبي . وقد جاءوا اليه من منطقة ايجة حين أدت حركات غامضة لشعوب آسيا الصغرى وبحر ايجة- كما يقول حتي- الى تفرق قبائل بكاملها راحت تبحث عن موطن لها . وقد وصل بعض هذه القبائل الى الساحل المصري فصدهم رمسيس الثالث في معركة بحرية وبرية حوالى ١١٩١ ق . م . ولكنه سمح لهم بالنزول في ساحل سوريا الجنوبي الذي صار يسمى « فلسطين » . وقد اقاموا هناك في خمس مدن رئيسية هي غزة وعسقلان واسدود وعافر وجات (عراق المنشية) احتفظت باسمائها السامية . وكانت جات ابعد مدنهم في الداخل ، كما كان الكرمل الحد الفاصل بينهم وبين الفينيقيين . وقد استولوا على عدد من المدن الكنعانية واسسوا مدينتي اللد وصقلغ (تل الخريفة) . وكانوا حريصين على البقاء قريين من البحر .

يرى بعض العلماء ان الفلسطينيين من الشعوب الهندية الاوروبية مستدلّين على ذلك برسوم لهم وجدت على بناء تذكاري اقامه رمسيس الثالث ، وبمجيئهم من كريت . ولكن الاستاذ علي نصوح الطاهر يرى ان هناك « فلسطينيين موجودون في فلسطين قبل أولئك الذين جاءوا من كريت . وهم ينسبون الى الفلاسة من اليمن . فالفلاسة هم اجداد الفلسطينيين وهم من عرب اليمن . وقد استقروا مع الكنعانيين والعموريين والجرجانيين والفرزيين والحوريين واليبوسيين . ولا تزال القبيلة الأم تحتفظ باسمها » . ويعتقد الاستاذ الطاهر ان بعض هؤلاء الفلسطينيين اكتشفوا جزيرة كريت وأقاموا فيها ثم عادوا . ويشير الى منطقة تحمل اسم المفاليس والى ان الفلاسة كانوا بحارة يحترفون صيد السمك والههم داجون هو اله البحر واله السمك^(١) .

نظم الفلسطينيون مدنهم على شكل ممالك مدن وربطوا بينها باتحاد وكانت اسدود هي العاصمة . وبلغوا ذروة قوتهم في النصف الثاني للقرن الحادي عشر ، وبدوا المنافس الاقوى للعبانيين . وقد حاربوهم حوالى سنة ١٠٥٠ ق . م . وأخذوا منهم تابوت العهد وحملوه الى اسدود . وكان سر تفوقهم معرفتهم صهر الحديد واستخدامه في السلاح . وهكذا يسجل لهم نقل حضارة المنطقة من مرحلة البرونز

الى مرحلة الحديد. وقد تميزوا بميلهم للاسفار البعيدة، وكانت لهم تجارتهم مع مصر وكريت وبلاد اليونان. وقد ضعفت سلطتهم بعد فترة لم تطل فغلبهم داود (المتوفى عام ٩٦٣ ق. م) وما اسرع ما اندجوا في سكان ارض كنعان وتكلموا اللغة الكنعانية. ولم يتركوا الا اليسير لمعرفة لغتهم وديانتهم ومظاهر حضارتهم الأخرى. ولكنهم تركوا اسم فلسطين لتعرف به «ارض كنعان»، ولعل هذه الحقيقة هي التي حدث بنا الى اثبات رأي الاستاذ الطاهر لأنه ينسجم معها.

من خلال هذا العرض لبدايات الوجود اليهودي «العبراني» في فلسطين يمكننا ان نستخلص النتائج التالية:

أولا : ان فلسطين كانت مأهولة بالسكان منذ اقدم العصور التاريخية، وانها من ثم كانت على مدى الحقب التاريخية وطنا لشعبها. وانها بحكم الموقع والجغرافيا كانت ممرا لشعوب أخرى.

ثانيا : ان فلسطين والهلال الخصيب عامة كان منذ القديم منطقة جذب سكاني مرتبطة بجزيرة العرب التي كانت مركز طرد سكاني. وقد تتالت الهجرات العربية من جزيرة العرب الى فلسطين وبلاد الهلال الخصيب الأخرى فحملت اليها العموريين والكنعانيين والآراميين والعبرانيين وربما ايضا من حملوا اسم الفلسطينيين، وكان للهجرة الكنعانية اثر كبير في طبع البلاد بطابعها العربي الذي حافظت عليه. وقد اندمجت شعوب هذه الهجرات بمن كان مقيما على ارض فلسطين واصبح افرادها ينتمون الى شعب فلسطين. وفي جميع هذه الحالات وفيما بعد ايضا برهنت فلسطين - كجزء من سوريا عامة - على مقدرتها في امتصاص القادمين الرحل او نصف الرحل من البدو بتشجيعهم على الاستقرار. ويضرب حتي مثلا على ذلك بالعبرانيين. «فقد اتى افراد الشعب الذي عرف فيما بعد بهذا الاسم على صورة متجولين ومغامرين ومرترقة وجنود لا ارتباط لهم. ثم استقروا بالتدريج

بين السكان الذين كانوا ارقى منهم فتعلموا حث الأرض وبناء المنازل وممارسة فنون السلم. وأهم من ذلك القراءة والكتابة. واتخذوا اللغة الكنعانية لغة لهم. واصبحوا ورثة المظاهر الأساسية للحضارة الكنعانية»^(١٠).

ثالثا : كانت فلسطين منطقة جذب لجماعات من شعوب أخرى مرت بها او اقتربت منها تعود الى اصل هندي اوروبي مثل الحثيين والخوريين. وقد انصهرت هذه الجماعات في بوتقة شعب فلسطين وطبعت بطابعه.

رابعا : كانت فلسطين بحكم موقعها على اتصال وثيق بكل من مصر في الجنوب وسوريا وبلاد الرافدين في الشمال الشرقي. وكانت بحكم هذا الاتصال مكانا لتفاعل حضارات هذه الشعوب. وقد حدثت على ارضها اكثر من معركة فاصلة حين وقع الصدام لسبب او لآخر بين شعوب المنطقة.

★ ★ ★

ثانيا : حول المملكة العبرانية والحضارة العبرانية

بعد ان احتل العبرانيون اجزاء من فلسطين اسسوا مملكتهم فيها، واختاروا شاول أول ملك عليهم نحو عام ١٠٢٠ ق.م. بعد ان اقتبسوا فكرة الملكية من جيرانهم.

كان هذا الملك الأول فاشلا ومخبيا للآمال. وقد انتحر بعد أن هزم أمام الفلسطينيين في معركة جلبوع- جلبون حاليا-. وتولى داود حامل سلاح شاول (نحو ١٠٠٤-٩٦٣ ق.م) فكان المؤسس الحقيقي للدولة. وكان محاربا فنجح في توسيع حدود المملكة الى ابعد مما بلغته في أي وقت آخر. واتخذ اور سالم

عاصمة له بعد ان انتزع السلطة فيها من أيدي سكانها اليوسيين . وكانت القدس اليوسية مملكة مدينة كمدن الكنعانيين الأخرى . وسكانها اليوسيون هم بطن من الكنعانيين . ويعود تاريخ تأسيسها الى الفي سنة قبل ان يحتلها داود . وقد وفق داود في اختياره القدس عاصمة ملكه ، لانها حصينة ويسهل الدفاع عنها . كما انها تقع خارج المراكز القبلية الأصلية وتتحكم في طريق رئيسي من أهم الطرق الداخلية يربط شمال البلاد بجنوبها .

اشتهر داود «المحارب» بانجازاته الأخرى . فقد شيد قصرا في عاصمته بناه معماريون من «صور» ارسلهم صديقه الفينيقي حيرام . واشتهر على الخصوص بشعره ، واليه نسبت «المزامير» . وفي عهده ظهر الأدب العبراني وبدأ المذكر يُدون الأحداث الهامة ويحفظ الحوليات الملكية .

ورث سليمان أباه داود وحكم المملكة حوالي ثلاثين سنة (٩٦٣-٩٣٣ ق.م.) فبلغت في عهده درجة عالية من المجد والابهة بالمقياس النسبي . وكانت له مشاريعه التجارية والصناعية واعماله العمرانية . وقد بني هيكلا وتحصينات وثكنات واختلطت مع تاريخه الاساطير والقصص الخيالية لتجعل اسمه مرادفا للقوة والفخامة والحكمة . غير ان الوثائق التاريخية لا تدعم هذه الافكار . ويلاحظ المؤرخون ان مساحة المملكة انكسحت في آخر عهده وضاق الناس بنظام السخرة الذي استخدمه في تشغيل العمال ، وبالانفاق والتبذير . الأمر الذي ادى الى انقسام المملكة في عهد خلفه .

جاء انقسام المملكة حين رفضت عشر قبائل اسرائيلية الاعتراف برحبعام ملكا عليها . وكان رحبعام هذا فتى في السادسة عشرة من عمره متهورا قاسيا . وشكلت هذه القبائل العشر مملكة اسرائيل وبقيت قبيلتان مع رحبعام شكلتا مملكة يهوذا .

فاما مملكة اسرائيل فقد اتخذت شكيم عاصمة لها أولا ثم انتقلت العاصمة الى ترزه فالسامرة . وأما مملكة يهوذا فبقيت اورشليم عاصمة لها . وقد اشتد الخلاف بين المملكتين فحاضتا حروبا عدة ضد بعضهما . وحفل تاريخهما القصير بالثورات والمكائد ، الأمر الذي ادى الى خرابهما .

جاءت نهاية مملكة اسرائيل على يد سرجون الثاني الملك الاشوري عام ٧٢٢ ق.م الذي سبي احسن رجالها وأخذهم الى «ميديا» وجاء انتهاء مملكة يهوذا على يد نبوخذ نصر ملك بابل الكلداني عام ٥٨٦ ق.م. وكانت قد تعرضت في نشاتها الأولى لغزو شيشنق فرعون مصر لها عام ٩٢٠ ق.م. فوُجعت تحت النفوذ المصري لفترة، ثم تعرضت لهجمات الآشوريين ودفعت لهم الجزية حتى كانت نهايتها التي اقترنت بتخريب نبوخذ نصر للقدس وسببه عظماء البلاد ونقلهم الى بابل، وهكذا اصبحت فلسطين - شأنها شأن سوريا- تحت حكم الكلدانيين الذين ورثوا مملكة آشور فيما بين النهرين.

ونظر في حضارة بني اسرائيل العبرانيين على ارض فلسطين فنجد انهم اتبعوا في مراحل حياتهم الاولى النموذج الحضاري للمنطقة، والذي يمثله الكنعانيون. فأخذوا من كنعان لغتها وابتديتها. وحين جاءوا في الهجرة الثالثة تركوا لهجتهم القديمة واتخذوا لهجة فلسطين الكنعانية. وتعلموا من هذا الشعب الكنعاني الزراعة فانتقلوا من البداوة والرعي الى الزراعة والاستقرار. واقتبسوا طقوس الكنعانيين وفنهم. وقد خطط هيكل سليمان وفقا لتخطيط معبد كنعاني وزخرف بنماذج كنعانية. واستخدم بنو اسرائيل في الطقوس الآلات الموسيقية وفقا لما كان يقوم به الكنعانيون، كما اقتبسوا منهم العادات بعد ان تزوجوا معهم. وهكذا تكرر مع هذه القبائل ما حدث للجماعات الاخرى التي استوطنت فلسطين وانصهرت في بوتقة حضارة شعبها.

لقد اسهم بنو اسرائيل في هذه الحضارة في مجال واحد هو المجال الروحي. وتجل هذا الاسهام في العهد القديم الذي حفظ تاريخ انبياء بني اسرائيل والمعلمين الدينيين. وقد اكتسب هذا الكتاب اهمية خاصة في العصور التي سبقت ظهور المسيحية باعتباره الأثر الأدبي الوحيد الذي توارثته الاجيال عن طريق المرويات والتقاليد المتواصلة. بينما تأخر وصول الآثار الأدبية الأخرى في الحضارات القديمة حتى حدثت الاكتشافات الأثرية الحديثة فاخرجتها من باطن الأرض حيث ظلت مدفونة اجيالاً طويلة.

شارك في تأليف العهد القديم مؤرخون ومعلمون دينيون على مدى فترة طويلة، ومرت مادته بأطوار كثيرة من الانتقاء والحذف والتحقيق والضبط قبل ان تتخذ شكلها النهائي. ونجد من بين هؤلاء المعلمين «المُشرع» الذي يتكلم بلسان «يهوه»، و «الكاهن» الذي يعلم الشريعة، «والرجل الحكيم» الذي يخاطب الفرد، و «الشاعر» الذي يطلق اغانيه معبرا عن عواطف الانسان، ثم «النبي» الذي يتكلم بوحى من عند الله. ويلاحظ ان عقيدة التوحيد تطورت في العهد القديم من اعتبار «يهوه» إلهاً لبني اسرائيل وحدهم الى الاعتقاد به إلهاً لهم ولشعوب أخرى. وبعد التوراة جاء تأليف التلمود (ومعناه دراسة او عقيدة). وهو يضم الشرائع التقليدية او الشفهية التي تشرح قانون الكتب الخمسة المكتوب. وقد كتب جزء منه بالأرامية التي اصبحت وسيلة التعبير بعد العبرية عند المفكرين الدينيين اليهود^(١١).

يمكننا من خلال هذا العرض ان نستخلص النتائج التالية :

أولاً : كانت القدس مملكة مدينة كمدن الكنعانيين والفلسطينيين حين احتلها داود واقام فيها مملكته العبرانية. ويمتد تاريخها ألف سنة قبل مجيء داود. ولقد استمرت المملكة العبرانية فترة قصيرة قبل ان تنقسم الى مملكتين عام ٩٢٣ ق. م. ولم يطل بقاء هاتين المملكتين فانتهت مملكة اسرائيل بعد قرنين عام ٧٢٢ ق. م. وانتهت مملكة يهودا بعد ثلاثة قرون ونيف عام ٥٨٦ ق. م. واستمر الطابع السياسي لفلسطين على حاله اثناء وجودهما وبعد زوالهما من حيث تعدد الحكام والتفاعل مع مصر جنوبا وسوريا شمالا.

ثانياً : اقتبس العبرانيون الحضارة الكنعانية في شتى مظاهرها واغنوا الجانب الروحي فيها ووصلوا الى التوحيد.

ثالثاً : تفاعل شعب فلسطين مع الهجرات العبرانية وامتصها، واصبح العبرانيون ودينهم جزءا من تراثه.

ثالثاً: حول انتشار الدين اليهودي ابان الحكم الفارسي والحكم اليوناني في فلسطين والثورة المكابية

شهدت فلسطين منذ القرن العاشر قبل الميلاد وحتى ظهور الاسلام وقيام الدولة العربية الاسلامية تتابع حكم دول وامبراطوريات لها تداولت الايام بينها فيها . فقد حكمها المصريون فالاشوريون ، فالكلدانيون فالفرس فالاغريقى ، بطالسة وسلوقيين ، فالرومان فالروم البيزنطويين . وحفلت هذه العهود باحداث وأحداث تجلت من خلالها قدرة شعب فلسطين على التكيف وعلى الجمع بين الاصاله والتجديد بالحفاظ على هويته وبالتفاعل مع التجارب الحضارية الاخرى وتبادل التأثير معها .

عاش اليهود في فلسطين ، وقد اصبحوا جزءا من شعب فلسطين ، هذه العهود . وشاركوا في الاحداث التي جرت على ارض فلسطين ابانها . ونستعرض بايجاز أبرز هذه الاحداث بهدف التعرف على الطابع الذي طبع تاريخهم خلال تلك الفترة .



بقيت فلسطين، بعد اخضاع نبوخذنصر لها وتدمير القدس عام ٥٨٦ ق م . وسببه عظماء البلاد ونقلهم الى بابل، تحت حكم الكلدانيين حتى عام ٥٣٨ ق م . الذي شهد سقوط بابل في ايدي الفرس بقيادة كورش . واصبحت فلسطين جزءا من امبراطورية الفرس التي امتدت من مصر وآسيا الصغرى الى البنجاب في الهند . ودخلت مع سوريا وقبرص بعد تنظيم الامبراطور دارا (٥٢٦ - ٤٨٦ ق م) الامبراطورية في المقاطعة الخامسة (مرزبانة عبر نهرا) اي عبر نهر الفرات ، وتمتعت مع جميع المرزبانات الاخرى بوضع مستقل الى حد ما ، ودفعت جزية خفيفة نسبيا . فكان ذلك مما ساعد على الاستقرار فيها . وعادت المدن الكنعانية الى الازدهار كمراكز للتجارة العالمية في ظل هذا السلم الفارسي .

شهدت فلسطين مع بداية حكم الفرس لها رجوع بعض يهود السبي من بابل . فقد اصدر كورش مرسوما بعد احتلاله المدينة يسمح لهم بالعودة ، متصورا على ما يظهر ان وجود طائفة يهودية موالية له في فلسطين يشكل توازنا فعالا مع الحزب الموالي للمصريين الذي طالما برز في شؤون فلسطين .

لا يمكن ان نحدد بالضبط عدد اليهود الذين عادوا ، ولكن الرقم الذي ورد في بعض كتب اليهود ، وهو حوالي اثنين واربعين الفا يبدو مبالغيا فيه ، اذا ما قورن بمجموع المسيبين وهو ثمانية وخمسون الفا . وقد فضل اكثر اغنياء المسيبين البقاء في بابل - كما تظهر الوثائق . وكان زعيم اليهود العائدين زرو بابل ، وهو من سلالة احد ملوك اليهود . وقد ارجع معه كنوز الهيكل التي نهبها نبوخذنصر ، واعترفت به الجماعة العائدة حاكما عليها لبعض الوقت . وفي عهد داريوس اعيد بناء الهيكل على نفقة الدولة سنة ٥١٥ ق . م . بعد صعوبات كثيرة^(١٢) .

وفي عهد ارتخششتا الأول (٤٦٥-٤٢٤ ق . م .) عاد فريقان آخران من اليهود المسيبين احدهما برئاسة نحشيا والآخرين برئاسة عزرا . وبلغت النظر البرنامج العنصري الذي سارا عليه وادخله العقيدة الدينية . والذي كان فيه وجوب طلاق الزوجات غير اليهوديات وعلان ابنائهن غير شرعيين . كما بلغت النظر ايضا ان اللغة الازامية حلت محل اللغة العبرية كلغة دارجة وفي المراسلات الرسمية بين اليهود ، وظلت العبرية تستخدم كلغة دينية وبلغت النظر اخيرا أن رجوع هؤلاء اليهود من بابل لم يقابل بالارتياح من قبل غالبية اليهود الذين بقوا في فلسطين ، ولا من قبل سكان الجنوب والساحل الذين اسمتهم التوراة لأول مرة «العرب» بعد ان كانت تسميهم الكنعانيين ، بل حاولت جماعات من هؤلاء وهؤلاء مقاومة هذا الرجوع .

استمر الحكم الفارسي لفلسطين والمنطقة المحيطة بها نحو قرنين . وقد استطاع ان يستميل اليه اهل البلاد بما وفره من استقلال نسبي لهم ، وما حققه من تنظيم ، حيث عبد الطرق ونظم البريد وسك النقود . وعلى الرغم من اننا لا نعرف سوى القليل عن تطور الحضارة في فلسطين خلال هذا الحكم ، الا انه يمكن القول ان

هذه الحضارة ظلت كما كانت في العصور السابقة تتألف من عناصر عربية سامية، وتشكل المصادر الأرامية والكنعانية عنصرها السائد. وقد ظهر شيء من التأثير الفارسي على الديانة اليهودية. وبقيت اللغة الأرامية لغة رسمية تستعمل في التجارة والكلام والمعاملات جنباً إلى جنب مع اللغة الفارسية التي استخدمها الولاة.

★ ★ ★

جاءت نهاية الحكم الفارسي في فلسطين والمنطقة عام ٣٣٢ ق.م. على يد الاسكندر المقدوني بعد انتصاره على داريوس الثالث في معركة ايسوس عام ٣٣٣ ق.م. وقد بنى الاسكندر الأكبر امبراطورية امتدت شرقاً حتى السند وعاد الى بابل عام ٣٢٦ ق.م. ولم يلبث ان توفي بالحمى عام ٣٢٣ ق.م. قبل ان يتم الثالثة والثلاثين من عمره.

نشبت الصراع بين قواد الاسكندر حين تسابقوا للفوز باقسام امبراطوريته. وبعد حروب دامية طويلة نجح بطليموس الذي حكم مصر في أخذه فلسطين وضمها الى مملكة البطالسة عام ٣٠١ ق.م. وبقيت كذلك اكثر من قرن باستثناء فترات متقطعة. وقد ساد التسامح في فلسطين بشكل عام خلال الحكم البطليسي الذي لم يتعرض لعقائد الأهلين وتقاليدهم. وفي عهد بطليموس فيلادلفيوس «محب العلم» ترجمت التوراة الى اليونانية على يد سبعين عالماً يهودياً دعاهم الى مصر للقيام بهذه المهمة. وحاول الحكام البطالسة - شأنهم شأن الاسكندر وورثته عموماً - نشر المدنية اليونانية في فلسطين والبلاد التي حكموها. واشتد بطليموس الرابع بمحاولته وضاق ببعض اليهود الذين لم يستجيبوا له فزاد عليهم الضرائب. ونشبت الحرب بين البطالسة والسلوقيين في عام ١٩٩ ق.م. واستمرت اكثر من عشرين سنة فجرّت على فلسطين وجاراتها الولايات والشدائد. وانتهت بنجاح انطيوخس الثالث السلوقي الملقب بالكبير في الاستيلاء على فلسطين عام ١٩٨ ق.م.^(١٣).

كان حماس السلوقيين لنشر المدنية اليونانية أشد من حماس البطالسة، انسجاما مع سياستهم التقليدية التي اعتبرت «الهلينية» القاسم المشترك الذي يلتقي عليه جميع رعايا دولتهم. وقد ذهب انطيوخس في محاولته ابعده مما يجب حتى انه اعلن نفسه «الآله الظاهر» وقرن نفسه «بزفس» كبير آلهة اليونان. وشجع اعتبار «يهوه» اله اليهود مساويا لزفس. وكان خاصة اليهود في القدس قد تجاوزت مع رغبات الحكام السلوقيين فتنبت اللغة والعادات اليونانية. واصبح اللباس اليوناني شائعا بين الشبان وكذلك الالعب اليونانية. ولكن تشدد انطيوخس ادى الى ظهور معارضة قوية بين اليهود دعت الى التمسك باصول الديانة اليهودية وباساليب الحياة التي درجوا عليها. ويلاحظ في هذا المقام ان شعب فلسطين على وجه العموم بقي على طبيعته الكنعانية العمورية في المعيشة والعادات والديانة، وبقيت اللغة الازامية هي السائدة، وانحصرت معرفة اليونانية- لغة الحكام بين الخاصة. وحين فرض انطيوخس عبادة زفس اوليمبوس على السكان فانهم عبدوه بعد ان قرنوه بشخصية الههم بعل، والبسوه ثيابا واسبغوا عليه صفات نصف عربية سامية واقاموه في معابد شبه عربية سامية.

تفجرت معارضة بعض اليهود من شعب فلسطين لسياسة انطيوخس ثورة في عام ١٦٨ ق. م. وكانت شرارتها خلافا بين اخوين على شغل وظيفه الخبر الأعظم ادى الى الحرب، وقد وجهت الثورة أول الأمر ضد الطبقة العليا التي تستغل العامة اكثر منها ضد الحكومة المركزية. وحين اعلن انطيوخس الحكم العرفي وابعاح مدينة القدس وامر بالغاء الدين اليهودي- هب الكاهن ماتاتياس من قرية مودين «المدية» الواقعة شرق اللد واعتصم بقريته ومعه ابناؤه الخمسة وشرع يحضر للثورة. وقد قاد الثورة ابنه يهوذا الذي اتخذ فيما بعد لقب «المكابي». وأصل اللفظ غير واضح وربما اشتق من العبرية «مقبة» اي المطرقة اشارة الى ضرباته للعدو. وكانت أول مشكلة جابهت الثوار هي القتال في يوم السبت. وقد رفض بعض اتقياء حاسيديم (من المتشددين في التمسك الحرفي بالوصايا العشر) تدينس السبت بالقيام باعمال حربية، فابادهم جنود انطيوخس بسهولة. وعولجت هذه

المشكلة بصدور فتوى تبيح القتال في السبت . ونظم يهوذا واخوته عصابات غير نظامية تعمل في التلال . وقد نجحت هذه العصابات في انزال ضربات قتالية بجنود انطيوخس . وبعد عدة معارك امكنا السيطرة على القدس . فظهر اليهود الثائرون هيكلهم واعادوا العمل بطقوسهم . واصبح ذلك اليوم عيدا يهوديا يحتفل به سنويا باسم عيد هنوكه «التكريس» .

كانت ثورة المكابيين في بدايتها ذات طابع ديني . ولم تلبث ان تطورت الى ثورة سياسية . وقد توجهت في وقت واحد ضد القوات الحكومية وضد انصار الثقافة الجديدة «الهلنسية» من اليهود ، وانتصرت في المجالين . ويلاحظ ان الدولة السلوقية كانت قبل نشوب هذه الثورة قد بدأت تعاني من الضعف ، وقد اصيبت بهزيمة على يد الدولة الرومانية الفتية في آسيا الصغرى واشضرت في عام ١٨٨ ق . م . الى التخلي عن ممتلكاتها وراء جبال طوروس . وزاد من ضعفها انهماك حكامها في الملذات وانقسام ولاتهم . وهكذا استطاع المكابيون فرض وجودهم في فلسطين وانتخبوا سمعان شقيق يهوذا كاهنا اعظم وحاكماً سنة ١٤١ ق . م . ولم يجد الملك السلوقي ديمتريوس الثاني مناصبا من الاعتراف بالأمر الواقع . فمنح اليهود من شعب فلسطين نوعا من الاستقلال تحت حكم سمعان . وبقي هذا الوضع حتى جاء الرومان بعد ثمانين سنة واحتلوا فلسطين .

سيطر التعصب على اليهود المكابيين بعد انتصارهم ، فحاربوا اليهود اصحاب النزعة الهلينية . كما حاربوا غير اليهود من شعب فلسطين . وقد اكره يوحنا هيركانوس الاول (١٣٥ - ١٠٥ ق . م) - الذي خلف والده سمعان - سكان جنوب فلسطين من الادوميين على اليهود والاختتان حوالي سنة ١٢٦ ق . م . كما هاجم السامريين الذين قبلوا مشروع انطيوخس وهدم مدينتهم مع معبدها . وكانت سلطته تعم الاجزاء الواقعة جنوب الكرمل عدا مدن الساحل . وحين تولى ابنه اريسطوبوليس (١٠٥ - ١٠٢ ق . م) اتخذ لنفسه لقب ملك ووضع تاجا على راسه . ويلفت النظر أنه اتخذ اسما يونانيا وحذا حذوه ملوك سلالته المتأخرون . وفي عهد خلفه اسكندر جناديوس (١٠٣ - ٧٦ ق . م) اصبحت الكلمات

اليونانية مضروبة على النقود الى جانب العبرية، واتسعت رقعة المملكة .

حفل حكم هذين الأخوين بصور التعصب الديني التي كان منها اكراه سكان الجليل من الايطوريين العرب الذين يتكلمون الازامية على اليهود والختان . ويشير توينبي الى هذا الحادث باعتباره « اقدم حادث تاريخي معروف من حوادث التعصب الديني » . كما يلاحظ « حتي » ان سكان الجليل هؤلاء هم الذين عمل بينهم فيما بعد السيد المسيح واتخذ منهم اكثر تلاميذه ، فكانوا من أصل غير يهودي ويتكلمون العبرية برطانة ، وكان اليهود ينظرون اليهم بأنهم ادنى من اليهود القدماء وغير أهل لظهور نبيّ فيهم . وقد اعتبر تصرف يوحنا هيركانوس وولديه في التخيير بين اليهود او الابداء سابقة اتبعها آخرون من هذه الاسرة في معاملتهم للمدن والشعوب التي يقهرونها . وتكثر في تاريخ هذه الاسرة قصص الجرائم التي اقترفها ملوكها، فقد ترك ارسطوبولوس أمه تموت جوعا في السجن وقتل أحد اخوته . وحين فتح اسكندر جينوس احدى المدن قبض على ثمان مئة رجل وأتى بهم الى اورشليم حيث صلبهم في يوم واحد وسبى نساءهم واطفالهم وذلك عام ٨٦ ق . م . وقبل ذلك اتبع استيلاءه على غزة بمذابح مخيفة عام ٩٦ ق . م . ادت الى تحول الشاطيء المزدهر بين غزة وعسقلان الى صحراء بلقع^(١٤) .

تزامنت انتفاضة المكابيين على الحكم السلوقي مع انتفاضات اخرى عليه . وضغطت القبائل العربية على الجزء الجنوبي من المملكة السلوقية . واصبح الانباط العرب قوة هامة هناك . وكانوا قد طردوا بقايا الادوميين من منطقة البتراء قبل ٣١٢ ق . م . ثم استقلوا عن السلوقيين بسورية الداخلية الجنوبية حوالي ٨٥ ق . م . واصبحت دمشق تحت حمايتهم . كما استقل الايطوريون العرب بالبقاع واللجاة . واستقلت بعض المدن الفينيقية . وفي الشرق برزت سلالة عربية في الرها حوالي ١٣٠ ق . م . عرفت باسم الفرتين وامتدت امبراطوريتها من الفرات الى السند ومن جيحون حتى المحيط الهندي . وبرزت على حدود المملكة السلوقية الشمالية مملكة أرمنية استطاع ملكها بتفرانس ان يصل بجيشه حتى جنوب عكا عام ٦٩ ق . م . ثم انسحب بها حين أعلنت روما الحرب عليه . وكانت قوة روما قد

بلغت درجة عظيمة فمدت سيطرتها على آسيا الصغرى. ثم جاء القائد الروماني بومبي لينهي الحكم السلوقي ويحتل سوريا عام ٦٤ ق. م. ثم يحتل فلسطين في السنة التالية عام ٦٣ ق. م.

يمكننا ان نوجز بعض الملاحظات على هذه الفترة :

أولا : على الصعيد الاداري حافظ الحكم اليوناني بوجه عام على الوحدة الادارية الفارسية «المرزبانية». وقسمت فلسطين الى ثلاثة ألوية هي الجليل والسامرة والقدس. وهذه الاخيرة كانت ذات تنظيم خاص لكنها تدفع الضريبة للدولة.

ثانيا : على الصعيد الحضاري كانت ابرز مظاهر الحكم اليوناني لفلسطين بطلسياً او سلوقياً هو سعيه لنشر الهلينية فيها. وقد نشط الحكام اليونانيون في تاسيس المدن لتكون مراكز للثقافة اليونانية، واختاروا لها المواقع بعناية في نقاط استراتيجية وعند مراكز المواصلات الهامة وعلى طول مجاري الانهار. وقد تفاوت انتشار الهلينية من منطقة الى اخرى في فلسطين وغربي آسيا عموماً. وانقسم اليهود شأنهم شان بقية شعب فلسطين في موقفهم من الثقافة القادمة، فطبعت خاصتهم بالطابع الهليني بينما بقيت عامتهم كنعانية الطابع. واستمرت اللغة الارامية طوال الحكم اليوناني لغة الشعب الدارجة. وبقي الشعب محافظاً على كنعانيته في طرق معيشتة وعلى الخصوص في الريف. ونجحت الحضارة الكنعانية في عملية التفاعل الحضاري مع الحضارة الاغريقية. وقد لخص «بريستد» حصيلة التأثير اليوناني على البلاد بقوله «ان هذا التأثير لم يسر على السواء في جميع انحاء البلاد بل كاد ينحصر في المدن فقط. ولم يتأثر به سكان القرى والديساكر الذين آثروا البقاء على عاداتهم السامية القديمة والتكلم بلغات آبائهم والاحتفاظ بتقاليدهم وافكارهم».

كانت انتفاضة المكابيين واحدة من انتفاضات عدة على الحكم السلوقي وجاءت ابان ضعف المملكة. وهي تقع ضمن الصراع الحضاري الذي اشتد مع عمليات القسر الحضاري. وبلغت النظر ذلك التحول الذي حدث في الاسرة التي قادتها من مواقع الانكماش عن الحضارة اليونانية الى مواقع الانغماس فيها. كما بلغت النظر وقوع القائمين عليها في عمليات القسر الديني الذي تمثل في فرض اليهودية على قطاعات واسعة من شعب فلسطين

★ ★ ★

رابعا: حول انحسار اليهودية وانتشار المسيحية في فلسطين ابان حكم الرومان

فحين زحف القائد الروماني «بومبي» على فلسطين كان الصراع محتدما في «اليهودية» بين ابني اسكندر هيركانوس واريستوبولس بعد موته. وقد فتح هيركانوس وانصاره بوابات القدس للرومان، ولكن بومبي احتاج ثلاثة شهور من الحصار للمدينة حتى يقضي على مقاومة اريستوبولس وانصاره.

ابقى بومبي «اليهودية» دولة خاضعة ضمن اطار ولاية سورية بعد ان اخرج منها المدن ذات الدساتير اليونانية التي سبق ضمها اليها. ومنحت هذه المدن حرية داخلية في ظل حكام الولايات، وشكلت عشرٌ منها تجمعاً عرف باسم ديكابوليس انضمت اليه مدن اخرى فيما بعد. ومنحت غزة ومستعمرات أخرى في سوريا الحكم الذاتي وجعلت تحت حكام الولايات. وسمح للملوك العرب من الانباط الاستمرار في الحكم مع دفع الجزية.

لم تلبث سلطة «اليهودية» ان نقصت حين ولى بومبي على سورية اولوس غابينوس (٥٧-٥٥ ق. م) فجرد غابينوس كاهن اليهودية الاعظم هيركانوس الثاني حفيد اريستوبولس من رتبته الملكية، وفرض ضرائب ثقيلة على السكان، وقسم الدولة الى خمسة اقاليم صغيرة يحكم كلاً منها مجلس أو «سنهدين». وأعاد

غابينوس بناء عدد من المدن اليونانية- الفلسطينية التي كان المكابيون قد هدموها مثل السامرة ويسان ودورا وغزة كما عمل على انعاش الهلينية فيها .

وبرز في فلسطين أوائل الحكم الروماني لها أنتيباتر الادومي . وهو من أهالي عسقلان ، ومن الادوميين الذين أكرهوا على الدخول في الدين اليهودي . وقد عرف بغناه الوافر وبذكائه ، وكان يعمل مستشارا لهيركانوس الثاني ، وحين نشب الخلاف بين بومبي ويوليوس قيصر ، أخذ أنتيباتر جانب الاخير . كما أمده بعون عسكري حيوي حين حاصر بطليموس الثاني ملك مصر يوليوس قيصر في الاسكندرية ، فسار أنتيباتر بثلاثة آلاف جندي وساعده على فك الحصار والانتصار على جيش بطليموس . وقد منحه قيصر حقوق المواطنة الرومانية وعينه نائبا ووكيلا ماليا حين زار سورية عام ٤٨ ق . م . وهكذا اصبح أنتيباتر السلطة الحقيقية وراء هيركانوس الضعيف . وصرف أمور البلاد ، واقام ابنه البكر « فصايل » واليا على القدس ، وابنه الآخر « هيروود » واليا على الجليل . وحين اغتيل قيصر عام ٤٤ ق . م . قتل انتباتر بايعاز من هركانوس^(١٥) .

عاشت فلسطين سنوات اضطراب ابان الحرب الاهلية التي نشبت في روما اثر اغتيال قيصر ، شأنها في ذلك شان سورية وبقية ولايات الامبراطورية . وقد اصبحت اثناء تقسيم العالم الروماني من قبل الحكومة الثلاثية تحت حكم مارك انطون مع سورية ومصر . ولم يأت هذا الحكم الذي دام اربع سنوات (٤٠-٣٦ ق . م .) بالهدوء ولا بالسلم . وشهدت البلاد الغزوة الفرتية الكبرى (٤٠-٣٨ ق . م .) التي أدت الى اخراج الرومان من الولاية كلها باستثناء صور . واستغل انتيجونس الهسموني حالة الفوضى التي عمت فحالف الفرتيين- ملوك الفرس- واقام نفسه ملكا على اليهودية . وكان قيصر قد طرده من قبل . ولكن ما أسرع ما هلك حين استتب الأمر مرة أخرى للرومان عام ٣٧ ق . م . إذ أعدم بامر من مارك انطون . وانقضى بموته ملك المكابيين الذي دام مائة وخمسا وعشرين سنة .

تولى هيروود بن انتيباتر العسقلاني حكم اليهودية بفلسطين سنة ٣٧ ق.م. حين عهد اليه بها مارك انطوان. وكان هيروود قد ساعد الرومان في القضاء على انتيجونيس. وهو أول ملوك الاسرة المهيرودية. وقد اتخذ حفيده هيركانوس الثاني زوجة ثانية له. ووطد سلطته كملك وجعل من القدس عاصمة له. وحكم ثلث قرن (٣٧-٤ ق.م.).

كان هيروود مواليا للرومان هيلينيا في افكاره واسلوب حياته. وقد اطمأن له اغسطس قيصر فولاه فضلا عن فلسطين مناطق اخرى مجاورة حتى اصبح حكمه يشمل البلاد الواقعة بين الصحراء والبحر من سفوح جبل الشيخ الى سيناء. وقد اجتهد هيروود في نشر آداب الرومان وتقاليدهم ومدنيتهم ونجح الى حد ما حيث أخفق انطيوخس ايفانئس السلوقي في جعل اليهودية شبه مملكة هلنستية بالقوة. وبدأ في مشروع انشاء ابنية عامة بدّل به وجه البلاد تبديلا تاما. واقام العابا عامة لا تتفق مع الدين اليهودي واعاد بناء المعبد. وبنى عدة مدن جديدة وزين مدنا قديمة. وشيد كثيرا من القلاع والابراج من أشهرها قلعة مصعدة- مسادا- غربي البحر الميت.

عرف هيروود بقسوته وقوة ارادته. وكان واسع الحيلة حاد الذهن، سحق بقسوة المعارضة لحكمه المطلق. وقد عاش في بلاطه الكاتب نيقولاوس الدمشقي المؤرخ والفيلسوف الذي ولد بدمشق عام ٧٤ ق.م. وكان صديقا له. وقد ألف تاريخا عاما وكتبا ومقالات فلسفية باليونانية. وعن تاريخه نقل المؤرخ يوسيفوس مادته المتعلقة بهيروود. ويسجل لهيروود انه بذل جهده عام ٢٢ ق.م. لتوفير الطعام للناس حين اصببت البلاد بالفحط والمجاعة، فاشترى من ماله حنطة كثيرة من مصر لهذا الغرض وزعها على الناس مجانا. وقد تزوج عشر نساء وانجب عدة بنين وذبح من عارضه من نسائه وافراد اسرته. وعلى الرغم من تجديده المعبد بالقدس حتى أصبح أضخم وأجمل من الذي بناه سليمان، وعلى الرغم من اعتناقه الدين اليهودي- ظاهريا فقد كرهه يهود فلسطين لانغماسه في الحضارة الهلينية. وكانت

وفاته عام ٤ ق م. في فترة ولادة السيد المسيح عليه السلام. وقد لقب بالكبير لما قام به من الأعمال الضخمة.

تقاسم اولاد هيروود الثلاثة مملكة ابيهم بحسب وصيته التي اقرها الامبراطور اغسطس. وقد أساء أولهم ارخيلادس السيرة بظلمه وجوده، فعزله اغسطس عام ٦ م ووضع اليهودية تحت الحكم المباشر للحكام او النواب الرومان. وخامس هؤلاء الحكام هو بيلاطس الذي وقعت في عهده حوادث السيد المسيح. وحكم الآخر هيروودس انتيباس حتى عام ٣٩ م. وهو الذي بنى طبرية وسماها على اسم طيبريوس قيصر. وتزوج هيرووديا ابنة اخيه الماجنة وتلوثت يداها بدم يحيى بن زكريا الذي انتقد هذا الزواج. وكانت نهايته العزل والنفي بأمر من الامبراطور كاليغولا. وقد استمرت اسرة الهرادسة الأدوميين في الحكم حتى عام ١٠٠ م. وكان آخر من تولى منهم اغريبا الثاني الذي اشتهر بخضوعه التام للرومان. وقد ساعدهم في قمع مقاومة اليهود وانتهى به المطاف في روما. وموته اصبحت روما تحكم فلسطين حكما مباشرا^(١٦).

شهد حكم الأدوميين لفلسطين حدثا كبيرا هو مولد السيد المسيح عليه السلام وظهور الدين المسيحي. فقد ولد عيسى بن مريم في بلدة بيت لحم ونشأ في الناصرة. وياشر دعوته حين بلغ الثلاثين من عمره فاخذ يتجول في فلسطين داعيا إلى محبة الله ومحبة الانسان. وتبعه عدد من الحواريين بدلوا حياتهم كما فعل هو. وقد سجل بعض هؤلاء فيما بعد تعاليمه واعماله في كتب عرفت باسم الاناجيل (الانجيل كلمة يونانية معناها البشارة). وكان تأكيد هذه التعاليم على وحدة الانسانية، وعلى خدمة الانسان، وعلى الروحانية الداخلية عوضا عن المبالغة في الطقوس والمظاهر الخارجية. وقد انطلقت من نظرة عالمية، وقرنت الحياة الاخلاقية بالدين وبشرت بالحياة الاخرى.

عرف عيسى بالمسيح (وهي ترجمة للكلمة العبرانية «مشيا»، التي كانت تستعمل كلقب للملوك اليهود وبالتالي للملك الموعود. واستمر يدعو قومه ثلاث سنوات. وقد حمل الحواريون عبء الدعوة من بعده للدين الجديد الذي عرف

باسم المسيحية . وانتشرت المسيحية أولاً بين عدد قليل من فلاحي فلسطين الذين يدينون باليهودية ، ثم شق الدين طريقه ببطء بين كافة سكان فلسطين . وبدأ تداول الاناجيل التي يرجح انها كتبت في القرن الأول للميلاد ، كما دونت اعمال الرسل بفضل الحواريين ونشاطهم في التبشير في سبعة وعشرين سفراً^(١٧) .

كانت نواة المجتمعات المسيحية الأولى مؤلفة من اليهود . وقد بدت الديانة الجديدة للمواطن الروماني المتوسط حتى نهاية القرن الاول كمذهب يهودي غامض . وحكم الامبراطور دوميتيان على ابن عم له بالاعدام بتهمة كفر يتصل باليهودية ويقصد المسيحية . وكانت فلسطين اذن مقر النبتة الاولى للديانة المسيحية . وبينما كان الدين الجديد ينطلق منها الى شتى انحاء الامبراطورية والعالم ، كان الحكم الروماني يحاول ان يصبغها بالصبغة الهلينية الرومانية . وقد اسبغ هذا الحكم حمايته على مراكز الهلينية في فلسطين وسوريا عموماً . فاستمرت الحياة في هذه المراكز كما كانت ابان الحكم اليوناني . وتبنت السلالات المحلية التي سمح لها الرومان بالبقاء هذه الحياة ، ومنهم سلالة هيروودس باليهودية في فلسطين ، والحارث في البتراء ، واذينة في تدمر .

احتفظت الجماعات المحلية في فلسطين بديانتها ولغتها وعاداتها الخاصة ، ولم يفرض عليها نظام الولايات الروماني سوى قيود قليلة على ممارسة استقلالها الذاتي . وفي اليهودية اصبح الكاهن الاعظم رئيساً للطائفة بعد ان فقد لقب الملك . وكانت خاصة اليهودية هي التي تعينه . وتكلم غالبية سكان فلسطين في تلك الفترة اللغة الارامية بعد ان تبناها العرب سواء منهم الايطوريون الاقوياء في الشمال او الادوميون الذين تهودوا اسماً واستقروا في الجزء الجنوبي الغربي من البلاد . وبقيت اللغة العبرية لغة مقدسة بين اليهود ، كما كان المثقفون من أهل البلاد يكتبون باليونانية ، وتمسك العرب في البوادي بلغتهم العربية .

كان عدد سكان فلسطين في ذلك العهد حوالي مليون نسمة . وقد بلغ في سوريا الكبرى سبعة ملايين . ولم يجد سكان فلسطين الا القليل مما يأخذونه من

الحضارة الرومانية، مع ما عندهم من حياة اجتماعية وفكرية واقتصادية راقية. ولم يطرأ تغير كبير على الحياة الاجتماعية في البلاد. فبقي المظهر العام لحياة الريف كما كان. وفي المدن عاش كبار الملاك واصحاب قطعان الماشية وشكلوا الخاصة الوطنية. وكان من بينهم رجال الدين. وعاش معهم موظفو الحكومة. وقد استخدموا الرقيق وانصرف كثير منهم الى حياة الترف. ومع ذلك بقي شعور الولاء نحو العائلة مسيطرا، وهو ما احتفظوا به من تراث العصر القبلي. وكانت المرأة في الريف تخرج سافرة كما هو شأنها اليوم، بينما لبست نساء المدن براقع تحيط بالرأس وتتدلى على الاكتاف. واستحسنن النساء الوشم وخصوصا على الصدر. ويبدو ان الرجال اهلوا عادة الختان وهي عادة عربية قديمة- بفعل الاحتكاك باليونان والرومان، وتركوها نهائيا بعد انتشار المسيحية الى ان عادت بعد انتشار الاسلام.

كانت استجابة شعب فلسطين للتأثير الروماني اقل منها في الجماعات السورية الاخرى. وذلك بفعل انتشار اليهودية فيها. وكانت الجماعة اليهودية منقسمة الى الصدوقيين الذين مثلوا الخاصة المصطبغة بالصبغة الهلينية، والفريسيين الذين مثلوا عامة الشعب وتمسكوا بتقاليد ديانتهم وهدفوا الى التحرر. واتصلوا بالهاسيديم اسلافهم في العصر المكابي. فاما الصدوقيون فقد احتكروا الوظائف وقبلوا الهلينية الرومانية وحصلوا على تأييد روما، بينما تشبث الفريسيون بديانتهم وخصائص حياتهم وتقاليدهم ومارسوا سياسة انطواء وعزلة. وقاوموا من اجل ذلك محاولات الحكم الروماني فرض الهلينية الرومانية كما قاوموا انغماس الصدقيين في حضارة المحتلين. وادت مقاومتهم الى انفجار ثورة يهود فلسطين ضد الرومان عام ٦٦ م.

أرخ لهذه الثورة المؤرخ يوسيفوس الذي ولد في القدس حوالي سنة ٣٧ م، في كتابه «حروب اليهود» الذي كتبه بالآرامية وسجل فيه احداث الثورة التي شهدها وشارك فيها. وكان يوسيفوس يهوديا ينحدر من المكابيين عن طريق أمه على حد قوله. وبعد ان أُسر التحق بعائلة الامبراطور في روما وكتب كتابا آخر عن «آثار اليهود» تحدث فيه بالتفصيل عن حكم المكابيين وحكم الهيروديين.

استمرت هذه الثورة قرابة أربع سنوات ، وكانت لها اسبابها الدينية «العقيدية»
واسبابها الاجتماعية . وقد شارك فيها عدد كبير من اليهود . وكانت الشرارة الاولى التي
اشعلتها هي السياسة الهلينية التي انتهجها حاكم قيصرية والوامر التي اصدرها .
الأمر الذي أدى الى صدام مع يهود المدينة . فكان ان خرجوا منها واثارت أخبار
خروجهم يهود القدس والمناطق الاخرى فاشتعلت الثورة . ولما وضع لحاكم سوريا
فسبازيان تفاقم الاحداث قاد بنفسه الجيش لاحتادها بعد ان عهد اليه الامبراطور
نيرون بمهمة قمعها . وهكذا اخضع بين عامي ٦٧ و ٦٨ م منطقة الريف
والحصون المنعزلة ودمر يافا ، واقترب من القدس . وحين توفي نيرون ورفع هو الى
العرش عهد لابنه تيطوس بأمر اخماد الثورة . فشدد تيطوس الحصار على القدس
مدة خمسة شهور واحتلها وهدم المدينة واحرق المعبد المزخرف الذي بناه هيروودس
وقتل واسر الكثيرين . وكان من بين اسباب سقوط المدينة الانقسامات التي
حدثت بين المحاضرين . وقد فر احد الزعماء واسمه «اليعازر بن يائير» مع عدد
من رجاله ، واعتصم بقلعة مصعدة التي بناها هيروودس على شاطئ البحر الميت
حتى عام ٧٣ م . وحين اشتد عليهم حصار الرومان آثروا اللجوء الى عملية
الانتحار الجماعي . وهكذا طويت الصفحة الاخيرة من الثورة .

عمد الرومان الى انتهاج سياسة جديدة بعد اخماد الثورة . فجعلوا من
«اليهودية» مقاطعة امبراطورية يحكمها عضو من مجلس الشيوخ يكون تحت
تصرفه الفيلق الروماني العاشر المرابط قرب القدس . وقد فرضوا على اليهود ضرائب
ثقيلة من بينها ضريبة للآله جوبيتر كبير آلهة الامبراطورية . كما أقاموا مستعمرة
رومانية قرب القدس وحولوا مدينة يافا وقيصرية الى مستعمرتين رومانيتين ، واعادوا
بناء مدينتي نابلس قرب شكيم القديمة .

لم ينته وجود اليهود في البلاد اثر قمع الثورة . ولكن تغيرات واضحة طرأت على
توزعهم فيها . فقد اصبحت القدس خالية منهم . كما خلت منهم اكثر المدن
اليونانية . وبقي يهود الاماكن التي استسلمت في الحال للرومان كما هم وخصوصا
في الجليل وتركز اليهود في منطقة الساحل الغربي . وعلى الرغم من ان عشرات

الآلاف من شعب فلسطين قضاوا في الثورة فان البلاد شهدت تزايدا سكانيا في الستين سنة التالية. واستوطن اليهود من جديد قيصرية وعكا ومدن الساحل الاخرى. أما اليهودية كدين فقد بدأ شأنها ينحط خصوصا مع انتشار المسيحية. ولم يكن أساسها القومي الضيق وبعض مظاهر طقوسها مناسبا لانتشارها. وقد حاول بعض علماء اليهود تقريبها الى العقلية اليونانية الرومانية ولكنهم فشلوا.

نشبت ثورة اخرى بين يهود فلسطين في عهد الامبراطور هادريان (١١٧-١٣٨ م). فقد عمد هادريان لبناء مستعمرة رومانية في القدس أطلق عليها اسم ايليا كاييتولينا (وكان اسمه الاول ايليوس)، كما اصدر مرسوما يحرم فيه الختان. واهتم بإضفاء الطابع الروماني على البلاد. فنقم اليهود على سياسته وثاروا بقيادة سمعان باركوخبا سنة ١٣٢ م^(١٨). وبارك الرباي اكيبا بن يوسف وكان له نفوذ كبير على جماعة اليهود - هذه الثورة.

نجح باركوخبا في احتلال القدس وبعض المراكز الرومانية بعد ان انضم اليه كثير من اليهود. فتصدى هادريان لهذه الثورة بجيش كبير قاده جوليوس سيفروس الذي استدعي من بريطانيا. ونجح هذا القائد في استرجاع القدس وحاصر بقايا الثوار في «بتير» وقضى على الثورة نهائيا سنة ١٣٥ م. وقد اورد المؤرخ الروماني ديوكاسيوس ان سيفروس حطم خمسين حصنا وتسعمائة وخمسا وثمانين قرية وقتل خمسمائة وثمانين ألف رجل. وأعاد هادريان بناء القدس، وأطلق عليها الاسم الجديد، وبنى فيها تمثالا لجوبيتر وتمثالا آخر للامبراطور. وأصدر عدة مراسيم تحرم على اليهود دخول المدينة وممارسة طقوسهم فيها وأطلق على البلاد اسم «فلسطين سورية» بدلا من «اليهودية».

اصبحت الجماعة اليهودية في فلسطين أقلية بعد العدد الكبير الذي فقدته خلال هاتين الثورتين، وبفعل استمرار انتشار الدين المسيحي في البلاد وتحول بعض اليهود اليه. وتجدر الاشارة هنا ان قوانين هادريان الخاصة بيهود فلسطين لم تسر على اليهود الذين كانوا يعيشون خارج فلسطين اذ عوملوا كغيرهم برفق، وقد

سمح الامبراطور انطونيوس بيوس (١٣٨-١٦١ م) لليهود بمختان اولادهم واحترام السبت وعبادة ربهم، واهتم يهود فلسطين بتأسيس مدارس لابنائهم. واصبحت طبرية في الجليل أهم مراكزهم. وفي هذه المدارس نشطت كتابة التلمود. وتشير الكتب اليهودية الى ان بيت سيفروس الامبراطوري كان متعاطفا مع اليهود. وقد اصدر اسكندر سيفروس (٢٢٢-٢٣٥ م) مرسوما بالاعتراف بالحاخام على رأس الجماعة اليهودية. كما تشير هذه الكتب الى اصلاحات ديوكليتيان (٢٨٤-٣٠٥ م) التي سمحت لليهود بالتعبد في القدس. وتذكر ان هذا الامبراطور احترم العقيدة اليهودية.

كان هذا الامبراطور الروماني هو الذي نظم الاضطهاد الكبير لمعتنقي المسيحية حين اصدر مرسوما عام ٣٠٣ م نص على محو كنائس المسيحيين وحرق كتبهم وطرد كل من يشغل وظيفة مدنية وعسكرية منهم من منصبه. وقد استمر هذا الاضطهاد عشر سنوات وشهد صورا من التعذيب على مستوى الامبراطورية بالغة البشاعة. وكان معتنقو المسيحية قد تعرضوا قبل ذلك الى نار الاضطهاد مرات. أولها في عهد الامبراطور نيرون عام ٦٤ م وفيه استشهد الحواريان بطرس وبولس عام ٦٧. ثم حدث الاضطهاد العنيف سنة ٩٥ م في عهد دوميتيان. وتلاه الاضطهاد الذي جرى حين اصدر تراجان مرسوما عام ١١٢ م ينص على معاقبة كل مسيحي يرفض تقديم مراسيم الاحترام لآلهة الدولة. وقد أكد ديفيوس في عام ٢٥٠ م هذا المرسوم.

استطاعت المسيحية ان تصمد أمام الاضطهاد وان تنتصر على ديانات الاسرار في الامبراطورية. وهي ديانات وثنية سرية من اصل شرقي اصطبغت بالهلينية وشاعت بين الرومان. وتزايد عدد معتنقي المسيحية من شعب فلسطين على حساب معتنقي اليهودية. وكان من هؤلاء القديس جورجوس الذي ولد في اللد عام ٢٨٠ م لآب من أصحاب الاملاك واعتنق المسيحية ودعا لها حتى قتله الامبراطور ديوكليتيان سنة ٣٠٣ م ابان الاضطهاد الكبير.

انتشرت المسيحية في القرن الثالث الميلادي بين الانباط العرب الذين يعيشون

شرقيّ الاردن . وقد بلغت مملكتهم ذروتها في القرن الاول الميلادي وكان ابرز ملوكها الحارث الرابع (٩ ق.م. - ٤٠ م) وظهر اسم الانباط لأول مرة في القرن السادس قبل الميلاد واطلق على قبائل بدوية تعيش في صحراء شرق الاردن . وتدرّج الانباط من حياة الرعي الى حياة الزراعة ثم الى حياة التجارة ، وازدهرت عاصمتهم البتراء . وقد ضمت المملكة في اقصى اتساعها فلسطين وشرق الاردن وسورية الجنوبية الشرقية وشمالي الجزيرة العربية . وولفت النظر انه على الرغم من احتكاك الانباط بيهود فلسطين ، فان الديانة اليهودية لم تتمكن أبدا من عبور نهر الاردن ، وبقي الانباط يعتقدون ديانة اساسها طقوس الخصب وبرز آلهتها « اللات » ، الى ان اعتنقوا المسيحية . وقد كانوا على اتصال وثيق بشعب فلسطين .

كذلك انتشرت المسيحية في مملكة تدمر التي كانت تقوم آنذاك في بادية سوريا . وقد استطاعت الملكة زنوبيا قبل ذلك ان تحكم فلسطين بين عامي (٢٦٧ و ٢٧٢ م) حين وسعت مملكتها واستولت على مصر وعلى قسم من آسيا الصغرى فضلا عن سوريا وفلسطين ، الى ان هزمها الامبراطور اورليان وأسرها . وكان اسم تدمر قد ظهر لأول مرة عام ١٨٠٠ ق.م حين استقرت فيها بضع قبائل عربية وازدهرت كمدينة للقوافل .

★ ★ ★

دخلت فلسطين - وسوريا بصفة عامة - في القرن الرابع الميلادي مرحلة حضارية جديدة هي المرحلة البيزنطية . وقد نتجت عن اتحاد المسيحيين مع الهلينية الوثنية ، وحلت محل المرحلة الحضارية التي سبقتها وهي المرحلة الرومانية . وكان مركز هذه المرحلة مدينة القسطنطينية التي سميت باسم الامبراطور قسطنطين . وقد حكم قسطنطين مع امبراطور آخر الامبراطورية الرومانية سنة ٣٠٦ م ثم انفرد بالحكم بين ٣٢٤ - و ٣٣٧ م ، واسس العاصمة الجديدة في موقع بيزنطية القديم حيث تلتقي اوروبا بآسيا ، ودشنها عام ٣٣٠ م .

تعاطف قسطنطين مع المسيحية واعتنقها سنة ٣١٢ م ، ثم اعترف بها ديانة

رسمية جديدة للامبراطورية قبل ان يؤسس عاصمته الجديدة . وعقد سنة ٣٢٥ م مجمعا كنسيا في مدينة نيقية بآسيا الصغرى من كل اساقفة الامبراطورية حكم فيه على المذهب الاروسي ، ونظم تعاليم الدين المسيحي . وحذا رجال الدولة حذو الامبراطور في اعتناق المسيحية . واشتهرت أمه القديسة هيلانة بتقواها . وقامت بزيارة الى القدس حيث أمر قسطنطين ببناء كنيسة القيامة وكنيسة المهد في بيت لحم . وما أسرع ما انتشر بناء الكنائس والاديرة في فلسطين وبلاد الشام عموما .

تصف المصادر اليهودية قسطنطين بأنه كان معاديا لليهودية . وتحدث عن انتفاضة قام بها يهود فلسطين احتجاجا على بناء الكنائس في بعض المدن التي يقيمون فيها حوالي عام ٣٥١ م^(١٩) . وقد اعتنق جميع خلفاء قسطنطين الدين المسيحي عدا جوليان المرتد (٣٦١-٣٦٣ م) الذي حكم عشرين شهراً ، والغى الأحكام التي أصدرها قسطنطين ضد اليهود وأصدر احكاما تسمح لهم بالاقامة في فلسطين واعادة بناء الهيكل . واشتهر من هؤلاء الخلفاء تيودورسيوس (٣٧٩-٣٩٥) - آخر امبراطور على الامبراطورية الموحدة - بصموده الباسل أمام هجمات القوط ولدعمه المسيحية الخالية من البدع .

تبع فلسطين - وسوريا عموما - الامبراطورية الرومانية الشرقية عند انقسام الامبراطورية عام ٣٩٥ م . وقسمت فلسطين اداريا في ذلك العهد الى ثلاثة اجزاء هي : فلسطين الاولى وشملت ديار نابلس والقدس والخليل والسهل الساحلي حتى رفح وكانت قيسارية مركزها ، وفلسطين الثانية وشملت الجليل وام قيس وقلعة الحصن وطبرية ومركزها بيسان ، وفلسطين الثالثة وهي بلاد الانباط وديار بئر السبع ومركزها البتراء .

صبغت فلسطين وسورية في العصر البيزنطي بالصبغة الدينية ، واصبحت البلاد مسيحية . وانتشرت فيها الكنائس والاديرة التي امتلأت بالرهبان والنساك . وكانت الكنيسة هي اعظم مؤسسات هذا العصر . وقد انبثق نظام الرهبنة من الزهد المسيحي ، وكان ظهورها لأول مرة في مصر على يد مؤسسها القديس انطوان

الذي اعتزل في الصحراء ومات بين عامي ٣٥٦ و ٣٦٢ م، وانتقلت الرهبنة من مصر الى فلسطين على يد هيلاريون الغربي اخر تلاميذ انطون، وما اسرع ما انتشرت هذه الطريق في الحياة القائمة على العزوبة والفقر والطاعة .

كانت نواة الجماعات المسيحية الاولى في فلسطين من اليهود في الغالب . وقد بدأ اتباع المسيح وعظهم في المعابد اليهودية . وكان الكنيس اليهودي بديلا محليا للمعبد القديم بعد خرابه . وقد بنيت الكنيسة المسيحية على نسقه مع شيء من التطوير . وكانت اللغة السريانية تستعمل في الكنائس منذ القرن الثاني، وبانتشار المسيحية في القرن الثالث فرضت السريانية نفسها تجاه اللغة اليونانية . وجاء هذا التحول عن اليونانية والعودة الى الارامية في هذا العصر تعبيرا عن الوعي القومي وكرد فعل ضد الوثنية . وقد تمسك الناس بلغتهم واضطر الموظفون البيزنطيون الى استخدام الترجمة في العمل معهم .

استمر انتشار المسيحية في فلسطين على حساب اليهودية، وشهدت البلاد الانشقاقات الدينية بين المسيحية التي كانت تحمل في طياتها تعبيرا عن اليقظة القومية . اذ لم يكن الشعب راضيا عن الحكم البيزنطي من حيث المبدأ ومن حيث ممارسات هذا الحكم . فقد كان البيزنطيون من الناحية السياسية اكثر استبدادا في حكمهم، واكثر جورا في نظام ضرائبهم من الناحية الاقتصادية . وقد جردوا اهل البلاد من السلاح ولم يحترموا عواطفهم الا قليلا . وكانوا اقل تسامحا من اسلافهم الوثنيين في المسائل الدينية .

كانت القرون الثلاثة الاخيرة من الحكم الروماني لفلسطين هي قرون انحسار اليهودية، فقد تلا عهد جوليان المرتد نشاط تشريعي حاد لليهود ادى الى تحول عدد منهم الى المسيحية . فتقلصت جماعتهم في العدد والثروة . وكانوا قد اصبحوا اقلية صغيرة في جنوب فلسطين منذ عام ١٣٥ م . وبقيت منهم جماعة تعيش في طبرية . وليست هناك ارقام دقيقة عن عددهم ونسبتهم ولكن كتابات القديس جيروم (٣٤٥-٤٢٠) الذي تنسك في دير بيت لحم سنة ٣٨٦ وانتقل منه

الى الصحراء وترجم التوراة الى اللاتينية تشير الى انهم كانوا ما يزالون يفوقون المسيحيين في عددهم. وقد تضاعف هذا العدد في القرن الخامس الذي شهد استيلاء امرىء القيس، شيخ دومة الجندل، على فلسطين وجزيرة شيران. فولاه الامبراطور اياها بعد نصره. كما شهد ثورة السامريين عام ٤٨٥ م وهدمهم الكنائس في منطقتهم. وقد عاودوا الثورة في عهد جوستينيان عام ٥٢٩ م فحرقوا الاديرة وقتلوا الرهبان والاساقفة احتجاجا على قرارات اصدرها الامبراطور منعهم من بناء معابدهم. وقد اخمد الحارث الثاني الغساني هذه الثورة.

استمر عدد اليهود في فلسطين يتضاعف خلال القرن السادس الذي شهد بداية محاولات الساسانيين في فارس احتلال سوريا وفلسطين. وقد نجح بيسديوس قائد جوستينيان في صد الهجوم الاول (٥٢٧-٥٣٢). وعاد الفرس الى الظهور عام ٥٤٠ م في عهد كسرى الاول انوشروان ونجحوا في احتلال انطاكية ثم عقدت هدنة عام ٥٤٢ م تجددت عدة مرات حتى وقع جوستينا معاهدة مع الفرس عام ٥٦٢ م مدتها خمسون سنة التزم فيها بدفع جزية لملك الفرس.

وما ان جاء القرن السابع حتى أصبح عدد اليهود في فلسطين اقل من مائتي الف نسمة. وقد اعتمد هذا التقدير على ما ذكر من ان عدد اليهود الذين انضموا الى الفرس عام ٦١٤ م حين زحف كسرى ابرويز (الظافر) على فلسطين واحتل قيسارية والقدس كان يقدر بحوالي عشرين الف يهودي^(٢٠). وقد قاتل اليهود مع جيش الفرس الذي اشعل النار في كنيسة القيامة، ونقل الصليب الى فارس، وهدم الاديرة والكنائس ونهب المدن ونكل بسكانها. وتحدث الكتب اليهودية عن سيطرة اليهود على القدس لمدة ثلاث سنوات، وعن الانتقام من المسيحيين والتحضير لاعادة بناء الهيكل. ثم تحدث عما تسميه خيانة الفرس لليهود حيث لم يلبث الفاتحون ان ساروا بأهل البلاد وجلهم من المسيحيين سيرة جيدة، وعينوا اسقفا ليحكم القدس واصدروا اوامرهم بطرد اليهود منها^(٢١).

لم يطل حكم الفرس لفلسطين هذه المرة اكثر من اربعة عشر عاما. اذ

استطاع هرقل ان يجمع قواه ويطردهم منها ومن سوريا عموما، وينتصر على الجيش الفارسي في معركة فاصلة عند نينوى عام ٦٢٧. واستعاد الصليب ورفعته في القدس يوم ١٤ ايلول (سبتمبر) ٦٢٨ م. وقد اصبح ذلك التاريخ عيدا يحتفل به كل عام اهل البلاد من المسيحيين. وتشير المصادر اليهودية الى انتقام هرقل من اليهود والعقاب الذي انزله بهم. وتذكر ان عددا منهم دخل في المسيحية بينما اعتزل آخرون لينضموا بعد ذلك لجيوش الفتح العربي الاسلامي التي وصلت طلائعها اطراف فلسطين عام ٦٣٤ م.

يمكننا من خلال هذا العرض التاريخي لحياة اليهود في فلسطين ابان حكم الرومان ان نستخلص النتائج التالية :

اولا : شهدت القرون الثلاثة الاخيرة من حكم الرومان لفلسطين صدور تشريعات مضادة لليهود ادت الى انحطاط احوالهم، وجعلتهم اقرب الى المواطنين من الدرجة الثانية بالنسبة للمسيحيين. ويذكر باركس^(٢٢) ان هذه التشريعات ذهبت الى ابعد من عدم التسامح الديني، فلم تمنع تشييد معابد لليهود فحسب بل وسمحت بتحويل احد المعابد الى كنيسة مسيحية، ومنعت اليهود من العمل في الدوائر العامة بلغة حرضت الجماهير على الانتقام منهم. ومن المتوقع ان تكون هذه الاجراءات قد اسهمت في توجيه اليهود لتأييد الغزو الفارسي لفلسطين.

ثانيا : اصبحت فلسطين في نهاية حكم الروم البيزنطيين مسيحية الطابع بعد ان دان معظم سكانها بالدين المسيحي. وقد تحول غالبية اليهود من شعب فلسطين الى المسيحية. وعانت فلسطين خلال هذا العهد من تعصب بعض الحكام، ومن محاولات فرض عقائدهم على شعبيها، الأمر الذي حدا بالناس ان يزدادوا تمسكا بعقائدهم وكنيستهم. وقد اعتبروا الكنيسة على انها ليست مؤسسة دينية فحسب بل ومؤسسة قومية يعبر التمسك بها عن عاطفة قومية مكبوتة.

ثالثا : بقيت فلسطين كنعانية الطابع والحضارة، وقد تكلم شعبها في غالبيتها اللغة الآرامية واللغة العربية، كما تكلم احبار اليهود اللغة العبرية وجميعها لغات « سامية » تعود الى لغة أم واحدة هي اقرب ما تكون الى العربية الفصحى. (٢٣)

خاتمة - حول اليهود في فلسطين العربية الاسلامية (٢٤).

دخلت فلسطين والمنطقة العربية عموما مرحلة جديدة من تاريخها في القرن السابع الميلادي، وذلك بفعل الانطلاقة العربية بالاسلام. وكانت هذه المرحلة متصلة بالمراحل التي سبقتها ولكنها تميزت بما شهدته من تطورات اوصلت الى بلورة صورة فلسطين العربية. وقد استكملت فلسطين في القرن الثاني الهجري مقومات عروبتها واصبح الاسلام دين غالبية شعبها. وبقيت جماعات من هذا الشعب تدين بالمسيحية او باليهودية. واستمرت فلسطين على هذا الحال طيلة حقبة التاريخ التالية، وان تعرضت مرتين للغزو التوطيني: مرة حين غزاها الفرنجة الاوروبيون في العصور الوسطى ومرة حين غزاها الصهاينة الاوروبيون في العصر الحديث.

كانت قلة من شعب فلسطين ما تزال تدين باليهودية حين دخلت البلاد هذه المرحلة الجديدة، وقد رحب هؤلاء اليهود بالفتح للعربي الاسلامي، وقدم اليهود والسامريون منهم على الخصوص مساعدة العرب المسلمين في مناسبات عدة اثناء الفتح. وكتب يهودي عراف عن العصر الاسلامي الاول فجعل ملاكا يقول لكاهن « لا تخف يا ابن يهوه، فالخالق تبارك اسمه لم يضع مملكة اسماعيل الا ليخلصكم من هذا الشر (البيزنطي) » (٢٥). ويجمع المؤرخون اليهود على الاشادة بمناخ التسامح الرائع الذي كان فيه اليهود ابان الحكم الاسلامي في فلسطين، وكان رسول الله (ص) قد آمن بعد غزوة تبوك ٩ هـ. اهل ايلة وصالح صاحبها، وكان سكانها من النصراني. كما امن عدة واحات منها جرباء واذرح ومقنا التي كان سكانها من اليهود. واعطى عمر بن الخطاب عهده المشهور لاهل « ايلياء » القدس

سنة ١٥ هـ وضمته «الايسكن بايلياء احد من اليهود» استمراراً للوضع القائم فيها منذ هزيمة الفرس. كما اعطى عهدا لاهل اللد ومن دخل معهم من اهل فلسطين اجمعين، وكان بعض اليهود يسكنون في اللد وفي عسقلان وقيسارية وغزة وطبرية^(٢٦).

عاش هؤلاء مع شعب فلسطين التحول العظيم الذي جرى في البلاد ابان القرن الهجري الاول. فقد حمل الفتح معه موجة جديدة من عرب شبه الجزيرة. وما اسرع ما حدث التحول من التكلم باللغة اليرامية الى التكلم باللغة العربية في فلسطين، وقد تم هذا التحول بسهولة لأن اللغتين تنحدران من ارومة لغوية واحدة. ثم حدث تحول غالبية شعب فلسطين مسيحيين ويهود الى الاسلام. وهكذا تضاءل عدد اليهود تضاءلاً شديداً. ويلاحظ المؤرخون ان غالبية سكان فلسطين بقوا من المسلمين على مدى القرون التالية، وان قسماً كبيراً من هؤلاء تحولوا الى الاسلام من المسيحية او اليهودية^(٢٧).

حرص الحكم الاسلامي على تنظيم امور الملل والنحل، فأصبح للجماعة اليهودية في فلسطين تنظيمها. وشارك اليهود مع غيرهم في عملية التفاعل الحضاري التي اثمرت الحضارة العربية الاسلامية. وقد بقي عدد اليهود ضئيلاً جداً في فلسطين بالنسبة الى مجموع السكان ولم يتجاوز آفاً. ولكن وجودهم استمر. وقد ساهم في هذا الاستمرار هجرات افراد من اليهود الى فلسطين طلباً للامن او العلم او بغرض التعبد. ويلاحظ باركس «ان الحكام المسلمين لم يرفضوا في اية فترة السماح لليهود من بلاد اجنبية ان يدخلوا فلسطين ويقيموا فيها. وبدون هذه الهجرة ما كان لهم ان يبقوا ويستمروا»^(٢٨). وكان هؤلاء الافراد يأتون قبل الحروب الصليبية من اقطار الدولة الاسلامية في الغالب. واول جماعة اوروية هامة جاءت في القرن الثالث عشر، من انجلترا وفرنسا للدراسة. ثم جاء بعض يهود الاندلس بعد خروج العرب من اسبانيا. وجاء آخرون من بولندا وايطاليا في القرن الثامن عشر وكان بعض هؤلاء يغادر البلاد بعد حين. وهكذا كانت هناك اضافات دوماً لهذا البلد «الممر». ولكن جمهرة الشعب بقيت من المسلمين الذين دان

اجدادهم بالمسيحية وقبل ذلك باليهودية. ويلاحظ مؤرخو اليهودية ان التأثير الثقافي والديني بقي في فلسطين عربيا اسلاميا. وقد تحدث الرحالة الاوروبيون - وفيهم مسيحيون ويهود - الذين زاروا فلسطين عن العاطفة والكرم اللذين عامل بهما مسلمو فلسطين زوارهم^(٢٩).

فمنذ ان بدأت الغزوة الصهيونية الاوروبية على فلسطين، والجهود الصهيونية مستمرة لتشويه تاريخ فلسطين بهدف ان يجعله تاريخا «اسرائيليا» لتثبيت مزاعمها. وهكذا رأينا عمليات القفز الى حقب تاريخية قديمة عبر مئات السنين. ورأينا محاولات تضخيم مكانة اليهود في فلسطين، واغفال غيرهم. ورأينا التعسف في تفسير الاحداث انطلاقا من الهوى الصهيوني. الامر الذي نتج عنه هذا الركام من الكتب الصهيونية التاريخية غير العلمية.

لقد اثار هذا التحدي الصهيوني رد فعل في اوساطنا السياسية والعلمية فيما يخص الصفحات اليهودية من تاريخ فلسطين وتاريخ المنطقة عموما، تمثل في اغفال هذه الصفحات او اصدار احكام غير علمية عليها. الامر الذي طرح تساؤلا هاما حول مكان اليهود الفلسطينيين من تاريخ فلسطين، وكيف ننظر لصفحات تاريخهم.

ان البحث في تاريخ اليهود الفلسطينيين يؤكد كما رأينا ان دائرة تاريخ شعب فلسطين اوسع من دائرة تاريخ اليهودية في فلسطين. فقد بدأ التاريخ في فلسطين قبل ظهور اليهودية بزمن طويل. وحين ظهرت بقيت جزءا من تاريخ اوسع. ولم ينفرد من اعتنقوا اليهودية بمحضارة خاصة، بل عاشوا دائما ضمن حضارة المنطقة واصبحوا جزءا منها. واستمرت فلسطين عبر العصور وطنا لشعبها ومرا لغزاة او رحالة تخلف بعضهم فيها فامتصه واندمج.

يمكننا باطمئنان ان نقرر ان التراث اليهودي في فلسطين هو جزء من تراث شعب فلسطين تماما كالتراث المسيحي والتراث الاسلامي فيها. وايضا كالتراث الكنعاني فيها قبل ذلك، وهذا التراث ملك لشعب فلسطين وليس ملكا للغزاة

الصهاينة. كما انه ليس ملكا لمعتقي اليهودية خارج فلسطين الا على الصعيد المعنوي مثلما هو لمعتقي المسيحية والاسلام خارج وطننا الكبير. وان ادعاء الصهيونية امتلاك التراث اليهودي في فلسطين لا يجب ان يدفع بعضنا الى التنكر له وانكاره فهذا امر مخالف للعملية وهو ما يسعى منظرو الصهيونية إليه^(٣٠).

ان مما يلفت النظر ان شعب فلسطين بفطرته تبنى تراثه وحافظ عليه وتمسك به. وقد تعود المسلمون والمسيحيون من ابناؤه تسمية ابنائهم باسماء انبياء بني اسرائيل وزيارة اضرحتهم. وهذه الظاهرة في التسمية ليست شائعة بين المسلمين خارج فلسطين بالدرجة نفسها. ونلاحظ هنا ان العقيدة الدينية - اسلاما كانت او مسيحية - تنسجم مع هذا الالتصاق بالتراث لأنها تعتقد بان انبياء بني اسرائيل هم من الذين اسلموا امرهم لله، وهم من بين انبياء الله ورسله.

- ١ - فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ١ ص ٣ ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق.
- ٢ - Ben Gurion, The Jews In Their Land. Aldus Book 1966.
- ٣ - Michael Curtis, The Palestinians.. People, History, Politics New Jersey 1975.
- ٤ - Solomon Grayzel A History of The Jews P.22.
- ٥ - فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين . ص ٢٤٤ .
- ٦ - أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ . سلسلة الكتب الحديثة، الطبعة الثانية .
- ٧ - يراجع فضلا عن كتاب حتي كتاب
- ٨ - ALBET T. CLAY: The Empire of The Amorites (New Havem 1919)
ALBRIGHT The Role of the Canaanites in History of Civilisatio (Menashe 1942)
حتي، الفصلان الرابع عشر والخامس عشر
- ٩ - J. Breasted , History of Egypt (NewYork 1936)
علي نصوح الطاهر، القبائل العربية في فلسطين والأردن، نسخة مطبوعة على الآلة الكاتبة .
- ١٠ - حتي، المصدر السابق الفصل الخامس عشر .
- ١١ - يراجع مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين ؟ دار الطليعة بيروت، والعهد القديم .
- ١٢ - يراجع الدباغ وحتى وأيضا
- ١٣ - Noth Martin. The History of Israil (London 1966)
1 Tarn "Alexander"
(Combridge 1927)
انظر حتى الفصل السابع
- ١٤ - انظر سفر المكابيين وحتى الفصل السابع عشر و
- ١٥ - Restoutzeff « The Social and Economic History of The Hellenistic world (Oxford 1941)
حتي، الفصل الحادي والعشرون
- ١٦ - Mommsen, History of Rome (New York 1849)
الدباغ، ص ٦٢٣، الجزء الأول .
- ١٧ - انظر عن المسيحية وتاريخها، أسد رستم: الروم وصلاتهم بالعرب . دار المكشوف - بيروت .
- ١٨ - باركوخبا تعبير آرامي يعني ابن الكوكب انظر حتى ص ٣٧٧ ج ١ .
- ١٩ - Ben Gurion, The Jews in their Land (New York 1975)
- ٢٠ - (20) James Parkes A History of Palestine from 135 to modern times London 1949
- ٢١ - Ben Gurion The Jews in thier land
- ٢٢ - Parkes P. 64
- ٢٣ - بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٥ دار العلم للملايين .
- ٢٤ - نعرض بحث هذا الموضوع تفصيلا في دراسة اخرى
- ٢٥ - برنارد لويس العرب في التاريخ ص ٧٨ دار العلم للملايين .
- ٢٦ - تراجع حركة الفتوح في مجموعة كتب قديمة وحديثة نذكر منها الطبري « تاريخ الامم والملوك »
والبلاذري « فتوح البلدان » . وبروكلمان « تاريخ الشعوب الاسلامية » وشكري فيصل
« حركة الفتوح الاسلامي في القرن الاول » .

Parkes P- 205

Parkes P. 179

-٢٧

-٢٨

-٢٩

-٣٠

Parkes P. 205

نشير الى ما دأب ابان ابيان على ترديده في كتابه « شعبي » وفي عدد من محاضراته من ان فلسطين والمنطقة كانت مقرا لحضارات عدة متميزة ولاوطان شعوب متميزة . كما نشير الى ان اليهود الاوروبيين الذين ظهرت الصهيونية في اوساطهم لا يتصلون اكثر بيولوجيا بيهود فلسطين ، وانما هم في الغالب من اصل خزري ، (انظر كوستلر القبيلة الثالثة عشرة) .

مساعي العراق لحل الصراع العربي - الصهيوني ١٩٣٣-١٩٤٣

د. ممدوح الروسان
معهد ابن خلدون / إربد

تمهيد

لقد اخترت هذه الفترة من تاريخ العراق الحديث للكلام عن مساعيه من اجل التوصل الى تسوية دائمة وعادلة للصراع العربي - الصهيوني لعدة اعتبارات، ابرزها حصول العراق على استقلاله ودخوله عصبة الأمم عام ١٩٣٢ تنفيذاً لمعاهدة يونيو/ حزيران ١٩٣٠، وما رافق ذلك واعقبه من زيادة اهتمام العراق بالقضية الفلسطينية وبخاصة على الصعيد الرسمي، خلافاً لما كان عليه الحال في الفترة السابقة فترة عهد الانتداب. فقد كانت سياسته الخارجية (ان كان له اصلاً سياسة خارجية) اقرب الى الاقليمية منها الى القومية. بل لقد كانت سلطاته الرسمية تعاقب فئات الشعب العراقي جماهير وطلاباً وصحافة على ما كانت تبديه من عطف او اهتمام بالقضية الفلسطينية كما حدث عام ١٩٢٨ خلال زيارة الفردموند الى العراق، وعام ١٩٢٩ اثر حادث البراق.^(١)

سيّما وان هذه الفترة شهدت زيادة كبيرة جداً في الهجرة اليهودية الى فلسطين ضاعفت مخاوف عرب فلسطين من احتمال تحولهم الى اقلية مغلوبة على امرها من قبل الاكثوية اليهودية، مما كان له اثره في زيادة اهتمام العراقيين بمصير ومستقبل اخوانهم عرب فلسطين، ولذا كان موضوع الهجرة باستمرار محور محادثات السياسة العراقيين مع المسئولين الانجليز.

واما اختيار عام ١٩٤٣ كنهاية للبحث فيرجع الى بدء مشاورات تأسيس جامعة الدول العربية بتشجيع وتوجيه الدوائر البريطانية، وما رافق ذلك من تجميد مساعي العراق المنفردة بخصوص القضية الفلسطينية بهدف مشاركة دول جامعة الدول العربية في تسوية القضية الفلسطينية. وهذا اتجاه شجعته بريطانيا ابتداء من عام ١٩٣٦ يوم رضيت بوساطة ملكي العراق والسعودية وامير شرق الأردن بالتوسط لدى الفلسطينيين لوقف الاضراب^(١) ودعوة ممثلي عرب فلسطين الى مؤتمر لندن ١٩٣٨^(٢)، واستخدام النفوذ المصري والعراقي لوضع حد لتجدد اعمال العنف والثورة في فلسطين عام ١٩٣٩^(٣).

ولقد اعتمدت في هذه الدراسة على وثائق دار المحفوظات البريطانية (Public Record Office) بصفة اساسية، لما حوته من برقيات ورسائل متبادلة بين الممثلات البريطانية في عواصم المشرق العربي (مثل بغداد، والقدس، وجدة، والقاهرة، ودمشق، وبيروت وعمان) ووزارة الخارجية البريطانية في لندن.

كذلك فقد حوت تلك الوثائق العديد من المحادثات التي كانت تتم بين المسؤولين العراقيين، والمسؤولين البريطانيين سواء في بغداد، او القدس، او جنيف، او باريس او لندن، بالاضافة الى العديد من المذكرات الرسمية العراقية مقرونة بتعليقات السفير البريطاني في بغداد او وزارة الخارجية في لندن.

وتقسم هذه الدراسة الى قسمين، القسم الأول وقد تناولت فيه عوامل اهتمام العراق بالقضية الفلسطينية خلال هذه الفترة، والقسم الثاني وقد تعرضت فيه لمساعي العراق من اجل الوصول الى تسوية دائمة وعادلة في اطار اقامة شكل من اشكال الاتحاد الفيدرالي بين فلسطين، ودولة او اكثر من الدول العربية المجاورة، بهدف الحفاظ على عروبة فلسطين مع السماح بالهجرة اليهودية شريطة ان يبقى اليهود اقلية يتمتعون بالحكم الذاتي.

(١)

عوامل اهتمام العراق بالقضية الفلسطينية

ترجع اهتمامات العراق بالقضية الفلسطينية الى عدة عوامل^(٥) تأتي في مقدمتها الروابط القومية التي تربط العراقيين والفلسطينيين باعتبارهم افراد امة واحدة كاللغة والدين والأمانى والآمال المشتركة، مقرونا بالعداء المشترك للحركة الصهيونية^(٦) واهدافها المدعومة من قبل بريطانيا الدولة المنتدبة والمكروهة في كلا البلدين (العراق وفلسطين). ولذا فقد كان الرأي العام العراقي شديد الحساسية تجاه ما كان يجري في فلسطين من احداث وثورات، الامر الذي كان يثير قلق السلطات الرسمية العراقية لما قد يرافقه من انفجار روح الكراهية تجاه اليهود العراقيين^(٧).

وحتى تستطيع حكومة العراق حفظ النظام والمحافظة على ارواح وممتلكات المواطنين فقد كانت مضطرة الى مراقبة الصحف، ومنع التجمعات والتظاهرات العامة من ناحية، والسعي لدى السلطات البريطانية لتعديل سياستها في فلسطين ووضع تسوية دائمة للصراع العربي الصهيوني من ناحية ثانية.

ولفلسطين اهمية خاصة في نظر السلطات العراقية من الناحيتين الاقتصادية والاستراتيجية، فللعراق (طبقا لمذكرة وزارة الخارجية العراقية)^(٨) تجارة واسعة مع جارتها العربية، فصناعة النفط العظيمة فيه قد وجدت منفذا للبحر عن طريق فلسطين. وذلك المنفذ ستحتاج اليه تجارة العراق الاخرى بعد تحسن وسائل النقل^(٩)، وعليه فقد راقبت العراق مجرى الحوادث في فلسطين بقلق متزايد بلغ اشده عام ١٩٣٦ والسنوات الثلاث التالية.

كذلك فقد ساهمت ظروف العراق الداخلية (خلال هذه الفترة) ممثلة بضعف الحياة النيابية، مقرونة بزوال الحياة الحزبية، وما رافقها من تدخل الجيش العراقي في السياسة، ساهمت هذه الظروف في زيادة اهتمام الساسة العراقيين

بالقضية الفلسطينية. فقد كان معظم القادة العسكريين باستثناء الفريق بكر صدقي^(١٠) من ذوي الميول القومية، الأمر الذي دفع الساسة العراقيين الى دغدغة رغباتهم واهتمامهم بالقضية الفلسطينية بتقديم العون المادي والمعنوي للمناضلين الفلسطينيين^(١١). ولقد اعربت الدوائر البريطانية عن تدمرها وعدم ارتباطها بمثل هذه السياسة لدرجة انها اقترحت على نوري السعيد (خلال لقاء تم بينه وبين وزير الخارجية البريطاني اثناء مؤتمر (لندن ١٩٣٩) الغاء قرار وزير الداخلية العراقي الذي سمح بموجبه لجمعية الدفاع عن فلسطين بجمع التبرعات لاغاثة المنكوبين بحجة انها كانت ترسل الى مسيبي اعمال العنف او الفتنة في فلسطين^(١٢).

ولقد كان لحركة اللجوء السياسي العربي الى العراق اثرها في زيادة اهتمامه بالقضية الفلسطينية. فقد كان العراق خلال هذه الفترة كعبة قومية حج اليها رجال الحركة الوطنية في فلسطين وسوريا ولبنان، هربا من اجراءات الملاحقة التي كانت تمارسها سلطات الانتداب البريطاني والفرنسي في تلك الاقطار، وطمعا بالمساعدات التي يمكن ان يقدمها لهم العراق، بروسيا العرب، كما لقبه الوطنيون العرب. ولقد بلغت تلك الحركة ذروتها بلجوء الحاج امين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا الى بغداد عام ١٩٤٠، حيث اصبح محور الحركة الوطنية العربية، وموجه سياسة العراق الخارجية، وبخاصة خلال حركة رشيد عالي الكيلاني ابريل/مايو/١٩٤١، التي تمثل ذروة الاتجاه القومي في العراق. فالعراق (كما قالت جريدة الاستقلال)^(١٣) مضطر الى الدفاع عن الاقطار العربية، والمطالبة بحقوقها، ويرى كمال مصلحته القومية في تحرير جميع البلاد العربية، سيما وان تلك البلاد اولته قيادتها وفوضته في الدفاع عنها.

كذلك فقد لعبت الصحافة العراقية دورا بارزا في اثارة اهتمام الرأي العام العراقي من جهة، والسلطات الرسمية من جهة ثانية بالقضية الفلسطينية، نظرا لما كانت تنقله من اخبار عن الحوادث التي كانت تجري في فلسطين، ولما كانت تنشره من مقالات وكلمات افتتاحية حول السياسة البريطانية الظالمة تجاه الفلسطينيين. من

امثلة ذلك مقال جريدة البلاد^(١٤) تحت عنوان « فلسطين الباروميتر الحقيقي بين العرب والانجليز » ومما جاء فيه : ان قضية فلسطين ليست بيننا وبين الصهيونية بل بيننا وبين بريطانيا، فانها المسئولة عن كل ما يحدث . فان شاءت بريطانيا ان تكسب ود العرب والمسلمين وهم اعظم قوة في الشرق - فعليها ان تطلع عن سياستها في فلسطين .

ولقد اصبحت الصحافة العراقية محورا للقاءات التي كانت تتم بين المسؤولين العراقيين كالمملك او رئيس الوزراء او وزير الخارجية او الداخلية وبين السفير او القائم بالاعمال البريطاني في بغداد حيناً، او بين المسؤولين البريطانيين والعراقيين في لندن حيناً آخر . وكانت الجهات البريطانية تطالب بوضع حد لتلك التعليقات والمقالات .

ومع ان المسؤولين العراقيين كانوا يبدون استعدادهم لمراقبة الصحف وكبح جماح الرأي العام العراقي، الا أنهم كانوا مضطرين نظراً لحملة الصحف الصهيونية الفلسطينية والبريطانية من ناحية، وللوضع المتدهور في فلسطين من ناحية ثانية، نظراً لهذين السببين كانوا مضطرين الى السماح للعراقيين بالتعبير عن امانهم وغضبهم ضمن قنوات خاصة تحددها السلطة.^(١٥)

يضاف الى ذلك الدور الذي لعبته الجمعيات والنوادي والمنظمات الادبية والثقافية والكشافية (التي ظهرت في العراق خلال هذه الفترة) كجمعية الثقافة العربية، ونادي المثني، وجمعية الجوال العربي، ومنظمة الفتوة، وفريق الشباب العربي، وجمعية الدفاع عن فلسطين في زيادة اهتمام العراق بالقضية الفلسطينية - بالنظر لما كانت تبثه في نفوس الشباب العراقي من مبادئ وافكار حول الاماني القومية، والدور الذي يجب ان يلعبه العراق في تحرير وتوحيد اقطار الأمة العربية. ذلك مقروناً بالنشاطات الثقافية كالدورات والمحاضرات والمذكرات والدراسات. كل ذلك اسهم بشكل او باخر في اهتمام العراق بفلسطين، وتوعية الجمهور العراقي بخطورة الحركة الصهيونية^(١٦).

كذلك فقد ساهمت حركة النضال الفلسطيني التي بلغت درجة كبيرة من التنظيم والشمول كما ظهر خلال الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ وخلال السنوات الثلاث التي تلتها، مع جهود القادة الفلسطينيين لكسب التأييد والدعم العربي وبخاصة من العراق من خلال البرقيات والالتماسات او الزيارات كزيارة الحاج امين لبغداد ١٩٣٣، وعوني عبد الهادي واميل الغوري ١٩٣٧/٣٦ - ساهمت هذه الأمور في اهتمام العراق بالقضية الفلسطينية^(١٨).

ولقد ساهم التنافس السياسي بين العراق وبعض انظمة الحكم العربية وبخاصة في السعودية في زيادة اهتمام العراق بالقضية الفلسطينية. فقد اذكت تلك المنافسة روح المزايدة بين العراق والسعودية، لدرجة ان نوري السعيد اقترح (في اغسطس ١٩٣٦) على المندوب السامي في فلسطين تشكيل لجنة عراقية من ثلاثة اشخاص تقيم في القدس لتكون حلقة وصل بين الفلسطينيين وبريطانيا. لكن بريطانيا رفضت^(١٩) الفكرة، فاقترح تشكيل لجنة عراقية- سعودية مشتركة تقيم في بغداد لدراسة المقترحات المقدمة الى الحكومة البريطانية قبل ان تبدأ اللجنة عملها، وخلالها^(٢٠).

كذلك فقد اقترح د. ناجي الاصيل وزير الخارجية العراقي (اثناء زيارته للرياض نوفمبر/ ١٩٣٦) على السعودية ان لا تتم اية مساعدة او تقديم اية مشاريع لحل النزاع العربي الصهيوني الا من خلال العراق، فالعراق يجب ان يكون الوسيط الرسمي بين الفلسطينيين وبريطانيا^(٢١). وفي عام ١٩٣٨ طلب ابن سعود من الحكومة البريطانية عدم عقد اي اتفاق مع اي دولة عربية بخصوص المطالب الفلسطينية الا بواسطته^(٢٢).

واخيرا حرص العراق على علاقاته التعاهدية مع بريطاني وفقا لمعاهدة ١٩٣٠، رفع من درجة حرارة اهتمامه بالقضية الفلسطينية والسعي لحلها، نظرا لتأثير ذلك على علاقاته مع بريطانيا، فالقضية الفلسطينية (كما قال السفير البريطاني في بغداد بترسون)^(٢٣). سوف تظل عنصراً أساسياً في السياسة العراقية، وحلها يعتبر امراً بالغ الاهمية بالنسبة لعلاقتنا مع الحكومة العراقية.

كل هذه العوامل القومية والسياسية والاقتصادية، عراقية كانت ام بريطانية ام فلسطينية ام صهيونية- ساهمت جميعها بدرجات متفاوتة باهتامات العراق الرسمية- والشعبية بالقضية الفلسطينية من جهة، ومواقفه واتجاهاته نحوها خلال تطور احداثها من جهة ثانية.

(٢)

مساعي العراق لتسوية الصراع العربي- الصهيوني

لم تقتصر المواقف العراقية تجاه القضية الفلسطينية خلال الفترة ما بين (١٩٣٣-١٩٤٣) على محاولة دعم الثورة الفلسطينية بالمال والسلاح والرجال، والتوسط لوقف الاضراب عام ١٩٣٦، وشجب قرار التقسيم الذي اوصت به لجنة بيل ١٩٣٧، والدفاع عن حقوق عرب فلسطين المشروعة أمام عصبة الأمم في اعوام ١٩٣٦، ١٩٣٧، ١٩٣٨ والسعي لتعديل السياسة البريطانية بالنسبة للهجرة اليهودية، وبيع الاراضي واجراءات الملاحقة بالنسبة لرجال المقاومة، وتأييد المطالب الفلسطينية اثناء جلسات مؤتمر لندن فبراير/مارس/ ١٩٣٩، والسعي لدى الدوائر البريطانية في بغداد والقاهرة حول ضرورة تنفيذ سياسة الكتاب الابيض وبخاصة ما ورد فيه بخصوص الدولة الفلسطينية.

اقول لم تقتصر اهتمامات العراق ومواقفه على معالجة المشكلات الناشئة عن سياسة الانتداب البريطاني في فلسطين، وانما تجاوزت ذلك الى محاولة ايجاد تسوية دائمة وعادلة للصراع العربي الصهيوني في اطار اتحاد عربي يتألف من فلسطين ودولة او اكثر من الدول العربية المجاورة بشكل فيدرالي او كونفدالي، على امل ان تحقق هذه التسوية آمال العرب في الوحدة وتزيل مخاوفهم من التسلط الصهيوني من ناحية، كما تحقق مطالب اليهود بوطن قومي وليس دولة يهودية من ناحية ثانية.

كان الملك فيصل الأول في مقدمة المنادين بهذه التسوية، ففي مذكرته التي

وجهها الى المستر يانغ بتاريخ ٨/١٢/١٩٢٩^(٢٤) حدد ثلاثة حلول لمعالجة القضية الفلسطينية وهي :-

اولا : توحيد سوريا وفلسطين والعراق وجعلها وطنا قوميا للعنصر السامي من عرب ويهود .

ثانيا : توحيد شرق الاردن وفلسطين .

ثالثا : تشكيل حكومة وطنية بحدود فلسطين الحاضرة وفقا لرغبات الاهالي ، على ان تعقد معاهدة تحالف بريطانية فلسطينية تتضمن سكوت الطرفين عن وعد بلفور ، ووضع حد اعلى للهجرة اليهودية وفقا لاحوال فلسطين الاقتصادية والاقامة لمدة سنتين لكل من يريد حمل الجنسية الفلسطينية من المهاجرين ، على ان تبقى الاماكن المقدسة تحت رقابة ممثل حكومة صاحب الجلالة البريطانية . والحل الثالث في نظره كان اقرب الحلول واسهلها تطبيقا .

وحيث تزايدت اعداد المهاجرين اليهود ابتداء من عام ١٩٣٣ ، لذا فان المطالبة بوضع حد اعلى للمهاجرين بحيث يبقى اليهود بشكل اقلية كانت محور لقاءات الساسة العراقيين مع المسؤولين البريطانيين . ومصداق ذلك على سبيل المثال لا الحصر حديث الملك فيصل مع وزير الخارجية البريطاني جون سيمون (يونيو/١٩٣٣) . فبعد ان ابدى مخاوفه من تيار الهجرة الذي يهدد عرب فلسطين اما بالطرد من بلادهم ، واما خضوعهم للهيمنة الصهيونية سياسيا واقتصاديا ، دعا الى اتحاد فلسطين مع سوريا والعراق كاجراء لحماية العرب من التحول الى اقلية ، على أن يكون هذا الاتحاد برئاسة البيت الهاشمي .^(٢٥)

وخلال مساعي نوري السعيد وزير الخارجية العراقي (في حكومة ياسين الهاشمي ١٩٣٦) لدى الدوائر البريطانية من اجل الحصول على وعد بريطاني بتحقيق مطالب عرب فلسطين المشروعة على ان يقترن ذلك بوقف الهجرة خلال تحريات اللجنة الملكية - خلال تلك المساعي التقى نوري السعيد في باريس اواخر ايلول/١٩٣٦ مع اللورد ونترتون ، وهربرت صموئيل حيث عرض صموئيل

مشروعاً لتسوية القضية الفلسطينية ينفذ خلال فترة زمنية محددة. وبرز ما ورد في مشروعه :

- ١ - وضع اسس ثابتة لحركة الهجرة فيحدد عدد المهاجرين طبقاً لاتفاق يوقعه الطرفان (العرب واليهود) مع تحديد المناطق التي تستقبل المهاجرين، وذلك مقروناً بتحديد منطقة في شرق الاردن تكون مفتوحة امام الاستيطان اليهودي شريطة ان توفر الحكومة الفلسطينية الاموال اللازمة لتوطين المهاجرين .
- ٢ - تشكيل مجلسين تشريعيين، احدهما للعرب والآخر لليهود على ان يكونا تحت اشراف الحكومة البريطانية .
- ٣ - اقامة اتحاد جمركي بين الاقطار العربية بما فيها فلسطين تشرف على ادارته لجنة تمثل اليمن والسعودية وسوريا وفلسطين والعراق .

ومع ان نوري اعترف بانه ليس مخولاً لبحث الموضوع لا من قبل حكومته ، ولا من قبل الفلسطينيين . الا انه كعربي مستعد لعرض الرغبات الحقيقية لعرب فلسطين فوضح ان مشروع صموئيل اقتصر على تأكيد المطالب الصهيونية وحدها وبشكل خاص الهجرة اليهودية المفتوحة - التي لا تتفق لا مع وعد بلفور ولا مع قدرة البلاد الاقتصادية ، وهي السبب الرئيسي للحالة المضطربة الراهنة في فلسطين وبدون وقفها لا يمكن التوصل الى سلام حقيقي .

اما فيما يتعلق بالاتحاد الجمركي فانه سوف يلحق اضراراً بالغة بمصادر الدخل والتجارة العراقية ، ولذا ليس في وسع العراق ولا اية دولة عربية اخرى قبوله . وختم حديثه قائلاً : هناك حلان لا ثالث لهما وعلى اليهود ان يختاروا احدهما : اولهما وقف الهجرة اليهودية في الظروف الراهنة وعدم التفكير باستئنافها حتى في اضيق الحدود . وثانيهما : توحيد فلسطين وشرق الاردن والعراق في دولة واحدة ، وفي إطار اي شكل سياسي تقبل به الحكومة البريطانية ، وسوف يسمح العرب بالهجرة اليهودية الى هذا الاتحاد شريطة ان تكون محددة عددياً ومكانياً . وازضاف ان مثل هذا الاتحاد يقي فلسطين عربية الطابع من ناحية ، ويجول دون قيام دولة يهودية في

فلسطين من ناحية ثانية، ويفتح امام التجارة والسلع الصهيونية سوقا واسعا من جهة ثالثة. اما ورتوتون فقد ظل مستمعا طول الوقت كما قال نوري السعيد. (٢٦)

ونظرا لسلبية الدوائر البريطانية تجاه مقترحاته اجتمع نوري السعيد يوم ٢٧/١٠/١٩٣٦ (اي قبل سقوط حكومة ياسين الهاشمي بيومين) مع السفير البريطاني في بغداد السر كلارك كبير (٢٧) واعاد على مسامعه مشروعه لتسوية القضية الفلسطينية قائلا هناك حلان: حل مؤقت، وحل دائم.

الحل المؤقت ويتمثل في تهدئة مشاعر عرب فلسطين بوقف حركة الهجرة اليهودية خلال عمل اللجنة الملكية مقرونا باطلاق سراح المعتقلين واصدار عفو عام والتعويض على المتضررين. (٢٨) الا ان مثل هذا الحل ليس دائما، فسوف ينهار بعد سنوات فتعود الاضطرابات مرة اخرى. فالشيء الاساسي الذي يجب عمله هو ازالة مخاوف عرب فلسطين من الهيمنة اليهودية المترتبة على تزايد حركة الهجرة اليهودية. ويمكن تحقيق ذلك بضم خمسة ملايين عربي الى الفلسطينيين باقامة شكل من اشكال الاتحاد الفيدرالي بين العرب، اتحاد او كومونولث شبيه بالامبراطورية البريطانية تتمتع كل دولة في اطاره باستقلال ذاتي، ومن المحتمل ان يرأسه حاكم عربي واحد على ان يقترن باتحاد جمركي (زولفرين) ومجلس استشاري يمثل فيه اليهود للبحث في الموضوعات ذات المصلحة المشتركة.

اما دول هذا الاتحاد فهي فلسطين وشرقي الاردن والعراق، ولن يشكل هذا الاتحاد تهديدا للمصالح البريطانية في شرقي البحر المتوسط، نظرا لاستمرار الانتداب البريطاني في فلسطين، كما انه لن يؤثر على سياسة بريطانيا تجاه اقامة وطن قومي لليهود. فبريطانيا بحاجة الى كتلة من الدول العربية تربط ما بين البحر المتوسط والخليج الفارسي (العربي) على ان تربط مع بريطانيا بمعاهدة تحالف، وتقف الى جانبها في وقت الحرب. واتحاد من هذا النوع يعني سلاما دائما في فلسطين، وضمانا لصداقة الشعوب العربية.

ولما سئل عن موقف سوريا والسعودية من الاتحاد اجاب بقوله:

ان علاقة هذا الاتحاد مع سوريا يجب ان تكون جيدة طالما ان سوريا حليفة لفرنسا، وفرنسا حليفة لبريطانيا. اما علاقته مع السعودية فانها ستكون علاقة صداقة شريطة ان يكف ابن سعود عن مغازلة الايطاليين والوقوف الى جانب بريطانيا كالعراق ومصر .

وأتم نوري السعيد حديثه قائلاً: ان تشكيل هذا الاتحاد لا يعني ان العرب سوف يسمحون بتدفق الهجرة اليهودية غير المحدودة الى فلسطين، فيجب ان تبقى الهجرة مقيدة بحيث تبقى النسبة الحالية بين العرب واليهود وهي ٧ عرب الى ٤ من اليهود. كما ان المستوطنات اليهودية يجب ان تكون في مثلث من الارض لا تزيد مساحته عن اربعة ملايين دونم في السهل الممتد جنوب حيفا، كما طالب وايزمان .

وبصرف النظر عن الصعوبات التي تعترض مثل هذه الخطة او المشروع والممثلة بموقف عصبة الامم وابن سعود والامير عبد الله، فلم يحاول السفير احباطها، وعلق عليها بقوله: اعتقد انه من غير المستحسن التظاهر بمعارضة هذا الاتحاد، لان مقاومته تعني طرح صداقة العرب جانبا وهي امر ليس قليل الاهمية، ومن الافضل توجيه النصح لمسايرة هذه الحركة وعمل كل ما يستطيع لتوجيهها الوجهة التي تريد .

وعندما تولى حكمت سليمان رئاسة الحكومة العراقية (اثر انقلاب بكر صدقي ١٩٣٦/١٠/٢٩) التقى في اوائل فبراير/ ١٩٣٧ مع مستشار وزارة الداخلية العراقية المستر ادموند، وجرى بينهما حديث تعرض خلاله حكمت لحركة الهجرة اليهودية قائلاً: طالما ان الحكومة البريطانية لا تستطيع وقف الهجرة اليهودية الى فلسطين بسبب ما تتعرض له من ضغط يهودي في امريكا والعالم، وطالما ان العرب سيقاومون سياسة تحويلهم الى اقلية - لذا فان الحل المناسب الذي يسمح باستمرار الهجرة اليهودية من ناحية، ويزيل مخاوف العرب في فلسطين من تحويلهم الى اقلية تحت الهيمنة اليهودية من ناحية ثانية، هو اقامة دولة فيدرالية من شرق الأردن وفلسطين والعراق، حيث ان عملية فصل فلسطين عن شرق الاردن، وهذان البلدان عن الاقطار العربية الاخرى، يعتبر عملاً اصطناعياً. على ان يكون

الاتحاد برئاسة ملك العراق وباطار لا مركزي مع منح بريطانيا كافة الضمانات التي تحتاجها للحفاظ على مصالحها الحيوية السياسية والاقتصادية.^(٢٩)

وبمناسبة تسلم وزير الخارجية العراقي (دناجي الاصيل) برقية من القائم بالاعمال السعودي في بغداد حول الموقف الذي يمكن اتخاذه تجاه القضية الفلسطينية، التقى مع السفير البريطاني كبير في بغداد. وعرض عليه خطة لتسوية القضية الفلسطينية شبيهة بخطة نوري السعيد وحكمت سليمان، وهي اقامة اتحاد فيدرالي من فلسطين والعراق وشرق الاردن. واذا كان ابن سعود سيعارض هذا الاتحاد باعتباره تمكينا وتوسعا للأسرة الهاشمية فيمكن اقناعه بالتوسع في جزيرة العرب مقابل موافقته على تشكيل هذا الاتحاد.

وقد رد السفير البريطاني على خطة وزير الخارجية العراقي بقوله: انه من غير المناسب التقدم بحلول لقضية شكلت الحكومة البريطانية لجنة ملكية لدراستها. وسوف تتعرف تلك اللجنة بالضرورة على وجهات نظر الاطراف المعنية^(٣٠) وحذره من ان اتحادا فيدراليا من فلسطين وشرق الاردن والعراق سوف يخلق مشكلات اقتصادية وسياسية عديدة لا يمكن حلها. فشرق الاردن وفلسطين تحت الانتداب البريطاني ولا يمكن تبني الحل الجديد بدون عرض الموضوع على عصبة الامم في جنيف، وهو لا ينصح برفع الموضوع الى العصبة.

كما انه لم يشأ ان يذكر وزير الخارجية ان حكومته لن تسمح لابن سعود بالتوسع في الجزيرة العربية. وختم حديثه قائلا: ان حكومته سوف تنظر بعين العطف الى وجهات نظر الحكومة العراقية ومن الممكن عرض الموضوع على المستر راندال الذي سيزور العراق خلال اليومين التاليين.^(٣١)

وبالفعل التقى ناجي الاصيل مع المستر راندال في بغداد يوم ١٨/٢/١٩٣٧، فوضح راندال التزام حكومته تجاه اليهود وفقا لوعده بلفور، وابدى استعداد حكومته لدراسة اية مقترحات عراقية لتقديمها الى اللجنة الملكية قبل ان تصدر توصياتها شريطة ان تكون مقترحات معتدلة.

فردّ وزير الخارجية العراقية عليه قائلاً انه لا يطالب الحكومة البريطانية بالتخلي عن عودها، ولكن اضطهاد المانيا لليهود لا يبرر اضطهاد عرب فلسطين، ولذا فان الحل الافضل لقضية فلسطين هو اقامة دولة كونفدرالية من ثلاث دول هي العراق وشرق الاردن وفلسطين، على ان تحتفظ كل منها باستقلالها الذاتي وتكون بغداد عاصمة الاتحاد. وبهذا الحل يبقى اليهود اقلية، وتزول مخاوف الفلسطينيين من التحول الى اقلية تحت الهيمنة اليهودية.

فقال راندال: بالرغم من وضوح وعدالة هذا المشروع الا ان امكانية نجاحه ضعيفة حتى ولو وافقت عليه بريطانيا. وهذا الحل ممكن لولا انه يتجاوز مشكلة فلسطين، اذ كيف يمكن تصور اتحاد ثلاثة اقطار متفاوتة في اوضاعها السياسية والاقتصادية. وهي فلسطين المتطورة وثيقة الاتصال باوروبا، وشرق الاردن البلد الصحراوي الذي يعتمد على ما تقدمه الخزينة البريطانية، والعراق الدولة الحديثة والتي تفتقر الى التماسك الاجتماعي. مثل هذه الدول لا يمكن ان تشكل اتحادا قويا. وبالرغم من امكانية نمو العراق، وزيادة ثروتها وقوتها الا انه لا يوجد احد في اوربوا او انجلترا يقبل بوضع فلسطين تحت حكم العراق. وقد ايد السفير « كير » وجهة نظر راندال، وطلب من الاصيل التقدم بمقترحات اكثر اعتدالا وبشكل مكتوب. (٣٢)

ويتضح موقف وزارة الخارجية البريطانية تجاه مشروع التسوية الذي عرضه نوري السعيد (سبتمبر/ اكتوبر ١٩٣٦) وحكمت سليمان ووزير خارجيته ناجي الاصيل (فبراير/ ١٩٣٧) مما كتبه المستر Baggallay^(٣٣) في وزارة الخارجية البريطانية تعليقا على رسالة المستر ادموند التي ارسلت بتاريخ ٨/٢/١٩٣٧.

فقد اعتبر قبول حكمت بهجرة يهودية مفتوحة تبديلا جوهريا على خطة نوري السعيد الذي طالب بهجرة مقيدة. فاقامة اتحاد عربي ومنح ملك العراق او امير شرق الاردن لقب ملك فلسطين مقابل هجرة يهودية مفتوحة الى الاتحاد العربي يعتبر ثمنا زهيدا. ولكن توجد هناك عقبات صعبة تعترض اقامة هذا الاتحاد هي :-

١ - سيكون من الصعوبة اتحاد اقطار تحت الانتداب مثل فلسطين وشرق الاردن مع دولة مستقلة كالعراق في اي شكل فيدرالي، ومن الناحية الاستراتيجية فان بريطانيا لا ترغب في انهاء الانتداب على فلسطين وشرق الاردن سواء بعد قيام الاتحاد مباشرة او فيما بعد، وحتى لو كانت راغبة في ذلك فان عصبية الامم من المحتمل ان لا توافق على ذلك .

٢ - وفي حالة ضمان مصالحنا الحيوية السياسية والاقتصادية (كما قال حكمت سليمان) وعدم ممانعة عصبية الامم فكيف يمكن الاطمئنان الى استمرار حركة الهجرة اليهودية المفتوحة من جهة وقيام الوطن القومي اليهودي من جهة ثانية؟ هذين الامرين غير ممكنين الا بتمتع فلسطين بحكم ذاتي فعال (باستثناء القدس التي يجب ان توضع تحت ادارة خاصة). وهذا الامر متيسر في ظل الانتداب البريطاني اكثر من تيسره في ظل الدولة الفيدرالية العربية التي من الممكن ان تبذل موقفها تجاه المطالب اليهودية والهجرة والوطن القومي)، كما ان اليهود انفسهم ربما لا يرضون بفكرة الوطن القومي في ظل الحكم الاسلامي .

٣ - بقي موقف ابن سعود الذي قد لا يرحب بفكرة الدولة الفيدرالية، كما ان عملية ضم فلسطين الى السعودية امر صعب التحقيق نظرا لافتقار السعودية الى التماسك والموارد الاقتصادية. يضاف الى ذلك موقف الامير عبد الله الذي لن يقبل بالتبعية لاحد افراد اسرته ناهيك عن موقف سوريا ولبنان من الاتحاد. حتى الفلسطينيين هل يمكن تجنب ذوبانهم سياسيا واقتصاديا في ظل الخطة الجديدة !!

وانهى تعليقه طالبا ضرورة استشارة ابن سعود من ناحية، وتقديم يهود العالم قرضا كبيرا لتسهيل استيطان عرب فلسطين في شرق الاردن وفقا لامكانات ذلك القطر. واذ كان ذلك مستحق التقدير، واذا كانت الحكومة البريطانية ترى امكانية لتحقيقها فيجب ان تنفذها والا يجب استشارة وزارة المستعمرات وغيرها من الدوائر البريطانية ومثيلها في الشرق الادنى .

ومما هو جدير بالملاحظة ان هذه الأفكار الخطط والمشاريع التي طرحها كل من نوري السعيد، وحكمت سليمان، وناجي الاصيل لا تمثل سياسة رسمية للحكومة العراقية، وانما كانت مجرد وجهات نظر شخصية يطرحها الساسة العراقيون في احاديثهم الخاصة مع المسؤولين الانجليز كمحاولة منهم لمعرفة الاتجاه الذي ترغب الحكومة البريطانية بالسير فيه. ومصداق ذلك خلو المذكرة التي اعدتها وزارة الخارجية العراقية بناء على نصيحة راندال لناجي الاصيل (يوم ١٨/٢/١٩٣٧) لتقديمها الى اللجنة الملكية - خلوها من الاشارة الى خطة او مشروع التسوية السابقة. وكل ما طالبت به المذكرة هو تحديد المهاجرين وفقا لامكانيات فلسطين الاقتصادية، وان لا يزيد عدد اليهود في فلسطين عن نسبة ١/٢٨ من مجموع السكان، مع احتمال وقف الهجرة وبيع الاراضي لفترة محدودة. (٣٤)

وكانت المملكة العربية السعودية قد تقدمت بطلبات مماثلة حول وقف الهجرة واطلاق عفو عام عن جميع الجرائم التي ارتكبت خلال الاضراب واطلاق سراح المعتقلين واصدار تشريع لحماية صغار الملاكين كما هو الحال في مصر. اما بالنسبة لشكل الحكومة الفلسطينية فيجب ان يتقرر على اساس التفاهم بين الفلسطينيين والحكومة البريطانية (اي انها ركزت على معالجة المشكلات الراهنة، ولم تقترح حلا او تسوية دائمة للقضية الفلسطينية). وقد اعتبر ايدن وزير الخارجية البريطانية، هذه الرسالة رسالة دبلوماسية لن تقدم كوثيقة الى اللجنة الملكية. ولذا فان الحكومة البريطانية لن تلتزم بما ورد فيها، وانما ستلتزم بتوصيات اللجنة الملكية. (٣٥)

فلما صدرت توصيات اللجنة الملكية الرامية الى تقسيم فلسطين احتج رئيس الوزراء حكمت سليمان قائلا: لم تستحسن حكومة جلالة ملك العراق فكرة التقسيم، وانها تشارك فلسطين امانها ومطالبها الوطنية، وسيسعى العراق بكل الطرق المألوفة لرفع الحيف، وبصفتي رئيسا للحكومة احتججت على قرار اللجنة

الملكية،^(٣٦). وطلبت من وزير العراق المفوض في لندن تقديم احتجاج مماثل الى وزارة الخارجية البريطاني.^(٣٧)

ومع ان احتجاج حكمت سليمان على توصيات اللجنة الملكية لم يكن مفاجئا للدوائر البريطانية فقد التقى حكمت مع السفير البريطاني يوم ١٠/٧/١٩٣٧،^(٣٨) وابلغه عن نيته بالاحتجاج على قرار التقسيم، ورغبته في الاتصال بابن سعود كي يقف الى جانبه. رغم ذلك فقد طلب المستر ايدن من وزير العراق المفوض في لندن ان يبرق الى حكمت يرجوه الاعتدال في معالجة الموقف^(٣٩) في نفس الوقت الذي طلب فيه من سفيره في بغداد تحذير حكمت سليمان من ان الحكومة البريطانية تنظر بشكل جدي الى اي تشجيع يمكن ان تقوم به الحكومة العراقية الى سكرتير المفتي الذي ينتظر وصوله الى بغداد لدعم الموقف المعادي لتوصيات اللجنة الملكية التي قررت الحكومة البريطانية تبنيها.^(٤٠)

في هذا الوقت اتصل حكمت يوم ١٥/٧/١٩٣٧ بالدكتور جروبا المبعوث الالماني في بغداد، واعرب له عن امله في أن يبذل الالمان كل ما في وسعهم للعمل على افشال خطط اللجنة الملكية بشكل تصريح مناسب يدلي به احد زعماء الرايخ،^(٤١) علما بأنه قد حذر السفير البريطاني يوم ٢٠/٦/١٩٣٧ من امكانية استغلال الالمان والايطاليين الفرصة للتدخل اذا اوصت اللجنة بتقسيم فلسطين.^(٤٢)

ولقد قام السفير (كبير) بمقابلة حكمت سليمان وابلغه تحذير وزير الخارجية البريطاني، ومع انه هدد بالاستقالة في بادىء الامر، الا انه تعهد بعدم اصدار تصريحات مماثلة مستقبلا قبل استشارة السفير. كما انه وعد بتقديم النصح الى ممثل اللجنة العربية العليا الموجودة حاليا في بغداد بضرورة التزام الفلسطينيين الهدوء لحين صدور قرار عصبة الامم والا فان العراق لن يلتزم بتقديم العون لهم.^(٤٣)

وفي ٣١/٧/١٩٣٧ ابلغ صبيح نجيب ممثل العراق الدائم لدى عصبة الامم (المسيو افينول) سكرتير عصبة الامم مذكرة حكومة العراق الاحتجاجية على تقرير

اللجنة الملكية، حيث اوضح ان توصيات اللجنة غير عادلة، ولا تتفق وميثاق العصبة، او صك الانتداب، وان التقسيم حل غير عادل ولا دائم. وطالب لجنة الانتدابات ومجلس العصبة وسكرتيرها المساعدة من اجل التوصل الى حل يعترف بحقوق الفلسطينيين السياسية. (٤٤)

وبالرغم من اعتدال هذه المذكرة التي وضعت على ضوء برقية وزير الخارجية العراقي بتاريخ ٣٠/٧/١٩٣٧، ويعلم السفير البريطاني في بغداد الا انها اخرجت موقف الممثل البريطاني في جنيف المستر هول ونهت لجنة الانتدابات الى حقيقة المطالب العربية الفلسطينية وأن اللجنة درجت على النظر الى القضية من وجهة النظر اليهودية فقط. (٤٥)

كذلك فقد شجب توفيق السويدي ووزير الخارجية العراقي الجديد في حكومة جميل المدفعي التي اعقبت حكمت سليمان (٢٩/١٠/١٩٣٧) قرار التقسيم امام العصبة قائلاً: لن ندخر وسعا في الحصول على العدل لاخواننا. (٤٦)

وثناء تواجد توفيق السويدي في جنيف (سبتمبر/١٩٣٧) التقى مع شكبه والمستر ادموند بحضور مندوب العراق الدائم في العصبة صبيح نجيب، فاكد السويدي لهم ان حكومته تعارض اي شكل من اشكال التقسيم، وان الحل الذي تبناه العرب وبخاصة العراق هو الاعتراف بفلسطين دولة مستقلة مع ضمان حقوق الاقلية اليهودية.

فرد شكبه وأيده راندال ان حكومتهما ترى في التقسيم الحل الوحيد، كما عارض شكبه اقتراح السويدي بتقسيم فلسطين الى كانتونات حسب تملك الاراضي، لان ذلك يعني توزيع اليهود في المناطق العربية. وانتهى الاجتماع دون التوصل الى اي اتفاق على امل ان لا يزيد السويدي الموقف حرجاً خلال خطاباته في العصبة. (٤٧) وقد طالب السويدي في الخطاب الذي القاه يوم (٢٣/٩/١٩٣٧) امام العصبة ببقاء فلسطين موحدة غير مجزأة، وتوقيف تلك الخطة الرامية الى تحويل الاكثية الى اقلية، وتأسيس دولة تتمتع بالحكم الذاتي مع اقوى الضمانات الدستورية لحريات كافة السكان. (٤٨)

وفي منتصف نوفمبر ١٩٣٧ بعث المستر ادموند (مستشار وزارة الداخلية العراقية) برسالة الى السفير البريطاني في بغداد تعرّض فيها الى عوامل اهتمام العراق بالقضية الفلسطينية وردود الفعل العراقية تجاه الاحداث الفلسطينية خلال الثلاثة عشر شهرا الماضية، والدور الذي لعبه العراق خلال تلك الفترة كنداء الملك غازي الى اللجنة العربية، وتصريحات حكمت سليمان، وخطاب توفيق السويدي في عصبة الامم، ولقائه في جنيف مع شكبة ورائدال حيث شجب قرار التقسيم وابدى استعداده لتأييد اي مشروع بديل لقرار التقسيم والسعي لدى الفلسطينيين لقبوله.

وفي بغداد اوضح السويدي للمستر ادموند انه لا يعني بالمشروع البديل تعديل قرار التقسيم، وانما اعطاء اليهود مقاطعة في المنطقة الممتدة من الحدود المصرية حتى غزة ومنها الى داخل فلسطين بشكل دولة ذات سيادة يمكنها استقبال اي مهاجرين جدد، بينما تصبح بقية البلاد ضمن الدولة العربية على ان يبقى اليهود فيها بشكل اقلية، وازداد انه يفضل نظام الكانتونات البديل لمشروع التقسيم على ان يعطى اليهود منطقة بئر السبع كاتنونا اضافيا.

وختم ادموند رسالته طالبا ان يكون عمل اللجنة التالية اعداد خطة على اساس الكانتونات لتكون اساسا للمحادثات في مؤتمر مائدة مستديرة.^(٤٩)

واثناء وجود نوري السعيد في لندن (اواخر عام ١٩٣٧) أشيع عن وجود مشروع يقضي بقيام دولة عربية من فلسطين وشرق الاردن والعراق، برئاسة العراق، على ان تفتح ابوابها في وجه مليون مهاجر يهودي. نشرت ذلك جريدة الاستقلال تحت عنوان «امبراطورية عربية ام مملكة صهيونية». وقد نفى توفيق السويدي في المجلس النيابي صحة هذه الاشاعة كما نفاها نوري السعيد بريقة بعثها من لندن بتاريخ ١٨ /يناير/ ١٩٣٨.^(٥٠)

وكما اسلفنا الاشارة فان الساسة العراقيين لم يطرحوا مشروع الاتحاد العربي كحل دائم للقضية الفلسطينية بشكل رسمي وانما تعرضوا له وبحثوه في احاديثهم

الخاصة مع المسؤولين الانجليز. وكما حدث أيام حكومة حكمت سليمان الذي طرح المشروع على المستر ادموند وشاركه وزير الخارجية ناجي الاصيل بمناقشة المشروع مع السفير البريطاني (اواخر عام ١٩٣٦ واولئ عام ١٩٣٧) فقد خلعت مذكرة الحكومة العراقية التي سلمت للسفير البريطاني يوم ١٦/٤/١٩٣٧ من اية اشارة لمشروع الاتحاد.

نفس هذا الموقف تكرر الآن عام ١٩٣٨، وفي ٢٠/ابريل. فقد سلم وزير الخارجية توفيق السويدي مذكرة رسمية ضمنها^(٥١) وجهات نظر الحكومة العراقية تجاه القضية الفلسطينية، استعرض فيها حقوق الفلسطينيين المشروعة والعلاقات العراقية البريطانية ووعد بلفور وتوصيات اللجنة الملكية. كما اوضح ان فكرة اقامة دولة يهودية لن يحل المشكلة، لعدم قدرة فلسطين على استيعاب جميع اليهود من ناحية، وللصعوبات التي ترافق ذلك من ناحية ثانية. بالاضافة الى ان العرب المحيطين بفلسطين ينظرون الى الدولة اليهودية كخطر سياسي واقتصادي واجتماعي الامر الذي سيعقد المشكلة بين العرب واليهود في فلسطين، وبين العرب واليهود المقيمين في البلاد العربية، ويسيء الى علاقات الصداقة العربية البريطانية.

وطالبت المذكرة بضرورة حل القضية الفلسطينية على نمط القضية السورية باستبدال الانتداب بمعاهدة تحالف تتضمن المحافظة على المصالح البريطانية، وحماية الاماكن المقدسة وحقوق اليهود كأقلية تقيم في فلسطين.

بعثت الخارجية البريطانية بردها على تلك المذكرة يوم ٢٤/٨/١٩٣٨ حيث ناقشت النقاط التي وردت في المذكرة العراقية سواء ما كان منها متعلقا بوعده بلفور وحقوق العرب المشروعة او مشكلة الوطن القومي او مشروع تقسيم، او حل القضية الفلسطينية على نمط حل القضية السورية او العراقية، او خطورة الدولة اليهودية على الاقطار العربية.

ومع ان الحكومة البريطانية تعتقد بان توصيات اللجنة تمثل افضل حل ممكن بالنسبة للقضية الفلسطينية، الا انها ترحب باي اتفاق يتم التوصل اليه بين العرب

واليهود، وطلبت من الحكومة العراقية انتظار تقرير اللجنة الفنية (لجنة وودهد) حول امكانيات تنفيذ قرار التقسيم. (٥٢)

وفي السادس من اكتوبر ١٩٣٨ التقى في لندن توفيق السويدي وزير الخارجية العراقي، مع المستر مكدونالد وزير المستعمرات، وبحضور نوري السعيد. وخلال الحديث الذي جرى اقترح السويدي حل القضية الفلسطينية على اساس اقامة دولة مستقلة في فلسطين مع احتمال ضم شرق الاردن لها على ان يحل التحالف محل الانتداب، (٥٣) ويبقى اليهود بشكل اقلية تتمتع بنوع من الحكم الذاتي، ولا مانع لديه من انتظار قرارات لجنة التقسيم.

فرحب وزير المستعمرات بفكرة انتظار قرارات لجنة التقسيم، ولكنه رفض فكرة بقاء اليهود بشكل اقلية وبصورة دائمة، لان مجلس العموم البريطاني يعارض في وقف الهجرة وبقاء اليهود بشكل اقلية: بالرغم من اعترافه بعدم قدرة فلسطين على استيعاب يهود العالم واللاجئين اليهود من وسط اوربا.

فاقترح السويدي استمرار الهجرة بشرط ان لا يزيد عدد اليهود عن نسبة ٣٥٪ من مجموع السكان ولكن الوزير البريطاني لم يوافق بحجة مخالفة ذلك لوعده بلفور، ولمعارضة مجلس العموم. وطالما انه لا توجد حدود للوطن القومي فالهجرة يجب ان تبقى مستمرة الا اذا قامت دولة يهودية وفقا لقرار تقسيم اللجنة الملكية ١٩٣٧، عندها سوف تقتصر الهجرة الى الدولة اليهودية دون العربية.

رد السويدي على آراء الوزير البريطاني قائلا: اذا كان لا بد من التقسيم فيجب ان يعطى كل فريق قسما من جميع انحاء فلسطين، الساحل والسهل والجبل. ويمكن مد خط من تل ابيب غربا حتى نهر الاردن شرقا فيأخذ اليهود قسمه الجنوبي والعرب قسمه الشمالي. فلجنة بيل اعطت اليهود الاراضي الخصبة وابتقت للعرب المناطق الداخلية.

فوعده وزير المستعمرات السويدي والسعيد بان تكون وجهات نظرهم محل اعتبار خلال دراسة الحكومة البريطانية لتقرير لجنة وودهد. (٥٤)

وفي بيروت ادلى توفيق السويدي بعد عودته من لندن بتصريح يوم ٢١/١٠/١٩٣٨ الى مندوب المكتب الالماني جاء فيه : انه سعى اثناء وجوده في لندن لتسوية مسألة فلسطين ، وسيوضع حل للمسألة قبل نهاية نوفمبر بالاشتراك مع ممثلي فلسطين والبلاد العربية الاخرى. (٥٥)

وقد ذكرت جريدة الاهرام نقلا عن الديلي تلغراف : ان السويدي قدم مشروعا بعد اجتماعه مع وزير المستعمرات والدكتور وايزمن يرمي الى انشاء دولة مستقلة على نمط ما حدث في العراق مع ضمان جميع الحقوق السياسية والمدنية للفلسطينيين من غير الالتفات لاجناسهم ومعتقداتهم. (٥٦)

وعلى اثر صدور قرارات لجنة وودهد وابلاغها لوزير الخارجية العراقي يوم ٨/١١/١٩٣٨، (٥٧) استدعى وزير الخارجية السفير البريطاني في بغداد بترسون ، وطلب منه ان تولي حكومته اهتماما بالغاً لعدد من الامور منها :

- ١ - محاولة الانتفاع من الخطة التي عرضها في لندن كاساس لمحادثات المؤتمر المقبل في لندن، وازضاف ان هذه الخطة لا تعني الوقف الكامل للهجرة اليهودية بل على العكس تسمح بهجرة كبيرة لمدة سنتين او ثلاث بحيث تصل نسبة اليهود الى السكان ١ : ٣ منهم.
- ٢ - اذا لم يكن بالامكان تبني هذه الخطة فيجب ان يكون لدى الحكومة البريطانية خطة بديلة كاساس لمحادثات المؤتمر .

فرد السفير ان حكومته لن توافق على البند الأول. (٥٨) وقد جاء رد وزارة الخارجية البريطانية متفقا مع رأي السفير بالنسبة لموضوع الهجرة. والحكومة البريطانية ترى انه من غير الممكن قبول اي خطة مسبقة كاساس لمحادثات المؤتمر المقبل سواء من قبل الوكالة اليهودية او من قبل عرب فلسطين ، او من قبل الدول العربية المجاورة (٥٩).

والسبب في هذا الموقف البريطاني يرجع الى الضغط الذي مارسه اليهود في بريطانيا اثر مقابلة وايزمن لوزير المستعمرات البريطاني يوم ٩/١١/١٩٣٨، (٦٠)

من ناحية ولأنها كانت تخشى الدعاية اليهودية والنفوذ المالي اليهودي في الولايات المتحدة، بالإضافة الى العناصر المعادية لها في الكونجرس والصحافة الامريكية في حالة اي تعديل لسياستها في فلسطين.^(٦١) ولقد ابدى ابن سعود استعداداه للتوسط لدى الولايات المتحدة الامريكية كي لا تستجيب للضغط اليهودي بخصوص القضية الفلسطينية.^(٦٢)

تقدم العراقيون بهذه الطلبات وشاركتهم في ذلك مصر كمحاولة للحصول على وعد مسبق من الحكومة البريطانية يتضمن تعديل سياستها في فلسطين وبخاصة في موضوع الهجرة، كأن يتفق على حد اقصى للاقلية اليهودية او وقف الهجرة اذا ما فشل المؤتمر المقبل، وبدون ذلك فعلى بريطانيا ان تتوقع تدهورا مستمرا في علاقاتها مع العراق كما قال السفير البريطاني في برقية الى وزارة الخارجية في لندن.^(٦٤)

تقدمت مصر والعراق والسعودية بهذه الطلبات قبل ان تلي الدعوة البريطانية للمشاركة في مؤتمر لندن الذي دعت له الحكومة البريطانية للوصول الى اتفاق مع ممثلي العرب واليهود تماما كما حدث عام ١٩٣٦ عندما تقدمت العراق وشرق الأردن والسعودية بطلبات مماثلة حول تعديل بريطانيا لسياستها في فلسطين كشرط لتوسط تلك الدول لدى عرب فلسطين لوقف الاضراب . ولكن بريطانيا رفضت ذلك، وقبلت الدول العربية التوسط عام ١٩٣٦ بدون شروط مسبقة، كما قبلت المشاركة بمؤتمر لندن بدون شروط مسبقة.^(٦٥)

استمرت محادثات مؤتمر لندن من ٧ شباط حتى ١٥ /مارس /١٩٣٩، وقد حضرها ممثلون عن عرب فلسطين، والوكالة اليهودية، بالإضافة الى ممثلي الدول العربية المجاورة التي سبقت الاشارة لها. وقد مثل العراق في المؤتمر نوري السعيد رئيس الوزراء العراقي، ثم خلفه توفيق السويدي وزير الخارجية. وكان موقف الوفود العربية في المؤتمر كما وصفه توفيق السويدي هو الموافقة على ما يعرض من اقتراحات تنفق واماني الفلسطينيين كاقامة حكومة فلسطينية مستقلة ومنع او وقف الهجرة. ولكنه انتهى دون التوصل الى اتفاق .

وعلى اثر صدور الكتاب الابيض البريطاني مايو/ ١٩٣٩ الذي اشار الى امكانية انشاء دولة فلسطينية بعد عشر سنوات على ان ترتبط بمعاهدة مع بريطانيا مع السماح بهجرة (٧٥) الف يهودي خلال السنوات الخمس القادمة، تكون الهجرة اليهودية بعدها منوطة بموافقة العرب .

ومع ان الحكومة العراقية لم ترحب صراحة بالكتاب الابيض الا انها سعت لدى الفلسطينيين للقبول به، وحاولت اقناع الحكومة البريطانية (بواسطة ممثلها في بغداد Boswall) تلبية طلب المفتي وثلاثة من رفاقه زيارة بغداد لبحث القضية الفلسطينية، على اساس ان قبول المفتي بسياسة الكتاب الابيض يمهد لقبول الفلسطينيين^(٦٨). الا ان بريطانيا لم ترحب بهذه الزيارة.

كذلك فقد ألح نوري السعيد على الدوائر البريطانية للاسراع بتنفيذ سياسة الكتاب الابيض، وبخاصة ما يتعلق منها بالحكومة الفلسطينية. فقد اقترح على السفير البريطاني (نيوتن)^(٦٩) من اجل التغلب على الصعاب التي تحول دون قبول الفلسطينيين بسياسة الكتاب الابيض ما يلي:

- ١ - تقديم عهد او وعد قاطع باقامة دولة عربية خلال فترة زمنية محدودة .
- ٢ - تشكيل مجلس وزراء عربي حالا مع تمثيل الحكومات العربية وبخاصة الهاشمية منها بنواب ملك برئاسة المندوب السامي . ولكن وزير الخارجية البريطاني (بتلر) اوضح انه اذا كانت هناك امكانية لحل فيدرالي او كانتوني فيجب ان يستشار عرب فلسطين فيما اذا كانوا يرغبون بالارتباط فيدراليا مع احدى الدول العربية المجاورة.^(٧٠)

عاب السفير البريطاني نوري السعيد على خطابه في المجلس النيابي الذي قوبل بحجية امل في لندن لقوله: ان هدف العراق هو القضاء على الصهيونية . فقد اوضح نوري السعيد ان ما عناه في خطابه هو الصهيونية السياسية، ويقصد بها الحركة الرامية الى اقامة دولة يهودية في فلسطين . و اضاف بانه يقبل بفكرة انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ولكنه سوف يقاوم بشدة الفكرة التي ينادي بها

غلاة الوطنيين اليهود، والرامية الى تحويل فلسطين كاملها الى وطن قومي لليهود. وقد رحب السفير البريطاني بهذا التفسير، ورجاه ان يكون حذرا في خطاباته في المستقبل. (٧١)

وكأن نوري اراد ان يصحح موقفه، فامتدح الكتاب في الخطاب الذي القاها في المجلس النيابي يوم ١١/٩/١٩٣٩ وبخاصة فيما يتعلق بموضوع الهجرة، واقامة الدولة الفلسطينية، لكنه ابدى شكوكه تجاه رغبة بريطانيا في تنفيذه.

وقد حث السفير البريطاني «نيوتن» في رسالته التي بعثها الى وزارة الخارجية في لندن حكومته على تنفيذ الكتاب الابيض، سيما وان الهدوء والسلام عمّا فلسطين. فالقضية الفلسطينية سوف تبقى عاملا اساسيا في سياسة العراق وعلاقاته مع بريطانيا. وازالة سوء الفهم بين العرب وبريطانيا سيدعم موقف بريطانيا، ويغلق الباب في وجه الدعاية الالمانية في الشرق الاوسط.

وفي يناير ١٩٤٠ ابرق نيوتن الى لندن طالبا وضع الكتاب الابيض موضع التنفيذ،^(٧٢) وشاركه في هذا الطلب لايسون الذي بعث برقية مماثلة في فبراير / ١٩٤٠. (٧٤)

وفي اعقاب استقالة نوري السعيد وتولي رشيد عالي الحكم، مارس / ١٩٤٠، ابدت الحكومة البريطانية مخاوفها من إمكان احياء الثورة في فلسطين بدعم وتأيد العراق. وقد فاتح المستر ادموند، مستشار وزارة الداخلية، الكيلاني بالموضوع فبادر بالطلب المدير العام للبوليس والمخابرات بمراقبة الفلسطينيين، وفي الوقت نفسه ناشد الحكومة البريطانية الى اغتنام الفرصة لتنفيذ الكتاب الابيض، وازاد: انه وجميع القادة العراقيين يقبلون بسياسة بريطانيا المعلنة في الكتاب الابيض شريطة وضعها موضوع التنفيذ، وانهم يقبلون بوعدها من الحكومة البريطانية يتضمن التعهد بتنفيذ سياسة الكتاب الابيض عندما تنتهي الحرب، وعدٍ شبيه بوعدها بريطانيا للشريف حسين خلال الحرب العالمية الأولى. (٧٥)

كرر العراقيون طلبهم حول ضرورة المباشرة بتنفيذ الكتاب الابيض في اعقاب سقوط فرنسا (حزيران/ ١٩٤٠)، مقابل اعلان العراق الحرب على المحور الى جانب الحلفاء. ولذا كلف وزير المستعمرات اللورد لويد، الكولونيل نيوكمب بالقدوم الى بغداد للبحث مع الفلسطينيين الموجودين في بغداد حول اسس التعاون بينهم وبين بريطانيا. وقد حددت وزارة الخارجية البريطانية اطار المحادثات التي يمكن اجرائها مع الفلسطينيين بحيث استبعدت امكانية تعديل الكتاب الابيض لصالح العرب. (٧٦)

شارك في تلك المحادثات جمال الحسيني ممثلاً للمفتي، وموسى العلمي بناء على طلب نيوكمب، والشيخ يوسف ياسين، ونوري السعيد عن العراق بالاضافة الى مقابلته لرئيس الوزراء ورئيس المجلس النيابي (٧٧).

تمثلت المطالب العربية التي قدمت الى نيوكمب بتحديد الهجرة بـ (٧٥) الفا، وتعديل قوانين الاراضي وفقاً لتقرير (وودهد) والبدء في وضع دستور الحكم الذاتي باسرع ما يمكن، واصدار عفو وشامل لجميع الفلسطينيين بما فيهم المفتي، على ان تعلن بريطانيا استعدادها لتأييد اي تقارب او اتحاد بين الدول العربية بشكل فيدرالي او اقتصادي مقابل استخدام السعودية والعراق نفوذهما لوقف الدعاية الخاصة لفلسطين، وتقديم بعض القوات العربية للمساهمة في الحرب الى جانب الحلفاء في ليبيا، او الحبشة او اي مكان آخر (٧٨).

عرض نوري السعيد تلك المقترحات على مجلس الوزراء العراقي فوافق عليها، واتخذ قراراً يقضي باعلان الحرب على المحور ووضع نصف قوات العراق تحت «قيادة الشرق الاوسط» مقابل هذه التسوية. وقد حمل نوري السعيد هذه التسوية الى الجنرال ويفل في القاهرة الذي أحال الامر الى لندن. وبدلاً من ان تبعث هذه رداً اصدرت بيانا في ١٦/٨/١٩٤٠ اعلنت فيه انها لن تجيد عن سياستها المعلنة بخصوص فلسطين، كما رفضت تشترشل مقترحات نيوكمب. (٧٩)

ولم تكثف الحكومة البريطانية بذلك، وانما بعثت بتعليماتها الى ممثليها في

الخارج حول القضية الفلسطينية، فهي مع اعترافها بأثر القضية الفلسطينية على علاقاتها مع الدول العربية الا انها لن تعدل سياستها على امل استمالة الرأي العام العربي الى جانبها^(٨٠).

وألح نيوكمب في التقرير الذي قدمه عن محادثاته على ضرورة تلبية المطالب العربية لما لذلك من اثر في كسب الحرب، وتهدئة العواطف واستمالة الرأي العام في الاقطار العربية والاسلامية كاهند وارتريا، والصومال. الا ان الدوائر البريطانية رفضت ذلك وفضلت بقاء الاوضاع كما هي دون تبديل^(٨١).

كان لفشل محادثات نيوكمب في بغداد اثرها في محاولة العراقيين الحصول من دولتي المحور المانيا وايطاليا على ما فشلوا في الحصول عليه من بريطانيا. فقد طلب المبعوثان العراقيان، ناجي شوكت وزير العدلية العراقي في محادثاته مع السفير الالماني في انقرة (فون باين) اغسطس ١٩٤٠، وعثمان كمال حداد مبعوث المفتي الى برلين سبتمبر ١٩٤٠ وفبراير ١٩٤١- ان تتعهد دولتا المحور بالاعتراف باستقلال الاقطار العربية التي تحت الانتداب الفرنسي (سوريا ولبنان) والانجليزي (فلسطين وشرق الاردن)، على ان يقترن ذلك باعترافها بعدم مشروعية الوطن القومي الصهيوني، وتحويل البلاد العربية حق حل المشكلة اليهودية طبقا لمصالح العرب القومية، ووفقا للطريقة التي تجري في بلاد المحور. ذلك مقابل التعهد بافضلية التعاون الاقتصادي مع دولتي المحور والوقوف الى جانبها خلال الحرب باشعال ثورات في فلسطين وشرقي الاردن ضد بريطانيا. لكن تلك المحادثات لم تنجح كما يريد العرب^(٨٢).

اعقب ذلك تدهور العلاقات العراقية- البريطانية بقيام الحرب بين البلدين ابريل/مايو/ ١٩٤١ الامر الذي جمد اهتمام العراق بالقضية الفلسطينية، لانشغاله بتصفية ذيول الحركة الكيلانية. ولم يستأنف العراق اهتمامه بالقضية الا في اواخر عام ١٩٤٢، من خلال اهتمامه بموضوع الوحدة العربية التي طرحها ايدن في تصريحه الأول في ٢٩/٥/١٩٤١.

فقد قام نوري السعيد بزيارة الى القاهرة في ديسمبر/ كانون اول ١٩٤٢ حيث

بحث مع المستر كيزي وزير الدولة البريطاني موضوع الوحدة العربية، فطلب منه تسجيل آرائه وتقديمها بشكل مذكرة. فكان ذلك ميلاد ما عرف فيما بعد بمشروع الهلال الخصيب أو الكتاب الأزرق الذي أرسله نوري السعيد الى المستر كيزي في ١٤ / يناير / ١٩٤٣ وتناول فيه استقلال العرب ووحدتهم .

اعد نوري السعيد هذه المذكرة باجتهاد شخصي وان كان الساسة العراقيون يؤيدون ما جاء فيها، ولم يرغب ان يعتبرها بأي حال من الاحوال سياسة رسمية للحكومة العراقية، ولذا اعتبرت لدى وزارة الخارجية البريطانية مجرد رسالة شخصية لا رسمية^(٨٣).

يعنيني من المذكرة ما له علاقة بفلسطين، فقد حاول نوري السعيد حل القضية الفلسطينية في اطار وحدة الهلال الخصيب خلافا لمقترحاته عام ١٩٣٦ التي اقتصرت على وحدة فلسطين وشرق الاردن مع العراق نظرا لوضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي .

وبعد ان تعرض نوري السعيد لمشاريع التقسيم اقترح امكانية انشاء منطقة يهودية داخل فلسطين يتمتع فيها اليهود بنوع من الحكم الذاتي، لان اقامة دولتين في فلسطين امر غير عملي، ولذا فقد استبعد فكرة اقامة فلسطين مستقلة او سوريا ولبنان مستقلتين وطلب فرض الاتحاد على سوريا التاريخية باعتبارها مجتمعا موحدا لغويا وثقافيا واقتصاديا^(٨٤).

وسوف تصبح حدود المنطقة اليهودية في ظل سوريا الكبرى حدودا ادارية وباستطاعة العرب الذين تقع اراضيهم في المنطقة اليهودية ان يبقوا فيها او ان يخرجوا منها ويعيشوا في جزء آخر من اجزاء سوريا الموحدة. فهذا الحل يبدد مخاوف الفلسطينيين من خطر التوسع اليهودي، ويوفر للاقلية اليهودية الامان والاستقرار^(٨٥).

وفي ختام مذكرته تقدم نوري السعيد بعدة مقترحات منها: - ان يكون لليهود في فلسطين حكم ذاتي في منطقتهم والسماح لهم بتشكيل حكومة، على ان تتولى

دولة سوريا الكبرى الاشراف العام على منطقتهم وان تكون القدس مدينة مفتوحة امام جميع الطوائف، وتشكيل لجنة خاصة تضم ممثلين عن الاديان الثلاثة للاشراف على ذلك. وفي حالة مطالبة اليهود بحقوق وامتيازات الاقلية فلا بد من منحهم ضمانات دولية تكفل لهم ذلك. وفي اطار هذه الخطة يجري البحث في امر المستعمرات اليهودية وتحديد مواقعها بعد اعداد خارطة دقيقة وبيان عدد العرب واليهود في كل مدينة^(٨٦).

وفي رسالته التي ارفقها مع المذكرة طالب نوري السعيد بضرورة اصدار الامم المتحدة تصريحاً يشجب فكرة انشاء دولة يهودية في فلسطين واتمسك بالكتاب الابيض لعام ١٩٣٩، ورفض ما قد يبديه اليهود من معارضة مقابل ضمان الامم المتحدة مستقبل الوطن القومي اليهودي كما هو عليه الحال في فلسطين مع احتمال تطوره مستقبلا الى حكم ذاتي في اطار سوريا الكبرى او جامعة عربية او اتحاد عربي^(٨٧).

ويرى انتوني ناتنج ان مشروع نوري السعيد يجمع بين امرين: وعد بلفور والكتاب الابيض لعام ١٩٣٩، فالحكم الذاتي يحقق لليهود وطنهم القومي بينما ينجو الفلسطينيون باتحادهم مع اخوانهم السوريين من خطر تحولهم الى اقلية في ظل الدولة اليهودية. وقد عزا ناتنج فشل مشروع نوري السعيد الى معارضة المصريين والبريطانيين والامريكان^(٨٨). ذلك مقرونا بمعارضة ابن سعود الذي كان يؤيد فكرة التعاون الاقتصادي بين الدول العربية باشراف بريطاني، ولكنه لا يؤيد فكرة الوحدة السياسية بحجة انه لا توجد مصلحة لاي دولة عربية باستبدال النفوذ البريطاني بالهيمنة المصرية او العراقية. وازداد ان اولئك الذين يدعون الى وحدة واستقلال العرب انما يسعون لتحقيق اطماعهم الشخصية فالعراقيون يؤيدون جلاء حكومة بريطانيا عن فلسطين من اجل انفسهم^(٨٩)، وعلى ضوء هذا الموقف جاء تصريح ايدن الثاني (في ٢٤ / فبراير / ١٩٤٣) بمثابة تجميد واحباط لمشروع نوري السعيد على حد تعبير فرنان ورجيه^(٩٠).

ولما حاول نوري السعيد تجديد مساعيه الوحودية في اعقاب تصريح ايدن الثاني نصحه السفير البريطاني بعدم اثاره الموضوع لان الشعب العراقي شديد التهيج بالنسبة للقضية الفلسطينية، الامر الذي قد تستعمله العناصر المشاغبة. مما قد يعرض اليهود في العراق لاعمال السلب. فتعهد نوري بعدم السماح باية تظاهرات او اصدار اية منشورات تساعد على هياج الجماهير العراقية^(٩١)، ورجا السفير البريطاني حكومته ضرورة تنفيذ الكتاب الابيض لان اي تراجع عما ورد فيه وبخاصة فيما يتعلق بموضوع الهجرة-سيكون له ردود فعل عنيفة، ربما يعرض المصالح البريطانية للخطر بعد الحرب^(٩٢).

كذلك فقد فشلت مساعيه لدى الدوائر البريطانية في القاهرة أثناء زيارته لها في يوليو/ ١٩٤٣ تلبية لدعوة النحاس باشا للباحث حول الوحدة العربية. فقد حاول اقناع المستشار الشرقي للسفارة^(٩٣) البريطانية في القاهرة بوجهة نظره ولكنه لم يوفق، كما انه فشل في اقناع نائب وزير الدولة^(٩٤) البريطاني في القاهرة ايضا. وكان محور محادثاته مع المسؤولين البريطانيين يدور حول توحيد سوريا الكبرى كخطوة لتحقيق وحدة عربية اكبر. ولكن المحادثات التمهيدية التي دعا لها النحاس ما بين يوليو ١٩٤٣ حتى يناير/ ١٩٤٤ انتهت بالعدول عن مشروع سوريا الكبرى والهلل الخصيب، ومشروع اتحاد سوريا وشرقي الأردن وفلسطين^(٩٥).

وقبل ان تستأنف محادثات اللجنة التحضيرية في الاسكندرية (٩/٢٥ - ١٠/٧/ ١٩٤٤) اجتمع رئيس وزراء العراق حمدي الباجه جي، وزير الخارجية (ارشد العمري) مع السفير البريطاني في بغداد واتفق الجميع على تأجيل اي بحث بمستقبل فلسطين السياسي حتى نهاية الحرب^(٩٦).

وانتهت محادثات اللجنة التحضيرية باصدار برتوكول الاسكندرية الذي تضمن ملحقا بفلسطين تضمن ما ورد في الكتاب الابيض لعام ١٩٣٩ وبخاصة فيما يتعلق بموضوعات الهجرة وبيع الاراضي والوصول الى استقلال فلسطين.

وهكذا جمدت بريطانيا مشروع نوري السعيد لحل القضية الفلسطينية في اطار

وحدة الهلال الخصيب . بل استبعدت بحث القضية الفلسطينية خلال مشاورات الوحدة العربية ، وكان من اهداف تشجيعها لفكرة جامعة الدول العربية التنصل من القضية الفلسطينية ، وتحميل الدول العربية مجتمعة مسئولية تبني حل للقضية الامر الذي يحول دون الزيادات التي يمكن ان تقوم بها احدى الدول العربية ، فتؤدي الى توريث بريطانيا في حل قد لا يخدم مصلحتها .

من عرضنا السابق يتضح لنا ان الساسة العراقيين كانوا يدركون خطر الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وحرص بريطانيا على تنفيذ التزاماتها تجاه الحركة الصهيونية نظرا للضغط الذي تمارسه اليهودية العالمية مقروناً بضغط الولايات المتحدة الامريكية . ولذا فقد حاولوا التوفيق بين التزامات بريطانيا من ناحية ومطالب عرب فلسطين المشروعة من خلال طرح مشروع وحدة فلسطين مع شرق الاردن والعراق في النصف الثاني من الثلاثينات ، ومن خلال وحدة سوريا التاريخية (سوريا الكبرى) بما فيها فلسطين مع العراق وفقا لمشروع الهلال الخصيب الذي نادى به نوري السعيد خلال عام ١٩٤٣ ، وبذل جهده لدى الدوائر العربية والبريطانية لاتخاذها اساسا ل مشاورات الوحدة العربية . ولكن محاولاته فشلت بسبب المعارضة البريطانية المقرونة بالمعارضة المصرية والسعودية والسورية واللبنانية . فالسياسة البريطانية تعارض اي شكل من اشكال الوحدة العربية ولسان حالها يردد ما قاله كلايتون (في ٢٢ / نيسان / ١٩١٦) : اننا (اي الانجليز) لا نريد خلق مملكة عربية متحدة وقوية تحت رئاسة الشريف او اي شخص آخر غيره ، حتى ولو كان ذلك الامر ممكناً^(٩٧) ، واذا كان كلايتون قد برّر موقف بلاده بالمتاعب التي قد تنشأ مستقبلا بالنظر لترتيبات بريطانيا مع روسيا وفرنسا ، فيمكن تبرير موقف بلاده الآن بالترتيبات البريطانية مع الصهيونية والولايات المتحدة الامريكية .

ولقد تحققت الآن مخاوف العرب الفلسطينيين من تحولهم الى اقلية تحت الهيمنة اليهودية ، وكانت المشاريع العربية وبخاصة العراقية تدول حول منح الاقلية اليهودية شكلا من اشكال الحكم الذاتي ، فانعكست الصورة حاليا ، وراحت المشاريع تطرح حول منح الاقلية العربية في فلسطين شكلا من اشكال الحكم الذاتي . فهل يمكن ان تنجح هذه المحاولات في تحقيق السلام العادل الشامل ؟

المصادر:

١ - حول تصرف السلطات العراقية تجاه ردود الفعل الجماهيرية لزيارة الفرد موند الى العراق والثورة البراق انظر: د/ممدوح الروسان/العراق والسياسة العربية رسالة ماجستير غير مطبوعة/جامعة القاهرة- كلية الآداب ١٩٧٢، الصفحات ٢٢٦ وما بعدها وانظر ايضا حول ردود الفعل العراقية تجاه أحداث فلسطين .

Fo. 406/74, E 5484/94/31.

Report on Repercussion in Iraq of the Creation of National Home

For Jews in Palestine, Enclosure in No. 99, Mr. Bateman to Mr. Eden, Baghdad, August 17 1936.

٢ - عرض ابن السعود مشاركة العراق بالتوسط لدى عرب فلسطين لوقف الاضراب في برقية بعثها يوم ١٧/٩/١٩٣٦ الى الحكومة العراقية، وقام وزير الداخلية العراقي بتسليم القائم بالاعمال البريطاني نسخة منها بصورة سرية وقد بعثها هذا الى حكومته يوم ٢٥/٩/١٩٣٦. انظر حول هذا الموضوع:

Fo. 371/E 6313/94/31

Decypher, Mr. Bateman to Mr. Eden, No. 21, Saving Secret, Baghdad 52/9/1936.

٣ - حيد وزير المستعمرات الاعتماد على ممثلين من الدول العربية المجاورة لممارسة سياسة معتدلة فهو يقول:

My Conclusion is that we must be Consent to rely upon reperesentatives of neighbouring Arab States to exert moderat influence.

انظر:

Fo. 371/21868, Telegram No. 620, Immediate and Secert C.O. to High Commisioner, 6/12/1938.

وحول موقف الدوائر الصهيونية من مشاركة الاقطار العربية في القضية الفلسطينية انظر رسالة بن جوريون الى مجلس الاتحاد الصهيوني المرفقة برسالة السفارة البريطانية في القاهرة:

Fo. 371/21,860, E 7292/No. 1242/8/46/38

British Embassy., Cairo. 22 November, 1938 Strictly Confidential.

٤ - راجع:

Fo. 406/77, No. 100, E 6142/6/31.

Telegram No. 293, Newton to Halifax Baghdad August 30, 1939.

٥ - حول عوامل اهتمام العراق بالقضية الفلسطينية خلال هذه الفترة يمكن الرجوع الى الوثائق التالية

أ (تصريحات نوري السعيد للصحف التركية بتاريخ ١٢/٩/١٩٣٦ التي اشارت اليها السفارة البريطانية في استانبول:

Fo. 371 / 20029

British Embassy Istanbul, despatch No. 477 / 230 / 36 R 5965 / 94 / 31, Istanbul Sep 16 / 1936

Fo. 406 / 74. No 112, Mr. Bateman to Mr. Eden Baghdad, Sep. 21 / 1936 (ب)

Fo. 406 / 74, No. 60, E 4608 / 22 / 31 Geneva, August 4, 1937. Delegation Permanent d, (ج)

Irak Geneva to Secretary General of the League, July 31, 1937

انظر ايضا جريدة البلاد العراقية ع / ٩٣٧ ، ١٩٣٧ / ٨ / ٥ / ٥

(د) خطاب توفيق السويدي في عصبة الامم سبتمبر / ١٩٣٧ ، الروسان / المصدر السابق

الفحات ٣٨١ ، ٣٨٧ نقلا عن جريدة الزمان العراقية

Fo. 406 / 75, Note from Iraqi Minister for Foreign Affairs, Enclosure No.86, Mr. Scott (ه)
To Mr Eden, Baghdad, October 8 / 1937.

(و) خطاب نوري السعيد في مؤتمر لندن ١٣ ٪ / ٢ / ١٩٣٩ ، وتعليق موش شاريت

. ١٩٣٩ / ٢ / ١٤

Ben Gorion, My Talks with the Arab Leaders, pp. 226-228, Jerusalem, 1972

(ز) انظر تعليقات السفير البريطاني على خطاب نوري السعيد في المجلس النيابي العراقي

١٩٣٩ / ١١ / ٩ حول اسباب بحث القضية الفلسطينية :

Fo. 406 / 77, No, 77, dispatch No- 667 Sir Newton to Halifax, Baghdad, November 14 / 1939

حول وعي العراقيين المبكر للخطر الصهيوني راجع : حاييم كوهين ، النشاط الصهيوني في - ٦

العراق مركز الدراسات الفلسطينية بغداد والابحاث بيروت / ١٩٧٣ ، ص ٢٨ وما بعدها

- ٧ حول ردود فعل الرأي العام العراقي تجاه اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين انظر :

a) Fo. 406 / 74

E 5484 / 9431, Baghdad 17 August, 1936, op. C.t

b) Fo. 406 / 74, No. 112, Sep. 21, 1936, op. Cit

انظر الحديث الذي جرى بين حكمت سليمان رئيس الحكومة العراقية والسفير البريطاني كبير
حول توصيات اللجنة الملكية .

C) Fo. 37 / 208 07 / E 3527 / 22 / 31

Kerr to Foreign Office, Baghdad, 20th June, 1937

رسالة المستر ارmond مستشار وزارة الداخلية العراقية ١٥ / ١١ / ١٩٣٧ .

F) Fo. 406, E 6900 / 22 / 31, Sir Clark Kerr to Mr. Eden, No. 464.

Baghdad. 19 / 11 / 1937 very Confidential.

E) Fo. 371 / 23238, E 4794 / 6 / 31, Letter No. 15 / 214 / 39 British

Embassy Baghdad, 28th June 1913, Basil Newton to Mr. Butler.

F) Fo. 371 / 23228, Enclosure No. I, in Baghdad Despatch No. 361,

8 / 7 / 1939

رسالة رسم حيدر وزير الخارجية بالوكالة الى السفير البريطاني ٥ / ٧ / ١٩٣٩

Fo. 406 / 75, No. 114, e 2174 / 22 / 31 Memorandum Respecting Balestins Communicated by
Iraqi Minister For Foreign Affairs, Encloare in Despatch No. 155, Baghdad April 16, Kerro to
Mr. Eden

وقد رافقتها وزير العراق المفوض في لندن مع رسالته الي قدمها بدوره الي المستر ايدين في

Fo. 406 / 75, No. 53, E 4150 / 22 / 31

نفس اليوم انظر

نشرت ترجمة هذه المدكرة في وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية (١٩١٨-١٩٣٩) من اوراق

أكرم زعتر، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ص (٤٦٧-٤٦٨) وقد قدمتها له الحكومة العراقية بهدف اطلاع الوطنيين على جهودها.

راجع ايضا جريدة البلاد ت ٥ / ٨١١ / ١٩٣٧، وحول مقالات الصحف العراقية انظر :

Fo. 371/20812, British Embassy, No. 32/154/37 in despatch No. 341, Baghdad, 14/8/1937.

٩ - راجع الحديث الذي جرى بين الملك فيصل ووزير الخارجية البريطاني جون سيمون في لندن ١٩٣٣ د/احمد محمود جمعة، الدبلوماسية البريطانية وجامعة الدول العربية / مجلة المستقبل العربي ع ٥ / يناير / ١٩٧٩ / ص ٩٢

١٠ - حول ميول الفريق بكر صدقي القومية انظر : الروسان المصدر السابق، الصفحات ٢٩٨، ٣٠٥

١١ - حول دعم العراق للمناضلين الفلسطينيين انظر : -

أ (صلاح الدين الصباغ / فرسان العروبة في العراق / دمشق / ١٩٥٦ .

ص ١١٩-١٢٠، ومحمد عزة دروزة / الحركة العربية الواحدة / ص ٣ ص ١٣١، وما رواه معروف الانازوط عن موقف ياسين الهاشمي / الاستقلال ٢١ / ١ / ١٩٣٨ .

ب (تقارير البوليس في حكومة الانتداب رقم ١٥ / ٣٦ :

Fo. 371/20018, Secret, Periodical Appreciation Summary No. 15/36, 1/9/1936

ج (لقد اتهمت بريطانيا العراق في النصف الثاني من عام ١٩٤٠ بالعمل على اشعال

الثورة في فلسطين انظر حول ذلك الموضوع :

Fo. 406/78, NO 290, (14/9/1940) & No. 291 (26/9/1940), Baghdad, Basil Newton to Halifax.

١٢ - أنظر برقية بترسون الى وزير الخارجية البريطاني، ورد وزير الخارجية عليها :

a) Fo. 371/23222, E 886, no distribution Decode 8, Decypher No. 2 8

Peterson Baghdad Feb. 2 1939

b) Fo. 371/2322, E 886/6/31. To Iraq Cypher Telegram To Ser peterson

No. 35 Foreign Office, Feb. 18th 1939.

١٣ - راجع حديث مديرية الدعاية العامة العراقية تحت عنوان : - رسالة العراق التحريرية / الروسان المصدر السابق، ص ٤٦١، نقلا عن جريدة الاستقلال ع ٣٧٠٩ / ت

١٤ - الروسان المصدر السابق / ص ٤٠٤، نقلا عن جريدة البلاد العراقية، ع ٤٩٣ / ٩، ت

٣٦ / ٤ / ٢٣ ولقد بعث المستر بتمن القائم بالاعمال البريطاني في بغداد رسالة الى رئيس وزراء العراق يرحبه فيها عدم السماح بنشر مثل هذه المقالات مستقبلا، انظر :

Fo. 406/74; No. 299

E2653/94/31. Kerr to Mr. Eden, Baghdad, May, 4, 1936

وانظر مقال جريدة الاستقلال بعنوان : واجب العراق نحو الثورة الفلسطينية، ع / ٢٧٩٢،

ت ١٢-٦-١٩٣٦

- ١٥- نسب نوري السعيد (اثناء لقاءه مع السفير البريطاني همفريز) حملات الصحف العراقية الى تهجمات الصحف الصهيونية على العراق سواء كانت تصدر في لندن او فلسطين انظر :
Fo. 406/72, E 7701/6495/93, Sir Humphrys to Sir John Simon, Baghdad 13/12/1934, Confidential, No. 707
- ١٦- اشارت تقارير ورسائل السفارة البريطانية في بغداد في شهري ايار وحزيران ١٩٣٦ الى اللقّات التي اجراها السفير البريطاني كبير مع المسئولين العراقيين الى خطر احداث فلسطين واثّر ما تنقله الصحف العراقية على الرأى العام العراقي :
a) Fo. 406/74, Dispatches Nos. 299 (May, 4/36) 231 (May, 5/36), 257 (May 27/36), 272 (June, 3/36) Baghdad, Bateman, Kerr, to Mr. Eden
b) Fo. 406/74, Dispatches, Nos. 418, 421, E5935/6084/22/31, Bag., 14, October 1937, Mr. Scott, to Mr. Eden
عطلت السلطات العراقية جريدة الرأى العام العراقية لمدة شهرين لمهاجمتها بريطانيا
- ١٧- لمزيد من التفاصيل عن نشاطات الجمعيات والنوادي والمنظمات انظر : الروسان ص ٣٢٤-٣٣٠، ٤٠٤-٤٠٩، وحول جهود نادي المثني انظر :
Fo. 406/74 E 30022/2585/93, Despatch No. 249, Kerr to Mr. Eden, Bag., 19-5-36
وانظر رسالة جمعية الدفاع عن فلسطين الى السفير البريطاني في بغداد تاريخ ٢٩/ذ/١٩٣٧
Fo. 371/20808, E 3932/22/31, Enclosure inBag, despatch, No. 155, 1-3-1937, Palestine Defence Committee
انظر المذكرات التي قدمت من قبل مجلس الشيوخ، وجمعية الشبان المسلمين وطلبة كلية الحقوق
- Fo. 406/74, Nos. 292, 231, Bag. May 4,5,36,Op.Cit
- ١٨- حول زيارة المفتي الى بغداد وهو في طريق عودته من افغانستان وايران انظر :
Fo. 406/74, E484/94/31, Bag., 17-8-1936, Op. Cit.
وحول نداء اللجنة العربية العليا الى الملك غازي انظر :
Fo. 406/75, E6910/22/31, No. 146, Kerrto Mr. Eden, 10-7-1937, Palistin Report
وحول مناشدة العراق للتوسط لدى بريطانيا لتعديل سياستها على اعتبار ان العراق حليف لبريطانيا، انظر مذكرة وزير الخارجية العراقي المرفقة بكتاب السفير البريطاني الى لندن :
Fo. 406/76, E 2324/1031, Despatch No. 166, Sir Peterson to Viscount Halifax, Bag, April 20, 1938
Ben- Gorion, Op. Cit, P. 114
- ١٩-
٢٠- Fo. 406/74, Letter from Kerrto Mr. Rendel, Foreign Office, Bag., 7 th November, 1936
- ٢١- نقل هذا الكلام وزير السعودية المفوض في لندن الى المستر راندال في وزارة الخارجية البريطانية يوم ٢٣/١١/١٩٣٦ اثر عودته من السعودية انظر :
Fo. 371/20029, E 7356/94/31
Memorandum by Rendel, Foreign Office 24 November 1936.

- Fo. 406/76 No. 130
Telegram No. 198, Bullard to Halifax, Jedda 11/12/1938. -٢٢
- انظر : -٢٣
- Fo. 371/23242, E 7760/631
British Embassy, No. 15/371/39, Baghdad, 20/11/1939, Newton to Mr. Butler
- المركز الوطني لحفظ الوثائق / بغداد، وثيقة رقم ٢٦، ملفع ١٩٢٩١٥/٥ - ١٩٣٥. -٢٤
- انظر : -٢٥
- Fo. 406/74 No. 99. E 5484/94/31 Op. Cit.
راجع هامش (١) من هذه الدراسة.
وقد تحدث يسن الهاشمي مع السفير البريطاني حول موضوع الهجرة اليهودية وخطورته على الفلسطينيين انظر :-
- Fo. 406/74, No. 276 Op. cit.
انظر حول تلك المحادثات : -٢٦
- Fo. 371/20029,
E 6886/94/31, Strictly Secret, Iraqi Permanent Delegation Geneva, 26/9/1936 to His excellency The Prime Minister, Conversation at Paris With Lord Winterton and Sir Herbert Samuel about the Palestine Question.
- Fo. 371/20029, E 7217/94/31 -٢٧
British Embassy Baghdad, 7th November Kerr to Rendel. Minute by Kerr about Nui's Idea for a permanent Settlement of Palestine Question.
- كان نوري السعيد قد فاتح القائم بالاعمال السعودي حول ضرورة القيام بمسمى مشترك لدى بريطانيا للحصول على هذه الاجراءات انظر :- -٢٨
- Fo. 371/20029, E 6917/94/31, From Iraq, No. 279 Kerr, Baghdad, November 6, 1936.
- Fo. 371/20804, E 1146/22/31 -٢٩
Attached letter Sent by Ambassador Kerr to Mr. Sterndal Bennelt, Baghdad, 8/2/1937
وقد ذكر حكمت للمستمر ادموند انه لم يبحث الموضوع مع زملائه، او مع اي شخص اخر وطلب منه ان يبلغ السفير كير بمقترحاته.
- كان نوري السعيد قد اقترح على ايدن في جنيف ان يسمح له بالتمثيل امام اللجنة الملكية الا ان ايدن رفض الفكرة انظر :- -٣٠
- Ben- Gorion, Op. Cit, P. 119.
- Fo. 406/75, No 52, E 1427/22/31 -٣١
Dispatch No. 76, Kerr to Mr. Eden, Baghdad, 17/2/1937.
- Fo. 371/20805, E 1428/22/31
Enclosure in Baghdad dispatch No. 77
19/2/1937, Kerr to Mr. Eden. انظر حول تلك المقابلة : -٣٢

Fo. 371/20084, E 1146/22/31 - انظر: - ٣٣
Foreign Office Minute on Attached letter By Mr, Baggally, 1/3/1937.

Fo. 406/75, No. 114, E 2174/22/31, 16/4/1937. Op. cit راجع هامش (٨) - ٣٤

Fo. 406/75, E 1189/22/31 ٣٥
Dispatch No. 75, Mr. Eden to Sir Bullard Jedda,
Foreign Office, 1/3/1937.

- انظر: جريدة البلاد العراقية ٤/٩١٦/ت، ١١/٧/١٩٣٧، وانظر ايضا: - ٣٦

Fo. 406/75. No 52, E 4099/290/93
Iraqi Attitude to Partion Proposals of the Royal Commission on Palestine, Enclouse to
Baghdad dispatch No. 290, 14/7/1937.

كما ادلى حكمت سليمان بتصريحات عدائية نشرتها جريدة البلاد وقام السفير كبير بارسال احتجاج
رئيس الحكومة، وتصريحاته الصحفية، وردود الفعل في الالوية العراقية التي امتدحت موقف رئيس
الحكومة انظر: -

Fo. 406/75, No.47, E 3965/22/31, Telegram No. 148, Kerr to. Mr. Eden, Baghdad, 12/7/1937.

Fo. 406/75, No 53, E 4150/22/31 - ٣٧
Iraqi Minister to Mr Eden, 16/7/1937

ومما هو جدير بالملاحظة ان حكمت سليمان كان قد حذر السفير البريطاني في ٢٠/٦/١٩٣٧
الى ان العرب سيعارضون التقسيم اذا كان احدى توصيات اللجنة الملكية الامر الذي سوف يهني فرصة
التدخل الالمانى - الابطالي لدى العرب، واعرب عن امله بوقف الهجرة وابدى قلقه من ردود فعل الرأي
العام العراقي تجاه اليهود راجع: -

Fo. 371/20807, E 3527/22/31
Kerr to Foreign Office, Baghdad 20 June 1937, No. 69.

Fo. 406/75, No. 46. E 5919/22/31 - انظر: - ٣٨
Telegram No. 146. Kerr to Mr. Eden, Baghdad 10/7/1937.

- ٣٩ راجع الروسان / المصدر السابق ٥ ص ٣٨٠، هامش (١).

Fo. 406/75, No 50, E 3977/22/31 - ٤٠
Telegram No. 133 Mr. Eden To Kerr, Foreign Office 16/7/1937.

- ٤١ لوكاز هيروذ / المانيا والمشرق العربي / ترجمة احمد عبد الرحيم مصطفى ص ٥٢.

- ٤٢ راجع هامش (٣٧) من هذه الدراسة. وحول مخاوف انجلترا من امكانية استغلال المانيا
وايطاليا لتدهور الموقف في فلسطين، وحول اتجاهات الصحف الالمانية نحو قرار التقسيم
وتأييدها للقضايا العربية انظر: -

Fo. 406/75, E 6316/22/31
despatch No. 1028, Sir Henderson to Mr. Eden, Berlin November 17, 1937.

Fo. 406/ 75, E 4128/22/31, No. 51
Telegram No. 160, Kerr to Mr. Eden, Baghdad 17/7/1937.

- ٤٣

وراجع ايضا برقية كبر بتاريخ ١٣/٧/١٩٣٧،

Fo. 406/57, No. 48,
Telegram No. 149, Kerr to Mr. Eden.

- ٤٤ انظر نص المذكرة في جريدة البلاد ع ٩٣٧/٨٨٥/١٩٣٧، وراجع ايضا: -

Fo. 406/75, No. 60, E 4608'22'31 Op. cit.

راجع هامش ٥/ ج من هذه الدراسة.

- ٤٥ انظر تعليق المستر Baggallav مذكرة الممثل العراقي في جنيف وتعليق المستر هول:

Fo. 371/20811, E 4597/22/31
From Scott Baghdad, No. 318 to F.o., Palestine Iraqi Attitude Minute by Baggallay
9/8/1937.

- ٤٦ راجع الروسان المصدر السابق ص ٣٨٧، و دروزة/ الحركة العربية الواحدة/ ج ٣/ ص ١٦٩ وانظر أيضا: -

Fo. 406/75, Note From Iraqi Minister for Foreign Affairs, Enclosure in NO. 86, dispatch NO.
717 Mr Eden, Baghdad, October 8, 1937.

- ٤٧ حول ما دار في ذلك الاجتماع انظر: -

a/ Fo. 371/ 20814, E 5392/22/31, Record of convesation in Geneva, by Rendel,. 11/9/1937;
B/ Fo. 371/20814, E 5499/22/31, Interview at Geneva/ Palestine Iraqi Attitude,
17/9/1937/1937.

C/ Fo. 371/20816, 5907/22/31, Scott to Foreign Office, No. 234, Baghdad 10/10/1937 Kerr
to Mr. Eden, No. 464, Baghdad 19/11/1937 (very confidential)

- ٥٠ الروسان/ المصدر السابق/ ض ٣٨٤-٣٨٥.

- ٥١ Memorandum Communicated by Iraqi Minister for Foreign Affairs, Enclosure in No. 61, Sir
Peterson to Viscount Halifax, No. 166 Baghdad April/20/1938.

- ٥٢ Fo. 40. 406/76, No, 73, E 4506/10/31
Viscount Halifax to Mr. Houston Boswall No. 489, Foreign Office, August, 24, 1938.

وانظر الحديث الذي جرى بين عباس مهدي وزير الخارجية العراقي بالوكالة والقائم بالاعمال البريطاني
في بغداد ٦/٩/١٩٣٨: -

Fo. 406/76, E 5473/10/31
despatch No. 434, Baghdad September 6/38, Mr. Boswall, to Halifax.

٥٣- قد يكون لموقف ابن السعود المعارض لتحرر شرق الأردن وفلسطين من الانتداب البريطاني اثره في موقف الحكومة البريطاني المعارض لفكرة استقلال فلسطين مع شرق الأردن، حول موقف ابن السعود المعارض لاستقلال البلدين وتحريرهما من الانتداب انظر :-

Fo. 409/75, E 3885/22/31, Sir Bullard To Mr. Eden, No. 1, Riyadh Via Jeddah 10/7/1937.

٥٤- حول تلك المقابلة انظر :-
Fo. 406/76, No 88
E 5924/10/31, Note of Interview given by the Secretary of State For Clonies To Iraqi Minister for Foreign Affairs and Nuri Pasha, The Colonail Office October 6, 1938, Communicated by C.O. October 11.

حول مخاوف اليهود من محادثات السويدي مع وزير المستعمرات انظر :-

Fo. 371/21860, E 7292, No. 1242/8/46/38 Op. cit.

٥٥- راجع هامش (٣٠) الروسان المصدر السابق ص ٣٨٨ نقلا عن الاهرام ع/١٩٤٣٧/١٠/٢٢ / ١٩٣٨ .

٥٦- المصدر السابق / ص ٣٨٩

Fo. 406/76, No. 97, E 6506/1/31

٥٧- Palestine Statement by His Majesty Government in U.K., 7/11/1938

وكانت هذه اللجنة قد شكلت في شباط / ١٩٣٨ بناء على قرار مجلس عصبة الامم في

٦ ظ/٩/١٩٣٧، ووصلت فلسطين يوم ٢٧ / نيسان، وتركتها يوم ٣ / آب / ١٩٣٨ .

Fo. 406/76/No, 106, E 6802/10/31

٥٨- Telegram No. 178, Baghdad, November 16, 1938 Peterson to Halifax.

Fo. 406/76, NO 115, E 6875/1/31

٥٩- Telegram NO. 185, Halifax to Peterson Foreign Office, November 23, 1938

Fo. 371/12860, Cabinet, Secret P. 38, Committee on Palestine, Copy No, 93 E 6833, 18 November, 1938. (٦٠)

Fo. 406/75, E 7119/22/31,

٦١) Mr. Eden to Lundsay (Washington) No. 578, Very Confidential, Foreign Office, 3/12/1937.

Fo. 406/77, No. 116

٦٢) E 7036/1/31, Telegram No. 174 Sir Bullard to Halifax. Jeddah, November 24, 1938.

٦٣) Fo. 371/ 12860, E 6871, From Egypt No. 619, Decypher, Mr Bateman, Cairo, 18th November, 1938.

وانظر برقية بات مان رقم (٦٢٣) تاريخ ٢١ / ١١ / ١٩٣٨ حول محادثات بات مان مع

نوري السعيد في القاهرة ملف (٦٩٧٤)

Fo. 406/76, No. 131. E 7742/1/31, Paterson to Halifax Telegram No 101. Sabing Encliar Baghdad, December 3, 1938. (٦٤)

٦٥) ابلغت الخارجية البريطانية رؤساء حكومات كندا، واستراليا ونيوزيلندا واتحاد جنوب افريقيا

قبول مصر والعراق والسعودية وشرق الأردن بالمشاركة في مؤتمر لندن، انظر :

Fo. 371, 21867

Cypher Telegram Circular B. No. 428, Secret, December 6, 1938.

٦٦) راجع الروسان / المصدر السابق / ص ٣٩٢، والتقرير الذي وضعه السويدي عن مؤتمر

لندن، تقرير لجنة التحقيق النيابية في قضية فلسطين - مطبعة الحكومة بغداد ١٩٤٩ (سري

لا يجوز نشره ص ٤٧-٥٢، وانظر ايضا :-

Ben-Gorion, Op. cit, PP 214-217

(٦٧) دروزة/ الحركة العربية الواحدة/ ج ٣، الكتاب الأبيض البريطاني) ملحق ١٠، ص ٣٢٢-٣٣٤.

(٦٨) اخبر نوري السعيد يوم ٦/مايو/ ١٩٣٩ ان المفتي ابرق يريد زيارة بغداد وتمهد نوري السعيد (رئيس الوزراء) ان ينزل المفتي ورفاقه خارج بغداد مع عدم السماح بأية تظاهرات، وان لا تؤيد فترة اقامته عن ثلاثة ايام. انظر حول هذا الموضوع :-

Fo. 406/77, No, 132 Telegram No. 173 E 3349/6/31, Baswall to Halifax, Baghdad May, 6, 1939.

Fo. 371/23238, E 7794/6/31

British Embassy Bag., 28th June, 1939 Letter No. 15/214/39, Basil Newton To Mr. Butler

Fo. 371/23238, E 4794/6/31, Mr. Butler to Newton, Foreign Office, 21/7/1939,

Fo. 371/23239, E 6095/6/31

British Embassy Bag. 21/8/1939 despatch No. 465/15/270/39.

Basil Newton to Halifax.

Fo. 371/23239, E 7760/6/31

British Embassy, Bag. 20/11/1939 letter No. 15/371/39, Newton to Mr. Butler

وحول خطاب نوري السعيد في المجلس النيابي انظر: الروسان/ المصدر السابق ص ٣٩٦.

Fo. 406/78, No. 2, Newton to Halifax, Bag. January 10, 1940

Fo. 406/78 No. 253, E 578/31/31

Despatch No. 121, Secret, Lampson to Halifax February 2, 1940

Fo. 371/24556, Letter from Edmonds Ministry of Interior May 5, 1940, Enclosure in E 2022/2022/93, British Embassy Bag.

May 20, 1940, No. 223/410/4/40 Newton to Halifax.

Fo. 371/24549, E 2152/2029/65

Telegram, No. July 17, 1940, from, F.O. to Mr. Newton Bag. Immediate.

Fo. 371/24549, E 2152/G, Telegram No. 428, Decypher, Sir Newton Bag. 6/8/1940.

Fo. 371/24549, E 2152/2029/65

Telegram No. 409, Bag. 3rd August 1940, From Newton to F.O.

خدوري/ مجيد/ عرب معاصرون، الدار المتخذة للنشر، بيروت/ ١٩٧٣، ص ٤١٧،

٤١٨

Kirk, Middle East, in the War (39-1945), London 1952 PP. 237-38.

Fo. 406/78, No. 285, E 2282/2029/65

Halifax to Newton No. 412, Confidential F.O. August 29, 1940.

Fo. 371/24565, E 2371/31/31

Report on Palestine White Paper Newcombe, 16-9-1940.

الروسان/ المصدر السابق/ الصفحات ٤٥٢ وما بعدها.

Fo. 371/ 34955, Office of the Prime Ministen to the Minister of State Bag. January 14, 1943

Enclosure in, E 1196/506/65, Confidential Office of the Minsistry of Stat to F.O. Cairo february 11, 1943.

Ibid, P.5.

Ibid, IPP. 8. 10.

Fo. 371/34955, OP. cit, PP. 9-10.

-٨٦

Ibid, P.2

-٨٧

انظر تعليق عوني عبد الهادي وحلمي رشيد الحاج على مقترحات نوري السعيد التي اغفلت موضوع الهجرة اليهودية، وتجاوزت الكتاب الابيض بمنح اليهود شبه استقلال اداري. عوني عبد الهادي (اوراق خاصة) اعداد د/ خيرية قاسمية منظمة التحرير الفلسطينية / مركز الابحاث بيروت ١٩٧٤، ص ١٣٠

Nutting (Anthony) The Arabs, Newyork 1965, PP. 341-42.

-٨٨

Fo. 371/35147, E 411/69/25, Telegram No. 42, Particular Secrecy, Cairo, December 30, 1942, Ministry of State to F.O.

(٨٩)

فرنان ويلية، الجذور التاريخية لمشكلات الشرق الاوسط / تعريف نجدة هاجر، وطارق شهاب بيروت / ١٩٦٠ / ص ١٢٨ .

-٩٠

Fo. 371/34955, E 1465/506/65

-٩١

Telegram No. 252, 12 March, 1943, Bag. to F.O, Particular Secrecy.

Fo. 371/34960, E 4335/506/65, Telegram, No. 1450, Cairo, 25 July, 1943, Particular Secrecy Important, lord Killen to F.O.

-٩٢

Fo. 371/35010, E 2755/489/93, Most Secret Cornwallis to War Cabinet, No. 143, Bag. 26/4/1943.

-٩٣

Fo. 371/ 34960 E 4394/506/65, Telegram, No, 1750 Cairo, 26 July, 1943, Deputy Minister of Stat To F.O. Particular Secrecy Important.

-٩٤

سيد نوفل / العمل العربي المشترك، ماضية ومستقبله، الكتاب الاول / القاهرة ١٩٦٨، ص / ٦٣ .

-٩٥

Fo. 371/40042, E 5285/37/93 No. 332, Report on the Sitation in Iraq, Bag. Mr. Thompson to Mr. Eden, 14th August, 1944.

-٩٦

وقد شارك ابن السعود هذا الموقف فقد كان يرى انه ليس من مصلحة العرب بحث قضية فلسطين خلال الحرب، ومارس ضغطا على قادة سوريا واليمن ولبنان لتبني وجهة نظره لتجنب ازمة سابقة لوانها. انظر :-

Fo. 371/ 45546, E 952/25

Confidential 16726 Mr. Jordan to Mr. Eden No. 22, Jedda, 27th Jan., 1945, Annual Report on Saudi Arabia for 1944, P.2.

سليمان موسى / الحركة العربية (١٩٠٨-١٩٢٤) دار النهار بيروت / ١٩٧٧ ص ٢٦٣ .

-٩٧

الاطماع الصهيونية في فلسطين منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر

د. حسن ريان

وزارة التربية والتعليم الاردنية - عمان

الهجرة الصهيونية الى فلسطين :

لن نحدد تاريخاً معيناً لمولد الحركة الصهيونية. يرجع الصهيوينيون انفسهم ذلك التاريخ الى ما قبل المسيح بستة قرون، حينما سبي نبوخذ نصر خمسين الفا من يهود فلسطين الى مملكته في بابل. ومن الصهيوينيون من يعود لمولد الحركة الى سبي آخر تعرض له يهود فلسطين حصل في القرن الاول بعد الميلاد، على ايدي الرومان الذين احتلوا القدس ودمروا هيكلها عام ١٣٥ م. أما أكثر الصهيوينيون تحفظاً فيعتبرون طرد الاسبانين لليهود من بلادهم في اواخر القرن الخامس عشر للميلاد اشارة انطلاق الحركة الصهيونية التي نشأت مع تدفق اللاجئيين اليهود الى اراضي السلطنة العثمانية. ولكن مهما يكن من امر هذه المبالغات التي يقصد منها اظهار الصهيونية بمظهر الحركة العريقة البعيدة الجذور في العالم المتحرر من أي ارتباط مع المقاصد الاستعمارية، فان الصهيونية حركة حديثة، اوروية الاصول والنشأة، عاصرت عهود الاستعمار والاستغلال الحديثة وتأثرت بهما واثرت فيهما. وقد تطورت في القرن الماضي تطوراً سريعاً حتى اصبحت في اواخره حركة خطيرة تهدد الكيان العربي في الصميم، في عهد ثيودور هيرتزل مؤسس الحركة التي جسمت الدعوة الصهيونية ومثلت اخطارها واشرفت على تحقيقها. وملخص دعوتها ان

اليهودية قومية وليست مجرد دين، وان ارض فلسطين هي المكان الذي يجب ان يتجمع فيه ابناء هذا الدين - القومية، ليتحولوا الى أمة بالمعنى الصحيح .

حمل الدعوة الصهيونية، عدد من يهود اوروبه واصدقائهم من غير اليهود، وخاصة من البريطانيين، في مشاريع وجمعيات ودراسات متعددة ظهرت في اكثر من بلد أوروبي في القرن الماضي . استغل هؤلاء، في ذلك الوقت بالذات، ظروفًا سياسية معينة: منها عطف بريطانيا بشكل خاص على الصهيونية، لاسباب استعمارية ونفسية، وطمع كبار الرأسماليين اليهود باستثمار اموالهم في بلد بكر يحولونه الى مركز لنشاطهم المالي في العالم، وضعف السلطنة العثمانية واشرافها على دور الانحلال، وتحديث الاوساط الدولية عن وجوب تقسيمها، وقيام رد فعل عنصري في بعض دول اوروبه (خاصة روسيا والمانيا والنمسا وفرنسا) لسوء تصرفات اليهود مع ابناء البلاد التي استضافتهم طويلا . وقد عملت هذه الاحداث والظروف على تكتيل اليهود حول الحركة السياسية التي يزعمون انها بدأت قبل خمسة وعشرين قرنا .

حري بنا الآن ان نتوقف قليلا عند علاقة بريطانيا بالحركة الصهيونية، في وقت (في القرن الماضي) كانت بريطانيا فيه ترسم الخطط للسيطرة على البلاد العربية ولتأسيس كيانات تحقق اغراضها في المنطقة . قال ناحوم سوكولوف، احد رؤساء المنظمة الصهيونية في تأريخه شبه الرسمي للحركة الصهيونية وبؤرة نشاطها السياسي»^(١) .

ذلك ما برهنت على صحته تطورات القضية الصهيونية في قرن ونصف القرن، حيث كانت نشأة التعاون البريطاني الصهيوني في اعطاف السياسة الاستعمارية، وفي وقت قوي فيه النفوذ اليهودي في بريطانيا (وفي دول اوروبه اخرى ايضا بنسب متفاوتة) بواسطة كبار الممولين اليهود في مصارف لندن ومحلاتها المالية الكبرى . مما فكانت لهم مصلحة مباشرة في تأمين طرق المواصلات الى الهند . وقد ادرك هؤلاء خاصة بعد ان تم حفر قناة السويس وانتقلت غالبية اسهم شركتها الى الانكليز،

ان بريطانيا أصبحت اقرب دول اوروبه الى فلسطين سياسيا وجغرافيا (من قبرص ومصر) واكثرها اهتماما بصدد الاطماع الاوروبية الاخرى في فلسطين .

أما على الصعيد الشعبي فقد عمل العامل الديني كثيرا في تعزيز الدعوة الصهيونية بين الطوائف المسيحية البريطانية، خاصة البروتستانتية وما تفرع عنها من طوائف، كالانجيليين، والمتجددين، وشهود يهوى، والسبتيين، ذلك ان المسيحي ينشأ وفي نفسه اعتقاد قوي جازم ان العهد القديم أي التوراة، كتاب مقدس. وان المسيح يهودي جاء يكمل ما بدأه انبياء التوراة، وان المسيحية شديدة الارتباط باليهودية. أو قل هي استمرار لها، وان اليهود شعب الله المختار، وان عودتهم الى فلسطين ضرورة لتحقيق ارادة الله أو وعده .

ولهذا يجب ان لا ننسى ان الاساس الذي بني عليه وعد بلفور (وهو الدعامه التي ارتكزت عليها الصهيونية في العقد الثاني من القرن العشرين في اقامة دولة اسرائيل) هو وعد «الله» لابراهيم، باعطائه ارض كنعان ميراثا ابديا، وبين الوعدين ما يقرب من اربعة الالاف عام. كانت اليهودية والصهيونية لا فرق بينهما، فهما وجهان لعملة واحدة... والاحسن ان نقول: كانت اليهودية - الصهيونية، خلال هذه الاجيال، تعمل على غرس التوراة، كتاب اليهودية، في وجدانات البشر، على اساس انه كتاب مقدس، وكل ما ورد فيه مقدس: فالوعد من الله، وتحقيق الوعد تنفيذ لارادة الله. وكل من يساعد الصهيونية في العودة الى «ارض الميعاد» وبناء الوطن القومي اليهودي، فردا كان ام جماعة ام دولة، انما هو يعمل بما هو مكتوب في الكتاب المقدس، وقد اصطفاه الله ليكون تحقيق الوعد على يديه .

وبفعل ربط التوراة بالانجيل، رسخ في الازهان تقريبا في الشرق والغرب، ان عودة اليهود الى فلسطين، واقامة دولة لهم، واعادة بناء الهيكل، انما هو حق ديني وارادة إلهية*، لهذا كان لا بد من عملية غسل دماغ للغرب والشرق تخلصه من هذه المعتقدات الباطلة.

نشأت عدة جمعيات بريطانية مسيحية تعنى باعادة اليهود الى فلسطين منذ مطلع القرن التاسع عشر - اشهرها جمعية التوراة ١٨٠٢، وجمعية فلسطين ١٨٠٥، وجمعية لندن للتبشير بالمسيحية بين اليهود ١٨٢٥. وقد تحدث افرادها عن واجب بريطانيا الخاص بهذا الامر. اما القاعدة الرسمية للتعاون البريطاني اليهودي فقد ارسيت عام ١٨٣٩ - ١٨٤٠ حينما تبنت الحكومة البريطانية قضية يهود السلطنة العثمانية رسميا واسست اول قنصلية لها في القدس لحماية يهودها واعطائهم رعاية خاصة، تحقيقا لتقرير بعثة كنسية ارسلتها الجمعية العمومية لكنيسة اسكتلنده الى فلسطين للبحث في اوضاع يهود السلطنة. ورافق تأسيس القنصلية حملة صحفية في بريطانيا لتأييد اماني اليهود في فلسطين، ابرزها مقالات في التايمز في السابع عشر والسادس والعشرين من آب (اغسطس) ١٨٤٠، وقد تحدثت عن امكان اقامة دولة يهودية في فلسطين بجهد بريطاني .

حدد رئيس الحكومة البريطانية، بالمرستون - اهداف تلك القنصلية الاولى في القدس في رسائل بعث بها الى القنصل وليم ينج خلاصتها «تأمين حماية اليهود عموما وارسال التقارير عنهم». وقام بالمرستون في الوقت نفسه، بحملة لفرض بريطانيا على السلطنة كحامية لليهود. فبعث برسالة الى سفيره في القسطنطينية، بنسني، يحثه فيها على الضغط على السلطان ليقبل باسكان يهود جدد في فلسطين بتاريخ الحادي عشر من آب (اغسطس) ١٨٤٠. وقد قال في رسالته «ان شعورا قويا بان الوقت قد حان لعودة شعبهم الى فلسطين قد اخذ ينتشر حاليا بين اليهود المشتتين في اوربا. لقد اتضحت رغبتهم في الذهاب الى هناك، واتجهت اذهانهم نحو وسائل تحقيق تلك الامنية اكثر مما مضى - ومعلوم ان ليهود اوربا ثروات كبيرة وان اي بلد في مقدوره استقبال عدد كبير منهم للسكن فيه، سوف يحصل على فائدة جمة من الخيرات التي سي جلبونها معهم» .

واتبع بالمرستون رسالته تلك برسالة اخرى بعد ثلاثة اسابيع، في الرابع من ايلول (سبتمبر) ١٨٤٠، يأمر سفيره فيها بمواصلة السعي لدى السلطان والضغط عليه. ثم كتب رسالتين آخرين في تشرين ثاني (نوفمبر) ١٨٤٠، وشباط

(فبراير) ١٨٤١ يعلن فيهما، ان بريطانيا اصبحت مسؤولة عن تحقيق مشروع اسكان اليهود في فلسطين. وارفق هذه الرسائل بتواصل عممها على قناصله في غرب آسيا، ليضعوا اليهود تحت حمايتهم حتى وان كانوا لا يحملون الجنسية البريطانية^(١). وقد كشف بالمرستون بنفسه عن سر اهتمامه المفاجيء باليهود بقوله « سيكون الشعب اليهودي اذا عاد الى فلسطين في رضى السلطان وتحت حمايته، سدا بوجه اية رغبات شريرة يفكر بها محمد علي، او خليفته في المستقبل » كما كتب في رسالته الاولى الى سفيره في القسطنطينية .

وجدير بالذكر هنا، ان قنصل بريطانيا في بيروت آنذاك، الكولونيل تشرشل، ارسل الى مجلس الممثلين اليهود في بريطانيا يقترح عليه تأسيس وطن قومي في فلسطين ما دام محمد علي قد فشل في اخضاع البلاد لسلطانه. وقد سبق لتشرشل هذا ان ابدى مخاوفه من حملة ابراهيم باشا ونتائجها القومية في سوريا، اذ خشى ان يؤدي فتحه مدينة دمشق، قاعدة الخلافة الاموية العربية، الى ان يستعيد العرب الخلافة وينبوا دولة موحدة في غرب آسيا وشمال افريقيا... وقد عبر عن هذه المخاوف بصراحة في كتاب له عن لبنان في القرن الماضي^(٢).

أي ان اقامة كيان رسمي لليهود في فلسطين كان يعني، الى جانب كسب رضى يهود العالم وخدمة رؤسائهم، اقامة شوكة في جانبي دولتي الشرق الكبيرتين آنذاك، الدولة العلوية الفتية، ودولة السلطنة العثمانية. ويعني ايضا الحيلولة دون قيام وحدة عربية، كما تعني حماية خطوط المواصلات عبر البحر الاحمر التي اّمن احتلال عدن اشراف بريطانيا عليها. ويعني ذلك كله، ايضا، قطع الطريق على الغرمة الكبرى لبريطانيا، الا وهي فرنسا، صديقة محمد علي وصاحبة الاطماع في الشرق، وذات المركز الممتاز الخاص في القدس وبيت لحم ودمشق ولبنان باكملهم.

وجد الانكليز في السنوات العشر التي تلت تأسيس القنصلية في القدس عدة مناسبات لاطهار عطفهم الخاص على يهود الشرق، منها مساندتهم رحلة جديدة قام بها موشه مونتفيوري^(٣) الى الشرق عام ١٨٣٩ - ١٨٤٠. وكان هذا الممول الكبير قد زار فلسطين مرتين على الاقل من قبل. وحاول في زيارته الجديدة شراء

رضى مصر وتركيا لتأسيس مستعمرات يهودية في فلسطين وسيناء. وقد زوده بالمستون برسائل توصية خاصة لانجاح مهمته. وفي مصر تولى احد الضباط الانكليز، الكولونيل كامبل، مهمة التوسط بينه وبين محمد علي. وقد وعده هذا شفها بتحقق رغباته. اما في تركيا فقد كان نصيب الرجل الفشل، حيث لم تجد شيئا توصيات رئيس الوزارة البريطانية.

تابع النشاط البريطاني غير الرسمي لمصلحة اليهود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فظهرت كتب جديدة لعدد من القساوسة والمبشرين في تبرير حق اليهود بارض فلسطين توراتياً وتاريخياً وانسانياً، اشهرهم القساوسة الثلاثة بلاكستن وتمسن وهكلر، وظهرت جمعيات جديدة، اشهرها جمعية التبشير الكنسي لكنيسة انكلترا، مهدت لمشروع الوطن القومي. كذلك حصل اليهود على تأييد خطي من عدد من الآثريين والجغرافيين، امثال ادورد روبنسن والسير تشارلز ولسن والسير تشارلز وارن وبورتر والميجور كندر. وقد حدد بعض هؤلاء الاماكن اليهودية في تاريخ فلسطين القديم للزعم بأنها تعطي اليهود حقا ازليا بارض فلسطين، ودعوا في كتاباتهم الى هجرة اليهود الى ضفتي نهر الاردن.

ومد كل من روبنسن وبورتر حدود «اسرائيل» الشمالية الشرقية لتشمل لبنان كله وجزءا من سوريا^(٥).

ونقل بعض اصدقاء اليهود في بريطانيا نشاطهم الى حيز العمل السياسي المنظم، فقدم الايرل شفتسبري في ايار ١٨٥٤ مذكرة الى وزير الخارجية اللورد كلرندن، يقترح فيها الضغط على السلطان يمنح اليهود فرمانا باقامة مستعمرات اخرى في فلسطين. ونتيجة لذلك، زار مونتيغوري فلسطين مرة اخرى في عام ١٨٥٥ بعد ان حصل على فرمان المطلوب بمساعدة سفير بريطانيا في القسطنطينية، واشترى اراضي بين يافا والقدس، واقام فيها اقدم المستعمرات اليهودية في فلسطين. وكان عدد اليهود في فلسطين في ذلك التاريخ لا يتجاوز ثمانية الآف.

أما الجهد الاوفى في سبيل اليهود فقد قام به البريطاني لورنس الفنت الذي دعى

في كتابه «أرض جلعاد» الى تأسيس الوطن القومي لليهود في فلسطين برعاية بريطانيا باعتبار ذلك خدمة سياسية وعسكرية لبريطانيا مثلما هو خدمة انسانية للعالم^(٦).

سارت هذه المساعي جنبا الى جنب، ويتعاون مباشر، مع مساعي اليهود الصهيونيين انفسهم لنشر دعوتهم ومطالبهم ولتحقيقها بالتدرج. ذلك انه منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر بدأت تتحول رغبة اليهود في العودة الى فلسطين من دينية بحتة الى سياسية وقومية. ففي العقد الرابع من القرن الماضي وضع الحاخام تسفي كاليشر ويهودا القلاعي مشاريع للعودة الى فلسطين. وقدم القلاعي بنفسه الى فلسطين وسكن في القدس. وقد قام هذان الحاخامان بجملة واسعة النطاق لغرض توطين اليهود في فلسطين وخاصة في المانيا وانكلترا. وفي عام ١٨٦٠ دعا كاليشر الى عقد اجتماع في بروسيا الغربية للبحث في مسألة عودة اليهود لاستيطان فلسطين، اسفر عن انشاء الدكتور حايم لوريا في فرانكفورت جمعية لاستيطان اليهود في فلسطين، وفي عام ١٨٦٤ نقل مقر الجمعية الى برلين^(٧).

وفي نفس الفترة ظهرت فكرة توطين فلسطين في مؤلفات بعض المفكرين، امثال «موشيه هس»، احد المفكرين الاشتراكيين في القرن التاسع عشر، حيث اصدر كتابه «روما والقدس» عام ١٨٦٢ وحاول ان يثبت فيه ان اليهود ليسوا فقط جماعة دينية وانما هم امة ايضا، لا يمكنها ان تندمج مع بقية الامم، ولذلك كان على هذه الامة العودة الى فلسطين، لاعادة انشاء دولتها فيها.

لاقت هذه المؤلفات رواجاً شجع عليه قيام ضجة اصطنعها اليهود في شباط ١٨٤٠ لأن احتكاكا حصل بين عرب دمشق ويهودها اثر اختفاء قسيس كاثوليكي من بيته، واعتراف حلاق يهودي بان ابناء ملته قتلوا القسيس واستحلوا دمه في موسم عيد الفصح. وزعم اليهود ان العرب يضطهدونهم في كل مكان وان ليس لهم من يحميهم غير الانكليز، واستطاعوا ان يؤلبوا اوساطا كثيرة لمصلحتهم.

وفي اعقاب تلك الحادثة وجهت الصحافة اليهودية دعوة لتوثيق الصلات بين الطوائف اليهودية في شتى الدول. وقد سعت الى ايجاد منظمات يهودية عالمية ترعى شؤون اليهود في جميع ارجاء العالم، وكانت هذه الحادثة الدافع المباشر الذي ادى الى اقامة هذه المنظمات التي دعيت بمنظمات «الاليانس» التي تنحصر مهمتها في الاشراف على عملية شراء الاراضي وتأسيس المستعمرات وتأمين الهجرة . وعليه فقد اسس اليهودي الفرنسي « كرميو » المنظمة الاسرائيلية العالمية الاليانس عام ١٨٦٠، وهي المنظمة المعروفة باسم « جميع أبناء اسرائيل اخوان»، حيث اجتمع عدد من اليهود في باريس ووضعوا مخططا لاقامة هذه المنظمة اليهودية العالمية وتحديد اهدافها الآتية. وقد انضم اليها مئات من اليهود في فرنسا وخارجها بالاضافة الى عدد من الاوروبيين من غير اليهود.

وقد سعت هذه المنظمة منذ تأسيسها الى مساعدة اليهود في السلطنة العثمانية عن طريق مساعدة المهاجرين منهم الى فلسطين واقامة المدارس لابناء الطائفة اليهودية. ومن جملة اعمالها في هذا المضمار تأسيس المدرسة الزراعية «مقفية اسرائيل» التي اسسها كارل نيتز عام ١٨٧٠م.

شجع قيام هذه المنظمة تأسيس منظمات يهودية عالمية اخرى كمنظمة الاليانس الاسرائيلية في فينا، وكالمنظمة اليهودية الانكليزية (١٨٧١) التي اسسها هنري دومانت السويسري، ومنظمة المساعدة الخاصة بيهود المانيا (١٩٠١). وكانت هذه المنظمات تعمل بنفس الروح التي تعمل بها المنظمة الاولى. ومن اهم نشاطاتها في القرن الماضي: مقاومة مظاهر اللاسامية في بعض دول اوربا وخاصة رومانيا والسعي في مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م من اجل ضمان حرية اليهود وحقوقهم.

واسس يهود روسيا جمعيات «محبى صهيون»، ويعود السبب في انشائها الى اضطهاد اليهود في روسيا والى المذابح التي تعرضوا لها وعلى الاخص في النصف الثاني من القرن الماضي. وقد ادى هذا الى اقتناع فئات يهودية مختلفة فيها بوجود الهجرة والاستيطان في فلسطين وبدء العمل القومي. وهكذا نشأت حركة محبى

صهيون التي هدفت الى استيطان فلسطين. وقد اصبح عدد منظماتها عام ١٨٨١م قرابة الثلاثين. وفي عام ١٨٨٤م (وهو عيد الميلاد المائة لموشه مونتفيوري) عقدت الحركة مؤتمرا في مدينة كتوفيتش حضره خمسة وثلاثون عضوا من رؤساء حركة محبي صهيون لبحث الوسائل الخاصة بتوطين فلسطين. وقد اقر هذا المؤتمر تأسيس صندوق لدعم حركة الاستيطان في فلسطين اطلق عليه اسم مونتفيوري، وذلك تخليدا لاعمال موشه مونتفيوري الجمة لدعم حركة الاستيطان في فلسطين. وقد ساهم هذا الصندوق كثيرا في بناء فلسطين وتوطينها. كما دعا المؤتمر اليهود الى العودة الى الزراعة والصناعة. هذا وكان سبق ذلك في رومانيا ظهور جمعيات استهدفت هي الاخرى الاستيطان في فلسطين، وكان لمنظمات «محبي صهيون» وأنشأت في روسيا برامج قومية سياسية. اما جمعية «بيلو» فكانت هي الاخرى احدى المنظمات اليهودية التي هدفت الهجرة الى فلسطين والاستيطان فيها. وقد قامت في روسيا في مدينة «خاركوف» لها فروعاً في موسكو ومدن روسية اخرى، كما انشأت لها مكتبا في الآستانة يعمل من اجل الحصول على فرمان من السلطان، لاستيطان فلسطين. واسم بيلو يعني: «لنذهب كلنا الى فلسطين» او «يا ابناء يعقوب هيا نذهب».

وبعد موجة الاضطهاد التي حلت باليهود في روسيا عام ١٨٨١ انتظمت جماعة مؤلفة من اربعة عشر شخصا، بينهم فتاة واحدة، وتركوا روسيا في طريق هجرتهم الى فلسطين. وفي عام ١٨٨٢ وصلوا اليها وبدأوا يعملون في المدرسة الزراعية في «مقفيه اسرائيل». الا ان ظروف العمل الصعبة والمعاملة القاسية التي لاقوها هناك اصابهم بخيبة امل وهزت روحهم المعنوية، وجعلت اليأس يتطرق الى نفوسهم، الامر الذي جعل قسماً منهم يترك العمل هناك، وينتقل الى رويشون لصيون والقدس.

وبعد ان انضمت الى جماعة البيلو الاولى جماعات اخرى، انتظموا جمعياً، وأسسوا عام ١٨٨٤ مستوطنة «غديرة» التي اصبحت مستوطنة جماعة «بيلو» فيما بعد. والحقيقة انه لم تعمل سوى جمعية «بيلو» وبعض الجمعيات الاخرى

على هجرة اعضائها الفورية الى فلسطين. اما بقية الجمعيات والمنظمات فقد انهمكت في الايضاح المبدي وشرح اهداف الحركة القومية اليهودية، كما عمدت الى ايفاد الرسل الى فلسطين عام ١٨٨٢ للتجول فيها ولدراسة ظروفها. على ان القيود التي فرضتها الدولة العثمانية على الهجرة، والصعوبات والمشقات التي لقيها المهاجرون لم تلبث ان ادت الى وقف اعمال الاستيطان وقفا كليا تقريبا، ووضع اغلب التوكيد على وجوب تقوية وترسيخ الناحية المبدئية والعقائدية^(٨).

أنعشت هذه المؤسسات آمال اليهود واخذوا يعملون على زيادة المستعمرات حتى تخضع فلسطين كلها لهم. واتصل كبير زعمائهم في ذلك الوقت، ابراهام بنش، بالفايكونت كتج، وكيل الخارجية البريطانية، وقدم اليه مشروعا بوضع المستعمرات اليهودية في فلسطين تحت حماية بريطانيا رسميا، وبجعل الافضلية لبريطانيا في التعامل التجاري معها. ودعم يهود فلسطين الفكرة بان اوكلوا جيمس فن أن ينقل الى حكومته رغبتهم في الاحتواء بها. ويروي المرابي الامريكى «فردرك بلس» ان يهود البلاد العربية تحمسوا لتحقيق المشاريع الصهيونية واخذوا يدفعون اتاوات شهرية للحركة الصهيونية^(٩). ويقول زميله «هنري جيب» ان بعض يهود فلسطين اقساموا، في عام ١٨٦٦، على ان لا يخلعوا ثيابهم عن اجسادهم قبل ان «يستعيدوا وطنهم» في فلسطين^(٩).

غذى تلك الآمال بناء المستوطنات الزراعية الواحدة تلو الاخرى منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في اجزاء مختلفة من فلسطين. وهذه المستوطنات هي :

بتاح تكفا: وكانت اولى المستوطنات التي تأسست خلال هذه الفترة. وقد اسسها فريق من يهود القدس وقادمون من هنغاريا عام ١٨٧٨م. ونظرا لكثرة المستنقعات في اراضيها، فقد عانى مستوطنوها كثيرا من جراء الامراض، وخاصة الملاريا.

وفي سنة ١٨٨٣ انضم الى بتاح تكفا بعض المستوطنين القادمين من روسيا

وبولونيا. وبمساعدة البارون روتشيلد استطاع المستوطنون ان يجففوا المستنقعات ويفرسوا كروم العنب وبيارات البرتقال.

في عام ١٨٨٢ منعت الدولة العثمانية هجرة اليهود الى فلسطين خوفا من تدخل الدول الغربية في شؤونها عقب استيطان يهود اوروبيين في فلسطين. ورغم ذلك فقد اسس المهاجرون ثلاث مستوطنات في هذه السنة هي: ريشون لصيون، وزخرون يعقوب وروش بينا.

اما ريشون لصيون فقد اسسها مهاجر من روسيا يدعى ليبونتين مع جماعة من المهاجرين من روسيا وبولونيا. وقد اطلق على هذه المستوطنة اسم «ريشون لصيون» أي «المستوطنة الاولى في ارض صهيون» أي فلسطين. نظرا لأن بتاح تكفا التي تأسست قبلها قد فشلت في سنيها الأولى، و «مقفيه يسرائيل» لم تكن مستوطنة كما ذكر، بل كانت مدرسة زراعية فقط، وعليه فان «ريشون لصيون» تعتبر اول مستوطنة ناجحة اقيمت في النصف الثاني من القرن الماضي.

زخرون يعقوب: تأسست هي الاخرى عام ١٨٨٢ على ايدي مهاجرين من رومانيا. وقد اطلق عليها اسم «زخرون يعقوب» نسبة الى والد البارون ادموند روتشيلد^(١٠). وفي نفس السنة ايضا (١٨٨٢)، اسس مهاجرون من رومانيا مستوطنة روش بينا في الجليل. وفي السنة التي تلتها (١٨٨٣) تأسست يسود همعاليه في الجليل ايضا، و «نس تسيونه» قرب ريشون لصيون. ثم بنى اليهود اربعا وثلاثين مستعمرة بين ١٨٨٣ و ١٩١١ كان مجموع سكانها كلها في عام ١٩١١ حوالي تسعة آلاف شخص^(١١).

تحولت القضية الصهيونية، في السنوات الاخيرة من القرن الماضي، من مجرد امنية للاقامة في فلسطين والاستقرار تحت الحكم العثماني الى طمع في الاستيلاء على فلسطين وما جاورها من ارض عربية واقامة كيان عنصري دخيل. ولقد اشرف على هذا التحول الخطر «ثيودور هيرتزل» والمؤتمر الصهيوني الذي عقده، فحولوا الصهيونية من جمعية احسان خيرية (ولو ظاهريا فقط) الى حركة سياسية عنصرية

سافرة. ومع ان يهودا كثيرين دعوا لاستعمار فلسطين قبل اواخر القرن الماضي (مثل بينسك^(١١)) في كتابه «التحرر الذاتي»)، فان الفكرة الصهيونية العدوانية لم تكن تتضح في كتاباتهم ومشاريعهم، غير ان المؤتمر الصهيوني المذكور الذي عقد بزعامة هيرتزل في مدينة بال، هو الذي رفع آخر حجاب عن وجه الصهيونية.

نشر ثيودور هيرتزل، الصحفي الهنغاري الاصل، التماسوي النشأة، كتيباً بعنوان «الدولة اليهودية» في شباط ١٨٩٦، ضمنه آراءه لحل المسألة اليهودية. وهي تتلخص في انه بالنظر الى انعدام احتمال اختفاء اللاسامية من العالم، وبالنظر الى ان اليهود هم شعب واحد قائم بذاته، فان من الواضح ان مشكلته لا يمكن حلها عن طريق الاندماج بالشعوب الاخرى، بل عن طريق اقامة دولة يهودية مستقلة. والطريق الموصلة الى ذلك هي «ان يعطى اليهود السيادة على قطعة من الكرة الارضية، تكون مساحتها كافية لتفي بحاجات الامة اليهودية المعقولة، وهم (أي اليهود) يقومون بما تبقى^(١٢)». وقد اشار الكتيب الى فلسطين كمكان للدولة المنشودة اكثر من مرة واعتبرها «الوطن القومي الذي لا ينسى»، وعدد حسناتها ومميزاتها. وقد تمكن المؤلف، بفضل كتيبه الذي ترجم من الالمانية الى الانكليزية وعدة لغات اخرى وانتشر انتشارا واسعا، من ان يتزعم الحركة الصهيونية الى حين وفاته.

اثار صدور الكتيب المذكور، حماسا عظيما في نفوس اليهود. وفي اواخر آب (اغسطس) ١٨٩٧، سعى ثيودور هيرتزل لعقد المؤتمر الصهيوني الاول في مدينة بال، والذي ضم «٢٠٤» من المندوبين اليهود، جاءوا من جميع البلاد. وقد حددت قرارات المؤتمر هدف الحركة الصهيونية بانه «انشاء دولة للشعب اليهودي في فلسطين يضمنها القانون الدولي». اما وسائل تحقيق هذا الهدف فهي تأسيس المستعمرات في فلسطين بمساعدة العمال الصناعيين والزراعيين، أولا، وتوحيد اليهود والتقريب بينهم بواسطة انشاء مؤسسات محلية وعالمية حسب قوانين كل

بلد، ثانيا. وتقوية الشعور والوعي القومي اليهودي وتنميته، ثالثا. واتخاذ اجراءات تمهيدية للحصول على رضى الحكومات على اهداف الصهيونية رابعا».

كذلك اقر المؤتمر اقامة المنظمة الصهيونية العالمية ومؤسساتها المختلفة. وقام هيرتزل بعقد خمسة مؤتمرات صهيونية عالمية اخرى وادارتها في السنين التالية التي سبقت وفاته عام ١٩٠٤. وقد اقر المؤتمر الصهيوني الثاني المنعقد في بال عام ١٨٩٨ اقامة «بنك الاستيطان اليهودي» المعروف اليوم باسم بنك لثومي لاسرائيل. كذلك قام المؤتمر الصهيوني الخامس المنعقد سنة ١٩٠١ بالموافقة على الفكرة التي سبق وان طرحت على المؤتمر الصهيوني الاول، والمتضمنة اقامة صندوق خاص لاقتناء الاراضي في فلسطين لغرض الاستيطان اليهودي والمعروف بصندوق «القيرون قييمت».

اصبح للصهيونية، بالمؤتمر الاول المذكور، اهداف محددة، ومؤسسة وتنظيم. وعهد المؤتمر الى رئيسه بمباحثة الحكومات في امكان تأسيس الدولة المنشودة. فبدأ الاتصال بالقيصر الالمانى في القسطنطينية والقدس (وكان يزورها في عام ١٨٩٩)، ثم بالسلطان عبد الحميد، ١٩٠١ - ١٩٠٢. لكنه فشل معهما بالرغم من الاموال التي عرضها على السلطان. فلجأ عندها الى الحكومة البريطانية ووضع عليها اماله. وكتب يقول «منذ اللحظة الاولى التي دخلت فيها الحركة (الصهيونية) توجهت عيناى نحو انكلترا»^(١٤).

كان هيرتزل يفكر احيانا عندما يخبو امله بفلسطين في ذلك الحين بالذات، في أماكن اخرى يذهب باليهود اليها ليقفروا منها، فيما بعد، الى فلسطين. أي ان فلسطين كانت هي المرحلة الاخيرة لمسيرة اليهود في مشاريعه المختلفة. والامثلة على ذلك كثيرة، فبعد ان فشل في اقناع القيصر الالمانى في فلسطين، طلب في عام ١٩٠٢ الى صديقه «جرينبرج» - وهو صهيوني بريطاني وصديق لجوزيف تشمبرلن، وزير المستعمرات البريطاني - ان يرتب له اجتماعا بالوزير كي يبحث معه مسألة استيطان اليهود في قبرص والعريش وصحراء سيناء - وكانت جميعها

تابعة لانكلترا - واقامة دويلة لهم تتمتع بحكم ذاتي تحت الاشراف البريطاني^(١٥). قبل الوزير المذكور الفكرة لانها ضمنت عزل مصر عن غرب اسيا، واضعاف السلطنة، ووضع شوكة في صلب الوطن العربي، مثلما ضمنت حماية الجانب الشرقي من قناة السويس وادخلت بريطانيا دخولا مباشرا في صميم الرقعة الآسيوية من الوطن العربي. ووافق على الفكرة ايضا زميله لانسدن، وزير الخارجية، غير ان تشمبرلن قال «انه لا يستطيع ان يقرر اي شيء بخصوص العرش او سينا، لان الحكومة لا بد ان تسمع الى رأي معتمدها في مصر (اللورد كرومر) في الامر، لأنهم يحترمون رأيه كثيرا^(١٦). الا ان كرومر عارض المشروع لانه خشى ان يثير غضب السلطان والحديوي معا على بريطانيا، وكان كلاهما قد مانع في توطين اليهود في سينا.

وفي السنة التالية، قبيل عقد المؤتمر الصهيوني السادس، عرضت انكلترا على اليهود احدى مستعمراتها في شرقي افريقيا وهي «اوغندا» لتوضع تحت تصرف الاستيطان اليهودي. وقد وافق مبدئيا المؤتمر الصهيوني، المنعقد عام ١٩٠٣، على عرض الحكومة البريطانية، وكان عدد الاصوات التي قبلت به ٢٩٥ صوتا والتي رفضته ١٧٨ صوتا والذين تغيبوا ٨٠ مندوبا. وقرروا ارسال وفد الى اوغندا، قبل ارسال الجواب الاخير، لدرس احوال البلاد وتقديم تقرير عنها. الا ان المؤتمر الصهيوني السابع الذي عقد عام ١٩٠٧، رفض عرض الحكومة البريطانية، بعد ان وقف على تقرير اللجنة التي ذهبت الى اوغندا. وكان رفضه هذا، قائما على ان اوغندا ليست غنية، وقليلة الاتساع (!) ولا تستطيع امداد الاستعمار اليهودي بما يحتاجه من مواد^(١٧).

لم يرض هذا الرفض جماعة «الباحثين عن الأرض» الذين اسسوا عام ١٩٠٦ جمعية خاصة بهم، فحاولوا في اواخر عام ١٩٠٧ مفاوضة بريطانيا، والحصول على ما عرضته، غير ان الفرصة كانت قد زالت، اذ ان الحكومة البريطانية سحبت عرضها المتعلق باوغندا.

واخذ، «اسرائيل زانكويل» رئيس «الباحثين عن الارض» في البحث عن مكان يستوعب المهجرة اليهودية الواسعة. ففكر بادىء الامر في شرق طرابلس الغرب، وفي شمالي العراق، غير ان تركيا حالت بينه وبين ما كان يريد. فحاول فتح ابواب كندا للهجرة اليهودية، ثم سعى للحصول على بعض مقاطعات استرالية، واخيرا جرب نيل حقوق في انغولا Angola، ولكنه لم يتمكن في جميع محاولاته من الوصول الى نتيجة عملية^(*).

وضع اليهود في الولايات المتحدة وبريطانيا في اواخر القرن التاسع عشر:

ابدى الرأي العام في بريطانيا عظفا كبيرا على يهود روسيا عندما وصلت الى مسامعه الانباء عن اضطهاد اليهود هناك، وفي شباط ١٨٨٢ عقد في لندن اجتماع كبير، ضم عددا من كبار موظفي الدولة، احتج فيه المجتمعون على اعمال الاضطهاد والعنف التي تعرض لها اليهود في روسيا. وبعث الرئيس الاميركي هاريسون بمذكرة الى الكونغرس ندد فيها بالسياسة اللاسامية التي كانت تنتهجها روسيا حكومة وشعبا.

ولكن عندما اخذت افواج المهاجرين اليهود تندفق على الولايات المتحدة من روسيا واوروبا الوسطى، اخذت تُسمع في الولايات المتحدة اصوات تنادي بتقييد الهجرة او منعها. واخذ المعارضون للهجرة يستخدمون الحجج اللاسامية لدعم دعواهم ومطالبهم. ولم تلبث حملتهم الدعائية ان اتشحت بلباس لا سامي ظاهر. اما في بريطانيا فقد حدثت تطورات مماثلة هي الاخرى بمثابة رد فعل لزيادة الهجرة اليهودية اليها. الا ان اللاسامية لم تجد لها جذورا عميقة فيها، وباءت بالفشل جميع المحاولات التي جرت لترجمة لا سامية المانية الى اللغة الانكليزية^(١٨).

موقف الدولة العثمانية إزاء الهجرة اليهودية :

سنعرض الان بايجاز مفاوضات اليهود التي قاموا بها بين ١٨٨٢ و ١٩١٤ مع حكومة الآستانة حينئذ للوصول الى السماح لهم بالمهاجرة الواسعة الى فلسطين. ففي ربيع عام ١٨٨٢ انشأ فريق من شباب اليهود الجامعيين في « كراكوفي » في بولونيا، جمعية غايتها تسهيل انشاء مستعمرات زراعية عديدة في فلسطين. وابتدأ هذا الشباب المتعلم بمفاوضة الدولة العثمانية لنيل اذن بانشاء المستعمرات في قسم كبير منها. ولكن جهودهم ذهبت عبثا، ولم يسمح الا لعدد قليل من اليهود بدخول الارض المقدسة والاقامة في المستعمرات القديمة.

واتجهت الهجرة اليهودية نحو اوروبا الغربية ونحو الاميركتين. وظلت اعداد المهاجرين اليهود الاولين في فلسطين محدودة، لان الحكومة العثمانية جدت في منع اليهود من الهجرة اليها والاستيلاء على الاراضي فيها. وزيادة على ذلك فقد كانت مالية هذه الاعداد محدودة جدا، وكانوا عديمي الخبرة الزراعية، فمנית اعمالهم بالفشل.

وكان يأتي الولايات المتحدة سنويا، حتى عام ١٨٨٢، نحو عشرين الف مهاجر يهودي، فشعرت حكومتها بالخطر وارادت تحويل المهاجرة عنها، فتحدث السفير الاميركي في الآستانة مرارا مع وزير الخارجية التركي في شأن اسكان اليهود في فلسطين وسوريا. فقبلت الحكومة العثمانية بسكنى اليهود في الاراضي غير المأهولة في العراق، وحوالي حلب وعلى ضفاف نهر العاصي في سوريا، ورفضت رفضا باتا اسكان اليهود في فلسطين.

وتدخلت بريطانيا في الامر عام ١٨٨٧، دون جدوى. وبدلا من ان تلين الحكومة العثمانية في سياستها، فقد اصدرت عام ١٨٨٨ انظمة جديدة حددت فيها المدة التي يستطيع خلالها اليهود الاجانب الاقامة والتجول في فلسطين، بثلاثة اشهر، ولم يسمح بالدخول الا للذين يحملون منهم « جوازات سفر » تشير الى ان حاملها ذاهبون الى القدس للزيارة، ولا ينوون الاقامة في الديار المقدسة.

وفي ٢١ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٠١ اعاد الباب العالي انظمة عام
١٨٨٨.

حاول هيرتزل الاتصال بالسلطان عبد الحميد ومفاوضته بين عامي ١٨٩٣ و
١٩٠٣ عله يقنعه بمشروعه المتعلق بتهجير اليهود الى فلسطين، الا انه فشل في
مسعاه، وذلك بسبب صلابة السلطان وعناده... لقد كان هذا السلطان عقبة
ترتفع في وجه مشاريع الصهاينة وامالمهم في فلسطين. ان سيطرة بعض افراد
حاشيته من العرب (بينهم عزت العابد وابو الهدى الصيادي)، من جهة، وحرص
السلطان على عدم اغضاب الرأي العام الاسلامي الذي كان السلطان قد بدأ
يتزلف اليه ليستميله ضد اوربا، من جهة ثانية، حملا عبد الحميد على رفض
الاعراض المالية التي عرضها الصهيونيون عليه مقابل عدم منع الهجرة اليهودية
والتملك على نطاق واسع.

كان السلطان عبد الحميد يود منح اليهود اراض للاستعمار في تركيا، غير انه
اعاد رفضه البات في السماح لهم بسكنى فلسطين. وليس بعيدا ان يكون موقف
السلطان عبد الحميد الصلب هذا، والمناهض لخطط الصهيونية لاستعمار
فلسطين، احد العوامل الرئيسية التي اطاحت به عن عرشه عام ١٩٠٩.

وفي عام ١٩٠٣ قدم هيرتزل الى المؤتمر الصهيوني السادس نتيجة مفاوضاته،
وتلا عليهم جواب السلطان النهائي التالي حول الهجرة اليهودية لفلسطين:

«يمكن للاسرائيليين ان يقبلوا ويستقروا في الامبراطورية العثمانية شرط ان لا
يكونوا جميعا في مكان واحد، بل يفرقوا، في اماكن تعينها لهم الحكومة، وشرط ان
يقرر عددهم مسبقا من قبل الحكومة، وسيعطون الجنسية العثمانية، ويسألون عن
جميع الضرائب المدنية، بما فيها الخدمة العسكرية. كما سيكونون خاضعين لجميع
قوانين البلاد كالأتراك تماما»^(١).

لم يثر هذا الجواب حماس اليهود ولا رضاهم.

رحبت الاوساط الصهيونية بثورة ١٩٠٨ وبالاحداث التي تبعتها، الى ان اصبح

للصهيونيين بواسطة نفوذ كبير. واسسوا فروعاً نشيطة في عدة اماكن من الدولة باسم «المكتب الفلسطيني» باشراف الدكتور «رين» كبير خبراءهم بالشؤون العثمانية. واسسوا ايضا مكتبا ضخما في القسطنطينية يجري نشاطه في اتجاهين: بين الاتراك للحصول على امتيازات جديدة، وبين العرب للحصول على تأييد عام واتمهيد لصفقات بيع. اما الاتجاه الاول فقام به يهود اترك وصل بعضهم الى الحكم، واصبح احدهم الرجل الاول في الدولة (طلعت باشا، واصله من الدوثة)^(٢٠). وقد حاول هؤلاء ان يحملوا الحكومة على التسليم بمطالب الصهيونيين، غير ان العرب داخل الحزب الحاكم وقفوا لهم بالمرصاد. ففي خلال عام ١٩١١ و ١٩١٢ هاجم كثير من النواب، في البرلمان العثماني الصهيونيين لطموحهم في فلسطين، الامر الذي جعل الحكومة تأمر السلطة في فلسطين ان تسهر جيدا على تنفيذ الانظمة التي تحظر على اليهود امتلاك الأراضي.

وفي عام ١٩١٤، قبيل الحرب العالمية الاولى، اضطرت حكومة الآستانة الى سن انظمة اخرى من شأنها ان تشل حركة المهاجرة اليهودية الى فلسطين. اما الاتجاه الثاني المتعلق بالنشاط الصهيوني بين العرب في العاصمة التركية، فلم ينجح هو الآخر وذلك بسبب تيقظ العرب ووقوفهم ضده وحذرهم منه. غير ان حكومة الاتحاديين اضطرت في عام ١٩١٧، والحرب العالمية لا زالت قائمة، الى مساندة حليفها المانيا، التي توسطت لدى الباب العالي، ليسمح لليهود بسكنى فلسطين بسبب رغبتها الشديدة في الاحتفاظ بميل اليهود وربطهم بها برباط صداقة جديدة، وللاستفادة من اموالهم ونفوذهم^(٢١). فمنح طلعت باشا، رئيس الوزارة التركية، في اوائل العام المذكور، الصهيونيين بعض الامتيازات. وفي شهر ايلول (سبتمبر) من العام نفسه، تدخلت المانيا من جديد، وألحت على صديقتها تركيا كي تتسامح مع اليهود. غير ان هذا الاجراء لم يؤثر في الاتجاه العام للخط العريض للسياسة التركية التي حالت بين المهاجرة اليهودية الواسعة وفلسطين. فقد رفضت حكومة الآستانة عقد اتفاق مع العالم اليهودي، رغم الفوائد المالية والسياسية التي تعود عليها منه. اذ كان في وسعها، زيادة عن الفائدة المالية، استخدام وجود اليهود في فلسطين

وسوريا اداة لشل الحركة القومية العربية التي انتشرت في هذه البلاد، وسببت للاتراك مصاعب عدة.

ومن الواجب هنا الاعتراف بفضل قادة السياسة التركية فيما قبل الحرب، الذين لم يضحوا بالشعب الضعيف الذي كان تحت حكمهم. لقد وقفوا موقفا شريفا، موقف المدافع عن حقوق العرب، الذين سكنوا قرونا عديدة البلاد التي تود الصهيونية الاستيلاء عليها. ما اعظم الفرق بين موقفهم وموقف الحكومة البريطانية. لقد قدمت الحكومة البريطانية، فلسطين، الى الصهيونية، وضحت باهلها، مع انها كانت. قبل ذلك. قد تعهدت الى حلفائها العرب بانقاذهم من النير التركي، وتحقيق وحدتهم واستقلالهم...

نجاح الصهيونية عام ١٩١٧ :

قدمت الحرب العالمية فرصة ثمينة الى الصهيونية، فسعت الى الاستفادة من وضعية هذه الحرب، فتمكنت من اجراء محادثات مع الحلفاء، أدت الى تصريح « بلفور » الشهير. ووضع هذا التصريح بصورة كتاب ارسله اللورد بلفور، وزير خارجية حكومة لندن حينئذ، بتاريخ ٢ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩١٧، الى اللورد روتشيلد، جواباً على الاقتراحات التي قدمها الى الحكومة البريطانية، بخصوص انشاء وطن قومي يهودي.

وصرحت حكومة لندن انها تنظر بعين الرضى الى انشاء مثل هذا الوطن في فلسطين، وانها تبذل جهدها لتسهيل بنائه - غير انها - اشترطت لذلك شرطا هاما وهو ان لا يضر الوطن القومي اليهودي، بحقوق سكان فلسطين، من غير اليهود، الدينية والمدنية.

أنعش هذا الوعد آمال الصهيونيين بتحقيق حلمهم اللاشعري الذي بدأوا يرونه في منامهم ويقظتهم منذ القرن الماضي، يجعل فلسطين يهودية مثلما بريطانيا انكليزية.

لقد كتب الكثير عن تصريح بلفور، ولسنا هنا لتحدث عن سيئاته ومظالمه ولا شرعيته. يكفي ان يُذكر في هذا المجال، ان الوعد صدر دون ان يكون لبريطانيا، أي حق شرعي بفلسطين، ودون ان تكون قد تملكها بالفعل، ولو تملكا غير شرعي، وان شعب فلسطين لم يُستشر في الموضوع ولا كان طرفا في المباحثات. وانه صدر كعطف وامان، ولم يكن التزاماً دولياً، اذ وجه الى شخص لا صفة رسمية له. وان عبارة «الوطن القومي» فيه غير محددة. وان الشق الثاني منه المتضمن عدم الحاق الاذى بالمصالح العربية يتناقض مع شقة الاول المتضمن اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

مضى الصهيونيون قدما في سبيل تحقيق اهدافهم في فلسطين، يساعدهم في ذلك البريطانيون الذين وجدوا ان مصالحهم في هذه المنطقة تتفق واقامة مثل هذا الكيان الدخيل. ففي مؤتمر الصلح في باريس، تقدم اليهود في فبراير (شباط) ١٩١٩ بمسند اوضحوا فيه فكرتهم عن الوطن القومي، وطلبوا فيه :

- (١) ان تعترف الدول « بالحق التاريخي » الذي للشعب اليهودي في فلسطين، وحق اليهود في بناء وطنهم القومي .
- (٢) ان توضع فلسطين في احوال سياسية واقتصادية وادارية، تكفل انشاء الوطن القومي اليهودي، ويجعل ، من الممكن انشاء دولة يهودية مستقلة، دون ان يحدث ذلك ضررا بحقوق ومركز اليهود السياسي في البلاد الاخرى .
- (٣) وان تتعاون الحكومة المنتدبة، فيما يتعلق بالمهاجرة مع مجلس خاص، يمثل جميع يهود العالم^(٢٢).

وهكذا ظهر للعيان عام ١٩١٩، أن مطامع الصهيونية اعظم بكثير مما جاء في تصريح بلفور.. فاليهود لم يخفوا رغبتهم في أن تصبح فلسطين دولة يهودية خاصة بهم وحدهم في كل شيء. وقد ظهر ذلك على لسان زعمائهم حينئذ، فصرح الدكتور ايدر Eder، رئيس اللجنة الصهيونية، امام لجنة هايكرفت Haycraft عام ١٩٢١، بانه « لا يمكن ان يكون في فلسطين الا وطن قومي واحد، وهو اليهودي،

ولا يجوز ان يكون تعادل بين حقوق اليهود والعرب، بل ان سيادة اليهود يجب ان تسود حالما يكون عددهم قد زاد لدرجة كافية. وان يكون لليهود حق حمل السلاح دون العرب»^(٢٣).

وكذلك تمكن الصهيونيون في مؤتمر سان ريمو، الذي عقده المجلس الاعلى للحلفاء عام ١٩٢٠، من ان يحصلوا على موافقة المجتمعين، المتضمنة الزام بريطانيا، المنتدبة على فلسطين بتنفيذ وعد بلفور. كما نجح الصهيونيون ايضا في تضمين صك الانتداب الذي اصدرته عصبة الامم عام ١٩٢٢، اعتراف دول الحلفاء بالصلة التاريخية التي تصل الشعب اليهودي بفلسطين، والبواغث التي تبعث على اعادة انشاء وطنهم القومي في تلك البلاد، وواجب الدولة المنتدبة تجاه تنفيذ الوعد.

تألف الصك من ديباجة ومن ٢٨ مادة، بعضها يتعلق بالوطن القومي^(٢٤)، واهما المادتان الثانية والسادسة^(٢٥).

ومع ان صك الانتداب اكثر وضوحا من تصريح بلفور، الا انه لم يعرف هو الآخر معنى «الوطن القومي»، ولم يبين متى يتم انشاؤه. وعلى كل، فانه رغم صراحته من جهة تأثير انشاء الوطن القومي على مصالح العرب، فان الصهيونيين نجحوا في الضغط على حكومة الانتداب، لتنفيذ الفقرات التي هي في صالحهم فحسب، من هذا الصك.

تبين لنا مما سبق، ان الركائز التي ارتكزت عليها بريطانيا في ادارة فلسطين خلال فترة انتدابها، هي اثنتان: اولاهما وعد بلفور، وثانيهما صك الانتداب. وقد اشتمل الصك تصريح بلفور، كما رسم قواعد السياسة التي الزم بريطانيا اتباعها في انشاء الوطن القومي.

ولهذا كان الانتداب، ضد آمال عرب فلسطين، لانه قام على اساس وعد بلفور، وتعهد بتأمين ما يحتاجه اليهود ماديا ومعنويا لبناء وطنهم القومي دون أن يلتفت الى مصلحة عرب فلسطين، اصحاب البلاد الاصليين.

موقف الأهالي العرب من الهجرة اليهودية

مرحلة الكفاح الشعبي حتى الحرب العالمية الاولى :

تفياً لليهود ظلل الدولة العربية الاسلامية في العصور الوسطى ونعموا في ربوعها بالامن والرخاء والمعاملة الحسنة، شأنهم في ذلك شأن الطوائف الدينية الاخرى غير الاسلامية التي قبلت الانضواء تحت راية الدولة الاسلامية. لقد كانت العلاقات بين العرب واليهود الشرقيين اي المقيمين في البلاد العربية، علاقات حسنة بما يتفق ومبادئ الدين الاسلامي الحنيف، وما يقتضيه حسن الجوار.

بقيت الحالة كذلك ايضا طيلة الحكم العثماني للبلاد العربية، ولم يبدأ حبل الود والصفاء بالتعكر بين العرب واليهود في فلسطين الا في الربع الاخير من القرن التاسع عشر، اي منذ عام ١٨٨٢، عندما اخذت اعداد من المهاجرين اليهود تؤم فلسطين، وتتخذها دارا ومستقرا، من اجل بعث كيان قومي لها فيها. وهكذا بدأت الحركة الصهيونية تثير في نفوس سكان البلاد كوامن الشر والعدوان، سيما بعد ان ضمن اليهود حماية بريطانيا لهم. لقد تبدل الوضع في نهاية القرن التاسع عشر بعد ان تنبه العرب للخطر الصهيوني في اعقاب انتظام الحركة الصهيونية، فأصبح من المألوف حدوث اعتداءات عربية على اليهود. وفي عام ١٨٩١، لما اخذت وطأة الهجرة اليهودية تشتد، ابرق جمع من عرب القدس الى الصدر الاعظم يطالبونه اصدار فرمان يمنع الصهيونيين من دخول فلسطين ومن شراء الاراضي فيها. ويعتبر هذا العمل، اول تدمير رسمي لعرب فلسطين من الهجرة اليهودية.

ولقد اورد قنصل بريطانيا في القدس، جون دكسن، نص البرقية السابقة في تقرير بعث به الى وزارة الخارجية، عزا موقف العرب فيه الى ازدياد عدد المهاجرين حتى اصبح ثلثي سكان القدس^(٢٦). وقد اضطرت السلطات العثمانية الى

الاستجابة لهذا الطلب الذي لاحقه عرب مقيمون في العاصمة، فمنعت الهجرة، الا ان بريطانيا تدخلت في الامر عن طريق سفيرها في القسطنطينية لصالح الصهيونية، فحالت بذلك دون تنفيذ المنع، مما اضطر السلطان ان يصدر في عام ١٩٠١ قرارا يمنع فيه اي يهودي من دخول فلسطين، الا اذا كان سيغادرها فعلا في مدى ثلاثة اشهر.

وكان المسؤولون الاتراك يتواطؤون مع الصهيونيين، ويقفون موقفا وديا، وهذا الموقف يختلف في جوهره عن موقف المسؤولين العرب، الذي تميز بالعداء تجاه الصهيونيين. هذا وقد اخذت المستعمرات اليهودية منذ مطلع القرن العشرين، تتعرض للهجمات العربية، ومنها ما قد هوجم اكثر من مرة كمستعمرة بتاح تكفا. وهناك بعض الكتاب^(٢٧) الاجانب واليهود ممن تحدثوا عن هذه الاصطدامات العربية / اليهودية.

ذكر «هنري جيب» في احداث ١٨٩٨ ان اهل فلسطين، وقفوا موقفا حازما ضد المشاريع الصهيونية والهجرة اليهودية، وامكان قيام دولة يهودية في بلادهم، لانهم اعتبروا ذلك «خطرا على حقوقهم ومستقبلهم»^(٢٨).

فلم يحصل من قبل هذا التاريخ مثل هذا الغضب المركز الذي اشتد في اعقاب انتظام الحركة الصهيونية في ذلك الوقت. لقد وعى عرب فلسطين الخطر الصهيوني، قبل ان يعقد المؤتمر الصهيوني الاول في بال عام ١٨٩٧ بعدة اشهر، اي منذ بدء العمل التمهيدي له. وقد قامت - آنذاك - مجلة المنار في القاهرة، وصحف عربية اخرى تفضحه بعد اشهر قليلة من عقده، واخذت تحذر العرب من الصهيونية^(٢٩).

استطاع العرب في مطلع القرن الحالي ان ينقذوا ارض فلسطين من اطماع الصهيونية بفضل يقظتهم الجزئية، عندما ضغط المحيطون - منهم - بالسلطان، على الحكومة العثمانية فرفضت اغراءات الصهيونية الرامية الى تهجير اليهود الى فلسطين. غير ان تسلم الاتحاديين للحكم في تركيا اثر خلع السلطان عبد الحميد

عام ١٩٠٩، عرّض القضية العربية لآخطار جديدة. ذلك ان الصهيونيين استغلوا مجيء بعض اصدقاتهم للحكم واشتروا بعض الاراضي في شمالي فلسطين، الامر الذي اثار احتجاج اهالي فلسطين بشكل جماعي لدى الحكومة عام ١٩١٠. وقد انبرت الصحف^(٣٠) العربية داخل فلسطين وخارجها، آنذاك، تفضح المؤامرة الصهيونية، وتبين خطر بيع الاراضي. وقد تسببت هذه الحملة الصحفية في مضايقة الحكومة التركية، لما احدثته من هياج شعبي عام. هذا وكانت قد قامت عدة مظاهرات شعبية في فلسطين، ضد الهجرة اليهودية، وضد الحركة الصهيونية عام ١٩٠٨، واخذ السكان العرب، سيما في الاقسام الشمالية من فلسطين، يعتقدون على المستعمرات اليهودية، «ويستولون على مواشيتها ويقطعون اغراسها، ويفلتون مواشيمهم على الحقول، ويحطمون الاسوار، لانهم اعتبروا اليهود ألد اعدائهم». هذا ما لاحظه الجغرافي الاميركي الزوث هنتنجتن، الذي زار فلسطين في عام ١٩٠٩، ودون ملاحظاته عن هذه الزيارة^(٣١).

ومنذ صيف ١٩٠٩، بدأ النواب العرب في البرلمان التركي يتبنون القضية العربية في فلسطين بعد ان فضحت بعض الصحف العربية علاقة رجال تركيا الفتاة بالصهيونيين، فاضطر رئيس الحكومة ان يعلن عدم سماحه لليهود باستيطان فلسطين. كذلك اضطر وزير الداخلية في عام ١٩١١ الى الاعلان عن معارضته للمخططات الصهيونية، وكان كلاهما متهما بمشايعة الصهيونية. واثار النواب العرب ايضا الهجرة اليهودية الى فلسطين، مرارا في تلك السنة، وحملوا عليها، وتمكنوا في عام ١٩١٢ من اجبار الحكومة العثمانية على عرقلة مشروع تهويد اراضي النقب وسيناء، الرامي الى حصول الصهيونيين على عشرة آلاف فدان في منطقة العريش، بمساعدة بريطانيا عن طريق وكيل قنصلها في غزة.

ان المقاومة العربية التي نجحت عام ١٩١٢ في عرقلة مشروع تهويد اراضي النقب وسيناء، لم تنجح في حمل الدولة العثمانية على الغاء الصفقة التي عقدها الوجيه اللبناني، الياس سرسق عام ١٩١١ مع الصهيونيين، والذي باع فيها اراضيها في مرج ابن عامر، أخصب اراضي فلسطين، والتي تبلغ مساحته نحو (٤٠٠)

الف دونم. لقد بذل عرب فلسطين المستحيل من اجل الغاء هذه الصفقة، وكان على راس المحتجين، قائمقام الناصرة، شكري العسلي، الذي تم انتخابه في السنة ذاتها نائبا عن دمشق في مجلس المبعوثان، مكافأة له من قبل المواطنين العرب، ليتزعم الحملة ضد الصهيونيين واطماعهم، في المجلس منذ اواسط عام ١٩١١.

واصل عرب فلسطين جهادهم المحدود الذي كانوا قد بدأوه منذ اوائل القرن الحالي. فواصلوا حملة ارسال البرقيات الى المسؤولين لدعم النواب الناطقين باسمهم. كما واصلت الصحف الهجوم العنيف على الصهيونية وفضح مؤامراتها، بينما تنادى عرب يافا الى تأسيس اول حزب وطني في فلسطين ضد الصهيونية، اطلق عليه «الحزب الوطني» وكان من مبادئه: حظر التعامل مع كافة المؤسسات الصهيونية في جميع انحاء فلسطين، باعتبار ذلك جريمة قومية لا تغتفر. واستمرت الحالة كذلك حتى عام ١٩١٤، وكان عرب فلسطين قد وقفوا موقفا حاسما ضد الصهيونية، تجلّى في تأسيسهم عددا من الجمعيات لمكافحة الاهداف والخطط الصهيونية على مرشحهم لمجلس المبعوثان، والعمل الجدي ضد الحركة الصهيونية مقابل التصويت لهم، وقيامهم باعمال العنف والتأديبات ضد المستعمرات اليهودية. وهذا ما دعى «نفل ماندل» صاحب اوسع دراسة عن وعي العرب للخطر الصهيوني قبل عام ١٩١٤، ان يختتم دراسته بهذه الكلمات «كان هؤلاء العرب كلهم تقريبا يعارضون الاهداف الصهيونية التي اعتقدوا انها تتعارض مع اهدافهم القومية^(٣٢)».

مرحلة الكفاح الشعبي من عام ١٩١٨ حتى نهاية الانتداب البريطاني :

كافح شعب فلسطين المؤامرة على وطنه وكيانه في هذه المرحلة بعناد وايمان وتضحية، واستنفذ في كفاحه كل وسائله وامكانياته الشعبية المحدودة، وقدم من التضحيات والضحايا على مذبح حريته وعروبه ما يعتبر بحق مثالا يحتذى في كفاح الشعوب. غير ان لهذا قصة هي قصة المؤامرة واطرافها، وله مراحل مر بها، هي

مراحل المؤامرة ذاتها. فقد تساندت ضده كل قوى الاستعمار والصهيونية في الميدانين السياسي والدولي، واستعملت معه كل ضروب العنف والارهاب والوحشية، وكل اساليب الخداع والتضليل والتغريز: في سبيل كبح جماحه تارة ومن اجل القضاء عليه تارة اخرى.

وكان دائما، وفي كل معركة خاضها، يكاد يحقق النصر والحرية، لولا توقفه المفاجيء، نتيجة انخداعه وتضليله بعهود بريطانيا وعودها، او بسبب النداءات والوساطات من قبل ملوك ورؤساء العرب، الامر الذي قلب انتصاراته دائما الى هزائم، وانتهى به الى ما انتهت اليه قضية فلسطين، وأدى باصحابه الى المصير المؤلم الذي صار اليه اللاجئون.

لقد كان كفاح الشعب الفلسطيني خلال هذه المرحلة، شأنه شأن كفاح اي شعب آخر مستعمر مهدد، يتمشى مع ادواره ويتطور في اشكاله، تبعا لاوزاع شعبه ووعيه وقوة قياداته وظروف معركته. فكان يتنقل بين الكفاح السلمي تارة والكفاح المسلح تارة اخرى، ويتوجه ضد الصهيونية ووعده بلفور حيناً، وضد الاحتلال البريطاني حيناً اخر، وضدهما معا في أعلى مراحلها.

ف عندما انكشفت خيانة الحلفاء للعرب وامانهم الوطنية، واتضح مؤامرة بريطانيا مع الصهيونية على فلسطين، بدأ عرب فلسطين نضالهم السياسي ضد المؤامرة، ومن اجل الحرية والاستقلال في نطاق الحركة الوطنية العربية العامة. اذ كانت فلسطين آنذاك لا تزال جزءا من بلاد الشام (سوريا)، وكان قادة فلسطين في عداد رجالات العرب الذين توافدوا على دمشق عاصمة الدولة العربية، ومركز حركتهم الوطنية. وقد عبروا خلال هذه الفترة عن مقاومتهم للاحتلال ولوعده بلفور، وعن تمسكهم بوحدة فلسطين مع سوريا، وباستقلال الدولة السورية، بالمؤتمرات الشعبية العامة وبالمظاهرات والعرائض والاحتجاجات. وكانوا يبلغون ارادتهم الاجماعية هذه، الى ادارة الاحتلال في فلسطين، الى مؤتمر الصلح في باريس، وإلى الحكومة العربية القائمة آنذاك في دمشق.

وعبروا عن موقفهم من محاولات بريطانيا وفرنسا، ومن مباحثات مجلس الحلفاء حول مشاريع الانتداب ومناطق النفوذ، بقرارات المؤتمر السوري الذي انعقد في دمشق عام ١٩١٩، وقرارات المؤتمرات الفلسطينية التي عقدت بحضور لجنة الاستفتاء الأمريكية^(٣٣) في معظم المدن والمناطق الفلسطينية.

وقد نشط الفلسطينيون في هذه الفترة بالرد على ادعاءات بريطانيا والصهيونية بفلسطين، فاشترك ممثلون مفوضون عنهم في المؤتمر العربي الذي عقد في دمشق في آذار ١٩٢٠، وقد أكد المؤتمر رفض البلاد السورية بمجموعها للانتداب ووعدهم بلفور والصهيونية كما تم الاعلان فيه عن وحدة سوريا واستقلالها.

وبعد انجلاء موقف الحلفاء من الاماني العربية، واحتلالهم بلاد الشام وتقسيمها بينهم، تمركزت الحركة الوطنية الفلسطينية، في فلسطين ذاتها، واستأنفت هناك قيادة الكفاح الشعبي وتنظيمه.

وقد تميز كفاح شعب فلسطين في هذه الفترة باتجاهه نحو مقاومة وعد بلفور وسياسة الوطن القومي اليهودي، فقد كانت الفكرة الاستعمارية غير واضحة لجمهير الشعب العربي في فلسطين، وكان خطر الغزو اليهودي، هو الخطر المباشر الذي يحسه المواطن العادي، على كيانه وحياته. وكان سلاحه الغالب في معركته هو الوسائل السلمية ممثلة بالمؤتمرات والمظاهرات والاحتجاجات ومتسمة بالسلبية تجاه ادارة الانتداب وكل اجراءاتها الداخلية. وكانت هذه الوسائل السلمية تتطور احيانا، فتتقلب الى مصادمات جزئية دموية بين العرب واليهود، نتيجة استفزازات بريطانية وصهيونية مدبرة، او بسبب تدفق المهاجرين اليهود على فلسطين بشكل جماعي مثير. مثال ذلك ما حدث من اضطرابات بين العرب واليهود في عام ١٩٢٠، اولها في شباط (فبراير) اثر اعلان حاكم فلسطين العسكري نص وعد بلفور، وثانيها في نيسان (ابريل) في موسم النبي موسى التقليدي الذي صادف وقوعه مع عيد الفصح اليهودي، حيث قتل عرب القدس خمسة يهود وجرحوا مئتين واحد عشر، واستشهد من العرب اربعة وجرح واحد وعشرون. وكانت

الحادثة قد بدأت عندما اعتدى الصهيونيون على مظاهرة عربية كانت تهتف للاستقلال. فرد العرب على الاعتداء بان هاجموا احياء المدينة اليهودية وانتشرت الاضطرابات في اكثر من مكان في فلسطين. واعترفت وزارة الخارجية البريطانية في كتيب لها بعنوان «سوريا وفلسطين» ان عرب فلسطين اخذوا يعون الخطر الصهيوني ويتكلمون ضده^(٣٤).

وكذلك في عام ١٩٢١ على اثر نزول قافلة كبيرة من المهاجرين اليهود الى ساحل يافا، حيث هاجم العرب المسلّحون، اليهود في يافا ومنطقتها وفتكوا بعدد كبير منهم. ثم امتدت الاضطرابات الى سائر مدن فلسطين، فهوجمت مراكز الهجرة اليهودية وكذلك بعض المستعمرات، وكانت حصيلة هذه المعارك مقتل نحو خمسين يهوديا وجرح نحو مائة وخمسين اخرين، واستشهاد وجرح عدد مماثل من العرب. وقد استمرت هذه الثورة اسبوعين، وكادت ان تقضي على امال الصهيونية نهائيا في فلسطين، لولا سرعة تدخل الجيش البريطاني لحماية اليهود، وضرب الثورة بعنف ووحشية.

نهت هذه الاحداث الصهيونيين من سكرتهم، ورأوا أنه ليس من السهل الاستيلاء على فلسطين دفعة واحدة، وجعلها «يهودية كما ان بريطانيا انكليزية». لذلك أخذوا يتملقون العرب، ويظهرون انفسهم بانهم لهم اصدقاء، ليزيلوا مقاومتهم لهم. فقررروا في المؤتمر الصهيوني الذي عقد في كارلسباد في سبتمبر (ايلول) ١٩٢١، وهو المجلس الاعلى المسيطر على الجمعية الصهيونية: «ان الشعب اليهودي عقد النية على ان يعيش مع الشعب العربي باتحاد واحترام متبادلين، وان يسعيا معا لجعل هذا الوطن المشترك زاهرا بحيث يضمن تجديده، الرقي القومي لكل من الشعبين بسلام»^(٣٥).

« وكثيرا ما ردد الصهيونيون هذا القرار للدلالة على الغايات السامية التي تكنها صدورهم نحو العرب، غير ان (اعمالهم) لم تكن تتفق مع هذه العواطف التي اعلنها الصهيونيون جهارا»^(٣٦).

ولقد نجحت بريطانيا الى حد ما خلال هذه الفترة في الظهور بمظهر الحيادي البريء من المشكلة الفلسطينية، واستطاعت ان تصور وجودها في نظر الكثيرين بصورة الدولة المنتدبة فقط حيال طرفين متنازعين. اذ ان تظاهراتها الخادعة بايفاد اللجان والتحقيق اثر كل شكوى وانتفاضة عربية... خدعت الكثيرين عن حقيقة موقفها ونواياها من العرب، وساهمت الى حد كبير في خداعهم وتخديرهم، وفي تغطية موقفها المتآمر ومهمتها الرئيسية في فلسطين. فسارت طوال هذه الفترة في اجراءات التهويد التشريعية والادارية والاقتصادية، ونشطت في تهجير اليهود وتوطينهم دون ان تكون هي الهدف المباشر للكفاح الشعبي في هذه الفترة.

لقد اسهمت حركة الكفاح الشعبي الفلسطيني في هذا الدور في انماء وتطوير الوعي القومي لدى جميع فئات الشعب. فقد اتسعت الحركة الوطنية وضمت الى صفوفها فئات جديدة من الشباب المثقف، والطلبة والعمال والفلاحين، وتنظمت قياداتها، واصبح واضحا لها في نهاية هذا الدور، ان معركتها الحقيقية هي مع الاستعمار البريطاني في الدرجة الاولى. فهو الذي اوجد اسطورة الوطن القومي اليهودي، والذي يسعى جادا لتحقيقه، وهو الذي يحول بين الشعب الفلسطيني وبين الحرية والاستقلال. اذ ليس لليهود في فلسطين حول ولا قوة الا بدعمه وتأييده. لقد كان من السهل انهاء مشكلة هذا الوطن القومي المزعوم لولا هذا التأييد وهذه المساعدة، الذي كان يدفع بريطانيا دائما، نحو الاسراع في ضرب الحركة العربية، ومحاوله القضاء عليها في مهدها.

خاض شعب فلسطين معركة الحرية في دور كفاحه الثاني، واستطاع خلاله ان يطور اساليب كفاحه، وان ينتقل بها من اساليب المظاهرات والاحتجاجات الى اساليب المقاومة العملية المنظمة. فلجأ في هذا الدور الى الثورات المسلحة ضد الاحتلال البريطاني والغزو الصهيوني، والى المقاطعة التامة في كل الميادين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ضد الانتداب والصهيونية، فاستطاع على الرغم من امكانياته المحدودة وظروفه، ان يسجل في هذا الدور انتصارات باهرة، وان يرتفع بقضيته من نطاقها الفلسطيني المحلي الى النطاق العربي العام، وان يجذب

اليها اهتمام احرار العالم، وان لم ينجح في افهامهم حقيقتها واشراكهم في معركتها، باعتبارها من قضايا الحرية ضد العدوان والاستعمار.

ففي عام ١٩٢٩، اقدمت بريطانيا، على الرغم من كل قرارات واحتجاجات الفلسطينيين على تهجير اعداد كبيرة من اليهود الى فلسطين، متحدية بذلك شعور العرب، ومستترة بكل وعودها وتوصيات لجانها. وقام اليهود من جانبهم باعمال استفزازية مثيرة، فتظاهروا امام البراق المتصل بالحرم الشريف وهتفوا بحقهم في المبكى وزحفوا نحوه باعداد كبيرة، فاضطر العرب الى ايقافهم، ثم اشتبكوا معهم في معركة دموية. وامتدت نيران المعركة الى يافا ونابلس الخليل وما حولها من قرى ومستعمرات، فأسرعت بريطانيا كعادتها لنجدة اليهود - ولكن بعد ان صفوا نهائيا في مدينتي نابلس والخليل وفي اماكن اخرى من فلسطين - فصبت بريطانيا غضبها ونيران مدافعها على العرب العزل، واخذت ثورتهم، ولكن بعد ان فتكت باعداد كبيرة منهم وفقدت عددا من قواتها^(٣٧).

وفي نهاية هذه المعركة حققت الحركة الوطنية اولى انتصاراتها الحاسمة. فلقد تكتل الشعب الفلسطيني حول لجنته التنفيذية، وبدا تضامن الشعوب العربية مع عرب فلسطين وقيادتهم كاملا باجلى صوره واقوى مظاهره.

وقد اضطرت بريطانيا اكثر من مرة خلال هذه الفترة، الى التظاهر بالرجوع عن سياستها التهودية والتسليم بمطالب العرب المشروعة... فاوفدت عدة لجان وخبراء لدراسة هذه المطالب من اجل التفاوض بشأن تنفيذها، ثم فاوضت وفودا فلسطينية متعددة، تحت ستار هذا الغرض واصدرت وكتبا بيضاء^(٣٨).

غير ان العرب الذين خدعوا بموقف بريطانيا ومهمتها في الفترة الاولى، اتخذوا مرة اخرى بصدقها وبمدى التزامها بوعودها وموائيقها وكتبا البيضاء. فقد كانت لا تلبث ان تتنكر لحقوقهم ولكل قراراتها ووعودها بعد انتهاء انتفاضاتهم وتوقف ثوراتهم، ثم تعاود من جديد تنفيذ سياستها المرسومة، ويستأنف العرب كفاحهم القاسي المرير ضدها من جديد. وعندما تنكرت بريطانيا لكتابها الابيض لعام

١٩٣٠ ولجميع توصيات لجانها وخبرائها، لجأ العرب الى الاضراب العام في البلاد والمقاطعة التامة لها ولادارتها ومصالحها كسلاح جديد في المعركة. فبعد مظاهرات صاخبة عمت جميع انحاء فلسطين، وبعد اصطدامات دموية استمرت اشهرًا، اعلنت مدينة يافا في نيسان (ابريل) عام ١٩٣٦ الاضراب العام احتجاجا على السياسة البريطانية. وتبعتها في هذا الاجراء كل المدن والقرى العربية في فلسطين، فأغلقت جميع المحال العامة وتوقفت جميع الاعمال العادية في كل المرافق وأعلن العصيان المدني، والفت اللجان القومية في كل مدينة وقرية للاشراف على الاضراب وتنسيق النضال.

وعلى الرغم من كل محاولات الانكليز وتهديداتهم واجراءاتهم القاسية، استمر الاضراب العام في قوته ونظامه، كأروع مثل على ايمان الشعب الفلسطيني وعزمه وتضحيته في سبيل حريته واستقلاله. وبلغ الكفاح الشعبي عند هذا الحد، الذروة في تنظيمه وقوته وتصميمه، وفي ثقة المواطنين به وبقيادته الوطنية. فتألفت اللجنة العربية العليا، من ممثلين عن اللجان القومية وكل الاحزاب^(٣٩) الفلسطينية لقيادة الكفاح الشعبي، وتولت تنظيم الكفاح والتعبير عن عرب فلسطين.

وقد نشطت اللجنة في تعميق هذه الانتفاضة الكفاحية، وفي توجيهها ضد بريطانيا وسياستها، وضد اليهود ومخططاتهم في فلسطين، فاصدرت ميثاقا وطنيا اعتبرته الحد الادنى لمطالب الشعب في هذه الفترة. واشترطت انهاء الاضراب العام باستجابة بريطانيا لهذه المطالب، وحددتا بالمطالب التالية :

- ١ - انشاء حكومة وطنية مسؤولة امام سلطة تشريعية منتخبة من السكان، وفق الاسس الديمقراطية.
- ٢ - وقف الهجرة اليهودية نهائيا الى فلسطين.
- ٣ - وقف انتقال الاراضي العربية لليهود.

واستجاب الشعب بمجموعه لنداء اللجنة، وتمسك بميثاقها الوطني، واستمر توقف كل مظاهر الحياة العامة في البلاد. وبدأت بريطانيا تواجه احراجات كثيرة،

وتتعرض الى نقد لاذع حتى في اوساط الشعب البريطاني نفسه. فقد كتب احد الكتاب الانكليز معلقا على هذا الاضراب بقوله: « ان استمرار الاضراب طيلة ستة اشهر يثبت بالتأكيد عمق وشمول الوعي الوطني عند عرب فلسطين، ويثبت بشكل واضح ما وصلته القيادة الشعبية هناك من قوة وعزم وتصميم».

غير ان بريطانيا، كعادتها، مدفوعة بخططها الاستعمارية وبتأمرها مع الصهيونية، حاولت تجاهل هذا الاضراب في اول الامر، وجربت بكل وسائلها تحطيمه وانهاءه، ولكنها فشلت في جميع محاولاتها، واستمرت في مكابرتها، فلم تظهر اي بادرة تشير الى استجابتها لحقوق العرب المشروعة ولكفاحهم البطولي.

وكان هذا هو تقدير القيادة العربية لموقفها، فقد كانت مؤمنة بان بريطانيا لا يمكن ان تسلم بمطالب العرب المشروعة الا تحت القوة والارغام، ولذلك فقد بدأت بتوجيه الاضراب العام نحو الثورة المسلحة ضد بريطانيا بشتى الوسائل. وما كاد الشهر الثاني يمر على الاضراب الكبير حتى ظهرت بوادر الثورة في انحاء متفرقة من فلسطين، ثم عمت جميع انحاء فلسطين، وتجاوزتها للبلاد العربية المجاورة، فتوافدت قوافل المجاهدين من العراق وسوريا والاردن، وانهالت التبرعات بالمال والسلاح من الشعب العربي في كل مكان. وما هي الا ايام حتى كانت الثورة تجتاح فلسطين بقيادة موحدة منظمة وبجيش شعبي كبير.

وخاض هذا الجيش عدة معارك ضد جيش الاحتلال البريطاني، وألحق به خسائر فادحة مما اضطر بريطانيا الى تغيير قيادته اكثر من مرة، والى حشد قوات كبيرة من مستعمراتها وارسالها الى فلسطين، حتى بلغت قواتها انذاك قرابة عشرين الف جندي ومفرزة من سلاح الجو الملكي. وقد دفعتها هزائمها امام جيش الثورة الى اعمال انتقامية وحشية ضد المدن والقرى والسكان الآمنين، فقتلت بضعة الوف من الابرياء، وهدمت المئات من المنازل، مما يندى له جبين الانسانية.

ولما رأَت بريطانيا حرج موقفها العسكري والسياسي امام قوة وحق شعب

فلسطين العربي، لجأت الى اسلوبها المعتاد، فأعلنت عن تأليف لجنة التحقيق الملكية للتأكد من اسباب الاضطرابات وتقديم التوصيات اللازمة لازالة اسباب شكوى العرب من التطبيق البريطاني للانتداب على فلسطين.

ولكن العرب لم يخذعوا هذه المرة، فاستمروا في الاضراب وفي الثورة المسلحة ضد الوجود البريطاني وضد الهجرة اليهودية. واتسعت الثورة وقويت، ورأت بريطانيا ان تختار اسلوبا جديدا، فلجأت الى ملوك ورؤساء العرب واستعملت معهم كل نفوذها وارتباطاتها، ودفعتهم للتوسط لدى الفلسطينيين لايقاف الثورة وانهاء الاضراب دون شروط مسبقة، معتمدين فقط على صداقتها التقليدية وحسن نواياها نحو العرب، ونحو قضية فلسطين...

وبالفعل لم يخيب ملوك العرب ورؤسائهم، طلب بريطانيا ولا تقديرها، فاصدروا بيانهم المشهور الى عرب فلسطين مباشرة، طالبين فيه اليهم ايقاف الثورة ضد بريطانيا.. وانهاء الاضراب العام في فلسطين.. معتمدين على حسن نوايا صديقتهم بريطانيا، وعلى رغبتها المعلنة لتحقيق العدل.. واعدين بمواصلة السعي لمساعدة الفلسطينيين على نيل الحرية والاستقلال.

احدث هذا النداء بلبلة لدى الرأي العام العربي في فلسطين، الامر الذي أدى الى الاستجابة اليه، واعلان وقف الاضراب الكبير والثورة المسلحة، حفاظا على وحدة الصف.

وهكذا انتهت في ١٢ تشرين اول (اكتوبر) عام ١٩٣٦، الثورة التي كادت تطيح بالاستعمار البريطاني، وبالوطن القومي اليهودي في فلسطين، دون ضمان نتائج، اللهم الا حسن الظن بصداقة بريطانيا.. وعدالتها. اوقفت الثورة بناء على نداء ملوك العرب، وبعد ان قدم الفلسطينيون اكثر من الف شهيد، سقط معظمهم برصاص الانكليز. واكثر من الفين وخمسمائة جريح، عدا عن الاحياء والقرى التي هدمت بقنابل الانكليز، وانتهى الاضراب الكبير الذي ضرب الرقم القياسي في العالم بطول مدته وشموله ودقة تنفيذ اهدافه، بعد ان قدم الفلسطينيون

ملايين الجنهات بسبب توقف اقتصادهم وفساد محاصيلهم، وايقاف جميع اعمالهم ومرافق حياتهم طوال مدة هذا الاضراب.

وانتظر العرب نتيجة صداقة بريطانيا التقليدية.. وانتظروا عدلتها.. وجاءت النتيجة بتوصيات لجنة التحقيق الملكية، فكانت فعلا هي نفس العدالة البريطانية المعروفة في قراراتها السابقة. اذ اوصت بتقسيم فلسطين، واعطاء اكثر من نصفها لليهود الغزاة، الامر الذي قاومه الفلسطينيون، وثاروا ضد بريطانيا لمنعها من تحقيقه. فثارت ثائرة السكان، وعم الهياج انحاء فلسطين من جديد وارتفعت الاصوات منددة بالخديعة الكبرى، مطالبة باستئناف الثورة.

ولم يمض وقت طويل حتى نشبت ثورة عام ١٩٣٧، واحتدمت المعارك الدامية بين المجاهدين والانكليز في جميع انحاء فلسطين، واتسعت الثورة وتضخم جيشها حتى شمل معظم السكان، وقوي نفوذها وازدادت سلطتها. وقد تجلت بطولة شعب فلسطين وتضحياته في هذه الثورة، واثبت بمدى احتماله وبذله على قوة ايمانه بحقه وحرية واستقلاله. فقد صمد - على الرغم من امكانياته - امام حشود بريطانيا وطائراتها، وتحمل ، على الرغم من ظروفه القاسية، كل ظلمها وتعسفها ووحشيتها، واستمر في كفاحه ضدها يسجل الانتصار تلو الانتصار.

دامت الثورة من تشرين اول ١٩٣٧ حتى اذار (مارس) ١٩٣٩، حين اضطرت بريطانيا الى التظاهر بالتراجع عن موقفها والتخلي عن قرار التقسيم، فقد اعلنت الكتاب الابيض لعام ١٩٣٩، واعترفت بحق الفلسطينيين في الاستقلال، ويايقاف الهجرة اليهودية بعد انتهاء فترة الانتقال. غير ان العرب الذين خبروا خداع بريطانيا وتضليلها، وعرفوا مدى تمسكها بعهودها وقراراتها، وقفوا موقف المتشكك الحذر من هذا الاعلان، وطالبوا بالاستقلال، ووقف الهجرة فوراً وهددوا باستمرار الثورة. غير ان نشوب الحرب العالمية الثانية بعد ذلك بقليل، وحلول التعاون بين الادارة الفرنسية في سوريا ولبنان، والادارة البريطانية في فلسطين وشرق الاردن محل التنافس والتآمر، وانضمام الدول العربية المجاورة لفلسطين الى جانب الحلفاء، وتمركز

جيوشهم فيها، كل ذلك اضطر، قيادة فلسطين الوطنية الى ايقاف الثورة وانتظار تحقيق وعود بريطانيا وسياستها الجديدة.

وعلى الرغم من مصادقة مجلسي اللوردات والنواب على هذا القرار، ومن تعهد بريطانيا بتنفيذه دون اعتبار لرأي العرب واليهود، فقد كان نصيبه من بريطانيا مثل نصيب القرارات السابقة. فما ان توقفت الثورة وتفرق جيشها، وزالت التنافسات الانجلو- فرنسية الاوسطية، وانضمت الدول العربية الى جانب الحلفاء، حتى تنكرت بريطانيا لحقوق عرب فلسطين من جديد، وراحت تضيق الخناق على قيادة الحركة الوطنية والثورة فيها، وتطارد اعضاءها وتعقلهم او تشردهم في انحاء العالم. وما ان حل عام ١٩٤١ حتى كانت فلسطين العربية خالية من كل قياداتها ومنظماتها ومؤسساتها الوطنية والسياسية، وكانت مرتعا خصبا لنشاط الصهيونية، ولسياسة بريطانيا التهويدية.

هذه صورة موجزة وسريعة لكفاح شعب فلسطين، خلال فترة قصيرة من تاريخه مع بريطانيا، قضاها في النضال في كل الميادين، وقدم خلالها من الشهداء والتضحيات ما لا يستطيع المنصف امامها الا الانحناء اجلالا واكبارا.. كل ذلك من اجل حرية فلسطين وعروبتها.

وليست هذه الصورة التي أتينا على ذكرها آنفا، هي الوحيدة والاحيرة من الكفاح العربي ضد بريطانيا في فلسطين، بل هي صورة مرحلة واحدة تلتها مرحلة ثانية، اكثر مرارة وقسوة على عرب فلسطين، واكثر لؤما واشد سوادا في تاريخ بريطانيا. فان كانت نتائج المرحلة الاولى ضياع فرص الاستقلال وحشد اليهود في فلسطين، فقد نجحت بريطانيا في المرحلة الثانية بتهويد فلسطين وتشريد سكانها... وهذه المرحلة يمكن ان يطلق عليها اسم مرحلة الكفاح الرسمي، وفيها تولت جامعة الدول العربية دور القيادة والتخطيط والتوجيه في الميدانين السياسي والعسكري، وبمعزل عن القيادة الفلسطينية في كثير من الاحيان. وقد اختتمت هذه المرحلة بتدخل الجيوش العربية لانقاذ فلسطين من براثن الصهيونية عام ١٩٤٨ في اعقاب اعلان قرار التقسيم.

الاستيطان الصهيوني في عهد الانتداب :

كانت بريطانيا حريصة الى ابعد حدود الحرص على تطبيق نصوص صك الانتداب بما يخدم مصالح اليهود، فكانت تستند الى نصوصه كي تبرز كل اجراء تتخذه لتهود فلسطين. ومن بين الركائز الهامة التي اعتمدها الحكومة البريطانية لتهود فلسطين ابان فترة انتدابها عليها، الهجرة اليهودية بهدف الاستعمار الاستيطاني. ويمكن تعريف الاستيطان الصهيوني بانه «وسيلة فعالة من وسائل استعادة الوجود اليهودي في فلسطين»: ورد ذلك على لسان «موشيه كوهين» في كتيبه (من يخشى غوش ايمونيم) الذي يدور كله حول النشاط الحديث المكثف للاستيطان الصهيوني والذي تتزعمه اليوم حركة «غوش ايمونيم» ككبح فداء على حد وصف المؤلف للمطامع الصهيونية البعيدة المدى.

سكن العرب وحدهم فلسطين طيلة القرون الثلاثة عشر الاخيرة، واخذ اليهود في المهاجرة اليها ابتداء من اوائل النصف الاخير من القرن التاسع عشر، فبلغ عددهم عند انتهاء الحرب العامة نحو خمسة وخمسين الفا، أي ٧ في المائة من مجموع السكان. وكان عدد سكان فلسطين، بموجب الاحصاء الذي اجرته الحكومة عام ١٩٢٢م ٧٥٧١٨٢ نسمة، منهم ٨٣٧٩٤ من اليهود و ٦٧٣٣٨٨ من العرب.

ودل احصاء عام ١٩٣٢ على ان نفوس فلسطين ١٠٣٥٢٢١، منهم ١٧٤٧٩٢ من اليهود و ٨٦٠٤٢٩ من العرب. ومما لا شك فيه ان العدد الحقيقي للعرب في فلسطين كان في كلتا الحالتين اكثر مما سجلته عملية الاحصاء، ذلك ان كثيرا من العرب قد تهربوا من تسجيل انفسهم لأسباب مختلفة اهمها الخوف من الخدمة العسكرية.

واخذ اليهود منذ ذلك الحين، يتدفقون على فلسطين بجميع الطرق، مشروعة كانت ام غير مشروعة. ويمكن القول ان عددهم اصبح عام ١٩٣٧ نحو (٤٥٠) الفا فاصبحت نسبتهم نحو ٣٠ في المائة من مجموع السكان.

فما هو النظام الذي دخل فلسطين بموجبه هذا العدد من اليهود؟ ألم تتجاوز المهاجرة اليهودية الواسعة مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب؟ أو لم تسبب اضرارا لاهالي البلاد؟ وما الهدف الذي رمت اليه الصهيونية من وراء هذه المهاجرة الواسعة؟ تساؤلات كثيرة بحاجة الى تعليق وايضاح....

نظام المهاجرة وتدفق اليهود :

اصدرت السلطات البريطانية في فلسطين قانون المهاجرة الذي كان كبقية القوانين الاخرى فيها، عرضاً للتحوير والتبديل، سيرا مع الظروف والمصالح الصهيونية. وقد قسم المهاجرون اليهود بموجبه الى ثلاث فئات رئيسية هي :

الفئة الاولى : هم المهاجرون من ذوي «الوسائل المستقلة» : ويشمل المهاجر الذي كان في حيازته الف جنيه، وذوي المهن الحرة الذين كانوا يملكون ما لا يقل عن خمسمائة جنيه، والصناع الماهرين الذين كانوا يملكون ٢٥٠ جنيتها على الاقل، والاشخاص الذين كان لهم ايراد لا يقل عن أربعة جنيهات في الشهر.

الفئة الثانية : هم المهاجرون الذين كانوا يعتمدون في معيشتهم، بعد وصولهم فلسطين، على احد السكان المقيمين فيها، ويشمل ذلك الاشخاص الذين كان لهم اهل في فلسطين، والايتام القادمين الى ملاجئ في فلسطين، والرجال والنساء الذين يتعاطون الاعمال الدينية، واخيرا الطلاب.

الفئة الثالثة : هم العمال الذين كانوا يؤمنون فلسطين للعمل فيها.

وكانت ابواب المهاجرة مفتوحة على مصراعها للمهاجرين من الفئة الاولى دون ادنى مراقبة ولا تحديد. اما المهاجرون من الفئة الثانية، فكان يكفي ابراز اوراق

تقنع الحكومة بان طالب المهاجرة الى فلسطين هو من افراد هذه الفئة. ومما تجدر ملاحظته ان عدد المهاجرين من هذه الفئة لم يكن محدودا ايضا، كما ان كثيرين من افراد هاتين الفئتين: الاولى والثانية، كانوا يندفعون الى سوق العمال العاديين ، عندما يدخلون فلسطين.

ولم تكن الحكومة تحدد الاعداد المهاجرين من الفئة الثالثة، اي العمال الذين ليس لهم وسائل لكسب العيش في فلسطين غير العمل. وحتى تحديد المهاجرة لهؤلاء العمال لم يكن يقوم في الواقع على قاعدة «مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب».

ورغم الحاح الخبراء بضرورة اشراف الحكومة على المهاجرين، لتحول دون دخول الذين يمنعهم القانون من الدخول، فان الاصول المتبعة بقيت على ما هي عليه^(٤٠).

مكن قانون المهاجرة في فلسطين اليهود من الهجرة اليها باعداد عظيمة. ومن الغريب ان نرى ان هذه المهاجرة قد اتسعت منذ التاريخ الذي قرر فيه الخبراء وجوب تحديدها ان لم يكن ايقافها. وتبين الارقام التالية^(٤١) اعداد اليهود الذين دخلوا فلسطين «بطرق مشروعة» ابتداء من عام ١٩١٩ وحتى انتهاء الانتداب البريطاني ١٩٤٨:

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩١٩	١٨٠٦	١٩٣٤	٤٥٢٦٧
١٩٢٠	٨٢٢٣	١٩٣٥	٦٦٤٧٢
١٩٢١	٨٢٩٤	١٩٣٦	٢٩٥٩٥
١٩٢٢	٨٦٨٥	١٩٣٧	١٠٦٢٩
١٩٢٣	٨١٧٥	١٩٣٨	١٤٦٧٥
		١٩٣٩	٣١١٩٥
١٩٢٤	١٣٨٩٢	١٩٤٠	١٠٦٤٣
١٩٢٥	٣٤٣٨٦	١٩٤١	٤٥٩٢
١٩٢٦	١٣٨٥٥	١٩٤٢	٤٢٠٦
١٩٢٧	٣٠٣٤	١٩٤٣	١٠٠٦٣
١٩٢٨	٢١٧٨	١٩٤٤	١٥٥٥٢
١٩٢٩	٥٢٤٩	١٩٤٥	١٥٢٥٩
١٩٣٠	٤٩٤٤	١٩٤٦	١٨٧٦٠
١٩٣١	٤٠٧٥	١٩٤٧	٢٢٠٩٨
١٩٣٢	١٢٥٥٣	٤٨/١/١ حتى	١٧١٦٥
١٩٣٣	٣٧٣٣٧	١٩٤٨/٥/١٤	

تبين هذه الأرقام عدد المهاجرين الذين سمحت الحكومة المتتدبة بدخولهم فقط الى فلسطين. وبجانب هذه المهاجرة الرسمية، توجد اربعة انواع اخرى من المهاجرة هي: المهاجرة غير المسجلة، والمهاجرة غير الرسمية، ومهاجرة الزواج السوري،

والمهاجرة المزورة. فكان يدخل فلسطين كل عام عدد كبير من اليهود بصفة سياح، ثم يبقى معظمه في البلاد. ولم تكن الحكومة لتتبه الا لعدد قليل منهم لا يكاد يذكر^(٤٢).

ولم يكن اليهود ليكتفوا بمخالفة القانون عن طريق المهاجرة غير المسجلة، بل كانوا يدخلون فلسطين باعداد كبيرة عن طريق التهريب. ويطلق على هذا النوع من المهاجرة، المهاجرة غير المشروعة، ولم يكن مقدارها معلوما بالضبط. على ان المندوب السامي كان قد صرح في خطاب القاہ في مدينة نابلس عام ١٩٣٣، بان المهاجرة غير المشروعة، في ذلك العام، قد عادت المهاجرة المشروعة، أي سبعة وثلاثين الفا. وبالرغم من هذا، فان الحكومة لم تقم باجراءات صارمة لاحباط هذا النوع من المهاجرة، رغم اشارة الخبير السير « هوب سمبسون » اليها، باعادة مثل هؤلاء المهاجرين بعد اكتشافهم، فورا الى البلاد التي اتوا منها^(٤٣). وبالطبع فان موقفها المتراخي هذا، والمتعاطف مع الصهيونية، كان قد شجع الصهيونيين على التمادي في هذا النهج، كما نفت فيهم روح الجرأة لمقاومة رجال الامن الذين كانوا يحاولون التعرض لأي من هؤلاء المهاجرين.

استعمل اليهود جميع الوسائل المخالفة لدخول فلسطين. فمن طرفهم، ايضا، ان عددا من اليهود، شبان وشابات، متجنسين بالجنسية الفلسطينية، كانوا يمتنون حرفة « الزواج السوري » بقصد تمكين عدد من اليهود من دخول فلسطين. فيتزوج الفتى والفتاة منهم فتاة او فتى يهوديا موجودا في الخارج، وبمقتضى هذا الزواج يصبح لهذا الاجنبي البعيد، حق دخول البلاد. ومتى دخلوا فلسطين طلقوا ازواجهم..

لقد وقفت حكومة فلسطين مكتوفة الايدي امام جميع هذه الانواع من المهاجرة اليهودية المخالفة للقانون والاخلاق، في نفس الوقت الذي تشددت فيه مع كثير من العرب، ممن ولدوا في فلسطين، وعاشوا خارجها، فمنعتهم من العودة الى وطنهم...

مبدأ مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب واضرار المهاجرة :

اثارت الهجرة اليهودية المتزايدة الى فلسطين منذ السنوات الاولى للانتداب البريطاني شكوكا ومخاوف لدى عرب فلسطين الذين اخذوا يحسون باخطار هذه الموجات الغربية عنهم والتي اخذت تهددهم في أرضهم وتزاحمهم في عيشتهم. ولتهدئة هذه الافكار، ومحاولة ازالة هذه الشكوك من اذهان عرب فلسطين، صرحت الحكومة البريطانية في بيان خطتها السياسية في فلسطين، الذي اصدره ونستون تشرشل عام ١٩٢٢ انه « لا يمكن ان تكون هذه المهاجرة كبيرة الى حد يزيد في اية ظروف كانت، على مقدرة البلاد الاقتصادية على استيعاب مهاجرين جدد اذ ذاك. ومن الضروري ضمان عدم صيرورة المهاجرين عالة على اهالي فلسطين عموما، وعدم حرمان اية فئة من السكان الحاليين اشغالها»^(٤٤).

وقبلت الوكالة اليهودية بهذا المبدأ، واخذت تدعي هي والحكومة بانهما تعملان بموجبه في ادخال المهاجرين الجدد. وجاء الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ مؤيدا هذا المبدأ^(٤٥). فهل كانت المهاجرة تسير عمليا حسب مبدأ مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب؟

الجواب : كلا!

كان من المفروض ان تلتزم الحكومة البريطانية بما اعلنته في بيان خطتها السياسية الآنفه، وتراعي مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب، فلا تسمح بالهجرة مطلقا الا بالقدر الذي تتأكد فيه ان فلسطين قادرة على استيعابه، ولكن المفروض شيء والواقع شيء آخر. ذلك ان بريطانيا، كما نعلم، سعت كي تفوز بالانتداب على فلسطين متعاونة مع الصهيونية في سبيل تحقيق مصالحها الذاتية. والصهيونية هي الاخرى لم تتعاون مع بريطانيا الا بعد ان تأكدت بان بريطانيا سوف تسعى جادة كي تحقق اهداف الصهيونية في فلسطين، وذلك بتهيئة جميع الظروف الملائمة لقيام الوطن القومي اليهودي فيها. فتحقيق هذا الهدف، مرهون

بالدرجة الاولى باللحظة التي تصبح فيها اعداد اليهود في فلسطين كافية وقادرة لأن تقيم مثل هذا الكيان. ولهذا السبب، سعت الصهيونية بكل طاقاتها كي تهجر الى فلسطين من تستطيع تهجيرو من يهود العالم، فاستعملت علاوة على المهاجرة غير المسجلة والمهاجرة بالتهريب، والمهاجرة بواسطة الزواج السوري، طرقا غير مشروعة اخرى لدخول البلاد، يمكن تسميتها «بالمهاجرة المزورة»^(٤٦).

ان الحكومة البريطانية كانت تدرك تمام الادراك، ان تزايد الهجرة، لا بد وان يسبب اضرارا لعرب فلسطين، ولكنها تجاهلت ذلك في سبيل تأسيس الكيان اليهودي في فلسطين، الذي وطدت العزم على انشائه منذ ان وطأت اقدامها هذه الديار في اعقاب الحرب العالمية الاولى، وليكن بعد ذلك ما يكون!

لذلك فان ما صرح به المستر تشرشل عام ١٩٢٢ حول الهجرة، لم يكن الهدف منه إلا ذر الرماد في الاعين، ومحاولة امتصاص نقمة الجماهير العربية في فلسطين. كذلك فان محاولات بريطانيا ارسال لجان فنية وخبراء فنيين الى فلسطين بين الحين والاخر لدراسة مبدأ مقدرة فلسطين الاقتصادية على استيعاب مهاجرين جدد ما هو الا اسلوب بريطاني اخر من اساليب التموه والتضليل. ذلك انها لم تعر اي اهتمام لآراء اي من هذه اللجان، وهؤلاء الخبراء الذين ادانوا المراجع اليهودية بالانحراف فيما يتعلق بالمهاجرة، انحرافا خطيرا، عن المبدأ الذي قبلت به الجمعية الصهيونية عام ١٩٢٢ القائل بوجود تنظيم المهاجرة حسب مقدرة البلاد الاقتصادية على استيعاب مهاجرين جدد^(٤٧). واصر جميعهم على ان مقدرة البلاد الاقتصادية قد وصلت الى حدها الاعلى، وانه لا يمكن اسكان اسكان مهاجرين جدد، الا باحلالهم محل سكان البلاد الاصليين^(٤٨).

ورغم هذه الحقائق، فان الصهيونية اخذت تضغط على الحكومة المنتدبة لزيادة عدد المهاجرين من جهة، كما اخذت تعمل من جهة اخرى، بجميع الوسائل لادخال مهاجرين جدد الى فلسطين. وقد أثر هذا الضغط على الحكومة، ذلك ان حكومة فلسطين، مع علمها الجيد، بان مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب قد تجاوزت حدها الاقصى، سمحت بادخال عدد عظيم من المهاجرين لم يسبق له

مثيل. فزاد عدد من دخل منهم، بصورة شرعية، عام ١٩٣٣ عن سبعة وثلاثين الفا. ولما كان عدد المهاجرين بصورة غير شرعية بلغ نحو ذلك، حسب اعتراف المندوب السامي، اذن فقد كان المجموع الكلي لمهاجري ذلك العام، قد زاد عن الاربعة والسبعين الفا. وفي عام ١٩٣٤ بلغ عدد المهاجرين الشرعيين اكثر من خمسة واربعين الف مهاجر في حين بلغ هذا العدد في العام التالي ١٩٣٥ نحو ستة وستين الفا. هذا عدا عن المهاجرين اليهود الذين دخلوا فلسطين بصورة غير شرعية خلال هذين العامين.

وجريا على مبدأ مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب، كانت الحكومة قد سمحت عام ١٩٣١ بادخال نحو اربعة آلاف مهاجر فقط. لو قارنا بين هذا العدد من المهاجرين، والاعداد المماثلة التي سمحت بادخالها الحكومة البريطانية الى فلسطين، في عام ١٩٣٤ و ١٩٣٥ لتبين لنا الفرق الواضح بينهما، ولتساءلنا عن سر الكنز الاقتصادي الذي اكتشف في هاتين السنتين، فسمح بفتح الباب لهذه المهاجرة الواسعة التي بلغت احد عشر ضعفا في عام ١٩٣٤، وستة عشر ضعفا او يزيد عام ١٩٥٣ عما كانت عليه عام ١٩٣١.

هذا اثبات واضح، لا يترك مجالا للشك، في ان الهجرة اليهودية الى فلسطين، ابان الانتداب البريطاني، لم تكن تسير على الاطلاق، وفقا لما تتطلبه مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب.

اضرار الهجرة اليهودية :

من الطبيعي ان تسبب هذه الهجرة اليهودية الواسعة اضرارا عديدة لسكان البلاد الاصليين، عرب فلسطين، شملت مختلف نواحي حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

اما اضرارها الاقتصادية فتكمن فيما تسببت به من بطالة بين العمال، من يهود وعرب. وذلك ان الهجرة اليهودية الى فلسطين لم تكن قائمة على دعائم اقتصادية،

فكان هم الصهيونيين الاول، ادخال اكبر عدد من المهاجرين بأية طريقة. وادى هذا بالطبع الى ازمة اقتصادية استمرت من سنة ١٩٢٦ حتى سنة ١٩٢٨^(٤٩).

لم تساعد حكومة فلسطين لم تساعد في حل مشكلة البطالة هذه، بل على العكس زادت تعقيدا، وذلك بالرغم من انها تعلم بوجود هذه المشكلة، فبدل ان تمنع الهجرة، كانت تسمح بها، وابعاد كبيرة. وهذا بالطبع كان مما يزيد في عدد العمال العاطلين.. انه منطوق اعوج وسياسة ملتوية! ولكنها من وجه آخر سياسة تتفق والتزاماتها بتنفيذ وعد بلفور لصالح اليهود.

اضرارها الاجتماعية : كانت هذه الاضرار جد عظيمة، لا سيما وانه لم تكن هنالك مراقبة على الحدود تحول دون دخول غير المرغوب فيهم. فكان اخطر المجرمين يدخلون فلسطين بسهولة، دون ان يهتم بشأنهم احد. وقد أدت الهجرة الواسعة الى انتشار الاعمال الجنائية، والسرقات الكبيرة، والاحتياالات المنظمة، والتزوير على انواعه، تزييف النقود، والى دخول انواع جديدة من الجرائم لم تكن فلسطين تعرفها من قبل... وكانت مراكز هذه الاعمال، الاحياء اليهودية، لا سيما تل ابيب، التي اطلق عليها حينئذ اسم «شيكافو الشرق الادنى» بحق وجدارة^(٥٠). يضاف الى هذه الامور قضايا الاستهتار بالآداب العامة والنظم الاجتماعية التي لم تكن مقصورة على طبقة خاصة من طبقات اليهود.

واما الاخطار السياسية، فهي اشد اخطار الهجرة اثرا حيث كانت الهجرة اليهودية من اهم اسباب الاضطرابات والثورات في فلسطين، طيلة فترة الانتداب البريطاني.

مقاصد الصهيونية من الهجرة وواجب الحكومة :

كان مقصد الصهيونية من الهجرة ظاهر وجلي، وهو الوصول الى هدف سياسي يتمثل في ايجاد اكثرية ساحقة في فلسطين، لتتمكن من «احياء ارض يهودا

(فلسطين)، واعادتها لليهود»، أي جعل فلسطين مملكة يهودية مأهولة باليهود وحدهم.

لقد كان ايقاف الهجرة اليهودية واجب وضروري... واجب حسب صك الانتداب، لان الهجرة كانت قد اوقعت اضرارا فاحشة بحقوق ووضعية العرب... وضروري لان الهجرة كان قد تسببت بازمات واضطرابات وثورات...

كان الواجب يقضي على الحكومة المنتدبة، وكان العدل يسألها، والسلام يناشدها ايقاف الهجرة اليهودية الى فلسطين، ولكن الحكومة البريطانية اصمت أذنيها عن تلبية جميع هذه الاصوات، ومضت في غيها رغم انه قد ظهر لها من تقارير اللجان والخبراء، انها قد اوقعت بالعرب وبوضعيتهم اضرارا فادحة، وانها اهملت شأن العمال العرب حتى انها لم تكلف نفسها معرفة عدد العاطلين منهم.

غير ان هذا الموقف المتعنت من جانبها، لم يكن يمنعها في بعض الاحيان من ان تلجأ الى اسلوب التضليل والمناورة وذر الرماد في الاعين، لكسب العرب الى جانبها، او ضمان سكوتهم وامتصاص نقيمتهم في ظرف من الظروف الحرجة التي تمر بها. فلا تتورع عندئذ من التظاهر بانها ستمضي للاخذ بوجهة النظر العربية العادلة، فيما يتعلق بالخطوط العريضة لسياستها في فلسطين، ولكنها لا تلبث - بعد ان يزول ذلك الظرف الطارىء - ان تنكث بما وعدت، وان تعود سيرتها الاولى، من حيث محاباتها للصهيونية ولخططها الرامية لهويد فلسطين... حدث ذلك عام ١٩٣٩، عندما تلبدت السماء بغيوم الحرب العالمية الثانية، وكانت الثورة العربية الكبرى في فلسطين لا تزال مشتعلة، فارادت بريطانيا ان تهدىء الخواطر العربية الثائرة في فلسطين وخارجها، فأصدرت الكتاب الابيض في العام المذكور، الذي تطرق في احد بنوده الى مسألة الهجرة اليهودية، فحددها بخمسة وسبعين الفا من المهاجرين، يسمح لهم بدخول فلسطين خلال السنوات الخمس التالية. الا انها في عام ١٩٤٣، ما لبثت ان تراجعت عما سبق وان اعلنته، بغية ارضاء اليهود، فاعلنت ان خمس سنوات قد مضت منذ صدور الكتاب الابيض دون ان

يتمكن الخمسة والسبعون الف يهودي المنصوص عليهم في الكتاب من دخول فلسطين، بسبب ظروف الحرب، ومن ثم ، فان المدة التي عينها الكتاب الابيض تعتبر غير منتهية، بمعنى انها مُددت الى اجل غير مسمى.

أما الصهيونية فقد مارست نشاطا مكثفا اثناء الحرب العالمية الثانية وعلى جميع الجهات، واعلنت عزمها على رسم خطوط جديدة للمرحلة القادمة في ضوء التطورات الجديدة في العالم. وكان هذا يعني ضرورة التخلي عن شعار مرحلة التعاون البريطاني الصهيوني السابقة، الا وهو شعار «الوطن القومي اليهودي»، والاحذ بشعار، الدولة اليهودية، شعار التعاون مع الامم الاخرى وفي طليعتها امريكا، دون التخلي بالطبع عن الصداقة التقليدية مع بريطانيا.

وقد ترجم هذا النشاط الصهيوني في الولايات المتحدة في اكثر من مجال، وكان اهمها جميعا هو اعلان برنامج بلتيمور Baltimore في ايار ١٩٤٢. وقد تضمن المقررات التالية:

- ١ - ضرورة قيام سريع لدولة يهودية في فلسطين كجزء من العالم الديمقراطي.
- ٢ - رفض الكتاب الابيض لعام ١٩٣٩.
- ٣ - اطلاق الهجرة اليهودية، واستيطان فلسطين تحت سيطرة الوكالة اليهودية.
- ٤ - انشاء جيش يهودي خاص يحارب الى جانب جيوش الحلفاء.

والواقع ان برنامج بلتيمور يعتبر اهم عمل سياسي صهيوني خلال فترة الحرب العالمية الثانية، لانه كشف هدف الصهيونية الحقيقي، وهو اقامة دولة يهودية في فلسطين. ولم يكن قبولها باقامة وطن قومي في الفترة السابقة الا مداراة للشعور العربي الذي يرفض اقامة دولة يهودية في ارضه. كما ان اعلان هذا البرنامج مكن الحركة الصهيونية من ان تحشد يهود امريكا (صهيونيين وغير صهيونيين) وارهه، مستغلة بذلك ما سمي بآسي الاضطهاد النازي.

وما ان وضعت الحرب العالمية اوزارها حتى اخذ الصهيونيون يسعون جادين،

لوضع برنامج بليمور موضع التنفيذ الفعلي، واستغلوا في سبيل ذلك، التدخل الأمريكي لصالحهم. ومن ثم ارسلت الى فلسطين عام ١٩٤٦ اللجنة الانجلو امريكية، التي تقدمت بتوصيات، نسفت كل ما جاء في الكتاب الابيض الذي صدر عام ١٩٣٩. وانتهت هذه المرحلة باتخاذ الامم المتحدة قرار تقسيم فلسطين في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، ثم اعلان انهاء الانتداب البريطاني على فلسطين في ١٥ مايو (أيار) عام ١٩٤٨.

خاتمة البحث :

قبل اختتام موضوع الهجرة او الاستيطان، أرى من المناسب ابداء الملاحظات حوله :

أولا : ان ما درج عليه الصهاينة من تصوير الهجرة الصهيونية بانها عمل انساني يهدف الى تجميع الجاليات اليهودية من شتاتها، ما هو الا تصوير يتفق في حقيقته مع الاهداف الصهيونية القائمة على استدرار العطف. غير ان الهجرة من حيث الواقع والمنطق هي عمليات غزو واستعمار لفلسطين، حيث انها قدمت الى البلاد كما نعلم في ظل الحراب البريطانية. هذه الموجات اليهودية العنصرية المتتالية، التي قدمت الى البلاد خلال فترات من الزمن، من فئات لا تتكلم لغة اهل البلاد، ولا تدين بديانتهم، ولا تشعر بشعورهم، بل تتبنى افكارا معينة، أبسطها طرد السكان العرب، اصحاب البلاد الاصليين، واغتصاب ارضهم، لاقامة وطنهم- هو في الواقع غزو استعماري اشد قسوة وعنفا.

ثانيا : تجتهد الصهيونية في اختيار لفظ انساني اخر، في وصف هذا الاستعمار، فتطلق عليه لفظ «استيطان»، غير ان اللفظ الاصوب، الذي يجب ان ينعت به هو «استعمار استيطاني»، لان الاستيطان، يكون فقط لبلاد خالية من السكان، أما اذا كانت آهلة بسكانها، فلا

يكون استيطاننا (انساني) بل استعمارا، يهدف الى طرد السكان من ارضهم، وتوطين الاجانب مكانهم. فهو استعمار استيطاني. ذلك ان الاستعمار الاقتصادي يتحول الى استعمار استيطاني عنصري بزيادة السكان الاجانب، وهذا ما يلاحظ في فلسطين المحتلة وفي دولة جنوب افريقيا.

ثالثا : تركز الصهيونية في صدد الهجرة اليهودية على ابراز المتاعب والمصاعب التي واجهت اليهود لاستدرا عطف شعوب العالم عامة، واليهود خاصة، وان استقرارهم في فلسطين هو المكافأة لهم، بعد هذا التعذيب.

رابعا : تحاول الصهيونية ان تصور الهجرة والاستيطان الاستعماري في فلسطين، بانهما الخلاص والمنجى من كل كارثة او أذى يلحق باليهود.

خامسا : تحاول الصهيونية لباس الغزو والتوسع الصهيوني على حساب العرب لباسا حضاريا.

سادسا : اعتبار الهجرة اليهودية المضادة من فلسطين المحتلة، تعبيرا عن عدم ايمان اليهود بالحل الصهيوني للمشكلة اليهودية، وليست ظاهرة اقتصادية او عائلية كما تحاول الصهيونية ان تصفها بها.

المصادر:

- ١- Nahum Sokolow, History of Zionism, (London, 1919), V.2 p. 43.
- ★ د . جورج كنعان، وثيقة الصهيونية في العهد القديم، بيروت، ١٩٧٧، ص ١٢.
- ٢- يجد القارئ نصوص هذه الرسائل مع دراسة حولها في كتاب من جزأين:
- Albert M. Hyamson, The British Consulate in Jerusalem (London, 1939).
- ٣- Col. Churchill, Mount Lebanon (London, 1853), Vol.
- ٤- كان موشه مونتفيوري من المقربين الى قصر الملكة فكتوريا في انكلترا، وقد اشغل مناصب هامة في الجيش البريطاني والحياة العامة في انكلترا، وكان احد قضاة المحكمة العليا.
- عاش مونتفيوري ١٠١ سنة (١٧٨٤ - ١٨٨٥) وكان من اوائل بناء الاستيطان اليهودي في فلسطين واهمهم. وقد زار فلسطين سبع مرات، واسهم كثيرا في مساعدة اليهود فيها وبناء بعض المستوطنات في فلسطين، وكذلك سافر الى روسيا ورومانيا وتركيا وغيرها من الدول لبذل المساعي لدى حكامها لصالح اليهود، ورفع الجور والاضطهاد عنهم.
- ٥- راجع كتاب اولهما المسمى: Later Bible Research
وكتاب ثانيهما: Five Years in Damascus
- ٦- راجع الفصل الاخير من الكتاب :
Lawrence Oliphant, The Land of Gilead (London, 1880)
- ٧- ميخائيل زيف ورفاقه، كتاب التاريخ للصف الثاني عشر في المدارس الثانوية في اسرائيل، القدس، ١٩٦٨، ٢٢٠.
- ٨- Fredrick Bliss, The Religions of Modern Syria and Palestine (New York, 1912) p. 321.
- ٩- Henry Harris Jessup, 53 Years in Syria (?) vol. I, p.311
- ★ ميخائيل زيف ورفاقه، كتاب التاريخ للصف الثاني عشر في المدارس الثانوية في اسرائيل (مترجم)، القدس، ١٩٦٨، ص ٢٢١.
- ١٠- هو بنيامين (آدموند) روتشيلد، ابن لاغنى العائلات اليهودية في اوروبا، التي كانت تمتلك اكبر خمسة بنوك في العواصم الأوروبية الكبرى.

وبعد تأسيس المستوطنات الانفة الذكر وما لاقته من صعوبات بسبب قلة المصادر المادية اللازمة للاستيطان، والظروف الطبيعية الصعبة كالطقس ووعورة الاراضي، وعدم التجربة في العمل الزراعي، كادت هذه المستوطنات تندثر لولا ان وصل الامر الى مسامح البارون روتشيلد الفرنسي الذي هب لنجدتها، فوضع جميع هذه المستوطنات (باستثناء مستوطنة غديره - مستوطنة جماعة بيلو) تحت رعايته بعد سنة ١٨٨٣. مشرطا مقابل ذلك ان يطيع المزارعون الموظفين الذين يعينهم. فكان يساعد المستوطنين بالاموال وارسال المهندسين والخبراء

الزراعيين. ولم تقتصر مساعداته على المستوطنات القائمة بل اخذ يقيم المستوطنات الاخرى في اجزاء مختلفة من فلسطين مثل مستوطنة «عقرون» الذي مول مستوطنها من المزارعين الروس عام ١٨٨٣. وقد بلغ عدد المستوطنات التي ساعدها واقامها اربعين. ويعرف البارون روتشيلد في التاريخ العبري باسم «المحسن المشهور» و«أب المستوطنات».

وفي عام ١٨٨٧ زار البارون روتشيلد فلسطين، ووقف على احوال المستوطنات وسعى من اجل تخفيف وطأة موظفيه، اذ لم يسد التفاهم والتعاون بينهم وبين المستوطنين. وفي عام ١٨٩٩ سلم البارون ادارة مستوطناته في فلسطين الى جمعية «يكا» التي بذلت جهودا كبيرة في سبيل شق طرق جديدة لتعزيز وضع المستوطنات.

١١- سلمان فلاح، كتاب التاريخ للصفوف الثامنة في اسرائيل، الناصرة، ١٩٧٤، ص ١٨٩.

١٢- بينسكرك: (١٨٢١-١٨٩١) كان طبيبا يهوديا في روسيا وسعى من اجل بث الثقافة العامة بين اليهود لانه اعتقد اول الامر سبب حالة اليهود الشاذة في اقطار العالم يعود الى عدم تربيتهم على الثقافة الأوروبية الحديثة. وبعد الاضطهاد الذي لاقاه اليهود في روسيا عام ١٨٨١، اقتنع بالفكرة القائلة بوجود ايجاد وطن لتوطين اليهود، لانه ثبت له انهم اجانب في كل مكان وفي عام ١٨٨٢ الف «بينسكرك» «كراسته» «التحرير الذاتي» باللغة الالمانية، شرح فيها اسس اعتبار اليهود امة، ووجوب ايجاد الوطن الخاص بهم، ورأى انه من اجل تحقيق هذا الغرض، على الشعب اليهودي ان يحرر نفسه بنفسه، وان يتحرر ذاتيا عن طريق الانبعاث القومي وايجاد الوطن. وقد انضم «بينسكرك» الى حركة «عجبة صهيون» واختير رئيسا لها في مؤتمرها العام في كتوفيتش عام ١٨٨٤ الذي تقرر فيه تسمية المنظمة العامة (لحبي صهيون) باسم «تذكار موسى في الارض المقدسة» وتعيين مقرها في برلين حيث كان من الممكن للمنظمة ان تعمل بحرية خلافا للوضع في روسيا.

وفي تموز ١٨٨٧ انعقد المؤتمر الثاني للحركة في «دروسكنيك»، وفي هذا المؤتمر اعيد انتخاب «بينسكرك» رئيسا للحركة، بعد تسوية الخلاف الذي نشب بين جماعات المتدينين في المنظمة والجماعات الاخرى.

١٣- Theodor Herzl, The Jewish State, Translated by s. D'avigdor (London 1934), p.30

١٤- Nahum Sokolow, History of Zionism, vol. I, p. 295.

١٥- هاري زون، اليوميات الكاملة لثيودور هيرتزل، ص ١٣٦٠، ترجمة (هلدا صايغ)، بيروت، ١٩٦٨.

١٦- المصدر السابق، ص ١٣٦٠.

١٧- د. يوسف هيكل، القضية الفلسطينية، صفحة ٣٥، يافا ١٩٣٧.

١٨- ميخائيل زيف ورفاقه، كتاب التاريخ للصف الثاني عشر في المدارس الثانوية في اسرائيل، مترجم، القدس، ١٩٦٨.

- ★ د . يوسف هيكل، القضية الفلسطينية، ص ٣٦ .
- ١٩- هاري زون، اليوميات الكاملة لثيودور هيرتزل، ص ١٣٤٠، (ترجمة: هلدنا صايغ)، بيروت، ١٩٦٨ .
- ٢٠- الدوئمة: هم اليهود الذين اعلنوا اسلامهم بينما بقوا متمسكين خفية باليهود لينالوا شرا من المسلمين في الوقت المناسب .
- ٢١- راجع: A History of the peace Conference of Paris : Temperley: مجلد ٦ صفحة ١٧٢، ١٧٣ .
- ٢٢- راجع اندروز: The Holyland Under Mandate: Andceews: نيويورك ١٩٣١، جزء ١، صفحة ٣٥٦، ٣٥٧ .
- ٢٣- تقرير هايكرت عام ١٩٢١ .
- ٢٤- وهي المواد: ٢٣، ٢٢، ١١، ٧، ٦، ٤، ٢ .
- ٢٥- المادة الثانية «تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد في احوال سياسية وادارية، واقتصادية، تكفل انشاء وطن قومي لليهود، كما جاء في ديباجة هذا الصل، وترقية انظمة الحكم الذاتي وضمان الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين، بقطع النظر عن الجنس والمذهب»، المادة السادسة: «على حكومة فلسطين، مع ضمان عدم الحاق الضرر بحقوق ومركز سائر طوائف الاهالي، ان تسهل الهجرة اليهودية في احوال وشروط مناسبة...» .
- ٢٦- Albert Hyomson, The British Consulate in Palestine, vol. 2, p. 461.
- ٢٧- راجع الكتب التالية:
- Kalvariski, Jewish Arab Affairs (Jerusalem. 1931).
- Eliahu Golombu, History of Jewish Self Defence in Palestine
- Alexander Aaronsohn, with the Turks in Palestine (London,. 1917).
- (2) Henry Harris Jessup, 53 Years in Syria, vol. 2, p. 657.
- ٢٨- المنار سنة ١٨٩٨، ج٦، صفحة ١٠٨ .
- ٢٩- المنار سنة ١٨٩٨، ج٦، صفحة ١٠٨ .
- ٣٠- من هذه الصحف: الكرمل، فلسطين، الاصمعي في فلسطين، والمنار والاهرام في مصر، والمقتبس في دمشق، والمؤيد في بيروت .
- ٣١- Ellsworth Huntington, Palestine and its Transformation (London, 1911). p. 57.
- ٣٢- Neville Mandel, Turks, Arabs and Jewish Immigration in to Palestine, in A. Hourani, Ed., Middle Eastern Affairs, No. 17, p. 77-108.
- ٣٣- القسم الخاص بفلسطين من تقرير لجنة الامريكية (كنج- كرين) مثبت في كتاب «الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين» ص ١١٦-١٢١ . واثبتته (كتاب الثورة العربية الكبرى)، ج٢ الامير سعيد .

- Great Britain, Foreign Office, Syria and Palestine, Peace handbook, No. 60. -٣٤
- الكتاب الابيض لعام ١٩٢٢. -٣٥
- تقرير سمبسون ١٩٣٠، صفحة ٨٠. -٣٦
- قدرت السلطات البريطانية عدد الاصابات في نهاية هذه الاحداث بنحو ١٣٥ قتيلا و ٣٤٠ جريحا من اليهود و ١٦ قتيلا و ٢٤٠ جريحا من العرب. -٣٧
- الكتاب الابيض عام ١٩٢٢، عام ١٩٣٠. -٣٨
- هذه الاحزاب هي: الحزب العربي، حزب الدفاع، حزب الاستقلال، الكتلة الوطنية، حزب الاصلاح. -٣٩
- راجع تقرير سمسون صفحة ١٨٠. -٤٠
- عن الكتاب الاحصائي السنوي لعام ١٩٧٥ لاسرائيل (فلسطين المحتلة)، ص ١٢٥، تحت عنوان «المهاجرون والسائحون المقيمون في فلسطين». -٤١
- راجع تقرير سمبسون عام ١٩٣٠، صفحة ١٧٢. -٤٢
- المصدر السابق، صفحة ١٨١. -٤٣
- الكتاب الابيض عام ١٩٢٢، تقرير لجنة شو، صفحة ٢٦٧. -٤٤
- الكتاب الابيض عام ١٩٣٠، فقرة «٢٧». -٤٥
- وهي ادخال العمال اليهود الى فلسطين مستترين بصفات الفقة الاولى او الثانية من المهاجرين الذين سبق الحديث عنهم. تدفع المؤسسات الصهيونية الى العمال المال المطلوب من مهاجري احدي هاتين الفئتين، ومتى دخل المهاجر فلسطين، فانه يعيد المبلغ الى المؤسسة الصهيونية، التي تستعمله مرة اخرى في ادخال عمال اخرين. وهكذا يدخل فلسطين عمال عديدون بصفة راسماليين وهم في الحقيقة لا يملكون شيئا. -٤٦
- تقرير لجنة شو، صفحة ١٨٤، ١٤٧. -٤٧
- تقرير لجنة شو صفحة ٢١٧. -٤٨
- تقرير لجنة شو صفحة ١٣٤ و ١٤٧. -٤٩
- د. يوسف هيكل، القضية الفلسطينية، يافا ١٩٣٧، صفحة ١٧٩. -٥٠

الرواد العرب والقضية الفلسطينية

١٩١٨ - ١٩٠٠

د. سهيلة الريماوي
الجامعة الأردنية

مدلول عبارة « فلسطين » :

قد يبدو لأول وهلة، ان موضوع هذا البحث، واضح المضامين محدد الأبعاد، وضوحا وتحديدا يميزان لنا، بل يفرضان علينا مباشرة البحث فيه بغير مقدمات.. ولكن الأمر في حقيقته غير ما يبدو لأول وهلة :

ذلك أن عبارة « فلسطين » بحاجة الى تحديد: عبر الزمان، وعبر المكان، لوضعها في مكانها الصحيح، كمشكلة من مشاكل بلاد الشام، في نطاق القضية العربية.

فلسطين عبر الزمان « ١٩٠٠ - ١٩١٨ » وما بعدها، عانت من الحكم العثماني ومرحلة الحرب العالمية الأولى، ما عانته أجزاء الوطن العربي « خصوصا في المشرق » كما عاشت ظروف قيام أول حكومة عربية في نطاق بلاد الشام. وأخيرا شهدت، مع غيرها من أجزاء الوطن العربي، مأساة تمزيق هذا الوطن. فقد كان تحديد مفهوم بلاد الشام وليد الظروف الموضوعية التي أقامها التحالف الانكليزي - الفرنسي، ضاربا عرض الحائط بتعهدات بريطانيا للعرب والأخذ بسياسة تمزيق هذا الوطن حسب مخططات معاهدة سايكس بيكو، ووعده بلفور ومؤتمر سان ريمو، والذي أقرها مؤتمر لوزان سنة ١٩٢٣ .

وفلسطين عبر المكان: لم تكن تمثل في ظل الحكم العثماني وخلال فترة الحرب وحدة سياسية أو حتى وحدة ادارية، بل تقع في بلاد الشام «الواقعة بين آسيا الصغرى ومصر»^(١) والتي تضم «ولاية حلب، وولاية بيروت وولاية دمشق، كما تضم متصرفيات جبل لبنان و متصرفية القدس و متصرفية دير الزور»^(٢).

ومن هنا فان «فلسطين» التي تقع في نطاق بلاد الشام، أخذت مكانتها في أفكار الرواد والمفكرين العرب - خلال هذه الفترة الزمنية - في نطاق تحديد الهدف العربي، الذي ظهر قبل الحرب العالمية الأولى، ولكنه تأكد وتحدد خلالها، ألا وهو: اقامة دولة عربية مشرقية، تضم اجزاء الوطن التابعة للإمبراطورية العثمانية، فتكون دولة عربية كبرى واحدة، ومستقلة، وتكون خطوة على طريق وحدة عربية شاملة^(٣).

وقد حدد الرواد العرب دولتهم هذه: «بخط يمتد من الاسكندرونه جنوبا الى الحدود المصرية ماراً برفح، ثم التيه، فالبحر الأحمر غرباً، حتى باب المندب، ثم يشرق مع حدود ولاية البصرة، فحدود ايران، ثم يشمل الى التقاء البلاد العربية ببلاد الكرد، ثم يغرب، فيدخل الجزيرة والموصل ويترك ولاية حلب الى الجنوب فينتهي عند الاسكندرونه»^(٤).

ولذلك نرى أن النضال العربي بشكل عام، والحوار السياسي والاتجاهات الفكرية كذلك، كانت كلها نضالات وافكارا تستهدف قيام دولة عربية كبرى موحدة، تصل مشرق الوطن بمغربه عبر قلبه في مصر، ثم صارت تستهدف بصورة اصرح وواضح دولة عربية مشرقية كبرى تضم الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام (سوريا الطبيعية) حسب محادثات «حسين - مكماهون».

أعضاء المؤتمر السوري والقضية الفلسطينية:

ان «فيصل» عندما أعلن قيام «دولة سوريا» دولة مستقلة، استقلالا ناجزا تاما تشمل جميع أرجاء سوريا الطبيعية - انما أعلن قيامها باسم «الحسين بن

علي»^(٥) وكجزء من مملكته العربية المشرقية الكبرى، التي كانت قد تحددت رقعته، وفق ما جاء في المصور الذي أعدته الهيئة المركزية لحزب العربية الفتاة أثناء الحرب وارسلته الى «الحسين» مع ابنه فيصل عضو الحزب والذي يحمل رقم «١٢٨» ورمز «أ.ك»^(٦).

وإذا كان العهد العربي الفيصلي قد عاش مأساة الصراعات الدولية - العربية المبررة، التي دارت حول مدلول «سوريا» فان التمسك العربي بأن سوريا تشمل سوريا الطبيعية (سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن) بقي قائما في أفكار رواد العهد العربي.. وهذا ما تؤكده لنا مقررات المؤتمر السوري (١٩٢٠/٣/٨) التي أعلنت تمسكها بالاستقلال : السياسي، التام، الناجز، لسوريا الطبيعية، وهو المطلب الذي سجله القرار الأول من قرارات المؤتمر.

ولم يكن وصف الاستقلال بالصفات الثلاث المذكورة لا لزوم له، أو مجرد كلمات انشائية، لأن كل صفة منها كانت تعبر عن رفض مفهوم للاستقلال كان مطروحا حينذاك من قبل الدول الاستعمارية وبعض انصارها، كالحديث عن «استقلال غير سياسي» يتجسم في الانتداب، أو «استقلال ناقص» يفترق لبعض شؤون السيادة، أو «استقلال غير ناجز» أي «مؤجل» يتحقق بعد فترة من الاعداد للاستقلال. وقد تبنى الشيخ رشيد رضا شرح ونقد وتحليل هذه الأنواع المختلفة من أنواع الأستقلال^(٧) في أكثر من مجال على صفحات مجلة المنار التي كان يصدرها.

كما أعلن أعضاء المؤتمر السوري تمسكهم بوحدة سوريا الطبيعية ورفض كل تجزئة لها، وهو تأكيد يبدو بوضوح في القرار الثامن ونصه «اننا نطلب عدم فصل القسم الجنوبي من سوريا المعروف بفلسطين والمنطقة الغربية الساحلية التي من جملتها لبنان، ونطلب أن تكون وحدة البلاد مصونة لا تقبل التجزئة بأية حال من الأحوال.»

رفض المطامع الصهيونية:

أصر هؤلاء الرواد على رفض المطامع الصهيونية في فلسطين رفضاً صريحاً ومفصلاً: وهو رفض لم يكتف أعضاء المؤتمر بالتعبير الضمني عنه الوارد في تأكيد مطلبتي وحدة سوريا واستقلالها، بل وجدوا من الضروري التعبير عنه تعبيراً صريحاً ومباشراً، مفصلاً أيضاً، كما جاء في القرار السابع: «اننا نرفض مطالب الصهيونية بأن نجعل القسم الجنوبي من البلاد السورية - أي فلسطين - وطناً قومياً للإسرائيليين، ونرفض هجرتهم إلى أي قسم من بلادنا لأنهم ليس لهم فيها أدنى حق، ولأنهم خطر شديد جداً على شعبنا من حيث الاقتصاديات والقومية والكيان السياسي، وقد استثنى سكان البلاد الأصليين من الموسويين «فلهم ما لنا وعليهم ما علينا»^(٨).

الرواد العرب في مجلس «المبعوثان» والقضية الفلسطينية:

لم تكن مطامع الصهيونية جديدة على «فيصل» وأعضاء المؤتمر السوري، فإن المطامع الصهيونية كانت قد أثرت ونوقشت وشجبت في مجلس المبعوثان منذ سنة ١٩١١، كما كان الشعب العربي قد عبر عن رفضه لهذه المطامع وسخطه عليها منذ ذلك التاريخ.

لقد تمكن النواب العرب من إثارة القضايا العربية في مجلس المبعوثان، بعد أن احتج المؤيد، مبعوث دمشق، بشدة على منع النواب العرب من الكلام، بينما «حرية الكلام» من صفات المجالس النيابية، وبعد أن أعلن باسم النواب العرب: «أنه إذا كانت الحرية مضطهدة في المجلس فوجودنا فيه كالعدم ونحن نفضل العودة إلى بلادنا»^(٨).

وكان أهم هذه القضايا ذات المنبع القومي هي: قضية سوريا الجنوبية، مشكلة الصهيونية في فلسطين، ثورة اليمن، وضياح طرابلس الغرب^(٩).

وهكذا بحثت قضية فلسطين كمشكلة من مشاكل بلاد الشام في نطاق القضية العربية. وقد تزعم اثاره هذه القضية العربية الفلسطينية مبعوث القدس «روحي الخالدي» واستند في حججه الى معلومات استقاها من ورقة أخرجها من جيبه، وفيها نص رسالة بقلم «اوزيتشكي» «الملقب بالأمير اليهودي، وهو أحد أركان الجمعية الصهيونية، تشتمل على الخطط الواجب على اليهود اتباعها لتحقيق أهدافهم وهي: «نيل الميزة والأفضلية في فلسطين بواسطة الأموال وتوحيد آمال الاسرائيليين وجمع شتاتهم وانماء روح الوطنية في قلوبهم واستخدام السياسة لبلوغ الأمنية السامية».

واشار المبعوث العربي، الى زيادة عدد اليهود المحسوسة في فلسطين، وخصوصا في القدس، وبيّن أضرار هذه الزيادة. كما ركز على خطر شراء الأراضي من قبل أغنياء اليهود واخذ يقدم البراهين على خطر هاتين الظاهرتين، واستنتج من ذلك كله، أن اليهود يريدون تحقيق مخططاتهم الصهيونية في البلاد. ثم حدد هذه المخططات بأنها ترمي الى تأليف «أمة لهم» في فلسطين بعد استيطان هذه المنطقة.

وبشكل تلقائي التف النواب العرب حول نائب القدس، وأيدوا ما توصل اليه من نتائج، وكادت تقع مشادة بين النواب العرب ونواب اليهود العثمانيين، الا أن وزير الداخلية حسم الموقف، بخطاب طويل تطرق فيه الى القضية الصهيونية ليصل الى قوله: «نحن مؤمنون بأن اليهود العثمانيين ليسوا على رأي دعاة الصهيونية، بل هم ضدهم في ذلك مراعاة لمصالحهم» واخذ يبين أن مصالح الدولة كلها تتنافى مع مصالح الصهيونية، كما أشار الى موقف الحكومة من اليهود الأجانب، وأنها تتخذ الوسائل كي تمنع تجمعهم في مكان واحد. ثم اكد الوزير مطمئنا النواب العرب «أن الحكومة ستسير على هذه الطريقة دائما أبدا»^(١٠) غير أن هذا القول لم يقنع النواب، وتساءلوا عن الغاية من وجود السماسرة اليهود في فلسطين واستغلال الأراضي العربية، وتساءلوا لحساب من يعمل هؤلاء؟

ولما اشتدت الحملة - التي تبناها العرب - بعد تأييد نواب المعارضة لهم، قدم النواب الاتحاديون المتطرفون استقالتهم، ومنهم «جاويد بك» وزير المالية اليهودي الأصل^(١١) لأنه كان يجمع حوله طائفة من السماسرة اليهود والمستغلين للأراضي والأموال بقيادة رئيس ديوانه. ومن هذه الزاوية كانت الهجمات والحملات تتوالى على الحكومة، لأنها بتأثيره تسمح لليهود بالهجرة الى فلسطين وتسهل استيطان اليهود، بل وتشجع تملكهم للأراضي^(١٢).

الرواد العرب - خارج المجلس - والقضية الفلسطينية:

لقد تجاوب مع هذه الحملة البرلمانية التي تبناها المبعوثون العرب داخل المجلس الرأسي العام الشعبي، والصحافة العربية في مقاومة خط الهجرة الصهيونية الى الأراضي المقدسة في فلسطين، ونشط الرواد من رجال الأحزاب العربية - السرية منها والعلنية - وصحافتهم في حملة التوعية بالخطر الصهيوني والدعوى لمقاومته كما يبدو ذلك جليا في جريدة الحضارة، والمفيد، والمقتبس، والتي يرأس تحريرها مفكرون عرب في مقدمتهم، عبد الحميد الزهراوي، وعبد الغني العريس. وقد ساهم في هذه الحملة عدد من الرواد، أمثال صلاح الدين القاسمي، وعارف الشهابي، وعزت الجندي وعزيز المصري من أعضاء الأحزاب والمنتدى الأدبي، وعدد آخر من مواطنين غير حزبيين.

عبد الحميد الزهراوي - وقضية الوطن العربي:

لا بد لنا من الاشارة الى أن المنابع الفكرية عند الرواد العرب كانت تدور في نطاق المجالات الرئيسية التي كانت مطروحة بصورة موضوعية على الشعب والدولة والحكومة والمنظمات، في كل عهد، كسمة من سمات الفترة الزمنية التي نحن بصدددها.

ومن المعروف أن أفكار الرواد العرب في العهد العثماني - كانت تدور حول

مقاومة الاستبداد وقضية المركزية واللامركزية، والقومية واللاقومية، في مواجهة القومية الطورانية ..

ونتيجة للكوارث الانفصالية التي منيت بها الدولة العثمانية^(١٣) والاطماع الدولية التي ازدادت شراسة بعد ابتلاع فرنسا لمراكش، وتصريحات بوانكاريه الاستعمارية، ومطامع ايطاليا في طرابلس الغرب- أخذت أفكار الرواد العرب، وحواراتهم السياسية تدور حول خط الاحتلال الاجنبي الذي بدأ يحيط بالأقطار العربية التي تقع في نطاق هذه الامبراطورية، بل أكثر من ذلك، أخذوا يؤكدون عجز هذه الامبراطورية عن حماية المنطقة العربية .

لقد تنبه الزهراوي، واستنكر بشدة، صوت المانيا الذي انطلق - يساوم- ويطالب بحصته مخاطبا فرنسا: « اعطونا مقابل تنازلنا عن حقنا السياسي في المغرب كما اعطيتم انكلترا مصر^(١٤). كما استنكر بشدة تصريحات بوانكاريه الاستعمارية - بعد ابتلاع مراكش - ان فرنسا حامية المسيحيين في سوريا ولبنان بل والشرق عموما، وانها ستحمل الحكومة العثمانية مسؤولية أي مكروه يلحق بهم»^(١٥).

فكتب الزهراوي عدة مقالات تعبر عن آرائه - تجاه قضية الوطن العربي - في جريدتي الحضارة والمفيد، موجهة « لكم أيها الاخوة من العرب » يستنكر ما أشارت اليه ايطاليا، من أن فرنسا فتحت بابا جديدا في البحر المتوسط فالواجب على ايطاليا أن تشاركها في الدخول من أحد مصراعي الباب^(١٦).

كما كتب الزهراوي مقالا بعنوان « الى اليقظة يا قومي » وجهه الى الاخوة العرب في « هذه المملكة » وأشار الى أن العرب هم « الجزء العظيم » فيها، وبأسلوب واع مميز، طلب أن يقوم اخوانه من العرب مقارنة رضعهم بين الأمم واليوم قائلا: « فانظروا ما شأنكم فيها أمس، وما خطبكم فيها اليوم » ثم يشير الى الخطر الأجنبي المحدق بالبلاد بقوله: « وما أمركم فيها غدا » .

ومن منبع فكري عربي أصيل يشير الى اوضاع الوطن العربي بقوله: « أمس لم يكن في مصر وتونس يد أجنبية وهما من أمهات بلادكم، واليوم فيها تلك اليد. أمس

كانت طرابلس الغرب آمنة مطمئنة، واليوم يفعل فيها الاجنبي ما قد سمعتم... ثم ينتقل من الشمال الافريقي العربي الى سواحل نجد والعراق، عن ايمان بوحدة هذا الوطن العربي قائلا: « أمس قد كانت سواحل نجد والعراق خالية واليوم هي محمية» ثم يثير تساؤلا حول الوضع في سوريا، وما يهددها من مخاطر قائلا: « وقلوا لي هل سوريا اليوم هنية البال فارغة الفكر من المخاوف»^(١٧).

ان مفهوم سوريا عند الزهراوي، وعند رواد هذا العصر، كانت تعني بلا جدل سوريا الطبيعية، اذ أن المدلول الاقليمي لفلسطين لم يكن قائما - كما هو عليه اليوم.

د. صلاح الدين القاسمي، وفلسطين:

وقد تنبه مفكر عربي آخر، للأخطار المحدقة بالبلاد العربية، خصوصا بعد نتائج حرب البلقان مشيرا: « الى أن وراء ذهاب الروملي من أيدينا ما يتوقع من الخطر على البلاد العربية واهلها». ويشير القاسمي مؤكدا الى أنه يعني بالخطر « الاحتلال الاجنبي». ويطرح الدكتور القاسمي الدواء الناجح الذي ينقذ البلاد العربية من هذا الخطر، وهو في رأيه تطبيق نظام اللامركزية « لأن البلاد تشعر بمسئولياتها في حفظ أوطانها، وتحمل أعباء الاصلاح والتقدم وذلك هو سبيل القوة والحياة^(١٨)».

وأدى غزو طرابلس وضياعها نهائيا الى انقطاع خط العثمانية الرفيع الذي كان يربط العربي بالامبراطورية العثمانية، وخصوصا عندما سحبت الجيوش العثمانية من المنطقة العربية الواقعة تحت خطر الغزو الايطالي - الاجنبي - لتحارب الثوار العرب في اليمن.

فقدم كثير من مفكري الأحزاب العربية شرح الموقف، متخطين قضية المركزية واللامركزية الى قضايا أشد خطرا تحيط بالوطن العربي وضياعه.

فترى الدكتور صلاح الدين القاسمي - وهو من مؤسسي جمعية النهضة العربية

وامين سرها - يكتب تحت عنوان : الخطران الاصفران الصهيونية والوباء، مقالا إن دل على شيء، فانه يدل على وعي هؤلاء الرواد وتقييمهم لمجريات الحوادث، تقييما صحيحا، لم تلبث الأيام أن اثبتت صحة وجهة نظرهم .

أشار القاسمي الى أنه: « اذا صدقت نبوءة السياسيين، وصحت تجارب الأطباء، كانت سوريا محفوفة بخطرين اصفرين يهددان حياتها الاقتصادية والسياسية وهما: « مشروع الأصفر » و « الهواء الاصفر » .

ويعني القاسمي بالاصفر الأول: أسرة الأصفر « المتفرنسة » التي عرضت أرضها في شمالي فلسطين للبيع بالأموال الصهيونية .

أما الأصفر الثاني : فهو وباء الكوليرا الذي كان يهدد البلاد في تلك السنة. وهكذا قرن الدكتور القاسمي، بين الصهيونية والوباء، كطبيب ماهر يعرف خطر الوباء، ورائد عربي يعلم تماما خطر الصهيونية وتهديدها للوطن العربي .

ثم أشار القاسمي للشركة التي سمع أنها تأسست سنة ١٩١١ « شركة مساهمة عثمانية » لشراء الأراضي للصهيونيين، في اراضي فلسطين فكتب محذرا:

« لا يبعد أن تحوّل تلك الشركة التي يدعون أنها وطنية عثمانية الى كتلة أجنبية صهيونية ما دامت الأسواق المالية مفتحة أبوابها وتعرض أسهمها لكل طالب». ثم بين خطر هذه الظاهرة، لأن للصهيونيين في معظم المصارف - حتى مصرف كريدي ليونيه- نفسه أيدياً عاملة تسعى وراء خدمة مصالحهم .

ويحذر الدكتور القاسمي، من خطر تحقيق أهداف الصهاينة في هذه المنطقة بقوله: «اذا تم لهم ما يريدون وتحققت أمانهم الذهبية في « غور بيسان » وغيرها من أراضي فلسطين، واستمتعوا بخير تلك البلاد وميرها، صاروا فيها أصحاب الحول والطول، واستتبع ذلك مطاردة الوطنيين أصحاب الملك الحقيقي، ووقوعهم في رقعة استعبادهم حتى لا يعتم هؤلاء الا وهم في أوطانهم غرباء» .

ومن المؤشرات الخطيرة التي أشار اليها القاسمي، تنبيهه الى قيمة المشاريع

الاقتصادية في حياة الأمم، فيشير الى أن «الأمم التي رزئت باستقلالها وحريتها، وارهقها الاقوياء وذوو البأس من أمرها حصرا وعسرا، انما أصيبت في الغالب من طريق المشاريع الاقتصادية والشؤون المالية» ومن هنا ينبع تخوف القاسمي، من هذا المشروع الصهيوني .

وبعد أن يتكلم عن خطر الوباء الأصفر - كطبيب ماهر - يعود مرة ثانية لبيان اضرار الخطر الأصفر الأول، وبيع الأراضي للصهيونيين قائلا:

«من لنا بطبيب اجتماعي حاذق يكشف ميكروب الاصفر الأول الذي يهدد فلسطين بالصهيونية ليكون للموالين له من برهان مادي يروونه بأعينهم ليقنوا بما يجبر وراءه من الولايات على البلاد والعباد» .

وينتهي القاسمي، الى تحذير واضح من هذين الخطرين فيقول:

«لهذا يجدر بالسوريين جميعا أن لا يبيتوا الا خائفين من شر هذين الخطرين، كما كان ولا يزال العالم الاوربي يخشى بأس اصفر ثالث في اليابان والصين، متذرعين بأنجع الوسائل ليدرأوا عن هذا الشرق المسكين كل خطر أصفر لتلا يقع وبنوه في هوة الموت الأحمر»^(١٩) .

وها نحن الآن نعاني ما نعانيه من شرور واططار الهجرة الصهيونية وشراء الأراضي العربية في فلسطين للصهاينة، التي نبه الرواد الى خطرها منذ سنة ١٩١١ .

رواد حزب العربية الفتاة والقضية العربية :

لقد تبني مفكرو حزب العربية الفتاة ودعاتها شرح الموقف الدولي، والمطامع الدولية التي تحيط بالوطن العربي، وتقدموا للعمل وما يتناسب مع مبادئ حزبهم السري والأسس القومية التي يعتنقها، وقرروا القيام بحملة جماهيرية شعبية عن طريق المحاضرات الأدبية وعن طريق جريدتهم «المفيد» التي كانت تصدر في بيروت .

توفيق الناطور يشرح الموقف :

ولعل محاضرة توفيق الناطور تعطينا صورة واضحة للموقف، من خلال شرحه للأوضاع في الدولة العثمانية، مشيرا الى مساوىء حكم حزب الاتحاد والترقي، ثم حزب الائتلاف من بعده، ومؤكدا أن العرب لا يجنون من وراء ضعف الدولة العثمانية سوى الضياع والخراب .

وقال: «كنا نحن العرب لأرباب هذه الدولة كما كانوا يريدون منا أن نكون، فكثيرا ما أمرنا واثمنا بأمرهم، وتحركنا لحركاتهم، وسكنا لسكناتهم، بل كثيرا ما تحملنا تبعة أعمالهم، ونحن اللافاعلون» .

ثم تعرض للوضع في افريقيا العربية، وضياع هذا الجزء من الوطن العربي، كما تعرض للمطامع الفرنسية في سوريا ولبنان. واخيرا ضرب مثلا على الصورة كلها في الدولة العثمانية فقال: «تشاجر ربح الترتقي - يعني حزب الاتحاد والترقي - ببحر الائتلاف - حزب الائتلاف - فاسفرت النتيجة عن اغراق مركب هذه البلاد العربية..»^(٢٠)

عارف الشهابي والهجرات الصهيونية والشعبوية :

أما عضو حزب الفتاة «الشهيد» عارف الشهابي فقد بحث الموضوع بشكل أكثر شمولا، فبين خطر الهجرات الشعبوية بأجمعها الى أقطار الوطن العربي وخصوصا سوريا. وقد كان الشهابي يوقع مقالاته بتوقيع «عبد الله بن قيس» .

هاجم الشهابي الحكومة الحميدية وخليفتها الحكومة الاتحادية من زاوية واحدة، وهي تشجيع الهجرات الصهيونية والهجرات الشعبوية عموما، وقال: «إذا لم يكن ثمة داع يدعوننا الى التأفف من فكرة المهاجرة سوى الغاية التي يخيل لنا أن الحكومة ترمي اليها، وهي اضعاف النزعة القومية في نفوس أبناء جلدتنا، لكفى بها مدعاة لنا على النفرة والكراهية» .

ثم يتطرق الى القومية الطورانية في مواجهة القومية العربية، داعيا الى تأكيد أنه من العار على كل عربي بعد الآن أن يغمض العين عن أي عمل يراد به المسّ من كرامة عاطفته القومية»^(٢١).

عبد الغني العريسي والقضية العربية - الفلسطينية :

لقد تبنى عبد الغني العريسي، شرح القضية العربية، والقومية العربية، في مواجهة القومية الطورانية، وسياسة التتريك التي تبناها حزب الاتحاد والترقي .

وإذا كنا سنركز على موقف العريسي وآرائه من «قضية فلسطين» فإنه لا بد من الإشارة الى أن العريسي كأكثريّة رواد ومفكرّي هذه الفترة، كان ينظر الى القضية وحلها كجزء من قضية سوريا الطبيعية في نطاق القضية العربية الكبرى .

دعا العريسي أبناء الأمة العربية أن يفهموا «حقيقة التاريخ الحاضر، فيعلموا أن الدولة العلية، أصبحت لا تستطيع أن ترد عنهم غارة المغيرين». ويستند العريسي في نظريته هذه على ضياع طرابلس الغرب وفشل الدولة في البلقان^(٢٢) .

وقد وضع عبد الغني العريسي، جريدته، المفيد، في خدمة القضية العربية وتوعية الرأي العام العربي .

وتبنت المفيد شرح القضية الفلسطينية، بشكل علمي، مبسط، يبين الأضرار التي ستلحق بالوطن العربي من جراء الهجرة الصهيونية من عدة نواحي :

أولا : شرحت جريدة المفيد مخاطر الهجرة الصهيونية، وما سيحل بالقضية العربية عموما من خطر، وخصوصا أن أهالي البلاد الأصليين - العرب - يهاجرون الى أمريكا وفي الوقت نفسه يهاجر الصهيونيون الى بلادنا. وحذّر العريسي قائلا: «ولا ريب أنه سيأتي علينا يوم اذا استمر الحال على هذا المنوال، ويصبح العربي في بلده أضيع من الايتام في مأدبة اللعام»^(٢٣) .

واظن أن الأيام أثبتت بعد نظر عبد الغني العريسي وصحة تقديره وتقييمه للقضية. وقد بينا أن الدكتور القاسمي أشار الى نفس المعنى .

ثانيا : أما من الناحية الاجتماعية، فان خطر الهجرة الصهيونية أشد ضررا، لأن اختلاط المهاجرين الصهيونيين بالأهالي، سيؤثر تأثيرا فعالا في الناحية الأخلاقية. ويشير العريسي الى القيم العربية والعادات والتقاليد، وما سينجم عن هذا الاختلاط من مخاطر...

ثالثا : كما أشارت المفيد الى تأثير الهجرة البليغ في الحالة الاقتصادية للبلاد، وبينت حب الصهاينة للمال، والنتائج السيئة التي تنجم من سيطرتهم على اقتصاديات البلاد، وما ينجم عن ذلك من الضعف في ثروة الوطن والاختلال في حركة الأعمال بشكل عام .

رابعا : أما بالنسبة للعاملين والفلاحين فقد بينت المفيد الوضع السيء الذي وصل اليه هؤلاء القوم، الى حد أن «أصبح جزء كبير من البلاد وهو العنصر العامل فيها - ونعني به الفلاح - خادما عند أولئك القوم» .

وقد قدم عبد الغني العريسي عدة استشهادات ومعلومات تؤيد وجهة نظره في تدهور الوضع في فلسطيني، استقاها من رسائل وردته من بعض - سكان البلاد- اصدقائه :

كتب أحدهم يقول : «وأصبحنا ننتظر برابط الجأش تلك النتيجة المخوفة، ننتظر فقرا مدقعا، وأزمة شديدة، وجلاء اقتصاديا عن البلاد، ان لم يكن سياسيا». ثم يشير الكاتب الى وجود طامة كبرى اذا فكر فيها العثماني المخلص، ذابت نفسه أسى وهي : أن الصهيونيين بما عرفوا به من عظيم الحيلة، وبعد النظر في العواقب، والتذرع الى مقاصدهم بكل ما يمكن، قد عرفوا من أي باب يأتون وبأي وسيلة يدخلون الى قلبها. ثم يشير الى أنهم بدأوا يتسللون الى وظائف الحكومة «مبتدئين من ذلك بقبولهم في خدمة الجيش» ويعلل ذلك بمحاولتهم السيطرة على البلاد عن هذا الطريق^(٢٤) .

وقد أصبحت المفيد هي المنبر الذي يحمل على عاتقه شرح القضية الفلسطينية، واصبحت تنشر المقالات تباعا حول هذا الموضوع، حتى ان أحد المواطنين من مدينة حيفا حمل جريدة المفيد وصاحبها مسؤولية عدم الاهتمام بالقضية، فقال مندهشا وعاتا:

«أما بعد، فأنني استغرب عدم اهتمامكم بأمر الصهيونية، والصهيونيون عاملين بكل ما لديهم من الوسائل للاستيلاء على فلسطين، القرية بعد القرية، وأعضاء الادارات، راضون عن ذلك لأسباب لا تخفى...»

ثم يتطرق الكاتب الى وضع الموظفين «الذين يتجاهلون الأوامر والحقائق، ويبيعون الأراضي الى الصهيونيين غير هيايين».

ثم يتساءل الكاتب: فهل فلسطين ليست جزءا من الوطن العثماني، أم لا يعود استيلاء الصهيونيين عليها بالولاء على الدولة عموما وعلى العرب خصوصا^(٢٥)...

وهكذا بعد اثاره قضية فلسطين داخل مجلس المبعوثان، وحملة التوعية الشعبية خارجه دعت المفيد الى مطالبة الحكومة بعدة مطالب، تتلخص في:

أولا : سد باب الهجرة الصهيونية وذلك بتطبيق قانون الجواز الأحمر.

ثانيا : منع بيع الأراضي تحت أي ظرف من الظروف.

ثالث : تحرير نفوس الاسرائيليين تحريرا مدققا، واعطاء العثمانيين منهم تذاكر واضحة يتحرى فيها حقيقة أسمائهم وأسماء آبائهم وعائلاتهم واقامة مختارين^(٢٦) صادقين على المستعمرات يقدمون دفاتر منظمة بأسماء المواليذ والوفيات والمتبقين حتى لا يبقى مجال لدعوى اختفاء أحد من وجه القانون.

رابعا : اشراف الحكومة على مدارسهم، وجعلها تحت رقابتها، وتطبيق نظامها عليها، والمامها بما يدرس فيها.

خامسا : عدم جواز عقدهم مجتمعات خصوصية الا بعد اعلام الحكومة،

وتوفيق حركتها على محور قانون الاجتماعات .
سادسا : تحرير ترقيم الاملاك وارااضي المستعمرات تحريرا صحيحا، واستيفاء
الأموال الأميرية الضائعة من «ويركو» واعشار وصيانة حقوق الخزينة
من الضياع .

وهكذا نجحت حملة التوعية التي تبناها الرواد الأوائل، ونشرتها صحفهم كما
نقلتها الصحافة العربية الى الرأي العام، مما أدى الى مساهمة عدد كبير من
الشخصيات في هذه الحملة، كما ساهم معهم عدد من سكان فلسطين .

عزت الجندي، وعزيز علي المصري والقضية الفلسطينية:

ان أفكار الدكتور عزت الجندي لا تخرج عن الأفكار القومية التي تبنتها
المنظمات القومية، والتي كان عزت الجندي أحد أعضائها، مثل الجمعية
القحطانية والمنتدى الأدبي والجمعية العربية الثورية وغيرها .

فقد كان الجندي من الدعاة القوميين الذين تخطوا الاقليمية والطائفية في
كتاباتهم وأخذوا يدعون مجاهرة الى قوميتهم العربية «فالمسلم عربي، والمسيحي
عربي». بل يؤكد الدكتور عزت، اننا عرب قبل كل شيء وبهذه الصراحة والآراء
التي تسبق عصرها، يشير عزت الجندي قائلا: «لقد تركنا مسألة الديانات
والعبادات الى الجوامع والكنائس، فاذا كنا عرباً قبل أن نكون مسلمين أو
مسيحيين فبالاولى أن نكون عربا قبل أن نكون عثمانيين»^(٢٧) .

وعندما ما أسس عزيز علي المصري، وعزت الجندي وغيرهما، الجمعية العربية
الثورية وزعت الجمعية منشوراً يحمل العنوان التالي :

عبرة بالغة : ينبغي على المبتلين بالتابعة التركية أن يعتبروا بها ..

كان المنشور يث الثورة، ويحرض العرب على العصيان. ويبرر المنشور دعوته
هذه بأن الدولة العثمانية لم تقا تل أية دولة منذ مائة عام سوى الدولة العربية
والاسلامية، ثم يشير المنشور بسخرية لاذعة الى أن فرنسا اشترطت على الدولة

العثمانية كي تسلمها القرض، أن لا يصرف منه أي قرش على محاربة دولة أجنبية .

ويشير أعضاء الجمعية العربية الثورية في منشورهم الى نقطة هامة وهي : بيع الأراضي العربية للصهيونيين، ويؤكدون بكل صراحة : ان جاويد بك « الصهيوني الملعون » يقوم ببيع الأراضي التي كان السلطان السابق قد ضبطها من الأهالي (وهي التي يسمونها الأرض المدورة) الى شركة صهيونية يهودية أجنبية المانية مع أن جميع هذه الأراضي، هي جزء من البلاد العربية..

ويبين المنشور خطر هذه العملية على جميع أنحاء الوطن العربي وسكانه..

ثم يخاطب البيان سكان سوريا بشكل خاص، ويطلب منهم أن يقوموا قومة رجل واحد، وان ينفضوا المذلة والمسكنة عن ظهورهم مخاطباً اياهم :

«قوموا قومة رجل واحد، وانفضوا المذلة والمسكنة عن ظهوركم، وألقوا منكم عصابات قوية، واقتلوا كل من تجدونه في بلادكم من رجال الدولة التركية الظالمة، وألحقوا بهم كل من يساعدها من العرب أنفسهم» .

ثم يبرر المنشور دعوته هذه بالأسباب التالية :

اقتلوهم لأنهم : « خربوا بلادكم، افقروا أوطانكم، قتلوا رجالكم، نهبوا اموالكم، هضموا حقوقكم... » ثم يشير المنشور الى نقطة خطيرة جدا حين يؤكد « وهم الآن يسعون لاجراجكم من أوطانكم » مشيراً الى الهجرات الصهيونية لتحل محل سكان البلاد الاصليين من العرب...

لقد وجدتُ هذا المنشور بين أوراق محب الدين الخطيب، وقد ختم بختم الجمعية الثورية العربية، ولكنه لا يحمل أي تاريخ لصدوره.

غير أن الدكتور أحمد قدرى، يشير - في مذكراته - الى أن هذا المنشور وزع في البلاد العربية، كما وزع غيره من المنشورات في أنحاء الامبراطورية العثمانية. وقد شاءت المقادير ان يقع قسم من هذه المناشير في يد السلطة العثمانية، فاعتبرتها صادرة عن حزب اللامركزية، واتخذت منها أعظم وثيقة للحكم بالاعدام على احرار العرب، بحجة انتسابهم لحزب اللامركزية^(٢٨).

المصادر

- ١- المنار، م^٢، العدد الأول، ص ٢٠٨.
- ٢- ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ص ١٤٦.
- ٣- راجع مخططات حزبي العربية الفتاة، والمعهد التي صدرت خلال الحرب (من وثائق محب الدين الخطيب).
- ٤- عبد الله بن الحسين، مذكراتي، ص ١٠٢ - ١٠٣، الطبعة الأولى، المصور الذي سلمه رجال الأحزاب للأمير فيصل.
- ٥- انظر البلاغ الدستوري الذي أصدره الأمير فيصل في ٥ تشرين أول أكتوبر سنة ١٩١٨. ويعلن: «أن نظام الحكم في هذه الدولة ملكي دستوري على رأسها الملك حسين بن علي والأمير فيصل نائب له.
- ٦- د. سهيله الريماوي، رسالة الماجستير ص ٣٩٥، (من أوراق الدين الخطيب).
- ٧- المنار، م^٢، عدد ٢٢، ص ٤٤٦، مقالة بقلم رشيد رضا.
- ٨- الأهرام، ١٩١٠/٥/٦ و ١٩١٠/٥/١٨.
- ٩- تبنى النواب شكري العسلي، وخالد البرازي، وشفيق المؤيد وغيرهم بحث قضايا الموظفين العرب وقضية ثورة اليمن وقضية طرابلس الغرب.
- ١٠- جريدة المؤيد ١٩١١/٣/٨.
- ١١- يطلق على هؤلاء اليهود المسلمون اسم «الدوغمه» وكان مركزهم مدينة «سالونيك».
- ١٢- الأهرام، ١٩١١/٣/١٥ و ١٩١١/٥/١٠ و ١٩١١/٥/١٥.
- ١٣- مثلا ضم حكومة النمسا اقليمي البوسنة والهرسك، واعلان أمير بلغاريا الاستقلال التام، ومقدمات أزمة الحريين البلقانيين الأولى الثانية..
- ١٤- جريدة المفيد، ١٩١١[٩/١٩ و ١٩١١/٩/٢٨، أقوال الصحف ومقال معرب عن الطان الفرنسية.
- ١٥- الأهرام، ١٩١١/١١/٢٩.
- ١٦- المفيد، ١٩١١/٩/٢٨، أقوال الصحف.
- ١٧- المفيد، ١٩١٢/١/١٨، من مقالة للزهاوي بعنوان «الى اليقظة يا قومي».
- ١٨- د. صلاح الدين القاسمي، آثاره ص ٥٧، من محاضرة القاها سنة ١٩١٢.
- ١٩- المقتبس: العدد ٧٨٣، الأحد ٢٤ رمضان سنة ١٣٢٩.
- انظر د. صلاح القاسمي، آثاره، ص ٩٣-٩٥.
- ٢٠- جريدة المفيد، ١٩١٣/١/٢٨، من محاضرة لتوفيق الناطور.
- ٢١- المفيد، ٢٣ كانون أول سنة ١٩١٢، مقال بقلم عبد الله بن قيس (عارف الشهابي).
- ٢٢- وجدت بعض المنشورات في مكتبة محب الدين الخطيب، أصدرها حزب العربية الفتاة باسم

- «الصرخات» وهي دون تاريخ ولكن يفهم من سياق الأحداث أنها صدرت بعد ضياع طرابلس وقبل ٢٠ نيسان ابريل سنة ١٩١٤.
- ٢٣- المفيد، ١٨ كانون أول سنة ١٩١٢ .
- ٢٤- المفيد، ١٩/٨/١٩١١ .
- ٢٥- المفيد، ١٨/١/١٩١٢ .
- ٢٦- يعني مختير
- ٢٧- جريدة المفيد، ٢٨/٩/١٩١١ .
- ٢٨- د. أحمد قدرى، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، ص ٣١ ط ١ .

يهود الجزائر وموقفهم من الحركة الصهيونية

د. ناصر الدين سعيدوني
جامعة الجزائر

ظلت الجزائر لمدة تزيد عن ألفي سنة من المواطن الرئيسية لاستقرار وتجمع اليهود، اذ تعود بداية انشاء المستعمرات اليهودية بالأرض الجزائرية الى العهد البونيقي الذي عرف قدوم مجموعات يهودية مهاجرة، استقرت في مستعمرات سكنية خاصة بها، ومنذ ذلك التاريخ المتقدم مرّ الوجود اليهودي بالجزائر بعدة مراحل متميزة، ارتبطت المرحلة الأولى بالفترة القديمة التي خضعت فيها الجزائر للحكم الروماني- الوندالي- البيزنطي. وقد لقي اليهود اثناءها معاملة حسنة من السكان الأصليين بعد أن رأوا فيهم عنصراً سامياً لا يختلف كثيراً عن الفينيقيين، وبعد أن لمسوا أن معاملة المستعمرين الرومان والبيزنطيين للطوائف اليهودية لا تختلف في شيء عن معاملتهم لباقي سكان البلاد.

ثم ابتدأت مرحلة ثانية في تاريخ اليهود بالجزائر مع الفتح العربي وانتشار الاسلام. وقد وجد اليهود في المبادئ الاسلامية الداعية الى المعاملة الحسنة لأهل الكتاب خير حافز على تدعيم نشاطهم التجاري والمهني فاصبحوا يحظون برعاية الأمراء الأغلبية والرستميين، ويتمتعون بعطف الخلفاء الفاطميين والملوك الحماديين. وهذا ما دفع أحد الكتاب اليهود الى مقارنة حالة اليهود تحت الحكم الاسلامي باوضاعهم السيئة في اغلب بلاد أوروبا، بهذه العبارة: «انهم كانوا أكثر سعادة في أرض الاسلام منهم في أغلب بلاد أوروبا حيث كانوا يتعرضون لأبشع الأحقاد»^(١).

أما المرحلة الثالثة للوجود اليهودي بالجزائر فتعود الى نهاية القرن الخامس عشر الذي عرف انهيار الأندلس الاسلامية وهجرة سكانها العرب بما فيهم اليهود الى

أقطار المغرب العربي . وكان عدد المهاجرين من اليهود يناهز مائة وخمسين ألفا ، استقر قسم كبير منهم بالبلاد الجزائرية . وقد رأى فيهم الحكام الأتراك عنصرا حليفاً في صراعهم مع الأسيان وعاملا اقتصاديا مهما لتنشيط التبادل التجاري مع موانئ المتوسط وتوفير بعض الصناعات الحرفية مثل ضرب العملة واعمال الصياغة والنسيج . وهذا ما ساعد اليهود على أن يصبحوا منذ منتصف القرن الثامن عشر قوة اقتصادية كبيرة تحتكر جل المبادلات التجارية والأعمال المالية بالجزائر . وقد أدى تزايد نفوذ اليهود الاقتصادي الى حدوث انتفاضات ضدهم منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وهذا ما زاد في عزلتهم وجعلهم موضع تشكك واشمئزاز من بقية السكان الذين راوا في اليهود طائفة أجنبية لا تربطها بالبلاد سوى مصالحها الخاصة .

هذا وتعود أصول الجماعة اليهودية بالجزائر في العهد العثماني الى ثلاثة عناصر بشرية مختلفة : عنصر يمثله اليهود الذين استقروا منذ عهد طويل بالبلاد ، وعنصر آخر تكون بفعل هجرة يهود الأندلس ، وعنصر ثالث تشكل بفعل نزوح يهود ليفورن وبعض المدن الايطالية الى الجزائر في نهاية القرن السابع عشر للاشتغال بالأعمال التجارية والمبادلات النقدية مع دول أوروبا وكل هذه العناصر كانت تؤلف الطائفة اليهودية التي بلغ عدد أفرادها عشية الاحتلال ثلاثين ألف نسمة ، تركز ثلثهم في مدينة الجزائر التي كان يربو عددها على ٧٥ ألفاً^(٣) . وما يلاحظ أن هذه العناصر الثلاثة من اليهود لم تبد طيلة اقامتها بالجزائر أي اهتمام بالأراضي المقدسة بفلسطين ولم تراودها الرغبة في زيارة القدس لدوافع دينية الا نادرا مثل توجه الحبر اليهودي جودا عياش الى القدس حيث وافته المنية عام ١٧٦٠ م ، بعد سبع عشرة سنة قضاها بالجزائر رئيسا للطائفة اليهودية ، ومثل سفر جماعة من يهود مدينة الجزائر مع أفراد أسرهم وأمتعتهم على متن سفينة الى فلسطين اثر اضطرابات عام ١٨١٦ م^(٣) .

أما المرحلة الرابعة والأخيرة للوجود اليهودي بالجزائر فهي تربط بالاستعمار الفرنسي الذي وجد لدى اليهود تعاطفا مع سياسته التوسعية ، واستعداداً للتعامل

معه . وقد أدى ذلك الى حدوث أعمال عنف بين بعض الجزائريين واليهود الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الجيش الفرنسي الغازي . وقد علق على ذلك أحد الكتاب اليهود بقوله : « كانت ميول اليهود الى جانب الجيوش الفرنسية الغازية ، وهذا ما جعلهم يدفعون ثمن ذلك من دمهم »^(٤) .

هذا وسوف نركز في بحثنا على وضعية اليهود بالجزائر تحت السيادة الفرنسية ، وما يترتب عنها من علاقة خاصة بالحركة الصهيونية وذلك من خلال التعرض للنقاط التالية بشكل مختصر ومركز :

- ١ - موقف فرنسا من يهود الجزائر .
- ٢ - موقف يهود الجزائر من السياسة الاستعمارية الفرنسية .
- ٣ - علاقة اليهود مع كل من المعمرين الأوربيين والمسلمين الجزائريين .
- ٤ - الاحتكاك بالحركة الصهيونية العالمية .
- ٥ - نهاية الوجود اليهودي بالجزائر بفعل تطور الحركة الوطنية الجزائرية وتراجع الاستعمار الفرنسي وتزايد نشاط الحركة الصهيونية في كل من الجزائر وفرنسا .

أ) موقف فرنسا من يهود الجزائر .

سعت الادارة الفرنسية بالجزائر منذ السنوات الأولى للاحتلال الى ربط اليهود بالوجود الاستعماري ليكونوا عوناً للجيوش الفرنسية ، وادارة مساعده في اخضاع السكان والتحكم في اقتصاديات البلاد . ولهذا سنت السلطات الفرنسية بالجزائر سلسلة من القرارات والمراسيم قصد ادماج اليهود في المجموعة الفرنسية ، كان أولها مرسوم ORDONNANCE في ٥ جويلية ١٨٣٠ الذي يقر حرية العبادة لجميع الطوائف الدينية ومن بينها اليهود الذين أوكلت شؤونهم الدينية الى أحد رجال الدين اليهود وهو يعقوب بكري الذي أصبح يتمتع بلقب رئيس الأمة اليهودية^(٥) "Le chef de nation juive" بعدها صدر قانون ١٨٣٤ ، الذي أخضع اليهود لاحكام القانون

الفرنسي وأبقى لهم تشريعاتهم الدينية الذي يعود النظر فيها الى محاكمهم الخاصة^(٦). ثم لم تمض سنوات قليلة حتى صدر مرسوم آخر عام ١٨٤١، يدمج الطائفة اليهودية في القانون الفرنسي العام ويلغي في نفس الوقت المحاكم الدينية الخاصة باليهود^(٧) Tribunaux Rabbaniquuss. هذا ما ساعد على تنظيم المجموعة اليهودية عملاً بقانون ٢٦ سبتمبر ١٨٤٢، الذي نص على أن لليهود الحق في تعيين مندوب عنهم يمثلهم في المجلس المالي المختص بشؤون الضرائب والمكلف بتخصيص الاعلانات التي تنفق على الشؤون الدينية - ثم استكمل هذا القانون بصدور مرسوم ٩ نوفمبر ١٨٤٥، الذي يقرر انشاء ثلاثة مجامع دينية (Consistoires) خاصة باليهود في كل من الجزائر وقسنطينة ووهران، في نطاق الأحوال الشخصية لليهود وفي اطار القانون الفرنسي العام^(٨).

وبعد هذه الخطوات التمهيدية لادماج يهود الجزائر في المجموعة الفرنسية، ابتدأت الاجراءات العملية لاعطائهم حق المواطنة الفرنسية، وكانت فاتحة هذه الاجراءات تلك التنظيمات التي سنها الملك لويس فيليب سنة ١٨٤٨، التي اخضعت يهود الجزائر لنفس التنظيمات التي كانت تنظم حياة اليهود بفرنسا. وأنشئ لهذا الغرض مجمع ديني لعموم يهود الجزائر يتفرع الى ثلاثة مجامع دينية على مستوى الولايات الثلاث آنذاك، وهي قسنطينة والجزائر ووهران، كما أقرت هذه التنظيمات اجبارية اللغة الفرنسية بالمدارس الدينية الخاصة باليهود^(٩).

ثم سارت الامبراطورية الفرنسية الثانية في نفس هذا الاتجاه فمنحت المجمع الدينية اليهودية حقوق الأحوال المدنية، الأمر الذي ساعد على الغاء المجمع الديني لعموم يهود الجزائر، وتعويضه بالمجامع الدينية للعمالات الثلاث التي أصبحت تحت اشراف وتوجيه المجمع الديني المركزي لعموم يهود فرنسا. وهذا ما أقره مرسوم ١٦ سبتمبر ١٨٦٧^(١٠)؛ بعدما بدأ التحضير الجدي لاصدار مرسوم منح الجنسية الفرنسية لليهود الجزائر. وقدم في هذا الشأن مشروع قرار تقدمت به حكومة أوليفي Ollivier, E في شهر مارس ١٨٧٠، وقد لقي هذا المشروع معارضة شديدة من اليهود وأحبط بفعل مساعي كريميو وأعوانه بحجة أن هذا المشروع يتضمن

تحفظا يتنافى ومصالح اليهود، اذ ينص على أن لكل يهودي الحق في التخلي عن حقوقه التي اكتسبها في اطار المواطنة الفرنسية، اذا رغب في ذلك وقدم في هذا الشأن التماسا مكتوبا للسلطات المحلية .

بعد هذا بادر الوزير كريميو بتقديم قرار يمنح الجنسية الفرنسية لكافة يهود الجزائر، فأقره مندوبو حكومة الدفاع الوطني بمدينة تور Tours في ٢٤ أكتوبر ١٨٧٠ . وقد عرف هذا القرار الشهير بقرار كريميو Decret Cremieux . وهو ينص بالخصوص على اقرار حق المواطنة الفرنسية لليهود الذي لا يقبل النقض بهذه العبارات « ان الاطار الحقيقي والشخصي لليهود بالجزائر ابتداء من المصادقة على هذا القرار، سوف ينظمان بفعل القانون الفرنسي، وان كل الحقوق التي تحصلوا عليها حتى هذا اليوم سوف لا تخضع للمراجعة أو النقض^(١١)». وبذلك تم ادماج جميع يهود الجزائر البالغ عددهم آنذاك ٣٥ ألف نسمة دفعة واحدة، ولم يستثن من هذا الادماج سوى يهود الأقاليم الصحراوية الذين كانوا يقدرون ب ٣٥٥٧ نسمة^(١٢)، والذين ظلوا يتمتعون بامتيازات خاصة بهم تحت الحكم العسكري، حتى أسبغت عليهم المواطنة بفعل قانون ٧ ماي ١٩٤٦ الخاص باقاليم ما وراء البحار^(١٣) . وما يلاحظ أن قرار كريميو دخل حيز التطبيق الفعلي اثر مرسوم ٧ أكتوبر ١٨٧١ الذي حمل امضاء رئيس وزراء فرنسا تيار (Thiers) ونشر في الجريدة الرسمية يوم ١٠ أكتوبر ١٨٧١^(١٤) . بذلك تم ادماج يهود الجزائر نهائيا في المجموعة الفرنسية بهدف تعزيز الاستعمار الفرنسي واحكام قبضته على الشعب الجزائري الذي جرد من جميع حقوقه وتعرض لأبشع أساليب القمع والارهاب .

وعلى كل فان قرار كريميو سوف تنتج عنه آثار بعيدة المدى على مستقبل يهود الجزائر، فهو قد قطعهم من جذورهم التاريخية وابعدهم عن بقية أفراد الشعب الجزائري المسلم دون مبرر، وعمق الشعور المعادي لهم بين الأهالي المضطهدين الذين رأوا في قرار التجنيس الجماعي لليهود اهانة بالغة واجراء مجحفا في حقهم^(١٥) .

ب) موقف يهود الجزائر من السياسة الاستعمارية الفرنسية :

أما موقف يهود الجزائر من السياسة الاستعمارية الفرنسية الرامية الى ادماجهم وتسخيرهم لخدمة الاهداف الاستعمارية فهو يتلخص في أن اليهود أبدوا منذ تعرض الجزائر للاحتلال تعاطفا مع جيوش الاحتلال . واستعداداً للقيام بمهمة الوساطة بين الحكام الفرنسيين والأهالي الجزائريين ، وقد شجعهم على ذلك اشتغالهم بالتجارة وتفظنهم الى الفوائد الجمة التي سوف تعود عليهم من جراء السياسة الاستعمارية التي تُصبغ الامتيازات ، وتوفر الحماية لكل أقلية مستعدة للتعامل معها على حساب مصالح بقية السكان . وبفعل نظرة اليهود النفعية الى الأشياء التحق الأطفال اليهود منذ السنوات الأولى للاحتلال بمدارس الرابطة الاسرائيلية العامة (L'elliancs Israelits Universall) ، التي تأسست بمبادرة من يهود فرنسا بالمدن الجزائرية الكبرى . وقد تلقت فيها أجيال اليهود الناشئة الثقافة الفرنسية واكتسبت عن طريقها السلوك والعادات الأوربية^(١٦) ، مما أبعدهم عن بقية الشعب الجزائري ومكنهم من الاندماج بالجالية الأوربية بالجزائر . ونستدل على ذلك بكثرة حالات، الزواج المختلط بين اليهود والأوربيين، ففي سنة ١٩١١ سُجل ٣١٩ عقد زواج بين اليهود والأوربيين مقابل ٣٠٤ عقد زواج تم بين أفراد الجالية اليهودية^(١٧) .

وعلى كل فان تمكن اندماج اليهود في بوتقة الثقافة الفرنسية وتشربهم الحضارة الغربية في فترة قصيرة لم يكن متيسرا لولا تلك القرارات المتعاقبة التي سنّها الفرنسيون قصد ادماجهم وتمثلهم . وتلك الجهود المضنية التي بذلها يهود فرنسا بالتنسيق مع زعماء اليهود بالجزائر ، بتقديم المساعدات المالية والتطوع للتعليم في المدارس اليهودية^(١٨) . وهذا ما دفع أحد الكتاب اليهود الى أن يؤكد بان «مدارس الرابطة الاسرائيلية العامة بالمدن الكبرى بالجزائر هي التي غرست في قلوب اليهود بالجزائر حبّ الحضارة الغربية والتعلق بها»^(١٩) . وان اقتضت الظروف كان كبار يهود فرنسا يَسْعَوْنَ لاقناع الحكومات الفرنسية المتعاقبة بضرورة رعاية اليهود في الجزائر ومنحهم الامتيازات التي تساعدهم على الاندماج في الوسط الفرنسي^(٢٠) .

وفي هذا الشأن نذكر أن رئيس وزراء فرنسا «تيار» اضطر أن يوقع قرار كريميو حتى يتمكن من الحصول على قرض قيمته خمسة ملايين فرنك من إحدى البنوك اليهودية الكبرى، وذلك حتى يسدد جزءاً من تعويضات الحرب التي فرضتها ألمانيا على فرنسا اثر الحرب السبعينية^(٢١).

وعلى كل فان عملية دمج اليهود الجزائريين في المجموعة الفرنسية التي تحققت بفعل تضافر التشريعات الفرنسية والميول اليهودية التي رأت في الاستعمار الفرنسي خير وسيلة لتحقيق مصالحها، قد ارتبطت باوضاع خاصة تمثلت بالخصوص في التطور الديمغرافي والنشاط الاقتصادي الذي كان يمارسه أفراد الطائفة اليهودية بالجزائر.

فبالنسبة للتطور الديمغرافي نلاحظ أن عدد اليهود قد تضاعف الى ما يقرب من ثلاث مرات في ظرف مائة سنة، فبعد أن كان يناهز ٣٠ ألف نسمة عام ١٨٣٠، أصبح يقدر سنة ١٩٣٠ بـ ٨٠ ألف نسمة^(٢٢). وكانت الزيادة الطبيعية أثناء هذه الفترة ١٨٪ وكانت الزيادة الطبيعية أثناء هذه الفترة ١٨٪. ونسبة الخصوبة تتراوح ما بين ٣٧ الى ٣٩٪. وفي احصاء عام ١٩٣١ كان عدد اليهود الاجمالي بما فيهم يهود الصحراء يبلغ ١٢٧،١١٠ نسمة. مما يجعل نسبتهم ١٦٨٪ من مجموع السكان المسلمين البالغ عددهم ٥٩٣،٠٤٥ نسمة، والأوربيين الذين كانوا يناهزون ٢٧٩،٨٥٠ نسمة^(٢٤)؛ وكان أغلب اليهود يتركزون بالمدن الكبرى وهي الجزائر: ٢٣،٥٥٠ نسمة، وهران: ٢٠،٤٩٣ نسمة، قسنطينة ١٣،١١٠ نسمة. وتلمسان ٥،٤٣٦ نسمة. أما توزيعهم حسب الأقاليم فكان على الشكل التالي: بالجزائر الوسطى ٢٥٩٤٣ نسمة أي بنسبة ١٢٪ من مجموع السكان، وبالجزائر الغربية ٤٩٧٥٥ نسمة أي بنسبة ٣٤٪ من مجموع السكان، وبالجزائر الشرقية ٢٦٣١٥ نسمة أي بنسبة ١٪ من مجموع السكان^(٢٥). ولأخذ فكرة واضحة عن التطور الديمغرافي لليهود بالجزائر نثبت هذا الجدول الذي يسجل خمس احصائيات متعاقبة تظهر مدى تزايد عدد أفراد الطائفة اليهودية بالمدن الرئيسية الثلاث^(٢٦).

١٩٤١	١٩٣١	١٩٢١	١٩٠١	١٨٨١	
٢٥٥٩١	٢٣٥٥٠	١٧٠٥٣	١٠٨٢٢	٥٣٧٢	مدينة الجزائر
٢٦٦٧١	٢٠٤٩٣	١٥٩٤٣	١٠٦٥١	٣٥٤٩	مدينة وهران
١٣٠٣٧	١٣١١٠	٩٨٨٩	٧١٩٦	٥٢١٣	مدينة قسنطينة

ونستنتج من الجدول السابق أن الجماعة اليهودية عرفت طيلة الفترة الاستعمارية تطوراً ديمغرافياً ملحوظاً، تمثل بالخصوص في تزايد عدد أفرادها الذين استقرت غالبيتهم في المدن الكبرى حيث يتوطن المستعمرون الأوربيون وتتوفر الخدمات الاجتماعية. وقد كانت مدينة وهران في طليعة المدن الجزائرية التي عرفت زيادة كبيرة في عدد السكان من اليهود إذ أصبحت ثاني مدينة يتجمع بها اليهود بعد الجزائر العاصمة، كما أن قسنطينة رغم تغلب الطابع العربي عليها أصبح اليهود يؤلفون ١٢٪ من سكانها^(٢٧).

وصاحب هذا التطور الديمغرافي تزايد نفوذ اليهود الاقتصادي، إذ أصبحوا في مطلع القرن العشرين يستحوذون على جزء هام من المبادلات التجارية ويتحكمون في العديد من الوظائف الادارية والمهن الحرة. ونستدل على ذلك من احصاء يعود الى أول جويلية ١٩٠٠، فمن مجموع ١٠٢٤ فرد يهودي أجري عليه الاحصاء نجد أن هناك ٥١ من ذوي المهن الحرة و ٥٢ من الموظفين و ٣٤٥ تاجرا و ٥٦٦ عاملا أو تاجرا صغيرا، كما أن الجالية اليهودية بمدينة تلمسان في نفس السنة، كان أفرادها العاملون يصنفون على الشكل التالي: ٤٦٥ عاملا وتاجرا صغيرا و ٢٠٨ تاجرا و ٢٠ موظفا أو مستخدما في الادارة المحلية^(٢٨).

أما اذا تجاوزنا نطاق المدن الى الأرياف فاننا نرى اليهود قد استحوذوا على ثروات الجنوب القسنطيني^(٢٩)، واصبحوا يتحكمون في شبكة التوزيع التجاري لمختلف جهات الجزائر الداخلية، كما أنهم بداوا يمتلكون الضيعات ويضعون أيديهم على الأراضي الزراعية، ففي سنة ١٩٤١ أصبحت مساحة الأراضي الزراعية التي امتلكها اليهود تقدر بـ ٧٥٦٦٧ هكتارا، وبذلك أصبحوا يؤلفون نسبة: ١٨٪ من مجموع المعمرين بعمالة وهران وحدها^(٣٠).

د - علاقة اليهود مع كل من المعمرين الفرنسيين والمسلمين الجزائريين

لقد أدى النجاح الاقتصادي الذي حققه اليهود في ظل الحماية الاستعمارية الى اثاره مخاوف المعمرين الفرنسيين الذين كانوا يرون أنهم وحدهم الجديرون بحكم الجزائر واستغلال خيراتها. وقد أدى هذا التخوف الى ظهور نزعة معادية لليهود بين جماعات المعمرين الذين لاحظوا أن الوضع الاجتماعي المميز والثقل السياسي الذي بدأ يمارسه بعض اليهود قد أضر بمكانتهم ونفوذهم، لا سيما أن أحد الزعماء اليهود وهو سيمون كانويه Simon Kaneui كان يتبجح بقوله: «أن لا أحد يستطيع أن يتسلم مقاليد البلدية بدون أن أمنحه مفاتيحها»^(٣١).

هذا وقد اتخذت هذه النزعة المعادية لليهود طابعا قوميا وشعورا وطنياً لدى الأوساط اليمينية من المعمرين فتسببت في حدوث بعض التحرشات بين أفراد من اليهود وجماعات من الأوربيين طيلة السنوات الممتدة من عام ١٨٩٥ الى ١٩٠٢. وقد اتخذت في بعض الأحيان شكل صراع عنيف كما حدث في سنوات ١٨٩٧، ١٨٩٨، ١٨٩٩. حيث تزعم النشاط المعادي لليهود أحد الشباب الفرنسيين المتحمسين وهو ماكس ريجس: Max Regis الذي كانت سنه آنذاك عشرين سنة. وقد تمكن بالفعل من تزعم الرابطة المعادية لليهود Ligue Antijuive وادارة المجلة المضادة لليهود L'Anti-juive^(٣٢). وقد كان يعبئه في نشاطه المعادي لليهود بعض المنتخبين الأوربيين أمثال درومان Drumont نائب مدينة الجزائر ومورينو Morinaud ائب مدينة قسنطينة. وهذا ما دفع الحبر الأكبر لليهود بالجزائر Le Grand Rabbin زدوق كاهن Zadok Kahan. سنة ١٨٩٨ الى الالتجاء الى السلطات الفرنسية لاتخاذ الاجراءات الكفيلة بحماية اليهود الذين كان يبلغ عددهم الخمسين ألفا^(٣٣).

وعلى كل فان الأسباب الحقيقية وراء هذا النزاع بين اليهود والمعمرين يعود أساسا الى محاولة اليهود التحكم في مقدرات الجزائر الاقتصادية، وعزيم التجار الأوربيين التصدي لهم ولو بالالتجاء الى استغلال العاطفة الدينية لدى المسلمين

ليستخدموهم كسلاح ضد اليهود، وقد تفتن المسلمون لهذه اللعبة ولم يحاولوا التدخل في صراع يستهدف التحكم فيهم واستغلالهم.

هذا وقد كانت المصاعب الاقتصادية التي واجهت الأوربيين في الجزائر أواخر القرن الماضي من جراء التضخم المالي العالمي وهبوط أسعار الحبوب وأزمة انتاج الخمر حافزا على هذا التنافس بين اليهود والمعمرين. وهذا ما عبر عنه الزعيم اليهودي المعروف ماكس نوردو Max Nordau بقوله «ان النزعة المعادية لليهود في الجزائر كانت نتيجة للوضع الممتاز الذي حصلوا عليه منذ عشرين سنة»^(٣٤). ويضاف الى هذا العامل الاقتصادي الذي أدى الى توتر العلاقة بين الأوربيين واليهود ردود الفعل التي أحدثتها قضية درايفس المشهورة L'Affaire Dreyfus التي كثر الجدل حولها وأحدثت هزة عنيفة في الرأي العام الفرنسي وفي أوساط المعمرين بالجزائر. وهذا ما دفع المؤتمر الصهيوني الثاني المنعقد ببال أواخر أوت ١٨٩٨، الى مناقشة الآثار التي أحدثتها قضية درايفس على يهود الجزائر. وقد نعت هذه القضية الزعيم اليهودي نوردو «بانها أصبحت تشكل خطرا داهما على يهود الجزائر»^(٣٥).

ومع مطلع القرن العشرين هدأت الأوضاع وتوجهت اهتمامات المعمرين وجهود اليهود الى استغلال طاقات الشعب الجزائري، فلم تظهر النزعة المعادية لليهود بين فرنسيي الجزائر الا في مطلع العشرينات واواسط الثلاثينات، اذ حدثت مشادات بين عناصر أوربية وجماعات يهودية دامت ثلاثة أيام في شهر أوت من عام ١٩٢١ كان سببها تظاهر جماعة من اليهود ضد جريدة المنبر التي كانت تشهر باليهود في مقالاتها^(٣٦). كما تجددت النزعة المعادية لليهود بين معمرى الجزائر بعد وصول الجبهة الشعبية للحكم في فرنسا سنة ١٩٣٦ بزعامة ليوم بلوم Leon Blum رئيس مجلس الوزراء وذلك بفعل تعاضم التيار اليميني باوربا^(٣٧).

وعلى العكس من هذا الموقف المعادي لليهود الذي اتخذه المعمرون بالجزائر نجد أن الجزائريين المسلمين حاولوا جاهدين التعامل مع اليهود وخلق علاقات تتصف

بحسن الجوار والتعامل الأخوي، ولكن بدون طائل، إذ اتخذ منهم اليهود موقفا معاديا بدافع الشعور بالتفوق واطهار الثقة بالنفس الى حد الغرور. وكانوا يرمون من وراء هذا الشعور بالتفوق والثقة التخلص من الالهانات التي يسلطها عليهم الفرنسيون ذوو الاتجاهات اليمينية المتطرفة، وهذا ما أثار المسلمين وجعلهم يقفون من اليهود موقف الحذر والتحفظ. وقد عبر عن ذلك أحد الكتاب الجزائريين آنذاك بقوله: «ان الأهالي ليسوا معادين للسامية ولا يستطيعون أن يكونوا كذلك لأن تعاليم الرسول (ص) تنهاهم عن ذلك، ولكن التذمر العميق من اليهود تسببت فيه غطرسة اليهود الأثرياء الذين أصبحوا يشعرون بالتفوق منذ أن أصبحوا فرنسيين، ولهذا على اليهود الذين هم الآن في وضع ممتاز أن لا ينسوا أن العجلة تدور وأن تصرف بعض العناصر منهم يمكن أن يبعد عنهم روح التسامح والتعاطف»^(٣٨).

وبالفعل أدى هذا الموقف المعادي الذي وقفه اليهود ازاء الشعب الجزائري الى حدوث قطيعة أبدية وعداء مستحکم بلغ أوجه أثناء حوادث قسنطينة التي تسبب فيها أحد الجنود اليهود من فرقة الزواف الذي لم يتورع عن البول على حائط مسجد المدينة مساء يوم ٣ أوت سنة ١٩٣٤. وبعد وقوع مشاغبات سارع شيخ مدينة قسنطينة والنائب بالبرلمان الفرنسي اميل مورينو الى الاستنجد بفرقة من الجنود لحماية الحي اليهودي المهدد باعمال العنف، التي لم تلبث أن تجددت اثر تحرش احد اليهود باطلاقه النار من احدى النوافذ على جموع المسلمين. مما أثار السخط والهياج وتسبب في احداث دموية يوم ٥ أوت. وكانت حصيلة هذا التصادم الذي كرس القطيعة بين اليهود والمسلمين بالقطر الجزائري، قتل ٢٥ شخصا وجرح ٦٠ آخرين، وحرقت ٤ مساكن ونهب ٣٠٠ مغازة^(٣٩) ومحل تجاري من جانب اليهود، وقتل ٤ من المسلمين وجرح العديد منهم. وقد علق الامام الشيخ عبد الحميد بن باديس على هذه الأحداث الطائفية ووصفها

* المغازة :: لفظة فارسية الأصل تعني «الدكان» وهي فارسية أيضاً (اللجنة).

بانها رغم كونها فاجعة الا أنها تدخل في اطار غريزة الدفاع عن النفس التي هي حسب تعبيره نزعة فطرية في الانسان. كما طالب بنزع السلاح من اليهود واشاد بتعقل ورضانة وحكمة النواب المسلمين، ووصف ادعاءات ممثل اليهود لولوش بانها تقوّل بالباطل ينم عن أمراض قلبية ويدل على قلة الأدب وافلاس السياسة^(٤٠).

بعد هذه الحادثة تدهورت العلاقات بين أفراد الجالية اليهودية وجمهور المسلمين. فتجددت المنازعات في شهر فيفري ١٩٣٥ بمدينة سطيف، واتخذت شكل منافسة حادة اثناء انتخابات شهر ماي ١٩٣٦، وقد تفتن بعض الزعماء الدينيين من المسلمين والنصارى واليهود الى خطورة هذه الأحداث والآثار السلبية التي قد تركها على الحياة السياسية بالجزائر، فبادروا بتأسيس اتحاد أصحاب التوحيد Union des Croyants monotheistes ومن أهم أعضائه المؤسسين نذكر الشيخ الطيب العقبي وسماحة بن يمشو Prs Benichou والي غزلان Elis Gozlan وابو الكير Aboulker^(٤١). وكان الهدف من هذه التجمع الديني محاولة خلق حوار مثمر وتعايش سلمي بين مختلف الطوائف الدينية في الجزائر، لكن اليهود تمسكوا بموقفهم المعادي واعتبروا أعمال العنف التي قاموا بها جزءاً من الكفاح من أجل ترسيخ جمهورية ليبرالية ونوع من النضال ضد النزعة اللا سامية^(٤٢)، كما أن المسلمين لم يسلموا قط بتفوق اليهود عليهم ولم يرضوا بغطرستهم وتعاليمهم بل اعتبروا ذلك اهانة وتحدياً موجهاً ضدهم.

هـ (احتكاك يهود الجزائر بالحركة الصهيونية :

بعد هذه اللمحة الوجيزة عن تطور أوضاع اليهود تحت السيادة الفرنسية يجدر بنا ان نتناول العلاقات المتبادلة بين يهود الجزائر والحركة الصهيونية، محاولين اظهار طبيعة هذه العلاقات ونوعية التأثير الذي نتج عنها والانعكاسات التي تركتها على القضية الفلسطينية وعلى اوضاع الجزائر الداخلية. ونظرا لتطور هذه العلاقة

وتداخل الأحداث التي تميزت بها، فإننا سوف نتعرض إليها من خلال فترتين :
أولاهما تعود الى ما قبل انشاء الكيان الصهيوني على الأرض العربية بفلسطين،
وثانيتهما تتصل بالفترة اللاحقة التي اصبحت فيها اسرائيل قوة عدوانية ذات تأثير
مباشر على يهود العالم .

فبالنسبة الى الفترة الأولى التي تبدأ بالمؤتمر الصهيوني الأول المنعقد ببال عام
١٨٩٧ وتنتهي بكارثة عام ١٩٤٨، نلاحظ أن دعاة الصهيونية العالمية عملوا
جاهدين على استمالة يهود الجزائر الى الفكرة الصهيونية واقناعهم بضرورة التمسك
بها، وتؤكد الوثائق ان الاتصال بين يهود الجزائر ودعاة الصهيونية كان مبكراً إذ
حضر المؤتمر الأول الصهيوني احد يهود قسنطينة وهو عتال E.A ttali. كما أن
المؤتمر الصهيوني الخامس المنعقد ببال عام ١٩٠١ أقر بوجود جماعات صهيونية
بمدينتي قسنطينة والجزائر^(٤٣). وكانت خطة دعاة الصهيونية لاستمالة يهود الجزائر
تقوم على استخدام الفدرالية الصهيونية « Le Federation Sioniste de France »
باعبارها همزة وصل بين طلائع الصهيونية والأوساط اليهودية بالجزائر، وقد تمكنوا
بفضل هذه الخطة من جلب بعض اليهود الجزائريين، الذين أصبحوا أعضاء في
الحركة الصهيونية وكان عددهم يقدر عام ١٩١٩ ب ٢٤ في مدينة الجزائر و ٣٠
في مستغانم و ١٢٩ في تلمسان و ١٩٧ في المدينة^(٤٤)، كما استطاعوا في هذه
الظروف أن ينشئوا فرعاً للاتحاد العام للشبيبة الصهيونية بناحية وهران تحت رئاسة
أحد دعاة الصهاينة وهو هالبيرن Halperin. وفي نفس الوقت تمكن المندوب
الصهيوني للكرن هايسود Le Karen Hayssod من جمع مبلغ مالي قدر بحوالي
١٦٥٠٠٠ فرنك لفائدة المنظمة الصهيونية العالمية^(٤٥).

وعلى كل فان هذه النتائج التي استطاعت الحركة الصهيونية تحقيقها بالجزائر،
تعتبر ضئيلة بالمقارنة الى غنى الاقلية اليهودية بالجزائر، كما تعتبر هامشية نظراً لكونها
ظلت منحصرة في مجموعات منعزلة عن الجماعة اليهودية. وهذا ما جعل أحد دعاة
الحركة الصهيونية بالجزائر وهو باليير Pallière يصرح بأن: «الحركة الصهيونية
بالجزائر وجدت أرضاً صعبة جداً اذ اصطدمت بالميول الفرنسية التي تشرها

اليهود الجزائريون^(٦٧)». ونفس الرأي تضمنه أحد تقارير الحركة الصهيونية بالجزائر اذ يشير إلى أن «من واجب الفدرالية الصهيونية لفرنسا باعتبارها اكثر المنظمات نشاطا ان تأخذ في مهمتها الاهتمام باوضاع الجزائر لأن هذا البلد واقع تحت تأثير الاندماج الفرنسي القوي»^(٦٧).

ومرد هذه الصعوبات التي واجهت الحركة الصهيونية في تحويل انظار يهود الجزائر الى فلسطين يعود حسبا نرى الى عدة أسباب منها ما هو حضاري يتمثل في ان يهود الجزائر قد اكتسبوا منذ وقت مبكر الجنسية الفرنسية - كما أوضحنا ذلك سابقا- واندجوا في بوتقة الحضارة الغربية، وهذا ما أكسبهم طابعا اوربيا وميولا فرنسية ليبرالية بخلاف الاقليات اليهودية الاخرى بباقي اقطار المغرب العربي، وبالتالي ضعف تأثير الدعاية الصهيونية عليهم. بل رأى الكثير منهم فيها فكرة غريبة عنهم تتعارض أساسا وأهداف الرابطة الاسرائيلية العالمية L'Alliance Israélite Universelle التي انشئت عام ١٨٦٠ بغرض تلقين يهود فرنسا والجزائر الثقافة الفرنسية والحضارة الغربية التي لا تسلم بالدعوة الصهيونية بل ترى فيها خطرا يهدد مستقبل اليهود وسلاحا فتاكا قد يستخدم ضدهم ويؤدي بهم الى الهلاك. وهذا ما كانت الحركة الصهيونية تخشاه، وقد أشار ابن قريون الى خطورة هذا الاتجاه الليبرالي الغربي على الحركة الصهيونية حيث يقول: «ان الخطر الاكبر الذي يترىص بيهود التشتت «دياسبورا» لا ينحصر في الاضطهاد والتمييز، وانما يتمثل في تراخي الروابط التي ظلت لعدة قرون تشد بإحكام وحدة ابناء اسرائيل في «المنفى»، وان هذا الخطر هو بمثابة قبلة الفناء بالنسبة لليهود^(٦٨)».

ومن هذه الأسباب ايضا ما هو اقتصادي نتج عن المكانة الممتازة التي حصل عليها اليهود في الجزائر، اذ اصبحوا يهيمنون على أهم المهن الحرة ويتحكمون في العديد من الاعمال التجارية والمصرفية، ويتصرفون في مختلف الوظائف الادارية، مما جعل الكثير منهم يرى في الدعوة الصهيونية خطراً قد ينجّر عنه الحاق الضرر بمكاسبهم، لا سيما انهم كانوا يتمتعون بالامن وينعمون بالحماية في اطار القانون الفرنسي، ولم تكن تخطر ببالهم امكانية أنهم سوف يتعرضون في المستقبل القريب

او البعيد الى أي خطر من جانب الاوروبيين او المسلمين على السواء^(٤٩). وما زاد في تخوفهم من الدعوة الصهيونية تلك المقالات التي واظبت على نشرها بعض الجرائد الفرنسية مثل لوبوتى جرنال Le petit Journal التي ما فتئت تحذر اليهود من مغبة الانزلاق وراء مخاطر الدعوة الصهيونية، وتدعوهم باستمرار الى التمتع بالحقوق التي يوفرها القانون لمجموع الأمة الفرنسية^(٥٠). ولا نفاجاً في مثل هذه الظروف الاقتصادية والحملات الصحفية ان نجد احد زعماء الحركة الصهيونية وهو سيلفيان ليفي Sélvian Lévy يعارض جهاراً مخطط دعاة الصهيونية في مؤتمر السلام المنعقد بباريس ١٩١٩ خوفاً من خلق الولاء المزدوج لدى اليهود لعدم امكانية فلسطين استقبال كافة اليهود، ونفورا من يهود روسيا ذوي الميول اليسارية الذين قد يساهمون في خلق بؤرة ثورية في فلسطين حسب استنتاجاته^(٥١). كما يوجد سبب آخر ذو طابع ديني ساهم في اضعاف الحركة الصهيونية بين يهود الجزائر، ومرده ان رجال الدين من اليهود ظلوا طيلة الفترة الاستعمارية يحرصون على تنظيم حياة الجماعة اليهودية بالجزائر وابقائها تحت رعايتهم وارشافهم، ولهذا سعوا الى تأسيس فدرالية خاصة بيهود الجزائر لا تخضع لتوجيهات المجمع الديني لعموم يهود فرنسا، هذا المجمع الذي كان يمارس نوعاً من الهيمنة اعتبره بعض اليهود شكلاً من أشكال التبعية والاستعمار، بدليل ان احد الكتاب اليهود كتب ما يلي: «كما ان فرنسا استعمرت الجزائر فان اليهود الفرنسيين قد استعمروا بدورهم الجماعة اليهودية بالجزائر.»^(٥٢).

ومما يلاحظ ان هذا الشعور المتحفظ لرجال الدين اليهود ازاء يهود فرنسا ودعاة الحركة الصهيونية فيما بعد، كان شعوراً متوارثاً يعود الى السنوات الاولى من الاحتلال حيث اضطر رجال الدين من اليهود الفرنسيين الذين عينتهم السلطات الفرنسية على رأس الطائفة اليهودية بالجزائر ان يتخلوا عن مهامهم الدينية فعاد اثنان منهم الى فرنسا وفضل الثالث الالتجاء الى مدينة الجزائر هروباً من وهران^(٥٣).

وعلى كل فإن رجال الدين وبعض المتدينين من اليهود رأوا في الدعوة الصهيونية احباطاً لجهودهم وعرقلة لخطتهم الرامية الى انشاء فدرالية خاصة بالجماعة اليهودية

تتجاوز احكام قانون عام ١٩٠٥ الذي يخضع كل نشاط ثقافي او ديني ليهود الجزائر الى المجمع الديني ليهود فرنسا^(٥٤). وبالفعل تمكنوا في ظروف استفحال النزعة المعادية لليهود في فرنسا عشية الحرب الثانية من وضع أسس لفدرالية خاصة بهم. وفي الاخير توصلوا الى توحيد مختلف الجمعيات الثقافية اليهودية بالجزائر تحت اشرافهم، وذلك في شهر ابريل من عام ١٩٤٧. وهذا ما ساعد على تأسيس المدرسة الربانية للقطر الجزائري Ecole Rabbanique التي كانت في واقع الامر استجابة لاحدى الحاجات الملحة للمجموعة اليهودية بالجزائر^(٥٥). وقد رافق هذا الميل الى التحرر من تبعية المجمع الديني لعموم يهود فرنسا، والابتعاد عن دعاة الحركة الصهيونية، رغبة صادقة لدى رجال الدين من اليهود للرجوع الى الواقع الجزائري واحياء تقاليد التوراة التي رأى فيها بوهنان بن زكاي احد كبار اليهود عامل تحرر والتحام للمجموعة اليهودية عندما رفع شعار «فلنقم جدارا حول التوراة»^(٥٦).

وبعد ان بدأ الكثير يرى ان المغالاة في الدعوة الصهيونية يعتبر انحرافا عن اليهودية الحققة، لا سيما ان بعض دعاة هذه الحركة كانوا يرون فيها خاتمة لتباشير ونبؤات العهد القديم وانبعاثا لدين جديد^(٥٧). لكن هذا الاتجاه المتحفظ ازاء الحركة الصهيونية لم يلبث ان واجهته صعوبات جمّة ادت في الاخير الى اضعافه وعدم فاعليته، وكان في طليعة هذه المصاعب العجز المالي المزمن الذي كانت تعانية الفدرالية العامة ليهود الجزائر، الذي حال دون تسديد النفقات الضرورية لرجال الدين اليهود^(٥٨). وهذا ما دفع الحبر الاكبر ليهود الجزائر ايزنبيث Le Grand Rabbin Einsen beth الى ان يصرح في اجتماع الفدرالية العامة لليهود المنعقد في ٨ ماي ١٩٥١ بما يلي:

«لقد انتهت منذ ثمانية أيام السنة التي عرفت فيها فدرالية المجموعات اليهودية صعوبات جمّة لم تعرف مثلها منذ تأسيسها، حتى اننا في عدة مواقف انتهى املنا الى يأس وتوجب علينا ان نقف محتجين ضد الادعاءات وان نعلن على الملأ ان لمؤسساتنا الدينية المحلية الحق في البقاء، وتوجب علينا كذلك ان نؤكد ان

الدياسبورا Diaspora بدون عقيدة وبدون مدرسة دينية انما هي اطاحة بالقيم الروحية لليهود^(٥٩)».

اما المرحلة الثانية لاتصال الحركة الصهيونية بيهود الجزائر فهي تبتدىء بانشاء الكيان الصهيوني بفلسطين، وتستمر الى ما بعد استقلال الجزائر. واثناءها حققت الحركة الصهيونية نجاحا ملحوظا في اوساط يهود الجزائر فأنشئت عدة فروع تابعة لمنظمة الشباب الصهيوني انخرط فيها العديد من الشباب. كما تمكن الاتحاد النسائي الصهيوني W.I.Z.O. من تحقيق مكاسب ساعدته في جمع مبالغ مالية لفائدة دولة اسرائيل، وهذا ما ساعد على حضور عدة وفود تمثل يهود الجزائر في المؤتمرات الصهيونية التي انعقدت بالقدس وهي المؤتمرات الثالث والعشرون ١٩٥١، والرابع والعشرون ١٩٥٦، والخامس والعشرون ١٩٦٠^(٦٠).

ولعل اهم نجاح حققته الحركة الصهيونية لدى يهود الجزائر، يتمثل في تشجيعها لكثير من اليهود على الهجرة الى اسرائيل، واستقبالها لجماعات اليهود المغاربة في طريقهم الى فلسطين، وقد انشئت لهذا الغرض معسكرات تجمع وتهيئ وتدريب قبل رحيلهم الى فلسطين عن طريق مرسيليا.

وهنا نتساءل عن سر هذا النجاح الذي حققه دعاة الصهيونية بين يهود الجزائر رغم معارضة رجال الدين لهذا الاتجاه، اذ كتب الحبر الاكبر لمدينة عنابة في جريدة الحياة اليهودية La vie Juive الصادرة في شهر جولييه ١٩٥١ « ان الجماعة اليهودية في الجزائر تمر بازمة خطيرة، وانه مما لا يمكن نكرانه انها في كل يوم تنحصر رقعتها بفعل اللامبالاة والتشكك والغموض»^(٦١). ومرد هذا النجاح يعود على ما يظهر الى عدة اسباب، منها ما نتج عن تلك القرارات المناوئة لليهود التي طبقتها حكومة فيشي في فرنسا والجزائر تحت ضغط الالمان النازيين، والتي نذكر منها قانون ٧ اكتوبر ١٩٤٠، الذي نص على الغاء قرار كرميو القاضي بتجنيس اليهود وتحديد وضعيتهم القانونية في البلاد الجزائرية، ثم عدل هذا القانون بسن قانون آخر ١١ اكتوبر ١٩٤٠ وقرار ٢٠ نوفمبر ١٩٤٠ الذي كان يهدف الى اقصاء اليهود من الحياة الاقتصادية ومصادرة ممتلكاتهم في بعض الحالات،

استكمل هذا الاجراء بنشر قرار ٢١ نوفمبر ١٩٤١ الذي دعا الى تحديد قيمة ممتلكات اليهود.

بعدها صدر قرار آخر حكومة فيشي في ١٨ جولييه ١٩٤١ يقضي باحصاء اليهود بالجزائر على شاكلة من تم العمل به في فرنسا بفعل قانون ٢ جوان ١٩٤١. ولم تلبث السلطات الفرنسية بعد ذلك ان اصدرت مرسوم ٢٣ أوت ١٩٤١ تحدد فيه شروط قبول الطلبة اليهود في مؤسسات التعليم العالي تعميما لقانون ٢١ جوان ١٩٤١ المطبق بفرنسا^(٦٢).

لكن هذه القوانين والاجراءات لم تلبث ان الغيت بعد سنتين من صدورها بفعل اللائحة الصادرة في ١٤ مارس ١٩٤٣، التي نشرت في اعلان ٢١ اكتوبر ١٩٤٣^(٦٣). وبذلك استعاد اليهود جميع الامتيازات التي حصلوا عليها سابقا. وعلى كل فان هذه الاجراءات القمعية ضد اليهود ادخلت الحيرة والقلق في الاوساط اليهودية بالجزائر مما سهل على دعاة الحركة الصهيونية استغلالها لصالحهم بحجة ان لا أمن لليهود الا بالهجرة الى فلسطين واقامة وطن قومي لليهود فيها.

وهناك سبب آخر يعود الى تطور الكفاح الوطني الجزائري واتخاذة شكل نضال مسلح ضد الوجود الفرنسي واعوانه بالجزائر. وكان في طليعتهم اليهود الجزائريون رغم ان الثورة الجزائرية حاولت ان تبقي اليهود خارج صراعها مع الاستعمار، وتوجهت اليهم بعدة نداءات تناشدهم فيها أن لا يربطوا مستقبلهم في الجزائر بالوجود الاستعماري. ونذكر من هذه النداءات نداء قادة الثورة في مؤتمر الصومال في شهر اوت ١٩٥٦ الى الجالية اليهودية بالجزائر، يذكرونها بموقف حكومة فيشي من اليهود، ويدعونها الى مساندة الكفاح التحريري للشعب الجزائري. ثم كررت هذا النداء لجنة التنسيق والتنفيذ C.C.E. التي توجهت الى رؤساء الطائفة اليهودية بهذه العبارات «ان ج. ت. و. تعتبر اليهود الجزائريين بمثابة ابناء للوطن الجزائري وانها تتمنى ان يتحلى قادة المجموعة اليهودية بالتعقل وذلك لتشييد جزائر حرة ومتآخية». كما نورد ايضا نداء توجهت به فدرالية جبهة التحرير الوطني الجزائرية بفرنسا في

ديسمبر ١٩٥٩، نقتطف منه هذه العبارات « ان الجزائريين ذوي الاصل اليهودي لم يتغلبوا بعد على حيرة ضميرهم ولم يختاروا حتى الآن الطرف الذي ينضمون اليه. ونتمنى ان تستجيب غالبيتهم لنداء الوطن الجزائري، وان يمنحوا صداقتهم للثورة وان يطالبوا بكل فخر واعتزاز بجنسيتهم الجزائرية»^(٦٩).

كل هذه النداءات لم تستطع اقناع اليهود بضرورة مساندة كفاح الشعب الجزائري والتجاوب مع مطامحه التحررية، فباستثناء افراد قلائل من الاقلية اليهودية،^(٦٥) ابدوا تفهما وتجاوبا مع الثورة الجزائرية، ظلت الغالبية الساحقة من اليهود الجزائريين تتفرج على النزاع المحتدم، بل انضمت جماعات كثيرة من اليهود الى جهاز القمع الفرنسي المسلط على الشعب الجزائري، مثلما حدث بقسطنطينية يوم ١٢ ماي عام ١٩٥٦ من مجازر وحشية ضد السكان المدنيين العزل على يد المتطرفين من اليهود.

وهذا ما ساعد دعاة الصهيونية ان يثيروا الخوف والقلق في صفوف اليهود مدعين بان تحرر الجزائر سوف يؤدي الى اضطهاد اليهود وجعلهم مواطنين من الدرجة الثانية^(٦٦). ويضاف الى هذه الاسباب التي ساعدت على تزايد نفوذ الحركة الصهيونية على يهود الجزائر، تعاطف السلطات الاستعمارية مع العناصر الصهيونية التي اعتبرت حليفا لها في صراعها مع الشعب الجزائري ومواجهتها لتيار القومية العربية بالشرق. ولهذا السبب بالذات سهلت مهمة المبعوثين الصهاينة في بث الدعاية الصهيونية في اوساط الاقلية اليهودية بالجزائر، بل لم تر مانعا من السماح لمدونو الحركة الصهيونية Emissaires في انشاء مركز لاستقبال اليهود المغاربة بضواحي الجزائر العاصمة، وعندما بدأت التساؤلات حول تكاثر اعداد هؤلاء المهاجرين اليهود تظاهر الحكام الفرنسيون بانهم يجهلون وجهة هؤلاء المهاجرين، والظروف التي وصلوا فيها الى الجزائر^(٦٧). كل هذه الاسباب شجعت الكثير من يهود الجزائر على الهجرة الى فلسطين، هذه الهجرة التي مرت بالمراحل التالية:

١ - المرحلة الاولى الممتدة من ١٩١٩ الى ١٩٤٨. لم يهاجر اثناءها إلا عدد ضئيل جدا من يهود الجزائر لضعف تأثير الحركة الصهيونية كما سبقت

الإشارة الى ذلك. وكان هؤلاء المهاجرن يؤلفون أقلية ضئيلة ضمن بقية المهاجرين اليهود من اقطار المغرب العربي الذين كانوا يقدرون ب ٤٩٤ يهوديا. أي بنسبة ٠.٧٪ الى مجموع المهاجرين اليهود الآخرين.^(٦٨)

٢ - المرحلة الثانية من ١٩٤٨. تزايد فيها عدد المهاجرين من يهود الجزائر حتى بلغ ٢٦٠٠٠ مهاجر. مقابل ١٤٠٠٠ من تونس و ٢٨٠٠٠ من المغرب الاقصى و ٣٢٥٠٠ من ليبيا، وكانت الهجرة اثناء هذه الفترة تم في شكل جماعي بحيث تمت هجرة أسر باكملها عن طريق فرنسا نحو فلسطين. كما حدث في يوم ٢٦ جوان ١٩٥٠ الذي وصل فيه الى حيفا ٥٩٢ مهاجرا على متن سفينة قادمة من مرسيليا^(٦٩). وتسجل مصادر الهجرة اليهودية ان عدد المهاجرين اليهود من الجزائر كان يتوزع على الشكل التالي: ٦٨٢١، سنة ١٩٤٨ و ١٧٣٤٩ سنة ١٩٤٩ و ٤٥٧ سنة ١٩٥٠، و ٢٦٩ سنة ١٩٥١^(٧٠).

٣ - المرحلة الثالثة من ١٩٥٤ الى ١٩٦٣، هاجر اثناءها ما ينيف عن ١٨ الف يهودي من الجزائر الى فلسطين المحتلة من مجموع ١٤٠ الفا كانوا يؤلفون الجماعة اليهودية بالجزائر. وهذا مقابل ١٠٠ الف من تونس و ٢٠٠ الف من المغرب. مما جعل يهود المغرب العربي يشكلون نسبة ٨٧.٢٪ من المجموع الكلي للمهاجرين اليهود الى دويلة اسرائيل^(٧١).

٤ - المرحلة الرابعة والاحيرة من ١٩٦٣ - ١٩٦٨، عرفت بدايتها نزوحا جماعيا لليهود الجزائريين نحو فرنسا او اسرائيل، اذ هاجر في عام ١٩٦٣ ما ينيف عن ٢١ الف يهودي واستمرت هذه الهجرة حتى لم يبق من اليهود بالجزائر عام ١٩٦٧/٦٦ سوى ٥٠٠٠ نسمة. ثم تناقصوا الى حوالي ٢٠٠٠ نسمة عام ١٩٦٨، ولم يبق منهم اخيرا سوى ١٣٠٠ يهودي يقيم ٥٠٠ منهم بمدينة الجزائر. و ٧٠٠ بوهرا، وهم الآن في حدود الف نسمة، ظل مجملهم يحتفظ بالجنسية الفرنسية سوى ما يقرب من ٣٠ شخصا آثروا الحصول على الجنسية الجزائرية واغلبهم من المسنين

والشيوخ^(٧٢)، مع العلم بأن الجزائر المستقلة حاولت ان توقف تيار الهجرة وان تشعر اليهود بالطمانينة والامن فأبقت تحت تصرفهم بيعتين احدهما بوهران والاخرى بالجزائر رغم قلة عددهم. وكانت قد اعلنت الاعياد اليهودية عطلة رسمية كغيرها من المواسم الدينية الاخرى كما بادرت بتوجيه الدعوة الى رئيس الاقلية اليهودية وهو الربني سرور Serror لحضور الجلسة الافتتاحية للبرلمان الجزائري سنة ١٩٦٣^(٧٣).

ومما يلاحظ ان الثورة الجزائرية قد تركت آثاراً عميقة في نفسية اليهود الجزائريين واشعرتهم بمدى الخطأ الذي ارتكبه في حق الشعب الجزائري، كما اثارت في نفوسهم القلق اذ اصبح الكثير منهم يتساءل عن مصيره وعن المعسكر الذي يمكن ان ينضم اليه. وتراءت لبعضهم امكانية ظهور النزعة المعادية لليهود في فرنسا من اجراء تصفية المسألة الجزائرية وتغير السياسة الفرنسية تبعاً لذلك. وقد حاول احد الزعماء اليهود وهو رايني في خطابه امام المؤتمر الدولي اليهودي ان يبرر سلوك اليهود وموقفهم من قضية الكفاح الوطني للشعب الجزائري بهذه العبارات:

«اثناء تعرفي على الجزائر في سنة ١٩٥٤ اي قبيل المقاومة الجزائرية ثم بعد ترددي عليها بعد ذلك في السنوات اللاحقة ٥٧ و ٥٩ و ١٩٦١- تيقنت انكم باعتباركم يهودا جزائريين أصبحتم فرنسيين في نظرتكم واحساسكم وميولكم واختياراتكم. وانه من المستحيل عليكم ان تتخلوا عن اطار تحرركم ولهذا فانا على يقين من انكم لن تستطيعوا فهم معنى التحرر. فانتم قد تحررتم بالفعل واندمجتم في اطار المواطنين الاحرار، وبالتالي لن تستطيعوا ابدا فهم عبارة «الوطنية الجزائرية» لا سيما وانتم لا تتصورون وجود وطنية اخرى غير الوطنية الفرنسية، وان كنتم قد شعرتم بضخامة الماساة وانتم في عجزكم هذا في فهم المشكل الجزائري كنتم كبقية الاحزاب الفرنسية الاخرى ومن ضمنها اليسار الفرنسي»^(٧٤).

وعلى كل فان الثورة الجزائرية بخلاف الاحداث السياسية التي عرفها الوطن العربي قد احدثت هزة في نفوس اليهود سواء في الجزائر او في فرنسا، لما طرحته من تصور جديد لقضية التحرر وما قدمته من تضحيات جسيمة وحدثته من وعي

في كثير من الاقطار النامية. ولعل احسن تعبير عن ذلك نجده في محاضرة الزعيم اليهودي الفرنسي W.Rabi رابي التي القاها على جمع من المثقفين اليهود بفرنسا في ١٧ فيفري ١٩٦٣، تحت عنوان: تحولات الجماعة اليهودية الفرنسية La mutation du Judaisme التي نقتطف منها ما يلي: «ان حرب الجزائر قد اثرت فينا وحدثت في نفوسنا صدمة وتركت في ضمائرنا قلقا وضيقا حتى الآن، ولهذا نرى ان التجربة الجزائرية تعتبر في حد ذاتها جزءا من وجودنا وضميرنا»^(٧٥).

بعد هذا نتطرق اخيرا الى اهم النتائج التي اسفرت عنها علاقة الحركة الصهيونية بيهود الجزائر، التي نلخصها في النقاط التالية:

١ - يتميز يهود الجزائر عن باقي يهود المغرب العربي بانهم اصبحوا بفعل الاندماج في البوتقة الفرنسية والمكانة المرموقة التي حصلوا عليها في ظل النظام الاستعماري بالجزائر، يعتبرون من اليهود الغربيين «شكنازيم» رغم اصولهم الشرقية «السفرديم» اعتمادا على طابعهم وميولهم التي اكتسبوها بفعل الثقافة الفرنسية والتي كانت سببا مباشرا في اضعاف الوازع الديني لفائدة الميول السياسية والمكاسب الاقتصادية. وهذا ما اضعف حماسهم للهجرة الى اسرائيل. على ان هذا لا يعني مطلقا انهم كانوا «يتعاطفون مع سياسة اسرائيل» ويتجاوبون مع مشاريعها التوسعية، بل ان غالبية يهود الجزائر رأوا في التحالف مع اسرائيل رجوعا الى ضميرهم واثباتا لهويتهم كيهود، وهم في هذا يماثلون اليهود الغربيين الذين يعتقدون ان مصيرهم مرتبط بمصير الدولة اليهودية بفلسطين^(٧٦). حتى ان احد اليهود المهاجرين الى فرنسا صرح قائلا في معرض كلامه عن اسرائيل: «ان اسرائيل بالنسبة لنا شيء بديهي، ولهذا فسوف نعيش معا او نموت معا»^(٧٧).

٢ - لم ير اليهود الجزائريون في الهجرة الى اسرائيل حلاً لمشاكلهم، وضمانا لمستقبلهم، وهذا ما سبب خيبة أمل في اسرائيل، حيث فسر سلوك يهود الجزائر، حتى من أكثر المعتدلين، بأنه بمثابة فشل ذريع للاديبولوجية

الصهيونية التي لم تعمل على تهيئتهم للقدوم الى اسرائيل ولم تحرص على استقبالهم، مستدلين على ذلك برسالة مؤرخة في ١٣ جوان ١٩٤٤، بعثتها الوكالة اليهودية الى رئيس فرع الحركة الصهيونية بالجزائر العاصمة: هالير B. Haler، تعلمه فيها بأن جهود الوكالة سوف تركز على تهجير اليهود من المناطق المعادية، وبالتالي لا تعطى الأسبقية لليهود المغرب العربي نظرا لتوفير الحماية الفرنسية لهم^(٧٨). وعلى كل فان اليهود الذين انتقلوا من الجزائر الى فرنسا بنية الهجرة الى اسرائيل عدلوا أخيرا عن قصدهم وآثروا الإقامة بفرنسا محتفظين بالجنسية الفرنسية بعد أن حصلوا على أعمال مناسبة ووجدوا تعاضداً لدى اليهود الفرنسيين. وهذا ما يدفعنا الى القول بأن الحالة المعاشية لليهود الجزائريين والوضع الاقتصادي الذي كانوا عليه كان يتحكم الى حد بعيد في هجرتهم الى اسرائيل، وليس العاطفة الدينية أو النزعة الصهيونية كما يدعي بعض الغلاة من الصهاينة، بدليل أن هناك احصاء يثبت ان ٧٠٪ من أرياب العائلات اليهودية التي هاجرت من الجزائر وباقي اقطار المغرب العربي الى فرنسا كانوا راضين عن أوضاعهم ولا يفكرون مطلقا في الهجرة الى اسرائيل، كما أن ٤٤٪ ممن كانوا يعتمرون الهجرة الى اسرائيل كانوا غير راضين عن حالتهم المعاشية وغير مرتاحين الى الأعمال التي كانوا يقومون بها^(٧٩).

٣ - كانت فرنسا بمثابة منطقة جذب واستقطاب لليهود الجزائريين، الذين آثروا الإقامة بها على الانتقال الى اسرائيل، ففي هذا الصدد نلاحظ أن غالبية اليهود الذين هاجروا من الجزائر بين ديسمبر ١٩٦١ وجويلية ١٩٦٢ فضلوا الاستقرار بفرنسا، كما أن نسبة ٣٧٪ من اليهود المهاجرين ما بين ١٩٤٨ و ١٩٦١ من أقطار المغرب العربي ومن ضمنها الجزائر استقروا في كل من فرنسا وكندا وعاد البعض منهم الى مواطنهم الأولى بالمغرب العربي. ولهذا فلا نستغرب اذا عرفنا أن عدد اليهود الذين هاجروا الى اسرائيل ما بين ١٩٥٢ و ١٩٦١ يماثل تقريبا عدد يهود

المغرب العربي الذين غادروا اسرائيل متوجهين الى الأقطار الأوروبية وأمريكا^(٨٠).

٤ -

رغم النتائج التي تحصلت عليها الحركة الصهيونية لدى يهود الجزائر والتي سبقت الاشارة اليها، الا أنها في واقع الأمر ظلت تعتبر نتائج متواضعة اذا ما قارناها بالنجاحات التي حصلت عليها مع يهود المغرب وتونس وليبيا. وكذلك اذا أخذنا بعين الاعتبار الجهود الضخمة والدعاية المكثفة والتسهيلات المتوفرة لاستقطاب اليهود وتوجيههم نحو فلسطين المحتلة، فكل ذلك لم يستطع أن يقنع غالبية اليهود الجزائريين بالتخلي عن الامتيازات الاقتصادية في كل من الجزائر وفرنسا، وتقبل الأوضاع الاقتصادية باسرائيل وما تستلزمه من سلوك خاص وما تفرضه من تقشف وتضحية.

ويكفي أن نتعرف على مدى الجهود المبذولة من قبل الوكالة اليهودية لاستقطاب يهود الجزائر وباقي أقطار المغرب العربي اذا عرفنا أنه في ما بين ١٩٤٩ و ١٩٥٠ انشئت ١٩ مزرعة نموذجية بفرنسا ليتدرب فيها ١٢٠٠ شاب يهودي على أحدث الأساليب الزراعية، وفقا للطرق المتبعة في مستعمرات الكيبوتزيم Kibboutzim، ويتلقون فيها مبادئ الدعوة الصهيونية، يشرف عليها مبعوثون اسرائيليون يهود يدرسون خصيصا لهذا الغرض في ملتقيات Séminaires تدوم أربعة أشهر وتلقى فيها محاضرات عن الحالة السياسية والوضع الاقتصادية والثقافية ليهود المغرب العربي، كما تدرس أثناء هذه الملتقيات اللغة الفرنسية لتسهيل الاتصال مع اليهود^(٨٢).

٥ -

ان هجرة يهود الجزائر الى اسرائيل كانت تتم في أغلب الأحيان على مرحلتين، الأولى يتوجه اثناءها المهاجرون الى فرنسا حيث يجمعون في معسكرات تهيئة، وكان في طليعة هذه المعسكرات معسكر أروناس

Arenas القريب من مرسيليا الذي وضعته السلطات الفرنسية تحت تصرف الوكالة اليهودية عام ١٩٤٥ ، وبعد أن أدخلت عليه اصلاحات تم تهجير ما ينيف عن ٢٥٧.٠٠٠ مهاجر يهودي الى اسرائيل أغلبهم من أقطار المغرب العربي، وذلك طيلة السنوات الممتدة من ١٩٤٥ الى ١٩٦٥^(٨٣).

أما المرحلة الثانية فكانت تتم بالانتقال إلى اسرائيل، وهنا نلاحظ ان غالبية المهاجرين الى اسرائيل كانوا من اليهود الفقراء أو الذين لم يألفوا العيش حسب الطريقة الغربية مثل يهود منطقة مزاب بالصحراء الجزائرية الذين هاجر أغلبهم الى اسرائيل ما بين ١٩٥٢ و ١٩٥٦ ، وكذلك يهود النواحي القسنطينية. هذا بالاضافة الى اليهود الذين تأثروا ببعض الأزمات كالحروب الاسرائيلية العربية أعوام ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، أو انزعجوا من تدهور العلاقات الفرنسية الاسرائيلية في شهر ماي سنة ١٩٥٨ .

٦ - نتج عن هجرة اليهود من الجزائر وباقي أقطار المغرب العربي تزايد عدد اليهود الشرقيين باسرائيل (السفارديم) الذين كانت نسبتهم عند قيام دولة اسرائيل ١٠٪. وبفعل هذه الزيادة أصبحوا يؤلفون حوالي نصف عدد السكان. وربما يشكلون أغلبية السكان في المستقبل اذا استمرت المعدلات الحالية للولادة^(٨٤). وهذا ما قد يفقد اسرائيل صبغتها الغربية ويضعف روابطها مع المجموعات اليهودية بأوروبا الغربية وأمريكا مما يترك آثارا سلبية على علاقاتها بالعالم الرأسمالي. وهذا ما دفع أحد صحافيي جريدة هاآرئيس الى صب نقمته على يهود المغرب العربي في مقال له بتاريخ ٢٢ أبريل ١٩٤٩ ، جاء فيه ما يلي: «ان الهجرة من شمال افريقيا تثير مشكلة خطيرة... وان بدائية هؤلاء المهاجرين تصل الى الحضيض وأن مستواهم العلمي مساو للجهل التام^(٨٤)». متجاهلا أن من بين يهود

المغرب العربي ولا سيما الجزائر عناصر امتازت بحيويتها ونتاجها وقابليتها على التأقلم في المجتمع الاسرائيلي الهجين .

٧ - حاولت الحركة الصهيونية أن تنتفع من تجارب الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وان تتعرف على نفسية العرب الفلسطينيين من خلال التعرف على واقع المجتمع العربي بالجزائر، وان تدرس أعمال المعمرين وسلوكهم ازاء الجزائريين لتنتفع بها في تحقيق ما عجزت عنه فرنسا في الجزائر، في أرض فلسطين العربية وعلى حساب مصالح الشعب الفلسطيني . وفي هذا الصدد يجدر بنا أن نشير الى رسالة جامعية تقدم بها أحد الطلاب اليهود وهو هاينز فيشر Hainz E. Fischer الى جامعة باريس لنيل درجة دكتوراه تحت عنوان الاستعمار اليهودي لفلسطين La Colonisation Juive en Palestine قارن فيها صاحبها أساليب ونتائج الاستعمار الفرنسي بالجزائر بطرق ووسائل الاستعمار اليهودي لفلسطين، ومما جاء في هذه الرسالة: « ان تجربة الاستعمار الفرنسي في الجزائر يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار ... وأن فلسطين لا تختلف في شيء عن الجزائر فيما يخص موقف العربي من اليهودي ... ولهذا فمن المهم أن نقارن الحالة بفلسطين بالمرحلة الاولى للاستعمار الفرنسي للجزائر وان كانت الجزائر أكثر اتساعا وغنى من فلسطين » مؤكدا في دراسته هذه أن « كل الملاحظات المتعلقة بآفريقيا الشمالية تكاد تشابه الانطباعات التي تم الحصول عليها في فلسطين^(٨٥) » .

٨ - رغم تحيز يهود الجزائر الى جانب المستعمرين الفرنسيين ومعاداتهم للكفاح التحرري للشعب الجزائري، وتعاطفهم مع الأهداف العدوانية التوسعية للحركة الصهيونية العالمية، الا أن أفراد الشعب الجزائري، ومنظماته الوطنية وقادة ثورته التزموا جانب الاعتدال ولم يعادوا الأقلية اليهودية، بل حاولوا جاهدين اقناعها بضرورة التزام الحياد وعدم الاغترار بالدعاية الصهيونية، ولهذا السبب بالذات لا نسلم نحن بما يدعيه بعض اليهود من

أن الجماعة اليهودية بالجزائر اضطرت الى الهجرة الى اسرائيل وفرنسا بعد تعرضها لأعمال العنف والانتقام .

وبهذا الاستنتاج الاخير اختتم هذا البحث ، متمنيا ان يدرس اخوتنا الفلسطينيين التجربة الجزائرية في مقاومة الاستعمار الفرنسي والتغلب على مشاريعه الاستيطانية ليستفيدوا منها في استرجاع حقوقهم المشروعة في الأرض المغتصبة كما حاول الصهاينة في الماضي أن يتعرفوا على أساليب الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، وينتفعوا بمخططاته التوسعية ، لا سيما أن مصير الأمة العربية واحد سواء في الجزائر أو فلسطين أو في بقية الاقطار العربية الشقيقة .

- 1 - Chouraqui, A, les juives d'Afrique du nord marchent vers l'occident, Paris, P.U.F. 1952, P 63.
- 2 - Aperçu Historique, statistique et topographique sur l'Etat d'Alger, 3 édition, Paris 1830, P 148.
- 3 - Bloch, Isaac, Inscription, tumulaires des anciens cimetières Israélites d'Alger, Paris, A Durlacher, 1888, P 36, 93 et 95.
- 4 - Einsbeth, M. Le Judaïsme Nord- Africain, Etude démographique sur les Israélites, Constantine, 1931, P 22.
- 5 - Berman, (léon) Histoire des Juifs de France, des origines à nos jours, Paris, Lipschutz 1937, P 496.
- 6 - Einsbeth, le judaïsme, op-cit, P 22
- 7 - Berman, op-cit, P 496.
- 8 - Beanfin (Penal) Législation générale du culte Israélite en France et en Algérie et dans les colonies, Paris, girard 1894, P 229.
- 9 - Berman, op-cit, P 496.
- 10- Wen. ibid.
- 11- Einsbeth, les juives en Algérie, esquisse historique, depuis les origines jusqu'à nos jours, extrait de l'E ncylopédie coloniale et maritime, Paris, P 18.
- 12- Chouraqui, op-cit, P 321.
- 13- Doris Bensimon- Donath, Immigrants d'Afrique du Nord en Israël, Edition évolution et adaptation, Paris, Anthropes, 1970 P 12.
- 14- Ibid.
- 15- Journal Akhbar, 15 novembre 1872.
- 16- Doubnov, Simen, Précis d'Histoire juive des origines à nos jours, tra. par I Povgach, Paris. K youm 1933 P 292.
- 17- Bernard, Au. l'Algerie, Histoire des colonies Françaises, Paris, Plon, 1930 P 398.
- 18- Doubnov, op-cit, P 292.
- 19- Doris, Bensimon, op- cit P 47.
- 20- Claude Martin, les Israélites Algériens de 1830 à 1902, thèse, Pais, Herakles, 1936 P 363.
- 21- Laffont (pierre) Histoire de France en Algérie, Paris, Plon, 1980 P 266.
- 22- Doubnov, op-cit, P 293.
- 23- Bernard, op-cit, P 397.
- 24- Einsbeth, les juives en Algérie, op-cit, P18.
- 25- Ganiage, J. Les affaires d'Afrique du nord de 1930 à 1958, publication de Sorbonne, Paris, S.D. P2.
- 26- Chouraqui op-cit, 322.
- 27- Journal de la défense, 2 Novembre 1934.
- 28- Martin, op-cit, P 367, 369 et 370.
- 29- Journal de la défense, 2 Novembre 1934.
- 30- Chouraqui A, op-cit, P 231.
- 31- Martin, op-cit, P 69.
- 32- Laffont, op-cit, P 269.
- 33- Berman, op-cit, P 499.
- 34- Doris Bensimen, op-cit, P 46.
- 35- Jounal, l'Echo d'Alger 17 juin 1921.
- 36- Chouraqui, A. l'Alliance Israélite Universelle et la renaissance juive contemporaine, Paris, P.U.F. 1956 P 347.
- 37- Zenati, R.le Problème Algérien vu par un indigène, la quéstion juive, in revue l'Afrique Française, juin, 1938, P 122 et 123.
- 38- Berman, op, cit, P, 500.

(39) - مجلة الشهاب، الجزء العاشر، المجلد العاشر، جمادى الثاني، 11-1353 ديسمبر 1943 ص :
438 إلى 461.

- 40- Chouraqui, l'Alliance, op-cit, P 347.
- 41- Congrès juif mandial, la conscience juive face à l'histoire, le pardon, textes présentés et revues par E; Amado- lévy valansi et J. Halperin, préface d'A Nacher paris P.U.F. 1965 P 202.
- 42- Protocole de 2 eme congrés sioniste à bâle 1897 P 53-54 cité par daris P 45.
- 43- Archives Sioniste, dossier, Z 4/3262, Lettre de l'organization sioniste, à J. Jhurs, de 23 Juin 1927. Cité par doris op-cit, P11.
- 44- Arcives sioniste dossier Z 4/3214, lettre d'aimé pallière (1927) a la fédération sioniste de france, cité par doris P 11.
- 45- Archives sionistes dossier Z 4/3214, note confidentielle, S.D. Cité par doris op-cite P 78.
- 46- Ibid.
- 47- David Bengurion, Rebirth and destiny of Israël, New-York, 1954.

نقلا عن :

عبد العزيز مصطفى، اسرائيل ويهود العالم، دراسات فلسطينية، بيروت 1954، ص 56.

- 48- Le Maghreb, Etudes et documents, Algerie, Tunisie, Maroc. le juifes d'Afrique du nord, leur situation et leur problemes en 1968 No 27, Mai-Juin 1968. P 26.
- 49- Le petit journal, de 25 Décembre 1911.

50 - محمود صالح منسي، فرنسا والصهيونية، مجلة الشرق الأوسط، جامعة عين شمس بالعدد الأول سنة 1974، ص 41.

- 51- Henri Chenouilli, Diaspora méconnue, les juifes d'Algérie, Paris, P 67.
- 52- De laffont, op-cit, P 264.
- 53- Chouraqui A. op-cit P 305.
- 54- Ibid, P 306.
- 55- Ibid, P 305.
- 56- Ibid, P 308.
- 57- Ibid, P 306.
- 58- Ibid, P 306.
- 59- Doris- Bensimon, op-cit, P 78.
- 60- Journal: lavie juive, juillet 1951.
- 61- Lubetzki, J. la condition des Juifs en France sous l'occupation allemande (1940-1944) Paris, 1945, P 248, 250 et 251.
- 62- Le Maghreb, op-cit, P 27.
- 63- F.L.N. document No 5 paris Decembre 1959, (18 P): les juifs d'Algérie dans le Combat Pour l'indépendance nationale.
- 64- Etienne B, Maghreb et Israël, in revue juridique et politique, Paris No 4 octobre-decembre 1967, P 511.
- 65- Information juive, No 132 août- septembre 1961, P3.
- 66- Doris Bensimon, op-cit, P 86 et 91.

67 - وليم فهمي، الهجرة اليهودية الى فلسطين المحتلة، معهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات الفلسطينية، القاهرة 1971، ص 322.

- 68- Archives Nationale d'outre mer, à Aix-en-provence, 29H. 32 (34 + 53) Bulletin Hebdomadaire Israélien No 64.
- 69- Doris- Bensimon, op-cit P 45.
- 70- Agence juive pour la Palestine, statistiques de l'immigration, Décembre 1955 P6, cité par Dois op-cit P 92.
- 71- Le Maghreb op-cit, P 28.
- 72- Ibid, P 27.
- 73- Congrès juif Mondial, op-cit, P 200 et 202.
- 74- Ibid, P 200.
- 75- Doris- Bensimon, op-cit, P 221, 224 et 225.
- 76- congrès Juif mondial, op-cit, P 205.
- 77- Archives sionistes, dossier S 6/3848, cité par Doris, op-cit, P 84.
- 78- Doris- Bensimon, op-cit, P 234.
- 79- Ibid, P 101 et 102.
- 80- L'EXécutif de l'organisation, section de la jeunesse et du hchalutz, rapport d'activites de la section du 1er mai 1949 au 4 fevrier 1950, soumis au Conseil sioniste général, Jérusalem, avril 1950, P 13, cit par Doris op-cit, P 88 et 89.
- 81- Doris- Bensimon, op-cit, P 94.

• 82 - ولیم فہمی، نفس المصدر، ص 181 .

• 83 - المصدر السابق، ص 173 .

- 84- Heinz; E. Fischer, la colonisation juive en Palestine, Ses étapes, ses difficultés, thés, Paris lip schutz, 1937 P,

مرافق الأمن والتعليم والأشغال العامة في فلسطين كما يكشف عنها موظف عربي كبير في الادارة الانتدابية

د. احمد طربين

جامعة دمشق

الموظف العربي: هو ميشيل ف أبكاربوس، مواطن يحمل الجنسية الفلسطينية، ولد في مدينة بيروت عام ١٨٨٤ وانتسب الى المدرسة الابتدائية في حي المصيطبة عام ١٨٩٢ حيث أمضى ثلاثة أعوام، وتابع دراسته الابتدائية والثانوية في مدرسة عينطورة خلال ستة أعوام، التحق بعدها بالكلية الانجيلية السورية (الجامعة الامريكية في بيروت اليوم) ودرس العلوم التجارية خلال أربعة أعوام وحصل في نهايتها على شهادة البكالوريوس. وغادر بيروت عام ١٩٠٥ الى القاهرة للالتحاق بأفراد أسرته، وعمل في بنك كريديه ليونيه هناك. وما لبث أن استقر في الخرطوم لفترة قصيرة عمل خلالها مع حكومة السودان ثم توظف في بنك مصر بالخرطوم وأصبح مساعداً للمدير. وتولى بعد ذلك منصب مدير بنك مصر في بور سودان، حتى اذا أصيبت أعمال البنك المذكور بالشلل، تركه ابكاربوس وعاد الى مصر عام ١٩١٢ وعين في الادارة المالية بالمنصورة. وفي عام ١٩١٤ أقبل على دراسة الحقوق حتى اذا استوعب موضوعاته مثل أمام لجنة فرنسية جامعية كانت تحضر سنويا الى مصر لفحص الطلبة المنتسبين الى مدرسة الحقوق.

وفي عام ١٩١٧ أدى الفحص النهائي أمام اللجنة المذكورة فنجح ونال شهادة الليسانس في الحقوق، ثم نقل الى الادارة المالية في طنطا. وبعد الاحتلال البريطاني لفلسطين قصد ابكاربوس مدينة بيت المقدس عام ١٩٢٠ وعيّن في الادارة المالية للقوات البريطانية في فلسطين (ادارة بلاد العدو المحتلة) التي تحولت الى حكومة الانتداب بعد أن تسلمت الحكومة المدنية سلطاتها من الادارة العسكرية بفلسطين. وفي عام ١٩٢٥ رقيّ الى وظيفة مدير الخزينة ثم اصبح نائباً للسكرتير المالي، وقد أحيل على التقاعد عام ١٩٤٤ فدخل ميدان القانون وزاول الاستشارات الحقوقية.

وبعد نهاية الانتداب البريطاني لفلسطين عام ١٩٤٨ قصد مدينة بيت لحم. وفي آب من العام نفسه تم الاتفاق بين الزعماء الفلسطينيين وجامعة الدول العربية على تشكيل (حكومة عموم فلسطين)، وتألّفت هذه الحكومة اثر انعقاد مؤتمر غزة (١ تشرين الاول ١٩٤٨). برئاسة أحمد حلمي باشا عبد الباقي، واختير ايكاريوس وزيرا للمالية.

وفي صيف عام ١٩٤٩ نرح الى بيروت وشغل وظيفة استاذ مساعد في الجامعة الامريكية في بيروت، وتولى تدريس القانون الاداري والدستوري في لبنان وسورية والعراق والمملكة العربية السعودية ومصر. وشغل ما بين ١٩٥٢ و ١٩٥٣ وظيفة في النقطة الرابعة ببيروت ثم عيّن مساعداً لمدير النقطة الرابعة.

وبرغم أن ايكاريوس عمل في حكومة الانتداب وشغل منصبا مرموقا فيها، غير أنه لم يكن راضيا عن السياسة البريطانية الانتدابية واعمالها التعسفية في فلسطين، ولذلك ما ان أحيل على التقاعد، حتى استلهم ضميره ووضع كتابا قيما باللغة الانكليزية ليقرأه الغريون بعنوان: *Palestine Through the Fog of Propaganda* أي «فلسطين من خلال ضباب الدعاية»، نشره في لندن عام ١٩٤٦. كما ألّف كتابا اثناء عمله في الجامعة الامريكية بعنوان (العربي الحمي) لم نقع عليه. وفي الثالث عشر من ايلول ١٩٥٣ توفي ميشيل ايكاريوس بالذبح القلبية في بيروت ودفن في مقبرة طائفة اللاتين.^(١)

الكتاب: يقع في ٢٤٠ صفحة من القطع المتوسط، ويتضمن مقدمة واثني عشر فصلا وملاحق. كتب المقدمة الجنرال سير ادوارد سبيرز E. Speass الذي كان عام ١٩٤٢ ضابط الارتباط بين المصالح البريطانية في سورية ولبنان وبين المندوب العام الفرنسي. وبعد اعتراف بريطانيا باستقلال بلدي المشرق، عيّن سبيرز وزيرا مفوضا لدى حكومتها، وظل في منصبه حتى كانون الاول ١٩٤٤. وقد دافع سبيرز عن الضمانة البريطانية (والامريكية) التي تعتبر ان البلدين العربيين يشكلان قاعدة هامة للمجهود الحربي للحلفاء، ثم تابع عمله في مجلس العموم وقام بمساندة البلدين ضد مطامع السياسة الفرنسية انذاك.

ويبدو أن سبيرز قد تأثر بالحقائق الدامغة التي أوردها ايكاريوس في كتابه، فقد تساءل في مقدمته «كم من البريطانيين يعلمون أن (النبوءة التوراتية) بعودة اليهود الى فلسطين قد تحققت فعلا بعد عودتهم من سبي بابل؟ اذ لم يظهر بين

اليهود أي نبي، إثر طردهم على يد الرومان بعد ميلاد المسيح، يعلن أنهم سيعودون الى فلسطين مرة ثانية ايضا. وقال سبيرز: ان المواطنين في بريطانية والولايات المتحدة لديهم احساس قوي بالعدالة ويرجون أن يكونوا منصفين، وهم لا يستطيعون أن يكونوا كذلك اذا استمعوا فقط الى الحكاية من طرف واحد. فليس أصعب من الحكم في موضوع منفرد كموضوع فلسطين، ما دام الصهيونيون يسيطرون على مصادر الدعاية والاعلام في العالم، ولديهم عدد كبير من ذوي النفوذ يشغلون أعلى المناصب لدعم قضيتهم. في حين أن العرب في الشرق الاوسط، برغم أن تعدادهم يبلغ الخمسين مليوناً، محرومون كلياً من هذه المزايا الاعلامية الضخمة». ويستطرد سبيرز قائلاً: «ترى هل سمع أحد هنا (بريطانية) أو في الولايات المتحدة بجريدة ذات نفوذ يسيطر عليها العرب، وهل كان عربي ما عضوا في البرلمان، أو عضوا في الكونغرس ومجلس الشيوخ؟ ومع ذلك قيل ان خمسة بالمائة من اعضاء مجلس العموم الحالي هم يهود ليسوا بالضرورة صهيونيين، ومعلوم تماما نفوذ التصويت اليهودي في نيويورك على الحكومة الامريكية.

«وبما أن القضية العربية قاصرة عن طرح نفسها على نحو ما يفعل خصومها، فقد أصبح لزاماً على الجمهور (البريطاني) أن يحاول تفهمها. ان الشعب البريطاني يرغب في تحقيق العدالة، ولن يستطيع أن يصل الى قرار عادل الا اذا وقف على حقائق القضية. وبالإضافة الى ذلك فلو اقتربنا ظلماً ضد العرب بسبب الجهل وخلافه، فسوف نخسر صداقة العرب ونجلب على انفسنا عداوة شعوب تقع في صميم خطوط مواصلاتنا الامبراطورية وتسيطر على مواردنا النفطية الحيوية... ويجب أن يكون مفهوماً أنه بصدد القضية الفلسطينية لا يوجد سوى فكر واحد ينتظم الشرق الاوسط من مصر الى الخليج^(٢)، كذلك يجب أن نكون على ثقة بأن العرب يشعرون بأننا قد أمعنا في ظلمهم والجور عليهم.

ويروي سبيرز كيف أن بريطانية طلبت مساعدة العرب ضد الترك في الحرب العالمية الاولى ووعدهم الاستقلال والسيادة على بلادهم، وقد ثبت الوعد في مراسلات مكماهون-الحسين، وكانت مساعدتهم قيمة لا تقدر بثمن، وفقاً لما

صرح به لويد جورج رئيس الوزراء، واللورد النبي القائد العام . وحين صدر وعد بلفور عام ١٩١٧ هدد العرب بوقف القتال ضد الترك، وحالاً أفهمناهم أن استيطان اليهود في فلسطين لن يسمح به الا بقدر ما ينطبق مع حرية العرب الاقتصادية والسياسية، ولكن الصهيونيين ما كانوا يقبلون منذ البداية بأقل من تحويل فلسطين بأكملها الى دولة يهودية، يصبح العرب فيها اقلية خاضعة لهم .

فلا عجب اذا أصيب العرب بخيبة مريرة بعد أن استقبلونا كمحررين من الترك . وفي فلسطين اتخذت مراتهم شكل ثورات متزايدة الاتساع ضد الهجرة اليهودية والحكم الانتدابي البريطاني، فقمعت ثوراتهم بدون شفقة بواسطة الاسلحة البريطانية . لن يقبل العرب ابدا أن يصبحوا اقلية في بلادهم، واليوم (١٩٤٦) ثمة ١٢٠٠٠٠٠ عربي و ٦٠٠٠٠٠ يهودي في فلسطين، وهؤلاء المهاجرون الغرباء الذين تدفقوا أساسا من أوروبا الوسطى والشرقية، ليس فيهم شيء من الصفات السامية لليهودي، فهم أجناب عن فلسطين، مثلما الروس أجناب عن إنجلترا» .

ويخلص سبيرز الى القول بأن «من واجب الرجال والنساء في بريطانية محاولة فهم وجهة النظر العربية .. ولهذا السبب ينبغي قراءة كتاب السيد ابكاربوس لأنه جهد عقلائي لتوضيح مشاعر العرب .. وخلف الكلمات المطبوعة يسمع المرء التساؤل الهامس - كيف يمكن لأمة حاربت العالم وحدها ليكون لها الحق في أن تكون حرة، كيف يمكنها ان تحلم بانكار هذه النعمة الحيوية على امة اخرى مهما كانت صغيرة ولا حول لها؟ ان العرب ما زالوا يعتقدون بميثاق الاطلسي وأولئك الذين أعلنوه باعتباره قانونهم . انهم لا يستطيعون أن يصدقوا بأن الذين ينكرون الحرية للآخرين يمكن ان يتحرروا أو أن القانون والنظام سيسود العالم اذا انتهكت القوة القاهرة حقوق أي شعب مؤهل وقادر على حكم نفسه بنفسه، واذا ما أخضع باغراق بلاده بالغرباء والاجانب، لأن الدول الاقوى ذات الاراضي الواسعة لا ترغب في استقبالهم»^(٣) .

أما فصول الكتاب الاثنا عشر فيفند كل منها المزاعم الصهيونية في مختلف

نواحي الحياة العامة ويكشف عن بطلانها وزيفها. وتعرض الفصول لاحوال المجتمع في فلسطين، وديبلوماسية الاتفاقات السرية (مراسلات الحسين مكماهون، وسايكس بيكو، ووعد بلفور..). كما تعالج علاقة الادارة العسكرية البريطانية مع اللجنة الصهيونية، وبداية الادارة المدنية والانتداب، فتشرح عملية تطبيق الانتداب وسياسة الاراضي والزراعة والصناعة. وتحدث عن المساهمة النسبية في الدخل العام، والهجرة. ويختتم الكتاب بفصلين عن الوضع الراهن وعن لجنة التحقيق الانكلو أمريكية (١٩٤٦).

وترجع أهمية الكتاب الى انه يلقي الضوء على المساعي الصهيونية البريطانية الخبيثة لتهود مرافق الحياة العربية العامة في فلسطين بايراد معلومات دقيقة جديدة، قد لا يعرفها الا موظف كبير في الادارة الانتدابية. ان ايكارپوس بحكم منصبه كسكرتير للادارة المالية في حكومة فلسطين كان يمكنه ان يطلع عن كتب على تقارير اللجان العديدة التي حضرت الى فلسطين للتحقيق في أسباب ثوراتها، وكان يضع يده على سجلات الادارة الانتدابية فيما يتصل بالواردات والمصروفات العامة للبلاد، ويعرف كل شاردة وواردة من نفقات ومخصصات الانتداب في شتى وجوه الحياة الفلسطينية العامة. وبفضل تفاصيل معلوماته الموثقة بالارقام الدقيقة والتحليلات الصائبة يعد كتاب ايكارپوس من أهم ما صدر باللغات الاجنبية موضوعية ونزاهة عن الحقائق الحياتية العربية التي كان يتحرق لتهودها الصهيونيون والبريطانيون بعيداً عن روح الانتداب ونصه. فالكتاب بأسلوبه الهادئ يدحض بقوة المزاعم الصهيونية والبريطانية في فلسطين، ويبدد ضباب الدعاية الذي نسجته من الاوهام والاضاليل. لقد اعترف ايكارپوس بما حققته الدعاية الصهيونية من نجاح في ترويح التزييف والتنكر للحقائق الثابتة التي قامت وتقوم على ارض فلسطين، ولقد راعه ذلك وحز في نفسه. ولقد أشار الى ذلك في بعض ما سطره بالعربية حين قال: «أرى فيض من المداد هدراً في تمجيد ما أنجزه اليهود في فلسطين. وان تيار الدعاية الذي شرع فيه حينما أصبح قيام الوطن القومي اليهودي محتملاً، قد كسب زخماً من كل انجاز يدعي به، حتى اصبح مثل النهر

الواعي لقوته، قد حمل الرأي العام والعطف غير عاين بالحقائق الواقعية للقضية. لقد جرت بض محاولات قام بها العرب واصدقائهم لتنوير الرأي العام بسبل من الحقائق في الصحف اليومية الكبرى حتى العام الماضي، ولكن دون جدوى، وان القليل الذي تسرب من وقت الى آخر، كان متقطعا بحيث أنه لم يؤثر قطعا حتى على صفحة التيار الجياش للدعاية الصهيونية»^(٤).

يقدم المؤلف لكل فصل من كتابه بمقدمة قصيرة توضح احوال فلسطين في العهد العثماني لترسم لوحة مقارنة تبين ما كانت عليه احوالها وما صارت اليه تحت الادارة الانتدابية. ثم يشرح بتقصي أهم جوانب الفصل وشرح ما قامت به الادارة الانتدابية لهويد فلسطين وتنفيذ رغائب الاستيطان الصهيوني، كل ذلك بأسلوب سهل بعيد عن الانفعال، ليخلص في النهاية الى ان دعاوي الصهيونية البراقة في ظاهرها، ليست الا من قبيل خداع النظر الناجم عن نقص المعلومات الذي يترتب عليه فساد الحكم وسوء التقدير.

وسنعرض في موضوعنا لما أورده ايكاروس فقط حول عملية تطبيق الانتداب في مرافق الحياة العامة المتصلة بالأمن العام والتربية والاشغال العامة.

★ ★ ★

ظلت الحكومات البريطانية المتعاقبة ما بين ١٩٢٠ و ١٩٣٧ تدعي بأن التزاماتها بموجب صك الانتداب الفلسطيني هي التزامات غير متناقضة ويمكن التوفيق بينها، الى ان ارسلت لجنة بيل الملكية الى فلسطين أواخر عام ١٩٣٦، فاعترفت في تقريرها الذي صدر في تموز ١٩٣٧ باستحالة التوفيق بين الالتزامين الصادرين من بريطانيا الى العرب واليهود لتناقضهما، وذلك بعد أن عملت على تصعيد هجرة اليهود وزيادة نسبة الاراضي التي يملكونها، كي تتعقد المشكلة الفلسطينية ويتعذر حلها^(٥).

ومع مرور الزمن على الجهود الانتدابية في تنمية الوطن اليهودي، اصبحت عداوة العرب له اكثر ومرارتهم أشد. ولا عجب، فكل اجراء تتخذه كان يضر

المصالح العربية بنفس الدرجة التي كان ينفع المصالح اليهودية .

ولقد استغرق الامر سبعة عشر عاما من الاضطرابات والثورات الدامية لتحقيق الحكومة البريطانية من المسلمة الاولى القائلة بأن الانتداب غير قابل للتطبيق في فلسطين ، والعجب هو التصور بأنه مقترح عملي ، والظن بأن العرب عاجلا أم آجلا سيتخلون عن حقوقهم الوطنية ، وذلك بفضل الوهم الذي أشاعه أدعياء الوطن القومي اليهودي . وحين ضغط أعضاء الوفد العربي في جنيف على بلفور ، تبرع باجابة صريحة وقال بأن الوطن القومي كان تجربة .

لقد كان يعلم مدى الصعوبات التي سوف يلقاها العرب نتيجة فرض المخططات الصهيونية عليهم ويشعر كم سيشجها العرب ويستنكرونها بكل المرارة وم يستحيل تطبيقها بسلام^(٦) .

تجربة في الحق ليس لها نظير في التاريخ البشري المسجل ، ولكن الطريق نحو التقدم محفوف بالتجارب ، وبالتجربة والخطأ نصل أخيرا الى كشف ما . ولكن نادرا ما نأخذ جنسنا البشري كموضوع للتجربة . القرود والارانب والحيوانات الدنيا هي ما يُختار لهذا الغرض فقط بضعة منها في المرة الواحدة . ولكن هذه التجربة ، تطعيم الصهيونية على الارومة العربية في فلسطين ، تشمل اليوم تضحية ما يزيد على المليون نسمة سوف يفقدون هويتهم في ارضهم اذا قيص للتجربة أن تنجح . ومع ذلك فتلك (التجربة) التي خطط لها اليهود ، قد لقيت تبريك عصبية الامم التي لم تدرك في ذهولها أنها بحسب بنود ميثاقها ، يجب على الادارة الانتدابية أن تدير البلاد من أجل نمو ورفاة سكانها الذين ٩١ ٪ منهم عرب ، باعتبارها وديعة مقدسة للحضارة . ومجلس العصبة كان يبدو راضيا عن التقارير السنوية التي تقدمها له دولة الانتداب من حيث ان البلد الموكول لانتدابها كان يدار وفقا لمبادئ العصبة^(٧) .

وينتقل ابكاريوس بعد هذا التقديم الى عملية تطبيق الانتداب البريطاني في فلسطين فيعرض بالنقد والتمحيص لعدد من مرافق الحياة العربية هناك ودحض الدعاوي الصهيونية بشأن المنافع والفوائد التي جناها العرب من جراء الهجرة

والاستيطان الصهيونيين والمشاريع اليهودية المختلفة. كما يمضي في تقديم ما حققته الادارة الانتدابية من أجل (تنمية) هذه المرافق و (الارتقاء) بها.

ويوضح ان نتائجها كانت دائما في خدمة الاهداف الصهيونية الرامية الى تهويد فلسطين، والمرافق التي سنعرض لها هي: الامن العام، التربية، الاشغال العامة أما المرافق الاخرى مثل الصحة والهجرة وسياسة الاراضي، والزراعة، والصناعة، والمساهمة بالنسبة في الدخل، وعلاقة الهجرة بالرعاية المزعوم، والحكم المحلي... وخلافه، فلن يتسع مجال البحث لعرضها على اهميتها، اذ يحتاج كل منها لبحث مستقل.

الامن العام:

يبدأ ابيكاربوس فيشرح، بإيجاز، تنظيم الشرطة والدرك ابان الحكم العثماني: كانت قوة الدرك في عموم فلسطين تتألف من خمس وحدات تشمل ضابطين وثلاثة عشر صف ضابط و ٧٠ رجلاً. هذه الوحدات الخمس كان ثلاث منها خيالة واثنتان مشاة. وثمة وحدة خيالة ترابط في مدينة القدس، وواحدة في يافا، وثالثة موزعة بين غزة والخليل وبئر السبع.

أما وحدتا المشاة، فكانت احدهما ترابط في القدس، وينفصل عنها للخدمة في مدينة الخليل ١٠-١٥ رجلا والآخرين كانوا يخدمون في مناطق يافا وغزة وبئر السبع^(٨).

أما قوة الشرطة فكانت تتألف من ٤٥ نفرا: ١٥ في القدس، ١٠ في غزة، ١٠ في يافا، ١٠ في الخليل وبئر السبع، وقد بلغت نفقات هذه القوة حوالي ٢٨ الف ليرة تركية سنويا وهي تعادل ٢٥ الف جنيه استرليني.

ويتضح أن فلسطين اليوم (١٩٤٦) ومساحتها تعادل ثلاثة امثال مساحة سنجق القدس العثماني (باستثناء النقب التي كانت وظلت غير مأهولة عمليا) مع

الآخذ بعين الاعتبار المناطق الشمالية الأكثر سكاناً، لا تحتاج لأكثر من أربعة أمثال قوة الشرطة في العهد العثماني، بل إنها تزيد عن حاجة عموم فلسطين بحدودها الدولية الحاضرة. وكانت القوة الكبيرة نسبياً ترابط في القدس حيث وجودها مرغوب فيها للحفاظ على مهابة المتصرف العثماني في المدينة الرئيسية بالسنيق. والمدينة الرئيسية للمناطق الشمالية كانت بيروت، والرقعة الممتدة من عكا إلى نابلس والمشملة على حيفا، كان بالقياس إلى بيروت، لها نفس الصفة الريفية لمناطق الضاحية المعتمدة على القدس. ولكن بعد احتلال فلسطين مباشرة شكلت الإدارة العسكرية نواة لقوة الشرطة بالاعتماد أساساً على جيش الاحتلال للحفاظ على الأمن الداخلي. وحالما تسلمت الإدارة سلطتها أصبح من الضروري زيادة عدد أفراد قوة الشرطة تمهيداً لخفض القوات العسكرية التي كانت تكلف دافع الضرائب البريطاني حوالي ثلاثة ملايين جنيه سنوياً. ولم تكن أحوال الخدمة في سلك الشرطة جذابة، ففي عام ١٩١١ استقال ثلث أفراد قوة الشرطة بسبب ضآلة الرواتب. وبعد تحسين أحوال الخدمة عام ١٩٢٢ اتضح أنه يمكن زيادة القوة إلى ٧٨ ضابطاً و ١١٥٩ نفراً من رتب أخرى. وبالإضافة إلى ذلك تشكلت قوة درك مؤلفة من قسم بريطاني تعداده ٣٨ ضابطاً و ٧٢٤ من مختلف الرتب، وقسم فلسطيني مؤلف من ٥٥٠ دركياً بين خيالة ومشاة. وكان دافع الضرائب البريطاني يدفع نفقات القسم البريطاني، ولكن بسبب الانسحاب التدريجي للحاميات العسكرية، فإن النفقات التي دعي لتحملها عام ١٩٢٣ كانت نصف النفقات السابقة. تمت هذه الإجراءات تحت إشراف السير هربرت صموئيل، وشهدت فلسطين فترة سلام قصيرة أعطت انطباعاتاً زائفة بأن العداء لسياسة الوطن القومي كان يتناقص. ولم تكن الوكالة اليهودية راضية عن التقدم الذي تحقق بإقامة الوطن القومي وكانت تطلب تصعيد (سرعة العزف) مع علمها بأن مثل هذا التصعيد يمكن أن يعكس بسهولة ما تنطوي عليه سياسة الوطن القومي من بغض مستتر نحو العرب. فقد جهر الدكتور أيدر^(٩) صراحة برأيه أمام لجنة هايكرافت للتحقيق وذكر أن شرط استتباب السلام الدائم في فلسطين إنما يتحقق في تسليح اليهود الصهيونيين، وطلب أن يوضع اليهود على قدم الاستعداد

للدفاع عن انفسهم في حالة وقوع هجمات عربية على مستوطناتهم. واقرت الادارة الانتدابية هذا الطلب ولكن كإجراء احتياطي، تقرر تزويد المستوطنات بترسانات سلاح مختومة بخاتم الشرطة ويمكن استعمالها في الدفاع عن النفس بكسر الختم وقت الطوارئ وما يشير الدهشة ان تترك السلطات موضوع تقرير حالة الطوارئ بيد المستوطنين اليهود الذين طالبوا بعد الحصول على الامتياز بأن تزودهم السلطات الانتدابية بالسلاح والذخيرة من الصناديق الحكومية العامة.

وبعد عام واحد حاولت الحكومة الغاء الترسانات لأنها شعرت أن وجود الترسانات كان اقرارا بعجزها عن الحفاظ على السلام في البلاد، او لأنها عكست عجزها ضد الاصرار اليهودي، وكلا السببين كان كافيا لنسف سلطتها ومكانتها. وجادلت الحكومة بأن الطرق الامنية قد بنيت لضمان وصول القوات المسلحة بسهولة وسرعة في حالة الطوارئ، وان البلاد يسودها الاستقرار والسلام بحيث يمكن استبعاد تجدد اضطرابات عام ١٩٢١. وتوصلت المعارضة اليهودية الى تسوية مع السلطات وتقرر الغاء ترسانات السلاح تدريجيا خلال سنتين. وكان على الحكومة في غضون ذلك أن تتابع بناء الطرق الامنية. وبينما نص القرار على أن يشهد عام ١٩٢٦ نهاية ترسانات السلاح، فقد اتضح عندما طرح الامر أمام لجنة شو عام ١٩٢٩ انها ما زالت قائمة في المستوطنات اليهودية، وان واحدة منها على الاقل قد استعملها اليهود خلال ثورة ١٩٢٩.

وفي عام ١٩٢٦ وعلى اثر تشكيل قوة حدود شرقي الاردن الغيت قوة الدرك بقسميها، وتشكلت قوة الشرطة من ٢٠٠ من البريطانيين و ٢٠٠ من الدرك الفلسطيني بحيث بلغت قوتها ١٢٥ ضابطا و ١٦٢٧ نفرا من مختلف الرتب وبلغت نفقاتها ٣٠٦ آلاف جنيه فلسطيني. وتزايدت قوة الشرطة ما بين ١٩٢٦ و ١٩٢٩. وبعد ثورة ١٩٢٩ دعمت بفريق من الشرطة البريطانية وارتفعت نفقاتها الى ٤٧٦ ألف جنيه فلسطيني عام ١٩٣٠. واجتمعت لجنة حكومية للنظر في حماية المستوطنات اليهودية ورأت وجوب سحب الترسانات بشرط ان تصدر الحكومة بسخاء تراخيص حيازة البنادق للمستوطنين اليهود. وكانت مزية

توصيات اللجنة بهذا الشأن انها حررت الحكومة من الاتفاق على تسليح المستوطنات، وهي مزية ذات دلالة حين نتذكر ان تسليح المستوطنات على حساب عموم السكان كان يعني في الحقيقة مساهمة العرب في تسليح العنصر اليهودي من السكان ضدهم، ولكن لاسباب يسهل استنتاجها، لم تنفذ هذه التوصيات الا بصورة جزئية. وحين وضع السير هربرت دويغن تقريرا عن حالة الامن في البلاد، كانت الترسانات ما زالت قائمة، ولقد اوصى بزيادتها وبدعم قوة الشرطة بفريق من الشرطة البريطانية يقدر بـ (٦٥٠) شرطيا.

وفي نهاية عام ١٩٣٥ وصلت قوة الشرطة الى ١٨٠ ضابطا و ٣١٣٢ من مختلف الرتب، وبلغت نفقاتها ٥٢٧ الف جنيه فلسطيني، اضافة الى ضابط واحد و ١٢٩ شرطيا جندوا خصيصا لحماية المستوطنات اليهودية. ولكن الامر لا يقتصر على ترسانات السلاح بل يتعداه الى تسليح اليهود وتهريبهم السلاح الى فلسطين. ذلك أنه الى جانب الترسانات الموضوعه تحت تصرف اليهود، وسخاء الحكومة في اصدار تراخيص لهم لحمل البنادق والمسدسات فقد كان اليهود في غضون ذلك يتسلحون سراً. فقد اكتشفت ارسالية سلاح وذخيرة عام ١٩٣٠ وصادرت من قبل رجال الجمارك وكانت قد اخفيت ثلاثة صناديق مستوردة من فينا لحساب شركة يهودية. واكتشفت ارسالية اخرى عام ١٩٣٥ مصادفة في يافا، وتضمنت ٢٥٤ مسدسا من نوع موزر مع اعقاب بندق، و ٩٠ مسدسا و ٥٠٠ حربة و ٤٠٠ الف طلقة من الذخيرة، اخفيت كلها في ٥٩ برميل اسمت مستورد لحساب تاجر يهودي في تل ابيب. وهذه الارسالية على الارجح، هي آخر ارساليات اربع من هذا النوع^(١٠).

ولم يعط تفسير رسمي لكيفية الكشف عن هذه الارسالية ولكن الصحافة المحلية ذكرت ان برميلا سقط بعد تحميله على شاحنة وتحطم وظهر للعيان، وذلك بعد تخليصه من الجمارك. ولا بد ان الشرطة قد علمت من تحرياتنا بالارساليات الثلاث السابقة، ولكن لم تتم مصادرتها ولا لוחق اصحاب الارسالية الرابعة او حركت دعوى قضائية ضدهم، برغم ان صاحبها لم يكن شخصا وهميا.

ونددت الصحافة العربية بالحكومة واليهود، وذهبت صيحتها في واد. وجرت محاولات لجمع السلاح غير المرخص من العرب في حين كان اليهود يستوردون السلاح بطريقة محظورة دون ان يجازفوا بأكثر من مصادرة الحكومة له في حال اكتشافه صدفة.

ولكن هذه الحملة الصحفية العربية لم تسفر عن اية نتيجة بدليل ما ورد في تقرير لجنة بيل الملكية من أن أعضاءها أبلغوا بصورة رسمية كاملة بأن اليهود قادرون على حشد ١٠ آلاف مقاتل مدرب ومسلح في الجبهة، مع رديف مؤلف من ٤٠ ألفاً.

كان ذلك عام ١٩٣٧، فهل تلام الصحافة العربية على انها وجهت النقد المرير الى الحكومة واليهود كليهما؟

وخلال الحرب العالمية الثانية كشفت المحاكم العسكرية عن حالة أخرى، حين عمل بعض اليهود للحصول على اسلحة وذخيرة من الجيش البريطاني بصورة محظورة، واسفرت الاجراءات ضدهم عن حكمين بالسجن^(١١).

وفي عام ١٩٣٦ وعلى اثر تفاقم الاضطرابات في البلاد زادت الادارة الانتدائية قوة الشرطة ورفعت مخصصاتها لتبلغ ٧٤٤ الف جنيه فلسطيني. وقد تمت الموافقة مؤخرا على هذا الرقم باعتباره يمثل حصة الادارة الانتدائية المترتبة عليها من اجل الحفاظ على الامن الداخلي في فلسطين. والزيادة الطارئة على هذا الرقم من عام الى عام، كانت تدفعها الحكومة البريطانية على اساس ان اتفاق هذه المخصصات الاستثنائية على قوة الشرطة كان نتيجة السياسة البريطانية التي تنتهجها في فلسطين. والحقيقة أن مختلف اللجان التي حضرت للتحقيق في اسباب الثورات والاضطرابات توصلت الى نفس النتيجة وهي ان السبب الكامن وراءه واحد لا يتغير: سياسة الوطن القومي اليهودي.

وبرغم ان وزارة المالية البريطانية ادركت منذ البداية ان هذه السياسة المتبعة لا بد أن تصبح باهظة التكاليف على المدى البعيد، فانها لم تجد مفرا منها.

وفي عام ١٩٤٣ كانت مساهمة الحكومة البريطانية في الانفاق على الشرطة قد بلغت المليونين من الجنيهات، وقدرت نفقات الشرطة الكاملة عام ١٩٤٥ بمبلغ ٣٣٥٨٠٠٠ جنيه فلسطيني وقع عبئها الثقيل على البلد. ليس هذا فحسب فقد شكلت ايضا قوة شرطة متنقلة لتعالج بسرعة الاضطرابات الطارئة، ويبلغ تعداد هذه الوحدة المتنقلة الميكانيكية والمجهزة جيدا الفئ رجل، وتصل نفقاتها الى ١٠٤٠٠٠ ر١٥٤٠٠٠ جنيه فلسطيني، وهكذا يصل مجموع نفقات الامن الداخلي الى اكثر بقليل من ٤٥ مليون جنيه فلسطيني، وهو يعادل ٣٨٧٪ من مجموع النفقات العادية للإدارة الانتدائية البالغة ١١٦٢٠٠٠ ر١١٦٢٠٠٠ جنيه فلسطيني للعام ١٩٤٥-١٩٤٦^(١٢).

وإذا قارنا هذا المبلغ الضخم بالمبلغ الزهيد جدا الذي كان يشكل نفقات قوة الشرطة قبيل الاحتلال البريطاني لفلسطين مباشرة وهو يعادل ٢٥ الف جنيه استرليني، ولو ضربنا هذا المبلغ بأربعة لحصلنا على ما يقارب مجموع نفقات الشرطة في كامل فلسطين آنذاك، لو فعلنا ذلك لأدركنا كم كانت باهظة تكاليف سياسة الوطن القومي، ولم كانت مجحفة بحقوق العرب في تراب وطنهم وخيرات بلدهم.

ويركز ابكاربوس على نقطة هامة اخرى تنتقص من جدوى هذه الاجراءات الامنية التي أكره عرب فلسطين على المساهمة في نفقاتها الضخمة، وذلك حين يوجه الى قوة الشرطة المذكورة انتقادا واحدا من الانتقادات الموجهة اليها. فقد ذكر في شهادة أمام لجنة بيل الملكية أنه في الاوقات العادية، كان يمكن الاعتماد على افراد الشرطة حتى في مطاردة المجرمين والقتال بالأيدي.

ولكن في اوقات الاضطراب الناشب بين العرب واليهود، فان ولاء افراد الشرطة لشعبهم كان يتحكم بمسلكهم. ان للشعب حقاً طبيعياً في ان ينعم بالحماية ضمانا لاستقراره في عمله الذي يكسب منه معاشه، وأول واجب للحكومة المنظمة هو تأمين الحماية له.

أما التحزب في صفوف رجال الأمن الموكول اليهم هذا الواجب فأمر لا يمكن الدفاع عنه او السكوت عليه .

ولكن الظروف والاحوال التي وضعت فيها فلسطين لا يمكن أن تسود في أي مكان آخر على الارض . وان مستوى الولاء لا بد ان يخلت وينحرف بسبب الاوضاع الشاذة التي اوجدتها سياسة متحيزة تنتقل بموجبها البلاد على الدوام من الايدي العربية الى الايدي اليهودية. ان توقع الولاء من الشرطي العربي او اليهودي حين يكون الامر متصلا بقمع الاماني القومية لاحوة هذا أو ذاك ، يدل على تقصير مفعج في ادراك طبيعة القوى الفاعلة في البلد ، كما يدل على توقع لا مبرر له بأن الانضباط المسلكي سيمنع رجال الشرطة المثاليين الذين لا يلقون بالا الى نداءات قوميتهم الناشئة. فليس يمكن للعربي او اليهودي ان ينظر الى مواطنه الذي يعمل على تحقيق تطلعاته القومية باعتباره شيطانا مريدا .

وهذه النظرة لا بد ان تؤثر على ادائه عمله . ورغم التأكيد بأن قوة الشرطة لا يمكن الاعتماد عليها في الظروف المضطربة ، فقد سلحت الادارة الانتدابية ودربت ثلاثة آلاف يهودي عام ١٩٣٦ باعتبارهم شرطة تكميلية ، وتحملت الادارة الانتدابية والوكالة اليهودية نفقاتهم على قدم المساواة^(١٣) .

وجميع الناس كانوا يعرفون مصدر المخصصات المالية التي يتلقاها هؤلاء كما يعرفون أن ولاءهم للوكالة اليهودية غير مشكوك فيه . ولذا فالوكالة اليهودية لم تطلب من لجنة بيل الاحتفاظ بهذه القوة التكميلية فقط ، وإنما أيضاً زيادة عدد رجال الشرطة اليهود في قوة الشرطة النظامية ، لأن الحكومة في نظر الوكالة اليهودية قد فشلت في اداء واجبها الرئيسي نحو الوطن القومي !

التربية والتعليم :

ذكر ابيكاربوس ان السلطنة العثمانية لم تول ميدان التربية والتعليم اهتمامها ولا سيما في سنجق القدس ، ولكن بعد اعادة الحكم الدستوري عام ١٩٠٨ أولت

السلطنة عنايتها للتسهيلات التربوية، اما في القرى فكانت الجهود التربوية التعليمية شبه معدومة. والحق ان ثمة عوامل متعددة كانت تحول دون مباشرة السلطنة مشروعا بعيد المدى لنشر التعليم في جميع ممالكها.

فالوضع القلق الناجم عن السلطة المزدوجة لجمع وجباية الضرائب، والموزعة بين الادارة الاجنبية للذين العثماني العام، وبين الحكومة العثمانية التي عجزت عن فرض ضرائب جديدة، والجهود المبذولة لمعالجة هذا الوضع-قصرت عن تحقيق هدفها.

ولكن فرضت ضريبة خاصة من اجل تعليم السكان وقعت على كاهل المزارعين اضافة الى ضريبة العشر، كما وقعت على كاهل سكان المدن. وكان القصد من هذه الضريبة ايضا معالجة مشكلة الامية في المناطق القاصية من السلطنة. وكان افتتاح المدارس يجري حتى ما بعد قيام الحرب العالمية الاولى ١٩١٤، وافتتحت المدارس في فلسطين وفي المناطق الاخرى التي كان العرب يشكلون غالبية سكانها، على اساس التعليم باللغة العربية والتركية. وقد استهدف هذا الاجراء مصالحة الرأي العام العربي في وقت بدأت فيه الحركة القومية العربية تشق طريقها الى الأذهان^(١٤).

ويورد ايكاريوس تقدير الاستاذ احمد ساحم الخالدي لعدد من هم في سن الدراسة عام ١٩١١ بفلسطين بحوالي ٣٨٠٥٣ صبيا و ٣٥٥٨٤ بنتا.

أما الذين كانوا يحضرون المدارس الحكومية فقد بلغ عددهم ٦١٠٤ صبيان و ١٥٠٤ بنات في حين ان المدارس الخاصة والاجنبية تكفلت بتعليم ٦٩٧٤ صبيا و ٢٦٧٣ بنتا. ولكن بقي ٢٥ الف صبي و ٣١٤٠٠ بنت محرومين من اية فرصة لتعلم الابجدية. والحق انه كان يمكن للادارة الانتدابية ان تنطلق من القاعدة التي ارساها الاتراك سابقا، ولكنها اختارت ان لا تلزم نفسها بدعم المؤسسات التعليمية في فلسطين. وقد سهل عملها كثيرا موقف اليهود من التعليم العام، فمنذ البدء أعلنوا انهم يريدون ان يتولوا بأنفسهم الاشراف على مدارسهم

الخاصة مع اقل قدر ممكن من التدخل الحكومي ، وكانوا في الواقع قد خططوا ليتضمن صك الانتداب مثل ذلك .

فإلى جانب المادة / ٢٢ / التي كفلت الاعتراف باللغة العبرية كواحدة من اللغات الرسمية الثلاث بفلسطين ، نصت المادة / ١٥ / على حق كل طائفة بالحفاظ على مدارسها لتعليم ابنائها بلغتها .. وكان من الواضح أن اليهود الصهيونيين ارادوا أن يديروا مدارسهم على اسس قومية لصنع رجال ونساء يليقون بالدولة التي يودون انشاءها في الارض المقدسة ؛ فالمدارس المختلطة التي تضم العرب واليهود سوف تميل بنظرهم ، الى التعاون بين العرب واليهود في النهاية وسوف تحرم الوطن القومي من الصبغة اليهودية ، وعليه فيجب عدم الاخذ بالمدارس المختلطة .

وكان لدى اليهود قبل الحرب العالمية الاولى حوالي ٦٠ مدرسة . وقد سيطرت المنظمات اليهودية على هذه المدارس او ما تبقى منها ، ووجهتها وفق خطوط يهودية قومية . ومع مرور الوقت جرى تحديثها واقامة مدارس جديدة . والمدرسة الزراعية التي اسسها الاليانس الاسرائيلي قرب حيفا على حوالي ٢٠٠٠ دونم منحها سلطان تركيا عام ١٨٧٠ الى الاليانس من اجل انشاء مدرسة للطبقات الفقيرة من السكان ، تستوعب العرب واليهود طبعا ، قد جرى تحويلها الى مدرسة يهودية صرفة واللغة الفرنسية التي كانت لغة التعليم في المدرسة حلت محلها اللغة العبرية .

وفي حين كان العرب واليهود في السنوات السابقة يحضرون دروس المدرسة على قدم المساواة فانه لا يسمح للطالب العربي اليوم (١٩٤٦) بدخولها ، بحجة انه لا يعرف اللغة العبرية معرفة كافية .

ونتيجة لذلك اخذ اليهود على عاتقهم العناية بشؤون التعليم ، والحكومة لم تشرف عليه الا اشرافا صوريا ، يكلف به مفتشون من اليهود بتوجيه القسم التربوي في الادارة الانتدابية . وكانت المدارس اليهودية تتلقى منحة سنوية محسوبة على ما تنفقه الحكومة على تعليم طلبة من اليهود وصلوا الى سن التعليم وهي نفس النسبة عن عدد الطلبة العرب في المدارس الحكومية الذين هم في سن الدراسة . وعلى

ذلك تلقت المدارس اليهودية عام ١٩٤٣-١٩٤٤ مبلغ ١٠٠ الف جنيه فلسطيني من الصناديق العامة، كما تلقت نسبة مدروسة بعناية من النفقات الحكومية لبناء مدارس جديدة. وينتقل ابكاربوس^(١٥) الى شرح احوال التربية والتعليم على الجانب العربي فيذكر ان نفقات الادارة الانتدابية في هذا الميدان التربوي العربي بلغت ٤٩٠ الف جنيه فلسطيني للعام ١٩٤٣-١٩٤٤ وفقا لتقرير القسم التربوي المنشور. وآخر الأرقام المتوفرة تدل على ان الحكومة لديها ١٨٠٠ معلم في حين وصل عدد الطلبة الذين حضروا الى المدارس في المدن والقرى الى ٦٣١٤١ منهم ٤٩٣٧٥ صبيا و ١٣٧٦٦ بنتا. وكان يحضر الى المدارس غير الحكومية حوالي ٤٠٧٢٣ طالبا منهم ٢٤٧٩١ صبيا و ١٥٩٣٢ بنتا. وقدر عدد الذين هم في سن المدرسة من العرب بـ ١٥٧٧٠٠ صبي و ١٤٤٢٥٠ بنتا. وهكذا فان حضور الصبيان الى المدرسة يمثل نسبة ٤٧٪ ممن هم في سن المدرسة في البلاد كلها. ويمثل حضور البنات نسبة ٢١٪ ممن هن في سن المدرسة.

وتتضح اهمية هذه الأرقام حين نأخذ العرب الذين هم في سن المدرسة ككل، ومجموع عدد الصبيان والبنات الذين حضروا المدرسة. فمن المقرر ان ٣٤٪ ممن هم في سن المدرسة لديهم فرصة لتلقي نوع من التعليم، و ٦٦٪ ظلوا أميين.

ومن اصل نسبة ٣٤٪ حضر ٢١٪ فقط دروس المدارس الرسمية، وواضح من هذه الأرقام انه يوجد مجال للتوسع في استيعاب عدد اكبر من العرب في المدارس، ولكن يرى ابكاربوس ان من غير الممكن تأمين المخصصات المالية والمعلمين بالسرعة الكافية لسرد الثغرة الموجودة منذ عام ١٩١٨، وتلبية احتياجات السكان الذين يتزايدون باستمرار^(١٦).

وبرغم ان الحكومة اقامت ٣٠٤ مدارس في القرى في مبان اعتمدت اساسا على جهود القرويين حيث يتلقى ٧٠٪ ممن هم في سن المدرسة التعليم الاولي، فانه يوجد ١٢٢ قرية لم يستطع سكانها تهيئة المباني المدرسية.

كما يوجد ٤٠٠ قرية صغيرة قيل ان قلة سكانها لا تتيح تأسيس مدارس حكومية فيها. ومن مجموع ٢٠٨١٥٠ صبيا وبناتا، قبلت المدارس ٢١٪ منهم وبقي ٧٩٪ منهم بدون تعليم. أما نسبة قبول بنات القرى في المدارس فلم ترتفع عن ٦٪ من مجموع البنات في سن الدراسة.

ويلاحظ ايكاروس بحق ان مشكلة اجتماعية خطيرة لا بد أن تنجم عن ضآلة نسبة التعليم بين البنات وعن عدم نشر التعليم بين الصبيان والبنات بنسب متوازنة. لقد أهمل تعليم البنات بحيث يمكن القول بأنه غير موجود. وما لم تأخذ امهات المستقبل بأسباب التعليم على نحو لائق، فلن يوجد سوى امل ضئيل في رفع مستوى الجيل القادم. فلا يكفي ان تلحق ٣٠٪ من صبيان القرية بالمدارس. إذا اريد الحفاظ بنية اجتماعية سليمة للحياة في القرية، فلا بد أن يمضي تعليم الصبيان والبنات متوازيا، وعلى الشبان نصف المتعلمين ان يختاروا زوجاتهم من نفس مستواهم على الاقل، ضمن القرية، اذا أرادوا ان يعيشوا حياة هانئة مجدية. فنادرا ما يقبل اهالي المدن ان يزوجوا بناتهم من قرويين بعيدا عنهم، ونادرا ما يتقبل الشبان انصاف المتعلمين بنات القرية الاميات كزوجات لهم. وهذه الحالة تستدعي المعالجة السريعة اذا اريد تجنب الامراض الاجتماعية^(١٧).

اما تسهيلات التعليم التي تقدمها الادارة الانتدائية فهي تسهيلات غير ملائمة ولا كافية. ويظهر ذلك بجلاء من عدد المتقدمين للانتساب الى المدارس، والمشار اليهم باسم (المؤجلين). ففي عام ١٩٤٣ كان ثمة ٥١١٨ مؤجلا من اصل ال ١٠٥٩٤ المتقدمين الى مدارس المدن. وهذا يعني ان جميع المتقدمين كانوا لائقين أي مستوفين شروط الحكومة، وأهمها شرط السن.

فاذا كان المتقدم تنقص سنه أو تزيد عن السن المحددة، فليس ثمة فرصة لقبوله في المدرسة. وفي العام التالي لا بد أن يتجاوز جميع المتقدمين (المؤجلين) السن المحددة فاذا تقدموا بأوراقهم الى المدرسة فسوف يُرفضون.

وقد ترتب على ذلك ان ٤٨ ٪ من المتقدمين لدخول المدارس الحكومية عام ١٩٤٣ قد رفضت طلباتهم وحرّموا من أيّ تعليم، ما لم يكن اقرباؤهم قادرين على رفع المبلغ الذي يدفعونه كقسط للمدرسة الخاصة مهما بلغت تضحياتهم. وفي القرى يكاد مثل هذا الامر أن يكون مستحيلا، فالقرويون القادرون على تزويد اولادهم بالتعليم في طول البلاد وعرضها يمكن ان يُعدّوا على اصابع اليد الواحد. وتُظهر الأرقام التي وردت في التقرير السنوي للقسم التربوي بالادارة الانتدابية انه كان يوجد ١٣٦٦١ متقدما الى دخول مدارس القرية منهم ٣٩٦١ مؤجلا. ولكن يلاحظ قارىء التقرير المذكور ان عدد المتقدمين لا يشمل جميع اولئك الذين كان يمكن ان يتقدموا، فقد أحجم الكثيرون عن التقديم لعدم وجود مدارس في قريتهم، أو لانهم لا يرون فرصة لقبولهم فيها^(١٨).

وخلال السنوات القليلة الماضية فرضت ضريبة محلية على التعليم المحلي من جانب بعض البلديات ومجالس القرى للمساعدة في تأمين تعليم الاولاد في المنطقة. وهذا كما يقول ابكاربوس بحد ذاته ابلغ تعبير عن تقدير الشعب لقيمة التعليم. وفُرضت ضريبة في القدس لأول مرة للعام ١٩٤٤-١٩٤٥ برغم ان هذه السلطة المحلية لا ترعى المدارس. وقُدّر ان حاصلات الضريبة بلغت ١٢ الف جنيه فلسطيني، وقسمت المجموعات بين العرب واليهود بنسبة مساهمة كل منهم. وتشكلت لجتان بلديتان لتقديم النصح حول كيفية صرف المال المجموع في حال عدم وجود مدارس تحت السلطة المباشرة للمجلس البلدي.

واقترحت اللجنة العربية افتتاح صفوف جديدة للاولاد المحرومين من المدرسة، أي صفوف اضافية في المدارس القائمة. وعيّرت اللجنة اليهودية عن رغبتها في تخصيص ٣٠ ٪ من حصتها لتعليم الاولاد المحرومين من المدرسة و ٦٠ ٪ منحصراً للمدارس اليهودية القائمة، و ١٠ ٪ للمناشط الثقافية والتربوية الاخرى. وبما أن اليهود كانوا يشرفون على ادارة مدارسهم الخاصة، فقد كانوا قادرين على استغلال حصتهم من الضريبة استغلالا جيدا. اما العرب فكان عليهم ان يلجأوا الى المدارس الحكومية او المدارس الخاصة.

على ان اباكاربوس ينكر تعلل الادارة الانتدابية بأن المال كان لا يكفي لتقديم التسهيلات التعليمية الجيدة في عموم البلاد؛ صحيح ان حالة المالية العامة لم تكن منتعشة دائما، لأن فلسطين مرت بسنوات جفاف وسنوات خير، ولكن الادارة قد اقتصدت في سنوات الخير بحيث توفر لديها احتياطي مالي ضخم، بلغ عدة ملايين من الجنيهات. والمحاولة الوحيدة لتسوية تقصير الادارة الانتدابية في اداء واجباتها في ميدان التربية والتعليم، هو الجدل بأن الاضطرابات المتعاقبة كانت تستنزف الخزانة على نحو غير متوقع، وطلب المخصصات للحفاظ على الامن كان ضخما جدا بحيث كانت الخدمات الرئيسية في البلد تتحمل عواقبه. ومع ذلك فاختران الحبوب واحتكارها من جانب الحكومة ليس أقل مدعاة للوم من اخترانها من قبل الافراد. ومن المؤكد ان الانفاق على تعليم الصبيان والبنات والارتقاء بهم كمواطنين ملتزمين بالقانون، أكثر اقتصادا من رصد الاموال لتلبية الطلبات المتعاظمة للانفاق على الشرطة والسجون. والاكتفاء بصرف ٦٪ من مجموع نفقات الحكومة على التعليم، لا يمكن تسويغه ولا تفسيره ما دام ٦٦٪ من أولاد العرب في سن المدرسة محرومين من أية فرصة للتعليم^(١٩).

لقد وجه كثير من النقد الى الحكومة لأن العربية هي لغة التعليم في مدارسها. وذهب البعض الى حد لوم الحكومة لاقامة مدارس قومية عربية موازية للمدارس اليهودية. وفي حين يجب التسليم بأن الروح القومية تسود جميع طلبة المدارس الحكومية وغيرها، فيجب التسليم أيضا بأن تلك الروح القومية لم تزدهر وتتغذى بواسطة المدارس. انها بدأت في منازل الطلبة، وعبرت عن نفسها في ساحات لعبهم وتجمعاتهم ومناسباتهم الاجتماعية. انها روح، كما يقول اباكاربوس لا يستطيع المعلمون قمعها واخمادها دون الاضرار بمكانتهم ونسف سلطتهم^(٢٠).

الاشغال العامة :

وينتقل ايكارپوس الى ميدان الاشغال العامة التي تُخصّص اكثر من نصف نفقاتها لصيانة الطرق والجسور . فمن مجموع مخصصات الاشغال العامة البالغة ٦٤٨٠٠٠٠٠ جنيه فلسطيني لعام ١٩٤٥-١٩٤٦ صُرف على صيانة وترميم الطرق ٣٤٥٠٠٠٠ جنيه فلسطيني ، وعلى ايجار المكاتب والمحلات ١٨٠٠٠٠٠ جنيه فلسطيني . وتشمل الاشغال العامة الاستثنائية مجالا اوسع كانشاء المباني ، واجراء الترميمات الطارئة ، وتنفيذ مشاريع مدّ المياه والري ، وعديد من الاشغال الاخرى . ولكن البند الذي يتكرر سنويا هو بند الطرق والجسور ، ويشمل تحسين الطرق القائمة وبناء طرق جديدة ، فدائرة الاشغال العامة بهذا المعنى تفسح مجالا واسعا للعمال ، ومناشطها في بناء الطرق ذات اهمية حيوية للتطور الاقتصادي في فلسطين^(٢١) .

ولقد ذكر فيتال كينييه (Vital Cuinet) منذ عام ١٨٩٦ أن مدينة القدس كانت مرتبطة بمدن يافا ونابلس والخليل واريحا وعين كارم بطرق حجرية رديئة البناء^(٢٢) تفتقر الى الصيانة ذات التكلفة المرتفعة ، وكانت العربات هي الوسيلة المرفهة للنقل والسفر ، ولكن الحجاج النازلين في يافا ، غالبا ما كانوا يسافرون الى القدس على متن الجياد ، قاطعين مسافة ٦٥ كيلو مترا على مراحل سهلة في مدى يومين . وابتان الحرب العالمية الاولى بنيت طرق عسكرية على عجل ، وبعد احتلال فلسطين عام ١٩١٨ جرى تحسين كثير من هذه الطرق لمرور المدنيين ، رغم أن استعمال السيارات كان نادرا . ولقد بدأ بناء الطرق على نحو عشوائي عام ١٩٢٣ ، ووجد عدد كبير من المهاجرين اليهود عملا في بناء الطرق ، بوصفهم عمالا غير مهرة ، وبينهم عدد من المهاجرين المتعلمين ، أقبلا على هذا العمل اليدوي ، لانهم لم يجدوا سواه لكسب عيشهم . وكانت الاجور المدفوعة الى العمال اليهود غير المهرة آنذاك ، أي في مطالع العشرينات أعلى بنسبة ١٥ ٪ من مستوى الاجور السائد في البلاد ، ولكن العمل المتساوي يسوّغ الاجر المتساوي ، والمهاجر

اليهودي المتعلم بوصفه عاملاً غير ماهر، كان يتفوق عليه العامل العربي كثيراً، وجلده على العمل لم يكن يتكافأ مع جلد العربي.

وهكذا وُجد معدل مزدوج لاجور العمال غير المهرة: معدل منخفض للعرب، ومعدل مرتفع لليهود، على أساس المستوى الأعلى للمعيشة، في حين كان العرب واليهود يعملون غالباً في نفس العمل، ويعيشون في نفس الشروط والاحوال. وطبيعي ان يستنكر العرب هذه المعاملة، ويروا فيها تحيزاً آخر لمصلحة اليهود الوافدين الجدد. وبينما كانوا ما يزالون يشكلون اقلية بين السكان، الا انهم تمكنوا من فرض رغباتهم على حكومة مطواعة راضخة لسياسة تهدد بابتلاع العرب في عقر دارهم بمدّ متصاعد من الهجرة^(٢٣).

ويتحدث ابكاربوس بمرارة عن مشاعر العرب ازاء هذا الغبن والاححاف اللاحق بهم ضمن بلادهم، ويشير الى موجة الغضب العربي التي اجتاحت البلاد، والتي عكستها الصحافة العربية المحلية، ولكن العرب كانوا بحاجة ماسة للعمل لكسب عيشهم وعائلاتهم فاستسلموا للحاجة، وتناولوا الاجور المنخفضة، وظلوا ينظرون بحنق مكبوت الى المعاملة المفضلة التي كان يلقاها المهاجرون اليهود من الادارة الانتدابية.

ولكن الامر لم يقف عند هذا الحد، ففي عام ١٩٣٨، وبينما كان المعدل المزدوج للاجور ما يزال ساري المفعول قامت الحكومة بمحاولة جديدة لخفض الاجر اليومي للعامل العربي غير الماهر، وقد بلغ آنذاك ١٠٠ ميل أي شلنين اثنين يومياً، فأكدت ان تقدير اجور العمال يستند الى هذا الاجر، ولكن هذا لا يعني أن الاجور المدفوعة حالياً لن تكون اقل من هذا الحد. لقد طلب من دوائر الحكومة بان تبذل مساعيها للحصول على عمال بأرخص معدل يمكن اعتباره بأقل من ١٠٠ مل يومياً: اقترح تقديم بعض الاعمال في طرق القرى بأجر أقل، على أساس ان يُترك العمل فيها اذا لم يظهر وشيكا العامل المنخفض الاجر. وواضح ان هذه المحاولة التي تكاد توازي الاستغلال، لا يمكن تبريرها الا في ظل نظام رأسمالي

قاس محروم من أدنى قدر من الحياء والخجل . ويوضح اباكاربوس سبب استضعاف الحكومة للعمال العرب بانه لم يكن ينتظمهم اتحاد او نقابة تدافع عن حقوقهم وتفرض مطالبهم العادلة ، فالعمل العربي اشبه بالجسم المشلول يأتي أعضاؤه من القرى في المواسم السيئة ، يشكون الفقر ، وجميعهم أميون عمليا . فلو كان وراء هؤلاء الرجال تنظيم مثل اتحاد العمل اليهودي فلن تجري أية محاولة قطعاً لخفض الاجور العربية . ان قبول العرب بأجر يقل عن ١٠٠ مل (مليم) يومياً ، حين يطلب العامل اليهودي غير الماهر ويتلقى ٢٥٠ ملا (٥ شلنات) يومياً ، كان فقط يضاعف السخط العربي ويؤجج النار تحت الرماد .

وينقل اباكاربوس عن تقرير عصبة الامم عن فلسطين لعام ١٩٢٦^(٢٤) فيشرح « منجزات » المجلس الاستشاري للطرق الذي تشكل عام ١٩٢٦ ليقدم مقترحات الى الحكومة بشأن بناء طرق جديدة ، وساعد في صوغ سياسة تضع برنامجاً لصيانة وتحسين الطرق الحالية . ومنذ البداية وضع المجلس مبدئين : اولهما ان لا تعيق الطرق الجديدة أرباح ومكاسب السكة الحديدية وهي مشروع تملكه الحكومة ، وذلك بتجنب بناء الطرق الموازية للسكة الحديدية . وثانيهما ان الطرق التي يُقصد منها خدمة منطقة معينة يمكن بناؤها فقط اذا ساهم الفريق المعني بنسبة جيدة من كلفة البناء ، وعليه فاذا أخذ ذلك بعين الاعتبار ، كان من الطبيعي ان تُعطى الافضلية للطرق التي تصل المستوطنات اليهودية بالطرق الرئيسية ، ما دامت الوكالة اليهودية يمكنها ان تساهم بتلك النسبة من خلال مؤسساتها المالية . والنسبة المطلوبة كانت تبلغ غالباً نصف الكلفة المقدرة لبناء الطرق ، ولكن الصيانة تقع على عاتق الحكومة بصورة كاملة .

وبعد سنتين وضع مجلس الطرق برنامجاً بالطرق المرغوبة والتحسينات للطرق القائمة ذات الاولوية ، ليجري تنفيذها حالما تتوفر المخصصات المالية . ونفذ البرنامج في السنوات التالية مع تعديلات استوجبتها الظروف المتغيرة السريعة للبلاد ، بحيث كان بناء « طرق الامن » اي الطرق التي تصل المستوطنات الرئيسية سبباً آخر لتعديل البرنامج الموضوع . فاذا استوجبت اسباب حماية مستوطنة يهودية بناء

طريق مزفت، فمن المؤكد ان نفقة البناء لا بد ان تقع كاملة على عاتق الحكومة. وسواء كان بناء الطرق في فلسطين لاسباب الامن ام لدواعي المساهمة في كلفة البناء، فان مد الطرق في المناطق الشمالية حيث تقع غالبية المستوطنات اليهودية أصبح الشيء اللافت للنظر في تقدّم شبكة الطرق^(٢٥).

ويثبت ايكارپوس تميّز الادارة الانتدابية للمخطط اليهودي، حين يتحدث عن واقعة من وقائع المجلس الاستشاري للطرق، الذي كان ينظر عام ١٩٣٣ في اقرار برنامج جديد لمد الطرق. فقد حاول العضوان العربيان جاهدين ان يتبّنى المجلس سياسة متعقّلة لتطوير البلاد ككل، فأشاروا الى ان الجزء الجنوبي من فلسطين قد أهمل، ذلك انه الى جانب الطرق التي تصل مدينة القدس مع يافا الى عين كارم واربحا والخليل، لا يوجد سوى طرق صيفية لا يمكن عبورها في فصل الامطار. وان طريق يافا غزة الذي يكمل طريق القدس يافا حتى الكيلو متر (٤٥)، قد جرى تزفيتته عبر مستوطنة ريشون لوزيون فحسب. ومن هذه المستوطنة حتى غزة وما وراءها الى بئر السبع، كان الطريق في حالة رديئة مزرية لا تصلح لسير المركبات، بحيث كانت المسمّية والمجدل والفلوجة وبيت جبرين وبئر السبع - معزولة تقريبا لنقص الطرق. ولم يكن العضوان العربيان بقادرين على اقناع المجلس، وسرعان ما تحقّقا أن مشاركتهما في عمل المجلس كانت اكثر من عقيمة. فكل مطلب لهما كان يُرفض، واحتجاجاتهما تذهب هباء، باعتبارها غير جدية بالنظر. وعليه فاستمرارهما في دعم المجلس، مع عجزهما عن اتخاذ قرار واحد لمصلحة تطور ونمو البلاد، بغض النظر عن السياسة الطائفية، لا بد ان يعرضهما لازدراء المواطنين العرب. وفي احدى المناسبات تصاعدت حدّة النقاش، حين تناول احدهما خارطة الطرق الفلسطينية، فظهرت الطرق كالشرايين والارودة الحمراء، وأشار الى الجزء الجنوبي لفلسطين حيث لا يمكن رؤية خط أحمر واحد الا بصعوبة. وسأل العضو العربي رئيس المجلس فيما اذا كان لا يوافق على ضرورة حقن الجنوب الذي يشكو (الانيميا) بالدم. وانهى الحديث بقوله: تُريد دما أكثر هنا! وكان ذلك آخر اجتماع حضره العضوان العربيان، اذ قدما بعده استقالتهما الى الحكومة^(٢٦).

وينتقد ايكاريوس الاضرار الناجمة عن حماية الحكومة لمصالح السكة الحديدية والتشبيث باريابها حتى على حساب تطور البلاد الاقتصادي الذي كان بحاجة ماسة الى انشاء شبكة طرق اكثر اتساعا، ويقتبس ذلك من بحث للاقتصادي السوري حسني الصواف نشره في كتاب «تنظيم فلسطين الاقتصادي»^(٢٧) مدعما بفقرة مقتبسة عن تقرير لجنة تشكلت عام ١٩٣٤ لدراسة مشكلة النقل بواسطة المركبات ورد فيها: «ان حالة كثير من الطرق الهامة وعدم وجود طرق غيرها، اقتضى ان تسير المركبات على طرق غير معبدة، حجرية ورملية عميقة، الامر الذي اضاف كثيرا الى النفقات الجارية وخاصة فيما يتعلق بالنود الثقيلة كهبوط الطرق، واصلاحها وتحويلاتها. ويمكن التسليم بانه انجز الكثير لتحسين الطرق الحاضرة، ولشق طرق جديدة، ولكن مع ذلك يلاحظ ان سياسة تأمين السكة الحديدية من منافسة النقل بالمركبات، كانت بين أسباب أخرى، مسؤولة عن التلكؤ والتأخير في اكمال طريق حيفا عكا الضروري جدا للمواصلات بين فلسطين وسورية، وطريق يافا حيفا المهم جدا لتطوير ما قد يكون أعظم رقعة من الارض بفلسطين من حيث امكاناتها الزراعية^(٢٨)». ان السبب المشار اليه وهو

حماية واردات السكة الحديدية كان مسألة تتصل بمناشط الحكومة التجارية وشبه التجارية التي أحست اللجنة بان بمقدورها ان تنتقدها بلطف، ولكن هذا لم يكن سوى سبب واحد بين أسباب اخرى، فاللجنة لا تستطيع بالتأكيد أن تفسر الوجود الطويل الامد لا لشيء سوى الطرق الوعرة في الجزء الجنوبي من فلسطين الذي لو امكن جلب المياه الى سطحه لتوفر فيه حافز الزراعة الكثيفة. وبما ان هذه «الاسباب الاخرى» تمس مشكلة حساسة في السياسة العليا، فاللجنة أشارت باحتراس الى وجودها واحجمت عن التعليق عليها. والحقيقة ان جنوب فلسطين الذي لم يكن يسكنه سوى العرب الحضرة والبدو كان موضع اهمال مقصود من الادارة الانتدابية، اذ حالت دون بناء الطرق فيه وجر المياه اليه وتنشيط الزراعة الكثيفة فيه، وعرقلة نموه واعماره، لئلا يجتذب العرب، فيقبلون على ارضه المعطاء، ويقيمون المشاريع عليها ويشتد ساعدتهم فيها، وبذلك يعيقون

مشاريع الاستيطان الصهيوني المرتقبة التي لم يحن أوان تنفيذها بعد. وما دامت المستوطنات الصهيونية تتركز في شمال فلسطين وتتوحد أركانها، فالجنوب لا يقع على جدول الاستيطان الصهيوني الملح، ولكن دوره آت في المرحلة التالية.

أما منجزات دائرة الاشغال العامة في فلسطين، فكانت متحف روكفلر ومنزل المفوض السامي ودائرة البريد والكلية العربية، ومباني المدارس والمشافي، ولكن ابرز المنجزات كان بناء ثلاثين مبنى للشرطة في المدن والمناطق الريفية في غضون سنتين او نحوها، بكلفة قدرت بمليون ونصف المليون من الجنيحات الفلسطينية. هذه المباني وهي من طراز القلاع والحصون، قد جرى تصميمها خلال ثورة ١٩٣٦-١٩٣٨. وهي تطالع الناظر بكتلتها الضخمة، وتترك في نفسه انطبعا قويا لا ينسجم مع صورة المنظر الطبيعي المجاور لها، ذلك ان تخطيط بنائها الرامي الى تحقيق أغراض الأمن، ينطبق مع القسامات العامة للقلاع الاستعمارية الفرنسية، ولكن ينقصها الذوق المعماري بله الاناقة والجمال. وفي المناطق القاصية، يتسع بعض هذه المباني الضخمة ليشمل بعض دوائر الحكومة. أوليس من الأفضل ان تستقر دوائر الحكومة في الشكنات بدل استئجار البيوت وتحويلها الى مكاتب؟ ويرى ابيكاربوس ان السماح بصرف مثل هذه النفقات الباهظة على بناء مراكز الشرطة لما يحطم قلب الموازنة المالية، خصوصا وانه لم ينجم عنها تقليص المصروف السنوي المخصص لاجور المكاتب. ولاحظ انه رغم توفر المخصصات وشراء الارض لبناء مكاتب الحكومة في القدس، فقد استمرت الادارة الانتدابية في استئجار المباني وبيوت السكن والفنادق لاستعمالها كمكاتب. وعلى مدى ربع قرن، انتقلت سكرتارية الحكومة ثلاث مرات واشغلت الخزانة المالية عدة مرات ستة مبان مختلفة، وبدلت ادارة المناطق مقرها ثلاث مرات، وكذلك فعلت دائرة الزراعة والاسماك، ودوائر اخرى^(٢٩). وواحد من الاسباب التي قدمت للاستمرار بهذا الوضع الغريب، هو ان الفائدة على المال المخصص للبناء، وارتفاع كلفة الصيانة سيسكلان رقما أعلى من الاجار. والرد هو انه إذا بررت هذه اللجنة نفسها في السنوات العجاف، فانها تفقد قوتها حين باشرت الحكومة تجميد

احتياطي سرعان ما تراكم ليصل الى ٦ ملايين جنيه فلسطيني، ولكن مدراء المال يظلون سادرين في غيهم.

★ ★ ★

وبعد، فهذه مرافق ثلاثة عرضنا لها في عملية تطبيق الانتداب البريطاني في فلسطين بشكل عام، وهي برغم ذلك، تفتح الباب امام مزيد من البحث والتقصي فيها، وفي سواها من المرافق التي لا تقل عنها اهمية. ويتضح من الشهادة التي يطالعنا بها ابكاربوس وكأن مناشط الادارة الانتدابية تدور في حقيقتها حول محور تطوير الوطن القومي اليهودي باتجاه الدولة اليهودية. لقد كانت هذه الاقلية اليهودية، بمعونة ادارة انتدابية منحازة لها، قادرة على رصد مبالغ ضخمة من الموازنة المالية، لتنمية مرفق الامن العام على نحو غير مسبوق، وذلك لحماية الهجرة اليهودية والاستيطان اليهودي، بينما لا تخصص للمرافق الاخرى ذات التأثير الحيوي على الغالبية العربية الا مبالغ متواضعة، كالتعليم والاشغال العامة والخدمات الصحية والحكم المحلي... لقد كان بمقدور الاقلية اليهودية ان تبني الطرق على حساب الحكومة ولو جزئيا، من اجل نمو وتطور مستوطناتها، مثلما كان بمقدورها ان تقنع الحكومة بتسليح اليهود ونزع سلاح العرب. واهم من كل ذلك، قدرتها على شل كل محاولة لتشكيل حكومة دستورية في فلسطين. لقد طالب اليهود مؤخرا، كما يقول ابكاربوس^(٣٠) بتشكيل مجلس بلدي في مدينة القدس حيث يشكلون غالبية نسبية^(٣١)، فاذا كانوا معنيين بمبدأ الحكم الديمقراطي وتنفيذ الاجراءات الدستورية فلا يجب ان يعترضوا على حكم الغالبية في فلسطين. اما قبولهم بتطبيق مبدأ الحكم الديمقراطي في القدس، ومقاومتهم تطبيقه على البلاد كلها، فأمر غير منطقي ولا يمكن الدفاع عنه. وهو يكشف عن عدم رغبتهم في تطبيق الحكم الديمقراطي على العرب في فلسطين، بمثل ما يدل على تميز الصهيونية بالعنصرية الانغلاقية التي لا تقيم وزنا لقيم الحق والعدل ولا لمبادئ الانسانية والاخلاق.

★ ★ ★

المصادر

- ١ - يعقوب العودات «من اعلام الفكر والادب في فلسطين» - طبع جمعية عمال المطابع التعاونية في عمان ١٩٧٥، ص ٢١-٢٢.
- ٢ - قيل هذا الكلام سنة ١٩٤٦، أي قبل أن تتحرر اقطار الشمال الافريقي العربية.
- ٣ - M.F. Abearius- Palestine Though the Fog of Propaganda. PP. g-11.
- ٤ - العودات، المصدر نفسه ص ٢٢
- ٥ - احمد طرين، الانتداب البريطاني في خلفية الدولة اليهودية» القاهرة ١٩٧٢ ص ١٥٢ نقلا عن تقرير اللجنة الملكية.
- ٦،٧- ابكاربوس ص ٩٥
- ٨ - ابكاربوس، المصدر نفسه ص ٩٥.
- ٩ - هو نائب رئيس اللجنة الصهيونية.
- ١٠ - Cmd 5479 P. 200.
- ١١ - المصدر نفسه ص ٩٩.
- ١٢ - المصدر نفسه ص ٩٩.
- ١٣ - ابكاربوس ص ١٠٠ نقلا عن تقرير لجنة بيل.
- ١٤ - ابكاربوس ص ١٠١.
- ١٥ - ابكاربوس المصدر نفسه ص ١٠٢ و ١٠٣.
- ١٦ - أخذت هذه الأرقام من التقرير الاخير الذي نشره قسم التربية بالادارة الانتدابية.
- ١٧ - ابكاربوس، المصدر نفسه ص ١٠٣.
- ١٨ - المصدر نفسه ص ١٠٤
- ١٩ - المصدر نفسه ص ١٠٤-١٠٥.
- ٢٠ - المصدر نفسه ص ١٠٥.
- ٢١ - ابكاربوس: المصدر نفسه ص ١٠٥.
- ٢٢ - Vital Cuinet- Sguez, Liban et Palestine, Pasis 1896, P. 605.
- ٢٣ - ابكاربوس المصدر نفسه ص ١٠٦.
- ٢٤ - Report of the League of Nations on the Admiuistsation of Palestine, 1926, P.53.
- ٢٥ - ابكاربوس المصدر نفسه ص ١٠٧.
- ٢٦ - المصدر السابق نفسه ص ١٠٨.
- ٢٧ - Said Himadeh (Ed.)- Economic Organization of Palestine, A.U.B. Beirut, 1938, PP. 306-7.
- ٢٨ - Ibid., P. 307, quoted from the Palestine Gazette, supplement No 15 of No. 1931, P. 879.
- ٢٩ - ابكاربوس، المصدر نفسه، ص ١٠٩.
- ٣٠ - ابكاربوس، المصدر نفسه، ص ١١٦، ص ١٢٥.

يذكر ابيكاربوس انه حين نفي رئيس بلدية القدس الى سيشل باعتباره عضوا في الهيئة العربية العليا، حل محله ضابط متقاعد لم يلبث ان توفي، فاستلم يهودي مهام رئيس البلدية لمدة أشهر ومعلوم ان بلدية القدس كانت منذ ايام عمر بن الخطاب تعرف باسم (الحسبة) وكان يتولاها رئيس مسلم، مع فاصل زمني قصير ابان الحكم الفرنجي الصليبي . وقد طلب اليهود جميعا تعيين رئيس البلدية بموجبه متناوية سنويا بين عربي ويهودي وثالث لا عربي ولا يهودي . وهكذا تُرك للعرب ثلث حقهم وجُعلت حصتهم مثل حصة اليهود! ص ١٢٤ .

مصر وفلسطين في العصر العثماني من خلال وثائق المحكمة الشرعية المصرية

د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
جامعة قطر

تمهيد:

علاقة مصر بفلسطين في العصر العثماني الاول (١٥١٧-١٧٩٨ م) تعتبر امتداداً تاريخياً وطبيعياً للعلاقة التي كانت قائمة بينهما، منذ أقدم العصور. والذي يعيننا في هذا البحث، وضع لمسات على هذه العلاقة، وبخاصة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، من خلال وثائق المحكمة الشرعية، التي يتبين للباحث منها ضخامة الدور الذي كان يقوم به ابناء المدن والقرى الواقعة في الجزء الجنوبي من بلاد الشام (فلسطين)^(١)

من المعروف ان بلاد الشام بأقاليمها المختلفة، كانت في العصر المملوكي تكون جزءاً من الدولة المملوكية. وكان حكام اقاليمها نواباً للسلطان المملوكي بالقاهرة، ولم تكن هناك حدود أو حواجز سياسية تفصل بين الاقليمين. وبانهايار النظام المملوكي، دخلت مصر وبلاد الشام في حوزة دولة واحدة هي الدولة العثمانية، وظلت الصلة بين الاقليمين قائمة، بحيث لم يعرفا كذلك الحدود السياسية بالمعنى المعروف لنا اليوم. والباحث في مصادر تاريخ العصر، سواء منها الكتابات المعاصرة أو وثائق المحكمة الشرعية التي تعتبر تسجيلاً دقيقاً للحياة اليومية آنذاك، يجد كما

وأفراً من هذه الوثائق يتعلق بأبناء المدن والقرى والمناطق الجنوبية من بلاد الشام (فلسطين). وهذا ما يعيننا في هذا البحث وبخاصة في المجالات السابق الإشارة إليها^(٣).

أما عن الارتباط السياسي بين مصر وفلسطين، فقد سبقت لنا معالجة هذا الجانب في بحث آخر ضمن علاقات بلاد الشام بمصر في العصر العثماني (١٥١٧-١٧٩٨)* وتكفي الإشارة الى أن ارتباط أحداث البلدين السياسية خلال العصر العثماني وبخاصة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، حيث ازداد نفوذ القوى المحلية، في كلا الاقليمين وحدث تنسيق العمل بين هذه القوى المحلية ضد الحكم العثماني^(٣). ولذا أهملنا الجانب السياسي من هذه العلاقة، لأنه سبق لنا معالجته، وركزنا على المجالات الأخرى من واقع سجلات المحكمة الشرعية.

أولاً: العلاقة الاقتصادية

لعب أبناء المدن والقرى الفلسطينية دوراً بارزاً في تاريخ مصر الاقتصادي خلال العصر العثماني. ويوجد كمٌّ ضخم من وثائق المحكمة الشرعية التي تتعلق بنشاط الفلسطينيين الاقتصادي في مصر خلال العصر العثماني. وترسم هذه الوثائق صورة تفصيلية وواضحة للعلاقة الاقتصادية التي كانت قائمة بين المنطقة الجنوبية من بلاد الشام (فلسطين) وبين مصر، كما أن هذه الوثائق توضح دور أبناء فلسطين في تاريخ مصر الاقتصادي ونوعية هذا الدور وضخامته فقد أتيح لأبناء المدن والقرى الفلسطينية كما هو واضح من نسبتهم الى هذه المدن والقرى فرص الاشتغال بالنشاط التجاري في داخل مصر، وفي شتى أرجاء شمالها وجنوبها، كما عمل بعضهم على ممارسة هذا النشاط بين مصر وبلاد الشام. وقد شمل نشاطهم مختلف السلع التي كانت رائجة في مصر وبلاد الشام في تلك الفترة، فمن بين السلع التي يرد ذكرها في هذه الوثائق، الاقمشة القطنية والحريرية البن، التبغ، الصابون، المشروبات، الحلوى، وغير ذلك من السلع الأخرى^(٤).

وتمكن بعض الفلسطينيين عن طريق ممارسة النشاط التجاري، من تكوين رأس مال ضخمة استثمره في تكوين شركات تجارية كبيرة، أو في تملك العقارات في المدن المصرية المختلفة أو في التزام الأراضي الزراعية، أو بعض الصناعات المحلية. ويكفي ان يقف الباحث من خلال هذه الوثائق على علو نسبة التجار من أبناء فلسطين الذين كانوا يمتلكون محلات تجارية في سوق الصاغة بالقاهرة. وكذلك في سوق الحمزاوي، وهي السوق التي كانت متخصصة في تجارة الاقمشة المحلية والمستوردة، وبصورة خاصة الأقمشة الحريرية والقطنية^(٥). وفي نفس الوقت فان هذه السلع كانت من بين السلع التي تستورد من بلاد الشام، كما ذكر ذلك شابرول أحد علماء الحملة الفرنسية ضمن قائمة البضائع المستوردة الى مصر عام ١٧٧٥م.^(٦) وقد كان اقبال الشعب المصري على السلع الشامية في ذلك العصر كبيرا. كذلك اشتغل بعض الفلسطينيين بالتجارة في الحلوى وصناعتها و عمل البقسماط^(٧). هذا الى جانب اشتغالهم بالحرف المهنية الأخرى مثلا الحلاقة والحياكة، وصناعة الأسلحة وبخاصة في مدينتي القاهرة والأسكندرية^(٨). والمتبع لخريطة القاهرة العمرانية في العصر العثماني، من خلال وثائق المحكمة الشرعية، يجد كثيرا من الوكالات التجارية التي كانت قائمة آنذاك. وكثير من أحياء القاهرة كانت عامرة بالشوام الذين ينتمون الى القرى والمدن الفلسطينية. وقد امتد نشاط هؤلاء الفلسطينيين الى التجارة الخارجية، فمارسوا عمليات الاستيراد والتصدير من مصر واليهما وأصبح لهم وكلاء ببلاد الشام. ولم يقتصر نشاطهم على التجارة في السلع الشامية وانما امتد الى جميع السلع المستوردة من اوروبا وبلاد الشرق فشمّل البن والاقمشة الهندية والاسلحة والحلي وغيرها^(٩).

ومن واقع وثائق محكمة القسمة العسكرية بارشيف المحكمة الشرعية بالقاهرة، يستطيع الباحث أن يقف على ضخامة التركات والثروات التي خلفها أبناء فلسطين لورثتهم، سواء الموجود منهم بمصر أو ببلاد الشام. حيث أن حجج اعلام الوراثة، وتحديد الوراثة كانت في كثير من الأحيان تصدر من محاكم بلاد الشام ويقرها القضاء في مصر بعد ثبوت صحتها^(١٠) ولما كان المجتمع في ذلك الوقت يقوم

على أساس التنظيم الطائفي، فأبناء كل مهنة يكونون طائفة لها شيخها ووكيلها. وكذلك المشتغلون بالتجارة، فتجار كل سلعة يكونون فيما بينهم اتحاداً أو طائفة لها شيخها ووكيلها كذلك بهدف حماية السلعة والتحكم في اسعارها. فكان كثير من الشوام الذين ينتمون الى المناطق الفلسطينية أساسا يصلون الى منصب مشيخة الطائفة التي ينتسبون اليها. فقد استطاع الخواجا محمد الشامي الفلسطيني الاصل ان يصبح شيخ الشرب بسوق الشرب، ووصل الحاج أحمد الفلسطيني الشامي الى شيخ طائفة القطاين بوكالة القطن ببولاق، وهناك عدد كبير تسجل الوثائق اسماءهم كشيوخ لطوائف المهن التي يعملون بها ويوصفون بوصف الفلسطيني الشامي^(١١).

وقد كان هؤلاء التجار والحرفيون كما يتضح من الوثائق ينتمون الى جميع المناطق الفلسطينية، فنجد من بينهم الغزي والعريشي والنابلسي والخليلي والصفدي والرملّي والياقي وغير ذلك من البلدان الفلسطينية التي كانوا ينتسبون اليها^(١٢).

اما عن استثمار هؤلاء الفلسطينيين لرؤوس الاموال التي تكونت لديهم، فقد استغلوها كما يتضح من الوثائق في كل أوجه الاستثمار الممكنة، مثل شراء العقارات والدور في القاهرة وغيرها من المدن المصرية، وفي التزام الاراضي الزراعية في مختلف انحاء مصر، وفي عمليات الاستيراد والتصدير ما بين مصر وبلاد الشام واليمن والهند، حتى بات من العسير على اي باحث في تاريخ مصر في العصر العثماني ان يغفل الدور الاقتصادي البارز الذي لعبه التجار الفلسطينيون في هذا التاريخ، وبذلك حافظ هؤلاء التجار على استمرار العلاقات الاقتصادية بين مصر وفلسطين في ذلك العصر^(١٣).

ثانيا: العلاقات الثقافية:

يكفي للباحث كي يدرك ضخامة العلاقات الثقافية بين مصر وفلسطين ان يرجع الى كتب التراجم وسجلات المحاكم الشرعية، ووثائق العصر، وبخاصة ما

يتعلق منها بالازهر. انه ولا شك سوف يقف على سلسلة كبيرة متصلة الحلقات من المثقفين الفلسطينيين. الذين تلقوا تعليمهم بالازهر، كما انه سوف يجد من بين علماء الازهر كثيرا من الفلسطينيين حيث ان بعضهم تصدى للتدريس والافتاء بالجامع الازهر بعد أن أجزوا من علمائه وبعثوا بانهم «من أعيان أهل الافادة والتدريس بالجامع الازهر». بل ان هناك علماء فلسطينيين جمعوا بين وظيفتين: التدريس والافتاء في نفس الوقت مثل الشيخ «حسن المقدسي الخلفي» فقد ذكرت الوثائق انه كان «من أعيان اهل الافادة والافتى والتدريس بالجامع الازهر»^(١٤).

وقد كان للشوام رواقهم الخاص بهم في الجامع الأزهر، عُرف باسم رواق السادة الشوام، وكانت مشيخة هذا الرواق ونظارة أوقافه توكلان الى احد علماء الشوام باختيارهم، بشرط ان يكون ممن يشتغلون بالتدريس في الجامع الازهر^(١٥). وتسجل الوثائق ذلك فتذكر أن «الشيخ الامام العلامة الهمام شهاب الملة والدين مولانا الشيخ احمد الفالوجي، شيخ رواق السادة الشوام المجاورين بالجامع الازهر - الشافعي عين اعيان اهل الافادة والتدريس بالجامع الازهر»^(١٦)، و «الشيخ شهاب الدين أحمد بن المرحوم الشيخ عنبر الشامي شيخ رواق السادة الشوام بالجامع الازهر»^(١٧)، هكذا نرى ان الذي يتولى مشيخة رواق السادة الشوام، كان ولا بد ان يكون شاميا، ومشتغلا بالتدريس في الازهر، حتى يستطيع ان يشرف على المجاورين (طلاب) الشوام إشرافاً دقيقاً وصادقاً. وقد كان رواق الشوام من اكبر اروقة الأزهر جميعها، اوقف عليه بعض الامراء المماليك، منذ عصر السلطان قايتباي كثيراً من الاوقاف. وقد كان العلماء الشوام فريقين، احدهما ولد ونشأ وتعلم في مصر ولكنه ظل يحتفظ بنسبته الى بلاد الشام، مثل ابراهيم بن ابي بكر بن اسماعيل العوفي كان من اعيان الافاضل له اليد الطولى في الفرائض والحساب، مع التبصر في الفقه وغيره من العلوم الدينية، وهو حنبلي المذهب، نشأ بمصر واخذ الفقه عن العلامة منصور البهوتي، والحديث عن جمع من شيوخ الازهر، وأجازه غالب شيوخه وألف مؤلفات منها: شرح على منتهى الارادات في فقه مذهبه

في مجلدات، ومناسك الحج في مجلدين، ورسائل كثيرة في الفرائض والحساب . وكان لطيف المذاكرة حسن المحاضرة، قوي الفكرة، واسع العقل، وكان فيه رياسة وحشمة موفورة،^(١٨) وموعة . والفريق الثاني من هؤلاء العلماء، كان يأتي الى مصر للالتقاء بعلماء أزهرها، والأخذ عنهم في بعض العلوم وإجازتهم . وكانت مدة اقامتهم فيها لفترات قد تطول وقد تقصر، حسب قدراتهم التي تمكنهم من الحصول على الاجازة المطلوبة مثل غرس الدين محمد بن أحمد الأزدي الخليلي المتوفى ١٦٤٧ ويس بن محمد الخليلي كذلك المتوفى ١٦٧٥، والعلامة شمس الدين حامد الصفدي الشافعي المتوفى ١٥٨٢، وغيرهم كثير . واحيانا كان نفر من هذا الفريق يشتغل الى جانب طلبة العلم ببعض الامور التي تمكنه من كسب عيشه مثل ابراهيم بن علي بن أحمد بن علي السعدي الذي كان « يأكل من كسب يمينه، ويتردد الى القاهرة للتجارة ولقي بها الجلة من العلماء مثل النجم الغيطي صاحب المعراج، والاستاذ محمد البكري والشمس الرملي والبنوفري واخذ عنهم»^(١٩). بل ان البعض من هذا الفريق آثر الاستقرار بمصر والاشتغال ببعض الامور التي تدر عليهم بعض الرزق الذي يكفي لمعاشهم، مثل كتابة الحجج في المحكمة الشرعية وغير ذلك. حتى ان بعضهم استطاع التدرج في السلك القضائي حتى تولوا نيابة القضاء في مصر مثل القاضي السيد نجم الدين بن صالح بن احمد بن محمد بن صالح بن عبد الله التمرتاشي الغزي الحنفي الذي ذكر عنه الجبرتي انه تولى « نيابة أبيار بالمنوفية، ومرسومات بنظارات أوقاف . فأقام بأبيار قاضياً نيافاً وعشرين سنة، وهو يشتري نيابتها كل دور، وابتدع فيها الكشف على الاوقاف القديمة والمساجد الخربة التي بالولاية وحساب الواضعين ايديهم على ارزاقها، وأطيانها حتى جمع من ذلك اموالاً، ثم رجع الى مصر (القاهرة)، واشترى داراً عظيمة بدرب ترمز بين القصرين، واشترى الممالك والجواري، وترونق حالة، واشتهر امره وركب الخيول المسومة وصار من عداد الوجهاء . ثم تولى نيابة القضاء بمصر في سنة ست وثمانين (١١٨٦ هـ / ١٧٧٢ م)، فازدادت وجاهته وانتشر صيته، وابتكر اموراً منها تحليف الشهود . وغير ذلك، ووصل به الامر الى حد انه جعل مملوكه غني افندي، يتولى نيابات القضاء في المحلة ومقوق وغيرها»^(٢٠).

أما الفريق الذي عاد الى بلاده بعد اجازته في علوم الفقه والحديث والعربية فقد حمل رسالته في نشر ما تعلمه بين ابناء وطنه أو تولى مناصب الافتاء والتدريس أو نيابة القضاء في احدى محاكم بلاد الشام. واذا ما واصلنا تتبع هؤلاء العلماء من كتب وتراجم العصر ووثائقه منذ القرن السادس عشر، حتى نهاية القرن الثامن عشر، خرجنا بالملاحظات التالية:

أولاً - نجد ان معظم العلماء الذين برزوا على المسرح الثقافي في بلاد الشام عامة، وفلسطين بخاصة تلقوا علومهم اساساً في مصر في أزهرها الشريف، واجيزوا على يد علماء مصريين في مختلف علوم الدين واللغة. وظل هؤلاء العلماء كما تذكر المصادر على صلة بأساتذتهم في الأزهر، يرسلون اليهم طلابهم احياناً، ويناقشونهم ويستفتونهم عن طريق المراسلة في بعض المسائل الاخرى.

ثانياً - ان بعض هؤلاء العلماء حسنت لهم المعيشة في مصر، فاستقروا بها، وتصدوا للتدريس في الأزهر وحازوا على مكانة عالية بين علماء عصرهم مثل مرعي بن يوسف الحنبلي، الذي ينتمي الى قرية طولكرم من قرى نابلس، وكذا ابن أخيه الشيخ احمد بن يحيى بن يوسف الحنبلي. وقد استطاع بعض هؤلاء العلماء خلال القرن الثامن أن يصل الى منصبى مشيخة الأزهر ورياسة القضاء في مصر.

ثالثاً - تذكر المصادر المعاصرة ووثائق المحكمة الشرعية في صدر ترجمتها لهؤلاء العلماء كثيراً من الألقاب التي تدل على النباهة والذكاء مثل القاب « الامام، الفقيه، العلامة، المحدث، الباحث، الاديب، اللبيب، النقيب، المفوه، الفهامة، شهاب الدين والملة » وغير ذلك من الالقاب التي تدل مكانة هؤلاء العلماء العلمية كما تدل في نفس الوقت على اعجاب علماء عصرهم بهم^(٢١). وهكذا نجد انه عن طريق هذا الوجود الثقافي الفلسطيني الشامي في مصر، اصبحت علاقة مصر ببلاد الشام عامة وفلسطين

خاصة في هذا المجال علاقة تآثر وتأثير، اخذ وعطاء، أي وجود تكامل ثقافي بين الاقليمين .

ثالثا: العلاقة الاجتماعية :

يتميز دور الفلسطينيين الشوام في الحياة الاجتماعية في مصر في العصر العثماني بأنه ذو شقين: شق ايجابي، وشق سلبي .

أما عن الشق الايجابي: فيبرز واضحا حيث استقرت غالبية فلسطينية شاملة شامية في القاهرة والمدن المصرية الأخرى . وتتضح ايجابية هذا الدور مما تسجله لنا وثائق المحكمة الشرعية، فان اشتغال الفلسطينيين الشوام بالتجارة وبالحرف المهنية جعلهم على علاقة قوية بطوائف المجتمع المصري الأخرى ويثر الاندماج مع هذه الطوائف والتأثر بها والتأثير فيها، والامتزاج معها دما ومعاملة . فنحن نعثر بين هذه الوثائق على كم ضخم من عقود الزواج التي تمت بين فلسطينيين شوام ومصريين ومغربيين والعكس بالعكس . ومن السمات البارزة في هذه العقود ان شهودها معظمهم، ان لم يكونوا كلهم، من الفلسطينيين . كذلك نجد في دفاتر محكمة القسمة العسكرية التي كانت تسجل فيها تركات المتوفين من رجال الواجهات كثيرا من الفلسطينيين الشوام الذين اندمجوا في الواجهات العسكرية التي تتكون منها الحامية العثمانية في مصر، وتمتعوا بامتيازات رجال هذه الفرق، واندمجوا فيها وصاهروا بعض أسرها ادراكا منهم لأهمية الاندماج الاجتماعي مع الفرق العسكرية^(٢٢) .

وتذكر المصادر المعاصرة بعض الشوام الذين طابت لهم المعيشة في مصر فاستقروا فيها وتخلقوا باخلاق اهلها وتزوا بزوي أهلها . وترك هذا الوجود الفلسطيني الشامي في مصر بصماته الواضحة على المجتمع المصري وذوقه، حتى وصل اعجاب المجتمع المصري ببعض الاطعمة والملبوسات الشامية درجة تفوق مجرد الاعجاب العادي . فالشاشات الشامية والملابس الحريرية كانت لها شهرة واسعة في

مختلف أوساط المجتمع المصري . ومن جانب اخر ان الفلسطينيين الشوام الذين استقروا في مصر علماء وتجاراً، اعجبوا بالشخصية المصرية واندمجوا وتخلقوا باخلاقها واصبحوا مصريين في سلوكهم شاميين في اصولهم، وحمل بعضهم صفة المصري الى نسبة الشامي «مصري الاقامة شامي الاصل». هكذا كان دور الفلسطينيين الشوام الايجابي في حياة المجتمع المصري تأثير وتأثر أخذ وعطاء^(٢٣). أما عن الشق السلبي من دور الفلسطينيين الشوام في المجتمع المصري، فيتمثل في دور العربان البدو، الذين كثيراً ما أغاروا على ريف مصر وقراها يسلبون وينهبون وبخاصة في ريف الوجه البحري ومصر الوسطى، واعتدائهم المتكرر على قافلة الحج المصري وسلب ما تحمله، حتى اضطرت سلطات القاهرة الى تعيين قائد من الامراء المماليك لحماية قافلة الحج اصبح يحمل لقب «أمير الحاج» وصار هذا المنصب من كبار المناصب التي تنافس عليها الامراء المماليك، ويصدر به فرمان من السلطان العثماني . ومع ذلك استمرت عمليات هؤلاء العربان العدوانية حتى دخول الحملة الفرنسية الازاحي المصرية . وقد قام علماء هذه الحملة بتسجيل هؤلاء العربان والمناطق التي كانت تتعرض لعدوانهم والمناطق الجنوبية من بلاد الشام التي ينتمون اليها حتى كان عصر محمد علي، حيث عمل على اجتذاب هؤلاء العربان وترويضهم عن طريق منحهم الازاحي ومحاولة استقرارهم . ذلك هو الجانب السلبي المتمثل في عمليات العربان الفلسطينيين العدوانية ضد المجتمع المصري، خلال فترة الحكم العثماني^(٢٤).

★ ★ ★

تقوم:

هكذا نرى ان الفلسطينيين، قد قاموا بدور كبير في تاريخ مصر في العصر العثماني، إذا كان الاقليمان يكونان في ظل الحكم المملوكي جناحين لجسم واحد هو الامبراطورية المملوكية . ولا توجد قيود تحد من العلاقة بينهما . ورغم انهيار هذه الامبراطورية، فان العلاقة بينهما في ظل الحكم العثماني بقيت قائمة، والتغيير الذي

حدث في السلطة الادارية والسياسية . ولذا بقيت الصلة بين الاقليمين مستمرة، وظلت احداث كل منهما واحواله تتأثر باحداث الاقليم الآخر وتؤثر فيه . فالعلاقات الاقتصادية استمرت على حالها، وظلت السلع الشامية توزع في المدن والقرى المصرية على يد أبناء فلسطين . وقد سجل علماء الحملة الفرنسية ذلك كما سبقت الاشارة، وكذلك فعلت وثائق المحكمة الشرعية مدللة عن حجم السلع التي كانت تستوردها مصر من بلاد الشام، من دمشق وحلب وطرابلس وبيروت وصفد والقدس وغزة على يد هؤلاء التجار الفلسطينيين. وكما تسجل لنا هذه المصادر ان بعض التجار الفلسطينيين استطاع ان يكون رأس مال ضخماً. هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى فإن الروابط الثقافية بين الاقليمين رغم ما يقال عن التخلف الذي اصاب الحياة الثقافية في ظل الحكم العثماني ظلت قائمة. فالتراجم التي سجلتها المصادر المعاصرة ووثائق العصر للعلماء الفلسطينيين الشوام الذين أتوا الى مصر وتعلموا فيها وعلموا ودرّسوا، ثم ارتحلوا الى بلادهم وتصدّوا للتدريس فيها لتثبت قوة هذه العلاقة ونشاطها بل ازدهارها، فكثير من المصادر، والتراجم والمصنفات من مختلف فنون العلوم النقلية والعقلية وضعت على يد هؤلاء العلماء .

اما العلاقات الاجتماعية بين الاقليمين فكانت نتاجا طبيعيا للعلاقات الاقتصادية والثقافية، فلا شك ان اقامة بعض طوائف الفلسطينيين في مصر وارتحالهم منها واليهما ادى الى امتزاجهم وتأثيرهم في المجتمع المصري، وتأثر عادات وتقاليد وذوق كل من الاقليمين بعادات وتقاليد وذوق مجتمع الاقليم الآخر. وظل هذا التأثير قائماً حتى يومنا هذا، ولم يعد قصراً على العصر العثماني كما سبقت الاشارة .

خلاصة القول ان العلاقة بين الاقليمين كانت علاقات تأثر وتأثير، اخذ وعطاء بين إقليمين من امة واحدة مهما اختلفت صورة الحكم والهيئة الحاكمة .

مصادر البحث

أولاً: وثائق المحكمة الشرعية المصرية (غير منشورة)

- توجد هذه الوثائق بأرشفيف المحكمة الشرعية، المحفوظ بمقر الشهر العقاري المصري بشارع رمسيس بالقاهرة، والسجلات التي استعملت في البحث هي:
- ١ - سجلات محكمة القسمة العسكرية.
 - ٢ - سجلات محكمة الصالية النجمية.
 - ٣ - سجلات اسقاط القرى.

ثانياً: المخطوطات:

- ١ - البكري (محمد بن أبي السرور) اللطائف الربانية على المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٨٠) تاريخ.
- ٢ - يوسف الملواني تحفة الاحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٦٢٣ تاريخ، مصورة عن النسخة الاصلية المكتوبة بخط المؤلف والمحفوظة بمكتبة رفاعة رافع الطهطاوي بسوهاج تحت رقم (٨٠) تاريخ.

ثانياً: المصادر المطبوعة:

- ١ - البكري (محمد بن أبي سرور) كشف الكربة في رفع الطلبة تحقيق دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن، المجلة التاريخية المصرية «مجلد ٢٣» سنة ١٩٧٦ م.
- ٢ - الجبرتي: (عبد الرحمن بن حسن)، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ٤ أجزاء طبع القاهرة ١٩٠٤ م.
- ٣ - خفاجي (محمد عبد المنعم) الأزهر في الف عام، الجزء الثاني - القاهرة.
- ٤ - شابرول (ج. دي) دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر الحديثين، وصف مصر، الترجمة الكاملة، ترجمة زهير الشايب، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٧٩ م.
- ٥ - رافق، عبد الكريم (دكتور) بلاد الشام ومصر، من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦-١٧٩٨ م، الطبعة الثانية، دمشق سنة ١٩٦٨ م.
- ٦ - عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور)، الريف المصري في القرن الثامن عشر، طبع جامعة عين شمس القاهرة ١٩٧٤ م.

- ٧ - عبد الغني (احمد شلبي) أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشوات تحقيق وتقديم دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن، مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٧٩ م.
- ٨ - عوض (عبد العزيز محمد)، دكتور، الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤ م، دار المعارف القاهرة ١٩٦٩ م.
- ٩ - المحيي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، طبع بيروت بدون تاريخ.
- ١٠ - المرادي (محمد خليل) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، طبع بغداد، مكتبة المتنبي.
- ١١ - Raymond, Andre, Artisans et commercants au Caire au XVIIIe siècle II tomes DAMAS. 1973.

- ١ - بخصوص التقسيمات الادارية في بلاد الشام في العصر العثماني، انظر: دكتور عبد العزيز محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤- صص ٦١-٦٣.
- ٢ - على سبيل المثال لا الحصر، نعتز في سجل واحد من سجلات محكمة القسمة العسكرية وهو السجل رقم (١٧٥)، الخاص بالفترة من ٢٢ ربيع الأول ١١٧٧ هـ- ٢٠ ذي الحجة ١١٧٧ هـ / ٣٠ سبتمبر ١٧٦٣ هـ / ٢٠ يونيو ١٧٦٤ م على الوثائق التالية المتعلقة بالتجار الشوام من ابناء فلسطين وثيقة رقم ٣٤٦ ص ٢٤٢، رقم ٤٢٧، ص ٣٠٦، رقم ٤٣٤ رقم ٥٨٢ ص ٤٣١، رقم ٥٨٣ ص ٤٣١، رقم ٥٨٤ ص ٤٣٥، رقم ٦١٨ ص ٤٥٩، وهكذا وداليك في سجلات المحاكم الشرعية المصرية، التي قمنا بحصرها وحصر سجلاتها في كتاب الريف المصري في القرن الثامن عشر، ص ٣٩، وعددها ١٦ محكمة وعدد سجلاتها (٢٠٦٦) سجلاً، (٣٥٣).
- ★ ألقى هذا البحث في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام في جامعة دمشق ١٩٧٨
- ٣ - لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع انظر دكتور عبد الكريم رافقه بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦-١٧٩٨)، ص ص ٣٤٥-٤١٨.
- ٤ - ارشيف المحكمة الشرعية، سجلات محكمة الصالحية النحمية، سجل (٥١٩) ص ٢٧٠، وثيقة ٥٣٦، سجلات القسمة العسكرية، سجل (١٧٥)، ص ٣٠٦ مادة ٤٢٧ سجل ٦٨٤، ص ٦، وثيقة ١٥، ص ٨٢ وثيقة ١٧٩، ص ١٠٦، وثيقة ٣٢٧.
- ٥ - ارشيف المحكمة الشرعية، محكمة القسمة العسكرية، سجل ١٧٥، مادة ٣٨٣، ص ٢٧٠، والصالحية التحكيمية سجل ٥١٩ وثيقة ٥٣٦ ص ٢٧٠ المجلة التاريخية المصرية، عدد ١٠، ١١ ص ٩٨-١٠٠ سجل ١٦٥ قسمة عسكرية، ص ٢٠٢ مادة ٧.
- ٦ - ج. دي. شابرول دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ضمن ابحاث وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، الطبعة الثانية، طبع القاهرة ١٩٧٩ م ص ٢٣٨-٢٤٣.
- ٧ - ارشيف المحكمة الشرعية، محكمة القسمة العسكرية سجل ٦٨٤، ص ١٠٦، وثيقة ٢٢٧.
- ٨ - ارشيف المحكمة الشرعية، محكمة القسمة العسكرية سجل ٦٨٤ ص ٦، وثيقة ١٥، ص ٨٢، وثيقة ١٧٩.
- ٩ - ارشيف المحكمة الشرعية، محكمة القسمة العسكرية، سجل ١٦٥، ص ٢٢ وثيقة ٣٠٧، سجل ١١٤ ص ٤٨، وثيقة ٣٨، ص ٥٣ وثيقة ٤١، سجل ١٤٥، ص ٤١ وثيقة ٣٨، سجل ٦٨٤ ص ٨٢، وثيقة ١٧٩، ص ١٠٦ وثيقة ٢٢٧، سجل ١٧٥، ص ٣٠٦ وثيقة ٤٢٧، ومحكمة الصالحية النحمية سجل ٥١٩، ص ٢٧٠، وثيقة ٥٣٦، وانظر كذلك بخصوص التجار الشوام من ابناء فلسطين ومناطق انتشارهم في القاهرة المصدر القيم الذي كتبه البرفسور اندرية ريمون عن الحرفيين، والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر.

- ١٠- ارشيف المحكمة الشرعية، محكمة القسمة العسكرية، سجل ٧ ص ١٧٩، وثيقة ١٨١، سجل ١٦٥، ص ٤٨ وثيقة ١٠٣٨ سجل ١٧٥ ص ٤٣١، وثيقة ٥٨٢ سجل ١٤٥، ص ٧١ وثيقة ٩٥ وسجلات اسقاط القرى، سجل ٧، ص ٧٩، وثيقة ١١٨، وسجل ١٨، ص ١١ بدون رقم للوثيقة، سجلات الديوان العالي، سجل رقم (١)، ص ٨٥، وثيقة ١٧٦، ص ٣٠، وثيقة ٥٧.
- ١١- ارشيف المحكمة العسكرية، محكمة القسمة العسكرية، سجل ٧، ص ١٧٩ وثيقة ١٨١. سجلات الديوان العالي، سجل (١) ص ٨٥، وثيقة ١٧٦، قسمة عسكرية سجل ١٧٥ ص ٣٠٦، وثيقة ٤٢٧.
- ١٢- ارشيف المحكمة الشرعية، قسمة عسكرية، سجل ١٧٥ رقم ٣٤٦، ٤٢٧، ٤٣٤، ٤٦٦، ٤٧٧، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٤، سجل ١٦٥ وثيقة ٣٨، سجل ١٤٥، وثائق ٣٨، ٩٥، ٩٩، هذا على سبيل المثال لا الحصر.
- ١٣- ارشيف المحكمة الشرعية، سجل اسقاط القرى، رقم ٧، ص ٧٩ وثيقة ١٨١ سجل ١٨، ص ١١ قسمة عسكرية، سجل ١٧٥، ص ٤٣١، وثيقة ٥٨٣، سجل ١٦٥، ص ٤٨، وثيقة ٣٨ الصالحية النجمية، سجل ٥١٩، ص ٢٧٠ مادة ٥٥٦، قسمة عسكرية ١٤٥، ص ٧١ وثيقة ٩٥، ص ٧٤، وثيقة ٩٩.
- ١٤- ارشيف المحكمة الشرعية، محكمة القسمة العسكرية، سجل ١٧٥ ص ٢٤٢، وثيقة ٣٤٦.
- ١٥- أنشأ هذا الرواق السلطان قاتيباي (١٤٦٨ م) فزاد فيه الامير عثمان كتنخدا، وعبد الرحمن في القرن الثامن عشر، وحتى صار اكبر من رواق الصعايدة، وكان بأعلاه نحو الثلاثين حجرة لمجاوري الشوام، وبه خزانة كتب، وقد اوقف عليه كل من الامير عثمان، والامير عبد الرحمن كتنخدا أوقافاً ظلت حارية حتى حل هذه الاوقاف، وكانت فيه بئر وحفنية، انظر، محمد عبد المنعم خفاجي «الأزهر في الف عام، الجزء الثاني، ص ٩٩-١٠٠.
- ١٦- ارشيف المحكمة الشرعية، محكمة القسمة العسكرية، سجل ١٧٥، ص ٣٣٥، وثيقة ٤٦٦.
- ١٧- ارشيف المحكمة الشرعية، محكمة القسمة العسكرية، سجل ١٧٢، ص ٣ وثيقة (٥).
- ١٨- المحبي، خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر، ج ٩، ص ٩.
- ١٩- المحبي، المصدر السابق، ج ١، ص ٣١.
- ٢٠- عبد الرحمن الجبري، عجائب الآثار في التراجم والاخبار، ج ٢، حودث ١٢٠٠ هـ/ ١٧٨٥ م)، ص ١٢٧.
- ٢١- ارشيف المحكمة الشرعية، محكمة القسمة العسكرية، سجل ١٧٥، ص ٢٤٢، وثيقة ٣٤٦، ص ٣١١، وثيقة ٤٣٤، ص ٣٣٥، وثيقة ٤٦٦، سجل ١٧٢، ص ٣، وثيقة

٥، ص ٨٣، وثيقة ١٢١. وكذلك كل الوثائق التي وردت بسجلات المحاكم المشار اليها سابقا..

وبخصوص كتب التراجم انظر، المحيي، خلاصة الأثر، ج١، ص ٩، ٣١، ٤٦، ٦٨، ص ١٥٤-١٥٥، ٢٩٧-٢٩٨، ٣٦٧، ٤٠٨، ٤٨٩، ج٢، ص ٢١، ٧٩، ٩٤، ١١٦، ١٤٠، ١٧٢، ٢٠٢، ٢٢١، ٢٣٨، ٢٨٥، ٣٤٤، ٤٣٤، ج٣، ص ١٤، ١٢٢، ٣٩٠، ٤٧٥، ج٤، ص ٣٤، ٤٣٣، السيد محمد خليل المرادي، سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر، ج١، ص ١٩، ٣٠، ج٢، ص ٨٣، ٢٥٤، ٢٩١، ج٣، ص ٣-٨٣، ج٤، ص ٥٩، وكذلك فعل الجبرتي في تراجمه.

٢٢- انظر الوثائق المشار اليها، حتى ان معظم الوثائق المتعلقة بالتجار الشوام سجلت بسجلات محكمة القسمة العسكرية، التي كانت تختص بتركات ومخلفات كل المنتمين الى الفرق العسكرية.

٢٣- انظر تراجم الشوام السابق الا اليها هي المحيي، والمرادي، واحمد شلبي، وابن ابي السرور، والجبرتي، وتحفة الاحباب، (مخطوطة) ليوسف الملواني.

٢٤- المصادر المعاصرة المشار اليها، وكذلك دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن الريف المصري في القرن الثامن عشر، ص ١٥٧-١٦٧.

المنظمة الصهيونية العالمية بعد قيام اسرائيل - التعارض بين الحلفاء -

د. أسعد عبد الرحمن
جامعة الكويت

توطئة

تفتقر المكتبة العربية الى الدراسات المتكاملة التي تعالج القضايا التنظيمية والايديولوجية والسياسية الخاصة بالحركة الصهيونية في فترة ما بعد زرع اسرائيل في التربة العربية. وعلى الرغم من اهمية الجهود العملية في ميدان ترجمة بعض المؤتمرات الصهيونية الى العربية وفي معالجة جزء من تلك القضايا على نحو تحليلي، يجب الاعتراف بأن الطابع الغالب لتلك الجهود كان مجتزءاً ووصفياً^(١). وهكذا، بقي الركن المعدّ في المكتبة العربية لاستقبال الابحاث الشمولية - التحليلية الخاصة بالحركة الصهيونية في فترة ما بعد قيام اسرائيل، ركناً خالياً يكسوه الغبار. وكما هو متوقع في مثل هذه الحالة، استمرت الوثائق والمصادر التي يمكن منها استخلاص المعلومات واستنباط التحليلات الشمولية على وضعها المتناثر هنا وهناك. ولذلك، كانت الحاجة دوماً ماسة الى دراسة تحليلية تحاول استخلاص وتركيب الصورة الحقيقية المتكاملة للحركة الصهيونية في الفترة ما بين ١٩٤٨-١٩٨٠.

ولعل اقصى ما تطمح اليه هذه الدراسة هو الشروع في محاولة رسم لوحة شبه متكاملة لأبرز معالم المنظمة الصهيونية العالمية وطبيعة علاقات التحالف والتعارض بينها وبين الكيان الصهيوني طوال المرحلة الفاصلة ما بين قيام «اسرائيل» واللحظة الحاضرة. وعلى الرغم من انه لن يكون ثمة مناص من استخدام الريشة الوصفية في

رسم بعض جوانب تلك اللوحة، فأن رسم الشبكة التي تربط الجوانب المختلفة للصورة بعضها ببعض سيكون مقتصرًا على استخدام الريشة التحليلية في ضوء المنهج «الوظيفي - المقارن». وبعبارة أخرى، سيتم رسم اللوحة الخاصة بالحركة الصهيونية بأبعادها الوظيفية الثلاثة (الأيديولوجية، التنظيمية، والسياسية) ضمن سياق يقارن بين ما كان عليه حال كل واحد من هذه الأبعاد قبل قيام إسرائيل، وبين ما أصبح عليه بعد تأسيس هذه الأخيرة. وعليه، تأمل هذه الدراسة في أن تجيب على أسئلة من نوع: ما هي طبيعة القضايا الأيديولوجية المطروحة ضمن علاقة التعاون والصراع^(٢) ما بين إسرائيل والمنظمة الصهيونية العالمية؟ وإلى ماذا آلت إليه الصورة التنظيمية للحركة الصهيونية في ظل تلك العلاقة؟ وما هي أنماط العلاقة السياسية القائمة بين الدولة الصهيونية والمنظمة الصهيونية، علاوة على آفاق تلك العلاقة على امتداد الخط الزمني المستقبلي المنظور؟ وغني عن الذكر أن الإجابة عن جميع هذه الأسئلة تستوجب أولاً ودوماً عرضاً لما كانت عليه صورة المنظمة الصهيونية في المراحل المختلفة.

ومع أن الدراسة ستحرص على الانشداد باستمرار إلى هذه الأبعاد الوظيفية، فإنها - لاعتبارات تتعلق بيسر المتابعة وبسلسلة الانسياب وبتقليص مثالب التداخل وعيوب تكرار الوقائع - ستحاول رسم اللوحة النهائية المطلوبة عبر إظهار الترابط العضوي بين المفاصل الزمنية المختلفة المتفاعلة التي أسهمت في تحويل معالم الصورة جوهرياً وفي جعلها على النحو الذي أصبحت عليه مع بداية الثمانينات. ولقد اقتضى مثل هذا التوجه مراكمة طبقات ألوان اللوحة، بتتابع زمني، ضمن أربع مراحل:

- ١ - عشية قيام الكيان الصهيوني وسقوط الدكتور حايم وايزمن.
- ٢ - غداة تأسيس ذلك الكيان وصعود الدكتور ناحوم غولدمان.
- ٣ - ولاية هذا الأخير وسقوطه.
- ٤ - ما بعد سقوط الدكتور غولدمان.

ومن الطريف، في هذا المجال، ملاحظة كون البدايات الحقيقية لتلك المراحل تكاد تتطابق زمنياً، وعلى التوالي، مع عشية اندلاع نار المعركة العربية - الاسرائيلية الاولى في العام ١٩٤٨، ونشوب المعركة الثانية في العام ١٩٥٦، واشتعال شرارة المعركة الثالثة في العام ١٩٦٧، وانفجار المعركة الرابعة في العام ١٩٧٣. وعلى اية حال، فان هذه «الطرافة» لم تأت على نحو عفوي عشوائياً وإنما هي - كما سيتضح في سياق هذه الدراسة - مرتبطة، موضوعياً، في معظم الحالات مع النتائج التي اسفرت عنها تلك الجولات الاربع.

ولاعتبارات تتعلق بوضع الدراسة في سياقها التاريخي العام، ومن اجل اتكاء عملية المقارنة بين ما كان عليه الوضع قبل وبعد قيام اسرائيل على حقائق صلبة وعامة واضحة، وفي سبيل ادراك الخلفية التي ادت الى سقوط مرحلة وايزمن، ارتئمتي ربط المرحلة الاولى التي نحن بصدددها بمقدمة تاريخية سريعة جدا تشتمل على صورة عامة لأبرز التطورات التي مرت بها الحركة الصهيونية منذ نشأتها حتى نهاية الحرب الكونية الثانية.

المرحلة الاولى: انبثاق وزوال قيادة وايزمن الصهيونية

كان الفكر السياسي الصهيوني قد عبر عن نفسه، بشكل عملي، بظهور حركة «حب صهيون» مع بداية الثمانينات في القرن التاسع عشر. ولعل أبرز ما استهدفته هذه الحركة تمثل في دعم الاستيطان اليهودي في فلسطين عن طريق تشجيع الهجرة الصهيونية الى الاراضي المقدسة وتقديم المساعدة المالية والمعنوية للمهاجرين. وكانت حصيلة ذلك كله، اقامة المستعمرات الصهيونية الاولى في فلسطين (بتاح تكفا، ريشون لي زيون، روش بيناه، زخروف يا أكوف، والجديرة)^(٣).

ولقد افسحت حركة «حب صهيون»، في العقد الاخير من القرن التاسع عشر، الطريق امام اتجاه سياسي صهيوني اكثر بلورة وتطورا اقرنت تسميته، فيما بعد، باسم الرائد السياسي الصهيوني ثيودور هيرتسل (١٨٦٠-١٩٠٤). وقد تميزت الصهيونية الهرتسلية هذه عن غيرها، علاوة على ديناميكية هرتسل نفسه، بكونها تياراً يؤكد «ان الخلاص القومي (للهود) لا يمكن تحقيقه عبر عملية متقطعة لاقامة المستعمرات، وانما عبر استقلال سياسي كامل لهذه العملية بحيث يكون هذا العمل (باتجاه الخلاص) محميا على الصعيد العالمي»^(٤). وقد نجحت جهود هرتسل، رغم فشله في تحقيق كثير من الاهداف الاساسية أو الفرعية التي رسمها لنفسه، في عقد المؤتمر الصهيوني في ٢٩ آب / اغسطس من العام ١٨٩٧. ولقد اسفرت اعمال ذلك المؤتمر عن تحقيق «إنجازين» رئيسيين هما:

أ) وضع البرنامج الصهيوني المعروف ببرنامج بال (بازل).

ب) اقامة المنظمة الصهيونية العالمية لتنفيذ البرنامج الموضوع الذي نص على: «ان هدف الصهيونية هو اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين يضمنه القانون العام»^(٥).

لتحقيق ذلك الهدف، حدد المؤتمر الخطوات الاربعة التالية:

- ١ - تشجيع استيطان العمال الزراعيين والصناعيين اليهود في فلسطين وفقا لخطوط مناسبة.
- ٢ - تنظيم اليهود وربطهم جميعا عبر مؤسسات مناسبة، على الصعيدين المحلي والعالمي، كل منها حسب قوانين البلد المعني.
- ٣ - تقوية الحس والوعي القومي اليهودي وتعزيزهما.
- ٤ - اتخاذ خطوات تمهيدية للحصول على موافقة الدول، حيث يكون ذلك ضروريا، لتحقيق هدف الصهيونية^(٦).

ولانجاز الهدف الصهيوني الرئيسي، ولتنفيذ الخطوات العملية المؤدية الى ذلك الهدف، كان لا بد من جعل «المنظمة الصهيونية العالمية» منظمة فاعلة. وقد

امكن للصهيونيين تحقيق ذلك عبر جعلهم « المنظمة » مؤسسة لها اجهزة مركزية تمثلت في رئيس المنظمة، ونائب الرئيس، ومكتب التوجيه المركزي، واللجنة التنفيذية، والمجلس العام (شبه التنفيذي شبه التشريعي)، والمؤتمر الصهيوني وهو « السلطة العليا (التشريعية) في الحركة الصهيونية^(٧). كما جرى تأسيس الاجهزة المحلية في « المنظمة » على اساس ترك « تقرير شكلها النهائي وشكل العضوية فيها لكل بلد على حدة^(٨). (انظر الملحق رقم ١).

وبالفعل، نمت المنظمة الصهيونية العالمية على نحو سريع. فما كاد المؤتمر الصهيوني السادس يعقد في العام ١٩٠٣ حتى بلغ عدد الاعضاء المشاركين فيه (٦٠٠) عضو في حين ازداد عدد الجمعيات الصهيونية الى (١٥٧٢) جمعية متوزعة على بلاد مختلفة^(٩). كما نجحت « المنظمة » في تأسيس « الصندوق القومي اليهودي » (الكبيرين كيمت) في العام ١٩٠١ بهدف أستملاك الاراضي في فلسطين بحيث تكون « ملكا للشعب اليهودي ولا يمكن التفريط فيها^(١٠). بل ان « المنظمة » نجحت، مع نهاية العام ١٩٠١، بانشاء بنك صهيوني عرف باسم « صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار » الذي تفرعت عنه بنوك اخرى كان هدفها جميعا تمويل النشاطات والمشاريع الصهيونية^(١١) (انظر الملحق رقم ٢).

وفي الوقت ذاته، حرص هرتسل (رئيس المنظمة الصهيونية العالمية) على تكثيف جهوده الدبلوماسية من أجل الحصول على « براءة » تستطيع « المنظمة » بموجبها ضمان اي كيان صهيوني يقام في فلسطين، بل وقبل ذلك تسريع النشاطات الصهيونية الهادفة الى اقامة مثل ذلك الكيان. ومع أن محادثات هرتسل مع كل من المانية وتركية ومصر وبريطانيا وروسيا والنمسة فشلت في تأمين « البراءة » المطلوبة، فقد نجحت جهوده رغم ذلك في جعل « المسألة اليهودية » قضية عالمية تماماً مثلما نجحت في استحصاله، بمحادثاته المختلفة، على نوع من الاعتراف الضمني بالمنظمة الصهيونية العالمية، ناهيك عن اسهام تلك الجهود، على نحو غير مباشر، في حل الكثير من المشاكل التنظيمية التي واجهت « المنظمة »^(١٢).

غير ان المرحلة الهرتسليه لم تكن خلوا من المشاكل الداخلية التي هددت وجود ووحدة «المنظمة» اكثر من مرة^(١٣). فبالاضافة الى التيار المعادي للصهيونية الذي ظهر منذ اللحظات الاولى لتأسيس «المنظمة» - بدأ يتشكل، منذ المؤتمر الصهيوني الأول في العام ١٨٩٧، نوع آخر من المعارضة سرعان ما تمثل «بالصهيونية العملية» التي قادها زعماء «أحباء صهيون» في مواجهة «الصهيونية السياسية» التي كان يتزعمها هرتسل ذاته. ومن الجدير بالذكر في هذا النطاق، أن الخلاف بين هذين الفريقين لم يكن خلافا مبدئيا وإنما كان نابعا من اختلاف درجة تركيز كل واحد منهما على بنود «البرنامج الصهيوني». ففي حين ركز «العمليون» على البند الاول الخاص بتشجيع حركة الاستيطان، ركز «السياسيون» على البند الرابع الخاص بالحصول على «براءة» من الدول المعنية لضمان شرعية واستمرار أي كيان صهيوني يقام في فلسطين.

وفي الوقت الذي كان فيه الخلاف بين «العمليين» و «السياسيين» على أشده، شهدت «المنظمة» بروز «الجناح الديمقراطي الصهيوني» (بقيادة حايم وايزمن، ليو موتركن، فكتور جاكوبسن، مارتن بوهر وغيرهم). ولقد انتقد هذا الجناح القيادة الهرتسليه «غير الديمقراطية» لأنها لم تظهر حرصا كافيا على «بعث الثقافة اليهودية».

غير ان أخطر ما واجهه هرتسل على صعيد التيارات المتصارعة داخل المنظمة الصهيونية تجلى في المعارضة التي قادها مناحيم أوسيجن من خلال «اللجنة الروسية» وعبر مؤتمر المعارضة في مدينة «كاركوف» بروسية في تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٠٣. فقد تبنى ذلك المؤتمر «انذارا نهائيا يسلم الى هيرتسل ويطلبه بتغيير اسلوبه في ادارة شؤون «المنظمة» وبالغاء مشروع (اوغنده) في افريقية الشرقية نهائيا (لصالح المشاريع الخاصة بالاستيطان في فلسطين او سورية)... وبالتخلي عن طريقته الدكتاتورية في تصريف الامور. وقد استمرت هذه الخلافات بين جزر ومد حتى وفاة هيرتسل في منتصف العام ١٩٠٤.

تميزت الفترة التي أعقبت غياب هرتسل و حتى اندلاع نار الحرب الكونية الاولى بالتطورات التالية^(١٤) :

أولاً : ازدياد نفوذ « الصهيونيين العمليين » حتى تحققت لهم السيطرة الكاملة على مقدرات « المنظمة » في المؤتمر الصهيوني العاشر المنعقد في العام ١٩١١ . ومنذئذ وحتى العام ١٩٢٠ ، ترأس « المنظمة » أوتو واربورغ ، زعيم تيار « الصهيونية العملية » .

ثانياً : وضع مشروع اقامة الوطن القومي اليهودي في اوغندا جانبا وعلى نحو نهائي بدءاً من المؤتمر الصهيوني السابع المنعقد في العام ١٩٠٥ . وقد ادى هذا التطور الى انسحاب مؤيدي المشروع من المنظمة - الأم ، وتأسيس « المنظمة الدولية الاقليمية » بقيادة « اسرائيل زانغويل » .

ثالثاً : ازدياد النشاط الصهيوني في فلسطين ، عبر الاجهزة والمؤسسات المختلفة ، لارساء قواعد « الوطن القومي اليهودي » . وقد أدت الجهود والمشاريع الصهيونية الى هجرة (٤٠) ألف يهودي الى فلسطين في الفترة الممتدة بين (١٩٠٤ - ١٩١٤) في حين لم يتجاوز عدد المهاجرين اليهود في الفترة الاطول بين (١٨٨٢ - ١٩٠٤) الخمسة والعشرين ألفاً .

تركت الحرب الكونية الاولى آثارا بعيدة المدى على « المنظمة الصهيونية العالمية » . فمن جهة ، وقعت اجهزة « المنظمة » في حالة من الفوضى الادارية بحيث انقطعت مكاتبها المركزية عن الاجهزة والوحدات المحلية والاعضاء . ومن جهة ثانية ، تعرضت الاجهزة الصهيونية في فلسطين ذاتها ، ومعها المستوطنون الصهيونيون ، الى هزات قاسية أدت في النهاية الى حل العديد من تلك الاجهزة والى هجرة الكثير من الصهيونيين لخارج فلسطين . ومن جهة ثالثة ، برز نجم حايم وايزمن في لندن كزعيم « الامر الواقع » للحركة الصهيونية . اما الاهداف السياسية للحركة الصهيونية - في هذه المرحلة - فقد تحددت في أربع خطوط هي :

- « ١ - ضرورة انتصار الحلفاء .
- ٢ - اقامة انتداب بريطاني في فلسطين .
- ٣ - على ان يسهل ذلك الانتداب دخول مليون يهودي أو أكثر الى فلسطين .
- ٤ - ان ينتهي الانتداب بعد ان يكون اليهود قد سيطروا على مقدرات فلسطين»^(١٥) .

حرص وايزمن ومؤيدوه على بناء جسور متينة مع الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية . وقد اسفرت تلك الجهود عن عقد مؤتمر صهيوني طارئ في نيويورك في ٣٠ ب / أغسطس ١٩١٤ تشكلت فيه «اللجنة التنفيذية المؤقتة للشؤون الصهيونية العامة» التي اصبح القاضي لويس براندايس ، زعيم الصهيونيين الاميركيين ، رئيسا لها (انظر الملحق رقم ٣) . وقد نجحت الجهود الصهيونية ، بجناحيها البريطاني والاميركي وانصارهما في تقريب وجهات نظر الحكومتين البريطانية والاميركية فيما يتعلق بقضية فلسطين بحيث كانت حصيلة ذلك كله صدور وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧^(١٦) .

وما كادت الحرب الكونية الاولى تنتهي حتى اعيد تنظيم بل تطوير «المنظمة الصهيونية العالمية» وبالذات في مجال استكمال جهازها المالي الاساسي . فقد تم عندئذ تأسيس «الصندوق التأسيسي لفلسطين» (الكرين هايسود) المختص بنشاطات الهجرة والاستيطان . اما «اللجنة الصهيونية» في فلسطين فسرعان ما تحولت الى «حكومة طور التكوين» اشرفت على كافة شؤون يهود فلسطين وعلى اعادة تنظيم وتطوير الجهود الخاصة ببناء وطن قومي يهودي عبر دوائر مختلفة اقتصت بشؤون السياسة ، والدعاية ، والاغاثة ، والزراعة والاستيطان ، والشؤون الفنية ، والاحصاء ، والتجارة والصناعة ، والهجرة ، والتعليم ، والمالية ، والعمل^(١٧) .

جاء انعقاد المؤتمر الصهيوني الثاني عشر في ايلول / سبتمبر ١٩٢١ بتويجا لعملية إغاثة التنظيم وتكريسا لعودة السلطة التشريعية في «المنظمة» بعد انقطاع دام منذ العام ١٩١٣ . فمنذئذ ، ترأس حاييم وايزمن المنظمة في حين استحدث

منصب رئيس اللجنة التنفيذية التي انقسمت الى لجنتين: لجنة فلسطين التنفيذية، ولجنة لندن التنفيذية. ومن الجدير بالذكر أن اختيار اعضاء اللجنة التنفيذية تم على اسس ائتلافية تمثلت فيها الاحزاب الصهيونية المختلفة وفقا لقواها العديدة (انظر الملحق رقم ٤) (١٨).

انصرفت جهود القيادة الصهيونية بعد ذلك الى استكمال انجاز الاهداف الصهيونية المعلنة عشية الحرب. وما ان انتهت هذه الاخيرة بانتصار الحلفاء في ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٨، حتى سعت القيادة الصهيونية الى وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني شرط ان يتضمن صك الانتداب جميع الحقوق المعطاة لليهود في «وعد بلفور». وقد تحقق للصهيونيين ذلك مع المصادقة النهائية على قيام الانتداب البريطاني في فلسطين في ٢٤ تموز/ يوليو ١٩٢٢. ولأن صك الانتداب نص على قيام «وكالة يهودية على اسس مناسبة لتكون هيئة عامة تقدم النصح وتعاون مع حكومة فلسطين (البريطانية) في المسائل الاقتصادية والاجتماعية وغيرها من الامور التي يمكن ان تؤثر على اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، حرص وايزمن على تأسيس «الوكالة اليهودية الموسعة» وقد ضمت هذه «الوكالة» اليهود غير الصهيونيين في اطارها بعد التأكد من وقوعها لقمة سائغة بيد «المنظمة الصهيونية العالمية» ذاتها. وقد تم انجاز ذلك الهدف مع الثلث الاخير من العام ١٩٢٩ (انظر الملحق رقم ٥) (١٩).

شهدت السنوات العشر التي تلت عقد خمسة مؤتمرات صهيونية. اما عدد اعضاء «المنظمة» فازداد من (٣٩٣٢٢٠) عضوا في العام ١٩٢٩ الى (١٢٨٠١٦٤) عضوا في العام ١٩٣٩، على الرغم من انشقاق جماعة فلاديمير جابوتنسكي (التصححيين او التحريفيين) وتأسيسهم «المنظمة الصهيونية الجديدة» في العام ١٩٣٥ احتجاجا على عدم اتباع المنظمة الأم سياسة متطرفة ضد بريطانيا (٢٠).

ورغم ان نشوب الحرب الكونية الثانية في العام ١٩٣٩ ضعضع اوضاع

المنظمة الصهيونية فإن هذه الاخيرة نجحت في تنفيذ برامجها بصورة فعالة. فاللجنة التنفيذية الصهيونية، بعكس سلفها خلال الحرب الاولى، كانت قادرة على بناء الهيكل التنظيمي المناسب والفعال في ظروف الحرب (انظر الملحق رقم ٦) تماما مثلما كانت قادرة على معالجة الشؤون الصهيونية وبالذات عبر الاستفادة الكاملة من جهود وامكانيات يهود الولايات المتحدة. فقد نجحت المنظمة الصهيونية - بفضل الدعم والتشجيع البريطاني والاميركي، ورغم النضالات الفلسطينية - في زيادة عدد اليهود في فلسطين من (٨٠) الفا اي ما يعادل (١١١٪) من مجموع السكان في العام ١٩٢٢، الى (٦٥٠) الفا اي ما يعادل (٣٣٣٪) من مجموع السكان في العام ١٩٤٨. بل ان المنظمة الصهيونية، بعد ان ادركت الثقل المتزايد للولايات المتحدة على الصعيد الدولي نتيجة للحرب ودورها فيها، نقلت مركز ثقلها من لندن الى واشنطن. وبالفعل، عقدت «مؤتمر بيلتمور» الاستثنائي في الولايات المتحدة في ايار/ مايو ١٩٤٢ حيث صدر عنه «برنامج بيلتمور» الصهيوني الشهير. وقد تضمنت قرارات ذلك المؤتمر ثلاثة بنود رئيسية هي:

- ١ - تحقيق الغرض «الاصلي» لتصریح بلفور وصك الانتداب وذلك باتاحة الفرصة امام اليهود لاقامة «كومونولث يهودي» في فلسطين.
- ٢ - إنشاء «قوة عسكرية يهودية».
- ٣ - فتح «ابواب فلسطين (للهجرة) ومنح الوكالة اليهودية حق السيطرة على الهجرة الى فلسطين... (بحيث تصبح) مقام الكومونولث اليهودي الذي سيندمج في تركيب العالم الديمقراطي»^(٢١).

ومن الجدير بالذكر في هذا المجال، ان هذه المطالب تاكدت من جديد في اجتماع المجلس الصهيوني العام في صيغته المضيقه (لجنة العمل الصغرى منذ ١٩٣٧) في نهاية العام ١٩٤٢، وفي الاجتماع الصهيوني العالمي الاستثنائي المنعقد في لندن يوم الاول من آب/ اغسطس ١٩٤٥، وفي المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين في ٩ كانون الاول/ ديسمبر ١٩٤٦^(٢٢).

لقد شكل المؤتمر الصهيوني الاخير هذا نقطة انعطاف حاسمة في تاريخ «المنظمة الصهيونية العالمية». فمن ناحية، كان ذلك الاجتماع اخر التمام لأعضاء «البرلمان» الصهيوني قبل قيام اسرائيل. ومن ناحية ثانية، شهد ذلك المؤتمر عودة التحريفيين (التصححيين) الى صفوف المنظمة الأم بعد ان كانوا قد انفصلوا عنها في العام ١٩٣٥. ومن ناحية ثالثة، كرس ذلك، المؤتمر اندماج الوكالة اليهودية - شكليا وعمليا - مع المنظمة الصهيونية العالمية بحيث اختفى كل اثر للمجلس او للجنة الادارية التابعة للوكالة اليهودية رغم بقاء الوجود العلني للجنة التنفيذية للوكالة التي تطابق تركيبها منذئذ - ولفترة طويلة - مع تركيب اللجنة التنفيذية الصهيونية. ومن ناحية رابعة، حسم ذلك المؤتمر قضية الصراع الطويل والمرير على السلطة الرسمية العليا بين الدكتور حايم وايزمن، رئيس «المنظمة» التاريخي، ودافيد بن غوريون، رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية - الوكالة اليهودية، الذي كانت له ولتياره المتشدد الغلبة الكاملة على تيار وايزمن «المعتدل». ولربما كان الحدث الاخير هذا هو العامل المنفرد الالم والابعد اثرا ليس في صياغة السياسة الصهيونية قبل العام ١٩٨٤ فحسب، بل في تحديد طبيعة واتجاه السياسة الاسرائيلية العامة، وبالذات على صعيد العلاقات بين اسرائيل والمنظمة الصهيونية، على امتداد ربع القرن الاول من عمر الدولة الصهيونية^(٢٣).

لقد كان انتصار بن غوريون ذاك الخطوة الاخيرة في مسيرة طويلة بدأها قبل ما يقرب من ثلاثين عاما. فالمصادر الاسرائيلية والصهيونية الحديثة تثبت، بما لا يدع مجالا للشك، ان بن غوريون كان يضم، منذ ريعان شبابه، احتقارا عارما «للصهيونية السياسية» التي ركزت جهودها على «الاتصالات الخارجية والدبلوماسية» بحيث كان ذلك دوما على حساب «الصهيونية الحقيقية» - صهيونية الريادة والهجرة والاستيطان بفلسطين.

ومن المؤكد ان بن غوريون آمن بهذا النوع «الحقيقي» من الصهيونية ايمانا لا يتزعزع، وعمل من اجلها بدأب لم يعتوره اثناءه خور او كلل. ولقد كانت المسألة واضحة تماما في ذهنه. فهو منذ العشرينات منحاز لصالح المبدأ القائل بأن

القرار يجب ان ينبع من «اليشوف» المتشكل من جمهرة المستوطنين في فلسطين وليس من اي «قيادة خارجية». كما ان خطته لانجاز ذلك كانت واضحة تماما في ذهنه. فلقد ادرك منذ العشرينات ضرورة مهاجمة «معقل الصهيونية العالمية» واقتحام رئاسة المنظمة الصهيونية «واللجنة التنفيذية الصهيونية» وتسخير المؤسسات الصهيونية الخارجية لخدمة المصالح العليا «لليشوف» بل لتوظيف تلك المؤسسات في خدمة البرامج والاهداف «الصهيونية الحقيقية»^(٢٤).

في ظل هذه الحقائق، كان طبيعيا ان لا ينظر بن غوريون للدكتور وايزمن بعين الرضى او الاحترام. فالأخير بالنسبة له، اصبح «يتصرف مثل لورد بريطاني عاجز عن مهاجمة العرب (البريطاني)». وهذا يفسر - في اعين بن غوريون وانصاره - دبلوماسية وايزمن «المفرطة» «وتردده» في مواجهة بريطانيا، بل مسابته لها ولو على حساب المصالح «الصهيونية الحقيقية» بعد ان اصبح «اسيرا لامتنانه للبريطانيين»^(٢٥). وما كان بن غوريون ليتردد في الانضمام الى الحملة التي استهدفت اسقاط وايزمن في المؤتمر الصهيوني الثامن عشر في العام ١٩٣١ لولا انه كان في الوقت ذاته يخشى من انتصار فلاديمير جابوتنسكي الذي كان في اعين بن غوريون وانصاره - قد اصبح ايضا «اسير فيلقه اليهودي»^(٢٦). غير ان فشل بن غوريون وانصاره في تثبيت وايزمن وفي منع فوز ناحوم سوكلوف بمنصب رئيس المنظمة لم يثن بن غوريون عن عزمه على السيطرة على «القيادة الخارجية» للحركة الصهيونية^(٢٧). وقد تحقق له ذلك في المؤتمر الصهيوني التاسع عشر في العام ١٩٣٥ حيث فاز برئاسة اللجنتين التنفيذيتين الصهيونية واليهودية^(٢٨). ومنذئذ، اصبح بن غوريون، وبالذات بعد انسحاب جابوتنسكي وانصاره من المنظمة - الأم، هو الزعيم غير المنازع للمنظمة الصهيونية. ومن موقعة الواثق ذاك، ولاسباب تكتيكية مرتبطة بمكانة الدكتور وايزمن الدولية، نجح بن غوريون في اعادة وايزمن الى رئاسة المنظمة الصهيونية. غير ان الخلافات بينهما سرعان ما طفت على السطح. والواقع انه ما من حدث بارز وقع في السنوات العشر التالية، إلا ونشأ حوله خلاف حادّ بينهما (الكتاب الابيض ١٩٣٩، مؤتمر بيلتمور ١٩٤٢،

مؤتمر لندن الصهيوني (١٩٤٥). ولقد جاءت القشة التي قصمت ظهر البعير مع المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين في العام ١٩٤٦. فقد رفض ذلك المؤتمر اقتراحات لجنة موريسون - جرادى القاضية بتقسيم فلسطين الى اربع كانتونات (يهودية، وعربية، والقدس، والنقب) تماما مثلما رفض مشروع وايزمن القاضي باشتراك «المنظمة» في المؤتمر الذي دعت اليه الحكومة البريطانية في لندن في العام ذاته، مما دفع رئيس «المنظمة الصهيونية» للاحتجاج بمغادرة قاعة المؤتمر قبل اختتام اعماله. وفي حين اغفل «المؤتمر» مسألة اعادة انتخاب وايزمن، قرر «تكريما له» عدم اختيار رئيس للمنظمة وفوض اللجنة التنفيذية الصهيونية ورئيسها بن غوريون بتولي كافة الصلاحيات. وهكذا، انتهى المشهد الاخير من الصراع الطويل بين الدكتور وايزمن، زعيم «الصهيونية السياسية الدبلوماسية»، وبن غوريون، زعيم «الصهيونية الريادية المهاجرة الى فلسطين». ومنذئذ، انتقلت خيوط السلطة الحقيقية من ايدي «قيادة الخارج» الى ايدي «قيادة الداخل» وانتقل موقع «مركز صناعة القرارات الصهيونية» من اروقة المؤسسات الصهيونية الخارجية الى مستعمرات وتجمعات اليشوف الصهيونية في فلسطين. وبذلك تحقق حلم دافيد بن غوريون، المدافع الاول عن «مركزية اليشوف» (اي مركزية «الدولة اليهودية طور التكوين»). وان كان ذلك المنعطف الحاسم قد مثل نهاية الصراع الطويل بين انصار «مركزية اليشوف» وانصار «مركزية القيادة الصهيونية الخارجية في لندن» فانه كان، في الوقت ذاته، بداية صراع طويل لاحق بين المدافعين عن «مركزية اسرائيل» والمدافعين عن «مركزية القيادة الصهيونية الخارجية في نيويورك»^(٢٩).

المرحلة الثانية: قيام اسرائيل وصعود الدكتور غولدمان

شهدت هذه المرحلة مجموعة تطورات اساسية كان لها اثرها الحاسم في صياغة الابعاد النهائية لعلاقة المنظمة الصهيونية العالمية باسرائيل. وقد عبرت هذه

التطورات عن نفسها بتداخل الاعتبارات الايديولوجية والسياسية في التنافس بل في الصراع بين تيارين جغرافيين بارزين في الحركة الصهيونية هما: صهيونيو «الداخل»، وصهيونيو «الخارج». وغني عن الذكر ان نتائج ذلك التنافس (او التصارع) الايديولوجي - السياسي عكست نفسها بوضوح كامل على البعد الثالث من الصراع: البعد التنظيمي. ذلك ان الصيغة التي تم التوصل اليها مع بدء نهاية هذه المرحلة جاءت تتويجا لانتصار احد التيارين في المعركة الايديولوجية - السياسية الاولى بينهما بعد قيام اسرائيل، وتركت بصماتها الدامغة - بالتالي - ليس على نتائج المعركة الثانية بينهما في مرحلة (١٩٥٦-١٩٦٨) فحسب، بل على نتائج المعركة الثالثة في المرحلة التي اعقبت العام ١٩٦٨ والتي ربما ما تزال دائرة حتى الان.

فما كاد دافيد بن غوريون، الزعيم غير المنازع لصهيونيو الداخل، يكسب معركته مع الدكتور حاييم وايزمن لصالح «مركزية اليسوف» في مجال صناعة القرار الخاص بمجمل الحركة الصهيونية، حتى تسارعت الاحداث خارج وداخل فلسطين على نحو مذهل. ففي اعقاب اصدار الجمعية العامة للأمم المتحدة، في ظروف حالكة، توصيتها بتقسيم فلسطين في نهاية العام ١٩٤٧، بادر المجلس الصهيوني العام - السلطة الصهيونية التشريعية العليا في غياب المؤتمر - بالاعلان عن تشكيل «المجلس الوطني» (او القومي - مجلس الدولة المؤقت لاحقا) وعن انشاء «الادارة الوطنية» (او القومية - الحكومة المؤقتة لاحقا). وبعد اقل من شهر واحد، أعلن بن غوريون، رئيس كل من اللجنة التنفيذية الصهيونية واللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية والادارة الوطنية، قيام «دولة اسرائيل» في الرابع عشر من ايار/ مايو ١٩٤٨. وفي حين سيطرت اللجنة التنفيذية الصهيونية - الوكالة اليهودية - على الحكومة - المؤقتة، تولى بن غوريون رئاسة الحكومة ووزارة الدفاع، وتم استدعاء الدكتور وايزمن ليصبح اول رئيس للدولة الجديدة^(٣٠).

لقد جاء تشكيل السلطة المؤقتة بفرعيها التشريعي والتنفيذي في الدولة الصهيونية منسجما مع مخطط بن غوريون وتياره^(٣١). فهو بعد ان كان قد سيطر

على مؤسسات «اليشوف» («الدولة الصهيونية طور التكوين») كخطوة اولى، قام بتوظيف تلك المؤسسات في عملية التحكم بالمؤسسات الصهيونية في الداخل والخارج كخطوة ثانية. بعد ذلك، انتقل بن غوريون الى استخدام كل تلك الاسلحة «المؤسسية» من اجل اقامة الدولة الصهيونية والاستيلاء على صناعة القرار فيها كخطوة ثالثة، تمهيدا لخطوة رابعة يحاول فيها اخضاع المنظمة الصهيونية العالمية، رسميا وقانونيا هذه المرة، لسلطة «اسرائيل» التي بيده كل خيوطها بما في ذلك منصب رئيس الدولة. فالدكتور وايزمن، الذي كان بن غوريون - من موقع قوته الجديد - قد عرض عليه ان يصبح رئيسا للدولة، «فوجئ» بان منصبه خالٍ من اية سلطات حقيقية، وانه لن يمارس سوى سلطات تمثيلية كما رئيس الجمهورية الفرنسية عندئذ، وان حدود صلاحياته تجعله «ملك الصهيونية» غير المتوج ليس الا^(٣٢).

أدى استيلاء بن غوريون على مقدرات الدولة الصهيونية الى تأجيج اوار الصراع بين صهيونيين الداخل (ممثلين بدولة اسرائيل) وصهيونيين الخارج (ممثلين بالقيادة الصهيونية في الولايات المتحدة الاميركية). وما كان لهذه المعركة الجديدة ان تكون لولا ان ابا هليل سيلفر - حليف بن غوريون ابان معركته مع وايزمن ورئيس كل من فرع اللجنة التنفيذية الصهيونية في نيويورك والمنظمة الصهيونية الاميركية والمجلس الصهيوني الاميركي للطوارئ - قرر ان يخوض غمار معركة ضد حليف الامس. ومثل هذا «القرار» لم يكن وليد مطامح شخصية بقدر ما كان نتيجة تباين ايدولوجي وسياسي وتنظيمي واضح حول مضمون الفكرة الصهيونية لدى قيادة كل من اسرائيل، والمنظمة الصهيونية في الولايات المتحدة.

فمن الناحية الايدولوجية، كان لبن غوريون فهمه الخاص للصهيونية طالما آمن بانها، كعمتقد سياسي، تعود بجذورها الى الدين اليهودي ومرتبطة به ارتباطا عضويا. ذلك ان العقيدة اليهودية - عند بن غوريون - ليست عقيدة موحدة لليهود اينما كانوا فحسب، وانما يكمن في صلب جوهرها ايضا الدافع القومي بمضمونه الجغرافي الاقليمي المحدد. وبعبارة اوضح، الرباط الديني - عند بن

غوريون - متصل تماما بالدولة وبضرورتها وبلزوم قيامها في فلسطين . وبالتالي ، فان الفكرة الصهيونية الحقيقية هي تلك التي لا تنفصل ، في اي ظرف من الظروف ، عن فكرة المجيء «والصعود» الى صهيون^(٣٣) . وهذا هو القول الفصل عند بن غوريون - بين ان تكون الصهيونية مجرد «لفظ على الشفاه» وبين ان تكون «رؤيا تاريخية ثورية» لا مجال «للتحقق الذاتي» خارجها^(٣٤) . وباختصار : «الصهيونية تعني الهجرة» الى فلسطين والاستيطان فيها ، ولا اهمية تذكر لأي من ابعاد الصهيونية الحقيقية في غياب البعد الخاص بالهجرة^(٣٥) .

وقد ترتب على هذا الفهم الأيديولوجي للصهيونية مجموعة متفرعات مبدئية يدعو لها بن غوريون ولا يستطيع تجاوزها ازاء صهيونيي الخارج :

اولا : الدولة اليهودية خلقها الشعب اليهودي ولا أحد آخر بما في ذلك الحركة الصهيونية ذاتها^(٣٦) .

ثانيا : اليهودي غير الصهيوني الذي استوطن (او يستوطن) فلسطين قدم (او يقدم) لبناء الدولة اكثر بكثير من «الذي يسمى نفسه صهيونيا ولا يأتي»^(٣٧) . بل انه امر «مستهجن» ان يصر اليهودي على «الاحتفاظ» بصفته «الصهيونية» التي خلعها على نفسه ان هو لم يرغب في ترك «منفاه» من اجل الاستيطان في فلسطين^(٣٨) .

ثالثا : مستقبل اسرائيل يعتمد على يهود العالم ، تماما مثلما ان مستقبل يهود العالم يعتمد على بقاء اسرائيل . ومن هنا فان واجب الدولة هو «انقاذ» اليهود من «منفاهم» ورغم ارادتهم لو اقتضى الامر^(٣٩) .

رابعا : لا مجال لحياة يهودية كاملة خارج اسرائيل^(٤٠) .

اما المتفرعات السياسية العملية المترتبة على مثل هذا الفهم للصهيونية «الحقيقية» التي تمسك بها واصر عليها بن غوريون فهي التالية :

اولا : على كل من يصف نفسه بالصهيونية ان يبادر فوراً الى تحقيق ذاته

بالمهجرة الى اسرائيل بما في ذلك القيادات الصهيونية^(٤١).

ثانيا: اسرائيل دولة مستقلة حق ومسؤولية القرار فيها من شؤون مواطنيها وليس من حق اية جهة اخرى^(٤٢). ورغم ان «اسرائيل ملك ليس لشعبها وانما لليهود في العالم، (ورغم ان) اليهود في البلاد الاجنبية يستطيعون ويجب ان يساعدوا اسرائيل، لكن ليس لهم اي حق في التدخل في سياساتها في الداخل او الخارج. (ذلك ان) قلب اسرائيل ينبض في القدس وليس في نيويورك او لندن»^(٤٣).

ثالثا: على اليهود (صهيونيين وغير صهيونيين) واجب مساندة اسرائيل ماليا واقتصاديا واعلاميا دون قيد او شرط، مثلما ان عليهم واجب تعليم اللغة العبرية للجيلات اليهودية في الخارج وتعميق ارتباطهم باسرائيل^(٤٤).

رابعا: لا مجال لأي مساواة للمنظمة الصهيونية مع الدولة، «فالدور الاول والحاسم» في الشراكة هو لاسرائيل^(٤٥). بل انه «لامر غير عادي (ان الصهيونيين) يطالبون بحقوق خاصة ... ويرفضون ان يوضعوا في المستوى ذاته الذي عليه كل اليهود الذين يدعمون اسرائيل ويسعون لرفاهها»، في الوقت الذي يصرّ فيه اولئك «الصهيونيون» على الاستقرار والبقاء خارج «اسرائيل»^(٤٦).

اما «الصهيونيون غير الاسرائيليين»، وبالذات صهيونيو الولايات المتحدة، فانهم - رغم اقرارهم بتوحد الشعب اليهودي اينما كان ضمن اطار الديانة اليهودية - لا يذهبون الى المدى الذي ذهب اليه بن غوريون في ربط الفكرة الصهيونية كفكرة وحركة سياسية بالعقيدة اليهودية. وعليه فان «الصهيونية الحقيقية» لا تشترط وتستلزم الهجرة الى فلسطين والاستقرار فيها (على اهمية ذلك) اذ ان بالامكان «تحقيق الذات» صهيونيا مع التواجد خارج «اسرائيل».

اما المتفرعات المبدئية التي ركز عليها «صهيونيو الخارج» والتي يمكن استخلاصها من حوارهم الساخن مع بن غوريون فانها تلخص بالتالية:

اولا: الدولة اليهودية هي في الاساس من صنع المنظمة الصهيونية العالمية التي

كانت قد نجحت في استقطاب تأييد ودعم الشعب اليهودي من اجل تحقيق ذلك الهدف^(٤٧).

ثانياً: على اهمية الاسهام اليهودي البحت في بناء الدولة، في الماضي والحاضر، فإنه لا يمكن ولا يجب ترجيح كفة حجم ونوعية ذلك الاسهام (على رقعة الاسهام) حتى لو بقي الصهيونيون خارج «اسرائيل». بل انه لخطأ فاحش ذلك الذي يرتكبه بن غوريون عندما يصر على نزع الصفة «الصهيونية» عن لا يستوطن «اسرائيل»، علما بان الجالية اليهودية في الولايات المتحدة، وربما في غيرها، هي ليست في «المنفى» بقدر ما هي في «الشتات»^(٤٨).

ثالثاً: رغم الاهمية الخاصة المتبادلة لعلاقات اسرائيل مع يهود العالم وحيوية كل منهما لوجود الآخر، ليس صحيحاً ان الوجود اليهودي (والصهيوني) في العالم يعتمد على اسرائيل الا بقدر ما يعتمد وجود هذه الاخيرة على المنظمة الصهيونية^(٤٩). ومع انه من الضروري «انقاذ» اليهود الذين يعيشون في «المنفى» في بعض المناطق (الاتحاد السوفياتي مثلاً) فان يهود الولايات المتحدة الذين يعيشون في «الشتات» - ورغم اهمية هجرة من يرغب منهم في الاستيطان باسرائيل - فإنه ليس صحيحاً القول بضرورة «انقاذهم» رغماً عنهم^(٥٠).

رابعاً: مع الاقرار بأهمية التواجد في اسرائيل لمن يرغب من اليهود، فان اشتراط ذلك التواجد من اجل تحقيق «الحياة اليهودية» الكاملة امر فيه الكثير من التشدد والتعصب والانغلاق^(٥١).

ويترتب على نقاط الانطلاق المبدئية هذه في فهم صهيوني الخارج متفرعات سياسية عملية يمكن تلخيصها على النحو التالي:

اولاً: لان المنظمة الصهيونية قادرة بحكم وجودها في البلدان المختلفة على القيام بمهمات صهيونية لازمة ولا تستطيع الدولة - لاسباب ايدولوجية وعملية مختلفة - تأديتها، لا بد من بقاء التنظيمات الصهيونية (بما تتضمنه من قيادات وافراد) خارج «اسرائيل» لمتابعة انجاز تلك المهمات^(٥٢).

ثانيا : ولأن المنظمة الصهيونية هي التي خلقت اسرائيل في الماضي ، وبسبب اهمية دورها في الحاضر والمستقبل ، يجب ان تشارك في صناعة القرار السياسي الداخلي والخارجي فيها وبالذات في مجال تمثيل « يهود الخارج » ، والتكلم باسم اسرائيل سياسياً أو بجعلهم « موكلين عن اسرائيل » في الخارج^(٥٣) . بل ان الدكتور ناحوم غولدمان ، رئيس المؤتمر اليهودي العالمي ورئيس المنظمة الصهيونية العالمية لاحقا ، تحدث عندئذ عن اهمية جعل « المنظمة » الناطق السياسي الرسمي لأن « اسرائيل » قد لا تستطيع - لاعتبارات سياسية ودبلوماسية دولية - الاصرار على المطالب التاريخية الصهيونية الخاصة بكامل ارض اسرائيل^(٥٤) .

ثالثا : رغم الاقرار بحق اسرائيل في الحصول على مختلف انواع التأييد والدعم من المنظمة الصهيونية والجاليات اليهودية في العالم ، فان ذلك لا يمكن ولا يجب ان يكون على نحو غير مشروط وانما يظل خاضعا للظروف ولمدى تعبير « اسرائيل » عن اهداف « المنظمة » و « امانى » الشعب اليهودي^(٥٥) .

رابعا : لا بد من تحقيق المساواة بين « اسرائيل » والمنظمة الصهيونية التي يجب ان تمنح وضعها خاصا يضمن لها التأثير على مجمل عمليات التخطيط والتنفيذ الصهيونية والاسرائيلية^(٥٦) .

كان طبيعيا ان يؤدي التباين الشديد في نقاط الانطلاق الايديولوجية السياسية بين الجناح الاسرائيلي والجناح الصهيوني الى تنافس حاد ، بل صراع سياسي - تنظيمي . والحقيقة ان جوهر ذلك الصراع كان دائرا حول من يخضع لمن ، او حول تحديد جوهر العلاقة بين الجناحين المتنافسين : هل هي علاقة الند للند ، ام هي علاقة مشاركة شبه متكافئة ، ام هي علاقة مشاركة غير متكافئة فيها سيد وتابع ، مركز واطراف ، صانع قرار ومنفذ . وبالفعل ، تميزت السنوات القليلة التالية لقيام اسرائيل بصعود حاد في الخط البياني للصراع السياسي - التنظيمي بين « القيادة الاسرائيلية » و « القيادة الصهيونية » المتداخلتين والمتشابكتين اصلا . ولم يكن غريبا ان يشهد ذلك الصراع تعديلا او تبديلا في المواقف التكتيكية لكل طرف

وبخاصة ان حركة الصراع امتدت لتشمل الجاليات والمنظمات اليهودية غير الصهيونية. وهذا ما كان.

فبن غوريون، المنحاز تاريخياً لمبدأ «مركزية اليسوف» والساعي حالياً لمبدأ «مركزية اسرائيل»، كان قد اعلن منذ العام ١٩٣٧ عن اقتناعه بانه، مع قيام الدولة، ستضمحل وتختفي الحاجة الى المنظمة الصهيونية اذ ان الارتباط باسرائيل سيتحول عندئذ ليشمل مجموع يهود العالم^(٥٧). ومع العام ١٩٤٨، كانت التجربة العملية عشية قيام اسرائيل قد أثبتت لبن غوريون محدودية ما تستطيع «المنظمة الصهيونية» ان تقدمه لاسرائيل على الصعيد المادي (المالي والبشري) وبخاصة بعد أن تأكلت سمعة «المنظمة» وهتت صورتها وتقلص تأثيرها في اوساط الجاليات اليهودية. وقد حفز ذلك بن غوريون، اثناء الجهود المحمومة لاقامة اسرائيل، على التوجه لتلك الجاليات مباشرة. وقد تعزز اقتناع بن غوريون بمحدودية دور «المنظمة» وبالاهمية الخاصة للجاليات اليهودية في الولايات المتحدة بالذات عندما تأكد له بالدليل العملي ان هذه الاخيرة كانت المسؤولة عن امداد اسرائيل ليس بالأموال اللازمة لشراء السلاح فحسب، بل بالعدد الاكبر من المتطوعين في حرب ١٩٤٨^(٥٨). كذلك، فان الدعم المالي والسياسي - الدبلوماسي الذي كان مطلوباً بجدة فيما بعد صدور قرار التقسيم جاء بالاساس من جيوب وعلاقات اليهود غير الصهيونيين في الولايات المتحدة. ثم ان هؤلاء اليهود، الذين ازداد ارتباطهم بالفكرة الصهيونية الخاصة بالوطن القومي اليهودي بعد قيام الدولة لاسباب نفسية «تعويضية» ناجمة عن شعورهم بالتقصير وعن رغبتهم في تجاوز «المنظمة» ومزايداتاها، لم يشكّلوا في الوقت ذاته اي تهديد لسيادة الدولة وسلطاتها. فاليهود غير الصهيونيين لم تكن لهم - على عكس قيادة واعضاء المنظمة الصهيونية - اية شروط معلنة للدعم، او اية مطالب ظاهرة للمشاركة في صناعة السياسات الاسرائيلية داخلياً أو خارجياً^(٥٩).

وفي الوقت الذي اظهر فيه بن غوريون «براغماتية» واضحة ازاء الجاليات اليهودية، ابدى كذلك استعداداً لاتخاذ موقف براغماتي تجاه المنظمة الصهيونية.

فبدلاً من التمسك بخطه القديم (منذ العام ١٩٣٧) القاضي بضرورة تلاشي واختفاء المنظمة بعد قيام الدولة، وبعد ان كان قد قال بان «المنظمة» هي بمثابة «السقالة» اللازمة للبناء التي لم يعد لها لزوم بعد اكمال بناء الدولة^(٦٠)، تبنى بن غوريون موقفاً اقرب ما يكون الى «القبول المشروط بالصهيونية المنظمة» مقابل تقديمها المساعدات السياسية والمالية والبشرية لاسرائيل على نحو غير مشروط^(٦١).

وقد تبدى هذا الموقف عملياً في قرارات «المجلس الصهيوني العام» في دورة انعقاده الثالثة في نيسان / ابريل ١٩٤٨ الذي لم يعترف بوظائف سناط بالمنظمة الصهيونية بعد الاعلان عن قيام «الحكومة المؤقتة» فحسب، بل انه حددها ايضاً. ولأن ٨ من أصل ١٣ من اعضاء «الحكومة المؤقتة» احتلوا المناصب الوزارية الحساسة، ولان قيادة «المنظمة» خشيت من ابتلاع صلاحياتها ونشاطاتها، فقد رفعت تلك القيادة شعار «مبدأ الفصل» ما بين الحكومة والمنظمة^(٦٢). غير ان بن غوريون واطباء الحكومة رفضوا في البداية الاستقالة من مناصبهم في المنظمة من قبيل الضغط للخروج لاحقاً بصيغة علاقة تأتي لصالحهم. وهكذا، لم يتقدم هؤلاء باستقالاتهم حتى انعقاد الدورة الرابعة للمجلس الصهيوني العام (الأولى بعد قيام اسرائيل) في أواخر آب / اغسطس ١٩٤٨. وقد اكدت هذه الدورة، من الناحية العملية، على بقاء أنشطة للمنظمة تدخل في صلب مهمات الحكومة. اما الدوائر التي انيطت مسؤوليتها باللجنة التنفيذية الصهيونية - الوكالة اليهودية فقد اشتملت على الدوائر التالية:

- ١ - الهجرة
- ٢ - استيعاب المهاجرين
- ٣ - الاستيطان الزراعي (الاستعمار)
- ٤ - هجرة الأحداث والشبان
- ٥ - الشؤون الاقتصادية
- ٦ - ائتماء القدس وتطويرها
- ٧ - امانة الصندوق

- ٨ - العلاقات العامة
 ٩ - التنظيم والاعلام
 ١٠ - الشبان والرواد (الطلائع)
 ١١ - النشاطات التربوية والثقافية في الشتات
 ١٢ - الدائرة الفرعية للشؤون اليهودية في الشرق الاوسط (١٣).

من الواضح ان هذا الانتصار الاولي للمنظمة الصهيونية في معركة فصل الصلاحيات لم يكن الا بداية لحرب طويلة قادمة بين الجناحين: الاسرائيلي والصهيوني. وبالفعل، ما كادت تلك الجولة تنتهي حتى استخدم كل طرف ما في جعبته من اسلحة ايدولوجية، وقوى فعلية، ومصادر احتياطية. بل ان «مبدأ الفصل» الذي كان قد استخدمه «صهيوني الخارج» ضد «صهيوني الداخل» ما لبث ان استحال ضدهم مما استتبع تغييرا كاملا في المواقف. فلم يمض وقت طويل، حتى اكتشف صهيونيو الخارج ان تطبيق ذلك المبدأ قد الغى، عمليا، «مبدأ الشراكة». وهنا دار الطرفان نصف دورة كاملة في مواقفهما: فبينما كان تيار بن غوريون ضد «مبدأ الفصل» أصبح معه، في حين تحول دعاة ذلك المبدأ الى نقيضه. وبدأ بن غوريون، منذئذ، يركز على تطبيق مبدأ الفصل في الصلاحيات على اساس ضمان «مركزية اسرائيل» في صناعة القرار ليس داخل الدولة الصهيونية فحسب، بل في معقل المعارضة في المنظمة الصهيونية - اي بالولايات المتحدة ذاتها. وقد دارت رحى المعركة في الساحة المالية حيث اصرت اسرائيل على ضرورة اشرافها على الاجهزة المالية في الولايات المتحدة خوفا من ان تستخدم تلك الاموال للضغط والتأثير على مسار السياسة الداخلية الاسرائيلية عبر سيطرة الاحزاب عليها، او عبر فرض «المناخ اليميني» للمنظمة الصهيونية «الرأسمالية» الولاء على الاتجاه «الاشتراكي» للسلطة في الدولة (١٤).

وقد انتهت هذه الجولة باستقالة الحاخام سيلفر من رئاسة وعضوية فرع اللجنة التنفيذية الصهيونية في نيويورك واستقالة حليفه عمانئيل نيومان من عضوية اللجنة التنفيذية ورئاسة كل من المنظمة الصهيونية الاميركية «والجباية اليهودية الموحدة».

وفي حين حل الدكتور ناحوم غولدمان محل سيلفر في رئاسة اللجنة التنفيذية - فرع نيويورك، تولى مسؤوليات نيومان قائد صهيوني موال لبن غوريون هو دانيال فريش^(٦٥). وكان بن غوريون قد جند لكسب هذه الجولة:

- ١ - قوة الدولة والتعاطف اليهودي العام معها،
- ٢ - تجاهل الدولة وشبه مقاطعتها للمنظمات الصهيونية،
- ٣ - تمتين الجسور مع القيادات اليهودية غير الصهيونية^(٦٦).

ولكسب هذه الاخيرة وهزيمة سيلفر، وجه بن غوريون في مطلع العام ١٩٤٩ دعوة لجاكوب بلاوشتاين (الصناعي الاميركي والرئيس الفخري للجنة اليهودية الاميركية المسيطرة على الاثرياء اليهود من اصل الماني بشكل خاص) لزيارة اسرائيل. وقد توصل الزعيمان الى اتفاق ذهب فيه بن غوريون - من اجل طمأنة بلاوشتاين - الى درجة «تبني» موقف خصومه من صهيونيي الخارج. فقد اعلن بن غوريون ان اسرائيل «تتحدث فقط بالنيابة عن مواطنيها وليس عن اليهود في البلاد الاخرى... وان اليهود في الولايات المتحدة، كمجموعة وكأفراد، لديهم ارتباط سياسي أوحده هو مع الولايات المتحدة، وانهم غير مدينين بأي ولاء سياسي لاسرائيل... وان هجرتهم لاسرائيل (رغم اهميتها) يجب ان لا تكون الا بناء على الاختيار الحر من جانب كل فرد منهم»^(٦٧). وبالمقابل، لم يستطع سيلفر وانصاره - في ظل استخدام الدولة اسلحتها لتجاهلهم وعزلهم عن قطاعات واسعة من اليهود غير الصهيونيين بل والصهيونيين منهم - الا الاستقالة، خصوصا وان الوكالة اليهودية في القدس عادت فتراجعت عن تأييدهم، وان انصارهم من «الصهيونيين العموميين» في اسرائيل كانوا ضعافا لا وزن لهم ولا ثقل في الحياة السياسية الاسرائيلية^(٦٨). وهكذا لم يعد بأيدي صهيونيي الخارج سوى «اسلحة»

- ١ - المثابرة والمبالغة في اظهار ولائهم واهميتهم لاسرائيل وحشد الدعم لها
- ٢ - الشكوى الموسمية من تصرفات اسرائيل ازاءهم

٣ - انتظار مناسبات اخرى لتحسين موقعهم على خط العلاقات مع اسرائيل.

اما سلاح المثابرة لاطهار الولاء لاسرائيل وحشد الدعم لها فلم يكن منه بد. ففي ظل الاتهامات الموجهة للمنظمة الصهيونية الخاصة بطموحها «غير المشروع» لتقرير السياسات الاسرائيلية، كان على الصهيونيين تأكيد ولائهم لاسرائيل وللاهداف الصهيونية التاريخية. وازاء الاتهامات الخاصة بانتهاء دور «المنظمة» بعد قيام اسرائيل، اراد الصهيونيون بجهودهم ودعمهم المتزايد، اظهار المسوغات العملية لضرورة استمرارهم^(٦٩). وفي هذا المجال، أشار الصهيونيون الى الدور الخاص الذي تستطيع «المنظمة» ان تلعبه في المجالات التي لا تستطيع الدولة الصهيونية الخوض فيها خوفا من الحساسيات السياسية والدبلوماسية (تأكيد «الحقوق» الصهيونية التاريخية في كامل «ارض اسرائيل»، او جمع الاموال مثلا). كما اشاروا الى انه في أوقات الأزمات والحن يمتاز الصهيونيون - المتزمنون تنظيميا وعقائديا - عن باقي اليهود غير المتزمنين بأن تأييدهم مضمون وان دعمهم مؤكد^(٧٠).

وعلى صعيد الشكوى، استمر الصهيونيون - في محاولة منهم للدفاع عن أنفسهم ولتحصيل اكبر قدر من الامتيازات - بالتذمر من تجاوز اسرائيل لهم، ويحرص الاخيرة على ارضاء اليهود غير الصهيونيين اكثر من حرصها على ارضاء انصارها من الصهيونيين، ويسلب صلاحيات «المنظمة» وتخطيها، وبإحراج الصهيونيين في الدول المختلفة نتيجة استمرار الاسرائيليين بالحديث عن وجود الجاليات اليهودية في «المنفى» وعن ضرورة هجرة كل يهودي الى فلسطين^(٧١).

جاءت المناسبة الرئيسية الاولى التي حاول فيها صهيونيي الخارج تحسين موقعهم التفاوضي مع انعقاد الدورة الجديدة للمجلس الصهيوني العام في ربيع ١٩٥٠. فقد تجدد الحوار واشتد حول قضيتين رئيسيتين:

١ - مطلب اسرائيل بضرورة هجرة صهيونيي الخارج الى فلسطين، واصرار

الصهيونيين على اهمية وجودهم وبقائهم في الخارج لمساعدة اسرائيل من جهة، ولمساعدة يهود «الشتات» من جهة ثانية.

٢ - تحديد العلاقة الرسمية بين الحكومة والمنظمة الصهيونية. وفي هذا المجال، كان هنالك اقتراحات متعددة من نوع انضمام ممثل مراقب عن «المنظمة» للحكومة الاسرائيلية^(٧٢)، ومنح «المنظمة» مركزا قانونيا خاصا بها. وفي حمأة النقاش حول هذه المسألة^(٧٣)، وبخاصة أن ممثلي الحكومة أبدوا ترددًا في منح «المنظمة» اية معاملة خاصة، قال أحد ممثلي صهيونيين الخارج: «لقد سمعت عن تشريعات تقتضي ان يمنح الآباء الشرعية لأبنائهم، لكنني لم اسمع عن حاجة لقوانين ستلزم حصول الآباء على اعتراف من أبنائهم» وقد كان في ذلك اشارة واضحة الى ان «دولة اسرائيل» تتصرف كابنة عاقبة تجاه «المنظمة» التي أنجبتها.

وفي ظل الاجواء المتوترة تلك، ورد أحد أخطر الاقتراحات حول العلاقة بين اسرائيل والمنظمة على لسان الدكتور ناحوم غولدمان، رئيس المؤتمر اليهودي العالمي ورئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية - فرع نيويورك. فقد اقترح غولدمان ان تصبح المنظمة «الممثل المخول الوحيد للشعب اليهودي في عمله في اسرائيل» وان تكون بالتالي القناة التي من خلالها «يجب ان يمر كل شيء». الا ان مثل ذلك الاقتراح الطموح سرعان ما تقلص، نتيجة معارضة صهيونيين اسرائيل، الى قرار المجلس الصهيوني العام الخاص بتشكيل «لجنة تنسيق» بين المنظمة والحكومة. ولذلك، قدم بن غوريون في الخامس عشر من آيار/ مايو ١٩٥٠ اقتراحا للكنيست الاسرائيلي (سبق ان تم الاتفاق عليه مع اللجنة التنفيذية الصهيونية) ويقضي بانشاء هيئة (أو لجنة) «للتنمية والتنسيق» مختصة في معالجة الجوانب العملية اليومية في مجالات: «الهجرة، الاستيعاب، اسكان المهاجرين، استيطان الأراضي، والتنمية الزراعية». وبالفعل، تألفت الهيئة من اربعة وزراء بقيادة رئيس الحكومة ومن اربعة اعضاء في اللجنة التنفيذية الصهيونية بقيادة رئيسها في القدس علاوة

على ممثل عن الصندوق القومي اليهودي. وقد تقرر ان تعمل «الهيئة» بصفة مؤقتة حتى انعقاد المؤتمر الصهيوني القادم الذي احيلت اليه مسألة التقرير في شكل ومضمون العلاقة بين الحكومة والمنظمة^(٧٤). وهكذا، نجح بن غوريون في تطبيق واحتواء اقتراح غولدمان وتأجيل حسم «معركة العلاقات» الى وقت لاحق يكون اكثر ملاءمة له.

اما المناسبة الرئيسية الثانية التي جاهد فيها صهيونيون الخارج لتحسين موقعهم في المفاوضات الخاصة بتحديد العلاقة بين اسرائيل والمنظمة، فقد جاءت مع انعقاد المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرين في الفترة ما بين ١٤-٣٠ آب / اغسطس ١٩٥١. وقد حضر المؤتمر (٥٤٢) ممثلا منهم (٤٤٦) مندوبا مقابل (٣٨٥) مندوبا حضروا المؤتمر الذي سبقه. وكانت الافضلية العددية (صوتان مقابل واحد) الممنوحة لاعضاء المنظمة من الاسرائيليين قد جعلت كفة المؤيدين للدولة ترجح على كفة قيادة صهيوني الخارج^(٧٥). وكما هو متوقع، ركزت مداوات المؤتمر حول مسألتين اساسيتين هما: تغيير «برنامج بال» الصهيوني - الذي استنفذ اغراضه بقيام اسرائيل - ووضع برنامج جديد، ورسم اطار العلاقة التي ستقوم بين الدولة والمنظمة. وكان الحوار حول المسألتين ساخنا.

فبالنسبة للمسألة الاولى، اصر «المتشددون» الصهانية (وبالذات من التحريفيين) على ضرورة التوقف عن الاختباء وراء المهمات التكتيكية للحركة الصهيونية والاعلان صراحة عن الاهداف الاستراتيجية الصهيونية، في حين اصررت غالبية اعضاء المؤتمر على الاكتفاء بتحديد الاهداف العاجلة. وقد كانت الغلبة لصالح حل وسط يطوق الخلاف القائم بين بعض الاعضاء حول مسألة تحديد «الاهداف النهائية» للحركة الصهيونية. ولذلك، أقر المؤتمر «برنامج القدس» الذي تحدث عن «مهمات» الحركة الصهيونية وحددها بالثلاث التالية: «توطيد دعائم دولة اسرائيل، وتنمية وحدة الشعب اليهودي»^(٧٦). ومن الواضح ان نصوص ذلك البرنامج جاءت لتؤكد ان رياح المؤتمر لم تكن تجري حسبما تشتهي سفن معظم «صهيونيي الخارج». فالنص باعطاء الاولوية لمهمة توطيد دعائم الدولة،

يلمح بقوة الى «مركزية اسرائيل» في العمل الصهيوني، تماما مثلما ان النص على «تجميع المنفيين» لا يعكس رغبة معظم صهيوني الخارج الذين كانوا يفضلون النص على «تجميع يهود الشتات». ولربما كان ثمة بعض العزاء لصهيوني الخارج في مثل هذا النص بكونه قد يعني ان هناك يهود «منفى» وهناك يهود «شتات» وان الاشارة الى «المنفيين» لا تقصد بالذات يهود الولايات المتحدة مثلا بقدر ما تقصد يهود الاتحاد السوفياتي.

وبالنسبة للمسألة الثانية، كان ابرز المتحدثين عن وجهة نظر «صهيوني الداخلي» كل من دافيد بن غوريون رئيس الحكومة الاسرائيلية ووزير دفاعها، وبيير لوكر رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية والوكالة اليهودية - فرع القدس. وكان ابرز المتحدثين عن وجهة نظر «صهيوني الخارج» كل من الحاخام اباھليل سيلفر الزعيم الصهيوني الاميركي، والدكتور ناحوم غولدمان رئيس المؤتمر اليهودي العالمي ورئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية - الوكالة اليهودية - فرع نيويورك^(٧٧). وقد تحدث بن غوريون عن ضرورة فصل عمل الدولة عن المنظمة رغم «الشراكة التاريخية» بينهما لان طبيعة عملهما مختلفة، وبخاصة وان حركة «المنظمة لا تحدها القيود الاقليمية والحكومية». غير ان بن غوريون، في اشارة واضحة الى موقفه المختلف عن موقف صهيوني الخارج، حرص على توكيد «الشراكة» بين اسرائيل «والشعب اليهودي». اما لوكر، فكان اوضح عندما تحدث عن الشراكة بين «دولة اسرائيل السيدة» و «الحركة الحرة للشعب اليهودي في الشتات». كما تحدث لوكر عن ضرورة تعاون المنظمة مع الدولة دون قيد او شرط لقاء اعتراف من الاخيرة بالاولى يمنحها وضعاً قانونياً يؤهلها للقيام بتأدية مهامها الخاصة في حقول الهجرة والاستيعاب والاستيطان.

ومن موقع مضاد، طالب سيلفر بعمل مزدوج للجنة التنفيذية الصهيونية - الوكالة اليهودية يتلخص في «حق توجيه وتنسيق كل النشاطات في الشتات لصالح دولة اسرائيل»، وان على حكومة اسرائيل بالتالي «تمرير متطلباتها من يهود الشتات عبر المنظمة الصهيونية العالمية»^(٧٨). اما غولدمان فقد عارض «مبدأ الفصل»

مطالباً بالشراكة في الصلاحيات على اساس اعتراف الدولة بالمنظمة « باعتبارها ممثلة الشعب اليهودي في معاملاته مع اسرائيل ». وفي الوقت الذي تعهد فيه غولدمان بتعليق نشاط المنظمة دون اية منازعة في حالة مجيء حكومة اسرائيلية لا ترغب اكثرية اليهود او الحركة الصهيونية في التعاون معها، اعلن التزامه بالتعاون غير المشروط مع اسرائيل مهما كانت تركيبة قيادة المنظمة. وبعد ان تباهى غولدمان بان مواطني المنظمة اكثر من مواطني اسرائيل، اعلن انه يجب ان يكون لكل طرف « الحق في التدخل » في صياغة سياسات الطرف الآخر.

وفي ظل جو مشحون بالتوتر نتيجة شكوى صهيونيي الخارج من جهود بن غوريون لتقليص صلاحياتهم ومهامهم ضمن حدود المساعدة في زيادة الهجرة وجمع الاموال^(٧٩)، ونتيجة رفض بن غوريون منح صهيونيي الخارج امتيازات وصلاحيات تضع « المنظمة » على قدم المساواة مع « اسرائيل »، مطالباً اياهم في الوقت ذاته بالتعهد بالتعاون غير المشروط مع اية حكومة اسرائيلية تأتي الى السلطة^(٨٠) - أصدر المؤتمر الصهيوني قراراته حول الخطوط العامة وحياتنا التفصيلية التي يجب ان تحكم العلاقات ما بين المنظمة واسرائيل. وفي هذا المجال، حدد المؤتمر برنامج عمل المنظمة الصهيونية العالمية على النحو التالي:

- أ (تشجيع الهجرة، واستيعاب المهاجرين وادماجهم، وتدعيم هجرة الاحداث والشبيبة، وتحريك الاستيطان الزراعي والتنمية الاقتصادية، والاستحصال على الاراضي باعتبارها ملكاً للشعب.
- ب (العمل المكثف في سبيل الريادة الطلائعية وتدريب الرواد الطلائعيين.
- ج (تنسيق الجهود الرامية الى تسخير الاموال واستخدامها في سبيل تنفيذ مهمات الصهيونية.
- د (تشجيع عمليات توظيف رؤوس الاموال الخاصة
- هـ (تنمية الوجدان اليهودي عن طريق نشر الفكرة الصهيونية وتقوية الحركة الصهيونية، وبحث قيم اليهودية والتربية العبرية، ونشر اللغة العبرية.

- (و) تعبئة الرأي العام العالمي لصالح اسرائيل والصهيونية.
(ز) المشاركة في الجهود الرامية الى تنظيم الحياة اليهودية وتكثيفها، على اساس ديمقراطية، وصيانة الحقوق اليهودية والدفاع عنها»^(٨١).

وحول الوضع القانوني للمنظمة الصهيونية، قرر المؤتمر:

« أ) يعلن المؤتمر ان النشاط الذي تقوم به المنظمة الصهيونية العالمية وهيئاتها المختلفة في سبيل تحقيق مهماتها التاريخية في ارض اسرائيل يتطلب اقصى درجة من التعاون والتنسيق بينها وبين دولة اسرائيل وحكومتها، تمشيا مع قوانين البلاد.

(ب) يرى المؤتمر من الجوهري ان تقوم دولة اسرائيل، عن طريق الاجراء التشريعي الملائم، بمنح المنظمة الصهيونية العالمية وضعا قانونيا بصفة كونها تمثل الشعب اليهودي في كافة الشؤون المتعلقة بالمشاركة المنظمة من جانب يهود الشتات في تطوير البلاد وبنائها، والاستيعاب العاجل للمهاجرين .»^(٨٢)

وهكذا نرى ان هذه القرارات، وبالذات تلك الخاصة بالوضع القانوني للمنظمة، جاءت لصالح تيار بن غوريون. فمن جهة، جرى اخضاع النشاط العملي للمنظمة - وهو نشاط قيده أصلاً برنامج عمل المنظمة المشار اليه اعلاه - لاقصى «درجة من التعاون والتنسيق... تمشيا مع قوانين البلاد». ومن جهة ثانية، اقتصر تمثيل المنظمة للشعب اليهودي على «كافة الشؤون المتعلقة بالمشاركة المنظمة من جانب يهود الشتات» وليس على نحو مطلق كما اراد ممثلو صهيونيين الخارج.

أما المناسبة الرئيسية الثالثة التي جرى فيها تحديد اكثر للعلاقة ما بين اسرائيل والمنظمة الصهيونية فقد جاءت مع «القانون التشريعي» (او الشرعي) الذي اقره الكنيست الاسرائيلي في ٢٤ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٥٢. وللاهمية الخاصة لهذا «القانون»، لعله من المفيد الحرص على اقتباس نصه الكامل:

- « ١ - دولة اسرائيل تعتبر نفسها صنيعة الشعب اليهودي بأسره، وتمشيا مع قوانينها فهي تفتح أبوابها امام كل شخص يهودي يرغب في الهجرة اليها .
- ٢ - ان المنظمة الصهيونية العالمية، منذ تأسيسها قبل نصف قرن، تصدرت حركة الشعب اليهودي وتزعمت مساعيه الرامية لتحقيق رؤيا الاجيال بالعودة الى وطنه، مثلما أخذت على عاتقها بمساعدة اوساط وهيئات يهودية اخرى، عبء المسؤولية الرئيسية في اقامة دولة اسرائيل .
- ٣ - ان المنظمة الصهيونية العالمية، التي هي ايضا الوكالة اليهودية لفلسطين، تنذر نفسها، كما فعلت في الماضي، لتشجيع الهجرة الى اسرائيل، وادارة، مشاريع الاستيعاب والاستيطان في الدولة .
- ٤ - تعترف دولة اسرائيل بالمنظمة الصهيونية العالمية على انها الوكالة المخولة السلطات التي سوف تتابع أعمالها في دولة اسرائيل لاستيطان البلاد وتنميتها، ولاستيعاب المهاجرين من الشتات، ولتنسيق الانشطة في اسرائيل والتابعة للمؤسسات والجمعيات اليهودية العاملة في تلك المجالات .
- ٥ - ان مهمة تجميع المنفيين، وهي الواجب المحوري لكل من دولة اسرائيل والحركة الصهيونية في ايامنا هذه، تتطلب الى الشعب اليهودي في الشتات أن يستمر في بذل الجهود. ولذا فان دولة اسرائيل تتطلع صوب مشاركة جميع اليهود والهيئات اليهودية في بناء صرح الدولة ومساعدة الهجرة الجماعية اليها، مثلما تعترف بالحاجة الى توحيد جميع الفئات والجاليات اليهودية لهذه الغاية .
- ٦ - تتطلع دولة اسرائيل الى المساعي التي تبذلها المنظمة الصهيونية العالمية في سبيل تحقيق هذا التوحيد. وعندما تقرر المنظمة الصهيونية توسيع اطارها لاجل هذا الغرض، وبعد موافقة الحكومة وتصديق الكنيست، فإن الهيئة الموسعة سوف تتمتع بالوضع الشرعي اياه الذي جرى منحه للمنظمة الصهيونية العالمية في دولة اسرائيل .

٧ - ان شروط الوضع الشرعي وشكل التعاون بين كل من المنظمة الصهيونية العالمية - كما تمثلها اللجنة التنفيذية الصهيونية التي تدعى ايضا بـ اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية لفلسطين - والحكومة سوف يتم وضعها في ميثاق يجري ابرامه بين الحكومة واللجنة التنفيذية الصهيونية .

٨ - سوف يركز الميثاق على بيان المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرين في القدس ، والبيان الذي ينص على ان البرنامج العملي ، كما تتولاه المنظمة الصهيونية العالمية والوكالات التابعة لها في سبيل تحقيق مهماتها التاريخية في ارض اسرائيل ، يتطلب من جانب المنظمة اقصى درجة من التعاون والتنسيق مع دولة اسرائيل وحكومتها ، تمشياً مع قوانين الدولة .

٩ - تنشأ لجنة لتنسيق النشاطات بين الحكومة واللجنة التنفيذية في تلك المجالات التي تعمل بها اللجنة التنفيذية وفقاً للميثاق ، على ان يجري تحديد مهمات اللجنة في نص الميثاق .

١٠ - سوف ينشر الميثاق ، وكل تعديل او تغيير يطرأ عليه بموافقة الطرفين ، في الجريدة الرسمية (الرشوموت) ويصبح ساري المفعول من تاريخ نشره ، ما لم يرد نص لتقديم هذا التاريخ او تأخيره عن موعد النشر .

١١ - اللجنة التنفيذية هي شخصية قانونية ويحق لها ابرام العقود والاستحصال على الاملاك ، والاحتفاظ او التصرف بها ، كما يحق لها ان تدخل طرفاً في جميع المعاملات القانونية وغيرها .

١٢ - تعفى اللجنة التنفيذية ، بصناديقها المالية ومؤسساتها الاخرى ، من الضرائب وغيرها من الرسوم الحكومية الالزامية ، وفقاً لقيود وشروط ينص عليها الميثاق . ويصبح هذا الاعفاء نافذ المفعول في آن واحد مع الميثاق . «(٨٣)

وإذا كانت قرارات المؤتمر الصهيوني في العام ١٩٥١ قد جهزت الحبل لتقييد يدي المنظمة الصهيونية ، فان «القانون التشريعي» كان بمثابة بدء عملية التقييد .

بل ان ذلك « القانون » حرص على تأكيد معظم الهيئات المبدئية التي طالما صفع بها بن غوريون صهيوني الخارج . فكما هو ساطع في النص اعلاه ، ما تزال اسرائيل « تعتبر نفسها صنيعه الشعب اليهودي باسره » وليس المنظمة الصهيونية . ثم ان اسرائيل في النقطة الاولى من القانون التشريعي تؤكد مضمون « قانون العودة » الصادر في ٧ تموز / يوليو ١٩٥٠ عن الكنيست والذي يؤكد حق « كل شخص يهودي يرغب في الهجرة اليها » . كما ان النقطة الثانية تؤكد ان الشعب اليهودي باكملة هو الذي خلق اسرائيل وليس المنظمة الصهيونية التي فقط « تصدرت حركة الشعب اليهودي وتزعمت مساعيه » وتحملت عبء « المسؤولية الرئيسية (وليس الكاملة) في اقامة اسرائيل » . وفي النقطة التالية ، يتم الالتفاف حول الدور السياسي الحاسم الذي طالما لعبته المنظمة قبل العام ١٩٤٨ ويجري تحديد مهماتها في نطاق تشجيع الهجرة وادارة مشاريع الاستيعاب والاستيطان . وترد الضربة الرئيسية لمطلب المشاركة الذي طالما تحدث عنه « صهيونيو الخارج » وذلك في نص النقطة الرابعة حيث « تعترف » اسرائيل بالمنظمة « على انها الوكالة المحولة السلطات » لتابعة بعض المهام المحددة فحسب . ثم تؤكد النقطة الخامسة على هدف بن غوريون الاساسي الخاص

بتجميع « المنفيين » الذي هو « الواجب المحوري » لكل من المنظمة واسرائيل مع التأكيد على الحاجة « الى توحيد جميع الفئات والجياليات اليهودية » لبناء « صرح الدولة ومساعدة الهجرة الجماعية اليها » . وتنص النقطة السادسة على واجب تأسيس « الهيئة الموسعة » التي ستضم اليهود غير الصهيونيين وتمتع علاوة على ذلك بوضع شرعي يماثل الوضع الذي تم منحه للمنظمة الصهيونية . واخيرا ، تتحدث النقطتان السابعة والثامنة عن « الميثاق » الذي سينظم العلاقة بين المنظمة واسرائيل ويرتكز على ضرورة تحقيق « أقصى درجة من التعاون والتنسيق مع دولة اسرائيل وحكومتها ، تمشيا مع قوانين الدولة » . وهكذا نرى كيف بدأ تحول « المنظمة » الى مجرد أداة للدولة وامتداد خارجي لها وفي خدمتها ، ضمن اطار مجالات محددة رسمتها لها الدولة وعلى اساس ارتباط اسرائيل بالمنظمة ارتباطا معنويا في

حين ان ارتباط الاخيرة بالاولى هو ارتباط قانوني يجعل القانون الاسرائيلي يطالبها اذا ما هي تجاوزت صلاحياتها^(٨٤).

على ان اقرار الكنيست لذلك « القانون » لم يمه المعركة السياسية - التنظيمية . وسواء قبل الاقرار او بعده ، فقد حرص « صهيونيو الخارج » على التذمر والشكوى من تصرفات « صهيوني الداخل » في الوقت الذي شدد فيه بن غوريون هجومه على خصومه . فعندما قدم رئيس الحكومة الاسرائيلية مشروع « القانون التشريعي » للكنيست ، ركز على ان « مصير اليهود في كثير من الجوانب يعتمد على مصير اسرائيل ، ومصير اسرائيل يعتمد على مصير اليهود » . ثم اضاف : « الدولة ذاتها اصبحت الاداة القائدة والرئيسية في تحقيق الرؤيا الصهيونية » . ثم يشير الى المنظمة على نحو مجازي قائلاً : يجب ان لا « يحسد » الاب ابنه أو المعلم تلميذه على الانجازات التي يحققها الابن او التلميذ ، وان على « المنظمة » بالتالي ان تعترف « بحب وارادة » بأولوية اسرائيل في « شبكة الخلاص للشعب اليهودي »^(٨٥) . وبعد ان تم اقرار « القانون التشريعي » مباشرة ، شدد بن غوريون على مقولة « ان تكون صهيونيا يعني أولاً وقبل كل شيء ان تعيش وتعمل في أرض اسرائيل » . ثم أكد ان الاولوية والهيمنة يجب ان تكون لاسرائيل ، وانه مع ان الدولة تستطيع تحقيق مهمات « المنظمة » بفاعلية اكثر ، الا ان منح « المنظمة » تلك المهمات انما كان القصد منه تقوية مركزها وقيمتها^(٨٦) . وقد اغتنم بن غوريون فرصة كتابة مقال للكتاب السنوي لحكومة اسرائيل للعام ١٩٥٣ / ١٩٥٤ ، فأكد فشل « قانون العودة » في مجال زيادة الهجرة اليهودية الى اسرائيل ، وقد عزا ذلك الى كون اليهود والزعماء الصهيونيين قد اختاروا البقاء في المنفى . ثم قارن بن غوريون بين صهيونية « الانعتاق الذاتي » في اوروبه وصهيونية « التبرع والاحسان » في الولايات المتحدة ، معلنا حسرته لانه عندما « ظهرت الدولة الى حيز الوجود ، ... لم تعثر على الامة التي طالما انتظرت ظهور تلك الدولة »^(٨٧) .

ورغم الصراع السياسي التنظيمي هذا بل ربما بسببه ، شهدت الاحداث اللاحقة عودة الحاخام اباهليل سيلفر منتصرا الى المنظمة الصهيونية الاميركية كما

شهدت اشراك انصاره من «الصهيونيين العموميين» في الحكومة الاسرائيلية^(٨٨). ولم يمض وقت طويل، حتى جاءت المناسبة الرئيسية الرابعة التي استهدفت تحديد العلاقة بين المنظمة واسرائيل وذلك من خلال الاعداد والتوقيع على «الميثاق» المعقود يوم ٦ تموز/ يوليو ١٩٥٤ بين حكومة اسرائيل واللجنة التنفيذية الصهيونية - الوكالة اليهودية. ولعله من المفيد اقتطاف المواد الاولى، والثانية، والسابعة، والثامنة من ذلك «الميثاق» لأهميتها الخاصة:

« ١ - فيما يلي وظائف اللجنة التنفيذية الصهيونية كما يتضمنها هذا الميثاق: - تنظيم الهجرة في الخارج ونقل المهاجرين وممتلكاتهم الى اسرائيل، التعاون في استيعاب المهاجرين داخل اسرائيل، - هجرة الشبيبة والاحداث، - الاستيطان الزراعي في اسرائيل، - اقتناء الاراضي واستصلاحها في اسرائيل بواسطة مؤسسات المنظمة الصهيونية: الكيرين كيمث لاسرائيل (الصندوق القومي اليهودي) والكيرين هايسود (الصندوق التأسيسي لفلسطين)، - المشاركة في انشاء وتوسيع المشاريع الانمائية داخل اسرائيل، - تشجيع التوظيفات لرؤوس الاموال الخاصة في اسرائيل، - مساعدة المشاريع الثقافية ومؤسسات التعليم العالي في اسرائيل، - تعبئة الموارد لتمويل هذه النشاطات، - تنسيق النشاطات في اسرائيل للمؤسسات والمنظمات اليهودية العاملة ضمن حدود هذه الوظائف وعن طريق الصناديق المالية العامة.

٢ - كل نشاط يجري تنفيذه في اسرائيل بواسطة اللجنة التنفيذية او بالاصالة عنها على سبيل تأدية الوظائف المدرجة اعلاه، او جزء منها، سوف ينفذ وفقا لقوانين اسرائيل وتمشيا مع الانظمة والتعليمات الادارية التي يسري مفعولها من وقت الى آخر، والتي تتحكم بنشاطات السلطات الحكومية ذات الوظائف المغفية للنشاط المعني او المتأثرة به.

٣ - تتشاور الحكومة مع اللجنة التنفيذية بشأن التشريع الذي يطال وظائف

اللجنة التنفيذية بنوع خاص، وذلك قبل احالة هذا التشريع الى الكنيست .

٨ - ينشأ مجلس للتنسيق (ويشار اليه ادناه بـ «المجلس») وغرضه تنسيق النشاطات بين الحكومة واللجنة التنفيذية في جميع المجالات التي ينطبق عليها هذا الميثاق . ويتألف المجلس من عدد متساو من الاعضاء، لا يقل عن الاربعة، نصفهم من اعضاء الحكومة التي تقوم بتعيينهم، والنصف الثاني من اعضاء اللجنة التنفيذية التي تقوم بتعيينهم . يحق لكل من الحكومة واللجنة التنفيذية بين وقت وآخر استبدال اعضاء المجلس بغيرهم من اعضاء الحكومة واللجنة»^(٨٩) .

وهكذا نرى ان المقتطفات اعلاه تؤكد نجاح الحكومة الاسرائيلية، من خلال ذلك «الميثاق»، في شدّد الحبل اكثر فاكثر من حول يدي «المنظمة» . ويتضح ذلك من النصوص الدقيقة المحددة لوظائف اللجنة التنفيذية للمنظمة (النقطة الاولى)، تماما مثلما هو يتضح من تقييد تلك «اللجنة» ليس بقوانين اسرائيل فحسب، وانما كذلك «بالانظمة والتعليمات الادارية التي يسري مفعولها من وقت الى آخر (النقطة الثانية) . وفي هذا المجال ربما يكون الحاخام ألمر بيرغر، الزعيم اليهودي الاميركي المعادي للصهيونية، محقا في قوله: «لقد قضت الحركة الصهيونية على نفسها بخلقها دولة اسرائيل»^(٩٠) .

وكي نستطيع اتخاذ موقف، يختلف أو يتفق، مع «شهادة» الحاخام بيرغر، لا بد من متابعة التطورات اللاحقة على صعيد العلاقة ما بين اسرائيل والمنظمة الصهيونية العالمية . وعند هذه النقطة، ننتقل الى تحليل وقائع واحداث المرحلة التالية .

المرحلة الثالثة: ولاية الدكتور غولدمان وسقوطه

كان غبار المعركة الدائرة بين المنظمة الصهيونية واسرائيل قد هداً مع التوقيع على «الميثاق» المشترك بينهما في العام ١٩٥٤. غير ان التوصل الى ذلك «الميثاق» لم يكن سبباً في ذلك الهدوء بقدر ما كان الالتزام أو عدم الالتزام الدقيق به، من وجهة نظر الفريقين المتصارعين، سبباً في بعث لهيب جمره الخلاف بينهما في وقت لاحق. اما الاسباب الحقيقية لهدوء غبار المعركة القديمة - الجديدة فتكمن في:

أولاً: شبه الاعتكاف المؤقت لبن غوريون الذي أعقب استقالته من رئاسة رئيس الحكومة الاسرائيلية في العام ١٩٥٣. وقد تولى موشيه شاريت مسؤوليات رئيس الوزراء حتى عاد بن غوريون الى السلطة كوزير للدفاع في البداية وكرئيس للحكومة لاحقاً في العام ١٩٥٥. ومن المعروف ان ثمة تبايناً واضحاً في حدة موقف كل من بن غوريون وشاريت ازاء المنظمة الصهيونية^(٩٢).

ثانياً: شبه الغياب المؤثر لأية قيادة صهيونية قادرة وفاعلة في مجال مواجهة اسرائيل ذات الامكانيات المتفوقة. فعودة الحاخام سيلفر الى البروز على الساحة الصهيونية الاميركية كانت عودة متأخرة، اذ جاءت بعد حسم «المعركة التشريعية» حول علاقة المنظمة مع اسرائيل. ومن ناحية ثانية، أدى وجود لوكر، حليف بن غوريون، على رأس اللجنة التنفيذية - فرع القدس (الاکثر تأثيراً من لجنة نيويورك) الى تحجيم دور غولدمان رئيس الفرع الاميركي للجنة التنفيذية الصهيونية. ومن جهة ثالثة، لم يكن ثمة رئيس للمنظمة الصهيونية منذ عدم التجديد للدكتور وايزمن في العام ١٩٤٦.

ثالثاً: شبه التجميد الذي عانت منه اعمال لجنة التطوير والتنسيق «على صعيد تنفيذ الميثاق» بين الدولة والمنظمة نتيجة جهود بن غوريون المعادية^(٩٣). ومما ساعد بن غوريون في مسعاه ذلك فشل الجهود الخاصة «بتهجير» يهود الولايات المتحدة والعالم الغربي، والتي انعكست سلباً على المنظمة الصهيونية وعلى «احترام» اسرائيل لها ولامكانياتها.

وهكذا، كان لا بد لصهيوني الخارج من انتظار فرصة مواتية كي يخوضوا من جديد معركة الحفاظ على استقلالهم او - ان امكن - زيادة « امتيازاتهم ». ويبدو ان مثل هذه الفرصة جاءت « ايجابيا » مع انعقاد المؤتمر الصهيوني الرابع والعشرين في العام ١٩٥٦ حيث جرى انتخاب غولدمان رئيسا للمنظمة الصهيونية . وجاءت الفرصة « سلبيًا » مع عودة بن غوريون الى قمة هرم الحياة السياسية الاسرائيلية بدءًا من العام ١٩٥٥ . وقد شكلت هذه الاحداث بداية المرحلة الثالثة التي نحن بصدددها .

شهدت اعوام هذه المرحلة تطورات بارزة تشابهت تارة واختلفت تارة اخرى عن التطورات التي شهدتها سنوات المرحلة السابقة . فمن جهة ، تجدد الصراع الايديولوجي - السياسي بكل انعكاساته التنظيمية بين « المنظمة » و « الدولة » . ومن جهة ثانية مختلفة ، وقعت التغيرات التنظيمية في المرحلة السابقة على جزء محدد هو معادلة العلاقة ما بين اسرائيل والمنظمة الصهيونية . ومن جهة ثالثة ، طفى الخلاف حول موضوع الهجرة على السطح من جديد وبحدة اكثر . ومن جهة رابعة مختلفة ، برز احيانا خلاف بين الحكومة ورئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية فرع القدس بعد ان حل شاريت محل لوكر حليف بن غوريون في ذلك المنصب . وهاتان القضيتان الاخيرتان علاوة على مسائل عديدة اخرى ، ستضح اكثر من سياق بحث الصراع الايديولوجي - السياسي الذي سيعقب توضيح ابرز التغيرات الهيكلية التي شهدتها المنظمة الصهيونية في هذه المرحلة .

اتخذت المنظمة الصهيونية ، منذ البداية ، شكلا اشبه ما يكون بالدولة (انظر الملاحق السبعة الاولى) . فلقد كان للمنظمة مواطنوها من دافعي الشئقل (رسم العضوية واثبات البطاقة الانتخابية) ، واجهزتها التشريعية العليا (المؤتمر الصهيوني والمجلس الصهيوني العام) ، واجهزتها القضائية العليا (محكمة المؤتمر والمدعي العام ومحكمة الشرف) ، واجهزتها التنفيذية العليا (رئيس المنظمة ورئيس اللجنة او اللجان التنفيذية) . وقد اختلف او امتاز هيكل المنظمة الصهيونية عن هيكل الدولة بكونه غير مقيّد بحدود قومية ، وبأنه مقام على اسس تطوعية بحيث لا تملك

«المنظمة» معها أية وسائل لتنفيذ قراراتها. ومن المعروف في هذا المجال، ان اقصى ما تستطيعه «المنظمة» هو الفصل من عضويتها^(٩٤).

ومع ان هيكل «المنظمة» وقوانينها تعرضت للتغيير والتبديل منذ نشأتها، فان حجم ومضمون التغيير الذي وقع في المرحلة موضع البحث (١٩٥٦-١٩٦٨) كان - وبما لا يقارن - التغيير الاكثر جذرية والابعد اثرا. وهو لم يكن بمعزل عن التطورات والصراعات السياسية والتنظيمية سواء بين الاحزاب الاسرائيلية ذاتها او بين اسرائيل والمنظمة الصهيونية - كما سيتضح لاحقا. وقد بدأت عملية التغيير هذه اثر قرار بهذا الخصوص صدر عن المؤتمر الصهيوني الرابع والعشرين في العام ١٩٥٦، وتم تثبيتها (بعد تبنيها في المجلس الصهيوني العام ١٩٦٠) بقرار صادر عن المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين في العام ١٩٦٨^(٩٥). ومن الجدير بالملاحظة المصادفة الخاصة بانه في مؤتمر العام ١٩٥٦ ذاك تم صعود الدكتور غولدمان الى سدة القيادة التنفيذية الصهيونية العليا، وانه في مؤتمر العام ١٩٦٨ تم تطويق غولدمان على نحو جعله يستقيل من منصب رئيس المنظمة الصهيونية العالمية. ومن المعلوم ان غولدمان نفسه - في محاولة لتقوية المنظمة وتوسيع اطارها - كان وراء قرار توسيع المنظمة (في دستور العام ١٩٦٠) على اساس السماح بعضوية الاعضاء المشاركين من الهيئات اليهودية التي تؤيد وتبني البرنامج الصهيوني دون الزام تلك الهيئات بأن تكون صهيونية منظمة^(٩٦) وفي الوقت ذاته، كانت اسرائيل ايضا تطمح من جهتها لادخال مؤيديها من اليهود غير الصهيونيين للتأثير على سياسات ونشاطات «المنظمة». اما على صعيد دافعي الشيقل (اي «المواطنين» في «دولة» المنظمة الصهيونية) فقد تراوحت وتباينت اعدادهم على امتداد السنين (انظر الملحق رقم ٨). ومع ان الشيقل بقي، حسب دستور العام ١٩٦٠، بمثابة رسم العضوية وبطاقة التصويت لانتخاب الممثلين الى المؤتمر الصهيوني، فان اعضاء «المنظمة» لم يعودوا دافعي شيقل فرديون وانما هيئات جماعية^(٩٧). وحتى العام ١٩٥٦، كان عدد المندوبين الى المؤتمر في منطقة (أو بلد ما) يتناسب طرديا مع عدد الشيقل المباع فيه. غير انه، مع دستور ١٩٦٠،

اصبح حجم التمثيل محددًا من قبل هيئة خاصة حسب حجم الجالية اليهودية ووفق مجمل الاوضاع والنشاطات الصهيونية في البلد المعني^(٩٨). والى حين انعقاد المؤتمر السادس والعشرين مع نهاية العام ١٩٦٤، كان دافعو الشيقل يختارون اعضاء المؤتمر عن طريق الانتخاب المباشر او بالتزكية عبر اسلوب القائمة الموحدة المؤتلفة نتيجة اتفاق الاحزاب. وفي اختيار الممثلين الى المؤتمر الصهيوني التالي في العام ١٩٦٨، أدت آثار حرب ١٩٦٧ الى اعتماد قواعد خاصة راعت ان يأتي تشكيل مؤتمر ١٩٦٨ على غرار المؤتمر الذي سبقه. ومنذئذ، تقرر ان يختار كل بلد شكل الانتخابات التي يريدها لانتقاء مندوبيه الى المؤتمر شرط ان لا يتعارض ذلك الشكل مع الاساليب الديمقراطية المتعارف عليها^(٩٩). ومنذ العام ١٩٥٩، تم تخصيص نسب معينة للمناطق المختلفة. ووفقا لذلك حصلت المنظمات الصهيونية في اسرائيل على (٣٨٪) من مقاعد المؤتمر وعلى اساس ان تتمثل احزاب اسرائيل الصهيونية بنسبة مقاعدها في الكنيست، في حين حصلت المنظمات الصهيونية في الولايات المتحدة على (٢٩٪) من المقاعد، وخصص الباقي (٣٣٪) لباقي المنظمات الصهيونية في العالم^(١٠٠).

وعلى صعيد «السلطة التشريعية» العليا في المنظمة الصهيونية، تمثلت تلك السلطة - كما في الماضي - في «المؤتمر الصهيوني» وفي «المجلس الصهيوني العام» الذي يقوم بمهام «المؤتمر» في غيابه^(١٠١). وبعد ان كان «المؤتمر» يجتمع مرة كل عام (باستثناء العام ١٩٠٢) في عهد هيرتسل، اصبح - حتى اندلاع نار الحرب العالمية الثانية في العام ١٩٣٩ - يجتمع مرة كل عامين (باستثناء فترة الحرب الكونية الاولى). وبعد المؤتمر الثاني والعشرين في العام ١٩٤٦ (وهو المؤتمر الاول بعد الحرب الثانية) درجت العادة على عقد المؤتمر مرة كل اربع سنوات. وقد تثبت هذا الواقع، قانونيا، بنصوص دستور ١٩٦٠^(١٠٢). ومع انه مناط بالمؤتمر مسؤولية انتخاب المجلس الصهيوني العام، ورئيس المنظمة، واللجنة التنفيذية، وكافة المؤسسات القضائية، حدث مرارا ان «فوض» المؤتمر المجلس العام صلاحيات اقرار الميزانية او انتخاب اللجنة التنفيذية او غير ذلك. بل انه جرى

اقرار دستور العام ١٩٦٠ ذاته من قبل «المجلس» وليس «المؤتمر»^(١٠٣).

ويتشكل «المجلس» - حسب دستور ١٩٦٠ - من اعضاء عاملين واطباء استشاريين. ويتم اختيار العضوية العاملة على اساس عدديّ يساوي (٢٠٪) من اعضاء فريق ما في المؤتمر الصهيوني. أما العضوية المراقبة (ها حق النقاش دون حق التصويت) فانها تمنح للشخصيات الصهيونية البارزة ولبعض اعضاء اللجنة التنفيذية السابقين. ويتراوح عدد اعضاء «المجلس» ما بين (٢٥) عضوا في العام ١٩٢١ مثلا الى^(١١٠) اعضاء في العام ١٩٦٨. ويجتمع «المجلس» - حسب دستور ١٩٦٠ - مرة في العام على الاقل بحيث لا يتجاوز موعد الاجتماع ٣١ آذار/مارس من كل عام وهو الموعد النهائي لانتهاء السنة المالية في المنظمة الصهيونية. وتماثا مثلما ان «المؤتمر قد يتخلى عن بعض صلاحياته مؤقتا للمجلس على اساس «التفويض التشريعي»، حدث ان تخلى «المجلس» عن الكثير من صلاحياته - اثناء الحرب العالمية الثانية مثلا - لمجلس صهيوني داخلي تألف في حينه من (٣١) عضوا. واخيرا، للمجلس الصهيوني «بريزيديوم» خاص به يتكون من الرئيس وستة عشر عضوا يسيرون اعمال «المجلس» ويمثلونه في مختلف المسائل والشؤون الداخلية والخارجية^(١١٤).

وعلى صعيد «السلطة التنفيذية» العليا في المنظمة الصهيونية، فقد تمثلت بدستور ١٩٦٠ - كما في الماضي - برئيس المنظمة وباللجنة التنفيذية بفرعيها في القدس ونيويورك (علما بانها كان لها في مرحلة سابقة فروع في القدس و/ او لندن ونيويورك)^(١١٥). ومع ان «الرئيس» يستمد سلطاته - حسب دستور ١٩٦٠ - من «المؤتمر» الذي ينتخبه (رئاسة اللجنة التنفيذية والمجلس العام وغير ذلك)، فإن صلاحيته الفعلية مستمدة من شخصيته ونشاطه اكثر من حقه القانوني. وقد تعاقب على هذا المنصب عدد من القيايين الصهيونيين البارزين (انظر الملحق رقم ٩) رغم أنه كان ثمة فترات لم يكن فيها للمنظمة رئيس بسبب الصراعات السياسية والتنظيمية المختلفة بين الصهيونيين^(١١٦). ويعمل الرئيس من خلال «اللجنة التنفيذية» التي هي حسب دستور ١٩٦٠ - كما في الماضي - الذراع

التنفيذي الاساسي . والجنة التنفيذية مسؤولة امام المؤتمر والمجلس الصهيوني وتقدم لهما تقارير دورية . والمقر الرئيسي للجنة هو - حسب دستور ١٩٦٠ - في القدس رغم حقها في اقامة فروع لها في الخارج . وبعد ان تم الغاء فرع اللجنة في لندن بعد اقامة اسرائيل بوقت قصير ، تم التركيز على فرع آخر جديد نسبيا ومقره نيويورك . ويلتقي اعضاء الفرعين عدة مرات في السنة في مدينة القدس حيث تصاغ السياسات والبرامج . وتدير «اللجنة التنفيذية» في القدس الشؤون اليومية عبر دوائرها المختلفة (الهجرة والاستيعاب ، هجرة الشباب ، والشباب والرواد ، التعليم والثقافة ، المالية ، والادارة - كما كانت عليه مثلاً في العام ١٩٧٢) التي يرئسها عضو او اكثر من اعضاء «اللجنة» . وقد تراوح عدد اعضاء «اللجنة التنفيذية» حسب الفترات المختلفة ما بين (٥) اعضاء في عهد هيرتسل ، ثم (٧) بعد وفاته ، ثم (١٥) في المؤتمر الصهيوني عام ١٩٢١ ، ثم (١٩) في العام ١٩٥١ علاوة على نائبين ، ثم (٢٦) في العام ١٩٦٦ علاوة على ممثل استشاري من منظمة ويزو (المنظمة الصهيونية العالمية للنساء) ونائب واحد ، ثم تقلص العدد الى (١٤) عضوا عاملاً في العام ١٩٦٨ زائداً ممثلاً عن ويزو وآخر عن يهود السفارديم مع تفويض «اللجنة» باستمالة عدد لا يتجاوز (٥) اعضاء من الشخصيات الصهيونية المستقلة غير الحزبية ومنحهم عضويتها^(١٠٧) .

وعلى صعيد «السلطة القضائية» العليا في المنظمة الصهيونية ، فقد تمثلت - حسب دستور ١٩٦٠ - بمحكمة المؤتمر (المحكمة الصهيونية في الماضي) وبمدعي عام المنظمة الصهيونية (محامي المؤتمر سابقاً) في حين تم دمج مهمات محكمة الشرف (الخاصة بفض النزاعات بين الافراد والهيئات الصهيونية و/أو بين الافراد الصهيونيين انفسهم) بمحكمة المؤتمر^(١٠٨) . وتتألف هذه الأخيرة من (٢٥) عضواً بما في ذلك رئيسها ونوابه الذين يجب ان لا يتجاوز عددهم الخمسة نواب . ولمحكمة المؤتمر الحق في تفسير الدستور ، وبمبحث شرعية القرارات الصادرة عن الهيئات الصهيونية المركزية ، والحسم في الخلافات بين هيئة صهيونية مركزية واخرى ، او اي فرد باستثناء القضايا المالية (المناطة بالفتش المالي ومكتبه المسؤولين عن

الشؤون المالية والاقتصادية للمنظمة الصهيونية وهيئاتها وموظفيها)، علاوة على معالجة الاعتراضات الخاصة بتأجيل عقد المؤتمر أو المجلس الصهيوني، والتحقق من انتخابات المؤتمر، ومعالجة النداءات أو الالتماسات الصادرة من الهيئات القضائية الاقليمية ضد القرارات الخاصة باللجان التي تقرر عدد ممثلي المؤتمر ونظام الانتخابات، والشكاوي الخاصة بتجاوز الدستور أو بمصالح وهيبة المنظمة الصهيونية. ومن جهة ثانية، يمثل «المدعي العام» مصالح المنظمة الصهيونية أمام محكمة المؤتمر ويقدم النصح والارشاد القانوني لكل الهيئات الصهيونية المركزية^(١٠٩).

وعلى صعيد «القاعدة التنظيمية» للمنظمة الصهيونية، طرأت - قبل وبعد دستور ١٩٦٠ - تغييرات رئيسية. فلقد كانت «المنظمة» قائمة على اساس منظمات اقليمية (جمعيات محلية او خاصة بمناطق اقليمية خاضعة للجنة اقليمية عليا في البلد المعني) ثم تحولت، مع دخول الايديولوجيات وبروز التجمعات السياسية، الى «منظمة» قائمة - في الوقت ذاته - على مشاركة عدة أحزاب^(١١٠). وحسب دستور ١٩٢١، كان البناء التنظيمي أفقياً وعمودياً. فمن جهة، انتشرت منظمات على امتداد البلد المعني وكانت تضم جميع الاعضاء الصهيونيين بغض النظر عن مواقفهم الايديولوجية والسياسية (اتحادات صهيونية اقليمية ذات فروع محلية). ومن جهة ثانية، سمح للفئات الصهيونية ذات الانتماء الايديولوجي والسياسي المحدد بتشكيل تنظيمات مستقلة ذات فروع اقليمية. ومن اول هذه الاتحادات المنفصلة، المزارحي (١٩٠٢)، وعمال صهيون (١٩٠٧)، وهاشومر هازاعير، وحزب الدولة اليهودية بعد الحرب الكونية الاولى. ولقد كانت الهيمنة في المؤتمر الصهيوني، في البداية، للقرى والمؤسسات اقليمية غير المنفصلة حيث كان عدد مندوبيهم في مؤتمر ١٩٢١ مثلاً (٣٧٦) عضواً مقابل (١٣٦) عضواً للاتحادات المنفصلة. ومع العام ١٩٣٩، تغير الوضع. فقد اصبح عدد ممثلي المنظمات غير المنفصلة (١٧١) عضواً مقابل (٣٨٦) عضواً للهيئات المنفصلة^(١١١). ومع ازدياد التفسح في العضوية، أصبح الانتماء الى فدرالية

صهيونية موحدة شرطا اساسيا والزاميا. وحسب دستور ١٩٦٠، اتخذت التنظيمات القاعدية للمنظمة أحد شكلين: فهي اما منظمات اقليمية (اتحادات صهيونية على اساس العضوية الفردية كما هو الحال في هولندا مثلا، أو فدراليات على اساس عضوية جماعية كما هو الحال في بلجيكا، او فدراليات مختلطة على اساس عضوية فردية أو جماعية كما هو الحال في فرنسا)، او هي جمعيات دولية صهيونية مثل منظمة هداسا والمنظمة الصهيونية العالمية للنساء - وهما اكبر جسمين تنظيميين صهيونيين في العالم. وهكذا نرى ان دستور ١٩٦٠ دفع باتجاه التنظيمات القاعدية اللامركزية على اساس استقلالية الاعضاء وحقهم في اختيار التنظيم والقواعد الخاصة بهم^(١١٢).

أما على جبهة المعركة الايديولوجية - السياسية الدائرة بين «صهيوني الداخل» و «صهيوني الخارج» فقد شهدت سنوات هذه المرحلة بعثا قويا للمعركة القديمة - الجديدة تلك. وتمثلت أبرز الرموز البشرية لطرفي الصراع في كل من بن غوريون (حتى استقالته واعتزاله السياسي في العام ١٩٦٣ على الاقل) وفي خليفته ليفي اشكول من جهة، وتمثلت في الدكتور غولدمان رئيس المنظمة الصهيونية (حتى استقالته او بالاحرى اقالته في العام ١٩٦٨ على الاقل) وفي موشيه شاريت خليفة لوكر في رئاسة فرع القدس في اللجنة التنفيذية الصهيونية - الوكالة اليهودية علاوة على الحاخام سيلفر، رئيس مجلس محافظي هيئة سندات اسرائيل من جهة ثانية. ومن الجدير بالملاحظة في هذا المجال ان كلا من بن غوريون وغولدمان لجأ تكتيكياً، في معرض حملته ضد الفريق الآخر، الى الادعاء بأن ما صرح به (وغالبا عندما يكون التصريح قد أثار ضجة او حساسية) انما هو تعبير عن «رأي شخصي» وليس تصريحاً قاله بالنيابة عن الجهة التي يمثلها اي منهما^(١١٣). كما ان من الجدير بالملاحظة في هذا السياق ان «عظمة الخلاف» التي كانت محل تنازعهما تمثلت في موضوع هجرة اليهود بعامة وهجرة الصهيونيين بخاصة الى فلسطين. ومن المعروف ان هذا الموضوع قديم قدم الصراع الايديولوجي - السياسي - التنظيمي بينهما^(١١٤). ومرة ثالثة، من الجدير بالملاحظة في هذا النطاق

ان ساحات ذلك الصراع امتدت لتشمل بنوع من التركيز ميادين (١) التصريحات العلنية، (٢) الجاليات اليهودية، (٣) المؤسسات الصهيونية التشريعية العليا ناهيك - بالتأكيد - عن المؤسسات الصهيونية التنفيذية المختلفة وغيرها.

ففي ميدان التصريحات العلنية، اعلن بن غوريون مع نهاية العام ١٩٥٦ ان «الصهيونية اليوم هي الهجرة الريادية والتعليم اليهودي» وان كل ما هو غير ذلك لا يمت الى الصهيونية بصله^(١١٥). وفي تموز / يوليو ١٩٥٧، أكد رئيس الحكومة الاسرائيلية من جديد أن الذين هاجروا الى فلسطين من اليهود (غير صهيونيين وصهيونيين) هم الذين بنوا الدولة وليس «المنظمة الصهيونية». وفي الشهر التالي من العام نفسه، أعلن بن غوريون بقوة انه لا يعتبر نفسه «صهيونيا» على النسق المستخدم في «الشتات» اي بمعنى ان يكون المرء يهوديا صهيونيا ويعتبر نفسه في الوقت ذاته جزءاً من الشعب الاميركي او البريطاني او الفرنسي دون اي احساس بانه يعيش في «الشتات»^(١١٦). كما ان زعيم صهيونيين اسرائيل شن، على امتداد الاعوام ١٩٦١-١٩٦٣، هجوماً حاداً على صهيونيين الولايات المتحدة «الذين يترددون في القول بانهم ليسوا اميركيين وانهم ليسوا جزءاً من الوطن الاميركي كباقي الاميركيين»^(١١٧). بل ان بن غوريون اعلن بوضوح ان اسرائيل هي اساس الوجود اليهودي في كل مكان وبالذات في الولايات المتحدة، مؤكداً على انه ليس ثمة شيء قادر على انقاذ الصهيونية في الولايات المتحدة سوى الروابط الشخصية مع اسرائيل^(١١٨). ولقد حرص رئيس الحكومة الاسرائيلية على توجيه اللوم لصهيونيين الخارج لانهم يرسلون لاسرائيل «الاموال والنصائح الجيدة لا غير» بدلا من يهود العالم العربي المدربين والكفاء^(١١٩). وكمن مرة كرر فيها بن غوريون في هذه السنوات مقولته الشهيرة:

«انتم يا (يهود الشتات) يهود غير متفرغين (يهود لجزء من الوقت) في احسن الاحوال فقط اثناء الدقائق القليلة التي تؤدون فيها صلاتكم يوميا. البيوت التي تقطنون فيها لم بينها يهود. الخبز الذي تأكلونه لم يخبزه لكم يهود. والطرق التي

تنتقلون فوقها لم يشقها يهود . اما هنا في اسرائيل فان يهوديتنا يتم التعبير عنها فيما نبني ونكتب ونفعل . هنا نحن نؤدي الاعمال كيهود مكتملين» (١٢٠) .

وفي ميدان التصريحات العلنية، سار ليفي اشكول، خليفة بن غوريون، على الدرب نفسه مغتما كل فرصة لتأكيد مضمون التصريحات البن غوريونية ذاتها. وكذلك الحال مع باقي اعضاء الحكومة الاسرائيلية (١٢١) .

غير ان صهيونيي الخارج لم يقفوا في ميدان التصريحات العلنية مكتمي الافواه ازاء تهجمات المسؤولين في الحكومة الاسرائيلية عليهم . وقد اغتتم الدكتور غولدمان كل فرصة لتأكيد وجهة نظره وموقف انصاره . ومع انه اصبح مستعدا للاعتراف «بالفرع الاسرائيلي على انه الشريك الاكبر مقاما» فانه لم يغفل اتهام اسرائيل بأنها تحرم المنظمة الصهيونية «من كل نفوذ في السياسة الاسرائيلية»، مؤكداً ان وجود اسرائيل وبقيائها لم ولن يكون بمعزل عن دور المنظمة . وقد دعا غولدمان ، مع الحاخام سيلفر ، الى قيام «مشاركة» ما بين المركز الاسرائيلي والاطراف اليهودية في الخارج من خلال المنظمة واجهزتها . بل ان غولدمان طالب بضرورة حضوره اجتماعات الحكومة الاسرائيلية (١٢٢) . ولطالما تحدث رئيس المنظمة الصهيونية عن عدم فعالية «لجنة التطوير والتنسيق» المشتركة مع الحكومة الاسرائيلية بسبب الازعاج المستمر لها ولمضمون «ميثاق» ١٩٥٤ من قبل بن غوريون وانصاره (١٢٣) . وقد ذهب غولدمان الى درجة الاستنتاج الحاسم بان بن غوريون «فقد... كل اهتمام بالمنظمة حالما قرر المجلس (الصهيوني) العام، في اول اجتماع له بعد قيام اسرائيل، تحويل جميع الاعمال الخاصة بالقاطنين في اسرائيل الى الحكومة الاسرائيلية» (١٢٤) . وعندما طالب بن غوريون «المنظمة الصهيونية» بتغيير اسمها ليصبح «المنظمة اليهودية» نتيجة اقتناعه بان كلمة «صهيوني» فقدت معناها، وبسبب اعتقاده بانتهاء الفوارق «عمليا» بين اليهودي والصهيوني - قفز موشيه شاريت الى الحلبة غاضبا وتصادم مع بن غوريون معلنا ان هذا الاخير يرتكب، كلما تفوه بمثل هذه الاقوال، خطأ كبيرا (١٢٥) .

وفي ميدان الجاليات والمنظمات اليهودية غير المنضوية تحت جناح «المنظمة الصهيونية»، اتخذت المعركة الايديولوجية - السياسية شكلاً ومضموناً مختلفاً. فنتائج المعركة تلك كانت، منذ البداية، شبه محسومة لصالح اسرائيل وعلى حساب «المنظمة الصهيونية». فمن جهة، كان تأسيس الكيان الصهيوني في العام ١٩٤٨، تماماً مثل الانتصار العسكري الاسرائيلي في حرب العام ١٩٦٧، عاملاً اساسياً في ازدياد ارتباط المؤسسات اليهودية (غير الصهيونية) باسرائيل وفي زيادة التفافها من حولها^(١٢٦). ومن جهة ثانية، كانت «المنظمة الصهيونية» (كما ذكر سابقاً) قد نجحت في تنفير العديد من المؤسسات اليهودية غير الصهيونية بسبب الموقف المزايد والاستغلالي الذي بدت عليه المنظمة الصهيونية في علاقاتها وتفاعلاتها مع تلك المؤسسات^(١٢٧). ومن جهة ثالثة، كان اليهود غير الصهيونيين قد اثبتوا وجودهم - على النحو الذي مر معنا سابقاً - في مجالات امداد اسرائيل بالاموال وبالحاربين المتطوعين وبالمعونة السياسية وغير ذلك عشية قيام اسرائيل. وقد حدا ذلك بين غوريون وانصاره الى معاملتهم معاملة تفضيلية خاصة بالمقارنة مع معاملتهم للصهيونيين الملتزمين. ذلك ان «مبدأ اولوية الدولة تطابق مع الحاجة البراغمية لتقوية اسرائيل عبر تنفيذ برامج صهيونية بأطر غير صهيونية. وبين غوريون لم يترك الصهيونية ابداً (لكنه ساوى) ما بين مركزية اسرائيل والصهيونية. وللحفاظ على صهيونيته (أو مركزية اسرائيل) ولتعزيزها وتقويتها، ترك (بن غوريون) الصهيونيين وراءه»^(١٢٨).

وقد عبرت «المعاملة التفضيلية» التي خصّ بها بن غوريون (وليفي اشكول من بعده) المؤسسات اليهودية غير الصهيونية عن نفسها بأشكال مختلفة^(١٢٩):

- ١ - دعوتهم لزيارة اسرائيل وتجاهل دعوة ممثلي المنظمة الصهيونية في الخارج في بعض الاحيان وبخاصة اثناء اشتداد حرارة الخلاف مع «المنظمة».
- ٢ - التركيز على الالتقاء بهم (وغالباً دون غيرهم) اثناء الزيارات التي كان يقوم بها بن غوريون وانصاره للخارج.

٣ - الدفع باتجاه اعادة تأطيرهم من خلال احياء التنظيم المنفصل للوكالة اليهودية.

٤ - اطلاق التصريحات التي تمتدحهم وتحاول تطمينهم واستمالتهم مع الغمز احيانا من قناة صهيونيي الخارج الملتزمين.

٥ - عقد اتفاقات خاصة مع ممثليهم حتى لو اقتضى ذلك من بن غوريون التراجع عن آرائه ومفاهيمه ومواقفه ليس من اجل كسب اليهود غير الصهيونيين فحسب، بل لعزل صهيونيي الخارج واضعافهم كذلك.

وبالفعل حرص بن غوريون على تطوير كل خلاف مع المؤسسات اليهودية غير الصهيونية والمساعدة الى تفرغ كل توتر قد ينشأ بينه وبينهم. وقد حدث، اكثر من مرة، ان اصطدم هو او احد انصاره مع المؤسسات اليهودية غير الصهيونية نتيجة تصريحات بن غوريون أو اتباعه حول عزمهم على «انقاذ» اليهود من «المنفى» او «الشتات» او حول ادعائهم بان «الوجود والبقاء اليهودي» او «التحقق الذاتي اليهودي» مرتبط عضويا باسرائيل وبالهجرة اليها^(١٢٠). ولعل اكبر هذه الازمات كانت تلك التي ثارت عندما اطلق بن غوريون في ٢٨ كانون الاول / ديسمبر ١٩٦٠ تصريحات نارية قال فيها ان «اليهود الذين يعيشون خارج اسرائيل ملحدون وينتهكون تعاليم اليهودية في كل يوم يقون فيه بعيدين عن العيش في اسرائيل» وان «اليهودي يهودي اولاً، ولاؤه للدولة التي يقيم فيها (في الخارج) كولاء الغريب الذي يعيش في بلد مضيف^(١٢١). وبالفعل، استفزت هذه التصريحات مشاعر عدد كبير من يهود الولايات المتحدة واعتبروها كسراً للوعد الذي كان بن غوريون قد قطعه لجاكوب بلاوشتاين، الرئيس الفخري للجنة اليهودية الامريكية، في العام ١٩٥٠. وعندما اصرت مجموعات من اليهود غير الصهيونيين في الولايات المتحدة على ضرورة اعلان بن غوريون من جديد بأن اسرائيل لا تنطق باسم اليهود أينما كانوا وانها تنطق فقط باسم مواطنيها، وان ولاء يهود الولايات المتحدة السياسي هو فقط لهذه الاخيرة وليس للدولة اليهودية، زار بلاوشتاين اسرائيل وعاد ليعلن اتفاقه مع صديقه بن غوريون على اعادة تأكيد

«اتفاق ١٩٥٠» بروحه ومضمونه. وقد اضاف بلاوشتاين ان رئيس الوزراء الاسرائيلي، في تصريحاته تلك، انما كان يعبر عن رأيه الشخصي وليس عن موقف اسرائيل، وان بن غوريون وعد بتجنب اية انتهاكات مستقبلية لذلك «الاتفاق»^(١٣٢).

وفي ميدان الهيئات الصهيونية التشريعية العليا، اغتتم بن غوريون وخليفته ليفي اشكول وغيرهما كل مناسبة لخوض معركتهم الايديولوجية - السياسية ضد صهيونيي الخارج سواء في المؤتمر الصهيوني للعام ١٩٥٦، او في المجلس الصهيوني في العام ١٩٦٠، او في المؤتمر الخامس والعشرين مع نهاية العام ذاته، او في المؤتمر السادس والعشرين في اول ايام العام ١٩٦٥. وقد ركزت هذه المؤتمرات على القضايا الاساسية المرتبطة بالمعركة الايديولوجية - السياسية الدائرة (مفهوم الصهيونية، العلاقة ما بين المنظمة والدولة، الهجرة اليهودية الصهيونية وغير الصهيونية... الخ)^(١٣٣). اما الرموز البشرية الناطقة باسم التيارين الصهيونيين المتنازعين فتبدلت جزئيا نتيجة اعتزال بن غوريون في العام ١٩٦٣ (حيث خلفه اشكول في رئاسة الحكومة) ونتيجة وفاة شاريت في العام ١٩٦٥ (حيث خلفه آرييه بنكوس في رئاسة اللجنة التنفيذية في القدس). وفي حين تناوب على رئاسة اللجنة التنفيذية الصهيونية - فرع نيويورك كل من عمانويل نيومان وروزها لبرن، بقي الدكتور غولدمان حتى العام ١٩٦٨ على رأس المنظمة الصهيونية^(١٣٤). وفي ظل سير اشكول على نهج سلفه بن غوريون، ومع استمرار تمسك غولدمان بنهجه، استمر أوار المعركة من على منبر المؤتمر الصهيوني السادس والعشرين المنعقد في القدس في الفترة ما بين ١٩٦٤/١٢/٣٠ - ١٩٦٥/١/١١. بل ان المؤتمر الاخير هذا كان بمثابة بداية النهاية لعهد الدكتور غولدمان.

يبدو ان «صهيونيي الخارج» - وربما بسبب اعتزال خصمهم القوي بن غوريون الحياة السياسية - جاءوا الى المؤتمر الصهيوني السادس والعشرين وهم مصممون على احراز انتصار ما في معركتهم مع «صهيونيي الداخل»^(١٣٥).

فعلاوة على تأكيدهم على مختلف القضايا الاساسية التي كانت وما تزال عندئذ موضع خلاف بينهم وبين اسرائيل، بلور «صهيونيو الخارج» موقفا سرعان ما بعث - فيما تشير اليه التطورات - مخاوف حقيقية لدى الاسرائيليين . فقد انصب خطاب الدكتور غولدمان امام المؤتمر على طرح ما اعتبره ثلاثة مشاكل يجب التصدي لها :

- ١ - ضرورة التفكير في المستقبل والتوكيد على كون وضع كل من اسرائيل ويهود «الشتات» وضعا غير مأمون مما يستدعي «التخطيط المشترك» لجعل المستقبل اكثر امانا.
- ٢ - ضرورة التعاون بين المنظمة واسرائيل «بشكل يقويّ الاوضاع اليهودية في الخارج» على اساس جعل اسرائيل «القوة الاساسية» لضمان الاستمرار اليهودي.
- ٣ - ضرورة غدو الحركة الصهيونية اكثر ليونة وقادرة - بالتالي - على استهواء «جماعات وزعامات جديدة» عبر التعاون مع «التجمعات والجاليات اليهودية المناسبة» .

وكان حرياً بمثل هذا الطرح ان يثير زوبعة من المخاوف في الجانب الاسرائيلي . فصهيونيو الخارج ما يزالون يصرّون (حسب ما تقول به النقطة الاولى) على «مبدأ الشراكة» وعلى اساس تساوي الفريقين في التعرض للخطر المشترك . ثم ان صهيونيو الخارج يصرّون (في النقطة الثانية) على تقوية «الايضاع اليهودية في الخارج» مما قد يؤدي الى «ثنائية القومية» الصهيونية عبر عزل اسرائيل وزيادة ترسيخ الوجود اليهودي في «الشتات» . واخيرا، فان صهيونيو الخارج يبدوون (في النقطة الثالثة) رغم بعض العبارات المتحفظة وقد حزموا امرهم على «غزو» الجاليات اليهودية غير الصهيونية تمهيدا لكسبها (وهي التي كانت عندئذ اقرب الى اسرائيل ومتحالفة معها) .

ومن موقع مضاد، خاطب ليفي اشكول المؤتمر بالتوكيد ان «مركزية اسرائيل»

هي التي تؤمن استمرار «الشعب اليهودي». كما شدد على ضرورة التركيز على هجرة اليهود من «العالم الحر» مشيراً (بعملية غمز واضحة ضد موقف القادة والاعضاء الصهيونيين المتخلفين عن الهجرة الى اسرائيل) الى ان وجود حركة صهيونية بلا «قدوة شخصية» وبلا هجرة واسعة من العالم الغربي هي حركة «فاعلة» بالنسبة «لواجباتها» تجاه اسرائيل.

وهكذا نرى ان جوهر الخلاف ما بين الفريقين هو - كما في الماضي القريب - ما يزال يدور وبوضوح كامل هذه المرة حول تقييم وتقويم نوعية العلاقات اليهودية - الاسرائيلية. فبينما يعتبر «صهيونيو الخارج» يهود الداخل والخارج متساوين في الاهمية بالنسبة للقضية الصهيونية، يصرّ الرسمىون الاسرائيليون على ان دولتهم - ويهودها بالتالي - «يجب ان يحتلوا المرتبة الاولى من الاهتمام الصهيوني». ومن جهة ثانية، في حين يعتبر صهيونيو الخارج اسرائيل «وسيلة» لضمان الاستمرار اليهودي في العالم، يعتقد المسؤولون الاسرائيليون ان اسرائيل هي «غاية» التحرك الصهيوني العام وان يهود الخارج ما هم الا «وسيلة لضمان استمرار اسرائيل». ولعل في هذا التباين ما يفسّر اهتمام «المنظمة الصهيونية» في العالم الغربي بالمحافظة على «الهوية اليهودية» بقدر اهتمامها، بل ربما اكثر قليلا، من اهتماماتها بحركة التهجير الى اسرائيل.

ولقد تفاقم التوتر داخل المؤتمر بخلافات سياسية وتطورات تنظيمية اضافية. فحينما رفض المؤتمر طلب حزب حيروت بتمثيل اوسع في «اللجنة التنفيذية الصهيونية»، استقال الاميركي جوزف ستحتمان - عضوه الوحيد في «اللجنة». وعندما تجمّد موضوع انتخاب لجنة تنفيذية جديدة، فوّض المؤتمر المجلس الصهيوني العام بانتخاب اللجنة في دورته القادمة على اساس تعيين عضو سفاردي فيها (كانت عضويتها بالكامل من الاشكنازيم) بعد زيادة عدد اعضائها عضواً اضافياً. وفي الشهر ذاته، انتخب المجلس الصهيوني العام، في دورته الاولى المؤتمر، بريزيديوم (هيئة تنفيذية دائمة) تتكون من (١٦) عضواً على رأسهم

رئيس اعلى هو يعقوب تسور . وفي الدورة الثانية للمجلس العام في شهر كانون الثاني / يناير اللاحق ، وفي اعقاب وفاة موشيه شاريت ، قام « المجلس » بانتخاب لجنة تنفيذية صهيونية جديدة وفقا للصلاحيات الممنوحة له من المؤتمر ، واصبح آرييه بنكوس رئيسا للجنة التنفيذية في القدس في حين تناوب كل من روزها ليرن وعمانويل نيومان رئاسة اللجنة التنفيذية في نيويورك . وعندما جرى اختيار الدكتور شمعون أجزانات رئيسا لمحكمة العدل الاسرائيلية العليا ، انتخب « المجلس العام » القاضي موشيه لنداو خلفا له كرئيس لمحكمة المؤتمر .

كانت الفترة التي اعقبت اختتام أعمال المؤتمر السادس والعشرين حتى الاشهر القليلة التي سبقت اندلاع نار حرب ١٩٦٧ فترة تعميق للخلاف القائم بين « صهيوني الداخل » و « صهيوني الخارج » . ومن العوامل المهمة التي لعبت دورا في توسيع شقة الخلاف العاملان التاليان :

١ - شعور « صهيوني الخارج » بالقوة النسبية في اعقاب المؤتمر الاخير وبخاصة ان اسرائيل كانت منشغلة الى درجة كبيرة بالمشاكل الداخلية والخارجية التي كانت تواجهها (الازمة الاقتصادية - الاجتماعية الخائقة ، والازمة السياسية الداخلية ، وتزايد العمل الفدائي الفلسطيني على سبيل المثال).

٢ - وضوح التباين في مجال السياسة الاسرائيلية تجاه الدول العربية بين الدكتور ناحوم غولدمان بالذات من جهة والحكومة الاسرائيلية من جهة ثانية . ولربما كانت العلاقة بين المنظمة الصهيونية واسرائيل ستتخذ مجرى آخر لولا وقوع حرب ١٩٦٧ ولولا نتائجها الحاسمة العديدة التي كان أبرزها وضع اسرائيل في موقع متفوق ليس في منطقة الشرق الاوسط فحسب ، بل - في نطاق موضوع البحث الراهن - ازاء المنظمة الصهيونية ايضا . ومن الموقع المتفوق ذاك ، ولاعتبارات عديدة من ضمنها تحجيم المنظمة وتطويق رئيسها غولدمان ، سعت اسرائيل الى عقد المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين قبل موعده . وتماثلا مثلما انعكس التفوق الاسرائيلي العام

في عملية صياغة قرارات المؤتمر الجديد المتشددة، انعكس كذلك على طبيعة الموقف الاسرائيلي المتشدّد ازاء العلاقة مع المنظمة الصهيونية ورئيسها. وباختصار، اذا كان المؤتمر السادس والعشرون في العام ١٩٦٥ هو المؤتمر الهجومي لصهيونيي الخارج، فان المؤتمر السابع والعشرين في العام ١٩٦٨ هو المؤتمر الهجومي المضاد لصهيونيي الداخل. فماذا كانت نتيجة ذلك الهجوم على المنظمة الصهيونية العالمية وعلى مجمل علاقاتها مع اسرائيل؟

المرحلة الرابعة: حقبة ما بعد سقوط الدكتور غولدمان

شهد المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون للعام ١٩٦٨ بداية الهجوم الاسرائيلي الكاسح ضد المنظمة الصهيونية العالمية. ولأن اسرائيل - المنتشية بانتصار ١٩٦٧ - كانت تحس احساسا شديدا بتفوقها، ذهب «تحذير» الزعيم الصهيوني لويس آرييه بينكوس لكل من «قيادة دولة اسرائيل، والرأي العام في اسرائيل (من) ان حرب الايام الستة ليست علاجاً شاملاً لجميع الامراض^(١٣٦)» ادراج الرياح. وهكذا، جاءت اعمال ونتائج المؤتمر، سواء توقيتته أو مواقف التيارين الرئيسيين المتصارعين داخله، او برامجهم أو محصلته العملية، جاءت لتؤكد كون ذلك المؤتمر نقطة انعطاف حاسمة في تاريخ الحركة الصهيونية.

انعقد المؤتمر السابع والعشرون في القدس بين ٩-١٩ حزيران / يونيو ١٩٦٨ اي قبل موعده المقرر اصلاً (في كانون الاول / ديسمبر من العام ذاته) بحجة معالجة القضايا الملحة الناشئة عن نتائج حرب ١٩٦٧^(١٣٧). ويبدو ان «صهيونيي الداخل» ارادوا التسريع بعقده قبل ان يتلاشى المناخ اليهودي العام المنبهر باسرائيل وبانجازاتها لكي يحاولوا - في ظل ذلك الجو المؤاتي لهم - وضمن امور اخرى وضع حد لانتقادات «صهيونيي الخارج» وتحجيمهم أكثر فأكثر. وقد شارك في اعمال «المؤتمر» (٧٧٨) ممثلاً عاملاً ومراقباً (انظر الملحق رقم

١٠). فعلاوة على (٥٠٧) مشارك من البلدان المختلفة (بواقع ١٩٠ مندوبا لاسرائيل، ١٤٥ عضوا لصهيونيين الولايات المتحدة، ١٧٢ للبلدان الاخرى) شارك عن منظمة ويزو (١٢) مندوبة، وعن القوائم العالمية (٧) ممثلين، وعن كتلة الشبيبة (٨٠) عضوا، وعن حركة الهجرة (١٨) مندوبا، وعن كتلة الطلبة (٢٠) ممثلا. ولقد جاء اشراك الشبيبة وحركة الهجرة والاتحاد العالمي للطلبة اليهود ومنظمة الطلبة الصهيونيين في الولايات المتحدة (على اساس التمثيل الجماعي لمؤسساتهم) منسجما مع الدعوة لتجديد بنية المؤتمر وتطعيمه بدماء شابة جديدة من جهة، ولتوسيع اطار المنظمة الصهيونية من جهة ثانية^(١٣٨). وكانت الدعوة لتكريس وتطوير هذه التغييرات التنظيمية قد وردت في سياق المعركة الايديولوجية - السياسية - التنظيمية التي تصاعدت طوال ايام المؤتمر بين «صهيونيين الداخل» و«صهيونيين الخارج».

ورغم ان معضلة الهجرة اليهودية (والصهيونية اليهودية) الى فلسطين احتلت موقع الصدارة في المعركة الايديولوجية - السياسية - التنظيمية بين التيارين الصهيونيين المتنازعين، كان واضحا ان الحديث حولها تحول الى مناسبة لنكء الجراح القديمة - الجديدة التي تعاني منها علاقة الفريقين بعضهما ببعض. كما اثبتت الكلمات الافتتاحية الرئيسية لمثلي التيارين المتصارعين استمرار «حوار الطرشان» بينهما نتيجة تباين نقاط الانطلاق، والتركيز لدى كل منهما، وبسبب رغبة كل فريق النيل من الفريق الآخر سياسيا وتنظيميا:

فرييس الدولة الصهيونية زلمان شازار، المتحدث الرئيسي باسم «صهيونيين الداخل»، لجأ في مجال تقويم دور المنظمة الصهيونية الى الكلمات الكبيرة الجميلة والعامية التي تحمل في ظاهرها امتداحا للمنظمة وتخبئ في حقيقة مضمونها نفساً لواحدة من أهم نقاط انطلاق «صهيونيين الخارج» حول حقيقة ما يعتقدون انهم يمثلونه. فشازار، بعد ان المح الى ان اسرائيل تعتبر «المنظمة» أباهما الذي يستحق الاحترام، وبعد ان «اعترف» بانها حققت قيام اسرائيل، استطرد في «مدحها» عبر الاشارة الى ان احد اكبر انجازين للمنظمة يتمثل في ان

«امانيها اصبحت متاثلة مع جميع - او معظم - اماني الشعب اليهودي في العالم»^(١٢٩). وهو في صياغته للمسألة على هذا لنحو انما يقرب المسألة رأساً على عقب بالنسبة للمنظمة التي طالما اكدت بأنها شكلت دوماً طليعة يهود العالم وانها هي التي صاغت وعيهم وجعلتهم يتبنون برامجها. ثم تابع شازار، في تحجيم واضح لقدرات وصلاحيات «المنظمة»، قائلاً: «لا نستطيع ان نطلب من مؤتمر صهيوني ما لا يستطيع عمله. القرارات السياسية لن تتخذ هنا، والانجازات سيحققها الشعب كله بمساعدة اولئك الممثلين في المؤتمر «وغير الممثلين فيه»^(١٤٠). وانهى شازار تقويمه لدور «المنظمة» بألفاظ «ايجابية» أخفت، مرة ثانية، مضمونها مختلفاً معاكساً في جوهره لوجهة نظر «صهيونيي الخارج». فلأن «دولة اسرائيل» ليست «مولوداً يولد مرة واحدة»، ولانها ما تزال «دولة في طور التكوين» - يؤكد شازار ان استمرار دور «المنظمة» امر مهم ومطلوب. ومثل هذا الطرح، لا بد أن يذكر «صهيونيي الخارج» بمقولة بن غوريون الشهيرة حول ضرورة انتهاء دور المنظمة وتلاشيها بعد قيام اسرائيل، كما يلغى مقولة «المنظمة» التي ترى ان مهمتها الرئيسية والدائمة ابدًا بعد قيام اسرائيل هي الحفاظ على «الهوية والوجود اليهودي» في العالم و «تقوية الاوضاع اليهودية» في الخارج.

وعلى صعيد مختلف، وبعد ان أشار الى التقصير في مجال «انتشار الثقافة اليهودية» و «توحيد قوة الامة» انتقل شازار الى الحديث عن النقطة المركزية في المفهوم الاسرائيلي للصهيونية: قضية الهجرة اليهودية الى فلسطين بعامة، وهجرة الكوادر الصهيونية بخاصة. وفي هذا المجال، لا تعوز شازار الكلمات المباشرة والقدرة الانتقادية للمنظمة الصهيونية:

«لقد توجهت دولة اسرائيل منذ تكوينها الى حل المشكلة اليهودية، وكلما حدثت كارثة في اماكن شتات اليهود، كانت ارض اسرائيل، حتى في طور بنائها، ملجأً للمصايين. وحري ان يتم ذلك الآن وبعد اقامة الدولة ... نحن في الدولة لا نكون الا خمس الشعب ... واكثرية شعبنا المقررة تعيش في بلاد غنية (العالم

الغربي)... ومن هؤلاء تصلنا الهجرة ببطء شديد... (وما جاء منهم) ميكروسكوبي بالنسبة، الى القوى الموجودة هنالك والى الحاجة اليها هنا... (وثمة) بداية لهجرة رأس المال (اليهودي العالمي الى اسرائيل دون) هجرة اصحاب رأس المال انفسهم. (وبدون) الهجرة لا يمكن انجاز الصهيونية. (ويجب ان لا نخاف) من تفرغ بلاد- المنشأ، لان النموذج الذي تسطره القيادات التي تهاجر (الى فلسطين) يضاعف عدد المنضوين تحت جناح الصهيونية. (ورغم ان) طرق الاستيعاب لا تزال بائسة (فان المشكلة الاساسية هي) في استعدادنا العقائدي والنفساني... وحسب مفاهيم قدماء اليهود لا يتم الغفران، للفرد او للمجموع، دون الاعتراف بالخطأ... انني اعلم انه من الصعوبة بمكان ان تقف حركة جماهيرية (كالحركة الصهيونية) وتتهم نفسها علناً... (ولكن لا بد من اعترافها بخطئها) من اجل الشفاء والعطاء. (ولانه) لا يوجد أحسن من هذا المؤتمر لحمل راية الهجرة والبعث القومي، فليرفعها (المؤتمر) عاليا بكل قوة، دون اعدار او تبريرات. لتبدي الحركة الصهيونية في هذا المؤتمر الاحتفالي، في القدس الموحدة، شجاعة حركية وجراءة يهودية ومسؤولية صهيونية للاعتراف بأخطائها حتى الآن، وللانطلاق بكل قوتها نحو المستقبل، بنفاذها من البطالة الفكرية والفراغ العقائدي وروتين التنظيم»^(١٤١).

ومن موقع مضاد، ردّ رئيس المنظمة الصهيونية الدكتور ناحوم غولدمان على كلمة الرئيس الاسرائيلي شازار ومؤيديه من «صهيونيين الداخل». ولقد جاء ردّ غولدمان شاملاً بحيث لم يترك قضية من القضايا التي اثرت إلا وتعرض لها. بل ان الدكتور غولدمان طرح قضايا اضافية طالما شكّلت أبرز مقولات «صهيونيين الخارج». وردا منه على مهاجميه، استعار غولدمان عبارة كان الزعيم الاشتراكي التمساوي فكتور ادلر قد قالها في الرد على خصومه، ومؤداها: «ان... الذين يهاجمونني لا يعرفون ماذا يريدون، ولكنهم يريدون ذلك بحماسة شديدة»^(١٤٢). كما ان اشارة الرئيس شازار الى اسبقية وعي اليهود (على الوعي الصهيوني) لم تمر ببساطة. وفي هذا المجال، حرص غولدمان على تعداد ما اعتبره «الانجازات»

الرئيسية الثلاثة التي حققتها المنظمة الصهيونية . وهذه «الانجازات» هي :

- ١ - جعل الشعب اليهودي يعي كونه شعبا واحدا رغم التشتت.
- ٢ - «علمنا الشعب اليهودي عدم الثقة باصدقائه وعدم الاعتماد عليهم اكثر من اللازم لينقذوه، وعدم الخوف ايضا من اعدائه الذين يستطيعون القضاء عليه . ثقفنا الشعب ليؤمن بان القول النهائي بشأن مصيره ومستقبله هو في يده».
- ٣ - «استطعنا ان نخلق الاداة الحاسمة لضمان كيان الشعب والدولة اليهودية» (١٤٣).

ولعل دلالات العبارات المستخدمة من نوع «علمنا الشعب» و «ثقفنا الشعب» و «استطعنا ان نخلق» كانت واضحة في التأكيد على «طليعية» المنظمة ازاء الشعب اليهودي الذي وضعه شازار - كما كان يفعل «صهيونيو الداخل» - في موقع من له الاولوية على «المنظمة» . بل اكثر من ذلك ، فقد أكد غولدمان على مقولة هامة من مقولات «صهيونيو الخارج» عندما اشار في حديثه عن «الانجاز» الثالث الى ان «المنظمة» هي «الاداة الحاسمة» ليس في الحفاظ على استمرارية الشعب اليهودي فحسب بل وعلى استمرارية اسرائيل كذلك .

وفي رده على شازار في موضوع الهجرة اليهودية (والصهيونية اليهودية) الى فلسطين ، ربط غولدمان موضوع الهجرة ربطا عضويا بموضوع السياسة الخارجية الاسرائيلية وموقفها ازاء الدول العربية . وحول هذا الموضوع ، ما فتى رئيس المنظمة الصهيونية - منذ مدة - ينتقد سياسة اسرائيل ويعبر في كل مناسبة عن قصر نظرها واعتمادها خطأ متعننا ضد «الجيران العرب» . ثم سارع غولدمان - بأسلوب يذكر بأسلوب التحريض الذي لجأ اليه انطونيو في اعقاب اغتيال يوليوس قيصر - الى تحميل اسرائيل مسؤولية الفشل في موضوع الهجرة . فبعد ان أكد غولدمان ان الحركة الصهيونية «هي حركة اليهودي الى ... ارض اسرائيل» وان

«الفكرة الصهيونية (لها عنصران) عنصر الأرض - البلد ... وعنصر الشعب الذي يريد العودة الى هذا البلد»، انتقل رئيس المنظمة الصهيونية الى موقع الهجوم قائلا انه بالنسبة للعنصر الاول « لا زلنا بعيدين عن الانجاز التام» لان منطقة الشرق الاوسط « التي نحن مضطرون الى العيش فيها غير مستعدة لقبولنا». لماذا؟ لانه رغم انتصارات اسرائيل العسكرية - استطرد غولدمان - « لم ننجح في قبولنا كأعضاء في اسرة شعوب المنطقة». ومن المسؤول عن ذلك؟ أجاب غولدمان على السؤال بقوله: « كيف يمكن تحقيق ذلك - فهذا أمر مرهون باسرائيل، وهذه هي مهمتها ... ان هذه المهمة موكولة الى دولة اسرائيل، وليس من شأن الحركة الصهيونية ان تقول للدولة كيف تقومين بها من اجل احراز السلام». غير انه بسبب كون مثل هذه الافكار غير مقبولة في اسرائيل - أكد غولدمان - فشل الجميع في مواجهة تحدي الهجرة. هذا كله من ناحية^(١٤٤).

ومن ناحية ثانية، اكمل الدكتور غولدمان تقويمه لمعضلة الهجرة عبر معالجة الجانب الثاني للفكرة الصهيونية: الشعب. وفي هذا المجال، « اعترف » غولدمان بان كون مجموع من استوطن فلسطين لا يشكل اكثر من (٢٠٪) من « الشعب اليهودي » أمر يستوجب مزيدا من « الانجاز ». غير انه سارع الى تقديم تفسيره لذلك الاخفاق موضحا ان السبب ليس ناجما عن تقصير « المنظمة » وانما عن حقيقة تاريخية لا بد من استيعابها. وباسلوبه « الانطونيوني » حمل غولدمان المسؤولية لاسرائيل قائلا:

« بعد اضمحلال المصادر الكبرى للهجرة الاضطرارية التي جاءت من البلاد الفقيرة ومن المعسكرات النازية، اثبتت مشكلة الهجرة الاختيارية - هجرة اليهود من الدول الغربية ... (غير انني) لم اجد حتى الآن من خلال دراستي للتاريخ أية مثل تدفع الاشخاص الى الهجرة والى تغيير كل ظروف حياتهم عن طريق ارادة حرة وليس من خلال اكراه نابغ من الاضطهاد. ان مثل هذه المثل موجودة، ولكنها قائمة على دوافع وتعبيرات دينية (لا تحرك الشباب اليهودي) الذي لا يعيش في جيتو. انه شباب متحرر، لا يشترك في الثورة فقط - بل يقوم فيها بدور

حاسم. وليس من قبيل الصدفة ان زعماء الحركة الثورية الثلاثية في فرنسا هم يهود... عدا (اليهودي الالماني) كوهن بنديت. (وان اردنا النجاح في الهجرة يجب) اولا وقبل كل شيء الاهتمام بالجيل الجديد... يتحتم علينا ايجاد لغة جديدة يفهمها هذا الشباب... اقصد عقلية جديدة... والفكرة القومية لا تعني شيئا للجزء الثوري من هذا الجيل... ويمكن احتمال جذب الجيل الجديد فقط اذا اضفنا الى الفكرة القومية مغزى انسانيا كبيرا. علينا انتهاج هذا الطريق ليفهمنا الجيل الناشئ ولتستطيع العقيدة الصهيونية منافسة جميع العقائد التي يخلص لها اليوم» (١٤٥).

ولذا كله، ولأن ممارسات اسرائيل وسياساتها لا تساعد في رسم صورة تشجع اليهود على الهجرة، ولأن «الحقائق» التي تم شرحها اعلاه غير مفهومة أو مقبولة من قبل اسرائيل بقيت - حسب ما يستنتجه غولدمان - مشكلة الهجرة دون حل جذري» (١٤٦).

ومن موقع الدفاع عن المنظمة الصهيونية العالمية، انبرى لويس آرييه بينكوس، رئيس اللجنة التنفيذية في القدس ليؤكد نقاطاً سابقة وليضيف اخرى. ولقد عكس دفاع بينكوس الحار عن «المنظمة» حرارة الاتهامات الموجهة اليها. ولذلك، نجده يبدأ كلمته بالاشارة الى ان «مصير الحركة (الصهيونية) يتعرض الآن حقا للموت او للحياة». فالجيل «الناشئ في اسرائيل» - الذي يعتقد بينكوس بحكم منصبه انه يعكس وجهة نظره - «أخذ يفهم اننا نحن الذين في اسرائيل جزء من الشعب (وليس الشعب كله) وان هناك واجبات وحقوقاً متبادلة (والتوكيد على كلمة متبادلة) وان هذا الامر ينبغي (ان لا يكون موضوعاً لفظياً اذ يجب) ان يكون له تعبير في حياتنا في اسرائيل». وعليه، فان «دولة اسرائيل بحاجة الى الحركة الصهيونية (التي) تأخذ على عاتقها مبادئ الشعب الواحد (اولاً) ومركزية اسرائيل (ثانياً)... وانني لأجرؤ على القول انه اذا اختفت الحركة الصهيونية، فلا شيء يستطيع ان يملأ الفراغ الذي ينتج عن اختفائها» (١٤٧).

وهنا انتقل بينكوس الى بيان الاهمية والتفوق النسبي الذي تتمتع به «المنظمة» بالمقارنة مع القوى اليهودية الاخرى. فبعد ان تخطى بينكوس دعوة شازار الخاصة بضرورة اعتراف «المنظمة» بأخطائها بالتصريح بانه «ليس هنالك اي سبب لعدم الاعتراف بمواطن الضعف في الحركة الصهيونية»، سارع الى الدفاع عن «المنظمة» قائلا: «ولكن اذا قابلنا الحركة الصهيونية بمنظمات يهودية اخرى، كنا المتفوقين... وهناك فرق بين المتعاطفين مع اسرائيل واصدقاء اسرائيل وبين حركة تحاول على الرغم من كل ضعفها ان تحقق هدفا واضحا». ثم ان «المنظمة» بحكم التزامها - هي الجهة الوحيدة التي تتحمل اسرائيل واتهاماتها: «وعلى رئيس الحكومة وسائر قادة اسرائيل ان يدركوا انه من الجائز هنا فقط وضع الاشخاص في قفص الاتهام ومطالبتهم بالالتزام بالهجرة». وما لبث بينكوس ان غادر خندق الدفاع الى «موقع» الهجوم. فاذا كانت «المنظمة» مقصرة، فان «الدولة» مقصرة ايضا. ذلك أنها «لم تعر الانتباه المطلوب لتثقيف المهاجرين من الدول الحرة وعضنهم». كما ان «المنظمة» لا تستطيع ان تنجح ان لم تقف «الدولة» الى جانبها «في جميع المجالات وفي جميع حقول نشاط الحكومة وقراراتها» (إذ أنه) «لا بديل للحركة الصهيونية في الحياة اليهودية في المنفى». ولتجاوز الثغرات ودفع العمل «من الواضح ان هناك طريقة واحدة (لا ثاني لها) وهي منح الحركة الصهيونية المزيد من الصلاحيات والمزيد من الهبة وتوثيق التعاون لانقاذ الحركة من ضعفها... كذلك نطلب الى قادة دولة اسرائيل، تبني جهد مشترك لكي نتغلب على العراقيل التي تعترض تقدم الحركة الصهيونية». وباختصار، فان ازدهار «المنظمة» ونجاحها «يتوقف علينا وعلى فهم قادة اسرائيل» (١٤٨).

وفي ختام كلمته، تقدم بينكوس بمجموعة اقتراحات أهمها جعل المنظمة الصهيونية غير قائمة على الاحزاب فقط، وتطعيمها بالقيم الاجتماعية واقامة اتحادات صهيونية في كل بلد، وخلق وكالة يهودية موسعة من جديد. ولعل الاقتراح الابرز تمثل في الدعوة التي وجهها بينكوس الى «المؤتمر» لتبني «حركة

الهجرة» التي باشرت «المنظمة» في تشكيلها منذ ان قررت «الادارة الصهيونية» تأسيسها قبل ستة اشهر. وقد حث بينكوس «المؤتمر» على اتخاذ ما يلزم من خطوات لكي تتكون «حركة الهجرة» من «اشخاص يلتزمون بالهجرة خلال فترة معقولة... بموجب تعهدهم الشخصي» شرط ان تقوم هذه «الحركة» على اساس مستقل «دون اي اعتبار او عنصر حزبي». وقد حرص بينكوس على ايضاح ان - نشاط «حركة الهجرة» لن يعفي «المنظمة» من مسؤولياتها، اذ ان مسألة الهجرة ستبقى دوما على رأس جدول اعمالها^(١٤٩).

وكما هو متوقع في مثل هذه الاجواء، احتدم النقاش في «المؤتمر» حول كثير من القضايا. غير ان الجدل انصبّ على مسألة «الهجرة اليهودية» و «الهجرة الصهيونية». وكان شازار قد ركز على هذين البعدين. وقد انضم اليه شمعون بيرز - وهو من مدرسة بن غوريون واحد خلفائه في قيادة حزب العمل الاسرائيلي. وقد استذكر بيرز في مداخلته مضمون رسالة بعثها أحد المطارنة الى كارديناله أيام الحروب الصليبية وقال فيها: «سيدي، لقد طلبت اليكم ان تبعثوا اليّ بامرائكم، لكنكم ارسلتم الي اموالكم»^(١٥٠). وكما ذكر البعض، تمحور النقاش لاحقا حول التهمة الموجهة لصهيونيين الخارج من ان جهودهم في مجال الهجرة تتلخص في معادلة مؤداها: «اليهود بلا نقود، والنقود بلا يهود»^(١٥١). ومن جهته يقول غولدمان بان العقدة المستحكمة ناجمة عن عدم ادراك صهيونيين الداخل الفارق الكبير بين موضوعين مختلفين هما «الهجرة الاضطرارية... والهجرة الاختيارية» وبخاصة ان «زمن صهيونية الكوارث قد مضى»^(١٥٢).

كما تركز نقاش «المؤتمر» حول «تطوير» برنامج القدس الصهيوني الصادر في مؤتمر العام ١٩٥١ والذي تجاوزته نتائج حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧. وفي هذا المجال، ونتيجة تعاظم الثقة الصهيونية بالذات انتهى المؤتمر الى تحديد «اهداف» الصهيونية وعدم الاكتفاء بالحديث عن «مهمات» الصهيونية. وقد عكست هذه النقلة تمردا ايدولوجيا - سياسيا واضحا تظهروه كلمات ومضامين «برنامج اورشليم» بعد ان اصبح اسم القدس - اثر حرب ١٩٦٧ - اورشليم:

«اهداف الصهيونية هي : وحدة الشعب اليهودي ومركزية ارض اسرائيل في حياته، جمع الشعب اليهودي في وطنه التاريخي عن طريق الهجرة من كل البقاع، تقوية دولة اسرائيل القائمة على مثل الانبياء في العدالة والسلام، المحافظة على هوية (او اصالة) الشعب اليهودي بتنمية التعليم اليهودي واللغة العبرية (بث) القيم الروحية والثقافية اليهودية»^(١٥٣).

وغني عن الذكر، ان التشدد الايديولوجي - السياسي في «برنامج اورشليم» يتجلى على نحو ساطع في تجاوز عبارة «تجميع المنفيين» في برنامج ١٩٥١ الى عبارة «تجميع الشعب اليهودي»، وفي استخدام تعابير من نوع «مركزية ارض اسرائيل» و «جمع الشعب اليهودي في وطنه التاريخي» وهي تعابير لها دلالاتها الواضحة^(١٥٤).

وعلاوة على هذه التغييرات، قرر «المؤتمر» تحويل المنظمة الصهيونية الى «حركة عامة» تفسح المجال امام اشراك الهيئات غير المنضوية تحت جناح اي من الاحزاب الصهيونية. كما ان «المؤتمر» خصص خمسة مقاعد لهذه الهيئات في «الادارة الصهيونية» (التي حلت محل رئاسة المنظمة) على اساس ان يتم اختيارهم بقرار من «الادارة» ورئاسة اللجنة الصهيونية. كما كرّس المؤتمر مسألة توسيع تمثيل الطلاب والشبيبة اليهودية. كذلك، اقر المؤتمر تثبيت «حركة الهجرة» على اسس غير حزبية على ان تتألف نواتها من المجموعات التي كانت قد تشكلت فعلا في عدد من البلدان الاوروبية وفي عدد من بلدان اميركة الجنوبية والشمالية. كما أضفى «المؤتمر» شرعية على قرار الحكومة الاسرائيلية (القاضي عمليا بسلب «المنظمة» واحدا من أهم ميادين نشاطها) الخاص بانشاء وزارة جديدة للاستيعاب^(١٥٥).

وعلى الصعيد التنظيمي، وفيما يبدو انه كان نتيجة للتضييق الايديولوجي - السياسي - التنظيمي الذي احاط به وربما بسبب خشيته من مصير يشبه مصير وايزمن عام ١٩٤٦، تخلى الدكتور غولدمان عن رئاسة المنظمة الصهيونية رافضا ترشيح نفسه من جديد. وقد قرر «المؤتمر» عندئذ تحويل رئيس اللجنة التنفيذية

والادارة الصهيونية تشكيل لجنة لانتخاب رئيس جديد للمنظمة . اما «اللجنة التنفيذية» فتقلص عددها من (٢٧) عضوا الى (١٢) على ان يرتفع الرقم الى (١٤) اذا ما عادت حركة مزراحي وجناحها العمالي ووافقت على الاشتراك . وقد تم تثبيت لويس بينكوس رئيسا للجنة التنفيذية الصهيونية في حين تناوب كل من شارلوت جاكوبسن وعمانويل نويمان رئاسة فرع نيويورك في اللجنة ذاتها . كما حل ايجود افريل محل يعقوب تسور في رئاسة المجلس الصهيوني العام الذي تشكل عندئذ من (١٣٠) عضوا انتخبوا لانفسهم «لجنة عمل دائمة» من (٢٠) عضوا^(١٥٦).

أما المعنى الرئيسي للمؤتمر الصهيوني للعام ١٩٦٨ ، وبالذات في نطاق الصراع الدائر بين «المنظمة الصهيونية» و «الدولة الصهيونية» ، فانه يتلخص في ان كفة هذه الاخيرة ، وفي عهد اشكول الذي اعتبره البعض «صديق» المنظمة^(١٥٧) ، رجحت على نحو ربما يكون أنهى - الى فترة طويلة - امكانية التوازن بينهما ناهيك عن امكانية رجحان كفة «المنظمة» . فلقد جاءت نتائج «المؤتمر» لتتوج «الدولة» سيدا وتكرّس «المنظمة» تابعا . ومبعث هذا الاستنتاج ليس لانه لم يتحقق اي من مطالب «المنظمة» فحسب ، بل ولأن «الدولة» نجحت في دفع «المؤتمر» الى اقرار برنامج للمنظمة تضمن معظم نقاط برنامج اسرائيل ، تماما مثلما نجحت هذه الاخيرة في جعل «المؤتمر» يرحب بقرارها الخاص بنهش صلاحيات جديدة من «المنظمة» في مجال استيعاب المهاجرين . هذا كله ، علاوة على سحب بساط «الشرعية الصهيونية» من تحت اقدام الدكتور غولدمان . لقد كان ذلك المؤتمر ، حقا نهاية لعهد وبداية لعهد جديد .

أما الفترة الفاصلة ما بين المؤتمر الصهيوني للعام ١٩٦٨ والمؤتمر الذي تلاه في العام ١٩٧٢ فقد تميزت بالهدوء النسبي في العلاقات الاسرائيلية - الصهيونية وبخاصة بعد ان وعى قياديو «صهيونية الخارج» الدرس المتمثل بابعاد كل قيادي صهيوني يسبح عكس التيار في «المنظمة» . ويبدو ان ابعاد كل من الدكتور وايزمن في العام ١٩٤٦ ، والدكتور غولدمان في العام ١٩٦٨ ، اريد به اصلا - ان

يكون عبء لمن يعتبر. ولعل «الانجاز» الاعظم لاسرائيل وللمنظمة الصهيونية، في هذه الفترة، تجلّى في الجهود القوية لاعادة تأسيس الوكالة اليهودية الموسعة كهيئة صهيونية «مستقلة». وفي هذا المجال، من الجدير بالمعرفة ان اول مرة يذكر فيها تعبير «الوكالة اليهودية» كان في الفقرة الرابعة من صك الانتداب عام ١٩٢٢. ومنذئذ، وحتى العام ١٩٢٩ - عام انشاء الوكالة اليهودية الموسعة الاولى نتيجة جهود الدكتور وايزمن بالذات - كانت المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية لفظا لجسم تنظيمي واحد. وعندما نجح وايزمن - عبر المؤتمر الصهيوني السادس عشر - في تأسيس «الوكالة اليهودية الموسعة» الاولى في العام ١٩٢٩ (رغم المعارضة الشديدة من «الصهيونيين التحريفيين») حرص على ان تكون «الوكالة» اداة طيعة في يد «المنظمة». وقد تم له ذلك بفضل مجموعة معقدة من القواعد التنظيمية ضمنت الاغلبية الفعلية في هيئات «الوكالة» القيادية للعناصر الصهيونية (رئيس المنظمة والوكالة واحد، اللجنة التنفيذية للوكالة هي عمليا بيد اعضاء اللجنة التنفيذية للمنظمة، الادوات المالية موحدة او مترابطة عضويا، ... الخ)^(١٥٨). غير انه مع استقالة وارنر سانتدر (العضو غير الصهيوني الاخير في اللجنة التنفيذية للوكالة في العام ١٩٤٧) وبخاصة عندما لم تعد تشعر «المنظمة» بأية حاجة للديكور «اليهودي» المتمثل في «الوكالة»، عاد الالتحام ما بين هاتين المؤسستين على النحو الذي كان عليه في الفترة ما بين ١٩٢٢-١٩٢٩. وهكذا، اصبحت «المنظمة» و «الوكالة» تعبيرين لمسمى واحد من جديد رغم ان الاشارة الى «المنظمة» كانت تعني مجموع النشاطات الصهيونية خارج اسرائيل في حين ان الاشارة الى «الوكالة» كانت تعني مجموع النشاطات الصهيونية داخل «الدولة الصهيونية». ومنذئذ، غدا التعبير المستخدم في الاشارة الى القيادة التنفيذية للمنظمة الصهيونية يتخذ شكل: اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية - الوكالة اليهودية او رئيس المنظمة الصهيونية - الوكالة اليهودية.

وقد بدأت الدعوة لاعادة تشكيل «الوكالة اليهودية الموسعة» على اساس «مستقل» شكليا في المؤتمر الصهيوني للعام ١٩٥٦ (الذي دعا الى وضع

دستور جديد للمنظمة) نتيجة الشعور بالحاجة الى مظلة شكلية اوسع تسمح، تكتيكيا، بربط القوى اليهودية غير الصهيونية بالمنظمة وتوظيفها في خدمة البرنامج الصهيوني. وبالفعل، تبنى المؤتمر الصهيوني للعام ١٩٦٠/١٩٦١ فكرة توسيع «المنظمة» بالسماح بعضوية أية هيئة يهودية تلتزم بالبرنامج الصهيوني دون اجبار اعضاء تلك الهيئات على ان يكونوا صهيونيين منظمين. وضمن الصراع بين «صهيونيين الداخل» و «صهيونيين الخارج» على كسب الجمعيات والجاليات اليهودية، تكرر الاقتراح ذاته في المؤتمر الصهيوني للعام ١٩٦٤. وفي المؤتمر الصهيوني للعام ١٩٦٨، ونتيجة ازدياد التعاطف اليهودي العالمي مع اسرائيل في اعقاب حرب ١٩٦٧، تقرر اعادة «فصل» الوكالة عن المنظمة. بل ان ذلك «المؤتمر» فوض اللجنة التنفيذية الصهيونية «بدء المفاوضات لاقامة علاقات وثيقة بين الادوات الخاصة بجمع التبرعات لاسرائيل كوحدات تابعة للوكالة. وفي آب/ اغسطس من العام ١٩٧٠، تم اقرار «الاتفاق على اعادة تشكيل الوكالة اليهودية» وجرى التوقيع عليه يوم ٢١ حزيران/ يونيو ١٩٧١. ومنذئذ، غدت الوكالة والمنظمة جسمين «منفصلين» و «مستقلين». وقد كان ذلك «الاستقلال» استقلالا شكليا على غرار ما حدث في العام ١٩٢٩. فربس ادارة المنظمة هو ذاته رئيس ادارة الوكالة. والمسؤول المالي واحد. والهيئات القيادية المختلفة تتألف على اساس المناصفة في العضوية بين المنظمة والوكالة علما بانه غالبا ما كان عدد من قيادات الوكالة المصنّفون على اساس انهم «غير صهيونيين» اكثر صهيونية، في الحقيقة والواقع، من الاعضاء الملتزمين تنظيميا بالمنظمة. ناهيك عن حقيقة كون العناصر القيادية الصهيونية المتفرغة للعمل الصهيوني موجودة دوما في كل الاجتماعات في حين كان بعض «الوجهاء» اليهود الاعضاء في الهيئات القيادية للوكالة أشبه ما يكونون بحملة الاختام ان حضروا تلك الاجتماعات، أو اشبه ما يكونون بشهود زور عندما يوافقون على قرارات لم يشاركوا في صنعها بسبب مشاغلهم التي حالت بينهم وبين حضور الاجتماعات^(١٥٩). ومن الجدير بالذكر في هذا المجال، ان «الوكالة اليهودية» كانت، بالنسبة لاسرائيل، اهم من «المنظمة الصهيونية». فالاولى اصبحت - حسب اتفاق ١٩٧١ والخاص بانشاء

الوكالة - تعالج شؤون جمع التبرعات (وبالذات بعد ضم الجباية اليهودية الموحدة في الولايات المتحدة وباقي منظمات الجباية في الدول الغربية المختلفة للوكالة) علاوة على شؤون الهجرة والاستيطان والتنظيم وغير ذلك، في حين كانت الثانية مسؤولة عن شؤون التمثيل والتربية والاعلام الصهيوني والثقافة^(١٦٠).

وفي الفترة ما بين ١٨-٢٨ كانون الثاني/يناير ١٩٧٢، انعقد المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون في جو يسيطر عليه التفاؤل الصهيوني. فلقد اجتمع المؤتمر في «القدس الموحدة» بمناسبة مرور (٧٥) عاما على مؤتمر بازل في العام ١٨٩٧^(١٦١). ومما اضاف «بهجة» زائدة على «المؤتمر» كونه يعقد في ظل علاقات مع اسرائيل لا يشوبها الا القليل من التوتر بعد ان كان المؤتمر السابق قد حسم الصراع لصالح الدولة الصهيونية^(١٦٢) وتخلص من الدكتور غولدمان الذي دعي في البداية لحضور المؤتمر ثم سحبت الدعوة الموجهة له لاحقا^(١٦٣). ولعل اكبر منابع «البهجة» في ذلك «المؤتمر» كون أرقام الهجرة في الفترة ما بين المؤتمرين، وبالذات من العالم الغربي، ارتفعت على نحو «لم يسبق له مثيل» (١٧٠ ألفا منهم ٤٥ ألفا من الغرب الرأسمالي)^(١٦٤).

شارك في اعمال المؤتمر (٥٥٩) مندوبا عين «المجلس الصهيوني في اسرائيل» عشرة منهم (انظر الملحق رقم ١٠). وفي حين خصص للحزب الاسرائيلية (١٩٠) ممثلا حسب نسبهم في الكنيسة، حضر (١٥٢) مندوبا عن صهيونيين الولايات المتحدة و (١٨٠) عضوا عن باقي دول الشتات^(١٦٥). وقد جرى انتخاب هؤلاء في معظم الاقطار بعد ان تم التخلي عن صيغة الاتفاقات الحزبية لتعيين المندوبين الى المؤتمر - كما في السابق^(١٦٦). وكان شرط الانتخابات الوحيد الموافقة على «برنامج اورشليم» المقرر في المؤتمر الصهيوني السابق ودون حاجة الى كون اليهودي صهيونيا منظما^(١٦٧). وقد بلغ عدد اعضاء المنظمة الصهيونية عندئذ (٨٩٨١٤٦) الفا من أصل (٨٢٨٩٤٥٠) يهوديا - حسب الاحصاء^(١٦٨) الذي اجرته «المنظمة» في البلدان المختلفة باستثناء يهود اسرائيل والاتحاد السوفياتي (انظر الملحق رقم ٨).

تركزت اعمال « المؤتمر » على المهمات الخاصة بالحركة الصهيونية في الشتات مثل الهجرة، والتعليم، ونشاط الشباب، علاوة على المشاكل الاجتماعية من نوع الفوارق الثقافية والاقتصادية بين الفئات المختلفة في اسرائيل ومشكلة الاسكان وغير ذلك^(١٦٩). واثناء المداولات المختلفة، برزت تعارضات خجولة بين « صهيوني الداخلى » و « صهيوني الخارج » دون ان تصل، في اية لحظة، الى مستوى الصراع الحاد الذي شهده المؤتمر السابق. فالمعركة بين الفريقين كانت محسومة منذ فترة لصالح اسرائيل^(١٧٠). ورغم ذلك، فكل هجوم اسرائيلى استهدف تمرير اقتراح يدعو القادة الصهيونيين للاستيطان في فلسطين بعد ان يكونوا قد خدموا دورتين في مناصبهم^(١٧١).

وقد تجلى خفوت حدة الصراع الايديولوجي - السياسي في « المؤتمر » في الكلمات الرئيسية التي استمع اليها المؤتمرين. فالرئيس الاسرائيلى زلمان شازار لم يضمن خطابه اية انتقادات للمنظمة. بل انه - ربما بسبب حسم المعركة لصالح اسرائيل منذ المؤتمر السابق، ونتيجة النشوة بارتفاع موجة الهجرة من الاتحاد السوفياتي، وبسبب نجاح « المنظمة » و « حركة الهجرة » في تحقيق زيادة ملحوظة في ارقام الهجرة من العالم الغربى - اختار الحديث عن انجازين للحركة الصهيونية: أولهما، « الميثاق الذي عقده الصهيونية مع منظمات يهودية كبرى ومع الجبايات اليهودية المركزية... الذي تم توقيعه في السنة الماضية في القدس »، وثانيهما « الاحصاء الفردي الذي اجرته الصهيونية في بلدانها المختلفة في كل مكان امكن اجراؤه ». ثم هلى شازار لموجة الهجرة الجديدة قائلا: « لقد فاجأتنا نعمة الهجرة، لا لأنها ستفوق جميع الهجرات التي سبقتها فحسب، بل بسبب شدة انطلاقتها. لقد تفجرت الهجرة ودمرت الحواجز »^(١٧٢). وفي كلمته القصيرة، تحدث تيدي كولىك، رئيس بلدية « القدس الموحدة »، عن تفاؤله بدخول اسرائيل في « عهد من الهجرة المتزايدة »^(١٧٣).

أما آرييه بنكوس، رئيس المؤتمر واللجنة التنفيذية الصهيونية فقد وجد - ربما بسبب نجاح جهود منظمته النسبي في موضوع الهجرة التي تحدث عنها (بحماس)

شديد وعاطفية أشد في بدء كلته - وجد بعض الجراء لينتقد اسرائيل باستحياء شديد. فقد تساءل بينكوس مثلا، عما اذا كانت اسرائيل قد حققت « جميع الاهداف التي وضعتها الصهيونية أمامها ». كما تحدث بنكوس عن كيف ان اسرائيل « تتوقع ... من الحركة الصهيونية والشعب اليهودي تماثلا غير متحفظ من موقفها. وتتوقع اسرائيل هذا من هيئات، وكذلك من قادة ... لا يوافقون في بعض الاحيان، بصدق، على الطريق الذي تسير فيه دولة اسرائيل » ثم حث بينكوس « المؤتمر » على إيجاد الحلول لمشاكل « الصهيوني الفتى الراديكالي ». واختتم رئيس اللجنة التنفيذية كلمته بتعداد ابرز ما حققته « المنظمة » في الفترة الفاصلة ما بين مؤتمر العام ١٩٦٨ ومؤتمر العام ١٩٧٢ على النحو التالي: جذب فتية اكثر الى الحركة الصهيونية، تأسيس « حركة الهجرة »، اقامة « الوكالة اليهودية الموسعة »، وتشكيل « المجلس الصهيوني في اسرائيل » للتعاون مع الجيل الجديد في الدولة الصهيونية^(١٧٤).

وقد أنهى « المؤتمر » اعماله بقرار سياسي متشدد أكد فيه « مركزية دولة اسرائيل في حياة الشعب اليهودي عامة، وفي حياة كل يهودي خاصة » تماما مثلما أكد « حق الشعب اليهود المطلق في ارض اسرائيل »^(١٧٥). كما اتخذ « المؤتمر » سلسلة قرارات تنظيمية اختار في احدها اللجنة التنفيذية الصهيونية التي انتخبت بدورها آرييه بنكوس رئيسا للادارة الصهيونية ورئيسا للادارة في الوكالة اليهودية وبذلك، اصبح بنكوس صاحب اعلى منصب في المنظمة والوكالة على حد سواء^(١٧٦). وهكذا - لأول مرة منذ قيام اسرائيل - يحتل المنصب الاعلى في « المنظمة الصهيونية العالمية » أحد « صهيونيين الداخل » بعد ان كان ذلك المنصب منذ العام ١٩٣٥ من نصيب الدكتور وايزمن والدكتور غولدمان اللذين لم يكونا لا من « صهيونيين اليسوف » قبل قيام الدولة الصهيونية ولا من « صهيونيين الداخل » بعد قيام اسرائيل. بل ان ذلك المنصب بقي، منذئذ، حكرا على « صهيونيين الداخل ». فعندما توفي بنكوس في العام ١٩٧٣، اصبح آرييه دولتين (من تجمع الليكود) رئيسا بالوكالة للادارتين الصهيونية واليهودية حتى انتخاب

بنحاس ساير في حزيران / يونيو ١٩٧٤ . وعندما توفي هذا الاخير في آب / اغسطس ١٩٧٥ ، عاد دولتين رئيسا بالوكالة حتى انتخاب يوسف الموجي في كانون الثاني / يناير ١٩٧٦ . وقد اصبح دولتين - للمرة الثالثة رئيسا بالوكالة بعد وفاة الموجي في العام ١٩٧٧ حيث تم تثبيته رئيسا اصيلا^(١٧٧) المؤتمر الصهيوني التاسع والعشرين في العام ١٩٧٨ (انظر الملحق رقم ٩) . وفي حين تولى يتسحاق نافون رئاسة اللجنة التنفيذية الصهيونية واللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية ولاحقا رئاسة المجلس الصهيوني العام^(١٧٨) ، تولى الزعيم الصهيوني الاميركي ماكس فيشر منصب رئيس مجلس امناء «الوكالة اليهودية الموسعة» ، واحتفظ موشيه لنداو بمنصبه كرئيس لمحكمة المؤتمر^(١٧٩) .

كانت الفترة الفاصلة ما بين المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين في العام ١٩٧٢ والمؤتمر التاسع والعشرين في العام ١٩٧٨ حافلة بالاحداث الخطيرة والتطورات الحاسمة ليس على صعيد علاقات اسرائيل بالدول العربية والعالمية فحسب ، بل على صعيد علاقات اسرائيل بالمنظمة الصهيونية ايضا . فمن جهة ، وقعت الحرب العربية - الاسرائيلية الرابعة في تشرين الثاني / اكتوبر ١٩٧٣ ، ودخلت الولايات المتحدة الاميركية المنطقة بقوة في اعقاب حظر النفط العربي وزيادة اسعاره اثناء الحرب وبالذات من خلال اتفاقات فضّ الاشتباك على الجبهتين المصرية والسورية في العامين ١٩٧٤ / ١٩٧٥ ، واشتعال نار الحرب الاهلية في لبنان في العام ١٩٧٥ وطوال السبعينات ، وزيادة الرئيس المصري لاسرائيل في نهاية العام ١٩٧٧ وتوصله - عبر الولايات المتحدة في قمة كامب ديفيد - الى اتفاق صلح ثنائي مع اسرائيل في العام ١٩٧٨ ، وغير ذلك من التطورات . ومن جهة ثانية ، كان نوعاً من المفارقة الغريبة ان ينخفض موقع «المنظمة الصهيونية العالمية» في علاقاتها مع الدول الصهيونية في وقت ارتفع فيه مستوى نشاطها وعطائها لاسرائيل . وفي هذا المجال ، قادت «المنظمة» مع انفجار العلاقات العربية - الاسرائيلية في حرب تشرين الثاني / اكتوبر ١٩٧٣ اضخم حملة طوارئ لدعم اسرائيل ماليا ومعنويا . فقد نجحت تلك الحملة في جمع مبلغ (٢٧٣) مليوناً دولار

للكيرن هايسود- النداء الاسرائيلي الموحد في الفترة ما بين ١/١٠/١٩٧٣- ٣١/٣/١٩٧٤ اي ما يعادل ضعف ما تم جمعه اثناء حملة الطوارئ الكبرى في حرب ١٩٦٧^(١٨٠). كما ان الخط البياني لارقام الهجرة الى اسرائيل استمر في الارتفاع (طوال العامين التاليين على الاقل) وعلى النحو الذي كان عليه في السنوات القليلة التي سبقت حرب ١٩٧٣. ومع ذلك، شهدت فترة ما بين المؤتمرات الصهيونيين (١٩٧٢-١٩٧٨) ازدياد درجة هامشية «المنظمة» في علاقاتها مع اسرائيل.

وتعود أسباب «الهامشية» هذه الى تبلور نتائج الهجوم الذي قاده «الدولة الصهيونية» بزعامة بن غوريون وانصاره وخلفائه ضد «المنظمة» طوال ثلاثين عاما. وقد أدت تلك المعركة بالتأكيد الى تردي مكانة وهيبة المنظمة الصهيونية كما تفاقمت حدة التردي نتيجة ظهور ادوات تنظيمية غير صهيونية (بالمعنى التنظيمي على الاقل) فاعلة ومؤيدة لاسرائيل منذ لحظة قيامها. ومن الامثلة على هذه الادوات النداء اليهودي الموحد، نادي الرؤساء في الولايات المتحدة، بناي بريث المؤتمر اليهودي العالمي وغير ذلك من المؤسسات والجمعيات اليهودية. وكانت اسرائيل، فيما يبدو، حريصة دوما على المبالغة في اظهار التقدير لهذه الادوات التنظيمية غير الصهيونية، تماما مثلما كانت حريصة على الاستهتار بالمنظمة الصهيونية وعدم الاكتراث بها^(١٨١).

وقد تجلت «هامشية» المنظمة الصهيونية في هذه الفترة بمجموعة مظاهر أهمها:

- ١ - استمرار واقع «المنظمة» التنظيمي كأقلية واضحة في اوساط يهود العالم اذ لم تتجاوز العضوية اليهودية في «المنظمة» حتى مؤتمر ١٩٧٢ نسبة ١٠٪ من المجموع اليهودي العالمي^(١٨٢).
- ٢ - استمرار تناقص نسبة المشتركين في الانتخابات للمؤتمر الصهيوني اذ بلغت نسبة من اقترح بالمقارنة مع من يحق لهم الاقتراع (٢٥٪) في

الولايات المتحدة و (٣٧٧٨٪) في فرنسا^(١٨٣). وعندما لم يدل باصواته سوى (٩٪) من يهود العالم الغربي للمؤتمر الصهيوني التاسع والعشرين، عزا بعضهم ذلك الى كون «المنظمة» لم تعد «حركة مقاتلة ومحقة»^(١٨٤).

٣ - استمرار وتسارع اختراق هيئات يهودية خارج المنظمة الصهيونية (طالما شكك الصهيونيون بقوة التزامها الاسرائيلي) للاطار التنظيمي للمنظمة مثل الاتحاد السفاردي العالمي، ومكابي، والمنظمة العالمية لليهودية التقدمية، والمجلس العالمي للكنس المحافظة، والحركة الاثوذكسية اليهودية^(١٨٥)، وغيرها من المنظمات المشار اليها في الملحق رقم ١١.

٤ - استمرار تطوير «المجلس الصهيوني في اسرائيل» المؤسس في العام ١٩٧١ لتنمية الوعي الصهيوني المتردي وروح التطوع المنخفضة بين يهود اسرائيل^(١٨٦).

٥ - استمرار الكنيست والحكومة الاسرائيلية في تجاهل «المنظمة» غير التغيب عن الجلسة المخصصة لمناقشة اوضاعها عشية انعقاد مؤتمر العام ١٩٧٨. بل ان «المنظمة» تعرضت لهجوم حاد من النفر القليل الذي حضر تلك الجلسة بسبب «تقصيرها» في مجالات الهجرة والاستيعاب وبت الثقافة اليهودية في الشتات^(١٨٧).

كما شهدت الفترة الفاصلة ما بين المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين والتاسع والعشرين تحركا باتجاه حل الخلاف الايديولوجي - السياسي القديم بين جناح «صهيوني الداخلي». وقد تميز التحرك، هذه المرة، بكونه لم يتم من على منبر من منابر «الحرب الباردة» الدائرة بين الجناحين وتحت الاضواء. ذلك ان الفريقين اتفقا، في ايلول / سبتمبر ١٩٧٤، على تشكيل «لجنة للتوضيح العقائدي» برئاسة شلومر ديرخ. غير ان هذه اللجنة أنهت مناقشاتها، مع نهاية العام ١٩٧٦، دون ان تحسم مسألة ما اذا كان على الصهيوني، كي يكون صهيونيا حقا، ان يهاجر الى فلسطين ويستقر فيها. وكالعادة، بقي الخلاف مستحكما بين

هيوني اسرائيل وصهيوني الولايات المتحدة الاميركية . وقد أصرّ الاخيريون على انه اذا كانت الهجرة واجبا مطلوبا على المستوى المثالي النظري فانها ليست شرطا لازما لتحقيق الذات صهيونيا . ومع ان صهيوني الولايات المتحدة اكدوا كذلك « مركزية اسرائيل » ، فانهم طالبوا بالتعاون ضمن إطار « المشاركة » ورفضوا اعتبار وجودهم في الشتات - واعتبار غيرهم لهم - على انه هامشي . كما ان صهيوني الولايات المتحدة لم يوافقوا على كونهم « امة » مرتبطة بوطن وانما تحدثوا عن « شعب » دون الارتباط بوطن واحد . وقد تم تقديم تقرير « اللجنة » في اجتماع « المجلس الصهيوني العام » المنعقد في حزيران / يونيو ١٩٧٧ ، أي في دورته الخامسة والاخيرة قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني التاسع والعشرين^(١٨٨) .

وفي الفترة ما بين ٢٢ / ٢ - ١ / ٣ / ١٩٧٨ ، انعقد المؤتمر الصهيوني التاسع والعشرون بحضور (٥٦٠) عضوا عاملا و (٧٥) مراقبا . وقد توزع اعضاؤه العاملون حسب النسب المقررة التالية : (٣٨ ٪) من اسرائيل ، (٢٩ ٪) من الولايات المتحدة ، و (٣٣ ٪) من باقي دول « الشتات » . وفي الوقت الذي جرى فيه اختيار المندوبين عن طريق الاقتراع المباشر في مكاتب الاتحادات الصهيونية المنتشرة في مناطق التجمع اليهودية ، وبالاقتراع البريدي كما في الولايات المتحدة مثلا ، تم اختيارهم حسب التمثيل النسبي للأحزاب بالكنيست في اسرائيل . وكان طبيعيا ومتوقعا ان ينعكس فوز « تكتل الليكود » في الانتخابات الاسرائيلية في العام ١٩٧٥ على انتخابات « المنظمة الصهيونية » خارج اسرائيل . وبالفعل ، فاز ذلك التكتل بحصة الاسد في حين خسر « تكتل المعراخ » كثيرا من مقاعده . ففي حين حصل الليكود على (٧٩) عضوا من اسرائيل و (١٨٥) مندوبا من خارجها ، حصل المعراخ على (٥٦) عضوا من اسرائيل و (٩١) مندوبا من خارجها^(١٨٩) . ولعل أبرز التغييرات في تركيبة المؤتمر ، عدا تغير نسب الاحزاب فيه ، كون (٦٠ ٪) من اعضائه يشاركون لأول مرة ، وكون نسبة تمثيل الشباب ارتفعت الى (٤٠ ٪)^(١٩٠) .

لقد خيمت على اجواء المؤتمر ثلاثة مشاكل اساسية ناجمة في معظمها عن تزايد الغربة عن المنظمة الصهيونية والاندماج في المجتمعات الغربية . وهذه المشاكل هي :

- ١ - انخفاض نسبة الزيادة الطبيعية بين الجاليات اليهودية .
- ٢ - تدني مستوى الثقافة اليهودية والصهيونية .
- ٣ - تزايد نسبة الزواج المختلط وبالذات في صفوف الشباب، وبين ابناء الحبل الثاني، ولا سيما حيث كان المستوى الثقافي ليهود الشتات مرتفعاً . وقد بلغت النسبة العامة للزواج المختلط (٤٥ ٪) بحيث قال البعض ان عدد اليهود «المفقودين بالزواج المختلط والانصهار يساوي عدد ضحايا النازية من اليهود اثناء الحرب الثانية»^(١٩١) .

كما خيم على المؤتمر بعض التوتر بسبب المشكلة القديمة - الجديدة المستحكمة والخاصة بوجوب، او عدم وجوب، هجرة الصهيونيين الى فلسطين . وحيث ان «لجنة التوضيح العقائدي» كانت قد فشلت في الوصول الى نتائج حاسمة في هذا المجال، وربما بسبب ذلك، اختار بعض ممثلي «صهيوني الداخل» طرح المسألة على المؤتمر . بل ان آرييه دولتين (من تكتل الليكود) الذي كان قد حمل بن غوريون مسؤولية اضعاف المنظمة عاد وطالب - بعد انتخابه رئيساً للادارتين الهيونية واليهودية - بضرورة هجرة كبار المسؤولين الصهيونيين الى فلسطين بعد انقضاء مدة محددة من عملهم في «المنظمة» . وفي ظل احتجاج شديدين صهيونيين الولايات المتحدة، توصل «المؤتمر السابق القاضي بالتوكيد المبدئي على ان «تحقيق الهجرة الى اسرائيل واجب على اعضاء الحركة الصهيونية العالمية» دون اي نص يلزمهم بانجاز ذلك فعلياً»^(١٩٢) .

وقد اختتم «المؤتمر» اعماله بانتخاب «المجلس الصهيوني العام» الجديد الذي انتخب بدوره يتسحاق براتس رئيساً للمجلس خلفاً لستحاق نافون الذي اصبح رئيساً لدولة اسرائيل . كما انتخب المؤتمر القاضي موشيه خيك رئيساً لمحكمة المؤتمر خلفاً للقاضي موشيه لينداو^(١٩٣) . وعندما فشل المؤتمر في الاتفاق على

المناصب داخل «اللجنة التنفيذية الصهيونية»، قرر المؤتمر تفويض «مجلس حكام الوكالة اليهودية» (الذي يضم في صفوفه اعضاء ليسوا في المؤتمر الصهيوني) بتولي مهمة توزيع الحقائق المختلفة على الاحزاب الاسرائيلية^(١٩٤). (انظر الملحق رقم ١٢ حول أحدث شكل تنظيمي للمنظمة الصهيونية العالمية).

وهكذا نرى ان المؤتمر الصهيوني التاسع والعشرين - وهو آخر مؤتمر تعقده المنظمة الصهيونية في السبعينات - قد كرس، لفترة غير قصيرة على الأرجح، خضوع المنظمة الصهيونية وتبعيتها لاسرائيل وهامشيتها بالنسبة لها. واذا كان عهد دافيد بن غوريون قد شكّل البداية الجديّة لتحويل «خالق» اسرائيل الى «عبد» لها، فان عهد مناحيم بيغن (وخليفة دولتين، رئيس الادارتين الصهيونية واليهودية المنحاز علنا ضد المنظمة التي يرئس) سيكون العهد الذي سيكمل صياغة وانجاز ذلك التحول - اللهم الا اذا وقعت معجزة... في عصر انتهت فيه المعجزات.

خاتمة

ارتباط المنظمة الصهيونية العالمية بإسرائيل يتجاوز التحالف . بل ان الدقة تقتضي الاشارة اليهما على أنهما جزءان متممان لبعضهما . فهما ، منذ البداية وفي النهاية ، تعتبران تنظيمات لجسم واحد هو « الحركة الصهيونية المعاصرة » . ورغم ان أحد المسؤولين الاسرائيليين اشار الى « المنظمة الصهيونية » على انها بمثابة الام او الاب لإسرائيل ، ومع ان أحد القياديين الصهيونيين اشار الى إسرائيل على انها بمثابة الابنة او الابن للمنظمة الصهيونية ، فان ما يجمع بينهما هو اكثر من علاقة الابناء بالآباء أو بالعكس . انه - مجدداً - اكثر من التحالف ، واكثر من التكامل ، ذلك انه نوع من « الوحدة العضوية » القائمة ما بين تعبيرين تنظيميين لجسم واحد هو « الحركة الصهيونية المعاصرة » . وتماثلاً مثلما تعبر نفسها ، احيانا ، بمختلف انواع « وحدة المتناقضات » أو « وحدة المتعارضات » او - ان شئت - بمختلف اشكال في الوحدة » او « التعارض في الوحدة » ، فان « الوحدة العضوية » القائمة بين المنظمة الصهيونية والدولة الصهيونية ، عبرت عن نفسها أحيانا بمختلف اشكال « التناقض » غير الصدامي او بالاحرى بمختلف انواع « التعارض » . وقد استهلك الحديث عن اشكال ذلك « التعارض » بين المنظمة الصهيونية وإسرائيل جزءا اساسيا من صفحات هذا البحث .

وقد أمكن تتبع جذور الخلاف ما بين المنظمة الصهيونية والدولة الصهيونية الى فترة ما قبل قيام إسرائيل . فالتعارض ، اذا ، قديم قدم نشوء « الدولة الصهيونية طور التكوين » مع مطلع الثلاثينات او قبل ذلك بقليل . وقد تمثل الخلاف في البداية المبكرة في تبارين يدعو الاول منهما الى « مركزية اليسوف » في حين يدعو الثاني الى « مركزية القيادة الصهيونية » في لندن . وهذه هي مرحلة التصارع ما بين دايفيد بن غوريون من جهة ، والدكتور حاييم وايزمن من جهة ثانية .

وفي المرحلة التالية ، اعرب الفريقان المتنافسان عن خلافاتهما ضمن اطار

«صهيوني الداخل» و «صهيوني الخارج». وفي حين تصارع الفريقان في البداية حول مسألة الهيمنة ولن يجب ان تكون، عاد الفريق الثاني - المنادي بمركزية الشتات - فقبل بمبدأ المساواة والمشاركة وطالب بهما بعد ان استطاع الفريق الاول - المنادي بمركزية اسرائيل - كسب الجولة الاولى وتكريس انتصاره في سلسلة اتفاقات رسمية قانونية كان اخرها في العام ١٩٥٤. وهذه هي مرحلة التصارع ما بين بن غوريون من جهة، والحاخام أبا هليل سيلفر الاميركي من جهة ثانية.

وفي المرحلة الثالثة، ومع صعود الدكتور ناحوم غولدمان الى رئاسة المنظمة الصهيونية، وازاء اصرار «صهيوني الداخل» على «مركزية اسرائيل»، اعترف «صهيونيو الخارج» بمركزية اسرائيل مع استمرار المطالبة بحقهم في المساهمة والمشاركة الحقيقية. وهذه هي مرحلة التصارع بين بن غوريون (حتى العام ١٩٦٣) وخليفته ليفي اشكول من جهة، والدكتور غولدمان من جهة ثانية.

وفي المرحلة الرابعة، تجاوز «صهيونيو الداخل» حدود «مركزية اسرائيل» وبدأوا بتطبيق «صهيوني الخارج» بالتشدد الايديولوجي - السياسي - التنظيمي عبر اقرار «برنامج اورشليم»، وباختراق «المنظمة الصهيونية» بالهيئات اليهودية غير الصهيونية، وبسلب صلاحيات اضافية من «المنظمة»، وتطبيق غولدمان ودفعه الى الاستقالة. وهنا، اكتفى «صهيونيو الخارج» - المعترفون بمركزية اسرائيل - بالموقع الثاني بل تمسكوا به محاولين الحفاظ عليه في وجه الدعم الاسرائيلي للهيئات اليهودية غير الصهيونية. بل انهم ناشدوا اسرائيل مد يد العون للمنظمة ومساعدتها على تجاوز ضعفها المتزايد او استرداد هيبتها المجروحة وتعزيز مكانتها المتردية. وهذه هي مرحلة التصارع بين الرئيس الاسرائيلي زلمان شازار (والحكومة الاسرائيلية بقيادة غولدا مائير) من جهة، وأرييه بينكوس رئيس الادارة الصهيونية حتى العام ١٩٧٣ من جهة ثانية.

ومنذئذ، ومرورا بالمؤتمر الصهيوني التاسع والعشرين للعام ١٩٧٨، وانتهاء بالوقت الراهن، خفت حدّة الصراع ما بين «صهيوني الداخل» و «صهيوني الخارج» الى حدود دنيا. ولقد كان ذلك بعد ان اعترف الاخيريون وقبلوا - حتى

الآن - بالخضوع وبالهامشية وبالتبعية لاسرائيل، وبالذات في عهد أرييه دولتين، المنتخب في العام ١٩٧٨ كرئيس مشترك للادارتين الصهيونية واليهودية.

وعلى صعيد مختلف، تَلَوَّت التعارضات ما بين «صهيوني الداخلي» و «صهيوني الخارج» في المراحل المختلفة بثتى الالوان الايديولوجية والسياسية والتنظيمية. بل ان تداخل هذه الالوان - في اغلب الاحيان - جعل لجميع التعارضات لونا أو حدا ضاعت فيه الفواصل بين ما هو ايديولوجي وما هو سياسي وما هو تنظيمي. وهكذا، جاء نسيج شبكة التعارضات الناشئة بين المنظمة والدولة الصهيونيتين من خيوط اسئلة ايديولوجية - سياسية - تنظيمية متداخلة من نوع: ما هي الصهيونية الحقة؟. من هو الصهيوني الملتزم؟. كيف يتم تحقيق الذات صهيونيا؟. ما هي الاهداف الاستراتيجية الصهيونية؟. كيف يتم الوصول اليها؟. ما الذي تعنيه اسرائيل كدولة؟. اين تقع الدولة من الشعب اليهودي ومنظماتها؟. اين يقع الشعب اليهودي وهيئاته من الدولة؟. ثم كيف يجب ان تكون عليه العلاقة ما بين الدولة والمنظمة الصهيونيتين؟

واذا كان البحث قد تعرض - في سياقه العام - لمتخلف الاجوبة على الاسئلة المطروحة اعلاه والتي كانت دوما في صلب التعارض الايديولوجي - السياسي - التنظيمي داخل الحركة الصهيونية، فانه لم يتعرض لاسئلة وقضايا جديدة (بمجرد قديمة احيانا) بدأ يطرحها الدكتور ناحوم غولدمان (الرئيس السابق للمنظمة الصهيونية العالمية ورئيس المؤتمر اليهودي العالمي) منذ رفضه الاستقالة من منصبه الاعلى في الحركة الصهيونية في العام ١٩٦٨. واذا كان الحافز في عدم التعرض لهذه الاسئلة والقضايا الجديدة هو الرغبة في حماية هذه الدراسة من الخروج عن اطارها الاصلي والخاص ببحث التعارضات داخل الحركة الصهيونية المنظمة والرسمية، فان هذه «الخاتمة» تشكّل فرصة مناسبة لرسم لوحة سريعة للخطوط العامة التي نعتقد ان الخلاف (الايديولوجي - السياسي - التنظيمي) «المستقبلي» سيتخذها ليس في الحركة الصهيونية الضيقة فحسب بل داخل الاطار الاوسع للوجود اليهودي العالمي ايضا. وفي هذا المجال، لا بد من تجاوز الادبيات المتراكمة

التي تعبر عن ابعاد هذا الخلاف في الاوساط اليهودية المعادية للصهيونية او غير الصهيونية لأن مضمون هذه الادبيات يستحق - من ناحية اولى - اكثر من دراسة منفصلة . وهو من ناحية ثانية، سيدفع هذه «الخاتمة» بعيدا عن موضوعها وعن ابرز الرموز البشرية للتعارض الذي أطنب البحث في استعراض مواقفها . ولذلك ، لا بأس من الاكتفاء بطرح عناوين هذه القضايا كما طرحها ويطرحها الدكتور غولدمان منذ اضطراره الى الاستقالة من رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية . وغني عن الذكر ، ان الدكتور غولدمان يطرح هذه القضايا بوحى من ايمانه الصهيوني ، ومن رغبته في ضمان استمرارية الكيان الصهيوني في فلسطين وضمن الوجود اليهودي خارجها . وتتخلص هذه القضايا في التالية :

اولا : دعوته المبكرة الى ضرورة التفاهم مع العرب . بل ان غولدمان الآن يعتقد ان مثل ذلك التفاهم اهم - في النهاية - من اي تفاهم قد تحققه اسرائيل مع اية قوى اخرى بما في ذلك الولايات المتحدة او الاتحاد السوفياتي او غيرها . ويعتبر غولدمان ، هذه الايام ، عدم تفاهم الحركة الصهيونية مع العرب بمثابة «الخطيئة (الاصلية) الاولى»^(١٩٥) .

ثانيا : الدعوة الى تغيير السياسة الاسرائيلية التي أصبحت - سواء وعت ذلك ام لم تعيه - تساهم في خلق «لا سامية جديدة» ضد الصهيونية واسرائيل (وليس بالضرورة ضد اليهود) وبالذات في الكتلة الاستراكية^(١٩٦) . لذلك نجد غولدمان مؤمنا بان القاعدة العريضة للجالية اليهودية في الاتحاد السوفياتي غير الراغبة في مغادرة ذلك البلد ستعاني نتيجة الحملة الاسرائيلية - الصهيونية ضد الدولة السوفياتية . وهو لا يعتقد بأن النجاح في تحقيق هجرة نفر قليل من يهود الاتحاد السوفياتي يبرر الاضرار التي ستلحق - دون ادنى شك عند غولدمان - بالجالية اليهودية هناك^(١٨٧) .

ثالثا : الدعوة الى تغيير السياسة الاسرائيلية تجاه العالم الغربي بشكل عام وتجاه الجاليات اليهودية فيه بشكل خاص . ويعتقد غولدمان بان «شهر العسل ما بين اسرائيل والعالم غير اليهودي قد وصل الى نهايته»^(١٩٨) ، وان النتائج السلبية

للسياسة الاسرائيلية ستنعكس على الجاليات اليهودية في البلدان المختلفة عندما وكلما تتعارض سياسات تلك البلدان مع الموقف الاسرائيلي . ولذلك يقف غولدمان ضد « اللوى اليهودي » الذي تحول - من وجهة نظره الحريصة على اسرائيل والوجود اليهودي - الى « قوة هدامة » و « عقبة كبرى للسلام في الشرق الاوسط » (١٩٩) .

رابعا : التذكير بان الخطر الاكبر الذي يواجه اسرائيل هذه الايام لا يتمثل بالسلح العربي وبالقدرة المالية العربية بقدر ما يتمثل في العزلة السياسية التي ستزداد من حول اسرائيل نتيجة الفقدان المتزايد لتأييد الرأي العام العالمي لها وبالذات لدى الامم التي طالما ايدتها (٢٠٠) .

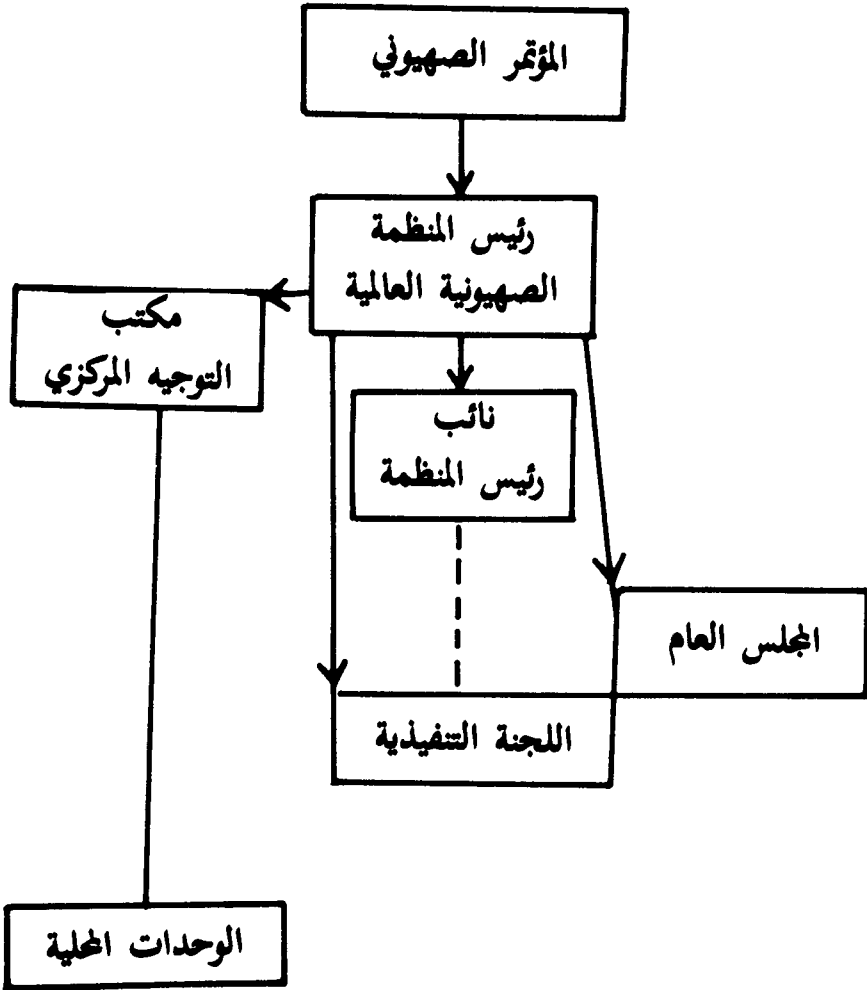
خامسا : الدعوة الى تحوّل اسرائيل الى « دولة محايدة » تمتنع عن اتخاذ موقف من القضايا الكبيرة او لعب اي دور من النزاعات العالمية بعد ان تقوم الدول الكبرى بضمان أمنها . « وعندئذ ، تصبح اسرائيل ما يجب ان تكون أكثر : « اي وطن قومي آمن ومحدد جغرافيا لاولئك اليهود الذين يرغبون في الاستيطان فيه ، ومركز ديني ثقافي وفكري لكل الشعب اليهودي » (٢٠١) .

سادسا : لا بد من الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، التي اثبتت مصداقيتها وشعبيتها لدى غالبية ابناء الشعب الفلسطيني والدول العربية ودعوتها - بالتالي - الى المشاركة في « مفاوضات السلام » (٢٠٢) .

وفي الختام ، سواء تبنّت « المنظمة الصهيونية العالمية » مواقف « رئيسها الاسبق غولدمان ام تجاهلتها ، ستبقى هذه « المنظمة » الخاضعة التابعة لاسرائيل واهامشية بالنسبة لها محكومة - ولفترة طويلة جداً على الارجح - لارادة الدولة الصهيونية وسياساتها . واذا كانت تقديرات غولدمان صحيحة - وبالذات تلك الخاصة بالاثّر السلبي لحركة المنظمة الصهيونية في مجتمعات الشرق والغرب على حد سواء - فلربما يصبح لتلك « المنظمة » ، باعتبارها اداة استعمارية عنصرية في يد دولة استعمارية عنصرية ، دور « ايجابي » من زاوية كون نشاطها الصهيوني الاستعماري العنصري هو بالذات حفار « قبرها المشترك » مع اسرائيل .

الملحق رقم (١)

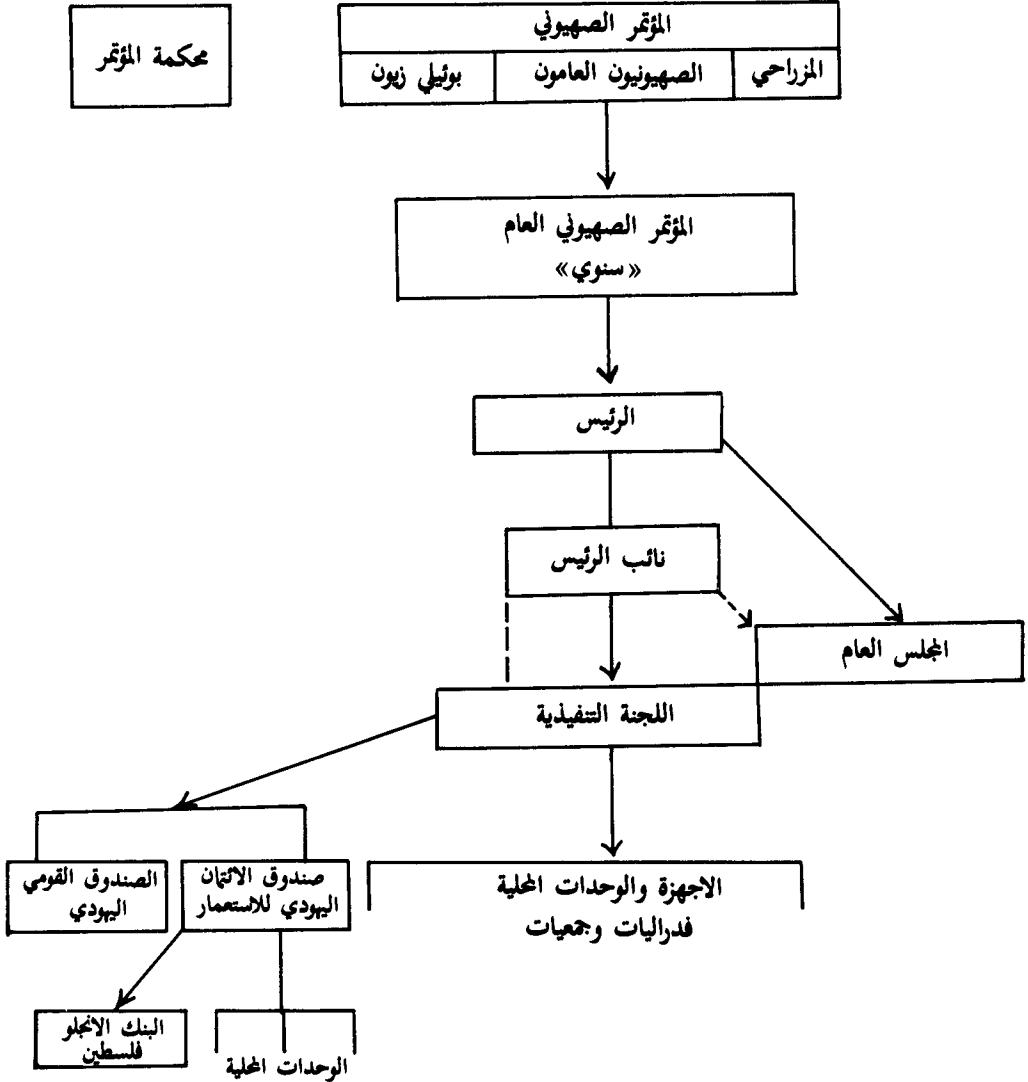
الشكل التنظيمي للمنظمة الصهيونية العالمية*
في العام ١٨٩٧



*المصدر:

أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية: تنظيمها واعمالها ١٨٩٧-١٩٤٨ (بيروت: مركز الابحاث، مركز الابحاث، ١٩٦٧) ص ٣٧.

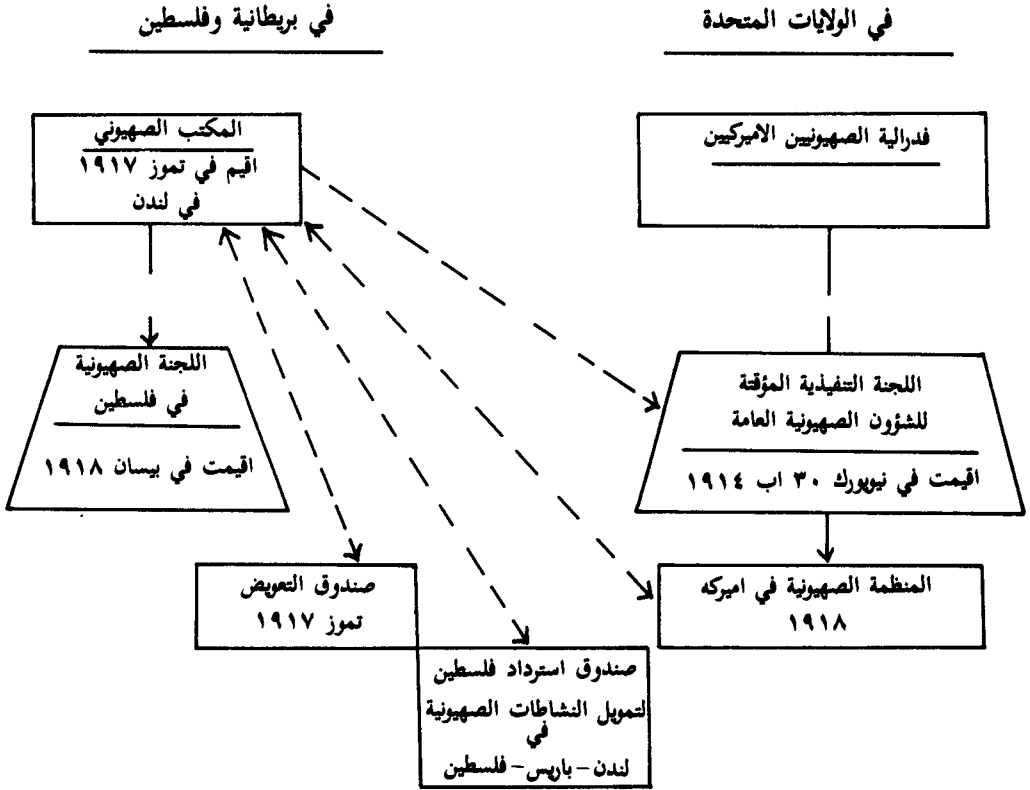
الملحق رقم (٢)
 الشكل التنظيمي للمنظمة الصهيونية العالمية*
 في العام ١٩٠٤



* المصدر:

أسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، ص ٤٤-٤٥ .

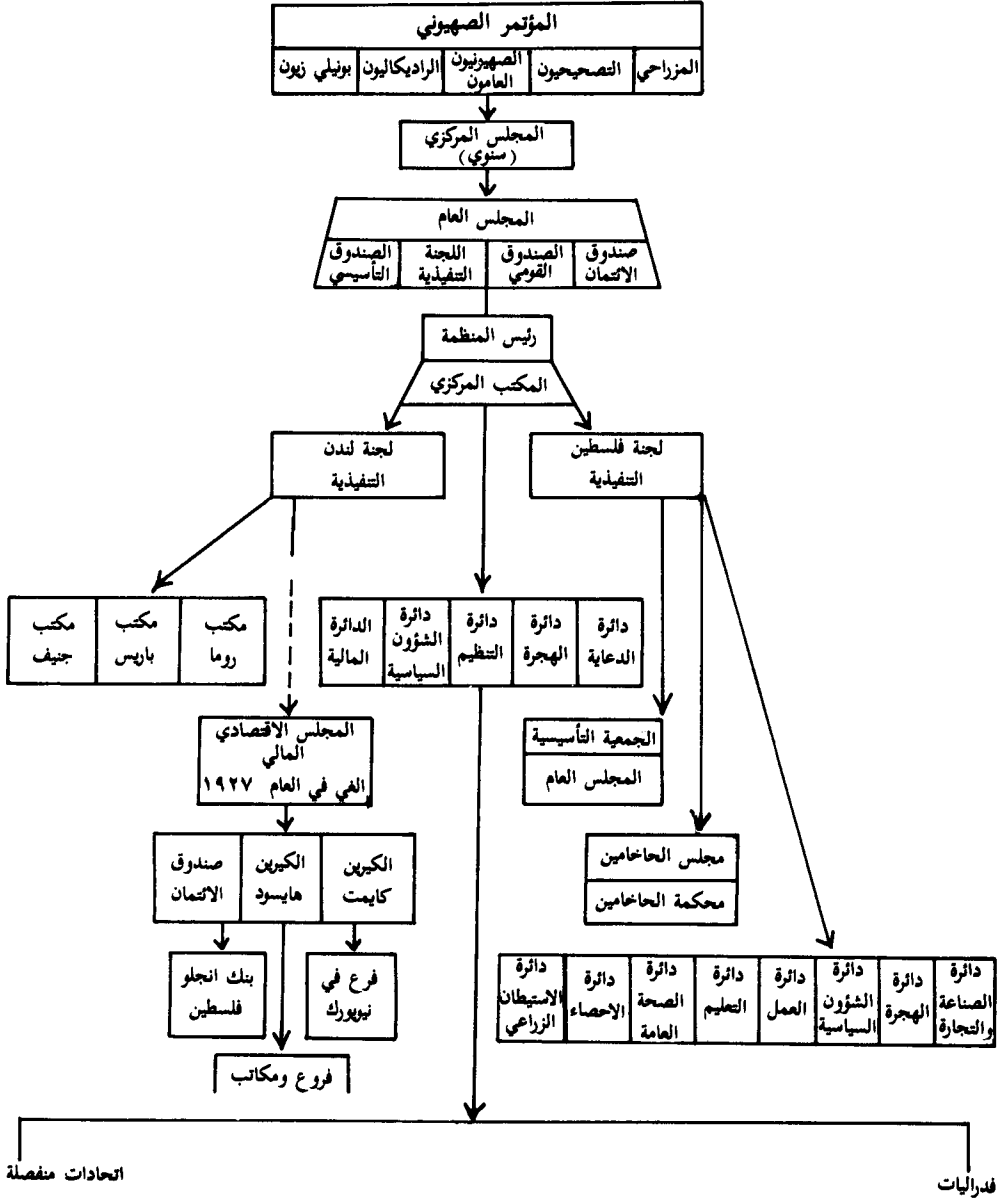
الملحق رقم (٣)
 الجهاز الصهيوني المؤقت اثناء الحرب*
 العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨)



*المصدر:

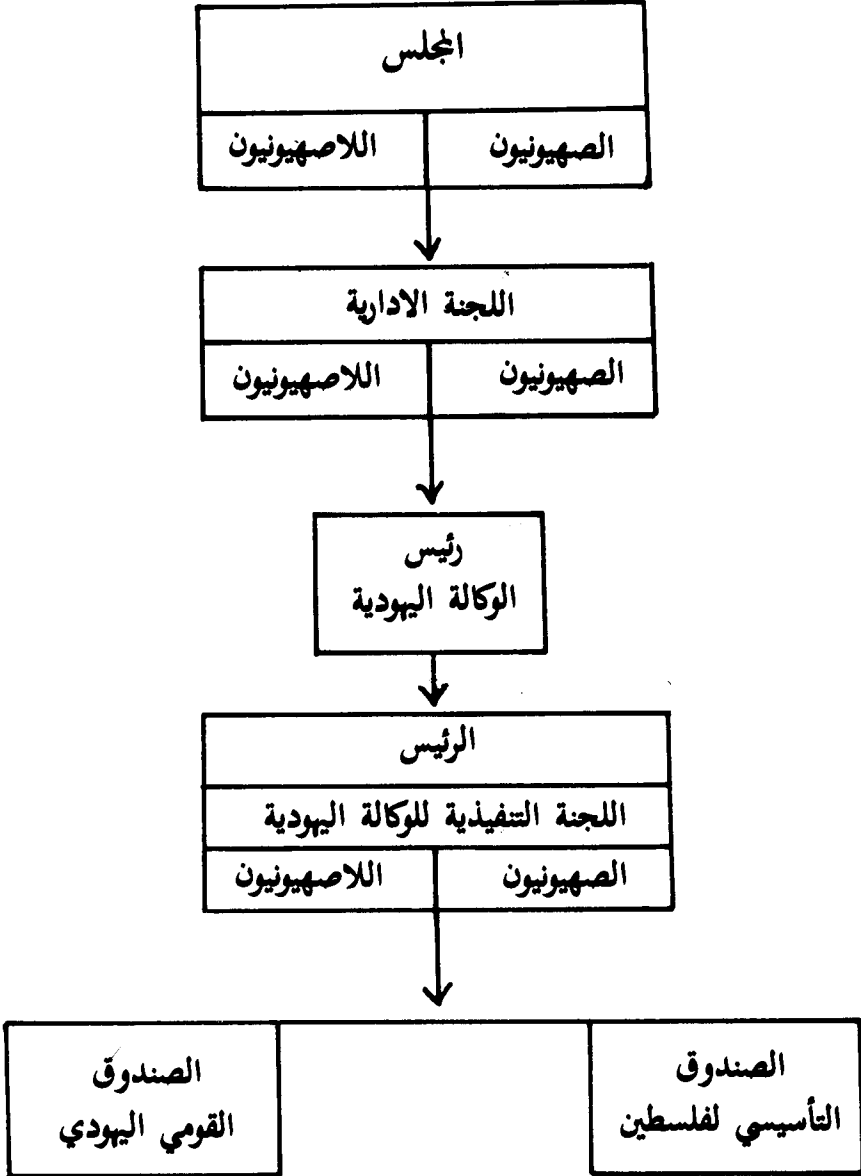
أسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، ص ٧٨-٧٩.

الملحق رقم (٤)
تركيب المنظمة الصهيونية العالمية
في العشرينات *



* المصدر: أسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، ص ٩٨-٩٩.

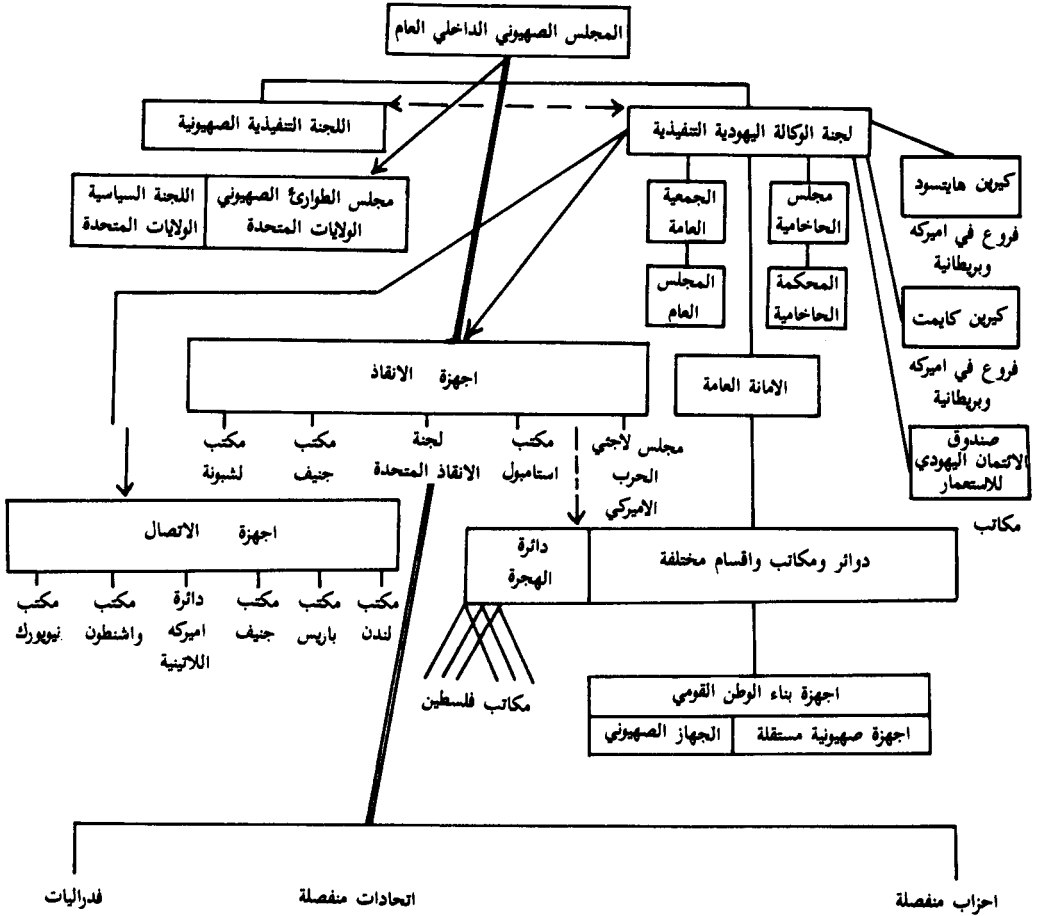
الملحق رقم (٥)
البناء الدستوري
للوكالة اليهودية الموسعة*



*المصدر:

أسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، ص ١١٠.

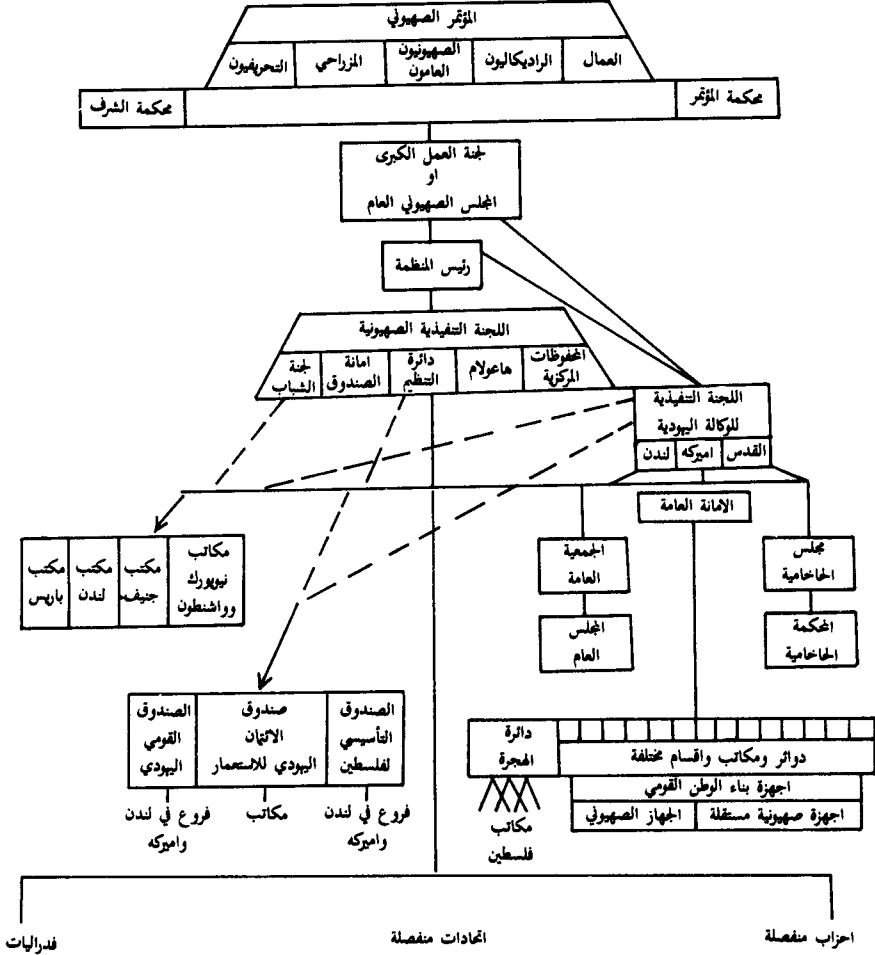
الملحق رقم (٦)
 تركيب المنظمة الصهيونية العالمية*
 خلال الحرب (١٩٣٩-١٩٤٥)



* المصدر:

أسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، ص ١٤٠-١٤١.

الملحق رقم (٧)
 تركيب المنظمة الصهيونية العالمية*
 ١٩٤٨



*المصدر:

أسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، ص ١٤٨-١٤٩.

الملحق رقم (٨)

أعداد دافعي الشيقل في بعض المؤتمرات الصهيونية*

المؤتمر	العام	العدد
الثامن	١٩٠٧	١٦٤ر٣٣٣
الحادي عشر	١٩١٣	٢١٧ر٢٣١-١٣٠ر٠٠٠
الثاني عشر	١٩٢١	٨٥٥ر٥٩٠-٧٧٠ر٠٠٠
السادس عشر	١٩٢٩	٣٩٣ر٢٢٠
الواحد والعشرون	١٩٣٩	١ر٤١٦ر٢٨٠-١ر٠٠٠ر٠٠٠
الثاني والعشرون	١٩٤٦	٢ر١٠٩ر٨٤٠-٢ر١٥٨ر٩١٠
الثامن والعشرون	١٩٧٢	٩٠٠ر٠٠٠-٨٩٨ر١٤١

*المصادر:

هذه المعلومات، المتباينة من مصدر الى آخر، مستقاة ومركبة من المراجع التالية: Contributors, Zionism (Jerusalem: Keter Publishing House Ltd., 1973), P. 130-Piled from *Encyclopaedia Judaica* كذلك من مصادر صهيونية متعددة موضحة في دراسة أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية (بيروت: مركز الابحاث، ١٩٦٧) الصفحات ٨٣-٨٤، ١٢٢، ١٤٢. ايضا من هاني عبد الله، المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون، شؤون فلسطينية (بيروت: العدد ٨، نيسان / ابريل ١٩٧٢) ص ٣١.

الملحق رقم (٩)

رؤساء المنظمة الصهيونية العالمية*

ملاحظات	الفترة	الرئيس
توفي هيرتسل في منتصف العام ١٩٠٤ تقريبا .	١٨٩٧-١٩٠٤	١- ثيودور هيرتسل
استقال احتجاجا على المعارضة المتنامية ضده من الصهيونيين العمليين .	١٩٠٥-١٩١١	٢- دافيد ولفسون
زعيم الصهيونيين العمليين .	١٩١١-١٩٢١	٣- اوتو وروبرغ
زعيم الامر الواقع طوال سنوات الحرب الكونية الاولى ثم استقال ١٩٣١ بسبب اتهامه بالاعتدال ومسايرة بريطانية .	١٩٢١-١٩٣١	٤- حايم وايزمن
حتى عادت المياه الى مجاريها بين وايزمن وبين غوريون .	١٩٣١-١٩٣٥	٥- ناحوم سكولوف
استقال احتجاجا على رفض المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين ١٩٤٦ المشاركة في مؤتمر لندن بين العرب اليهود . وقد بقيت المنظمة الصهيونية بدون رئيس طوال عشر سنوات .	١٩٣٥-١٩٤٦	٦- حايم وايزمن
استقال بعد ان انتصر تيار صهيوني الداخل . بقيت المنظمة بدون رئيس سوى رئيس اللجنة التنفيذية ثم الادارة الصهيونية لاحقا .	١٩٥٦-١٩٦٨	٧- ناحوم غولدمان
توفي في العام ١٩٧٣ ، وكان اصبح رئيس الادارة الصهيونية .	١٩٦٨-١٩٧٣	٨- آرييه بينكوس
رئيسا بالوكالة بعد وفاة بينكوس وحتى انتخاب رئيس جديد .	١٩٧٣-١٩٧٤	٩- آرييه دولفسين

١٠- بنحاس ساير	١٩٧٥-١٩٧٤	توفي في العام ١٩٧٥ .
١١- آرييه دولستين	١٩٧٦-١٩٧٥	بالوكالة بعد وفاة ساير .
١٢- يوسف الموجي	١٩٧٧-١٩٧٦	توفي ١٩٧٧ .
١٣- آرييه دولستين	١٩٧٨-١٩٧٧	بالوكالة حتى انتخابه في المؤتمر ٢٩ رئيسا .
١٤- آرييه دولستين	١٩٧٨	ما يزال رئيسا للادارة الصهيونية والادارة اليهودية .

* المصادر :

هذه المعلومات مستقاة ومركبة من المراجع التالية :

Contributors, Zionism (Jerusalem: Keter Publishing House Ltd.,) P. 131

وهذه الدراسة أصلا منتقاة من ال **Encyclopedia Judaica** كذلك في مها بسطامي، المؤتمر الصهيوني التاسع والعشرون: عرض لبحوثه ومقرراته ١٩٧٨ (بيروت مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٨) ١٢-٢٠، ٣٦، ١٢٠، و ١٢٢ .

الملحق رقم (١٠)

اعداد المشتركين في المؤتمرات الصهيونية بعد قيام اسرائيل*

المؤتمر	العام	العدد
١ الثالث والعشرون	١٩٥١	٥٤٢
٢ الرابع والعشرون	١٩٥٦	٦٠٨
٣ الخامس والعشرون	١٩٦٠-١٩٦١	٦٧٤
٤ السادس والعشرون	١٩٦٤-١٩٦٥	٧٩٨
٥ السابع والعشرون	١٩٦٨	٧٨٨
٦ الثامن والعشرون	١٩٧٢	٥٥٩
٧ التاسع والعشرون	١٩٧٨	٦٣٥

المصادر:

هذه المعلومات مستقاة ومركبة من المراجع التالية:

مجموعة منحررين، الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٨ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧١) الصفحات ٣١٠-٣١١. كذلك من: مها بسطامي، المصدر السابق، ص ٤١. كذلك من: المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون ١٩٦٨ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧١) الصفحة ٣٦٦. لم يكن لجميع المشتركين عضوية عاملة اي ان لهم حق الترشيح والتصويت.

الملحق رقم (١١)

جدول بالهيئات اليهودية خارج المنظمة الصهيونية العالمية*

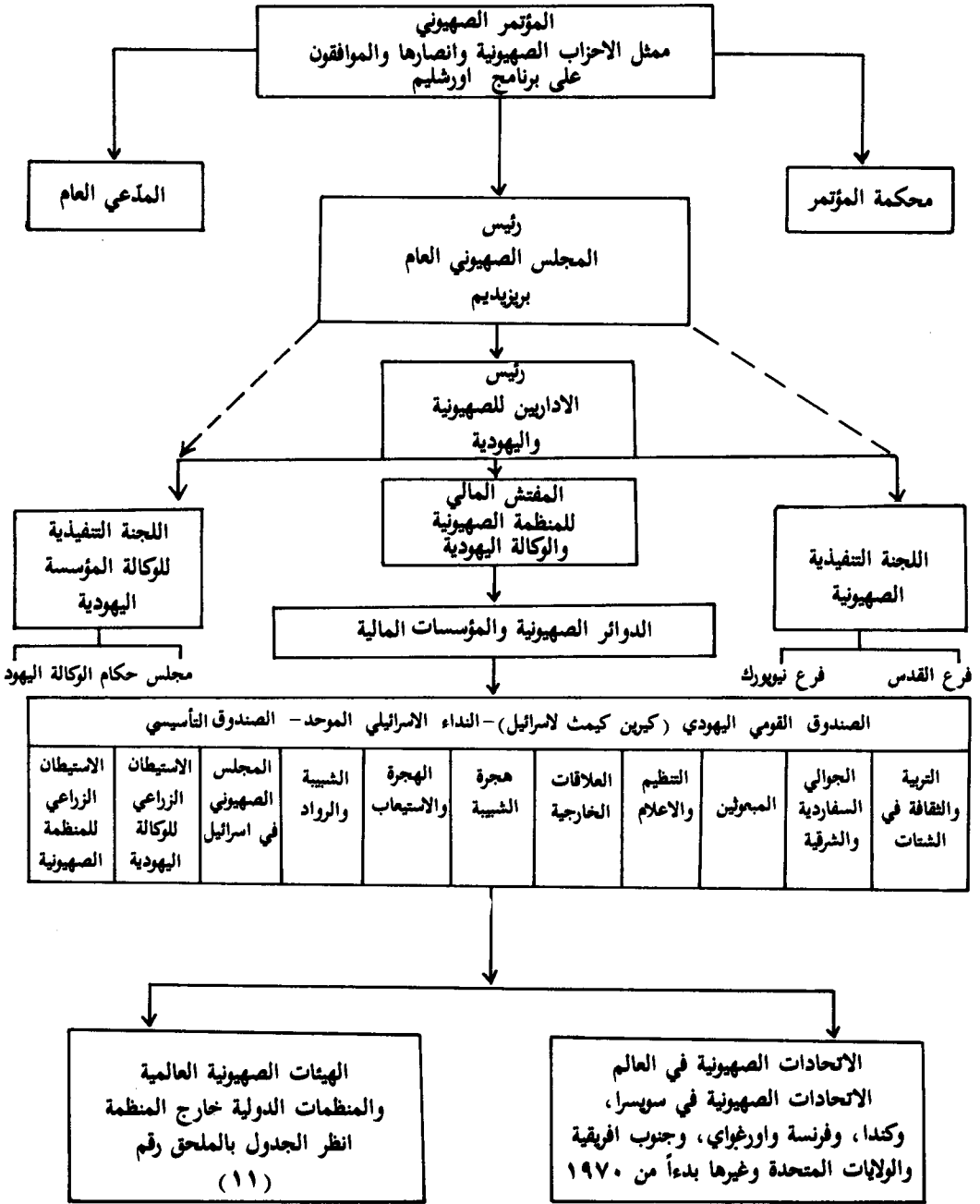
اسم الهيئة	ملاحظات
١ اتحاد مكابي العالمي	هيئة رياضية تثقيفية .
٢ منظمة مزراجي - هاروبعيل همزراجي العالمية	الصهيونيون المتدينون
٣ المنظمة العالمية الصهيونية للنساء	ومعروفة باسمها المختصر ويزو : وهي من الخبر القوي .
٤ الكونفدرالية العالمية الصهيونيين المتحدين (العموميين سابقا)	الخبر تجمع لا حزبي خارج اسرائيل
٥ المجلس العالمي للكنس	انضم الى المنظمة الصهيونية في العام ١٩٧٧
٦ اللجنة التنفيذية العالمية لحركة حيروت - هاتسوهر	انصار الحركة التصحيحية
٧ حركة العمل الصهيونية العالمية	انصار حزب العمل
٨ الاتحاد السفاردي العالمي	انضم الى المنظمة الصهيونية في العام ١٩٧٢
٩ الاتحاد العالمي لليهودية	انضم الى المنظمة الصهيونية في العام ١٩٧٦
١٠ الاتحاد العالمي الصهيونيين العموميين	رئيسة آرية دولتسين ، رئيس الاداريين الصهيونيين واليهودية منذ عام ١٩٧٨
١١ الاتحاد العالمي لحزب العمال المتحدين	انصار حزب مبام

المصدر :

المعلومات مستقاة من الصفحات المختلفة في :
 مها بسطامي ، المؤتمر الصهيوني التاسع والعشرون ج : عرض لبحوثه ومقرراته ١٩٧٨ (بيروت :
 مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٨)

الملحق رقم (١٢)

المنظمة الصهيونية العالمية في العام ١٩٧٨*



الحواشي

- ١ - من المؤكد أن اهم الجهود في ميدان الترجمة والتحليل تكاد تقتصر على جهود كل من مؤسسة الدراسات الفلسطينية ومركز الابحاث في بيروت . وسيم تفصيل ذلك ، بالمصادر المحددة في الحواشي المختلفة في سياق توثيق هذه الدراسة . أما أبرز جهود مؤسسة الدراسات فقد عبرت عن نفسها في ترجمة بعض المؤتمرات الصهيونية وفي بعض منشورات سلسلة الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية في بعض الاعوام . ومن المؤسف ان يضطر « المؤسسة » الى تجميد هذه الجهود بسبب الصعوبات المالية وفي حقبة لم يكن فيها العرب - على امتداد تاريخهم المعاصر - أكثر غنى من الناحية المالية . اما ابرز جهود مركز الابحاث فتمثلت في المقالات المتخصصة التي جرى نشرها في مجلة « شؤون فلسطينية » .
- ٢ - منعاً لرتابة تكرار كلمة « تعارض » في وصف الخلاف بين المنظمة الصهيونية واسرائيل في المراحل المختلفة ، جرى استعمال عبارات من نوع « صراع » و « تصارع » و « تنافس » و « تناقض » . وتجدد الاشارة هنا الى ان المقصود في جميع هذه الحالات هو « التعارض » أي الخلاف الذي لا يصل في حدته الى درجة « التصارع » أو « التناقض » ذلك ان علاقات التحالف بين المنظمة واسرائيل هي وكما تثبت هذه الدراسات العلاقات الجوهرية والغالبة ، وبما لا يقارن ، بينهما .
- ٣ - حول هذا ، انظر :
Herbert Parzen, *A Short History of Zionism* (New York: Herzl Press, 1962) pp. 25-26.
كذلك : اسعد عبد الرحمن ، *المنظمة الصهيونية العالمية - تنظيمها واعمالها ١٨٩٧-١٩٤٨* ، (بيروت : مركز الابحاث ، ١٩٦٧) الصفحات ٢٢-٢٤ .
- ٤ - حسبما وردني :
- ٥ - كما جاء في :
The Jewish Agency for Palestine, *The Jewish Case Before the Anglo American Committee of Inquiry on Palestine* (Jerusalem: The Jewish Agency for Palestine, 1947), p. 279.
- ٦ - النص مأخوذ اصلاً من :
Israel Cohen, *A Short History of Zionism* (London: Frederick Muller, 1951), p. 45.
- ٧ - وكما ورد في دراسة أسعد عبد الرحمن ، المصدر السابق ، الصفحات ٢٦-٢٧ .
كذلك :
Nahu: Sokolow, *History of Zionism: 1600-1918*, Vol. 1 (London: Longmans Green, 1919) p. 269.
كذلك :
Cohen, op. cit., p. 47

وحول الاجهزة المركزية وتفاصيل صلاحياتها ، انظر المراجع التالية :

Alex Bein, Theodore Herzl: A Biography (Philadelphia: the Jewish Publication Society of America, (1940), p. 480; and in Raphael Patai (ed) Herzl Year Book: Essays in Zionist History and thought, Vol. VI (New York: Herzl Press, (1964/1965), p. 190.

وهذه الاجهزة ووظائفها موضحة كذلك في دراسة أسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، الصفحات ٣٣-٣٥.

٨ - النص مقتبس من:

Bein, op. cit. p. 240

٩ - حول نمو تنظيم الحركة الصهيونية، انظر المراجع التالية:

Israel Cohen, Theodore Herzl: Founder of Political Zionism (New York Thomas Yoseloff, (1954), pp. 168-169, 173, 213, 228, 264; and 324.

مع توضيحات اضافية في كتاب أسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، الصفحات ٣٦-٤٠.

١٠ - هذا النص ورد في:

Cohen, Theodore Herzl, p. 255

١١ - وحول تفاصيل اكثر عن نمو الجهاز المالي في المنظمة الصهيونية، راجع:

Bein, op. cit. pp. 252, 267-268, 270, 326-327, and 375; and Cohen, Theodore Herzl, pp. 157, 255 and 324.

كذلك في دراسة أسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، ٤٠-٤٣.

١٢ - حول جهود الدبلوماسية - السياسية ونتائجها المتنوعة، انظر المراجع التالية:

Bein, op. cit., pp. 277, 280, 296, 336, 352, 380, 383, 393, 412-5, 419, and 444; Cohen, Theodore Herzl, pp. 178-179, 220 and 287; Jochen, Short History, pp. 49 and 54; Sokolow, op. cit., p. 296; and Marvin Lowenthal (ed), The Diaries of Theodore Herzl (New York: The Dial Press, 1956) pp. 286, 332, 391 and 466.

كما ان هذه الجهود وتقويمها مفصل في دراسة أسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، الصفحات ٤٣-٥٢.

١٣ - حول المشاكل الداخلية ومواقف الاطراف المختلفة داخل المنظمة الصهيونية، راجع المصادر التالية:

Bein, op. cit., pp. 74, 192, 247, 270, 325, 345, 372-5, 463, 474, 479, 482-3, 488, and 497-8; Cohen, Theodore Herzl, pp. 220 and 339; Patai (ed), op. cit., pp. 186-8, and 190; Alan R. Taylor, Prelude to Israel: An Analysis of Zionist Diplomacy (London: Darton longman and Todd, 1959), p. 8; Barnet Litvinoff, To the House of their Fathers: A History of Zionism (New York: Frederick A. Praeger, 1965), pp. 11 and 96; and Raphael Patai (ed), Herzl year Book, Vol. I (New York: Herzl Press, 1958), p. 301.

ومن اجل شرح موجز ومكثف لمواقف المعارضة الداخلية، انظر: أسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، الصفحات ٥٢-٦٦.

١٤ - هذه التطورات الرئيسية الثلاثة التي شهدتها المنظمة الصهيونية في الفترة ما بين وفاة هرتسل في العام ١٩٠٤ واندلاع نار الحرب الكونية الاولى في العام ١٩١٤ مستندة الى المصادر التالية:

Parzen, op. cit., pp. 38 and 42; Cohen, Short History, p. 25 Adolf Bohm, The Jewish National Fund. (The Hague: The Head office of the Jewish National Fund, N.M.) pp. 29, 35, 40, 44, and 46-52; Esco Foundation for Palestine, Palestine; A study of Jewish, Art, and British Policies (New Haven: Yale University Press, 1947, Vol. I), p. 343; and M.I. Bodenheimer, Prelude to Israel: Memoirs of M.I. Bodenheimer, trans. Israel Cohen, ed. Henriette Bodenheimer (New York: Thomas Yoseioff, 1963)

ومن اجل عرض مكثف لهذه التطورات بالعربية، انظر دراسة أسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، الصفحات ٦٧-٧١.

١٥- نص البرنامج الصهيوني اثناء الحرب الاولى مستقى من دراسة Taulor, opcit, p. 12 أما آثار الحرب على المنظمة الصهيونية فهي مستنبطة من المصادر التالية:

Cohen, Short History, pp. 68 and 78; Parzen, op. cit., p. 53, Chaim Weizman, Trial and Error: The Autobiography of Chaim Weizman (New York: Harper and Brothers, 1949), pp. 68, 165 and 183-4; Don Peretz, The Middle East Today (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1963), p. 251.

كذلك، انظر دراسة أسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، الصفحات ٧١-٧٤.

١٦- حول النشاط المشترك مع المركز الجديد في الولايات المتحدة، راجع:

Taylor, op. cit, pp. 13-15; Cohen, Short History, pp. 84 and 87. Parzen, op. cit, pp. 54-56 and 62d, and J.M.N. Jeffries, Palestine: The Redity (London: Longmans, Ereen and Co., 1939), p. 221.

ايضا، كتاب اسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، الصفحات ٧٤-٧٦.

١٧- حول السنوات الثلاث التي اعقبت الحرب الاولى وتفاصيل تنظيم ونشاط المنظمة الصهيونية، راجع المصادر التالية:

Jeffries, op. cit, pp. 9-10 and; Taylor, op. cit. p. 38; Cohen, Short History, pp. 86-87 and in Elmer Berger, «Disenchament of a Zionist». Middle East Foruur Beirut: XXXVIII, April 1962), pp. 23-25.

وكذلك دراسة أسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، الصفحات ٧٦-٨٣.

١٨- انظر

Cohen, Short History, pp. 89-91.

١٩- حول فكرة وتطور وتنظيم الوكالة اليهودية ووقوعها فريسة بيد المنظمة الصهيونية، راجع المصادر التالية:

Weizman, op. cit. pp. 304, 307-14, 376, 378, 380-2; Cohen, Short History, pp. 125-6, Taylor, op. cit. pp. 8 and 46, the Jewish Ajency for Palestine, op. cit., p. 333; J.C. Hurewitz Diplomacy in the Near and Middle East: A Documentary Recor- 1914-1956 m, Vol. II (New York: D. Van Nostrand Compancy, 1958) pp. 235, Palestine Royal Commission, Reports Submitted by the Secretary of His Majesty; July 1937 (London His Majestu's Stationary office, 1946), p. 126; The Jewish Agency for Palestine Constitution of the Jewish Agency for Palestine, 1929), pp. 4-11; Moses Lasky, Between Truth and Repose (San Francisco: American Council for Judaism, 1956, pp. 13-14 and 41, and finally S. Haperin, the Political world of American Zionism (Detroit Wayne State University Press 1961, p. 192-4.

وبالعربية، راجع دراسة أسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، الصفحات، ١١-١٢.

٢٠- حول نمو المنظمة الصهيونية في هذه الفترة وانشقاق التصحيحين، انظر:

Cohen, Short History, pp. 262 and 137 respectively.

- ٢١- راجع هذه النصوص في :
- ٢٢- لمزيد من المعلومات عن المنظمة الصهيونية اثناء الحرب الثانية، راجع المصادر التالية :
Hurewitz, op. cit, p, 235.
- ٢٣- Taylor, op. cit, pp. 57 and 89; The Zionist Organization and the Jewish Agency for Palestine, Reports of the Executive Submitted to the Twenty-Second Zionist Congress cit Basle, December 1946, pp.1, 4-7, 9-14, 16-17, 25-29, 71, 152-3, and 501-502; Israel Cohen, The Progress of Zionism. (London: The Zionist Organization, 1943). p. 61; J.C. Hurewitz, The Struggle for Palestine (New York: W.W. Nostrand and Company, 1950), pp. 197, 201 and 210; Esco Fundation for Palestine, Palestine; A Study of Jewish, Arab, and British Policies, Vol. ii (New Haven: Yale University Press, 1947), pp. 1078-1080 and 108; and finely Halperin, op. cit., pp. 220-222.
وبالعربية، انظر دراسة أسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، الصفحات ١٢٤-١٤٢ .
- ٢٤- حول المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين، انظر :
Cohen, Short History, p. 262; The Zionist Organization and the Jewish Agency for Palestine, op. cit., p. 11; Parzen, op. cit. p. 112; David Hirst, The Gun and the Olive Branch (London: Faber and Faber, 1977) pp. 59-60 and 111.
وبالعربية، انظر المصادر التالية: الدكتور اسعد رزوق، «المنظمة الصهيونية العالمية ١٩٢٦-١٩٥١»، شؤون فلسطينية (بيروت العدد ٢، نيسان/ ابريل ١٩٧٣)، الصفحات ١١٨-١٢١ كذلك، اسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، الصفحات، ١٤٢-١٤٣ .
- ٢٥- حول مواقف بن غوريون المبكرة من مفهوم الصهيونية وطبيعة العلاقات بين صهيوني اليسوف والصهيوني الخارج، انظر :
Michail Bar- Zohar, The Armed Prophet: A Biography of Ben- Gurion, translated from French by Ien Ortzen (London: Arthur Barker Ltd., 1967), pp. 42-43; and in Avraham Avi-Hai, Ben- Gurion State- Builder: Principles and Pragmatism 1948- 1963 (Jerusalem: Keter Publishing House, 1974), p. 223.
- ٢٥- راجع،
- ٢٦- Bar- Zohar, op cit., p. 42.
- ٢٧- Ibid., p. 48.
- ٢٨- Ibid., p. 42.
- ٢٩- Ibid, p. 52.
- ٢٩- المعلومات عن الخلافات بين وايزمن وبين غوريون ونتائجها العملية الموضح في هذه الفترة مستقاة من :
Contributors, Zionism (Jerusalem: Keter Publishing House Ltd., 1973), pp. 253-4; and Bar-Zoher, op. cit, pp. 66, 68, 78-9, 86, and 92-93; Golda Meir, My Life (London: Weidenfeld and Nicolson, 1975) pp. 160, 162-3 and 168.
- ٣٠- حول مقدمات الاعلان عن قيام اسرائيل، انظر المصادر التالية :
Samael Halprin, The Political World of American Zionism (Detroit: Wayne State University Press, 1971) pp. 293-5; The Zionist Organization and the Jewish Agency, op. cit, pp. 210 and 212; Cohen, Short History, p. 225; and Bar- Zohar, op. cit. p. 179.
وبالعربية، الدكتور اسعد رزوق، «المنظمة الصهيونية العالمية ١٩٤٦-١٩٥١»، المصدر السابق، الصفحات ١٢٦-١٢٧ .

- ٣١- حول طبيعة هذه التشكيلات، انظر المراجع التالية :
- The Zionist Organization and the Jewish Agency, op. cit., p. 210; Cohen, Short History, p. 225 and Avi-hai, op. cit, p. 224
- وبالعربية، راجع كميل منصور، « اثر قيام اسرائيل على وضع المنظمة الصهيونية العالمية»، شؤون فلسطينية (بيروت العدد أد، كانون الاول / ديسمبر ١٩٧٤)، الصفحة ١١٤، كذلك، رزوق، « المنظمة الصهيونية العالمية»، المصدر السابق، ص ١٢٧ .
- ٣٢- هذه الاوصاف لصلاحيات وايزمن واردة في :
- Bar- Zohar, op. cit. p. 179.
- ٣٣- انظر،
- Moshe Peariman (ed), Ben urion Looks Back (New York; Simon and Schustre, 1964), pp. 229-232.
- وحول الفلسفة العامة لبن غوريون، راجع، الدكتور عبد الوهاب السيري، اليهودية الصهيونية واسرائيل (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٥) الصفحات ١٤٧-١٦٢
- وحول الخلاف بين بن غوريون ووايزمن في نظريتهما الفلسفية، انظر، تهاى هلسة، دافيد بن غوريون (بيروت، مركز الابحاث، ١٩٦٨) الصفحات ١٦٥-١٧٩
- ٣٤- هذه التعبيرات مستقاة من،
- Avi-hai, op. cit. p. 223.
- ٣٥- حول هذه التعبيرات والمضامين، انظر
- Peariman (ed.), op. cit., p. 240; and Avi- hai, op. cit., p. 224.
- ٣٦- هذه التعبيرات والمضامين موضحة في :
- Alfred Lilienthal, The Other Side of the Coin: An American Perspective of the Aral- Israeli Conflict (New York: The Deivin- Adair Company, 1965), p. 70.
- وبالعربية، انظر :
- الدكتور أسعد رزوق، « اسرائيل والحركة الصهيونية في منظار بن غوريون وغولدمان»، شؤون فلسطينية (العدد ١٢، ب / اغسطس ١٩٧٢) الصفحة ٦٠ .
- ٣٧- حسبما جاء في :
- Peariman (ed.), op. cit., p. 240.
- ٣٨- حول هذا المبدأ، انظر :
- Ibid., p. 239; and Avi- hai, op. cit. p. 230.
- ٣٩- هذا الموقف مستقى من :
- Pearlman (ed.), op. cit. p. 241; Menujin, op. cit., p. 133; and lilienthal, op. dt., pp. 30-31.
- ٤٠- انظر :
- Pearlman (ed.), op. cit. pp. 245-6.
- ٤١- هذا الموقف مأخوذ من المصادر التالية :
- Avi- hai, op. cit, pp. 224 and 236.

- وبالعربية، من :
منصور، «اثر قيام اسرائيل»، المصدر السابق، ص ١٢٢، كذلك، الدكتور اسعد رزوق،
«المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون»، شؤون فلسطينية (العدد ٢٢، حزيران / يونيو
١٩٧٣) الصفحة ١٥٠.
- ٤٢- راجع :
Avi- hai, op. cit., p. 221.
- ٤٣- انظر :
Bar- Zohar, op. cit. p. 273.
- ٤٤- راجع :
Avi- hai, op. cit., p. 222; and lilienthal, op. cit. p., 76;
- ٤٥- انظر :
Avi- hai, op. cit., p. 224.
- ٤٦- حول هذا، راجع :
Pearlman (ed.), op. cit. p. 239.
- ٤٧- انظر، منصور، اثر قيام اسرائيل، المصدر السابق، ص ١٢٣ .
- ٤٨- المصدر السابق، ص ١٢٤ .
- ٤٩- حول هذا، انظر :
Lelienthal, op. cit. p. 31.
- كذلك، رزوق، «اسرائيل والحركة الصهيونية في منظار بن غوريون وغولدمان»، المصدر
السابق، ص ٦١ .
- ٥٠- راجع :
Lelienthal, Loc. cit.
Ibid.
- ٥١-
٥٢- حول هذا، انظر المصادر التالية :
- Menuhin, op. cit., p. 350; and Avi- hai, op. cit. pp. 225-7.
- وبالعربية، انظر :
منصور، «اثر قيام اسرائيل»، المصدر السابق، ص ١٢٤
- ٥٣- حول هذا المضمون، راجع :
- Avi- hai, op. cit. p. 224
- وبالعربية، منصور، «اثر قيام اسرائيل»، المصدر السابق، ص ١٢٣
- ٥٤- رزوق، «المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون»، المصدر السابق، ص ١٦٨
- ٥٥- المذرة ذاته .
- ٥٦- المصدر السابق، ص ١٥٨
- ٥٧- انظر :
- Avi- hai, op. cit. pp. 220 and 224.

- ٥٨- راجع المصادر التالية :
- Ibid., p. 224; and Lilienthal, op. cit., p. 33.
وبالعربية، منصور، « اثر قيام اسرائيل »، المصدر السابق، الصفحات ١١٦-١١٧
- ٥٩- انظر المصادر ذاتها وبصفحات مختلفة على النحو التالي :
- Avi-hai, op. cit. p. 226; and Lilienthal, op. cit., pp. 33-34.
وبالعربية منصور، « اثر قيام اسرائيل »، المصدر السابق، الصفحات ١١٧-١١٩
- ٦٠- كما جاء في :
- Lelienthal, op. cit. p. 34.
كذلك، في دراسة :
- رزوق، « اسرائيل والحركة الصهيونية في منظار بن غوريون وغولدمان » المصدر السابق ص ٥٧ .
- ٦١- رزوق، المصدر ذاته . كذلك في :
- Avi-hai, op. cit. p. 224.
- ٦٢- انظر : منصور، « اثر قيام اسرائيل »، المصدر السابق، ص ١١٤ .
- ٦٣- راجع : رزوق، « المنظمة الصهيونية العالمية »، المصدر السابق، الصفحات ١٢٧-١٢٨ و ١٣٢-١٣٣ .
- ٦٤- حول هذا، انظر :
- Avi-hai, op. cit. p. 226.
كذلك : منصور، « اثر قيام اسرائيل »، ص ١٢٧ .
- ٦٥- حول هذه التغييرات القيادية، راجع المصادر التالية :
- رزوق، « المنظمة الصهيونية العالمية »، المصدر السابق، ص ١٣٠ . كذلك، « المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون »، المصدر السابق، ص ١٥١ . واخيراً : منصور، « اثر قيام اسرائيل »، المصدر السابق الصفحات ١٢٠-١٢١ .
- ٦٦- حول هذه الممارسات، انظر :
- Avi-hai, op. cit. pp. 239- and 248.
منصور، المصدر السابق، ص ١٢٠ . كذلك :
- ٦٧- تفاصيل الاتفاق مأخوذ من المصادر التالية :
- Ibid., pp. 234-5 and Menuhin, op. cit. p. 462.
كذلك في : رزوق، « المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون »، المصدر السابق ص ١٥١ .
- ٦٨- انظر : منصور، « اثر قيام اسرائيل »، المصدر السابق، الصفحات ١٢١ و ١٢٧-١٢٨ .
- ٦٩- راجع :
- Lelienthal, op. cit., p. 34.
حول هذا، انظر :
- ٧٠- منصور، « اثر قيام اسرائيل »، المصدر السابق، الصفحات ١٢٤-١٢٦ .

- ٧١- تفاصيل اكثر ، راجع المصادر التالية :
 Avi- hai, op. cit., pp. 234-5.
 وبالعربية ، كل من :
 منصور ، « اثر قيام اسرائيل » ، المصدر السابق ، الصفحات ١٢١ ، ١٣٢ ، ١٢٥-١٢٦ .
 كذلك ، رزوق ، « المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون » ، المصدر السابق ، ص ١٥٠
 حول هذا الاقتراح ، انظر : ٧٢-
- ٧٣- كذلك ، منصور ، « اثر قيام اسرائيل » ، المصدر السابق ، ص ١٢٣ .
 الا اذا اشير الى ذلك بمصادر اخرى محددة ، جميع المعلومات والعبارات حول اجتماع المجلس
 الصهيوني في العام مستقاة من :
 Avi- hai. op. cit. pp. 224-233.
- ٧٤- انظر :
 رزوق ، « المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون » ، المصدر السابق ، الصفحات ١٦٥-١٦٦ .
 كما هو موضح في : ٧٥-
 منصور ، « اثر قيام اسرائيل » ، المصدر السابق ، ص ١٢٩ .
 ورد هذا النص في المصادر التالية : ٧٦-
 رزوق ، « اسرائيل والحركة الصهيونية » ، المصدر السابق ، ص ٥٥ ، كذلك ، رزوق ، « المؤتمر
 الصهيوني الثالث والعشرون » ، المصدر السابق ، الصفحات ١٦٠-١٦٦ و ١٧١ .
 كذلك ، منصور ، « اثر قيام اسرائيل » ، المصدر السابق ، ص ١٣٠ . كذلك في :
 Abraham Shenker, « Zionism for the 1970's- The Task Ahead in Organization and
 Information. » in the Israel Yearbook 1970
 (Tel- Aviv: Israel Yearbook Publications Ltd.). p. 59
 الا اذا اشير الى ذلك بمصادر اخرى محددة ، المعلومات عن المؤتمر الصهيوني الثالث
 والعشرون ، هذا مستقاة من : ٧٧-
 رزوق ، « المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون » ، المصدر السابق ، الصفحات ١٥٦-١٦٨ ،
 ومن مجموعة كتاب ، الصهيونية نظرية وممارسة ، ترجمة يوسف سلمان (بيروت : دار
 الطليعة ، ١٩٧٤) الصفحات ١١٣-١١٤ .
- ٧٨- راجع :
 Avi- hai, op. cit., p. 227.
- ٧٩- انظر ، رزوق ، « المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون » ، المصدر السابق ، ص ١٥٠ .
 ٨٠- راجع :
- ٨١- عن النص الاصيلي كما ترجمة الدكتور اسعد رزوق . انظر :
 رزوق ، « المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون » ، المصدر السابق ، ص ١٧١ .

- ٨٢- المصدر السابق، ص ١٧٣ .
- ٨٣- المصدر السابق، الصفحات ١٧٣-١٧٤ .
- ٨٤- هذه المعاني يؤكدونها كل من:
- Contributors, Zionism, p. 254; Avi-hai, op. cit. p. 228.
- كذلك:
- منصور، «اثر قيام اسرائيل»، المصدر السابق، الصفحات ١٣٢-١٣٤ . رزوق، «اسرائيل والحركة الصهيونية»، المصدر السابق الصفحات ٥٦ و ٥٨ .
- ٨٥- كما جاء في:
- Avi-hai, op. cit., pp. 227-8.
- ٨٦- افكار وكلمات بن غوريون هذه مستقاة من:
- Ibid., p. 229.
- ٨٧- كما جاء في:
- رزوق، «اسرائيل والحركة الصهيونية»، المصدر السابق، الصفحات ٥٩-٦٠ .
- ٨٨- راجع:
- منصور، «اثر قيام اسرائيل»، المصدر السابق، ص ١٢٩ .
- ٨٩- عن النص الاصيلي، كما جاء في:
- رزوق، «المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون»، المصدر السابق، الصفحات ١٧٥-١٧٦ .
- ٩٠- كما ورد منصور، «اثر قيام اسرائيل»، المصدر السابق، ص ١٢٩ .
- ٩١- حول هذه التغييرات، انظر:
- R. Freedman (ed.). World Politics and the Arab- Israel. Conflict (New York: Pergamon Press, 1979), p. 92.
- ٩٢- كما توضح مقاله:
- رزوق، «المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون»، المصدر السابق، ص ١٦٧ .
- ٩٣- يمكن معرفة تفاصيل اكثر في:
- Avi-hai, op. cit. p. 230.
- كذلك، رزوق، «اسرائيل والحركة الصهيونية»، المصدر السابق، ص ١٦٣ .
- ٩٤- حول ذلك، انظر:
- Contributors, Zionism, p. 137; and in Marie Syrkin (ed.). Golda Meir Speaks Out (London: Weidenfeld and Nicolson, 1973). p. 227.
- ٩٥- المعلومات حول هذه التغييرات مأخوذة من منتقيات من الموسوعة اليهودية كما نشرت في الصفحات المختلفة في:
- Contributors, Zionism.
- Ibid. pp. 132- 133. -٩٦
- Ibid. p. 135. -٩٧
- Ibid., p. 139. -٩٨
- Ibid., p. 138. -٩٩

- ١٠٠- حول هذه النسب انظر :
مجموعة باحثين ، المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون ١٩٦٨ ، (بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧١) صفحات ٧١١-٧١١ .
- ١٠١- انظر المصادر التالية :
Cohen, Short History, p. 190; Bein, op. cit. p. 240; Esco Foundation, op. cit. p. 335; and Cohen. The Zionist Movement, p. 131 .
- ١٠٢- راجع :
Contributors, Zionism, p. 139.
كذلك ، المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون ١٩٦٨ ، ص ٧١١
- ١٠٣- انظر :
Contributors, Zionism, p. 139.
كذلك في رزوق ، « المنظمة الصهيونية العالمية » ، المصدر السابق ، ص ١١٥ .
- ١٠٤- انظر :
Contributors, Zionism, pp. 138-9.
كذلك : المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون ١٩٦٨ ، ص ١٦ .
- ١٠٥- حول وظائف ومراكز اللجان التنفيذية وفروعها في المراحل المختلفة قبل قيام اسرائيل ، انظر :
Chen, Short History, p. 47. Bein, op. cit. p. 4480. Taylor, op. cit. p. 41; and Cohen, The Zionist Movement, p. 132.
- ١٠٦- انظر :
Contributors, Zionism, p. 140.
هذه المعلومات عن اللجنة (أو اللجان) التنفيذية مستقاة من :
- ١٠٨- لمعرفة تفاصيل أكثر عن هذه الأجهزة القضائية قبل قيام اسرائيل ، انظر :
Cohen, The Zionist Movement, p. 131; The Zionist Organization and the Jewish Agency, op. cit., p. 11.
ثم ان ما يحدده القانون الاساسي للمنظمة الصهيونية (١٩٢١) من صلاحيات لهذه الأجهزة وارد في النص الحرفي لذلك القانون كما هو مترجم من :
أسعد عبد الرحمن ، المصدر السابق ، الصفحات ٢١٤-٢١٦ .
- ١٠٩- راجع :
Contributors, Zionism, p. 141.
حول تركيبة الاحزاب في المنظمة في بعض المراحل السابقة ، انظر :
- ١١٠-
Misha Louvish, The Challenge of Israel (Jerusalem: Israel University Press, 1968) p. 118, Cohen, Short History pp. 89, 137, and 262, and finally in the Zionist Organization and the Jewish Agency, op. cit. p. 18.
كذلك في دراسة اسعد عبد الرحمن ، المصدر السابق ، الصفحات ١٢٢-١٢٣ ، ١٤٢ و ١٥١ .
- ١١١- حول ذلك والتطورات السابقة لقيام اسرائيل ، انظر المصادر التالية :

Contributors, Zionism, pp. 133-4; Cohen, Short History, p. 91; and the Zionist Organization and the Jewish Agency, op. cit. p. 17.

كذلك، انظر دراسة أسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، الصفحات ١٥٠ر٨٥.
-١١٢ انظر:

Contributors, Zionism, p. 135.

-١١٣ ذلك الادعاء من قبل كل من بن غوريون وغولدمان غير صحيح لأن الخلافات بينهما حقيقية. حول ذلك، انظر:

المسيري، المصدر السابق، الصفحات ١٤٧-١٦٢ و ٢٣٠-٢٤٠. وحول الادعاء بان ما يقال انما هو تعبير عن رأي شخصي راجع:

Avi-hai, op. cit. pp. 230 and 238.

-١١٤ عن كون الخلاف حول الهجرة قديم، انظر:

Meir, op. cit. p. 129, Syrkin (ed.), op. cit. pp. 58-65.

كذلك: الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٥ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٧) ص ٢٨٢.
-١١٥ كما جاء في:

Avi-hai, op. cit. p. 231.

وحول الموضوع ذاته، وبكلمات مشابهة، انظر:

Menuhim, op. cit. p. 463.

-١١٦ كما ورد في:

Avi-hai, Loc. cit.

وبكلمات قريبة من ذلك، انظر:

Menuhim, op. cit. p. 462.

-١١٧ كما جاء في:

Lelienthal, op. cit. p. 30.

وبكلمات مشابهة، ورد في:

Menuhim, loc. cit.

-١١٨ كما ورد في:

Lelienthal, loc. cit.

وبكلمات قريبة من ذلك وردت في:

Menuhim. op. cit. p. 463.

-١١٩ كما جاء في:

Lelienthal, op. cit. pp. 29-30.

وعلى نحو مشابه في:

Menuhim. op. cit.

-١٢٠ وفقاً لما نقله:

Lelienthal, op. cit. p. 32.

-١٢١ انظر:

Ibid, pp. 29 and 31.

- ١٢٢- حول ذلك ، راجع المصادر التالية :
- Lelienthal, op. cit. p. 76; Avi- hai, op. cit. p. 230.
كذلك ، رزوق ، « اسرائيل والحركة الصهيونية » ، المصدر السابق ، الصفحات ٦١-٦٢ .
- ١٢٣- انظر :
- Avi- hai, loc. cit.
كذلك : رزوق ، « اسرائيل والحركة الصهيونية » ، المصدر السابق ص ٦٣ .
- ١٢٤- راجع :
- Avi- hai, op. cit., p. 232.
Ibid.
- ١٢٥- راجع :
- ١٢٦- راجع :
- Lelienthal, op. cit. p. 33.
كذلك ، المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون ١٩٦٨ ، ص ١٧ .
- ١٢٧- Lelienthal, loc. cit.
- ١٢٨- Avi- hai, op. cit. p. 248.
- ١٢٩- كما يتضح في :
- Ibid., pp. 231, 234-5, 239-240.
Leienthal, op, p. 31.
- ١٣٠- كما جاء في :
- ١٣١- Menuhin, op. cit. p. 462.
وعلى نحو مشابه في :
- Avi- hai, op. cit, p. 237.
- ١٣٢- كما جاء في :
- Menuhin, op. cit. p. 462; Avi- hai, op. cit. pp. 236 and 238.
١٣٣- راجع المصادر التالية :
- Contributors, Zionism., pp. 254-6; Menuhin, op. cit., p. 462; and finally Avi- hai, op. cit. pp 231-2 and 237.
كذلك في الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٥ ، الصفحات ٢٨٢-٢٨٣ ، ٢٨٥-٢٨٨ .
- ١٢٤- حول التغييرات التنظيمية هذه ، انظر :
- الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٥ ، الصفحات ٢٨٧ و ٢٨٩ ، كذلك ، المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون ١٩٦٨ ، الصفحات ٦-٧ ، ١٦-١٨ و ٣٨ .
- ١٣٥- جميع المعلومات الواردة عن المؤتمر الصهيوني السادس والعشرين مستقاه من الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٥ ، الصفحات ٢٨٢-٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ . وكذلك من مها بسطامي ، المؤتمر الصهيوني التاسع والعشرون عرض لبحوثه ومقرراته ١٩٧٨ (بيروت مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٧٨) ، الصفحات ١٩-٢٠ .
- ١٣٦- كما جاء في :
- المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون ١٩٦٨ ، ص ٤٣٨ :

- ١٣٧- حسبما ورد في :
المصدر السابق، ص ٣٦٣ كذلك في الكتاب السنوي لعام ١٩٦٨، ص ٣١٠ .
- ١٣٨- حول بنية المؤتمر، انظر :
المصدر السابق، الصفحات ٣١٠-٣١١ و ٣١٩ ايضا المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون
١٩٦٨، الصفحات ٣٦٤، ٤٣٣ و ٩٩٨-٩٩٩ .
- ١٣٩- ورد النص في :
المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون ١٩٦٨، ص ٤١١ .
- ١٤٠- المصدر السابق، ص ٤١٦ .
- ١٤١- المصدر السابق، الصفحات ٤٢٤-٤١٨ .
- ١٤٢- المصدر السابق، ص ٤٢٤ .
- ١٤٣- المصدر السابق، ص ٤٢٠ .
- ٢٤٤- المصدر السابق، الصفحات ٤٢١-٤٢٢ وتوضيح اكثر في : الكتاب السنوي لعام
١٩٦٨، ص ٣١٤ .
- ١٤٥- المصدر السابق، الصفحات ٣١٥ و ٣٢٧، كذلك في : المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون
١٩٦٨، الصفحات ٤٢٣-٤٢٥ .
- ١٤٦- المصدر السابق، ص ٤٢٦ .
- ١٤٧- المصدر السابق، الصفحات ٤٣٧-٤٣٨ .
- ١٤٨- المصدر السابق، الصفحات ٤٣٨-٤٤٠ و ٤٤٦ .
- ١٤٩- المصدر السابق، الصفحات ٤٤١-٤٤٢ و ٤٤٤-٤٤٦، وتوضيح اكثر في الكتاب
السنوي لعام ١٩٦٨، ص ٣١٦ .
- ١٥٠- المصدر السابق، ص ٣١٨ .
- ١٥١- المصدر السابق، ص ٣١٣ .
- ١٥٢- المصدر السابق، ص ٣٢٥ .
- ١٥٣- أجمعت على هذا النص، باستثناء الكلمتين المدرجتين في اقواس، المصادر التالية المصدر
السابق، الصفحات ٣٢٣، ٣٢٤، كذلك المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون ١٩٦٨، ص
٩١٨، واخيرا، المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون ١٩٧٢، (بيروت مؤسسة الدراسات
XXVIII
الفلسطينية، ١٩٧٧) ص
١٥٤- حول الدلالات راجع :
الكتاب السنوي لعام ١٩٦٨، الصفحات ٣٢ و ٣٢٤ .
- ١٥٥- حول قرارات المؤتمر المختلفة، انظر المصادر التالية :
المصدر السابق، الصفحات ٣١٩ و ٣٢١، كذلك : المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون
١٩٦٨، الصفحات ٩٦٥، ٩٨٨، ١٠١٥ و ١٠١٧، ايضا الدكتور صادق العظم

(محرر) ندوة عن «الصهيونية خمسة وسبعين عاما»، شؤون فلسطينية (العدد ١٢، ب / اغسطس ١٩٧٢) الصفحات ١٥٨-١٥٩. واخيرا في:

Contributors, Zionism, p. 144.

١٥٦- حول هذه التطورات التنظيمية، راجع المصادر التالية:
الكتاب السنوي لعام ١٩٦٨، ص ٣١٩، كذلك المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون ١٩٦٨، الصفحات ٤٣٥، ٩٦٥-٩٦٦ و ١٠١٤ واخيرا: المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون ١٩٧٢، الصفحات ٣-٤ و ١٩.

١٥٧- حسبما جاء زروق، «المنظمة الصهيونية»، المصدر السابق، ص ١١٦

١٥٨- انظر دراسة أسعد عبد الرحمن، المصدر السابق، الصفحات ١٠١-١١٩.

١٥٩- حول الوكالة اليهودية الموسعة الجديدة، جميع المعلومات مستندة الى:

Contributors, Zionism, pp. 112 and 142-3.

١٦٠- يوسف حمدان، «الوكالة اليهودية والادارة الصهيونية من ساير الى الموجي»، شؤون فلسطينية (العدد ٥٥، آذار / مارس ١٩٧٦) الصفحات ٨٥ و ٩٢.

١٦١- المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون ١٩٧٢، ص XXI

١٦٢- المصدر السابق، ص XXI، كذلك هاني عبد الله، «المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون»، شؤون فلسطينية (العدد ٨، نيسان / ابريل ١٩٧٢) الصفحة ٣٤.

١٦٣- المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون ١٩٧٢، ص ٦٣٧.

١٦٥- المصدر السابق، ص ٣٥٠، كذلك هاني عبد الله، «المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون»، المصدر السابق، ص ٢٨، واخيرا:

Contributors, Zionism, p. 257.

Ibid.

١٦٦- هاني عبد الله، «المؤتمر الصهيوني»، المصدر السابق، الصفحات ٢٨ و ٣٢.

١٦٨- المصدر السابق، ص ٣١، كذلك:

Contributors, Zionism, p. 257.

١٦٩- هاني عبد الله، «المؤتمر الصهيوني»، المصدر السابق، الصفحات ٣٥-٣٦ كذلك:

Contributors, Zionism, p. 257.

١٧٠- هاني عبد الله، «المصدر السابق»، الصفحات ٢٩-٣٠.

١٧١- انظر:

Contributors, Zionism, p. 257.

١٧٢- نص كلمة الرئيس شازار كما وردت في:

المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون ١٩٧٢، الصفحات ٣٣-٣٣١.

١٧٣- نص كلمة تيدي كوليلة في المصدر السابق، ص ٣٣٢.

١٧٤- كلمة اريه بينكوس، المصدر السابق، الصفحات ٣٣٧-٣٤٨ وحول الانجاز الخاص بتمثيل الشباب في المؤتمر لعام ١٩٧٢، انظر:

Contributors, Zionism, p. 257.

١٧٥- المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون ١٩٧٢، ص ١٠١٩ .

١٧٦- هاني عبد الله، «المؤتمر الصهيوني»، المصدر السابق، الصفحات ٣٩-٤٠ .

١٧٧- انظر المصادر التالية

٥ يوسف حمدان، «الوكالة اليهودية والادارة الصهيونية»، المصدر السابق، ص ٧٥. كذلك،

المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون لعام ١٩٧٢، الصفحات ٣٦٣ و ١٠٥٦، ١٠٥٧،

ايضا: مها بسطامي (اعداد) المصدر السابق، ص ١٢٣، واخيرا: هاني عبد الله، «المؤتمر

الصهيوني»، المصدر السابق، ص ٣٩ .

١٧٨- المصدر السابق، الصفحات ٣٨-٤٠ .

١٧٩- المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرون ١٩٧٢، الصفحات ٣٤ و ١٠٦٥

١٨٠- مها بسطامي، المصدر السابق، الصفحات ٩٨-٩٩ .

١٨١- المصدر السابق، ص ٢٩ .

١٨٢- المصدر السابق، ص ٢، وحول كون نسبة اعضاء المنظمة الصهيونية الى الشعب اليهودي لم

تتجاوز حتى قيام اسرائيل نسبة (١٨٪) انظر دراسة اسعد عبد الرحمن، المصدر السابق،

الصفحات ١٥٤-١٥٥ .

١٨٣- بسطامي، المصدر السابق، الصفحات ٣٩-٤٠ .

١٨٤- المصدر السابق، ص ٤١ .

١٨٥- المصدر السابق، الصفحات ٢٩-٣٠ .

١٨٦- المصدر السابق، ص ٩٦ .

١٨٧- المصدر السابق، ص ٤٩ .

١٨٨- المصدر السابق، الصفحات ٣٠-٣٢ .

١٨٩- المصدر السابق، الصفحات ٣٨-٣٩ و ٤١-٤٢ .

١٩٠- المصدر السابق، ص ٤١ .

١٩١- المصدر السابق، الصفحات ٢٧-٢٨ .

١٩١- المصدر السابق، الصفحات ٢٧-٢٨ .

١٩٢- المصدر السابق، الصفحات ١٢٣، ١٢٦ و ١٣١ .

١٩٣- المصدر السابق، الصفحات ١٢ و ١٣ .

١٩٤- المصدر السابق، الصفحات ١٢٩ و ١٣ .

١٩٥- حول ذلك، انظر المصادر التالية:

A. Lilienthal, *The Zionist Connection: What Price Peace* (New York: Dodd, Mead and Company, 1978) pp. 7 and 148. and Nahm Goldman. *True Neutrality For Israel, Foreign policy*. (Winter, No. 37, 1979-1980) pp. 135-136. and 139.

حسبما جاء في : -١٩٦

Lilienthal, *The Zionist Connection*, pp. 408 and 214; also Goldman, « True Neutrality, », op. cit. p. 135.

Lilienthal, *The Zionist Connection*, p. 520.

Ibid. p. 720.

Ibid., p. 709; and Goldman, « True Neutrality », op. cit. pp. 136. and 138-139.

Ibid. p. 141.

Ibid. p. 133.

Ibid. p. 136.

-١٩٧

-١٩٨

-١٩٩

-٢٠٠

-٢٠١

-٢٠٢

الزعامة السياسية للمفتي الحاج امين الحسيني بين عهدين : ثورة ١٩٣٦ وما قبلها

د. علي سعود عطية
وزارة التربية - الكويت

- ١ -

المقدمة :

لعله ليس هنالك شخصية سياسية في تاريخ فلسطين الحديث تضاربت حولها الآراء واختلفت التفسيرات كشخصية المفتي الحاج امين الحسيني . فبينما هو لدى البعض قيادة فردية رجعية اقطاعية أو ابن عائلة بورجوازي ، أو انهزامي مشكوك في ولاءاته واتجاهاته تسلم مركزا في قيادة الشعب الفلسطيني لا يستحقه أو أنه ليس به جدير . ولم يسهم بنضال حقيقي ولم يقيم بعمل جذري أو ماثور ، بل على العكس جلب على الثورة الفلسطينية (١٩٣٦) الهزيمة والاستسلام أو كما يقول عبد الوهاب الكيالي في كتابه « تاريخ فلسطين الحديث » ساعد على « إجهاض الثورة »^(١) بينما هو كل هذا لدى فئة معينة فانه لدى البعض الآخر مقاوم من طراز عنيد وروح الثورة^(٢) ووطني صوفي في وطنيته ، ولا غشاوة على بصيرته ، ولقد بلغ البعض في تقدير المفتي حتى لقد اعتبر معصوما عن الخطأ ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه^(٣) . وعلى العكس مما يذهب اليه اصحاب الرأي الاول فإن هنالك من يذهب الى ان المفتي منذ شارك في العمل الوطني لم يحد عن خطه

الوطني؛ وان اختلفت اساليبه بين المهادنة والمقاومة؛ أو القبول بالتظاهر بالانتداب أو المعارضة له، وألقى بثقله. في ثورة ١٩٣٦ واستمر على ذلك الى نهاية الانتداب. ولقد غالى البعض في ذلك حتى اعتبر نبي الوطنية ورمزها كما سيأتي.

هذا البحث هو محاولة للإجابة على هذا الخلاف او الاختلاف.... كما هو محاولة لدراسة الزعامة الفلسطينية كزعامة من داخلها ان صح القول.

لا بد لمن يريد الإجابة على التساؤلات حول موقف المفتي ان يدرس زعامته في اطارها الشخصي والموضوعي؛ من الناحية الشخصية حيث تتصل الحقيقة مرات كثيرة بالاسطورة والواقع بالخيال حيث لدينا من المادة المصدرية الغنية ما يساعدنا على فهم هذه الزعامة وخصائصها Cult بحيث يساعدنا هذا الفهم على دراسة المواقف التاريخية لها. وتأثير الزعامة وسحرها الشخصي على الاحداث المختلفة، وتأثيرها وردود فعلها- من الناحية الأخرى- على هذه الاحداث.

ومن الناحية الموضوعية، اذ انه من الخطأ ان ندرس أي شخصية في فراغ. لأن الاحداث لا تجرى في فراغ ميتافيزيقي؛ بل هنالك صلة وطيدة لمواقف أية شخصية والظروف الموضوعية السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي أملتتها... ومن هنا فإنه ليس هنالك موقف واحد ثابت لزعامة المفتي، وانما هو موقف متطور بحسب الظروف الموضوعية المختلفة التي اكتنفته.

ومع هذا فإنه ينبغي أن نبادر الى القول ان المادة المصدرية وبخاصة الوثائقية التي توفرت لنا وهي عربية واجنبية وصهيونية تتوافر على السمة العامة لمواقف المفتي كانت سمة وطنية، والتزاما بالخط الوطني، رغم اختلاف التفسيرات احيانا ومع ذلك فإن هنالك فرقاً واضحاً بين موقف المفتي ما قبل ١٩٣٦ وما جرى اثناء ثورة ١٩٣٦ (توكيد المؤلف) وما تلاها. عام ١٩٣٦ عام فاصل في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية. وقد تركت ظروفه الموضوعية اثرها على الزعامة الوطنية بعامة والمفتي بخاصة.. مما جعله يقوم بأكبر عملية اختراق في تاريخه ووصوله وبالتالي الى نقطة اللا عودة مع الإنجليز.

زعامة المفتي خصائصها ومقوماتها من حيث تأثيرها وتأثرها بالاحداث

ابتداء ينبغي القول اننا ازاء شخصية غير عادية- ولعله من هنا جاء التضارب حولها، شخصية مركبة، ان صح القول، ذات ابعاد متعددة وليس بعدا واحدا. ونحن هنا ازاء مثل فريد من نوعه في تاريخ فلسطين، وقليلة هي الشخصيات الشبيهة به في تاريخ الشرق الأوسط أو العالم الثالث. وقد لا تتجاوز الحقيقة اذا قلنا العالم أجمع. هذا المثل يتضح في شخصية نالت من النفوذ اكثر مما يناله رئيس محدود التأثير- كرئيس فئة محدودة أو قطاع معين أو حزب مثلا- وانما وصل تأثيرها الى الجماهير العريضة، حزبية وغير حزبية، وتغنت بحبها لفترة طويلة وانعكس تأييد هذه الجماهير العريضة على الشخصية نفسها وتقابلا في منتصف الطريق ..

وفي حقيقة الحال لقد تجاوزت شخصية الحاج امين المعروف والمتألف عليه من الشخصيات، لتدخل حيز الشخصيات الكبرى ذات الرسالة. الشخصية التي ترمز الى آمال جيل؛ الشخصية التي ترسب حولها طموحات امة، والتي تحلم بها كوسيلة انقاذ شبيهة بذلك النمط الذي يتحدث عنه ريجنز ويسميه «المنقذ والمخلص» والذي كما يقول عنه تتطلبه الطبيعة البشرية .. التي تحتاج الى بطل من اجل ان تمجده أو تعبد من اجل ان تنجح «ويستشهد على هذه الشخصية «المنقذة» المسيح المنتظر، بقول احدهم عن الدكتور باندا احد زعماء افريقيا: «ان شهرة الدكتور باندا ينبغي ان تبنى ... وينبغي ان لا يصيبه الذعر اذا اطلق عليه المسيح السياسي. فإن الشهرة التي تأتي عن هذا الطريق ينبغي أن تستغل كشيء مفيد»^(٤).

ومع هذا فانه تستوقفنا شخصية المفتي كقائد للحركة الوطنية أو للامة . وأول ما يطالعنا في هذه الشخصية انها شخصية ينطبق عليها تعريف الكاريسما (الجادبية الملهمة) كما يراها ماكس ووبر التي تقول «ان الشخصية ذات الكاريسما: تمارس جاذبية طاغية وتجمع حولها عددا كبيرا من الاتباع كما انه يصف الكريسما بأنها» ليست عقلانية وليست تقليدية كما انها ليست بيروقراطية أيضاً. أنها صفة معينة من صفات شخصية معينة التي لا يعامل بعضها صاحبها باعتبارها انسانا عاديا، بل يعامل على انه يمتلك صفات غير عادية. وهذه الصفات ليس بمقدور الانسان العادي ان يتوصل اليها، ولكنها تعتبر من أصل مقدس أو مثالي، وعلى أساس منهما يعامل الانسان المعنى كزعيم. والكاريسما بمعناها البحث تستحيل على الاعتبارات الاقتصادية. وعند ظهور هذه الكاريسما فإنها تشكل «نداء» بأجلى مظاهر الكلمة واعمق معانيها أو انها «رسالة». والدارس لهذه الشخصية الكاريسماتية للمفتي يستوقفه منها التالي:

١- مجموعة من الصفات الشخصية تؤهله للقيادة أو الزعامة. فهو منذ صغره يتسم بالذكاء والبراعة في القيادة وحسن التصرف (٥) كما أنه كما تشهد بذلك مصادر كثيرة كان يتميز بجاذبية وسحر شخصية كبيرين. يصفه سايكس (كرستوفر) فيقول: «انه ذو شخصية ذات تأثير كبير عندما تلتقي بها، ولديه سحر يصدى وهو وسيم رغم ضآلة قامته، شرقي الشرقيين لم يلبس الملابس الأوربية ولكنه ارتدى الرداء الوجيه لعالم مسلم ولم يعرف عنه انه يومئذ أو يرفع صوته. لقد كان يجعل الآخرين يحسون حياله بأنهم عوام اذا قيسوا به (٦) كما ثنى على ذلك تقرير سري بقوله «ان لديه قسطا كبيرا من سحر الشخصية» (٧) ومنذ ان تولى الافناء لبس العمامة «تاج العرب» (٨) بل اكثر من ذلك فانه يبدو انه كان يتمتع بجاذبية روحية؛ تجذب الرجل العادي، ولا ينجو من تأثيرها المثقف ايضا. فقد كان جورج انطونيوس يعتقد ان المفتي قديس (٩). كما يهيم بها ايضا الفلاح في كوخه ووراء محراثه. ولقد تضخمت اسطورة الحاج امين

وتأثيره على محدثيه وجماهيره: فنظرته (السحرية) تحول الاعداء الى اصدقاء والانصار الى مجاهدين ومناضلين يفدون الحاج امين بأرواحهم .

لم يركن المفتي الى المكونات الطبيعية والفطرية في شخصيته بل عمد جاهداً على تطوير قدراته وواصل الجهود المكثفة لتحقيق أهدافه . فهو من النوع الهادف في تصرفاته الذي يبنت الليل ساهراً، ويواصل مع الليل النهار في سبيل تحقيق هذه الاهداف . وبمجرد أن يتضح له الهدف المنشود، يتحول كيانه كله الى آلة مسخرة لتحقيق هذا الهدف، ينام ويقوم عليه حتى يحققه مهما كانت التكاليف^(١٠) . ثم انه كتوم عامل بصمت، يخفي تصرفاته، يمتاز بالغموض الذي يخفي فاعلية كبيرة . ولعله من هنا رسمت له المصادر الانجليزية صورة سوداء مرات كثيرة، فاعتبرته ذرائعاً مكيفيليا من الطراز الأول، ويستحل الاغتيل السياسي في سبيل الوصول الى اهدافه . فقد وصفه المندوب السامي ماكمايكل بأنه « سيد من سادة الخداع والمكر والمناورة وهو المحرك لاكثر من اضطراب وثورة»^(١١) واعتبره اورمسيبي فور « أكثر انسان قلبه اسود في الشرق الأوسط»^(١٢) وكثيرا ما ربطت المصادر الصهيونية بين شخصية المفتي، وشخصية الفوهر الألماني هتلر، من حيث نزعة التسلسل والديكتاتورية والتزمت والدموية^(١٣) . ولكن كثيرا من العناصر العربية- كما اسلفنا- مع ذلك اعتبرته انساناً معصوماً عن الخطأ . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبلغ الأمر ايماناً بمعصوميته ان تشكل جماعة «تدين بالولاء الى زعيم معصوم لا يخطيء، يطاع طاعة عمياء»^(١٤) .

ومع هذا فقد شهد له حتى اعداؤه بأنه سياسي ومخطط من طراز ممتاز^(١٥)

٢ - العامل الروحي او الديني: اضاف العامل الروحي او الديني بعداً آخر لشخصية الحاج امين . فانتسابه الى فاطمة بنت الرسول (ص) وكونه مفتي الاسلام ورئيس المجلس الاسلامي الاعلى جعل تأييده في قطاع

عريض من الشعب الفلسطيني (وبخاصة القرويين) ضرباً من الواجب الديني . وقد تنامت هذه الناحية الروحية او المعبد الروحي في شخصية المفتي بتنامي تصديه لمقاومة الانجليز والصهاينة اثناء الثورة (١٩٣٦-١٩٣٩) كما سنوضحه، وما بعدها، وزادت من تصديه للقيام بواجب الزعامة الوطنية على أفضل ما يكون . حتى لقد جاء وقت اطلق عليه فيه لقب «النسبي» .. «إن المفتي ليعتبر من قبل جمهرة المسلمين في فلسطين ليس فقط زعيماً وإنما أيضاً نبياً»^(١٦) وعلى مستوى العالم الاسلامي اصبح المفتي في الثلاثينات الشخصية الاسلامية الاولى من الناحية الروحية والنفوذ الروحي، لدرجة ان ابن سعود بات يخشى حضورها في مؤتمر المائدة المستديرة (١٩٣٩) خوفاً من أن يكون ذلك وما سيحرزه المفتي من مكانة، بحضوره، عبوراً الى الخلافة، وبالتالي تهديداً للأنظمة الاسلامية القائمة^(١٧) . وفي هذا الوقت كتب المندوب السامي يؤكد طموحات الحاج امين الى الخلافة انطلاقاً من موقعة أو مكانته الروحية في عالم الاسلام . وهو الى ذلك ينفي عنه كونه فوهر الشرق ويصفه بأنه خليفة الاسلام : «ليس هنالك حدود لمطامح المفتي . وان هذا لبيد وأمرأ عجيباً مدهشاً، ولكن هنالك اشخاصا مثل السيد اوترى Outry القنصل الفرنسي العام (وهو دبلوماسي صفيير وحكيم) والسيد ليفي Levy مراسل النيويورك تايمس (وهو مخادع بالوراثة ونشيط جدا) قد أكدوا لي أن المفتي ينظر لنفسه بمنظار «فوهر الشرق» . ولكنني انا افكر بطريقة اخرى، واقول ان موضوع الخلافة يسود كل المفاوضات الحاضرة بين مصر والسعودية والمفتي»^(١٨)

وعندما أراد اميل الغوري في اجتماع لعصبة الامم المتحدة في ليك سكسس أن يجد شبيهاً للمفتي «الضحية» ضحية المؤتمرات اليهودية، ومحاولات التشويه المتعمدة اختار ان يشبهه بالمسيح المصلوب . وان اليهود انما يريدون ان يضعوا الحاج امين على الصليب، كما سبق ان صلبوا

المسيح^(١٩) بل اننا لنبعد ان احترام المفتي وشعبيته في كثير من القطاعات المسيحية لا تقل كثيرا عن تلك التي في القطاعات الاسلامية. كما انه بلغ حداً من القداسة وجد صدى في نفوس المسيحيين والمسلمين على السواء. بل انه لا يوجد الا القليل من الزعماء الوطنيين الذين تمكنوا من ان يكسروا حاجز الطائفية، كما كسره المفتي، ليقفز من فوقه الى مستوى الزعامة القومية واصبحت روحية شخصيته رصيذا قوميا للطرفين. فقد كان الحاج امين بمقدار ما هو «سيف الدين الحاج امين»، بالنسبة للمسلمين، هو كذلك «حاج امين يا مفتينا» التي ينشدها شباب المسيحيين في كنيسة القيامة^(٢٠). ويذهب هيرووتز الى ان المفتي اصبح الزعيم السياسي الأكبر للمسيحيين العرب كما هو للمسلمين العرب^(٢١).

٣ -

ولعل هذا يدخلنا في البعد الثالث من ابعاد شخصية الحاج امين وهو البعد الوطني القومي. فكما تنامت شخصيته الروحية لدرجة انها اصبحت تنافس على الخلافة أو يطرح اسمها على بساط التنافس عليها، نمت شخصيته القومية الى درجة الوله القومي؛ ومنحه لقب الشهيد او الرمز. ولقد تنامى رصيده الحاج امين القومي لدرجة انه غلب مراحل ما لخصومه. بل لقد جاء الوقت الذي التحم فيه معه الشعب... وفيهم خصومه الشخصيون من خبز المعارضة. فعندما قررت الحكومة البريطانية حرمان المفتي من حضور مؤتمر المائدة المستديرة كتبت جريدة فلسطين: «ان حكومة جلالته قررت ان تحرم حضرة صاحب السماحة من العودة الى فلسطين، وسماحته الذي يتفضل الوزير باذاعة ذلك الحديث عنه هو الفرد الذي تمثلت فيه امه والامه تجمعت ارادتها في فرد»^(٢٢) (توكيد الكاتب).

لقد حقق البعد القومي غايته في شخصية الحاج امين عندما لم تعد مكائنه مستمدة من كونه ابن العائلة العريقة فقط. وانما لكونه المناضل الذي يعمل من اجل مصلحة الوطن، يثول الشقيري: «ولقد كان الحاج امين هو ذلك القائد

معبود الشعب . فلا مكان للتغيير ولا امكان . وهو فوق ذلك شجاع صبور ، مخلص صلب ، وفي كثير من مؤهلات الزعامة»^(٢٣) ويقول عارف العارف في يومياته : « كما انني لا انكر اني احب الحاج امين ، لا لأنه حسيني ، ولا لأنه ابن فلان من الناس بل لأنه أخلص من انجته فلسطين للقضية العربية»^(٢٤) ويرى مالرو أيضاً انه اكتملت له سيطرته مع تغلب التناقض الوطني على التناقض العائلي^(٢٥) . بل ان الشخصية الوطنية للحاج امين تجاوزت التقدير والحب الوطني من الجماهير الى درجة انها اضفت عليه أبعاداً اسطورية اختلطت بمقومات زعامته الوطنية والقومية ويظهر ان مرحلة الزعامة القومية افضت تلقائياً أو انها تطورت الى مرحلة الزعيم الرمز ، وخاصة بعد فشل الثورة وهجرة الحاج امين من لبنان الى العراق . يقول عارف العارف بعد هذه الهجرة : «الحاج امين وان كان نفوذه قد تضعع بسبب الاحداث الحاضرة ، لا يزال يتمتع بثقة الاكثوية الساحقة من العرب الذين يعتبرونه رمز الوطنية»^(٢٦) .

واستمر معنى الرمز هذا يلف شخصية الحاج امين مع تناسي غربته من الوطن (بعد هجرته الى المانيا) . ففي اواخر الحرب العالمية الثانية كتب المندوب السامي يعبر عن شعور الفلسطينيين :

« هناك اهتمام واضح لمعرفة مكان الحسيني . فإن غالبية السكان العرب من القرويين يرغبون رغبة واضحة في عودته السريعة الى فلسطين . فهو في رأيهم رمز الوطنية والقومية في هذه البلاد ، وان ما كشفته الاذاعة البريطانية عن حقيقة كون الحاج امين في أيدي الفرنسيين ، سبب انفجار مظاهر الاستحسان والتقدير لدى قرويي رام الله»^(٢٧)

ليس هذا فقط ، بل لقد جاء الوقت وكان هذا ايضا خلال ضعف قوة المفتي من الناحية السياسية ، واثناء ابتعاده عن الوطن ، أن ارتدت شخصيته ليس طابع البطل القومي لفلسطين - ولعل هذا مما يثير الاستغراب - بل ارتدت شخصيته طابع البطل القومي للامة العربية . وقد بلغت هذه الناحية قمته في بغداد .

فهناك كما يذهب هيرووتز «نمت شهرته من شهيد عربي فلسطيني، الى بطل القومية العربية، ولقد بلغ الأمر حداً انجرف فيه السياسيون المؤيدون لبريطانيا في هذه الناحية... وقبل نهاية ١٩٤٠ اصبح المفتي شخصية كبرى او عملاقة في السياسة الاهلية للعرب وبخاصة في العراق، حيث اصبح في امكانه ان يعين او يرقى او يطرد من يشاء من موظفي الحكومة... الى درجة انه كان وراء تعيين طه الهاشمي رئيساً للوزراء»^(٢٨).

ويؤكد الخالدي الذي عاصر وجود المفتي في بغداد الاحترام الشديد الذي كان يلقيه المفتي هناك: «لدرجة ان الناس اصبحوا ينتظرون رؤيته للتبرك به وان اركان الجيش كانوا يبدأونه بالزيارة قبل زيارتهم لسمو الوصي على العرش»^(٢٩) تلکم هي الجوانب او المقومات المختلفة لزعامه المفتي الوطنية. وستحدث فيما يلي عن دور هذه الزعامه المتطورة والمتنامية القوة والنفوذ بكل مقوماتها وابعادها ما قبل الثورة (١٩٣٦) وأثناءها وسط العوامل الذاتية لهذه الزعامه وتأثيراتها المختلفة والعوامل الموضوعية على مستوى التحدي الخارجي البريطاني- الصهيوني؛ وانعكاسات هذا التحدي على تطور الحركة الوطنية بمن فيها زعامتها.

مر دور هذه الزعامه في ثلاث مراحل اساسية أفضت المرحلتان الاوليتان الى المرحلة الثالثة وهي التي توجت بثورة ١٩٣٦ حيث كان للمفتي دور جذري تميز عن دوره في المرحلتين وكان نقطة تحول كامل...

المرحلة الأولى: نشاط وطني كبير (١٩١٦-١٩٢١).

ابتدأ محمد أمين الحسيني نضاله في وقت مبكر. فقد هجر خلال الحرب العالمية الأولى صفوف القوات التركية في أزمير وفر الى فلسطين ليلحق بفيصل بن الحسين قائد قوات الثورة العربية- ثورة للشريف حسين بعد ان جمع عددا كبيرا من المتطوعين للفلسطينيين؛ يذكر احد المؤرخين انه بلغ الف رجل^(٣٠).

وبانتهاء الحرب العالمية الاولى، ومع الاحتلال الانجليزي لفلسطين ابتدأ الحسيني

نشاطه السياسي . وقد كان الحافظ الاول لهذا النشاط استشعاره والفلسطينيين بعامة للخطر الصهيوني الذي رافق الاحتلال الانجليزي . فقد ظهر اول تنظيم سياسي كان للمفتي فيه دور جذري وهو الجمعية الاسلامية المسيحية ، كرد فعل مباشر للخطر الصهيوني ، الذي دق ناقوسه صدور وعد بلفور ، ووصوله الى فلسطين واطلاع العرب عليه بصفة رسمية . يقول السفري : « لم يكذب يطلع العرب على تصريح الجنرال بولز (وعد بلفور) حتى هبوا للجهد ومقاومة خطر الصهيونية »^(٣١) . كما تتفق مراجع كثيرة على ان الحركات السياسية في فلسطين كانت رد فعل مباشر للاحتلال الانجليزي^(٣٢) الذي التزم بالصهيونية بموجب وعد بلفور . وكانت الاحداث التي جاءت تالية لاصدار وعد بلفور قد زادت اهل فلسطين شعوراً بالغضب . فق آثارهم خطاب وايمن في مؤتمر السلام في باريس الذي قال فيه « ان فلسطين ستصبح يهودية كما ان انجلترا انجليزية »^(٣٣) ووصف الجنرال كلايتون الذي كان يشغل منصب الضابط السياسي للإدارة العسكرية في فلسطين بناء على اتصاله بالقادة والناس عامة في فلسطين ، السيطرة اليهودية على فلسطين بأنها « حلم رهيب للمسلمين والمسيحيين »^(٣٤) . اتخذ النشاط السياسي في هذه المرحلة وبالذات في الفترة الأولى منها صفة التوجه نحو سوريا الفيصلية وتوحيد فلسطين مع سوريا وقد تجلى هذا التوجه للذي كان فيه محمد امين دور كبير في المؤتمر الأول للجمعيات الاسلامية المسيحية في القدس في نوفمبر ١٩١٨^(٣٥) . ومما لا شك فيه ان هذا التوجه في قسم كبير منه كان نابعا من او امتدادا للتوجه الفلسطيني نحو القومية العربية قبل ذلك ، وفي هذه الفترة عمل الحسيني على تأسيس النادي العربي الذي عمل رئيسا له ، كما شارك في تأسيسه شخصيات اخرى من القدس ، وقد اعتمد هذا النادي كما اعتمد صنوه الآخر النادي الاول على الشباب المتنور ، الذي كان ينطلق من افكار تقوم على الايمان بالقومية العربية وتوحيد فلسطين مع سوريا^(٣٦) .

وقد اصدر عضوان نشيطان في هذا النادي هما عارف العارف ، وحسن البديري أول جريدة في فلسطين بعد الاحتلال ، باسم « سورية الجنوبية » وقد

انطلقت هذه الجريدة من ثلاث مبادئ رئيسية دافعت عنها بطريقة «قوية الحججة، شديدة اللهجة»؛ هذه المبادئ هي الوحدة السورية والاستقلال التام ورفض الهجرة الصهيونية ويبدو انها كانت أشبه بمدرسة فكرية «علمت الناس كيف تقاوم» كما يقول السفري^(٣٥)

وقد ارتبط بالناديين العربي والأدبي جمعيات اخرى، قليلة الاعضاء، ولكنها اكثر تمسكا بالسرية. ومن بين هذه الجمعيات جمعية «الإخاء والعفاف». ولعل اكثر هذه الجمعيات صلة بالحسيني هي «جمعية الكف الاسود» التي تأسست في عام ١٩١٩^(٣٦). وقد تأثرت هذه الجمعية بشخصية محمد امين الحسيني. فقد كان أعضاؤها يقسمون ان يفدوه بحياتهم. وكانت مهمة هذه الجمعية وغيرها من الجمعيات المشابهة توزيع المنشورات والمحافظة على الانضباط في الاجتماعات، كما انها كانت تشرف على تنظيم المظاهرات^(٣٧). كما يبدو انها كانت تعمل بالوسائل السرية للتخلص من العناصر الموالية لليهود من العرب^(٣٨) في سوريا: وبانتقال رجيل كبير من الفلسطينيين - لحاقا بالأمير فيصل الى دمشق - كان محمد امين الحسيني في طليعتهم. وهنا عمل الحسيني ومعه الفلسطينيون من خلال النادي العربي بدمشق الذي «غدا بيتا قوميا يلتقي في أهبائه وغرفه السياسية شباب الحركة، ورواد دمشق القادمون من مختلف الانحاء العربية»^(٣٩) كما عملوا من خلال جمعية النهضة الفلسطينية التي انشأوها لمناصرة القضية الفلسطينية والدفاع عنها واسماع صوت فلسطين^(٤٠).

وفي اول يوليو ١٩٢٠ انشأ محمد امين الحسيني مع رفاقه الفلسطينيين جمعية باسم «الجمعية العربية الفلسطينية» تعمل على جمع كل الجمعيات الفلسطينية وتوحيد غاياتها، وتسعى لمقاومة الهجرة الصهيونية. «وانتخبوا هيئة ادارية من ابراهيم القاسم عبد الهادي وامين الحسيني وسليم عبد الرحمن ومعين الماضي وعزه دروزه وعارف العارف»^(٤١).

ويظهر أنه ولدت في هذه الفترة بجهود محمد امين الحسيني لجنة الدفاع الفلسطينية التي اعتمدت على اعضاء من آل الحسيني، وكانت منظمة بطريقة

حسنة من قبل موسى كاظم وامين وجمال الحسيني ، الذين كان لهم تأثيرهم الكبير على الشباب الفلسطيني^(٤٢) .

وقد نجح الحسيني والفلسطينيون معه اثناء وجودهم بدمشق بتعريب القضية الفلسطينية ، وتمكنوا في فترة وجيزة من خلق جبهة عربية مترابطة حول شعار مقاومة الصهيونية وقد تجسد الحماس العربي في مظاهرات استنكار كبيرة لموقف الحلفاء الصهيونية ؛ تمت بمناسبة زيارة سايكس لدمشق حتى لقد روى عنه قوله : « ان هنالك على الأقل قضية رئيسية تلتقي عليها جميع الفئات والافرقه العربية ألا وهي الصهيونية »^(٤٣) كما أن دور الفلسطينيين لم يقتصر على المظاهرات بل تطور موقفهم الى القيام بممارسة العمل المسلح عبر الحدود الفلسطينية من دمشق نفسها^(٤٤) .

الى فلسطين ثانية :

ويعود الحسيني والفلسطينيون الى فلسطين الذي جاء بعد سقوط حكومة فيصل عام ١٩٢٠ الذي اطلق عليه عام النكبة^(٤٥) استأنف الحسيني مع غيره من الشباب الفلسطيني النضال بأساليب مختلفة يمكن اجمالها فيما يلي :

- ١ - الدعاوة والتنظير : وقد شملت اصدار البيانات والمذكرات والاحتجاجات والنداءات والبرقيات ، واقامة الاحتفالات المسيسة ، والقاء الخطابات ، وكتابة المقالات الصحفية ، وكذلك وضع المفهومات الكبرى للنضال الوطني ، التقت جميعها على وضع الصيغة العربية ، في مواجهة الصيغة الصهيونية ، ورفض الصهيونية رفضاً مطلقاً . ويعزو جون كمشي الى محمد امين الحسيني ، انه كان المحرك الاول لهذا الرفض العربي للصهيونية ، حتى ليقول عنه انه صاحب الالات الثلاث منذ عام ١٩٢٠^(٤٦) .
- ٢ - التظاهرات السياسية وأساليب العصيان والانتفاضات : ولعل ابرزها في هذه الفترة هي ما شارك به محمد امين الحسيني ، ومعه الناديان العربي

والأدبي والجمعيات، من دور بارز في الاحداث الدامية لا نتفاضتي
١٩٢٠، ١٩٢١. وعلى ما يظهر كان للحسيني وعارف العارف دور

أساسي في احداث احتفالات النبي موسى ١٩٢٠^(٤٧) بصورة خاصة.

٣ - عقد المؤتمرات وايفاد الوفود: وق انعقد في هذه المرحلة القسم الأول من
المرحلة الثانية ست مؤتمرات. خمس منها على أرض فلسطين (والسادس
منها ترتيبه الثاني في دمشق). وامتازت قراراتها بالفرض المطلق لوعد بلفور
وسياسة اقامة الوطن القومي، كما ناديت كبديل لذلك بإنشاء حكومة
وطنية ممثلة تمثيلاً حقيقياً لأبناء البلاد^(٤٨).

ويأخذ جون كمشي على سبيل المثال على المؤتمر الثالث انه جذر، أو اصل
فكرة عدم قبول الصهيونية في فلسطين، من خلال رفض المؤتمرين لفكرة الوطن
القومي اليهودي؛ ويشبه ميثاق المؤتمر بميثاق فتح الحالى، الذي لا يخلو من مغزى
بطبيعة الحال^(٤٩).

وقد انبثق عن هذه المؤتمرات فكرة ايفاد الوفود من اجل عرض القضية الفلسطينية
على الرأي العام العالمي والحصول على شروط مناسبة حولها، من السلطات
البريطانية.

المرحلة الثانية (١٩٢١ - ١٩٢٩) مرحلة الركود والضعف:

تميزت هذه الفترة بقبول محمد امين الحسيني بالتعايش مع الانتداب. ولو أنه لم
يقبله من حيث المبدأ. فمع عودة المفتي من منفاه في شرق الأردن حيث كان قد
فر بعد ان حكم عليه غيايباً بالسجن خمسة عشر عاماً، بدأت مرحلة جديدة في
تاريخه، وتاريخ الحركة الوطنية عامة. فقد قبل المفتي بمنصب الافتاء عام ١٩٢١ كما
قبل برئاسة المجلس الاسلامي الاعلى، وهكذا بدأت في الحركة الوطنية - زعامة
وجماهير - فترة كانت اقل عطاء وزخماً، من حيث الممارسات الوطنية. وهنا تخلت
الحركة الوطنية عن الكثير من اندفاعها ورومانسيتها التي شهدتها المرحلة الأولى،

ودخلت في مرحلة هادنت فيها الاستعمار، أو على الأقل لم تصنفه على أساس انه العدو الرئيسي، او التناقض الرئيسي، مع انها بقيت على رفضها القاطع للصهيونية واعتبارها رأس الشرور. ومع ان المفتي لم يتخل من الناحية النظرية عن ايمانه بالعنف نحو بريطانيا والصهيونية، ورفضه لسياسة الانتداب التي تكرس الوجود الصهيوني، نجد شاهده في قول مالرو: «احتقر المفتي الحلول الوسط وامكانية الاحتواء من سياسة الانتداب شأنه شأن سياسي المؤتمرات (الفلسطينية) وزاد على ذلك ان رفضه لم يكن اشارة المقصود منها التفوق على منافسيه، بل كان وطنيته لا تخطيء»^(٥٠). الا انه من الناحية العملية «جمد موقفه من العنف»^(٥١)

وهنا تتضارب الآراء حول هذا التناقض او التداخل في موقف المفتي بين رفض قاطع للصهيونية، ورفض نظري للانتداب من ناحية وعدم اتباع سياسة الرفض هذه بما يصدقها من الممارسات الفعلية، والنضال العملي ضدّهما، (أي الصهيونية والانتداب) من الناحية الاخرى. وهناك من يقول ان المفتي استهواه المنصب، وانه تخلى عن العنف حتى يفرق في رخاء هذا المنصب، ويرأس من خلال المجلس الاسلامي الاعلى جهازا اشبه بالدولة داخل الدولة^(٥٢) او انه هبط الى مستوى الصراع العائلي والحزبي وغلبه على التناقض الوطني.. وهكذا سقط ضحية سياسة فرق تسد التي تصد اليها الانتداب بشق الشعب الفلسطيني الى فئتين متصارعتين: الحسينيون والنشاشيبيين؛ بدا اثره في تولي راغب النشاشيبي لمنصب رئاسة بلدية القدس بدلا من موسى كاظم الحسيني الذي عزلته السلطة نظرا لموقفه الوطني في انتفاضته (١٩٢٠)؛ وتعيين فخري النشاشيبي موظفا في مكتب حاكم القدس^(٥٣).

وهكذا فقد اتسمت هذه المرحلة بأن اكبر شخصيتين في تاريخها ربما في تاريخ الانتداب قاطبة وقفنا لبعضهما بالمرصاد؛ ولم يستطيعا بحكم المنصب ان يسهما اسهاما جديدا في تيار الحركة الوطنية.

ولعل قبول المفتي بمنصب الافتاء، ورغم انه اعتبر في حينه انتصارا للحركة

الوطنية وتلبية لرغبات قطاع كبير من مسلمي فلسطين؛ من أكثر نقاط الضعف في تاريخه السياسي كله. وقد تركز النقد لهذا الموقف في مجمله على انه كان الأولى بالقيادات الفلسطينية: حسينية ونشاشيبية وغيرها الاستمرار على روحية المقاطعة، والرفض، والاستقلال الوطني الكامل، التي كانت شعار المؤتمرات التي كانوا هم أنفسهم أقطابها، وان يمتنعوا عن تسلم الوظائف من بريطانيا؛ وعلى هذا وكما يذهب الدكتور حسين فخري الخالدي في مذكراته، ويؤيده بوارث، فانهم سيجبرون الحكومة على الاعتماد على الموظفين اليهود؛ الأمر الذي كان سينتج عنه المزيد من المرارة والتعبئة المضادة لكل من الانجليز واليهود. أو انهم سيعلمون حرب مقاطعة على الانجليز تضطربهم لاعادة النظر فضلا عن ان مقتضيات المنصب الحكومي تمنع من القيام بواجبات الزعامة القومية كما ينبغي ان تكون^(٥٤) ونحن نجد لسان حال المواطن العادي في فلسطين في مقالة افتتاحية بعنوان «اكبروا» وردت في الكرمل وجاء فيها: «دعوا الحاج أمين في مجلسه، وراغب في بلديته، فالموظف مهما كان كبيرا وطيبا لا يستطيع القيام بأمر الزعامة القومية، ومطالب قيادة وطنية؛ في حكومة اجنبية على بلاده، وفي حالة كحالتنا، قضيتنا تحتاج الى زعامة مجردة طليقة بغير قيود الغيرة على سلامة الوطن»^(٥٥).

على أننا ينبغي ان لا نأخذ هذه الآراء على علامتها او على انها حقائق مسلم بها. بل ينبغي ان نذهب الى ابعد من السطح في الحكم على موقف المفتي والحركة الوطنية بعامة. كما اننا ينبغي ان ندرس موقف المفتي في ظل الظروف الموضوعية التي هيمنت على الأوضاع الفلسطينية في هذه المرحلة فسلكتها في هذا المسلك الذي سلكته.

ولعلنا نستطيع أن نجد تفسيراً لهذا التباين في موقف المفتي والحركة الوطنية بعامة بين الشعارات أو النظر وبين الواقع أو التطبيق في العوامل التالية:

١ - اعتقد بعض القادة، ولعل في طليعتهم المفتي، ان باستطاعتهم ان يحاربوا الانتداب من خلال الصهيونية وانهم بقضائهم على الفرع الا وهو

الصهيونية يستطيعون ضرب الأصل وهو الانتداب . يقول احد مؤرخي الانتداب: « كان الساسة العرب الدهاة سريعين في الاستجابة الى مقتضيات ومقاليد القيادة التي منحت لهم وبدلا من المحاربة الجهرية للانتداب ، وضعوا برامج الوطن القومي في طليعة المعركة ضد الانتداب ، جاعلين من هذه البرامج هدفا مزعوما لانتفاضاتهم الشرسة ، التي تميزت بالحدق والدعاية العنيفة»^(٥٦) ويعلل جون كمشي قبول المفتي لمنصب الافتاء ورئاسة المجلس الاسلامي الاعلى بانه انما حاول ذلك من أجل ان يدق اسفينا بين الانجليز واليهود «لقد حذر العرب بأن يكونوا اذكيا كأعدائهم وعليهم ان يدقوا اسفينا بين الانجليز واليهود بدون ان يبدو عليهم انهم يفعلون ذلك .. الشيء الهام هو عزل اليهود عن الانجليز»^(٥٧) ولعل التركيز على مقاومة الصهيونية دون الانجليز يعود الى عجز الحركة الوطنية امام القوة العسكرية البريطانية . ويتفق بوراث والكيالي على ان العرب في فلسطين تعرضوا لضربات عنيفة من القمع الانجليزي؛ كما حصل في انتفاضة عام ١٩٢١ ، اذ ان خسائر العرب البشرية والمادية لم تكن اقل من الخسائر الصهيونية^(٥٨) ومع ذلك فان الجمعيات الاسلامية المسيحية والحسينيين «رفضوا على الدوام أي إطار يفسر على انه موافقه على تصريح بلفور»^(٥٩)

٢ -

وهذا يقودنا الى العامل التالي من عوامل عدم وضوح الرؤية وعدم الانسجام بين الشعارات والتطبيق ذلك ان اللعبة السياسية كانت ذات أطراف ثلاثة: انجليز وعرب وصهيونيين . وعلى ما يظهر فان بريطانيا كانت امهر اللاعبين . فقد تمكن الحكم البريطاني من أن يأخذ دور الوسيط أو الحكم ، واعتبر نفسه ، ولمدة طويلة ، وكأنه فوق الخلافات الجزئية ، وبريء من الصراع العربي الصهيوني ، مما ساعده على توطيد اركانه وقواعده . واكثر من ذلك فان بريطانيا امعانا منها في لعبتها السياسية جعلت كلا من العرب واليهود يحس ان الدولة معه . ولقد كان لليهود

عذرهم في هذا التصور او الشعور^(٦٠) ولكن العرب على ما يظهر خدعوا عن انفسهم . وعلى اية حال فقد طرح كل من الطرفين في بعض المراحل شعار: «الدولة معانا» مما زاد في غموض الاشياء ويذهب أهارون كوهين، وهو من اكثر المؤرخين اليهود دقة، في كتابه «اسرائيل والعالم العربي» الى ان التأثير البريطاني- ضمن اشياء أخرى- كان وراء عدم اللقاء العربي اليهودي . يقول: «وبعد سنوات عندما استعرض كالفرسكي موقف اللجنة الصهيونية من الاقتراحات التي قدمها ليفصل في دمشق والأسلوب المتبع من القيادة العربية . وجد توازنا او تقابلا بين الأسلوب السائد آنذاك في المؤسسات الصهيونية، واسلوب القيادة العربية، فاليهود حينئذ والعرب بعد ذلك، كما قال هو (كالفرسكي) كانوا يعتقدون (أن الدولة معانا) .

ولما كانت الحكومة معهم أو بجانبهم فما الداعي اذن الى اتفاق او تفاهم مع الطرف الآخر» .

ومع هذا فإن موقف المفتي لا يمكن ان يفهم الا بدراسة الظروف الموضوعية التي مرت بها الحركة الوطنية في المرحلة الثانية من تطورها (١٩٢٢ - ١٩٢٩) فقد مالت الحركة الوطنية الفلسطينية في هذه المرحلة الى الركود والضعف ولعل هذا الموقف يجد تفسيره واسبابه في الظروف الموضوعية التالية .

١ - ضعف التحدي الخارجي الذي كان وراء قوة الحركة الوطنية ومن ثم الحركة السياسية في فلسطين . فالحركة الوطنية التي كانت تعمل دائما بقانون رد الفعل، وليس بقانون الفعل والمبادهة، كانت محكومة وظلت على ذلك- وكما سنرى- بمقدار ما تقابل من اخطار وما يحيط بها من تحديات . وعلى هذا فقد كان لضعف الحركة الصهيونية في هذه المرحلة على المستويين المحلي والعالمي، الذي بدا اثره في قرارات كارلسباد^(٦١) . كما

بدا في ضعف تيار الهجرة الى فلسطين^(٦٢)، وصل معها في بعض السنوات الى ان عدد المهاجرين كان أكثر من الوافدين اليها^(٦٣) ان أكثر من هذا الضعف ترك أثره على الزخم الوطني الفلسطيني؛ واحس العرب بأن الحركة الصهيونية حركة قصيرة الأجل، ولا تستحق الخوف منها. ولقد سجل تقرير بيل هذه الحقيقة بقوله: «ان من المعقول ان السبب الرئيسي للهدوء والاذعان العربيين كان بسبب الانحطاط في حظوظ ومصير الوطن القومي»^(٦٤).

٢ -

تشديد القبضة الانجليزية على البلاد: غفل العرب الفلسطينيون أو تغافلوا عن الخطر الاستعماري البريطاني؛ بينما استمر هذا الاستعمار في احكام سيطرته على فلسطين، وعين مندوباً سامياً بمقدرة وسطوة بلومر، الذي يعزو اليه سايكس السلام الطويل خيم على فلسطين طوال العشرينات. كما يعزو الى تغييره بآخر هو شانسلور الاضطرابات التي لحقت هذا التغيير^(٦٥). كما انه استمر في ممارسة اسلوبه المعروف «فرق تسد» الذي احرز قدراً كبيراً من النجاح. فقد امسكت السلطات البريطانية بتلابيب أجنحة الحركة الوطنية جميعاً وقيدتها بقيود مختلفة أهمها المناصب التي سبق الاشارة اليها^(٦٦).

ومن هنا ظهر في الحركة الوطنية ظاهرة يطلق عليها عزة دروزه «الوطنية الخنثى» التي لا ترى محاربة الانجليز ومن يتعاون معهم، بل صار من المستحسن على حد تعبيره «ان تبقى تلك الصلة مع من يساير الانجليز ويتصل بهم» وعلى هذا استمرت الحركة الوطنية في طريق الانحدار. وعلى أية حال ومع كل هذه الآراء التي تنتقد موقف المفتي وقد تبالغ احياناً في ذلك ربما الى درجة الادانة أو التي قد تأخذ بعين الاعتبار اجتهاده الذاتي او الظروف الموضوعية التي مرت بها الحركة الوطنية، ينبغي ان نقول ان المفتي لم يتخل عن النضال. فقد عمل المفتي على

مقاومة انتخاب المجلس التشريعي الذي كان مجلسا ارادت منه بريطانيا اضافة الشرعية على وجودها.. كما ارادت منه ان يكون بديلا عن الحكومة الوطنية^(٦٧) فقد شن المجلس الاسلامي الأعلى الذي كان قد تأسس في يناير ١٩٢٢- نفس فترة الانتخابات- بقيادة المفتي الحاج امين الحسيني شن حملة كبيرة ضد هذا المجلس. فقد ادجج الأئمة والخطباء موضوع المجلس في خطبهم واعتبروا مقاطعها واجبا دينيا. بل اخذوا اليمين على المصلين بأن لا يشاركوا في الانتخابات^(٦٨).

ولعل لدور المجلس مع غيره من اطراف الحركة الوطنية ان تحولت الحملة ضد الانتخابات للمجلس الى انتصار باهر وعمل متقن وصفه نجيب نصار بقوله: «خرج عرب فلسطين من معمعة الانتخابات يزينون رؤسهم بأكاليل الظفر وخرجت منها الادارة ولديها البرهان الجلي الساطع على أن أهل فلسطين غير راضيين عن هذا الدستور الذي يجردهم من الجانب الاكبر من حقوقهم ويضعها في يد سعادة المندوب السامي وموظفي ادارته ليمنحوها لليهود أو الصهيونية الذين ليس لديهم أدنى حق مشروع غير ما منحهم اياه السياسة البريطانية بالقوة»^(٦٩) المجلس الاستشاري المعين الذي ارادت الحكومة البريطانية الاستعاضة به عن المجلس التشريعي المنتخب^(٧٠).

ولعل اعظم الادوار التي مارسها المفتي خلال هذه الفترة هو دوره في تحويل المجلس الاسلامي الأعلى الى كيان ميسس^(٧١) بل تذهب بعض المصادر الى ان المفتي اعتبر المجلس الاسلامي الوسيلة الوحيدة للانقاذ امام خطر الاحتلال البريطاني والغزو الصهيوني^(٧٢).

ولعل دور المفتي السياسي في المجلس الإسلامي الأعلى كان تعويضا عما ارادت له السلطات عندما قبلت بتعيينه مفتيا عام ١٩٢١ من أجل ان تنأى به عن السياسة فرد هو على ذلك بأن احضر الدين الى السياسة^(٧٣) ولقد تميز المجلس الاسلامي الأعلى ببيكلية تنظيمية بلغت بتأثيره الى اقصى البلاد. بل اصبح المفتي

الزعيم السياسي الأكبر للمسيحيين العرب كما هو للمسلمين العرب^(٧٤) وكما أشرنا أيضاً اعلاه. ولم يمضي كبير وقت حتى انخرط هذا المجلس في الممارسات السياسية، حتى احتل مركز الصدارة في العمل الوطني، وحل الى حد كبير محل الجمعيات الاسلامية المسيحية من حيث القوة والتأثير^(٧٥) ولعل اهم ما اضافه المفتي- ومن خلال هذا المجلس- الى الحركة الوطنية الفلسطينية او القومية الفلسطينية، هي انه وجهها وجهة جديدة بإحياء الاهتمام لدى العالم الاسلامي عموماً بمصير فلسطين^(٧٦). بل لعل سرّ قوته هو انه جعل القدس وفلسطين (الديار المقدسة) مناط عمله، ونشاطه الرئيسي، قبل اي شيء آخر^(٧٧)

وعلى الرغم مما ولد هذا المجلس من خصومات محلية اضرت بسمعته وبالحركة الوطنية، فإنه مع ذلك ظل مركزاً من مراكز ثقل الحركة الوطنية بل ان السفري ليعده: «أول وأعظم مؤسسة وطنية تشكلت في البلاد»^(٧٨)

كما انه اتيح لرئيسه صلاحيات غير محدودة في تعيين موظفيه أو التخلي عنهم^(٧٩)، الأمر الذي جعله يختارهم على عينه ومن المخلصين له ولخطه السياسي بصفة خاصة^(٨٠) وتصف اوراق يتجارت علاقة المفتي بالعاملين في المجلس الاسلامي بأنها تشبه العلاقة بين الشيخ الصوفي ومريديه^(٨١) مدرسة كاملة في الرأي والتوجه والممارسات. ولقد تطور هذا المجلس بمرور الوقت بحيث اصبح للمفتي جهاز ديني سياسي كامل، كثيراً ما وصفته المصادر بانه دولة داخل دولة أو حكومة داخل حكومة^(٨٢) كما ان كوادر هذا الجهاز من ائمة ووعاظ وخطباء وغيرهم شكلت وسيلة للاتصال بقطاع عريض من الشعب وخاصة الفلاحين ولقد كان الاحتفال السنوي بموسم النبي موسى، حيث كانت جماهير غفيرة تخرج للقدس في طريقها الى مقام النبي موسى بالقرب من اريحا، مناسبة للالتقاء بالمفتي الرئيس الروحي للمسلمين عبر هذا الاحتفال، من اجل تجديد معاني التأييد والولاء، مما زاد في شعبيته وتوسيع معاني زعامته^(٨٣) (توكيد المؤلف).

وعلى ما يظهر فان اتصال المجلس الاسلامي الاعلى بهذا القطاع العريض من

الشعب انعكس على توجهه واصبغ عليه صفة شعبية سيكون لها تأثير كبير على مسيرته له وتبنيه للخط الوطني الشعبي الراديكالي في الثلاثينات كما سنرى .

ورغم ان تقييد المفتي بهذا المنصب ، كما اشرنا ، قلل الى حد كبير من اندفاعه الوطني ، الا انه تمكن من ان يعطي لهذا المجلس طابعا وطنيا تجاوز به الطائفة الاسلامية لتشمل الوطن بجميع فئاته . كما اعتبرته جريدة الكرمل طليعة الحركة الوطنية^(٨٤) ويصفه اميل الغوري ايضا بأنه « الحصن الأول للحركة الوطنية » ويقارن هذا الكاتب بين دور اللجنة التنفيذية للجمعيات الاسلامية المسيحية والمجلس الاسلامي الأعلى - عندما يوضح دور كل من قائدي هاتين المؤسستين فيقول : « على الرغم من أن موسى كاظم باشا كان زعيم البلاد ، وقائد حركتها الوطنية وان اللجنة التي كان يرأسها كانت تمثل الشعب الفلسطيني وتنطق باسمه وتتحمل مسؤولية القضية الوطنية ، فاننا كنا نشعر بأن الحاج امين كان القوة الدافعة ومركز الثقل في المقاومة الفلسطينية »^(٨٥)

ويصف كرسنوفر سايكس المفتي بأنه كان أصلب ارادة واكثر مقدرة من موسى كاظم الحسيني^(٨٦) ويجدر بنا هنا ان نذكر بقول مالرو ان وطنية المفتي أو ما يسميه ، رفضه لم تكن وسيلة يير بها اقرانه أو يزايد عليهم بمقدار ما كانت حقيقة لا تقبل الشك أو الخطأ^(٨٧)

ولقد جاء الوقت الذي انسحب فيه اسم المجلس والمجلسين على مجمل الحركة الوطنية (بمن فيها الجمعيات الاسلامية المسيحية) وصار هذا الاسم يعني المعارضة . بينما اصبحت المعارضة . تطلق على من يعارض هذا المجلس الذي يعارض الحكومة^(٨٨) وفضلا عن ذلك فقد شكل المجلس الاسلامي الاعلى مع الجمعيات الاسلامية المسيحية واللجنة التنفيذية عروة لا تنفصم وتحالفا لا يتزعزع . واطلق على هؤلاء جميعا اسم الجبهة الوطنية واعتبروا انفسهم الحركة الوطنية واعداهم معارضيه^(٨٩) .

المرحلة الثالثة: (١٩٢٩ - ١٩٣٩) استئناف النشاط وسياسة العنف:

تميزت هذه المرحلة في حياة المفتي بانها كانت مرحلة التحول الى الثورة على بريطانيا، التي بلغت اشدّها في اواخر عام ١٩٣٦؛ عندئذ وخلال ثورة ١٩٣٦ تمكن المفتي من تحقيق عملية الاختراق الكبرى في تاريخه. من مهادنة الانتداب الى الانتفاض المطلق عليه. وهي عملية يمكن تشبيهها بمسيرة الملح بالنسبة لغاندي، او كرفض المجتمع الفرنسي بالنسبة لسيكوتوري في غينيا^(٩٠) ولم يُعدّ المندوب السامي واكهوب الحقيقة عندما كتب يصف موقف المفتي بين الأمم واليوم، في سبتمبر ١٩٣٦، الى باركنسون في وزارة المستعمرات البريطانية ويخبره: «ان مفتي اليوم غير ما عهدناه قبل سنة او سنتين»^(٩١). وهنا نجد ان وزير المستعمرات يعتبره «العبقريّة الشريرة»^(٩٢) ولم يكن هذا التقييم لموقف المفتي - على سلبيته (اي التقييم) - الا انعكاسا أو رد فعل لدور المفتي الكبير في الثورة الذي سنوضحه فيما سيأتي.

وعلى أية حال فإن موقف المفتي - المعارض لبريطانيا - هذا لم يتم دفعة واحدة أو بين عشية وضحاها. بل تطور تطورا تدريجيا.. ونجم عن تفاعل زعامة المفتي بما اكتسبته من كاريisma عبر السنوات الطويلة مع مطامح الجماهير. كما انه تزامن او تصاقب مع انبعاث الحركة الوطنية في مرحلتها الثالثة الذي تلا، أو جاء بعد انتفاضة ١٩٢٩، واحداث البراق. وقد تميزت مرحلة الانبعاث هذه في حقيقتين كبيرتين أو اساسيتين:

الحقيقة الأولى ان هذه المرحلة من حيث التنظيم كانت مرحلة الحركة الشعبية التي تمثلت بمشاركة قطاعات كبيرة من الشعب في العمل السياسي: شبانا وطلابا، عمالا وفلاحين، مثقفين وطبقة وسطى^(٩٣) والحقيقة الثانية ان هذه المرحلة من حيث الممارسة كانت مرحلة الثورة والصدام المباشر مع بريطانيا بلغ اقصى مراحلها في ثورة ١٩٣٦.

وقد ارتبطت هذه المرحلة بظروف معينة أملت لها وحددت مسارها. فقد توفرت للحركة الوطنية ظروف متعددة أحس فيها الشعب الفلسطيني بعمق التحدي من الناحية الواقعية أو الفعلية. ويمكننا أن نجمل نواحي التحدي كما برزت أو انعكست على الفلسطينيين العرب على النحو التالي:

١ - التحدي البريطاني الذي تجلّى في الأسلوب القمعي من قبل السلطات في اخماد هبة البراق^(٩٤).

كما تمثل هذا التحدي السياسي في اهمال توصيات لجنتي شو وسميون في انصاف العرب وايقاف الهجرة وتحديد بيع الأراضي^(٩٥) وقد نجم عن هذا العنف البريطاني في التعامل مع العرب الفلسطينيين، فضلا عن اهمال المطالب المشروعة لهم، ان شعروا ان الصهيونية محمية بالحرب البريطانية، كما انهم استيقظوا على الاستيقان من مفهوم اساسي، الا وهو ان الخطر البريطاني أولى بالمقاومة، وان بريطانيا هي عدو العرب الأول. «وأصل البلاء واساس الداء» كما سيصبح شعار المرحلة. وعلى هذا فقد اصبح لسان الحركة الوطنية، ما ذكرته الجامعة العربية، جريدة المفتي،: «اركلوا الصهيونية بأقدامكم وقفوا وجهاً لوجه أمام بريطانيا العظمى. فالصهيونية ليست سوى مشروع اجرامي تشجعه بريطانيا وتحميه حرب جنودهما. وهي تهدف الى قمع العرب واخضاعهم لارادتها»^(٩٦).

٢ - التحدي الصهيوني وقد تمثل هذا التحدي في:

أ) التحدي الديني الذي برز واضحا في أحداث البراق وكان مظهرا من مظاهر التعصب.

ب) التحدي السياسي ومقاطعة العرب: فقد وضع للعرب الفلسطينيين انها حركة توسعية استيطانية شوفينية انغزالية^(٩٧)، ليست على استعداد للتعايش مع العرب كما هي روح الكتاب الأبيض ١٩٢٢.

(ج) تزايد الهجرة: لم يحس العرب بشيء كما احساسوا بخطور الهجرة الصهيونية الى فلسطين وما استتبعه من شراء الأراضي. لقد كانت الهجرة بما قذفته من اعداد كبيرة على شواطئ فلسطين تجسيدا كاملا للخطر الصهيوني من الناحية البشرية. وقد انعكس هذا الخوف من الهجرة الجماعية في الأدب السياسي الفلسطيني. فبينما قالت الجامعة العربية «هجرة الألوف بعد المئات اما لهذا الليل من آخر!»^(١٨)، دون السكاكيني في مذكراته: «حالة البلاد تسير من سيء الى اسوأ. كل يوم تقذف البلاد بمئات من المهاجرين اليهود. كل يوم تباع قطعة كبيرة بعد قطعة كبيرة»^(١٩).

ولعل هذه التحديات مجتمعة هي التي قوت نزعة التصدي للتحدي الخارجي بين الجماهير الفلسطينية وترك اثره على الزعامة الفلسطينية وفي طبيعتها المفتي وكانت الاجابة الكبرى على هذا التحدي في ثورة ١٩٣٦، كما أشرنا أعلاه. وهنا نجد ان دور المفتي تمثل فيما يأتي:

١ - راهن المفتي على الشباب الفلسطيني الراديكالي وبذلك واكب التيار التقدمي للحركة الوطنية. وقد ابتدأ بهذا منذ نهاية العقد الثالث من هذا القرن وبخاصة بعد احداث البراق. وكان اعتماده في هذا على جمعيات الشبان المسلمين الراديكالية^(٢٠)

٢ - تبني قضية البراق تبنياً كاملا. وقد ظهر ذلك واضحا على صفحات الجامعة العربية (٢) وعلى الرغم من عدم وجود الأدلة على اشتراك المفتي اشتراكا مباشرا في انتفاضة ١٩٢٩، كما شهدت بذلك لجنة شو^(٢١) التي اعتبرت الانتفاضة عملاً عفويا.. على الرغم من ذلك الا ان ما القى به المفتي من ثقل، قبل الانتفاضة وبعدها، في تيارها، وما قام به من جهود كبيرة قانونية واعلامية، جعلت اسم المفتي هو الأكثر توهجا، واعطته صفة المدافع الأول عن المقدسات الاسلامية في فلسطين. وبالتالي

وبالنظر لذكاء المفتي في تحويل القضايا الدينية الى قضايا وطنية سياسية الطابع، تحول هو ايضاً الى زعيم سياسي راسخ معاني الزعامة.

٣ - بجهود المفتي عقد المؤتمر الاسلامي في القدس ١٩٣١ وقد جاء انعقاد المؤتمر الإسلامي على اثر اجتماع سبقه واتعقد في نابلس في سبتمبر ١٩٣٠ ضم انصار المفتي وكان « هدفه الرئيسي ابقاء البلاد في حالة من الهيجان شبيهة بالحالة التي كانت عليها عام ١٩٢٢ عندما رفضت ايجاد مجلس تشريعي أو وكالة عربية»^(١٠٢) وعلى اية حال فقد دارت مداولات هذا الاجتماع حول الموضوعات التالية:

- ١ - طالما ان الحكومة البريطانية تحكم البلاد بصورة مباشرة فان أي جهد عربي للتعاون معها محكوم عليه بالفشل
- ٢ - ينبغي على العرب ان يوجهوا دعايتهم في المستقبل الى الشرق، والعالم العربي. وكحياة للديار المقدسة فان العرب لا يجدون افضل من تأييد العالم الإسلامي»^(١٠٣)

كان المؤتمر الإسلامي ترجمة لهذا التوجه نحو العالم الإسلامي. وبالرغم مما لقيه هذا المؤتمر من معارضة محلية اشعل أوارها ونفخ في بوقها المعارضون المحليون للمفتي من جماعة النشاشيبي، الذين نفسوا عليه ما احاطه المؤتمر به وهو الداعي له، من هالة اسلامية عظيمة^(١٠٤) اقول بالرغم من المعارضة المحلية فقد استطاع المؤتمر الفلسطيني وضع القضية الفلسطينية في اطار عالمي^(١٠٥). كما بدا في هذا المؤتمر هجوم واضح على بريطانيا. ففي الجلسة العاشرة التي عقدت في ١٩ ديسمبر تلقى المؤتمر اقتراحات من حمدي الحسيني، باستنكار الاستعمار ومقاومته^(١٠٦).

ولقد سجل هذا المؤتمر في محصلته النهائية لحساب المفتي لدرجة انه كما يذهب البعض حقق مجداً شخصياً لنفسه ودعم مركزه ونفوذه في أنحاء العالم الإسلامي، بحيث تحطت شخصيته الحدود، بعد هذا المؤتمر، واصبح، وبخاصة بعد وفاة

فيصل الأول عام ١٩٣٣، وموسى كاظم الحسيني عام ١٩٣٤، من ابرز الشخصيات في العالم العربي^(١٠٧) ويؤيد بوراث هذا المعنى بطريقة اخرى عندما اعتبر المؤتمر «نجاحاً لأمين الحسيني بالمفهوم الدولي»^(١٠٨).

وكما كان للمفتي دوره الكبير في المؤتمر الإسلامي العام فقد كان له دور في انتفاضة ١٩٣٣ فقد اعتبر الحسينيون: المفتي وكاظم وجمال هم محركوها^(١٠٩)

جاءت انتفاضة اكتوبر ١٩٣٣ اول مواجهة حقيقية دامية مباشرة وعامة بين العرب والانجليز. ومن هنا فقد اعتبرها المؤرخون منعطفا في تاريخ العلاقات العربية الفلسطينية مع بريطانيا. بل ان هايسون اعتبرها هي الفارقة او الفاصلة بين عهدين؛ عندما قسم عهد الانتداب الى قسمين الأول قبل عام ١٩٣٣ والثاني ما بعد ١٩٣٣ ويضيف الى ذلك قوله: «لقد كانت الطلقات التي انطلقت في اكتوبر ١٩٣٣ الأولى من حيث أثرها في الثورة العربية التي توجت في ثورة على مستوى الوطن جميعه ضد البريطانيين^(١١٠)» ويصف عزة دروزه احد المشاركين في هذه المظاهرات انتفاضة يافا بقوله: «كانت ساحة السراى كأنها ساحة حرب» لكثرة ما استجلبت السلطات من افراد البوليس الذين يلبسون الخوذات ومن ورائهم صفوف الخيالة^(١١١) ويعمم السكاكيني هذه الصورة السابقة على جهات فلسطين جميعها فقد سجل في مذكراته بتاريخ ٢٨/١٠/١٩٣٢: «لقد كانت فلسطين امس واليوم ساحة حرب مظاهرات في كل مكان. هجوم على مراكز البوليس، ومحطات السكك الحديدية قتلى وجرحى بالمئات. المستشفيات غاصة. والنفوس تضطرم غضبا. وماذا يجيء به الغد علمه عند ربي^(١١٢)» ومهما يكن من أمر، فان تحول المفتي الكلي نحو معارضة بريطانيا لم يكن قد آن أوانه بعد.

فقد بدا بالرغم من سير الحركة الوطنية في مجملها نحو التشدد والراديكالية انه لم يأن الأوان بعد لكي تحل زعامة الحركة الوطنية معادلتها الصعبة مع الانتداب تعارضه كلياً او تحالفه كلياً. ومع هذا فقد قام واكهبوب بتسهيلات كبيرة للمفتي في الاوقاف وعقد معه اتفاقاً وصفه بانه مهر «علاقاتي الشخصية الممتازة مع المفتي وغيره من اعضاء المجلس الإسلامي الأعلى»^(١١٣) كما ان المعارضة

حظيت بنعم السلطة وتعيين «ابناء الذوات في المناصب حتى ان بعضهم اعلن انه بفضل التعاون مع الحكومة على البقاء في اللجنة التنفيذية»^(١١٤).

ولم يكن هذا التناقض في موقف الزعامة بغائب عن الضمير الوطني او الحس الوطني بل اخذ النقد لهذا الموقف شكلاً حاداً احياناً، مما زاد في بلورة موقف الزعامة ضد بريطانيا ولقد عبر ابو رزق في مقال في «النفير» تحت عنوان «اخفاق الزعامة المزيفة» عن تطور المقاييس التي يقيس بها المواطن الزعامة ويحدد لها موقفها؛ وكيف ينبغي ان يكون. مما هو علامة او اشارة على تطور الشعور والوعي القومي الى درجة لا تقبل بالتساهل، الذي ربما قبل به في السابق اثناء ضعف الحركة الوطنية في العشرينات. وعلى هذا فقد عملت الزعامة الوطنية الى تقريب الفجوة بينها وبين القواعد مما سنلمس اثره واضحاً في ثورة ١٩٣٦. قال المقال: «والقى القدر الأعمى زعامة فلسطين الى رجال أو عائلات، فقيرى الانفس والهمة وضعيفي الأخلاق الفاضلة إلا من الانانية. فذهب هؤلاء المتزعمون الى احتكار الزعامة الوطنية والتلبس بالاخلاص المنكشف، ومن ثم كان تلونها كما يلون الليل والنهار. فهم بالليل سود المساعي، سود المقاصد، وهم في النهار بيض المساعي بيض المقاصد، وهم ما بين الليل والنهار يضربون بسهمين، سهم التدليس على الحكومة، واليهود لكسب الوظائف وتعيين الاقارب واختلاس الثقة الحكومية... واخيراً ندعوكم ونستحلفكم ايها المتزعمون..... ان تتخلوا عن زعامتكم الفاشلة الهرمة وتتركوها للشعب لكي يتولى قضية بنفسه»^(١١٥).

ونحن لا نستطيع ان نعمم هذا الرأي على جميع الزعامات بدرجة واحدة. وعلى أية حال فقد كانت قناعات المفتي او لسان حاله انه على الطريق الصحيح. وكان في تقديره انه لم يأن الأوان ليقلب ظهر الجمن لبريطانيا. ومع ذلك أو بالرغم من ذلك، فإن عمله او ممارساته بحسب قناعاته لم تكن على هامش الأشياء بل في صميمها وانه ليس بدخيل على الوطنية. خطب في مؤتمر ١٩٣٣ الذي دعى بمؤتمر التوريط لانه قصد الى احراج المفتي ثم اخراجه..، كما يقول الشقيري، من رئاسة المجلس الاسلامي وتحت شعار عدم التعاون مع بريطانيا. خطب المفتي

وقال: «انا لست في هذه الحركة الوطنية دخيلا ولم الصق بها التصاقا. ولم تأت اليّ الرئاسة الا على الماشية. ولقد خضت غمار الحركة قبل الحرب العامة، وعملت قبل الآن. ولو كنت موظفا كما يظن البعض لما كنت بينكم الآن. ولو كنت موظفاً لما قمت بأعباء الحركة الوطنية من أولها الى آخرها. ولما حوكت ولما صدرت علي من اجل القضية عدة احكام.. وان الوظيفة ليست لها قيمة والحياة ليست لها قيمة فلا تضيعوا اوقاتكم الثمينة في ذكر الوظائف والاشخاص. لقد كنت في طليعة الحركة الوطنية. وسأظل في طليعتها غدا والى ما شاء الله ولن اتخلف عن مواقع الخطر في المستقبل كما اني لم اتخلف في الماضي فسجلوا علي هذا»

كان ذلك رد المفتي. والمتعمق في دراسته ربما يستطيع ان يجد فيه تفسيراً لجميع ممارسات المفتي من البداية الى النهاية. وهو ان دل على شيء فإنما يدل على ان المفتي كان من حيث المبدأ مع المقاومة أو الوطنية كما اسمها، وفي صميمها.. وانه، لم يكن اسيرا للوظيفة بمقدار ما كانت وسيلة له لتحقيق اهدافه الوطنية.. وانها أي الوظيفة لا تتعارض مع مواقفه الوطنية ولا تحد من اندفاعته ومشاركته فيها مشاركة اصيلة. والواقع اننا، وان كنا نتفق مع المفتي في انه لا مانع من التغيير أو التنوع في التاكتيك اليومي، ومراعاة الظروف الموضوعية المختلفة والتكيف معها بطريقة او باخرى، الا اننا لسنا على يقين ان هذا الموقف موقف القبول بالوظيفة- لم يكن هو الموقف المثالي... وان المعارضة الفعلية للاستعمار، وبصورة التزام كامل، لم تكن تنسجم مع القبول بهذه الوظيفة.. حتى لو انسجمت جدلا مع موقف المفتي وممارساته.. فانها لم تكن لتنسجم مع موقف الانتداب أو اهدافه، كما سيظهر لنا في المستقبل.

غاية الأمر أن الظروف الموضوعية للحركة الوطنية والذاتية للقيادة لم تكن قد وصلت الى مستوى الانتفاض على الاستعمار انتفاضاً كلياً. ولم تنفجر الثورة بعد.. ولعل الدليل على ما نذهب اليه ان مؤتمر التوريط هذا لم يؤد غرضه.. فلم يتورط المفتي بل على العكس من ذلك لقد زاد هذا المؤتمر في تعزيز وتكريس زعامة المفتي. فقد تمكن المفتي من احباط هذه المناورة. وسيطر على المؤتمر. وكان

استقطابه لأكثر المؤتمرين فرصة جيدة لتقوية مركزه، ودافعا له «لكي يتقدم في برنامجه من أجل احكام سيطرته على الحركة الوطنية»^(١١٨).

وفي احداث هبة اكتوبر وبالرغم من عدم مشاركة المفتي شخصيا، ومشاركة اللجنة التنفيذية بموسى كاظم الحسيني وجمال الحسيني فقد سجلت هذه الهبة لصالح الحسينيين اذا قيسوا بالمعارضة. فقد اعتبرت السلطات هذه الاحداث مسيرة من قبل الحسينيين^(١١٩).

وبالفعل فقد استمر المفتي في صب جهوده في التيار الوطني وباسلوبه. ففي عام ١٩٣٣ ولد التنظيم العسكري السري المرتبط بالحسينيين. الذي عرف باسم الجهاد المقدس (ضمن تنظيمات عسكرية اخرى). وعلى ما يظهر كان هذا التنظيم من احسنها تنظيما. وتعود بدايات هذا التنظيم الى عام ١٩٣١. وقد اسسه عبد القادر الحسيني بن موسى كاظم الحسيني^(١٢٠) وقد كان الهدف الرئيسي لهذا التنظيم «تهيئة الشباب وتسليحهم واعدادهم للقتال»^(١٢١) ويقول الغوري الذي انضم مع رفاقه له الى هذا التنظيم وجعلوا في طليعة مهامه «توعية الشعب ونشر روح التمرد ضد الحكم البريطاني»^(١٢٢) (توكيد المؤلف).

وفي ٢٧ مارس ١٩٣٥ تأسس الحزب العربي بزعامة جمال الحسيني من الناحية الرسمية، وزعامة المفتي من الناحية الروحية والفعالية. وكانت منطلقاته ودستوره دعوة صريحة الى الاستقلال والحرية والوحدة العربية^(١٢٣)

كما رفض المفتي في عام ١٩٣٥ المجلس التشريعي الا اذا كان بداية ومنطلقا لدولة مستقلة. ومهما يمكن من امر فمع كل هذه المواقف التاكتيكية المعارضة لبريطانيا والمعلنة احيانا والخفية احيانا اخرى- فإن المفتي لم يعلن جهارا نهارا معارضته الكلية لبريطانيا ولقد حاول ان يحافظ على ذلك حتى في ثورة ١٩٣٦ اكثر من ذلك فلعل المفتي- ولعله اسلوب في التعمية والتغطية- قد حرص على اظهار موقفه الودي من رجال السلطة البريطانية فقد كتب المندوب السامي في ابريل ١٩٣٥ ما نصه:

«لقد تابعت موقف الحاج امين تجاه الحكومة. وموقفه خلال السنين الأخيرة والآن. وان موقفه بصورة قطعية موقف ودي. وبصورة خاصة نحوى»^(١٢٤) ومع هذا فإن تلاحق الاحداث وتصاعد المقاومة ضد بريطانيا لم تساعد المفتي كثيرا على اخفاء دوره الوطني كما فعل في السابق. كما ان هذا الدور تميز بأنه اكثر ادواره الوطنية بروزاً وجذرية. بل اننا نستطيع ان نعتبر دوره في ثورة ١٩٣٦ عملية اختراق كبرى او تحول كلي في موقف المفتي. وهذا ما سيجعلنا ندخل في تفصيل دور المفتي- بمقدار ما تسمح به هذه الدراسة- الأمر الذي سيساعدنا على ان نجلو الغبار عن موقف المفتي في مجمله. وربما حلت معادلة موقف المفتي من آخرها كما يقال.. ووضحت مواقفه السابقة، كما انها ستلقي ضوءاً ساطعاً على مواقفه اللاحقة اكثر من أي وقت مضى. ذلك ان الزعيم أو الإنسان بعامة هو وليد عوامل كثيرة موضوعية وذاتية تمتد الى وقت مبكر في حياته.. وتشمل الجوانب المختلفة السيكولوجية والروحية والمادية....

دور المفتي في ثورة ١٩٣٦ :

ابتداء ينبغي القول انه لا يظهر- ربما امتدادا لروحية وممارسات المرحلة السابقة- سيمتريه معينة أو وضوحا كاملا في موقف المفتي (ولقد كان هذا دائما سبب الاختلاف في تقييم دور المفتي في الثورة خاصة ودوره بوجه عام. وهو امر سبق أن أشرنا اليه في صدر هذا البحث) بل يظهر في موقف المفتي التداخل بين المقاومة والمهادنة وحيانا التصاعد في الخط البياني للمقاومة؛ وحيانا اخرى الهبوط أو ما يخيل للمراقب انه كذلك..... كما ان هنالك الكثير من ضروب الكر والفر.. واكثر من ذلك يبدو انه كان هنالك عملية تغطية متعمدة من قبل المفتي ومحاولات مقصودة من قبله للتظاهر بالمهادنة وعدم البروز بمظهر العنف. وقد تجلى هذا الموقف المتناقض من الناحية الظاهرية في موقف المفتي من ممارستين اساسيتين خلال الثورة الا وهما الاضراب والثورة المسلحة. ومع هذا- وكما ثبتت المادة المصدرية الحديثة- فان محصلة هذين الدورين كانت في صميم الثورة. كما تثبت

الوثائق الحديثة أيضا انه كان للمفتي اكثر من أي زعيم آخر دور جذري وانه اعتبر الثورة فرصة عظيمة للحصول على الاستقلال وايقاف الهجرة اليهودية .. وعلى وجه الاجمال وقف الخطر اليهودي عند حده .

هذا ما سنحاول ايضاحه في الصفحات التالية :

أولا: الاضراب :

قبل المفتي ان يكون رئيسا للجنة العربية العليا التي أنيط بها الإشراف على الاضراب الذي ابتداء بتاريخ ٢٠ ابريل ١٩٣٦ . وهكذا فقد دفع المفتي لأول مرة لقيادة العمل الوطني وبصفة رسمية . وكما يظهر فان المفتي لم يخل من تردد . وذلك بالنظر الى ان هذا الموقع الجديد في قيادة الحركة الوطنية سيضعه وجها لوجه امام السلطات وربما ادى الى عزلة من رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى وهو أمر - كما شاهدنا - كان يحرص عليه كل الحرص (راجع خطابه في مؤتمر التوريط) ولكن الذي حسم هذا التناقض في موقف المفتي لحساب الصف الوطني كان ضغط الشباب المناضل في اللجان القومية الذي انضم اليه ضغط زعماء الاحزاب وبخاصة حزب الاستقلال كما ساهمت فيه ايضا الصحافة الفلسطينية^(١٢٥)

ويستوقفنا في اضراب ١٩٣٦ دور اللجان القومية، الدعامة الاساسية للاضراب والثورية؛ وفاعليتها وانتشارها وراديكالياتها وروحها المسيطرة من ناحية، وارتباطها بالمفتي بصورة خاصة من ناحية اخرى . ففي تقرير للمندوب السامي، هنالك وصف للجان القومية على هذه الشاكلة: « .. ان اعضاء هذه اللجنة (العربية العليا) انما يجمعهم شعورهم القومي نحو القضية الوطنية . وهم الى حد كبير خاضعون لنفوذ الشباب والعناصر المتطرفة بينهم (اي الشباب) . ويضيف تقرير المندوب السامي «المفتي هو رئيس هذه اللجنة ويمارس النفوذ الأكبر»^(١٢٦)

ذلكم كان الجهاز التنظيمي للاضراب . ساهم فيه المفتي على مستوى القمة . وأيده في ذلك الشباب روح الاضراب ووقود الثورة الاساسي . ومهما يكن من امر

فان مما يتعلق بالاضراب ان نذكر ان مكاتب المجلس الاسلامي الاعلى قد اضربت اسوة باضراب الشعب الفلسطيني. واصدر المجلس الاسلامي بيانا يعلن فيه ان «دوائر المجلس والدوائر التابعة له وكذلك اعمال الانشاءات والبناء والمنافع اضربت كلها. ولم يستثن من ذلك سوى ما يتعلق بالشعائر الدينية»^(١٢٧) الا انه مما اخذ على هذه المشاركة في الاضراب انها جاءت متأخرة. كما ان المفتي وجمال الحسيني لم يستحسنوا ما عرضه راغب النشاشيبي احد اعضاء اللجنة العربية العليا، على اللجنة نفسها من داخلها، لم يستحسنوا اضراب الموظفين. ولم توافق اللجنة على اقتراح راغب واتفق على عرض الموضوع على اللجان القومية للبت به في اجتماع يعقد في ٧ مايو ١٩٣٦^(١٢٨) ويبدو ان الصراع بين انصار تعميم الاضراب ليشمل موظفي الحكومة ومعارضيهم اخذ شكلا حادا حتى ان موسى العلي اخبر بن غوريون يوم ٦ مايو أن «الاضراب والعصيان المدني الشاملين ليسا سوى حلقة جديدة في الصراع القديم بين المفتي والنشاشيبي»^(١٢٩). هذا الموقف بين الطرفين يجعلنا ندخل في منطلقات المفتي وموقفه من الاضراب مقارنة بموقف خصومه:

١ - كان ولاء راغب النشاشيبي للاضراب كاسلوب في الكفاح كبيرا. ولعله اعتبره اهم من اي وسيلة اخرى لتحقيق المطالب العربية. وفي تقرير للمندوب السامي ان راغب كان على استعداد ليغتال رجلا كالمفتي اذا تردد في الانصياع للاضراب: «كان لدى راغب منذ بضعة سنوات ومرة اخرى منذ حوالي شهرين الى خمسة اشهر، رجال اشداء (قبضيات) ممن هم على استعداد لاغتيال المفتي اذا ما بدرت منه بوادر الخضوع للحكومة، واخيرا التخلي عن الاضراب، الخ بدون مقابل»^(١٣٠) ويقارن مالرو بين موقف الحسينيين والنشاشيبيين من الثورة عموما فيقول ان النشاشيبيين راهنوا على الاضراب مقابل مراهنه الحسينيين على الثورة المسلحة، ويعلل ذلك باعتدال النشاشيبيين بالنسبة للحسينيين ويقول: «انهم ربما كانوا منذ البداية يفكرون بحل وسط لا يأتي عن طريق استعمال العنف، ولكن بتدخل دبلوماسي عربي ويتضمن هذا الحل

استمرار الحكم البريطاني مع تحديد جدي وكبير للوطن القومي اليهودي» (١٣١)

٢ - لم يكن المفتي الذي يؤثر السرية والتكتم في عمله، والذي كان يرغب أيضا في الاحتفاظ بمنصبه في رئاسة المجلس الاسلامي الاعلى من ناحية، والمحافظة على اللجنة العربية العليا، كناطق رسمي باسم الشعب العربي الفلسطيني من ناحية اخرى، أقول لم يكن يرغب في مجابهة علنية مع بريطانيا.

كما انه على ما يظهر لم يرد ان يكون سببا في تعطيل جهاز الحكومة في فلسطين، مما كان سيحلب عليه وعلى اللجنة العربية نقمة الحكومة وربما تسبب في حلها للجنة، ولعله من هنا جاءت لهجة التقارير التي تمدح الاعتدال الظاهر للمفتي: «في الأيام الأولى من اعلان الاضراب طلب المفتي عدة مرات حماية البوليس. كما انه استعار من سبايسر (مدير ادارة التحقيقات الجنائية) معطفا واقيا ضد الرصاص ليقيه من قبضيات الشباب» (١٣٢) كما ان تقارير اخرى تعكس الدور المعتدل الذي مارسه المفتي في المراحل الأولى للثورة على جهاز واعطي المجلس الاسلامي الأعلى: «ان الحقيقة التي تسترعي الانتباه ان النداء الديني لم يرفع طيلة الاسابيع الماضية وان صلوات ايام الجمعة وخطبها اقترنت بدرجة كبيرة من الاعتدال تفوق بكثير ما كنت اتوقعه، في وقت بلغت حدة المشاعر عمقا كبيرا، والفضل في ذلك يعود الى المفتي» (١٣٣).

٣ - يظهر ان المفتي لم يكن يعوّل كثيرا على الاضراب، او لعله لم يكن اهتمامه به، مثل اهتمام النشاشيبي، خصمه السياسي، كوسيلة للكفاح، ولممارسة سياسته. فالمؤرخ البريطاني مالرو، والذي اشرنا اليه اعلاه، شديد الاقتناع بان الثورة المسلحة في الجبال وليس الاضراب كانت لها الأولوية عند المفتي. ولم يكن الاضراب بالنسبة له الا فقط من اجل «ان

يخدم كستار واق يمكن تنظيم عصابات الثوار وراءه فهو يخلق ظروف الاضطرابات والفوضى التي يمكن لعصابات الثوار ان تعمل من خلالها بصورة افضل»^(١٣٤) ويؤيده في هذا أميل الغوري الذي يقول: «وفضلا عن ان الحاج امين بوصفه رئيسا للجنة العربية العليا كان زعيم البلاد، وقائد حركتها السياسية، والمسئول عن اعمال اللجنة العربية، فإنه كان يشغل في الوقت ذاته منصب رئيس المجلس الاسلامي الأعلى، الذي كان ابدا ظهيرا للحركة الوطنية، ومصدر قوتها، ولكن الدور الخطير الذي يقوم به المفتي على القدر من السرية والكتمان، وتجنب الظهور هو دور قيادة الثورة فهو في الواقع زعيمها وموجهها عونها»^(١٣٥).

٤ - يبدو أن اعتدال المفتي الذي ذكرناه تحول الى التشدد بصورة تدريجية، ولعل لتطور مجريات الاحداث من اضراب الى عصيان مسلح الى ثورة مسلحة بمعناها الكامل، كان له تأثير على موقف المفتي كما سنوضحه فيما سيأتي. فموقف المفتي في شهري مايو ويونيو (فترة العصيان المسلح) هو غير موقفه اثناء الثورة (اغسطس وسبتمبر).

ثانيا: الثورة المسلحة:

على ان المادة المصدرية تكشف لنا عن موقف المفتي، الأعظم، وانخراطه الذي يكاد يكون تاما في دعم العمل العسكري للثورة.. أو الثورة المسلحة. فمع تحول العصيان المدني الى ثورة مسلحة استدعى جمال الحسيني رئيس الحزب العربي (حزب المفتي) عضو الحزب، عبد الله سمارة، من طولكرم الى القدس واخبره ان على العرب ان يظهروا شجاعتهم واضاف الى ذلك: «ينبغي عليك ان تنظم العصابات.. فانه اذا فقدت هذه الفرصة فان العرب سيفقدون اي فرصة لانجاح قضيتهم»^(١٣٦).

وتظهر جهود المفتي العظيمة التي هي شاهد على ما نذهب اليه في
النواحي التالية:

ثالثا التحريض على الثورة:

في شهر يونية اعز المفتي للشيوخ المسلمين لاثارة مشاعر الجماهير ودعوتهم
باسم الاسلام لكي يؤيدوا الثورة وان يلتحموا بالثوار. وبالفعل انبث انصاره في
جميع انحاء فلسطين وسجلت اوراق تيجارات شيئا من مواقفهم في التحريض على
الثورة، وما الآتية الا نماذج كشفت عنها التقارير فرادى ومجموعة لا نأخذها على
علاتها وانما نقيسها على الظروف الموضوعية التي مرت بها البلاد في الفترة التي
تحدث عنها.

حسن حسونة: عضو فعال في الحزب العربي، ويعمل واعظا في القرى التي
تقع حول مدينة يافا، كما انه داعية للحزب في هذه المناطق، هذا الرجل تصفه
التقارير بالآتي:

« في عام ١٩٣٦ كان قد حرض القرويين للالتحاق بالعصابات المسلحة
وكانت هذه الدعاية تنفذ من منطلق ديني »

والشيخ فضل العوري: تطلق عليه التقارير لقب «الخطير» وتعقب على ذلك
بقولها: « نشيط كمحرض على الحركة «الإرهابية»، مشاغب، خطير، ومعارض
للحكومة لا يشق له غبار» وشيبه بالدور الذي قام به العوري الذي لعبه
الشيخ صبحي الخضرا قاضي حيفا الذي يوصف بأنه «قائد سياسي ذو طبيعة
متطرفة في خلال ثورة ١٩٣٦ كان بارزا كداعية للحركة الثورية»

وقد ساهم في هذه الحركة الدعائية عدد من ذوي الرتب الدنيا ايضا في كوادر
المجلسين. ومن مواقعهم المتواضعة هذه تمكنوا من الاتصال بالرجل العادي، وقاموا
بدور نذكر امثلة عليه ايضا. مأذون (مسجل عقود الزواج) في غزة الشيخ حسين

الشوا يذكر بأنه ايضا « مشاغب خطير وعدو للحكومة » وتنبع خطورته من كونه « يعرض أفكاراً إرهابية » (١٣٧).

لدينا عشرات التقارير تتميز باللهجة التحريضية من قبل سلطات البوليس وتصف الادوار المختلفة لانصار المفتي في التحريض على الثورة .

ومهما يكن من امر فنحن اذا طرحنا جانبا هذه اللهجة التحريضية الواضحة في هذه التقارير السابقة في السطور وما بين السطور على من كتبت عنهم ، التي لا تدل على موضوعية وانصاف ، فان هذه التقارير تدل بما لا مجال للشك فيه على التالي :

- ١- ان خط المفتي كان خلال الثورة خطأ معادياً للحكومة تفيد بذلك اللهجة التراكمية لهذه التقارير التي نجد فيها شخصية الحاج امين شخصية محورية تتأثر بها دعاية انصاره في كل موقع
- ٢- انه كان هنالك منطلقات ووسائل متعددة لهذه الدعاية الشخصية. من القاضي الى الكاتب الى المأذون فالمراسل عبورا الى المدرس ومدير المدرسة . ولكنها مهما اتخذت من اساليب ومهما اختلفت المواقع الاجتماعية والجغرافية فإنها كانت دعاية للقضية الوطنية والثورة التي تطلق عليها هذه التقارير عادة اسم الارهاب .
- ٣- اللهجة التي صيغت بها هذه التقارير تدل على مدى فاعلية هذا الاتجاه في الدعاية التي يقال من خلاله عادة اشياء لا يمكن قولها من خلال منابر اخرى كالصحافة مثلا . ولذا فاننا كثيرا ما نجد ان هذه التقارير ، خاصة ان بعضها كتب اثناء الجزء الثاني من الثورة (١٩٣٧-١٩٣٩) توصي باعتقال الشخص المعني أو المذكور في التقرير أو انها تذكر انه اعتقل مرة أو مرتين أو انه فصل من عمله أو شرد من موقعه الذي هو فيه .

٢- الحشد والتجنيد :

بالإضافة الى تحريض الناس على الالتحاق بالثورة فإن المفتي تمكن من تجنيد المقاتلين من الخارج. ويبدو انه كان هنالك رجال للمفتي مهمتهم تجنيد المتطوعين من خارج البلاد. وقد سافر بعض هؤلاء الى سوريا وطلبوا الى رفاقهم العرب أن يأتوا الى فلسطين ليشاركوا في معارك الثورة. وعندما كانوا يجتازون نهر الأردن كانوا يستجيبون لتعليمات القيادة المحلية بقيادة المفتي^(١٣٨) ويشير تقرير للمندوب السامي الى انه يرجح ان هنالك ضباطا سوريين مثل سعيد العاصي والشيخ محمد الاشمري قد وصلا خلال ايلول نتيجة لجهود ومساعدة المفتي^(١٣٩) ولم يقتصر الأمر على سورية في هذه الناحية وإنما شمل ايضا العراق وشرق الأردن ولبنان، بل وجدت قطاعات وطنية بحالها ساهمت في العمل الثوري العسكري في فلسطين يذكرهم الغوري على النحو التالي :

«ابطال حي الميدان وحي الشاغور في دمشق ونادي المثني وافراد من عصابة العمل القومي والحزب القومي السوري في لبنان كانوا في طليعة العاملين لثورة فلسطين والمتطوعين للقتال في سبيل الدفاع عن الأراضي المقدسة»^(١٤٠)

وفضلا عن ذلك، فقد شكلت في كل من بغداد ودمشق لجانان للدفاع عن فلسطين يبدو انهما لعبتا دورا ممتازا في الحرض على التطوع للقتال في فلسطين وكان للمفتي اصدقاء في اللجنتين. والى جهود لجنة الدفاع في بغداد التي استجابت لدعوة المفتي يعزى الفضل في قيام حملة القاوقجي. «وكانت حملة القاوقجي من الحملات الموفقة التي تمت بمساعدة الحاج امين ومعين الماضي وعادل العظمة ومساعدة ياسين الهاشمي»^(١٤١).

٣ - التمويل :

تتواتر كثير من الادلة على ان المفتي كان القيم الوحيد على أموال اللجنة العربية العليا ولجانها الفرعية كما ان معظم هذه الأموال كانت تذهب للثورة (التوكيد

للكتاب) فقد ذكر احد التقارير السرية لدائرة التحقيقات الجنائية: «ان انفاق الاموال هو في يد المفتي الحاج امين الحسيني ورئيس اللجنة العربية العليا. وان اللجان القومية في مختلف المناطق تحت اشراف اللجنة العربية العليا ولكن كل التبرعات من داخل فلسطين وخارجها هي في يده وليس هنالك من شك ان ما يسمى اموال «الاغائة والمنكوبين» تستخدم لدعم العصابات المسلحة من كل سبيل» تؤكد الكاتب^(١٤٢) كما ان تقريراً آخر يؤكد نفس الدور ويبرز اهمية الموارد المالية في المحافظة على المقاومة المسلحة وبخاصة من ناحية شراء الاسلحة^(١٤٣).

ويبدو ان المفتي اتكأ ايضاً على أموال «صندوق الامة العربية» من اجل المجهود الحربي»^(١٤٤)

وتشير بعض التقارير الى دور الكوادر المالية للمجلس الاسلامي الأعلى في جمع الأموال من اجل الثورة. فعبد الله نمر من القدس يجمع ريع عقارات الأوقاف، ومع ذلك يطلب الى عرب القدس ان يمدوا الثورة المسلحة. وتصفه هذه التقارير بانه «جامع نشيط لأموال تستخدم في اغراض ضد الحكومة» ويقوم بدور مشابه لطلال عابدين وصبحي عابدين والشيخ صبحي خيزران من اقرب المقربين للمفتي^(١٤٥).

٤ - تنفيذ العمليات العسكرية:

تقاسمت الأعمال العسكرية الثورية ففتان هما:
أ) الخلايا السرية للمقاومة في المدن.
ب) العصابات في الجبال.

أ- الخلايا السرية للمقاومة في المدن:

مع تصاعد الاضراب الى ثورة مسلحة. تحول كثير من الأعضاء المناضلين في اللجان القومية الى اعضاء في خلايا المقاومة السرية في المدن وبصفة خاصة في

القدس . ويبدو انه كان للحزب العربي وبشكل خاص جماعة المفتي دور كبير في النشاط السري لهذه الخلايا . يذكر احد تقارير تيجارت ان أول منظمة سرية في القدس تشكلت من اللجنة القومية فيها ، ويقدر عددها بـ ٣٥ عضواً . وكانت قيادتها من رجال الحاج أمين ، وهم الشيخ حسن ابو السعود واسحق درويش وعزة دروزة وعارف الجاعوني وخالد الدزدار^(١٤٦) . وفي تقرير لدائرة التحقيقات الجنائية تنسب اعمالا ارهايبية لعارف الجاعوني ويمضي التقرير ليقول : « لقد علمت بصورة موثقة ان منظم الارهاب والاعتقالات حول القدس كان عارف الجاعوني وهناك كل الاسباب التي ، تدعو للاعتقاد ان هذا الانسان لم يكن يعمل اي شيء بدون غض نظر من المفتي بل انه في حقيقة الأمر اتخذ لنفسه ومعه عدد من الآخرين غير المرغوب فيهم ، مكانا في الحرم الشريف خلال الاضطرابات »^(١٤٧) وقد مارس افراد هذه الخلايا السرية نشاطهم في دائرة احاطت بالحرم الشريف مستفيدين من الابنية القديمة لمساجد القدس وكنائسها وأبنيتها عموماً مع ازقتها المعتمدة . ففي مسافة ممتدة من حائط المبكى الى باب الأسباط في الشمال الشرقي من الحرم ، وهي لا تزيد على ثلاثة ارباع كليومتر طولاً ، ومكتظة بالسكان ، كانت تجري عمليات هذه الخلايا^(١٤٨) .

وتصف تقارير تيجارت عن نشاطات هذه الخلايا الجهات او الاشخاص الذين كانوا مستهدفين للتصفية الجسدية من قبلها التي بلغ نشاطها ضدهم أقصاه في المرحلة الثانية من الثورة (١٩٣٧-١٩٣٩) بأنهم كانوا رجال دائرة التحقيقات الجنائية من الإنجليز والضباط العرب المتهمين بتعذيب السجناء السياسيين والعملاء العرب المتعاونين مع بريطانيا والمتعاطفين معها

ب- العصابات في الجبال :

يذهب الغوري ويوافقه على وجه الإجمال السفري ان العصابات هي التي قامت بالجزء الأكبر من المواجهة او المقاومة المسلحة مع القوات البريطانية كانت تحت القيادة العامة لعبد القادر الحسيني^(١٤٩) . ويورد الغوري بعض التفاصيل التي تؤيد

وجهة نظره فهو يعتبر القادة عبد الرحيم الحاج محمد وحسن سلامة وبعض القساميين من ضمن تنظيم الجهاد المقدس^(١٥٠) ويقول انهم كانوا يحضرون الاجتماعات السرية التي سبقت تفجير الثورة. وتزيد رواية الغوري على ذلك بان زمام المبادرة في القتال على مستوى فلسطين جميعها كان بيد عبد القادر الحسيني وانه هو الذي حدد ساعة الصفر للثورة في ١٧ مايو واطلق اول رصاصه للثورة في بيت سوريك من اعمال القدس^(١٥١) وتتفق مع روايات الغوري هذه روايات اخرى تنسب للمفتي والحسينيين عموما السيطرة على العصابات فما الرو الذي اشرنا في السابق الى رأيه في ان المفتي كان يراهن على الثورة المسلحة وليس على الاضراب كوسيلة للمقاومة وتحقيق المطالب العربية (بعكس موقف الناشطين المعتدل الذي راهن على الاضراب) يقول: «ان الثورة المسلحة في الجبال كانت الاهتمام الرئيسي للحاج امين» ويضيف مالرو الى ذلك رأيه في ان اللجنة العربية العليا كانت تشرف على حملة العصيان المدني بينما من الناحية الاخرى «كانت الثورة توجه من قبل المفتي واتباعه. بل ان السيطرة على الثورة انتقلت كلياً الى ايدي المفتي ورجال الدين الذين كانوا يعملون مستقلين عن اللجنة العربية العليا»^(١٥٢)

وتتشابه رواية سايكس مع رواية مالرو في سيطرة المفتي على المقاومة المسلحة فهو يقول: «ان اللجنة العليا فقدت السيطرة منذ وقت مبكر. ولكن كل الشواهد تشير الى انه كان هنالك تفاهم سرى وثيق بين القاوقجي والمفتي ولقد ظهر ان هذا موجود في سياسة الثورة»^(١٥٣)

ويظهر ان تنظيم الجهاد المقدس لم يقتصر فقط على انصار، الحسينيين اثناء الثورة. فلاكور يذكر ان الشيوعيين ضموا جهودهم لهذا التنظيم. وعمل اثنان من الشيوعيين في منصبين حساسين من مناصب القيادة فقد شغل محمد نمر عودة دورا كبيرا في محادثات التنظيم كما ان فؤاد نصار شغل منصب نائب القائد العام^(١٥٤).

ويمكننا أن نضيف الى هذه الروايات او الشواهد التقارير التي أوردنا أمثلة عليها

في السابق للتدليل على دور المفتي والحزب العربي في تدعيم الثورة بالجنده (المتطوعة) والمال ولا يقتصر هذا التدعيم على فئة من العصابات دون الأخرى .

ومن الناحية الأخرى هنالك بعض المراجع العربية والصهيونية التي تؤيد ان العصابات نبعت محليا، واتخذ نشاطها شكلا محليا ايضا. وأن نشاطها هذا كان بمبادرة ذاتية من قادة العصابات وانهم اعتمدوا على الموارد المحلية في تغذية وتسليح وتمويل عصاباتهم. ونحن نجد انه بينما يعزز صبحي ياسين رأى الغوري في اعلان الثورة في ١٦ مايو ١٩٣٦ الا انه لا يشير الى دور رئيس للحسينيين ولكنه يركز على القساميين بصورة خاصة، والشعب العربي في فلسطين وخارجها بصورة عامة^(١٥٥). ويبين الكيالي ان الصدام المسلح بدأ في الأسبوع الأخير من أيار عندما اصطدم البوليس بالمتظاهرين في نابلس فقتل اربعة اشخاص وجرح سبعة. وعلى الأثر «توجه عدد من القرويين المسلحين الى طولكرم فاصطدموا بالبوليس بالقرب من بلعة حيث جرح اربعة اشخاص بينهم امرأة كانت تحمل الماء للمقاتلين، وعند هذا الحد تحول الاضراب. السلمي في لواء نابلس الى ثورة كاملة سافرة» (التوكيد من قبل الكاتب)^(١٥٦) ويذهب بوراث الى ان العصابات نبعت محليا وأخذت طابعا مستقلا. ولا يوافق بوراث الغوري والسفري في ان القيادة العامة كانت لعبد القادر الحسيني ويرد على ذلك بقوله انه حتى عندما فكر قادة العصابات في الشمال في تكوين قيادة موحدة لهم لم يكن احد من الجنوب من المشتركين فيها. ويضيف الى ذلك قوله: في صيف عام ١٩٣٦ كان فخري عبد الهادي هو الشخصية الرئيسية في الثورة وليس عبد القادر الحسيني^(١٥٧).

ولعل هذا التعارض في الروايات والشواهد بين الفئتين اللتين ذكرناهما يعود الى ان موقف المفتي من الثورة المسلحة اتسم بالفردية كما اتسم بالغموض المتعمد.

فالمفتي الذي اتسمت تصرفاته دائما بالفردية لم يرد أن يشرك معه اعضاء اللجنة العربية العليا- ربما لعدم اطمئنانه لبعض عناصرها- في الإشراف على هذه الثورة، ولعل هذا مما زاد في غموض دوره الذي ارتبط به هو شخصيا كما يظهر

ايضا ان المفتي كان يتعمد اغراقه في السرية لعاملين رئيسيين : العامل الأول : ظل المفتي حريصا على ان يلعب دورا مزدوجا ظاهره الاعتدال وباطنه التشدد وذلك بالنظر لمنصبه . والعامل الثاني : هو تجنّب الثورة ضربات الحكومة حتى تنمو وتقف على قدميها . ويرى مالرو أن المفتي ، تمكن من ان يقنع الحكومة : « بأن تعتنق الفكرة القائلة ان الثورة في الجبال كانت ثانوية وانها مجرد نتيجة للاضراب (ومن هنا فان الحكومة) لم يظهر عليها انها علمت يقيناً ان الاضراب لم يكن اكثر من انعطاف في طريق الثورة قام بتمثيله المفتي من أجل ان يغطى تكوين جيش نائر ، وان يخلق ظروفًا ملائمة لتطويره» (١٥٨) .

ولعل مما زاد في هذا الغموض ان مشاركة المفتي لم تكن بنفس الايقاع طوال الوقت بل انها اشتدت في اغسطس اكثر من أي وقت مضى .

ومهما يكن من أمر فان كلا الموقفين السابقين اللذين تدور حولهما الروايات السابقة ليس صحيحا تماما . ومن دراسة هذه الروايات ومقابلتها بالوقائع الحقيقية لمجريات الثورة نرجح النواحي التالية بالنسبة لعلاقات العصابات والثورة المسلحة عامة بالمفتي .

١- ان المفتي كان له دعم وارشاف عامان أو ما يمكن ان نطلق عليه استراتيجية عامة في تبني الثورة المسلحة . وذلك من مواقع متعددة : بصفته زعيما وطنيا ، من ناحية ، سبق له ان قام بتشكيل التنظيمات العسكرية الطابع - جيش الجهاد المقدس والفتوة (١٥٩) ودعم بطريقة أو بأخرى تنظيم القسّام كما انه كان يعتبر الحل العسكري انجح الحلول للقضية الفلسطينية . وانه لا بد ان يصل بالثورة الى كافة ابعادها ووسعها وهي الثورة المسلحة الكاملة . وبصفته ايضا رئيسا للجنة العربية العليا التي كانت تقف على قاعدة متطرفة من اللجان القومية ، ويسارها المتشدد ، وهم الشباب ، وبصفته كذلك رئيسا للحزب العربي ذي القاعدة الجماهيرية بين الأحزاب ، الذي لم يكن تأثيره متوقفا على منطقة بعينها .

بل كان في كوادر جيش الجهاد المقدس الشعبية وخلاياه العسكرية
وقياداته عناصر من جهات مختلفة من فلسطين^(١٦٠).

ومع ان المفتي أحاط دوره هذا بشيء كثير من السرية والتكتم وهما
صفتان كانتا جزءا من طبيعته، ومحكما ايضا بصفته الرسمية، فان كثيرا
من المصادر الحكومية، والحسينية، والمستقلة تؤيد مساهمة المفتي مساهمة
كبيرة في الثورة المسلحة تحريضا وتجنيدا وتمويلا كما بينا، ولعل هذا ما جعل
المصادر البريطانية تطلق عليه- ربما بعد ان تكشف لها مساهمته بوضوح
في اخر ايام الثورة- «العبقرية الشريرة للثورة»^(١٦١). وهو ايضا الذي
جعل المندوب السامي الذي طالما اشاد بصداقته للمفتي يطالب
باعتقاله^(١٦٢).

وهذه قصة اخرى سنوضحها فيما سيأتي .

وليس مستبعداً على هذه الأسس التي ذكرنا عن مساهمته ان يكون له
نوع من الاشراف الفعلي او الحقيقي على هذه العصابات .

٢- ان طبيعة حرب العصابات وتكوينها تترك مجالا ليس بالقليل للمبادرة
الفردية، وبروز القيادات المحلية، وانبثاقها بصورة عفوية، من مناطق
مختلفة فالتقارير البريطانية تفيد أن القادة الرئيسيين لعصابات الثورة مثل
فخري عبدالهادي، وعارف عبد الرازق، وفرحان السعدي وعارف
الجاعوني ومنير الريس وعبدالله الاصبح وعبد الرحيم الحاج محمد انما
كانوا يؤلفون أفراد عصاباتهم من قراهم او القرى المجاورة لهم^(١٦٣)

ولعله من هنا جاءت الآراء التي تتبنى ان العصابات انبثقت بصورة
عفوية كما يذهب بوراث والكيالي كما اشرنا اعلاه ومن هنا، على ما
يظهر، اختلفت صلة المفتي بهذه العصابات بحسب ظروف وخلفيات
نشوء كل منها. فبينما يبدو ان عصابة فخري عبد الهادي اتكأت في

بعض فئاتها على النشاشيبيين وأنصارهم من آل ارشيد^(١٦٤) نجد ان عصابات اخرى تنسبها او تنسب قيادتها بعض المصادر الى المفتي مثل عبد الرحيم الحاج محمد وحسن سلامة وعارف الجاعوني . كما ان بعض التقارير السرية الانجليزية، وتتفق معها بعض المصادر العربية، تفيد بأن صلة المفتي لم تكن مبنية بالقساميين الذين يركز على دورهم العظيم وعلى استقلاليتهم صبحي ياسين^(١٦٥).

٣- لا نستطيع ان نحكم على علاقة المفتي بهذه العصابات في وضع واحد أو وضع معين ثابت واننا ينبغي ان نأخذ بعين الاعتبار ان علاقة المفتي بالعصابات كانت علاقة ديناميكية تطورت مع تطوّر هذه العصابات واتساع نشاطها، وحاجة المفتي للاستفادة من نشاطها من أجل تحقيق الاهداف السياسية للثورة الفلسطينية عامة. وقد بدا ان عناية المفتي بلغت اشدها عندما أراد إحباط الوساطة العربية التي عملت على انهاء الثورة ووقف الاضراب. كما انه ليس بلا مغزى أيضاً أن المفتي صعد من حرب العصابات من اجل الحصول على القرار السياسي المناسب اثناء وساطة نوري السعيد، وما تلاها، مما سنذكره عند الحديث عن الوساطة العربية.

وعلى اية حال فان العصابات لم تتطور لتصبح - كما يصفها هيورتز - ذراع الحسينيين العسكري الا في الفترة الثانية من الثورة (١٩٣٧ - ١٩٣٩)^(١٦٦). وخلاصة هذه الأمور جميعاً ان التزام المفتي بالثورة المسلحة كان التزاماً كاملاً. ولقد تعددت صور اشرافه من الناحية التنظيمية ومن حيث عمليات هذه العصابات، التي هي من صميم اختصاصها كعصابات، باختلاف الظروف والأحوال والتطور الزمني للثورة بأبعادها السياسية والعسكرية بصورة عامة.

المفتي وجهود الوساطة العربية :

بدأت جهود الوساطة العربية بين عرب فلسطين وبريطانيا منذ وقت مبكر في تاريخ الثورة . وقد شاركت في هذه الجهود كل من العربية السعودية والأردن والعراق واخذت اكثر من شكل واسلوب .

ليس من شأننا وليس في مكنتنا في هذه الدراسة ان نتعرض لهذه الأشكال والأساليب بصورة تفصيلية يكفي ان نشير الى دوافع وعوامل هذه الوساطة ورد فعل الثورة والمفتي بصورة خاصة فيها .. وإلامّ انتهت هذه الجهود:

١ - تمثلت عوامل ودوافع هذه الوساطة بما يلي :

أخذت هذه الوساطة في مراحلها الأولى شكل التعاطف والاستجابة للنداء الفلسطيني الذي اصدرته اللجنة العربية العليا بعد تكوينها مباشرة ودعت فيه ملوك وامراء العرب وزعماء المسلمين والهيئات في جميع الأقطار للمؤازرة^(١٦٧) . كما أن الحاج امين أرسل برقيات استغاثة الى جميع ملوك وامراء العالم الاسلامي وعلى مستوى الدول العربية . لم يخل تدخل هذه الدول من مطامح ذاتية لكل دولة . والرغبة في تحقيق بعض المصالح على ارض فلسطين خاصة بكل منها .. وهي سياسة نبعت من توجيهات ومنطلقات خاصة بكل دولة نحو فلسطين .. فضلا عن انها نجمت عن سياسة المنافسة أو الصراع بين هذه الدول وخوفها من ان تنفرد أي منها باقرار السلام على ارض فلسطين فتتال بذلك نصيب الأسد^(١٦٨) .

كما أن بريطانيا، وبالنظر لوضعها السيء الذي نجم عن احتلال ايطاليا للحبشة، واستمرار حملة الدعاية ضدها من محطة «باري» في ايطاليا، وتصاعد عمليات الثورة في فلسطين، مما اذن بقلقلة نفوذها في الدول العربية، كل هذه العوامل حدت ببريطانيا لتغيير موقفها، وبدلاً من عدم الترحيب بجهود الوساطة العربية في البداية (كما حصل مع الجهود السعودية) بات البريطانيون راغبين في التدخل .

ففي ٢٠ يونية وزعت وزارة الخارجية مذكرة الى مجلس الوزراء تشير الى ضرورة الملحة للوصول الى اتفاق مع الفلسطينيين وأهمية اصدقاء وحلفاء بريطانيا: السعودية واليمن والعراق في تحقيق هذا الاتفاق. كما لحت هذه المذكرة الى انه ينبغي أن يتم الاتفاق بوقف الهجرة^(١٦٩). وكان وقف الهجرة هذا مطلباً أساسياً وجذرياً للفلسطينيين من اجل وقف الاضراب تمهيداً لبحث المشكلة الفلسطينية برمتها.

الا أن جهود الوساطة هذه انتهت الى طريق مسدود. اصطدمت بالتقلب البريطاني وعدم رغبة بريطانيا انفاذ مطلب وقف الهجرة من ناحية كما اصطدمت بصلافة المفتي في عدم القبول بوقف النار الا بوقف الهجرة أولاً، فالجهود العربية في الوساطة التي قام بها في يوليو واغسطس وأوائل سبتمبر كل من ابن سعود ونوري السعيد والأمير عبد الله لم تستطع ان تقنع بريطانيا، وبخاصة وزارة المستعمرات، بالموافقة على وقف الهجرة تدليلاً على حسن النية. فقد كان اورمسي غور وزير المستعمرات ذو الميول الصهيونية، ورغم رغبة وزارة الخارجية بالقيام ببعض التنازلات للعرب، طوال الوقت وراء الإصرار على وقف الاضراب بدون شروط مسبقة.

وبالمقابل فان الفلسطينيين وعلى رأسهم المفتي رئيس اللجنة العربية رفض وقف اطلاق النار أو إنهاء الاضراب الا بتحقيق وقف الهجرة أولاً^(١٧٠).

ويمكن فهم رد الفعل هذا في ظل حقيقتين اساسيتين:

- ١ - ان المفتي كان يراهن على الثورة كوسيلة للحصول على الاستقلال^(١٧١). وما القبول بالهجرة الا اولى البوادر في طريق الحل وليس آخرها.
- ٢ - انه اعتبر جهود الوساطة العربية- في بعض مراحلها- تدخلاً مباشراً في شؤون الثورة. وانه هو شخصياً- اكثر من غيره- المستهدف من وراء جهود الوساطة وان الوسطاء ربما فازوا على حسابه^(١٧٢).

ومن هنا فقد تمثل رد المفتي على جهود الوساطة هذه بتصعيد اعمال العصيان والاضطرابات. ونحن نذكر هذه التقارير من مجمل شواهد كثيرة على موقف المفتي

هذا اثناء الفترة التي تكثفت فيها جهود الوساطة سعياً وراء اختراق الثورة الفلسطينية لاقرار حل سلمي على حسابها وعلى حساب الفلسطينيين، ذكر احد التقارير معقبا على هذه الجهود: «حصل انفجار عاجل للاضطرابات في طول البلاد وعرضها. وقد قامت جهود اكيدة لجعل حيفا تضرب اضرابا عاما»^(١٧٣).

كما صعد المفتي وانصاره من العمليات العسكرية للعصابات وربما بلغت حدا لم يسبق لها ان بلغته. «فقد نشطت العصابات المسلحة في الجبال وبصورة خاصة في قضاء نابلس، الذي تلاه طبرية وصفد وبيسان وأماكن اخرى»^(١٧٤) كما ان الثورة لقيت هذه الأيام دعماً واضحاً من وراء الحدود وبخاصة على المستوى العربي الشعبي.

فالنجدات العربية للثورة الفلسطينية التي سبق لنا الاشارة لها عند حديثنا عن جهود المقاومة العربية للمفتي وجماعته. هذه النجدات بلغت اشد كثافتها في هذه الفترة. فقد وصل الى فلسطين في هذه الفترة تعزيزات من الثوار من كل سوريا والأردن والعراق «هنالك تقارير عن البلاد المحيطة (بفلسطين) تشير الى ان هنالك عددا من الثوريين السوريين قد عبروا الحدود الى فلسطين ومعهم بعض التابعين. وهم مسلحون تسليحا كاملا، وهدفهم ان يلتحقوا بالعصابات في الجبال. كما ان هنالك عددا قليلا يعتقد انه عبر من شرق الأردن. وعلى سبيل المثال فوزي القاوقجي وهو ثوري سوري الأصل، الذي قد استقال من عمله في الجيش العراقي» ولقد اضاف التقرير «لقد اصبح وجود غير الفلسطينيين بين عدد من العصابات المسلحة في الفترة الأخيرة واضحا»^(١٧٥).

وتوضح اوراق القاوقجي الدور الذي لعبته قواته في احباط جهود نوري السعيد في الوساطة وكيف ان المفتي ارسل اليه باحد اخلص رجاله من اجل هذه الناحية: «ولقد وصل الى احد اخواني (اسحق درويش) واخبرني الحالة المؤسفة التي وصلت اليها البلاد، وقال: لو تأخرت يوما او يومين كانت اللجنة استسلمت الى الاقتراح بتوسط نوري السعيد واطلاق النار والصلح الملوث للشرف، وأخبرني بما تم، وبما هم عازمون عليه. فطلبت منه ان يسأل الاخوان

امهالي اسبوعا واحدا يماطلون خلاله المفاوضين ، حيث اقوم بعمل جدي خطير .
فاما افسح لهم طريقا يوصلهم لغاية امانهم . واما بفشل يقبلون عندها
الاقتراحات المعروضة فتم الاتفاق على هذا الرأي» (١٧٦) .

استمر هذا الموقف المعارض بشدة لجهود الوساطة الذي ترجم عمليا في
تصعيد اعمال العصيان والجهود الثورية العسكرية الى اواخر اغسطس واول
سبتمبر فقد عقدت اللجنة العربية العليا اجتماعا بتاريخ ٣٠/اغسطس - بعد فشل
وساطة نوري السعيد الذي زار فلسطين في الثالث الاخير من اغسطس - حضره
مندوبون عن اللجان القومية في جميع انحاء البلاد . ووافق الجميع على ابقاء مبدأ
الوساطة قائما ولكنهم قرروا « ان الامة ستستمر في اضرابها ، الشامل بنفس الثبات
واليقين اللذين عرفت بهما» (١٧٧) .

على انه في خلال النصف الثاني من شهر سبتمبر والعشرة أيام الأولى من
اكتوبر مرت جهود الوساطة بتغيير جذري ، فبدلاً من ان تكون في اغلبها بمبادرة
من الحكام العرب ، وحيانا بتشجيع من بريطانيا ، تحولت الى مطلب من قبل
الفلسطينيين انفسهم ، اولئك الفلسطينيين الذين طالما رفضوا - ممثلين بالمفتي
بالدرجة الأولى - اي وقف للاضراب الا بوقف الهجرة ترافقه او تسبقه او تتلوه
بسرعة . وعلى كل حال فلم يختلف الخط البياني في الأيام الاخيرة للثورة عن
سابقه . واذ كان هنالك من تغيير فقد كان هذا التغيير تكتيكياً - مع استمرار
استراتيجية العنف - فقد مالت الثورة الى اعادة النظر وأصبحت تفكر في التوقف
لالتقاط الانفاس واعادة النظر والترتيب .

وعلى كل حال فإن اسباب هذا التغيير ذات علاقة بالوضع الداخلي للحركة
الوطنية كما لها علاقة بمجموعة من الضغوط الخارجية والداخلية . وبإيجاز القول
نستطيع ان نجد تفسير هذا التغيير في الظروف الموضوعية التالية التي ترتبط
باستراتيجية الثورة عسكريا وداخليا .

١ - من الناحية العسكرية : فعلى اثر فشل مبادرة نوري السعيد التي رافقها

تصعيد الثوار لعملياتهم العسكرية وامام التشدد الفلسطيني الذي اصر على الاضراب ، بانتظار تلبية المطالب الفلسطينية ، اعلنت الحكومة القانون العرفي^(١٧٨) .

ولقد رافق هذا الاعلان جلب تعزيزات عسكرية كبيرة من بريطانيا^(١٧٩) وعينت قائداً جديدا هو الجنرال ديل الذي أصدر بيانا في ١٥ سبتمبر دعا فيه « الشعب الى القاء السلاح والكف عن الاضراب»^(١٨٠) وانه سيعمل بكل قوة وعزم على قمع الاضطرابات مهما كلفه الأمر ، ومهما كانت الخسائر فادحة^(١٨١) وبالفعل شهدت هذه المرحلة اساليب بشعة من القمع البريطاني يصفها عيسى السفري في كتابه^(١٨٢) وانصبت على القرويين حيث كان ينبع الثوار وحيث كانوا يلجأون . ومهما يكن من امر فان الثوار الفلسطينيين لم يستسلموا لهذا الواقع العسكري المتصاعد الخطر ، بل شهد سبتمبر والأيام الأولى من اكتوبر اعظم الأعمال العسكرية عنفاً بين الثوار والقوات البريطانية ، كان له أثره في ضعف تسليح قوات الثورة ، الأمر الذي ساهم في اضعاف طاقتها على المقاومة او الاستمرار فيها . ففي رسالة من عبد القادر الحسيني الى اميل الغوري الذي كان آنذاك يدير المكتب العربي في لندن يذكر عبد القادر التالي عن الثورة : « اما فيما يتعلق بالثورة نفسها والمجاهدين فاننا نجد صعوبة عظيمة في الحصول على السلاح والفسك ، فضلا عن الانجليز يتشددون في حراسة الحدود ويضيقون علينا الخناق فان سعر البندقية ارتفع الى اكثر من ستين ليرة (جنيه)»^(١٨٣) .

وكان لهذا الواقع العسكري الجديد للثورة بما فيه من ضغوط خارجية وتعزيزات بريطانية ومحاولة اللعب على الجبهة الداخلية من خلال جهود الوساطة العربية التي حاولت تجنيد بعض العناصر المحلية لحساب توجهاتها في الوساطة^(١٨٤) . كان لكل اولئك اثر واضح على المفتي لكي يعيد النظر في الموقف . ويبدو انه هنا طرحت فكرة تجميد الثورة لفترة معينة . فقد عقد المفتي واعوان له اجتماعا في هذه الفترة لتقييم اعمال الثورة وبعد ان أبدى القادة « مخاوفهم من قلة السلاح ومن التيارات المحلية التي كانت تدعو لوقف الاضراب » .

طرح شعار «تجميد اعمال الثورة فيتخذ هذا التجميد شكل توقيعها، وتستأنف حالما تتوفر الاسلحة والاعتدة بصورة كافية» (١٨٥).

ومن هذا المنطلق - بالاضافة الى ما سيأتي معنا - سيسير المفتي في طريق طلب الوساطة العربية.

٢ - على الجبهة الداخلية: لم تكن الجبهة الداخلية في فلسطين في هذه الفترة افضل بكثير من الجبهة العسكرية، فالإضراب الذي كان قد طال امده، واستمر قرابة الخمسة شهور، شلّ خلالها الفاعليات الاقتصادية في البلاد، ترك تأثيره السيء على قطاعات كثيرة من اهل البلاد. فالفقراء الذين كانوا يعتمدون على اللجنة العربية في قوتهم اليومي، لم يعد بالإمكان تغطية حاجاتهم، لا سيما أن التبرعات التي كانت تصل الى اللجنة العربية العليا قد قلت ايضا (١٨٦).

كما أن كثيراً من أصحاب المصالح الاقتصادية شعروا بما جلبه عليهم الاضراب من خسائر مادية: «بات عدد كبير من الاشخاص الذين لا يعيرون التفاتا كبيرا للسياسة، في حالة من السأم او الملل الذي جلبه النزاع الطويل المدى، بما في ذلك انعدام الأمن، والتضحية المالية التي تبعتها، وكان عدم الاشتراك في جني محصول الحمضيات الذي يبدأ عادة في نوفمبر سبباً في عدم الرضا» (١٨٧).

انعكست هذه النتائج للاضراب على موقف اعضاء اللجنة العربية العليا. واهتر التماسك الداخلي لكيان هذه اللجنة كما لم يكن الأمر من قبل: فراغب الناشيبي وحزبه اللذين جرفهما التيار الوطني في الخمسة شهور الأولى (١٨٨) الى درجة انه احيانا كثيرة كان يزايد على موقف المفتي (١٨٩) بدأ الآن في تغيير موقفه: «وفي نفس الوقت فانه من الأهمية بمكان ان نسجل الموقف المتغير للحزب الاخرى. فقد كان ما يسمى الحزب المعتدل ولا يزال معاديا لحزب المفتي..... ولكن الآن هناك عدد كبير من العرب بمن فيهم راغب وكثيرون من حزبه قد ضاقوا ذرعا بالاضراب، ونتائج الاضطرابات الطويلة» (١٩٠).

ولم يكن راغب وحده من اعضاء اللجنة العربية الذي اصبح مؤيدا لوقف الاضراب بل ان عوني عبد الهادي، مندوب حزب الاستقلال في اللجنة، ذلك الحزب الذي كان يعتبر بمثابة يسار اللجنة واكثر اعضائها تطرفا- لم يكن اقل اثرا في تدمير تماسك اللجنة من حيث الموقف من الاضراب. فعوني عبد الهادي- ربما بتأثير من مبادرة نوري السعيد^(١٩١) بدا في اول سبتمبر راغبا بصورة جدية في التضحية بالاضراب. ولقد استغرب واكهب نفسع من عوني عبد الهادي: «والأمر الأكثر اهمية هو تغير عوني عبد الهادي، رئيس حزب الاستقلال. لقد اخبرني في السابق انه ليس لدى الفلسطينيين ما يخسرونه الا حياتهم، اما الآن فانه يعترف ان من مصلحة العرب ان يتوقف الاضراب وكل اعمال العنف»^(١٩٢).

ولم يكن موقف حزب الاصلاح بأفضل ايضاً من هذه الناحية فمنذ أواخر شهر اغسطس كان موقف حسين فخري الخالدي مجرد مماشاة للجنة من اجل ان لا يتهم بانه خرق التماسك في هذه اللجنة^(١٩٣).

ولقد بلغت المعنويات المتدنية للجنة العربية العليا، استثناء ممثلي الحزب العربي- حزب المفتي- حد التخلي عن الثورة بدون مقابل

« ان بقية اعضاء اللجنة العربية باستثناء جمال الحسيني قد تحققوا انه من غير المجدي ان يطلبوا أي شروط، وان وقف القتال يجب ان يكون كاملا»^(١٩٤)

ولقد سجل عبد القادر الحسيني هذه الحقيقة بقوله: «وهناك امر يحملني على التطير، والخوف، فان العم (الحاج امين) يتعرض لبعض التدخلات من الخارج، والضغط من زعماء الاحزاب لفك الاضراب ووقف الثورة»^(١٩٥).

لقد جاءت الترجمة الحقيقية لهذه المعادلة الحزبية في فلسطين: المفتي وحزبه في ناحية، والاحزاب الاخرى المؤثرة في ناحية اخرى، اقول جاءت هذه الترجمة من واكهب^(١٩٦). فمن اجل ان يعزز جبهة الاعتدال، ويطفئ لهيب الثورة، وينهي الاضراب، لا يوجد الا عقبة رئيسية وحيدة الا وهي المفتي. ولذلك نجد انه ينهي تقريره الذي وصف فيه مواقف الاحزاب الداخلية بصورة تعاريج الخريطة

السياسية للجهة الداخلية الفلسطينية وعنوانه بـ «البحث في افضلية القبض على المفتي» انهاء وقد شاهد تصدع الجهة الداخلية: «القبض على المفتي وابعاده» (١٩٧)

في ظل المعطيات السابقة، بالعسكرية والداخلية، أصدر الحاج امين باعتباره رئيساً للجنة العربية بيانا ذكر فيه: «ان الشعب واللجنة العربية العليا كانوا ولا يزالون يرحبون بوساطة الملوك العرب وأمرائهم، وقد قبلوا بكل ارتياح وشكر ولا يزالون مستعدين لتنفيذ هذه الوساطة بكل ارتياح» (١٩٨).

اما عن شروط هذه الوساطة فانه على العكس مما يذهب اليه بوراث في ان المفتي طلب ان تكون الوساطة بدون قيد أو شرط (١٩٩)، فان المادة المصدرية لدينا تدل على ان المفتي ظل وراء الشروط مقابل وقف الاضراب الى الساعات الاخيرة قبل وقف هذا الاضراب (٢٠٠).

ويظهر من مراسلات السفارة البريطانية في بغداد مع وزارة الخارجية التي تشير أيضاً الى موقف السعودية من الشروط التي اقترحها المفتي يظهر من هذه المراسلات أن ضغط المفتي لم يحقق اي نتيجة تذكر. واكثر من ذلك يظهر انه كانت هنالك خطة متعمدة لاجباط جهود عرب فلسطين في الاتصال بالعرب الآخرين من اجل الوساطة، او بكلمات اخرى حرمان الفلسطينيين من اي فرصة للحصول على اي تنازل من خلال وسيط فضلاً - بطبيعة الحال - عن بريطانيا نفسها. بل ان مطالب الوساطة بالشروط التي صدرت عن اللجنة التي عرضها رئيس الوزراء العراقي على السفير البريطاني قويل بالتالي: «وكأجابة على ذلك (طلب الوساطة بشروط) اعطيت لرئيس الوزراء جوهر اجاباتك لمثل هذه الأسئلة التي أثارها الملحق السعودي في لندن كما أشرت اليه الى ان هذه الحركة لم تكن سوى محاولة لاستخلاص بعض الوعود المسبقة من أجل إنهاء الاضرابات بل ان اللجنة العربية تحاول الآن وضع العبء على اكتاف الحكومات التي طلب اليها ان توجه النداء (انهاء الاضراب) وستتحمل هذه الحكومات مسؤولية لا مسوغ

ها ولا مبرر. وسيكون مصيرها الفشل اذا ما انتهت لمثل هذه الاتصالات المتبعة» (٢٠١).

لم يرفض العراقيون ولا السعوديون هذا التشدد الواضح من الإنجليز ولكنهم انحنوا امامه. فقد اهتمت المطالب الفلسطينية في ضمان شروط مسبقة لوقف الاضراب. وفي مناسبات متعددة أخذ التشدد البريطاني شكلاً يدل على العجرفة والغرور. كما كان يحمل في طياته الكثير من التهديد فعندما حاول - على سبيل المثال - رئيس الوزراء العراقي ان يستفسر عن دور اللجنة الملكية في ضمان العدالة للقضية الفلسطينية، لم يزد جواب السفير البريطاني عن القول: «انه من المضيعة للوقت ان نحاول ان نفهم ماذا ستفعل اللجنة وماذا سيحصل بعد ان تكون اللجنة قد قدمت تقريرها» ولم يكتف بذلك بل اضاف «والأمر الوحيد الأكيد في كل هذا العمل الحزين انه ما لم يتوقف العنف فإن اللجنة الملكية لن تستطيع ان تفعل شيئاً على الإطلاق، بل ان كل يوم يضيع في التداول هو مسمار يدق في النعش العربي» (٢٠٢).

وتدل الشواهد ايضا على جهود الوساطة ان التخاذل العراقي السعودي بلغ مداه. فقد وصل هذا التخاذل حداً جعل البريطانيين يتدخلون في صياغة النداء الذي سيقدمه الحكام العرب الى الشعب الفلسطيني (٢٠٣).

وفي الواقع ان ما حصل بالنسبة لصيغة النداء كان اكثر من تدخل، لقد كان من الناحية الواقعية فرضاً لنص النداء: «واخيراً طلب رئيس الوزراء (العراقي) نصاً عربياً لمقترحاتهم في النداء الملكي» (٢٠٤).

وتقول احدى الوثائق المؤرخة في ٢ اكتوبر «ان لن يتلقى الحكام العرب من حكومة جلاله الملك اي ذكر لأي شيء يدل ضمناً على توكيد معين بشأن ما ستعمله حكومة جلالته في فلسطين» (٢٠٥).

ليس هذا فقط بل ان الاستهانة وعدم التقدير البريطاني بلغ مداه فبينما كان هؤلاء الحكام يقبلون صيغة النداء من البريطانيين، كان البريطانيون يخططون

للقبض على المفتي ونفيه كتنويع لجهود الوساطة العربية .

ولعله لا يوجد اكثر توضيحا لهذا التعامل السياسي غير المتكافئ بين الطرفين العربي والبريطاني من البرقيات المتبادلة فيما يتعلق بهذا النداء بتاريخ ٨ اكتوبر . ففي هذا التاريخ أبرق السيد كلارك السفير البريطاني في بغداد الى ايدن وزير الخارجية يقول :

« اخبرني رئيس الوزراء ان ابن سعود يوافق على نص النداء وسيقوم بتوجيهه حالا . وستذهب رسالة غازي اليه . ويأمل رئيس الوزراء ان يكون غدا في القدس . المفتي لديه نص النداء مسبقا» (٢٠٦) .

وفي اليوم نفسه ابرق السيد كلارك الى ايدن مجيبا على اقتراح من وزارة المستعمرات بنفي المفتي . ولقد جرت البرقية على الوجه التالي : « بالرغم من ان المفتي ليس لديه شعبية شخصية لدى الحكومة العراقية ، وذلك بسبب تأمره مع الايطاليين ، الا انه مع ذلك كان هو المفتي الذي فاضه ياسين باشا بنداء الملك غازي ، وما لا شك فيه ان نفيه في هذه اللحظة سيخلق انطباعا غير جيد» (٢٠٧) .

ومهما يكن من أمر فان الحكام العرب ظلوا حتى آخر لحظة متشككين بان المفتي سيقدر فعلا عملية انهاء الاضراب ، استجابة لندائهم . وعلى كل حال فان فكرة ابعاده ستبقى قائمة ولن تلغى ولكنها ستنتظر الظروف الملائمة .

فقد كان نص برقية كلارك على الوجه التالي : « اذا اتضح بعد عدة ايام ان النداء قد فشل فإن الاساءة ستكون اقل للحكومة العراقية من جراء عملية الابعاد اما رد فعل الجماهير فمن الصعب التكهن به ولكن اتوقع ان مهمة الحكومة من السيطرة على هياج الشعب ستكون اكثر صعوبة» (٢٠٨) .

ان هذه البرقية تتحدث عن نفسها . لقد كان المفتي محميا من الجماهير العربية ليس الا . كما ان المفتي كان الوحيد المستهدف من بين جميع المشاركين في المعادلة السياسية للمعسكر العربي .

ولقد كان المفتي حتى النهاية يعمل وهو يعلم انه يسبح ضد التيار، بفعل تفاقم الظروف المحلية والعربية ضد الثورة للحصول على شروط. ولقد كانت عملية ابعاده مقصودة لتكون خاتمة وتنويجا سيما للثورة. وهي خطوة لا تخلو من كونها ستكون مصدر اذلال لعرب فلسطين، بالنظر الى ان المفتي كان قد اصبح القائد الحقيقي للثورة ورمزاً للنضال العربي .

ومن هنا نجد انه يحاول ان يجنب الثورة ضربة مميتة ويحرم الجنرال ديل من فرصة مؤاتية لسحق الثورة وهو (اي ديل) الذي كان قد خطط لهجوم عام على الثوار في ١١ اكتوبر تنفيذاً للقانون الحربي. (٢٠٩) وبذلك سيسبب ندما شديدا للجنرال: «اعتقد ان الفرصة قد فقدت من أجل اعادة توطيد السلام في البلاد. وبدلاً من ذلك ترك اللجنة العربية العليا السيطرة على الجانب العربي من فلسطين» (٢١٠).

وفي حقيقة الأمر لقد تركت قوات الثورة بدون ان تمس وبالنسبة للمفتي فان انهاء الاضراب لم يكن اكثر من هدنة مسلحة:

«اعتقد العرب ان هنالك هدنة للجنة العربية والمنظمات العربية بقيت سالمة. واستبقت العصابات المسلحة تنظيماً واسلحتها واحسن ما يوصف به الحال حقيقة هو انه هدنة مسلحة» (٢١١).

وقد اتضح موقف المفتي هذا من اعتباره ان الأمر في وقف اطلاق النار لم يعد ان يكون هدنة مسلحة، وان الثورة المسلحة هي الحل، اتضح هذا الموقف في رفضه للتقسيم الذي اوصت به لجنة بيل في يوليو ١٩٣٧ وهنا عاد المفتي بالفعل الى حمل السلاح، وحشد الجهود العربية الوطنية، وبخاصة السورية حول الثورة من جديد (٢١٢).

من جراء موقف المفتي هذا، ارتأت بريطانيا أن أفضل الطرق للقضاء على الثورة هو اعتقال المفتي، (٢١٣) كما كان قد اوصى المندوب السامي سابقاً، ولكن المفتي فر وفوت عليه الفرصة ليقود الثورة من خارج البلاد. وعلى اية حال فان بريطانيا لم تسمح له بالعودة الى البلاد بعد ذلك..

الخاتمة :

عالجنا في هذه الدراسة زعامة المفتي الحاج امين الحسيني ومقومات هذه الزعامة : الشخصية والروحية والقومية وقد جاءت هذه المعالجة من أجل إبراز اثر العوامل الذاتية لهذه الشخصية على الاحداث من ناحية وتأثيرها من الناحية الأخرى بالاحداث الأمر الذي ادى الى تطورها وجعلها تأخذ ابعادا متعددة: الزعيم الوطني الروحي « النبي » والزعيم الرمز، وبطل القومية العربية..... الخ

ومن اجل تقييم موضوعي لدور المفتي فقد درسنا دوره هذا من خلال مقومات الزعامة المتطورة بين عهدين: عهد المد القومي وعهد الانحسار القومي. وبيننا ان هذه الزعامة حافظت على اصالتها وخطها الوطني في العهدين، بحسب الظروف الموضوعية- مواتاة دون معارضة- لكل عهد... تلك الظروف الموضوعية التي انعكست على الممارسات كما انعكست عليها الممارسات بصورة جدلية....

ابتدأ المفتي نشاطه بموقف صلب من الاحتلال والصهيونية اللذين شكلا تحدياً كبيراً وحلماً رهيباً للفلسطينيين بعد الحرب العالمية الاولى. وقد اخذ هذا النشاط شكلا تنظيمياً وممارسات فعالة على مستويات متعددة التنظير والدعوة، وعقد المؤتمرات، وايفاد الوفود، وقيادة المظاهرات والانتفاضات.

الا ان مواقف المفتي لم تلبث ان اتسمت بالاعتدال الذي ترتب على فشل الحركة الوطنية في التصدي للتحدي الخارجي والممثل بالاحتلال البريطاني والصهيوني ورسوخ اقدام هذا الاحتلال وتأثير هذا الاحتلال مع الصهيونية تأثيراً سلبياً على الحركة الوطنية فمنذ اوائل العشرينات مال المفتي الى التعاون مع سلطات الانتداب مع انه من الناحية النظرية أو المبدئية كان يرفض هذا الانتداب لصلته العضوية بالصهيونية. وهنا نجد ان المفتي تولى منصب الافتاء ورئاسة المجلس الاسلامي الاعلى. وكلا المنصبين كان حساسا وهاما، يتمتع بميزانية وكوادر من الموظفين. وله ابعاد على مستوى الوطن جميعه.

ومع كون المفتي موظفاً في الدولة الا انه لم يقع اسيراً لهذا المنصب الى الحد الذي تصوره البعض. فعلى الرغم من انه كان ينحني احيانا لضغط الانتداب الا انه ظل مع ذلك يدرك انه زعيم ديني ووطني مستقل، وليس تابعا لاحد.

كما انه حاول ان يجعل المجلس الاسلامي قلعة للوطنية، تقابل الوكالة اليهودية، ومع مرور الزمن اكتسب المفتي توجهها شعبيا ونجح في ان يجمع حوله جمهورا كبيرا من الموالين وبخاصة من الفلاحين ذوي المشاعر الدينية.

وعلى هذا فليس بلا مغزى ان كلمة مجلسين صارت مرادفا للحركة الوطنية بالفعل.. ومن هنا جاءت تسميتهم طوال العشرينات- وكما تظهر في ملفات المعاصرين باسم الجبهة الوطنية أو الوطنيين. وغني عن القول ان هذه الحركة حافظت في معظم الاحيان على المبادئ الرئيسية للأمة في الحرية والاستقلال والحكومة الوطنية ورفض وعد بلفور والوطن القومي اليهودي. وفي الاحداث الهامة في فلسطين مثل هبة ١٩٢٠، ١٩٢١ ورفض المجلس التشريعي ١٩٢٢ والمجلس الاستشاري ١٩٢٣ الى هبة البراق كان للمفتي بخاصة وجماعة المجلسين بعامة دور بارز وصوت واضح.

ومع انبعاث الحركة الوطنية في اواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات لتزايد التحديات المصرية البريطانية والصهيونية كان للمفتي دور كبير.

وهنا نجد انه عندما بدأت الحركة الوطنية تسير نحو التطرف فطالبت بمجابهة البريطانيين وقطع جميع الصلات معهم، نجد انه لم يتنكر لهذا التيار.

فمع انه حافظ على منصبه ورفض التنازل عن رئاسة المجلس الاسلامي الاعلى تنفيذاً لسياسة التعاون مع الاستعمار- التي طرحتها الحركة الوطنية- فانه كون مع انصاره في هذه الفترة جيشاً للجهاد وهو جيش الجهاد المقدس الذي كانت له غايات وطنية خالصة، ومنهج واضح في الكفاح ضد الانجليز والصهيونية. كما ان المفتي كان وراء كثير من التنظيمات ذات الطابع المتطرف والحلقات الجهادية.

الا ان الانجازات الاعظم للمفتي في المجال الوطني ونقطة التحول الفاصلة في

تاريخه السياسي كله كانا أو جاء مع قيام الاضطراب والثورة.
هنا تصدى المفتي لقيادة الحركة الوطنية برئاسته للجنة العربية العليا.
وهنا لم يعد لمنصبه اثر كبير في توجيه موقفه الوطني، وبدأ أكثر تحمرا من
تعقيداته من اي وقت مضى.
ومع تصاعد الثورة المسلحة كاسلوب وحيد للحل الجذري او التاريخي
للمشكلة الفلسطينية.

وبذلك بلغ اقصى ما حققه او توصل اليه في مصيره السياسي كله...
وعندما اضطر المفتي الى الموافقة على وقف الاضراب لم يعتبر ذلك وقفا للثورة
بل هدنة مسلحة. لذلك لم يكن عجبيا ان يرفض التقسيم ويعود الى استئناف
الثورة على اثر قيام لجنة التحقيق (بيل) بطرح قرارات لم تستجب للاهداف
الوطنية التي سعى اليها..

على هذا فقد كانت الصفحة المشرقة في تاريخ المفتي في ثورة ١٩٣٦. تلك
الثورة التي ابرزت اكثر من أي وقت مضى مقدراته القيادية، وصلابته في المحافظة
على الاهداف الوطنية وتحمل من اجل ذلك التضحيات الجسيمة التي اضطرت
له لهجرة من فلسطين وعدم سماح الانجليز له بالعودة اليها مرة اخرى...

المصادر

- ١ - الكيالي، عبد الوهاب: تاريخ فلسطين الحديث (بيروت ١٩٧٠) ص ٣٢
قارن: د. خله، كامل: فلسطين والانتداب البريطاني (مركز الابحاث- بيروت ١٩٧٤)
ص ٤٢١
- ٢ - و ياسين صبحي: الثورة العربية الكبرى (القاهرة ١٩٥٥) ص ٣٦-٣٤
Giffries, G.M.N.: *Palestine: The Reality* (London 1939) p. 67
- ٣ - أوراق الخالدي: أوراق خاصة لحسن فخري الخالدي مخطوطة، موجودة لدى ابنته ليلي
حسن الخالدي- بيروت ص ٣٥٠.
- ٤ - Wiggins, W. Howard: *The Ruler's Imperative*
(New York: Colombia University Press
1969) p. 101.
- ٥ - خلدوري، مجيد: عرب معاصرون (ادوار القادة في السياسة (بيروت ١٩٧٣) ص
١٣١-١٣٢
- ٦ - Sykes, Christopher: *Cross Roads to Israel* (London 1965) pp.230-231.
- ٧ - Tegart Papers, in Oxford- St. Antony's College, Middle East
Centre Box I File 3 (A)
- ٨ - دروزة، محمد عزة: حول الحركة العربية ج ٣ (صيدا ١٩٥٩) ص ١٦٠
- ٩ - Sykes:op. cit. p. 231
- ١٠ - مقابلة الكاتب للأستاذ اكرم زعيتير شتاء ١٩٧٧.
- ١١ - Macmichael Papers in St. Antony's College, Middle East Centre, DS. 12 E 1959.
- ١٢ - Ibid
- ١٣ - Schectmann, J.B: *The Mufti and the Fuhrer*
(New York 1964) انظر
- Meir, Golda: *My Life* (London, 1975) p. 06
- ١٤ - أوراق الخالدي: ص ٣٥٠
- ١٥ - Schectmann: op. cit., p. 40
- ١٦ - Ibid: p. 88
- ١٧ - Cabinet Committee on Palestine, 24 October 1938 Fo 371/21865
- ١٨ - High Commissioner (hence H.C.) to Colonial Office (hence C.O)
2 January 1939 Co 733/393
- ١٩ - أوراق الخالدي: ص ٥٤٣
- ٢٠ - الغوري، اميل: فلسطين عبر ستين عاماً ج ١ (بيروت ١٩٧١) ص ٨٤
يقول الغوري: «وقد بلغ حب شباب النصارى للمفتي وتعلقهم به انهم كانوا يهتفون باسمه في
جميع الاجتماعات في المظاهرات التي يقومون بها في الميدان الاثوذكسي العربي، كما كانوا ينادون
بحياته حتى في الاحتفالات التي لها صبغة دينية كموسم سبت النور»
- ٢١ - Hurewitz, J.C: *The Struggle for Palestine* (New York 1968)
- ٢٢ - «فلسطين» ٢٩ اكتوبر ١٩٣٨
- ٢٣ - الشقيري، احمد: أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية
(بيروت ١٩٦٩) ص ١٨٤

- العارف، عارف: يوميات غزة (Gaza Druries) ٢٣ تموز ١٩٣٩ -٢٤
موجودة في
- Oxford, St. Antony's College,
Middle East Centre. -٢٥
- Marlowe, J: *The Seat of Pilate, An Accounts of Palestine Mandate* (London 1959), pp. 142-143 -٢٥
- يوميات عارف العارف ٢١ تشرين الأول ١٩٣٩ -٢٦
- Jerusalem District Report for Period 16th to 31st May 1945 CO 733/456 -٢٧
- Hurewitz: *op. cit.*, pp 149-150. -٢٨
- اوراق الخالدي: ص ٣٥٠ -٢٩
- Kimche, Jon: *Palestine or Israel, The Untold Story why we failed* (London 1973) p. 160 -٣٠
- قارن أيضاً: جانا، محمد توفيق: الشهادات السياسية امام اللجنة الملكية في فلسطين (دمشق ١٩٣٧) ص ١٧٥، ١٩١ -٣١
- السفري: عيسى: فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية (يافا ١٩٣٧) ج١ ص ٧٧ -٣١
- Government of Palestine: *A Strvey of Palestine Prepared in December 1945 and January 1946 for the Anglo-American Commission of Inquiry* (hence Survey) Vol. I, p. 945 -٣٢
- Porath, Y: *The Emergency of the Palestine National Movement, Vol.I* (London 1974) p. 35 -٣٣
- Clayton to Sykes, 15-6, 1918 FO 800/221 -٣٤
- انظر عن هذا المؤتمر: السكاكيني، خليل: كذا أنا يا دنيا ، يوميات خليل السكاكيني اعدتها للنشر هالة السكاكيني (القدس ١٩٥٥) ص ١٦٥ -٣٤
- السفري: المصدر السابق ج١ ص ٣٥ -٣٥
- Porath: *op. cit.*, vol. I, p. 129 -٣٦
- Kimche: *op. cit.*, p. 189 -٣٦
- Porath: *op. cit.*, vol. I, p. 79 -٣٧
- الكيالي: المصدر السابق ص ١٤١ -٣٨
- السعيد، أمين: الثورة العربية الكبرى ج٣ (القاهرة ١٩٣٤) ص ٤٣ -٣٩
- دروزه: حول الحركة ج٣ ص ٩١ قارن -٤٠
- Porath: *op. cit.*, vol.I P. 87 -٤١
- السفري المصدر السابق ص ٣٤ قارن -٤١
- Kimche: *op. cit.*, p. 201 -٤٢
- Ibid*: p. 175 -٤٣
- دروزه: حول الحركة ج٣ ص ٦٩ -٧٠ -٤٤
- Antonins, George: *The Arab Awakening* (Beirut) p.312 -٤٥
- Kimche: *op. cit.*, p. 212 -٤٦
- تشكل انتفاضة ابريل ١٩٢٠ معلماً بارزاً من معالم تطور النضال الفلسطيني من اجل مزيد من الاطلاع على دوافعها ووقائعها النظر: -٤٧
- أ (دروزه: حول الحركة ج٣ ص ٣٧
- ب) كرد علي، محمد: خطط الشام (دمشق ١٩٢٥) ج٣ ص ٢٢٠

ج) مقال لاميل الغوري في المقطم بتاريخ ٢١/٨/١٩١٩

Miss Newton, F: *Fifty Years in Palestine*
(London 1948) pp. 133.- 135

(د

٤٨- انظر عن قرارات هذه المؤتمرات وبشكل خاص المؤتمر الثالث الأهمام ٢٠/٢/١٨ وكذلك الكرمل ٨ نيسان ١٩٢١ التي اوردت مذكرات موسى كاظم الحسيني واشتملت على توصيات هذا المؤتمر ومنها:
١ - الغاء قاعدة الوطن القومي اليهودي .
٢ - تأليف حكومة وطنية مسؤولة امام مجلس نيابي ينتخبه أهالي فلسطين الذين كانوا فيها قبل الحرب «

Kimche: op. cit., p. 88

-٤٩

Marlowe: op. cit, p. 101

-٥٠

Hirst, David: *The Gun and the Olive Branch, The Roots of Violence in the Middle East* (London 1977), p. 61

-٥١

Palestine Royal Commission Report (Peel Commission Report, Cmd., 5979, July 1937), p. 181.

-٥٢

Porath: op. cit, p. 102

-٥٣

Porath: op. cit. 102

اوراق الخالدي:

-٥٤

الكرمل ١١ ابريل ١٩٢٥

-٥٥

Machover: op. cit. p. 37

-٥٦

Kimche; op. cit. p. 203

-٥٧

Porath: op. cit: Vol. I, p. 132

-٥٨

الكيالي: المصدر السابق ص ٢١٥

-٥٩

٦٠- انظر رسالة وايزمن الى وزير المستعمرات البريطاني تشرشل عام ١٩٢١ التي يقول فيها «هناك حلف طبيعي بل تماثل في المصالح قام تقريبا بين الصهيونية وبريطانيا:

توما، اميل: جذور القضية الفلسطينية (مركز الأبحاث

بيروت ١٩٧٤) ص ١٢٤

Cohen, Aharon: *Israel and the Arab World* (London: 1970) p. 211

-٦١

Weizmann, C: *Trial & Error, the Autobiography of Chaim Weizmann* (London 1950), p. 366

-٦٢

Sykes: op. cit. p 95

-٦٣

Peel Report, Cmd 5479, London, July 1937 p. 86

-٦٤

Sykes, op. cit. p. 95

-٦٥

انظر دروزة: القضية ج١ ص ٥١-٥٢ الشقيري المصدر السابق ص ١٣١

-٦٦

Cmd 1700 June 1922 p. 2

-٦٧

Porath: op. cit., Vol. I, p. 153
الكرمل ٧ مارس ١٩٢٣

-٦٨

-٦٩

٧٠- انظر تقرير المندوب السامي الى وزير المستعمرات الذي يتحدث عن أثر اللجنة التنفيذية في انسحاب اعضاء الملحق الاستشاري منه

H. C. to CO 12 July 1923 Report
for June 1923 CO 733'47

قارن دروزة: حول الحركة ج ٣ ص ٤٠

Hurewitz: *op. cit.*, pp. 52-53 عن هذه الناحية انظر -٧١

Kimche: *op. cit.*, p. 203 -٧٢

عن بروز نجم الحاج امين والظروف المختلفة التي أحاطت بتعيينه مفتيا ورئيسا للمجلس الاسلامي الأعلى، انظر: -٧٣

أ) خدوري: المصدر السابق عن ١٣١

Pearlman, Maurice: **Mufti of Jerusalem**
The Story of Amin el-Husseini
(London, Victor Collanz 1947) p. 10 (ب)

Bentwitch No. H: **Mandatory Memories 1918-1948**
(Great Britain)

Hurewitz: *op. cit.* p. 53

Porath: *op. cit.*: Vol. pp. 184-207

Hurewitz: *op. cit.*, p. 53 -٧٤

Marlow: *op. cit.*, p. 102 -٧٥

Sykes: *op. cit.* p. 123 -٧٦

Ibid -٧٧

السفري: المصدر السابق ج ١ ص ٥٣ -٧٨

عن المؤسسات التي يشرف عليها المجلس من محاكم شرعية وادواق ومدارس وكليات وعن أجهزةها من الموظفين وعددهم، انظر: -٧٩

Bentwitch: *op. cit.*, p. 160

Hurewitz *op. cit.*, p. 53 -٨٠

Tegart *Papers* -٨١

Peel Report: *op. cit.*, p. 18 -٨٢

Hurewitz: *op. cit.*, p. 54 -٨٣

الكرمل ١٩٢٢/١/٤ -٨٤

الفوري: فلسطين ج ١ ص ٨١ -٨٥

Sykes: *op. cit.*, p. -٨٦

Marlowe: *op. cit.*, p. 103 -٨٧

Ibid -٨٨

دروزة القضية ج ١ ص ٥٣ -٨٩

Wriggins: *op. cit.*, p. 101 -٩٠

H. C. to Parkinson, 12 Sept. 1936 CO 733³311 -٩١

C.S. to Sir Clark Kirr (Baghdad), 7th -٩٢

October 1936 Co 733/311/7528

توما: المصدر السابق ص ١٩٠ -٩٣

عن وقائع واحداث هذه الهبة انظر ما يلي: -٩٤

- أ (السعيد: المصدر السابق ص ١٠٢-١٠٣
- ب (الغوري: المؤامرة الكبرى- اغتيال فلسطين وعرق العرب القاهرة ١٩٥٥ ص ٦٨
- ج (الكيالي: المصدر السابق ص ٢٤٠-١٤٢
- د (السفري: المصدر السابق ج ١ ص ٦٠،
- هـ (صدقة، نجيب: ص ١٠٢-١٠٣
- A. Report of the Commission on Palestine Disturbance of August 1929. -٩٥
London 1930, Cmd 3530 p. 126.
- B. Hope Simpson Report, Cmd 3686 pp. 131-136
- ٩٧- انظر عن المقاطعة الصهيونية للعرب وبالذات مقاطعة العمل العربي: ياسين، عبد القادر:
«الطبقة العاملة والحركة السياسية في فلسطين» شئون فلسطينية نيسان ١٩٧٦ ص ١٢١
- ٩٨- الجامعة العربية: ١٩٣٤/١٠/٩
- ٩٩- السكاكيني: المصدر السابق ص ٢٥٠
- Target Papers Box I File 3 -١٠٠
- Perath: op. cit Vol. II, p. 49 -١٠١ انظر الجامعة العربية في هذه الفترة، وانظر أيضاً
- H. C. to CO, 26 Sept. 1931 FO 371*15333 ١٠٢
- Ibid ١٠٣
- ١٠٤ غنيم، عادل حسن: الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧-١٩٣٦ (القاهرة ١٩٧٦) ص ٢٣٢
- ١٠٥
- ١٠٦ الازهرام ١٦ ديسمبر ١٩٣١
- ١٠٧ غنيم، عادل حسن: «المؤتمر الاسلامي العام ١٩٣١». شئون فلسطينية العدد ٢٥ (سبتمبر ١٩٧٣) ص ١٢٤-١٢٥
- ١٠٨
- ١٠٩ Porath: op. cit., vol. II, p. 58 الكيالي: المصدر السابق ص ٢٨١
- ١١٠ Hyamson, A: Palestine Under the Mandate (London 1950) p.106
- ١١١ دروزة: القضية ج ١ ص ١١٤-١١٥
- ١١٢ السكاكيني: المصدر السابق ص ٣٥٧
- ١١٣ Cabinet on the Situation in Palestine, 18 Dec. 1933 CO 733/257
- ١١٤ دروزة: القضية ج ١ ص ٩٢.
- ١١٥ النفير ١٩٣٣/١٠/٩
- ١١٦ الشقيري، احمد: اربعون عاما في الحياة العربية والدولية (بيروت ١٩٧٣)
- ١١٧ الكيالي، عبد الوهاب (جمع وتصنيف): وثائق المقاومة الفلسطينية ص ١٤٥ العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيوني (بيروت ١٩٦٨) ص ٣٢٤-٣٢٥
- ١١٨ P.A.S. (Police Appreciation Summary) I April 1933 Fo 371/19926

- ١١٩ - الكيالي: المصدر السابق ص ٢٨١
- ١٢٠ - الغوري: فلسطين ج ١ ص ٢٣٣ - ٢٣٤، ١٥٧
- ١٢١ - المصدر ذاته ص ١٥٧
- ١٢٢ - المصدر ذاته ص ٢٣٣
- ١٢٣ - انظر عن هذا الحزب: د. محمود: علي سعود عطية: دراسة للحزب العربي الفلسطيني وحزب الدفاع الوطني (١٩٣٤-١٩٣٧) (رسالة دكتوراه) (الجامعة الامريكية بيروت ١٩٧٩)
- ١٢٤ - H. C. to CO April 1935 CO 733/298
- ١٢٥ - انظر: اوراق الخالدي ص ٢٢٢ قارن جريدة فلسطين ٢٦ ابريل ١٩٣٦ دروزة: حول الحركة ج ٣ ص ١١٨-١١٩ الغوري: فلسطين ج ٢ ص ٥٧ - ٦٠
- ١٢٦ - H. C. to CS 12/9/1936 CO 733/311
- ١٢٧ - الامام حمد: وثائق وأوراق خاصة (مركز الابحاث الفلسطيني- بيروت) بيان المجلس ١١ حزيران ١٩٣٦
- ١٢٨ - P.A.S. 6/5/1936 FO 31/20018
- ١٢٩ - Porath: op. cit., Vol. II p. 169
- ١٣٠ - H.C. to Parkinson 22 October 1936 FO 37/20018
- ١٣١ - Marlowe: **Rebellion in Palestine** نقفاً عن سقوتة بحسب بحسب
- ١٣٢ - H. C. to Parkinson 22 October 1936 FO 371/ 20018
- ١٣٣ - H. C. to 1-6-1936 CO 733/297
- ١٣٤ - Marlow, John: **Rebellion** (London 1969) p. 157
- ١٣٥ - الغوري: فلسطين ج ٢، ص ٨١.
- ١٣٦ - Porath: op. cit, vol. II, p. 179
- ١٣٧ - Tegart Papers Box I, File 3
- ١٣٨ - Schectmann: op. cit, p. 88
- ١٣٩ - H.C. to CS 22/8/1936 CO 733/314
- ١٤٠ - الغوري: فلسطين ج ٢ ص ٩٢.
- ١٤١ - دروزة: حول الحركة ج ٣ ص ١٣١
- ١٤٢ - Tegart Papers, Box I, File 3
- ١٤٣ - P.A.S. 27 October 1936, FO 371/20018 op. cit, pp. 44-45
- ١٤٤ -
- ١٤٥ - Tegart Papers Box I File 3
- ١٤٦ - Ibid
- ١٤٧ - The Palestine Police Headquarters, Jerusalem 27 October 1936 FO 371/20028
- ١٤٨ - Hirst: op. cit, p. 90
- ١٤٩ - Tegart papers, Box I File 3
- ١٥٠ - الغوري: فلسطين ج ٢ ص ٨٢، السفري: المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٢
- ١٥٠ - الغوري: فلسطين ج ٢ ص ٨٢ - ٨٣
- ١٥١ - المصدر ذاته ص ٧٥

- Marlowe: **Rebellion**, p. 157 -١٥٢
 Sykes: **op. cit.**, p. 129 -١٥٣
 Lacqueur, W: **Communism and Nationalism in the Middle East** (New York), pp. 96-97 -١٥٤
 صبحي ياسين : المصدر السابق ص ٣٤-٣٦ -١٥٥
 الكيالي : المصدر السابق ص ٣١٠ -١٥٦
 Porath: **op. cit.**, vol. II, p. 186 -١٥٧
 Marlowe: **Rebellion**, p. 164 -١٥٨
 الفتوة : تنظيم شبه عسكري اسسه الحزب العربي «حزب المفتي» في عام ١٩٣٥ -١٥٩
 من اجل تدريب الشباب تدريبا عسكريا. انظر محمود: المصدر السابق
 ص ١٧٥-١٧٩
 الغوري : فلسطين ج ١ ص ٢٣٠-٢٣٤ -١٦٠
 FO to Sir Clark Kerr (Baghdad), Sir R. Bullard (Jedda), Mr. Kelly (Alexandria) 7 October 1936 CO 733/311 -١٦١
 H.C. tp CS 12 September 1936 CO 733/311 -١٦٢
 Appendix "B" List of Arab Gang Leaders Feb. 26/1937 FO 371/20829 -١٦٣
 Porath: **op. cit.** vol. II, p. 185. انظر ايضا قاسمية ، خيرية (اعداد) -١٦٤
 فلسطين في مذكرات القاوقجي (بيروت- مركز الابحاث ١٩٧٥) ج ٢ ص ٥٨
 Appendix(B) **op. cit** FO 371/20824 -١٦٥
 أ (الغوري فلسطين ج ٢ ص ٦٥ ، ص ١٦ ب)
 ج (ج)
 Tegart Papers Box I File 3 -١٦٦
 Hurewitz: **op. cit.**, p. 83 وثائق المقاومة: ص ٣٨٠ ، قارن فلسطين ٣٧/٤/١٩٣٦ -١٦٧
 انظر من اجل هذه المطامح: -١٦٨
 Batman to Eden, July 1936, FO 466/74/825
 Toynbee Arnold J. ed. **Surrey of International Affairs, 1939** pp. 97.
 ESCO Foundation, Palestine: A Study of Jewish, Arab and British Policies 2 vols. (Yale 1974)
 Vol. II p. 753
 Rendel's Note on a talk with Nuri el-Said 24/6/1936 FO 371/20018
 FO Memorandum 20/6/1936 CAB 24/263 -١٦٩
 Record of interview with the Secretary of State. Present were Jamal Effendi Husseini, Shibli Effendi Jamal, Dr. Izaat Tannus and Emile el-Guri. -١٧٠
 14 July 1936 CO: 733/321
 Marlowe q **Rebellion** p. 141 -١٧١
 P. A. S. 16 August 1936 FO 371/20018 -١٧٢
 Ibid -١٧٣
 Ibid ١٧٤
 IBID -١٧٥
 فلسطين في مذكرات القاوقجي ج ٢ ص ٢٢ -١٧٦
 وثائق المقاومة ص ٣٣٩-٤٤١ -١٧٧
 Peel Report: **op. cit.**, p. 100
 Peel Report: **op. cit.**, p. 101 -١٧٨
 فلسطين في مذكرات ج ٢ ص ٢٧ -١٧٩

- المقطم ١٩٣٦/٩/١٦ -١٨٠
- العدد ذاته ١٩٣٦/٩/١٧ قارن دروزة: حول الحركة ج ٣ ص ١٤٤ -١٨١
- السفري: المصدر السابق ج ٢ ص ٥٧ - ٦٠ -١٨٢
- الغوري: فلسطين ج ٢ ص ٩٦ -١٨٣
- P.A.S. 18 August 1936 FO 371/20018 -١٨٤
- Ben- Gurion, D: Talks with the Arab Leaders (London 1974), p. 108
- الغوري: فلسطين ج ٢ ص ٩٧-٩٨ -١٨٥
- المصدر ذاته ج ٢ ص ٩٧-٩٨ -١٨٦
- Porath: op. cit, p. 212, Peel Report op. cit., p. 101 -١٨٧
- Porath: Op. cit., Vol. II, p. 212, Peel Report -١٨٨
- op. cit. p. 101 -١٨٩
- H.C. to CS, 12 Sept. 1936 CO 733/311 -١٩٠
- Ibid -١٩١
- Ibid -١٩٢
- Hurewitz: op. cit, p. 71 -١٩٣
- P.A.S. 7 October 1936 FO 371/20018 -١٩٤
- الغوري: فلسطين ج ٢ ص ٩٦ ص ١٩٧ -١٩٥
- الغوري: ج ٢ ص ٩٦-١٩٧ -١٩٦
- H. C. to CS 12 September 1936 CO 733/311 -١٩٧
- وثائق المقاومة ص ٣٣٩-٤٤١ -١٩٨
- Porath: op. cit. Vol. II, p. 212 -١٩٩
- P.A.S. 16 October 1936 FO 371/20018 (أ -٢٠٠
- Minute by J. Martin 18 September 1936 in CO 733/314 (ب
- ج) وثائق المركز الوطني العراقي وثيقة رقم ١٦١ ت/١٥/١٩٣٦ والوثيقة بتوقيع ياسين الهاشمي بتاريخ ١٥/١٠/١٩٣٦ ومرسلة الى نوري السعيد.
- P.A.S. 28 September 1936 FO 371/20018 -٢٠١
- Batman to Eden 2nd October 1936 FO 406/74 -٢٠٢
- Batman to Eden 2nd October 1936 FO 406/74 -٢٠٣
- Ibid -٢٠٤
- Clark Kerr to FO 2 October 1936 FO 371/20018 -٢٠٥
- Ibid -٢٠٦
- Ibid -٣٠٧
- Ibid -٢٠٨
- H.C. to CS 8 October 1936 CO 733/314 ٢٠٩
- Dill to Chief Imperial General Staff October 15, 1936 W.O. 32/4178 ٢١٠
- Cohen, J: "Sir Arthur Wauchope, the Army and the Rebellion in Palestine, 1936" Middle Eastern Studies (St. Antony's College, Oxford) Vol. 9, 1973, p. 26 -٢١١
- Macareth to Wauchope 5 7/1937 CO 733/326 (أ -٢١٢
- Extracts from a personal letter to (ب
- Dr. Weizmann from a friend in Jerusalem
- dated 18 August 1937 CO 733/351
- Extracts: op. cit: (أ -٢١٣
- (ب) الغوري: فلسطين ج ٢ ص ١٤٠
- Barbour, Niville Nisi Dominus (London) pp. 183-184. (ج

أوراق القنصلية العراقية في حيفا

د. فاروق صالح العمر

جامعة البصرة

بدأت العلاقات الدبلوماسية بين العراق وفلسطين من خلال العلاقة مع بريطانيا، فبريطانيا كانت الدولة المنتدبة على القطرين وكان التعامل بين هذين القطرين يتم ضمن الموافقة البريطانية^(١) التي كانت تمثل الثقل الإداري والحكومي في فلسطين، خلافاً لما كان عليه الأمر في العراق الذي كان يعتبر ضمن الدول المستقلة، والمثلة في عصبة الأمم، في حين لم تكن فلسطين تتمتع بهذا الشكل المستقل أو شبه المستقل، وإنما بقيت تحت الانتداب البريطاني المباشر حتى انسحابها منها سنة ١٩٤٨.

بدأ السماح للعراق بممارسة علاقاته الخارجية على نطاق ضيق جداً خلال فترة الانتداب^(٢)، وقد تطورت هذه العلاقات في الثلاثينات بعد أن حصل العراق على استقلاله سنة ١٩٣٢ وأصبح عضواً في عصبة الأمم^(٣)، وقد سمحت بريطانيا للعراق بعد ذلك بفتح قنصليات له في الخارج على نطاق ضيق، لأنها - أي بريطانيا - كانت، هي التي تتحمل... مسؤولية رعاية المصالح العراقية في الخارج باعتبارها الدولة المنتدبة^(٤).

وفي منتصف سنة ١٩٣٥ تم فتح القنصلية العراقية في حيفا وعين الشيخ كاظم الدجيلي نائباً «للقنصل منقولا» لها من القنصلية العراقية في بيروت^(٥)، وقد بقيت القنصلية العراقية - في حيفا - مفتوحة حتى منتصف سنة ١٩٣٧ ونقلت بعدها الى المقر الجديد في القدس^(٦). وبقي الشيخ كاظم الدجيلي نفسه يمثل القنصلية العراقية في القدس بدرجة نائب قنصل، كما ظهر من توقيعه على الأوراق المرسلة من القنصلية الى وزارة الخارجية العراقية^(٧).

وخلال هاتين السنتين / منتصف ١٩٣٥ /، وهما عمر القنصلية العراقية في حيفا، ركزت دراستي على هذه الفترة من خلال اوراق القنصلية المحفوظة في دار الوثائق الوطنية / بغداد .

ان الأشياء الموجودة ضمن وثائق البلاط الملكي العراقي عن القضية الفلسطينية ليست بالكثيرة ولا ادري فقد يظهر أن دار الوثائق لقلّة الكادر العلمي المتخصص لم تستطع الانتهاء من فهرسة وإظهار مجموعة الوثائق الكاملة، ولهذا فقد وجدت ان مجموعة الوثائق تتألف من عشرة ملفات تقريبا «تشمل موضوعات مختلفة، ولفترات زمنية متشابهة وكلها محصورة في فترة الثلاثينات حتى بداية الاربعينات. ومن الطبيعي ان نتساءل لماذا فكر العراق بفتح قنصلية في حيفا ولم يكن يفكر في القدس مع ما للقدس من اهمية في نفوس العرب والمسلمين، الا أن وصول انبوب النفط العراقي الى حيفا جعل لها اهمية كبيرة في نظر الحكومة العراقية لعلاقته بالمصالح الاقتصادية وما يتصل بهذه المصالح^(٨).

وقد اثرت قضية القنصلية العراقية في حيفا حيث فضل نقلها الى القدس، اثناء زيارة الوفد البرلماني العراقي الى فلسطين^(٩) الذي كان يتألف من عدد من النواب والمحامين كما اثرت ايضا هذه القضية من قبل بعض الرجال الوطنية من القدس . وقد وضع نائب القنصل الشيخ كاظم الدجيلي معنى وجود القنصلية في حيفا:

(أنه لسبب ميناء حيفا القريب من بغداد واعتباره منفذا للعراق) ويضيف نائب القنصل في تقريره:

(غير اني وجدت المقوم هنا كما وجدهم اعضاء الوفد)
(ايضا غير مسرورين من جعل القنصلية في حيفا ويطلبون)
(أن تكون في القدس ومن جملتهم السيد امين الحسيني)
(واحمد حلمي ونبيه العظم والدكتور الخالدي وغيرهم)

ويخرج الشيخ الدجيلي بالنتيجة التالية :

(وفي الحقيقة أن الافكار العربية في فلسطين اخذ)
(توجهها الى العراق يزداد يوماً فيوماً وفتح قنصلية)
(على العراق بفائدة كبرى لا تقدر بمقدار فضلا عن)
(للعراق بفائدة كبرى لا تقدر بمقدار فضلا عن)
(الاتصال بالقوم مباشرة من عرب ويهود وانكليز مما)
(يسهل الوقوف على افكارهم ويفهم الناس من مجالسهم)
(ومحادثاتهم ما لم يفهمه من الجرائد ولا سيما ان الجرائد)
(من عربية وانكليزية وعبرية تصدر في يافا والقدس المتجاورتين)
(ورفع درجة القنصلية وجعلها في القدس في دعاية)
(للعراق) (١٠).

الأ أن بريطانيا كانت راغبة في بقاء القنصلية العراقية في حيفا وانها كانت تتلکأ لفترة في اعطاء الجواب بالموافقة على نقل القنصلية من حيفا الى القدس عندما طلبت ذلك الحكومة العراقية بناء على الحاح الشخصيات الوطنية الفلسطينية في القدس . وفي لقاء بين نائب القنصل الشيخ كاظم الدجيلي وحاكم حيفا قبل انتقال القنصلية الى القدس بفترة قصيرة ابدى حاكم حيفا البريطاني تأسفه لذلك و اضاف بأن العراق يحتاج الى قنصلية في حيفا لاهمية المنطقة، ويضيف نائب القنصل العراقي (وظهر لي من ذلك :

(كله أن السلطات البريطانية في فلسطين لا ترغب)
(في نقل القنصلية الى القدس خوفا من تدخلها في الحركات)

(الوطنية او تدخل الوطنيين فيها لان حاكم اللواء هنا قال لي)
(الا ترغب في البقاء في حيفا . فقلت له : انا شخصيا)
(احب حيفا ولكن مصلحة حكومتي اينما تكون ، رغبتني)
(تكون معها)^(١١)

ومن خلال الاطلاع على اوراق القنصلية وجدت ان هذه التقارير كانت تتخذ
احد المظهرين التاليين :

الأول :

اما أن تكون قصاصات من الصحف التي تصدر في فلسطين باللغة العربية
والانكليزية يصدرها العرب أو اليهود ، وبرفقتها تقرير نائب القنصل عنها وهو تقرير
شامل للاحداث التي تجري مرفقا بقصاصات من هذه الصحف .

الثاني :

التقرير العام الذي يكتبه نائب القنصل عن الاوضاع الداخلية في فلسطين
ومواقف كل من اليهود والعرب و احيانا يتعرض التقرير للموقف من العراق وكذلك
يحوي التقرير بعض الاخبار عن المناطق العربية المحيطة بفلسطين ، كشرق الاردن
وسوريا حتى اخبار مصر . كانت الفترة التي هي مجال البحث عن (القنصلية
العراقية في حيفا) فترة حاسمة في فلسطين ١٩٣٥ / ١٩٣٧ فقد شهدت بدايات
التهيئة للثورة التي حدثت في ١٩٣٦ التي استمرت الى ما بعد نقل القنصلية الى
القدس .

وقد كانت التقارير التي رفعها نائب القنصل خلال الشهور الاخيرة من عام
١٩٣٥ تتضمن توضيحا للسياسة البريطانية الداخلية والموقف الداخلي المتأزم بين
العرب واليهود .

فقد كانت توقعات الحرب الحبشية / الايطالية^(١٢) - كما يذكر - نائب

القنصل - عاملا فعلا في الحركة الداخلية فقد صار الناس يتخوفون من وقوع الحرب بين انكلترا واطاليا من جراء ذلك ، ولهذا السبب ارتفعت المواد المعاشية وتوقف التعامل مع البنوك كما ازداد تكدس المشتريات . كما ان النشاط اخذ يدب بين الوطنيين في التآلف وجعل جميع الاحزاب السياسية جبهة واحدة ، وفي الوقت نفسه هيا الوطنيون الدعوة الى اجتماع عام ليقرروا به الخطط التي يجب أن تتبع في هذا السبيل وان لا يدعوا الفرصة تضيع منهم كما ضاعت فرص سابقة^(١٣) :

اما موقف الصحف العربية فقد كانت جميعها مجمعة وبلهجة واحدة على ان العرب سوف لا يندعون من قبل الانكليز اذا وقعت الحرب ، كما حصل لهم في الماضي . ودعا البعض الى ضرورة التظاهر ضد وعد بلفور في مياعده (٢ تشرين الثاني ١٩٣٥) . ومعنى ذلك التنديد بسياسة بريطانيا وانحيازها الى جانب اليهود كما اخذ البعض ينذر الحكومة البريطانية (من وقوع ثورة لا تحمد عقبائها) اذا تمادت في مساعدة اليهود .
ويقول نائب القنصل في تقريره :

(اما اليهود فتخوفهم من المستقبل آخذ بالازدياد)
(ولا يدرون ماذا يعملون وكل آمالهم معقودة على)
(حماية انكلترا لهم وقد أوقفوا كثيرا من الكمال)
(الابنية التي شرعوا فيها منذ مدة طويلة)
(وتجارهم قل سيرها عن ذي قبل كما ان)
(اموالهم اخذت ترسل الى الخارج وجرائدهم)
(تنشر كل يوم اخبار تطمئن فيها الأهالي بصورة)
(عامة)^(١٤) .

وقد زاد من هياج المواطنين العرب في فلسطين بعد اكتشاف البوليس عن طريق المصادفة ٥٠٠ برميل فيها اسلحة وذخيرة حربية ، وقد جلبها احد التجار اليهود من بلجيكا على انها سميت أبيض مما اعطى الحركة العربية فرصتها في اثاره

هذه القضية على مستوى الصحافة ومذكرات الاحزاب للتشهير بالتواطؤ البريطاني كما قررت الهيئات الوطنية اعلان الاضراب العام احتجاجا على ذلك^(١٥).

ويقول نائب القنصل (ان الكثيرين يرون ان جلب هذه الأسلحة والتسامح في عدم التفتيش عليها في الكمرك كان كله بعلم السلطة البريطانية ومساعدتها)^(١٦).

وكانت حادثة مقتل الشيخ عز الدين القسام وجماعته^(١٧) لها اكبر الاثر في اثاره الجماهير العربية في فلسطين لماهما من امكانية دينية سامية، ونتيجة لذلك فقد اضرب العرب في حيفا اضرابا عاما في اليوم الثاني واحتفلوا بتشييع الشهداء بتظاهرات عدائية لبريطانيا وكانوا يهتفون بسب الانكليز وسقوطهم وبحياة موسوليني . ويقول نائب القنصل :

(وفي الحقيقة فإن هؤلاء لا يحبون ايطاليا)

(ولا موسوليني ولكنهم فعلوا ذلك ليغيظوا)

(الانكليز ليس الا، غير ان الانكليز حصل لهم)

(اعتقاد بان هذه الحركة مدبرة)

(بتحريك من ايطاليا)^(١٨)

كما نشرت الجرائد العربية ان الثلاثة من القتل وهم عز الدين القسام واثنان من اتباعه قد لفوا بالاعلام العربية :

(فكان القسام ملفوفا بالعلم العراقي واخران احدهما بالعلم السعودي)

(والثاني بالعلم اليماني وقد دفنوا جميعهم بشياهم ودمائهم اذ اعتبروا)

(شهداء)^(١٩).

وصدرت جريدة الجامعة الاسلامية مجللة بالسواد حدادا على الشهداء كما اقيمت صلاة الغائب على ارواحهم في الجامع العمري الكبير في عمان .

ويثير نائب القنصل قضية غياب زعماء الاحزاب عن التشييع في حين اكتفى هؤلاء بإرسال برقيات تعزية لاهالي الشهداء... وتعرضت لذلك الصحف العربية نافذة هذا الموقف من زعماء الاحزاب^(٢٠).

ان اوراق القنصلية العراقية في حيفا حافلة بذكر انباء فلسطين بتشعباتها وتحليلاتها حول الوضع الفلسطيني، وقد وجدت قضية مهمة تربط بين هذه التقارير التي رفعها الشيخ كاظم الدجيلي - نائب القنصل - وكانت تتعلق بالمجلس التريعي ولهذا ركزت على موضوع المجلس التشريعي كقضية كادت تمثل جوهر تقارير القنصلية، خلال النصف الاول من سنة ١٩٣٦ .

فقد اصبحت قضية المجلس التشريعي منذ بداية سنة ١٩٣٦ (الشغل الشاغل للأهالي من عرب ويهود، وقد اخذت الجرائد تكتب في هذا الموضوع كل على هواها^(٢١))، هذا ما ذكره نائب القنصل في تقريره العام الذي رفعه الى وزارة الخارجية العراقي . وقد اعطى امثلة على ذلك ما ذكرته جريدة (فلسطين) التي هي مسيحية - كما يذكر نائب القنصل بانها كانت معارضة لقضية المجلس التأسيسي، غير انها ابدلت من رأيها الى فكرة القبول (وصار معظم المسيحيين ان لم نقل كلهم يعضدون هذه الفكرة ويصرحون في مجالسهم بمؤازراتها)^(٢٢) . اما العرب فان زعماء الاحزاب بعد ان كانوا كتلة واحدة في عدم قبول المجلس التأسيسي، صرح بعضهم في الاجتماع الذي عقد في ٦ كانون الثاني ١٩٣٦ .

(ان الريث في البث في امر المجلس التشريعي يستلزم تأملا طويلا ودوريا)

اما عبد اللطيف صلاح رئيس الكتلة الوطنية فكان من رأيه ان الطلب من المعتمد السامي البريطاني (اقترح تعديل اللائحة خير من رفض الموضوع) وكان يؤيد هذا الرأي كل من جمال الحسيني رئيس الحزب العربي الوطني وراغب النشاشيبي رئيس حزب الدفاع، ولكنهما حسب رأي نائب القنصل (لم يجرؤا على التصريح بذلك)^(٢٣) .

وهناك رأي آخر (يرفض أي مجلس ليس فيه الاصول البرلمانية ويحقق استقلال فلسطين) وفي رأي نائب القنصل :

(وقد يحصل الظن على الاعتقاد بأن قسماً من هؤلاء الذين اخذوا)

(يزدادون في التشدد في رفض المجلس التشريعي يسعون بعملتهم)

(هذا الى مؤازرة السياسة الصهيونية وانهم يتفوقون سراً مع)
(الصهيونيين على هذا الغرض يزعم انه اذا رفض العرب بأجمعهم)
(مشروع المجلس التشريعي حينئذ يمكن ترك انكتراله بالمرّة)^(٢٤)
وكان على رأس هذه الفكرة الأخيرة والمشجع لها جريدة الدفاع .

وفي نفس الوقت كانت الصحف اليهودية تنشر اخبار عن لندن بان زعماء اليهود هناك قد اتفقوا مع الحكومة البريطانية على جلب نحو ربع مليون يهودي من المانيا الى فلسطين خلال الاربع سنوات ، وكان موقف الصحف العربية في فضح مثل هذه القضايا ، فكتبت المقالات الطويلة لايضاح هذا الخطر الذي يهدد عروبة فلسطين ، فقد اوضحت معنى هذه الهجرة ان عدد اليهود سيصل الى ما يقارب المليون بعد اربع سنوات وذلك ان عددهم سيساوي عدد العرب الموجودين في فلسطين فعلا ، وبدأت حكومة فلسطين البريطانية تدافع عن نفسها مدعية (بان الاخبار اليهودية لا صحة لها وان المعتمد السامي سوف لا يفسح المجال لادخال العدد الذي يزعمه اليهود)^(٢٥) .

غير ان اليهود اجتمعوا في دار الوكالة السياسية اليهودية في القدس يوم ٧ كانون الثاني ١٩٣٦ وتداولوا في أمر المجلس التشريعي واعتبروه من القضايا المهمة وطلب رئيس القسم السياسي (الأدون شردوك) بان الوكالة اليهودية يجب ان لا تفوض بإصدار قرار في مسألة هامة مثل هذه (المجلس التشريعي) لعلاقتها باليهود جميعا في كافة أنحاء العالم . وعليه فقد انقسم اليهود ايضا بين مؤيد ومعارض في الوقت الذي يوضح احدهم موقعه من هذه المسألة .

(باننا قلنا بالمشروع منذ عام ١٩٢٢ الزمان الذي كنا فيه اضعف)
(مما نحن فيه الآن ونحن الآن اقوى من ذلك الزمان وعددنا يقارب)
(ثلث السكان وفي ايدينا اهم المشاريع العلمية والاقتصادية)^(٢٦) .

وبعد المداولات الكثيرة قرر المجتمعون عرض هذا الامر على الوكالة اليهودية باعتبارها الجهة المخولة التي ستبت في امر ويعمل ما تراه صالحا لليهود على ان

يرسل هذا القرار الى الوكالة اليهودية في لندن بعد اخذ رأيها يجتمع اليهود مرة اخرى لإصدار قرار نهائي بشأن المجلس التشريعي .

وكان العرب قد قدموا مذكرة الى وزارة المستعمرات بوساطة المعتمد البريطاني في فلسطين ، تتضمن ثلاثة امور هي (٢٧) .

- ١ - انشاء حكومة ديمقراطية .
- ٢ - توقيف الهجرة اليهودية تماما .
- ٣ - اصدار قانون يمنع بيع الاراضي لليهود .

وفي ٢٦ كانون الثاني ١٩٣٦ دعا المعتمد البريطاني في القدس رؤساء الاحزاب العربية لابلاغهم جواب وزارة المستعمرات فكان :

- ١ - فيما يتعلق بالنقطة الأولى فإن مشروع المجلس التشريعي الذي تقدمت به الحكومة البريطانية الى اهل فلسطين يعطي الجواب حول انشاء حكومة ديمقراطية .
- ٢ - ان توقيف الهجرة بالشكل المقترح من الاحزاب لا يمكن لبريطانيا القيام به ، اذ ان المبدأ الذي تسير عليه بريطانيا هو السياسة القائمة على مقدار ما تستوعبه البلاد مع مراعاة الناحية الاقتصادية ، وعليه فقد اسست بريطانيا مكتباً للإحصاء برئاسة اخصائي من كندا وسيبقى هذا المكتب لدراسة حالة التجارة والصناعة والزراعة .
- ٣ - ان وزارة المستعمرات توافق مبدئياً على اقتراح وضع تشريع لا يسمح لصاحب الارض بيع قسم من ارضه الا اذا استبقى له الحد الأدنى من الارض الذي يكون كافياً لتأمين اعالته ، ويستثنى من ذلك قضاء بئر السبع ومناطق المدن والاراضي المزروعة بالأشجار الحمضية (٢٨) .

وقد اعترض زعماء الاحزاب على هذا الجواب واحتدم الجدل بينهم وبين المعتمد البريطاني لان الجواب لم يكن شافياً وهو في الوقت نفسه محجف بحقوق عرب فلسطين .

وعليه فقد اجتمعت الأحزاب اليهودية سرّياً في القدس والقيت في ذلك الاجتماع خطب كثيرة في مسألتني المجلس التشريعي وجواب وزارة المستعمرات على مذكرة الاحزاب العربية في الوقت الذي اعتبر اليهود جواب وزارة المستعمرات العرب مضراً ومعرقلاً لإنشاء الوطن القومي . ولهذا فان نائب القنصل يقول :

(وقد فهمنا انه بعد مداوات كثيرة قرّر قرارهم على تفويض الوكالة اليهودية السياسية العامة في اعمالها وان الدكتور وايزمن زعيم الصهيونية العام يجب ان يسافر حالاً الى لندن لاطلاع الجمعيات الصهيونية هناك والوفد الصهيوني الذي ذهب الى امريكا على مجريات الأمور)^(٢٩) .

كانت الأحزاب العربية قد قدمت الى المعتمد السامي مذكرة اعتراضية على مواد نظام المجلس التشريعي . وقد ارسل المعتمد جوابه على هذه المذكرة الى رؤساء الاحزاب وقد اخذت الصحف تتكهن فيه لأن رؤساء الاحزاب قد كتبوا المذكرة في حين ذكرت ذلك الصحف اليهودية^(٣٠) اما خلاصة المذكرة فهي :

- ١ - ان وجود تاجرين انكليزيين في المجلس التشريعي انما هو باعتبارهما مستشارين للمجلس في الشؤون الاقتصادية التي تقتضيها مصلحة البلاد .
- ٢ - ان الثلاثة أشهر التي اقترحت لعقد المجلس انما جاء للنظر في الامور العادية، وقد يقترح المجلس ان يعقد جلسة فوق العادة اذا حدث امر مهم .
- ٣ - ان المعتمد السامي سوف يهتم كل الاهتمام بتقديم جميع المواد التي ينظر فيها المجلس في دورته العادية، اما امر التقارير المالية فانه عادي في جميع انحاء العالم، حتى العراق .
- ٤ - ان المجلس له كل الحق في البحث في شؤون الهجرة اليهودية بشرط ان يكون تعيين جدول لهجرة العمال من حق المعتمد البريطاني .

- ٥ - ان اعضاء المجلس جميعهم يعتبرون لجنة واحدة عند تنظيم الميزانية، وهذا الاشتراك يؤدي الى بحث حرّ بحيث يمكن لاعضاء المجلس مناقشة شؤون الميزانية بحرية.
- ٦ - يسمح للمجلس بسن القوانين على شرطين الأول موافقة المعتمد السامي على الغاء القوانين التي يطلب المجلس الغاءها والثاني وضع حد خاص بشأن الغاء بعض اقسام التجارة، وباستثناء ذلك فإن من صفة المجلس سن القوانين والغاءها كما يحق له ان يرفض اي قانون يقدم اليه او يقبله.
- ٧ - عند تساوي الفريقين بالتصويت يستحسن ان يرجح الجانب الذي يكون فيه اكبر موظف انكليزي ليحتفظ رئيس المجلس حياده.
- ٨ - ان اقتراح تعيين رئيس المجلس من الخارج انما جاء ليكون الرئيس بعيداً عن التأثير بالأحوال العامة والشؤون الداخلية للبلاد.
- ٩ - ان المعتمد السامي لن يستعمل سلطاته التامة الممنوحة له اذا ثبت له ان اعضاء المجلس يظهرون فهما ويدركون مسؤوليتهم العظيمة.
- ١٠ - ان المعتمد السامي يوافق على ان ستة اعضاء لا يكفي لحصول النصاب القانوني في الجلسة الواحدة وعليه فسوف يطلب من وزارة المستعمرات بجعل النصاب القانوني يتم بحضور عشرة اعضاء بدلاً من ستة^(٣١)

واخيراً يطلب المعتمد البريطاني في النهاية من رؤساء الاحزاب مشاركته في انشاء هذا المجلس التشريعي.. وهذه هي خلاصة جواب المعتمد السامي البريطاني على مذكرة الاحزاب. وعلى اثر تصريح وزير المستعمرات في مجلس العموم البريطاني بوجوب تأليف مجلس تشريعي في فلسطين، طلب المعتمد البريطاني الاجتماع برؤساء الاحزاب السياسية لابلاغهم برأي وزارة المستعمرات بالرغبة في ارسال وفد من زعماء العرب الى لندن (ليبدي وجهة النظر العربية بشأن المجلس التشريعي مباشرة) على ان لا يزيد عدد الوفد على ستة اشخاص وقد قبل زعماء الاحزاب هذا الطلب الا رئيس الحزب العربي (جمال الحسيني) الذي لم يبد رأيه في الموضوع مرجحاً الجواب لبضعة أيام، وقد ابدى وفد الأحزاب رغبتهم في ان

يكون احد اعضاء الوفد مسيحياً... وفي اثر ذلك اذاعت وكالة المطبوعات بيانا بهذا الخصوص (٣٢).

ويذكر نائب القنصل في تقريره ان المعتمد البريطاني دعا ايضا ابن غوريون رئيس الوكالة اليهودية وتباحث معه في قضايا لم يعرف مضمونها (ولكن البعض يقول ان المعتمد البريطاني افهم بن غوريون بضرورة ارسال الوفد العربي الى لندن وان هذا الامر لا يمس قضية الوطن العربي لليهود)، وقد نشرت الصحف العربية في اليوم التالي اخباراً مع بيان مديرية المطبوعات، وكان صدى ذلك كما يذكر نائب القنصل..

(ايجايا باستثناء موقف الجامعة الاسلامية التي آزت الحسيني في سكوتها ورأت ان لا فائدة من ذهاب اي وفد الى لندن واذا كان هناك عمل ما من اجل البلاد فليكن هنا، ثم قالت ان هذا كله تسويق ولا يجوز قبوله) (٣٣).

وذكرت جريدة الدفاع عن انقسام الرأي العام في هذا الشأن، فمنهم من يظن ان سببه كان خوف الانكليز من استغلال الازمة في المستقبل حيث يأخذ طريقا آخر (فهم يريدون ان يعملوا شيئاً للعرب ويحوزوا ودهم) ومنهم من يرى (ان هذه المعركة سياسة خداع من الانكليز يريدون من ورائها التسويق وايجاد مبرر لتأجيل قيام المجلس) (٣٤).

اما الصحف اليهودية فقد نشرت البيان، وعلقت عليه (فلسطين بوست) (Palestine Post) وهي صحيفة صهيونية:

(اذا كانت الحكومة البريطانية تريد أن تأخذ رأي العرب بشأن المجلس التأسيسي، فعليها ان تدعو اليهود وتأخذ رأيهم فيه ايضا والأفضل ان تجمع بين العرب واليهود ومندوبها في لندن على الطاولة المستديرة وتجري المذكرات العامة في هذا الشأن وتحسم القضية بقرار الأكرية اذا لم يكن بموافقة الجميع) (٣٥).

أما مراسل (فلسطين بوست) في لندن، وهو يهودي، فقد اعتبر أن دعوة وزارة المستعمرات لرؤساء الاحزاب العربية دليل على تبديل خطتها ويبدو ان نائب

القنصل العراقي كان متأثراً بهذا الخبر مما جعله يبدأ تقريره الى وزارة الخارجية العراقية بالعبارة التالية :

(يظهر ان السياسة الإنكليزية اخذت تتحول تدريجياً في مصلحة العرب هنا) (٣٦)

شغلت قضية الوفد الفلسطيني وتأليفه المشتغلين بالحركة الوطنية فبين مؤيد لارسال الوفد وبين رافض لذلك . وهناك اقتراحات لانتخاب الوفد وبين رافض لذلك . وهناك اقتراحات لانتخاب الوفد وتحديد مهمته وقد دون نائب القنصل الاقتراحات (التي تعبر عن رأي فريق كبير من الاهالي ان لم نقل اكثرهم) منها :

- ١ - رأى يقول بان الوفد يجب ان يكون ممثلاً بالأهالي اقرب تمثيل الى الواقع ، وأن رؤساء الاحزاب لا تمثل البلاد لأن هناك محايدين لهم مقامهم واعتبارهم ويجب ان يمثلوا البلاد - ويضيف نائب القنصل - ان المقصود بهذه الفقرة الاخيرة مثل عوني عبد الهادي والسيد امين الحسيني .
- ٢ - هناك اقتراح بأن يكون الوفد مؤلفاً من شخصيات تتوفر فيها جميع عناصر المفاوضات لأن مهمة الوفد يجب ان لا تقتصر على المجلس التشريعي ، وانما تشمل عرض القضية الفلسطينية كلها وضرب الدعاية الصهيونية هذا الفريق على قسمين :

أ (قسم يرى انه اذا رفض الوفد المذاكرة بشأن المجلس فمعناه ان العرب لا يريدون المجلس وحينئذ تعلن الحكومة إرجاءه بناء على رفض العرب واليهود له .

ب (القسم الآخر يخشى ان تتخذ الحكومة الانكليزية من اصرار الوفد العربي على تعديل بعض مواد المجلس وتوسيع صلاحياتها ذريعة لتأجيل مشروعه عدة سنين وبهذا تكون قد وجدت لنفسها عذرا لدى عصبة الامم والرأي العام البريطاني واليهود ومجلس العموم (٣٨)

٣ - يرى الحزب العربي ان يقتصر الوفد على الحاج امين الحسيني وراغب النشاشيبي وعوني عبد الهادي وجمال الحسيني (رئيس الحزب العربي) وحسين الخالدي (رئيس بلدية القدس) والفردوك (نائب رئيس الحزب العربي) وهو من المسيحيين وقد اعترض على هذا الاقتراح رؤساء الاحزاب في اجتماعاتهم^(٣٩).

٤ - وقد نشرت الجرائد العربية جميعها بيان رشيد الحاج ابراهيم مدير البنك العربي في حيفا واحد الزعماء السياسيين من جمعية الاستقلالين الذين يصرحون دائما برفض المجلس وقد اقترح الموما اليه في بيانه ان يؤلف مجلس لا يتجاوز أعضاؤه الخمسين (٥٠) شخصا من:

١ - اعضاء اللجنة التنفيذية وعددهم ٤٢ .

٢ - رؤساء الاحزاب العربية الفلسطينية .

٣ - اصحاب الصحف العربية .

وهؤلاء ينتخبون من بينهم اعضاء الوفد المطلوب . وقد صدر هذا البيان عقب اجتماع جمعية الاستقلالين في القدس وقرارها ضرورة ارسال وفد . ومن اعضاء هذه الجمعية / عوني عبد الهادي / عزة روزة / سامي السراج / اكرم زعيتر / نبيه العظمة^(٤٠) .

٥ - وهناك رأي آخر (يبرز يوما فيوما) كما يشير نائب القنصل وهو ان الشبان من الفلسطينيين الذين اكملوا دراستهم في انكلترا يرون ان تكون الافضلية لهم في تكوين الوفد ، واذا تعذر ذلك فيجب أن يكون نصف اعضاء الوفد منهم ، وحجتهم الشخصية انهم يتقنون اللغة الانكليزية ويعرفون الشخصية الانكليزية وكيفية التفاهم مع الانكليز في بلادهم . وقد حصل هؤلاء على تأييد كبير من الاهالي^(٤١) .

وفي نفس الفترة وكرد على ما تنشره الصحافة العربية ابرزت الصحف اليهودية بان الدكتور وايزمن وبن غوريون سيذهبان الى لندن عند سفر الوفد الفلسطيني

العربي اليها لانتهاز الفرصة للاجتماع هناك مع العرب حول مائدة واحدة ليتم التفاهم حول الوطن القومي ، وفي رأيهم انه اذا رفض العرب الاجتماع بزعماء اليهود حينئذ يظهر للرأي العام بأن العرب يقاومون كل فكرة لإصلاح شؤون البلد (وانهم متأخرون حضاريا) وعليه فيجب ارجاء المجلس التشريعي . وكما يضيف نائب القنصل (ان الدكتور وايزمن قد احكم العمل في لندن بتأجيل المجلس التشريعي) ... كما ان الصحف في فلسطين قد نشرت جميعها تصريحات لوزير المستعمرات البريطاني في مجلس العموم خلاصته (انه لا يمكن عمل اي شيء أو إبداء رأي بخصوص المجلس التشريعي قبل مجيء الوفد العربي الى لندن)^(٤٢).

وهكذا عاش اهل فلسطين ولا شاغل لهم الا مسألة الوفد العربي الى لندن وكيفية انتخابه، هذا من جانب العرب، اما اليهود فقد اخذوا يكثرون من اجتماعاتهم وتظاهراتهم ضد الحركة العربية هذه، كما انهم كانوا يعطون كل جهدهم في سبيل عرقلة ارسال الوفد العربي الى لندن، ويعتقد نائب القنصل - ان الاستقلايين العرب المتطرفين لا يرون فائدة من ارسال وفد الى لندن، وهذه الفكرة، وان كانت لا تحظى الا بتأييد الأقلية - فمات الأكتية العظيمة في البلاد تؤيد ارسال الوفد.

(الا انه يخشى من توسعها، والاكتية هنا تدعو الى ارسال وفد الى لندن لا يفاوض الحكومة في قضية المجلس التشريعي بل ينظر بقضية فلسطين بأجمعها ويطالبهم بحقوق تشبه الحقوق العراقية والسورية والمصرية الأخيرة هذا هو شعور الجميع وكذلك الجرائد العربية)

أما الصحف اليهودية فإنها ترى ان سبب دعوة الوفد الى لندن يرجع الى :

أولا :

ضغط اعضاء مجلس اللوردات والعموم على الوزارة البريطانية منح عرب فلسطين حق اقامة مجلس تشريعي .

ثانياً :

الحركة الاستقلالية التي حصلت أخيراً في سوريا جعلت لندن تفكر في منح عرب فلسطين حق تكوين مجلس تشريعي تهدئة للخواطر^(٤٣).

وفي اجتماع عقده الحزب العربي الفلسطيني لجميع فروعهِ في البلاد حول قضية المجلس التشريعي وبعد جدال طويل قرر الجميع اعتبار لائحة المجلس التشريعي لا تفي بمطالب، ولهذا قرروا عدم الموافقة عليها اذا لم يجر تعديل على اللائحة... ويقول نائب القنصل :

ولكنهم في الوقت نفسه عادوا فقرروا ما يناقض ذلك.. اذ قالوا (اما اذا اصرت الحكومة على تنفيذه واصرار الاهالي على المقاطعة فان الحكومة ستلجأ الى طريقة تعيين اعضاء المجلس وعليه قرر الحزب الاشتراك في الوفد المرسل الى لندن) ان هذا التناقض كان مدعاة للانتقاد من الصحف العربية واليهودية^(٤٤).

واستمرت قضية تأليف الوفد تدور في حلقة مفرغة من قبل الأحزاب السياسية فقد اجتمعوا في ١٥ كانون الثاني، ولما لم يتفقوا ارجأوا اجتماعهم الى الثالث عشر منه وبقيت هذه الحالة سائدة حيث جعلت البلاد تمر بفترة قلق ادت الى تأجيل سفر الوفد حتى يعود السلام الى البلاد حسب تعبير زعيم الحزب العربي الفلسطيني .

الا ان هذه الاحزاب اعلنت بياناً في ٢٢ نيسان ١٩٣٦ قررت فيه ارجاء الوفد الى لندن وحثوا الشعب على مواصلة اضرابه وبهذا دخلت البلاد مرحلة الثورة المسلحة لسنة ١٩٣٦ وبذلك انتهت قضية المجلس التشريعي .

صورة كتاب القنصلية الملكية العراقية في حيفا المرقم ٢٦/١٣٩ والمؤرخ في ١٠
تشرين الاول ١٩٣٥ ، المعنون الى وزارة الخارجية بغداد

سرّي للغاية

تخصيص نفقات سرية

لاحقا بكتابتنا المؤرخ في ٢٧ تشرين الاول ١٩٣٥ والرقم ٢٦/١٠٥ .

بعد أن وعدني اصحاب الجرائد الفلسطينية بعدم نشر أي شيء يضر العراق
وسمعتة اديباً ومادياً، فهتمت من بعض الوطنيين هنا ومن اصحاب الجرائد الدفاع
والجامعة الاسلامية . وفلسطين . والجامعة العربية . بأنهم كانوا قد تعودوا ان يقبضوا
مخصصات معينة بعناوين مختلفة من صاحب الجلالة المرحوم الملك فيصل . وقد
انقطعت هذه المخصصات بعد موته . وانهم (اي اصحاب الجرائد والزعماء) في
حاجة شديدة الى مساعدة العراق إياهم اديباً ومالياً . وقد لمحاو اول الامر تلميحا ثم
صرحوا بعد ذلك تصرّحاً . بانه اذا كانت حكومة العراق لا تهتم بامر فلسطين ولا
تساعد الوطنيين وصحافتها العربية في ضائقهم ، فبأي حق تطلب من الجرائد هنا
ان تكون دعايتها على استمرار للعراق وان لا تنشر شيئاً يضر العراق ويشوه سمعته
وكرامته . فقلت لهم ان ضلة العراق بفلسطين ليست اجنبية، وان اهل العراق
يتوجعون لعرب فلسطين . انها تنشر كل شيء ينفع فلسطين ويقاوم الصهيونية فيها،
وعلى هذه اصبحت الحالة متبادلة بين القطرين الشقيقين .

غير اني لاحظت ان كلامي هذا لم يرضهم وقد جاء صباح يوم السبت الجاري
الدكتور احمد قدرى جاء الى هذه القنصلية مسلماً . واخبرني ان الوطنيين
واصحاب الجرائد قد فاتحوه في امر المساعدة المالية . ومن اولئك الوطنيين معين
الماضي . وعوني عبد الهادي . ورشيد الحاج ابراهيم . وصبحي الخضرا . ونبه العظمة
واصحاب الجرائد جميعهم .

وفي الحقيقة فاننا محتاجون الى مداراة اصحاب الجرائد هنا وبعض الوطنيين . ولما ثبت ان الدعاية لها الاثر العظيم في النفع والضرر للبلاد وان العراق محاط بالاعداء في داخله وخارجه فارى من الضروري تعيين مقدار من المال ليصرف هنا حسبما تقتضيه الظروف والاحوال من اكراميات وغرامم خصوصية وهدايا صغيرة الى غير ذلك كل على حسب مكانته واهميته . وهذه الوسيلة قد تتمكن من صد عادية المغرضين والمشنعين على حكومة العراق بالسوء . كما اننا سوف نتمكن من استخدام من نحتاج الى استخدامه في بعض الامور التحقيقية التي كثيرا ما تبين لي انه من الممكن ان تطلب من الحكومة هنا التحقيق فيها سرا ولا يمكن ان نستخدم احدا لذلك مجانا .

فلو فضلتم وخصصتم لهذه الغاية مقدارا من المال لكان ذلك ضماناً لنجاح الدعاية للعراق في هذا البلد . وان تخصيص مائتين الى ثلاثمائة دينار في السنة ليس بالشئ الكثير . هذا اذا قسناه بما تصرفه الامم الاخرى في هذا السبيل من الوف الدنانير .

فأرجو الموافقة على تعيين هذه المخصصات واخباري بها . ولا شك في اني سوف اراعي كل الحكمة والعدالة في الصرف . وان كانت ماليتي تساعد لتصرف في هذا السبيل مما املك .

اما اقتراحي على ردكم الجليل في هذا الاقتراح . ومع ذلك كله اني لم اقصر في مداراة القوم بمجالمتهم ودعوتهم الى العشاء او الغداء من حين الى آخر . وان كبدي ذلك مصاريف باهظة .

التوقيع / كاظم الدجيلي
نائب القنصل

صورة كتاب القنصلية الملكية العراقية في حيفا المرقم ٢٤/٩٢ والمؤرخ ٢١ تشرين
الاول ١٩٣٥ المعنون الى وزارة الخارجية في بغداد

سري

الموضوع: قصاصات صحف

حدث قبل اربعة ايام ان كشف البوليس عن طريق المصادفة براميل فيها
اسلحة وذخيرة حربية وهذه البراميل كان عددها يربو على ال ٥٠٠ برميل كبير
جلب من بلجيكا في باخرة بلجيكية بقصد انها مملوءة سمنا ابيض وكان الجالب
لها احد تجار اليهود وقد نشرت الجرائد هنا اخبارا كثيرة ومفصلة عنها وقالت ان
مقدار ما وجد في البراميل هو نحو ١٠٠٠٠٠٠ خرطوشة ومئات المسدسات
والآت اخرى قاتلة وكانت لهجة الجرائد العربية جميعها بصورة مهيجة ومثيرة
لعواطف العرب، الامر الذي يراد من ورائه الثورة ضد اليهود ولم تكتف الجرائد بهذا
بل نشرت لمحرمها وزعماء الاحزاب العربية في فلسطين مقالات نارية وهجومية
اكثرها على الحكومة الانكليزية واقلها على اليهود. وقد اضطرت السلطة في
فلسطين الى اصدار بعضها بان تكف عن نشر امثال هذه المقالات والا استعاقبه.

اما الاحزاب العربية فانها لم تلتفت الى مثل هذا الانذار بل احدث توالي
الاجتماعات في جميع البلدان الفلسطينية وتواجهها وترسل الاحتجاجات العديدة
والتهديدية على الحكومة الانكليزية الى دار الاعتماد البريطاني في القدس. والعامل
الاكبر لحركة الاحزاب جميعها هو حزب الشباب الذي يرأسه يعقوب الغصيني.
وعلى اثر هذا الحادث الذي رجّ اهل فلسطين العرب واليهود رجاً. عين يوم
لاجتماع جميع الاحزاب السرية واتخاذ قرار بما يقتضي عمله في هذا الشأن واجتمعوا
في يوم ١٧/١٠/١٩٣٥ في دار حزب الشباب في يافا وقد تحلف عن حضور
هذا الاجتماع الحزب العربي الفلسطيني وحزب الاصلاح باعتبار اننا لم نجعلها دعوة

من حزب الشباب المذكور. والظاهر ان هذا العذر غير صحيح اذ ان حقيقة الواقع هي الخلاف بين حزب الدفاع الذي يرأسه راغب بك النشاشيبي وبين السيد جمال الدين الحسيني رئيس الحزب العربي الفلسطيني. وقد اشارت بعض الجرائد الى ذلك. وقد احتج منفردا الحزب العربي الفلسطيني لدى المعتمد السامي على هذا الحادث مع اقتراحات اخرى قدمها كتابه وتجودون صورتها في طيه. وكذلك احتج منفردا راغب بك النشاشيبي لدى السلطة البريطانية وقدم عريضة فيما يقارب الموضوع الذي قدمه الحزب العربي.

ولكن الاجتماع الذي قام به حزب الشباب لم ينته بنتيجة، وأجل الامر في ذلك الى يوم الاثنين (اي هذا اليوم) ليجتمعوا في عصره وقرروا يوم الاضراب العام ومتى سيكون. اما الحزب العربي الفلسطيني فإنه قد اجتمع بنفسه وقرر أن يوم الاضراب العام سيكون الاربعاء (٢٣ / ١٠ / ١٩٣٥) غير ان هذا القرار لم يرض الأحراب والأهالي الذين كانوا يودون ان يكون يوم الاضراب باتفاق جميع الأحزاب عليه لتجني ثورته كما انه اساء بعض الوطنيين اذ عدوه من الحزب العربي الفلسطيني مخالفا للمصلحة العامة.

ويرى الكثيرون ان جلب هذه الاسلحة والتسامح في عدم التدقيق عليها في الكمرك كان كله بعلم السلطة الانكليزية ومساعدتها وقد اذاعت الحكومة الفلسطينية قراراتها عن هذه الاسلحة.

اما الجرائد اليهودية فإنها لم تذكر شيئاً كثيراً عن الموضوع ونشر خبره بصورة تشابه اخبار الجرائم العادية الأخرى، وزادت على ذلك الانتقادات الكثيرة على الجرائد العربية قائلة انها (تعني الجرائد العربية) قد اتخذت من هذا الحادث فرصة اثارته الاهالي على اليهود الآمنين والمشاغبة على الحكومة وطلبت من الحكومة ان تردع هؤلاء المهوشين وتضع حداً لهذه الكتابات المضرة والداعية للثورة. وكتب بعض الناس على جدران الحكومة في القدس ويافا بالحبر الاحمر ان جلب هذه الاسلحة بايعاز من الحكومة هي المسؤولة عنه. «وعدت الجرائد العربية هذه الكتابات صادرة من الشيوعيين وجلب الكل انها من العرب انفسهم» وقد القت

القبض الحكومة على بعض المعوقين انهم من العتاة ولا تزال التحقيقات جارية .

وفي عصر السبت الماضي (١٩ / ١٠ / ١٩٣٥) اجتمع فريق من اليهود الشبان في تل اييب وخطبوا ضد الفاشية وعن فلسطين تجاه الحرب الى ضالية - الحبشة وقال احد خطبائهم (ان من الضروري الآن أن نتصل بجيراننا العرب فننشئ جمعية عمال متحدة، ولا نسمع لاقوال الجرائد اليهودية التي تدعونا بان نتكل على الانكليز).

وفي طيه تجدون قصاصات كثيرة فيها تتضمن كل شيء من هذا الحادث وكذلك قصاصات اخرى عن العراق واخبار منقولة عن جرائد وعن الخط الحجازي والمذكرات التي لا تزال جارية في شأنه وعن زواج الملك ابن السعود ونجله بحفيدتي نور الشعلان وعن اجتماعات اليهود في تل اييب وعن تقرير لجنة الانتدابات في جمعية الامم عن حالة فلسطين والعرب واليهود للاطلاع .

التوقيع / نائب القنصل

صورة منه مع نسخة من القصاصات المذكورة اعلاه تقدم الى :
مديرية الدعاية والنشر في بغداد للاطلاع .

مفكران لبنانيان وقضية فلسطين

- نجيب عازوري

- ميشال شيحا

د. زاهية مصطفى قدورة

الجامعة اللبنانية

اللبنانيان اللذان ندرس آراءهما عن الصهيونية وفلسطين في هذا المقال هما نجيب عازوري وميشال شيحا. صحيح انهما لم يكونا متعاصرين: لكن احدهما - ميشال شيحا - يمثل بشكل من الاشكال استمرارا لأولهما - نجيب عازوري - فيما يتصل بالموقف من قضية فلسطين وغزو الحركة الصهيونية لها مع الفارق، أن تلك الحركة زمن عازوري لم تكن قد تركزت بعد، وكانت من صنع بريطانيا ودعمها، وظلت كذلك الى أن تحولت زمن شيحا الى حركة اكثر تركيزا وفعالية في فلسطين نفسها وفي المجال الدولي. ثم انتقل مركز الصهيونية منذ مؤتمر بالتي مور بواشنطن عام ١٩٤٢^(١)، من بريطانيا الى الولايات المتحدة، وتركزت القيادة الصهيونية فيها، سعياً الى انتشاء الدولة اليهودية التي تحققت عام ١٩٤٧، قبل وفاة شيحا بعدة سنوات.

لقد انتهت فعالية عازوري السياسية بوفاة عام ١٩١٦، قبل ان يعرف نتيجة الحرب الاولى ومصير الدولة العثمانية، بينما توفي ميشال شيحا عام ١٩٥٤ ببيروت، ولا شك أن الموت في بلاد العرب بعد خمود الثورة العربية والاستكانة لتقسيم الانجليز والفرنسيين لاقطار الدولة العثمانية ترك آثاره العميقة على موقف ميشال شيحا من القضية العربية حتى وهو يصل الى ذروة حماسه في نصره الحق العربي بفلسطين. ولم يكن ممكناً لاتجاهات شيحا ان تتبلور في فكر عازوري بسبب عدم

وجود الظروف الموضوعية لذلك، لكن بذور موقف شيحا موجود في تراث عازوري حول العروبة، وان اختلفت منطلقات كل منهما. وهكذا فإننا نتطلع في هذه المعالجة الى دراسة جدليات العلاقة بين موقفى الرجلين واثر التطورات السياسية والطائفية على موقف كل منهما من قضية العرب الكبرى.

ولد نجيب عازوري في قرية عازور الصغيرة، على مقربة من مدينة جزين بجنوب لبنان، وكانت المنطقة آنذاك تابعة لولاية القدس العثمانية. وقد تابع عازوري ابن العائلة المسيحية التربة نسبيا دراسته العليا في فرنسا ثم عاد للعمل في ادارة الدولة العثمانية فتولى عدة مناصب مرموقة في ادارات ولاية القدس حتى صار وكيلا للحاكم بين ١٨٩٨ و ١٩٠٤^(٢) ثم ما يلبث أن ظهر فجأة في باريس اواخر العام ١٩٠٥، قائلاً انه تشاجر مع رشيد باشا حاكم المدينة (١٩٠٤-١٩٠٦) بسبب فساده ومجاملته للواردين من اليهود مقابل رشاوي ضخمة كان يقبضها منهم^(٣) في باريس سارع عازوري الى تأسيس «عصبة الوطن العربي» واضعا لها برنامجا عربيا ثوريا، ثم اصدر في العام نفسه كتابه «يقظة الامة العربية في آسيا التركية». وفي عام ١٩٠٧، اصدر مجلة شهرية بالفرنسية باسم «الاستقلال العربي» ما لبث أن اقلها مع سقوط السلطان عبد الحميد، معترضا العودة والترشيح لمجلس «المبعوثان»، لكنه منع عن ذلك فجأة بسبب اثاره جماعة «تركيا الفتاة» حكما بالسجن عليه، كان قد اتهمه به حاكم القدس حينذاك - كاظم بك - عام ١٩٠٢، وكان عليه أن ينتظر اعادة النظر بالحكم قبل مواصلته ترشيح نفسه، فاتجه الى القاهرة حيث واصل نشاطه الصحافي والسياسي، وأيد ثورة الشريف حسين، وارسل السلاح، الى الثوار العرب عبر سيناء وظل في القاهرة حتى وفاته في ٢٧ حزيران عام ١٩١٦^(٤).

تتلخص نتيجة تحليل عازوري في كتابه عن يقظة «الامة العربية» في عبارته التالية: «انّ ظاهرتين هامتين متشابهتي الطبيعة، بيد انهما متعارضتان، لم تجذبا انتباه احد حتى الآن تتضحان في هذه الآونة في تركيا الآسيوية اعني: يقظة الامة العربية وجهود اليهود الخفي لاعادة تكوين مملكة اسرائيل القديمة على نطاق واسع.

ومصير هاتين الحركتين هو ان تتعاركا باستمرار حتى تنتصر احدهما على الاخرى وبالنتيجة النهائية لهذا الصراع بين هذين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متضارين يتعلق مصير العالم بأجمعه»^(٥).

فإذا تأملنا عرض عازوري للقضية لاحظنا انه يتجاهل «قوموية» ثالثة كانت تبرز ايضا انذاك، وهي التي تسببت في تشريده عن وطنه الى جانب اسباب اخرى. انها «القوموية» التركية أو الطورانية. ويرى عازوري ان العرب امة متقدمة في حضارتها ولغتها وتاريخها افهي التي تشكلت على قاعدة الاسلام حملته الى اقصى اصقاع الارض، وكان الفاتحون العرب في كل الاقطار التي فتحوها وحكموها اجيالا مثال التسامح والرحمة والانسانية مع اصحاب الاديان الاخرى: «فلقد احتى العرب الذين هاجموا آسيا وافريقيا كل الشعوب والعناصر، ولم يجدوا صعوبة في فرض اللغة العربية على السوريين والكلدانيين الذين كانوا من جنسهم.. واحترام الخلفاء العرب والطوائف المسيحية تمثيا مع الوضع الراهن. وهكذا استطاع هؤلاء رغم تعلمهم للعربية الاستمرار في تأدية صلواتهم بلغاتهم الاصلية كما احتفظوا بنظامهم الديني القديم»^(٦).

- ان العرب المسلمين لم يعودوا غرباء في منطقة بلاد الشام وما بين النهرين لان سكان البلاد الاصيلين استقبلوا بالترحاب وتبنوا لغتهم وتبنى كثير منهم دينهم، ولا يزال هؤلاء العرب الذين حكموا العالم الشرقي قرونا قادرين على حكم انفسهم رغم الاثار الضارة التي تركها الاحتلال التركي الطويل على نفوسهم وقدراتهم وحضارتهم^(٧).

العرب قادرون على حكم انفسهم بانفسهم بسبب وضعهم الحضاري المتميز، وتألفهم فيما بينهم، مسلمين ومسيحيين، لذا فلا داعي في نظر نجيب عازوري لاستمرار السيطرة التركية على بلادهم، فبالاضافة الى التاريخ المظلم للحكم التركي على العرب فالاتراك لا يزالون «يضطهدون المسلمين والعرب اكثر من اضطهادهم المسيحيين الا انهم يحرصون اولئك على هؤلاء. وهم يستندون الى الكهنة اليونان فيثيرون الاثوذكس ضد الكاثوليك بهدف الهاء الشعوب وتحويل

انتباهها عن الطغيان»^(٨). وهكذا فانه صار من المستحيل البقاء تحت حكم الترك، والبديل يمكن في انشاء «امبراطورية عربية او اتحاد كونفيدرالي للاقطار العربية. انه في حالة انشائه سيضمن ازدهار الملايين وسعادتهم، ويضع حدا للاضطهاد الذي يمارسه الموظفون الاتراك وسيسمح ببعث الحضارة القديمة التي ازدهرت في ظلها العربية في القرون الوسطى. اننا سنزيد وحدتنا عندما نحكم انفسنا بانفسنا وبلغتنا وحسب عادتنا»^(٩)

وهكذا دعا غازوري الى دولة عربية مستقلة استقلالاً ناجزاً عن تركيا خطط حدودها، وحدد نظامها على الشكل التالي :

«نود ان ننسخ بتاتا عن تركيا لتأسيس مملكة عربية تشتمل على جميع البلاد العربية في آسيا الداخلة في حدودها الطبيعية من وادي دجلة والفرات الى قناة السويس ومن البحر المتوسط الى خليج عمان، وستكون هيئة الحكومة عبارة عن سلطنة حرة دستورية باوسع معانيها وحاكماً عربي مسلم»^(١٠).

ان دولة عربية تنشأ في الجزيرة وبلاد الشام والعراق ستواجه في نظر غازوري الحركة الصهيونية بكل قوتها وتنظيمها وسريتها في محاولتها ليس انشاء دولة في فلسطين فقط، بل ومن الفرات الى النيل ايضا تنطلق من القدس المحتلة من قبل اليهود. في هذا المجال يأسف غازوري لغفلة قناصل الدول الكبرى، وعلى الخصوص قنصلي فرنسا وانجلترا عن الخطر اليهودي الذي لا يتهدد العرب فقط بل العالم بأسره؟ وخصوصاً أوروبا المستفيدة من حضارة العالم وسلاحه. ان الدول الكبرى، تنهج سياسة خطيرة النظر عندما تغير قناصلها في القدس وبيروت ودمشق والقسطنطينية كل سنتين او ثلاث قبل ان يكون قد تسنى لهذا القنصل معرفة البلاد معرفة حقيقية. ثم ان الكثيرين من هؤلاء القناصل قصيروا النظر همهم بلوغ مناصب عليا في دبلوماسية دولهم عن طريق تقارير كثيرة لكنها فارغة. هذا بالإضافة الى ان الصهيونية اشترت ضمائر القلة القليلة منهم التي لا تدري بما يدور حولها وما يحاك ضدها وضد العرب^(١١).

ويلوم عازوري القناصل العاميين في بيروت والقدس، لانهم اتخذوا باليهود: «يوجد في بيروت والقدس قناصل عامون، يدافعون عن مصالح الصهيونيين ويساعدونهم على التقدم لانهم اتخذوا باليهود ولم يحسبوا حسابا للخطر الداهم. مع ان واجبه الملح يكمن في مقاومة حركة اسرائيل في فلسطين وضمائر العداء لما يرمي اليه اليهود»^(١٢).

ان الصهاينة الذين تزايدوا في فلسطين ثلاث مرات خلال عشرين عاما لم يصلوا الى ذلك مصادفة، لقد تأمر معهم بعض قناصل الدول الكبرى، كما غفل قناصل كثر عن كل شيء. اما المجرمون الرئيسيون في نظر عازوري فهم الاتراك وولاتهم فلقد «خيّم جو من عدم الرضى على حكم الوالي التركي الذي كان يبيع ارض العرب للصهاينة والوكالة اليهودية التي استقدمت الفا وخمسمائة يهودي روسي. وقد وفّرت هذه الصفقة لجيب الوالي مبلغ ثلاثة ملايين»^(١٣). ان «الحكام الاتراك والقناصل العاميين لم يرفعوا الى حكوماتهم تقارير يلفتون فيها انظارها الى خطط اليهود وتنظيمهم وغزوهم لفلسطين»^(١٤) حتى عندما يعرف موظف زكي مختص شيئا من الهجرة اليهودية فانّ ذلك يتم بطريق المصادفة؟ فقد حدث انه بينما كان المفتش التركي الذي ارسل خصيصا لدراسة الوضع السياسي في سورية وفلسطين «يلعب» البكاراه «عند كاظم بك سمع مصادفة حديث شرطي عن مستعمرة اسرائيلية مجاورة... وكان قد مضى على وجوده بالقدس وبيروت حوالي ستة اشهر» دون ان يهتم بمسألة اليهود»^(١٥).

صحيح من وجهة نظر عازوري انّ الصهيونية حركة سياسية ذات بعد «قومي»؟ لكنّ المشكلة فيها انها متجذرة دينيا ايضا. انها تملك جذرا مشتركا مع المسيحية هو العهد القديم، وهو امر يزعج نجيب عازوري فقد اكتشف، كما يقول، شروطاً قديمة للصهاينة وصلت بهم الى حد تشويه الكتاب المقدس. يقول نجيب عازوري، «اننا بذلك لا ننوي، اطلاقا نقد الطريقة التي تفسّر بها الكنيسة المسيحية الكتاب المقدس. نحن بالعكس نجل التعليم الكتابي المسيحي فإن المعنى المجازي والروحاني الذي يضيفه اللاهوتيون على قصص التوراة اخلاقيّ تماما، ويرفع

كثيراً من قيمة العهد القديم . بينما التفسير الظاهري والحرفي الذي يقتصر عليه اليهود يجعل هذا الكتاب خطيراً لا اخلاقياً يشكل ادانة رهيبه لهم . اننا في تأليف كتابنا : « يقظة الامة العربية » ، و « الخطر اليهودي العالمي » نرتفع فوق الاحكام الدينية المسبقة ، ونتجرد من عواطفنا وقناعاتنا غير ناظرين الى القضية الا من وجهة سياسية محضة»^(١٦) . ومعرفته بشرور هؤلاء لا تستند الى وقائع تاريخية فقط ، بل مصدرها ايضاً اتصاله الوثيق بعدد من اليهود عندما كان في ادارة القدس فقد راقبها كما يقول - عن كتب ، واطّلع على نشاطاتهم السرية والمؤذية^(١٧) . ثم ان ماضي أي شعب ، وعقائده الدينية هما الصورة الأكثر أمانة لحاضره ومستقبله^(١٨) .

ورغم ان كتابه عن الخطر اليهودي العالمي لم يصلنا ، بل اننا لا نعرف ان كان قد الفه حقاً ، فإنّ نصّاً « يقظة الامة العربية » لم يوضّح معرفته الدقيقة الخطط الصهيونية المبدئية فيما يتصل بالاستيطان في الشرق العربي وفلسطين بالذات ؟ فهو يقول ان الحدود الطبيعية بالنسبة لهم هي « جبل الشيخ الذي يضم منابع نهر الاردن ووادي بردى في الشمال مع الاراضي المحصورة بين راشيا وصيدا كموطئة ، وقناة السويس وشبه جزيرة سيناء من الجنوب ، والجزيرة العربية في الشرق ، والبحر المتوسط في الغرب . وتتكونها هذا تصبح فلسطين بين يدي شعب يعرف كيف يدافع عنها بلدا صعب المنال»^(١٩) .

لقد بدأ الصهاينة يعدون العدة للاستيلاء على فلسطين وتحقيق هدفهم هذا حوالي عام ١٨٨٠ بشكل منظم . فاقاموا جمعيات في اوروبا وامريكا لجمع الاموال ، واخرى لتجنيد الرجال ، ونظموا اتصالات بمسؤولي الدول الكبرى ، وبالسلطنة العثمانية ، بحيث يعد نشاطهم رغم نكثهم الشديد ممكن التجاهل^(٢٠) . وهذا الاعداد الصهيوني الدقيق يقابله من جانب الاتراك - في نظر عازوري - استهتار او تخاذل او تأمر ومن جانب العرب سكان البلاد الاصليين « النزاعات ، والجهل ، والبؤس ، وعدم التنظيم»^(٢١) .

ليس هناك الكثير من الخلاف حول مدى فهم نجيب عازوري لابعاد

الصهيونية واهدافها واطماعها في فلسطين . فقد عاش الرجل في فلسطين عند بدايات الهجرة اليهودية اليها، واستطاع بحكم منصبه ان يتبع نشاطات اليهود داخل فلسطين، ثم مكنته ثقافته الفرنسية من تتبع النقاشات الدائرة حول الصهيونية وبين الصهاينة في فرنسا وغيرها، وهكذا فاننا لو تجاوزنا بعض تعليقاته لوقوفه ضد اليهود، مثل تحريفهم الكتاب المقدس لا نجد فروقا كبيرة بين موقفه من الصهيونية وموقفنا منها وبين فهمه للصهيونية وفهمنا لها . بيد ان هناك امرا جديرا بالاهتمام هنا فيما يتصل بحديثه عن تشابه طبيعة الحركتين الصهيونية والعربية . ولا شك انه يعني بذلك ان التشابه يأتي من جهة احساس اليهود في الشتات بالحاجة الى وطن، واحساس العرب من جهة اخرى بانهم غير الترك وحاجاتهم كما قال هو الى الاصرار على مبدأ «بلاد العرب للعرب» لكن هذا التشابه لا يصل الى حد اعتبار طبيعة الحركتين واحدة او متشابهة فالعرب جماعات من الناس ذات ثقافة تاريخية مشتركة، ولغة مشتركة، وفي منطقة متصلة جغرافيا تقريبا، ومطمحهم - هذا اذا صح تحليل عازوري - هو انشاء مملكة عربية مستقلة عن العثمانيين سبب ضعفهم وتخلفهم . أين موطن التشابه اذن؟ هل كان لليهود ارض يقيمون عليها ويسيطر عليها الآخرون؟ بل هل طردهم العثمانيون والعرب من ارضهم؟ ثم اين هي ثقافتهم المشتركة ولغتهم المشتركة؟ حتى فلسطين التورانية لم يكن قد صارت في مطامع هذا القرن لعبة مال الصهاينة منهم كما توضحه مذكرات هرتزل نفسه .

ان حديث عازوري عن التشابه لا ينبغي ان يشمل غير ما سبق ان قلناه؟ وهو المتصل بمطمع الحركتين في السيطرة على المنطقة بعيدا عن نفوذ العثمانيون، واصطدم مصالحهما من اجل ذلك .

لكن سنعد الى عروبه وموقفه بالتالي من الدولة العثمانية لقد كانت فكرته القومية واضحة تماما، وعلى نمط القوميات الأوروبية التي يبدو من كتابه انه قرأ عنها كثيرا، وقد بلغ من تطرفه في هذا الاتجاه، وسيطرة ذلك على فكره انه دعا الى كنيسة كاثوليكية عربية، قداسها بالعربية، لتسقط كل الفروق بين العرب المسيحيين والعرب المسلمين، فليس اسهل في نظره من ابداع ترتيب جديد في

الكنيسة « تتلى بموجبه الصلوات كلها بالعربية لابعاد اليونان واللاتين والسريان والكردان واي ضير يتأتى من ان تصبح اللغة العربية - لغة القرآن والاسلام العالمي - لغة المذهب الكاثوليكي؟ وان تؤسس بطريركية خاصة لهذه الكنيسة الجديدة تحتوي كل المذاهب الاخرى في سنوات معدودة، وتنضم الكنائس الارثوذكسية تلقائيا اليها لانها ستكون مدفوعة بحركة الامة الشاملة. ويتعاطف المسلمون مع المسيحيين أيضاً لانهم يرونهم يقتربون منهم من اجل السلام والخير العميم للوطن المشترك، الوطن العربي»^(٢٢) وكما أوصله تصوره البروتستانتي المتغرب الى كنيسة وطنية عربية تقرب الشقة بين مسلمي البلاد ومسيحيها، اوصله أيضا الى خلافة او مملكة عربية تقرب (الشقة) بين مسلمي البلاد ومسيحيها، اوصله أيضا الى خلافة او مملكة علمانية عربية فيدرالية علاقتها بالاسلام كعلاقة اوروبا بابابا الكاثوليكي: « يقدم الوطن العربي الخلافة الاسلامية الدينية العامة للشريف المنحدر عن الرسول، والذي ينضم بصراحة الى حزبه الذي يكرس نفسه لهذا العمل. وسيكون لهذا الخليفة الديني دولة سياسية مستقلة تماما تشمل ولاية الحجاز الحالية ومنطقة «المدينة المنورة» حتى العقبة. ويتمتع الخليفة الديني باحترام الملك يملك سلطة روحية فعلية على كافة مسلمي الارض»^(٢٣) واذا كان الفصل بين الدين والدولة بهذا الوضوح عنده فمن الذي سيتولى سلطة العرب وملكهم؟ انه يقترح لذلك امير من سلالة خديوي مصر من اسرة محمد على المعادية للترك منذ اقدم الزمان - وعلى هذا الامبراطور او الملك ان يعترف بحكم ذاتي لاقاليم اليمن ونجد والعراق ولبنان وتبقى مصر دولة مستقلة بسبب الخلافات العرقية بينها وبين اقطار المشرق العربي^(٢٤).

واذا كان التصور القومي عند نجيب عازوري عند نجيب عازوري تصورا قوميا متأرجحا تشوبه نفحات طائفية، وتطلعات أجنبية شأنه كثير من المفكرين المسيحيين اللبنانيين بالذات، في ذلك العصر، الذين نظروا الى العروبة نظرات مختلفة الانطلاقات، مبنية على تجارب خاصة ومصالح معينة. فقد كانت الفكرة التي راودت هؤلاء المفكرين جميعا هي كيفية الوصول الى ذاتية لبنانية مستقلة عن

حيطها العربي، رافضة للاندماج السياسي فيه مع الحفاظ على اللغة العربية والتمسك بالثقافة العربية.

هذا هو الجو الذي عاش فيه العازوري، منطلقاً من بيئة الثقافة التي تلقاها في مدرسة الفرير أولاً، ومن انتقاله الى فرنسا لاتمام دراسته واطلاعه على حركات التحرر الغربية وفكرة القوميات بالذات، التي كانت سائدة انذاك، ثم عودته الى الوطن حيث تولى منصب نائب حاكم فلسطين من سنة ١٨٩٨-١٩٠٤، فأتاح له هذه الوظيفة الاطلاع على اوضاع الادارة التركية مباشرة، وفتحت مجالاً له للاصطدام مع بعض المسؤولين الاتراك. هكذا كانت فكرته القومية والعربية متأثرة بنشأته وبيئته، لكنه دون شك سجل تحولاً في الفكر القومي، فبعدما كانت العربية تقتصر عند زملائه، باللغة والحضارة، أصبحت عنده العروبة امة، ووطناً وقومية. على ان هذه العروبة انطلقت من بلاد الشام من التربة التي نشأ فيها، وشملت الهلال الخصيب لا العالم العربي او الوطن العربي كله، وكذلك كانت قوميته «أفرنسية» الهوى، متأثر بموقف الفئات الفرنسية المثقفة في اواخر القرن التاسع عشر من اليسوعيين والبابا: «هكذا نجد بفضل نشاط فرنسا بيننا مثقفين واعين، وبتنا نعي قوميتنا»^(٢٥).

وكان العازوري معجباً بالثقافة الفرنسية وبالسياسة الفرنسية التي «قامت بحملة الى سوريا وخلقت الحكم الذاتي في جبل لبنان دون التمركز في البلاد كما كان يمكن لها ان تفعل»^(٢٦). وانها قدمت خدمات جليلة، من تعليمية وغيرها، وحمته الارشاليات: «ان الخدمات التي لا تحصى على مر الازمان لقضية الحضارة تعطيها الحق في ان تتمتع بمحبة كل الشرقيين وجميلهم دون تمييز في العرق او في الدين»^(٢٧).

فلا شك ان فهم عازوري لعلاقة المسلمين بالمسيحيين في الشرق، ولعلاقة لبنان بالمملكة العربية التي اقترحها نابع من احساس بوضعه الطائفي وخوفه على هذا الوضع، وهو مع اصراره على احترام الحكم الذاتي في لبنان، يرى ان على المسيحيين تقديم تنازلات فيما يتصل بالقضايا الدينية مقابل الحصول على وضع

خاص في قلب المملكة العربية، ولا يخفف هذا الاحساس دعوته الى منح النجديين وضعا يشابه للبنان، فلو كان الوضع لمسيحي فلسطين وهم لم يكونوا يقلون عددا عن كاثوليك لبنان آنذاك؟ لكن اذا امكن فهم تصوره لعلاقة الدين بالدولة، لعلاقة لبنان بالدولة في الاطار الذي حددناه، فكيف يمكن فهم موقفه من استقلال مصر عن امته العربية الجديدة؟ لقد حدّد اسسا لغوية ودينية وثقافية وجغرافية للامة، وكلها تنطبق على مصر، فهل كان صوت مصطفى كامل المنكر لعروبة مصر هو الذي دفعه الى الحديث عن خلافات عرقية؟ لا شك ان فكرة استبعاد مصر عن الامة العربية كانت ولا تزال من بنات فكر الاستعمار وتخطيطه بغية اضعاف هذه الامة.

ونرى انه يصعب وضع تصوره كله - بما في ذلك فهمه للصهيونية - خارج اطار الصراع الاستعماري على المنطقة، وعن الذي كان يدور بين فرنسا وانجلترا منذ قرن من الزمان. لقد كانت الدولتان تتنازعان من اجل تقسيم تركة «الرجل المريض»^(٢٨). وكانت الصراعات بينهما في اسيا وافريقيا تصل الى حدّ اعلان الحرب، وقد وقعت الحرب العالمية اخيرا عام ١٩١٤ لاسباب كهذه. اما في الفترة التي كان نجيب عازوري يكتب كتابه (١٩٠٤ - ١٩٠٥) فكانت الدولتان قد اتفقتا مؤقتا بعد مواجهة () على تقسيم مناطق النفوذ. فاعترفت فرنسا بمصالح انجلترا في بعض اقطار افريقيا ومنها مصر، واعترفت انجلترا بمصالح فرنسا في المغرب العربي وبعض اجزاء افريقية الاخرى وسورية ولبنان - وكان النزاع ما يزال يجري على العراق وفلسطين. وقد اظهرت وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ان نجيب عازوري كان مرتبطا بالسياسة الفرنسية، بل انه كان يتقاضى مرتبا من تلك الوزارة، ومن هنا يأتي ارتباطه بالمشروع الاستعماري الفرنسي، ومن هنا يأتي التناقض في موقفه. ففي الوقت الذي كان فيه شديد الحماس للقومية العربية وللامة العربية، وكان يضع ذلك في مواجهة الترك، ويضع الترك في مؤازرة الصهاينة ويفصل مصر عن العرب الشرقيين، ربما يفعل ذلك تناسقا مع السياسة الفرنسية، رغم انه اراد ملكا للشام

من مصر . ويبدو تردد وتأرجح العازوري واضحا من خلال بعض المواقف والآراء
لقد اعلن في المؤتمر العربي الاول المنعقد في باريس عام ١٩٠٥ ، ملخصا لمبادئ
حزبه ، حزب الوطن العربي ، وهو الانفصال عن الاتراك ، وانشاء امبراطورية
عربية ، او اتحاد كونفدرالي للاقطار العربية ثم «نحكم انفسنا بانفسنا بلغتنا
وحسب عاداتنا»^(٢٩) . ثم يصرح في وقت آخر «نحن لا نطلب من الدول
الاوروبية ان تقدم اي تضحية في سيولنا او ان تتخذ اي خطوة عسكرية لصالحنا ،
فقط نرجو ان تتعاطف مع اوروبة والولايات في اميركا الشمالية وذلك لصالح
السلام العالمي وخير الانسانية وتدعم بالتشجيع الحركات الوطنية الانفصالية التي
تحدثت عنها في هذا الكتاب وخصوصا الحركة العربية ، فهي اقوى الحركات
وأضمنها نجاحا وفي الواقع لا يحتاج اثنا عشر مليون عربي الى اكثر من اثنتي عشرة
ساعة لطرد الف ومائتي تركي يستغلونهم بتجزئتهم»^(٣٠) . ثم يصرح بوضوح :
« لا يملك احد الحق في سن حكمننا غير فرنسا ولن يهتف بجرارة لاي دولة غيرها
اذا نزلت في البلدان العربية يوم يتقرر تجزئة الامبراطورية التركية»^(٣١) .

واذا كانت الامة العربية التي أشاد العازوري بخصائصها طويلا ليست قادرة على
حكم نفسها بنفسها ، وهو الذي أكد ذلك - فما الحاجة الى استقلالها عن الترك
ووقوعها في يد الفرنسيين ؟ لا شك ان نجيب عازوري كان مخلصا في موقفه من
الصهيونية ، كما كان مخلصا في احساسه بوحدة العرب - الهلال الخصيب - لكن
نرجح ان ارتباطه بالمشروع الفرنسي في الشرق كان من الاسباب التي ادخلت
تناقضات على قضيته .

وهل صحيح ان العرب جميعا كانوا يشاركون عداوه للعثمانيين وكانوا يريدون
الاستقلال عنهم ، انه فيما ، عدا عبد الرحمن الكواكبي ، الذي كان يريد خليفة
عربيا بسبب الاستبداد التركي ، فانه علينا ان ننتظر سنوات حتى يتبلور اتجاه
«اللامركزية» المعتدل . ورغم قيام جمعيات سياسية سرية عربية كثيرة ، لم يكن
هناك توجه عربي شامل ضد السيطرة العثمانية او بالأحرى التركية ، بصرف النظر
عن الثورة العربية عام ١٩١٦ وملاساتها .

ولا شك ان جمعية الاتحاد التركي، التي وصلت عام ١٩٠٩ الى السلطة عجلت بسياستها في الترك، في بلورة رد فعل عربي، لكن مشاريع الانفصال كان عليها ان تنتظر بعض الوقت كليا كي تستطيع الخطوة ان تنال تأييداً جماهيرياً عربياً. هذا فان موقف عازوري من الترك هو موقف شخصي الى حد كبير ومرتبط بالفرنسيين وسياستهم في المنطقة في آن. ويبدو انه كان يراهن في موقفه من الصهيونية على الموقف الفرنسي المتعارض حتى ذلك الحين لارتباطها بالسياسة البريطانية في الشرق.

ان التناقض الداخلي الذي يسود اجزاء المشروع العربي العازوري وارتباطه بمصالح فرنسا في الشرق حال دون تجذره في داخل الشرق العربي. فحتى في مؤتمر عام ١٩١٣ بباريس لم يلعب عازوري دورا بارزا، ويرى جورج انطونيوس^(٣٢) ان نشاطات عازوري في اوربا اثارت شيئا من الاهتمام لكنها لم تؤثر في داخل الشرق العربي لصدورها عن باريس وباللغة الفرنسية، وعندما عاد الى يافا ١٩٠٨ لفترة قصيرة لترشيح نفسه للمبعوثان ناقض نفسه اذ لم يدع لمشروعه السالف الذكر بل ركز على قضايا الاصلاح العام^(٣٣) على ان بورات ينسب اليه تأثيراً في العالم العربي، لكنه يؤكد انه لم يكن له اي اثر في فلسطين^(٣٤) ويرجع هارتمان ذلك الى طبيعة شخصيته بالاضافة الى مسيحيته وارتباطه بفرنسا^(٣٥). هذا وان كانت هذه الافكار قابلة للجدل في رأيي.

كان لنشاط نجيب عازوري وكتابه «يقظة الامة العربية» اثر في الاوساط الأوروبية بينما لم يسمع صوته في الاوساط العربية حينذاك، سوى بعض الاشارات لدى بعض رجالات العرب الوطنيين الذين عاصروه، منهم الامير مصطفى الشهابي^(٣٦) «ومن الطبيعي القول بأن نشاطا قوميا كهذا النشاط، مقره باريس، ولغته افرنسية، لا يمكن ان يبلغ صداه البلاد العربية في يسر، ولا ان يكون له تأثير يذكر في نفوس العاملين في الحركة القومية العربية. وانا على يقين من ان كتاب العازوري لم يكن عند احد من شباب جمعية النهضة العربية ولا عند احد ممن ألقوا، عقب اعلان الدستور العثماني، الجمعيات والمؤسسات القومية العربية

المختلفة . وفي سنة ١٩١١ وجدته يباع في احدى مكنتبات باريس فاشتريته ودلت بعض الرفاق من الطلاب العرب عليه فلم يهتموا به ، لانهم كانوا قد شبوا عن الطوق ، وعرفوا من شؤون القومية العربية وواجباتهم فيها ما لم يعرفه غيرهم . «وكذلك قال احد معاصريه محمد جميل بيهم^(٣٧) : «وقد حاول الاستاذ نجيب عازوري اللبناني اثاره القضية العربية في مطلع القرن العشرين فألف جمعية «عصبة الوطن العربي Ligue de la nation Arabe ثم اصدر سنة ١٩٠٧ جريدة شهرية اطلق عليها «الاستقلال العربي» وكانت جمعياته ترسل نداءات ثورية ضد الترك داعية لتحرير سورية والعراق ، طافحة بنقد السلطان عبد الحميد .

ويسوئا القول بان الظنون كانت تحوم أيضاً حول نشاط المشار اليه : ذلك انه هبط باريس غاضبا من جراء عزله من الوظيفة التي كان يشغلها في فلسطين ، فأخذ في منشوراته يوعد الترك بالعرب . ومن يقرأ كتابه المذكور ير بين سطوره ما كان يضم من رغبة في الانتقام والتحويل» .

طويت صفحة نجيب عازوري لفترة طويلة من الزمن ، واصبح اسما مغمورا إلا ان الدكتور احمد ابو ملحم طرحها بترجمة كتاب العازوري «يقظة الامة العربية» مع تقديم له وتحليل . وقد اثارت هذه الدراسة جدلا بين نخبة من الشباب اللبناني الباحث ، فوقفت فئة منهم الى جانب قوميته وعرويته ، وفئة اخرى رأت فيها دعوة مرتبطة بعجلة التبعية ، وانه مبشر بقوميته لصالح امة غيرها .

وكان اول المؤيدين لفكر عازوري القومي الدكتور احمد ابو ملحم الذي قال عنه ، انه قاد حركة استقلالية «اعتبرت احدى حركتين استقلاليتين كبيرتين في الوطن العربي^(٣٨) . وكذلك في بحث ردا على الاستاذ حازم صاغية : «نجيب عازوري رائد قومي حقا ... اذ يكفي لنجيب عازوري انه اول من كشف الخطر الصهيوني ليس على فلسطين والعرب بل دبج البيانات والمقالات والكتب موضحا خطر الصهيونية وانشاء اسرائيل على العالم»^(٣٩) . ويدعم رأي الدكتور احمد ابو ملحم الاستاذ جان داية^(٤٠) ببحث نذكر فقرة مما جاء فيه ، عن نجيب عازوري ،

في انه «الانحياز الى الغرب ضد السلطنة كان مشروعاً»^(٤١) اما الدكتور اسعد رزق فيلقبه بـ «الوحدوي المجهول»^(٤٢).

ومن الفئة التي تشكك في عروبة نجيب عازوري، الأستاذ حازم صاغية^(٤٣)، الذي يقول «اذن هذه القومية ليست وعياً للذات، بل وعياً للوظيفة، وهي ليست مطروحة امام الشعب، بل امام الغرب الذي يمنح العرب حريتهم».

ويتهم الدكتور وجيه كوثراني مشروع نجيب عازوري بانشاء دولة عربية بأنه «ينطلق بالطبع من تحديد وظيفة اقتصادية وسياسية لهذه الدولة، أوحث بها الأوساط الثقافية الكولونيالية الفرنسية المحيطة بنجيب عازوري».

هذه نظرة أو نظرات الى نجيب عازوري بما لها وما عليها، وان يكن قد شكك البعض في عروبه، وعلاقاته مع الغرب، لكن أحداً لم يشكك في اخلاصه ووعيه لقضية فلسطين، وفي رؤيته المتقدمة الثابتة للخطر الصهيوني الذي يهدد الوطن العربي والذي به يتعلّق «مصير العالم باجمعه».

المصادر

- ١ - نجيب عازوري : يقظة الامة العربية: ترجمة وتقديم د. احمد بن ملحم. المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت (بدون تاريخ).
- ٢ - مصطفى الشهابي : القومية العربية (تاريخها، وقوامها، ومراميها) طبعة ثانياة ١٩٦١، القاهرة.
- ٣ - محمد جميل بيهم : قوافل العروبة ومواكبها، مطابع دار الكشاف. بيروت ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠.
- ٤ - جورج انطونيوس : يقظة العرب، ترجمة د. ناصر الدين الاسد واحسان عباس دار العلم للملايين، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر. بيروت - نيويورك ١٩٦٢.
- ٥ - عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث - بيروت - ١٩٧٠.
- ٦ - ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية امام اليهود والصهيونية ١٨٨٢-١٩٤٨. بيروت - الكويت ١٩٧٤.
- ٧ - وجيه كوثراني : الاتجاهات الاجتماعية - السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠-١٩٢٠. الطبعة الاولى - معهد الانماء العربي - بيروت ١٩٧٦.

مجلات وصحف

- ١ - مجلة دراسات عربية : العدد ١١ - السنة الخامسة عشرة، سبتمبر - ايلول - ١٩٧٩ - بيروت.
- ٢ - مجلة دراسات عربية : العدد ٢ - السنة السادسة عشرة، ديسمبر، كانون الاول، ١٩٧٩.
- ٣ - جريدة السفير : تاريخ ٦/١١/١٩٧٩ - بيروت.
- ٤ - جريدة السفير : تاريخ ٧/١/١٩٧٩.

المصادر الاجنبية

- ١ - الملى فرنسيس نيوتن: خمسون عاماً في فلسطين، ترجمة، وديع البستاني، بيروت-
١٩٤٧.
- ٢ - Eugène jung: La Révolte Arab Paris 1924
- ٣ - Frank E. Manuel: The Realities of American- Palestine Relations Washington, D.C. (?)
- ٤ - Maudel, M. Turks, Arabs (Oxford, 1965)
- ٥ - Porath: The political Awakening of the Palestinian Arabs.
- ٦ - Y. Roi: The Zionist attitude to the Arabs.

المصادر العربية

- ١ - Frank E. Manuel : the Realities of American- Palestine Relations p. 310, 312.
- ٢ - Y. Roi: the Zionist attitude to the Arabs, p. 198
- ٣ - ناجي علوش، الحركة الوطنية الفلسطينية ص ٩٤ ، وحسان حلاق ، موقف الدولة العثمانية من
الحركة الصهيونية، ص ٢٤٧ .
- ٤ - Eugène jung, la révolte arabe, p 25, 32, 56-57.
- ٥ - نجيب عازوري، يقظة الامة العربية ص ٤١ ، ترجمة د. احمد ابو ملحم .
- ٦ - المرجع نفسه، ص ١٧١ .
- ٧ - المصدر نفسه، ص ١٧٦ .
- ٨ - المصدر نفسه، ص ١٧٧ .
- ٩ - المصدر نفسه، ص ١٩ .
- ١٠ - من مجموعة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية في معهد الانماء العربي - بيروت ١٥٩٠ . Turquie
vol (تعريب النشرة الفرنسية الصادرة باقرار اللجنة العربية، باريس في ٣ يناير ١٩٠٥).
- ١١ - المصدر نفسه، ص ٧٤-٧٥ .
- ١٢ - المصدر نفسه، ص ٧٥-٧٦ .

- ١٣- المرجع نفسه ص ١٥ ، وعبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص ٣١ .
- ١٤- يقظة الأمة العربية، ص ٧٥ .
- ١٥- نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص ٧٥ .
- ١٦- المصدر نفسه، ص ٤٢-٤٣ .
- ١٧- المصدر نفسه، ص ٤٣ .
- ١٨- المصدر نفسه، ص ٤٢ .
- ١٩- المصدر نفسه، ص ٤٩ .
- ٢٠- اميلي فرنسيس نيوتن، خمسون عاما في فلسطين، ص ١٤٧، عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث، ص ٣١ .
- ٢١- نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص ١٩ .
- ٢٢- نجيب عازوري يقظة الأمة العربية، ص ١٧٦ .
- ٢٣- نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص ٢٢٠ .
- ٢٤- المصدر نفسه، ص ٢١٩ .
- ٢٥- نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص ١٢٢ .
- ٢٦- المصدر نفسه، ص ١١٥ .
- ٢٧- المصدر نفسه، ص ١١٥ .
- ٢٨- John Marriott: the Eastern Question, p 225-249-1
- ٢٩- نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص ١٩ .
- ٣٠- المصدر نفسه، ص ٢١٧ .
- ٣١- المصدر نفسه، ص ٣٣ .
- ٣٢- يقظة العرب، ص ١٧٣ .
- ٣٣- Manuel, M: Turks, Arabs, p. 92.
- ٣٤- Pararb p. 24.
- ٣٥- الجمعيات السياسية العربية حتى الحرب الأولى لهارتمان (مجلة دراسات عربية/ العدد ١٩٧٨/٩، ص ٣٢-٣٤ .
- ٣٦- القومية العربية، ص ٥٩ .
- ٣٧- قوافل العروبة ومواكبها، ج ٢، ص ٢٠ .
- ٣٨- نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص ١١ .
- ٣٩- دراسات عربية، العدد ٢، السنة السادسة عشرة، كانون الأول، ديسمبر، ١٩٧٩ .
- ٤٠- جريدة السفير (البيروتية) ٧/١١/١٩٧٩ .
- ٤١- جريدة السفير (البيروتية) ١٨/١/١٩٧٨ .
- ٤٢- المستقبل العربي، العدد الرابع ١/١/١٩٧٨ .
- ٤٣- دراسات عربية، العدد ١١، السنة الخامسة عشرة، أيلول، سبتمبر، ١٩٧٩ .

ميشال شيحا وقضية فلسطين

ينهي ميشال شيحا مقاله له عن قضية فلسطين يوم ١٥ أيار ١٩٤٨ ،
بالقول: «.. ولسنا نحاشي اللجوء الى القوة»^(١). أما في ١٨ ايار عام ١٩٤٨
فيكتب في مقال بعنوان: «للمقاومة اسباب جُلّي»: «.. ليست المقاومة العربية
امرا لزاما فحسب: انها لأمر حيوي ولسوف تضحى مع الزمن بالنسبة الى الشرق
الأدنى من اليابسة الآسيوية الى مصر قضية حياة وموت حقاً وواقعاً»^(٢).

وكلمات ميشال شيحا هذه التي انفعلت بها احاديثه الصحفية طوال النصف
الأول من عام ١٩٤٨ ، هي اقصى ما بلغته احساسه تجاه فلسطين. أما قبل
ذلك فكان لا يزال يأمل ان تتدخل الدول الكبرى لانهاء القطيعة قبل
استفحالها، ثم هو فيما بعد عام ١٩٤٨ ، حتى عام ١٩٥٣ ، تمه قضية
القدس ، والقدس بالذات ، ويكاد الاهتمام بفلسطين بشكل عام يختفي من مجالات
اهتمامه .

ولكي يكون المنظور الحضاري والسياسي والاجتماعي لميشال شيحا ايدولوجي
المارونية السياسية الحديثة، واحد المع كتاب المقالة بالفرنسية في لبنان في النصف
الاول من القرن العشرين - واضحا، ربما كان من المفيد تتبع خطوات فكره تجاه
الصهيونية وقضية فلسطين وابعادها العربية والدولية خلال الاعوام
١٩٤٤-١٩٥٣ ، وهي الفترة التي تتيح لنا مقالاته التي جمعها مؤسسته بعد
وفاته وكلفت أحد الاساتذة بترجمتها ودراستها بشيء من الدقة والتتبع .

اهتمام ميشال شيحا بفلسطين عام ١٩٤٤ ، يعود كما يقول هو الى انها تقع
على الحدود الجنوبية للبنان ، وبالتالي فإن ما يحصل فيها يؤثر على لبنان تأثيرا
كبيرا: «ان فلسطين تتاخم لبنان من جهة الجنوب، وان لبنان في هذه الجهة
وغيرها من الجهات مفتقر الى اراضيه برمتها، مفتقر الى آخر سنبله من سنابله،
وآخر زيتونه..»^(٣) وسرعان ما تظهر الدهشة المفرطة في كلماته ابتداء بالعام

١٩٤٥، انه لا يستطيع ان يفهم «القومية» الصهيونية العنصرية المتعصبة، فاليهود الذين يتدفقون على فلسطين منذ عقود من السنين رغم ان الدول الاوروبية واميركا كل هذه الدول منحتم جنسيتها ورفاهها ومراكز الحساسية، والتأثير فيها، فما الذي يحرك هذه الكتل البشرية ويدفعها الى هجران مواطنها الاصلية والاتجاه نحو الارض الفقيرة «البلقع» - بالمقارنة مع الأقطار التي اتوا منها - : فلسطين؟^(٤)

ثم يحاول ميشال شيحا في مقالات لاحقة أن يتجاوز دهشته الحقيقية لكن بطريقة جدلية حوارية مع النفس والآخر: الصهاينة يدعون حقاً تاريخياً في فلسطين. وهو في نظرهم حق ينفي حقوق السكان الآخرين ولا يتآلف معها. لكن من المعلوم، أنّ النصارى الذين لم يفارقوا فلسطين منذ ما قبل المسيح يستطيعون ادعاء الحق نفسه. ثم ان القبائل البدوية العربية كانت موجودة في المنطقة منذ آمام وآمام؟ وعلى هذا فأن حق المسلمين والمسيحيين في فلسطين لا يقل عن حق اليهود^(٥)، بل انه يفوقه وبلغه. انه حق تاريخي مزعوم، لا يستطيع اليهود اليوم ان يثبتوا استمراريته عن طريق استمرارية وجودهم، بينما يستطيع المسيحيون العرب والمسلمون العرب على ارض فلسطين الاستناد الى تراث من الاستمرارية التاريخية نادر المثال.

الحق التاريخي للصهيونية على ارض فلسطين متهافت الاسس اذن، ولا شك أن افكاراً كثيرة في العالم تسخر من قضية الحق التاريخي ولا تعتبرها جديرة بالاهتمام. ويرى ميشال شيحا ان الصهيونية تدرك ضعف موقفها من هذه الناحية من اجل هذا لا تجعل هذا الحق المزعوم عمدتها الرئيسية بل تستند الى «المنظمة اليهودية العالمية» والقوة الاقتصادية لليهود في العالم، وظروف لقاء امريكا وروسيا على عداا العرب، الاوضاع النفسية التي سادت اوروبا بعد هزيمة النازيين، والقوة العسكرية لتنظيماتها المسلحة على ارض فلسطين التي تقضمها شبراً شبراً.

اما فيما يتصل بالمنظمة اليهودية العالمية فان ميشال شيحا يذكر الاقطار العربية بانها تجابه منظمة يهودية عالمية تضم اليهود على اختلاف جنسياتهم فتبسط شباكها على المعمورة قاطبة: «ولها في الحكومات من النفوذ ما تستطيع. ثم ان

لديها من الدعاة واساليب الدسائس ارهب الفنون»^(٦) ويعتقد ميشال شيحا ان موقف امريكا من دعاة الصهيونية يعود، الى الظروف الانتخابية وقوة اليهود العددية في نيويورك واجهزتهم الاعلامية والمالية البالغة القوة في الولايات المتحدة، والعالم العربي كله. اذ كانت هذه الاسباب مفهومة ومعقولة بالنسبة لموقف امريكا^(٧) فإن فهم ميشال شيحاً لموقف الاتحاد السوفياتي من الشأن الفلسطيني يتسم بالغموض والتناقض، الى حد لا يقل عن غموض تناقض الموقف السوفياتي نفسه، فبالنسبة لميشال شيحا يؤيد الاتحاد السوفياتي مطامع الصهيونية في فلسطين، تارة لان اليهود يعرفون من أين تؤكل الكتف فيستطيعون توجيه السياسات الرأسمالية والماركسية في الوقت نفسه لصالحهم. وطورا لأن كارل ماركس مؤسس الماركسية هو يهودي في المبدأ والنهية، والاتحاد السوفياتي الستاليني يريد ردّ الجميل للصهيونية على ما قدمه اليهودي الألماني الاول. حتى اذا تأزمت العلاقات السوفياتية الصهيونية أواخر العام ١٩٤٩ تجددت حيرة ميشال شيحا من السياسة السوفياتية، وظهرت عنده نعمة جديدة تربط القضية كلها بالتوازن الدولي والحرب الباردة، والصراع السوفياتي الامريكى^(٨). ورغم ان هذا التفسير يتسم بالغموض فهو يبدو اكثر منطقية ومعقولة من سابقه.

وتأتي أحداث العام ١٩٤٧-١٩٤٨ الصاخبة لنتهي البرهة التحليلية التعليلية في مقالات شيحا، فتزداد لهجته وضوحا واقتضابا في الوقت نفسه، ويمر الحل العسكري في الأفق - افق ميشال شيحا - مرورا يسود المنطق الدفاعي الذي عرفناه في مطلع الكلمة هذه عنه. ثم يتصرف في كلمات متتالية، مستحثة وقوية، موجها النظر الى امرين اساسيين يشكلان في نظره دعامتي الحل السياسي للقضية الفلسطينية التي لم يكن يعتقد هو في اعماقه ان حسمها عسكريا ممكن ... هاتان الدعامتان هما التأكيد على تعايش المسلمين والمسيحيين واليهود في دولة واحدة. ومناهضة الاتجاه الدولي الأمريكي الداعي الى تقسيم فلسطين في دولتين يهودية وعربية. لقد رأى ان على بريطانيا وامريكا وفرنسا واجبا حضارياً يتمثل في تحقيق

دولة على أرض فلسطين تتعايش فيها الديانات الثلاث - صحيح ان الهجرة اليهودية المتدفقة كانت تزعجه، وكان ارتفاع عدد اليهود الى ستمائة الف في فلسطين يجعله يحسّ برجحان الكفة لغير صالح العرب - لكن ثقته بالغرب والحضارة الغربية والقيم الحضارية الغربية كل ذلك كان يهبه ثقة متزايدة بقدرة الغرب واردة الانتصار والعدل والحرية للعرب واليهود في الوقت نفسه .

وأمل ميشال شيحا هذا قويّ رغم انه موافق على تحفظات ارنست بيغن وزير الخارجية البريطاني الذي تحدث عن عقبات «الدين واللغة، والثقافة، والحياة الاجتماعية، وطريقة التفكير والتصرف»^(١). ورغم غموض تفاصيل مؤسسات دولة مختلطة كهذه، فلا شك ان شيحا هنا كان يتفق مع الرأي الرسمي العربي الذي كان يعارض التقسيم بشدة، لكنه لا يقبل أيضاً المساواة بين العرب واليهود في دولة واحدة، بينما اليهود طارئون والعرب سكان البلاد الاصليون، فكيف يتصور حل لهذا في مواجهة بلوغ عدد اليهود الستمائة الف واختصار عدد العرب على الاربعمائة الف؟ ويعني هذا مما يعنيه تحوّل العوب الى اقلية في وطنهم الذي يحكمه اليهود الطارئون، وهو ما حدث في النهاية منذ العام ١٩٦٧ .

ويحدث ما خافه شيحا وما خافه العرب جميعا . فتوافق الامم المتحدة بضغوط من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي معا على تقسيم فلسطين . وتنشب الحرب العربية الصهيونية، لكن ميشال شيحا ينصرف اثناء الحرب هذه الى اهتمامات أخرى تتصل بتوجهه الاساسي . انه يشعر بخيبة مريرة من الغرب، شكوكه بالاتحاد السوفياتي قاسية منذ البداية ولم يكن يتوقع منه أقل مما حدث . اما المفاجأة الضخمة فجاءته من ناحية الانجليز والفرنسيين . وينتهي به الأمر الى اتهام الانجليز بالخبث والفشل والانتهازية^(٢) اما الفرنسيون الأعزء على قلبه فلا اقل من ان يقال انهم اخطأوا هنا حيث لم يكن يجب ان يخططوا لكن الواقع انكم جميعا وبعد الحرب الثانية، المنهكة واقعون تحت السيطرة الامريكية . وامريكا قوية رعاء لا تحسن التصرف اخلاقيا في القوة التي لديها . فالرئيس الامريكى الذي لا يؤوي مائة الف يهودي في الولايات المتحدة يتهافت لكسب اصوات اليهود الاميركيين، عن طريق

اعطاء يهود اوروبا فلسطين^(١١). وامريكا الرعناء التي لا ترى في قضية طرد الشعب الفلسطيني وقيام كيان عنصري على ارضه امرا خطيرا ترى العكس في كوريا فترغم الامم المتحدة على ارسال قوات مشتركة الى الادغال هناك للنضال ضد الشيوعية بينما يسيطر الوحوش على ارض السلام والأديان والمقدسات^(١٢). في نهاية الحرب العربية الصهيونية واستقرار الكيان الصهيوني بفلسطين ينصرف ميشال شيحا بين ١٩٤٩ و ١٩٥٣، الى معالجة موضوعات رئيسية ثلاثة: موضوع الطبيعة العنصرية التوسعية للكيان الصهيوني، وموضوع اللاجئين الفلسطينيين، وموضوع القدس. فلقد حركت غارة الكيان الصهيوني على قرية «القبية» العربية التي ذهب ضحيتها واحد واربعون مواطناً عربياً اعزل مخاوف ميشال شيحا من الطبيعة العنصرية التوسعية للكيان الجديد، واثّر ذلك على الأردن ولبنان وسورية.

فقد رأى شيحا منذ اوائل الابعينات انه ما دام المشروع الصهيوني يريد استيعاب كل يهود العالم البالغ عددهم آنذاك حوالي ١٥ مليوناً، فمن المحكم ان تضيق عنهم وهم أرض فلسطين الصغيرة، ومن المنطقي الاصغاء لنداء الحل التاريخي ولتنمية امكانيات الاستيطان لا بُد ان يعمد الصهاينة الى الاستيلاء على الاراضي المجاورة لفلسطين بقوة السلاح^(١٣). وقد دعمت الغارة على «العقبة» هذه المخاوف، فعاد ميشال شيحا الى التأكيد على حتمية الحل السياسي الفوري والا التهمت الصهيونية القوية جاراتها الصغيرات الضعيفات وخصوصاً لبنان. وكما يصر السياسيون العرب حتى اليوم على انتظار جديد ايجابي من امريكا مع تغيير رئيس جمهوريتها أو وزير خارجيتها فأن ميشال شيحا رأى امالاً جديدة تنبعث من تحت قبة جون فوستر دالاس وزير الولايات المتحدة الجديدة للخارجية^(١٤). لهذا سارع الى شرح وجهة نظره في عدة مقالات رجا ان تكون واضحة تماماً في بيان المقاصد التي راها مناسبة للسياسة العربية الجديدة لقد رفض من جهة اسلوب التفاوض المباشر مع العدو الصهيوني باعتباره لا يجلب جديداً بل كل ما يمكن ان يؤدي اليه، مزيداً من تنازل المغلوب للغالب. ورغم انه كان يطمئن اليهود الى انهم لن يرموا في البحر لكنه رأى ان تقوية تسليح الدول العربية امر جدير بالاهتمام، اذ ان

ذلك يقوى موقفها في المفاوضات المقبلة مع اسرائيل عن طريق الولايات المتحدة^(١٥). في هذا السياق كان ميشال شيحا يرى ان البحث في قضية اللاجئين يمكن ان يشكل مدخلاً لحل القضية كلها. لكنه اكد كل مرة جرى فيها بحث الموضوع من جانب مبعوثين اميركيين على ان القضية ليست قضية اقتصادية او مالية بحتة بل هي قضية سياسية. فمن سخرية القدر ان يطرد الصهاينة الاغنياء المطاردون في العالم شعباً من ارضه ثم يطلبون الى حاميتهم امريكا التصديق على لاجيء هذا الشعب ببعض الفتات. لا شك ان مشاريع التطوير الاقتصادي الاميركية في الشرق الاوسط كلبنان والأردن وسورية مفيدة لكنها ينبغي ان لا تكون باتجاه استيعاب الفلسطينيين في البلاد التي لجأوا اليها، كما ينبغي ان لا تتم انطلاقاً من مياه الأردن والليطاني^(١٦).

وإذا كانت مسألة التوسع الصهيوني أمراً بعيد المدى، ومسألة اللاجئين لا تزال خاضعة لاعتبارات دولية في نظر شيحا، فإن قضية القدس كانت شديدة الالحاح والاهمية في نظره في هذه الحقبة. لقد أصرّ الصهاينة دائماً على مبدأ عدم تقسيم القدس ومبدأ جعلها عاصمة لدولتهم. ثم نقلوا وزارة خارجيتهم اليها. وعلى هذا الاجراء طالب شيحا الحكومة الاردنية بالرد بنقل الوزارات كلها. ثم بدأ الدعوة لتدويل القدس. وقد استند في دعوته هذه الى الفاتيكان الذي كانت تربطه به صلات طيبة. فلقد علق الآمال دائماً على اسهام ايجابي للعرب يمكن ان يقوم به البابا الذي له رعايا كاثوليك وموارنة نالهم المحنة في فلسطين ولبنان. ويبدو ان قضية تدويل القدس استأثرت باهتمامه طوال السنوات الأخيرة من حياته التي اختتمها عام ١٩٥٤.

انطلق ميشال شيحا في علاجه للمعضلة الفلسطينية من موضعه كلبناني خائف على كيان وطنه الجديد الهش، فلقد نظر لهذا الوطن طويلاً بقلق حتى استوى على سوقه وبدا أن النظام الاقليمي العربي الذي خلفه الاستعمار بدأ بتركيز وسيطر في كل قطر عربي على حدة، فإذا بالصهيونية تهاجمه في عقر داره وتتحدها، ولعل وجه الخطورة على الكيان اللبناني تمثل في ذلك التشابه مع مجاورة

الجديد فاليهود انفسهم ليسوا طائفة واحدة، ثم هناك اقلية يرفض ميشال شيحا تسميتها عربية، ويصر على القول بان هناك مسلمين ومسيحيين ولا يختلف هذا كثيرا عما في لبنان. ولان شيحا كان يراهن على المشروع الاقليمي الطائفي فقد اقترحه حلا لفلسطين متجاهلا المنظور العربي للقضية كلها. ان ميشال شيحا لم يكن يرفض الطروحات العربية فقط، بل كان يرفض طروحات الاب لامنس السورية ايضا ويصر على ان اهل لبنان هم لبنانيون لا اكثر ولا اقل. فاذا توسع في الموضوع تحدث عن الطبيعة البحرية المتوسطة للبنان مؤكدا في الوقت نفسه على الطبيعة الصحراوية لدمشق والجزيرة العربية^(١٧). لهذا فان الطرح العربي للقضية كان كفيلا بزعزعة كيان لبنان في نظره، كما ان ظهور اسرائيل كفيل بفضح الطبيعة الطائفية المصطنعة للكيان عينه. لهذا كان ميشال شيحا شرس العدا لاسرائيل وشرس العدا للحل العسكري للقضية أيضا ذلك الحل الذي يمكن ان يخلق كيانية عربية تتجاوز حدود ومضامين الجامعة العربية. واذا كان التعايش الطائفي بلبنان قد شكل بالنسبة له مدخلا لفهم القضية الفلسطينية واقترح حلول لها، فإن الكاثوليكية العالمية التي تمثل من وجهة نظره خلاصة قيم العالم الغربي هي الكفيلة بالمضي قدما في حلوله لمشكلة لبنان وفلسطين. صحيح ان العالم اهمل الرسالة مؤقتا ودعم اسرائيل لكن ذلك موقف عابر يمكن تخطيه على المدى عن طريق البابا وفرنسا بل امريكا. فالاتجاه الى حضارات المتوسط (حضارات الغرب) خير من الاتجاه نحو اندونيسيا (يعني العالمين العربي والاسلامي)^(١٨).

وطبيعي ان تتجاهل نظرة كهذه جدليات العلاقة بين المستعمر والمستعمر، وطبيعي في ظلها ايضا ان ينقد ميشال شيحا مصر لاهتمامها بطرد الفرنسيين والانجليز من قناة السويس بينما تشتعل قضية القدس^(١٩). كأنما يدعم الفرنسيون والبريطانيون الصهاينة من اجل «سواد عيونهم» لا لمصالح اقتصادية وعسكرية هي حمايتهم لهم في الشرق. وهكذا فانه لو تجاوزنا النقاشات المحتدمة حاليا حول دولة عربية على ارض فلسطين التي احتلت عام ١٩٦٧ (والتي لا نعتقد انها تغير الكثير) فان الحل الذي اقترحه السيد شيحا للقضية هو في جوهره الحل الذي

يقترحه اطراف عدة اليوم. انه تدويل القدس الفعلي، وضمانه دولية تعاقدية للحدود العربية الاسرائيلية^(٢٠).

مع ذلك فان عبارة ميشال شيحا التي كتبها في صحيفته في كانون الاول عام ١٩٤٧ تنم عن ادراك عميق لآثار ظهور الكيان الصهيوني في شرقنا العربي، لقد قال «ان قرار تقسيم فلسطين بخلق الدولة اليهودية لمن اعظم الضلالات التي اجترحتها السياسية المعاصرة، فلسوف تستيع هذا الامر، وإن بدا مثيراً اعجب العوالب. ولا نكون قد امتننا العقل ان قلنا ان هذه القضية الضئيلة (في الظاهر) ستعمل على زعزعة الارض من اساسها»^(٢١).

المصادر

- ١ - ميشال شيحا : فلسطين، ترجمة الى العربية انطون غطاس كرم. منشورات مؤسسة ميشال شيحا - بيروت - ١٩٦٠.
- ٢ - ميشال شيحا : لبنان في شخصيته وحضوره، نقله الى العربية فؤاد كنعان. منشورات الندوة اللبنانية - ١٩٦٢.

- ١ - ميشال شيحا، فلسطين، ص ٩٣ .
- ٢ - المصدر نفسه، ص ٩٤-٩٥ .
- ٣ - ميشال شيحا، فلسطين، ص ١٢ .
- ٤ - قارن على سبيل المثال ميشال شيحا، فلسطين، ص ١٥-١٦ و ص ١٤٢-١٤٨ ،
١٦٦-١٦٨ .
- ٥ - المصدر نفسه، ص ١٧-١٨ .
- ٦ - ميشال شيحا، فلسطين، ص ٩٤ .
- ٧ - المصدر نفسه، ص ٦٨، ٩٢، ١١١ .
- ٨ - ميشال شيحا، فلسطين، ص ٧١، ١٠٣، ٢٤٨ .
- ٩ - ميشال شيحا، فلسطين، ص ٢١ .
- ١٠ - ميشال شيحا، فلسطين، ص ١١٦-١١٨ .
- ١١ - ميشال شيحا، فلسطين، ص ١٤٦-١٤٧ .
- ١٢ - المصدر نفسه، ص ٢٢١-٢٢٦ .
- ١٣ - ميشال شيحا، فلسطين، ص ٢٢١-٢٢٦ .
- ١٤ - ميشال شيحا، قضية فلسطين، ص ٢٢٨، ٢٢٩ .
- ١٥ - المصدر نفسه، ص ٢٣٠-٢٣١ .
- ١٦ - ميشال شيحا، فلسطين، ص ١٧٨-١٨٠ .
- ١٧ - ميشال شيحا، لبنان في حضوره، ص ٣٠-٣٣، ١٣٣ .
- ١٨ - ميشال شيحا، لبنان في حضوره، ص ١٤٨-١٤٩ .
- ١٩ - ميشال شيحا، فلسطين، ص ٢٠٠ .
- ٢٠ - ميشال شيحا، فلسطين، ص ٢١٥ .
- ٢١ - ميشال شيحا، فلسطين، ص ٧٠ .

فرنسا، وفلسطين والصهيونية في مطلع القرن العشرين

قراءة في وثائق الخارجية الفرنسية*

د. وجيه كوثراني
الجامعة اللبنانية

منذ تاريخ صياغة المطالب الصهيونية في فلسطين ابتداء من مؤتمرات بال المتابعة التي ابتدأت منذ عام ١٨٩٧ حتى تاريخ استقرار التقسيم السياسي التي أصابت بلاد الشام على يد الانتدابين الفرنسي والانكليزي في سنوات العقد الثالث من القرن العشرين، تشكلت السياسة الفرنسية تجاه الحركة الصهيونية وفق معادلات حددتها بدورها عوامل يمكن ان نشير الى بعض ثوابتها:

- ١ - الموقف الكاثوليكي المعارض دينياً لوقوع الأماكن المقدسية تحت سيطرة اليهود.
- ٢ - المصالح الاقتصادية للرأسمالية الفرنسية في كل «بلاد الشام»، ومطامع هذه الأخيرة في السيطرة على سوريا كاملة وموحدة بما فيها فلسطين، كما عبرت عن ذلك غرفتا تجارة ليون ومرسيليا بين ١٩١٥ و ١٩١٨.
- ٣ - الصراع الفرنسي- الانكليزي حول السيطرة على سورية في بادىء الأمر، الذي وجد حلا له «بصيغة التوازن التي حملتها اتفاقية سايكس-بيكو» وسان رمو. وبعد استقرار التقسيم ما بين الانتدابين، استمرار التخوف الفرنس من توسع النشاط الصهيوني في انحاء سورية الواقعة تحت

الانتداب الفرنس، والتنبه الى المحاذير التي يطرحها هذا التوسع على السيطرة الفرنسية.

هذه المنطلقات، شكلت الى حد كبير اطار صياغة المواقف الفرنسية من النشاط الصهيوني في فلسطين وسورية. بيد ان هذه المنطلقات لا تشكل ثوابت قاطعة، بل تدخلت في الدبلوماسية الفرنسية عوامل ضاغطة في بعض الأحيان كانت تُدفعُ بالسياسة الفرنسية الى التسابق - وبفعل ضغط الدعاية الصهيونية العالمية - الى تقديم الدعم أو التأييد للجاليات اليهودية في فلسطين، أو المؤسسات أو جمعيات يهودية- فرنسية كال (Alliance Israélite) أو الى اعلان تصريح رسمي متعاطف مع الصهيونية.

سنحاول فيما يلي اعتماداً على متابعة بعض مجلدات محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية المتعلقة بسورية وفلسطين، قبيل الحرب واثناها وبعدها، ان نتابع الموقف الفرنسي وتلويناته من الصهيونية ونشاطها في فلسطين وسورية.

١ - قبل الحرب الأولى :

في مجرى انعقاد مؤتمرات بال الأول ابتداء من عام ١٨٩٧ لا نلاحظ موقفاً فرنسياً واضحاً من مقررات المؤتمرات في شأن فلسطين. اذ يكتفي القنصل في بال بارسال محاضر جلسات المؤتمرات الى وزارة الخارجية مكتفياً بالعرض دون التعليق، ولا نلاحظ بالمقابل أي تعليمات تصدر عن الخارجية لقنصلها في شأن إتخاذ موقف رسمي من المشروع الصهيوني.^(١)

بيد اننا نلاحظ اهتماماً لدى الدبلوماسية الفرنسية في التقاط موقف البابا من المؤتمر وادراجه في عدد الأوراق المتعلقة بالصهيونية. اذ نقرأ في أوراق المحفوظات نص ملاحظة نشرتها جريدة « ايطاليا » واقتبستها عنها جريدة: « Le Temps de Paris ». وتتضمن

خبراً عن معارضة البابا للمشروع الصهيوني وعن اتصاله بالسلطان العثماني كي لا يتنازل هذا الأخير عن فلسطين لمصلحة اليهود.

“A propos des résolutions votées par le Congrès des sionistes l’Italie publie la note suivante: “Après le congrès de Bâle, Sa Sainteté a cru de son devoir de chef du Catholishisme de prendre toutes les mesures pour éditer la reconstitutio d’une nation juive en Jerusalem.

Sa Sainteté enverra donc sous peu de jours un courier à Constantinople chargé de transmettre au Sultan une lettre autographe dans laquelle le Saint- Père priera vivement le Sultan de ne vouloir pas céder la Palestine aux Juifs qui seraient orgueilleux de pouvoir, même pour quelques années, faire mentir la prophétie, selon laquelle ils étaient pour l’éternité dispersés dans le monde et dans l’impossibilité de se former en nation.”⁽²⁾

غير أن الموقف الدبلوماسي الفرنسي كان يتحرك في استامبول وفي القدس انطلاقاً من اعتبارات دبلوماسية أخرى أرسيت في أعراف السياسة الفرنسية في تاريخ علاقتها بالدولة العثمانية على قاعدة التدخل في الشؤون الداخلية بذريعة حماية الرعايا والأقليات.

وتفصيل ذلك ان السلطان كان أصدر عام ١٨٨٨ «فرمانا» «يمنع بموجبه» الهجرة الجماعية للاسرائيليين الغرباء الى فلسطين، (L’ immigration en easse des israelites changes in Palestine)

وفي عام ١٨٩٢ حظر عليهم شراء عقارات في سنجق القدس. وفي عام ١٨٩٥، اشترط على دخول الاسرائيليين الغرباء ان لا تتجاوز مهلة اقامتهم في فلسطين مدة الشهر.

هذه التدابير أثارت ارباكا في موقف القنصلية الفرنسية في القدس، لا سيما وقد طلبت السلطات العثمانية من القنصليات الأجنبية المساعدة في تطبيق هذه القرارات.

لذلك يرسل القنصل الفرنسي العام في القدس الى السفارة الفرنسية في

استامبول يستوضحها الموقف الذي ينبغي اتخاذه^(٣) وينقل تقريراً من نائبه في يافا يشير الى منع السلطات العثمانية دخول عائلة يهودية جزائرية الى المرفأ. وجواباً على موقف القائمقام الذي اشترط على نائب القنصل ان يقدم كفالة مكتوبة تضمن عودة المهاجرين اليهود خلال شهر، يقول:

«بما انه يتعذر قبول شروط مماثلة، فأنتي رأيت نفسي مضطراً أن احتج ضد هذا العمل الذي يبدو لي اعتباطياً»^(٤).

“Le Calmamac m’a fait répondre qu’il ne pouvait autoriser l’accès de la Palestine à mes nationaux que si je prenais lui l’engagement par écrit que cux-ci répartiront dans un délai de trente jours.

“Ne pouvant accepter des conditions semblables je me sus vu dans la necessité de protester contre l’acte, qui me semble arbitraire.

ولم يلبث السلطان أن اصدر تعليمات شفوية تطالب البعثات الأجنبية في ولاية بيروت وسنجق القدس بالتقيد بالأنظمة الصادرة بخصوص هجرة اليهود الى فلسطين.

فيجيب سفير فرنسا في استامبول (M. Cambosn) وزير الخارجية العثماني « بأنه لا يمكن أن يوجه الى قنصل فرنسا العام في القدس الأمر بالتقيد بالأنظمة التي تمنع هجرة الاسرائيليين الى فلسطين».

لأن القانون الفرنسي لا يستثني طوائف دينية بعينها ويعترف بالحقوق نفسها لكامل المواطنين الفرنسيين الى أي مذهب انتموا.

ونما ان للفرنسيين بموجب الاتفاقات المعمول بها الحق في المرور والاقامة في الأمبراطورية العثمانية، فأن هذا الحق لا يمكن أن يكون موضوع جدال بالنسبة للاسرائيليين الفرنسيين الذين هم مواطنون فرنسيون»^(٥).

“En réponse à la note verbale de la S. porte portant le n° 200 et la du 19 courant, l’ambassadeur de France a l’honneur de faire savoir au Ministre impérial des Affaires Etrangées qu’il n’a pas le pouvoir de donner au Consul général français à jerusalem l’ordrs de se conformer aux reglements interdisant l’mmigration en Palestine des Israélites.

“La législation française ne fait point acception des confessions religieuses et reconnait les mêmes droits à tous les citoyens français à quelque culte qu'ils appartiennent.

Les Français, ayant, aux termes des conventions en vigueur le droit de circuler et de s'établir dans l'empire ottoman, ce droit ne peut être contesté aux Israélites français citoyens français”.

وتعود المسألة نفسها لتطرح من جديد في اسرئيل عام ١٩٠١. ذلك انه امكن للمهاجرين اليهود بفضل مساعدات القنصليات الأجنبية في فلسطين ان يتملصوا من الأنظمة العثمانية بشأن الهجرة فيلاحظ سفير فرنسا في استامبول في كتابه الى وزير خارجيته «ان اعداد السكان اليهود في فلسطين لم تتوقف عن الازدياد».

وبالرغم ان فرنسا لم تكن معنية كثيرا بالمسألة نظرا لقلّة أعداد المهاجرين اليهود والفرنسيين واقتصار الاهتمام الفرنسي على المهاجرين اليهود الجزائريين فإن السفير الفرنسي يعود فيؤكد على صحة موقف زميله السابق بشأن حق اليهود الفرنسيين في الاقامة على ارض الأمبراطورية العثمانية وحق فرنسا في حماية المهاجرين الجزائريين اليهود الذين لا يمكن «مستشهدا» بموقف Camben اقامة اي تمييز بينهم وبين المواطنين الفرنسيين».

“L'accroissement incessant du nombre des Israélites qui abandonnent leur pays d'origine pour venir s'installer définitivement en Palestine, préoccupe, depuis plusieurs années le gouvernement ottoman. (...).

“Ces mesures furent assez facilement éludées; car le chiffre de la population juive en Palestine n'a cessé d'augmenter; aussi le gouvernement désireux de mettre un terme à cet afflux qui l'inquiète, a-t-il renouvelé ses anciennes prohibitions, (...).

Déjà, les autorités locales en appliquent sur place les prescriptions, et bien qu'elles ne fassent pas preuve de grande rigueur et se laissent facilement suborner, des conflits peuvent se produire. La France est, il vrai, peu intéressée dans la question; comme nous n'assumons pas vis-à-vis des autorités ottomanes la protection des tunisiens, nous ne pouvons rencontrer de difficultés que du fait d'émigrants-algériens. (...).

ويستعيد ذكر السلطات العثمانية مشيراً الى موقف السفير السابق (Camben):

“M. Cambon répondit à cette demande par une note de refus... où il expose qu'il ne peut être fait de distinction entre les Israélites algériens et les citoyens français et que tous ont un droit égal à circuler et à s'établir dans l'empire ottoman.”⁽⁶⁾

وتستمر عملية الهجرة اليهودية الى فلسطين وتزداد سنة بعد سنة^(٧). وتتجاوز الأنظمة العثمانية عبر ضغط القنصليات من جهة وارتشاء الادارة العثمانية المحلية من جهة ثانية. ففي عام ١٩٠٤، نجد في القدس حوالي ٤٠.٠٠٠ من اليهود، بينهم ١٠ آلاف فرد مسجلون في القنصليات، ١٤-١٥ ألف مسجلون في سجلات الدولة العثمانية، والباقي حوالي ١٥٠.٠٠٠ تقريباً لا يحملون أية جنسية.^(٧)

وفي عام ١٩١٠ يلجأ الاتحاديون إلى اصدار أنظمة جديدة بهدف ايقاف الهجرة ومنع شراء الأراضي. نصت هذه الأنظمة على سحب جواز السفر من اليهود الغرباء فور وصولهم واستبداله ببطاقة اقامة حمراء لمدة ثلاثة أشهر. بيد ان هذا التدبير كان من شأنه ان يثير معارضة القنصليات الأجنبية التي كانت تقوم بتسجيل القادمين وإعطائهم شهادات تسجيل (Certificats d'immatriculation).

لذلك لم يعط التبهر - كما يؤكد القنصل الفرنسي في القدس آنذاك - اية نتائج عملية بسبب تدخل القنصليات.

وبشأن موقفه هو، يطمئن القنصل وزيره بأن «الشهادات المعطاة من قبل قنصليته العامة لم تعارض» ويضيف: «صحيح ان مدير وزارة الخارجية العثمانية الذي قمت بزيارته طلب رأيي في هذا الموضوع، لكنني جعلته يفهم - وانا أضحك - بأن لا يحاول معنا، والا فسأجعله يذهب للترهة»، وبدون شك وقف عن حده...»^(٨).

“Votre excellence sait qu'une des grandes inquiétudes du gouvernement ottoman et surtout des dirigeants actuels du parti jeune-turc est d'empêcher l'envahissement de la Palestine, et la possession de son sol par les étrangers en général et les juifs en particulier. Un des moyens employés à cet effet est le retrait des passeports aux juifs étrangers, a leur débarquement, et leur remplacement par un permis de séjour (Passeport rouge) valable pour trois mois. Mais la mesure n'a pas donné les résultats, d'autant plus que les Consuls, notamment le Consulat général de Russie, ont

toujours refusé d'admettre ce passeport rouge (...).

“Alors l'autorité locale s'est ovisé de prétendre contrôler par la présentation du passeport national, les certificats d'rmnatriculation délivrés par divers consulats. Elle espérait aussi, à l'absence du passeport national, reconnaître les immigrants.

Bien entendu, cette singulière prétention n'a pas été admise que je sache, j'ajoute, incidemment qu'elle n'a jamais été opposé aux certificats délivrés par mon consulat Général. Il est vrai que le Directeur des Affaires Etrangères, à qui je rendais une visite privée, m'ayant demandé mon avis à ce sujet, je l'avais en riant, engagé à ne pas essayer avec nous, attendu que je l'enverrais promener”. Il se l'est sans doute tenu Pour dit”.

هذا الموقف المتعالي يعكس بوضوح ميزان القوى بين اطراف السلطات الفعلية في مناطق الدولة العثمانية، فقد أصبحت السلطة الفعلية كما هو واضح، بيد القنصليات الأجنبية، وأضحى موظفو الدولة العثمانية عناصر لا حول لها ولا قوة حيال هيمنة السلطات الأجنبية التي كانت قد اخترقت كلياً الادارة العثمانية نفسها.

وأما فيما يتعلق بمحاولة ايقاف بيع الأراضي، فقد باءت هي ايضا بالفشل. يحدثنا القنصل الفرنسي في تقريره نفسه، أن حكومة الاتحاديين لجأت في محاولتها الى حد « خرجت فيه عن الشرعية » اذ أعلنت وزارة العقارات (الأراضي) Mimistre da Cadastse « اعتبار أراضي الملك » في ضواحي القدس، وحتى العقارات المبنية فيها التي يمكن ان تنتقل من يد الى يد أراضي ميري « أي لا حق في بيعها أو نقلها. وبموجب ذلك » أوقفت عمليات النقل والبيع، حتى معاملات الانتقال الوراثية « مما أدى - على حد ما يقوله القنصل - الى ان المسلمين أنفسهم تضرروا من ذلك »...

وقد « أثار هذا القرار احتجاجات حادة من قبل كل اصحاب عقارات الملك ». حتى رئيس المكتب العقاري- « أشار الى الدفتر خانة بمساوىء هذا التدبير الذي فاجأ الناس الى حد كبير، لا سيما وانه اثر اعلان الدستور كانت المسألة مطروحة على عكس ذلك: توسيع حدود الاملاك ذات الوضع الحر ».

“... Le ministre du Cadastre en a pris dernièrement et. dit on, à l’instigation du comité Union et progrès, une nouvelle, qui paraît tout à fait sortir de la légalité et qui, du reste atteint les musulmans eux-mêmes: il a prescrit que désormais toutes les propriétés Mulk, mêmes bâties, qui changeraient main, dans la périphérie de Jerusalem, soient faites “miri”⁽⁹⁾.

Cette décision soulève naturellement les plus vives protestations de la part de tous les propriétaires de biens “mulk”, ainsi considérablement dépréciés. Aussi toutes les transactions en immeubles et même les opérations de transfert par succession sont-elles arrêtées. Dans ce dernier cas, se trouve un immeuble dépendant de la succession d’un israélite algérien.

“On assure que le chef du bureau du cadastre aurait lui-même, signalé au Defter-khané les inconvénients d’un ordre, qui a d’autant plus surpris que, depuis la proclamation de la Constitution, il était au contraire question d’étendre, autour de Jerusalem, le périmètre de libre disposition des biens fonds. (...)”⁽¹⁰⁾.

وينبغي الإشارة هنا الى أن موقف القنصل الفرنسي من مسألة شراء الأراضي في فلسطين كان يعبر عن اهتمام فرنسي رسمي أوسع يتطلع الى فتح باب الاستثمارات الزراعية الواسعة فيها بتشجيع أو مشاركة الرأسمال الفرنسي ...

وكان ذلك يقضي بأن يبقى مجال شراء الأراضي ونقلها - حتى بالنسبة لأراضي الميري - مجالاً مفتوحاً. لذلك لم تصمد محاولة حكومة الإتحاديين أمام ضغط توسع الإستثمارات الأجنبية من جهة، وأمام المعارضة المحلية نفسها من جهة ثانية (من قبل مجلس ادارة المسنجد وغرفة تجارة القدس) فتراجعت الحكومة وسمحت بتقسيم الأراضي - حتى اراضي المشاع - وتم توزيعها بصورة ملكيات: يذكر قنصل فرنسا في القدس في رسالته الى وزير الخارجية:

“Le gouvernemeur de la Palestine a pensé, avec raison, que cet état de choses (le régime collectif) était incompatible avec le régime constitutionnel par un mazbata de son conseil administratif, soubhy Bey a, il y a quelques mois, saisi le Ministère de l’intérieur de la question et ce dernier vient de lui communiquer en réponse un arrêt du conseil d’Etat, prescrivant à la Direction du Cadastre la division des terrains et la délivrance des titres de propriété. Cet arrêt, outre que levant les anciennes difficultés qui visaient spécialement les non-musulmans en

palestine, me parait appelé à avoir les plus heureuses conséquences sur la propriété de la région. La nouvelle Chambre de Commerce de Jerusalem l'a déjà si bien compris qu'elle est entrain rechercher à la demande du Conseil Administratif, les moyens pratiques d'assurer son entière application."⁽¹¹⁾

وأما بشأن فتح باب الأستثمارات الزراعية بمساعدة الرساميل الفرنسية، فقد ركّزت عليها السياسة الفرنسية منذ عام ١٩٠٨. اذ نهها الى هذا الأمر نجاح المشاريع الزراعية الانكليزية في مصر من جهة، ومن جهة ثانية تفكير رجال الأعمال السوريين المقيمين في مصر، بأن ينشئوا في سورية وفلسطين استثمارات زراعية مماثلة. وتذكر أوراق وزارة الخارجية الفرنسية مشروعاً قدمه أحد رجال الأعمال السوريين المقيمين في القاهرة شكور باشا- اذ يقترح هذا الأخير شراء مساحات واسعة من الأراضي في فلسطين. وبالتحديد قرب طبريا ونهر الأردن. يقول صاحب المشروع في تقريره الذي قدمه الى القائم بأعمال فرنسا في القاهرة عام ١٩٠٨ :

“Ces terrains aussi peu connus que s'ils étaient au centre de l'Afrique, sont sistants du Caire que de 36 heures, et leur qualité égale celle des meil-leures terres d'Egypte (...). En effet le feddan qui coûte 60£ en Egypte se vend en Palestine 5£ et parfois moins.

“Aucune raison ne s'oppose à ce que les prix ne s'égalisent ultérieurement et le Liban nous offre un exemple frappant de ce qu'on peut espérer à ce sujet. Dans cette région où la sécurité régné depuis l'intervention des puissances en 1860, la valeur des terres se capitalise sur un revenu de 3%, ce qui donne un prix supérieur à celui de l'Egypte où l'on se base en général sur un revenu de 5 à 6%⁽¹²⁾ .

ويتابع مشيراً الى استعداد الملاكين المحليين للمساهمة في تمويل الشركة :

“Un de ces personnages, qui possède à lui seul 200.000 feddans au moins, a pris l'initiative de nous offrir une notable partie de ses propriétés pour former une semblable société.

Les bases de cette compagnie seraient les suivantes: Le capital serait fixé à £ 500.000 dont moitié serait versée en espèces, l'autre moitié était représentée par la valeur de l'apport des terrains. Nous sommes

assurés que cette société trouverait un grand succès dans le pays même, et certains capitalistes indigènes nous ont fait espérer un concours pécuniaire qui ne devrait être inférieure à £ 100.000.”

entre le Jourdain et la rivière Samar)

وبعد أن يشير الى موقع الأرض

sur la rive Nord-Est du Lac de Tiberiade....)

يعرض لحسنات اخرى للمشروع: القرب من خط سكة حديد حيفا- دمشق الذي يؤمن تصريفا اكيدا للمنطقة- انتشار اليد العاملة ورخصها، المناخ الذي يساعد على زراعة كل انواع المزروعات وخاصة القطن...

وينتهي بتشجيع السياسة الفرنسية على اخذ المبادرة والا «فيخشى من مزاحمين

عديدين» .

“Les domaines qui sont proposés sont situés entre le jourdain et la rivière samar sur la rive Nord-Est du Lac Tiberiade (...). Le chemin de fer de kaifa qui passe à proximité assure un rapide débouché, et la main d’uvre qui est abondante se recrute sans difficultés.

Le climat de cette contrée est solubre et se prête à toutes sortes de cultures, particulièrement à celle du coton...

(...) Notre opinion est, qu’au cas où l’on serait disposé à donner suite à cette affaire, il faudrait se hâter car de nombreux concurrents sont à redouter (...).

ويبادر القائم بأعمال فرنسا في مصر ، « M. Chevalier de Valdrome » الى رفع

كتاب الى وزير الخارجية (M. Pichon) مرفقا بمشروع شكور باشا، مثيراً اهتمام الحكومة الفرنسية ورجال الأعمال الفرنسيين حوله ومبدياً اقتناعه بفائدة هكذا مشاريع من الناحية الاقتصادية والسياسية معا :

“... L’initiative de chakour pacha m’a paru interessante à un double point de vue. D’abord elle atteste de la part de certains sriens du Caire, le désir de renouveler, en syrie et en Palestine l’opération qui a été faite sur une grande échelle Ejypte et qui consiste à acheter à bas prix de vastes domaines pour les revendre par lots à un prix plus élevé, après les avoir défrichés et mis en exploitation.

Ensuite cette démarche prouve aussi de leur part le désir d'obtenir, pour ces entreprises, le concours de la finance française, de préférence à celle de tout autre pays.

«Ce n'est pas la première fois que je recueille le témoignage de cette préférence, à laquelle la situation de notre marché a sans doute plus de part que les raisons politiques alléguées pour la justifier.

C'est donc au Département et eux financiers français à apprécier s'il convient d'engager, avec toute la prudence désirable nos capitaux à se porter vers un pays où nos intérêts semblent les solliciter et où il n'y a point de raison qui s'oppose à priori à ce qu'ils trouvent un Placement avantageux.»

وهكذا دخلت فلسطين كجزء لا يتجزأ من موضوع الاستراتيجية الفرنسية حيال سورية «الكاملة»، فتركيز الدبلوماسية الفرنسية على الوجود الفرنسي المعنوي والثقافي (المدارس والمستشفيات والخدمات الاجتماعية) الذي بدأ يتصاعد خلال السنوات التي تلت عام ١٩٠٨، لا سيما في عام ١٩١٢. اثر احتلال إيطاليا لليبيا، وبروز القومية التركية وسياسة التتريك، وتزايد الحديث عن مشاريع تقسيم ولايات الدولة العثمانية، جعل من فلسطين بالنسبة للسياسة الفرنسية موضوعا شبيها بموضوع لبنان، حيث كانت قد ركزت فرنسا سياستها فيه على اتباع تقليد «الحماية» للموارة والكاثوليك، والمراهنة على الخصوصيات المذهبية والدينية في تفكيك المجتمعات «التقليدية» والحاق بعضها بمشاريعها الاقتصادية والسياسية في المنطقة (مشروع متصرفية جبل لبنان).

ولما كانت البنى الاجتماعية الإسلامية هي أكثر البنى تماسكا في ارتباطها بمؤسسات الدولة العثمانية ومقاومتها للغرب «التوسعي»، فقد رأت فرنسا في مقابل رهان بريطانيا دعم واحتواء مشاريع «الخلافة العربية» والدولة العربية «ان من مصلحتها الإستمرار في الرهان على الخصوصيات المذهبية- والدينية لتفكيك اللحمة الإسلامية العامة التي قد تشكل مصدر مقاومة.

لذلك نقرأ للقنصل في فلسطين عام ١٩٠٩ كتابا موجهها الى وزير الخارجية (M.Pichon)، يؤكد فيه الطابع «الكوسموبوليتي» للتركيب السكاني في فلسطين،

مقللا من أهمية العنصر الاسلامي في الحياة السياسية المحلية.

يقول :

“La Palestine ne présente qu’un intérêt très re-streint au point de vue politique ou religieux musulman; cela tient à diverses raisons. Nul n’ignore que sa population formée d’un amalgame des races les plus variées, a offert de tout temps l’aspect du plus parfait cosmopolitisme où l’élément musulman se trouve comme noyé.

Celui-ci ne représente en effet à quelques rares exceptions près (Hberon caza) qu’une très faible minorité dans certaines villes comme Jerusalem (1/8 environ de la population totale). Bethléem, Jaffa, Nazareth.”⁽¹⁴⁾

ويزداد الاهتمام الفرنسي بفلسطين مع تعاظم التنافس ما بين الدول الكبرى (بريطانيا-فرنسا). اذ تراقب القنصلية الفرنسية في القدس النشاط الانكليزي في ميادين التعليم والخدمات الاجتماعية، فتسجل لوزارة الخارجية أهمية «رصيد فرنسا» في هذا المجال. لكن تستدرك لوضع يورق السياسة الفرنسية هو قرب فلسطين من مصر، «فبسبب العلاقات الكثيرة مع مصر، يكتشف سكان فلسطين الجنوبية حسنة وجود ادارة منظمة وقوية تحت السيطرة الانكليزية». مما يخلق لدى هؤلاء - كما يخشى القنصل الفرنسي - حماسا يدفعهم الى توجيه انظارهم نحو بريطانيا، بل اكثر من ذلك يخلق لديهم استعدادات لتقبل الاحتلال البريطاني، حتى بالنسبة لكثير من عائلات الأعيان المسلمين في القدس - كما يلاحظ القنصل في كانون الثاني من عام ١٩١٢.

“Mais l’Angleterre possède un autre et très sérieux élément d’influence en Palestine: C’est le voisinage de l’Egypte. En rapports fréquents avec l’Egypte, les habitants du sud de la Palestine y constatent avec envie les bienfaits d’une administration juste, forte et régulière sous la domination anglaise, et ils en reviennent vantant de l’Angleterre et souhaitant qu’il puisse en être bientôt de même chez eux.

Je tiens de bonne source que l’écho de leur enthousiasme va se repercutant, de poche en poche, par toute la Palestine où commencerait ainsi à tourner les yeux vers la puissance britannique. Il m’a été affirmé que les dispositions favorables à une occupation de la

Palestine par l'Angleterre seraient très sérieusement partagées par plusieurs familles musulmanes notables de Jerusalem."⁽¹⁵⁾

ويزداد «قلق» الدبلوماسية الفرنسية على فلسطين حين يلاحظ رجالها في المدن الفلسطينية نشاطا اقتصاديا مدعوما من قبل الأنكليز. ففي كانون الاول ١٩١٢، يتنبه نائب قنصل فرنسا في حيفا الى هذا الأمر، فيلاحظ في تقريره المرفوع الى الخارجية الفرنسية تكاثر مشاريع الأستثمارات الزراعية المدعومة من قبل الانكليز ويذكر كمثال على ذلك نشاط بعض رجال الاعمال السوريين المقيمين في مصر ومن بينهم حبيب باشا لطف الله الذي زار بيسان ووادي الأردن وجرش، برفقة مهندس انكليزي معروف في مشاريع الري والاستصلاح الزراعي. (William Willcotts) وذلك بهدف دراسة امكانيات شراء اراضي وربها لحساب شركة انكليزية. ويأسف لتردد الرأسماليين الفرنسيين في هذا الشأن. يقول :

“On ne dit que célèbre hydrologue voyage pour le compte d'une société qui aurait pour but de mettre en valeur les riches terrains qu'il vient de visiter. (...).

“J'ai eu l'occasion, à différentes reprises, de signaler au Département l'intérêt qu'il y aurait à ce que de semblables entreprises agricoles fussent confiées à des sociétés françaises.

Malheureusement, nos capitalistes hésitent prodigieusement quand ils ne sont pas sollicités par des inter-médiaires connus, et même dans ce cas les hésitations ne disparaissent pas."⁽¹⁶⁾

حتى هذا التاريخ، لم تطرح الدبلوماسية الفرنسية على نفسها موقفا رسميا من الصهيونية. فقد كانت فلسطين جزءا من سورية الكبرى «او الكاملة» (Intégrale) حسب التعبير الذي تردد في تقارير الدبلوماسيين ورجال الاعمال الفرنسيين آنذاك، وكانت السياسة الفرنسية تحاول عبر علاقاتها الدولية ولا سيما مع بريطانيا ان تضمن لنفسها حرية التحرك والتخطيط في وجهة ضمان سورية كلها «منطقة فرنسية» او «سورية فرنسية»، كما ستعلن ذلك غرفتنا تجارة ليون ومرسيليا عام ١٩١٥.^(١٧)

لذلك لم يشكل اليهود بالنسبة للسياسة الفرنسية محليا إلا عناصر اقلية يمكن

كسبها للنفوذ الفرنسي عن طريق حماية القنصلية الفرنسية لها في القدس. وكانت هذه السياسة تدرج في خط سياسة القنصليات الأجنبية وتزاحمها فيما بينها لكسب أنصار مقيمين - وتوسيع حدود النفوذ بين السكان المحليين والعناصر المقيمة.

في ١٧ حزيران ١٩١٣، يقترح قنصل فرنسا في القدس على وزارة الخارجية الفرنسية اعتبار اليهود المغاربة المهاجرين الى فلسطين رعايا فرنسيين، وتأمين الحماية الفرنسية لليهود الذين لا يرغبون في الحصول على الجنسية العثمانية ويتجنبون تسجيل اسمائهم في قنصلياتهم تهربا من الخدمة العسكرية في بلادهم.

وبعد أن يذكر القنصل الأجانب العثماني وشروط الحماية للقنصليات :

“Tout individu résidant en Turquie est ottoman tant qu’il n’a pas prouvé sa qualité d’étranger”. (la loi du 9 Janvier 1869).

“Or, écrit le Consul, d’après le règlement sur les Consuls (Août 1865), les agents étrangers ne peuvent accorder leur protection qu’à un nombre limité d’ottomans, agents consulaires, drogmans....”

ورغم القيود النسبية التي يضعها القانون العثماني على حق الحماية « فان قنصل فرنسا العام في فلسطين يطالب بتخطي هذه القيود والالتفاف حولها لتوسيع دائرة الحماية الفرنسية لليهود المهاجرين الى فلسطين وذلك « لموازنة بعض مراكز النفوذ الأخرى ».

يقول :

“Cependant, en présence de l’intérêt que nous aurions à pouvoir nous appuyer sur une colonie nombreuse, pour contrebalancer certaines influences qui se posent déjà, bienqu’à tort, comme prépondérante en Palestine, je me suis demandé s’il ne serait pas possible, en fait sinon en droit, d’étendre notre protection à des individus autres que ceux mentionnés ci-dessus, c’est à-dire d’ad-mettre dans notre clientèle un certain nombre des israél-lites qui, déjà dénationalisés, demandent à venir à nous.

D’après les estimations les plus modérées, il y aurait 30 à 3500 juifs établis en Palestine, qui ne relèvent d’aucun consulat, mais qui ne sont pas non plus enrégistrés à l’Etat civil ottoman.

Tous ces individus n'ont qu'une pensée, c'est d'éviter tout contact avec l'administration turque, de façon à empêcher l'application à leur égard, du principe énoncé ci-dessus, que toute personne président en Turquie et non reconnue comme sujet étranger est ottomane.

Ceux d'entre eux originaires de Russie, Roumanie et des Balkans qui ne veulent pas par crainte du service militaire recourir aux consulats de leur pays d'origine, ou qui ne peuvent le faire, faute de représentants à Jerusalem, sont contraints de solliciter, en cas de besoin la protection officieuse et bienveillante d'agents étrangers, qui acceptent ou refusent, selon qu'ils y ont intérêt ou non, selon qu'ils y sont autorisés ou non.

“Cette pratique semble exister depuis longtemps, car chaque consulat possède quelques familles protégées... et reconnues comme telles par l'autorité locale, sans cependant qu'elles soient originaires du pays sous la bannière du quel elles sont rattachées. Depuis la création du service militaire des non-musulmans, ces précédents ont été utilisés par les israélites étrangers susceptibles d'être incorporés par l'armée ottomane.

Les consuls, comprenant l'avantage que leur influence peut retirer de cette augmentation de leur clientèle, élargissent autant que possible la portée de leurs règlements pour arriver à englober ces nouveaux adhérents (...).

أما فيما يخص اليهود المغاربة فان القنصل الفرنسي يقترح اعتبارهم فوراً رعايا
فرنسيين:

“Toute fois étant donné le grand nombre de ces derniers à Jerusalem, ainsi que la manière de faire de certains agents espagnols, je résolus de prendre immédiatement, certaines mesures, d'ailleurs raifiées ultérieurement par l'ambassade, grâce auxquelles tous les marocains non inscrits à l'Etat civil ottoman furent reconnus comme ressortissants français, et ceux qui n'étaient ottomanisés furent convaincus qu'ils devaient attendre patiemment la fin des négociations en cours et ne rien espérer en dehors de l'action de la France.”

٢ - في إبان الحرب ومؤتمر الصلح ١٩١٤ - ١٩٢٠.

غير ان مطلب الحركة الصهيونية من فرنسا كان يتخطى حدود المطالبة بالحماية لعناصر يهودية اقلية مقيمة في فلسطين. فمع بداية الحرب ازداد نشاطها وضغطا على الدول الكبرى كي تتبنى هذه الاخيرة مشروعها الخاص في فلسطين، فتأسس في هذا السياق « العصابة الفرنسية - الصهيونية » في فرنسا في نيسان ١٩١٥ من شخصيات يهودية فرنسية أو فرنسية فقط تتعاطف مع الحركة الصهيونية ويكون هدف هذه العصابة:

“Elle a pour but de favoriser en France le mouvement sioniste, en éclairant l'opinion française sur la situation du peuple juif, ses aspirations nationales sur les Ouvres réalisées par l'Organisation sioniste mondiale au point de vue pratique et normal, en Palestine, et ailleurs”⁽¹⁹⁾

كذلك يتقدم أحد زعماء الصهيونية (M. Sloush)، بمذكرة الى سفير فرنسا في واشنطن، يتساءل فيها « كيف ان فرنسا الجمهورية، صاحبة حقوق الانسان والشعوب يمكن ان تقف في وجه تحقيق مشروع تحرر وطني لجماعة بشرية؟ » وبعد ان يمر عائق معارضة الكاثوليك السوريين للمشروع الصهيوني، هؤلاء الذين يعتبرهم « الأكثر عداً لليهود في العالم والذين لم يقدموا لفرنسا سوى ١٥ متطوعاً ». كما يقول « يقدم الزعيم الصهيوني لفرنسا اقتراحا بجل وسط، يوفق ما بين مسألة الأراضي المقدسة (التي تهم الكاثوليك) ومسألة خلق مستوطنة يهودية مستقلة ». هذا الاقتراح يقضي بانشاء المستوطنة بين حدود منطقة القدس وبيت لحم من جهة وبين الحدود المصرية حيث « يوجد كما يقول منطقة لا اثر للذكرى المسيحية فيها، وحيث ان عدد سكانها من العرب المقيمين يكاد لا يذكر ». هذه المنطقة يقدر مساحتها بين ١٢،١٥ ألف كلم^٢، يرى ان تكون عاصمتها (Hebron) ومرفأها غزة.

ويطلب من فرنسا دعم هذا المشروع الذي نال موافقة امبراطورية المانيا وملك ايطاليا. ويعلق:

Je propose cette façon de traiter la question apres avoir consulté des promesses de réelle valeur: Il s'agit d'écarter les difficultés des problèmes des syriens chrétiens, des lieux saints et même celui de la présence dans le reste de la Syrie d'un nombreuse population musulmane sédentaire.

Mais il s'agit aussi d'une sage mesure de politique internationale et de chrivoyance féconde dans ses résultats.⁽²⁰⁾

ويجد السفير الفرنسي نفسه غير قادر على اعطاء الجواب على المذكورة، فيرفعها الى وزير الخارجية السيد بريان (Biriant)، مرفقة بالتعليق التالي:

“Incompétant de formuler une opinon, je ne peux que transmettre au Département, sur la demande de l'intéressé, copie de ce mémoire, où il est exposé qu'un tel projet a déjà l'approbation de l'Empereur d'Allemagne et du Roi d'Italie et qu'il est surprenant que la France Republicaine” ne semble pas s'intéresser à sa réalisation.”⁽²¹⁾

ويبدو أن الحكومة الفرنسية لم تتقدم بجواب رسمي واضح على هذا الطلب، لا باتجاه قبوله ولا باتجاه رفضه. لكننا نقرأ في هذا الصدد وفي نفس المجلد الذي ضم مذكرة (stousch)، تقريراً موسعاً عن الهجرة اليهودية منذ عام ١٨٥٠ ومصادرها، وأصناف اليهود المقيمين في فلسطين حتى عام ١٩١٤ وتوزعهم اللغوي وميولهم السياسية...

يطل التقرير على وضع المصالح الفرنسية في علاقتها بالمشروع الصهيوني... فيجزم بأن أكثرية اليهود المقيمين في فلسطين ينتمون الى المجموعة اللغوية الالمانية- اذ يشير إلى أن عهود مجموعة Ashkénazin الآتية من Galicie من روسيا، ومن النمسا، ورومانيا يبلغون وحدهم في فلسطين حوالي ١٢٠.٠٠٠ من أصل ١٤٠.٠٠٠. (تقدير عام ١٩١٤). وهذه المجموعة هي التي تغذي بشكل اساسي الهجرة اليهودية الى فلسطين...» وهي كما يشير التقرير معادية للغتنا وثقافتنا (اللغة والثقافة الفرنسية).. ويتساءل:

فهل ينبغي لفرنسا «سيدة سوريا وفلسطين» ان تنمي هذا النفوذ الذي هو الماني بشكل اساسي من حيث اللغة والتجارة والذي يمكن لدول المحور ان تستخدمه ضدنا؟...

ويستنتج انه ضرب من الجنون من قبل فرنسا ان تقدم على تشجيع حركة
ستنقلب من جميع الوجوه ضد مصالحنا.

“Allemands de langue, les commerçants juifs établis en Palestine s’adressent exclusivement à l’Autriche, Hongrie et à l’Allemagne pour les commandes.

|“Les étoffes, le papier, la quincaillere, l’horlogerie, les métaux, les machines agricoles, voire même certaines denrées alimentaires tout est fourni par les empires centraux, les articles de bonnetrie et de modes viennent pour la plupart non de Paris, mais de l’étranger. Ce serait une folie de la part de la France de favoriser un mouvement qui à tous les de points de vue, se tournera toujours contre ses intérêt⁽²²⁾

والواقع ان هذا التقرير، يندرج في تأكيده على الجانب الاقتصادي في المصالح الفرنسية في فلسطين في خط مواقف الهيئات الاقتصادية الفرنسية وعلى رأسها غرفتنا تجارة ليون ومرسيليا التي برزت في اجواء المحادثات السرية التي ابتدأت عام ١٩١٥ بين الدول الثلاث: فرنسا، بريطانيا، روسيا. وبعد أن تَسَرَّبَ منها الى أوساط هذه الهيئات أخبار عن استعدادات الدولة الفرنسية للتخلي عن قسم من سورية، فقد جاء في مذكرة غرفة تجارة ليون المرفوعة الى وزير الخارجية الفرنسية في ٧ حزيران ١٩١٥، ان «سورية التي يعرفها تجارنا وتلك التي يطالبون بها دون نقاش، تمتد من جبال طوروس حتى مصر وهي تضم كليكية القديمة، وفلسطين القديمة التي أدخلها التاريخ في تراثنا المعنوي منذ القرون الوسطى»...

“...La Syrie que connaissent nos commerçants, celles qu’ils revendiquent pour la France comme indiscutable s’étend du Tourqus à l’Egypte, elle comprend l’ancienne Cilicie comme l’Antique palestine que l’Histoire a fait entrer depuis le Moyen Age dans notre patrimoine moral.

Voilà, Monsieur le Ministre, ce que nous pensons en parfait accord avec tout le commerce de Lyon et de Marseille sur cette question si importante de la consolidation de notre situation en Orient après la Guerre,”⁽²³⁾

بيد ان فلسطين دخلت في المحادثات الانكليزية- الفرنسية، الروسية عام ١٩١٦، كمنطقة مدولة، وذلك في صيغة توازن دولي لم تكن فرنسا تملك في سبيل تعديله لمصلحتها أي ورقة عسكرية على جبهات القتال.

وفي هذا الوقت كانت الحركة الصهيونية تنشط في سعيها من أجل الحصول على وعد انكليزي رسمي بالمساعدة على «خلق وطن قومي يهودي» في فلسطين، وكانت القوات الانكليزية في مصر تستعد ايضا لغزو فلسطين وسورية.

في هذه الظروف وفي السياق هيأت فيه الصهيونية المحادثات التي ادت الى الوعد الانكليزي المعروف «بلفور». كانت الحركة الصهيونية تحاول كسب الموقف الفرنسي وتجنب معارضة البابا والأوساط الكاثوليكية الدينية عامة، وكانت تلك مهمة أحد زعمائها سوكولوف، يذكر رئيس الحكومة الفرنسية ووزير الخارجية في تعميم وزعه على سفرائه في مدريد وروما وبتروغراد وواشنطن خبرا عن زيارة (M. Sokolow) لروما وفرنسا ولندن، حيث قابل هذا الزعيم في روما البابا وبعض الكرادله، وفي فرنسا السكرتير العام لوزارة الخارجية الفرنسية، وفي لندن فرنسوا جورج بيكو (Pico) وسفير فرنسا (M. Faul Cambon)، وقد حاول (Sokoloe)، «ان يشرح للبابا في زيارته لروما». ان اليهود في رغبتهم أن يجدوا في فلسطين وضعاً خاصاً في حدود الاستيطان، ليس لديهم أي مطمح حيال الاماكن المقدسة، وينقل (Sokolow) ان البابا اجاب بابداء سروره لتسجيل هذه التصريحات...»

“Ilse lave particulièrement de la conversation qu’il a eue avec Benoît XV. Il s’est efforcé de lui expliquer que les juifs, s’ils ont le désir de retrouver en Palestine au point de vue de la colonisation, une situation particulière, n’ont aucune visée sur les lieux-Saints, c’est-à-dire sur les Sanctuaires du catholicisme...”

Le saint-père lui aurait répondu qu’il était particulièrement heureux d’enregistrer ces déclarations, qu’il respectait de son côté profondément les conditions religieuses des Israélites et entendait faire tout ce qui dépendait de lui pour éditer que sur aucun point du monde des conflits entre Israélites et chrétiens ne vissent à naître.⁽²⁴⁾

وهنا ايضا لا نجد موقفاً فرنسياً محدداً من المشروع الصهيوني كما صاغته المحادثات بين زعماء الصهيونية والحكومة البريطانية (الاعتراف بفلسطين وطنا قوميا للشعب اليهودي، اطلاق حرية هجرة اليهود وانشاء شركة يهودية قومية لاستعمار الاراضي).

ففي الوقت الذي كانت فيه فرنسا تنتظر قيام ادارة مشتركة في فلسطين الى جانب بريطانيا^(٢٥)، يقوم سوكولوف بجولته تلك، وهنا تبدي الاوساط الدبلوماسية الفرنسية اندهاشها حيال الاخبار التي نقلها بيكو عن سوكولوف والتي تتحدث عن « موافقة الانكليز » على مشروع انشاء « نوع من الهوية الوطنية اليهودية في فلسطين تحت اشراف دولة عظمى في فلسطين »، وهذا ما نقرؤه في احد تقارير وزير فرنسا في مصر في ٢٩ تشرين الاول ١٩١٧ :

“De la letter précitée de M. picot, il resulte que M. sokholow aurait obtenu” l’adhésion des Anglais ” à la constitution, “sous la suzeraineté d’une grande puissance” d’une sorte de nationalité juive en Palestine. J’ignore si ce terme “ahésion des Anglais” signifie “adhésion du gouvernement Britannique”: s’il en était ainsi, nous serions en droit d’être surpris d’une semblable adhésion donnée quelques mois à peine après l’accord établi sur le principe de l’internationalisation de Palestine.”

ويعترف Defwnce بالفائدة التي يمكن ان يقدمها دعم الحركة الصهيونية للحلفاء اثناء الحرب، على ان لا يؤدي هذا الدعم الى تعديل في الاتفاقات المعقودة حول مصير اراضي الدولة العثمانية.

“Je me rends lui compte l’utilité qu’il peut y avoir pour l’Etente à ne pas s’aliéner l’ément juif et à tenter, au contraire de s’assurer son concours, aussi que de la répercussion formidable que peuvent exercer sr les décisions prises en commun les événements de Guerre, mais il semble cependant que toute modification à ces décisions prises ou aux accords conclus devrait au moins faire l’objet de pourparlers préliminaires.

ويتابع :

“...Je constate... que contrairement aux stipulation de cet accord, des agents plus ou moins autorsés du Gouvernement britannique, si non ce gouvernement lui-même, acceptent ou favorisent l’idée d’un protectora unique sur la Palestine au lieu du principe de l’internationalisation..’

ويستنتج :

“Quoiqu’il en soit, et pour en revenir à la question du sionisme, je dois avouer que le projet présenté à l’adhésion du gouvernement britannique par M. Sokholow est rédigée de telle sorte qu’il n’est impossible d’en discerner la partée exacte et les dangers que je ne fais que présentir.”⁽²⁶⁾

وفي ٦ كانون الأول ١٩١٧ يطلب جورج بيكو من وزير الخارجية الفرنسية ان يوصل الى زميله الانكليزي مارك سايكس عن طريق السفارة برقية تنبه للمحاذير التي تترتب على تصريحات بلفور بشأن الصهيونية. فهذه التصريحات من شأنها ان تثير مشاعر العرب ضد الحلفاء، حتى العرب الأكثر موالاة للانكليز.

يقول :

“De tous les entretiens que j’al eus ici depuis mon arrivée, il resulte que rien n’a autant ému les arabes de Syrie que les déclarations de M. Balbour relatives au sionisme...”

“Dans l’intérêt même de ce que nous avons fait je ne puis donc que vous engager à la plus extrême prudence et à ne pas pousser plus avant une campagne publique qui risque de soulever contre nous le bloc des arabes quelle que soit leur origine...”⁽²⁷⁾

لكن هذه المحاذير الفرنسية لم تكن لتوقف الدعم الانكليزي - الأميركي للصهيونية الدولية. ولم يتوقف النشاط الصهيوني الضاغط للتأثير على الموقف الفرنسي.

لذلك وجدت فرنسا نفسها في أواخر نهاية الحرب العالمية مدفوعةً للتعامل مع الصهيونية بصورة تحاول معها ان توفق بين مصالحها الخاصة في فلسطين من جهة

تمت ضغط رجال الأعمال الفرنسيين والموقف الكاثوليكي^(٢٨) وبين التعاطف مع الحركة الصهيونية من جهة ثانية وذلك ضمن منطق التنافس الانكليزي - الفرنسي المؤطر في اتفاقية ١٩١٦ .

في هذا السياق نقرأ مع بداية عام ١٩١٨ عددا من التقارير والمراسلات والبرقيات التي تشير الى صياغة موقف فرنسي جديد ينطلق من الإقرار « بشرعية » المطالب الصهيونية في فلسطين مع امكانية الاستفادة منها، على صعيد تأييد يهود العالم، وعلى صعيد ايجاد وكلاء للتجارة الفرنسية وموالين يهود للسياسة الفرنسية في فلسطين وسورية .

من هذه التقارير، نقرأ واحداً موقعا باسم « Asaphi » ويحمل العنوان التالي :

« Note sur la nécessité de L'envoi d'une mission juive en Palestine. »

يقترح صاحب التقرير بأن لا يترك المشروع الصهيوني لمبادرات الدول الكبرى وحدها ولا سيما لبريطانيا واميركا اللتين تستعدان لارسال بعثات يهودية مختصة الى فلسطين ... ويقترح إزالة سوء التفاهم بين فرنسا والصهيونية بإرسال بعثة يهودية ملحقمة بالمفوضية العليا الفرنسية تكون مهمتها :

- ان تقوم بدور الوسيط تجاه المقيمين اليهود ...
- ان تتلافى تدهور الامتيازات الفرنسية المكتسبة لصالح دولة كبرى اخرى .
- ان تنمي دائرة التعاطف مع فرنسا ...
- ان تخلق مناخ عمل من الناحية الاقتصادية وان تهيم التربة في هذا المجال لمرحلة ما بعد الحرب ...
- ان تخلق جمعيات وتعاوننا بين اليهود والمسلمين في البلاد لتجنب صعوبات المستقبل .
- ان تقوم بدور استشاري للمفوضية العليا الفرنسية في المسألة اليهودية عموما والصهيونية خصوصا ...

“Il s’agit dès maintenant, de s’intéresser sérieusement à la question et du ne pas laisser l’initiative de ce travail uniquement aux Puissances, fussent-elle de l’Entente...”

“...L’Angleterre prépare l’envoi d’une mission juive préparatoire, qui commencera immédiatement par organiser, et qui prépare en même temps le terrain pour les immigrants juifs, tout de suite après la guerre, afin de créer une atmosphère favorable en faveur de l’Angleterre.

“L’Amérique prépare également une mission juive..

“il est donc, plus que jamais, nécessaire que la France prenne des mesures immédiates pour ne pas rester en arrière des autres, et surtout de ne pas être détruite dans un pays qui l’intéresse au premier degré ses intérêts.

“A tort ou à raison, on a l’impression, dans le monde juif que la France, non seulement n’aidera pas ou restera indifférente dans la réalisation, même partielle, des aspirations juives, mais même qu’elle s’opposera, jusqu’à une certaine mesure, à cette réalisation. Ces impressions ont causé et causent encore un certain malaise dans l’esprit juif, surtout nationaliste, en Amérique et en Russie.

Pour détruire ce malaise d’une côté et de ne pas laisser l’initiative, unique en Syrie, en ce qui concerne la question juive à l’Angleterre et à l’Amérique, il est de toute urgence, je crois d’envoyer une petite mission en Palestine, qui attaché au Haut Commissariat français dans ce pays, aura à s’occuper:

- 1 - de servir comme intermédiaire entre la population juive locale—
- 2 - de tâcher d’éviter que les privilèges français, au point de vue sympathie, en général, écoles, etc... acquis jusqu’à ce jour au sein de la population juive ne soit pas détruit au profit d’une puissance quelconque.
- 3 - -de développer cette sympathie et chercher à créer dès maintenant un noyau favorable à la France...
- 4 - de créer un esprit d’affaire, au point de vue économique avec la France et préparer un terrain pour l’après guerre, en encourageant un certain nombre d’hommes d’affaires juifs à se tenir en relation commerciale et autre, avec le marché français.
- 5 - -de tâcher de développer dans le strict intérêt des puissances musulmanes et surtout de la France, par la création dès maintenant des sociétés, une union entre juifs arabes dans le pays même et pour éviter ainsi des difficultés dans l’avenir.

- 6 - Par le fait que les yeux des juifs du monde entier sont tournés, en ce moment, vers la Palestine, on pourra créer en quelque sorte, un centre de propagande française auprès du monde juif...
- 7 - Servir le Haut Commissaire de France, comme conseiller technique de la question juive en général et sinoniste en particulier, le renseigner sur tout ce qui est fait par les autres puissances dans cette question au détriment ou non de la France".⁽²⁹⁾

ويبدو ان المساعي الصهيونية في أوساط الحكومة الفرنسية بدأت الى جانب، تخوف فرنسا من انعزال سياستها في سوريا وفلسطين وسعي هذه الاخيرة لايجاد قوى تركز اليها في منافستها لبريطانيا، بدأت تعطي ثمارها، فيحصل سوكلوف على تصريح من وزير الخارجية الفرنسي - السيد Pichen بتاريخ ٩ شباط ١٩١٨، « يؤكد اتفاق فرنسا مع بريطانيا بشأن فلسطين، لأجل اليهود - ». فتنتشر جريدة (Pro-Isuail) التي تصدر في سالونيك هذا الخبر بالنص الفرنسي التالي :

“Des renseignements puisés à une source officielle française nous permettent d’annoncer que M. Stephen pichon, Ministre des Affaires Etrangères de la République de la France a reçu M. Nahoum Sokolow, le leader sioniste, le 9 février auquel il a été heureux de confirmer que l’entente était complète entre les gouvernements français et anglais en ce qui concerne un établissement juif en Palestine.

Le but visé de cette entente, qui a d’ailleurs été formé entre les deux gouvernements en 1916 et remonte, par conséquent, à plus d’un an, a été indiquée dans la dernière lettre de M. Balfour à Lord Rothschild.”
وفي مصر، يؤيد وزير فرنسا السيد Defance الاعلان عن هذا إثر اجتماع سوكلوف بوزير الخارجية الفرنسية ويشير الى انه قوبل بترحاب شديد من قبل يهود مصر ولجان الصهيونية فيها ولا سيما بعد ان - شاع - كما يقول - ان موقف فرنسا الرسمي غير مشجع للمشروع الصهيوني ووعد بلفور.

يقول :

“Le télégramme cité plus haut semble être de nature à atténuer tout au moins cette impression. Il fera comprendre en tout cas aux sionistes

que si le gouvernement de la République n'a pas ratifié publiquement dès le début, la déclaration de M. Balfour, il est loin cependant d'être hostile aux idées de justice et de générosité dont s'inspirent certaines des revendications sionistes."

وبعد ان يستشهد السيد Defrance بمقطع طويل من جريدة صهيونية تصدر في القاهرة حول تامين الموقف الفرنسي، بطرح مسألة الاستفادة من هذا الموقف وطرقها.

بيد أنه يشير إلى صعوبتين: الأولى: من جهة العناصر الاسلامية والعناصر المسيحية التي تنظر بريبة إلى كل دعم لليهود، والثانية العناصر الصهيونية في الشرق التي لها في الغالب اتجاهات مشايعة للامان (germonophites):

ويتبلور بعد ذلك موقف فرنسي ينطلق من الاقرار بواقع أمر التركز الصهيوني في فلسطين، ولكن مع السعي في أن لا تقع فلسطين تحت النفوذ البريطاني والوحيد، كذلك مع الرهان على استمالة القيادات الاسرائيلية المرشحة لحكم فلسطين للنفوذ الفرنسي.

نقرأ في تقرير سري رفعة الملازم الاول "La Mauhe" من المخابرات الفرنسية الى الكابتن Picard رئيس دائرة المخابرات في جيش الشرق - بتاريخ ١٦ تشرين الثاني ١٩١٨ ما يلي:

"J'ai l'honneur de vous rendre compte que le centre Israélite de Palestine paraît se constituer sous d'autres influences que celle de la France, même là où elle pouvait espérer trouver des partisans.

"A Salonique, l'opinion est répandue chez les dirigeants que le territoire israélite de Palestine sera sous le contrôle effectif ou occulte de l'Angleterre, celle-ci aurait favorisé la création d'un "Etat juif" pour éviter que la Palestine ne tombât sous l'influence d'une grande Puissance et que les risques courus par le canal de Suez et la route des Indes puissent se renouveler.

les notables israélites de Salonique acceptent cet état de choses, ils ne paraissent, d'ailleurs pas concevoir le centre Israélite de Palestine à l'image d'un Etat Souverain.

L'Angleterre aura donc toute facilité pour lui imposer tôt un protectorat plus moins déguisé. Ilyaurait un remède à cette situation inquiétante pour nos intérêts de Syrie, c'est que les dirigeants israélites

appelés à gouverner la Palestine ou à défendre les intérêts de la Population, fussent sous l'influence française"⁽³¹⁾.

لكن الاطمئنان الصهيوني للموقف الفرنسي من جهة، والرهان الفرنسي على استمالة الزعامات اليهودية المرشحة لقيادة المشروع الصهيوني في فلسطين، من جهة ثانية، اصطدما بالاستراتيجية الفرنسية في مواجهتها لبريطانيا في المنطقة السورية ودفاعها عن مشروع سيطرتها على سورية، والحدود الجغرافية لهذه السيطرة.

لقد ادى التنافس البريطاني- الفرنسي الى الاتفاق المعروف باتفاق ١٥ أيلول ١٩١٩، الذي قضى بانسحاب الجيوش البريطانية من المنطقة الساحلية الغربية ومن كيليكيا في أول تشرين الثاني من تلك السنة، وان تحل مكانها جيوش فرنسية فيما خلا المدن الأربع دمشق وحمص وحماه وحلب. ونصّ هذا الاتفاق ايضا على ضم الموصل وفلسطين الى منطقة النفوذ البريطاني^(٣٢).

بيد ان هذه المبادلة بين الموصل وفلسطين التي تمت لصالح بريطانيا من جهة وبين انسحاب القوات البريطانية واطلاق يد فرنسا في العمل في سورية من جهة ثانية، كانت قد سبقتها صراعات استمرت بين الدولتين حول الحدود بين فلسطين وسورية. وكان ذلك يتم بشكل اساسي بتأثير مطالبته الحركة الصهيونية في مؤتمر الصلح بتوسيع حدود فلسطين « شرقاً وشمالاً بحيث تضم احواض الليطاني والأردن وروافدهما ».

وفي هذا المجال يمكن ايراد مقالة نشرتها مجلة "La Palestine mailli" حول مطالب الصهيونية عندما كانت الأخيرة تقدم مذكراتها في مؤتمر الصلح آملة في ان نرى الوطن القومي (Naional Houe) يتحول الى دولة يهودية « . وهذه المقالة تعبر عن وجهة نظر التجمع الصهيوني الفرنسي. وهي بقلم Danel N.

“Au moment où M. lloyol George invite M. Herbert Samuel et le Dr. Weizamn à repondre et à completer les propositions que les sionistes s'apprent à présenter devant la conférence de la paix, et où ils ne cachent pas leurs espoirs et voient déjà le “National home” sans

intérêt de donner un résumé des revendications territoriales bien inconsidérées que le groupement sioniste français présidé par M. Spire, expose dans le second numéro de la "Palestine nouvelle": (...)

"Il paraît nécessaire d'ajouter à la traditionnelle Palestine des temps bibliques une certaine étendue de terrain contenant des points indispensables au développement économique du pays, au maintien facile de son intégrité territoriale et au libre fonctionnement de ce qu'on a appelé le "pont palestinien". Economiquement parlant, la Palestine doit être comme le pont qui relie l'Asie et l'Afrique, tandis qu'au point de vue stratégique elle serait au contraire le pont qu'au besoin les séparerait.

La limite septentrionale de la Palestine biblique part de la côte au Nord de Saida, se dirige en droite ligne vers le Sud-Est jusqu'au point où le Wadi Luwa se jette dans le lac de Matek-Burak au sud Est de Damas, suit le cours du Wasi-Luwa contourne le massif de El-Lejd, se dirige jusqu'à la partie orientale du fleuve d'Yabbok, puis jusqu'au fleuve Arnoun, enfin vers l'ouest, le long de ce fleuve jusqu'à la mer morte. La limite Sud part de l'extrémité Sud de la Mer Morte selon l'axe de la vallée de l'Arabah puis se dirige vers l'ouest jusqu'au Wadi-el Arich qu'elle longe jusqu'à la mer.

Au point de vue économique la Palestine faisant pont entre la Méditerranée et l'Océan Indien doit posséder des issues sur chacun de ces deux bas-sins, or, il est possible d'établir d'excellents ports à Jaffa et à Caïffa d'une part et à Akaba de l'autre. (sur la mer Rouge). Au point de vue stratégique, étant donné le grand nombre des routes d'invasion, la possession d'Akaba est particulièrement importante. Cette considération et celle qui précède nous permet de définir comme suit les limites de la Palestine futur.

"Au nord toute la frontière méridionale de l'Etat autonome du Liban, telle qu'elle existait dans l'empire ottoman, ainsi que la portion extrême-Sud de la frontière orientale de ce même territoire autonome du Liban (laquelle frontière court à l'ouest d'une ligne à peu près parallèle au fleuve Litany) dans la direction Nord-est, jusqu'à un point situé sur le 33/36 degré de latitude Nord, de là une ligne droite allant dans la direction Sud-Est jusqu'à son intersection avec le 36 degré de longitude est par 33 degrés 38' de latitude nord, à partir de ce point une autre ligne droite allant vers le sud en suivant à peu près le 36 eme degré de longitude est en se maintenant constamment à quelques kilomètres à l'ouest du chemin de fer du Hedjaz jusqu'à un point situé à quelques kilomètres à l'Ouest de Ma'an. A partir de Ma'an la frontière se dirigerait vers le Sud-Ouest et atteindrait ainsi

les environs d'Akaaba. Au sud, la frontière égyptenne actuelle allant d'un point du golfe d'Akaba situé à 7 kilomètres et demi au sud-ouest de la pointe septentrionale de ce golf vers le Nord-Ouest jusqu'à Rôfah''⁽³³⁾.

وبعد ان انتهت مبادلة ١٥ أيلول ١٩١٩ بين بريطانيا وفرنسا الى مقررات مؤتمر سان ريمو (٢٥ نيسان ١٩٢٠) التي توزعت بموجبها الانتدابات على سورية والعراق وفلسطين بين الدولتين أضحت فلسطين تحت الانتداب البريطاني مع تضمين صك الانتداب على فلسطين اشارة واضحة الى مسؤولية الدولة المنتدبة، «عن جعل البلاد في احوال سياسية وادارية واقتصادية تكفل انشاء الوطن القومي اليهودي» (المادة الثانية). كذلك مع تضمينه «الاعتراف بهيئة يهودية صالحة كهيئة عمومية تشير وتعاون في ادارة فلسطين في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك مما يؤثر في انشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين» (المادة الرابعة)⁽³⁴⁾.

٣ - الموقف الفرنسي في مرحلة الانتداب على سورية:

هذا التقسيم الذي فجر أحلام الأوساط الاقتصادية المرسلية والليونية في فلسطين⁽³⁵⁾ كذلك أحلام الأوساط الكاثوليكية في السيطرة الفرنسية على الاماكن المقدسة»، لم يوقف الحذر الفرنسي من الامتداد الصهيوني واتساع حركة المطالبة اليهودية في مناطق الانتداب الفرنسي من سورية.

لكنه ايضاً لم يبلغ بين الحين والآخر بروز محاولات فرنسية للاستفادة من عناصر صهيونية مشايعة للنفوذ الفرنسي، او من مشاريع استثمارات اقتصادية تقوم بها شركات في مناطق الانتداب الفرنسي.

وهكذا تجاذب الموقف الفرنسي عنصران:⁽³⁶⁾

الخوف من المشروع السياسي الصهيوني الكبير من جهة والانجذاب نحو مشاريع استثمار الرساميل اليهودية. وينعكس هذا التجاذب في عدد من التقارير

والمراسلات الرسمية الفرنسية في السنوات الأولى من عهد الانتداب الفرنسي في سورية.

ومن جهة الصهيونية، كانت هذه الأخيرة تحاول بدورها الافادة من التنافس البريطاني- الفرنسي، بحيث تبقى على علاقتها الودية بفرنسا، حتى اذا ما تخلت بريطانيا لسبب او لآخر، وجدت الصهيونية نفسها امام مصدر عون بديل وقريب وهذا ما عبرت عنه بقرية ارسلها الجنرال غورو الى وزارة الخارجية في ٢١ تشرين الثاني ١٩٢٢، اعتماداً على تقرير ضابط الارتباط الفرنسي في القدس.

“Notre officier de liaison à Jerusalem me signale qu’un changement sensible dans le sens d’un rapprochement vers la France se produit dans le ton et l’attitude des milieux israélites opposants de Palestine.

Cette évolution succède à une longue période où ces milieux avaient nettement pris position contre nos établissements et en particulier contre les écoles de l’Alliance Israélite, qui font une concurrence des plus redoutables aux écoles sionistes en raison de leur enseignement mieux compris et plus complet. Elle semble procéder surtout de la nécessité de prendre une assurance du côté de la France pour le cas où l’Angleterre, à la suite des changements survenus dans sa politique intérieure, cesserait plus ou moins complètement l’appui donné jusqu’à ce jour au sionisme.”⁽³⁷⁾

لكن هذا الود الصهيوني تجاه فرنسا، كان يوظف تدريجياً في خط التوسع التنظيمي للصهيونية في مناطق سورية الواقعة تحت الانتداب الفرنسي، وفي هذا السياق يزور الكولونيل Kisch، عضو اللجنة التنفيذية الصهيونية في فلسطين (Comité exécutif sioniste en Palestine) ، بيروت في تموز ١٩٢٤ ويجمع بنائب المفوض السامي M.de Reffye ، وبزعماء الطائفة اليهودية، وعلى اثر زيارته تلك اوردت صحيفة (Palestine télégraphique Agency) خبراً عن تأسيس «اتحاد صهيوني» ليهود سورية:

“A la suite de la visite récente à Beyrouth du Colonel Kisch, Membre du comité exécutif sioniste en Palestine, les chefs de la

communauté Juive ont jeté les bases d'une fédération sioniste de Syrie."

هذا الخبر كان من شأنه أن يثير قلق ومخاوف الجنرال Weygand، فيكتب الى قنصل فرنسا العام في القدس منها الى ان محادثات الكولونيل Kisch، في بيروت لم تتضمن مثل هذا الاتفاق، وبرغم تطمينات الكولونيل Kisch، من ان الاتحاد لا يهدف الى تحقيق اغراض سياسية فإن الجنرال Weygand، ينبه الحكومة الفرنسية على مخاطر مثل التنظيم الذي لن يقتصر في رأيه على التعبير عن تعاطف يهود سورية مع صهيونيين فلسطين، بل يتخطاه لتكوين نوع من امبريالية صهيونية على امتداد سورية»^(٣٩) على حد قوله.

ويكتب في هذا الشأن رسالة الى الحكومة الفرنسية مبديا تخوفه من هذا التوسع، ومذكرا بخريطة ١٩١٧ الصهيونية حيث «ترتسم الحدود الشمالية للدولة الصهيونية بالقرب من خط بيروت - دمشق...» ومنهياً ايضاً الى اصوات صهيونية تطالب، بالاضافة الى ضم «المطلة» التي تنازلت عنها فرنسا، بقمة حرمون وجنوبي البقاع، ويشير في آخر رسالته الى ظاهرة شراء الأراضي من قبل صهيونيين في «جنوبي دولة دمشق وجنوبي دولة لبنان الكبير».

وهذه بعض مقتطفات من الرسالة :

“Sur la vue de cet article j'envoyais au Consul général de Jerusalem une lettre portant que si M. de Reffye avait déclaré ne voir aucun inconvénient à ce que les juifs de Syrie s'intéressent au mouvement sioniste, il avait tenu à préciser que la France opposerait un mur à toute tentative d'expansion du sionisme en Syrie. Elle ne saurait donc consentir à l'établissement en Syrie d'une fédération sioniste dont il n'avait d'ailleurs pas été question dans l'entrevue. (...)

“La réponse du Colonel Kisch ne modifie nullement mon refus de laisser créer en Syrie une fédération sioniste.

Il est basé sur les considérations suivantes:

Ju ne vois nul inconvénient à ce que les juifs de Syrie sympathisent avec le sionisme, je ne puis l'empêcher et la chose me serait d'ailleurs parfaitement indifférente si, de l'autre côté de la frontière des éléments exaltés du sionisme ne tendaient à créer à l'encountre de la Syrie, une espèce d'impérialisme sionist.

Au lieu de se borner à attirer en Palestine les éléments Israélites dispersés, certains sionistes revendiquent maintenant l'annexion à la Palestine de tous les territoires habités par les juifs.

Je n'irais pas jusqu'à soumettre à votre Excellence la carte éditée en 1917 par les sionistes et dans laquelle on voit la frontière Nord de l'Etat Sioniste toucher la voie Eerrée de Reyrouth à Damas englobant ainsi, Tyr, Saida, et une bonne Partie du Liban- Sud.

«Mais à l'occasion même de la cession récente du territoire de Metelleh à la Palestine, des revendication sionistes se sont fait entendre en Palestine portant sur l'Hermon et le Sud de la Bedaa.

D'autre part, de nombreux achats de terrains me sont signalés de la part de sionistes dans le Sud des Etats du Grand- Liban et de Damas, au point que je suis obligé de faire étudier s'il ne serait pas possible d'arrêter cette epansion en utilisant un texte législatif qui permet d'interdire dans certaines régions les achats d'immeubles par les étrangers»⁽⁴⁰⁾.

وفي العام التالي (١٩٢٥) تشغل مسألة الأراضي من قبل اليهود في المناطق الواقعة تحت الانتداب الفرنسي، اهتمام الحكومة الفرنسية نفسها. فيسأل رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية، القنصل الفرنسي في القدس عن ملاحظاته حول هذا الموضوع ومدى اتساع وخطورة هذه الظاهرة.

ويجب القنصل بأن «جهد الصهيونية يتركز حاليا على فلسطين»، فاليهود حتى عام ١٩٢٤ لا يملكون فيها الا نسبة ضئيلة من الأراضي الصالحة للزراعة الى ٦٪. ويذكر القنصل انه «اذا ما اراد الصهيونيون توسيع حدودهم، دون انتظار تأسيس وطنهم الخاص (psopse home). فانهم سيتجهون بالتأكيد نحو الضفة الغربية...»

ويخلص القنصل الى نتيجة هي «انه لا يعتقد انه ثمة حركة على قدر من

الاتساع يقوم بها الصهيونيون في الأراضي السورية، ولكن قد يكون من الممكن وبدافع تصحيح الحدود الجديدة التي حصلوا عليها في منطقة المطلة ان يسعى اليهود الى وصل بعض النقاط التابعة لأراضيهم مع بحيرة الحولة. وبالتحديد الى وضع يدهم على كل منابع نهر الأردن...» ويقترح القنصل انطلاقاً من «اهمية المياه بالنسبة لفلسطين»، سياسة مرنة تجاه حاجة فلسطين الى مياه سورية، دون اتخاذ تدابير مانعة يمكن ان تكون مهيجة وغير مفيدة»

“Comme je l’indiquais à votre excellence dans mon rapport N = 52 du 20 novembre 1924, les Juifs ne possèdent encore ici qu’une faible partie du pays, 5 à 6% environ des terres considérées comme culti-vables.

C’est pourtant sur la Palestine que doit nécessairement porter d’abord leur effort...

Mais, si les sionistes voulaient, sans attendre d’avoir construit leur propre homme, essaier par delà leurs frontières, c’est certainement vers la Transjordanie qu’ils se dirigeraient (...).

Néan moins quand j’ai demandé au Colonel Cox si les sionistes achetaient des terrains en transjordanie, il m’a répondu qu’il n’était pas impossible que tels achats se fissent par l’intermédiaire d’hommes du paille mais qu’aucun cas n’en était venu à sa connaissance.

X Je suis donc bien loin de croire à une tentative de quelque enverqre des sionistes sur le territoire Syrien mais il se peut que, mis en goût par la rectification de frontière qu’ils ont obtenu dans la région de Metulleh, les Juifs cherchent, à arrondir sur certains points leur domaine leur domaine au lac de Houlé et notmmant à s’assurer la possession de toutes les sources de Jourdain.

L’eau du fleuve conditionne tous leurs projets d’irrigation et d’électrification de la Palestine. Les soarces de Bantias, par exemple, toutes proches de Dan, leur inspirent certainement quelque convoitise. Il est question d’assécher le lac de Houlé, de drainer la gran-de plaine marécageus qui en borde la rive septentrionale et où ne vivent à l’heure actuelle que des troupeaux de buffles amphibies. L’eau est si précieuse pour la Palestine, la frontière est si artificielle, je dirais presque si paradoxale en certaines parties de son parcours que la Syrie agira prudemment, je crois en donnant à ses voisins toutes garanties au

libre usage des eaux qui jaillissent sur son territoire. Une politique pleinement libérale à cet égard sera notre meilleure protection car les mesures prohibitives sont généralement irritantes sans être efficaces.”
(...)⁽⁴¹⁾

ويبقى الموقف الفرنسي متأرجحاً بين الإعجاب بالصهيونية، لكونها تحمل قدرة اقتصادية على الاستثمار وتوظيف الرساميل في فلسطين، وبين مطامعها في أراضٍ هي جزء من مناطق الانتداب الفرنسي، ويبدو ان الإعجاب الفرنسي بالصهيونية، سيزداد بعد تجربة الخمس سنوات الأولى من الانتداب، حيث وجد الحكم الفرنسي نفسه امام حاجات لم يستطع توفيرها في البلاد، الرأسمال اليد العاملة، التقنية، وحيث وجد نفسه ايضاً ملزماً بالانفاق على مؤسسات المسيحيين، وأمام «ثروة شرقية بنيت على حد قول المفوض السامي على الربا، وهي قصيرة النفس...» .

ومن جهة اخرى كان اندلاع الثورة السورية ومقاومة المجتمع السوري للسيطرة الفرنسية، عامة في التفات الحكومة الفرنسية الى احتمال ادخال بعض النشاط الصهيوني الاقتصادي الى سورية. وفي هذه الظروف، يقابل Weizmun المفوض السامي الفرنسي Jauremel في نيسان ١٩٢٦، طالبا منه ادخال عناصر صهيونية الى المناطق السورية، ولا يلبث وايزمن ان ينقل الى الرئيس الفرنسي Arstide Briand، نتائج مقابله للمفوض السامي واعجاب هذا الاخير بالنشاط الصهيوني في فلسطين وامكانية اقامة عدد من المشاريع الزراعية في انحاء سورية. لا سيما في حوران القريبة من فلسطين.

فيكتب الرئيس الفرنسي الى المفوض السامي في ٤ ايار ١٩٢٦ ما يلي:

“Le Docteur Wissman a dit que vous aviez été frappé du développement et du succès du sionisme en Palestine, ainsi que des rapports qui se sont établis avec les arabes. Il a relaté également l’examen qui avait été entre tous d’un établissement du sionisme sur certains points du territoire syrien, soit dans le voisinage de l’Euphrate, soit du côté palmyre, soit du côté du Hatran, ce qui aurait

l'avantage de rester en contact avec les organisations sionistes de Palestine.

“Le secrétaire général a écouté avec intérêt les suggestions et a dit qu'il vous demanderait de préciser dans un rapport cette conversation et des idées Il a ajouté que la Montagne druze lui paraissait une région plus appropriée, malgré les apparences, que palymre ou L'Euphrate”...⁽⁴²⁾

اما موقف المفوض السامي الفرنسي، فتجمله رسالة يعبر فيها عن اعجابه بالصهيونية، ويشير الى «جراً» الرساميل اليهودية، وامكانية الاستفادة من الجاليات الصهيونية لكن ليس في جنوبي لبنان، وليس في حوران حيث «يمكن للمسلمين والدروز كما يقول ان يتحدوا ضدهم، فنكون نبيء بذلك لثورة جديدة...» أو «لخلق نزعة الحاقية يهودية» «Irredentisme»، ويقترح “de Jauvemel”، بالمقابل اقامة جاليات صهيونية في المنطقة الفراتية، أو في المنطقة الواقعة بين خط الفرات وبين خط حلب- حماه- حمص، حيث يراهن على الطابع شبه الصحراوي للمنطقة وخلوها من السكان، وعلى امكانية استيعاب المعارضة المحلية بالمنافع التي يمكن ان تجلبها اموال ورجال الصهيونية».

وهذه بعض فقرات الرسالة:

“Monsieur Weizman est venu me demander ce qui je penserais de l'introduction des sionistes en Syrie Je lui ai répondu que cette question me dépassait et regardait le gouvernement, mais je n'ai pas pu lui cacher mon sentiment personnel.

Anti- sioniste quand je suis arrivé en Orient, je suis devenu sioniste, ou plutôt jaloux du Haut commissaire britannique en Palestine, et de ce que lui apportent les sionistes:- des ennuis, certes, avec le monde arabe, mais des ennuis provis oines, largement compensés par les bénéfices que le sionisme rapporte à la Palestine.

Il manque à ces pays, pour devenir très riches, trois éléments:- le capital, la main-d'ouvre, et la technique -Ces trois éléments, le sionisme les obligés d'aider les chrétiens, de soutenir leurs a uvres, les sionistes s'aident et se soutiennent tout seuls. Le capital dont ils

disposent est un capital courageux, capable de courir des risques, à la différence de la fortune orientale, souvent édiflée par l'usure, et qui s'administre, si j'ose ainsi dire à la petite semaille.

« Bien entendu, j'ai déclaré à Monsieur Weizman que s'il s'agissait d'établir le sionisme dans le Sud du Liban ou même de la Syrie, j'y étais absolument opposé. Ce serait en effet créer dans les pays sous mandat français un irrédentisme juif et poser l'avenir une dangereuse question de frontière.

« En revanche, si les sionistes acceptaient d'aller s'établir sur l'Euphrate, ou en tout cas dans la région comprise entre la ligne de l'Euphrate et la ligne Alep, Hama, Houms, Damas, je serais pour ma part extrêmement tenté de recommander du gouvernement d'accepter là leur installation. (...)

« Entre l'Euphrate et la ligne des cultures, il faut importer des hommes et de l'argent pour entreprendre quoi que ce soit. Les hommes manquent, et l'argent français n'est pas le temps qui court pas beaucoup plus vaillant que l'argent syrien.

Ce serait donc une bonne fortune que de trouver l'argent et les hommes du sionisme, sans doute les musulmans pousseraient-ils d'abord quelques cris, mais ce n'est qu'une tempête à passer. Les hommes de ce pays-ci sont beaucoup trop attachés à leurs intérêts pour ne pas se reconcilier assez vite avec ceux qui les enrichiraient...

« J'appelle votre attention, en revanche, sur le danger qu'il y aurait à leur proposer une au Hauran où musulmans et (druzes) s'uniraient contre (eux). Ce serait préparer à (coup) sûre une nouvelle révolution (...).

L'établissement juif sera (déjà) (difficile) à faire admettre aux musulmans dans une région aujourd'hui à désertique. Mais là, leur apport de capitaux et d'hommes peut représenter une telle fortune pour le pays que celui-ci (n'a) qu'à ...y gagner, ils ne heurteront pas immédiatement les intérêts, ils ne déposséderont personne»⁽⁴³⁾.

ويبقى الموقف حذراً من احتمالات توسع الصهيونية خارج حدود الانتداب البريطاني في فلسطين. وكان يعبر عن هذا الحذر كل مناسبة تبرز فيها مطامع الصهيونية في مصادر المياه، أو يشار فيها إلى فلسطين في حدودها التاريخية».

فعندما تقدمت مؤسسة Keren Kaymethe Léisrael (Fonds national juif

pour l'Achat des terres en Plestine الى المفوضية الفرنسية في سورية لتسهيل مهمة الجغرافي الصهيوني A.J.Brawer لوضع خريطة لفلسطين «بحدودها التاريخية» وفق التعبير الوارد في الطلب⁽⁴⁴⁾، يبادر ضابط الارتباط الفرنسي في القدس الذي تسلم الطلب، "Le commandant De Maurepas" الى لفت نظر المفوض السامي الفرنسي الى وجود مشاريع صهيونية لشراء اراض في جنوبي لبنان، بالاضافة الى احتمال استمالة المسيحيين اللبنانيين من اجل ذلك. يقول:

"J'ai signalé par ailleurs que l'achat des terres au Liban Sud, complété par une entente politique avec les chrétiens libanais, est un projet caressé avec persévérance par les chefs de l'organisation sioniste."⁽⁴⁵⁾

ويرسل القنصل الفرنسي في القدس رسالة ضابط الارتباط الى وزارة الخارجية مرفقة بطلب المؤسسة الصهيونية، مع كتاب يشير فيه الى ما يترتب على مثل هذا الطلب من نتائج سياسية بالنسبة للانتداب الفرنسي في سورية.

«فالطلب يفضح- كما يقول- مطامع زعماء الصهيونية في توسيع حقل نشاطهم الى ما يتعدى الحدود للأراضي الواقعة تحت الانتداب البريطاني، فوثيقة الطلب تشير الى ان قسما من فلسطين التاريخية موجود تحت الانتداب الفرنسي- وان هذا القسم يمتد بين حدود الانتدابين وخط دمشق - صيدا».

ويكمل كتابه مشيرا الى محاذير وضع خريطة من هذا النوع تشتمل على دمشق وصيدا، وتوضع تحت انظار المدارس العربية.

"Il n'est pas douteux que ces deux villes seront incluses dans la carte de la Palestine historique que le professeur Brawer va mettre sous les yeux des écoles hébraïques, créant ainsi pour les nouvelles générations juives, une sorte d'irrégentisme sioniste au delà de la frontière libano-palestinienne. (...).

ويذكر القنصل بالحاح الصهيونية يوم عقدت اللجنة الفرنسية- الانكليزية

لوضع الحدود في لندن «على ان تكون الحولة جزءا من الأرض الفلسطينية» ويشير الى تغلغل الصهيونية في جنوبي لبنان عبر محاولة شراء الأراضي ، مما يمكن ان يخلق متاعب وصعوبات للسلطات الفرنسية في سورية (٤٦).

استعرضنا خلال كل هذه الصفحات، الموقف الفرنسي من خلال النصوص الدبلوماسية وفي حدود المرحلة التي تيسر لنا الاطلاع على وثائقها من محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية حتى عام ١٩٢٩، ولم تتمكن بعد من الاطلاع على وثائق المرحلة اللاحقة التي لم توضع اوراقها في متناول الباحثين في وزارة الخارجية الفرنسية في باريس الا في غضون العام الماضي.

ومن خلال ما تقدم يمكن ان نخلص الى ان الموقف الفرنسي تأرجح في علاقته بالصهيونية قبل الحرب بين التعاطف مع حركة الهجرة اليهودية الى فلسطين بدافع التقليد الدبلوماسي الفرنسي الذي جرت عليه سياسة الحماية، والتركيز على الاقليات لاستمالتها وتحويلها الى مرتكزات للنفوذ الداخلي في مجتمعات الدولة العثمانية، وبين التخوف من المشروع الصهيوني الاستيطاني (انشاء دولة توسعية) الذي أثار مخاوف الرأسمالية الفرنسية التي كانت تطمح حتى ١٩١٩ بالسيطرة على « سورية كاملة» بما فيها فلسطين. وفي سياق الحرب والسنوات الأولى التي تلتها، تأرجح الموقف الفرنسي الرسمي بين الضغط الصهيوني والدولي الذي تصاعد بصورة خاصة في فترة انعقاد مؤتمر الصلح، وبين الضغط الفرنسي للرأي الكاثوليكي الذي كان يحرص على عدم وقوع الاماكن المقدسة تحت سيطرة الصهيونيين.

وبعد تنازل فرنسا عن اتفاقية تدويل فلسطين، وقبولها بالانتداب البريطاني عليها، استقر الموقف الفرنسي الرسمي على قبول وتأييد المشروع الصهيوني في فلسطين الذي دخل في صك الانتداب نفسه، ولكن مع استمرار الحذر من مخاطر توسع الصهيونية في داخل أراضي الانتداب الفرنسي في سورية... الا انه مع الحذر كانت الرساميل الصهيونية ومشاريعها في فلسطين تغري المفوضية الفرنسية في سورية لاجتذاب بعضها الى داخلية سورية، لا الى مناطق الحدود.

ولقد عبر وايزمن عن هذه المواقف في مذكراته بقوله: «ان الفرنسيين كانوا يعتبرون فلسطين كما يعتبرها العرب، جزءا متما لسوريا. وحين نال الانكليز الانتداب عليها أسف لذلك الفرنسيون أسف العرب.

« كذلك كان الفرنسيون يعتبرون أنفسهم ممثلي اوربا في شرق البحر الأبيض وحماة المسيحيين... (وكانوا) ينظرون الى سياسة الوطن القومي من وجهة نظر الكاثوليكية او يعتبرونها افتتاحاً على حقوقهم التقليدية في الشرق.

وعن مقابله للمفوض السامي الفرنسي A. Jaivenel ومشروع استيطان الجزيرة يقول: «وحين قابلته في بيروت لم يتورع عن ابداء رأيه فينا بصراحة. وقد قلت له انك يا سيدي لا حق لك بالكلام عن الصهيونية، وعن فلسطين الا اذ جئت الى فلسطين وشاهدت بنفسك. فقبل الدعوة. (...). ويتابع: «ولما جال دي جوفينل في فلسطين واعجب بأعمالنا العمرانية فيها. قال: ان سوريا هي الميدان الصحيح لكم فلماذا لا تأتون الى العمران فيها؟ ثم استدرك جوفينل فقال: وانا لا اريدكم ان تأتوا للعمل في حدود فلسطين لئلا تطالبوا، بالتوسع على حساب سوريا... وانما انا اطلب منكم ان تذهبوا للعمل في اراضي الجزيرة.. فهناك اراض ومياه.

ويبدو انه مع استمرار الخذر الفرنسي وتركيز الصهيونية آنذاك على فلسطين ومناطق الحدود فيها، طوى مشروع دي جوفينل كما يذكر وايزمن:

«ولما عدت الى باريس من بعد، تصادف ان قابلت هناك المسيو دي جوفينل فأعاد فكرة ذهاب اليهود لتعمير اراضي الجزيرة في سوريا وبلغ اهتمامه انه حاول اقناع المسيو ليون بيوم. ولكن جهود دي جوفينل ذهبت سدى عندنا»^(٧).

- ★ تم الاطلاع على بعض هذه الوثائق من خلال «ميكروفيلم» كنت قد طلبت تصويره عام ١٩٧٤ في وزارة الخارجية الفرنسية في باريس وتضمن مختارات من مجلدات أبواب: تركيا- المشرق، (سورية، لبنان، فلسطين). Turquie, Levant, Syrie, Liban, Palestine. كذلك تم الاطلاع على بعضها الآخر في مجلدات مصورة وضعت في متناول الباحثين في معهد الانماء العربي- فرع لبنان- بيروت.
- ١ - مراسلات قنصل فرنسا في بال الى وزارة الخارجية الفرنسية. Turquie, vol 136. حيث تستعرض فيها محاضر جلسات المؤتمرات الصهيونية دون تعليق رسمي من الجانب الفرنسي.
- ٢ - Extrait du journal "Le temps de Paris", du 8 déc. 1896. Turquie, vol 1897
- ٣ - Turquie, vol 136, Jerusalem, le 20 juillet 1898.
- ٤ - نفس المصدر.
- ٥ - Turquie, vol 137, Thérapia, le 24 septembre 1898. L'Ambassade de France à Constantinople au Ministère Impérial des Affaires Etrangères.
- ٦ - Turquie, vol, 136, Péra, le 25 Février 1901.
- ٧ - من تقرير قنصل فرنسا العام في القدس حول سكان فلسطين والملل وتنظيم أحياء القدس:
- ٨ - Turquie, vol 133 p. 43-44 Le Consul général de France à Jerusalem à son Excellence. Pichon Ministre des Affaires Etrangères (Jerusalem, le 23 nov. 1910.)
- ٩ - Turquie, vol 133, pp. 43-44.
- ١٠ - Turquie, vol 133, pp 43-44. من التقرير نفسه، القدس ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٠.
- ١١ - Turquie, vol 132, p 163-164. Le Consul général de France à Jerusalem au Ministre des Affaires Etrangères, Jerusalem, le 6 Aoû 1909.
- ١٢ - Projet d'une société agricole en Palestine, Le Caire, le 20 nov. 1908, signé = M.N. Shakour
- ١٣ - Turquie, vol 132; Turqui, Vol 132;
- ١٤ - 4- Cheranolrier de Valorome chargé d' Affaires de France, en Egypte, à M.S. Pichon, Ministre des Affaires Etrangères à Pars; Le Caire, Le 24 Nov 1908
- ١٤ - Turquie, vol 132, p. 173-174
- ١٥ - Le consul général de France à Jerusalem à son Exc .M. Pichon, Minstre des Affaires Etrangères. Paris. Jerusalem, le 30 nov. 1909.
- ١٥ - Turquie, vol 134; p 23-26. Jerusalem, le 25 janvier 1912.
- ١٦ - Vol 134, Turquie.
- ١٧ - Le Vice consul de France à Caiffa à son Exc .M. Poincaré, caiffa, le 21 novembre 1912. سنشير الى موقف غرفتي تجارة ليون ومرسيليا في سياق البحث.
- ١٨ - Turquie, vol 135. Le consul général de France à Jerusalem à son excellence M. le Ministre des Affaires Etrangères - Jerusalem, le 17 Juin 1913.
- ١٩ - Guerre 1914 - 1918, vol 1197, p. 115-118
- ٢٠ - Guerre, (1914 - 1918) , vol. 1197, p. 115 - 118.
- ٢١ - Mémoire de M. Slousch.
- ٢١ - Ibid, le 17 décembre 1915.
- ٢٢ - Guerre 1914 - 1918, vol 1199, p. 110-122.

Lachambre de commerce de Lyon à Monsieur le Ministre des Affaires Etrangères. Lyon le 7 Juin 1915.

ووردت في مذكرة غرفة تجارة مرسليليا ٢٦ تموز ١٩١٥، الصيغة التالية :

“Nous nous permettons d’insister de nouveau, en terminant sur ce point que la Syrie, que notre pays doit réclamer presque à l’égard d’un patrimoine, doit comprendre les quatres vilayets d’Adana, d’Alep, de Damas et de Beyrouth, le gouvernement général du Liban, le metussarifat de Jerusalem ou la Palestine, et celui de Zor. (...)”

De vagues projets ne faisant à la France qu’une part dérisoire nous font insister avec force sur le terme de **Syrie intégrale...**” Chambre de Commerce de Marseille, lettre à Monsieur le Ministre des Affaires Etrangères sur la question de la Syrie, le 26 juillet 1915.

Guerre 1914-1918 (Sionisme). vol 1199, p. 136-137.

- ٢٤ -

Guerre-Turquie, vol 875,

- ٢٥ -

Note pour Monsieur le Président du conseil. Paris, le 14 déc. 1916.

“Note participation à l’administartion de la Zone qui viendrait à être occupée par les troupes anglaise en Palestine, comporterait lenvoi d’un commissaire spécial. Le Commissaire anglais devant être Sir Mark Sikes, ... il sera tout naturel de confier le soin d’organiser avec Sir Mark Sykes l’administration commune, à M. François Georges Picot”. P. De Margeni, Paris, le 14 Déc-1916.

Guerre-Turquie: sionisme (1914-1918). vol 1199. p. 196-197

- ٢٦ -

Le caire, le 29 octobre 1917. M.A. Defrance, Ministre de France en Egypte, à son Excellence. M. Barthou, Ministre Etrangères.

Guerre 1914-1918, vol 1199, p. 79 le caire, le 6 Décembre 1917.

- ٢٧ -

راجع تقرير غرفة تجارة ليون عام ١٩١٨، وتقرير رئيس البعثة اليسوعية بشأن سورية والاعتراض على اتفاقية سايكس- بيكو. نشرنا هاتين الوثيقتين مترجمتين الى العربية في كتابنا، بلاد الشام: الاقتصاد، السكان، والسياسة الفرنسية، قراءة في الوثائق. معهد الانماء العربي (فرع لبنان). بيروت ١٩٨٠.

- ٢٨ -

Guerre 1914-1918, vol 1200, p.

- ٢٩ -

Paris 3 janvier 1918, signé: Asaphi.

Guerre 1914-1918, vol 1200, p. 219.

- ٣٠ -

extrait: “pro-Israil” 10 année, No 14; Salonique, le 22 Février 1918.

Levant 1918-1929: Palestine, vol 10, p. 148. Armeé d’orient, 2^o bureau, S.R. le 16 nov. 1918.

- ٣١ -

عادل اسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي، الجزء الخامس، بيروت ١٩٧٠-ص ٣٧.

- ٣٢ -

Levant, Palestine, 1918-1929. vol 12. p. 100 extrait de “La Palestine nouvelle”, le 27 janvier 1919.

- ٣٣ -

عادل اسماعيل، السياسة الدولية، ج ٥، ص ٢٨٩-٢٩٧ (نص صك الانتداب).

- ٣٤ -

راجع مذكرات غرفة تجارة ليون عام ١٩١٨.

- ٣٥ -

ورد في مقالة بعنوان: فرنسا والصهيونية، بقلم Remé Angenter، محفوظة في احدى ملفات

- ٣٦ -

الخارجية الفرنسية: فلسطين « رقم ٢٨ » ما يلي:

“La Palestine doit être replacée sous légide tutélaire de la France gardienne séculaire des droits des catholiques et dont la justice et la bienfaisance s’était concilié la soumission, le respect, et souvent

l'affection des diverses communautés chrétiennes, musulmanes et juives. S'il faut à l'Angleterre une route plus large entre l'Égypte et la Mésopotamie, nous pourrions très volontiers la voir incorporer au royaume d'Égypte les cazor musulmans de Gaza et de Hébron. Mais par respect pour l'histoire et pour l'honneur du nom français, que la "glorieuse bannière de France" ne soit pas chassée de Jerusalem, de Caïffa, de St. J. d'Acre de Jaffo, de Bethléem, de Nazareth...

Levant. Palestine, vol 28, Gouraud, télégramme, le 21 nov-1922.

-٣٧

Annexe I, vol 28.

-٣٨

ملحق برسالة الجنرال Weygand بشأن موضوع الرابطة الصهيونية في سورية».

-٣٩

Levant: Palestine. vol 28.

-٤٠

Le général Weygand, membre du Conseil supérieur de la Guerre Haut Commissaire de la République Française à son Excellence Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères. Aley le 8 juillet 1924.

Levant, Palestine, vol 28.

-٤١

Mr. Gaston Maugras, consul général de France en Palestine à son excellence M. Le Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères. Jerusalem le 29 juin 1925.

Levant, Palestine, vol 29 p. le 4 mai 1926.

-٤٢

Levant, Palestine, vol 29. p. 30-33.

-٤٣

M. Henri de Jouvenel, H.C. de la R.F. auprès des Etats de Syrie, du Grand-Liban, des Alaouites et du Djebel Druse, à son Ex. Aristide Briand, président du conseil Ministre des Affaires Etrangères. Beyrouth, le 27 Avril 1929.

Levant, Palestine, vol 29, p. 282.

نص الطلب في: -٤٤

Levant, Palestine, vol 29 p. 280-281.

-٤٥

راجع حول مساحة المناطق التي ضمت بسبب ضغط النشاط الصهيوني للانتداب الانكليزي في الاتفاقية البريطانية- الفرنسية عام ١٩٢٤: مسعود ضاهر، تاريخ لبنان الاجتماعي، بيروت ١٩٧٤، ص ٨٥-٨٦.

-٤٦

ايضا: سلام الراسي: لتلا تضييع- مؤسسة نوفل (بدون تاريخ) ص ٦٤-٦٦.

مذكرات وايزمن، بقلمه، ١٩٥٢، مترجم الى العربية. لا ذكر لمكان النشر- ص

-٤٧

.١١١-١٠٩

الحركة الوطنية الفلسطينية والرائخ الثالث ١٩٣٣-١٩٤٥

د. علي محافظة
الجامعة الأردنية

القصد من هذا البحث القاء الضوء على طبيعة العلاقة بين الحركة الوطنية العربية في فلسطين والرائخ الثالث، وتطور هذه العلاقة خلال السنوات الاثنتي عشر من الحكم النازي في المانيا. وقد اعتمدت بصورة كبيرة على الأرشيف السياسي في وزارة الخارجية في بون الذي يحتوي على معلومات غزيرة عن النشاط الالماني في المشرق العربي، وبخاصة عن الصلات بين قيادة الحركة الوطنية العربية الفلسطينية والحكومة الالمانية في الفترة التي هي موضوع دراستنا. وحرصت أيضاً على اعتماد المصادر العربية وبخاصة مذكرات القادة العرب الذين أقاموا صلات مع الالمان أو لجأوا إلى المانيا أثناء الحرب العالمية الأخيرة.

نمو الحركة الوطنية العربية في فلسطين :

تبلورت الحركة الوطنية العربية في فلسطين في أعقاب الحرب العالمية الأولى بانعقاد المؤتمرات العربية الفلسطينية التي دعت إليها الجمعيات الاسلامية المسيحية التي تشكلت في المدن الرئيسية في البلاد للرد على الحركة الصهيونية المتنامية وعلى الاحتلال البريطاني الذي كان يرعاها ويحميها. وانهقد أول هذه المؤتمرات بين ٢٧ كانون الثاني و ١٠ شباط عام ١٩١٩، فأكد على اعتبار فلسطين جزءاً من سورية العربية، وعلى تحريرها من كافة أنواع النفوذ والحماية الأجنبية، وعلى رفض كل وعد أو معاهدة بين الدول الأجنبية تتعلق بفلسطين^(١). وكررت المؤتمرات الثالث (حيفا ١٣-١٩ كانون الأول ١٩٢٠)^(٢)، والرابع (القدس ٢٩ أيار/ ٤

حزيران / ١٩٢٠)^(٣)، والخامس (نابلس ٢٢ آب ١٩٢٢)^(٤)، والسادس (يافا ١٦-٢٠ حزيران ١٩٢٣)^(٥)، والسابع (القدس حزيران ١٩٢٨)^(٦)، التأكيد على المطالب الأساسية التالية:

- اذانة السياسة الصهيونية التي تنطوي على اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين المبنية على تصريح بلفور.
- رفض مبدأ الهجرة اليهودية إلى البلاد.
- اقامة حكومة تمثيلية وطنية في البلاد.

وأسفر كل مؤتمر من هذه المؤتمرات عن انتخاب لجنة تنفيذية تتولى تنفيذ قراراته. وتألقت هذه اللجان، التي كانت بمثابة قيادة عامة للحركة الوطنية العربية في فلسطين، من الزعماء الاقطاعيين وأعيان المدن (طبقة الأفندية)، الذين حرصوا على اقامة علاقات ودية مع السلطات البريطانية المنتدبة. وما لبثت هذه القيادة أن ابتعدت تدريجياً عن قواعدها الشعبية من الفلاحين والحرفيين والعمال في المدن، حتى ذهبت هذه الأخيرة إلى تشكيل العصابات المسلحة في الريف وتولي مهمة مقارعة سلطات الانتداب البريطاني والوجود الصهيوني في البلاد، في معزل عن تلك القيادة السياسية. وكانت اولى تلك العصابات عصابة «الكف الأخضر» بقيادة أحمد طافش، التي نشطت في منطقة الجليل بين تشرين الأول عام ١٩٢٩ وشباط عام ١٩٣٠^(٧). وشهد مطلع الثلاثينات من هذا القرن قيام جمعيات الشباب التي تمرتد على القيادة السياسية التقليدية. وكان أولها «جمعية الشباب العرب» التي أدانت قيادة الأعيان واتهمتها بالتخاذل والعجز عن انقاذ عرب وادي الحوارث، والتنازل عن جزء من أرض الوطن للعدو الصهيوني^(٨). ومنها «جمعية مؤتمر نابلس» التي تشكلت في آب ١٩٣١ في أعقاب اجتماع للجمعية الاسلامية - المسيحية في المدينة، وأطلقت على نفسها «الجمعية العربية الوطنية» وتولى رئاستها فهمي العبوشي كما تولى أعمال السكرتارية كامل الدجاني وأكرم زعيتير. وطالبت هذه الجمعية بتسليح العرب رداً على تسليح السلطات البريطانية لليهود^(٩). وعقد المؤتمر الأول للشباب العرب في يافا في ٤ كانون الثاني عام

١٩٣٢ ، وأصبح ينعقد بصورة دورية كل عام^(١٠). كما تشكل حزب الاستقلال العربي في أيلول ١٩٣٢ ، بعد أن يئس الشباب العربي الفلسطيني من جدوى العمل في نطاق اللجنة التنفيذية العربية، وبخاصة بعد ممانعة الحاج أمين الحسيني ، رئيس المجلس الشرعي الاسلامي الأعلى في فلسطين، في انتهاج سياسة صريحة معادية للانجليز^(١١). وأكد الحزب الجديد على البعد القومي للقضية الفلسطينية فنص قانونه على استقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً وعلى أن هذه البلاد وحدة تامة لا تقبل التجزئة، وأن فلسطين بلاد عربية، وهي جزء طبيعي من سورية (المادة ٣ أ، ب، ج)^(١٢).

النازيون والهجرة اليهودية إلى فلسطين :

في الفترة التي بدأت تأخذ الحركة الوطنية العربية في فلسطين اتجاهاً متصلباً في مقاومة الانتداب البريطاني والنشاط الصهيوني في البلاد، وشرعت العناصر العربية الشابة في التحرك لأخذ زمام القيادة من اللجنة التنفيذية العربية، حدثت تطورات سياسية مهمة في المانيا. إذ وصل حزب العمال الوطني الاشتراكي الالمانى (N.S.D.A.P.) ويطلق عليه اختصاراً (الحزب النازي) إلى الحكم، وتولى زعيمه أدولف هتلر (Adolf Hitler) منصب المستشارية في ٣٠ كانون الثاني عام ١٩٣٣^(١٣). وعرف عن هتلر وحزبه منذ بداية تكوينه عداوة السافر لليهود واليهودية. فقد جاء في مذكرة له مؤرخه في ١٦ أيلول ١٩١٩ : «اللاسامية العاطفية تنتهي دوماً بالمجازر. أما اللاسامية المعقولة فينبغي أن تؤدي إلى كفاح منظم ومحدد بالقانون ضد الامتيازات التي يتمتع بها اليهودي والتي تميزه عن غيره من الأجانب الذين يعيشون بيننا. يجب أن يكون الهدف النهائي للاسامية المعقولة طرد جميع اليهود من المانيا»^(١٤).

وأصبح شعار النازيين منذئذ: المانيا للالمان وفلسطين لليهود. كتب هتلر في ١٧ أيلول ١٩٢١ يقول: «ليس لدينا ما نقوله لليهود أو نبحثه معهم لأنه، بصفتهم أجنب، لا حق لهم في التدخل في شؤوننا، كما أنه ليس من حق أي

الماني أن يهتم بسياسة الدولة اليهودية في فلسطين»^(١٥). لقد سلم الحزب النازي وزعيمه بالدعوة الصهيونية الرامية إلى تحويل فلسطين وطناً قومياً لليهود العالم، وأنكر وجود شعب عربي في فلسطين له حق الحياة في أرضه التي يعيش عليها منذ مئات السنين. وكان همهما الوحيد التخلص من اليهود الالمان. وبقي الحزب النازي على هذه الأفكار حتى قيام الثورة الفلسطينية الكبرى عام ١٩٣٦.

وشرع هتلر منذ وصوله إلى الحكم بسن التشريعات والأنظمة لمكافحة اليهود في المانيا واکراههم على مغادرة البلاد. فأصدر في ٧ نيسان ١٩٣٣ قانون العودة إلى الوظيفة العامة (Gesetz Zur Wiederstellung des Berufsbeamtentums) بهدف تطهير أجهزة الدولة من العناصر غير المرغوب فيها من غير الآريين. وفي اليوم نفسه صدر نظام في ٢٢ نيسان من العام نفسه لا يعترف بالأطباء غير الآريين لدى شركات التأمين الطبي. وبعد ذلك بثلاثة أيام صدرت تعليمات تحدد عدد التلاميذ والطلبة اليهود في المدارس الثانوية والجامعات الالمانية وفق نسبة عدد اليهود في المانيا.^(١٦) ومنذ بداية نيسان بدأت المقاطعة الالمانية للمتاجر اليهودية.

جاء الرد اليهودي على هذه التدابير في الصحيفة الصهيونية الالمانية (Judische Rundschau) في ٤ نيسان ١٩٣٣: «احملوا باعتزاز النجمة الصفراء». وشتت الحركة الصهيونية في العالم حملة عنيفة على المانيا. وبدأت مقاطعة البضائع والمنتجات الالمانية. وتشكل في لندن مجلس المقاطعة اليهودي (Jewish Boycott Council) وامتدت المقاطعة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتولى الدعوة إليها المحامي صموئيل أونترماير (Samuel Untermyer)^(١٧).

أما في فلسطين فكانت ردة الفعل الصهيونية مختلفة تماماً. ذلك أن اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية أوفدت حاييم أربولوسوروف (Chaim Arlosoroff)، رئيس المكتب السياسي في الوكالة اليهودية، إلى المانيا لدراسة الوضع، فاتصل بأقطاب الصهيونية الالمان، وتم الاتفاق على أن الحل الوحيد لمشكلة اليهود الالمان هو تنظيم هجرتهم إلى فلسطين وفق برنامج محدد ومتفق عليه مع الحكومة الالمانية بحيث تشارك المانيا في تمويل هذا المشروع. وقد ردد هذا الرأي آرثر روبين (Arthur

(Ruppin) في المؤتمر الصهيوني الذي عقد في براغ في آب ١٩٣٣ . كما أكده وحث عليه قنصل المانيا العام في القدس الهرهاينرش فولف (Heinrich Wolff) في رسائله العديدة إلى وزارة الخارجية الألمانية^(١٨) . وكان هذا الحل مثالياً بالنسبة إلى ألمانيا النازية الراغبة في التخلص من اليهود الالمان بأي ثمن .

غير أن الأغنياء من اليهود الالمان لم يرغبوا في الهجرة والتخلي عن ممتلكاتهم ، ولم تكن الحكومة الألمانية تحبذ هجرة هؤلاء ونقل ممتلكاتهم معهم لأسباب اقتصادية صرفة . لذلك بحث القيادة الصهيونية عن حل للمشكلة . وكلفت سام كوهين (Sam Cohen) مدير شركة الاستيطان هعنوتيا (Ha'notea) بالتباحث مع السلطات الألمانية والتوصل إلى اتفاق يضمن هجرة اليهود الالمان إلى فلسطين .

وفي نيسان ١٩٣٣ التقى سام كوهين بالقنصل الالمانى في القدس فولف واقترح عليه أن تستورد شركته من ألمانيا التجهيزات الزراعية ومواد البناء التي اعتادت أن تستوردها من تشيكوسلوفاكيا . وعرض عليه أيضاً أن تدفع ثمن هذه المواد المستوردة من أموال اليهود الالمان الراغبين في الهجرة إلى فلسطين والمحظور عليهم تحويلها إلى الخارج . وعندما يصل هؤلاء المهاجرون إلى فلسطين يقبضون ما دفعوه في حساب مقفل (Compte bloqué) في برلين بالجنية الفلسطيني . وبهذه التسوية لا تخسر المانيا عمله صعبة ، كما لا يخسر المهاجرون اليهود منها إلى فلسطين أموالهم . وبعث القنصل الالمانى إلى وزارة الخارجية في برلين يزين لها المكاسب التي تجنيها المانيا في حالة ابرام اتفاق من هذا القبيل .

وجاءت المبادرة من طرف المؤسسات الاقتصادية اليهودية الخاصة في أيار ١٩٣٣ ، وتولت شركة هعنوتيا لزراعة الحمضيات التفاوض مع وزارة الاقتصاد الألمانية . وتم الاتفاق على شراء بضائع المانية من أموال اليهود الراغبين في الهجرة إلى فلسطين بحيث توضع هذه الأموال التي قدرت عند ابرام الاتفاقية بمليون رايخ مارك في حساب توفير خاص لشركة هعنوتيا يخصص لتأمين معيشة هؤلاء المهاجرين في فلسطين . وتعهدت شركة هعنوتيا بأن توفر لكل مهاجر بيتاً وعملاً في بيارات البرتقال . وأبرمت هذه الشركة اتفاقاً آخر مع وزارة الاقتصاد الألمانية بثلاثة ملايين رايخ مارك .

وقام جورج لانداور (Georg Landauer) من ادارة الرابطة الصهيونية في المانيا (Zionistische Vereinigung fuer Deutschland) بالتفاوض مع المسؤولين في وزارة الاقتصاد الالمانية بحضور سام كوهين ممثل شركة هعنوتيا. واتفق على انشاء مركزي مقاصة (Clearing Stellen) أحدهما في المانيا لاستلام الأموال اليهودية بالرايخ مارك من اليهود المهاجرين والآخر في فلسطين لدفع ثمن البضائع المصدرة من المانيا ومحاسبة المهاجرين على الأموال التي دفعوها. واتفق على إصدار ترخيص من وزارة الاقتصاد الالمانية بتحويل خمسة ملايين مارك قيمة العقد الأول في ٢٨ آب ١٩٣٣. وبموجب هذا الاتفاق حل البنك الأنجلو - فلسطيني (The Anglo- Palestine Bank) التابع للوكالة اليهودية، محل شركة هعنوتيا وأصبح المصرف التجاري المعتمد في فلسطين^(١٩). وعرفت هذه الاتفاقية باتفاقية التحويل هعفرارا (Havara Transfer).

ولما كانت معظم تجارة الاستيراد من المانيا في الأقطار العربية المجاورة لفلسطين في أيدي اليهود: فقد أقامت هعفرارا مكاتب لها في بغداد ودمشق والقاهرة تحت اسم شركة (Near and Middle East Commercial Company) التي اعتمدت بصورة أساسية على بنك زلخا (Zilkha Bank) اليهودي في بيروت. وأخذت تعيد تصدير البضائع الالمانية التي تستوردها إلى البلاد العربية المجاورة فتتقاضى ثمنها عملة صعبة من الأسواق العربية. وبذلك ساهمت الأموال العربية، بصورة غير مباشرة، في تهجير اليهود الالمان إلى فلسطين^(٢٠).

كان لاتفاقية هعفرارا: نتائج مهمة على الوضع اليهودي في فلسطين. فقد استطاع اليهود الالمان المهاجرون إلى فلسطين انشاء شركات عديدة بما حوله من أموال مثل شركة (Naaman) في حيفا التي كانت تزود البلاد بالفحم، وشركة البواخر (Atid) ومعمل الأقمشة (Lodzia) في تل أبيب. كما ساهمت الأموال المحولة من المانيا في تأمين القروض الطويلة الأمد للمشروعات الاقتصادية الصهيونية في البلاد. وبلغ مجموع ما حول من أموال اليهود الالمان إلى فلسطين بموجب هذه الاتفاقية بين عامين ١٩٣٣ و ١٩٣٩ (١١١ر٦٨٠٥٦٩ر١٣٩) ماركا المانيا أو ما يعادل ٨١٠١٤٩١ جنيهاً فلسطينياً^(٢١). وبلغ عدد المهاجرين من اليهود الالمان بموجب هذه الاتفاقية في الفترة نفسها ٥٢٤٦٣ يهودياً. وكان هؤلاء يشكلون ٢٧٪ من مجموع اليهود المهاجرين إلى فلسطين في الفترة نفسها^(٢٢).

وأدى اندلاع الحرب العالمية الثانية في أيلول ١٩٣٩ إلى قطع العلاقات بين ألمانيا وفلسطين بصفتها بلداً تحت الانتداب البريطاني . فتوقفت المبادلات التجارية والمالية بين البلدين . غير أن السلطات الألمانية أبدت ميلاً نحو الاستمرار في اتفاقية هعفاراً، وتحقق لها ذلك بصورة سرية واستمر العمل بها حتى آذار ١٩٤٠ (٢٣).

ألمانيا وثورة فلسطين الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩ :

أثار وصول الحزب النازي بزعامة ادولف هتلر إلى الحكم في ألمانيا اهتمام الحركات السياسية في المشرق العربي . فقد رأت في القوة الألمانية الجديدة حليفاً محتملاً يمكن الاعتماد عليه في نضالها الوطني من أجل الحرية والاستقلال والوحدة . ورأى بعضها في النموذج الألماني الجديد مثلاً يحتذى . وتشكلت منظمات شبه عسكرية من الشباب في مدن المشرق العربي، مثل (منظمة القمصان الحديدية) (والحرس الوطني في دمشق) (والكشافة في حلب) (والشباب العربي في حمص) (والشباب الوطني في حماه) (والنجادة والوحدات اللبنانية والكتائب في لبنان) (والفتوة في العراق) والحزب القومي السوري في لبنان وسورية وفلسطين (٢٤). وتألفت في فلسطين فرق كشفية ونواد أدبية في المدارس التابعة للمجلس الشرعي الإسلامي الأعلى وبعض المعاهد الوطنية لغرض تنظيم الشباب وتهيئته وطنياً . فشكل الحاج أمين الحسيني منظمة «الجوال المسلم» التي ضمت في صفوفها ما يزيد عن ألف شاب (٢٥). وكانت المنظمات النازية مثلاً يحتذى لدى منظمات الشبيبة العربية في فلسطين . ففي الاجتماع الذي عقد في القدس في ١١ شباط ١٩٣٦ ألقى أيوب مسلم خطاباً أشار فيه إلى دور منظمة الشباب الهتلرية في وصول هتلر إلى الحكم وفي اكراه فرنسا على الانسحاب من المناطق الصناعية الألمانية (منطقة الرور Ruhr Gebiete) واتخذ المؤتمر شعاراً: «الحرية حقي والاستقلال غايتي، والعروبة مبدئي، وفلسطين موطني وموطني وحدي» (٢٦). غير أن هذا الاعجاب العربي بالتنظيم العسكري الألماني للشباب لم يرافقه قناعات فكرية بالعنصرية النازية، كما يحلو لكثير من الكتاب والمؤرخين المغرضين أن يؤكدوه .

وقبل أن يصل الحزب النازي إلى السلطة بخمس سنوات قامت مجموعة من الطلبة العرب في المانيا بمقابلة أدولف هتلر في ميونخ واقترحت عليه إنشاء رابطة للشعوب المضطهدة لمقاومة الدول الإستعمارية وبخاصة إنجلترا وفرنسا . وكان القصد من هذه المحاولة كسب المساندة الالمانية في نضال العرب القومي من أجل تحرير بلادهم من الهيمنة الأنكلو- فرنسية . غير أن هذا الاقتراح لم يلق استجابة لدى الزعيم النازي . فقد زعم أن يديه مغلولتان وأنه عاجز عن تلبية هذا المطلب . والواقع أن رفض هتلر لمطالب الطلبة العرب يعود إلى نظرتة العرقية نحو العرب وإلى كون المقترحات العربية لا تتفق والسياسة الواقعية (Real Politik) التي تبناها الحزب نحو بريطانيا وفرنسا^(٢٧) .

والواقع أن موقف هتلر بعد وصوله إلى الحكم لم يتغير حتى قيام ثورة فلسطين الكبرى عام ١٩٣٦ . ففي لقاء تم بين القنصل الالمانى هاينرش فولف والحاج أمين الحسيني في موسم النبي موسى في نيسان ١٩٣٣ أعرب المفتي عن رغبته في ايقاف تهجير اليهود الالمان إلى فلسطين ، وأكد الزعيم الهندي شوكت علي الذي كان يرافق المفتي عن مشاركته لعرب فلسطين في هذه الرغبة^(٢٨) . غير أن مطلب المفتي ذهب مع الريح لأن المانيا لم تدخل العرب في حساباتها آنذاك .

وحصل تطور مهم في نفوس العرب بعد غزو ايطاليا للحبشة عام ١٩٣٥ . إذ افتضح عجز عصبة الامم وقصور بريطانيا عن حمايتها للحبشة . وبدأ بعض العرب يعتقد أن الوقت مناسب للتحرك ضد بريطانيا والتخلص من انتدابها ، وانتعشت الآمال لدى عرب فلسطين بعد أن استعادت المانيا منطقة الراين في ٧ آذار ١٩٣٦^(٢٩) . واعتقد بعض العرب أيضاً أن الحرب بين الدول الاوروبية قادمة لا محالة ، وأنها قد تكون الفرصة المناسبة لتحقيق أهدافهم الوطنية في التحرر والاستقلال . وكان تزايد أعداد المهاجرين اليهود إلى فلسطين بعشرات الآلاف وتعمت بريطانيا في رفض الاستجابة لمطالب العرب التي تحددت في ايقاف الهجرة اليهودية ، ومنع بيع الأراضي الأميرية والخاصة ، وقيام حكومة وطنية تمثيلية ، من الأسباب التي حركت الجماهير العربية في فلسطين وقياداتها الشابة المتمردة على القيادات الاقطاعية التقليدية وعلان الثورة .

وبينما كانت ثورة فلسطين مشتعلة عام ١٩٣٦، كان هتلر يغازل بريطانيا، سعياً إلى كسب ودها ورضاهها عن تنفيذ مخططاته في أوروبا. وأبدى هتلر رغبته في مقابلة لويد جورج (Lloyd-George)، فتم له ذلك في بيرغهوف (Berghof) في آب ١٩٣٦. وتلقى هتلر بريطانيا في خطابه في الريخستاغ (Reichstag) (مجلس الأمة الألمانية) مؤكداً أن عهد المفاجآت قد ولى ولن يعود. وفي شباط ١٩٣٧ أبلغ فون ريبنتروب (Von Ribbentrop) مستشار هتلر الموثوق وسفيره في لندن، اللورد هاليفاكس (Lord Halifax) وزير خارجية بريطانيا، رغبة هتلر في التفاهم الألماني - البريطاني^(٣٠). وكان القصد من هذه المساعي الحصول على وعد من بريطانيا باطلاق يد هتلر في المناطق التي يعتبرها ضمن المجال الحيوي الألماني في أوروبا الوسطى والشرقية. وكان هتلر يدرك مدى حساسية بريطانيا في كل ما يتعلق بالوضع في حوض البحر الأبيض المتوسط، كما كان يعتقد أن تقديم أي عون مادي أو معنوي لعرب فلسطين سوف يؤدي إلى توتر في العلاقات الألمانية - البريطانية.

وعلى الرغم من هذا الموقف الحذر الذي وقفته ألمانيا من ثورة عرب فلسطين شنت الصحف اليهودية حملة على الحكومة الألمانية واتهمتها بتقديم العون المالي لعرب فلسطين وتزويدهم بالسلاح. وتناقلت الصحف الأوروبية هذه الاتهامات وروجتها على نطاق واسع^(٣١).

والواقع أن أول لقاء تم بين اللجنة العربية العليا التي تولت قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية منذ اعلان الاضراب العام في البلاد في نيسان ١٩٣٦ والسلطات الألمانية كان في بداية كانون الثاني عام ١٩٣٧. إذ قابل الأمين العام للجنة المذكورة محمد عزة دروزة يرافقه معين الماضي الوزير المفوض الألماني في بغداد فريتس غروبا (Fritz Grobba) وأوضحا له أن استمرار الهجرة إلى فلسطين سيجعل اليهود الأكثرية في البلاد في مدى السنوات الخمس التالية، وبذلك يتمكنون من بناء الدولة اليهودية. وأن الرد على هذا الاحتمال هو قيام دولة عربية في فلسطين صديقة لألمانيا. وأكد الزعيمان الفلسطينيان على أن انتصار العرب سيكون لصالح

المانيا^(٣٢). ورد غروباً على هذه المطالب بأن الجهات الألمانية المختصة تدرس مسألة الهجرة اليهودية من ألمانيا وإنما سوف تبلغه بقراراتها بهذا الصدد. أما بالنسبة إلى العون الذي يمكن أن تقدمه ألمانيا للحركة العربية في فلسطين فلن يتجاوز التعاطف المعنوي معها^(٣٣).

غير أن هذا الموقف المتحفظ جداً من الثورة الفلسطينية أثار قلق القنصل الألماني في القدس الهر «دوله» (Doehle) الذي بعث بتقرير إلى وزارة الخارجية الألمانية يؤكد فيه أن تطور الحالة الداخلية في فلسطين يقتضي إعادة النظر في السياسة الألمانية. وبين القنصل الألماني أن اتفاقية هعفار التي أبرمتها الحكومة الألمانية مع الوكالة اليهودية نظمت هجرة اليهود الألمان إلى البلاد، وسهلت لهم تحويل أموالهم ووضعت احتكار استيراد المنتجات الألمانية في أيدي الوكالة اليهودية. وبذلك حالت ألمانيا بهذه الاتفاقية، دون منح العرب امكانية استيراد المنتجات الألمانية خارج نطاق احتكار هعفار. وحذر القنصل الألماني حكومته من مغبة سياستها التي تعرضها لخطر انضمام العرب إلى صفوف اعدائها. وأكد أن قيام وطن قومي لليهود في فلسطين سيجعل حياة العرب والأقلية الألمانية صعبة جداً. واقترح «دوله» على حكومته إيقاف الهجرة اليهودية من ألمانيا، والحفاظ على عواطف الود التي يكنها العرب نحو ألمانيا الجديدة وزعيمها باللجوء إلى ما يلي:

- قيام تعاون ثقافي ألماني - عربي بقبول اعداد من الطلبة العرب في المعاهد العليا الألمانية.
- تنمية التعاون الصحفي بين الصحف العربية والصحف الألمانية^(٣٤).

وساهم التعاطف الشعبي العربي مع الثورة الفلسطينية والذي تجسّد بقيام مظاهرات التأييد للثورة في العواصم والمدن العربية، وادانة بريطانيا واستنكار سياستها من قبل كافة الأوساط الوطنية العربية، في دفع ألمانيا إلى إعادة النظر في سياستها نحو فلسطين.

أصدر وزير الخارجية الألماني فون نويرات (Von Neurath) تعميماً إلى السفارة

الالمانية في لندن والقنصلية الالمانية في القدس والمفوضة الالمانية في لندن والمفوضة الالمانية في بغداد في الأول من حزيران عام ١٩٣٧ يحدد معالم السياسة الجديدة :

١ - ليس في صالح المانيا قيام دولة يهودية أو كيان سياسي يهودي في فلسطين تحت الانتداب البريطاني، ما دامت أية دولة في فلسطين عاجزة عن استيعاب يهود العالم. ولكنها ستقيم مركز قوة جديد لليهودية العالمية في ظل القانون الدولي بشكل يشبه دولة الفاتيكان بالنسبة إلى الكاثوليكية السياسية أو موسكو بالنسبة إلى الكومنترن.

٢ - إن مصلحة المانيا تقتضي جعل اليهود متفرقين - وحين لا يوجد على الأرض الالمانية أي فرد من الجنس اليهودي، لن تحل المسألة اليهودية بالنسبة إلى المانيا. لقد دلت تطورات السنوات الأخيرة أن اليهودية العالمية ستكون دائماً وبالضرورة العدو الأيديولوجي، وبالتالي العدو السياسي لالمانيا الوطنية الاشتراكية. ولهذا فإن المسألة اليهودية هي في الوقت نفسه احدى المشكلات شديدة الأهمية بالنسبة إلى سياسة المانيا الخارجية. ولهذا فإن لالمانيا مصلحة في تقوية العالم العربي، وذلك لموازنة احتمال ازدياد سطوة اليهودية العالمية.

٣ - ليس من المتوقع أن يؤثر التدخل الالمانى المباشر بصورة جذرية على تطور المسألة الفلسطينية. ومن الأفضل أن لا ندع الحكومات الأجنبية المعنية لا تعرف شيئاً عن موقفنا.

وجاء في التعميم الموجه إلى السفير الالمانى في لندن اضافة تبين إهتمام الحكومة الالمانية بما يجري في فلسطين من تطورات وأنها لا ترحب بقيام كيان سياسي يهودي فيها، وأنها لا «تعتقد أن اقامة دولة يهودية في فلسطين سيساند الجهد المبذول لتهدئة الموقف الدولي».

أما الاضافة إلى التعميم الموجه إلى الوزير المفوض في بغداد فقد جاء فيها:

« ينبغي التعبير بشكل أوضح من ذي قبل عن تفهم المانيا لأمانى العرب القومية، ولكن دون الادلاء بأية وعود محددة»^(٣٥).

كان من المنطقي أن يتلو هذا الاتجاه الجديد في السياسة الالمانية نحو فلسطين اعادة النظر في اتفاقية هعفار. وبدأت محاولات في هذا الصدد اشتركت فيها وزارة الخارجية الالمانية ووزارة الداخلية ومركز الراج للتخطيط الاقتصادي وبنك الراج ووزارة الاقتصاد وادارات الحزب الوطني الاشتراكي. واستمرت المشاورات طوال عام ١٩٣٧ دون أن تسفر عن أي تغيير في هجرة اليهود الالمان إلى فلسطين أو عن أي تبديل في نصوص اتفاقية هعفار^(٣٦).

وحرصت المانيا على أن لا تتخذ موقفاً واضحاً مؤيداً للعرب. فبعد صدور توصيات اللجنة الملكية البريطانية (لجنة بيل Peel Commission) باسبوع (أي في ١٥ تموز ١٩٣٧) قابل المفتي أمين الحسيني، رئيس اللجنة العربية العليا، القنصل الالمانى في القدس الهر دوله (Doehle)، وأبلغه معارضة عرب فلسطين والعالمين العربي والاسلامي لتقسيم فلسطين، وأعرب عن أمله في أن يحصل عرب فلسطين على مساندة المانيا لنضالهم. وطلب من القنصل تحديداً للموقف الالمانى الرسمي من تقسيم فلسطين وقيام دولة يهودية فيها، واعلان هذا الموقف بوسائل الاعلام الالمانية. كما أعرب المفتي عن رغبته في ارسال شخص موثوق به بصورة سرية إلى المانيا للتباحث في المصالح الالمانية - العربية الاسلامية^(٣٧).

درست وزارة الخارجية الالمانية مطالب المفتي وقدم فون هنتغ (Von Hentig) رئيس الدائرة السياسية مذكرة إلى سكرتير الدولة فون فايتسزيكر (Von Weizsaecker) أشار فيها إلى تناقض المواقف العربية من التقسيم، وأكد أن لا وجود للعالم الاسلامي كقوة سياسية ضاغطة، وأن القوة الدولية الحقيقية هي قوة اليهود، وبناء على هذه المذكرة جاء الرد على مطالب المفتي سلبياً وموجزاً. «زيارة الرجل الموثوق لا جدوى منها ما دام موقف الدول العربية غير موحد»^(٣٨).

هذا وقابل زعيمان فلسطينيان من اللجنة العربية العليا هما عوني عبد الهادي

ومعين الماضي الوزير المفوض الالماني في بغداد فريتس غروبيا وحثاه على ضرورة اهتمام حكومته بالمسألة الفلسطينية ودعم عرب فلسطين . وأبدى عوني عبد الهادي رغبته في زيارة برلين فوراً^(٣٩) .

واستدعى رئيس وزراء العراق ، حكمت سليمان ، الوزير المفوض الالماني في بغداد في ١٧ تموز ١٩٣٧ وطلب منه أن تبذل حكومته مساعيها في أوساط عصبة الامم لمقاومة تقسيم فلسطين واقامة دولة يهودية فيها ، كما طلب منه أن يصدر تصريح علني من احدى الشخصيات الالمانية المسؤولة ضد مشروع الدولة اليهودية^(٤٠) . وطلب القائد العام للجيش العراقي من الهر غروبيا في ٢٠ تموز ١٩٣٧ أن يتعاون القنصل الالماني العام في جنيف مع المندوب العراقي من أجل التأثير على لجنة الانتدابات الدائمة ومجلس عصبة الامم لتأييد وجهة النظر العربية^(٤١) . وجاء الرد الالماني مخيباً لآمال العرب : « أن عدم توحيد الموقف العربي يجعل من المتعذر اصدار تصريح مؤيد للعرب من شخصية المانية مسؤولة . أما بشأن تعاون قنصلنا مع المندوب العراقي في جنيف فنحن لا نعارض في ذلك »^(٤٢) .

ولما طلب بعض الوطنيين السوريين من القنصل الالماني في بيروت الهر زايلر (Seiler) في مطلع أيلول ١٩٣٧ شراء أسلحة وذخيرة المانية لدعم الكفاح المسلح في فلسطين ، مقابل دفع ثمنها بالعملة الصعبة ، رحبت السلطات الالمانية بهذه الصفقة شريطة أن تتم مع شركة المانية تحدد لهذا الغرض^(٤٣) .

وعاد المفتي أمين الحسيني يلح على القنصل الالماني في القدس لارسال موفد شخصي منه إلى برلين ، ويطلب أن تهاجم الصحف الالمانية تقسيم فلسطين وقيام دولة يهودية فيها ، وأن تمارس المانيا نفوذها لدى الحكومة البولندية لتغير من موقفها المعادي للعرب (وبخاصة موقفها في عصبة الامم)^(٤٤) . استجابت الحكومة الالمانية للمطلب الأول . واخذت الصحف الالمانية تشن هجوماً على توصيات اللجنة الملكية (لجنة بيل) ، فكان ذلك سبباً في احتجاج القائم بالأعمال البريطاني في برلين على هذه الحملة الاعلامية في ٢٦ تشرين الأول ١٩٣٧^(٤٥) .

وكان أمين الحسيني قد تعرض لملاحقة السلطات البريطانية، وفي تموز ١٩٣٧ أُلقت هذه السلطات القبض على عدد من أعضاء اللجنة العربية العليا وفتهم إلى جزر سيشل. أما المفتي فقد أفلت من أيديها ولجأ إلى المسجد الأقصى. وبقي محتباً حوالي أربعة أشهر تمكن بعدها من الهرب واللجؤ إلى لبنان^(٦). ومن لبنان أوفد المفتي الدكتور سعيد عبد الفتاح الامام، رئيس النادي العربي بدمشق، واحد خريجي الجامعات الالمانية إلى برلين في تشرين الثاني ١٩٣٧ حاملاً معه مشروع تعاون اعلامي بين السلطات الالمانية المختصة من جهة وبين مفتي القدس أمين الحسيني رئيس اللجنة العربية العليا، والمجلس الاداري للمكتب الوطني العربي للدعاية والارشاد العام، ومجلس ادارة النادي العربي في دمشق من جهة أخرى. ويتضمن مشروع الاتفاق تنفيذ البرنامج التالي:

- ١ - تعضد المانيا العرب أيديولوجيا بالتعبير عن التعاطف مع حركة الاستقلال العربية في الأوساط المحلية والدولية في كل فرصة سانحة، ومادياً عن طريق تزويد حركة الاستقلال العربية بالمال، وتجهيز كافة مراكز الدعاية التي يكونها الفريق العربي.
- ٢ - يدعم العرب المانيا في المجالات التالية:
 - تنمية التجارة الالمانية في العالم العربي الاسلامي.
 - تهيئة المناخ الودي المتعاطف مع المانيا.
 - نشر الأفكار الوطنية الاشتراكية (النازية) في العالم العربي الاسلامي.
 - مكافحة الشيوعية التي تنتشر تدريجياً بكل الوسائل الممكنة.
 - مقاطعة البضائع اليهودية.
 - الاستمرار بأعمال العنف في كافة المستعمرات الفرنسية والمناطق الواقعة تحت الانتداب الفرنسي والتي يقطنها عرب أو مسلمون.
 - مكافحة اقامة دولة يهودية في فلسطين بكل الوسائل الممكنة.
 - نشر الثقافة الالمانية في الأقطار العربية الاسلامية.
 - تشجيع استثمار رؤوس الأموال الالمانية^(٧).

غير أن هذا المشروع لم يحظ بالتأييد من جانب السلطات الألمانية فأهملته ولم تعر له بالأ.

وشعر العرب في فلسطين بخيبة أمل كبرى ومرارة شديدة عبرت عنها صحيفة «الجامعة الإسلامية» المقدسية المقربة من أوساط حزب الاستقلال العربي الفلسطيني، في عددها الصادر في ٩ كانون الثاني ١٩٣٨. تساءلت الصحيفة عما قدمته ألمانيا للعرب حتى تستحق السمعة الواسعة التي تتمتع بها بينهم. وردت هذه السمعة إلى كراهية الألمان لليهود. ولكنها استدركت وقالت: أن سياسة العداء الألماني لليهود قد جاءت لنا بهجرة يهودية كبيرة إلى فلسطين، وأصبح اليهود الألمان يشكلون أكبر المجموعات الغربية في البلاد. وتناولت هذه الصحيفة تصدير البرتقال العربي إلى ألمانيا مقابل استيراد بضائع ألمانية بضعف ثمنها الحقيقي، وما في ذلك من غبن يلحق بالتجار العرب. وتساءلت بعد ذلك عن أسباب هذا الموقف الألماني، وعن الخداع العرب بالصدقة المزعومة^(٤٨).

ولم يكن قادة الثورة الشعبية الفلسطينية في الداخل على علم باتصالات المفتي بالمانيا، ولذلك حاولوا بدورهم القيام بهذا الإتصال. فقد وجه يوسف سعيد أبو درة، قائد إحدى فصائل الثورة في شمال فلسطين رسالة إلى أدولف هتلر في منتصف كانون الأول ١٩٣٨ عن طريق القنصلية الألمانية في القدس. وتتضمن هذه الرسالة ايضاحاً لموقف الثورة من اليهود والانتداب البريطاني في فلسطين^(٤٩).

وقام عوني عبد الهادي بتلبية دعوة المفكر والزعيم النازي ألفرد روزنبرغ (Alfred Rosenberg) الذي تعرف به عن طريق رئيس تحرير صحيفة «أخبار ميونخ الجديدة» (Muenchener Neusten Nachrichten) اهر غيزيلهر فيرزينغ (Gieselher Wirsing). فزار برلين وأجرى مباحثات مع الزعيم النازي المذكور ومع المسؤولين في دائرة الشؤون الخارجية في الحزب النازي. والتقى في ٣١ آذار ١٩٣٩ بالهر فورمان (Woermann) وكيل وزارة الخارجية الألمانية. وأوضح الزعيم الفلسطيني للهرفورمان أن عرب فلسطين يناضلون نضالاً مستميتاً ضد الانجليز من أجل نيل حقوقهم وانهم يأملون في دعم ألمانيا لنضالهم هذا^(٥٠).

وخلاصة القول أن هذه المساعي العربية لم تسفر عن أية نتيجة إيجابية. ولم يحصل عرب فلسطين على أي دعم مالي أو عسكري من المانيا طوال ثورتهم الوطنية التي دامت ثلاث سنوات ونيف. واكتفت المانيا، وفي فترة متأخرة، بالاعلان عن معارضتها لاقامة دولة يهودية في فلسطين. وتبرير الحكومة الالمانية لهذه المعارضة أن قيام دولة يهودية في فلسطين على غرار دولة الفاتيكان يشكل خطراً كبيراً على المانيا. وقد أوضح هذه النقطة المفكر النازي ألفرد روزنبرغ في خطاب ألقاه في مدينة ديتمولد (Detmold) في ٢٥ كانون الثاني ١٩٣٩ إذ قال:

ان اليهودية تكافح اليوم من أجل بناء دولة يهودية في فلسطين، ليس من أجل منح اليهود في العالم وطناً، وإنما لأسباب أخرى. فاليهودية تسعى إلى انشاء دولة صغيرة ليكون لها ممثلون في كافة دول العالم، تستطيع من خلالها تأمين سيطرتها هناك. قبل كل شيء يسعى اليهود إلى الحصول على مركز يهودي أو دولة يهودية يلتقي فيها اليهود المحتالون من كافة أرجاء العالم والذين تلاحقهم قوات الأمن في الدول الأخرى، حيث يمنحون جوازات سفر جديدة تمكنهم من الانتقال إلى أجزاء أخرى من العالم. ولعله من امنيات أصدقاء اليهود في العالم، وبخاصة في الديمقراطيات الغربية، أن ينتشر اليهود في كافة أنحاء الارض، وان يمنحوا منطقة أخرى غير فلسطين للاستقرار فيها. إن من واجب المانيا السعي لابقاء اليهود مشردين مشتتين في أرجاء العالم كافة^(٥١).

إتصالات الزعماء الفلسطينيين بالرائخ الثالث من بداية الحرب العالمية وحتى نهاية حركة رشيد عالي الكيلاني ١٩٣٩-١٩٤١

مع بداية الحرب العالمية الثانية كانت الحالة في فلسطين سيئة للغاية، بسبب الدمار الاقتصادي الذي سببه الاضراب العام والثورة المسلحة والتدابير الزجرية التي فرضتها السلطات البريطانية على العرب، وهجرة العديد من أغنياء البلاد، والمقاطعة العربية اليهودية المتبادلة، وعزل البلاد عن الأسواق الأجنبية^(٥٢). ومنيت الحركة الوطنية الفلسطينية بالشلل بعد أن اعتقلت السلطات البريطانية العديد من

قادتها وادعتهم السجون والمعتقلات وهرب الباقون إلى الخارج. ومنذ اندلاع الحرب وضع المفتي وكافة الزعماء الفلسطينيين تحت الرقابة الفرنسية الشديدة في سورية ولبنان^(٥٣).

وخشية من أن يقع المفتي والزعماء الفلسطينيون في قبضة الانجليز، قرروا الخروج سراً من لبنان وسورية إلى العراق. وفي ليلة ١٤ تشرين الأول ١٩٣٩ هرب الحاج أمين متخفياً من بيروت إلى بغداد^(٥٤). فوصلها في ١٦ منه^(٥٥). ولحق به جمال الحسيني وامين التميمي وفوزي القاوقجي القائد العام للثورة الفلسطينية وعارف عبد الرزاق والشيخ حسن سلامة^(٥٦).

لعب الحاج أمين دوراً بارزاً في الأحداث السياسية العراقية طوال فترة اقامته في بغداد بين ١٦ تشرين الأول ١٩٣٩ و ٢٩ أيار ١٩٤١. فمنذ وصوله إلى العاصمة العراقية شرع يتصل بالشخصيات السياسية العراقية من وزراء ونواب وزعماء وطنيين يتبادل معهم الرأي في القضية الفلسطينية خاصة والقضايا العربية عامة. ووجد المفتي نفسه يلتقي فكراً والشخصيات العراقية ذات الاتجاه القومي العربي الراغبة في تحرير العراق من قيود المعاهدة العراقية - البريطانية لعام ١٩٣٠، والساعية إلى تحرير بقية الأقطار العربية من ريقة الاحتلال والانتداب الأجبيين. وقد اعتقدت هذه الشخصيات أن الحرب العالمية فرصة لا بد للعرب من اقتناصها من أجل نيل استقلالهم الكامل ووحدتهم السياسية. وكان هذا الفريق من السياسيين العراقيين يأخذ على الحلفاء (الانجليز والفرنسيين) اهمالهم للعرب وقضاياهم، ويرى أن لا بد من الاستفادة من الوضع الدولي باتخاذ موقف الحياد بين الكتلتين المتحاربتين^(٥٧). وحاول المفتي أن يقنع هذا الفريق من السياسيين بضرورة تماشي اغضاب دول المحور (المانيا واطاليا واليابان) ومسايرة بريطانيا في نطاق الالتزام بما جاء في معاهدة التحالف العراقية البريطانية، وتجنب دخول الحرب حفاظاً على القوى العربية من أن تستنزف في سبيل انتصار بريطانيا، اعتقاداً منه أن انتصارها لن يفيد العرب في شيء. وكانت تجربة الحسين بز، علي وتنكر بريطانيا لعودها التي قطعتها للعرب في الحرب العالمية الاولى ما تزال ماثلة

أمام عينيه^(٥٨). وكان يرى أيضاً وجوب ثورة العرب على بريطانيا وفرنسا إذا اشتركت روسيا واليابان وإيطاليا في الحرب إلى جانب ألمانيا ووصلت جيوشها إلى مصر وإيران^(٥٩).

وأصبح المفتي صديقاً حميماً لهذا الفريق من السياسيين العراقيين الذي يضم رشيد عالي الكيلاني وناجي السويدي وناجي شوكت من رؤساء الوزارات السابقين، وموسى الشهبندر ويونس السبعائي ومحمود الشيخ علي وكبار ضباط الجيش وبخاصة العقدة الأربعة صلاح الدين الصباغ ومحمود سلمان وكامل شبيب وفهمي سعيد (الذين كان يطلق عليهم المربع الذهبي). وتوثقت صلات المفتي بقيادة الجيش العراقي الذين أصبحوا مركز الثقل في السياسة العراقية فتدخلوا لدى الوصي على العرش الأمير عبد الله في تشكيل الوزارات واختيار الوزراء^(٦٠).

وانقسم السياسيون العراقيون في هذه الفترة إلى فريقين: فريق يرى أن مصلحة العراق هي في التعاون مع بريطانيا والدول الحليفة ويمثله نوري السعيد وجميل المدفعي وتوفيق السويدي وغيرهم، وفريق آخر يرى رأي المفتي الذي أشرنا إليه سابقاً. وتمكن المفتي من تشكيل « لجنة للتعاون بين البلاد العربية » في صيف عام ١٩٤٠ ضمت رشيد عالي وناجي السويدي وناجي شوكت ويونس السبعائي والعقدة الأربعة (المربع الذهبي) والعقيد اسماعيل حقي من العراق، وشكري القوتلي وعادل ارسلان وزكي الخطيب من سورية، ويوسف ياسين وخالد الهود من العربية السعودية^(٦١).

ولما توقف القتال بين فرنسا وألمانيا في النصف الأول من حزيران ١٩٤٠ حاول صديق شنشل ويونس السبعائي بالتفاهم مع بعض الزعماء السياسيين السوريين واللبنانيين والفلسطينيين المقيمين في بغداد اقناع قادة الجيش العراقي بضرورة الاستفادة من حالة الارتباك التي كانت عليها القوات الفرنسية في سورية ولبنان وتدخل الجيش العراقي لتحرير هذين القطرين. غير أن المفتي أقنع قادة الجيش العراقي بعدم جدوى هذا التدخل وضرورة حصر الجهود لمعالجة القضية الفلسطينية^(٦٢).

وكان لانهبير فرنسا أمام الزحف الألماني أثر كبير على المفتي والزعماء العراقيين المتعاونين معه، إذ ازدادت ثقتهم بإمكانية انتصار ألمانيا في الحرب الدائرة، ورأوا أن الوقت قد حان للتفاوض معها حول مستقبل البلاد العربية. وانطلاقاً من هذه القناعة حمل ناجي شوكت، وزير العدلية العراقي الذي أوفد مع نوري السعيد، وزير الخارجية، في ٢٤ حزيران ١٩٤٠ إلى أنقرة للتفاوض مع الحكومة التركية حول الموقف الواجب اتخاذه في الصراع الدولي القائم، باعتبار أن العراق وتركيا عضوان في حلف سعد أباد (١٩٣٧)، رسالة من المفتي أمين الحسيني إلى السفير الألماني في استانبول فون بابن (Von Papen). وتتضمن الرسالة تهنئة الزعيم الألماني هتلر بالانتصارات التي أحرزها في الميادين الأوروبية، ورجاء بالتفاوض مع ناجي شوكت حول المسألة العربية ومستقبل فلسطين والتعاون بين ألمانيا والعرب عن طريق إبرام معاهدة صداقة وتعاون بين الطرفين^(٦٣). وقابل ناجي شوكت السفير الألماني في ٥ تموز ١٩٤٠ بحضور قنصل ألمانيا العام في تركيا المهر زايلر (Seiler). واقترح ناجي شوكت أن يستمر التفاوض بين العرب والألمان عن طريق وزير العراق المفوض في أنقرة كامل الكيلاني، شقيق رشيد عالي، رئيس الوزراء آنذاك، والدكتور فريتس غروبا وزير ألمانيا المفوض في بغداد. واكتفى فون بابن بالأعراب عن استعداده لنقل وجهة النظر العربية إلى الجهات المعنية في ألمانيا^(٦٤).

كان لقاء ناجي شوكت بفون بابن بداية لمفاوضات سرية طويلة بين المفتي والزعماء العراقيين المتلفين حوله من جهة وبين المسؤولين الألمان من جهة ثانية. فبعد عودة شوكت إلى بغداد بشهر واحد، أوفد المفتي سكرتيره الخاص عثمان كمال حداد إلى برلين يحمل المطالب العربية ومشروع بيان رسمي حول سياسة دول المحور نحو البلاد العربية^(٦٥). أجرى حداد مباحثات في وزارة الخارجية الألمانية مع غروبا الذي عاد إلى برلين بعد قطع العراق علاقاته الدبلوماسية مع ألمانيا في ١٩٣٩/٩/٥، وميلشرز (Milchers) مدير القسم الشرقي في وزارة الخارجية، وسكرتير الدولة فون فايتسزيكر. أما المطالب العربية التي تقدم بها عثمان حداد

فيتضمنها مشروع التصريح الرسمي المطلوب من دول المحور اصدااره والذي يشمل النقاط التالية :

١ - اعتراف المانيا وايطاليا بالاستقلال التام للبلاد العربية المستقلة الآن ، وبالاستقلال التام للبلاد العربية التي هي تحت الانتداب الفرنسي (سورية ولبنان) ، والتي تحت الانتداب البريطاني (فلسطين وشرق الاردن) . والتي هي مستعمرات أو محميات بريطانية (الكويت وعمان ومسقط وحضرموت) .

٢ - اعلان المانيا وايطاليا أن ليس لهما أية مطامع استعمارية في مصر والسودان ، والاعتراف باستقلالهما التام ، واعتبار التحفظات التي وضعتها انجلترا على هذين البلدين لاغية من أساسها .

٣ - تعهد المانيا وايطاليا بعدم اللجوء إلى أي اسلوب من الأساليب ضد استقلال البلاد العربية التام ، كأسلوب الانتداب الذي اخترعته عصبة الامم بصورة احتيالية بالاتفاق مع الديمقراطيات لاختفاء شهواتها الاستعمارية .

٤ - اعتراف المانيا وايطاليا للبلاد العربية بحق تأسيس وحدتها القومية حسب رغائبها وبالطريقة التي تراها موافقة ، والتعهد بعدم وضع العراقيل في سبيل انشاء هذه الوحدة .

٥ - مطلب المانيا وايطاليا الوحيد أن تريا الامة العربية متمتعة بالازدهار والاقبال ، وان تتبوأ مكانها التاريخي والطبيعي تحت الشمس ، وهذا لصالح الانسانية جمعاء ، وفي سبيل تعاون اقتصادي على أساس تبادل المنافع ، مقابل تعهد البلاد العربية باحترام الحالة الراهنة (Statu quo) في فلسطين أو سواها فيما يتعلق بأملأك الكنائس والارساليات المسيحية وحرية المسيحيين ، على اختلاف مذاهبهم ، باقامة طقوسهم الدينية ورعاية المنشآت الخيرية (المستشفيات ودور الأيتام ومآوي المكفوفين) وحرية الاعتقاد في المسائل الدينية .

٦ - تعتبر المانيا الوطن القومي اليهودي كياناً غير مشروع وتعترف بحق العرب في حل هذه المسألة وفقاً للمصالح القومية العربية^(٦٦).

تحدث حداد إلى المسؤولين الالمان عن اللجنة العربية في بغداد التي يرئسها المفتي، ووعدهم، باسمها، باعادة العلاقات الدبلوماسية مع المانيا وإبرام اتفاق معها حول استثمار الموارد الطبيعية العراقية، وبذل مساعي العراق لدى الدول العربية الأخرى لإبرام اتفاقيات مماثلة مع دول المحور. كما وعدهم بالتخلص من نوري السعيد، زعيم الفريق المعتدل من السياسيين العراقيين المنادين بالالتزام بالتحالف العراقي - البريطاني، وباشعال نار الثورة في فلسطين وشرقي الاردن لِمَا تحين الفرصة المناسبة. واقترح حداد أن يتم الاعداد لهذه الثورة من سورية، وأن يزود الثوار بالأسلحة من مستودعات الجيش الفرنسي في سورية والواقعة تحت تصرف لجنة الهدنة الايطالية. أما الأموال المقدرة للانفاق على هذه الثورة فتبلغ ثلاثين ألف جنيه استرليني شهرياً، تدفع اللجنة العربية في بغداد ثلثها والباقي تتقاسمه المانيا وايطاليا. وكان حداد يعتقد أن المانيا قادرة على التأثير على حكومة فيشي (Vichy) الفرنسية بحيث تمنح سورية استقلالها^(٦٧).

ويلاحظ أن المطالب العربية التي حملها حداد قد اقتصرت على أقطار المشرق العربي واهملت المغرب العربي اهماً تماماً. وبذلك لم يخرج القادة القوميون العرب في المشرق في مطالبهم بالاستقلال والوحدة عن الاطار الذي وضعه اسلافهم من الرعيل الأول في فترة الحرب العالمية الأولى، اللهم إذا استثنينا ما ورد بشأن استقلال مصر والسودان. وكانت هذه المطالب الحد الأعلى لما طالب به هذا الفريق من القوميون العرب من دول المحور خلال الحرب العالمية الثانية.

درس المسؤولون الالمان هذه المطالب دراسة وافية وابلغوا عثمان حداد أن من المتعذر عليهم تلبيةها كاملة بسبب تعقيدات الوضع الدولي آنذاك^(٦٨). فقد كانت المانيا تعتقد آنذاك أن بالامكان التوصل إلى صلح مع بريطانيا لاقتسام مناطق النفوذ في اوروبا والعالم. كما أنها كانت تخشى اثاره حكومة فيشي إذا ما أصدرت بياناً يتضمن استقلال سورية ولبنان، وربما أدى هذا البيان إلى أضعاف موقف

حكومة فيشي واتجاه الفرنسيين إلى لجنة فرنسا الحرة في لندن التي يتزعمها الجنرال ديغول. كما كان على المانيا أن تأخذ بعين الاعتبار الأطماع التوسعية لحليفها إيطاليا في شرق البحر الأبيض المتوسط^(٦٩). كل هذه الاعتبارات درسها المسؤولون الألمان في مباحثاتهم مع حداد. وأخيراً اتفقوا معه على صيغة بيان رسمي يحقق بعض المطالب العربية، حولت إلى الحكومة الإيطالية في ١٠ أيلول ١٩٤٠ لبدء رأيها فيها^(٧٠). وجاء الرد الإيطالي بعد شهر ونيف. وفي ١٨ تشرين الأول استقبل فون فايسزيكر عثمان حداد واطلعه على صيغة البيان الألماني الإيطالي المنوي اذاعته. وأهم ما جاء فيه: «أن المانيا وإيطاليا تعترفان باستقلال البلاد العربية وتتابعان بعطف واهتمام ما يقوم به العرب من جهود في سبيل تحقيق استقلالهم^(٧١). لم ترض صيغة البيان عثمان حداد فطلب تعديلها إلا أن سكرتير الدولة الألماني رفض ذلك، وأكد له أن هذا البيان «مجرد بداية وخطوة أولى»^(٧٢).

اذيع البيان في ٢٣ تشرين الأول ١٩٤٠ من اذاعتي برلين وروما. ولكنه لم ينشر في صحف البلدين إلا في ٥ كانون الأول ١٩٤٠. واحداث هذا البيان ردود فعل واسعة بين العرب، واثار تحفظات العديد من قادتهم. فقد بعثت اللجنة القومية العربية في بيروت مذكرة إلى الحكومة الألمانية في كانون الثاني ١٩٤١ بينت فيها أن مطلب العرب الأول هو قيام دولة عربية متحدة في آسيا يتلوها الاتحاد مع مصر، وأن العرب يتوقعون دعم المانيا لاهدافهم^(٧٣).

حمل عثمان حداد معه رسالة من وزير الخارجية الألماني فون ريبنتروب (Von Ribbentrop) إلى المفتي حدّره فيها من مغبة نزاع مسلح بين العراق وبريطانيا، وأكد في الوقت نفسه استعداد المانيا لمساندة العراق في حالة هجوم بريطاني عليه.

وبينما كان موفد المفتي يجري مباحثاته مع المسؤولين الألمان والإيطاليين كانت تطورات الوضع الدولي تشير إلى ضرورة اتخاذ موقف واضح في العراق. ورأى المفتي والمقربون منه أن من مصلحة العراق خاصة والعرب عامة المحافظة على الحياد التام في النزاع الدولي القائم للأسباب التالية:

- عدم استقرار العلاقات بين المانيا والاتحاد السوفيتي .
- ضعف البلاد العربية عسكرياً بحيث لا تستطيع الصمود في وجه أي هجوم من جانب المحور أو من جانب الحلفاء .
- لا تكفي التصريحات الرسمية من جانب المحور او من جانب الحلفاء لتقرير مصير العرب
- الحرب فرصة ثمينة لا بد من انتهازها لأخذ أكبر قسط من الحقوق للأمة العربية^(٧٤) .

وعقد أقطاب الحركة العربية في بغداد اجتماعاً بحضور المفتي في نهاية عام ١٩٤٠ . وتدارسوا الوضع العربي العام، ورأوا أن الهدف الأول لحركة العرب القومية هو تحرير الوطن العربي من الاستعمار بمختلف أشكاله، وتوحيد الأقطار العربية، وإقامة نظم سياسية واقتصادية واجتماعية جديدة تضمن العدالة والحرية وتستهدف رفع مستوى الشعب وزيادة رفاهه المادي والمعنوي بحيث يصبح قادراً على المساهمة في الحضارة الانسانية . واستقر الرأي على ضرورة قيام حزب عربي قومي يتولى مهمة تحقيق هذا الهدف^(٧٥) .

وسعيّاً إلى تشكيل الحزب المذكور عقد اجتماع في منزل أمين الحسيني في بغداد في ٢٨ شباط ١٩٤١ حضره أمين الحسيني ورشيد عالي الكيلاني وناجي شوكت والعقيد صلاح الدين الصباغ والعقيد فهمي سعيد والعقيد محمود سلمان ويونس السباعوي . وتقرر في هذا الاجتماع إناطة زعامة الحزب القومي العربي بأمين الحسيني^(٧٦) . واجمع الحضور على ضرورة الحفاظ على الوضع الراهن في العراق مع التمسك بالمعاهدة العراقية البريطانية، والتحلي بالروية والتبصر في الأمور، ومحاولة اقناع طه الهاشمي ، رئيس الوزراء آنذاك ، بضرورة العدول عن فكرة قطع العلاقات الدبلوماسية مع ايطاليا والانتظار ريثما ينجلي الموقف الدولي ، والمطالبة بحل المجلس النيابي وانتخاب مجلس جديد يمثل الشعب العراقي تمثيلاً صادقاً، واخراج نوري السعيد وعلي جودت وجميل المدفعي من البلاد وذلك بتعيينهم سفراء في الخارج ،

وتعديل الدستور العراقي بصورة تحول دون قيام الوصي بنشاط مخالف للدستور، والاطاحة ببطه الهاشمي في حالة رفضه مخططهم وتشكيل حكومة برئاسة عالي^(٧٧). واخذت هذه القيادة أو اللجنة تجتمع باستمرار وبصورة سرية طوال أحداث العراق التي تلت هذه الاجتماع حتى تم القضاء على حركة رشيد عالي الكيلاني في ٢٩ أيار ١٩٤١.

رأى المفتي أن لا بد من استئناف التفاوض مع دول المحور وبخاصة مع المانيا. فأوفد سكرتيه عثمان حداد مرة أخرى إلى برلين حاملاً رسالة منه إلى أدولف هتلر ومؤرخه في ٢٠ كانون الثاني ١٩٤١. وصل حداد إلى برلين في ١٢ شباط وقدم رسالة المفتي إلى المسؤولين في وزارة الخارجية الألمانية. تتضمن الرسالة تذكيراً بمطالب العرب القومية وتأكيداً لعداء العرب لبريطانيا وتعاطفهم مع دول المحول واستعدادهم للنهوض في وجه العدو المشترك (الانجليز) حينما يتحررون من بعض العوائق المادية. كما تتضمن ايضاً حول تفويض عثمان حداد بالتباحث مع الحكومة الألمانية باسم أقوى واوسع منظمة سياسية في العالم العربي وباسمه شخصياً بصفته المفتي الأكبر لفلسطين^(٧٨). وحمل سكرتير المفتي بالاضافة إلى هذه الرسالة، مشروع بيان رسمي من دولتي المحور بشأن مستقبل البلاد العربية^(٧٩). يختلف عن مشروع البيان الذي حملة سكرتير المفتي في رحلته الاولى إلى برلين.

وبعد لقاءات عدة مع عثمان حداد قررت وزارة الخارجية الألمانية الرد على رسالة المفتي برسالة من سكرتير الدولة فايتسزيكر تضمنت وعوداً غامضة بالاعتراف باستقلال البلاد العربية وبمساندة العرب عسكرياً إذا اضطروا إلى الحرب ضد الانجليز. فقد جاء في هذه الرسالة ما يلي:

«أن المانيا التي لم تحتل قط أرضاً عربية، لا تستهدف أن تستولي على أي جزء من البلاد العربية. وهي ترى أن الشعب العربي، وهو شعب ذو ثقافة قديمة وقد برهن على لياقته الادارية وفضائله العسكرية لجدير بأن يحكم بلاده بنفسه. ولهذا فأن المانيا تعترف باستقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً. ويحق للبلاد العربية التي لم تستقل حتى الآن أن تنال استقلالها التام.

أن كلا من الامتين الالمانية والعربية متفتتان على الكفاح ضد عدوهما المشترك أي الانجليز واليهود. إن المانيا مستعدة للعمل المشترك معكم، ولمساعدتكم مساعدة عسكرية فعالة على قد الاستطاعة، إذا اضطررتم إلى الحرب ضد الانجليز لتحقيق غاية شعبكم، وذلك بناء على صداقة المانيا وإنجازاً للرجبة التي أبديتها بواسطه سكرتيركم الخاص. أن المانيا مستعدة أيضاً لتسليم المواد الحربية فوراً لتقوية استعداد الأمة العربية للحرب المحتملة ضد الانجليز متى أمكن وجود طريق لنقل هذه المواد الحربية» (٨٠)

ويوصي فايترزيركر المفتي باعادة سكرتيره للتفاوض في التفصيلات المتعلقة بالعمل المشترك بين الطرفين أو بارسال مندوب آخر غيره. كما يرجوه أيضاً أن ييقى مضمون هذه الرسالة مكتوماً، ويبلغه أن الحكومة الايطالية قد أخذت علماً بهذا المضمون ووافقت عليه.

لعل أهم ما في الرد الالمانى على رسالة المفتي ليس مضمونه وإنما التدابير التي إتخذتها الحكومة الالمانية في أعقابه. فقد وافق وزير الخارجية الالمانى على دفع مئة ألف مارك المانى ولمرة واحدة للحاج أمين الحسيني. ولم يوافق على دفع مبلغ عشرة الآف جنيه استرليني شهرياً كما طالب عثمان حداد. كما شرعت وزارة الخارجية الالمانية بالاتصال بالمفتي باعتباره الشخص المعنى بالقضايا العربية العامة. وفتحت منذئذ باب الاتصال بعبد العزيز بن سعود وبالحكومة العراقية والزعماء الوطنيين السوريين. واتجهت إلى تعزيز الدعاية الالمانية في البلاد العربية. فإزدادت فترة الارسال في اذاعة برلين العربية وزادت مدتها اليومية من ٩٥ دقيقة إلى ٢٠٥ دقائق. وصدرت طبعة عربية لصحيفة الجيش الالمانى (الاشارة Signal). واصدرت اذاعة الرايخ (Reichsrundfunkgesellschaft) صحيفة «بريد الشرق» مرتين في الاسبوع والتي كانت توزع مجاناً. واصبحت الصحف العربية تتلقى بانتظام نشرات وكالتي الأنباء الالمانية (Transocean) ومكتب الأخبار الالمانى (D.N.B.) باللغة العربية^(٨١). وتقرر توسيع نشاط الجاسوسية ومكافحة التجسس في كل من فلسطين وشرق الاردن ومصر^(٨٢).

فلماذا تغير موقف المانيا، واقدمت على هذا النشاط بعد أن كانت قد اعتبرت منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط، حتى هذا التاريخ، منطقة نفوذ ايطالية؟ لا بد من العودة إلى استعراض تطور العمليات العسكرية في ساحات القتال لنعرف أسباب هذا التغير. فمن المعروف أن الهجوم الايطالي على مصر قد بدأ في ١٣ أيلول ١٩٤٠ دون احراز نتائج ملموسة. وفي ٩ كانون الأول ١٩٤٠ شن الجنرال ويفل (Wavell) قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط هجوماً على القوات الايطالية فردها على أعقابها وطاردها إلى خارج الحدود المصرية وتراجعت من السلوم إلى بردية. ومنيت القوات الايطالية بقيادة الجنرال غرازياني (Graziani) بهزيمة ماحقة. إذ إستسلم ١٩ جنرالا ومئة وثلاثين ألف جندي إيطالي. واصبحت برقة بيد القوات البريطانية. أذهلت هذه الهزيمة هتلر. كما طلبت ايطاليا المعونة منه في كانون الأول ١٩٤٠ لنجدها في اليونان. وفي ١٩ كانون الأول طلبت القيادة العامة الايطالية المعونة من المانيا لنجدة قواتها في ليبيا. فاضطرت المانيا إلى تقديم النجدة. وفي ٥ شباط ١٩٤١ أعلم موسوليني بارسال فرقة مدرعة من الجيش الالماني «الفرقة الافريقية - Afrika Korps» واختير الجنرال إرفين رومل (Erwin Rommel) قائداً لها^(٨٣). منذئذ أصبحت المانيا تهتم اهتماماً جدياً بمنطقة شرقي البحر المتوسط بعد أن كانت متروكة لايطاليا. واقتضى الوضع الجديد اعادة النظر في سياستها نحو العرب، ورأت أن لا بد من اتخاذ خطوات ايجابية في هذا الصدد.

تطورت، في هذه الأثناء، الامور بسرعة في العراق. ففي الثاني من نيسان ١٩٤١، أكره قادة الجيش طه الهاشمي، رئيس الوزراء، على الاستقالة وهرب الوصي الأمير عبد الاله من بغداد إلى الحبانية فالبصرة فالقدس فعمان يرافقه عدد من أنصاره من رؤساء الوزارات والوزراء العراقيين^(٨٤). وعهد الجيش إلى رشيد عالي بتأليف حكومة الدفاع الوطني في اليوم نفسه. وكان لهذا الانقلاب العسكري رد فعل سريع في بريطانيا. إذ قررت الحكومة البريطانية برئاسة ونستون تشرشل (W. Churchill) القضاء على الحركة الجديدة بأسرع وقت ممكن. وانزلت قواتها في ميناء البصرة تمهيداً لذلك.

أما المفتي فقد كان حريصاً على تجنب الصدام مع القوات البريطانية وطلب من رشيد عالي أن ييدي تسامحاً مع الأنجليز بشأن انزال قواتهم في البصرة^(٨٥). وكان المفتي يستشار في اتخاذ كل القرارات المهمة^(٨٦). كما أخذ يسعى إلى كسب بعض الشخصيات السياسية في مصر للوقوف إلى جانب المحور^(٨٧). وتلقى معونات مالية من المانيا وإيطاليا لهذا الغرض وللاعداد للثورة المقبلة في فلسطين وشرقي الاردن^(٨٨).

ولما تطورت أحداث العراق إلى صدام بين القوات العربية والقوات البريطانية المرابطة في قاعدة الحبانية وفي ميناء البصرة رأى الحاج أمين أن الفرصة مناسبة لاشعال نار الثورة في فلسطين. فطلب من غروبا، (الوزير المفوض الالمانى السابق في بغداد الذي عاد إليها سراً بعد انقلاب رشيد عالي) في ١٧ أيار ١٩٤١ ارسال خمسين رشاشاً خفيفاً ومئة مسدس رشاش جديد مع ذخيرتها إلى دمشق لهذا الغرض^(٨٩). غير أن المانيا طلبت من المفتي أن لا يبدأ العمل الثوري الفلسطيني من دمشق، ارضاء لحكومة فيشي، فاستجاب المفتي لهذا الطلب^(٩٠). واثناء الحرب العراقية - البريطانية تشكلت قوة البادية، بقيادة فوزي القاوقجي، من المناضلين الفلسطينيين والسوريين في العراق لمساندة القوات العراقية. وتولى أمين الحسيني قيادة المقر الخلفي لهذه القوة^(٩١).

قضت القوات البريطانية على حركة رشيد عالي يوم ٣٠ أيار ١٩٤١، وهرب الحاج أمين الحسيني مع قادة الحركة من بغداد إلى طهران^(٩٢). أما المناضلون الفلسطينيون والبالغ عددهم حوالي سبعين رجلاً فقد عبروا الحدود العراقية - السورية^(٩٣). وفي ٢٨ حزيران ١٩٤١ أبرق المفتي من طهران، عن طريق السفارة الالمانية هناك، يطلب من أسحق درويش أحد الزعماء الفلسطينيين المقربين من المفتي، أن يسافر إلى صوفيا (بلغاريا)، وان يختار أفضل العناصر من الضباط المناضلين لتدريبهم في المانيا^(٩٤). وتمكن المفتي من الوصول إلى روما بصورة سرية عن طريق السفارة الايطالية في طهران^(٩٥). أما بقية الزعماء الفلسطينيين فقد عبروا الحدود التركية واستقروا في استانبول^(٩٦).

نشاط أمين الحسيني في ألمانيا بين ١٩٤١ و ١٩٤٥ :

انتقل الحاج أمين الحسيني من روما إلى برلين في ٦ تشرين الثاني ١٩٤١ بعد أن أجرى مباحثات مع الدوتشي موسوليني (Mussolini)، رئيس وزراء إيطاليا، والكونت شيانو (Ciano)، وزير خارجيتها، حول إصدار بيان يؤيد المطالب العربية. واعد الايطاليون صيغة بيان ينص على مساندة دول المحور للأقطار العربية الواقعة تحت الهيمنة البريطانية في نضالها من أجل الحرية، وعلى استعداد دول المحور للاعتراف بالاستقلال التام للأقطار العربية في الشرق الأدنى. وتنص الصيغة الإيطالية للبيان على تأييد دول المحور للمساعي الرامية إلى القضاء على الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وعلى استعدادها لإبرام معاهدة صداقة وتعاون مع الزعماء العرب على أن يتم التفاوض بشأنها في أقرب فرصة ممكنة، وعلى اعترافها بالدول العربية المستقلة^(٩٧). ويلاحظ أن الصيغة الإيطالية للبيان المنوي إصداره عن دول المحور يؤكد على الأقطار العربية في الشرق الأدنى، والمقصود بذلك سورية ولبنان وشرق الأردن والعراق (أقطار الهلال الخصيب)، كما سيتضح ذلك فيما بعد.

عند وصول المفتي إلى برلين استقبله فريتس غروبيا، وأعد له مقابلة مع فون فايتسزيكر، سكرتير الدولة للشؤون الخارجية. ولما حاول المفتي ابداء تحفظاته على مشروع البيان الإيطالي وبخاصة عدم اشارته إلى مساندة دول المحور للوحدة العربية واستقلال جميع أقطار المشرق العربي، لم يأخذ فايتسزيكر بهذه التحفظات وابدى تحفظاً من جانبه على المشروع الإيطالي نفسه^(٩٨).

ولتعزيز المطالب التي تقدم بها المفتي إلى المسؤولين في وزارة الخارجية الألمانية أفضى إلى مرافقه غروبيا بمعلومات عن «حزب الأمة العربية» الذي زعم بأنه رئيسه، قال: «أن هذا الحزب امتداد لجمعية العربية الفتاة التي تأسست في باريس عام ١٩١١، والتي نقلت نشاطها إلى سورية عام ١٩١٥، والتي علق العديد من قادتها ومؤسسيها على أعواد المشانق التي نصبها لهم جمال باشا. وقد

تغير اسم الحزب أثناء الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ ، وكان يرئسه في بادئ الأمر الملك فيصل الأول الذي كان يرى أن تحقيق الأهداف العربية لا يتم بالتعاون مع بريطانيا وإنما بالنضال وحده . وكان فيصل يرى ضرورة بناء الحزب من جديد وطرد بعض الأشخاص منه مثل نوري السعيد...» ويستطرد المفتي فيقول : «إن للحزب أعضاء في كافة الأقطار العربية ، وتقوده لجنة ادارية واحدة تمثل هذه الأقطار . وكان الحزب ولجنته الادارية وراء الكفاح العربي في فلسطين والعراق» أما رئاسة الحزب فقد تولاها (المفتي) بعد موت الملك فيصل الأول . ولما انتقل المفتي إلى العراق ضم إلى الحزب ناجي شوكت ورشيد عالي الكيلاني كما كسب إليه قادة الجيش العراقي الذين كانوا حتى ذلك الوقت تحت تأثير نوري السعيد . ثم وجه نشاط الحزب نحو الشباب العراقي ، من خلال منظمته الفتوة والجوالة . أما أسماء اللجنة الادارية التي ذكرها المفتي فهي : رشيد عالي وناجي شوكت ويونس السبعراوي وعبد الواحد السكر وعدد من شيوخ عشائر الشيعة من العراق ، وعزة دروزة واسحق درويش وحسن أبو السعود ومحمد العفيفي وراسم الخالدي من فلسطين ، والدكتور صبحي أبو غنيمة وحسين الطراونة وسليمان السوداني من شرق الاردن ، ومحمد علي علوبة وغيره من مصر ، والأمير عادل أرسلان وسامي الصلح من سورية ، والشيخ يوسف ياسين والشيخ خالد الهود القرقتي ورشيد السعداوي من السعودية ، وعبد الله الوزير من اليمن^(٩٩) .

لقد كان قصد المفتي من الادلاء بهذه المعلومات تعزيز موقفه لدى الالمان واضفاء هالة من التقدير والاحترام على شخصه . فقد أنكر فيما بعد قيام حزب الامة العربية ، كما أنكر أن يكون قد أدلى بمعلومات عن هذا الحزب للمسؤولين الالمان^(١٠٠) .

وعلى أية حال فقد تناول المسؤولون في وزارة الخارجية الالمانية مشروع البيان الايطالي . وكان من رأي فورمان (Woermann) وكيل الوزارة ، رئيس الدائرة السياسية ، أن اصدار مثل هذا البيان ضروري للرد على الدعاية البريطانية وبخاصة بعد صدور تصريح ايدن في ٢٩ أيار ١٩٤١ حول الوحدة العربية^(١٠١) . أما

مسألة تحقيق ما في هذا البيان من وعود فقد ربطها فورمان بمستقبل سير الحرب . ورأت وزارة الخارجية الألمانية التعرف على رأي حكومة فيشي في الموضوع ، وبخاصة وقد أصبح لتعاونها مع دول المحور أهمية كبيرة بعد التقدم الذي أحرزته القوات البريطانية في شمال أفريقيا . وجاء الرد من السفير الألماني في باريس هرمان آبتس (Hermann Abetz) يؤكد أن اصدار هذا البيان سيكون له أثر سيء في فرنسا وفي صفوف قواتها المرابطة في شمالي وغربي أفريقيا^(١٠٢) . واستشير السفير الألماني في تركيا فون بابن عن موقف تركيا من هذا البيان ، لأن دول المحور كانت تقول كثيراً على موقفها في العمليات العسكرية المقبلة في الشرق الأوسط . نصح فون بابن حكومته بضرورة تقديم ضمانات لتركيا بحيث لا يؤثر هذا البيان على مطالبها الأرضية في شمالي سورية والعراق^(١٠٣) . وعلى ضوء هذه الاستشارات أدخلت الخارجية الألمانية تعديلات على مشروع البيان الإيطالي وحولت الصيغة الجديدة إلى روما فوافقت عليها الحكومة الإيطالية في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤١^(١٠٤) . غير أن البيان لم يصدر رغم ذلك كله بسبب تدخل هتلر في الأمر .

قابل أدولف هتلر المفتي بحضور فون رينتروب وغروبا في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٤١ . بدأ المفتي حديثه بالاشادة بالزعيم الألماني وبثقة البلاد العربية في انتصار ألمانيا . وأكد أن العرب والألمان حلفاء طبيعيين لأنهم يحاربون أعداء مشتركين هم بريطانيا واليهود والبلاشفة . وانهم على استعداد للتعاون مع ألمانيا ، ليس بأثارة المتاعب في وجه بريطانيا أو القيام بأعمال التخريب وإنما بتكوين فرق مسلحة تحارب إلى جانب قوات المحور . وأوضح المفتي للزعيم الألماني أن مطلب العرب الراهن هو استقلال ووحدة أقطار فلسطين وشرق الأردن وسورية والعراق . ثم انتقل بعد ذلك إلى موضوع التصريح الألماني - الإيطالي بشأن مستقبل البلاد العربية .

بدأ هتلر حديثه بالتنديد باليهود الذين اعتبرهم المهيمين على الدول الحليفة والموجهين لسياستها . وأكد أن هدفه تحطيم الشيوعية واليهودية واخراج الانجليز من الشرق الأوسط . وقال للمفتي : « إن كسبنا الحرب هو وحدة الذي سيؤذن بدق

ساعة التحرير التي هي أيضاً ساعة تحقيق أماني العرب» واعرب عن معارضة للتصريح المطلوب وقال: «أن مجرد وعد لن تكون له أية قيمة، ولن تكون ثمة قيمة حقيقية إلا لليقين الذي يعتمد على القوات المسلحة المنتصرة» وبرر هتلر هذا الموقف بالخشية من ردود فعل فرنسا. وقال أيضاً «يبدو أن الموقف كالاتي: أننا نشن حرباً ضارية لنفتح لأنفسنا طريقاً إلى شمال القفقاس. إن الصعاب المرتبطة بهذا تزيد على صعاب النقل المترتبة على تدمير السكك الحديدية والطرق وعلى ظروف الشتاء. فإذا ما جرئت في ظل هذا الموقف على اصدار تصريح ينطبق على سورية كذلك، فسيشدد ساعد العناصر التي تساند دييجول في فرنسا، مما قد يؤدي إلى نشوب الثورة. وسيقنع هؤلاء الناس أن من الأسهل أن ينضموا إلى بريطانيا العظمى. وسيكون انفصال سورية نموذجاً يحتذى في أجزاء أخرى من الامبراطورية الفرنسية - ومن شأن هذا أن يقوي موقف الدييجوليين في المستعمرات. فإذا ما صدر تصريح الآن، فستتلوه صعاب في غربي اوروا بحيث يكون من الضروري سحب بعض القوات للدفاع، مما يحول بيننا وبين حشد كل قواتنا في الشرق».

واكد هتلر للمفتي أن الحرب التي تشنها المانيا ضد اليهود تستهدف القضاء على العنصر اليهودي في البلاد العربية، ووعده باصدار تصريح حول مستقبل البلاد العربية حين تصل القوات الالمانية إلى جنوبي القفقاس وهذا، في رأيه، يستلزم بضعة شهور فقط. وطمأن المفتي بأن الوقت سيأتي حين لا يقتصر أمره (المفتي) على أن يقدم للعرب تصريحاً من المحور، بل سيكون له الرأي الحاسم في الشؤون العربية باعتباره ذا السلطة المطلقة في التحدث باسم العرب وزعيماً لهم^(١٠٥). وبعد هذه المقابلة تقرر ايقاف التصريح الذي اتفقت على صيغته وزارتا الخارجية الالمانية والايطالية.

لم يثن موقف هتلر الحاج أمين عن الاستمرار في المطالبة باصدار التصريح المطلوب، ولو جاء في صيغة رسالة سرية صادرة عن الحكومة الالمانية. وهدد المسؤولين الالمان بالحصول على مثل هذه الرسالة من الحكومة الايطالية^(١٠٦).

وكانت إيطاليا آنذاك على استعداد لإصدار التصريح المطلوب خوفاً من انحياز الزعماء العرب كلياً إلى ألمانيا. كما أخذ اليابانيون، في مطلع عام ١٩٤٢، بميلون إلى إصدار ذلك التصريح مع اقتراب قواتهم من بحر العرب (المحيط الهندي) (١٠٧).

وأبدى الألمان مزيداً من الاهتمام بالقضية العربية. فشكّلوا لجنة في وزارة الخارجية لتابعها برئاسة الوزير المفوض الدكتور فريتس غروبيا وعضوية القنصل العام كاب (Kapp)، ومستشار المفوضية الدكتور ميلشرز (Melchers) من الدائرة السياسية السابعة، والمستشار الدكتور غرانوف (Granow)، وسكرتير المفوضية كاسبار (Kaspar)، والهر مونسيل (Munzel) والهرشتيفن (Steffen). ومهمة هذه اللجنة وضع الترتيبات السياسية للزحف الألماني في المنطقة العربية وتنفيذ تعليمات وزارة الخارجية بعد احتلال الأقطار العربية.

واقترحت هذه اللجنة في ٧ شباط ١٩٤٢ أن تتشكل حكومة عراقية برئاسة رشيد عالي وحكومة سورية برئاسة المفتي أو أحد أعوانه بعد احتلال القوات الألمانية لتفليس وان تعترف الحكومة الألمانية بهما. وان يبدأ تنظيم الجيش العربي، حين دخول القوات الألمانية للبلاد العربية، من ثلاث فرق عراقية وفرقة سورية وفرقة فلسطينية - شرق اردنية، وان يقوم الجنرال فيلمي (Felmy) بإرسال القوات العربية تحت امرته في اليونان لتساهم في تشكيل الجيش العربي، وأن تتحول القيادة الخاصة (Sonder Stab F.) التي يرئسها فيلمي إلى بعثة عسكرية ألمانية في البلاد العربية.

أما مقترحات اللجنة بشأن تنظيم البلاد العربية فهي:

- ١ - بقاء العراق والسعودية واليمن ومصر دولاً مستقلة.
- ٢ - توحيد سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن في دولة سورية الكبرى.
- ٣ - قيام اتحاد فيدرالي بين العراق وسورية.
- ٤ - قيام رابطة تعاقدية بين جميع هذه الدول العربية.
- ٥ - الإطاحة بالحكم الهاشمي في العراق وشرق الأردن وضم معان والعقبة إلى

العربية السعودية، وضم عمان وساحل الجزيرة وحضرموت والبحرين إليها أيضاً.

٦ - تعطي ايطاليا الأولوية السياسية في هذه الأقطار وتعطي المانيا الأولوية العسكرية. ولا يجوز لايطاليا أن تمارس أي نشاط سياسي في هذه الأقطار بدون موافقة المانيا.

٧ - تشارك اليابان في المسألة العربية بعد أن يتم الاتفاق معها على المسألة الهندية^(١٠٨).

وتعاون المفتي ورشيد عالي الكيلاني الذي وصل إلى برلين في نهاية تشرين الثاني ١٩٤١، لاستصدار التصريح المطلوب من دول المحور. وسافر الزعيمان العربيان إلى روما في شباط ١٩٤٢. واستقبل ملك ايطاليا المفتي في ١٣ شباط كما استقبل رشيد عالي في اليوم التالي. ونجح الزعيمان العربيان في اقناع موسوليني وشيانو بضرورة اصدار التصريح المطلوب. واستمر نشاطهما حتى يوم ٢٥ نيسان ١٩٤٢ عندما تسلما مشروع تصريح من دول المحور بصيغة رسالة موقعة من وزير خارجية المانيا فون رينتروب، ووزير خارجية ايطاليا الكونت شيانو موجهة إلى كل من الزعيمين العربيين. وتم التبادل الرسمي لهاتين الرسالتين في ٢٨ نيسان ١٩٤٢^(١٠٩).

وجاء في رسالة فون رينتروب إلى المفتي ما يلي:

«إن الحكومة الالمانية تقدّر كل التقدير ثقة الامة العربية في دول المحور واهدافها، واستعدادها للمشاركة في الكفاح ضد العدو المشترك حتى يتم النصر النهائي. كما أنها تدرك تماماً ما أوضحتهموه من الأهداف القومية للأقطار العربية في الشرق الأدنى التي تقاسي الآلام تحت نير الاضطهاد البريطاني في الوقت الحاضر. ولذا فإني أتشرف بأن أوكد لكم، باتفاق تام مع الحكومة الايطالية، أن استقلال وحرية البلاد العربية المضطهدة الآن تحت الحكم البريطاني، هما هدف من أهداف الحكومة الالمانية. وبناء على ذلك فإن المانيا مستعدة لتقديم كل ما

تستطيعه من مساعدات للأقطار العربية في الشرق الأدنى الرازحة الآن تحت نير الاضطهاد البريطاني، وان تعترف بسيادتها واستقلالها، وتوافق على وحدتها إذا كان مرغوباً فيها ممن يعينهم الأمر، وعلى القضاء على الوطن القومي اليهودي في فلسطين» .

ويلاحظ أن الرسالة قد اقتضت على دعم المحور للأقطار العربية الواقعة تحت نير الاضطهاد البريطاني « في الشرق الأدنى، والمقصود بذلك العراق وشرق الاردن وفلسطين وفي ذلك اغفال تام لسورية ولبنان وبقية أقطار المشرق العربي . كما اتفق على أن يبقى مضمون هذه الرسالة سراً مكتوماً، وبذلك فقد هذا التعهد من جانب دولتي المحور قيمته الاعلامية على الصعيد العربي . كما يلاحظ تراجع في موقف المفتي من موضوع الوحدة العربية والقبول بوحدة أقطار الهلال الخصيب في أحاديثه مع المسؤولين الالمان والايطاليين . ففي مباحثاته مع الهر أتل (Ettel) السفير في وزارة الخارجية الالمانية، يؤكد المفتي أن «الهدف القريب الذي نسعى إليه هو قيام دولة عربية تمتد من البحر الابيض المتوسط إلى الخليج العربي وتضم سورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن والعراق والكويت...» (١١٠)

بقي الزعماء الفلسطينيين والسوريون المقيمون في استانبول مجهلون موضوع تبادل الرسائل بين المفتي والكيلافي من جهة وريينتروب وشيانو من جهة اخرى في ٢٨ نيسان ١٩٤٢ . ولذلك اجتمع نفر منهم وهم عادل ارسلان واسحق درويش وعزة دروزة ومعين الماضي والشيخ حسن سلامة ومحمود زايد مع مستشار المفوضية الالمانية غرانوف (Granow) ورجوه أن تبحث الحكومة الالمانية، بالتعاون مع الحكومة الايطالية، امكانية اصدار تصريح علني من دول المحور يبين العلاقات الودية مع الامة العربية ويعترف بحقها في الحرية والاستقلال والوحدة . واكدوا له أن اصدار هذا التصريح بات ضرورياً وقوات المحور أصبحت على أبواب العالم العربي . وفي ٣ تموز ١٩٤٢ التقى الزعماء العرب مجدداً بالمستشار غرانوف وشارك في هذا اللقاء عادل العظمة ونبية العظمة واكرم زعيتر بالاضافة إلى الزعماء السابقين الذكر . وسلّم اسحق درويش غرانوف بريقة موجهة إلى المفتي والكيلافي، باسم هؤلاء الزعماء السياسيين، تتضمن النقاط التالية :

- ١ - إن تطورات الحرب في أفريقيا تجعل من الضروري اصدار بيان من دول المحور حول الاعتراف بالاستقلال التام للبلاد العربية وحققها في الوحدة .
- ٢ - السعي لدى السلطات العسكرية الالمانية لنقل «قوات التحرير العربية» الموجودة في رأس سونيون (Cap Sunion) قرب أثينا إلى قوات رومل في مصر حتى تشارك في العمليات العسكرية المقبلة في البلاد العربية^(١١١) .

وبعد استيلاء القوات الالمانية بقيادة رومل على طبرق (ليبيا) في حزيران ١٩٤٢، أصبح الطريق إلى مصر مفتوحاً. ومع وصول هذه القوات إلى الحدود المصرية أصدرت الحكومتان الالمانية والاطيالية بياناً في ٧ تموز ١٩٤٢ وعدتا فيه شعب مصر بالحرية والاستقلال واطرد المفتي في اليوم السابق نداءً موجهاً إلى الشعب المصري جاء فيه: «إن الامة العربية التي شاطرت المحور في تحمل مظالم فرساي والتي تمتعت باعجاب المحور أثناء جهادها في سبيل حريتها ترى في جنود المحور المتقدمين اليوم في مصر حلفاء يساندوننا على تحطيم قيودها والتخلص من خصومها. واني لوائق من أن مصر وسائر البلاد العربية في الشرق الأدنى واصلة إلى أهدافها وما ترمي إليه في سيادة صحيحة واستقلال^(١١٢) .

دفعت انتصارات المحور في الشمال الأفريقي المفتي إلى التحرك بسرعة، فالتقى في ٢٦ تموز ١٩٤٢ بالكونت شيانو وطلب منه أن يسافر إلى شمال أفريقيا للقيام بالنشاط الدعائي اللازم لدول المحور تمهيداً لعمل المحور المقبل في الأقطار العربية في الشرق الأدنى. غير أن شيانو رفض طلب المفتي، خشية من نشاطه السياسي الذي قد يؤدي إلى تحريك الليبيين من أجل الاستقلال^(١١٣) .

ومع انتصار القوات البريطانية في العلمين (مصر) في ٢٣ تشرين الأول وتقدمها في الأراضي الليبية أمام تراجع القوات الالمانية، ونزول القوات الأمريكية والبريطانية على الشواطئ المغربية في ٨ تشرين الثاني ١٩٤٢، غادر المفتي روما إلى برلين وقدم مذكرة إلى قيادة الجيش الالمانى تحتوي على عدد من المقترحات للاستفادة من عرب المغرب العربي لصالح المحور، وهي:

- احتلال تونس وجعلها منطقة دفاعية .
- تكوين جيش تحرير مغربي من اسرى الحرب المغاربة المقيمين في فرنسا، بحيث يصل تعداد هذا الجيش إلى نصف مليون مقاتل .
- دعوة العرب المغاربة في الجيش الفرنسي للالتحاق بهذا الجيش .
- تحريك القبائل العربية في المغرب للثورة على الحلفاء .
- الاستفادة من جيش التحرير المغربي في القتال على الجبهات الاخرى بعد تحرير المغرب .
- استعمال الوحدات العربية العاملة مع المحور في تونس .
- انشاء مركز سري للاتصال في تطوان (الاسبانية المحايدة) مهمته اقامة الاتصالات الوثيقة بمختلف أنحاء المغرب .

واقترح المفتي أن تصدر دول المحور تصريحاً علنياً يوضح مراميها في المغرب العربي ومنها الاعتراف بحرية واستقلال هذه الأقطار و ابرام معاهدات معها على نمط المعاهدة العراقية - البريطانية لعام ١٩٣٠ والمعاهدة المصرية - البريطانية لعام ١٩٣٦ ، وذلك قبل البدء بتنفيذ المقترحات الاولى .

لقيت هذه المقترحات قبولاً من جانب العسكريين الالمان . وفي ٨ كانون الأول ابلغ الكولونيل لاهوزن (Lahousen) ، من وزارة الدفاع الالمانية ، وزارة الخارجية برأي قيادة الجيش في مقترحات المفتي . وعقد في اليوم التالي اجتماع في منزل المفتي حضره الأدميرال كاناريس (Canaris) والكولونيل لاهوزن والميجور سويرت (Seubert) من وزارة الدفاع . وبحثوا مسألة الثورات العربية في المغرب . وفي ١٠ كانون الأول استقبل فاينسزيكر المفتي وبحث معه المقترحات السابقة الذكر . ونقلت هذه المقترحات إلى هتلر في مركز قيادته . درس كبار المسؤولين الالمان هذه المقترحات من خلال التزاماتهم نحو حلفائهم فرفضوها ، لأن الوعد باستقلال أقطار المغرب العربي يتناقض ووعود هتلر للماريشال بيتان (Pétain) رئيس الدولة الفرنسية ، ويتناقض أيضاً والوعود المقطوعة للحليفة ايطاليا باعتبار تونس من مناطق مجاها الحيوي . كما يمكن لهذا الوعد أو التصريح أن يحدث أثراً سلبية لدى الأاسبان . وقرر هتلر في نهاية الأمر عدم الاستجابة لمقترحات المفتي^(١١٤) .

التعاون الاعلامي العربي - الالماني :

مع الانتصارات الالمانية في شمال أفريقيا ازداد اهتمام الالمان بالنشاط الاعلامي الموجه إلى البلاد العربية. ففي ٣٠ آذار ١٩٤٢ انشيء مركز الأنباء العربي (Arabische Nachrichten Dienst) وتولى ادارته الصحفي اللبناني عفيف الطيبي. وكان للمركز مندوب في صوفيا هو كامل مروة الذي كان يزوده يومياً بالأنباء وينقلها أيضاً إلى الاذاعة العربية في أثينا (الواقعة تحت الاحتلال الالماني). وكان هذا المركز يصدر نشرة اخبارية يومية مع تعليق سياسي على الأنباء ومقاليتين تذييعها الاذاعتان العربيتان في برلين واثينا. وكان يصل إلى هذا المركز خمس عشرة صحيفة عربية من مختلف الأقطار العربية بصورة منتظمة بالاضافة إلى عدد من الصحف التركية والفرنسية. ووجد للمركز مندوبان في أنقرة هما جلال عوف ونجيب كنعان، ومندوبان في بخارست هما حمدي الخوجا ويونس البحري. وكان يعمل في مكتب برلين من العرب بالاضافة إلى المدير (عفيف الطيبي) كميل سلطان والدكتور والي وتوفيق مجاهد والسيد معلوف ومن الالمان ريكوفسكي (Rekowski) كرئيس تحرير^(١١٥).

كما كان المعهد الاسلامي المركزي (Islamische Zentral-Institut) يقوم بترجمة خطب المفتي أمين الحسيني في المناسبات العربية والاسلامية ونشرها بالالمانية^(١١٦).

ولم يقتصر نشاط المفتي السياسي والاعلامي على العالم العربي بل امتد ليشمل العديد من الأقطار الاسلامية. فقد اقترح على وزارة الخارجية الالمانية في ٢ آذار ١٩٤٣ إحداث دائرة فيها للشؤون الاسلامية يديرها الوزير المفوض أتل (Ettel)، كما طلب انشاء اذاعة سرية اسلامية^(١١٧). وتولى المفتي مهمة الاتصال بالشخصيات الاسلامية البارزة في العالم لكسبها إلى جانب المحور وتحريضها على الثورة على الحلفاء. فاتصل بالمجاهد الهندي فقير آبي يحرضه على الثورة على الانجليز ويعده بمساعدة المحور المالية لهذا الغرض^(١١٨).

وتعاون المفتي مع السلطات الالمانية المحتلة في يوغوسلافيا والبانيا واوفد عدداً من المقربين إليه إلى البوسنة ومكدونيا والبانيا من أجل الاتصال بالزعماء المسلمين في هذه البلاد. وشجع الدعوة إلى انشاء دولة اسلامية تضم البانيا والبوسنة والهرسك^(١١٩). وقام المفتي نفسه بزيارة كرواتيا في نيسان ١٩٤٣ واتصل بالمسلمين فيها. وساهم في تكوين فرقة عسكرية اسلامية (فرقة الصاعقة) تعاونت مع الالمان المحتلين في هذه البلاد^(١٢٠). واوفد أحد سكرتيريه كامل مصطفى في نهاية آذار ١٩٤٤ إلى منطقة كوسوفو (Kosovo) على الحدود الالبانية-اليوغوسلافية فأجرى محادثات مع الزعيم الالباني بدري بياني صاحب الدعوة إلى قيام دولة اسلامية في شبه جزيرة البلقان. غير أن الوزير المفوض الالمني في بلغراد لم يجذب هذا النشاط واعتبره مخالفاً لسياسة المانيا في المنطقة والرامية إلى وضع البوسنة تحت سيطرة الرايخ الالمني^(١٢١).

وأقام المفتي صلات مع المنظمات الاسلامية في شبه جزيرة القرم وشمال القفقاس واذربيجان واواسط آسيا. وحث هذه المنظمات على التعاون مع الالمان ومقاومة العدو المشترك المتمثل في تحالف الانجليز واليهود والبلاشفة. وفي تموز ١٩٤٢ اتصل المفتي بالمجتهد الايراني الطباطبائي نائب رئيس المؤتمر الاسلامي، مستشار الشاه رضا بلهوي سابقا، واقترح على الالمان دعوته إلى استانبول للتفاوض معه^(١٢٢).

المفرزة العربية الحرة:

تعود فكرة انشاء هذه المفرزة إلى أيام الحرب العراقية-البريطانية في آيار ١٩٤١. فقد تظاهر الطلبة العرب في برلين آنذاك، وطالبوا الحكومة الالمانية باعطائهم السلاح ونقلهم إلى العراق ليقاتلوا الانجليز إلى جانب الجيش العراقي. واستجابت السلطات الالمانية لطلبهم فنقلت من أراد منهم إلى معسكر للتدريب في غرب المانيا. ولما انتهى أمر حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق، غادر الطلبة المعسكر المذكور ونقلتهم السلطات الالمانية إلى اليونان ليتموا تدريبهم العسكري في

معسكر خاص في رأس سونيون (Cape Sunion) قرب أثينا. والتحق بهذا المعسكر العديد من الشباب والعسكريين العرب الذين هربوا من العراق بعد القضاء على حركة رشيد عالي^(١٢٣). وكان الجنرال فيلمي (Felmy)، قائد القوة الألمانية الصغيرة التي أقامت في بغداد لدعم الجيش العراقي في مقاومته للانجليز خلال شهري نيسان ويار ١٩٤١، قد نقل إلى جنوبي اليونان حيث أصبح قائداً للقوات الألمانية المرابطة هناك منذ منتصف حزيران ١٩٤١.

ولما قدم المفتي إلى أوروبا كان المعسكر العربي في رأس سونيون قائماً. غير أن الفكرة لم تعجبه، وكان يرى انشاء فرقة عربية تعمل بصورة مستقلة مع جيوش المحور. وقدم مقترحات عديدة بشأن انشاء هذه الفرقة في محادثاته مع موسوليني وشيانو في تشرين الأول وتشرين الثاني ١٩٤١^(١٢٤)، وفي مباحثاته مع هتلر ورينتروب وفايتسزيكر في برلين^(١٢٥). ومند كانون الأول ١٩٤١ وافق الزعيم هتلر على انشاء الفرقة المطلوبة^(١٢٦). غير أن موافقة هتلر لم تخرج إلى حيز التنفيذ لعدة أسباب أولها معارضة ايطاليا للفكرة. فقد كانت تعتبر البلاد العربية ضمن مجالها الحيوي. وثانيها رغبة الالمان في الاستفادة من الشباب العرب كضباط سياسيين يرافقون قواتهم لا كقوات منظمة مستقلة قد تحد من حريتهم في اتخاذ القرارات النهائية عند دخولهم البلاد العربية. وثالثها خشية الايطاليين والالمان من النتائج السياسية التي قد تترتب على تأليف جيش عربي من الاسرى العرب الجزائريين والتونسيين والمراكشيين. ولذلك حرص الالمان على أن لا يزيد عدد المتطوعين العرب في معسكر رأس سونيون بصورة ملموسة. فلم يتجاوز عددهم في أيار ١٩٤٢ أي بعد عام واحد من انشاء المعسكر عن مئة وثلاثين رجلاً^(١٢٧).

وقد امتعض المفتي من تسمية المفزة العربية في «رأس سونيون» بمركز التدريب العربي - الألماني (Deutsche Arabische Lehrabteilung) واثناء زيارته لروما في شباط ١٩٤٢ اقترح من جديد على الحكومة الايطالية تشكيل جيش عربي. وكان الجواب الايطالي مخيباً للأمال: «إنه مشروع مفيد ولكن لا قيمة عسكرية له»^(١٢٨) غير أن هذا الجواب لم يفت في عضد المفتي الذي طلب أكثر

من مرة من دولتي المحور زيادة عدد المفرزة العربية و إبرام اتفاقية عسكرية حول هذا الموضوع^(١٢٩).

وإزاء الحاح المفتي أبلغه الألمان أن لا بد من استعمال المفرزة العربية بعد اجتياز القفقاس ودخول الحدود العراقية . وكان من المقرر أن ينتقل المفتي إلى تفليس عند احتلال القوات الألمانية لها . وحالما تدخل القوات الألمانية العراقية تتولى المفرزة العربية بالتعاون مع القيادة الألمانية الخاصة (Sonder Stab F) إعادة تشكيل الجيش العراقي^(١٣٠).

ومع تقدم القوات الألمانية في القفقاس انتقلت المفرزة العربية إلى الاتحاد السوفيتي مع القيادة الخاصة وأخذت اسماً جديداً « القيادة العامة ٦٨ » للمهمات الخاصة (General- Kommando 68 z.b.v.) و التحقت بالجيش الألماني المدرع الأول واتخذت مقر قيادتها في بود يونوفسكايا (Budionovskaya) على نهر الكوما^(١٣١) . وبلغ عدد هذه القوة الألمانية - العربية المشتركة ستة آلاف جندي وضابط . وكانت قوة مدرعة ميكانيكية ولديها أسلحة كافية لفرقة كاملة من المتطوعين العرب . وزودت بسبع طائرات وبكافة التجهيزات القتالية . وانتقلت المفرزة العربية إلى مدينة ستالينو (Stalino) غير أن المفتي عارض بشدة إرسال المفرزة إلى الاتحاد السوفيتي وطلب نقلها إلى مصر أو إلى شمال أفريقيا ، لقرب قوات المحور هناك من بلدان المشرق العربي^(١٣٢) . والواقع أن الهجوم المضاد السوفيتي على القوات الألمانية منذ شتاء عام ١٩٤٢ ، وتراجع قوات المحور في شمالي أفريقيا ، جعل موضوع المفرزة العربية أمراً ثانوياً لا قيمة له .

ورداً على قرار الحكومة البريطانية في ٢٠ أيلول ١٩٤٤ بإنشاء لواء مشاة يهودي برئاسة جنرال يهودي ، ولباس يهودي خاص ، والذي اتخذ بعد مفاوضات طويلة مع الوكالة اليهودية ، قررت القيادة العليا للقوات الألمانية (O.K.W.) في الأول من تشرين الثاني ١٩٤٤ جمع الوحدات العربية المقاتلة في الجيش الألماني في لواء أطلق عليه « اللواء العربي المستقل »^(١٣٣) . ومن الجدير بالذكر أن عدد الأسرى العرب الذين وجدوا في معسكر اوبيليك (Opelika) في ألاباما (Alabama) قد

بلغ في نهاية الحرب العالمية الثانية حوالي ألفي أسير حسبما جاء في تصريح النائب الأمريكي أمانويل سيلر (Emmanuel Celler) في الكونغرس الأمريكي في ٢٠ نيسان ١٩٤٦ (١٣٤).

الخلاصة:

مرت العلاقات بين الحركة الوطنية العربية في فلسطين والرايخ الثالث بمراحل ثلاث:

- المرحلة الأولى وتبتدى٤ بوصول الحزب النازي إلى الحكم عام ١٩٣٣ وتنتهي ببداية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ .
- المرحلة الثانية وتبتدى٤ باندلاع الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ وتنتهي بالقضاء على حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق في أيار ١٩٤١ .
- المرحلة الثالثة وتبدأ بوصول الحاج أمين الحسيني إلى روما في تشرين الأول ١٩٤١ ، وتنتهي بنهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ .

تميزت المرحلة الأولى باعجاب الحركة الوطنية الفلسطينية، كغيرها من الحركات الوطنية في المشرق العربي، بالنظام النازي وبتعاطفها مع المانيا. وسبب ذلك الاعجاب والتعاطف الانجازات الكبرى والسريعة التي حققتها المانيا في العهد الجديد على الصعيدين الداخلي والخارجي وبخاصة التخلص من القيود التي فرضتها عليها معاهدة فرساي لعام ١٩١٩ ، وبالإضافة إلى الكراهية الشديدة التي كان يكتفها النازيون لليهود وتصميمهم على «تطهير» المانيا منهم. ورافق ذلك الاعجاب والتعاطف جهل تام بحقيقة السياسة الالمانية نحو اليهود، وبخاصة اتفاقية هغفارا التي أبرمتها السلطات الالمانية مع الوكالة اليهودية في فلسطين، والأخطار التي ترتبت على هذه الاتفاقية .

ورافق جهل عرب فلسطين بحقائق السياسة الالمانية جهل مماثل من الجانب الالمانى بحقائق القضية الفلسطينية سببه عدم اكتراث المانيا الجديدة بما كان يجري

في فلسطين. إذ كان اهتمامها منصباً على مخططاتها التوسعية في أوروبا الوسطى والشرقية، وعلى السعي لكسب ود بريطانيا وسكوتها عن هذه المخططات. أما شاغلها الأول فهو التخلص من الأقلية اليهودية في ألمانيا. ورغم مظاهر الود والتعاطف التي أبداها عرب فلسطين وقادتهم نحو ألمانيا ومساعدتهم للحصول على تأييدها لنضالهم، فقد كان أقصى ما بذلته ألمانيا من جهد رفض مقررات لجنة بيل (١٩٣٧) وبخاصة قيام دولة يهودية في فلسطين، انطلاقاً من اعتبارات داخلية ألمانية واعتبارات أيديولوجية بحتة، لا عطفاً على العرب وقضيتهم. وامتنعت ألمانيا عن تقديم أي عون مادي أو معنوي للثورة العربية في فلسطين بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٩، رغم المحاولات العربية المتكررة للحصول على هذا العون. وكان ذلك ممالةً منها لبريطانيا واعتقاداً منها بعدم جدوى التعاون مع العرب عامة.

أما المرحلة الثانية (١٩٣٩-١٩٤١) فقد شهدت انتقال قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية إلى العراق. وجاء اندلاع الحرب العالمية الثانية بقناعات جديدة لقيادة هذه الحركة. فقد اعتقدوا، مثل كثيرين من قادة الحركات الوطنية العربية، أن لا بد من طرح القضية العربية برمتها طرْحاً جديداً. ذلك أن الحلفاء الانجليز والفرنسيين قد أخضعوا المشرق العربي لسياسة استعمارية غاشمة ألحبت في نفوس العرب الحقد والثورة عليهم. وان هؤلاء الحلفاء هم الذين خلقوا المشكلة الفلسطينية عندما قدموا فلسطين «هبة سخية» لتكون وطناً قومياً لليهود، وسمحوا تحت حرايمهم للهجرة اليهودية بأن تتدفق على البلاد ليحل اليهود محل أهلها العرب أصحابها الشرعيين. وترأى للقادة العرب الفلسطينيين أن في العالم معسكرين: معسكر الأعداء من مستعمرين وصهاينة من جهة ومعسكر المحور من جهة أخرى. ولما لم يكن لألمانيا وجود استعماري في أي بلد عربي، لذلك كان «من الطبيعي أن تكون عواطف العرب شعوباً ومسؤولين مع ألمانيا، انطلاقاً من القول المأثور «عدو عدوك صديقك»^(١٣٥) وبعبارة أخرى لم تكن البلاد العربية، بما فيها فلسطين، بمنأى عن الصراع الدولي القائم. ولذلك لا بد من التعاون مع معسكر المحور والاستفادة من التناقضات الدولية. هذا التحليل السياسي الذي توصلت إليه القيادة الفلسطينية، وبخاصة أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا، جعلتها

تقلع نهائياً عن فكرة الكفاح القطري في فلسطين، والاتجاه إلى ربط القضية الفلسطينية بالقضية العربية العامة. ولم يكن السياسيون العراقيون والسوريون الذين التفتوا حول المفتي في بغداد يختلفون في تحليلهم للأوضاع السياسية الدولية عن تحليله^(١٣٦). ولعل هذه القناعات السياسية هي التي جعلت المفتي يتصرف في العراق وكأن البلد بلده والأهل أهله والقضية قضيته. وهي التي جعلت فريقاً من السياسيين العراقيين يرحبون به بينهم ويستشيرونه في كل صغيرة وكبيرة في شؤون العراق الداخلية، ويعتمدونه أمنياً على أسرارهم، ولا يتورعون عن التضحية بمصالح العراق الوطنية من أجل الصالح القومي العربي العام. ولذلك لم يترددوا في الموافقة على الإتصال بالمانيا وإيطاليا عن طريقه لطلب العون منهما، وان يوكلوا إليه مهمة التفاوض السري معهما.

أما المانيا فقد كانت ترى طوال هذه المرحلة المشرق العربي يقع في منطقة المجال الحيوي لحليفها إيطاليا. وان لهذه الحليفة الأولوية في معالجة القضية العربية. لذلك تلكأت في اصدار التصريح الذي طلبه المفتي والزعماء العراقيون حول مستقبل البلاد العربية. كما أنها خشيت ردود فعل حكومة فيشي تجاه أي وعد بشأن سورية ولبنان، وهي التي قطعت الوعود لها وابرمت اتفاقية الهدنة معها التي تنص على عدم المساس بالامبراطورية الفرنسية.

واتصفت المرحلة الثالثة في هذه العلاقات (١٩٤١-١٩٤٥) باستغلال المانيا لقادة الحركة العربية المتعاونين معها، وبخاصة مفتي فلسطين الذي بذل جهوداً كبيرة لخدمة الأهداف السياسية والعسكرية الالمانية من خلال اتصالاته بقيادة الحركات الوطنية في البلاد العربية والاسلامية. وعلى الرغم من هذه الجهود اقتصر عود المانيا للمفتي وغيره من القادة العرب على استقلال ووحدة أقطار الهلال الخصيب، مع تجنب الاشارة بصراحة إلى سورية ولبنان، والتأكيد على تحرير واستقلال الأقطار العربية الواقعة تحت الهيمنة البريطانية. وقد أخذت المانيا بعين الاعتبار مصالح حلفائها الإيطاليين والفيشيين، وراعت مصالح تركيا واسبانيا في معالجتها للقضية العربية. لقد كانت الفلسفة النازية وراء العلاقات العربية-

الالمانية بعامة والعلاقات الالمانية الفلسطينية بمخاصة. فقد اعتقد الالمان بعجز العرب عن بناء دولة حديثة. كما شكوا في ولائهم السياسي، كما هو واضح في تقارير ومذكرات المسؤولين الالمان الموجودة في الأرشيف السياسي لوزارة الخارجية الالمانية، وفي المذكرات والمؤلفات التي نشرها قادة المانيا النازية بعد الحرب العالمية الثانية. وكان تصور النازيين لاقتسام العالم يفترض وقوع العرب تحت النفوذ الاوروي الابيطالي والفرنسي. ولا شك أن مقتضيات الحرب العالمية الثانية هي التي اكرهت المانيا على انتهاج سياسة مخالفة لفلسفتها السياسية النازية. واما المعاملة الحسنة التي لقبها الحاج أمين فقد كانت استثناء وربما لاعتقاد هتلر باصوله الآرية على حد تعبيره. فقد صرح زعيم الرايخ الثالث بأن «شعر المفتي الأشقر وعينيهِ الزرقاوين يعطيان الانطباع بأنه شخص كان في أسلافه أكثر من آري... وان من المحتمل أن هذه الآرية قد امتزجت لديه بأحسن ما ورثه عن الرومان» (١٣٧).

ومنذ تراجع القوات الالمانية على الجبهة السوفيتية وفي شمال أفريقيا أخذت القضية العربية دوراً ثانوياً في حسابات المانيا الدولية. ومنذ منتصف عام ١٩٤٣ أصبح هم المانيا الأول الدفاع عن مواقعها في الجبهات الاوروبية، وغدا تحرير البلاد العربية بعيد المنال. وشعر الزعماء العرب المتعاونون مع الالمان بذلك، واخذوا يوجهون نقدهم علناً للسياسة الالمانية. ولم يعد للعمل الدعائي الذي كان يقوم به المكتب العربي في برلين والذي كان تحت اشراف المفتي، أية أهمية خلال عام ١٩٤٤. وشعر هتلر نفسه خلال الأشهر الأخيرة من الحرب بالأخطاء التي وقع فيها فأعرب عن أسفه لأنه لم يستغل بشكل واف امكانيات حركات التحرر الوطني في المستعمرات الفرنسية وبخاصة في سورية وتونس. كما أبدى خيبة أمله في التحالف مع موسوليني الذي لم يفد منه شيئاً في الشرقين الأدنى والأوسط (١٣٨).

المصادر :

بيان ببعض المصطلحات المختصرة :

A.A.: Auswaertiges Amt	وزارة الخارجية الالمانية -
D.G.F.P.: Documents on German Foreign Policy.	وثائق عن السياسة الخارجية الالمانية -
F.O.: Foreign Office	وزارة الخارجية البريطانية -
F.R.U.S.: Foreign Relations of the United States	العلاقات الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية -
M.A.E.: Ministère des Affaires Etrangères	وزارة الخارجية الفرنسية -
O.K.W.: Oberkommando der Wehrmacht	وزارة الخارجية للجيش الالمانى -
P.A.: Politische Archiv	الأرشيف السياسي (في الخارجية الالمانية) -
St.S.: Staatssekretær	سكرتير الدولة الالمانية -
U.St.S.: Unterstaatssekretær	وكيل وزارة الخارجية الالمانية -

- ١ - وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية (١٩١٨-١٩٣٩) من أوراق أكرم زعتر، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٧٩، ص ١٤-١٧.
- ٢ - لم يعقد المؤتمر العربي الفلسطيني الثاني في موعده المقرر في القدس عام ١٩١٩ بسبب معارضة السلطات البريطانية، الكيالي، عبد الوهاب: ص ١٥٦-١٥٩، ١٦٣ وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية (١٩١٨-١٩٣٩)، ص ٤٢-٥٨ (محاضر جلسات المؤتمر العربي الفلسطيني الثالث).
- ٣ - وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية (١٩١٨-١٩٣٩)، ص ٧٦-٨٦ (محاضر جلسات المؤتمر الفلسطيني الرابع).
- ٤ - الكيالي، عبد الوهاب: تاريخ فلسطين الحديث، ص ٢٠٠.
- ٥ - المصدر نفسه ص ٢٠٩.
- ٦ - وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية (١٩١٨-١٩٣٩)، ص ٣٢١-٣٢٢ (مقررات المؤتمر العربي الفلسطيني السابع).
- ٧ - الكيالي، عبد الوهاب: تاريخ فلسطين الحديث، ص ٢٥٢-٢٥٣.
- ٨ - Porath, Y.: The Palestinian Arab National Movement, 1929-1939, Vol. 2, Frank Cass, London, 1977, p. 119.

- Ibid, p. 120. - ٩
- ١٠- الغوري اميل: فلسطين عبر ستين عاماً، دار النهار، بيروت، بيروت، ١٩٧٢ ج ١، ص ١٤٨
- Porath, Y.: Op. Cit., P. 121.
- ١١- الكيالي، عبد الوهاب: تاريخ فلسطين الحديث، ص ٢٧١.
- ١٢- وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية (١٩١٨-١٩٣٩)، ص ٣٦١ (قانون حزب الاستقلال العربي).
- ١٣- Hofer, W.: Der Nationalsozialismus, Fischer Bucherei, Frankfurt am Main, 1962, p. 14.
- ١٤- Ben Elissar, E.: La Diplomatie du IIIe Reich et les Juifs, 1933-1939, Julliard, Paris, 1969, pp. 50-51
- ١٥- Maser, W.: Die Fruehgeschichte der NSDAP, Frankfurt, Athenaeum, 1965, pp. 285-286.
- ١٦- Ben Elissar, E.: Op. Cit, P. 52.
- بلغ عدد اليهود في المانيا عند وصول هتلر إلى الحكم حسب احصائيات حزيران ١٩٣٣ (٤٩٩٦٨٢) نسمة.
- Feilchenfeld, W., Michaelis, D., Und Pinner, L.: Haavara- Transfer nach Palestina und Ein Wanderung deutscher Juden 1933-1939, J.C.B. Mohr, Tuebingen 1972,p.37
- ١٧- Feilchenfeld W.: Op. Cit., p. 17.
- ١٨- Ibid.: p. 21.
- ١٩- Ibid.: pp. 23-26 انظر تفاصيل المفاوضات التي أسفرت عن ابرام اتفاقية هعفار في ملف:
- A.A.,P.A., Abt. III, Wirtschaft, Finanzwesen 3 Palestina, Bd.1.
- ٢٠- Feilchenfeld, W.: Op. Cit., pp. 45-5
- ٢١- Ibid., p. 75.
- ٢٢- Ibid., p. 77.
- ٢٣- Ibid, p. 70-71.
- ٢٤- M.A.E., Série E, Syrie, Carton 771 (Lettre du délégué général à Beyrouth au M.A.E., date du 10.7 1937.
- ٢٥- الغوري، أميل، فلسطين عبر ستين عاماً، ص ٢١، ص ٢٤٧.
- ٢٦- Porath, Y.: Op. Cit., p. 76.
- ٢٧- Amin, A.M.: Deutsche Orientpolitik heute, inAussenpolitik 5, 1'1954, Heft 1, Stuttgart, 1954, p. 29. Watti, M.M.: Analyse des Nationalen Interressen am Beispiel der Duetschen Arabischen Beziehung, Studien Verlag, Bochum, 1976. p. 103.
- ٢٨- Porath, Y. Op. Cit, p. 86.
- ٢٩- Ibid. p. 140.
- ٣٠- Hilderbrand, K.: Deutsche Aussenpolitik 1933-1945, Stuttgart, 1976, p. 51.
- ٣١- A.A., P.A., Politische Abt. VII, politik 11, Politische Beziehungen Palaestina Zu Deutschland, Bd. 1, Doehle an A.A., Jerusalem 7.7. 1936.
- نشرت الصحيفة الاشتراكية السويسرية «Le Travail» الصادرة في جنيف في ٣٠ أيلول ١٩٣٨ مقالاً بعنوان «النشاط الهدام في الشرق الأدنى: برلين ضد إنجلترا».
- L'Agitation subversive dans le Proche-Orient: Berlin Contre L'Angleterre.
- وذكرت في عددها الصادر في ٥ تشرين الأول ١٩٣٨ أن عرب فلسطين يتلقون الدعم المالي

والعسكري من الالمان . وفي أثناء مناقشة المسألة الفلسطينية في مجلس العموم البريطاني في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣٨ شنت صحف المعارضة البرلمانية هجوماً عنيفاً على الحكومة الالمانية واتهمتها بدعم العرب مالياً واعلامياً . كما أكدت جريدة التايمز The Times اللندنية في مقالة طويلة نشرت في عددها الصادر في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٣٨ بعنوان .

Arab and Jew in Palestine: Foreign Propaganda.

A.A., P.A., Pol. Abt. VII, Politik, 11, Bd. 1, Grobba an A.A., Bagdad, 5.1. 1937.

-٣٢

Ibid. Pilger an Grobba, Berlin, 5.2. 1947.

-٣٣

A.A., P.A., Buero Reichsaussenminister, Akten betreffend Palaestina, Doehle an A.A., Jerusalem, 22.3.1937.

-٣٤

A.A., P.A., Buero Unterstaatssekreataeer, Palaestina frage, D.G.F.P., Series Vol. V, No. 561, pp. 746-7. The Foreign Minister to Embassy in Great Britain, the Consulate General at Jerusalem and the Legation in Iraq, Telegram, Berlin, 1.6. 1937.

-٣٥

D.G.F.P., Series D, Vol. V, No. 562, pp. 747-8.

-٣٦

A.A., P.A., Pol. Abt. VII, Po. 5A, Palaestina, Bd. 1 Doehle an A.A., Jerusalem, 15. 7. 1937.

-٣٧

Ibid. Weizsaecker an Doehle, Berlin, 30. 7. 1937

-٣٨

Hirszowics, L.: The Third Reich and the Arab East, Routledge and Kegan Paul, London, 1966, p.34.

-٣٩

A.A., P.A., Pol. Abt. VII, Po.5A, Palaestina, Bd.1 Grobba an A.A., Bagdad, 17/7/1937.

-٤٠

Ibid. Grobba an A.A., Bagdad, 20/7/1937

-٤١

Ibid. Weizsaecher an Grobba, Berlin, 30/7/1937

-٤٢

Ibid. Bd. 2. Seiler an A.A. Beirut, 22/9/1937

-٤٣

A.A., P.A., Pol. Abt. VII, Politik 11, Bd. 1, Dittmann an A.A., Jerusalem, 10/8/1937.

-٤٤

A.A., Pol. Abt, VII, Po. 25, Palaestina, Bd.1

-٤٥

حداد، عثمان كمال : حركة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١، صيدا، ١٩٥٠، ص ٤، ٥ .

-٤٦

D.G.F.P. Series D, Vol. V, No. 576, pp. 778-9, The Propaganda Ministry to the Foreign Ministry, Berlin, 14/12/1937.

-٤٧

A.A., P.A., Pol. Abt. VII, Politid 11, Bd.1

-٤٨

ترجمة مقال الجامعة الاسلامية في عددها الصادر في ١٩٣٨/١/٩ .

A.A., P.A., Pol. Abt. VII, Po.2, Palaestina, Bd.1, Doehle an A.A., Jerusalem, 23/12/1938.

-٤٩

A.A., P.A., Akten U.St. S., Palaestinafrage, Notiz uber ein Gespraech mit Auni Bey Abdel Hadi, Woermann, Berlin, 1/4/1939.

-٥٠

A.A., P.A., Pol. Abt. V II, Po. 36, Palaestina

-٥١

مذكرة وزارة الخارجية الالمانية إلى كافة بعثاتها الدبلوماسية والقنصلية في العالم، برلين ١٩٣٩/١/٢٥ .

الكيالي، عبد الوهاب : تاريخ فلسطين الحديث، ص ٣٤٤ .

-٥٢

من الشخصيات السياسية الفلسطينية التي لجأت إلى دمشق وبيروت : جمال الحسيني وعزة

-٥٣

دروزة وممدوح السخن وخالد الفرح وأسحق درويش وواصف كمال ومصطفى الطاهر ومحمد

علي دروزة وداود الحسيني وسليم أبو لبن وحسن أبو السعود وصفوت الحسيني وفريد فخر

الدين وأكرم الجاعوني وعز الدين الشوا ومعين الماضي وإمين التميمي وعارف الجاعوني . ومن قادة فصائل الثورة : حسن سلامة ومحمود زلوم وخليل الياس وتوفيق إبراهيم ومحمدي زواتي وأحمد طوبى وفارس العزوني وراضي الريماوي وعبد الله الأسعد وعبد القادر الحسيني وعبد الحمي عرفة .

M.A.E. Série E, Palestine, Carton 118, Havard, Consul général de la Grande-Bretagne au délégué général du Haut- Commissaire, Damas, 30/8/1939.

Puaux, G.: Deux Années au Levant, 1939-1940, Hachette, Paris, 1952, p. 168.

حداد، عثمان : حركة رشيد عالي، ص ٣٨، ٣٩ . -٥٤

M.A.E., Série E, Palestine, Carton 118, Puaux au M.A.E., Beyrouth, 15/10/1939.

Ibid., Puaux au M.A.E., Beyrouth, 17/10/1939.

الحسني، عبد الرزاق : تاريخ الوزارات العراقية، ج ٥، ص ٨٣ . -٥٥

F.R.U.S., 1939, Vol. Iv, p. 808, Knabenshue to Secretary of State, Baghdad, 17/10/1939.

حداد، عثمان رشيد عالي، ص ٦-١٠ . -٥٦

قال المفتي في رسالة إلى عبد الرزاق الحسني مؤرخه في ٧/١/١٩٧٠ : -٥٨

« لم يكن جهدي وفقاً على فلسطين وحدها . ولكنني كنت أعتقد بضرورة الحذر من أن نلدغ من جحر انجلترا مرتين، فلا ينخدع العرب بوعودها في الحرب العالمية الثانية كما خدعوا في الحرب العالمية الأولى، إذ استغلت العرب أبشع استغلال كما غدرت بهم لما قضت وطرها، فنقضت عهودها، وتواطأت مع اليهود فمنحتهم فلسطين، ومزقت شمل البلاد العربية . لذلك نهبنا إلى ضرورة الحذر من المستعمرين وإلى محاولة انتهاز فرصة الحرب العالمية الثانية لحمل بريطانيا على اصلاح ما فعلته في الحرب العالمية الأولى» . الحسني : عبد الرزاق : الأسرار الخفية في حركة السنة ١٩٤١ التحررية، مطبعة العرفان ط ٣، صيدا ١٩٧١، ص ٣٢ .

الصباغ، صلاح الدين، فرسان العروبة في العراق، الشباب العربي، دمشق ١٩٥٦، ص ١١١ . -٥٩

حداد، عثمان : حركة رشيد عالي، ص ٨ الدرة، محمود : الحرب العراقية - البريطانية ١٩٤١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٩، ص ١٩٠، الصباغ، صلاح الدين : فرسان العروبة في العراق، ص ١٣٩، الحسني، عبد الرزاق : الأسرار الخفية ص ٤٢ . -٦٠

D.G.F.P., Series D, Vol. X, No. 403, p. 557, Grobbas memorandum of 27 August 1940.

Grobba, F.: Maenner und Maechte im Orient, Musterschmidt verlag, Goetigen, 1967, pp. 192-5.

جاء في رسالة المفتي إلى عبد الرزاق الحسني المؤرخة في ٧ كانون الثاني ١٩٧٠ ما يلي : « أن معارضتي لفكرة تدخل الجيش العراقي في سورية صحيحة لأن تلك كانت خطة وضعها الانجليز ليشغلوا العراق والمجاهدين الفلسطينيين الذين كانوا في العراق في معركة مع الفرنسيين في سورية، وازعاج دول المحور التي كنا نأمل فيها خيراً لنا لموقفها المعادي لليهود والانجليز، فنصحت بعدم التورط مع الانجليز وعملت على احباط خطتهم» . الحسني، عبد الرزاق : الأسرار الخفية، ص ٤٢، ٤٣ . -٦٢

D.G.F.P., Series D, Vol. X, No. 125, pp. 143-4.

Ibid, No. 200, pp. 261-2, Woermann's note, Berlin, 21/7/1940.

نص رسالة المفتي بالانجليزية -٦٣

-٦٤

- A.A., P.A., Akten des St.S., Arabien, Bd. 1, Droll an A.A., Tarabaya, 31/7/1940, Woermann an papen Berlin, 18/1/1940 Papen an A.A., Trabya, 6/8/1940. -٦٥
- Ibid. Grobba Aufzeichnung vom 27/8/1940. -٦٦
- D.G.F.P., Series D, Vol. X, pp. 559-560 (Text of the declaration draft).
حداد، عثمان: حركة رشيد عالي، ص ٢٩-٣١.
- حداد، عثمان: حركة رشيد عالي، ص ٣٣. -٦٧
- المصدر نفسه، ص ٣٤-٣٦. -٦٨
- المصدر السابق، ص ٤٦. -٦٩
- D.G.F.P., Vol. X, No. 200, p. 261-2, Woermann's note, Berlin, 21/7/1940.
A.A., P.A. Akten St. S., Arabien, Bd. 1. -٧٠
- Grobba, F.: Op. Cit., p.199. Kirk, C.: The Middle East in the War, Oxford University Press, 3rd Ed. London, 1954, p.64. -٧١
- حداد، عثمان: حركة رشيد عالي، ص ٤٦. -٧٢
- Hirszowicz, L.,: Op. Cit., P. 94. -٧٣
- حداد، عثمان: حركة رشيد عالي، ص ٨٠. -٧٤
- المصدر نفسه، ص ٨٤. -٧٥
- وتقرر في هذا الاجتماع أن يتستر هؤلاء بأسماء مستعارة. -٧٦
- الصباغ: صلاح الدين: فرسان العروبة في العراق، ص ٢١٨-٢٢٠، ياغي اسماعيل: حركة رشيد عالي الكيلاني، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٤، ص ٨٧-٨٨، الدرّة، محمود: الحرب العراقية-البريطانية، ص ١٨٣، ١٨٤. -٧٧
- نص رسالة المفتي بالفرنسية. -٧٨
- D.G.F.P., Vol. XI, No 680, pp. 1151-5 A.A., P.A., Akten U.St.S., Irak, Bd.1.
D.G.F.P., Vol. X, No. 403, pp. 559-560. -٧٩
- A.A., P.A., Akten U.St.S., Irak, Bd.1.
D.G.F.P., Vol. XII, No. 293, pp. 488-490, Berlin, March11, 1940, -٨٠
- D.G.F.P., Vol. XII, Ruehle's notes for Ribbentrop, Berlin, 5/5/1941. -٨١
- Ibid. Woermann's note, Berlin, 26/3/1941. -٨٢
- A.A., P.A., Akten U.St.S., Irak, Bd. 11. O.K.W. (Geplante Massnamen des Amtes Ausland/ Abwehr in Vorderen Orient, Berlin, 25/3/1914.
Churchill, W.: The Great Alliance, Cassel and Ltd. London, 1950, pp. 374-9 -٨٣
- Eden, A.,: The Reckoning, Cassel, London, 1960, p.242. Churchill, W.: Op. Cit., p. 225. -٨٤
- ياغي اسماعيل: حركة رشيد عالي، ص ١٤٤. -٨٥
- الدرّة، محمود: الحرب العراقية-البريطانية، ص ٣٦٠. -٨٦
- A.A., P.A., Akten Reichsaussenminister, Irak. -٨٧
- مذكرة السفارة الإيطالية في برلين المؤرخة في ١٩ نيسان ١٩٤١.
- D.G.F.P., Vol. XII, No. 494, pp. 775-6, Gehrke's despatch, Bagdad, 11/5/1941, 21/5/1941, and 24/5/1941. -٨٨
- تلقى المفتي خمسة عشر ألف دولار من غروبا في ١١/٥/١٩٤١ وعشرة آلاف دولار في ٢١/٥/١٩٤١ وبلغ مجموع ما تلقاه من غروبا في بغداد (٣٥٠٠٠) دولار.
- A.A., P.A., Akten U.St.S. Irak, Bd. 3, Gehrke an A.A., Bagdad. 17/5/1941. -٨٩
- Ibid. Gehrke an A.A., Bagdad. 21/5/1941. -٩٠

- ٩١- الرئيس، منير: الكتاب الذهبي للثورات العربية، حرب العراق ١٩٤١، مطابع ألف باء، دمشق ١٩٧٧، ص ٧٢-٧٤.
- ٩٢- D.G.E.P., Vol. XII, Ettel's despatch, Teheran, 30/5/1941.
- ٩٣- A.A., P.A., Akten Reichsausseinminister, Irak, Grehke an A.A., Bagdad, 31/5/1941.
- ٩٤- A.A., P.A., Akten U.St.S. Irak, Bd. 4, Ettel an A.A. Teheran, 28/6/1941.
- ٩٥- Ibid. Bismarck an A.A., Roma. 13/10/1941.
- ٩٦- A.A., P.A., Akten St.S., Irak Bd. 2, Seiler an A.A., Istanbul, 1/7/1942.
- ٩٧- D.G.F.P., Vol. XIII, Mackensen's despatch, Rome, 14/11/1941.
- ٩٨- Ibid. Weizsaecker's note, Berlin, 7/11/1941.
- ٩٩- A.A., P.A., Handakten Ettel (3). Grobba Aufzeichnung, Berlin, 12/11/1941.
- ١٠٠- الأخبار، القاهرة، رقم ١٦٠٨، ٢ سبتمبر ١٩٥٧، ص ٥، ٦.
- ١٠١- Eden, A.: Freedom and Order, Faber and Faber, London, 1947, pp. 104/5.
- ١٠٢- D.G.F.P., Vol. XIII, No. 494, pp. 815-6, Abetz's despatch, Paris, 23/11/1941.
- ١٠٣- Ibid., No. 468, p. 775., Ribbentrop's memorandum, Berlin, 13/11/1941.
- ١٠٤- Ibid. Mackensen's despatch, Rome, 14/11/1941, 22/11/1941.
- ١٠٥- Ibid., No., No S. 415, 515, pp. 876-885.
- ١٠٦- Ibid. Grobba's note, Berlin, 21 and 26/1/1942.
- ١٠٧- Ibid. Text of the Japanese draft, Berlin, 10/1/1942.
- ١٠٨- A.A., P.A., Handakten Ettel (11), 1942-1943, Grobba Aufzeichnung, Berlin, 7/2/1942.
- ١٠٩- A.A., P.A., Akten St.S., Irak, Bd.2., Handakten Ritter,
- نص الكتب المتبادلة بين ريبنتروب والمفتي ورشيد عالي، الحسيني، عبد الرزاق: الأسرار الخفية، ص ٦٢ (النص الكامل للتصريح بالعربية).
- ١١٠- A.A., P.A., Handakten Ettel (3) Grossmufti
مذكرة أتل، برلين في ٢٦ حزيران ١٩٤٢.
- ١١١- Ibid., Seiler an A.A., Istanbul, 4/7/1942.
- ١١٢- A.A., P.A., Gandakten Ettel (5), Grossmufti
نسخة من بيان المفتي إلى الشعب المصري.
- ١١٣- Ibid. Handakten Ettel (3) Grossmufti
رسالة شيانو إلى المفتي في أيلول ١٩٤٢.
- ١١٤- AA., P.A., Akten St.S., Irak, Bd. 2.
مذكرة فورمان لريبنتروب، برلين في ٨/١٢/١٩٤٢.
- ١١٥- A.A., P.A., Handakten Ettel (2) 1942-1943, Grobba Aufzeichnung, Berlin, 26/9/1942.
- ١١٦- Handakten Ettel (6) Grossmufti
- ١١٧- A.A., P.A., Inland 9, Bd. 410, Naher Osten, Hofheinzund Boehm Bericht.
- ١١٨- A.A., P.A., Handakten Ettel (5) Grossmufti
نص رسالة المفتي إلى فقير آبي بدون تاريخ.
- ١١٩- A.A., P.A., Inland II 9, Bd. 410, Naher-Osten
سكوبيا (Skopje) عاصمة مكدونيا في ٢٨/٣/١٩٤٤. تقرير من القنصل الألماني (Witte) في مدينة
- ١٢٠- Ibid, Woermann Aufzeichnung, Berlin, 29/4/1943.
- الرئيس، منير، حرب العراق، ص ٢٨٥-٢٨٨.
- ١٢١- Ibid, Neubacher an A.A., Belgrad, 9/4/1944.
- ١٢٢- A.A., P.A., Handakten Ettel (5) Grossmufti. Ettel Aufzeichnung, Berlin, 12/7/1924.

- الريس، منير: حرب العراق عام ١٩٤١، ص ١٧٨. -١٢٣
- D.G.F.P., Vol. XIII, Granow's and Bismarck's despatches Rome, 28/3/1942. -١٢٤
- Ibid., Weizaecker's notes, Berline, 7/11/١٩٤٤. -١٢٥
- Ibid., Notes on Statement by Colonel Rudolf, Abteilung Ausland, O.K.W., Berline, 12/1/1942. -١٢٦
- Ibid., Grobba's note, Berlin, 30/5/1942. -١٢٧
- Ibid., Granow's and Bismarcks despatches, Rome, 28/3/1942, 30/3/1942. -١٢٨
- Ibid., General Felmy to Haj Amin al-Husseini, 18/6/1942. -١٢٩
- Ibid., Unsigned notes, Westfallen, May 31, 1942. -١٣٠
- Goerlitz, W.: Der Zweite Weltkrieg, Stuttgart, 1951, Vol. I. P. 358 -١٣١
A.A., P.A., Handakten Ritter,
مذكرة غروبيا حول تفاصيل تشكيل القوات، برلين ١٩٤٢/٩/٣.
- D.G.F.P., Vol XIII, Amin el-Husseini memorandum for the Commando Supremo, Rome, 29/8/1942. -١٣٢
A.A.P.A., Handakten Ritter.
رسالة المفتي إلى الفيلد رمارشال كايتل (Keitel) رئيس هيئة أركان الجيش الألماني في
١٩٤٢/٨/٣٠.
- Pearlman, M.,: Mufti of Jersalem, London, 1947, p. 59 Kirk, G.: Op. Cit., P. 321. -١٣٣
Congressional Record, Vol. 92, Dt.3, Col. 3460. -١٣٤
- حديث لأمين الحسيني مع خيرية قاسمية، مجلة شؤون فلسطينية، بيروت آب ١٩٧٤، ص
١٨، ١٧. -١٣٥
- الشيخ علي، علي محمود: اراء في القضية العربية وذكريات عنها، مطبعة السعدي، بغداد،
١٩٥٠، ج ١، ص ٢٥٧. -١٣٦
- Hirsowicz, L.Op. Cit, p. 313. -١٣٧
- انظر تصريحات هتلر في الكتاب الذي نشره مارتن بورمان :
Bormann, M.: Le Testament Politique de Hitler, Paris, 1959. -١٣٨

المسألة اليهودية في كتابات ليونسكر

د. أمين عبد الله محمود
جامعة الكويت

تعالج هذه الدراسة مفهوم المسألة اليهودية من حيث نشأتها وتطورها في روسيا القيصرية في اواخر القرن الماضي وتحلل الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي ادت الى بروز هذه المسألة على شكل هجرات واسعة من عامة اليهود الروس صوب اوروبا الغربية وتبين الاسباب التي دعت الى توجيه مسار هذه الهجرات خارج القارة الأوروبية والى فلسطين بالذات .

وقد تبنت هذه الدراسة كتابات المفكر اليهودي الروسي «ليونسكر» الذي طرح الصهيونية حلا عمليا للمسألة اليهودية . وستناول الدراسة هذا الحل الصهيوني بالنقد والتحليل للتوصل الى الاهداف الحقيقية التي كان يسعى اليها هذا المفكر الذي اقتدى به فيما بعد غالبية المفكرين الصهاينة .

★ ★ ★

نشأة المسألة اليهودية :

كانت روسيا القيصرية في نهاية القرن التاسع عشر تضم اكبر نسبة من يهود العالم . فقد بلغ عددهم فيها عام ١٨٨٠ حوالي ٤ مليون من اصل ٧ مليون يهودي منتشرين في شتى ارجاء العالم.^(١) وكانت غالبية اليهود الروس متركزة في المناطق الغربية والجنوبية الغربية من روسيا . وقد شهدت روسيا في نهاية القرن الثامن عشر زيادة ملحوظة في عدد قاطنيها اليهود وذلك نتيجة لتقسيم بولندا للمرة الثالثة^(٢) وحصول روسيا على مناطق اكرانيا وبييلوروسيا (روسيا البيضاء) وحوض

البلطيق، وكانت هذه المناطق تضم اعداداً كبيرة من اليهود تصل الى حوالي ١٤ مليون نسمة .

كانت الاوضاع الاقتصادية ليهود روسيا حتى منتصف القرن التاسع عشر يغلب عليها الطابع التجاري المركنتيلي Mercantile والحرفي الصغير الذي كان قائماً في فترة ما قبل الرأسمالية . وقد كان اليهود يحتكرون التجارة والربا ويقومون بدور الوسيط بين الاقطاعيين الروس وبين الفلاحين ويستأجرون المزارع والحانات والمطاعم والفنادق ويتولون ادارتها^(٣) . « كان الكثيرون منهم » (اليهود الروس) ، كما يقول فون فورتنباغ ، « يضمنون ويديرون املاك الاقطاعيين ويستثمرون الحانات . وكان كل شيء بين ايديهم : فهم يقرضون الأموال للأسياد والفلاحين ... وهم الذين كانوا يستوردون البضائع من ليزغ وباقي مدن اوربا الغربية لبيعها في الأسواق الروسية^(٤) . وقد ورد على لسان جندي فرنسي يدعى بوييسك في رسائل من حرب روسيا معلومات هامة عن دور اليهود الاقتصادي في روسيا : « كانوا الوسطاء بين الفلاحين والاسياد ، وكان الاسياد يؤجرونهم حاناتهم ويلزمونهم ببيع المشروبات المصنوعة في أملاكهم . وكان على الفلاحين الروس بمناسبة الأعياد والعماد والدفن والزواج ان يشتروا على الاقل وعاء كبيراً واحداً من المشروبات الروحية ، ويبيعهم اليهود اياها بالربا فارضين فوائد مرتفعة وكانوا يتدخلون في كافة العمليات التجارية في المنطقة الى جانب كونهم صيارفة^(٥) .

وقد كان اليهود في غالبية مناطق سكناهم يقيمون في تجمعات خاصة بهم اشبه بمستوطناتهم الحالية في فلسطين . كانت كل مستوطنة تقام عادة خارج حدود المدن والقرى الروسية ويختار لها موقع استراتيجي يوفر للمستوطنين من ناحية ، امكان الوصول بسهولة الى الاماكن المأهولة بالسكان للقيام بأعمالهم ، ويوفر لهم من ناحية اخرى العزلة وعدم الاختلاط بغيرانهم الروس . وكان لكل مستوطنة مجلس اداري خاص يتولى تسيير امورها الداخلية وتنظيم علاقاتها مع المستوطنات اليهودية الأخرى بالإضافة الى تنظيم علاقاتها مع الاغيار . وقد اطلق على هذا النظام الاداري اسم كهال (او قهال) Kahal وعرفت المستوطنات اليهودية في

روسيا الغربية باسم «حظيرة التوطن اليهودية»^(٧) Pale of Settlement . ويلاحظ ان نظام المستوطنات لم يكن معروفا على هذا النحو في اوربا الغربية . فنظرا لان المدن الغربية كانت مدنا مزدهرة وكبيرة وتمتلك امكانات اقتصادية واسعة ، فقد وجد اليهود ان بامكانهم الاستيطان داخل حدود كل مدينة ولكن ضمن حي خاص بهم اصطلح على تسميته بالجيتهو Ghetto او كما عرف في المدن الالمانية . Judengasse .

لكن اوضاع اليهود الاقتصادية والاجتماعية سرعان ما بدأت تتعرض لهزات كبيرة في اعقاب التطورات الجديدة التي شهدتها روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . لقد اخذت الطبقة الوسطى الروسية تظهر ، لأول مرة ، على مسرح الاحداث في اعقاب الغاء القنانة الروسية عام ١٨٦١^(٨) واخذت تنافس التجار اليهود من جهة ، وتضيف سبل العيش امام الحرفيين منهم الذين لم يتمكنوا من منافسة عملية «الميكنة» الحديثة من جهة اخرى . ومما قوى شوكة هذه الطبقة الروسية تدفق رؤوس الاموال الاوروبية الغربية على روسيا بحيث فتحت آفاق استثمار صناعي واسع ادى في النهاية الى اندثار الحرف الصغيرة والتجارة المحدودة والربا الذي كان غالبية يهود روسيا يعتمدون عليها في معيشتهم . وقد عبر أحد كبار دارسي النظام الرأسمالي فيرنز سومبارت F. Sombart مشخفا هذه الظاهرة بقوله : « لا يعود بؤس اليهود في روسيا الا الى فترة الغاء القنانة . والنظام الاقطاعي في الملكية الريفية . لقد وجد اليهود فرصاً واسعة للاستمرار كتجار ووسطاء طوال فترة وجود الاقطاع والقنانة»^(٨).

وهكذا وجه غالبية اليهود الروس أنفسهم ازاء تحد اقتصادي كبير يقتلعهم من مواقعهم التجارية والحرفية التقليدية ويضطرهم الى هجر مستوطناتهم والتدفق في هجرات واسعة بادىء الأمر صوب الامر المدن الروسية التي اخذت تنمو بسرعة وتنتشر فيها الورش والصناعات الثقيلة . غير انه لم يكن بمقدور الحرفي اليهودي في المدينة الروسية النامية الصمود أمام هجرة الفلاحين الروس الوافدة من الريف في اعقاب تحررهم من السلطة الاقطاعية . لقد كان بوسع هؤلاء الفلاحين

الذين اعتادوا منذ زمن بعيد على المستوى المعيشي المنخفض والعمل الجسدي الشاق ان يتحولوا الى طبقة عاملة تتحمل صعوبة الحياة وشظفها. اما الحرفي اليهودي ففي الوقت الذي لم يكن بمقدوره منافسة المصانع الضخمة نجدة يواجه صعوبة كبيرة في التحول الى صفوف الطبقة العاملة^(٩)، مما اضطره الى التفكير ثانية بالهجرة، ولكنه بدل ان يلجأ هذه المرة الى مناطق اخرى داخل روسيا أخذ يستعد ويحاول الهجرة الى الخارج. ولعل مما اجبره ايضا على التفكير بالهجرة موقف الطبقة الوسطى الآخذة في الصعود التي دفعها تطلعاتها المادية صوب المزيد من توسيع اعمالها ونشاطاتها لتستحوذ على السوق المحلية وتتخلص من اية منافسة من جانب القوى الاقتصادية التقليدية. وكانت هذه القوى تتضمن أعداداً كبيرة من اليهود ممن كانوا يسيطرون على الحرف الصغيرة والمواد الاستهلاكية. ويلاحظ ان الفئات الحرفية اليهودية كانت تلجأ باستمرار في المراحل الاولى لنمو الرأسمالية وصعودها في بلد معين الى هجر ذلك البلد والبحث عن مجتمعات اقطاعية اخرى كي تعيش في «مساماتها» كما حدث في القرنين السادس عشر والسابع عشر حينما اتجهت الهجرات اليهودية من اوروبا الغربية صوب اوروبا الشرقية. ونظرا لانه لم يعد بإمكان هؤلاء الحرفيين من اليهود الروس الهجرة الى مجتمعات اقطاعية اخرى داخل القارة الاوروبية فإن البديل الوحيد الذي بقي امامهم هو الهجرة الى دول اوروبا الغربية التي كانت قد قطعت شوطا واسعا في التطور الرأسمالي وتجاوزت المراحل المبكرة التي يشتد فيها عادة التنافس بين الحرفيين اليهود وافراد الطبقة الوسطى الصاعدة. وقد كانت امريكا الشمالية مكانا آخر استقطب اهتمام الكثير من اليهود للهجرة والاستيطان فيه. فالظروف الاقتصادية في امريكا في اواخر القرن ١٩ كانت تتحسن بصورة مطردة وشكلت الامكانيات المعيشية الواسعة فيها حافزا كبيرا لليهود الروس كي يهاجروا اليها ويستوطنوا فيها^(١٠).

ولعله من المناسب في هذا المجال التوقف بعض الشيء لتفسير ظاهرة المعادة والاضطهاد التي تعرض لها غالبية اليهود في روسيا خلال القرن التاسع عشر. ان السلوك الاقتصادي اليهودي وارتباطه بخدمة الاقطاعي الروسي في استغلاله

للجماهير الفلاحية من الشعب الروسي لم يؤد فقط الى كراهية الفلاحين للاقطاعيين وحدهم، وانما تجاوزه ليشمل، على نحو اشد كراهية اليهودي الذي كان يقوم بدور الوسيط في عملية الاستغلال بين الفلاح والقطاعي. وما زاد من هذه الكراهية العزلة التي التزمها اليهود بعدم اختلاطهم بغيرهم من سكان البلاد مما ادى الى بقائهم في نظر هؤلاء عنصراً غريباً ينتفع بخيراتهم ويذاحمهم في ارزاقهم. وقد انتهزت الطبقة الوسطى الروسية الفرصة فأخذت تنظم حركة مناهضة لليهود كي تستفيد منها في تحويل الانظار عن المشكلات والتناقضات التي كانت تعاني منها. وبالرغم من ان اليهود قد تعرضت بعض فئاتهم من جراء ذلك الى اضطهادات متلاحقة عرفت باسمها الروسي Pogrom^(١)، الا ان هذه الاضطهادات لم تبلغ من القسوة حداً لم تتعرض له فئات او اقلية روسية اخرى. غير ان المعاناة اليهودية على مر العصور وجدت من يصورها بحجم مبالغ فيه وبطريقة يسهل استغلالها لتعميق تآلف اليهود وتكاتفهم في سبيل مصالحهم وتطلعاتهم الذاتية^(٢).

ان الاضطهادات التي تعرض لها اليهود الروس وتردي احوالهم الاقتصادية والاجتماعية ادى بهم الى البدء بالهجرة صوب الدول الغربية. تلك كانت بداية ما عرف «بالمسألة اليهودية». وشكلت هجرات هؤلاء اليهود الروس عبئاً ثقيلاً على البرجوازية اليهودية في اوربا الغربية. لقد ادركت هذه الفئة من اليهود الاثرياء انه من الصعب على هؤلاء المهاجرين الاندماج السريع في المجتمعات الغربية نظراً للحواجز اللغوية والثقافة مما ادى الى خشيتها من ان تتولد بين الشعوب الاوروبية موجة من الكراهية العنصرية ضد اليهود عامة. لذلك اتجهت الى اقامة مؤسسات وجمعيات بهدف تنظيم عملية تهجير اليهود الروس وتوطينهم خارج القارة الاوروبية في فلسطين او غيرها خشية ان يؤثر وجودهم في اوربا الغربية على الحقوق والامتيازات التي كان يتمتع بها اليهود الغربيون.

وما زاد من تخوف البرجوازية اليهودية ما كان يشاع في ذلك الوقت عن اشتراك اعداد كبيرة من فقراء اليهود الروس في الحركات الثورية والأحزاب اليسارية المناهضة

للأنظمة التي تسير على النهج الرأسمالي ومن ضمنها النظام الروسي الذي اخذ يتبنى هذا النهج في اواخر القرن الماضي. وبدت هذه الظاهرة وكأنها تشكل في وطنية واخلاص اليهود عامة للبلاد التي كانوا يعيشون فيها. وبالإضافة الى ذلك فانه نظراً للاستثمارات الواسعة التي كانت للبرجوازيين اليهود في روسيا فانهم ادركوا ان الخسارة ستلحق بهم اذا ما حدثت اضطرابات او ثورات فيها^(١٣) وكان هذا في حد ذاته على ما يبدو، عاملاً هاماً في دفع البرجوازية اليهودية للبحث عن «وطن» يهودي خارج القارة الأوروبية تتجه اليه هذه المهجرات^(١٤).

وبالرغم من اهتمام البرجوازية اليهودية الغربية في إيجاد حل لمشكلة المهاجرين اليهود الروس فان اولئك الذين اهتموا الى «الحل الصهيوني» للمشكلة لم يكونوا من اليهود بل من المسيحيين من ممثلي الطبقات البرجوازية الحاكمة في الدول الأوروبية. فقد اخذت هذه الطبقات منذ مطلع القرن التاسع عشر تجر دولها الى التنافس في طرح مشاريعها الخاصة بتوطين اليهود في فلسطين او اية منطقة اخرى ضمن المناطق التي كانت هذه الدول تسعى الى مد سيطرتها ونفوذها عليها. ومن الأمثلة على ذلك تلك الدعوة التي أطلقها نابليون بوناپرت إبان حملته على مصر عام ١٧٩٨ لتوطين اليهود في فلسطين واعادة بناء «مملكة اورشليم القديمة»، وذلك من اجل استقطاب الجاليات اليهودية في الشرق وجمعها تحت لوائه لتحارب معه وتكون عوناً له في دعم نفوذه وتثبيت سلطانه^(١٥). وكان اللورد بالمرستون^(١٦) من اشد المتحمسين لفكرة توطين اليهود في فلسطين منذ توليه وزارة الخارجية البريطانية. حتى بعد تسلمه رئاسه الوزارة فيما بعد، حيث تبنى في مؤتمر لندن عام ١٨٤٠ مشروعاً يدعو الى انشاء «كومولث يهودي» في فلسطين يقف فاصلاً بين مصر والشرق العربي ليحول دون قيام حركة وحدوية مصرية جديدة على غرار تلك الحركة التي قام بها محمد علي^(١٧). كذلك كان من بين المتحمسين للمشاريع الصهيونية ارنست لاهران E. Laharanne السكرتير الخاص لنابليون الثالث الذي دعا في كتابه «المسألة الشرقية الجديدة» الصادر عام ١٨٦٠ الى إقامة «دولة يهودية» في فلسطين. والغريب ان لاهران وهو يعدد الفوائد التي

ستعود على المصالح الفرنسية من وراء انشاء هذه «الدولة» وجد ان لا بد من تأمين استمرار وجود هذه «الدولة» عن طريق تحالفها من قوتين رئيسيتين في المنطقة: القوة المارونية لبنان التي كانت فرنسا تحارب الى جانبها اثناء فتنة الستين وقوة الستين وقوة المستوطنين الاوروبيين التي كانت تسعى فرنسا عن طريق ممثلها فرديناند دلسيس لاقتناع حكام مصر على توطينهم في المناطق المحيطة بقناة السويس^(١٨).

وهكذا فان اليهود انفسهم لم يتبنوا الحل الصهيوني الا بعد ان سبقهم اليه عدد من الصهيونيين المسيحيين. وكان كبار الاثرياء من اعضاء البرجوازية اليهودية هم اول من تبني ذلك الحل الصهيوني. واتخذ تبنيهم بادىء الامر شكل تنظيم مشاريع تهجير وتوطين اليهود اروس في مستعمرات زراعية في مناطق مختلفة من العالم. وهذه المشاريع الهادفة لابعاد الفقراء اليهود انشئت بتمويل من كبار اثرياء البرجوازية اليهودية في اوربا الغربية. فالبارون دي هيرش De Hirsch «جمعية الاستعمار اليهودي» التي أنشأها قامت بتمويل الهجرة وتنظيمها للاستيطان في الارجننتين^(١٩). والبارون ادموند دي روتشيلد وآخرون من افراد عائلته اشرفوا على انشاء مستوطنة زراعية في فلسطين لاستيعاب عدد من المهاجرين اليهود^(٢٠) وقام أيضاً الاتحاد اليهودي العالمي Alliance Israelite Universelle الذي كان اصلاً جهازاً انشأته البرجوازية اليهودية في فرنسا، قام بتوفير التمويل اللازم لبناء ورعاية المستوطنات اليهودية في فلسطين وخارجها^(٢١).

ولم يقتصر دور البرجوازية اليهودية على المساهمة المادية في انشاء المؤسسات والجمعيات وتمويل بعض المستوطنات الزراعية في فلسطين او غيرها وانما لجأت ايضاً الى سلاح فعال وهو تبني مجموعة من المفكرين وتوفير الدعم والرعاية لهم حتى يستطيعوا استقطاب الجماهير ليهودية لخدمة مصالح التحالف البرجوازي اليهودي والرأسمالي الغربي. وكان من اهم هؤلاء المفكرين يهودا القلعي^(٢٢) Yehuda Alkalai وتسفي كاليشر^(٢٣) Zui Kalischer وموزس هس^(٢٤) Moses Hess غير أن واضح الأسس العملية للصهيونية السياسية كان ليونسكسر Leo Pinsker

الذي تناول هذه الدراسة اراءه بالنقد والتحليل مسلطة الاضواء على الاهداف الحقيقية التي كان يسعى اليها .

الحل الصهيوني كما طرحه ليونسكر

ان اول دراسة حقيقية للصهيونية السياسية يكتبها مفكر يهودي ظهرت في الكراس الذي وضعه ليونسكر Leo Pinsker (١٨٢١-١٨٩١) عام ١٨٨٢ تحت عنوان التحرر الذاتي^(٢٥) Auto-Emancipatio . وقد كان بنسكر يحكم مولده ونشأته ينتمي الى الفئة البرجوازية من يهود روسيا . فوالده كان واحداً من زعماء الجالية اليهودية في مدينة توماشوف من اعمال بولندا الروسية . وحظي بنسكر بثقافة روسية علمانية بالاضافة الى ثقافة المهسكلاه اليهودية^(٢٦) Haskala . انهى دراسته الثانوية في مدرسة روسية ودرس القانون في مدينة اوديسه ثم دخل جامعة موسكو لينال منها شهادة طبية . مارس الطب في اوديسه وخدم كضابط طبيب خلال حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦) مما حدا بالقيصر نقولا الأول ان يمنحه وساماً اعترافاً بخدماته في معالجة الجنود الروس الذين انتشر بينهم مرض التيفوس خلال الحرب .

بدأ بنسكر عام ١٨٦١ في كتابة مقالات اسبوعية في بعض المجلات اليهودية التي كانت تصدر بالروسية . وكانت كتاباته ذات طابع اندماجي تدعو لجعل اللغة لروسية والثقافة الروسية تتغلغلان في صلب حياة اليهود الداخلية بما فيها مقوماتها الدينية والفكرية . وقد اصبح بنسكر زعيم المسكليم^(٢٧) Maskilim في مدينة اوديسه وأحد المشرفين على نشاط فرع «جمعية نشر الثقافة بين يهود روسيا Society for the Diffusion of Culture among the Jews of Russia

(تأسست عام ١٨٦٣)^(٢٨) . وكان مجال عمل تلك الجمعية الذي اشترك بنسكر في وضع خطتها تهدف الى مساعدة اليهود على اكتساب اللغة الروسية كلغة شعبية «وذلك» بواسطة الاهتمام بالدائرة الدينية للحياة «لانه» معروف للجميع ومقبول لديهم كحقيقة تاريخية مدعمة بالبراهين بأن على اليهود ان يندمجوا في

سكان الدول التي يعيشون فيها، ويحافظوا على ديانتهم فقط»^(٢٩). وقد قامت الجمعية بمحاولات لنشر اللغة الروسية بين الجماهير اليهودية عن طريق اصدار كتب لتدريس الديانة اليهودية مكتوبة باللغة الروسية وبدأت على العمل على ترجمة المزامير والتوراة الى هذه اللغة ايضا. ومن الجدير بالذكر أن الاغلبية الساحقة من يهود روسيا كانت لا تعرف لغة البلاد وتتخذ من اليبديش لغة التخاطب بينهم. وقد اظهر بنسكر حماسا هائلا لخطة عمل الجمعية مما جعله يتعرض لهجوم ونقد الفئات المتدينة من اليهود^(٣٠).

بقي بنسكر طيلة الفترة ما بين عامي ١٨٦١-١٨٨١ متمسكا بدعوته لاندماج اليهود في المجتمع الروسي وفي بقية للمجتمعات الاخرى التي كانوا يعيشون فيها. وظل يدعو اليهود الى ضرورة الاخذ باللغة الروسية والثقافة الروسية وكافة اوجه الحضارة الروسية. وكان تبهر بنسكر لالتزامه بهذه الدعوة طيلة تلك الفترة بأن نظام الحكم الروسي لا بد أن يتطور لكي يصبح ملكيا دستورياً على النسق البريطاني تعيش في ظلاله جميع الشعوب بمساواة تامة^(٣١). ولكن هذا الحماس الشديد الذي أبداه بنسكر لعملية اندماج اليهود في المجتمع الروسي وتخليهم عن عزلتهم التقليدية يثير تساؤلات هامة حول مغزى وجدية هذا الحماس؟ لم تكن هذه الدعوة لاندماجية مقتصرة على بنسكر وحده فقد كان هنالك عدد آخر من المفكرين اليهود امثال سمولينسكين^(٣٢) Smolenskin و ليلينبوم^(٣٣) Lilienbaum وبن يهودا^(٣٤) Ben Yahuda ممن ارتفعت اصواتهم بنفس الحماس لهذه الدعوة. والغريب ان تجيء هذه الدعوة في أعقاب تحرير الفلاحين الروس عام ١٨٦١ و حدوث هزات اجتماعية واقتصادية كبيرة في روسيا لدرجة انه بات بالإمكان تفسيرها كمحاولة قصد من ورائها تجنب اليهود مغبة الوقوع هدفا لانتقام الفلاحين بسبب موقفهم الراض لاندماج وسلوكهم كاقليية مستغلة في المجتمع الروسي. واذا صح هذا التفسير فإن الدعوة الاندماجية يمكن اعتبارها محاولة للخروج المؤقت من الازمة التي تصور اصحاب هذه الدعوة ان اليهود سيواجهونها لا محالة.

ويفسر غالبية الكتاب تحول بنسكر الى صهيوني «متقد حماسة» عام ١٨٨٢ حينما اصدر كراس التحرر الذاتي بان ذلك نتيجة مباشرة للاضطهادات التي تعرض لها اليهود في روسيا عام ١٨٨١، وانه لولا حدوث هذه الاضطهادات لما اقدم بنسكر على طرح فكرة الصهيوني^(٣٥). وبعبارة اخرى فإن حلول وآراء بنسكر الصهيونية جاءت كرد فعل للمعاناة اليهودية. ان هذا هو المنطق الصهيوني التقليدي في تفسير مبادرات حركته الهجومية العدوانية فكرية كانت ام عسكرية اقتصادية ام سياسية. فمثل هذه المبادرات تفسر باستمرار على انها مجرد ردود فعل، الهدف منها حماية الكيان ليهودي من خطر خارجي يترتب بأفراده ليدفع بهم صوب مزيد من الشقاء والمعاناة! فهل كانت آراء وحلول بنسكر الصهيونية حقيقة مجرد رد فعل للمعاناة اليهودية؟

لعله ليس من قبيل الصدفة ان يجيء ظهور كراس بنسكر فور عودته من جولة قاداته الى بريطانيا وعدد من الدول الأوروبية الاخرى. لقد امضى فترة في لندن لاجتماع خلالها بعدد من زعماء الجالية اليهودية وبعض السياسة البريطانيين. وكانت الشكوى واحدة غالبية الزعماء اليهود الغربيين وتكرزت حول الهجرات اليهودية المتزايدة الى أوروبا الغربية وضرورة الحد منها عن طريق اقناع اليهود الروس واغرائهم بالتوجه الى منطقة بديلة اخرى يلجأون اليها ويتخذونها وطناً لهم. وقد جاءت اقتراحات بنسكر مليية لرغبات البرجوازية اليهودية الغربية حين اختار مناطق خارج القارة الأوروبية لتوطين اليهود في واحدة منها^(٣٦). والمناطق التي اقترحها بنسكر في كراسه كانت اما في «تركيا الآسيوية» أو امريكا الشمالية. أما فلسطين فإنه لم يركز عليها في هذه الفترة بالرغم من انه لم يستثنها نهائياً فقد قال بهذا الخصوص: «... نحن لسنا بحاجة الى اكثر من قطعة ارض يقيم فيها اخواننا ولا يستطيع اي سيد اجنبي اقتلاعنا منها... الى هذه الارض سنأخذ اقدس ما نملك وهو ما استطعنا تخليصه من حكام ارض اجدادنا.. فكرة الله والتوراة... هذه الاشياء فقط وليس (قدس) نهر الاردن عملت من ارض اجدادنا ارضاً مقدسة. قد تعود الأرض المقدسة لنا، فإذا حدث هذا الشيء فهو افضل، انما قبل

كل شيء يجب ان نقرر - وهذه هي النقطة الصعبة - على بلد نستطيع الوصول اليه، وفي الوقت ذاته يكون صالحا لاعطاء اليهود على اختلاف البلدان التي يتركونها ملجأً يتمكنون من استثماره والعيش فيه^(٣٧).

اما بالنسبة لأمريكا الشمالية فانه نظرا لامكانياتها الاقتصادية الواسعة فانها بقيت هدفا رئيسيا لهجرات اليهود الروس حتى نهاية الحرب العالمية الاولى حين بدأ اليهود الأمريكيون ينظرون الى تدفق سيل هؤلاء المهاجرين بقلق، وتزايد تخوفهم من ان يسيء ذلك الى مكائهم، بسبب وصول جماعات كبيرة من المهاجرين الذين يختلفون عن الأمريكيين في لغتهم وعاداتهم اختلافا كبيرا^(٣٨).

لقد بات واضحا ان مصالح الفئات البرجوازية اليهودية الغربية كانت تكمن وراء العمل على وقف السيول المتدفقة من هجرات اليهود الروس صوب اوروبا الغربية وايجاد «البقعة البديلة» ليتخذ منها هؤلاء المهاجرون وطنا لهم. وآراء بنسكر التي طرحها في كراسه جاءت تعبر تماما - بقصد او دون قصد - عن مصالح هذه الفئات وتقدم الخدمات والحلول لمشاكلها. ففي الوقت الذي كان يدعو فيه بنسكر الى هجرات يهودية واسعة لبعث «الوطن القومي» اليهودي نراه يبدي حرصه الشديد على مصالح ومكانة البرجوازية اليهودية فيدعو صراحة في كراسه الى ضرورة احترام رغبة هذه الفئة في بقائها في اماكنها واستثناء افرادها من الانضمام للمهاجرين... والبقاء حيث هم حتى في البلاد التي لا تسامح فيها^(٣٩). والغريب في هذا الصدد ان بنسكر حينما تناول مصير عدة ملايين نسمة من الجماهير اليهودية الروسية نجده يشير اليهم على انهم مجرد «فائض وفضلة» يجب العثور لهم على «وطن» يلجأون اليه. ان هذا العدد كان يشكل الغالبية اليهودية في ذلك الوقت، ولكن يبدو ان بنسكر لم تكن تهمه الغالبية بقدر ما كانت تلك الفئة القليلة من اليهود التي حققت لنفسها شأواً عاليا في المجالات الاقتصادية والاجتماعية. فحل مشكلة «الشعب اليهودي» كما طرحها بنسكر كانت تكمن في المقام الأول في تحرير البرجوازية اليهودية من الاعباء المترتبة عليها نتيجة هجرات فقراء اليهود الروس الى اوروبا الغربية. اي بعبارة اخرى حل مشكلة

الفئة اليهودية المتنفذة من خلال اقتلاع وتهجير الاغلبية الساحقة من الجماهير اليهودية . ويتضح منظور بنسکر الطبقي حين يتحدث عن تركيب الهيئة الادارية والشركة اليهودية التابعة لها والمختصة بالاشراف على تهجير اليهود خارج القارة الاوروبية - فنجد ان العناصر المندرجة فيها عناصر بارزة وثرية تمثل الفئة البرجوازية التي كان ينتمي اليها بنسکر وهي التي اشار اليها دوما بـ «نحن» في حين انه كان يشير الى الاغلبية اليهودية التي يعمل على تهجيرها بـ «هم» ... فتحرير «نحن» من «هم» هو المعنى الكامن فيما بين سطور كراس «التحرر الذاتي»^(٤٠).

يستهل بنسکر كراسه في الاشارة الى الصعوبات التي كانت يجابهها المهاجرون اليهود الى اوروبا الغربية وعدم مقدرتهم على «الذويان في كيان امها» وهذا في نظره يعود الى كون «اليهود عنصر متميز عن باقي الشعوب»، وحل المشكلة لا يتم الا عندما «تصبح المساواة بين اليهود وباقي الشعوب امرا واقعا». وعدم التوصل الى هذه المساواة - في رأيه - يكمن في عدم وجود «وطن ابوي Veterland للشعب اليهودي رغم كثرة اوطانه الام Mutterlander، فهو لا يتمتع بمحور مركزي او مركز ثقل، وليست لديه حكومته الخاصة او من يمثله، انه حاضر في كل مكان وليس له اي بيت في اي مكان ابدا»^(٤١).

وانطلق بنسکر في حديثه عن عدم وجود «دولة» لليهود او «حكومة» او «وكالة» خاصة بهم الى القول بان هذا الوضع قد ادى الى عدم بلورة شخصية قومية للشعب اليهودي «تتعامل معها الشعوب الاخرى بشكل طبيعي، بالرغم من ان «الامة اليهودية» - في رأيه - بقيت قائمة دائما كأمة روحية. وهنا تحل العوامل الميثولوجية لدى بنسکر محل العوامل العلمية. فإصراره على أن «الامة اليهودية» موجودة بسبب «وحدة التكوين الروحي» لليهود و «ماضيهم التاريخي الواحد»، وانها امة ثابتة عبر التاريخ، هو ادعاء لا يقره اي مفهوم علمي للامة باي شكل من الاشكال. فالأمم «ليست ازلية بمعنى انها تشكل في زمان ومكان معينين، ثم تخلد عبر العصور والازمنة، غير متأثرة بتبدل الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العالم»^(٤٢).

ان التأمل البسيط في مقولة «الامة اليهودية» التي تدعي انها ظلت تنتظر وترنو ببصرها الى «صهيون» طيلة الف عام للعودة «اليه وبناء» دولتها «لهو امر لا يمكن ادراجه الا ضمن تلك التزييفات الفاضحة» التي وجدت - بشكل او بآخر - مسارب لها في سجل تاريخ البشرية، فنظرة سريعة الى طبيعة الحياة التي كان يعيشها قدماء اليهود يتبين ان مجمل ما حصل في تلك الفترة لا يعدو ان يكون قيام كيان يماثل في معاملة الاساسية تلك الدويلات التي كانت تقوم وتنشأ في عهد العبودية. فقد كان ذلك العهد هو عهد الحروب القبلية المتواصلة التي كانت «تنشب من اجل النهب وامتلاك العبيد والاستيلاء على افضل الاراضي». وكانت اشكال الدولة تتعاقب والاقوام والقبائل تتخالط فيما بينها. وتنتقل للعيش في البلدان المجاورة»^(٤٢).

وفي محاولة لاثارة الجماهير اليهودية لدعوته اخذ بنسكر يركز افكاره على وجوب ايقاظ الرغبة لدى هذه الجماهير في السعي نحو «الوجود القومي المستقل». لقد اعترف بنسكر بعدم استجابة غالبية الجماهير اليهودية الى الهجرة المنظمة وعلق على ذلك بقوله: «...ان العامل الاقوى الذي يؤثر في منع اليهود من السعي لأجل تحقيق وجود قومي مستقل هو عدم شعورهم بالحاجة لمثل هذا الوجود. وهم لا يكتفون بعدم تحسس الحاجة اليه بل يذهبون الى حد انكار ان تكون مثل هذه الحاجة امرا معقولا، ويضيف بنسكر قائلاً انه بناء على «غياب هذه الرغبة في الاستقلال القومي» بين الجماهير اليهودية «لا بد لنا اذن نحن الصهيونيين» من العمل على اثارها ومن «البرهنة على انه ينبغي عليهم (اي اليهود) ان يمارسوا قوميتهم»^(٤٤).

وطبقاً لرأي بنسكر فإن غياب الرغبة في «الاستقلال القومي» لدى عامة اليهود ادى بهم الى ان يظلوا تائهين في الدنيا «شعب اشباح» يتجول عبر القرون التاريخية «روحا بدون جسد». وقد مضى بنسكر في تحليله هذا الى القول بان العالم على مر السنين انتابه شعور الخوف من هذا «الشعب» الذي اصبح يمثل «شبح الموتى الخيف الذي يجول وسط الاحياء». وبما ان الانسانية «تكراه

الاشباح»، فانه لا عجب اذا اخذت شعوب العالم تنزل باليهود «الاضطهاد والتعذيب». ومن هنا انطلق بنسكرا لي طرح قضية اللاسامية او حركة معاداة السامية. والغريب في هذا الصدد ان بنسكرا لم يحاول في كتاباته العمل على مقاومة هذه الحركة واستئصال مسبباتها وانما وجد فيها مادة حيوية لاستغلالها كقوة دافعة للجماهير اليهودية في تغيير مسار هجراتها بعيدا عن اوربا الغربية وتحويلها باتجاه خدمة مصالح البرجوازية اليهودية بشكل خاص والرأسمالية الغربية بشكل عام. لقد اعتبر بنسكرا اللاسامية نوعا من انواع الامراض المستعصية الحل: «الهلوع المرضي من اليهود Judeophobia هو شذوذ سيكولوجي، ومن حيث هو شذوذ سيكولوجي فإنه موروث، ومن حيث هو داء انتقلت عدواه خلال الفتي سنة، فانه غير قابل للشفاء»^(٤٥).

ويستخلص بنسكرا من هذا التشخيص استنتاجا مؤداه أن لا جدوى من وراء اي عمل او كفاح ضد الحركة اللاسامية وقد عبر عن ذلك بقوله: «بعد الانتهاء من تحليل الهلع المرضي من اليهود كنوع من الاديمونوباثيا Demonopathy الموروثة التي يختص بها الجنس البشري، وبعد تصوير معاداة السامية على انها ظاهرة تستند الى شذوذ موروث للعقل البشري علينا ان نستخلص النتيجة الهامة التالية: لا يمكن للصراع ضد هذه الكراهية الا ان يكون عبئا مثله في ذلك كمثل اي صراع ضد الميول الموروثة»^(٤٦). وهكذا يتضح ان المنطق الذي استخدمه بنسكرا في تحليله هو نفس المنطق العنصري الذي كان يشكو منه. فهو يعتبر أن اللاسامية من خصائص الانسان الثابتة (من خصائص الطبيعة البشرية غير اليهودية) التي لا تتغير بتغير الزمان او المكان طالما ان هنالك يهوداً في المجتمعات البشرية^(٤٧).

وما ميز بنسكرا عن سابقيه من المفكرين اليهود امثال القلعي وكاليسر وهس انه دعا الى تكوين قوة يهودية مادية فاعلة تبدو وكأنها تعمل معتمدة على نفسها في سبيل «بعث الوطن القومي» اليهودي. وتتظاهر باكتفائها بمجرد تنسيق الجهود مع القوى الاوروبية الكبرى وخاصة بريطانيا. وتعبير آخر طرح بنسكرا ضرورة التصرف بشكل يوحى وكأن المبادرة صادرة عن اليهود انفسهم، في حين ان

المفكرين الآخرين كانوا حريصين على ان تصدر المبادرة من الدول الاوروبية الكبرى لاستغلالها في محاولة اقناع الجماهير اليهود بالهجرة الى «الوطن» المقترح .

ولتحقيق هذه الغاية دعا بنسكر الى اقامة الادوات التنفيذية المباشرة، تنظيمياً وادارياً وسياسياً ومالياً، من اجل البدء فوراً في العمل صوب بناء «الوطن القومي» لليهود . لقد وجد بنسكر في الجمعيات اليهودية المنتشرة في روسيا النواة المطلوبة لبناء الهيكل التنظيمي الاولي لاستيعاب التحرك القومي اليهودي وتجسيده . لذلك دعا الجمعيات الى صهر نفسها في «مجلس قومي» تبتثق عنه «هيئة ادارية يهودية» تقرر اولاً اختيار المنطقة المناسبة لتوطين بضعة ملايين من اليهود وتعمل من اجل توفير الدعم الكافي من اكبر عدد ممكن من الدول الاوروبية لتنظيم الهجرة اليهودية الواسعة من خلال شركة مساهمة تقام لهذا الغرض . ورغم التحرر الذاتي الذي يدعيه الكراس بعنوانه فإن بنسكر - كما اسلفنا سابقاً - لم يقترح نزوحه هو وافراد طبقته، بل نزوح عامة اليهود فقد قال : «... يجب ان يكون الهدف الرئيسي للهيئة الادارية هو ايجاد وطن آمن يعيش فيه بطمأنينة الفئاض من اولئك اليهود الذين يعيشون كبروليتاريين في مختلف البلاد ويشكلون عبئاً على المواطنين الاصليين... لذلك يجب ان نتأكد من ابعاد الفئاض من اليهود، تلك الفضلة غير القادرة على الذوبان وتوفير المقام لها في مكان آخر»^(٤٨) .

ويلاحظ ان الاقتراح الذي طرحه بنسكر حول انشاء شركة مساهمة يهودية للاشراف على عملية تهجير اليهود من روسيا قد تكرر ثانية في كتابات تيودور هرتزل . واذا ما كان ثبت صدق ادعاء هرتزل بانه لم يسبق له ان اطلع على كتابات بنسكر فان هذا يقودنا الى واحد من احتمالين : اما ان يكون هذا التكرار مجرد توارد خواطر، او - وهذا هو الأرجح - ان يكون للاتصالات الوثيقة بين كل من بنسكر وهرتزل مع الاوساط البرجوازية اليهودية بشكل خاص والرأسمالية الغربية بشكل عام اثر رئيسي في تشابه الحلول التي طرحها هذان المفكران، اي بعبارة اخرى كانت هذه النوعية من المفكرين الصهاينة تعكس الى حد كبير مصالح الاوساط السالفة الذكر . ولقد اتضح ان هذه الاوساط البرجوازية نجحت منذ

اواسط القرن الماضي في تبني كوادر فكرية تعمل في خدمتها وتعتبر عن مصالحتها من خلال استثمار قوة الكلمة بأبعادها الدينية والقومية والاقتصادية بين جماهير يهودية فقيرة بائسة لا تعي سوى دلالات الكلمة الظاهرية... وكانت هذه الجماهير بالتالي اول ضحية من ضحايا الوهم الصهيوني الاستعماري^(٤٩).

واذا ما عدنا الى الشركة المساهمة التي اقترحها كل من بنسكر وهرتزل فإنها كانت تمثل فيما تمثله طموحات الرأسمال اليهودي الكبير في تكوين شركة استعمارية ناجحة وكبيرة يجني من ورائها الفوائد والارباح. وقد كان هرتزل اكثر وضوحا من بنسكر في هذا الصدد حين اشار الى امكانية استغلال الاحتياطي الكبير من اليد العاملة الرخيصة المتوفرة بين يهود اوربا الشرقية: «وسياتي عمالنا الماهرون وغير الماهرين اولا... من الاحتياطي الضخم في روسيا ورومانيا.. والشركة لن تكون ملزمة بدفع اية اجور لهؤلاء العمال غير الماهرين... ستنهض الشركة بأعبائهم بشتى الطرق بحيث تصبح مسؤولة بصورة كلية عن اعالتهم»^(٥٠). وقد اشار بنسكر الى ان الكلمة العليا في هذه الشركة الاستعمارية «لا بد ان تكون لمؤتمر الشخصيات اليهودية المرموقة، لأفضل قوانا من رجال المال والاعمال»، ويضيف: «وينبغي ان يكون شراء الاراضي وادارتها موقوفا على هذه النخبة الممتازة من المشاركين في الشركة المساهمة»^(٥١). ولن تكون الفوائد والارباح بطبيعة الحال مقصورة على الرأسمالية اليهودية فقط وانما ستمتد لتستفيد منها الدول الغربية بشكل عام وذلك على النحو التالي: «ستحصل الدول الاوروبية على فائدة اضافية تأخذ شكل الزيادة الضخمة في صادراتها التجارية، اذ بما ان المهاجرين اليهود هناك سيعتمدون لفترة طويلة في المستقبل على المنتجات الاوروبية سيضطرون بحكم الضرورة الى استيرادها من تلك الدول»^(٥٢). ويلاحظ ان بنسكر كان دائم الحرص في كتاباته على ابراز الصلة الوثيقة بين اية مبادرة صهيونية وبين الامبريالية العالمية التي بقيت بريطانيا تقودها حتى الحرب العالمية الثانية. فمقابل الدعم السياسي والعسكري الذي كان من المفروض ان يحصل عليه المستوطنون اليهود من الدول الغربية، فان هؤلاء المستوطنين كانوا على اتم استعداد للقيام بدور «العمالة» السياسية والاقتصادية للمستعمرين الغربيين في المناطق المحيطة بمركز استيطانهم.

وتفسر غالبية الدراسات الصهيونية احجام بنسكر في كراسه عن الاصرار على فلسطين كمركز للتجمع الاستيطاني اليهودي بأنه ناتج عن عدم تشربه الثقافة الجيتوية حيث كانت نشأته نشأة علمانية. والغريب ان بنسكر وبعد مضي عامين فقط على كتابه كراسه، نجده ينتخب رئيساً لجمعيات احباء صهيون^(٥٣) ويصبح من أشد المتحمسين للاستيطان اليهودي في فلسطين. ولعل التفسير المعقول لهذا التغير في موقف بنسكر يعود الى انه كان يعي ابعاد السياسة الغربية والبريطانية منها بالذات، فهو كان مطلعاً على محاولات بريطانيا المتكررة منذ عام ١٨٤٠ لانشاء كيان يهودي «عميل» في منطقة الشرق العربي يعمل على تثبيت دعائم نفوذها الاستعماري حين تحين الفرصة المناسبة لتمزيق جسم الدولة العثمانية.^(٥٤) ولكن رد فعل اليهود بقي ساكناً تجاه هذه المحاولات نظراً لعدم وجود قوة عسكرية توفر لهم الحماية في حالة توجيههم نحو فلسطين للاستيطان فيها. غير ان الأمور على ما يبدو قد تغيرت عام ١٨٨٤ وذلك في اعقاب احتلال بريطانيا قبرص عام ١٨٧٨ ثم مصر عام ١٨٨٢. وهنا اصبحت الحاجة ملحة لبريطانيا في ايجاد كيان سياسي موالٍ لها في فلسطين. ولعل هذه الظروف الجديدة لعبت دوراً حاسماً في تحريك سكون الموقف اليهودي تجاه قضية الهجرة والاستيطان في فلسطين، بحيث اصبحت المهجرات اليهودية اليها تتزايد مع تزايد النفوذ الاستعماري البريطاني في منطقة الشرق العربي. ولعل هذا يفسر الى حد كبير اصرار بنسكر المفاجيء عام ١٨٨٤ على فلسطين «وطناً قومياً» لليهود بعد ان كان متردداً تجاه هذا الموضوع قبل ذلك بعامين فقط.

ان الآراء التي طرحها بنسكر كانت تهدف في النهاية الى تحرر البرجوازية اليهودية الغربية من عبء هجرات عامة اليهود الشرقيين الى تول غرب اوروبا والحيلولة دون استقطاب الحركات الثورية لهم وذلك عن طريق ايجاد «وطن» يلجأون اليه خارج القارة الأوروبية، فضلاً عما يتيح مثل هذا «الوطن» من اغراءات اقتصادية للبرجوازية اليهودية في توسيع نطاق استثماراتها، فانه كان في الوقت نفسه يحقق هدفاً أساسياً للدول الغربية ولا سيما بريطانيا التي كانت تسعى

لخلق كيانات سياسية موالية لنفوذها ومصالحها الاستعمارية. وما ان تمكنت بريطانيا من اثبات وجودها العسكري في المشرق العربي حتى اصبحت فلسطين مطلباً يتسابق بنسكر وامثاله من المفكرين الصهينة في الدعوة لاتخاذها «وطناً قومياً» لليهود.

المصادر

١ - كان اليهود عام ١٨٨٠ موزعين في العالم حسب التقديرات التالية:

النسبة المئوية	العدد	
٪١٠٠	٧٥٠٠٠٠٠٠	المجموع الكلي
٪٥٦٫٢	٤٢٥٠٠٠٠٠	روسيا وبولندا
٪٢٠	١٥٠٠٠٠٠٠	التمسا والمجر
٪١٣٫٣	١٠٠٠٠٠٠٠	اوربوا الغربية
٪٣٫٣	٢٥٠٠٠٠٠	الولايات المتحدة
٪٦٫٤	٤٧٨٠٠٠٠	آسيا وافريقيا
٪٠٫٨	٢٢٠٠٠٠	فلسطين

The Jewish Encyclopedia, Vol 5, pp. 1493-1502

انظر

وانظر ايضا: صبري جريس، تاريخ الصهيونية (بيروت: ١٩٧٧)، ج ١، ص ٤٢.

٢ - تعرضت بولندا للتقسيم ثلاث مرات بين جاراتها الثلاث روسيا وبروسيا والتمسا. تمت الاولى عام ١٧٧٢ والثانية عام ١٧٩٣ والثالثة عام ١٧٩٥. وبمقتضى التقسيم الاخير اختفت بولندا عن خريطة العالم السياسة تماما. وقد حصلت روسيا على نصيب الاسد في التقسيم بما في ذلك دوقية وارسوا التي كان يقطنها اليهود بأعداد كبيرة. وقد كان يسكن المقاطعات البولندية في نهاية القرن الثامن عشر حوالي ١٤ مليون من اليهود اي ما يزيد على نصف مجموع يهود العالم البالغ حوالي ٢ مليون نسمة تقريباً في ذلك الوقت. لمزيد من التفاصيل، انظر:

Simon Dubnow, History of the Jews in Russia and Poland (Philadelphia: 1946), 3 Vols.

Erza Mendelsohn, Class Struggle in the Pal; The Formative Years of the Jewish Workers Movement in Tzarist Russia (London: 1970), pp. 1-26

وانظر ايضا جريس، ص ٤١.

٤ - ابراهام ليون، المفهوم المادي للمسألة اليهودية (ترجمة دار الطليعة) (بيروت: ١٩٧٠)، ص ٩١.

- ٥ - المصدر نفسه .
- ٦ - « حظيرة التوطن اليهودية » تسمية بولندية الاصل . وقد كانت هذه الحظيرة تشمل المستوطنات اليهودية في اقاليم مملكة بولندا الاربعة : بولندا الكبرى Great Poland بولندا الصغرى Little Poland فولينيا Volhynia وليشوانيا Lithuania وحين ضمت روسيا معظم هذه الاقاليم اليها عام ١٧٩٥ بقيت التسمية قائمة حتى اوائل عهد القيصر الاسكندر الثاني .
لمزيد من التفاصيل انظر :

Howard Morley Sachar, *The Course of Mourse of Modern Jewish History* (Haifa: 1957), pp. 31-33.

- ٧ - في الوقت الذي كانت فيه الطبقة الوسطى (البرجوازية المحلية) تقود الثورات في اوربا الغربية ضد الطبقات الاستقرائية والاقطاعية معتمدة في ذلك على عامة الشعب وفي الوقت الذي دعمت فيه هذه الطبقة انتصاراتها عام ١٨٤٨ بوصوها الى السلطة في معظم دول اوربا الغربية، في هذا الوقت بالذات كانت الطبقة الوسطى في روسيا غائبة الى حد كبير عن مسرح الاحداث . فالنظام الاقطاعي الدكتاتوري كان لا يزال مسيطرا على روسيا وكانت غالبية الشعب تزح تحت قيود القنانة . وبالرغم من ظهور الفئات المستنيرة (الانتلجنسيا Intelligentsia) ومشاركتها في الثورة الديسمبرية عام ١٨٢٥ الا ان دورها ظل محدودا ولم تستطع ان تسد فراغ الطبقة الوسطى . ويمكن اعتبار عام ١٨٦١ حين اضطر الاسكندر الثاني الى اصدار فرمان تحرير الاقنان الروسي مؤشر بداية لظهور الطبقة الوسطى الروسية .

- ٨ - انظر ليون، الترجمة العربية، ص ٢٦ .
- ٩ - بالرغم من انحراط عدد من يهود روسيا في سلك العمل بالمنشآت والمشاريع الصناعية الا انهم تعرضوا لضغوط شديدة من شتى المجتمعات اليهودية في روسيا وخارجها لابقائهم بعيدا عن التنظيمات العمالية الروسية، وان كان لا بد من انحراطهم في تنظيمات عمالية فلتكن تنظيمات يهودية صرفة كالبوندي والصهيونية العمالية .

- ١٠ - يلاحظ من الاحصائيات المنشورة في احد المصادر المتعلقة بالتاريخ اليهودي ان عدد اليهود الروس الذين هاجروا الى امريكا في الفترة ما بين عامي ١٨٢٠ و ١٨٧٠ بلغ حوالي ٧٥٠٠ نسمة . ولكن هذا العدد تزايد بقفزات سريعة في العقود التالية وذلك كما يلي :

١٨٨٠-١٨٧١	٤٠.٠٠٠ نسمة
١٨٩٠-١٨٨١	١٣٥.٠٠٠ نسمة
١٩٠٠-١٨٩١	٢٧٩.٠٠٠ نسمة
١٩١٠-١٩٠١	٧٠٤.٢٤٥ نسمة

انظر Salo W. Baron, *The Russian Jew Under Tsars and Soviets*, (N.Y.1964) p.84

وهناك مصدر آخر يشير الى ان عدد المهاجرين اليهود الروس الى امريكا في الفترة بين عامي ١٨٨٠-١٩١٤ بلغ حوالي مليوني شخص . لمزيد من التفاصيل انظر :

James Parkes, *A History of the Jewish People* (London: 1960) p. 169 p. 84

١١- دخلت هذه الكلمة معظم اللغات الأوروبية للدلالة على «الاضطهادات» التي تعرض لها اليهود في روسيا .

١٢- تشير جميع المصادر الصهيونية وغالبية المصادر الغربية- على سبيل المثال- الى ان مجموع الضحايا اليهود على يد النازية الالمانية بلغ حوالي ستة ملايين نسمة. غير ان هنالك بعض الدراسات الحديثة التي تعتبر ان هذا الرقم مبالغ فيه بشكل كبير. ففي دراسة اطلع عليها الباحث، كان يقوم باعدادها Joseph Schiebel استاذ التاريخ الروسي بجامعة جورجتاون- قبل وفاته- تضع الحد الاعلى للضحايا اليهود بما لا يزيد عن ١ مليون اي الرقم المتعارف عليه .

١٣- كانت عائلة روتشيلد- على سبيل المثال- تمتلك استثمارات واسعة في روسيا بالاضافة الى القروض الضخمة التي قدمتها للحكومة الروسية. انظر: ستيفن هلبروك، الجذور الطبقة في العقيدة الصهيونية مختار من مجلة الدراسات الفلسطينية (الترجمة العربية باشراف شاكر مصطفى) (الكويت: ١٩٧٤) ص ٥١ .

١٤- امين عبد الله محمود، نشأة النزعة الاستيطانية في الفكر اليهودي الغربي خلال القرن التاسع عشر، مجلة العلوم (جامعة الكويت: تموز ١٩٧٩)، ص ٩ .

١٥- لمزيد من التفاصيل، انظر:

ESCO Foundation, *Palestine: A Study of Jewish, Arab, and British Policies* (N.Y.: 1970) p.2
أمين عبد الله محمود، التوسع الاستعماري الغربي وفكرة الدولة اليهودية (١٧٩٨-١٩١٧)
دراسات (الجامعة الاردنية: ايار ١٩٧٨) المجلد ٥، العدد ١، ص ١٩-٢١ .

١٦- بدأ اللورد بالمستون حياته السياسية عضواً في الحزب الليبرالي وتولى مهام وزارة الخارجية البريطانية في الفترة الواقعة بين عامي ١٨٣٠-١٨٤١ ثم في الفترة الواقعة بين عامي ١٨٤٨-١٨٥٥ حيث تولى في ذلك العام مقاليد رئاسة الوزارة البريطانية واستمر فيها حتى عام ١٨٦٥ .

١٧- بالرغم من فشل بالمستون في اقناع السلطان العثماني بالتخلي عن رفضه في انشاء كيان يهودي في فلسطين فقد ظل هذا المشروع احد الاهداف الاساسية التي تسعى الى تحقيقها السياسة البريطانية في الشرق العربي حتى تبلور عام ١٩١٧ بصودر وعد بلفور وقد كانت هنالك فترات تبنت فيها السياسة البريطانية مواقع اخرى عدا فلسطين في العالم العربي وخارجه لاختيار احداها مقرا للكيان اليهودي المقترح. لمزيد من التفاصيل عن هذه المشاريع انظر: امين عبد الله محمود مشاريع الاستيطان اليهودي: البدائل الاخرى مجلة كلية الاداب (جامعة الكويت: ديسمبر ٧٨)، ع ١٤، ص ٧-٣٠ .

١٨- امين محمود، نشأة النزعة الاستيطانية في الفكر اليهودي الغربي، ص ٢٨-٢٩

١٩- بر هيرش اختياره للاربعين لكون اراضيها من اكثر اراضي العالم خصوبة بالاضافة الى اتساع مساحتها وقلة عدد سكانها وتمتعها بمناخ معتدل. قام بشراء ٧٥٠ الف هكتار من الاراضي

الارجنتينية اسس عليها عشرين مستوطنة واخذ يشجع يهود اوروبا الشرقية بالهجرة اليها، وقد نجح بالفعل في جلب حوالي ٣٥٠٠ اسرة يهودية للاستيطان فيها. كانت خطة ميرش تقضي بتهجير حوال ٣ مليون يهودي من اوروبا الشرقية الى الارجنتين على مدى ربع قرن وبالتدرج بحيث يكتمل عدد المهاجرين دون ان تحدث ردود فعل معادية لدى الشعب الارجنتيني ازاء هؤلاء المهاجرين فيما لو تربوا للبلاد دفعة واحدة. لمزيد من التفاصيل انظر: امين محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي، ص ١٠-١٢.

٢٠- قام البارون روتشيلد في نهاية عام ١٨٨٣ بشراء ارض في فلسطين مساحتها ٣٧٥٠ دونم حيث أقام عليها مستعمرة زراعية نموذجية وعرفت باسم عكرون (واطلق عليها فيما بعد اسم مركزيرت باتيه) وهي تقع الى الجنوب من مدينة الرملة. انظر جريس ص ١٠٦، وقد اطلق على البارون روتشيلد اسم ابو اليسوف (اي أبو المستوطنين).

٢١- قامت «الايانس» عام ١٨٧٠ بإنشاء اول مدرسة زراعية يهودية في فلسطين واطلق عليها اسم «مكفيه اسرائيل» (أمل اسرائيل) وقد اقيمت هذه المدرسة على ارض تبلغ مساحتها ٢٦٠٠ دونم قرب قرية يازور الواقعة الى الجنوب الشرقي من مدينة يافا. ولا تزال هذه المدرسة قائمة منذ ذلك التاريخ حتى اليوم. لمزيد من التفاصيل انظر المصدر السابق ص ٦٧-٦٨.

٢٢- يعتبر القلمي من اوائل المفكرين الذين عملوا ضمن اطار البرجوازية اليهودية. نشر كتابا اسماه اسمي يا اسرائيل حيث طالب فيه «بعودة» اليهود الى فلسطين والتمهيد لجمي المسيح المنتظر. واعلن صراحة ان هذه «العودة» لا تتم الا بمساعدة الاثرياء اليهود وفي كنف قوة امبريالية كبرى. انظر: امين محمود نشأة النزعة الاستيطانية، ص ١١.

٢٣- يعد كاليشر اول من حول مفهوم «العودة» من مفهوم ديني الى مفهوم سياسي. واخذ في كتابه البحث عن صهيون يتحدث عن قدسية العمل اليدوي واهمية الاستيطان الزراعي في فلسطين. وقد اشار الى العرب بمقده في كتابه متهما اياهم «لصوص وقطاع طرق» يتحتم «تفريغ» فلسطين منهم - لمزيد من التفاصيل: انظر المصدر السابق، ص ١٥-٢١.

٢٤- دعا في كتابه روما والقدس الى «بعث القومية اليهودية» معتمدا في ذلك على البرجوازية اليهودية والامبراطورية الفرنسية في عهد نابليون الثالث. كان متأثراً بآراء ارنست لاهران التي سبقت الاشارة اليها فيما تقدم. انظر: المصدر السابق، ص ٢١-٣١.

٢٥- ظهر الكراسي في سبتمبر عام ١٨٨٢ وكتب باللغة الألمانية ولعل السبب في ذلك يرجع الى ان غالبية اليهود الروسي كانت تستعمل لغة اليديش القريبة الى الالمانية (٨٥٪ من مفرداتها المانية). ولم يضع بنسكرا اسمه على الكراس في طبعته الاولى وأما اكتفى بالعنوان: التحرر الدائقي: نداء من يهودي روسي الى بني قومه.

٢٦- وهي كلمة عبرية تعني حركة الاستنارة اليهودية. ظهرت هذه الحركة في منتصف القرن الثامن عشر واستمرت حتى حوالي عام ١٨٨٠. وكانت تدعو اليهود الى الاندماج في المجتمعات

التي يعيشون فيها وتمسك باليهودية كدين فقط. وقد ازدهرت حركة المسكلاة في المانيا وامتدت بعد ذلك الى دول اوربا الاخرى. لمزيد من التفاصيل انظر: عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية (القاهرة: ١٩٧٥) ص ٧٢-٧٤.

٢٧- كلمة عبرية مفردا «مسكيل» اي «العالم» او «الرجل المستنير» وقد استخدم هذا التعبير لأول مرة في ايطاليا في القرن الرابع عشر وانتقل بعد ذلك في مطلع القرن التاسع عشر الى الدولة السلافية ليعني ذلك العالم اليهودي الذي يبحث عن المعرفة ويشر بحركة الاستنارة اليهودية (المسكلاة). انظر: المصدر السابق، ص ٧٤.

٢٨- يطلق عليها صبري جريس اسم «جمعية ناشري العلم». انظر جريس، ص ٩١.

٢٩- المصدر السابق. وهذا نموذج حي لفكر المسكيليم دعاة حركة المسكلاة. ويتضح من هذا أيضاً ان بنسكر في هذه المرحلة كان ابعده ما يكون عن الفكر «القومي اليهودي» الذي لا يدين بالولاء للدولة التي يعيش اليهود بين ظهرانها.

٣٠- ومن الملاحظ أيضاً بالنسبة لهذه الدعوة، أن العداء تجاهها لم يكن مقتصرًا على الفئات المتدينة فقط وإنما نجد الكتابات الصهيونية فيما بعد قد تناولتها بالتعريض والذم.

٣١- مع بداية انهيار النظام الاقطاعي الذي كان سائداً في روسيا، احس بنسكر ان المجال اصبح مهيا لاتباع خطى الدول الاوروبية الغربية وتبنيها الخط الليبرالي، خاصة وان الطبقة الوسطى بدأت تظهر على انقاض النظام القديم واخذت تسعى للحصول على مزيد من المكاسب الاقتصادية والاجتماعية وبالتالي المكاسب السياسية.

٣٢- بدا سمولينسكين حياته «مسكيلا» على غرار بنسكر. وما لبث ان تحول فيما بعد الى داعية لهجرة اليهود من روسيا وخاصة الى فلسطين. وقد دعا الى مؤتمر لحكماء اليهود ومفكرهم للاتفاق على الوسائل التي تضمن لليهود انشاء «وطن» لهم. وكان سمولينسكين من الداعين لإحياء اللغة العبرية ونشرها بين اليهود. ومن اهم المقالات التي كتبها مقال لتبحث عن طريقنا التي دعا فيها «للعودة» الى فلسطين مبررا ذلك بأسباب صوفية محضة. انظر المسيري، ٢١٥، جريس، ص ٨٨-٩١.

٣٣- اصبح ليلينوم واحداً من أكبر الدعاة الصهاينة المتطرفين بعد أن تخلّى عن خط المسكلاة حيث كان واحداً من انشط اعضائها. جمع ليلينوم مقالاته في كتيب بعنوان «حول بعث اليهود على أرض آباؤهم»، ودعا فيه الى التعاون الوثيق مع زعماء الدول الكبرى لتيسير مهمة انشاء «وطن» يهودي، وقد انضم فيما بعد الى حركة احباء صهيون وانتخب عضواً في لجنتها التنفيذية. انظر المصدرين السابقين.

٣٤- وقد اشتهر فيما بعد كرائد حركة احياء اللغة العبرية الحديثة. شارك في تأسيس مجمع اللغة العبرية وحارب اللغة البيديشية. اما اهم ما قام به بن يهودا فهو اخراجه القاموس العبري القديم والحديث حيث عمل فيه ما يقارب الاربعمائة عام. وقد هاجر الى فلسطين وسكن في القدس وبقي فيها حتى وفاته عام ١٩٢٢. انظر المصدرين السابقين.

٣٥- تعزو غالبية المصادر وقوع هذه الاضطهادات ضد اليهود الروس الى وجود فتاة يهودية بين المجموعة تأمرت لاغتتيال القيصر الروسي الاسكندر الثاني. وتشير هذه المصادر الى ان الحكومة القيصرية الروسية اتخذت في اعقاب هذه المؤامرة عددا من القرارات المناهضة لليهود والمقيدة لحرمتهم مما أدى بهم الى البدء بالهجرة صوب اوروبا الغربية وامريكا ولم يتجه الى فلسطين خلال تلك الفترة سوى عدد قليل منهم.

٣٦- سبق للقلمي أيضاً أن قدم اقتراحات ملبية لرغبات البرجوازية اليهودية الغربية والراسمالية البريطانية. ففي عام ١٨٣٩ اعلن القلمي انه توصل بناء على حسابات اجراها بموجب علم الكابالاة الى نتيجة مفادها ان عام ١٨٤٠ سيكون عام «الخلاص اليهودي» والعودة الى «ارض الميعاد». ولذا فإنه اخذ يبحث اليهود وخاصة الفقراء منهم في روسيا على الاسراع في الهجرة الى فلسطين تحت لواء «المسيح الانسان» استعدادا لمجيء المسيح المنتظر. ولعله ليس من قبيل الصدفة ان تجيء المسيح المنتظر. ولعله ليس من قبيل الصدفة ان تجيء هذه النبوة في الوقت الذي بدا فيه محمد علي يتراجع عن فتوحاته في بلاد الشام امام ضغوط بريطانيا وحلفائها، وفي الوقت الذي بدأ فيه الاستعداد لعقد مؤتمر لندن عام ١٨٤٠، حيث كان من ضمن البنود المقترحة على جدول اعمال المؤتمر بند يتعلق بامكانية انشاء دولة يهودية في فلسطين لحماية المشرق العربي من خطر اية محاولة وحدوية جديدة تنبع من مصر. وبما يسترعي الانتباه ايضا ان تجيء هذه النبوة في اعقاب زيارة قام بها القلمي لعدد من دول اوروبا الغربية وفي مقدمتها بريطانيا حيث حظي بمقابلة بعض المسؤولين فيها وعدد من رجال المال اليهود. ولعل في هذا ما يبرر اتهام القلمي بانه كان يستغل المعتقدات الدينية لدى الفئات اليهودية الفقيرة المحافظة بغية تشجيعها على الهجرة الى فلسطين لخدمة مصالح الامبريالية الغربية والبرجوازية اليهودية. انظر امين محمود، نشأة النزعة الاستيطانية، ص ١٢.

٣٧- للاطلاع على نص كراس «التحرر الذاتي» يمكن الرجوع الى الترجمة العربية لكتاب اثر هرزبرغ، الفكرة الصهيونية: النصوص الاصلية: بيروت: (١٩٧٠) ص ٩٢.

٣٨- نجده فحى صفوة، هجرة اليهود من روسيا القيصرية، يهود العالم والصهيونية واسرائيل (بيروت: ١٩٧٤) ص ٨٣.

٣٩- هرزبرغ، ص ٩٤، وكان واضحا ان بنسكر استثنى حتى اثرياء اليهود الموجودين في روسيا من الهجرة خارجها. وهذا يعزز الفكرة القائلة بان الهجرة كانت محصورة في نطاق الفقراء بهدف افساح المجال امام الاثرياء كي يتخلصوا من عبثهم.

٤٠- وهنالك مزيد من التحليلات حول هذا الموضوع في الدراسة القيمة التي كتبها الياس سعد، ملاحظات اولية حول الايديولوجية الصهيونية من حيث نشأتها واصولها المجتمعية، شؤون فلسطينية (بيروت: اغسطس ١٩٧٢)، ع ١٢، ص ٢١-٢٢.

٤١- هرزبرغ، ص ٨١-٨٢.

٤٢- انظر: لطف الله حيدر، الجذور الطبقية للحركة الصهيونية، شؤون فلسطينية (بيروت آب ١٩٧٤)، ع ٣٦، ص ١٠٢.

٤٣- ماهر الشريف، اسس الايديولوجية الصهيونية، شؤون فلسطينية بيروت: تموز ١٩٧٥، ع ٤٧، ص ١١٦.

٤٤- ومما قاله بنسكر أيضاً في هذا الخصوص: «... تخلى اليهود متعمدين عن قوميتهم الى حد ما وذلك كي يختلطوا مع الغير. ولكنهم لم ينجحوا في تحقيق اعتراف جيرانهم في انهم مواطنون ذوو حقوق متساوية... لكن اقوى دافع يعمل على منع اليهود من الكفاح لتحقيق وجودهم القومي هو عدم شعورهم بالحاجة الى مثل هذا الوجود. ليس انهم لا يشعرون بمثل هذه الحاجة فقط، انما يذهبون الى درجة انكارها... ان فقدان الشهية للأكل والشرب عند الرجل المريض هو من عوارض الخطر. لكن ليس من السهل شفاؤه من هذا العارض كليا، ذلك انه لو انفتحت شهيته فهناك مسألة ما اذا كان باستطاعته هضم طعامه ام لا. ان حالة اليهود التعيسة هي كحالة هذا المريض. لذلك علينا ان نهم بهذه القضية، علينا ان نبرهن بان مصائب اليهود ناجمة عن فقدانهم الرغبة في الاستقلال، لذا كان من الواجب ايقاظ هذه الرغبة فيهم والمحافظة عليها اذا ارادوا ان يتخلصوا من حالتهم المخزية هذه - اي من الضروري ان نبرهن لهم بانهم يجب عليهم ان يصبحوا امة. انظر هرتزبرغ ص ٨٢-٨٣.

٤٥- وقد اضاف بنسكر الى ذلك قوله: «... اصبح الخوف من اليهودية الى جانب عدد من الافكار والغرائز والتصورات الخيالية المدفونة في اللاشعور، اصبح متعمقا في طبيعة شعوب الارض كلها التي يتعامل معها اليهود...» ويستمر بنسكر في تحليله المنطلق من موقف عنصري واضح: «... اصبح الخوف من الشبح اليهودي مرضا معروفا بكل اجناس البشرية وغير مقتصر على بعض منها. هذا ولم يكن اليهود روحا كسائر الاشباح انما كان جسما من دم ولحم يقاسي من جروح بليغة...» انظر المصدر السابق، ص ٨٣.

٤٦- الديمونوباثيا مرض عقلي او جنون يسببه الخوف من الشياطين والأرواح الشريرة. انظر صادق جلال العظم، الصهيونية والصراع الطبقي (بيروت: ١٩٧٥) ص ١٢٧.

٤٧- وقد انطلق هرتزل ايضا في تفكيكه السياسي من المنطلق العنصري المتضمن ان الحركة المعادية للسامية موجودة مع الانسان باستمرار وعلى الدوام. ويترتب على ذلك نتيجتان اشار اليهما هرتزل وباقي المفكرين الصهاينة وهما:

أ) طالما ان العداة للسامية موجود وجودا ازليا «فالأمة اليهودية» موجودة وجودا ازليا ايضا.

ب) وطالما ان العداة للسامية من الطبيعة البشرية فالحل الوحيد هو انشاء «وطن يهودي»

في فلسطين او غيرها. وقد علق هرتزل على حركة العداة للسامية بقوله:

«... اعتقد بأنني افهم معاداة السامية التي تشكل في الواقع حركة على مستوى عال من

التعقيد. انا انظر اليها من وجهة نظر يهودية لكن دون اي خوف او كراهية... وهكذا يتضح

ان هرتزل سار على نفس المنوال الذي سار عليه بنسكر في استغلال حركة العداة للسامية

لخدمة اهدافهما الخاصة دون العمل على استئصالها بالتعاون مع الفئات المستنيرة من الشعوب التي كانوا يعيشون بين ظهرانيها . انظر . هرزبرغ ص ١٠٥
-٤٨ المصدر السابق، ص ٩٤ .

-٤٩ امين محمود، نشأة النزعة الاستيطانية، ص ١٠ .

-٥٠ هرزبرغ، ص ٣٧ . وقد كان هرززل أوضح في تحديده مصادر الريح التي كانت البرجوازية اليهودية تسعى الى تحقيقها من وراء هذه الشركة :
أ) انشاء مشاريع تجارية في المستعمرة .

ب) المضاربة ببيع الاراضي وشرائها بين اوروا و فلسطين .

ج) توفر الاحتياطي الكبير من اليد العاملة الرخيصة .

لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر :

Theodors Herzl, The Jewish State (London: 1934), pp. 37-35

وانظر ايضا العظم، ص ١٠٨-١٢٥ .

-٥١ انظر Herzl, Ibid ، وانظر ايضا يورى ايفانوف، احذروا الصهيونية (موسكو: ١٩٦٩)، ص ٦٩ .

-٥٢ المصدر السابق .

-٥٣ احباء صهيون هو الاسم الذي يطلق على حركة الهجرة اليهودية من اوروا الشرقية الى فلسطين . واستمرت هذه الهجرة في الفترة بين عامي (١٨٨-١٩٠٤) وتعرف في تاريخ الصهيونية باسم الهجرة الاولى . وكان يشرف على هذه الهجرة جمعيات اقيمت في انحاء مختلفة من روسيا وسميت جمعيات احباء صهيون .

-٥٤ كانت الدولة العثمانية في تلك الفترة تدعى بالرجل المريض . وكانت الدول الاوروبية تتنافس فيما بينها لاقتسام ممتلكات الدولة العثمانية وقد عمل هذا التنافس على اطالة عمر الدولة العثمانية فترة من الوقت .

موقف الدولة العثمانية من الهجرة الصهيونية الى فلسطين

د. احمد عبد الرحيم مصطفى
جامعة الكويت

المسألة اليهودية : -

أخذت الدولة العثمانية منذ قيامها بمبدأ الحرية الدينية في الوقت الذي عم فيه الاضطهاد الديني دول أوروبا. وعلى حين مارست محاكم التفتيش اجراءاتها غير الانسانية في الغرب - وبخاصة في اسبانيا والبرتغال - طبق العثمانيون التقليد الاسلامي الخاص بمعاملة أهل الكتاب. وبعد سقوط مملكة غرناطة في أيدي الاسبان (١٤٩٢) وتطبيقهم ألوانا لا حصر لها من الاضطهاد ضد المسلمين واليهود كانت تصل أحيانا الى حد الحرق، هاجر كثير من يهود اسبانيا الى الأملاك العثمانية التي رحبت بهم وطبقت عليهم، وعلى اليهود المحليين، نظام الملل الذي كان يطبق على مختلف الفئات الدينية الأخرى^(١): فقد منحوا استقلالاً دينياً ذاتياً فيما يتعلق بالقانون والطقوس الدينية والتعليم وخلعت سلطة رسمية على زعيمهم (الخانم باشي) الذي كان يقيم في العاصمة العثمانية. ونظام الملل هذا كان قد نشأ في صدر الاسلام وأتقنه العثمانيون وأدخلوا عليه بعض التحسينات. وكانت الملة (ملت في اللغة التركية) تقوم على الرابطة الدينية وحدها وتضم مجموعات جنسية مختلفة وسكان مناطق متفرقة داخل الامبراطورية العثمانية.

وخلال العصر العثماني كان اليهود من رعايا السلطان ينتقلون بحرية من فلسطين وإليها، وغيرها من ولايات الدولة العثمانية المترامية الأطراف الممتدة في آسيا وأوروبا وأفريقيا، شأنهم في ذلك شأن المسلمين والمسيحيين، كما فتحت الدولة أبوابها في وجه اليهود المهاجرين من أوروبا المسيحية. ورغم استمرار تدفق المهاجرين اليهود على الامبراطورية العثمانية، فإن أحوال فلسطين ونوعية المهاجرين لم يشجعا على ازدياد أعدادهم بصورة مطردة، خاصة أن الوافدين منهم كانوا يقصدون الاستانة ودمشق والقاهرة حيث الظروف السياسية والاقتصادية أنسب منها في فلسطين. ولم يوجد من بين اليهود المستقرين في فلسطين سوى عدد قليل ممن يرتبطون بالاقتصاد المحلي باعتبارهم باعة وحرفيين أو فلاحين، في حين كانت نسبة كبيرة منهم من كبار السن، وبخاصة الأراذل والباحثون المفلسون الذين كانوا يقيمون أودهم بالاعتماد على الهبات الخارجية. وأما المهاجرون من اليهود الغربيين (الاشكناز) الذين بدأوا منذ القرن الثامن عشر يشكلون جزءا هاما من الجالية اليهودية في فلسطين فكانوا أكثر اعتمادا على أنفسهم، وقد أدت الاختلافات في أوضاع التجارة والانتاج في فلسطين عنها في بلادهم الأصلية في أوروبا الشرقية الى صعوبة تأقلمهم في داخل المجتمع الفلسطيني بخلاف ما كان عليه حال السفارديم (اليهود الشرقيون الذين يتكلمون اللغة العبرية).

على أن أعداد يهود فلسطين كانت قليلة برغم أن الدولة العثمانية أخذت منذ عام ١٨٤٠ بوجه خاص تجتذب اهتمام يهود فرنسا وبريطانيا ثم يهود ألمانيا والنمسا، بل أمريكا، وذلك لأسباب دينية ترتبط بعبادات اليهود وذكرياتهم القديمة التي كانت تشكل جزءا لا يتجزأ من أوضاعهم الاجتماعية. ولم يجد العثمانيون غضاضة في ازدياد أعداد اليهود في فلسطين خلال تلك الفترة، إذ أنهم كانوا يرحبون بتعمير منطقة قليلة السكان مما يؤدي الى ازدياد حصيلة الضرائب^(٣) وهكذا ازدادت أعداد اليهود في فلسطين في خلال الفترة الممتدة على عامي ١٨٤٠ و ١٨٨٠ من ١٠-٥ آلاف الى حوالي ٢٥٠٠٠. ومنذ الثمانينات كان ازدياد حجم الهجرة

اليهودية الى فلسطين مرتبطا بازدياد اللاسامية في أوروبا، وبخاصة في أجزائها الشرقية، مما جعل أعداد اليهود فيها يقفز الى حوالي ١٠٠.٠٠٠ قبيل اندلاع الحرب العظمى في عام ١٩١٤ .

وكان ذلك جزءا من هجرة يهودية عامة من روسيا والنمسا وبولنده ورومانيا . فقد قدر أن ٢٥ مليون يهودي قد بارحوا أوروبا الشرقية فيما بين عامي ١٨٨٢ و ١٩١٤ . وفي خلال الأعوام الخمسة عشر السابقة على نشوب الحرب العظمى هاجر من روسيا وحدها ١٣ مليون يهودي . وكانت معظم الهجرات اليهودية تقصد أمريكا وبدرجة أقل بريطانيا وجنوب أفريقيا وأوروبا الغربية .

وبينما رأى بعض اليهود حلاً لمشكلتهم في الاندماج في المجتمعات التي ترحب بهم، تزايدت أعداد الجماعات اليهودية التي كانت تهدف الى مساعدة يهود أوروبا وتخفيف حدة آلامهم - ومن ذلك الأليانس الاسرائيلي العالمي Alliance Israélite Universelle الذي أنشئ في باريس في عام ١٨٦٠ بالتعاون مع الفرع الفرنسي من بيت روتشيلد المالي ، وذلك باعتباره أداة للدفاع عن اليهود في وجه حرمانهم من حقوق المواطنة وتخفيف حدة الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية التي كانوا يواجهونها في شتى أنحاء العالم . كما بدأت بعض الدوائر « الصهيونية » تتجه في حل مشكلة اليهود الى حفز العمل على « العودة » الى « أرض الميعاد » .

وفي فبراير ١٨٩٧ أصدر الصحفي اليهودي المجري تيودور هرتزل كتابه «الدولة اليهودية» الذي لم يقتصر على الدفاع عن الصهيونية باعتبارها بديلا أيديولوجيا «للتحرير» ، بل حث على بذل جهود سياسية مباشرة تستهدف ضمان اعتراف دولي بحق اليهود في فلسطين، وأبدى اعتراضه على أي توطين في فلسطين على مدى صغير الى أن يتم هذا الاعتراف . وأشار هرتزل في كتابه الى أن «المشكلة اليهودية» ليس لها سوى حل واحد هو قيام دولة يهودية سواء في فلسطين أو في أي منطقة أخرى، ينعم فيها اليهود المضطهدون بالحرية والكرامة . وفي أغسطس ١٨٩٧ انعقد أول مؤتمر صهيوني في بال بسويسرا تحت رئاسة

هرتزل، وانبثقت عنه المنظمة الصهيونية⁽⁴⁾ التي كان من واجبها العمل على تنفيذ الأهداف المعروفة باسم برنامج بال الذي تضمن سعى الصهيونية الى اقامة وطن للشعب اليهودي في فلسطين يضمنه القانون العام. وقد صيغ القرار بهذا الشكل دون تحديد واضح وذلك على أثر مناقشات في جلسات المؤتمر. فقد سعت لجنة الصياغة الى تجنب المطالبة الصريحة بقيام دولة يهودية في فلسطين واقترحت صيغة «وطن يتم ضمانه بصفة قانونية للشعب اليهودي في فلسطين، واعترض البعض على هذه الصيغة على اعتبار أنها قد تفسر بأنها لا تطالب بما هو أكثر من الحقوق العادية للأشخاص العاديين في شراء الأراضي وتطويرها- وسعى الى تأكيد الطابع المميز للميثاق الصهيوني حثوا المؤتمر على أن يطالب «بوطن للشعب اليهودي في فلسطين يضمنه القانون الدولي». وكان من رأى هرتزل أن هذه الصيغة غير مناسبة اذا ما وضع في عين الاعتبار شك العثمانيين في التدخل الأجنبي وتخوفهم من ظهور حركات جديد تسعى الى تحقيق السيادة على فلسطين وكانت وجهات نظره له وزنها فيما يتعلق بالتوصل الى الصيغة النهائية التي سبقت الاشارة اليها⁽⁵⁾ وبالإضافة الى ذلك فقد قرر المؤتمر اتخاذ الخطوات التالية في سبيل تحقيق الأهداف الصهيونية:

- توطين عدد مناسب من اليهود في فلسطين يختارون من بين الزراعة والصناع ورجال الأعمال.
- تنظيم كل اليهود وربطهم عن طريق اقامة المؤسسات المناسبة - محليا ودوليا - وفقا لقوانين كل بلد⁽⁶⁾.
- تنمية الوعي القومي اليهودي وتقويته.
- اتخاذ الخطوات التمهيدية اللازمة للحصول على الموافقات الحكومية، حيثما تدعو الضرورة، على تحقيق هدف الصهيونية.

كما قررت الحركة الصهيونية في مؤتمر بال التخلي عن الاستيطان غير المنتظم الذي يدعمه بعض الأغنياء اليهود لأغراض دينية وخيرية، والأخذ ببرنامج استيطان منظم له أهدافه السياسية الواضحة، خاصة وأنها لمست عدم نجاح الجهود المبذولة

لانشاء المستوطنات الزراعية في فلسطين قبل عام ١٨٩٧ برغم الاعانات المادية التي قدمها أغنياء اليهود في أوروبا .

أوضاع الدولة العثمانية :

في القرن التاسع عشر برز ضعف الدولة العثمانية الذي كان قد بدأ قبل ذلك بعدة قرون ، بحيث أطلق عليها اسم «رجل اوروبا المريض» الذي توقع الجميع وفاته بين آن وآخر واختلفوا على توزيع تركته . وكانت روسيا القيصرية تسعى باستمرار الى تدمير الامبراطورية العثمانية سعيا منها الى الوصول الى المياه الدفيئة وتوسيع رقعة أملاكها . كما تطلع رعايا السلطان من المسيحيين الى الاستقلال الذاتي أو التام بمساعدة الدول الأوروبية المسيحية . حقيقة ان بريطانيا وفرنسا وفتتا الى جانب الدولة العثمانية ضد روسيا في أكثر من مناسبة محافظة منها على التوازن الأوروبي ، ألا أنهما تقاضتا ثمن ذلك نفوذا عريضا في عاصمة الدولة وأملاكها يستمد قوته طورا من الامتيازات الأجنبية القديمة وطورا آخر من قدرة الدولتين العسكرية والاقتصادية والسياسية . أما الامتيازات الأجنبية "Capitulations" التي لعبت دوراً كبيراً في أدوار ضعف الدولة العثمانية فقد منحها الدولة في أوقات قوتها لفرنسا ثم لسائر الدول الأوروبية الأخرى بهدف تشجيع التجار الأجانب على الإقامة في داخل الأملاك العثمانية ، ثم ما لبثت أن تحولت الى أداة للافتتاح على الدولة ورعاياها ، خاصة أن الدول الأوروبية كانت تعتبرها حقوقا مكتسبة لها ولرعاياها . فطبقا للامتيازات كان الأوروبيون الذين يؤمّنون البلاد العثمانية ويعملون فيها لا ينطبق عليهم ما لسلطات الأمن والعدل من حق تفتيش مساكنهم لأي سبب كان أو التحقيق معهم أو محاكمتهم دون حضور ممثل عن القنصلية التي ينتسب اليها كل منهم . كما أنه لم يكن يحق للحكومة العثمانية أن تجبي من الأجانب أية ضريبة مباشرة ، بل ان الضرائب غير المباشرة كانت مقيدة بقيود الامتيازات الأجنبية^(٣) وكان يكفي لأي من رعايا الدولة أن يحصل على حماية دولة أوروبية لكي يتمتع بمزايا الامتيازات الأجنبية . وعبثا حاولت الدولة العثمانية أن تقاوم ضغط الدول

الأوروبية عليها وأن تقوى نفسها بإدخال الإصلاحات الحديثة في جيشها وادارتها وتعليمها ونظمها ومحاولتها إصدار الفرمانات التي تستهدف إقامة المساواة بين شتى رعاياها في ظل رعية عثمانية عامة تحل محل الولاءات الدينية أو القومية الضيقة. إلا أن الطوائف غير الاسلامية، وقد أفادت الى حد كبير من التغلغل الأوروبي في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية وازدادت ثروتها ومكانتها ونفوذها لم تقنع باتجاه الدولة الجديد، بل ازدادت مطالبتها بمزيد من الحقوق التي تؤمن لها استقلالها في نهاية المطاف بمساعدة الدول الأوروبية. وبالإضافة الى هذا كله فإن الإصلاحات والحروب والاسراف واختلال الادارة وارتقاء قبضة الدول على أملاكها، التي استقل بعضها واقتطعت الدول الأوروبية بعضها الآخر - كل هذا أدى الى الاستدانة وقيام « ادارة الدين العثماني العام » في عام ١٨٨١، وكان يشرف عليها مجلس يمثل الدائنين الأجانب. وقد خصصت لهذه الادارة موارد ضرائب واحتكارات مختلفة خصصت لخدمة الدين، وكانت تقوم بتحصيل وانفاق الدخول كما أصبحت أداة لجباية ضرائب معينة - وبذلك تحولت ادارة الدين الى دولة داخل الدولة تستند الى نفوذ الدول الأجنبية.

وكان امتداد النفوذ الأوروبي الى داخل الامبراطورية العثمانية من العوامل المباشرة التي أدت الى القلاقل وازدياد المصاعب التي كانت تواجه اليهود والأقليات الأخرى. ففي بعض الأحيان كان اليهود يعاملون باعتبارهم حلفاء فعليين أو محتملين للعدو، وهو افتراض أكدته حالة الجزائر خلال الثلاثينات: فلقد أدى احتلال فرنسا للجزائر في عام ١٨٣٠ والنفوذ اليهودي في الدوائر الفرنسية الى حصول الجالية اليهودية في الجزائر على الوضع الممتاز الذي خلعتة عليها الجنسية الفرنسية، كما أن مساندة اليهود الغربيين للمستوطنين اليهود في فلسطين كانت تعني بالضرورة مقاومة هؤلاء الأخيرين للأسباب التقليدية التي كانت تتبعها الدولة العثمانية لحل مشاكلهم. وقد ازداد الطابع السياسي لهذا الاتجاه الجديد حين حاول اليهود الغربيون أن يحصلوا ليهود فلسطين على وضع خاص وسعوا الى وضع خطط لتطوير الاقتصاد المحلي. فبتوجيه من الأليانس الاسرائيلي العالمي أنشئت

مستشفيات وورش ومدارس حيثما كانت تسمح موارد ونفوذ مختلف الحكومات الغربية. وبعد حرب القرم (١٨٥٣-٥٦) التي وقفت أثناءها فرنسا وبريطانيا الى جانب الدولة العثمانية ضد روسيا، سعت فرنسا باستمرار الى تعزيز نفوذها في الشام، ونادى كثير من كتابها ليس فقط يفرض الحماية على متصرفية لبنان المتمتعة بالحكم الذاتي، بل على «ولاية» فلسطين حين تحصل على وضع مماثل. ولم يشك موسى هس في تحسين الأوضاع بعد شق قناة السويس ومد خط حديدي بين أوروبا وآسيا، وكان يتوقع مساهمة فرنسا في انشاء المستوطنات اليهودية التي قد تمتد يوما من السويس الى القدس ومن ضفاف نهر الأردن الى شواطئ البحر المتوسط. كما اعتقد بأن «المسألة الشرقية» قد تتيح الفرصة لانتزاع فلسطين لليهود من الدولة العثمانية في مقابل بعض الأموال التي كانت الدولة في أشد الحاجة اليها^(٨).

موقف الدولة العثمانية من الهجرة اليهودية :-

لم يكن يهود فلسطين يثيرون أية مشاكل في الوقت الذي بدأ فيه اضطهاد اليهود في روسيا في أعقاب مقتل القيصر اسكندر الثاني في عام ١٨٨١ وسريان الاشاعات حول اشتراك اليهود في مقتله وحول صدور الأوامر من القيصر الجديد باضطهاد اليهود. الا أن تدفق يهود روسيا وأوروبا الشرقية على الدولة قد جعل السلطات العثمانية تتنبه الى خطورة هذا التطور الجديد فأعلنت في أبريل ١٨٨٢ أنها «تحيط كل (اليهود) الذين يريدون الهجرة الى (داخل أراضيها) علماً بأنهم لن يسمح لهم بالاستقرار في فلسطين بل يمكنهم أن يهاجروا الى داخل ولاية (عثمانية) أخرى وأن يستقروا فيها كما يخلو لهم بشرط أن يصبحوا رعايا عثمانيين وأن يقبلوا سريان قوانين الامبراطورية عليهم.»^(٩) وفي ٢٩ يونيو ١٨٨٢ أبرق الباب العالي الى متصرف القدس يطلب منه عدم السماح لليهود الذين يحملون جنسيات روسيا ورومانيا وبلغاريا بالنزول الى يافا أو حيفا على اعتبار أن من المحرم على هؤلاء اليهود أن يضعوا أقدامهم في مدن فلسطين الأربع المقدسة (القدس - الخليل -

صفد - طبرية) بل عليهم أن يتجهوا الى أي ميناء عثماني آخر على ظهر نفس السفينة التي أقلتهم. وكان هذا الحظر مناقضا لشروط اتفاقية الامتيازات الأجنبية الموقعة مع روسيا التي ضمنت لرعاياها التنقل بحرية في شتى أنحاء الامبراطورية العثمانية باستثناء شبه الجزيرة العربية. وحين طلب المتصرف أيضاً من الآستانة صدرت اليه الأوامر بطرد كل اليهود الذين استقروا في المتصرفية منذ أربعة شهور وألا يسمح للحجاج ورجال الأعمال اليهود بالبقاء لمدة قصيرة مع منع اليهود الآخرين (أي المستوطنين المحتملين) من النزول الى الشاطيء. وبعد قليل صدرت أوامر مشابهة الى ولاية الشام وطبقت فيها. وقد أوضحت نصوص هذه التعليمات التي تكرر توجيهها الى السلطات العثمانية في فلسطين أن الباب العالي كان يهتم في المحل الأول بالحيلولة دون استقرار اليهود الروس في فلسطين. أما اليهود القادمون من بلاد أخرى فكانوا يصلون بأعداد أقل ولم يثيروا كثيراً من المشاكل. وفي ربيع ١٨٨٣ فرض حظر تام على دخول كل اليهود الى بيروت ويافا وذلك رغم امكان اليهود القادمين من بلاد أخرى غير روسيا ورومانيا النزول الى يافا، كما سمح للحجاج ورجال الأعمال من اليهود الروس والرومانيين بالنزول الى يافا. ويبدو أن متصرف القدس قد استشف عدم موافقة الباب العالي في الواقع على دخول اليهود الذين ادعوا أنهم قدموا للعبادة وللقيام بنشاط اقتصادي وان يكونوا في الواقع قد قدموا للاستقرار، ولهذا طلب من الآستانة أن تفسر له الأوامر التي أصدرتها له. وفي مارس ١٨٨٤ بحث مجلس الدولة العثماني المسألة وبعد تبادل الاتصالات مع القدس تقرر قفل أبواب فلسطين في وجه كل رجال الأعمال اليهود، على اعتبار أن الامتيازات الأجنبية - التي كانت تسمح للأوروبيين بحرية الاتجار داخل الامبراطورية العثمانية - كانت لا تنطبق الا على المناطق «المناسبة للتجارة». ومنذ ذلك الوقت لم يكن يسمح الا للحجاج اليهود بدخول فلسطين بشرط أن تحمل جوازات سفرهم تأشيرات موثوقاً بها من قبل القناصل العثمانيين في الخارج وأن يدفعوا حين وصولهم تأميناً (٥٠ ليرة عثمانية) يدفع لهم عند المغادرة وأن ييارحوا فلسطين بعد ٣١ يوماً.^(١٠)

وقد بذل رؤوف باشا - متصرف القدس في الفترة الممتدة بين عامي

١٨٧٧-١٨٨٩ جهودا كبيرة لمراقبة تنفيذ القيود المفروضة على دخول اليهود الى متصرفيته . ولما كان هدف الحكومة هو الحيلولة دون استقرار اليهود في المتصرفية ، فانه أقام العراقل في وجه اليهود الأجانب الذين أبدوا رغبتهم في اكتساب الرعوية العثمانية ، وبذل جهودا لتصحيح السجلات الخاصة . باليهود العثمانيين المقيمين في المتصرفية بقصد طرد المقيمين الأجانب الذين خرقوا القانون . وحين كان اليهود يتقدمون بطلبات للحصول على الجنسية كانوا يجدون السلطات تتعمد التسويف ولا تبدي حماسة لقبول طلباتهم . كما فرضت ضريبة عالية جدا على اليهود الذين سعوا الى الحصول على الرعوية العثمانية ، وذلك بعد وقت قصير من صدور القيود المفروضة على الدخول الى المتصرفية . وسواء أكان اليهود عثمانيين أو أجانب فقد أثرت في وجههم كثير من الصعوبات بصدد شرائهم للأراضي^(١١) ورغم حماسة رؤوف في تطبيق الأوامر الصادرة اليه من الآستانة فانه لم ينجح في الحيلولة دون استقرار اليهود في متصرفية القدس أو نمو مستوطناتهم ، ومن المحتمل أن ذلك كان بعيدا عن متناوله . فحتى في الوقت الذي اشتد فيه تطبيق قيود الهجرة كان بإمكان اليهود باستمرار أن يزوروا فلسطين باعتبارهم حجاجا ، وأن يبقوا في داخل البلاد مدة أطول من تلك المصرح بها . وكان بإمكانهم ، حين يحاول البوليس طردهم ، أن يلجئوا الى قناصلهم الذين كانوا يوفرون لهم الحماية طبقا للامتيازات الأجنبية - وعادة ما كان اليهود بغير حاجة الى الاحتماء بقناصلهم ، اذ كانوا يتعمدون رشوة سلطات الميناء وأي شخص يعترض طريقهم ، خاصة وأن الموظفين العثمانيين كانوا يتقاضون رواتب متواضعة من ثم عدم تورعهم عن قبول أي رشوا تقدم لهم . وبالإضافة الى ذلك فإن اليهود كان بإمكانهم أن يخرقوا القانون أو يتحايلوا عليه : فقد كان بإمكانهم أن ينزلوا في بور سعيد ثم يتوجهوا الى فلسطين براً . وهكذا فرغم القيود المفروضة على الهجرة ظلت أعداد يهود فلسطين تتزايد باطراد . ورغم عدم امكان الاعتماد على الاحصائيات المتاحة الا أنه يمكن القول بأن أعداد اليهود في فلسطين في عام ١٨٨٢ حين صدرت قوانين الحظر كانت تصل الى حوالي ٢٤٠٠٠ رتفعت الى حوالي ٤٧٠٠٠ في عام ١٨٩٠ و الى ٥٠ ألف في عام ١٨٩٧ حين قامت الحركة الصهيونية السياسية .^(١٢)

وقد بررت الدولة العثمانية الاجراءات التي اتخذتها بما يلحق البلاد من ضرر فيما يتعلق بالأحوال الصحية وأحوال الأمن العام. وأشار الصدر الأعظم فيما يتعلق بهذه الناحية الأخيرة الى اشتداد تعصب مسيحي الشام ضد اليهود مما اضطر هؤلاء الأخيرين خلال عيد فصح ١٨٨٧-٨٨ الى البقاء داخل منازلهم تجنباً للاعتداء عليهم بل وقتلهم في الشوارع. ورغم أن الدول الأوروبية لم تقبل هذه القيود لأنها كانت مصممة على المحافظة على المزايا التي حصلت عليها طبقاً للامتيازات الأجنبية، فإن الدولة العثمانية قاومت الضغوط الأوروبية بهذا الصدد، اذ كانت وراء مخاوفها من الهجرة اليهودية الأسباب الآتية:

- عدم رغبة الدولة في ازدياد أعداد الرعايا الأجانب - وبخاصة الأوروبيين - في داخل أراضيها. فقد يتمكن اليهود في المستقبل من الادعاء بالحماية الأجنبية ثم التصرف كما يحلو لهم دون أن تكون للدولة سلطة عليهم.
- خشية الدولة من احتمال ظهور مشكلة قومية جديدة داخل أراضيها تضاف الى مشاكل القوميات الأخرى. ولما كان معظم المهاجرين بعد عام ١٨٨٢ من الروس، فإن الباب العالي لم يكن يود أن تزرع في قلب المنطقة العربية حركة قومية روسية الثقافة قد تحرت روسيا نشاطاتها بصورة تضر بالدولة.
- ضغط روسيا على الباب العالي حتى لا يهاجر يهودها على نطاق واسع الى فلسطين اذ أنها كانت تعارض أي تقوية، أو تثبيت، لوضع أي جماعة في فلسطين بالشكل الذي يؤدي الى الاخلال بالتوازن الخاص بالأماكن المقدسة^(١٣).
- حرص السلطان عبد الحميد على الترويج لحركة الجامعة الاسلامية وادعاؤه لقب الخلافة، مما يتعارض مع ظهوره بمظهر المفرط في أرض فلسطين التي لها قداستها الخاصة بالنسبة الى المسلمين.

ولكن ازاء تصميم الدول الأوروبية على المحافظة على الحقوق التي اكتسبتها من الامتيازات الأجنبية، استطاعت هذه الدول في عام ١٨٨٨ أن تحصل على تنازل من الباب العالي يسمح لليهود بالاستقرار في فلسطين بشرط أن يصلوا فرادى

لاجتماعات . ولما فشلت الدولة في منع اليهود من الاستقرار في فلسطين حولت انتباهها الى موضوع آخر هو منع اليهود من شراء الأراضي في فلسطين . وقد بذل رؤوف باشا جهودا كبيرة في هذا المضمار . فمعظم الأراضي التي اشتراها اليهود حتى ذلك الوقت كانت أراضي حكومية (ميري) لا يجوز بناء مساكن عليها الا بعد تقديم طلب الى الآستانة مؤثر عليه بموافقة المتصرف . ولهذا نجده يحاكم المستوطنين الذين كانوا يقومون بالبناء بدون ترخيص ، ويصدر أوامر للقضاة بانزال أقصى عقوبة بالمخالفين - أي ازالة المباني مع تكليف من يقوم بالبناء بتحمل نفقات الازالة . ورغم ذلك فقد كان بإمكان اليهود الحصول على الأراضي من جديد ، فكانوا يشترونها ليس فقط بأسماء اليهود العثمانيين المستقرين بالبلاد منذ أمد بعيد بل أيضا بأسماء العرب المحليين أو بأسماء القناصل أو مندوبيهم . وفيما يتعلق بالبناء كان بإمكان المباني المؤقتة أن تتحول بوسيلة أو بأخرى الى مباني دائمة . وهكذا أنشئت خمس مستوطنات زراعية خلال الثمانينات في عهد رؤوف . كما أنشئت أربع أخرى خلال التسعينات . أما في شمالي البلاد حيث كانت مشاكل تطبيق أوامر الحظر مشابهة لتلك المنطقة في المتصرفية فقد أنشئت أربع مستوطنات خلال الثمانينات وخمس أخرى بحلول أواسط التسعينات . وهكذا فحين قامت الحركة الصهيونية في عام ١٨٩٧ كانت توجد بفلسطين ١٨ مستوطنة حديثة .

الا أن رؤوف باشا بذل كل ما في وسعه لمنع اليهود من الاستحواذ على الأراضي مما أدى الى وقف ارتفاع أسعار الأراضي . ولكن خلفه رشاد باشا (١٨٨٩-٩٠) لم يتصف بتشدد سلفه ، مما أدى الى اندفاع اليهود المحليين في شراء الأراضي ، كما أرسلت الجمعيات المشرفة على الهجرة في الخارج ممثلين للقيام بنفس العمل - بل أن بعض العرب المحليين اشتروا الأراضي بهدف إعادة بيعها لليهود . وفي نوفمبر ١٨٩٢ صدرت أوامر من الآستانة الى متصرف القدس تقضي بتحريم بيع الأراضي الميري (أراضي الدولة التي كانت تتطلب اذنا رسميا بنقل ملكيتها) لليهود . ولما كانت معظم أراضي فلسطين من الأراضي الميري ، فقد تزايدت احتجاجات كل

من اليهود العثمانيين والأجانب الذين كانوا يستثمرون أموالهم في شراء الأراضي . واحتج الأجانب كالعادة الى قنصلهم الذين يلغوا الشكاوى الى سفاراتهم في الأستانة . وفي أوائل عام ١٨٩٣ قدمت الى الباب العالي احتجاجات ضد «الخرق الصريح» للامتيازات الأجنبية . وكان رد الباب العالي على هذه الاحتجاجات هو أن الاجراء الأخير قد أمّلته اعتبارات سياسية وأنه لا يهدف الى حرمان الأجانب من حقوقهم - اذ الهدف منه لا يتعدى منع استقرار المهاجرين اليهود في فلسطين ، خاصة وأن الحظر القائم لم يحل دون نجاحهم - أو احتمال نجاحهم في التسلل الى داخل البلاد . وكان الباب العالي يتوقع أن لا تجد الدول التي قبلت مذكرته الصادرة في ١٨٨٨ الخاصة بالحيلولة دون دخول جماعات كبيرة من اليهود الى فلسطين مجالاً للاعتراض على اجراء يستهدف تعزيز ذلك الحظر الذي طبق على اليهود العثمانيين والأجانب على حد سواء دون أي تفرقة . على أنه في سبيل أن يخطو خطوة نحو ارضاء الدول صرح بأن بإمكان اليهود الأجانب الذين يقيمون في فلسطين بطريقة مشروعة أن يشتروا الأراضي وفق الشرطين الآتيين :

- أن يقدموا لمكتب تسجيل الأراضي (الطبو) في القدس شهادة صادرة عن قنصليتهم وعليها تصديق المتصرف على كونهم مقيمين شرعيين .
- أن يتعهدوا بألا يسمحوا «ليهود غير شرعيين» بأن يقيموا على أرضهم (اذا كانت حضرية) أو يقيموا عليها مستوطنة (اذا كانت ريفية) .

وهذا التنازل الأخير فيما يتعلق بشراء اليهود الأجانب للأراضي كان نموذجاً للشغرات التي خرقت اجراءات الحظر . ففي الوقت الذي كانت فيه الحكومة العثمانية على استعداد لقفل أبواب فلسطين في وجه اليهود في محاولة لمنع استقرارهم فيها ، ثم ضمان حق بعض اليهود الأجانب في الإقامة في البلاد والحصول على الأراضي . وكان جانب من المشكلة يكمن في مواجهة الحكومة ضغوطاً من جانب الدول العظمى التي لم تكن تقبل أي اجراء من شأنه المساس بالمزايا التي تضيفها عليها الامتيازات الأجنبية على حين كان يكمن الجانب الآخر في داخل الحكومة

العثمانية ذاتها. فلم توجد في الدولة أية ادارة تختص بمواجهة المشاكل الناتجة عن استقرار اليهود في فلسطين، اذ أن سكنى اليهود في فلسطين كان غير مسموح به من الناحية النظرية. كما لم يوجد أي تنسيق بين ادارات الدولة المختلفة بهذا الصدد اذ برغم الأوامر المتكررة الصادرة عن كل ادارة كانت تجري فيها تعديلات عدة، بل في بعض الأحيان كان يجري نقض قرارات الادارة المعنية أو غيرها من الادارات. وهكذا ازدادت التناقضات فيما يتعلق بتطبيق اجراءات الحظر خلال التسعينات، وبالتالي كانت السلطات المحلية تواجه باستمرار مشاكل لا تعرف كيفية حلها^(١٤).

وفي عام ١٨٩٩ صدرت قوانين جديدة أرسلت الى القدس ويافا لتنفيذها كما وزعت نسخ منها على الهيئات القنصلية في نوفمبر ١٩٠٠. فقد ألغى تأمين الخمسين وتحديد الاقامة بواحد وثلاثين يوما وسمح لكل يهودي أجنبي يزور فلسطين بالاقامة فيها لمدة ثلاثة أشهر، وعند نزوله الى أي ميناء في ولاية بيروت أو متصرفية القدس يسلم جواز سفره ويتسلم بدلا منه تذكرة حمراء ذات شكل خاص يجعل من السهل تمييزها عن التذاكر العادية، مقابل قرش واحد، تذكر فيها المهنة والجنسية وسبب الرحلة - وعند انتهاء الشهور الثلاثة تقوم السلطات المحلية بترحيل اليهودي من البلاد (اذا رفض مغادرتها) عن طريق القنصلية ذات العلاقة نظرا لما لها من حق السلطة القضائية عليه. ونصت القوانين على وجوب حفظ سجل شهري لتواريخ وتفاصيل مثل هذه التذاكر المؤقتة، توزع على السلطات المحلية والبوليس من أجل ابعاد الذين تجاوزوا فترة الاقامة.

كما أتبع الباب العالي هذا الاجراء بقانون يمنع اليهود الأجانب من التملك^(١٥). وكان القصد من هذه الاجراءات يتصل بمراقبة اليهود الذين يزورون فلسطين. وقبل صدورها كانت قد تشكلت في عام ١٨٩٧ لجنة خاصة في القدس لمحاولة تطبيق قيود الدخول الى البلاد. وفي سبتمبر ١٨٩٩ قدم أعضاء هذه اللجنة تقريرا الى المجلس الاداري أوضحوا فيه أن قيود الهجرة التي تقررت في عام ١٨٩١ لم تطبق الا على يهود روسيا ورومانيا والتمسا واليونان وفارس الذين يحظر عليهم بصورة جدية دخول فلسطين، على حين سمح ليهود اخرين. بالدخول دون أي عوائق. وفي عام

١٨٩٧ طبقت اللجنة قيود الحظر بصرامة، ولكن كان بإمكان اليهود باستمرار أن يدخلوا فلسطين بصفقتهم حجاجاً، وما إن يتم لهم الدخول إلى البلاد حتى كان يستحيل في الواقع إرغامهم على الخروج منها. فقد كان يصعب تمييزهم بحكم أن السجلات كانت من الفوضى بحيث كان لا يمكن اثبات أن اليهودي فقد دخل البلاد منذ وقت قريب. كما أن القناصل قاوموا طرد اليهود الخاضعين لحمايتهم، واكتشفت اللجنة وجود عدة نقاط يمكن لليهود أن يدخلوا منها إلى فلسطين، وأن الموظفين الذين يتقاضون رشاوى كان لا يمكن التعرف عليهم، وأن البحث عن المخالفين لا قيمة له طالما لا يمكن معاقبة المخالفين. وقدمت اللجنة عدة اقتراحات لجعل القيود أكثر فعالية - ومن ذلك تعزيز قوات البوليس وإيجاد لجان خاصة في كل من يافا والقدس والتسجيل الإجباري لكل المقيمين في البلاد وتقديم مكافآت مالية لمن يبلغ عن اليهود المقيمين بصفة غير قانونية وعن الموظفين خرنى الذمة كما شددت على تعاون القناصل بصورة جدية ومن ناحية أخرى قدمت اللجنة اقتراحاً بديلاً يقضي بالسماح بالاستقرار لليهود الذين يرغبون في ذلك بشرط أن يتجنسوا بالجنسية العثمانية حين وصولهم وأيدت أي إجراء كفيل بوضع حد للفوضى السائدة في فلسطين^(١٦) ومنذ يناير ١٩٠١ تمتع اليهود العثمانيون والأجانب بالحقوق التي يتمتع بها الرعايا العثمانيون - ولهذا أصبح بإمكانهم شراء الأراضي الميري والبناء عليها طبقاً لقانون الأراضي. فأدت هذه الخطوة إلى تنظيم وضع اليهود الذين أقاموا في فلسطين عدة سنوات بطرق غير شرعية إذ وجب منذ ذلك الوقت باعتبارهم رعايا عثمانيين بإمكانهم أن يشتروا الأراضي ويبنوا عليها. كما ألغيت العراقل التي كانت تعترض اليهود العثمانيين في السابق بسبب وفود المهاجرين الجدد وإن كان لا يزال محرماً على أي مالك عقار أن يساعد المهاجرين اليهود الجدد على الإقامة في فلسطين وفي هذه الفترة جرت تعديلات في اللوائح الخاصة بالحجاج اليهود فتقررت البطاقة الحمراء التي سبقت الإشارة إليها. إلا أن كل هذه اللوائح كانت مليئة بالثغرات - فكان لا يزال بإمكان اليهود أن يدخلوا إلى فلسطين بصفقتهم حجاجاً، كما منح بعض اليهود المقيمين في فلسطين بطريقة غير شرعية حق شراء

الأراضي. وفوق هذا كله فان الدول الكبرى أبدت اعتراضها على اللوائح الجديدة^(١٧).

ولكي يشدد السلطان عبد الحميد قبضته على فلسطين نجده يعين سكرتيريه متصرفين للقدس بعد المؤتمر الصهيوني الأول بوقت قصير^(١٨) حتى ثورة الاتحاديين في عام ١٩٠٨. ولكن هذا الاجراء بدوره لم يكن مجديا بحكم أن سكرتيري السلطان ذاتهم كانوا خري الذمة، شأنهم في ذلك شأن سائر موظفي الامبراطورية العثمانية كما أن بعض هؤلاء السكرتيرين كانوا أقل خبرة من الحكام الآخرين الذين كانت الادارة النظامية للولايات تقوم بتعيينهم. وبرغم عدم فعالية أوامر الباب العالي بعد عام ١٨٩٧ في الحيلولة دون استقرار اليهود في متصرفية القدس، فإنها حددت مساحات الأراضي المباعة لليهود، خاصة أن المفتي محمد طاهر الحسيني (والد الحاج أمين) قد أبدى معارضته لاستقرار اليهود في فلسطين خلال الثمانينات والتسعينات. وفي صيف ١٩٠٣ وصل ديفد ليفونبتن الى يافا لافتتاح البنك الانجليزي الفلسطيني الذي كان بمثابة أول مؤسسة صهيونية تقوم في فلسطين. ولكن لم يلبث الباب العالي أن أدرك صلة البنك بالحركة الصهيونية، وبالتالي واجه ليفونبتن العراقيل في يافا حيث كان من المتوخى أن تقوم مكاتب البنك. ولم يسمح الباب العالي بافتتاح البنك الا بعد تدخل السفارة البريطانية في الآستانة في نوفمبر ١٩٠٣ - وفي الشهر بلغ ليفونبتن بأن البنك سيصرح له بالقيام باعماله طالما تقتصر على المسائل التجارية^(١٩) وحين تزايدت اجراءات اضطهاد اليهود في روسيا منذ عام ١٩٠٥ ازداد اتجاه اليهود الى الهجرة الى فلسطين، وكان من المستحيل عرقلة استقرارهم فيها دون تعاون القناصل، فقد تجاهل اليهود الأمر القاضي بحمل جواز سفر أو ما يعادله - يحدد الهدف من الزيارة - فالمادة ١٧ من القانون التنظيمي لجوازات سفر الأجانب كانت تنص على ضرورة حصول المسافرين الذين يدخلون الى الدولة العثمانية بدون الأوراق اللازمة من قناصلهم على جواز سفر أو ما يساويه خلال ٤٨ ساعة وأن يدفعوا غرامة مقدارها ٤٠ قرشا. وقد سهلت هذه اللائحة على اليهود دخول فلسطين - فقد رحبوا بتصريح الإقامة

لمدة ثلاثة شهور الذي كانوا يحصلون عليه لدى دخولهم عوضاً عن جوازات سفرهم، وذلك باعتباره ضماناً لدخولهم الى البلاد، في الوقت الذي ثبتت فيه استحالة طردهم. وبالإضافة الى سلاح الرشوة فإنهم مارسوا عدة وسائل لاستعادة جوازات سفرهم وخرق اللوائح الأخرى.

وفي أوائل سبتمبر ١٩٠٧ أصدر الباب العالي أمراً يقضي بمنع نقل ملكية أراضي الميري لليهود العثمانيين.^(٢٠) ونتيجة لذلك لم يستطع البنك الانجليزي الفلسطيني الحصول سوى على ١٦٠٠٠٠ دونم من الأراضي بجوار اللد على حين أنه حصل على ١٥٠٠٠٠ دونم في فلسطين في عام ١٩٠٤. وفي أواخر عام ١٩٠٧ بدأت السلطات ترفض السماح بالسير في اجراءات نقل ملكية الأراضي حتى اذا كان الشاري والبائع من الرعايا غير العثمانيين. ورغم ذلك ففي الوقت الذي تجمعت فيه ثورة الاتحاديين كانت سياسة الحكومة العثمانية قد فشلت بصورة لا يسهل علاجها، بعكس ما يذهب اليه الكثيرون الذين يصورون السلطان عبد الحميد بصورة المدافع عن فلسطين والاتحاديين بصورة عملاء الصهيونية التي يقال خطأ انها أوصلتهم الى الحكم بمساعدة يهود الدونمة والمحافل الماسونية في سلانيك. فقد ازدادت أعداد اليهود في فلسطين في عام ١٩٠٨ الى ٨٠ ألفاً - أي حوالي ثلاثة أضعاف ما كان عليه عددهم في عام ١٨٨٢ حين بدأت اجراءات الحظر حين كان عدد اليهود في فلسطين لا يتعدى ٢٤٠٠٠٠، بمعنى أن حوالي خمسين ألفاً كانوا من المستوطنين الجدد. وهكذا ازدادت نسبة اليهود من ٥٪ من مجموع السكان (كان عدد سكان فلسطين في عام ١٨٨٢ يصل الى حوالي نصف المليون) الى ما يزيد على ١١٪ (٨٠ ألفاً من مجموع السكان الذي وصل في عام ١٩٠٨ الى حوالي ٧٠٠٠٠٠).

وبالإضافة الى ذلك فبحلول عام ١٩٠٨ لم يعد اليهود يتمركزون في القدس والخليل وصفد وطبرية كما كان عليه الحال في عام ١٨٨٢ - فبالإضافة الى ٦٠٠٠٠ يهودي في يافا وجدت جالية جديدة تزيد على الألفين في حيفا. كما حصل اليهود خلال هذه الفترة على ٤٠٠٠٠٠٠ دونم من الأراضي (من مجموع

مساحة أراضي البلاد البالغة ٢٧ مليون دوغم)، وأنشئوا ٢٦ مستوطنة زراعية يقيم فيها حوالي ١٠.٠٠٠ مستوطن. وكا أكثر من نصف الخمسين ألفا من الوافدين الجدد من الصهيونيين الذين لم يحصل على الجنسية العثمانية سوى عدد قليل منهم، على حين كان بإمكان أغليبيتهم التمتع بالمزايا التي تتضمنها الامتيازات الأجنبية - أي أنهم كانوا يستفيدون من كل من النظام الممللي العثماني والامتيازات الأجنبية، ومن ثم وضعهم أساس الوجود اليهودي المستقل في البلاد^(٢١).

مساعي تيودور هرتزل :

كان هرتزل أول رئيس للمنظمة الصهيونية العالمية التي استهدفت اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وكان يرى أن ثمة يهوداً أغنياء ويهوداً فقراء وأن اليهود الأغنياء الذين يرغبون في مساعدة اليهود الفقراء لهم تأثير كبير في قرارات الدول . ثم هنالك السلطان العثماني الذي يمتلك فلسطين والذي هو بحاجة الى المال - فهل هناك ما هو أكثر منطقية من جعل اليهود الأغنياء يقدمون أموالا للسلطان لاغرائه على السماح لليهود الفقراء بالهجرة إلى فلسطين^(٢٢)؟ ولتنفيذ ذلك كان لا بد من اتخاذ الخطوتين التاليتين :

- ١ - اغراء أغنياء اليهود بانفاق أموالهم
- ٢ - اغراء الدول العظمى للضغط على الدولة العثمانية من أجل تحقيق آمال الصهيونيين .

وكان هرتزل يرى أن مقومات الحل الناجح تكمن في رأس المال الغربي والمهارات الغربية، مع زيادة عدد السكان على أيدي مهاجرين يضمن ولاؤهم للدولة العثمانية ولا يكونون أداة في يد التدخل الغربي . وقد لخص هرتزل خطته على شكل مشروع « ميثاق » شركة أراضي يهودية - عثمانية احتوى على المقترحات التالية التي تكررت في عام ١٩٠٨ في عرض مشابه قدمه خلفه في زعامة الحركة الصهيونية - وولفسون ه الى السلطان، وأهم نقاطه ما يلي :-

- ١ - تقترض الشركة أربعة ملايين جنيهه تركي للسلطان (ازداد المبلغ الى ٢٦ مليون في مشروع وولفسون).
- ٢ - في مقابل ذلك يسمح للشركة بأن تنقل دون قيد - الى فلسطين وسوريا (فلسطين والأراضي المجاورة في مشروع وولفسون) مهاجرين وعمالا يهودا يحصلون على الجنسية العثمانية.
- ٣ - للشركة الخيار في الحصول على أراضي التاج (الميري) والأراضي الجرداء في المنطقة المعنية وأن تشتري - باعتبارها نائبا عن السلطان - الأراضي الخاصة التي يحتاج إليها الأمر، باستثناء الأماكن المقدسة وأراضي القدس، بشرط أن تتوفر للملاك أراض مماثلة في مكان آخر، وأن تدفع الرسوم السنوية المحددة للسلطان بدلا من الضرائب، وفي الوقت الذي تحصل فيه كل الضرائب والرسوم في منطقتها.
- ٤ - تحصل الشركة اليهودية - العثمانية والمستوطنة التي تقيمها على الاستقلال الذاتي التام في مناطقها المحددة.
- ٥ - يضم الجيش العثماني فرقة عسكرية وبحرية يهودية للدفاع عن المنطقة المعنية والمحافظة على أمنها واستعمالها بصورة محدودة للدفاع عن الامبراطورية العثمانية.
- ٦ - يكون حاكم المنطقة المعنية وقاضي قضائها من المسلمين أو من اليهود وتختارهما الشركة اليهودية - العثمانية ويصادق السلطان على اختيارهما ويقوم الحاكم بتمثيل السلطان في المنطقة ويتمتع بكامل الصلاحيات ويكون مسئولا أمامه مباشرة. (٢٣)

وليس من المتواتر بوجه عام أن هرتزل عرض أفكاره على ابواب العالي قبل عام من انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول. فقد توجه الى الآستانة في يونيه ١٨٩٦ وأجرى اتصالات شخصية ليس فقط مع كبار الموظفين العثمانيين، بل انه اتصل بالسلطان عبد الحميد عن طريق وسيط. (٢٤) ولم يدرك هرتزل خلال هذه الزيارة الأسلوب الأمثل لمخاطبة السلطات العثمانية في وقت كان وضع الدولة في البلقان

مزعرعا وكان فيه السلطان موضعا لنقد جماعة «تركيا الفتاة» في الخارج التي اتهمته «بتمزيق الامبراطورية» - فقد طالب هرتزل بتنازل الدولة لليهود رسميا عن فلسطين وفقاً لما أطلق عليه اسم «الميثاق» الذي سبقت الإشارة إليه.

وفي الوقت الذي كانت فيه الدولة تعاني من التدخل الأجنبي كان هرتزل يأمل في أن تحظى دولته بحماية الدول العظمى. وفي مقابل تنازل الدولة العثمانية عن فلسطين عرض هرتزل بصورة غامضة «تنظيم كل اوضاع تركيا المالية». ونحن لا نميل كثيراً الى الأخذ بتفاصيل ما أورده هرتزل في مذكراته حول هذه الزيارة وزياراته التالية الى الآستانة - فهو اما وقع فريسة لتضليل نيولنسكي أو تعمد الكذب الصريح او خائنه الذاكرة. فهو يذهب الى ان سمعته باعتباره صحفياً لامعاً يكتب في الصحيفة النمساوية ذات النفوذ Neue Freie Presse وعرضه مساعدة الدولة على تنظيم ماليتها مما ساعده على الالتقاء بشخصيات هامة خلال الاسبوعين اللذين أمضاها في العاصمة العثمانية. كما يذهب الى أن السلطان رفض مقابله، ولكن حين ترامت اليه تفاصيل مقترحات هرتزل عرض - من خلال وسيط - احتمال التخلي عن فلسطين مقابل أراضٍ أخرى! وأن عزت باشا العابد - سكرتير السلطان العربي الأصل - قد اقترح ذلك عليه قبل أيام من وصول عروض السلطان! ويورد هرتزل ان السلطان طلب منه القيام بمجهود صحفي للدفاع عن الدولة العثمانية في مواجهة الهجوم الذي تعرضت له بسبب المسألة الأرمنية، كما طلب منه مساعدته على الحصول على قرض قدره ٢ مليون جنيتها^(٢٥) وأنه أنعم عليه بوسام المجيدية^(٢٦).

على أن هذه الزيارة لم تتمخض عن شيء فقبل شهر من انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول تجدد فرض القيود على اليهود القادمين الى فلسطين. كما أن السلطان انزعج لتحركات الصهيونية، خاصة وأن ممثلي الدولة ليس فقط في القدس بل في واشنطن ولندن وفيينا وبرلين ما فتئوا ينبهون السلطات العثمانية إلى أهداف الصهيونية الخاصة بإحياء اليهودية في فلسطين وإقامة حكومة مستقلة فيها ويكتبون التقارير المستفيضة عن الحركة الصهيونية ولكن ذلك لم يفت في عضد هرتزل.

ففي الوقت الذي كانت فيه ألمانيا تقترب من الامبراطورية العثمانية انتهز فرصة زيارة وليم الثاني إمبراطور المانيا إلى الآستانة في أكتوبر ١٨٨٨ وتوجه إلى العاصمة العثمانية حيث قابل الامبراطور الألماني قبل توجهه إلى فلسطين لأداء فريضة الحج والقيام بمظاهرة سياسية. ورغم مرافقته للموكب الامبراطوري وتعليقه آمالا كبيرة على مساعدة ألمانيا، فسرعان ما خابت آماله^(٢٧). وبعد تطبيق الاجراءات العثمانية المقيدة للهجرة اليهودية الى فلسطين (فبراير ١٩٠١) استطاع أرمنيوس فامبري Arminius Vambery المستشرق والرحالة والباحث اليهودي-مجري الأصل-الذي كان على صلة وثيقة بالسلطان عبد الحميد- أن يقنع هذا الأخير بمقابلة هرتزل (مايو ١٩٠١). وقد بلغ قاصري من هرتزل بأن السلطان سيقابله لا باعتباره صهيونيا بل باعتباره رئيسا لليهود وصحفيًا هاما، وحذره من الكلام عن الصهيونية على اعتبار أن القدس بالنسبة الى السلطان لا تقل قداسة عن مكة. وخلال المقابلة استهل هرتزل حديثه بالاشارة الى قصة أندروكليس والأسد: بمعنى أن يساعد اليهود الدولة العثمانية على سداد ديونها (أي الشوكة التي تقص مضجعتها) بحيث يمكنها استعادة قوتها وأضاف أن الدول العظمى تسعى الى استمرار ضعف الدولة العثمانية والحيلولة دون انتعاشها، وأنه سيحصل على معونة يهود العالم وسيساعد الدولة على التصنيع وأن اليهود يختلفون عن الأوروبيين من حيث انهم لن يرحلوا بعد تحقيق مكاسبهم. ورغم عدم اشارته الى فلسطين، فانه اقترح أن يصدر السلطان تصريحاً علنياً يحظى بقبول العالم اليهودي بصدد فتح أبواب أملاكه أمام اليهود في مقابل تسخير نفوذه لدى الدوائر المالية اليهودية لوضع خطة لتخليص الدولة العثمانية من مشاكل الدين العثماني العام والرقابة الأجنبية التي اقترنت به منذ عام ١٨٨١^(٢٨). واستغرقت مفاوضات هرتزل مع سكرتيري السلطان أياما أخرى- وقد سجل في يومياته أنه وزع حوالي ٥٠ ألف فرنك على مختلف الوسطاء الذين أفهموه أنهم مهدوا للقاءه بالسلطان^(٢٩). أما مندوبو السلطان فقد طالبوه بالسعي لدى اليهود لكي يقوموا بجمع ثلاثين مليون جنيه بهدف تصفية الدين العثماني في مقابل السماح لليهود بالاستقرار في الأراضي العثمانية بشرط أن يقبلوا الجنسية العثمانية وأن لا يقوموا بأي هجرة جماعية بل يشكلوا مجموعات متفرقة. ورد هرتزل

على ذلك باقتراح انشاء شركة للأراضي^(٣٠) مهمتها الاستيلاء على الاراضي الفلسطينية غير المزروعة ومنحه ميثاقا بالعراق ومنطقة حيفا في فلسطين^(٣١). وأفهم قبل مبارحته للآستانة أن السلطان يتوقع منه اقتراحات مالية محددة في خلال شهر.

وقد بارح هرتزل العاصمة العثمانية يحدوه التفاؤل - فقد تحادث مع السلطان عبد الحميد زهاء ساعتين وهو ما لم يتسن الا لقليل من السفراء، وان لم يتوصل الى أي شيء محدد. وقد ظل عدة سنوات يدعى أنه كان بإمكانه خلال هذه المقابلة انتزاع فلسطين لليهود فيما لو توفرت له النقود وان لم يتناس أن الأتراك كانوا يحاولون استعماله كأداة للحصول على القرض. ورغم فشله في الحصول على تعضيد المالىين اليهود الا أنه ظل يتصرف كما لو كان في استطاعته تخليص السلطان من الدين العثماني في مقابل الحصول على «ميثاقه أو رخصته». وقبيل انعقاد المؤتمر الصهيوني الخامس أبرق للسلطان عبد الحميد (٢٥ ديسمبر ١٩٠١) معبرا له عن «الاخلاص والعرفان بالجميل العميقين اللذين يكنهما له اليهود ازاء العطف الذي يبديه جلالته نحوهم باستمرار». وفي فبراير ١٩٠٢ استدعى هرتزل من جديد الى الآستانة حيث أفهم أن السلطان مستعد لفتح أبواب امبراطورية أمام اللاجئين اليهود بشرط أن يحصلوا على الجنسية العثمانية ويستقروا في كل أملاكه باستثناء فلسطين في البداية في مقابل مساعدة على تصفية الدين العثماني العام. ولم يجد الاقتراح قبولا من هرتزل الذي لم يرض عن استبعاد فلسطين والهجرة غير المحددة. ورغم ذلك فلم تتوقف مساعيه فاقترح على السلطان في مايو ١٩٠٢ انشاء جامعة يهودية في القدس ويُن أن هذا المشروع سيعود على الدولة العثمانية بفوائد جمة بحيث لن يضطر الأتراك الى ارسال شبابهم الى الخارج حيث تتسرب اليهم الأفكار الخطرة والثورية^(٣٢). وفي يولييه ١٩٠٢ استدعى الى الآستانة من جديد ولم يحصل على شيء كالعادة. وما حل ذلك الوقت حتى كان قد يئس من إقناع السلطان بقبول المطالب الصهيونية وازاء سوء أحوال يهود أوروبا الشرقية طلب من بريطانيا - التي كانت قد بدأت اتصالاته بها - أن تساعد على اقامة مستعمرة يهودية في افريقيا.

وملخص القول فيما يتعلق باتصالات هرتزل بالسلطان عبد الحميد أنه كان يلوح بالفائدة التي تعود على الدولة العثمانية من جراء الاستيطان اليهودي ويحاول أن يقنع السلطان بالتنازل عن فلسطين حيث يتم انشاء دولة يهودية تابعة للباب العالي. أما السلطان فلم يكن قط على استعداد للتنازل عن فلسطين أو فتح أبوابها أمام الهجرة اليهودية غير المحدودة - فاذا ما سمح لليهود بالتوطن في فلسطين «نكون قد وقعنا قرارا بالموت على اخواننا في الدين». أما القدس فهي من المدن الاسلامية المقدسة تقع في أرض اسلامية ولا بد أن تظل في يد الدولة العثمانية^(٣٣). وبالإضافة الى ذلك فان السلطات العثمانية كانت تشك في مدى نفوذ هرتزل لدى الدوائر المالية اليهودية في الوقت الذي كان فيه هرتزل من جانبه يأمل في الحصول على المساندة السياسية والمالية من البنوك اليهودية أو من يهود العالم اذا ما قدم له السلطان وعداً مناسباً. ومن المحتمل أن الدوائر العثمانية كانت تدرك ذلك وأن المنظمة الصهيونية كانت من الفقر بحيث أبطت حساباتها سرا مكونا لعدة سنوات تلافيا للحراج، ولكنها لم تشأ أن توصل أبوابها كلية في وجهه على اعتبار ان وجوده في الآستانة قد يغري دوائر أخرى بالتقدم بعروض مالية سخية^(٣٤).

خلفاء هرتزل:

توفي هرتزل في عام ١٩٠٤ وخلفه ديفيد وولفسون في رئاسة الحركة الصهيونية. وفي أوائل أغسطس ١٩٠٥ انعقد المؤتمر الصهيوني السابع الذي قرر التركيز على فلسطين وحدها واستبعاد الخطط البديلة ومنها مشروع افريقيا وجرى تعديل صندوق الأئتمان اليهودي للاستيطان بحيث أصبحت الفقرة المتعلقة بتفضيل فلسطين وسورية كمسرح لتنفيذ المشروعات الاستيطانية تنص على ما يلي:

«في فلسطين وسورية وأي قسم آخر من تركيا الآسيوية وفي شبه جزيرة سيناء وجزيرة «قبرص». وقد شدد ماكس نورداو في الخطاب الذي ألقاه في المؤتمر على أن الصهيونية لا تحلم بالتآمر على سلخ فلسطين عن الامبراطورية العثمانية أو اعلان قيام مملكة أو جمهورية يهودية مستقلة وعرض وضع الحركة الصهيونية وجميع

الامكانيات والطاقت اليهودية تحت تصرف الحكومة العثمانية للدفاع عن فلسطين^(٣٥). ولكن ذلك لم يخف الحقيقة الخاصة بأنه بعد وفاة هرتزل الذي تزعم «الصهيونية السياسية» التي كانت ترى عدم الشروع في استيطان فلسطين قبل الحصول على براءة من السلطان تأذن بالاستيطان وتعترف صراحة بأنه يهدف الى خلق كيان سياسي قائم بذاته، سيطرت «الصهيونية العملية» التي كانت ترى أن الاستيطان لا يتطلب الموافقة المسبقة من جانب السلطان العثماني. ثم جاءت خطة جديدة أطلق عليها اسم «الصهيونية التوفيقية» التي أقرها المؤتمر الثامن (١٩٠٧) وهي تدعو الى استمرار التسلل البطيء وتنظيمه ورعايته حتى اذا ما قامت في فلسطين مستوطنات يهودية نشطة استطاعت الحركة الصهيونية أن تضغط على السلطات الحاكمة لاصدار البراءة المطلوبة ثم الحصول بعد ذلك على الضمانات الدولية اللازمة لحماية الاستيطان اليهودي في فلسطين^(٣٦). وحين نشرت مناقشات المؤتمر السابع في بعض الصحف الأوروبية صدرت أوامر الباب العالي الى السلطات العثمانية في فلسطين بايقاف كل عمليات نقل ملكية الأراضي إلى اليهود وهي العمليات التي كانت لا تزال في طور الاعداد وتطبيق القيود القائمة بمنتهى الصرامة^(٣٧).

ولم تعاود الحركة الصهيونية الاتصال بالسلطان عبد الحميد حتى خريف ١٩٠٧ حين زار وولفسون الآستانة وقام بارجاء اتصالات غير مباشرة بالسلطان وفي عام ١٩٠٨ قرر ايفاد جاكربسون - وهو صهيوني روسي - بصفته مندوبا للجنة التنفيذية في العاصمة العثمانية. وقد قام وولفسون بزيارة الآستانة مرتين - وكان هدفه من الرحلة الأولى اقناع السلطات العثمانية بالغاء الحظر المفروض على الهجرة اليهودية وتشكيل لجنة عثمانية - يهودية مشتركة خاصة بالهجرة - وقد تزامنت رحلة اكتوبر ١٩٠٧ مع نشوب أزمة مالية عثمانية جديدة. لهذا طلب منه العثمانيون العمل على الحصول على قرض قدره ٢٦ مليون جنيه الهدف منه توحيد الدين العثماني. وقد عرض وولفسون عشرين مليون جنيه في الوقت الذي لم تتعد فيه الميزانية السنوية للجنة التنفيذية ٤٠٠٠٠ جنيه وعرض على السلطات العثمانية

خطة تتضمن استقرار خمسين ألف أسرة يهودية في فلسطين باستثناء القدس على أن يتحولوا الى رعايا عثمانيين ويخدموا في الجيش ويعفوا من الضرائب لمدة ٢٥ سنة وتصبح الاراضي التي تحصل عليها اللجنة التنفيذية ملكا لها. وبينما المفاوضات تجري اذ بالاتحاديين يستولون على الحكم في تركيا في يولييه ١٩٠٨ ويعلنون الدستور ثم لا يلبثون أن يخلعوا السلطان عبد الحميد في العالم التالي .

وقد استؤنفت المباحثات حول أهداف الصهيونية بعد ثورة الاتحاديين . وفي خطاب المؤتمر الصهيوني التاسع (١٩٠٩) صرح ماكس نورداو بان سقوط الحكم الاستبدادي في تركيا قد اذن باطراح فكرة الميثاق التي لم يشر اليها مؤتمر بال . كما قررت اللجنة التنفيذية عدم الارتباط بشعار الوطن القومي الذي تضمنه الدول العظمى ، وهو الشعار الذي ثبت باستمرار أنه من الأمور الشائكة فيما يتعلق بالعلاقات الصهيونية - العثمانية ... إذ من الطبيعي أن يستنكف الأتراك أي خطة تتضمن استدامة تدخل الدول الأجنبية وتقنينه . على أن هذه التعديلات لم تمس الاتجاه الأساسي للحركة الصهيونية بل كانت ذات صفة تكتيكية^(٣٨) .

موقف الاتحاديين :

ومن الطبيعي أن يرحب الصهيونيون بالحكم الجديد الذي أبدى استعداداه للاستجابة لمطالب الأقليات التي كانت الدولة العثمانية تحتوي عليها^(٣٩) فبعدها قام وقد من مجلس المبعوثان (البرلمان) العثماني بزيارة لندن في صيف ١٩٠٩ صرح طلعت بك - وزير الداخلية وكان من ضمن أعضاء الوفد - بأنه يرحب بالهجرة اليهودية الى جميع أنحاء الدولة ، ولكنه حذر من أية نوايا انفصالية أو نزعات شريرة مفرضة سوف لا تنال أي عطف^(٤٠) . الا أن اعلان الاتحاديين في أعقاب الثورة أنهم سيطبقون لا مركزية الحكم لم يكن يعني استعدادهم لتصفية الامبراطورية فهم قد حاولوا تطبيق ما نادى به دعاة الاصلاح في القرن التاسع عشر بصدد قيام دولة عصرية دستورية يتساوى فيها رعايا السلطان على اختلاف أديانهم وأجناسهم . وقد أسفرت الانتخابات التي جرت في خريف ١٩٠٨ عن مجلس نيابي يمثل جميع

عناصر الامبراطورية (١٤٢ من الأتراك - ٦٠ من العرب - ٢٥ ألباني - ٢٣ يوناني ١٢ أرمني - ٥ يهود - ٤ بلغار - ٣ صربيون ونائب عن الولاش)^(٤١).

على أن الاتحاديين كانوا قوميين أتراك ومن ثم لم يكونوا أقل وطنية من السلطان عبد الحميد وان جاء حكمهم مغايراً. لهذا كان أمر الحصول على الرقعة التي كان يحلم بها الصهيونيون أصعب من ذي قبل، بحيث ان وولفسون قد أبدى شكوكه ازاء جدوى التفاوض مع الاتحاديين الذين استبعدوا الاستيطان في فلسطين على مدى واسع وواصلوا الحظر المفروض على الهجرة. ورغم ذلك فان الصهيونية السياسية ركزت جهودها على التأثير في السلطات العثمانية في المحل الاول بدلا من الاعتماد على الحكومات الأوروبية- وقد صرح وولفسون للمؤتمر الصهيوني التاسع (١٩٠٩) بأن الدولة العثمانية «التي أصبحت دولة دستورية هي محط أمل جديد.. ويتوقع منها أن تطور الهجرة اليهودية الى فلسطين من أجل مصالحها».

كما عبر ماكس نورد او عن تطلع الصهيونيين الى الاعتراف بقوميتهم كسائر قوميات الامبراطورية العثمانية ولكن دون التفكير في فصل فلسطين عن الدولة^(٤٢). وبالإضافة الى ذلك فقد رأوا ضرورة التعاون مع الأحزاب السياسية العثمانية: تركية وعربية، ومن ثم اجراؤهم اتصالات بالنواب العرب من سوريين وفلسطينيين وبالزعماء العرب المنتسبين الى الحزبين العثمانيين الرئيسيين ومحاولتهم التأثير بوجه عام على المثقفين من شباب الأتراك من خلال جريدة كان يصدرها المكتب الصهيوني^(٤٣). وحين هاجمت ايطاليا ليبيا في عام ١٩١١ نوقشت فكرة حشد شباب يهود فلسطين لمحاربة ايطاليا ثم استبعدت واستبدل بها ارسال فريق من الاطباء الصهيونيين، وأبدى الصهيونيون عطفاً غامضاً على الدولة في الصحف الأوروبية والصهيونية وأعلنوا ولاءهم لها وأكد نورمان بنتويتش أن الزعماء الصهيونيين منذ بداية العهد الدستوري قد أعلنوا تخليهم عن الحصول على ميثاق وعلى استقلال ذاتي سياسي وأن كل ما يطالبون به هو ازالة القيود المفروضة على الاستيطان ومساواة المستوطنين اليهود بسائر رعايا الدولة وأن بإمكان الأتراك أن يجدوا في الهجرة اليهودية وحدها القوة الانتاجية التي يحتاجون اليها، بينما يستطيع

اليهود أن يجدوا في الدولة العثمانية « هذا البلد المفتوح والحر » مكانا تبرز فيه مواهبهم وتأمين من ديانتهم وثقافتهم^(٤٤) وشدد الصهيونيون على صداقتهم للدولة العثمانية محاولين ابراز استعمارهم لفلسطين باعتباره مساهمة فعالة في رفعة الامبراطورية وتقدمها. وأكد وولفسون في الخطاب الذي ألقاه أمام المؤتمر الصهيوني العاشر (١٩١١) على أن ما يريده الصهيونيون « ليس دولة يهودية بل وطننا »^(٤٥).

و حين هاجمت اليونان والصرب وبلغاريا الدولة العثمانية (١٩١٢) سعى الصهيونيون الى استغلال مصاعب الدولة للحصول على مكاسب جديدة فيما يتعلق بالعمل الصهيوني في فلسطين. وقد أبدى اليهود العثمانيون مظاهر الولاء للدولة منذ الأيام الأولى لنشوب الحرب التي استغلها الصهيونيون في العمل على تحقيق أهدافهم متبعين في ذلك عدة وسائل: النفوذ المالي لليهود العالم - إثارة الاهتمام الدولي بوضع يهود البلقان الذين أصبحوا تابعين لمختلف الدول البلقانية المستقلة - تسخير الدبلوماسية الدولية للضغط على الحكومة العثمانية من أجل منح اليهود تسهيلات الهجرة والاستيطان وازالة القيود المفروضة عليهم. وفي أكتوبر ١٩١٢ ألغيت البطاقة الحمراء بدعوى أن هذا النظام أفسح المجال أمام اساءة الاستعمال وفشل في تقييد الهجرة اليهودية وتشكلت لجنة محلية للاشتراك مع السلطات في المتصرفية للنظر في اتخاذ اجراءات أكثر فعالية لمنع اليهود من البقاء في فلسطين أكثر من ثلاثة شهور^(٤٦). وقد شجع هذا الاجراء الحاخام باشي حاييم ناحوم على طلب الغاء كل القوانين السارية التي تحول دون شراء اليهود للأراضي في فلسطين^(٤٧) ومع أن السلطات المحلية ظلت تلتزم بالقيود السابقة ، الا أن الحكومة العثمانية أصدرت قرارا يقضي بتحديد حصص الملاك المشتركين وتسليم كل منهم صك ملكية مستقل - وكانت نسبة كبيرة من الأراضي الفلسطينية ذات ملكية مشتركة حسب النظام المشاع بحيث كان يستحيل على الملاك الحصول على صكوك ملكية خاصة بمحصصهم وبالتالي كان لا يمكنهم بيعها. ورحبت مؤسسات الاستيطان اليهودي بقرار الحكومة لأنها رأت أن ذلك

يسهل حصول المهاجرين على الأراضي^(٤٨). على أن الدوائر الصهيونية توخت الحذر في مساعيها في العاصمة العثمانية نظرا لتضارب المصالح الكثيرة التي تؤثر على الموقف. فقد كان عليها أن تنتبه الى تطورات السياسة العثمانية الداخلية، ومن ثم لم يتخذ الصهيونيون موقفا صريحا من الصراع الحزبي الذي ما لبث أن نشب في الآستانة. وقد فشلت الدبلوماسية الصهيونية في تعديل موقف الدولة العثمانية الرسمي من الهجرة وامتلاك الأراضي في فلسطين خاصة أن الزعماء الجدد ما لبثوا أن أبدوا عداوة متزايدة للروح القومية لدى أقلية الامبراطورية، وبالتالي فان العطف المعتدل الذي أبدوه للصهيونية في البداية ما لبث أن أفسح المجال للشك المتزايد خاصة أن النواب العرب في البرلمان العثماني قد جاهروا بمناهضتهم للصهيونية. ففي عام ١٩١١ نجدهم يتصدون لوزير المالية جاويد بك (وهو من طائفة يهود الدونمة)^(٤٩) لأنه جمع حوله في الوزارة طائفة من المستغلين اليهود وسماسة بيع الأراضي بما فيهم رئيس ديوانه « كما هاجموا الحكومة لأنها تركت الباب مفتوحا أمام الهجرة اليهودية وشراء الأراضي والصفقات المالية المشبوهة^(٥٠). وأثار شكري العسلي (نائب دمشق) هو ونائب القدس، روجي الخالدي موضوع الهجرة الى فلسطين - وكان قد مهد له بأن وزع على النواب طوايع يريد باسم الصهيونيين عليها اسما هرتزل ونورداو يرسل الصهيونيون في فلسطين رسائلهم بها عن طريق مكاتب البريد الأجنبية ثم أشار الى أن الصهيونيين في فلسطين أندية ومحام تحكم بغير القضايا الجنائية وأن لهم أعلاما يرفعونها في أعيادهم وأناشيد ينشدونها وأنهم يسعون الى شراء الأراضي المشرفة على سكة حديد الحجاز والتوسع في سوريا حتى العراق ثم نبه الخالدي الى حقيقة الأطماع الصهيونية في فلسطين والى ازدياد أعداد اليهود فيها وتملكهم الأراضي وفشل السلطات في منع هجرتهم. وقد رد النائب اليهودي نسيم مزلياح بطلب تحقيق رفعا للشكوك وبين تمسك اليهود العثمانيين بعثمانيتهم^(٥١) والحق أن المستوطنات الصهيونية في فلسطين كانت أشبه ما تكون بالحكومة: اذ كانت لها دوائر للادارة والمالية والزراعة والتعليم، كما كانت للحركة الصهيونية في المستوطنات محاكم ومجالس لها قضاتها وشهودها وسلطاتها التنفيذية والادارية كما كان المستوطنون لا يخالطون ولا يستخدمون أحداً من غير اليهود^(٥٢)

وقد أدى كل ذلك الى شكوى بعض سكان فلسطين من العرب ومعارضة النواب العرب في مجلس المبعوثان العثماني .

وقد أثار طرح المسألة على بساط المناقشة في مجلس المبعوثان ضجة عنيفة في الصحف العثمانية المعارضة تصدت لها الصحف التي تمولها الصهيونية . كما تحركت البعثات الدبلوماسية الأجنبية فقدمت مذكرة الى الباب العالي تطالب بالغاء القيود المفروضة على اليهود الأجانب وبخاصة فيما يتعلق بالحصول على الأراضي نظرا لمخالفتها للالتزامات الحكومة العثمانية الدولية . وكان رد الحكومة العثمانية على المذكرة المشتركة هي أن هذه المسألة من الأمور الداخلية التي من واجبها أن تحتفظ بحرية العمل فيها^(٥٣) . ونصح الاتحاديون الصهيونيين بأن عليهم أن يبدعوا بترضية العرب الذين كانوا في ذلك الوقت يسعون الى الحصول على تنازلات تتعلق بالاستقلال الذاتي . وحين ساءت العلاقات بين العرب والترك - الذين ما لبثوا أن قاوموا الأمانى العربية مقاومتهم للأمانى الصهيونية واتجهوا الى التتريك - أصبحت العلاقات العربية - الصهيونية أكثر تحديدا ، بل لقد وضعت المسودات الأولية لمشروع اتفاق بين الطرفين . وفي صيف ١٩١٤ طالب الساسة العرب بعقد اجتماع صهيوني - عربي على مستوى عال لمناقشة المقترحات الا أن الصهيونيين لم يبدوا استعدادا لما يتعدى اجراء مناقشة مبدئية ، خاصة أنهم كانوا يتجنبون استشارة الأتراك . على أن شيئا من هذا القبيل لم يتبلور حتى نشوب الحرب العظمى^(٥٤) .

وبعد أن انضمت الدولة العثمانية الى المانيا والنمسا ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا بعد نشوب الحرب العظمى نجمت مشكلة عن أن كثيرا من المؤسسات الصهيونية واليهودية في فلسطين كانت قد تمتعت بحماية فرنسا أو بريطانيا وبالتالي اعتبرت أملاكا خاضعة للعدو وأن حوالي نصف يهود فلسطين (حوالي ٥٠ ألفا) كانوا من المهاجرين الروس أي تبعة العدو . وقد ألغت الحكومة العثمانية الامتيازات الأجنبية ، فوجد اليهود الأجانب أنفسهم وقد خضعوا للقانون العثماني وحرموا من نظام الامتيازات الأجنبية الذي كان قد ساعدهم على الاستيطان وامتلاك الأراضي . وحلت الدولة العثمانية مشكلة اليهود من تبعة العدو بأن قررت في نوفمبر ١٩١٤ -

بناء على طلب من الخاخام باشي - تسهيل اجراءات الحصول على الجنسية العثمانية التي بدأت عملية الحصول عليها تتم بصورة جماعية، وان يكن بعض اليهود قد ترددوا في طلب التجنس خاصة وأن حصولهم على الجنسية العثمانية كان يعني خضوعهم للتجنيد الاجباري أو ضريبة البدل المفروضة على سائر الأهالي حسب الدستور الذي منحهم الحقوق المتساوية^(٥٥).

وقام أحمد جمال باشا - الحاكم العسكري للشام - بمصادرة الاعلام اليهودية والشعارات العبرية في فلسطين وحرّم استعمال اللغة العبرية في المراسلة وأغلق البنك الانجليزي - الفلسطيني وأصدر أمراً بمنع الحراس اليهود في المستوطنات من حمل السلاح الا أن مساعي كل من الممثل الصهيوني في الاستانة والسفارة الألمانية أدت الى توقف الاجراءات المتخذة ضد اليهود والصهيونية ومنها عمليات الترحيل، وهي الاجراءات التي نسبتها الحكومة العثمانية إلى السلطات المحلية، ولم تكن هذه الإجراءات موجهة ضد اليهود والصهيونية بالذات بقدر ما كانت ناجمة عن ظروف الحرب. ولكنها لم تمنع اليهود من تنظيم قوات الدفاع الذاتية (هاشومير) في المستعمرات والمدن اليهودية ومن القيام بعمليات تدريب على مدى واسع. ولم تغلق الحكومة العثمانية مدارس اليهود بل سمحت بتعيين بدائل للمدرسين الأجانب الذين غادروا البلاد من الرعايا العثمانيين اليهود، واستبدلت لغة العدو في المدارس باللغة التركية. على أن اليهود كانوا أحسن حالا من غيرهم من السكان بفضل المساعدات العينية والمالية التي تدفقت على فلسطين طوال الحرب^(٥٦).

وما حل ذلك الوقت حتى كان الصهيونيون قد قرروا تحقيق حلمهم بمساعدة بريطانيا وبخاصة اذا ما أدت الحرب العظمى الى انهيار الامبراطورية العثمانية - فكان وعد بلفور (٢ نوفمبر ١٩١٧) ثم الانتداب البريطاني على فلسطين، وهو الانتداب الذي أفسح المجال أمام الصهيونيين لتعزيز الهجرة اليهودية الى فلسطين وشراء اليهود للأراضي فيها بعد زوال القيود التي فرضتها الدولة العثمانية سواء في عهد السلطان عبد الحميد أو في عهد الاتحاديين .

بعض المصادر أ - العربية

- أسعد زروق : اسرائيل الكبرى - دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني (بيروت ١٩٦٨).
- أنيس صايغ (اشراف) : الفكرة الصهيونية - النصوص الأساسية (بيروت ١٩٧٠).
- توفيق على برو : العرب والترك في العهد الدستوري ١٩٠٨-١٩١٤ (القاهرة ١٩٦٠).
- خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ١٩٠٨-١٩١٨ (بيروت ١٩٧٣).
- ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت ١٩٦٠).
- عبد العزيز محمد عوض : نشأة الاستيطان اليهودي في فلسطين (١٨٣١-١٩١٤) - المجلة التاريخية المصرية العدد الرابع والعشرون (١٩٧٤).
- الحركة العربية في متصرفية القدس . مجلة الشرق الأوسط ، العدد الأول ، القاهرة يناير ١٩٧٤ .
- هجرة اليهود الى فلسطين وموقف الدولة العثمانية منها (١٨٧٤-١٩١٤) . مجلة كلية الآداب - جامعة الرياض - العدد الثالث (١٣٩٣هـ - ١٣٩٤هـ).
- مذكرات السلطان عبد الحميد - ترجمة وتعليق محمد حرب عبد الحميد (القاهرة ١٩٧٨).

ب - الافرنجية

- Ben Halpern, The Idea of the Jewish tate (Harvard, 1969).
- Laqueur, Walter S., A History of Zionism (London, 1972).
- Mandel, Neville J., Ottoman Policy and Restrictions on Jewish Settlement in Palestine, 1881-1908, Part I (Middle Eastern Studies Lonion, Vol. 10, Octobre 1974), pp. 312-332.
- Ottoman Paactice as regards Jewish Settlement in Palestine, 1881-1908 (MES., Vol. 11, Jan. 1975, No. I), pp. 33-46.
- Sokolow, Nahum, History of Zionsim. 1600-1919, II vols., (New York, 1969).
- Stevens, Richard, Palestine and Zionism before the Mandate. A Phase of Wester Imperialism (Beirut, 1972).
- ,Weizmann and Smuts; A study in Zionsit- South Africano- operation. (Beirut, 1975).
- The letters and Papers of Chaim Weizmann, Vol. I., edited by Lenard Stein an Gedalia Yogey. (Oxford U.P., 1968).
- Iriarl and Error, The Autobiography of Chaim Weizmann (New York, 1966).

- ٢٠١- عن أوضاع اليهود والأقليات الدينية الأخرى في الدولة العثمانية انظر :
- Gibb and Bowen, *Islamic Society and the West*, part II (Oxford University Press, 1957).
- ٣- Ben Halpern, *The Idea of the Jewish State*, p. 122.
- ٤- لم يؤخذ رسمياً باسم «المنظمة الصهيونية» الا في عام ١٨٩٩ .
- ٥- Ben Halpern, *op. cit.*, p. 30.
- ٦- يشبهه سوكولوف مطالب الصهيونيين بهذا الصدد بالاستقلال الذاتي الذي حصل عليه مسيحيو لبنان في عام ١٨٦٠ نتيجة لمساعي بريطانيا وفرنسا متناسيا أن المسيحيين الموازنة كانوا يشكلون أغلبية عددية في جبل لبنان، على حين أن اليهود كانوا لا يشكلون الا نسبة ضئيلة من سكان فلسطين. انظر
- N. Sokolov, *History of Zionism*, p. 311.
- ٧- ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية، ص ١٤٤-١٤٢ .
- ٨- Laqueur, *a History of Zionism*, p. 51.
- ٩- Mandel, *Ottoman Policy and Restrictions on Jewish Settlement in Palestine (1881-1908) Part I*, p. 313.
- ١٠- Mandel, *Ottoman Practice as regards Jewish Settlement in Palestine*, p. 34.
- ١١- *Ibid*, p. 322.
- ١٢- Mandel, *Ottoman Practice*, pp. 35-6.
- ١٣- عبد العزيز محمد عوض: هجرة اليهود الى فلسطين وموقف الدولة العثمانية منها (١٨٧٤-١٩١٤) ص ١٦١ .
- ١٤- Mandel, *Ottoman Policy and Ottoman Practice* :راجع
- ١٥- خيرية قاسمية: النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ص ٢٣-٤ .
- ١٦- Mandel, *Ottoman Policy--- etc.*, pp. 326-7.
- ١٧- Mandel, *pp. cit.*, pp. 327-28.
- ١٨- Mandel, *Ottoman Practice*, p. 36.
- ١٩- *Ibid*, p. 38.
- ٢٠- *Ibid*, p. 42.
- ٢١- *Ibid*.
- ٢٢- Weizmann, *Trial and Error*, p. 44.
- ٢٣- Ben Halpern, *op. cit.*, pp. 262-3.
- ٢٤- فيليب ميخائيل دي نيولنكي، وهو أرستقراطي بولندي كان قد سبق له العمل في السفارة النمساوية في الآستانة، وعهد اليه السلطان عبد الحميد بمهام دبلوماسية خاصة.

- ٢٥- راجع ما اقتبسه ماندل عن هذه المذكرات (Ottoman Policy, pp. 316-17) ويشير ماندل الى أن السلطان غضب على هرتزل بعد ستة أشهر من زيارته للآستانة، لأنه لم يف بوعده الخاص بالحملة الصحفية الهادفة الى الدفاع عن الدولة (نفس المصدر، ص ٣١٨).
- ٢٦- تخلط الروايات الخاصة بزيارات هرتزل إلى الآستانة فيما يتعلق بالزيارة التي حصل فيها هرتزل على هذا الوسام العثماني.
- ٢٧- Stevens, Zionism and Palestine before Mandate, p. 13.
- ٢٨- The Letters and papers of Haim Weizmann, I, p. 145.
- ٢٩- Laqueur, op. cit., pp. 115-16.
- ٣٠- في خلال وجود امبراطور ألمانيا في الآستانة طالب هرتزل بالترخيص له بإنشاء « شركة قانونية تحت الحماية الألمانية ». عبد العزيز محمد عوض: هجرة اليهود ... الخ ص ١٦٥.
- ٣١- The Letters of Weizmann, I, p. 388, footnote 12.
- ٣٢- Laqueur, op. cit., p. 118.
- ٣٣- محمد حرب عبد الحميد في تقديمه لمذكرات السلطان عبد الحميد، ص ١١-١٢.
- ٣٤- Laqueur, pp. 100-1.
- ٣٥- أسعد زروق: اسرائيل الكبرى ص ١١٤.
- ٣٦- عبد العزيز محمد عوض: نشأة الاستيطان اليهودي في فلسطين، ص ٢٦٠-١.
- ٣٧- Mandel, Ottoman Policy, P. 320.
- ٣٨- Laqueur, p. 145.
- ٣٩- Laqueur, p 145.
- ٤٠- عبد العزيز محمد عوض: هجرة اليهود، ص ١٦٩.
- ٤١- أصبح عدد المبعوثين العثمانيين بعد انفصال الولايات المقدونية عنها كالآتي: ١٤٢ ترك - ١٥ أرمن - ١٦ أروام (يونانيون) - ١٣ يهودي - ٦٩ من الولايات العربية منهم ثمانية من الأتراك.
- ٤٢- خيرية قاسمية، المصدر السابق، ص ٥٢.
- ٤٣- Ben Halpern, pp. 266-8
- ٤٤- خيرية قاسمية، ص ١٠٦-٩.
- ٤٥- أسعد زروق: اسرائيل الكبرى، ص ١٩٤-٥.
- ٤٦- عبد العزيز عوض: الهجرة اليهودية، ص ١٧١.
- ٤٧- خيرية قاسمية، ص ١٣١، ص ٢٠٠-٢٠٤.
- ٤٨- خيرية قاسمية، ص ٦٥-٦٦.
- ٤٩- دوئمة في التركية صفة تعني العائد أي الذي أسلم بعد أن كان يدين باليهودية، ويهود الدوئمة هم أبناء اليهود من أتباع ساباتاي زفي (١٦٣٢-٧٥) الذي ادعى أنه المسيح، ثم ما لبث

هو وأتباعه أن اعتنقوا الاسلام وحافظوا على شخصيتهم باعتبارهم جماعة متميزة فكانوا لا يتزاجون مع المسلمين أو مع اليهود ومارسوا سرا بعض الطقوس اليهودية ولكنهم ما لبثوا أن بذلوا جهدا كبيرا للاندماج في الطائفة الاسلامية وتخلوا عن ممارستهم غير الاسلامية. ومن ثم فهم مسلمون، وبالتالي فإننا نشك كثيراً فيما يروى عن تأمرهم على الدولة العثمانية وبخاصة فيما يتعلق بخلع السلطان عبد الحميد ونفوذهم في دوائر الاتحاديين .

٥٠- أسعد زروق : اسرائيل الكبرى ، ص ٢١٣ .

٥١- توفيق على برو : العرب والترك ، ص ٢٨٢-٤ .

٥٢- عبد العزيز محمد عوض : نشأة الاستيطان اليهودي في فلسطين ، ص ٢٦٩ وما بعدها .

٥٣- قاسمية : ص ٩٢ ، ص ٩٨-٩٩ .

Ben Halpern, 267-8.

٥٥- قاسمية ، ص ٢٦٦ .

٥٦- نفس المصدر ، ص ٢٦٩-٢٧٤ .

بنو الجراح أمراء الرملة

د. سامي نسيب مكارم
الجامعة الأمريكية - بيروت

ينتسب بنو الجراح إلى قبيلة طيء اليمنية. وقد نشأوا في فلسطين في منطقة البلقاء في جبل الشراة^(١). وقد كانت قبيلة طيء قبل ذلك مستوطنة المناطق الشمالية من الصحراء العربية، ولكنها ما لبثت ان تركت موطنها ذاك لتشارك بالفتح العربي وتستقر في معظمها في بلاد الشام.^(٢)

وحوالي نهاية القرن الثالث للهجرة أخذت حركة القرامطة تمتد نحو العراق والشام، فالتجّمت قبيلة طيء إلى الأطراف الجنوبية من بلاد الشام، لتشارك إلى جانب القرامطة في حروبهم، مغتنمةً الفرصة لتحقيق مصالحها الشخصية^(٣). وقد آلت رئاسة بني طيء في تلك الفترة إلى بني الجراح الذين تمكنوا من إقامة إمارة ذات نفوذ بزعامة شيخهم المفرج بن دغفل بن الجراح في فلسطين. كذلك قامت إمارات أخرى في بلاد الشام كما إمارة بني عليان الكلبيين في منطقة دمشق وإمارة بني مرداس الكلابيين في منطقة حلب^(٤).

وعندما زحف الحسن بن أحمد القرمطي الملقب بالأعظم إلى مصر، انضم إليه بنو طيء بقيادة حسان بن المفرج^(٥). وفي ذي الحجة سنة ٣٦٠ / تشرين الأول، ٩٧١، تمكن القرامطة من أسر والي القلزم الفاطمي عبد العزيز بن يوسف، وعسكروا في عين شمس مهددين القاهرة ذاتها^(٦). حيال هذا الأمر استعمل القائد الفاطمي جوهر الصقلي الحيلة ورشا الأعراب الذين كانوا يناصرون القرامطة، ومنهم بنو الجراح، وعندما التحم الجيشان في ربيع الأول سنة ٣٦١ / كانون الثاني، ٩٧٢، حمل الفاطميون على ميمنة جيش القرامطة في حين اخذ بنو طيء، بقيادة حسان بن المفرج، وغيرهم من الأعراب، كبنّي عقيل، ينيهون القرامطة. وبذلك استطاع الفاطميون دحر القرامطة وردهم إلى الشام^(٧). وما لبث

الحسن الأعصم ان ترك الشام عائداً الى الأحساء للقضاء على عصيان داخلي، غير انه ما ان قضى على هذا العصيان حتى اعاد الكرة على الفاطميين . والغريب في الأمر انه عاد الى خطئه الاول بالاعتماد على بني الجراح بعد أن اغراهم بالمال. غير ان الخليفة الفاطمي المعز لدين الله فعل فعلته الاولى واستطاع اغراء بني الجراح ايضاً فتخلوا عن القرامطة الذين انهزموا عائدين إلى الأحساء . وكان ذلك سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٤م^(٨).

بعد دحر القرامطة ادرك الفاطميون اهمية بني الجراح في بلاد الشام . ومنذ ذلك الوقت اتخذوا معهم سياسة خاصة تركز على العمل على إبقاء بني الجراح قوةً في بلاد الشام يستعينون بهم في درء الأخطار عنهم دون ان يحاولوا القضاء عليهم مهما قام به بنو الجراح من خصومة، ومهما سببوا لهم من متاعب، ذلك ان المال كفيل باستجلابهم في اي وقت وهكذا نرى المعز يستعين بهم في القضاء على ما تبقى للقرامطة من نفوذ في بلاد الشام وذلك باستمالتهم اليه، مما حمل المفرج بن دغفل بن الجراح الى الدخول في طاعته^(٩). غير ان ولاء ابن الجراح للفاطميين بقي واهياً يقوم على مدهم إياه بالمال. وقد عرف الفاطميون ذلك واستعملوا مع بني الجراح هذا السلاح كلما دعت الضرورة له. فعندما انضم المفرج ابن دغفل الى افتكين التركي في عصيانه ضد الفاطميين وانضم اليه الحسن الاعصم، استمال الخليفة الفاطمي العزيز بالله المفرج بن دغفل بن الجراح وجعله على فلسطين^(١٠) قاطعاً بذلك الطريق على افتكين والأعصم. فالقوة العددية لطيء بقيادة بني الجراح تتكفل باستجلاب الخصوم فيسهل على السلطة الفاطمية ضربهم وذلك ببذل الاموال والوعود. وهكذا يستطيع الفاطميون التخلص من خصومهم بكل سهولة. وهكذا فقد كان بنو الجراح في نظر الفاطميين شراً لا بد منه لا يستطيعون دونه السيطرة على بلاد الشام. كذلك ادرك بنو الجراح ان لا مصلحة لأحد بالقضاء عليهم مما شجهم على اتباع سياسة الابتزاز فاخذوا يبدلون مواقفهم السياسية حسب ما تقضي مصالحهم الشخصية. وقد كانت سياسة الابتزاز هذه لا تضر كثيراً بدولة غنية وقوية كالدولة الفاطمية اذا كانت تستطيع

جني ثمار هذا الابتزاز، كما حدث للفاطميين عندما قضوا على فتنة ابي تغلب الحمداني، وذلك بمد ابن الجراح بالمال والوعود^(١١). وقد استغلّ بنو الجراح وضعهم هذا كل الاستغلال فعاثوا فساداً في فلسطين دون ان يستطيع الحكم المركزي عمل شيء يرفع الضيم والبلاء.

وقد بلغ الغرور بالمفرج بن دغفل حداً جعله يفكر بالتنكر للخلافة الفاطمية. غير ان العزيز بالله كان له بالمرصاد، فجرد عليه في سنة ٩٧٩/٥٣٦٩ م حملة تأديبية بقيادة سليمان بن جعفر بن فلاح اضطرته الى الانسحاب من الرملة ليدخلها القائد الفاطمي ويتقدم منها الى دمشق. ولم يرد الفاطميون ان يفعلوا اكثر من ذلك فيما لبث أن عاد سليمان بن جعفر الى مصر مكتفياً بهذا الدرس الذي لقنه لابن الجراح^(١٢). غير ان هذا الدرس لم يكن كافياً لاقناع بني الجراح بالعودة الى الحظيرة الفاطمية، ويبدو أن الفاطميين اساءوا التقدير. ذلك لان المفرج بن دغفل لم يفهم عودة سليمان بن جعفر المفاجئة الى القاهرة، وظن انها راجعة الى قوة بني الجراح العسكرية والى عجز الفاطميين عن مواجهتهم. فاستجمعوا قواهم وعادوا الى سيرتهم الاولى مما جعل العزيز بالله يُجرّد حملة اخرى لتأديبهم ويعقد لواءها للفضل بن ابي الفضل. حيال هذه الحملة يدرك المفرج هذه المرة حقيقة وضعه امام الفاطميين ويعود الى ممارسة المرونة مع الدولة الفاطمية فيكتب الى العزيز يستعطفه ويعلن ولاءه له. وقد كان هذا هو الذي يرمي اليه الخليفة الفاطمي، فبادر الى أمر قائده بان يكف عن ملاحقة ابن الجراح ويعود الى مصر^(١٣). وقد كانت هذه الحملة مفيدة لكل من الفاطميين وبني الجراح: ادرك الفاطميون ما يلزمهم من القوة لتلقي بنو الجراح دروسهم، وادرك بنو الجراح ما هم عليه الفاطميون من قوة. ولكن بدلاً من الخضوع والاذعان اخذوا يخططون لمواجهة هذه القوة والتغلب عليها. وهكذا لم تستمر مصالحه المفرج مع العزيز طويلاً اذ سرعان ما عاد المفرج الى فلسطين مهتماً للانفصال عن الخلافة الفاطمية^(١٤). فما كان من العزيز الا ان جرد سنة ٩٨١-٩٨٢ م حملة بقيادة رشيق العريزي. ذلك ان الفاطميين لم

يكونوا ليلجأوا الى المال والوعود تجاه بني الجراح الا في الحالات الخطرة عندما يكونون بحاجة الى دعم بني الجراح لهم. اما في الحالات العادية فقد كان الفاطميون يفضلون ردع بني الجراح بالقوة، وذلك لكي يحدّوا من سياسة الابتزاز الجراحية. وقد استطاع رشيق العزيزي ان يهزم المفرج فيفّر من وجه القوات الفاطمية ويلجأ الى الصحراء ويأخذ بقطع الطريق على الحجاج^(١٥) طمعاً في المال من جهة، ولكي يضغط على العزيز لمرضاته من جهة أخرى. غير ان العزيز لا يدعن لإرادة ابن الجراح، اذا نراه يسيرّ ضد ابن الجراح حملةً أخرى بقيادة مفلح الوهابي. ولكن الحملة تبوء بالفشل ويقتل قائدها^(١٦). فابن الجراح، وهو البدوي، اكثر مراساً من العساكر الفاطمية بحرب الصحراء. وقد أطمع هذا النصر الذي أحرزه المفرج بن دغفل في عودته الى فلسطين وانسأه قوة الفاطميين العسكرية في غير الصحراء. فتلقاه رشيق مرة ثانية وأوقع به هزيمة جعلته يلتجئ الى والي حمص الحمداني، ومن هناك توجه الى انطاكيا مستنجداً بامبراطورية الروم باسيل الثاني.

وهكذا أدّى الغرور بالمفرج وعدم تقديره لقوة الفاطميين الى خسارته امارته وتشريده، بخاصة ان الامبراطور البيزنطي لم ير مصلحةً في نصرته ومعاداة الدولة الفاطمية من اجله، فأشار اليه بالعودة الى أسياده الفاطميين. ولما لم ير المفرج من امل لدى الروم، اذعن للامر الواقع وراح يتقرب الى الخليفة الفاطمي ملتمساً منه العفو. وقد اجابه العزيز الى طلبه^(١٧)، وفقاً لسياسته التقليدية تجاه بني الجراح.

غير ان سياسة الروم تجاه الفاطميين ما لبثت ان تغيرت. فقد اخذوا يخططون، بقيادة برداس فوقاس، للسيطرة على بلاد الشام. ويبدو ان ابن الجراح علم بهذا التغيّر في سياسة الروم مما شجعه على معاودة العصيان فالفاطميون سيحتاجون اليه وسيستطيعون ابتزازهم وابتزاز الروم معاً. لذلك سرعان ما اخذ ابن الجراح يسبب المتاعب للفاطميين مرة أخرى فعاث فساداً في بلاد الشام وابعدها لرجاله ينيهون ويسلبون ويقتلون. واضطر العزيز الى تجريد حملة أخرى على المفرج، وذلك سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٣ م، وجعل على رأسها بلتكين التركي وآلب على المفرج العرب القيسيين فانضموا الى الحملة الفاطمية^(١٨). وتمكن بلتكين من دحر المفرج

من الجراح، ففر عائداً الى انطاكيا عن طريق حمص. ووضع نفسه في خدمة الروم الذين قبلوه هذه المرة^(١٩) لحاجتهم اليه. غير ان ابن الجراح رأى، وهو في انطاكيا، ان الروم قد يكونون بحاجة الى الحمدانيين في حلب اكثر مما هم بحاجة إليه، وانهم قد يتخذونه وسيلة لمراضاة الحمدانيين فيسلمونه لهم لمطالبة بني حمدان برأسه ثأراً لأبي تغلب الحمداني الذي كان المفرج قد قتله. حيال هذا الأمر لم ير المفرج الا بكجور والي حمص من قبل الحمداني للالتجاء اليه. وكان المفرج قد مرّ به عند التجائه إلى انطاكيا وعرفه حق معرفة. ومما شجع المفرج على ذلك ان بكجور كان قد قلب للحمدانيين ظهر المجن، فضمن المفرج بذلك عدم تسليمه اياه للحمدانيين، كما كان تقرب بكجور للفاطميين أن جعل المفرج يأمل بان يقوم بكجور بمصالحته مع الدولة الفاطمية. وهكذا كاتب المفرج بكجور واسر له انه في خدمته، وبقي في انطاكيا، ولكن على حذر، مظهراً ولاءه للروم.

تخوّف الروم من خروج بكجور على الحمدانيين. فإن إحلال دولة فنية بقيادة بكجور محل الدولة الحمدانية التي اخذ الوهن يدب فيها من شأنه ان يسبب متاعب للروم هم في غنى عنها. لذلك نرى ان الروم سارعوا الى نجدة سعد الدولة الحمداني صاحب حلب ضد واليه السابق بكجور، وخرج برداس فوقاس على رأس حملة عسكرية لمهاجمة بكجور. غير ان ابن الجراح سرعان ما كتب إلى بكجور يعلمه بخروج الحملة إليه ويحذره من الروم فأسرع بكجور إلى مغادرة حمص لعدم تكافؤ القوى وسار الى دمشق، وكان العزيز قد ولاه اياها، فتسلمها من القائد الفاطمي بلتكين، في سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م. في تلك الأثناء كان المفرج ابن دغفل قد انسحب من الحملة البيزنطية التي توجهت الى حمص وانضم الى حليفه السري بكجور^(٢١)، فأمن بذلك صداقة الفاطميين من جديد، غير ان تحالف ابن الجراح مع بكجور أثار شكوك ابن كلّس وزير العزيز بالله. فكلف رجلاً يهودياً من أبناء نخلته يدعى ابن ابي العود بمراقبة تصرفات بكجور وحليفه المفرج. وقد أثار ابن ابي العود حفيظة بكجور فأمر بقتله مما ثبت ظنون الوزير ابن كلّس واخذ يكيّد لبكجور لدى الخليفة الفاطمي حتى اقتعه بتجريد حملة لطرده

بكجور وحليفة المفرج بن دغفل من دمشق. وقد سيرت الحملة سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م بقيادة منير الخادم، وتم النصر على بكجور والمفرج في معركة وقعت في داريا جنوبي غربي دمشق قرأ على اثرها الى حوران ثم الى الرقة. ومن هناك سعى بكجور الى العودة الى سعد الدولة الحمداني فأعاد اليه هذا الاخير ولاية حمص، ليدب الخلاف بينهما من جديد وينتهي بمقتل بكجور في معركة بينهما سنة ٣٨١هـ/٩٩١م^(٢٢). أما المفرج بن الجراح فكان قد انفصل عن بكجور اذ لم يعد له مصلحة في تحالفه معه، فخرج كعادته الى الصحراء وعاد الى اعمال الغزو وقطع طريق الحج على اهل العراق^(٢٣).

والظاهر ان الوزير ابن كلّس لم يكن مقتنعاً بسياسة الفاطميين التقليدية في الإبقاء على بني الجراح، اذ نرى انه كان جاداً في القضاء عليهم نهائياً. وقد أوصى العزيز، وهو على فراش الموت، قائلاً: «ولا تبقِ على المفرج بن دغفل بن الجراح متى عرضت لك فيه فرصة»^(٢٤).

غير ان العزيز لم يقتنع برأي بن كلّس، إذ نراه يدوم على سياسة التساهل مع المفرج ابن الجراح، فيسمح له في السنة التالية بدخول مصر ويقدم له ثياب الشرف^(٢٥). وهذا يدل على تفهم العزيز العميق لسياسته الشامية وعلى الأهمية التي كان يعلقها في الإبقاء على بني الجراح يذراً بهم اي خطر قد يداهم. ويبدو ان الحق كان بجانب العزيز. ذلك انه بعد موت الوزير يعقوب بن كلس، استقل منير الخادم ببلاد الشام، مما اضطر الخليفة العزيز الى تجريد حملة عليه بقيادة غلامه منجوتكين التركي الذي عينه والياً على الشام ومدته بالمال والسلاح. ثم طلب من المفرج بن دغفل ان ينضم الى منجوتكين في قتاله منيراً الخادم وخلع عليه ونقده المال. وهكذا كان. فما ان وصل منجوتكين الى فلسطين حتى انضم اليه حسان بن مفرج بن دغفل. والتحمت القوات الفاطمية، يساندها بنو الجراح، بقوات منير الخادم سنة ٣٨١هـ/٩٩١م، فدارت الدائرة على منير الخادم وقبض عليه فيما بعد وارسل الى مصر^(٢٦). ولم ينته الأمر الى هذا الحد فقد كان العزيز ينوي محاربة سعد الدولة الحمداني وحلفائه البيزنطيين لذلك نراه يواصل انفاقه على بني الجراح ليعينوا قائده بنجوتكين في قتاله سعد الدولة والروم.

غير ان وفاة العزيز بالله قلبت الموازين، فقد تسلم عرش الدولة الفاطمية من بعده الحاكم بامر الله وهو ما زال صغير السن، مما جعل الخلاف في الدولة بين القوتين الرئيسيتين، المشاركة والمغاربة يبلغ اشده. فاضطر منجوتكين التركي الى السير الى مصر لنصرة برجوان زعيم المشاركة على ابن عمار زعيم المغاربة. واحتاط ابن عمار للامر فجرد جيشاً بقيادة سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامي في آخر سنة ٣٨٦هـ/٩٩٧م للقضاء على منجوتكين. وقد استنجد منجوتكين بحلفائه بني الجراح. فقام حسان بن مفرج لنصرته ولكن ليعيد ما فعله ابوه من قبل مع المعز لدين الله في حربه ضد القرامطة. وهكذا، ما لبث حسان حتى تخلى عن منجوتكين وانضم بجموعه الى سليمان بن جعفر بن فلاح فانتصر على منجوتكين^(٢٧). ولم يقف الامر عند هذا الحد بل نرى علي بن المفرج بن الجراح يقبض فيما بعد على منجوتكين ويسلمه الى سليمان بن جعفر لقاء جائزة مالية. واقتيد منجوتكين اسيراً الى القاهرة. وهكذا عاد بنو الجراح الى سياسة التقلب تجاه الفاطميين، متحيين الفرص للاستقلال عن الدولة الفاطمية.

غير ان المشاركة ما لبثوا ان عادوا الى سابق عهدهم من القوة. فارسل برجوان من أثار أشراف دمشق على سليمان بن فلاح، ثم ارسل جيش من الصمصامة في حملة ابن فلاح فقبض عليه ثم طهر بلاد الشام من الفتن وتوجه الى المفرج لتأديبه. ففر هذا الاخير من وجهه وتوجه الى الصحراء ولكن ابن الصمصامة، بخلاف مفلح الوهابي، استطاع قهر ابن الجراح في الصحراء فاضطر الى طلب الامان والصفح. وقد قبل ابن الصمصامة استعطافه وعفا عنه^(٢٨) تبعاً لسياسة الفاطميين القائمة على الإبقاء على بني الجراح، كما انه اعاده اميراً على الرملة^(٢٩).

غير ان المفرج بن دغفل سرعان ما عاود سيرته الاولى في الغزو والسلب واخذ يعترض طرق الحج كلما سنحت له الظروف لذلك.

والظاهر ان الحاكم بامر الله لم يثر اعتراض المفرج بن دغفل لقوافل الحجاج العراقيين. وبذلك يمكننا القول ان ابن الجراح كان يخدم الحاكم من حيث لا يدري. كان يخدمه بتنكيله باهل العراق، كما كان يخدمه بتسامحه معه.

وقد قطف الحاکم ثمار هذا التسامح، عندما اندلعت ثورة ابي ركوة ضد الحاکم في المغرب. فهب المفرج الى نصرته عندما استدعاه الخليفة مع بقية القبائل السابقة^(٣١). اما سبب استدعاء الحاکم للقبائل في الشام فليس لحاجته لها وحسب، وانما يعود ذلك في الدرجة الاولى الى ان الحاکم، باستدعائه للجيوش النظامية لمحاربة ابي ركوة، خشي استغلال القبائل للفراغ العسكري فاستدعاه ايضاً منعاً لما قد تسببه له هذه القبائل من مشكلات.

غير ان تجربة ابي ركوة، ولو أنها لم تنجح، دغدغت مخيلة ابن الجراح، كما يبدو. فابو ركوة كاد ينتصر فلماذا لا يكون ابن الجراح في المشرق ما سعى الى كونه ابو ركوة في المغرب. ان الاستقلال عن الدولة الفاطمية سيجعل ابن الجراح يستأثر بثروات الشام وغيرها من الاصقاع. فلماذا اذاً لا يسعى الى تأسيس خلافة اخرى تكون تحت امرته وضمن هيمنته وتضم قسماً من البلاد الاسلامية، مما يزيد قوتها ويكسبها تأييد قسم كبير من العالم الاسلامي، اذ ستعمل على اضعاف هذه الخلافة الشيعية المتطرفة وربما استطاعت القضاء عليها. اذاً لا بد من ان يكون الخليفة البديل من اهل السنة ومن البيت العلوي معاً. وهكذا وجد ابن الجراح ضالته في شريف مكة ابي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني. فهو بالاضافة الى نسبه العلوي ومذهبه السني، يسيطر على الحجاز وبالتالي على الحرمين وطريق الحج. وهكذا سيتمكن ابن الجراح، ان هو نجح في تنصيبه خليفة من تقوية مركزه الاسلامي، فيحصل على دعم كثير من المسلمين في تقويض هذه الخلافة الفاطمية الدخيلة. بالاضافة الى انه سيصبح المسيطر على الحج وعلى ما يدره من ثروات اين منها تلك التي يحصل عليها من قطع الطرق على حجاج العراق. وما زاد في قناعة ابن الجراح باتخاذ هذه الخطوة ما دسّه له الوزير ابو القاسم الحسين بن علي المغربي، الذي كان الحاکم قد قتل آله في مصر فالتجأ الى بني الجراح^(٣٢). وهكذا اخذ المفرج بن الجراح بخلق المشكلات للدولة الفاطمية وقطع طرق الحج وغزو القوافل التجارية^(٣٣). ولم يكتف بذلك بل نرى حسان بن مفرج يتصدى ليارختكين العزيزي عندما سيّر الحاکم بامر الله اميراً على دمشق وقائداً

لجيوشه في الشام^(٣٤). وقد استطاع ان يأسر يارختكين^(٣٥) ليسير في جموع الأعراب الى الرملة ويفتحها عنوة^(٣٦). وقد كتب الحاكم بامر الله الى المفرج بن دغفل طالباً اليه الافراج عن يارختكين لقاء مبلغ من المال. غير ان حسان بن مفرج، الذي كان يارختكين في اسره، خاف من ان يضعف ابوه امام إغراء الخليفة فقتل القائد الفاطمي بمشورة من ابن المغربي وارسل رأسه لوالده. وبذلك وضع اباه تحت الامر الواقع وفوت عليه اية فرصة للمصالحة مع الخليفة الفاطمي. وهكذا لم يعد امام المفرج بن دغفل الا الأذعان لرأي ابنه حسان والوزير ابن المغربي. وإذا هو يجد نفسه مجبراً على المضي في إعلان ابي الفتوح اميراً للمؤمنين. وهكذا عهد المفرج بن دغفل الى ابن المغربي بالتوجه الى مكة ومرافقة ابي الفتوح الى الرملة لاعلانه اميراً للمؤمنين. وكان ذلك سنة ٤٠١ هـ / ١٠١١ م^(٣٧). اما في الحجاز فقد اخذ ابو الفتوح، الذي تلقب بالراشد بالله^(٣٨)، ما في مكة من مال ونزع المحارب الذهبية والفضية وضربها دنانير ودراهم^(٣٩)، كما اخذ ما استطاع اخذه من الاموال. وقد بايعه شيوخ الحسينيين وغيرهم^(٤٠). اما ابن المغربي فتولى دعوة القبائل العربية في الحجاز لنصرة الخليفة الجديد. ثم سار ابو الفتوح ومعه ابن المغربي الى الرملة^(٤١) قاصداً بني الجراح. فلقية المفرج بن دغفل وابنه حسان وسائر امراء العرب وترجلوا له وقبّلوا الأرض بين يديه وبايعوه بالخلافة^(٤٢).

اما الحاكم بأمر الله فقد اخذ يراقب هذه الثورة بالحكمة ويعالجها بالروية تاركاً الامور تأخذ مجراها الطبيعي، وهو الخبير بهذه الثورات التي عايشها مدة حكمه، وهكذا اخذ ينتظر بحذر حتى نفذت الأموال التي اتى بها ابو الفتوح، ثم اتصل ببني الجراح واغراهم بالمال والاقطاعات، فوافقوا على تخليهم عن ابي الفتوح^(٤٣) الذي حصر الحاكم حركته ضمن نطاقها الضيق، كما انه عمل على إذكاء نار الحسد والتنافس بين الحسينيين في الحجاز، فولى ابا الطيب ابن عم ابي الفتوح الحرمين وارسل اليه وإلى غيره من شيوخ الحسينيين الأموال، مما جعلهم يتخلون بدورهم عن ابي الفتوح. وهكذا ما ان احسّ ابو الفتوح بانقلاب بني الجراح واقربائه

الحسينيين عليه حتى بردت همته فتخلى عن الخلافة وعاد الى مكة معلناً ولاءه للحاكم الذي بادر الى الصفح عنه^(٤٤)، وإعادته إلى منصب الإمارة على مكة^(٤٥). وذلك بعد ان كان بنو الجراح قد ابتزوا امواله وجردوه من ثرواته ثم تخلوا عنه.

اما بنو الجراح، فلما ايقنوا ان الحاكم لن يعطيهم ما كان قد وعدهم به لقاء تخليهم عن ابي الفتوح، لجأوا كعادتهم الى سياسة الضغط. ففي سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م نراهم يديرون وجههم نحو البيزنطيين، فيعيد المفرج بن دغفل بناء كنيسة القيامة، التي كان الحاكم قد امر بهدمها^(٤٦). كما اخذوا يهددون السواحل التي ترابط فيها العساكر الفاطمية^(٤٧). غير انهم بسبب حبههم للمال، لم يستطيعوا الاستمرار بممالة الروم فأخذوا يصادرون اموال النصارى ويضيقون الخناق عليهم مما ادى الى هرب كثير منهم الى الروم ليستوطنوا في انطاكيا^(٤٨). وهكذا عندما سقطت جميع الاوراق من يد المفرج بن دغفل ضرب الحاكم ضربته، فجرد حملة على بني الجراح بقيادة علي بن جعفر بن فلاح، كما امر الجيوش الفاطمية في دمشق والسواحل الشامية بالاشتراك مع ابن فلاح في قتال بني الجراح^(٤٩). هذا واتصل سراً مع ابن المدبر كاتب المفرج واغراه بالمال فدس السم له فمات المفرج، وفر ابن المدبر الى مصر وأعطاه الحاكم ما كان قد وعده به من المال ثم قتله لخيانة سيده. وكان ذلك سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م^(٥٠).

في تلك الاثناء كان علي بن جعفر بن فلاح قد وصل الى الرملة، فتصدى له حسان بن مفرج ولكن ما لبث ان هُزم، وفر وعشيرته الى الصحراء^(٥١). ودخل علي بن جعفر بن فلاح مدينة الرملة واستولى على اموال حسان وذخائره. ثم تبعه الى الصحراء واخذ حصون حسان ومعاقله في جبل الشراة^(٥٢). وبقي حسان في الصحراء طريداً إلى ان عفا عنه الحاكم بعد سنتين تبعاً للسياسة الفاطمية التقليدية، بعد ان استعطفه حسان وتعهد له بالولاء. ثم اعاده الى فلسطين ليحكم على المناطق التي كانت لوالده^(٥٣). وحافظ حسان على عهده الذي قطعه على نفسه للخليفة الفاطمي فامتنع عن اثارة الفتن طيلة عهد الحاكم. كما شارك في سنة

٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م بالاحتياط في حفظ حلب بأمر من الحاكم^(٥٤) الذي ولى عليها
ابا الحسن علي بن احمد بن الضيف^(٥٥).

وتولى الظاهر لإعزاز دين الله الخلافة الفاطمية سنة ٤١١ هـ / ١٠٢١ فعاد
حسان بن مفرج الى اثاره الفتن والاضطرابات. ففي سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م
عهد الظاهر بولاية دمشق والرملة وعسقلان الى قائده التركي انو شتكين الدزيري،
مما اقلق حسان بن مفرج وجعله يعدّ العدة لمواجهة الوالي الفاطمي الجديد^(٥٦).
كان اول شيء فعله هو تجديد الحلف القبلي الذي كان قد عُقد بين شيوخ بني
طيء وكنب وكناب في عهد الحاكم. ولكن هذه المرة كان المراد من احياء هذا
الحلف مجابهة الحكم الفاطمي لا معاضدته. وهكذا اجتمعت القبائل الكبرى
الثلاث، بنو طيء بقيادة حسان بن مفرج، وبنو كلب بقيادة سنان بن عليان
وبنو كلاب بقيادة صالح بن مرداس، على الاتحاد لإخراج الفاطميين من بلاد
الشام وعلى تقسيم بلاد الشام الى مناطق نفوذ بحيث تكون فلسطين من الرملة الى
حدود مصر لحسان بن مفرج امير الطائيين. ودمشق وأعمالها لسنان بن عليان
امير الكلبيين وحلب وما يليها الى عانة على نهر الفرات لصالح بن مرداس امير
الكلبيين^(٥٧). حاول امراء هذا الحلف استجلاب باسيل الثاني امبراطور الروم،
ولكنه لم ير مصلحة في معاداة الفاطميين في ذلك الوقت فلم يستجب لهم^(٥٨).
وتصدى امراء الحلف لانوشتكين الدزيري، واستطاعوا دحره. فترك الرملة
وانسحب الى عسقلان^(٥٩). وهكذا تمكن حسان بن مفرج من استرجاع ما كان
قد اخذه الدزيري من بلاد فلسطين^(٦٠).

اما صالح بن مرداس فتمكن من الاستيلاء على حلب، بالإضافة الى حمص
وحصن ابن عكار بناحية طرابلس، وبعلبك وصيدا. وقد ضم هذه المناطق الى
ممتلكاته السابقة كمنبج وبالس ورفنية غربي حماة^(٦١).

اما سنان بن عليان فتوجه الى دمشق وحاصرها ونهب الغوطة وَخَرَّبَ داريا
واعمالها^(٦٢)، ولكنه لم يتمكن من فتح دمشق بالرغم من نجدة حسان بن مفرج
له. وقد صمدت دمشق بفضل جهود القاضي فخر الدولة الشريف ابي يعلى حمزة

ابن أبي العباس نقيب الطالبين وقد اضطر سنان الى فك الحصار عن دمشق بعد ان اصيب بهم^(٦٣).

عمل حسان بن مفرج على استغلال انتصاراته العسكرية. ففاوض الظاهر مشروطا عليه، مقابل كفه عن القتال، ان يقوم هو بامر فلسطين من قبله، كما يقوم سنان بن عليان بأمر دمشق وصالح بن مرداس بأمر حلب^(٦٤). ويبدو ان محاولة حسان التقرب من الظاهر كانت نتيجة تخوفه من الاستمرار في محاربة الجيوش الفاطمية، بالإضافة الى كسب دمشق لسنان بن عليان. كما كانت راجعةً ايضاً الى تخوفه من مغبة سعي الخليفة لكسب مودة ثلاثة من ابنائه كان الظاهر قد قربهم منه^(٦٥)، كما قرب احد اخوته^(٦٦).

غير ان الظاهر رفض الاستجابة الى محاولات حسان بن مفرج. واعاد الدزيري لقتال الحلف على رأس حملة تُرجع النفوذ الفاطمي الى الشام. وكان من اسباب الظاهر عقد الصلح مع حسان بن مفرج أن سنان بن عليان امير بني كلب مات في جمادى الآخرة. سنة ٤١٩ / حزيران او تموز، ١٠٢٨، ليتولى امانة الكلبيين ابن اخيه، رافع بن ابي الليل بن عليان الذي كان مقرباً الى الظاهر.

وفي السنة التالية، اي سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م، سير الظاهر امير بني كلب الجديد في قوة من الجيش لتنضم الى انوشكين الدزيري. وقد استطاع رافع ان يضم اليه جماعة من العرب بالإضافة الى بني كلب^(٦٧). وفي ٢٤ ربيع الآخر سنة ٤٢٠ / ١٢ أيار، ١٠٢٩، دارت معركة حاسمة في الأقحوانة قرب طبريا بين الجيش الفاطمي من جهة، وحسان بن مفرج وصالح بن مرداس من جهة اخرى. وقد كانت الغلبة للجيش الفاطمي بقيادة انوشكين الدزيري، يعاونه رافع بن ابي الليل امير الكلبيين كما قتل في المعركة صالح بن مرداس وفرّ حسان بن مفرج الى الجبال^(٦٨). وهكذا تمكن الفاطميون بمساعدة رافع بن ابي الليل امير الكلبيين من استعادة نفوذهم واستولى الدزيري على معظم المنطقة ونزل على دمشق^(٦٩).

اما حلب فوصل اليها ابنا صالح بن مرداس، نصر وثمان، فارين من معركة الاقحوانة وتمكنا منها سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م^(٧٠).

غير ان رافع بن ابي الليل لم يلبث ان بعدت الشقة بينه وبين الفاطميين . ذلك ان معركة الاقحوانة جعلت الفاطميين يشعرون بازدياد قوة رافع . فانهزام الكلابيين والطائيين صيرّه السيد الوحيد في بلاد الشام، الأمر الذي خشي منه الفاطميون، فعملوا على اضعافه . هذا وربما انهم رأوا ان خسارته لحلفائه الكلابيين والطائيين اجبرته على الاعتماد، لتثبيت سلطته، على الدولة الفاطمية فقط . لذلك قرر الفاطميون التنكر له كيلا يتفاقم امره ويصعب عليهم احتواؤه . وهكذا «قبضوا على أكثر ما سوّغوه اياه من الاقطاع ونافروه»^(٧١) اغضب ذلك الأمير رافعاً فقرر الخروج على الفاطميين واسرع الى الاتفاق مع حسان بن مفرج على محاربة الفاطميين . ويبدو انه لم يكن من الصعب عليه اقناع ابن الجراح بالتعاون معه، فتعاونهما سيعيد الحلف القبلي الى قوته وسيسهل على ابن الجراح الاقتصاص من الدزيري، كما سيسهل عليه وعلى رافع استرجاع ما كان لكل منهما من مناطق نفوذ في بلاد الشام . وهكذا انضم رافع بن ابي الليل الى حسان بن مفرج الذي كان منسحباً الى اطراف بلاد الشام . وقد وقعت بينهما وبين انو شتكين الدزيري معركة قرب بصرى في حوران انتصر فيها الدزيري على خصميه اللذين انسحبا الى ناحية تدمر . غير ان الاميرين العربيين لم يلقيا السلاح . فقد استغل امبراطور الروم الخلاف المستحكم بينهما وبين الفاطميين فارسل الى ابن الجراح كتابا يقوي فيه من عزيمته ويدعوه الى الانضمام الى الروم في منطقة انطاكيا . وهكذا كان اذ سار ابن الجراح وابن ابي اليل ببني طيء وبني كلب الى انطاكيا . وكان عددهم يزيد على عشرين الفاً^(٧٢).

كانت هذه الهزيمة التي لحقت بحسان بن مفرج ورافع بن ابي الليل ان حرمتها من العودة الى مناطقهما وان جعلتها يمكثان في منطقتي حلب وانطاكيا طيلة عهد الظاهر، وان يصبحا عميلين للبيزنطيين . فقد اكرم امبراطور الروم حسان بن مفرج وجعل من ابنه علان بطريقاً^(٧٣) كان حسان يأمل بتقريبه من الروم ان

يساعده على استرجاع امارته في الرملة . وقد استغل الروم حسان بن مفرج كل الاستغلال . ففي سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م خرج جيش الروم بقيادة حسان بن مفرج ، بعد أن لبس هذا الامير العربي خلع الامبراطور البيزنطي وزين رأسه بعلم فيه صليب^(٧٤) ، وقصد افامية فأخذها من الفاطميين وملك قلعتها وسبى اهلها واسرهم^(٧٥) . وقد اشترك امير الكلبيين رافع بن ابي الليل في الدفاع عن بني طيء واميرهم حسان بن مفرج ضد غزوات الدزيري لهم فيما بعد . كما كافأ امبراطور الروم حسان بن مفرج لتفانيه في سبيله بان منحه لقب امير طرابلس^(٧٦) . وفي سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣٢ م كان حسان بن مفرج احد اعضاء الوفد البيزنطي^(٧٧) في المفاوضات التي جرت بين الامبراطور البيزنطي رومانوس الثالث ووفود الظاهر في القسطنطينية لعقد صلح بين الدولتين^(٧٨) .

وموت الدزيري اتاحت الفرصة لحسان بن مفرج بالعودة الى امانة فلسطين بعد تشريد اناف على ثلاث عشرة سنة ، كما عاد ثمال صالح بن مرداس الى حلب^(٧٩) .

حيال هذا الأمر ولى الجرجاني وزير المنتصر على دمشق ناصر الدولة بن حمدان فشغل سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م بمحاربة حسان بن مفرج الذي اعلن استقلاله بارض فلسطين يؤيده بذلك الاعراب . وبهذه الحرب انتهى العصر الذهبي لبني الجراح في فلسطين . ولم يعد يرد ذكر حسان بن مفرج في التاريخ . ومع انه لا يمر تاريخ لوفاة حسان فالراجح انه قتل او مات اما اثناء حربه ضد ناصر الدولة بن حمدان او بعده بقليل .

تولى امانة بني الجراح بعد حسان بن مفرج ابنه علان غير ان الدور الذي قام به علان بن حسان لم يكن مهماً كالدور الذي قام به ابوه وجدّه . وقد ورد ذكر علان بعد ان تسلم امانة الطائيين عندما ولّى الخيفة الفاطمي المستنصر القائد رفقا الخادم على دمشق بدلاً من ناصر الدولة بن حمدان . فسار في سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٦ م رفق في جيش كبير بغية الاستيلاء على حلب بعد ان انضم اليه امراء الطائيين والكلبيين . غير ان علان بن حسان ، كعادة بني الجراح في الابتزاز ، ما لبث ان تخلى عن رفق ، مما ادى الى انهزام الجيش الفاطمي وأسرقائه^(٨١) .

وكذلك فعل عندما سار ناصر الدولة ابو علي الحسن بن الحسين بن احمد الى حلب لمحاربة محمود بن نصر بن صالح بن مرداس سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م، اذ ما لبث علان وشيوخ بني كلب ان تخلو عن ناصر الدولة عندما التقى الجيشان، مما ادى ايضاً الى هزيمة ناصر الدولة والي دمشق امام بني كلاب^(٨٢).

وقد ظهر بنو الجراح على مسرح الاحداث في مؤامرة كانت تهدف الى الاطاحة بالمستنصر بالله. فقد قدم سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ امير الجيوش بدر الجمالي الى دمشق والياً من قبل المستنصر^(٨٣). وكان بدر الجمالي حاكماً شديداً مما اثار ناصر الدولة بن حمدان الذي كان مسيطراً على معظم بلاد الشام، بخاصة انه كان مقرباً اليه الشريف علي بن ابي الحسان الذي كان بدر الجمالي قد طرده من دمشق^(٨٤). وادرك ناصر الدولة بن حمدان انه لا يستطيع قهر بدر الجمالي الا بمعونة بني الجراح. فتقرب اليهم اذ توسط لدى المستنصر للافراج عن حميد بن محمود بن المفرج وحازم بن علي بن المفرج اللذين كانا مسجونين في القاهرة^(٨٥) لقاء هذا الصنيع تعاون بنو الجراح مع ناصر الدولة ودبروا مؤامرة لقتل بدر الجمالي وتنصيب الشريف ابي طاهر علي بن ابي الحسن خليفة يناصر به المستنصر العداء. وكانهم بذلك يعيدون مع هذا الشريف ما فعله المفرج بن دغفل وابنه حسان مع ابي الفتوح. وقد دفع ناصر الدولة بن حمدان لبني الجراح لقاء تعاونهم معه مبلغ اربعين الف دينار^(٨٦). واستطاع ناصر الدولة بمعونة بني الجراح وبقيّة الطائيين، يساندهم الكلبيون بقيادة مسمار بن سنان بن عليان، ان يطردوا بدر الجمالي ويدحروه الى عسقلان^(٨٧). غير ان الفتنة ما لبث ان نشبت في صفوف ناصر الدولة فأعلن الجند والاحداث ولاءهم لبدر الجمالي، مما ادى الى فرار الشريف ابن ابي الجن متخلياً عن الخلافة كما تخلى عنها من قبل صنيعه بني الجراح ابو الفتوح. غير ان بني الجراح لم يدعوا صنيعتهم هذه المرة بل يقبض عليه ابن حليفه السابق بدر بن حازم بن علي بن الجراح^(٨٨) ويمضي به الى عكا ليبيعه الى بدر الجمالي^(٨٩). وهكذا يعود بدر الجمالي ليسيطر على بلاد الشام، ولكن عودته لم تهدئ الفتنة الامر الذي اضطر امير الجيوش الى ان يعهد الى مسمار بن عليان امير بني كلب ولاية دمشق^(٩٠).

وينتهي بهذه الاحداث ذكر بني الجراح الى ان تأتي سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م عندما هاجم رومانوس الرابع امبراطور الروم مدينة منبج وقتل اهلها ونهبها، فقاومه محمود بن نصر بن صالح بن مرداس وعلان بن حسان بن مفرج مع غيرهما من العرب. غير ان الروم ألحقوا بهؤلاء الهزيمة وعاد رومانوس الرابع الى القسطنطينية ظافراً^(٩١).

وهكذا فقد راوح موقف بني الجراح بين كر وفر. ولكنه في كلتا الحالتين كان موقفاً بملية الربح المادي وسياسة الابتزاز، فلم يكن هؤلاء الاعرابُ يرعون عن خيانة اصدقائهم والمنعمين عليهم وعن الخنث بالوعود ومساندة الاعداء امام مصالحهم الشخصية. ولم تكن سياستهم تتحول عن ذلك، ولم تكن سياسة الفاطميين تتحول عن الرفق بهم واللين لكي يبقوا دائماً حاجزاً وعوناً لقاء بعض الاموال وبعض الوعود، كما حدث عندما قرر اتسر ابن اوق الخوارزمي، القائد السلجوقي مهاجمة مصر سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٦٧ م، بعد ان تم له الاستيلاء على دمشق ومعظم بلاد الشام^(٩٢). فقد بادر بدر بن حازم بن الجراح بالانضمام اليه في الفي فارس وتوجه بصحبة القائد السلجوقي الى مصر. غير ان قائد الجيش الفاطمي بدر الجرمالي تمكن من اغراء بدر بالمال^(٩٣) كما كان الفاطميون من قبل يغرون اسلافه. فتخلى عن اتسر السلجوقي وانتقل الى القاهرة ومعه بنو طيء^(٩٤). ثم تمكن بدر الجرمالي بمعونة بدر بن حازم من هزيمة اتسر الذي مرّ الى غزة ثم الى الرملة ثم الى دمشق^(٩٥). وهكذا برهن الفاطميون مرةً اخرى على صلاح سياسة اللين والتسامح والاغراء مع بني الجراح.

بعد هذه الاحداث انقطعت اخبار بني الجراح حتى القرن السابع للهجرة عندما عادت اليهم السيادة على المنطقة ممثلةً ببني الفضل بن ربيعة بن حازم بن علي بن المفرج.

ومهما يكن من امر، فاننا نستطيع القول ان بني الجراح كانوا من اقوى امراء العرب في القرنين الرابع والخامس للهجرة في بلاد الشام، لقد اثاروا في بلاد الشام القلاقل ولكن الفاطميين لم يقمعوا ثورات بني الجراح بالشدة والحزم الكافيين.

ولذلك فعل الروم وغيرهم . ذلك لان بني الجراح كانوا يؤلفون قوةً حافظت على التوازن السياسي والعسكري . فلولاهم لكانت بلاد الشام مسرحاً لحروب اطول وأضخم كان من الممكن ان تلحق خراباً ودماراً اكبر ، اذ ان تذبذب بني الجراح في مواقفهم السياسية وقر الكثير من إراقة الدماء ، او بالاحرى حصرها في نطاق محدود ، يمثل الدينار دوراً حدّ من دور السيف . صحيح انهم زرعوا كثيراً من القلاقل في بلاد الشام ، غير ان ما احدثوه من الاضطرابات والقلاقل كان اقل مما لو فسح في المجال لصراع القوى الكبرى مباشرة في بلاد الشام .

الحواشي

- ١ - راجع محب الدين الزبيدي، تاج العروس وجواهر القاموس، ج ٥، ص ١٢٤. القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٦ هـ.
- ٢ - راجع محمد بن حرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك (تحقيق ميكال بان دي خويه)، ج ٤، ص ٢١٨٦-١٢٨٩، ٢٢١٨-٢٢٢٢. لندن: بريل، ١٩٦٤.
- ٣ - عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٤، ص ١٨٨ وما يلي. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦. راجع أيضاً مصطفى علي مصطفى الحيازي، الإمارة الطائفة في بلاد الشام في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، ج ١، ص ٤١، ٥٤-٥٥. بيروت: الجامعة الأميركية ١٩٦٩ (رسالة ماجستير في الآداب).
- ٤ - راجع احمد وصفي زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٩١، دمشق: مطبعة دار الهلال، ١٤٥.
- ٥ - ابو يعلى حمزة بن القلانسي، زيل تاريخ دمشق (تحقيق هـ. ف. أمدروز)، ص ٣. بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨.
- ٦ - المصدر السابق؛ راجع أيضاً تقي الدين بن احمد المقرئ، اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الحنفا (تحقيق جمال الدين الشيال)، ص ١٢٩. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م.
- ٧ - المقرئ، اتعاظ الحنفا، ص ١٣٠؛ راجع أيضاً علي بن محمد بن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٦١٥. بيروت: دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٦.
- ٨ - المقرئ، اتعاظ الحنفا، ص ٢٠٥-٢٠٩؛ ابن خلدون، ج ٤، ص ١٠٣.
- ٩ - المقرئ، اتعاظ الحنفا، ص ٢٠٥؛ ابن خلدون، ج ٤، ص ١٩٣.
- ١٠ - المقرئ، اتعاظ الحنفا، ص ٢٤٩.
- ١١ - ابن القلانسي، ص ٢١-٢٣.
- ١٢ - المقرئ، اتعاظ الحنفا، ص ٢٥٣.
- ١٣ - ابن القلانسي، ص ٢٤.
- ١٤ - المصدر السابق، ص ٢٤-٢٥؛ ابن الأثير، ج ٩، ص ٧٠٦.
- ١٥ - يحيى بن سعيد الانطاكي، تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي (تحقيق لويس شيخو)، ص ١٦٣. بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٥-١٩٠٩.
- ١٦ - المصدر السابق.
- ١٧ - المصدر السابق.
- ١٨ - ابن الأثير، ج ٩، ص ٦-٧.

- ١٩- المصدر السابق، ص ٧.
- ٢٠- الانطاكي، ص ١٦٣؛ ابن القلانسي، ص ٢٨-٢٩.
- ٢١- الانطاكي، ١٦٤؛ عبد الله بن ايك الموداري، الدرر المضيعة في اخبار الدولة الفاطمية (تحقيق صلاح الدين المنجد)، ص ٢١٢. القاهرة: قسم الدراسات الاسلامية في المهد الألماني، ١٩٦١.
- ٢٢- ابن القلانسي، ص ٢٩-٣١، ٣٣-٣٨.
- ٢٣- زين الدين بن محمد الانصاري الجزيري، درر الفوائد المنظمة في اخبار الحاج وطرق مكة العظيمة، ص ٢٤٧. القاهرة: المطبعة السلفية ومكبتها ١٣٨٤هـ؛ ابن الأثير، ج ٩، ص ٦٩.
- ٢٤- علي بن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة، ص ٢٣. القاهرة: مطبعة المهد الفرنسي الخاص بالعادات الشرقية، ١٩٢٤.
- ٢٥- المقرئزي، اتعاظ الخنفا، ص ٢٧١.
- ٢٦- الانطاكي، ١٧٣.
- ٢٧- ابن القلانسي، ص ٤٦-٤٧.
- ٢٨- ابوشجاع محمد بن الحسن الرذراوري، زبل تجارب الأمم، ج ٣، ص ٢٢٣-٢٢٤. القاهرة: مطبعة شركة التمدن الصناعية، ١٣٣٤-١٩١٦م.
- ٢٩- ابن القلانسي، ص ٥٠.
- ٣٠- ابن الاثير، ج ٩، ص ١٢١.
- ٣١- المصدر السابق، ص ٢٠٠؛ الانطاكي، ص ١٩٠.
- ٣٢- احمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان، ج ١، ص ٢٣٢ القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٩٩هـ.
- ٣٣- محمد بن احمد الذهبي، العير في خبر من غير (تحقيق فؤاد سيّد)، ج ٣، ص ٦٣، ٦٩. الكويت: دائرة المطبوعات والنشر، ١٩٦١.
- ٣٤- المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٣، ص ٥٥ القاهرة: مطبعة النيل والمليجي، ١٣٢٤-١٣٢٥هـ.
- ٣٥- الرذراوري، ج ٣، ص ٢٣٤-٢٣٥؛ ابن الأثير، ج ٩، ص ١٢٢.
- ٣٦- الرذراوري، ج ٣، ص ٢٣٥؛ المقرئزي، الخطط، ج ٣، ص ٢٥٥-٢٥٦.
- ٣٧- المقرئزي، الخطط، ج ٣، ٢٥٦.
- ٣٨- محمد بن احمد الفاسي، شفاء الغرام باخبار البلد الحرام، ج ٢، ص ١٩٤. مكة: مكتبة النهضة الحديثة، ١٩٥٦؛ الانصاري، ص ٢٥٠-٢٥١.
- ٣٩- المقرئزي، الخطط، ج ٣، ٢٥٦.
- ٤٠- الانصاري، ص ٢٥٠-٢٥١؛ الفاسي، ج ٢، ص ١٩٤.

- ٤١- المقرئزي، الخطط، ج ٣، ٢٥٦.
- ٤٢- عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٢٧ ص ١٦٤. حيدر اباد الذكن: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٨-١٣٥٩هـ.
- ٤٣- الرذراوري، ج ٣، ص ٢٣٧؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج ٧، ص ١٦٤؛ المقرئزي، الخطط، ج ٣، ص ٢٥٦.
- ٤٤- المقرئزي، الخطط، ج ٣، ص ٢٥٦؛ الانصاري، ص ٢٥١.
- ٤٥- ابن خلدون، ج ٤، ص ٢١٧.
- ٤٦- الانطاكي، ج ١، ص ٢٠١.
- ٤٧- المصدر السابق.
- ٤٨- المصدر السابق، ص ٢٠١-٢٠٢.
- ٤٩- المصدر السابق، ص ٢٠٧.
- ٥٠- الرذراوري، ج ٣، ص ٢٣٨-٢٣٩؛ ابن الأثير، ج ٩، ص ١٣٣.
- ٥١- الانطاكي، ج ١، ص ٢٠٧.
- ٥٢- ابن الاثير، ج ٩، ص ١٢٣؛ ابن خلدون، ج ٤، ص ١٢٠.
- ٥٣- راجع مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ج ٤، ص ٣٩٤. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٢.
- ٥٤- ابن النديم، ص ٢١٥.
- ٥٥- المصدر السابق، ص ٢١٦.
- ٥٦- ابن القلانسي، ص ٧٢؛ ابن الأثير، ج ٩، ص ٢٣٠؛ المقرئزي الخطط، ج ٢، ص ١٦٨.
- ٥٧- الانطاكي، ج ٢، ص ٢٤٤. ابن الاثير. ج ٤، ص ٢٣٠؛ ابن النديم، ص ٢٢٣.
- ٥٨- الأنطاكي، ج ٢، ص ٢٤٥.
- ٥٩- ابن النديم، ص ٢٢٤؛ ابن الأثير، ج ٩، ص ٢٣٠.
- ٦٠- المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ص ١٥٤.
- ٦١- ابن النديم، ص ٢٣٠.
- ٦٢- الانطاكي، ج ٢، ص ٢٤٨.
- ٦٣- المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ص ١٥٦-١٥٧؛ ابن خلدون، ج ٤، ص ١٢٩.
- ٦٤- المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ص ١٥٩.
- ٦٥- المصدر السابق.
- ٦٦- المصدر السابق، ص ١٥٥.
- ٦٧- الانطاكي، ج ٢، ص ٢٥٣.
- ٦٨- ابن القلانسي، ص ٧٣-٧٤.

- ٦٩- المصدر السابق، ص ٧٤ .
- ٧٠- الانطاكي، ج ٢، ص ٢٥٣ .
- ٧١- المصدر السابق، ص ٢٦١ .
- ٧٢- المصدر السابق .
- ٧٣- المصدر السابق .
- ٧٤- ابن الأثير، ج ٩، ص ٤٢٠ .
- ٧٥- ابو الفداء عماد الدين اسماعيل بن علي، المختصر في اخبار البشر، ج ١، ص ٥٤ و ٥٧ .
بيروت: دار الفكر ودار البحار، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م .
- ٧٦- A.A. Vasilier By zance et les Qrabes, tome 3, p. 115. Bruxelles: Inetitut de philo. et of hist d, Osieit, 1935.
- ٧٧- الانطاكي، ج ٢، ص ٢٧٠-٦٩ .
- ٧٨- المصدر السابق .
- ٧٩- ابن الاثير، ج ٩، ص ٥٠١؛ ابن النديم، ص ٢٦٠-٢٦٢ .
- ٨٠- راجع ادوارد فون زامباور، منجم الانساب والاسرات (ترجمة زكي محمد حسن وحسن احمد محمود)، ج ١، ص ١٦٠. القاهرة: الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية، ١٩٥١ .
- ٨١- ابن القلانسي، ص ٨٥؛ المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ١٧٠؛ ابن النديم، ص ٢٦٥-٢٦٧ .
- ٨٢- ابن القلانسي، ص ٩٠؛ ابن الاثير، ج ٩، ص ٢٣٣؛ ابن النديم، ص ٢٧٨-٢٧٩ .
- ٨٣- ابن اللانسي، ص ٩٣ .
- ٨٤- المصدر السابق، ص ٩٦ .
- ٨٥- المصدر السابق، ص ٩٣ .
- ٨٦- جمال الدين يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٥، ص ١٣ .
- ٨٧- ابن القلانسي، ص ٩٦-٩٧ .
- ٨٨- المصدر السابق، ص ٩٣ .
- ٨٩- المصدر السابق، ص ٩٤ .
- ٩٠- المصدر السابق، ص ٩٧ .
- ٩١- ابن الاثير، ج ١٠، ص ٦٠؛ ابن خلدون، ج ٥، ص ٦ .
- ٩٢- ابن القلانسي، ص ٦٨-٦٩، ١٠٩ .
- ٩٣- المصدر السابق، ص ١٠٩ .
- ٩٤- تاج الدين محمد بن علي بن ميسر، اخبار مصر، ج ٢، ص ٢٥. القاهرة: مطبعة المعهد الفرنسي الخاص بالعاديات الشرقية، ١٩١٩ .
- ٩٥- ابن القلانسي، ص ١١٠ .

اللاجئون المقداسة الى دمشق بعد الغزو الفرنجي ونتائج هجرتهم

د. صلاح الدين المنجد
بيروت

إن قصة هجرة المقداسة الى دمشق في القرن السادس الهجري، أيام السلطان نور الدين محمود بن زنكي، تعدّ من أروع قصص الهجرات الاضطرابية التي عرفها تاريخ الشام. وذلك في طريقة تنفيذها، وفي النتائج الباهرة التي نتجت عنها، والسلوك الأخلاقي النقي الذي كان يرافقها.

ولم نجد بين المؤرخين المعاصرين الذين كتبوا عن الحروب الصليبية من أفرد لهذه الهجرة دراسة موسّعة، وهذا ما دفعنا الى تقديم هذا البحث المجمل عنها.

نحن نعلم أن الفرنجة استطاعوا في الثاني والعشرين من شهر شعبان عام ٤٩٢هـ، الموافق ١٥ يوليو ١٠٩٩ م، أن يستولوا على بيت المقدس، بقيادة غودفروا دبوّون Gaudefroy de Bouillon الذي تسميه المصادر العربية كندفري^(١). وذلك بعد أن عجز جيش الفاطميين عن الدفاع عنها. وقد كانت فلسطين يومئذٍ تحت أيديهم. وقد رافق دخول الفرنجة بيت المقدس أعمال غريبة من السلب والنهب والقتل والذبح، أجمع عليها المؤرخون، المسلمون والغربيون^(٢).

وقد أقام الفرنجة لهم في بيت المقدس مملكة جديدة، بعد أن كان لهم امارات في الرّها، وانطاكية، وطرابلس، أقاموها إثرّ الحملة الصليبية الاولى، مستفيدين من ضعف الحكام السلاجقة واختلافهم في الشام، ومن فقدان وحدة سياسية اسلامية بينهم. كما استطاع الفرنجة الاستيلاء على مدن ساحلية كبرى كعكا، وصور، وصيدا، ويافا^(٣).

تولى جودفروا مملكة بيت المقدس في شعبان سنة ٥٩٢هـ/١٠٩٩م، ومات في رمضان سنة ٥٩٤هـ/١١٨٧م، وخلفه أخوه بودوان، أولددوين، أو بغدوين، أمير الرها. وتتابع ملوكهم فيها. حتى جاء صلاح الدين واستعاد بيت المقدس في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، بعد إحدى وتسعين سنة من دخول الفرنجة إليها، وبعد أن هباً لهذا الفتح وعمل له عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود مدة طويلة^(٤)

وليس من هدفنا هنا أن نسرد الوقائع والحوادث والعوامل التي أدت الى هذا الفتح. فقد كتب عنها كثير، وأخبارها معروفة. لكن هناك ناحية لم يتطرق اليها أحد من الباحثين العرب، هي البحث عن حالة المسلمين تحت الحكم الصليبي الفرنجي، منذ استيلائهم على بيت المقدس الى خروجهم منه، وهي ناحية جديدة بالبحث.

إنّ ما وصل الينا عن ذلك قليل، لكنه يعطي فكرة عامة واضحة عن الموضوع. فقد كان الصليبيون في غزواتهم ضد البلدان الشامية يتبعون الغزو والسلب والنهب، وكانوا يقتلون الرجال في المدن التي يستولون عليها أو يأسرونهم، وكانوا يسيئون النساء والولدان ويبيعونهم كالرقيق، أو يفادون بهم.

أما معاملتهم المسلمين داخل البلاد التي سيطروا عليها، فقد استطعت جمع بعض المعلومات عنها. ونحن مدينون بها الى الفقيه المحدث المؤرخ ضياء الدين المقدسي الأصل، الدمشقي، المتوفي سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م^(٥). فقد ألف كتاباً سماه «سبب هجرة المقداسة الى دمشق وكرامات مشايخهم»، في عشرة أجزاء. وصل الينا منه جزء واحد^(٦). كما ألف رسالة هامة عن «أخبار ابي عمر المقدسي» أحد المهاجرين الأوائل^(٧)، ورسائل أخرى عن الشيوخ المقداسة^(٨). ومن حسن الحظ أن المؤرخ الدمشقي شمس الدين محمد بن طولون^(٩)، المتوفي سنة ٩٥٣هـ/١٥٤٦م، قد اطلع على كتاب الضياء عن هجرة المقداسة وضمّنه كتابه الشهير «القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية»^(١٠).

ونرى مما تجمّع لدينا من النصوص التي ذكرها الضياء أن المسلمين كانوا يُعاملون كالرقيق، ويعملون للصليبيين الأرض^(١٢)، وأن الفرنجة فرضوا عليهم مالا، كالجزية، يتقاضونه منهم^(١٣). وكان يتراوح ما كان الفرنج يأخذونه من كلّ رجل، ما بين الدينار الى الأربعة دنانير^(١٤). وأنّ الفرنجة كانوا يؤذون المسلمين ويضطهدونهم، ويحبسونهم. وكان باليان بن بارزان - ولهذا الملك ذكر في فتح بيت المقدس، وحديث مع صلاح الدين في شأن عقد الأمان - كان أشدّ ملوك الفرنجة قسوة وعتياً. فكان إذا أخذ أحد الكفار من كلّ رجل ديناراً، أخذ هو أربعة دنانير. وكان من عقوبته التي يُنزّلها على المسلمين أن يقطع أرجلهم^(١٥). وإلى هذا كلّه، كان المسلمون لا يجراؤن على إظهار دينهم^(١٥).

وكان تحت يد باليان بن بارزان من القرى: جماعيل، ومردا، وياسوف، وغيرها، وكلها بنواحي نابلس. وكان أهلها ينتسبون الى بيت المقدس ويُسمّون أنفسهم بالمقادسة، لأنّ قراهم كانت مضافة الى بيت المقدس^(١٦)، ولم يكونوا هم منها نفسها. وقد ذكر ياقوت أسماء هذه القرى وضبطها^(١٧).

ولا شك أن هذا الاضطهاد الفرنجي للمسلمين، والخوف من إظهار الدين، والجزية التي كان المسلمون يدفعونها، هذه الأسباب الإكراهية والدينية، والاقتصادية^(١٨)، دفعت بعض المسلمين الى التفكير في الهجرة من بلادهم. وكان أول من فكر في ذلك رجلاً من جماعيل اسمه أحمد بن محمد بن قدامة. وكان شيخ القرية، وكان قد سافر وشدا العلم، ولا ندري أين، ورجع الى قريته، يُعلّم أهلها الدين، ويُقرئهم القرآن، ويخطب فيهم يوم الجمعة. وكان أهل القرى المجاورة لجماعيل تأتي اليه ويحضرون الجمعة عنده^(١٩). فقيل لابن بارزان: إن هذا الرجل الفقيه يشغل الفلاحين عن العمل، ويجمعون عنده^(٢٠). ويبدو أنّ باليان لم يشأ أن يكون في المسلمين رجل مثل الشيخ أحمد، وخشي منه، فتحدّث بين خاصته أنه سيقتله. فسمع أحد العمّال المسلمين الذين كانوا يشتغلون عند باليان ذلك وسارع الى إعلام الشيخ. عندئذ قرّر الشيخ أحمد أن يهاجر الى دمشق، خوفاً على نفسه، وعجزه عن اظهار دينه^(٢١).

وفي سنة ١١٥٦/٥٥١ نَفَذَ الشيخُ أحمدُ قراره . واختار دمشق ملجأً له . وقد كانت سيرة نور الدين ، وحكمه العادل ، وجهاده في سبيل الله ، مما يُغري في اللجوء الى عاصمة ملكه . فمضى نحو دمشق ، يصحبه ابن أخيه محمد بن أبي بكر ، وابن أخته عبد الواحد بن أحمد ، - والد الضياء - وزوج أخته عبد الواحد بن علي . وكأنه كان يريد التأكد من إمكان الوصول الى دمشق أولاً . فلما بلغها ، كتب الشيخ الى ابنه أبي عمر ، يأمر أهله أن يُهاجروا الى دمشق . وأكد في كتابه أنه لن يرجع الى بلادٍ هي تحت أيدي الكفار . وقال : ما أقول إلا كما قال ابراهيم عليه السلام : (فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٢٢) .

فلما بَلَّغْتَهُم الرسالةَ قَرَّرُوا الهجرة ، وكنمو الأمر . لكنَّ أهل القرية علموا فأرادوا منعهم من السفر . ويعلل الاستاذ المؤرخ محمد دهمان هذا المنع فيقول : «إنما أرادوا منعهم لأنَّ أهل القرية يَنْقُصُ ، ويبقى الباقيون مُكَلَّفِينَ بالإنتاج كما كانوا ، دون نَقْصٍ»^(٢٣) لكنَّ الجماعة أصرَّت على الهجرة . فمضى أهل القرية - أي جماعيل ، وأخبروا الفرنجة . فأرسل الفرنجةُ عسكرَ نابلس فقعدها لهم على نهر الشريعة ليقبضوا على المهاجرين عند اجتيازهم . قال الضياء : فأعماههم الله عنهم وكفاهم شرهم^(٢٤) .

ورغم ما كان ينتظر هؤلاء من الأخطار فقد مضوا . ويحدثنا الضياء المقدسي عن رحلتهم هذه وما لقوا فيها . يقول : سمعتُ خالي أبي عمر يقول : إنهم لما عزموا على الهجرة جمعوا أهاليهم من القرايا ، وأخذوا معهم أدلاءً يدلونهم على الطريق . قال ابو عمر : وكنا نمشي بالليل ونُقيمُ بالنهار ، حتى جئنا الى قرية تُشرف على الغور تسمي «جَبِيت» . يشترتون غلة . ففرحنا بهم ، وقلنا : نكترى معهم لهؤلاء الصغار الذين معنا . فذبح لنا الريسُ الذي كان في تلك القرية ، وحلف علينا أن نُقيم حتى نتغدى . فمضى العربُ . فحزنا كثيرا . وكنا نفرز عند الشريعة من أجل الفرنج . فمكثنا في القرية حتى تغدينا . ثم خرجنا فتقدم ناس منا الى الشريعة ينظرون . قرأوا أثر خيل الكفار ، وإذا هم قد أخذوا الجمال التي أردنا أن نمضي بها ، ومضوا . فخرجنا نحو الشط . وكان معنا من يعرف تلك المواضع . فتهنا . ولم

ييق أحد يعرف الطريق. وكان في الطريق ناسٌ من الحرامية. (فمضينا على غير هدى). فوصلنا الى قرايا المسلمين. فقالوا لنا: من أيّ طريقِ جئتم؟ فقلنا: من الموضع الفلاني. قالوا: أوّماً لقيكم احدٌ من الحرامية؟ فقلنا: لا. ولكننا ضعنا. فقالوا: بضياعكم سلمتم^(٢٥).

ومما وقع لهم أيضا ما ذكره الضياء عن أبيه. فقد سمعه يقول: لما وصلنا الى الغور، كان أبو عبد الله عمر يتقمّنا. فإذا قومٌ من أهل الغور يحصدون. فأردت أن ألحق عمر وأقول له: لا تُقلّ للحصّادين إنا حُجاج، فيطمعوا فينا. فلم ألحقه إلا وقد سألوه وقال لهم. فطمعوا فينا. وكان معي سيف. فجاء رجلٌ منهم وطعنني بقصبته. فضربتُها بالسيف فقطعْتُها. ثم عرفوا من أيّ قرية نحن، فخلّوا عنا. ثم وَضَعْنَا شيئاً لنا لنأكل. فجاؤا وأكلوا معنا. وقالوا: لولا هذا صاحب السيف ما كنّا إلا أخذناكم^(٢٦).

وقضى الجماعة المهاجرون بين جماعيل ودمشق نحو ثمانية أيام^(٢٧)، حتى وصلوا اليها. وكان عددُ المهاجرين خمسة وثلاثين نفساً أو أربعين، من ذكّر وأنثى، وكبير وصغير. وهؤلاء الذين وصلوا الى دمشق، لكن بعض الأطفال ماتوا في الطريق^(٢٨). وقد سجّل الضياء أسماء المهاجرين واحداً واحداً نقلاً عن والدته^(٢٩).

ونلاحظ أنهم كانوا جميعاً من أسرة بني قدامة. فكان فيهم: أولادُ الشيخ أحمد ابن محمد بن قدامة: أبو عمر، والموفق عبدُ الله، وعبيد الله. وبناته: رقية، وفاطمة، ورابعة، وأمنة؛

وزوجته: سعيده بنت أحمد بن أبي الفتح من قرية مرّدا، وسعيده بنت احمد، أم عبيد الله، من دير عوريف.

وأولاد أبي عمر: عمر، وخديجة، وزبيدة

وأخت الشيخ أمّ عبد الغني، سعيده بنت محمد بن قدامة، وزوجها ابو عبد الغني: عبد الواحد بن علي بن سرور، وأولادهما: ابراهيم، وعبد الله، وعبيد الله، وتقيّة، وزينة، ورحمة.

وأخت الشيخ الثانية عائشة بنت محمد بن قدامة. وأولادها محمد، وعمر
واسماعيل ويحيى .. وآخرون .

وكان الصغار، كما يذكر الضياء، يمشون في رحلتهم كما يمشي الكبار: كانوا
يمشون كما يمشون الى بيوتهم^(٣٠).

وبعد ان وصلوا الى دمشق واستقروا بها، تبعهم طائفة اخرى من اهل نابلس
وجماعيل ومردا وساريا وياسوف وقيرة وفندق الشيوخ .

المهاجرون في دمشق

نزل الشيخ احمد ومن وصل من اسرته في مسجد ابي صالح. وكان هذا
المسجد خارج الباب الشرقي من دمشق. وينسب الى رجل من الصالحين اسمه
لبو صالح مفلح بن عبد الله الحنبلي. توفي سنة ٥٣٠هـ. ووقف مسجده على
الحنابلة. وكان المشرفون على المسجد واقفاه بني الحنبلي، وهم اسرة حنبلية شهيرة
بدمشق. وقد اطلق الناس عليهم، اي على المقداسة، عند نزولهم في المسجد اسم
الصالحين^(٣١).

اما اختيار الشيخ احمد هذا المكان بالذات لنزوله فسيببه كما يبدو لنا ان
المسجد موقوف على الحنابلة، وقد كان هو وأسرته حنابلة .

وكان الحنابلة بدمشق قلائل. وانما كان يغلب عليها الشافعية والحنفية. وكان
اشهر اسر الحنابلة بدمشق بني المنجا، وبني الحنبلي^(٣٢).

ولكن ما كاد المهاجرون يستقروا حتى بدأت المصاعب تُزعجهم. ذلك أن
بني الحنبلي، القائمين على المسجد، خافوا ان يستولي هؤلاء المقداسة على وقف
المسجد. فقالوا لهم: لا ندعكم في المسجد حتى تكتبوا خطوطكم أنكم نازلون
علينا. وانكم من تحت أيدينا. ففعلوا^(٣٣).

فلم يكتفوا بذلك، وأخذوا يسيعون سمعتهم. فقد جاء قاضي دمشق وأحد كبار
علمائها ابن ابي عصرون^(٣٤) لزيارتهم، تكريماً لهم. فردّ له الزيارة عبد الغني

المقدسي، والمؤفق المقدسي، وكانا شائين، وحفظا منه مسألة في الخلاف. وكان ابن أبي عصرون شافعيًا. فعلم بنو الحنبلي. فأخذوا يشنعون على بني قدامة ويقولون: هؤلاء صاروا أشاعرة^(٣٥). وكان بين الحنابلة والشافعية بدمشق خلاف شديد. وكان الحنابلة يكفرون الشافعية لأنهم أشاعرة، لاختلافهم في تفسير صفات الله. ويُطلقون ألسنتهم فيهم. حتى إن مؤرخ دمشق الكبير الحافظ ابن عساكر، وكان شافعيًا مُدافعا عن الأشعري، كان يتجنب المرور أمام حلقة الحنابلة في المسجد الأموي لئلا يأثموا فيما سَيَتَفَوَّهون به إذا رأوه^(٣٦). فاتهام بني قدامة بأنهم أشاعرة كانت تهمة خطيرة.

ولم يكتفِ بنو الحنبلي بذلك، بل كانوا يضربون من يتردد على المقادسة في المسجد^(٣٧)، ثم طلبوا من السلطان نور الدين أن يُخرجهم من المسجد. فسأل نور الدين عن بني قدامة، فذكر له ابن عصرون أنهم أهل صلاح وتقوى وحفظ للقرآن فقال: اذن نكتب لهؤلاء المهاجرين كتاباً بالمسجد ونسلم اليهم الوقف. وفعل ذلك. فأصبح المسجد ووقفه بيد المقادسة^(٣٨). لكن الشيخ احمد لم يرضَ، في قلبه بذلك وقال: أنا هاجرتُ حتى أنافس الناس على دنياهم؟ ما بقيت أريد أن أسكن هنا^(٣٩).

ومن المضايقات التي لاقوها أهل الباب الشرقي - وهو حيُّ نصراني قديم^(٤٠) - كانوا يخرجون الى خارج الباب الشرقي - أي قرب المسجد - ويشربون الخمر. فصار المقادسة يُنكرون ذلك عليهم. فصاروا يكرهونهم ولا يحبونهم^(٤١).

وبقي المقادسة في مسجد أبي صالح ثلاث سنين^(٤٢). لكن مناخ المسجد لم يكن جيداً، وكثُر فيهم المرضُ والموت، حتى مات لهم فيه ثمانية وعشرون نفساً^(٤٣). وكانوا يحملون موتاهم الى جبل قاسيون ويدفنونهم فيه^(٤٤)، ولم يدفن في مسجد أبي صالح إلا ستة منهم^(٤٥).

فقرّر الشيخ ان ينتقل بأهله الى مكان آخر. فأشير عليه أن ينتقل الى جبل قاسيون، ففعل.

وجبل قاسيون من الأماكن التي كانوا يعتقدون فيها البركة، لما فيها من أماكن الزيارات. مثل كهف جبريل، ومغارة الجوع، ومغارة الدم، وغير ذلك. وقد تُوِّهت بها كتب الزيارات الدمشقية^(٤٦). وكان فيها بعض الأديرة القديمة، كدير الحوراني أو دير الرهبان، وكان لأناس من الرهبان فأحدثوا شيئاً وأخرجوا منه. وكان فيه بيوت قليلة لبعض الناس^(٤٧).

واتخذ بنو قدامة مكاناً عند دير الحوراني، وبدأوا البناء به. فبنوا في السنة الأولى ثلاثة أبيات، وفي السنة الثانية أتموها إلى عشرة أبيات. وانتقلوا إليه^(٤٨). ولم يكن لديهم وقت بناء الدير نفقة، ولا قوة على البناء، ولا معرفة بذلك. فكان يعاونهم جماعة من الناس^(٤٩).

وعندما خرج المقداسة إلى الجبل عرفهم الناس. قال الضياء عن والده: انتقلنا إلى الجبل، كان الناس لم يكونوا يعرفون والدي - أي الشيخ أحمد - إلا بعد خروجه إلى الجبل. فكان الناس يأتونه ويوزرونه ويهدون إليه. وكان السلطان نور الدين يأتي إلى زيارته. وما كنا نعرف شراء الفاكهة والبطيخ والفحم من كثرة ما يهدي إلينا^(٥٠).

ولم يكن ينغص حياتهم سوى أمر واحد. فنظراً لبعدها الجبل عن المدينة وقفره، كان مأوىً للحرامية. وكان أهل وادي التيم الدرور يأوون إليه، فيخطفون الناس، ويبيعونهم للفرنجية. فكان المقداسة يحرسون ديرهم ليلاً، ثم عملوا له باباً خوفاً من الذئاب والسباع. وأحاطوه، فأصبح آمنًا^(٥١).

المقداسة في الجبل

إنَّ استقرار هؤلاء المقداسة في جبل قاسيون، فتح صفحة جديدة من تاريخهم، وأنتج نهضة علمية في دمشق، دامت بعدهم في آثارها قروناً طويلة.

١ - فقد استقروا بدمشق ولم يُعَدَّ أحدٌ منهم إلى قريته جماعيل، وتوالدوا

بدمشق وكثروا. وكان ازدهار حالهم مدعاةً الى هجرة آخرين من قرى بيت المقدس الى دمشق.

- ٢ - ولقوا من ملوك دمشق العناية والتقدير. من نور الدين، وملوك الأيوبيين.
- ٣ - وانصرفوا إلى العلم وحده. وخاصة الحديث والفقہ. وسافروا الى مدن العالم الإسلامي الشهيرة بالعلم وأخذوا عن علمائها، كبغداد والموصل، والاسكندرية ومصر، واصبهان، ونيسابور، وإربل، والحرمين، وهمدان، وهرة، ومرو. وظهر منهم علماء فحول كبار.
- ٤ - أسسوا المدارس التي لعبت دوراً هاماً في نشر العلم، كمدرسة ابي عمر، المسماة بالمدرسة العمرية، ومدرسة الضياء، المسماة بالضيائية.
- ٥ - ألفوا تأليف كثيرة في الحديث والفقہ. حتى إن مذهب احمد بن حنبل، جُدد وازدهر بدمشق، بما ظهر من العلماء الكبار فيه، والتأليف الموضحة له، على أيديهم.
- ٦ - إن ما لقيه المقداسة من إكرام وتقدير، نظراً لنبوغهم وحُسن سيرتهم، شجع آخرين من المقداسة على الهجرة الى دمشق في القرون التالية.

وتفصيل هذه الامور لا يتسع له المقام هنا، بل نشير الى بعضها.

ففي سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م توفي الشيخ احمد بن قدامة، رأس الأسرة المهاجرة، وقد اتصف طول حياته بالزهد والصلاح وحسن السيرة، والتقوى. مما حَبَّب الناس فيه. فقام مقامه في رئاسة الجماعة ابنه ابو عمر محمد بن احمد. وكان وُلد سنة ٥٢٨هـ بجماعيل، وهاجر الى دمشق وهو في الثالثة والعشرين من عمره. فتابع دراسته فيها، سمع الحديث، وتفقه، مع حفظه القرآن. ووصفوه بأنه كان عبداً قانتاً، خائفاً من الله، كثير النفع، طلق الوجه، ذا مروءة وفتوة، وعاش إلى سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م. أي عاش بدمشق ستاً وخمسين سنة. وكان أعظم ما عمله أنه بنى مدرسة قرب دير الحنابلة، سُميت المدرسة العمرية، وقفها على تعليم القرآن والفقہ. ويقولون انه حفظ فيها القرآن أمم لا يُحصون. وعندما توفي خرج

في جنازته ما قُدِّر بعشرين ألف شخص. وهذا دليل على الأثر الطيّب الذي تركه في أهل دمشق ونواحيها.

وقد ازدهرت هذه المدرسة ازدهاراً عظيماً، حتى إنَّ جمال الدين بن عبد الهادي يقول في القرن الثامن - لم يكن في بلاد الإسلام أعظم منها. وكانت عند تأسيسها لا تحوي إلا على عشر غرف، للطلبة. فزاد الناس فيها، وأوقفوا عليها. حتى كان ينعم فيها الطلبة بالمآكل الجيدة، والحلوى، والملابس، وبلغ ما يفرَّق فيها كل يوم، في بعض الفترات ألف رغيف. وكان فيها سخانة يسخن فيها الماء في الشتاء لغسل من احتلم. وكان فيها مكتبة غنية بالكتب والمصاحف، حتى إنَّه كان فيها مصحف بخط علي بن أبي طالب. واليوم نجد كثيراً من مخلفات هذه المكتبة في المكتبة الظاهرية بدمشق. وقد درس في هذه المدرسة كبار علماء الحنابلة^(٥٢).

وثمة شخص آخر له شأن علمي كبير، هو الضياء محمد بن عبد الواحد الذي استطعنا بما كتبه ان نجمع هذا البحث. فقد وُلد بدمشق بدير الحنابلة سنة ٥٦٧ هـ أيام نور الدين. وسمع علماء دمشق، وسافر لتلقي الحديث والفقهِ، الى بغداد، واصبهان، وخراسان، ومرو وهرارة، ومصر. حتى اصبح أحد الأعلام. وصار محدث عصره ثبناً، ثقةً، فقيهاً، مؤرخاً، لغوياً. وكان زاهداً، مُحْتَاطاً في أكل الحلال، مُجاهداً في سبيل الله. هذا الرجل الكبير بني مدرسة امام باب الجامع المظفري، أعانه عليها بعض أهل الخير. فجعلها دار حديث. وأنشأ فيها مكتبةً وَقَفَ فيها كتبه وأجزائه الحديثية، وكان حصل أصولاً جيدة، هبةً أو شراءً او نَسْخاً. وقد نُهبت هذه المكتبة في الفتن. ونجد اليوم في المكتبة الظاهرية بدمشق الكثير مما كان فيها. وتوفي الضياء سنة ٦٤٣ هـ^(٥٣).

وهاتان المدرستان العمرية والضيائية، كانتا من أهم مراكز العلم في الصالحية وتخرج منهما الألوْف، ودرس بها كبار العلماء.

والعلماء المقادسة الحنابلة الذين ظهوروا بدمشق بعد الهجرة المقدسية ونشأوا

فيها، وأثروا في الحياة العلمية، كثيرون، لا يمكن سرد أسمائهم في عَجالة كهذه. وكلهم يرجعون الى بني قدامة وأقربائهم، أو بني سرور، أو المرداويين. - وهم مذكورون في كتب التراجم، وخاصة في ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب.

وقد كان مجال نشاطهم العلمي في التدريس بمدارس الحنابلة سواء منها دور القرآن والفقه، ودور الحديث. أو في الخطابة، أو تولّي القضاء، أو إصدار الفتاوى.

كما أن بعضهم أثرى المكتبة الحنبلية بمؤلفات جيدة تدور على الفقه والحديث والتاريخ. واشهر مؤلفهم الضياء المقدسي والحافظ عبد الغني المقدسي، وموفق الدين ابن قدامة.

فمما ألفه الضياء:

- ١ - الأحاديث المختارة، تسعون جزءا. وهي الأحاديث التي تصلح أن يُحتجّ بها، سوى ما في صحيح البخاري وصحيح مسلم. وقيل إنها خيرٌ من صحيح الحاكم النيسابوري.
 - ٢ - فضائل الشام، ثلاثة أجزاء.
 - ٣ - فضائل القرآن، جزء واحد.
 - ٤ - سبب هجرة المقداسة الى دمشق، عشرة أجزاء.
 - ٥ - سيرُّ المقداسة، عدّة اجزاء.
 - ٦ - الهجرة الى أرض الحبشة.
 - ٧ - رواة البخاري.
 - ٨ - فضائل الجهاد.
 - ٩ - مسند فضالة بن عبيد.
 - ١٠ - الحكايات المستطرفة، أجزاء كثيرة.
- وغير ذلك^(٥٤).

ومما ألفه الحافظ عبد الغني المقدسي:

- ١ - تبين الاصابة لأوهام حصلت على معرفة الصحابة لأبي نعيم .
 - ٢ - المصباح في عيون الأحاديث الصحاح . فيه أحاديث الصحيحين .
 - ٣ - محنة الامام أحمد . ٣ أجزاء .
 - ٤ - الكمال في معرفة الرجال . يشتمل على رجال الكتب الستة .
 - ٥ - سيرة الرسول .
 - ٦ - مناقب عمر بن عبد العزيز .
 - ٧ - وفاة النبي .
- وغير ذلك^(٥٥)

ومما ألفه موفق الدين المقدسي :

- ١ - المغني في الفقه الحنبلي ، عشرة مجلدات .
- ٢ - المقنع في الفقه .
- ٣ - الكافي في الفقه .

وكلها مصادر هامة معتمدة في فقه المذهب الحنبلي^(٥٦) .

وبعد ، فهذا مجمل قصة المقادسة المهاجرين الى دمشق ايام نور الدين ، وما سجلته في تاريخ دمشق الثقافي من آثار . والموضوع جدير بالاهتمام وان يفرد له كتاب خاص . وعسى ان يهتم به الباحثون .

التعليقات

- ١ - انظر مثلاً: القلانسي، تاريخ دمشق ١٣٨ .
- ٢ - عن فتح بيت المقدس وما وقع فيه انظر: ابن الاثير، الكامل - والقلانسي، في تاريخ دمشق - والعماد الكاتب في الفتح القسي - وابو شامة في الروضتين - و
Grousset, R. Histoire des Croisades, 3vols. Paris 1934-36 Runciman, S. A History of the Crusades. vol II, Kingdom of Jerusalem Cambridge 1952.
- ٣ - عن دويلات الصليبيين انظر :
Rey, E. Les Colonies franques de Syrie au XIIe et XIII e siecles. Paris 1883.
- ٤ - عن اعمال عماد الدين زنكي ونور الدين انظر: ابو شامة في الروضتين - وابن الاثير في التاريخ الباهر - وابن قاضي شهبة في الكواكب الدرية - والبنداري في سنا البرق الشامي - وحسين مؤنس في نور الدين محمو - والعروسي المطوى في الحروب الصليبية في المشرق والمغرب - و
Elisseff, N. Nur Ad Din. 3vols, Damas 1967
Fink, H.S., The role of Damascus in the history of the Crusades. in Muslim World XIIX, 1959 pp 41-53.
- ٥ - انظر هذه الاخبار متفرقة في: ابن القلانسي، والروضتين .
- ٦ - عن الضياء انظر: المنجد، معجم المؤرخين الدمشقيين ص ٨٦، والمصادر المذكورة فيه .
- ٧ - مخطوط في الظاهرية، رقم ٢٤٨ (٨٩) باسم الحكايات المقتبسة .
- ٨ - مخطوط في الظاهرية، مجموع ١٣ (٨٩) .
- ٩ - كالشيخ أبي عمر، مخطوط في الظاهرية، مجموع ٩ (١٢٠) .
- ١٠ - انظر: معجم المؤرخين الدمشقيين، ص ٣٢٩٠
- ١١ - نشره الاستاذ محمد أحمد دهمان، في مجلدين. دمشق ١٩٤٩-١٩٥٦
- ١٢ - القلائد الجوهريّة، ص ٢٦
- ١٣ - المصدر السابق، ص ٢٦
- ١٤ - القلائد، ص ٢٧
- ١٥ - القلائد، ص ٢٨
- ١٦ - ياقوت: معجم البلدان ١١٣/٢
- ١٧ - ضبط جماعيل فقال: بالفتح وتشديد الميم وألف وعين مهملة مكسورة، وباء ساكنة ولام. قرية في جبل نابلس من أرض فلسطين. ثم ذكر بعض العلماء الذين أصلهم من هذه القرية .
والعجيب أن الأستاذ الدباغ خطا في كتابه « بلادنا فلسطين » ص ٤٦٥ ياقوتاً في ضبطه لجماعيل وزعم. أن صوابها « جماعين » بالنون. كما خطا جميع المصادر العربية التي ذكرها باللام. وحجته أن أهل القرية يلفظونها بالنون، لكنهم من ظهر فيها من جماعين للعلم وما

ذكره هو الخطأ. ومثل ياقوت لا يخطيء في ضبط الأسماء. فدقته معروفة مشهورة، كما أن المصادر العربية القديمة لم تخطئه. وتابعته على قوله من الصفدي، الى ابن رجب، الى النعمي، الى ابن طولون. بل إن الضياء المقدسي، وأصله منها، ذكر الاسم باللام. ووضح أن أهل اليوم حرّفوا اسمها، وبدّلوا اللام نونا لأنه أسهل في النطق. أما زعمهم أنها سميت كذلك لكثرة من ظهر فيها من أهل العلم فغير صحيح، لأن جماعيل لم تخرج أي عالم حتى القرن السادس، والذين ظهروا بعد، فانما كان أصلهم منها، ولكن نشأوا وتعلموا في دمشق.

- ١٨- انظر اسباب الهجرات بصورة عامة في كتاب
 ١٩- القلائد، ص ٢٧
 ٢٠- القلائد، ص ٢٧
 ٢١- القلائد، ص ٢٨
 ٢٢- القلائد، ص ٢٨
 ٢٣- القلائد، ص ٢٨، الحاشية ١
 ٢٤- المصدر السابق، ٢٨
 ٢٥- القلائد، ٢٩
 ٢٦- القلائد، ص ٣١-٣٢
 ٢٧- القلائد، ٢٨
 ٢٨- القلائد، ٣٠
 ٢٩- القلائد، ٢٩-٣٠ باب أسماء المهاجرين والمهاجرات
 ٣٠- القلائد، ٣٠
 ٣١- النعمي، تنبيه الطالب (نشره الحسنّي) ١٠١/٢
 ٣٢- عن بني المنجا وبني الحنبلي انظر النعمي في المدارس الآتية:
 المنجائية، والحنبلية الشريفة.
 ٣٣- عن هذه الخاصة انظر القلائد ٣٦
 ٣٤- عن ابن أبي عصرون انظر النعمي في المدرسة العسرونية.
 ٣٥- القلائد، ٣٦
 ٣٦- القلائد انظر مقدّمتنا للمجلدة الأولى من تاريخ دمشق لابن عساكر.
 ٣٧- القلائد، ٣٦
 ٣٨- القلائد، ٣٦
 ٣٩- القلائد، ٣٧
 ٤٠- انظر موقعه في مخطط دمشق القديمة لنا.
 ٤١- القلائد، ٣٦
 ٤٢- القلائد، ٣٤

- ٤٣ القلائد، ٣٤، ٣٧
- ٤٤ القلائد، ٣٤
- ٤٥ القلائد، ٣٧٣٧
- ٤٦ انظر رسالة الاستاذ محمد دهمان عن جبل قاسيون، والهروى في كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات، والعدوى في كتاب الزيارات، (تحقيقنا)، والرعي في فضائل الشام ودمشق (تحقيقنا) وابن طولون في القلائد: فضل قاسيون ص ٤٣ .
- ٤٧ انظر في القلائد: ما كان بسفح قاسيون قبل وضع الصالحية، ٣٩-٤٠، وانظر مخطط الصالحية للأستاذ دهمان .
- ٤٨ القلائد، ٣٧
- ٤٩ القلائد، ٣٨
- ٥٠ القلائد، ٣٨
- ٥١ القلائد، ٣٩
- ٥٢ انظر سيرة ابي عمر، وأخبار مدرسته العمرية في تنبيه الطالب ٢/١٠٠-١١٢، وفي القلائد الجهرية ١٦٥-١٨٣، وذيل طبقات الحنابلة.
- ٥٣ انظر سيرة الضياء وأخبار الضيائية في تنبيه الطالب ٢/٩١-٩٩، وفي القلائد ٧٦-٨٤، وذيل طبقات الحنابلة .
- ٥٤ انظر تنبيه الطالب ٢/٩٢-٩٤
- ٥٥ انظر ذيل طبقات الحنابلة ٥٢/٢
- ٥٦ انظر ذيل طبقات الحنابلة ٥/٢
- ٥٧ انظر ذيل طبقات الحنابلة ١٣٣/٢

موقف الشريف حسين من تصريح بلفور

سليمان موسى

وزارة الثقافة والشباب - عمان

الأبحاث والكتب التي وضعت عن تصريح بلفور، لا تكاد تحصى. الأسباب التي كانت تكمن وراء اعطاء ذلك التصريح، والقوى التي تعاونت على تحويل مضمونه من مجرد امنية وخيال الى واقع حقيقي: واقع شديد المرارة، قاطع كالسيف، بالنسبة للشعب الذي اكوى بناره ولا يزال. ومن هنا فأنني لا أقصد ببحثي هذا ان أعيد وأكرر ما جاء به مئات، وربما آلاف الباحثين، حول الجوانب السياسية والدينية والاستعمارية والقانونية لذلك التصريح. قصدى هنا ان ابحث في موقف زعيم عربي واحد من ذلك التصريح، الا وهو الناهض بقومه: الشريف الحسين بن علي.

لقد تصدّى الشريف حسين في سني الحرب العالمية الاولى لحمل مسؤولية كبيرة، فرسم ودبر، وأعدّ العدة، ثم رفع الراية وحمل السلاح، من أجل حرية العرب ووحدتهم، ومن أجل ان يسترد العرب كرامتهم ومكانتهم بين امم العالم.

صدر التصريح في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧، ضمن رسالة بعث بها آرثر بلفور وزير خارجية بريطانيا الى الزعيم اليهودي اللورد روتشيلد. ومع ان التصريح ارتبط باسم بلفور، الا انه في الواقع قرار اتخذته الحكومة البريطانية وتمسكت به، ومنحته فيما بعد الصفة الشرعية الدولية عندما أثبتته في صلب صك الانتداب على فلسطين وحصلت على موافقة عصبة الامم عليه. وفيما يلي نص ذلك التصريح:

ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جلياً انه لن يؤتى بعمل من شأنه ان يحجف بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى.

في اليوم الذي صدر فيه التصريح، بعثت وزارة الخارجية البريطانية الى السير رينجالد ونجت، المندوب السامي في مصر، برقية تنبئه فيها بصدور التصريح وتطلب اليه ان « يمارس رقابة دقيقة على تعليقات الصحف حتى لا يستثار غضب المشاعر العربية»^(١). ونتيجة للرقابة التي فرضتها السلطات البريطانية، فإن الصحف المصرية لم تستطع ان تخوض في مضمون التصريح بالتفصيل وأن تبرز أهميته والأخطار التي ينطوي عليها. وهكذا نجد جريدة (المقطم) تنشر نص التصريح في عددها الصادر يوم ٩ تشرين الثاني دون اي تعليق وبصورة لا تلفت النظر.

ولكن عددا من السوريين المقيمين في مصر اتصلوا بمندوب الملك حسين في القاهرة وكلفوه أن ينقل نبأ التصريح اليه. ثم انتدبوا موفداً عنهم الى الحجاز لمقابلة الملك شخصياً. وكانت النتيجة أن الملك بعث الى المندوب السامي في مصر مذكرة يستفسر فيها عن ماهية التصريح، والغاية من اصداره. اما اول اشارة الى موقف الملك فقد جاءت في برقية بعث بها الجنرال كلايتون الى وزارة الخارجية البريطانية، وقال فيها انه لا يتوقع نجاحاً كبيراً للخط الدعائي الذي رسمته تلك الوزارة بشأن التصريح «اذ على الرغم من جميع الحجج فإن مكة لا تحب اليهود والأرمن، ولا تريد ان تكون لها اية صلة بهم، بينما يخشى عرب سورية وفلسطين ان تتكرر قصة يعقوب وعيسو»^(٢).

في تلك الأثناء كان الوضع بين الملك حسين والامير عبد العزيز ابن السعود قد تدهور وأخذ ينذر باحتمال نشوب القتال. ولما كانت السياسة البريطانية

تستهدف يومذاك توحيد جهود أصدقائها العرب للعمل من أجل كسب الحرب ،
فقد تقرر ايفاد الاستاذ هوجارث رئيس المكتب العربي في القاهرة للاجتماع مع
الملك ومحاولة اقناعه باعادة المياه الى مجاريها بينه وبين ابن السعود .

وبينما كان هوجارث يستعد للسفر الى جدة ، بعث « ونجت » الى وزارة
الخارجية برقية يقول فيها انه من المؤكد ان الملك حسين سوف يسأل هوجارث
عن خطط بريطانيا فيما يتعلق بسورية والعراق ، واقترح ان يخول هوجارث بتقديم
ايضاح للملك مؤداه : ان العرب يجب ان يوافقوا على وجود اليهود في مستعمرات
في اجزاء من فلسطين يقررها مؤتمر الصلح ، وان بقية أراضي سورية تكون عربية ،
على ان يترك تحديد وضعها الى مؤتمر الصلح ، اما بغداد فتكون عربية تحت
الحماية البريطانية^(٣).

بعد اربعة ايام بعثت وزارة الخارجية الى ونجت نص الرسالة التي يتعين على
هوجارث نقلها إلى الملك حسين . وأهم ما جاء في الرسالة « ان دول الحلفاء مصممة
على ان تتاح للشعب العربي فرصة كاملة لاستعادة كيانه كأمة في العالم . وهذا لا
يتيسر تحقيقه الا باتحاد العرب أنفسهم ، وان بريطانيا العظمى وحلفاءها سيتبعون
سياسة ترمي الى تحقيق هذه الوحدة » . وبشأن فلسطين قالت الرسالة « اننا
مصممون أن لا يخضع شعب لشعب آخر » ، ولكن بسبب وجود اماكن مقدسة
بالنسبة للمسلمين واليهود والمسيحيين « فلا بد ان يكون هناك نظام خاص بهذه
الاماكن يوافق عليه العالم » . واما بشأن اليهود فقد قالت الرسالة ان الحكومة
البريطانية مصممة على ان لا توضع عقبة في سبيل « عودة اليهود الى فلسطين
بقدر ما يتفق ذلك مع حرية الأهالي الموجودين من الوجهتين الاقتصادية
والسياسية »^(٤).

وسافر هوجارث الى جدة حيث عقد مع الملك عشرة اجتماعات خلال
اسبوع (٨-١٤ كانون الثاني ١٩١٨) . وقد دار البحث في بعض تلك
الاجتماعات حول اعادة الوثام بين الحسين وابن السعود . اما فيما يتعلق بموضوع
القضية العربية ، فإن هوجارث قرأ القسم الاول من رسالة وزارة الخارجية وهو

بعنوان (الامة العربية والحاجة الى الوحدة)، فقال الملك ان التأكيد بأن بريطانيا وحلفاءها « سيتبعون سياسة ترمي الى تحقيق هذه الوحدة»، انما يعبر عن أساس اتفاقنا كلية .

وفي اجتماع آخر تلا هوجارث القسم الثاني من الرسالة (استيطان اليهود في فلسطين)، ومهد لذلك بالحديث عن نمو الصهيونية خلال الحرب والقيمة الكبيرة لمصالح اليهود وتحالفهم .

وقال هوجارث ان الملك بدا مستعداً لقبول صيغة التأكيد وانه يرحب باليهود في جميع أراضي العرب . وانه - هوجارث - أوضح للملك « ان الحكومة البريطانية عقدت العزم على حماية السكان الموجودين في البلاد». ولكن هوجارث أكد في تقريره « ان الملك لا يقبل قيام دولة يهودية مستقلة في فلسطين، ولم تصدر لي تعليمات بأن أذكر له ان هذا ما تفكر به وتنويه بريطانيا العظمى ... وأما موافقته السريعة على اقامة اليهود في فلسطين، فلا تعني شيئاً ولا قيمة لها، ولكنني أظن انه يقدر الفائدة المالية لتعاون العرب مع اليهود» .

اما فيما يتعلق بـ (الاشراف الدولي عن الاماكن المقدسة في فلسطين)، فقد قال هوجارث في تقريره ان الملك «لم يدع لي شكاً في أنه يعتبر هذه المسألة أمراً يعاد النظر فيه بعد عقد الصلح، على الرغم من تأكيدي له بأنها ترتيب نهائي»⁽⁵⁾.

من الواضح ان الملك حسين لم تكن لديه آنذاك فكرة عميقة عن مطامح الصهايين في فلسطين وامكاناتهم، ومدى جدية الحكومة البريطانية تجاه الموضوع كله. فمن المرجح انه كان يتصور أن بضعة آلاف من اليهود يرغبون في الاقامة في فلسطين. ثم ان الفكرة السائدة عن اليهود في بلاد العرب كلها حينذاك، كانت تقوم على انهم قوم مسالمون ينحصر اهتمامهم في التجارة وبعض الصناعات، لا يمكن ان يكونوا مصدر خطر على العرب، فلا الملك حسين ولا أي عربي آخر، كان يتصور في ذلك الحين ان الفكرة الصهيونية سوف تتطور

على ايدي يهود اوروبا الى قوة كبيرة فعالة . ثم ان التأكيدات التي نقلها هوجارث تضمنت القول بأن هجرة اليهود الى فلسطين يجب ان تسير « بقدر ما يتفق ذلك مع حرية الاهالي الموجودين من الوجهتين الاقتصادية والسياسية » . فاذا أضفنا الى ذلك ان تصريح بلفور ضمن « الحقوق المدنية والدينية » للعرب - أدركنا ان الملك اقتنع بكفاية الضمانات التي تقدمها بريطانيا، وبأن المطلوب من العرب الموافقة على هجرة عدد محدود من اليهود الى فلسطين . ولم يكن ذلك أمراً غريباً على العرب ، اذ كانت هناك جاليات يهودية في معظم اقطار العالم العربي من اليمن شرقاً الى المغرب الاقصى غرباً . وكانت تلك الجاليات تشارك في شؤون الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية مثلها مثل غيرها من جماعات المواطنين ، ولم يكن العرب يعتبرون اليهود غرباء عنهم بل مواطنين من اهل البلاد « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » . ومن هذا المفهوم نرى جريدة (القبلة) الناطقة باسم الملك حسين تنشر مقالة تدعو الى التسامح مع اليهود والعمل على الإفادة من تقدمهم العلمي^(٦) .

هنا لا بدّ ان نعرض لمراسلات الحسين - مكماهون الشهيرة ، التي دار حولها جدل كبير ، خصوصاً فيما يتعلق بالسؤال التالي : هل كانت فلسطين من جملة الاقطار التي تعهدت بريطانيا بأن تعترف باستقلال العرب فيها؟ ان وجهة النظر العربية تقوم على ان العهود البريطانية شملت فلسطين ، وان قول الانكليز باستثناء فلسطين من تلك العهود جاء متأخراً من أجل ان يقطعوا فلسطين لانفسهم وينفذوا فيها سياسة الوطن القومي اليهودي . وفي هذا الصدد يقول الكاتب البريطاني جون مارلو « ... ان زيارة هوجارث تنطوي على بعض الأهمية ، لانها تعترف ضمناً ان البريطانيين كانوا يعتبرون فلسطين جزءاً من منطقة الاستقلال العربي التي أشارت اليها مراسلات مكماهون . واذا لم يكن الامر كذلك ، فلماذا كان ضرورياً تهدئة مخاوف حسين حول تصريح بلفور؟ ان زيارة هوجارث هذه تجعل الموقف الرسمي البريطاني الذي ظهر فيما بعد ، يبدو أشبه بالعبث ، ذلك الموقف القائل بأن مراسلات مكماهون هدفت الى اغفال فلسطين من منطقة الاستقلال العربي على أساس انها تقع الى الغرب من خط حماة - حمص - دمشق »^(٧) .

ومهما يكن من أمر، فقد كان من تأثير وفادة هوجارث ان الملك حسين بعث رسالة الى نجله فيصل تؤكد اظهار النيات الحسنة تجاه اليهود وانباء المذاهب الاخرى «الذين هم غرباء في بلاد العرب». ويعود السبب الى ان فيصل كان يومذاك في العقبة ونواحيها غير بعيد عن فلسطين.

ولم يلبث فيصل ان كتب الى ابيه رسالة يقول فيها ان «اللنبي» وجه اليه دعوة لزيارته في القدس «لاجل المذاكرة فيما يختص بالحركات المقبلة، وكذلك بما يختص بفلسطين واليهود والمسلمين». وقد اعتذر فيصل لناقل الدعوة (لورنس) قائلاً انه لا يستطيع ان يلبي الدعوة الا بموافقة ابيه. وكان مما قاله لورنس لفيلصل آنذاك «ان اليهود اليوم لهم تأثير كبير على الحرب خصوصاً من جهة النقود والجميع محتاجين (كذا) لهم، وربما انتم (اي نحن العرب) تأخذون منهم خمسة عشر أو عشرين مليون جنيهه اما في اثناء الحرب او بعد الحرب لتشكيل الحكومة وتنظيم امورها»^(٨).

وفي ربيع ١٩١٨ جاء حاييم وايزمن، رئيس اللجنة الصهيونية، الى مصر وفلسطين، واجتمع بعدد من الزعماء العرب. وجاء في أحد التقارير الرسمية ان مفتي القدس كامل الحسيني قال في رده على خطاب وايزمن انه يتطلع الى تعاون ولائي مع الصهيونيين لتطوير فلسطين في المستقبل^(٩).

بعد ذلك ذهب وايزمن الى مقر قيادة فيصل في (وهيدة) حيث اجتمع به يوم ٤ حزيران ١٩١٨ وكان جواب فيصل على أقوال وايزمن: أنه لا يستطيع ان يخوض في القضايا السياسية، أو أن يبحث في مستقبل فلسطين، لأن ذلك كله في يد أبيه.

وانتهت الحرب وذهب فيصل الى لندن وباريس منتدبا من قبل أبيه لكي يمثل العرب في مباحثات مؤتمر السلام. وقد تعرض فيصل في لندن لضغط شديد من الانكليز من أجل أن يتفاهم مع الصهيونيين بحجة ان الصهيونيين وحدهم يستطيعون اقناع الحكومة الاميركية بمساندة العرب ومساعدتهم على تحقيق الاستقلال لسوريا وكبح المطامع الفرنسية. ومن هنا نراه يكتب لابيه انه رأى من

الحكمة ان يتخذ «صوتا رنانا يسمع صوتنا في العالم، وهذا الصوت هو صوت اليهود». وجاء في رسالته تلك ان نفوذ اليهود عظيم في امريكا وان اثنين من مستشاري الرئيس ولسون الخمسة من اليهود، وان وايزمن أكد له «ان اليهود ليس لهم قصد في الحكم في فلسطين، وجل مقاصدهم ان يكون لهم ملجأ يلجأون اليه، وليس لهم أدنى طمع في تأسيس حكم ما... وهم يطلبون من العرب ان يمدوا اليهم يد المعونة كصديق مخلص ليس له سلاح يقاتل به او يستملك بقوته وانما هو معين للعرب وللوطن بالمال والذكاء والتأثير السياسي الخارجي...». وكان من جملة تأكيدات وايزمن ان اليهود سيعاونون العرب على تمزيق اتفاقية سايكس - بيكو، تلك الاتفاقية التي كانت أشد ما يقلق بال العرب في ذلك الحين^(١٠).

أود هنا ان أكرر القول بأن العرب في ذلك الحين لم يكونوا يعتقدون ان اليهود يمكن ان يكونوا مصدر خطر عليهم. واننا نجد مصداقا على هذا القول في رسالة كتبها لورنس، بعد ذلك بأشهر، في نطاق التعليق على محادثات وايزمن مع فيصل التي اشرت اليها اعلاه. فقد قال في رسالته ان الصهيونيين سوف يمولون العرب «مقابل بعض الامتيازات»، وان الحكومة العربية ليست خائفة منهم «انها تستطيع عندما تشاء ان تقطع رقابهم جميعا أو أن تحلج جميع اسنانهم وهذا هو الافضل. انهم سوف يمولون الشرق كله...»^(١١)

وقد أوضح فيصل وجهة نظره وتصوره لصيغة التفاهم مع اليهود - في عدة مناسبات. اسوق مثالا على ذلك مما ورد في رسالة منه الى الحكومة البريطانية بتاريخ ١٣ ايار ١٩٢٠، اذا أعلن ان كل ما أوافق عليه بالنسبة لفلسطين «ان أحمي حقوق اليهود المقيمين في تلك البلاد بمستوى المحافظة على حقوق السكان العرب الوطنيين، وأن أمنحهم الحقوق والامتيازات ذاتها»^(١٢).

ان هذه البنات، وان كانت تتعلق بموقف فيصل من تشبثات اليهود في فلسطين، الا انها في الوقت ذاته تعكس الى حد كبير تصورات الملك حسين. ومن الواضح ان ذلك الموقف وتلك التصورات كانت جميعها تنبع من الاعتقاد بأن

اليهود لا يؤلفون خطراً ولا يستطيعون ان يؤلفوا اي خطر، وان السياسة تقضي على العرب في تلك المرحلة ان يعملوا على كسب الجولة في الصراع الذي كان على أشده بينهم وبين فرنسا حول سوريا: أبقى لها استقلالها أم ستقع في قبضة الاستعمار الفرنسي؟^(١٣)

عملت الزعامة العربية في بادئ الامر على التعاون مع بريطانيا وامريكا من اجل تثبيت استقلال سوريا. ولا ننسى ان العرب تلقوا عدة تأكيدات من بريطانيا في اثناء السنة الاخيرة من سني الحرب، بالاضافة الى مبدأ تقرير المصير الذي طلع به الرئيس وودرو ولسون، مما جعلهم يقفون موقف التأيي والانتظار. ولكن لم يلبث ان ظهر جليا ان امريكا ودول العالم الاخرى ذات التأثير تركت مصير المنطقة العربية (في آسيا) بين يدي دولتي بريطانيا وفرنسا. ولما كانت فرنسا قد أظهرت في تلك الفترة عداها الصريح للاماني القومية العربية، فلم يبق امام العرب الا التثبث ببريطانيا وتذكيرها بعهودها ومصالحها وبالنضال المشترك الذي خاضوه معها جنبا الى جنب طوال ثلاث سنوات (١٩١٦-١٩١٨).

على ان المواقف لم تلبث ان أخذت تتضح وتبلور تدريجيا ومع مضي الايام. وكان اول تلك المواقف سكوت بريطانيا عن الهجوم الفرنسي على سوريا والسماح بسحق الدولة العربية السورية في تموز ١٩٢٠. وكان ثاني تلك المواقف توقيع بريطانيا على معاهدة (سيفر) مع تركيا يوم ١٠ آب ١٩٢٠، تلك المعاهدة التي أعطت دول الحلفاء الكبرى الحق في التصرف بالمناطق العربية المنسلخة عن الامبراطورية العثمانية، والتي نصت على ان الدولة المنتدبة على فلسطين ستكون مسؤولة عن تنفيذ الوعد بانشاء وطن قومي لليهود.

طلبت بريطانيا من الملك حسين ان يصادق على معاهدة (سيفر)، ولكن الملك أجاب بأن التصديق المطلوب يحمل من الضرر اكثر مما يحمل من النفع، وطلب من الحكومة البريطانية ان تعيد النظر في موقفها على اعتبار ان فلسطين داخله في منطقة الاستقلال العربي.

ثم حاولت الحكومة البريطانية اغراء الملك بالتوقيع على معاهدة فرساي (معاهدة الصلح مع المانيا). فعرضت عليه مبالغ من المال كان في أشد الحاجة اليها، ولكنه رفض ذلك، واعلن للمعتمد البريطاني في جدة ان بريطانيا خدعته وخائنه وغدرت به^(١٤).

لا شك عندي في ان هذا الموقف المتشدد من قبل الملك حسين كان وراء اتجاه الحكومة البريطانية اتجاها ينطوي على شيء من الايجابية، حينما وجهت الدعوة الى فيصل بن الحسين لزيارة لندن. والواقع ان فيصل كان يرى انتهاج خط المرونة، فكتب الى ابيه يحض على المصادقة على معاهدة فرساي، حتى يتاح المجال لدخول الحجاز عضوا في عصبة الامم (مع وضع قيد احترازي على المادة ٢٢ من ميثاق العصبة، وهي المادة التي تنص على الانتداب ومن ضمنه تصريح بلفور). ولكن من الواضح ان الملك لم يقتنع بهذا الرأي، وآثر ان ينتظر حتى تتقدم بريطانيا بعروض ملموسة.

طالت اقامة فيصل في لندن اكثر من اربعة اشهر (تشرين الثاني ١٩٢٠ - آذار ١٩٢١). وفي اثناء هذه الفترة أجرى مباحثات متقطعة مع الحكومة البريطانية، تبلورت في نهاية الامر في اعتراف بريطانيا باستقلال العراق وشرقي الاردن تحت الانتداب البريطاني. وكان فيصل في تلك المباحثات خاضعا لتعليمات ابيه، الذي اشترط القيام بها «على اساس ان لا يؤثر ذلك على حدود البلاد والاستقلال التام الذي لا تشوبه شائبه».

وقد حدث قبل دعوة فيصل لزيارة لندن، ان الامير عبد الله بن الحسين تقدم على رأس قوة عسكرية من الحجاز الى شرقي الاردن، فأقام في بلدة معان اكثر من ثلاثة أشهر، ثم تقدم الى عمان في اوائل آذار ١٩٢١. وقد رافق قدوم الامير قيام حركة وطنية في شرقي الأردن وامل كبير بانتفاضة عارمة ضد الفرنسيين في سوريا. وفي هذه الاثناء بذل فيصل جهدا كبيرا مع ابيه واخيه من اجل عدم الايغال في العداء، لاعتقاده ان العرب جربوا قوتهم العسكرية في ميسلون، وانه لم يبق لهم في تلك الفترة بالذات الا التوسل بالاساليب السياسية لتحقيق ما يمكن تحقيقه من

مطالبهم . والواقع انه بعد سحق الفرنسيين للمقاومة العربية في حوران - بعد معركة ميسلون - فان سوريا لم تكن مستعدة للقيام بحركة مقاومة فعالة . ولم يلبث الوزير البريطاني ونستون تشرشل ان دعا الامير عبد الله للاجتماع به في القدس حيث عقدا اربعة اجتماعات ، تمّ الاتفاق فيها على انشاء امارة عربية في شرقي الاردن . وكان من شروط الامير عبد الله ان يصادق الملك حسين على ذلك الاتفاق . ومع ان الامير بذل كل جهد ممكن في تلك المحادثات لانشاء حكم عربي في فلسطين ، الا ان تشرشل اصرّ على ان سياسة حكومته تقضي عليه بعدم الخوض في هذا الموضوع^(١٥) .

وعلى الرغم من استمرار المحادثات مع فيصل في لندن ، فان الانكليز واصلوا ضغطهم على الملك حسين ومحاولاتهم لاقتناعه بالموافقة على مبدأ الانتداب عن طريق التوقيع على معاهدة فرساي والدخول في عصبة الامم . وقد ردّ الملك على المعتمد البريطاني ذات يوم بشيء من المرارة « انه يجب ان لا يتوقع أحد منه ان يضع اسمه على وثيقة تخصّص فلسطين للصهيونيين وتعطي سوريا للاجانب »^(١٦) .

كان قطع الاعانة المالية اول وسيلة من وسائل الضغط التي مارستها بريطانيا على الملك حسين . لقد اوضح المسؤولون البريطانيون للملك اكثر من مرة ان قطع الاعانة يعود بالدرجة الاولى الى عدم تصديقه على معاهدة فرساي . ولكن الملك ظل ثابتا على موقفه لاعتقاده ان مصادقته على تلك المعاهدة تعني اعفاء بريطانيا من عهودها ووعودها ، ونكته هو بالوعد التي وعد قوم بها عند اعلان الثورة .

ولم يلبث فيصل ان عاد الى الحجاز لكي يعرض على ابيه بنود الاتفاق الذي تمّ التوصل اليه في لندن . ووافق الحسين ان يساير الانكليز فيما يتعلق بالعراق وشرقي الاردن . اما فيما يتعلق بسوريا وفلسطين فقد وافق ان ينتظر بعض الوقت حتى يرى ماسوف يحدث . وفي ذلك الصدد قال للمعتمد البريطاني « ... انني لم اقم بالثورة من اجل الثراء والممتلكات او السلطان ، وليس من اجل ان يصبح ابنائي

ملوكا - ولكنني قمت بالثورة من اجل مصلحة العرب واستقلال العرب ... من الضروري جداً أن تقوم بريطانيا بتنفيذ الاتفاقات ...»^(١٧)

على ان الحكومة البريطانية لم تكن تجدد - كما يبدو - مندوحة من تأمين موافقة الحسين على انتدابها، حتى يتوقف العرب عن اتهامها بالغدر ونكث العهود. ومن هنا اتجه تفكير ساستها نحو عقد معاهدة صداقة مع الملك لتحقيق تلك الغاية. ولما كان لورنس قد قام بدور بارز في المباحثات التي جرت في لندن والقاهرة والقدس، فقد وقع الاختيار عليه - باعتبار انه صديق العرب والحائز على ثقتهم - لكي يحمل مسودة المعاهدة ويعمل على اقناع الملك حسين بالتوقيع عليها. وهكذا وصل لورنس الى جدة في اواخر شهر تموز ١٩٢١، وبدأ مفاوضات فيها.

استمرت المفاوضات بين الملك حسين ولورنس نحو شهرين، وقد استعمل فيها لورنس مختلف الاساليب لاقناع الملك بالموافقة على نص المعاهدة، فكان مرة يتخذ اسلوب اللين والتأميل، ومرة اخرى يتخذ اسلوب التهديد واثارة المخاوف، ولم يتورع - عندما لمس صلابة الملك - عن البحث في امكان تنازل الملك عن العرش لكي يحل احد انجاله محله. لقد اعترضت المفاوضات عدة عقبات، عمل الطرفان على تذليل بعضها، ولكن كانت هناك مبادئ تمسك كل فريق بها. فبينما أصرّ لورنس على ضرورة الاعتراف بالانتداب، وضع الملك احترازا يقول «بشرط ان يحترم استقلال العرب». لقد اثبت الملك خلال المفاوضات انه رجل شديد المراس قوي الشكيمة. وفي النهاية اعلن انه لا يمكن ان يوقع المعاهدة إلا بعد ان توافق بريطانيا على المقررات الاساسية للنهضة العربية. وكان من جملة اشتراطات الملك انه على بريطانيا ان تؤيد مبدأ الوحدة العربية والاستقلال، على ان يشمل ذلك فلسطين، بل اشترط - فيما يتعلق بفلسطين - ان ينسحب الانكليز منها وان تترك لاهلها حرية اختيار مصيرهم. وتقول المصادر العربية ان المحيطين بالملك ألحوا عليه ان يقبل مشروع المعاهدة: «ولما ضايقوه بالحاحهم صعد الى سطح المنزل الذي كان يقيم فيه واتجه نحو الكعبة وأقسم برهبها انه لا يوقع معاهدة لا تحقق ما وعد به من وعود ...»^(١٨)

اما فليبي فيقول « لم تكن للرشاوى او التهديدات اية قوة للتأثير في الرجل الشيخ، الذي كان استياؤه قد بلغ جدة الأقصى من طريقة معالجتنا للمشكلة كلها. وأخيرا نفض لورنس يديه من الموضوع وغادر جدة بعد ان اوصى بقطع الاعانة المالية عن الحجاز، وبأن يترك حسين وشأنه لكي تطحنه المشاكل والعقبات»^(١٩)

وبعد سفر لورنس جرت محاولات لاعادة النظر في مشروع المعاهدة، ولكن وزارة الخارجية البريطانية أصرت على انه لا مجال لادخال اية تعديلات جديدة، فإما ان يقبل الملك حسين المعاهدة بكاملها او يترك البحث في الموضوع كليا.

ويتضح السبب الذي حدا بالملك الى رفض توقيع المعاهدة من مقالة نشرتها جريدة (القبلة) بعد بضعة اشهر، فقد أعلنت الجريدة - وهي الناطقة بلسان الملك حسين - ان الملك رفض التوقيع على معاهدة فرساي لانها « تمنح فلسطين لليهود وتجعل بالنتيجة الشرق الاوسط كله مستعمرة يهودية»^(٢٠).

بقي موضوع المعاهدة معلقا حتى صيف ١٩٢٢ عندما قام الملك حسين بتعيين الدكتور ناجي الأصيل معتمدا له في العاصمة البريطانية، وسلمه نسخة من مشروع المعاهدة بعد ان أسقط منها المادة التي تنص على اعترافه بالمركز الخاص لبريطانيا في فلسطين والعراق ومادتين اخريين، وكلفه ببحثها مع الحكومة البريطانية. وفي الوقت نفسه سلم الملك للأصيل رسالة طويلة موجهة الى لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني. ومما جاء في تلك الرسالة قوله:

« اما المادة الخامسة عشرة التي تبحث عن فلسطين والعراق، ومادة المحاجر في المعاهدة، المطلوب الآن امضاؤها، بعد لغو واسقاط موادنا الاساسية من الاعتبار، بعدما قضي في فلسطين والعراق الأمر، وتقرر ما تقرر فيهما وتسطّر، سيكون تحريرها بتلك المضامين أعظم شاهد من ذاتي على ذاتي، ويثبت ويؤكد كل ما يقوله العالم من سقوطي من كل شرف ومزية وطمس صحيفة تاريخي...»^(٢١).

وبعد بضعة ايام بعث الملك رسالة الى المعتمد البريطاني في جدة طالب فيها ان تعيد الحكومة البريطانية النظر في عهدها للعرب على ضوء ما يجري في سوريا وفلسطين. وتساءل الملك عن مضمون تصريح ٨ شباط ١٩١٨ بالمقارنة مع «المواد التي تقررت في فلسطين ونشرتها الصحف، مما يفهم منه جعلهم ارقاء مستعبدين للصهيونية...»^(٢٢).

من هذا يتضح لنا ان مسألة الانتداب على فلسطين ودخول تصريح بلفور كجزء لا يتجزأ في مواد صك الانتداب - أصبحت هي العقدة الرئيسية في الخلاف بين الملك حسين وبريطانيا. لقد كان الملك يصر على تنفيذ العهود التي قطعتها بريطانيا للعرب، وخلصتها ان تساعد على انشاء دولة عربية كبيرة متحدة ومستقلة، وتضم - فيما تضم - فلسطين. ووافق الملك ان يسكت مؤقتاً عن المطالبة بسوريا ولبنان، لان بريطانيا لم تكن تسيطر عليهما. اما فيما يتعلق بفلسطين فقد اخذ بالتدرج يدرك ابعاد الخطر الصهيوني، وكان في ذلك اكثر وعياً من الزعماء العرب الآخرين. وكلما ازداد اقتناع الملك بخطار المشاريع الصهيونية، ازداد تشدده وثباته على موقفه.

ولا ننسى ان الفلسطينيين انفسهم قاموا باتصالات متعددة مع الملك حسين من اجل ابعاد تصريح بلفور وخطره على مستقبل بلادهم. ففي صيف ١٩٢٢ (وكان ذلك في موسم الحج)، وصل الى الحجاز وفد فلسطيني واجتمع اعضاؤه بالملك. وأدت اتصالات الوفد الى قيام مظاهرات في مكة وجدة ضد سياسة تصريح بلفور. وخطب الملك في المتظاهرين، ثم ارسل مذكرة الى الحكومة البريطانية يحذرها من مغبة سياستها «المؤدية لتوطين الصهيونية وما فيها من انتهاك حرمة ثالث المساجد الاسلامية المقدسة...». ورد الملك على برقية جاءته من احدى الجمعيات الصهيونية قائلاً «لقد قمنا بالثورة مع ابناء شعبنا العربي للدفاع عن وحدتنا وحررتنا في جميع الاقطار الداخلة ضمن الحدود المعلومة، وعلى الاخص فلسطين...»^(٢٣). وفي تلك الاثناء ارسل المؤتمر الفلسطيني الخامس برقية الى الملك يشكره على ما «أبداه ويديه من العناية أولاً وآخراً بالقضية العربية عامة والفلسطينية خاصة...»^(٢٤).

أما الاصيل فقد عرض النص المعدل لمشروع المعاهدة على وزارة الخارجية التي عرضته بدورها على وزارة المستعمرات. وكان الجواب ان الحكومة البريطانية لا توافق على التعديلات التي يقترحها الملك حسين.

ثم تلت ذلك محاولة اخرى قام بها الامير عبد الله، عند زيارته العاصمة البريطانية في خريف ١٩٢٢. فقد جدّد الامير مسعاه لتوحيد فلسطين مع شرقي الأردن لاعتقاده ان تلك الوحدة تستطيع ان تواجه سياسة الوطن القومي اليهودي مواجهة ناجعة وإيجابية. وبعد عودة الامير الى الحجاز (وهو في طريقه الى الاردن) بعث الملك حسين الى الحكومة البريطانية مذكرة يقول فيها انه علم من نجله انه اذا وقّع المعاهدة «ينحل كل اشكال»، ولكنه لا يستطيع ان يفعل ذلك حتى لا يطمس صحيفة تاريخه ويفقد ثقة قومه.

ودارت في تلك الاثناء مراسلات بين وزارتي الخارجية والمستعمرات البريطانيّتين، يتضح منها جليا ان الحكومة البريطانية كانت تسعى الى تصفية عهود مكماهون عن طريق الحصول على اعتراف من الملك حسين بالانتداب على فلسطين والعراق^(٢٥).

على ان ناجي الاصيل ظل مثابرا على مواصلة مساعيه، حتى توصل الى نص للمادة موضوع الخلاف، فقام هو واللورد كرزون وزير الخارجية البريطانية بالتوقيع بالحروف الاولى من اسميهما، على النص المعدل لمشروع المعاهدة، كما اتفقا عليه^(٢٦).

وعاد الاصيل الى الحجاز يحمل النص الجديد. ودرس الملك حسين ذلك النص وأدخل عليه ثلاثة تعديلات يقضي اولها بادخال فلسطين في الاتحاد العربي. اما التعديلان الاخران فيتعلقان بابن السعود والادريسي (امير عسير). وفيما بعد وافقت الحكومة البريطانية على قبول التعديلين الثاني والثالث، اما التعديل الاول فلم توافق عليه.

وأخذت الصحف في مصر وفلسطين تخوض في الموضوع، وشرع بعضها

بجذر من التورط في توقيع معاهدة لا تنص على الاستقلال . ولم تلبث جريدة (القبلة) ان نشرت مقالة رد فيها الملك على تخريصات الصحف ، وأعلن انه يسير على خطة «واحدة لا تتغير ولا تتبدل ، ولو زلزلت الارض زلزالها وأخرجت أثقالها ، وهي تدور حول محور واحد معروف ، الا وهو وحدة العرب واستقلالهم في بلادهم المعروفة الحدود»^(٢٧). كانت مسألة فلسطين «تملاً نفس الملك بالقلق» ، على حد قول المعتمد البريطاني . وزاد الوضع سوءا ان حكومة فلسطين اصدرت بيانا رسميا قالت فيه انه لم يحدث اي تغيير في مركز فلسطين السياسي . كما ان وكيل وزارة الخارجية البريطانية صرح في مجلس العموم بأن المعاهدة المقترحة مع الملك حسين «لن تنطوي على اي تعديل للالتزامات التي ارتبطت بها الحكومة البريطانية بموجب صك الانتداب على فلسطين»^(٢٨).

وأراد الملك حسين ان يقطع الطريق امام المتقولين ، فألقى بيانا على كبار الحجاج في عيد الاضحى لعام ١٣٤١ للهجرة (٢٤ تموز ١٩٢٣) ، قال فيه انه عدل المعاهدة التي عرضتها بريطانيا عليه «تعديلاً هاماً نصت فيه على استقلال فلسطين استقلالاً تاماً مطلقاً ، يخول الفلسطينيين ادارة بلادهم بأنفسهم واختيارهم طريقة الحكم التي يريدونها ، وبذلك جعلت وعد بلفور في حكم انه لم يصدر وقضي عليه بالموت ... اؤكد لكم انه اذا لم تقبل الحكومة البريطانية التعديلات التي طلبتها فلا يمكن ان اوقع على المعاهدة بل ارفضها رفضاً باتاً ... وكونوا على ثقة انني انظر الى اهل فلسطين نظري الى اولادي ، ولا افرق بين مسلم ومسيحي ويهودي وطني ومن يرجع من الصهيونيين عن اطماعه البلفورية ...»^(٢٩)

على ان وزارة خارجية بريطانيا لم تلبث ان قطعت الشك باليقين عندما أبلغت الملك حسين بصراحة انها تريد منه الاعتراف بالانتداب وما يتضمن الانتداب من التزامات بانشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وان نص المعاهدة الذي عرض عليه يهدف الى «تأمين اعترافه بالمركز الخاص للحكومة البريطانية في فلسطين ، بكل ما يحمل هذا القول من دلالات» . وانها لا تريد التوقيع على معاهدة يمكن تفسير نصوصها على وجهين^(٣٠) . وهذه الرسالة تحمل البرهان

القاطع على ان اخفاق المفاوضات في عقد المعاهدة يعود الى رفض الحسين الموافقة على تصريح بلفور.

كان واضحا من رسالة وزارة الخارجية ان مسيرة المفاوضات وصلت الى مفترق الطرق: فاما ان يقبل الحسين بسياسة الوطن القومي اليهودي ويوقع المعاهدة على هذا الاساس، او يستمر على موقف الرفض. ولكن اليأس لم يتطرق الى نفس ناجي الاصيل، فاقترح نصا جديدا للمادة المختلف عليها في مشروع المعاهدة، وهو نص تأسيس حكومة وطنية نيابية في فلسطين. وكان مصير هذا النص المعدل الرفض من قبل وزارة المستعمرات، كما ان وزارة الخارجية البريطانية كررت القول بأن «الحكومة البريطانية ليست على استعداد للدخول في اية مفاوضات لاعادة صياغة المادة الثانية أو أي جزء من المعاهدة، الا اذا كان ذلك يحافظ بصراحة على التزامات بريطانيا في فلسطين وغيرها...»^(٣١).

وفي تلك الاثناء اجتمع المعتمد البريطاني (ريدر بولارد) بالملك حسين. وتوجه بولارد الى الملك يسأله عما اذا كان يستطيع ان يفعل شيئا لتنظيم العلاقات بين الطرفين «ولكن لم يكن لدى الملك ما يقترحه سوى الطلب الي ان اعمل على الغاء تصريح بلفور»^(٣٢).

وعلى الرغم من اصرار الحكومة البريطانية على النص بصراحة على تصريح بلفور، فان ناجي الاصيل تقدم بنص معدل آخر للمادة الثانية. وطلبت وزارة خارجية بريطانيا من الاصيل ان يستوثق اولا من موافقة الملك حسين على ذلك النص المعدل، فبعث الاصيل به الى الملك. وكان رد الفعل عند الملك انه اهمله ولم يرسل جوابا يتعلق به. هذا مع العلم ان وزارة المستعمرات رفضت بدورها قبوله.

وهكذا بقي موضوع المعاهدة معلقاً. وتحطمت جميع المحاولات التي بذها الملك حسين ومندوبه ناجي الاصيل، على صخرة اصرار بريطانيا على الالتزام بسياسة الوطن القومي لليهود في فلسطين.

وفي هذا الصدد يقول الكاتب البريطاني جفريز عن موقف الملك حسين

«ولكن ذلك الشيخ الشجاع، لم يستسلم مطلقاً لأي اغراء من الاغراءات التي قدّمت اليه همسا، على ان تكون فلسطين هي الثمن... ان نيات حسين الطيبة تجاه بريطانيا كان يقابلها مبدأ لا يتزعزع اتخذه لنفسه فيما يتعلق باستقلال العرب... كان يعرف أنه يمكن أن يفقد كل شيء نتيجة ثباته على ذلك المبدأ، لأن الوهابيين كانوا يزحفون على مملكته. ولم يبق أمامه سوى وسيلة واحدة للمحافظة على بلاده، ألا وهي مقايضة قبول الوضع القائم في سوريا (الطبيعية) مقابل ضمان البريطانيين لحدوده. ولكنه ثبت في موقفه على اساس ما قاله في شهر شباط: ان شرفي في خطر...»^(٣٣).

وكان الملك حسين قد وعد أن يزور الأردن لكي يتداول مع الفلسطينيين فيما يجب عمله. وبالفعل وصل الى عمان في كانون الثاني ١٩٢٤ وتباحث مع وفد فلسطيني في مشروع المعاهدة. وبعد ان ابلاغه اعضاء الوفد المؤتمر الفلسطيني السادس رفض ذلك المشروع، قال لهم انه لا يعاهد عهدا ولا يبرم أمراً بشأن فلسطين ومصيرها قبل أخذ رأى الفلسطينيين ونيل موافقتهم. ثم اعلن في الوفود التي جاءت لاستقباله موقفه الصريح الواضح من تصريح بلفور:

«لا اتنازل عن حق واحد من حقوق البلاد. لا اقبل الا ان تكون فلسطين لأهلها العرب. لا اقبل بالتجزئة، ولا اقبل بالانتداب، ولا اسكت وفي عروقي دم عربي عن مطالبة الحكومة البريطانية بالوفاء بالعهود التي قطعها للعرب. اذا رفضت الحكومة البريطانية التعديل الذي اطلبه فإني ارفض المعاهدة كلها...»^(٣٤).

وقد جرى البحث مجددا في موضوع المعاهدة مع الملك، اثناء اقامته في الاردن. وكان من رأى هربرت صموئيل، المندوب السامي على فلسطين، اسقاط المادة الثانية المتعلقة بالانتداب. ولكن وزارة المستعمرات لم توافق على الاقتراح، على اعتبار ان ذلك «سوف يعتبر بالتأكيد هزيمة واضحة لسياسة تصريح بلفور، وسوف يشجع بصورة مباشرة عرب فلسطين على تجديد هياجهم، الذي يسعدنا ان نراه الآن ساكناً...»^(٣٥).

ولكن الملك حسين لم يغلق في تشدده جميع الأبواب امام الحلول المعقولة ، فقد قال لوفد صهيوني زاره آنذاك انه يرحب باليهود اذا شاءوا ان يكونوا مواطنين عاديين في فلسطين ، مثل اليهود في الاقطار العربية الاخرى . اما مشاريع الصهيونية بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، فأمر لا يمكن ان يوافق عليه ويقبل به .

ورداً على اقتراح هيرت سموئيل باسقاط المادة المتعلقة بالانتداب ، أكد رامزي مكدونلد ، رئيس وزراء بريطانيا آنذاك ، ان الخطوة التالية في قضية المفاوضات تكمن في يد الملك حسين ، وذلك بأن يعترف بسياسة الوطن القومي لليهود في فلسطين^(٣٦) .

وجاء في مذكرة كتبها احد الاختصاصيين في وزارة خارجية بريطانيا : ان وزارة المستعمرات وجهت كل اهتمامها للحصول على اعتراف من الملك حسين بالمركز الخاص لبريطانيا في العراق وشرقي الاردن وفلسطين . «والحقيقة ان استمرار المفاوضات ومتابعتها كان ناشئا عن شدة رغبة وزارة المستعمرات في تأمين قبول الملك حسين بتصريح بلفور ...»^(٣٧) . وهذه المذكرة تقدم البرهان على ان العائق الاكبر - بل الوحيد - الذي حال دون عقد المعاهدة ، هو رفض الملك حسين الاعتراف بتصريح بلفور ، وليس خصومته مع السعوديين ، كما يزعم الصهيونيون وانصارهم ودعاتهم .

ومهما يكن من أمر ، فإن الأصيل سافر من لندن الى الحجاز ، وهو يحمل النص المعدل لمشروع المعاهدة . ولكن الملك حسين لم يقبل به بل ادخل عليه تعديلات جديدة من عنده ، ووقع على النص المعدل وسلمه للاصيل مع رسالة الى رئيس وزراء بريطانيا يذكر فيها بالعهود ويقول انه على استعداد للتوقيع على اي شيء لا يمس بالشرف . وقد نصت المادة موضوع الخلاف كما عدلها الحسين للمرة الاخيرة على ان ملك بريطانيا يتعهد «بهذا ان يعترف باستقلال العرب في جميع الاقطار العربية في شبه الجزيرة والعراق وشرقي الاردن وفلسطين والمناطق العربية الاخرى ، باستثناء عدن ، وان يعاضد ذلك الاستقلال ...» . وبعد هذا تقول

المادة ان الملك حسين «يعترف بهذا حليفه بمركز خاص، في شأن قيامهما بالتزاماتهما المتقابلة في هذه الاقطار العربية»^(٣٨).

ولكن الاحداث الخطيرة التي وقعت في الحجاز آنذاك وسقوط بلدة الطائف في ايدي السعوديين يوم ٧ ايلول ١٩٢٤ - اوقفت الجدل حول المعاهدة. ولم يلبث الملك حسين حتى تنازل عن الملك لنجده الاكبر الامير علي، وغادر الحجاز الى العقبة في اواسط شهر تشرين الاول. وبعد تنازل الحسين عن الملك اذاعت الحكومة البريطانية بلاغاً رسمياً يقول:

«انه بالنظر الى تنازل الحسين عن الملك، فليس في وسع الحكومة البريطانية ان تواصل المفاوضات في شأن مشروع المعاهدة مع الحجاز كما عدله الحسين»^(٣٩).

وهكذا طويت تلك الصفحة من تاريخ العلاقات العربية - البريطانية، بصورة مأساوية، خاصة اذا أخذنا بعين الاعتبار الآمال الكبيرة التي داعبت نفوس القادة العرب الذين عملوا من اجل تحالف عربي - بريطاني طويل الامد يحمل في طياته الخير للأمتين. لقد قام العرب بدورهم على افضل وجه، ولكن حليفهم بريطانيا طعنهم في الظهر عندما تبنت سياسة الوطن القومي اليهودي، وهي طعنة لا تزال دماء العرب تنزّ من جرائها حتى اليوم. لقد برهن الزعيم العربي الذي تحمل مسؤولية قيام الثورة بالتحالف مع بريطانيا، على ولائه واخلاصه، ولكنه لم يسمح لذلك الولاء والاخلاص ان ينتقصا من حقوق قومه ووطنه.

يقول السير اليك كركبر ايد «ان الروح الاساسية لمشروع المعاهدة الذي أعدته الحكومة البريطانية، تقوم على المحافظة على الحجاز من اي اعتداء مقابل اعتراف الملك حسين بالمركز الخاص الذي لبريطانيا العظمى في العراق وفلسطين»^(٤٠). وليس من شك في ان الملك حسين لم يتردد في المفاضلة بين المحافظة على الملك والولاء لقضية قومه. كان هناك مجال للاختيار طبعاً، ولكن الحسين آثر ان يعطي مثالا على التضحية، وان يسجل صفحة ناصعة في

الوطنية، وان يقدم درسا تعيه الاجيال العربية المتعاقبة. وهكذا ضحى بالملك والسلطان، وخرج من بلاده ليقضي سنوات شيخوخته في المنفى بجزيرة قبرص، بعيدا عن الاهل والوطن. كل ذلك من اجل عروبة فلسطين، وفي سبيل الحفاظ على مبدأ القومية الاصيل. فاستحق بذلك ان يلقب بالشهيد الاول لفلسطين، وان يسجل ذكرى خالدة في صفحات التاريخ. حقا، حقا: لقد جاهد الجهاد الحسن، وخسر كل شيء الا الشرف.

مصادر البحث

- ١ - برقية رقم ١٠٣٢ في دار الوثائق البريطانية ، لندن رقم الملف F.O. 371/3054 (P.R.O.), London, Public Record Office
- ٢ - البرقية رقم ١٣٣٤ بتاريخ ١٢ كانون الأول ١٩١٧ ، الملف P.R.O., Fo 371/3054 وكان كلايتون يشغل آنذاك منصب مدير الاستخبارات السياسية والعسكرية في مصر ، ومن كبار المختصين بالشؤون العربية بين الانكليز .
- ٣ - البرقية رقم ١٤١٨ بتاريخ ٣١ كانون الأول ١٩١٧ ، الملف P.R.O, F.O. 371/3054
- ٤ - البرقية رقم ٢٤ بتاريخ ٤ كانون الثاني ١٩١٨ ، المصدر السابق .
- ٥ - تقرير هوجارث بتاريخ ١٥ كانون الثاني ١٩١٨ في الملف PRO, F.O. 882/7 وقد نشرت الحكومة البريطانية نص الرسالة التي كلّف هوجارث بتسليمها في تقرير اللجنة التي بحثت مراسلات الحسين - مكماهون والذي نشر بتاريخ ١٦ آذار ١٩٣٩ تحت رقم Command 5974
- ٦ - العدد ١٨٣ بتاريخ ٢٣ آذار ١٩١٨
- ٧ - Rebellion in Palestine, London, 1946 P. 43
- ٨ - ملحق رسالة غير مؤرخ من فيصل الى الملك حسين : أوراق الأمير زهد
- ٩ - رسالة من كلايتون الى وزارة خارجية بريطانيا بتاريخ ٧ ايار ١٩١٨ ، الملف : P.R .O., F.O. 371/3395
- ١٠ - سليمان موسى : المراسلات التاريخية ، الجزء الأول ، عمان ١٩٧٣ ص ٢٥٠-٢٢٥ ، والحركة العربية ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٤٣٥-٤٣٧
- ١١ - الرسالة بتاريخ ٢٨ ايلول ١٩١٩ ، وقد نشرت في كتاب P.Knightly & C. Simpson: The Secret Livesof Lawrence of Arabia, Nelson, London, 1969, pp. 119-120
- ١٢ - مجموعة الوثائق البريطانية ، المجلد ١٣ ، صفحة ٢٥٨
- Documents on British Foreign Policy 1919-1939, First Series, Vol. XIII, H.M.S. Office, London, 1963
- ١٣ - للتوسع في هذا الموضوع يمكن الرجوع الى كتابي (الحركة العربية) الصفحات ٤٢٧-٤٤٩ .
- ١٤ - تجد تفاصيل هذه الاتصالات في المجلد ١٣ من الوثائق البريطانية (مصدر سبق ذكره) الصفحات ٣٤٨-٣٤٩ ، ٣٥٢-٣٥٤ ، وفي الملف P.R.O, F.O 371/5243 والمرفق F.O. 686/26

- ١٥- محاضر الاجتماعات في تقرير ضخيم عن مؤتمر القاهرة والقدس من ١٢ الى ٣٠ آذار ١٩٢١
الصفحات ١٠٧-١١٤. راجع الملف P.R.O., AIR 8/37. وتجد ترجمة محاضر الاجتماعات في
كتابي (تأسيس الإردنية)، عمان، ١٩٧١، الصفحات ١٠٦-١١٢
- ١٦- تقرير المعتمد البريطاني في جدة بتاريخ ٢٠ شباط ١٩٢١، الملف P.R.O., F.O. 686/27
- ١٧- تقرير المعتمد البريطاني عن حديث الملك حسين بتاريخ ٢٧ نيسان ١٩٢١، الملف P.R.O.,
F.O. 686/27
- ١٨- امين سعيد: الثورة العربية الكبرى، المجلد الثالث، القاهرة، ١٩٣٤، صفحة ١٥٨
- ١٩- سان جون فليبي في كتابه Arabian Days (Robert Hale), London, 1948 p. 288
- ٢٠- جريدة (القبلة) العدد ٥٧٧ بتاريخ ٣ نيسان ١٩٢٢.
- ٢١- الرسالة بتاريخ ٢٥ ذي الحجة ١٣٤٠ هـ (١٩ آب ١٩٢٢): النص العربي في
الملف P.R.O., F.O. 686/74
- ٢٢- الرسالة بتاريخ ٣٠ ذي الحجة ١٣٤٠ هـ (٢٤ آب ١٩٢٢): الملف P.R.O., F.O. 686/74
- ٢٣- البرقية بتاريخ ٣ آب ١٩٢٢، الملف P.R.O., F.O. 686/110
- ٢٤- امين سعيد، الثورة العربية الكبرى، المجلد الثالث، صفحة ٥٥
- ٢٥- راجع، مثلاً، رسالة شخصية من وزير المستعمرات الى وزير الخارجية بتاريخ ٢ آذار ١٩٢٣
الملف P.R.O., F.O. 371/8937
- ٢٦- تجد نص مشروع المعاهدة وغيره من نصوص تلك المعاهدة، في ملاحق كتابي (صفحات
مطوية) مطبوعات وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٧.
- ٢٧- القبلة- العدد ٦٦٨، بتاريخ ٨ آذار ١٩٢٣.
- ٢٨- التقرير السياسي عن دار الاعتماد البريطاني في جدة، شهر تموز ١٩٢٣، الملف P.R.O., C.O.
733/48
- ٢٩- القبلة- بتاريخ ٢٩ تشرين الاول ١٩٢٣
- ٣٠- من وزارة الخارجية الى ناجي الاصيل، رسالة بتاريخ ٩ آب ١٩٢٣، الملف F.O. 686/75
- ٣١- رسالة وزارة الخارجية الى ناجي الاصيل بتاريخ ٢ تشرين الاول ١٩٢٣ / الملف F.O. 371/8939
- ٣٢- تقرير المعتمد عن فترة ٣٠ آب - ٢٧ ايلول ١٩٢٣: الملف F.O. 686/28
- ٣٣- عن كتاب J.N.N. Jeffries; Palestine: The Reality, Longmans, Green & Co. London, 1939،
صفحة ٥٧٧
- ٣٤- امين الريحاني: تاريخ نجد الحديث، بيروت، ١٩٢٨، صفحة ٢٩٣
- ٣٥- برقية من وزير المستعمرات الى المندوب السامي في فلسطين بتاريخ ٢٢ شباط ١٩٢٤:
الملف F.O. 686/76

- ٣٦ من وزارة الخارجية الى وزارة المستعمرات: رسالة بتاريخ ١٧ آذار ١٩٢٤ : الملف F.O. 686/76
- ٣٧ مذكرة المستر ماليت بتاريخ ١٦ ايار ١٩٢٤ ، الملف F.O. 686/76
- ٣٨ رسالة من ناجي الاصيل الى وزير خارجية بريطانيا بتاريخ ٢٥ ايلول ١٩٢٤ ، الملف F.O. 686/76
- ٣٩ عيسى السفري: فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية، يافا، ١٩٣٧، صفحة ٩٩
- ٤٠ An Awakening: University Press of Arabia, Tavistock,

الصفحة ١١٣

دراسة تحليلية لآثار فلسطين في العصر البرونزي المتوسط الثاني ١٩٥٠-١٥٥٠ ق.م

د. محمد خير ياسين
الجامعة الأردنية

تمهيد

تميزت بداية العصر البرونزي الوسيط الثاني (MB II) في فلسطين لأن مراكز الاستيطان فيها قد اظهرت تغيرا ملحوظا في طابعها يختلف عن مدن العصر البرونزي المبكر اذ يلاحظ أن مراكز الاستيطان (المدن) هذه قد زاد عددها، وكبر حجمها ومساحتها الى درجة ملحوظة وبالتالي ازداد عدد سكانها. فقد توسعت هذه المدن فشملت كل حدود التل مضافا الى ذلك المنطقة المنبسطة التي تحيط بالتل نفسه. وبهذا انقسمت المدينة الى قسمين: الاول - المدينة العليا، وهي التي تحتل التل. والثانية - المدينة السفلى، وهي المقامة في السهل المحيط بالتل. كما أننا نجد أن بعض المواقع التي هجرت قبل نهاية العصر البرونزي المبكر قد اعيد استيطانها. وبالإضافة الى ذلك فقد اقيمت مراكز استيطان جديدة، وخاصة بمحاذاة الشريط الساحلي الجنوبي لفلسطين وعلى جوانب منطقة النقب.

ان ظاهرة توسع المدن وانتشارها، وقيام مراكز استيطان في اماكن جديدة يدلان على زيادة في عدد السكان، وربما كان سبب ذلك هو تعرض البلاد الى هجرات كبيرة، وخصوصا تلك الهجرات التي قامت بها قبائل الهكسوس في النصف الثاني من هذا العصر، كما سوف نتعرض لهذا الموضوع فيما بعد. ويلاحظ بعد مضي فترة وجيزة من الزمن أن مناطق الاستيطان هذه التي

كان منها مدناً صغيرة أو كبيرة قد احدثت تغيراً في تخطيطها وتصميمها المعماري، فقد اتبعت ما يسمى بنظام المكعبات (Insula)، أو بتعبير آخر نظام مجموعات المساكن المستقلة، أو الضواحي المحاطة جوانبها الأربعة بالشوارع. وإن اتباع مثل هذا النظام في توزيع مباني المدينة ليدل دلالة قاطعة على وجود جهاز إداري متطور، وقيام طبقات اجتماعية متميزة متباينة، فرضتها الزيادة النسبية في عدد السكان. أما الوحدة المعمارية وهي المنزل، فقد اتخذت تخطيطاً هندسياً سيصبح شائعاً فيما بعد في جميع أنحاء البلاد، وهو المنزل الذي يشتمل على ساحة بين الغرف.

وعلى الرغم من التباين بين أشكال الاستيطان هذه وما سبقها في العصر البرونزي المبكر، فإنه لم تواقع تغيرات كبيرة في المادة الحضارية، فهناك استمرارية في الأدوات المستعملة من قبل الناس في حياتهم المعيشية وتستمر هذه الحال طوال العصر البرونزي المتوسط (الثاني) فالآنية الخزفية، والمرمرية، والجعلان، والأدوات ذات الدلالة الدينية، والأدوات المعدنية - الحربية - تشير إلى عنصر الاستمرار والتشابه وإلى علاقة أو تأثير بالبلدان المجاورة مثل مصر، وسورية واحتمال وجود اتصال غير مباشر ببلاد ما بين النهرين. واستدرك متحزراً فأقول بأن هذه الاستمرارية لم تخل من ظهور طابع جديد للأسلحة والأدوات المعدنية، أو ظهور أشكال جديدة من الجعلان، من ظهور مدرسة فنية كنعانية يمكن ربطها بتملك التغيرات التي لامست أنماط الاستيطان في معظم مدن العصر البرونزي المتوسط (الثاني) وقراه.

وإن ما يذكر حول الابتكارات الجديدة، مثل القوس المزدوج (compound bow) واستخدام الحصان والعربة بأنها إدخال جديد جاء به الهكسوس لأول مرة لهو افتراض لم يثبت بعد، أو لم يسلم من شبهات سترد فيما بعد تحوم حوله.

كما أن ظهور نظام دفن جديد في الساحل الجنوبي عامة، وفي مدن تل العجول وتل قارة خاصة (سترد فيما بعد) لا يجعلنا نقطع بنسبة ذلك إلى الهكسوس على

الرغم من أن تل العجول، وتل قارة، قد تميزتا عن بقية المدن الفلسطينية في هذا الخصوص.

وقد ذهب المؤيدون لفكرة أنها من عمل الهكسوس الى القول بأن نظام تحصين المدن الفلسطينية بنظام الجدران الدفاعية الملساء الزلقة glasis، أو الدعامات الملساء الزلقة rampart fortification من عمل الهكسوس (ستناقش بالتفصيل فيما بعد) لأننا سنرى أن ظاهرة التحصين هذه قد بدأت قبل هذا العصر من خارج فلسطين، من سورية بالذات، واستمرت الى العصر البرونزي المتوسط الى الحقبة «أ» منه (MBII A) واستمرت حتى الحقبة اللاحقة «ب» (MBII B) ومع ذلك فإنها لم تصبح شائعة الا في الحقبة «ج» (MBIIC) منه.

ان التغيير في أنماط الاستيطان، وعدم التغيير في المادة الحضارية (الا النسبي منه في مجال التطور)، وتشابه المادة الحضارية مع المادة الحضارية السورية تدل جميعها على أن سكان فلسطين كانوا على علاقة وثيقة بسورية، وخاصة أن المنطقة الجغرافية الفلسطينية السورية قريبة الشبه الى حد كبير. اذ تشترك فيما بينها بالتكوين البشري، وبالمادة الحضارية، منذ الألف الثالث قبل الميلاد، لذا فمن الأرجح أن موطن هؤلاء الناس الجدد الذين جاؤوا الى فلسطين كان سورية. وبناء على ذلك فان أي ابتكار جديد لهم لا بد أن يكونوا قد جاؤوا به من سورية.

وفي الحقيقة فان بداية حضارة العصر البرونزي المتوسط في فلسطين يمكن متابعتها وربطها مما حصل في سورية بوضوح، ففي الدراسة التي أجراها الاستاذ الفرنسي شيفير (انظر قائمة المراجع) حول تاريخ رأس شمرا في Ugarit Moyen 2-3 ما يطابق هذه الفترة ويمكن ربطها بفلسطين، فقد أبانت أنماط الاستيطان في سورية في الساحل والداخل عن تغير جوهري في أنماطها الاستيطانية في هذه الفترة، اذ هجر الناس المدن، فصغرت مساحاتها، وقل عدد سكانها، وتدنت مستوى معيشتهم، وقد أرتحها شافير (Shaeffer) ببداية Ugarit Moyen 3 نحو سنة (١٧٠٠ ق. م)، ويعتقد أن سبب ذلك هو هجرة هؤلاء الى فلسطين.

أما فيما يتعلق بنسبة هؤلاء المهاجرين الى الهكسوس ، فاننا نجد أنفسنا عاجزين عن الاجابة عن ذلك ، فمسألة أصل الهكسوس ، ومن أين أتوا ، وعملية دخولهم الى مصر ، واستيلائهم على السلطة فيها ، وعن منجزاتهم هناك ، ما زالت مدار بحث لدى المختصين (انظر باب التحصينات) . وما دما في صدد الكلام على العصر الذي يقال بأنهم دخلوا فيه فلسطين ، فهل يمكننا أن ننسب اليهم أيا من المظاهر والخلفات الاثرية التي ترجع الى هذه الفترة في فلسطين ؟ وعند السؤال عن امكانية ان حضارة فلسطين في فترات من العصر البرونزي المتوسط (الثاني) هي حضارة الهكسوس ، نجد عندها أن الجواب يكمن في محاولة الكثيرين ارجاء ظاهرة اثرية معينة الى أنها من عمل الهكسوس . ونحن هنا في معالجتنا لموضوع آثار فلسطين ستكشف لنا وحدة الحضارة الفلسطينية المبنية على عناصر التطور الحضاري للحضارة الكنعانية عبر العصر البرونزي كله (المبكر والمتوسط والمتأخر) . ونحن اذ نحاول التعرّض الى جميع المظاهر الاثرية لفلسطين نترك للقارئ الربط بين هذه المظاهر الحضارية (الحصون ، وتخطيط المدن ، والمعالم المعمارية ، وعادات الدفن ، والادوات الفخارية ، المعادن ... الخ) . والتعرّف على آثار فلسطين وادراك مدى ارتباط عناصرها بعضها ببعض ، والى أي مدى تعرضت فيه فلسطين الى هجرات خارجية ، والى أي حدّ تأثرت بجيرانها والدول المحيطة بها ، ونحن نشعر بأن الكثير من آثار فلسطين كفيّل بأن يجيب عن هذه الاسئلة . ومحاولتنا هذه سوف تبنى على تحليل العناصر الاثرية ، وايجاد عناصر التناظر ، والتشابه ، فيما بينها ، فتبين بالتالي مدى وحدتها الحضارية أو عكس ذلك ، ان العصر البرونزي المتوسط الثاني قد جرى تقسيمه الى حقب أو ادوار زمنية ثلاثة (أ ، ب ، ج) حسبما جاء في التحليلات الأثرية . فقد قسم المختصون العصر البرونزي المتوسط الثاني الى العصر البرونزي المتوسط الثاني أ (MBII A) ؛ والعصر البرونزي المتوسط الثاني ب (MBII B) ؛ والعصر البرونزي المتوسط ج (MBII C) وكان الأساس في هذا التقسيم هو الأسلوب الذي اعتمده « البرايت » W. Albright في تقسيمه لطبقات موقع تل بيت مرسم^(١) . فالطبقة G-F تعود الى الحقبة أو الدور « أ » (MBII A) والطبقة E2-E1 تعود الى الحقبة او الدور « ب » (MBII B) والطبقة

تعود الى الحقبة أو الدور «ج» (MBII C) وقد اعتمد «البرايت» W. Albright في وضع تواريخ لهذه الطبقات على ما أجراه من دراسة مقارنة لتاريخ مصر، وتاريخ بيبيلوس (جيبيل) في لبنان، وكذلك مع ماري (تل الحريري) في سورية، إذ أرخ الحقبة أ (MBII A) بمقارنتها مع المقابر الملكية في بيبيلوس التي تعود الى (١٨٠٠-١٧٠٠ ق.م.)^(٢).

أما نهاية العصر البرونزي المتوسط الثاني (MBII) فقد ربطها بانتهاء حكم أحسن الاول (١٥٧٥-١٥٥٠ ق.م) في مصر حيث دمر العديد من المواقع الفلسطينية والمقرونة بظهور فخار جديد هو فخار (Bichrome Ware) أو الفخار المتعدد الالوان وخصوصا الاحمر والبني. وهذه الفترة انتهت نحو سنة ١٥٠٠ ق.م.^(٣) أما نهاية الحقبة ب (MBII B) وبداية الحقبة ج (MBII C) فهي غير مؤكدة^(٤).

المعالم الأثرية

المدن الفلسطينية وتخطيطها :

ذكرنا أنه قد حدث تطور كبير في مدن العصر البرونزي المتوسط، يختلف عما كان عليه في العصر البرونزي المبكر؛ فقد زادت مساحة المدينة عن سابقتها، وازداد عدد المدن نفسها، كما احيطت هذه المدن بنظام جديد من التحصينات (glacis) أو ما يسمى بالاسوار الزلقة (سوف نفصل الكلام عنها فيما بعد).

ان تخطيط المدينة الفلسطينية قد أصابه الكثير من التنظيم. فالمدينة في بداية هذه الفترة نمت بصورة عشوائية غير أنه لم تمض فترة طويلة حتى بدأت هذه المدن في اتباع نظام يمكن اعتباره قائما على شيء من التخطيط. فالأدلة تشير الى اتخاذ المدن شكلا تخطيطيا منسجما ومتحكما به، مع العناية بتوزيع الشوارع، ومراعاة احاطتها وفصلها بين مجموعات من المباني التي تحتل جزءا مستقلا من أقسام

المدينة (Insula Planning)، ومع أن معلوماتنا لا تزال غير كاملة عن المدينة الفلسطينية في العصر البرونزي المتوسط وذلك بسبب قلة التقارير المنشورة، فإننا نجد أن معالجتنا التفصيلية لمدينة العصر، وتحليل أجزاء المدينة المختلفة فيما نشر منها يمكننا من رسم صورة واضحة لها.

تل بيت مرسم: (شكل ٤، ٥، ٦)

هذا الموقع من المواقع الفلسطينية الجنوبية، ومدينة العصر البرونزي المتوسط (الاول متمثلة فيه الطبقات (F & G)^(٥)، ويعتقد البرايت Albright أن الطبقة (F) هي استمرارية للطبقة (G) دون تغير في التقاليد والعادات التي كانت متبعة في الطبقة (G).

بدأت المدينة في بداية هذا العصر على شكل موقع صغير لا يحيط به سور واق من الهجمات الخارجية، وأما مبانيها المختلفة فقد بنيت على شكل مجموعات يلتصق بعضها ببعض. ومن هذه المباني ما كان صغيرا، ومنها ما كان كبيرا. وقد استعمل بعض الناس الكهوف الموجودة في داخل المكان مسكنا لهم. وأما مدينة الطبقة (F) فقد احيطت بسور لحمايتها من الهجوم الخارجي. ومع أن مدينة هذه الطبقة قد أصابها الكثير من الدمار، فإن ما بقي من بنائها يشير الى أنها اتخذت شكلا دائريا. وقد بنيت المنازل محاذية وموازية للسور من الداخل، وهذا يعزز الاعتقاد بأن السكان بدأوا ببناء السور أولاً، ثم أخذوا بعد ذلك بينون المباني المختلفة والمرافق الأخرى، حيث وجدت كلها ملاصقة للسور منتشرة منه الى الداخل مما يشير الى وجود مخطط سبق بناء المدينة^(٦).

وأما مدينة العصر البرونزي المتوسط الثاني (MBII) فقد اظهرت شيئا من التطور، اذ اعيد بناء المدينة عدة مرات وفي كل مرة توجد ادلة تشير الى هذا التطور المعماري. فالطبقة (D & E) التي تعود الى الحقبة ب/ ج (MBII B & C) بلغت مساحة المدينة ٢٠٠٠ م^٢ قد أحاط بها سور يطلق عليه (Terre Pis'ce)

أي الجدران الزلقة^(٧) وقد بنيت المنازل محاذية للصور أو ملاصقة له، وكانت تلك المنازل ذات مخططات وطرز ثلاثة: الطراز الأول (Type 1) عبارة عن منزل له ساحة أمامية، وحجرات الى الداخل من هذه الساحة، وهي من النوع المركب. والطراز الثاني (Type 2): وهي منازل بنيت دون تخطيط وبشكل عشوائي. والطراز الثالث (Type 3): وهي منازل تشابه الطراز الأول بشكله المبسط^(٨). وقد بنيت هذه المنازل ذات الطرز الثلاثة بمجموعات، وكل مجموعة محصورة بشوارع يمتد من الشرق الى الغرب (انظر مخطط تل بيت مرسوم).

ويمكن ايجاز التخطيط العام للمدينة على النحو التالي :

- ١ - ان سور المدينة كان له التأثير الأول على توزيع مبانيها المختلفة واتخاذها ذلك الشكل المتجانس.
- ٢ - قسمت المدينة الى اجزاء غير منتظمة أثرت في تقسيمها وتشكيلها التضاريس الطبيعية للموقع وعادات السكان الاجتماعية.
- ٣ - لم يلاحظ وجود فوارق اجتماعية، فقد بنى بعض الناس منازلهم البسيطة ذات التخطيط السيء الى جانب المنازل المركبة الحسنة التخطيط والبناء.
- ٤ - كان للمدينة قنوات تصريف للمياه، وهذه ظاهرة معمارية جيدة نجدها في بلدان أخرى مثل بلاد ما بين النهرين^(٩).
- ٥ - كان للمدينة شوارع تمتد من الشرق الى الغرب، وأخرى من الجنوب الى الشمال تحصر فيما بينها مجموعات من المباني وان كانت غير منتظمة، غير أنها تكوّن وحدات مستقلة (blocks) أو (Insula)

مجدو (تل المستلم): شكل (١٩، ٢٠)

تقع مدينة مجدو في سهل مرج ابن عامر، الى الشمال الغربي من مدينة جنين الحالية، قد جرت فيها الحفريات ابتداء من سنة ١٩٠٨^(١٠) وفي الثلاثينات اجرت جامعة شيكاغو تنقيبات أثرية لعدة فصول للكشف عن معالم هذه المدينة الادرية المهمة^(١١).

ان أهمية هذه المدينة قد دعت جامعة شيكاغو الى اجراء حفريات مكثفة وطويلة، مهدت لنا السبيل لمعرفة تاريخها بشكل جيد. على الرغم من أن جزءاً كبيراً منها ظل دون كشف.

وفي الطبقات ١٣ و ١٢ Stratum XIII and XII^(١٢) تمّ تنظيم المدينة وتخطيطها على الشكل الآتي: (انظر المخطط شكل ٣)
الجزء الاول: شارع معبد يحيط به سور المدينة.
الجزء الثاني: حوانيت مفتوحة.
الجزء الثالث: أزقة ضيقة.
الجزء الرابع: مباني منازل غير منتظمة.
الجزء الخامس: المنطقة الدينية.
الجزء السادس: منازل بنيت بشكل غير منتظم.

وفي الطبقة العاشرة (Stratum) (شكل) بنيت المباني على شكل مجموعات مستقلة (blocks) يفصل بينها شوارع مستقيمة^(١٣)، وظل وسط المدينة خالياً من الابنية بينما كانت تمثله المباني الدينية في العصر البرونزي الباكر (EB periode) وكذلك في الفترة الانتقالية من البرونزي المبكر الى البرونزي المتوسط (EB-MB)^(١٤) ويظهر أن بناء كان مقراً لحاكم المدينة قد بني منذ فترة الطبقة ١٢ (Stratum XII) في المنطقة (B B)، واستمر حتى الطبقة العاشرة (X)،
Megiddo 2., Plat XIX

ان مدينة الطبقات الثانية، والثانية عشرة، حتى مدينة الطبقة العاشرة (Strata X, XI/XII) تحتوي على مبانٍ تختلف عن تلك التي كانت قائمة في الطبقة الثالثة عشرة (Stratum XIII)، فالمدينة أتمت تخطيطها العام في زمن الطبقة الثانية عشرة (Stratum XII) وأكملت تطورها في الطبقة الحادية عشرة والعاشرة (Strata X-XI)^(١٥) ويمكن اجمالاً تحليل تخطيط المدينة على النحو التالي: أخذ توزيع المباني شكلاً منظماً ومحدداً، والشوارع والأزقة منسجمة مع التخطيط العام. أضف الى ذلك أن المباني تباينت في التخطيط، فقد احتوت المدينة على مساحة خصصت

للحرم الديني حيث اقيمت الأنصاب^(١٦)، وأخيراً، فقد تحولت المباني الكبيرة والمساحة في الطبقة الثانية عشرة (XII) الى مبنى ضخم (قصر) في الطبقة الحادية عشرة والعاشر (X-XI) كما أعتقد .

ان مدينة مجدو تعتبر نموذجاً للمدن الفلسطينية المتطورة في تخطيطها في هذه الفترة، فالشوارع وامتداداتها عملت على تقسيم المدينة الى وحدات مستقلة (Insulae) غير متساوية في المساحة، وغير منتظمة في الشكل أيضاً: وفي الطبقة الحادية عشرة (XI) نجد ظاهرة معمارية غريبة، وهي أن سور المدينة قد دعم من الداخل بتبوءات كان من المفروض أن تكون قد بنيت في واجهة السور من الخارج كما هي العادة (انظر الشكل) . نعتقد ان المساحات بين هذه التبوءات قد استخدمت حوانيت مفتوحة الأبواب، وذلك على غرار السوق الشرقية . وهناك ظاهرة اجتماعية اخرى اثرت على توزيع المباني في المدينة، فالمباني المتشابهة التخطيط قد بنيت الى جانب بعضها بعضا ففي المربع (١٥) (انظر شكل) بنيت المنازل ذات ذات الطراز الثاني البسيط Type 2 simple^(١٧) (انظر باب المباني المدينة)

أما المربع (١٣) فقد اقتصر على المباني الدينية، وأما المربعات (١١، ١٢، ١٣)، فقد اقيم فيها مبنى القصر ١١، والمباني الاكثر اتقاناً والاكبر مساحة وحجماً (من الطراز الثالث Type 3) اقيمت هنا محاذية لسور المدينة . ان توزيع المباني وحصر المتشابه الغرض منها كل في منطقة محدودة، وتوزيعها الى ضواح تسكن كل ضاحية منها فئة معينة، ظاهرة لا تزال شائعة في قرى فلسطين (انظر كتاب الدكتور لطيفة حول قرية بيتن^(١٨)).

تل تعنك : شكل (١٧)

تقع تعنك على بعد عدة كيلو مترات الى الجنوب من مجدو و (تل المتسلم) في قضاء جنين . وقد اظهرت التنقيبات التي أجراها بول لاب P lapp عن استعمال نظام المربعات المستقلة insulae في توزيع مباني المدينة^(١٩) والشوارع تمتد

مستقيمة من الشمال الى الجنوب موازية للمباني التي تم اكتشافها^(٢٠). وقد أرخت هذه المباني بالعصر البرونزي المتوسط الثاني الحقبة ج (MBIIC)، أي معاصرة للجدرانة الزلقة في المدينة.

تل العجول (غزة القديمة): شكل (١١):

تعتبر غزة القديمة من أكبر المدن الفلسطينية الجنوبية القديمة. لقد اطلق بيترى F. Petrie على اقدم مدينة فيها اسم «الطبقة الدنيا» (Lower level) ومع أن بيترى قد ارتكب كثيرا من الاخطاء عند نشره لمخططات المدينة، فان تحليل توزيع المباني والتخطيط العام لمدينة تل العجول^(٢٢)، على النحو التالي انظر المخطط () .

لقد تميزت المعالم المعمارية بالامور التالية: - فقد بنيت المدينة بشكل منظم ومنسق: فالابنية منسجمة مع بعضها وقد تقيدت بالمخطوط التي رسمتها امتدادات الشوارع، فمن الاجزاء التي جرى التنقيب فيها تمّ الكشف عن الشارع الذي يمتد من الشرق الى الغرب يقابله شارع آخر يمتد من الشمال الى الجنوب. ان الضواحي أي المربعات (Insulae) في تل العجول كانت اكبر حجما من مثيلاتها في مجدو أو تل بيت مرسم. ان الشارع الممتد من الشمال الى الجنوب يوصل قلب المدينة باطرافها الاخرى. وهو اكبر شارع فيها، ولعله كان يوصل ما بين المعبد (EW) والقصر، أو المبنى الضخم المقام على الحافة الشمالية من المدينة^(٢٣).

ويصف «بيترى» المنطقة (A) بأنها تتكون من مجموعات من المباني المستقلة أما المبنى الذي يتكون من الاقسام (ACAB: H, J) فيعتقد أنه كان بناء مشتتلا على عدة حجرات مكملة لبعضها. ويشتمل ايضا على الحكامات، وعلى معبد للعبادة، وعلى كثير من الصوامع لحفظ الغلال. ومن الجائز أن هيئة الخدمة العامة كانت تسكن فيه. وقد اتخذ المعبد (AF) طابع المعابد المصرية، مثل المعبد الجنائزي - لسنخ كارع منحوتب - في القرنة، ومثل معابد الدولة الوسطى في مدينة المعادي أما المبنى EW من المنطقة E فله صفة خاصة. (انظر Gaza IV)

P. 15, Plate. LXII) فهو مشرف على تقاطع ثلاثة شوارع وجدرانه اسماك من غيره من المباني ويتكون من قاعة كبيرة تبلغ مساحتها (٤٨٠ × ٤٠ م) هذا المبنى المتميز الموقع يشبه مباني المعابد الفلسطينية مثل معبد العصر البرونزي المتوسط في بلاطه (شكيم) Schechem انظر فيما بعد وكذلك معبد مجدو ، الطبقة الثامنة (VIII) ، ويوجد الى الشمال من الشارع الممتد من الشرق الى الغرب المبنى (ED) وهو موحد الأجزاء. وأما المبنى الذي بنيت اكثر أجزائه بالحجارة فيغاير الأبنية الأخرى التي بنيت بالطوب (اللبن) ، اذ يتكون من الاجزاء TCT, TDL, TDO, TOH, TDM, TDQ, TCS. ويظن أن استعماله كان مستودعا، حيث اتصفت حجراته بالاستطالة والضييق أما القاعة (TDN, TDK) فقد كانت استعمالتهما مختلفة. ان المباني الممتدة الى الجنوب من الشارع الممتد من الشرق الى الغرب تتكون من وحدات معمارية متشابهة التخطيط الى درجة كبيرة، وهي أقل مساحة وحجما من تلك التي اقيمت الى شمال الشارع. هذا وقد بنيت متراصة دون ترك أي ممر (زقاق فيما بينها) ومن هنا يظهر أن مدينة تل العجول قد اتبع في تخطيطها نوع من التنظيم المنسق آخذاً في الاعتبار ماهية كل مبنى من مبانيها واستخدامه.

تل نجيلة (Tell Nagila): شكل () .

يقع تل نجيلة في جنوب فلسطين الى الشرق من غزة، مع أن تاريخ الطبقات في تل نجيلة غير ثابت بعد. غير أن المباني الواقعة في وسط التل في المنطقة A تعود إلى العصر البرونزي المتوسط M B II اعتماداً على مخلفات هذه المنطقة^(٢٥).

ففي المنطقة (A) تم العثور على شارعين يفصلان بين عدد من المنازل. ولما كانت المساحة التي تم الكشف عنها صغيرة جداً فإنه ليس باستطاعتنا أن نتبين ما اذا كان نظام المربعات أو المباني المحاطة بالشوارع من الجهات الأربع قد اتبع.

تظل معلوماتنا قليلة عن المواقع الفلسطينية الأخرى لهذا العصر. والسبب في ذلك أن الاجزاء التي تم الكشف عنها صغيرة جداً لا تسمح لنا بالتحليل، أو أن

التقارير المنشورة لا تزال في صورتها المبدئية، والنشرات النهائية لم تنشر بعد. مثل موقع تل الجزر^(٢٦) أو جازور (تل القاضي)^(٢٧) وتل موارش^(٢٨) وتل ميشاس^(٢٩) وغيرها من المواقع. وحتى اريحا. لذا فان تحليلنا للمواقع هذه يظل غير كامل.

اريحا : شكل (١)

هناك شارعان يعودان الى أواخر العصر البرونزي المتوسط الثاني (MBII) يتدثان من أسفل التل ويصعدان الى القمة، وبلغ عرض الواحد منهما (١٧٥ سم) وقد رصفا بحجارة مستديرة ملساء، وتعترض الشارع بعض درجات. هذا وقد مدّت قنوات تصريف للمياه أسفل الحجارة المرصوفة (٣٠). لقد تأثر تخطيط الشوارع بسور المدينة بدليل اتخاذها شكلا منحنيا يوازي سور المدينة تقريباً وهذا مشابه لشوارع تل العجول وتل بيت مرسم ومجدو.

تل بلاطة (Schechem) : شكل (٢)

يعتبر موقع بلاطة (شكيم Schechem) الاثري من المواقع المهمة الواقعة في المنطقة الوسطى الجبلية. فقد بدأت جامعة (درو ماكورمك) Drew McCormick حفرياتها ابتداء من سنة ١٩٥٤^(٣١). وقد أبانت الحفول من ١ (الى ١٥) Fields I-XV عن الكثير من معالم المدينة البنائية. كل اقيم ليخدم غرضاً مختلفاً، فالمنطقة السادسة هي منطقة الحرم المقدس Temenos enclosure وذلك لوجود اماكن العبادة فيها. وقد تعرضت لخمس مراحل متتالية من التعديلات والتغييرات المعمارية فيما بين ١٨٠٠ و ١٦٥٠ ق.م وظلت منطقة الحرم المقدس (Temenos) طولها منفصلة عن بقية اجزاء المدينة بجدار رقم ٩٠٠ (Wall 900).

وفي احدى تلك المراحل البنائية للمدينة، اقيمت منطقة دينية اخرى الى الغرب من المنطقة الاولى، وهي عبارة عن معبد اتخذ شكل الحصن، لذلك سمي بالمعبد الحصن (Fortress- temple)^(٣٢) (سوف نتكلم عنه بالتفصيل فيما بعد).

وان تخطيط مدينة بلاطة (شكيم) قد تأثر كثيراً بالمنطقة المقدسة. فالحرم

المقدس بني على اعلى منطقة في المدينة واحيط بسور يفصله عن بقية اجزاء المدينة السفلى ويعتقد بأن الناس كانوا يلجأون الى هذه المنطقة الدينية الحصينة في حالة تعرض المدينة لأي هجوم خارجي .

التحصينات

لما كان نظام الحكم في العصر البرونزي الوسيط هو نظام «المدينة الدولة» فقد بذلت عناية فائقة في تحصين المدن الفلسطينية الكنعانية . وذلك لدرء الاخطار الخارجية، أو لحماية المدينة من اعتداء المدن المجاورة في حالة نشوب صراع . فقد اتبع اسلوب جديد في تحصين اكثر مدن العصر البرونزي الوسيط الثاني، فبالاضافة الى الجدران الضخمة التي اقيمت حول المدينة من كل جانب نرى طبقة من الطين الحور الصلصالي المذكوك يحيط باسفل السور من الخارج بشكل منحدر مكونة زاوية انحدار شديدة الى مسافة طويلة قد تصل الى ثلاثين مترا وتنتهي عند طرف الطبقة الطينية الصلصالية بجدار حجري آخر استنادي حتى يمنعها من الانزلاق او الانجراف او بخرق : لذلك سمي هذا النظام من التحصينات بالجدران الزلقة الاستنادية Terre pisee, rampart, glacis . وقد عزي ابتكار هذا النوع من التحصينات الى الهكسوس ، وانهم هم الذين ادخلوه الى فلسطين ومصر وغيرها من بلدان الشرق الاوسط^(٣٣) وقيل ان الهدف من هذه الظاهرة المعمارية الحربية هو جعل وصول العربات الحربية الى اسوار المدينة امرا صعبا، فالخيل والعربات ستنزلق عنها لعظم درجة الانحدار ولأنها ملساء . وذكر أن من ادخل هذا النظام البنائي العسكري هم الهكسوس على اعتبار انهم هم الذين ادخلوا استعمال الخيل والعربة في المعارك الحربية . (انظر فيما بعد) انبرى الكثيرون لدحض هذه النظرية، ففي سنة ١٩٣٥ قيل ان التحصينات التي تحيط بموقع تل اليهودية في مصر، وكذلك هيلوبولس لم تكن يقصد بها تحصين المدينة فقد اورد المهندس «هيربرت رك» بأنها عبارة عن جدران استنادية اقيمت حول التلة التي اقيم عليها المعبد^(٣٤) . وتناول الموضوع حديث المهندس «رايت» Wright^(٣٥) فأوضح ان الجدران الزلقة اقيمت كجدران استنادية حول

الحرم المقدس الذي اقيم عليه المعبد. لذا فإن هذا النظام من التحصينات في مصر الذي قيل بانه من عملهم وابتكارهم قد تبين بأنه ليس بالتحصينات او الجدران الدفاعية، أو انها من عمل الهكسوس، خلافا لما هو عليه في غرب آسيا^(٣٦). هذا وانتقد فترزجولد Fitzgerald نظرية استخدام الخيل التي تجر العربات في المعارك الحربية خلال هذا العصر^(٣٧).

وبناء على ذلك فإننا نجد أن الرأي الذي يقول بان استخدام الحصان والعربة في عملية الحصار من قبل الهكسوس قد اصابه الشك بصورة اكيده أما رأى يادين وكيون (Kenyon & Yadin)^(٣٨) في موضوع التحصينات المنزلة فهي شبه متقاربة في أن الغرض منها كان اعاقه ادوات هدم الاسوار كالمجنقيات (Battering Ram) من الوصول الى الاسوار. غير أن بار Parr قد اضاف بان الغرض من استعمال هذا النظام من التحصينات إعاقه العدو من الوصول الى المدينة بسهولة أو في حالة مهاجمة المدينة بالمنجنقيات^(٣٩). وقد تتبع بار تطور هذه التحصينات منذ العصر البرونزي الباكر في غرب آسيا وايران وسورية وفلسطين بشكل مفصل، وتوصل بالاضافة الى الهدف العسكري، الى أن استمرار سكن المكان نفسه ونشوء التلة واستمرار التلة بالارتفاع وانحدار جوانبها مما اضطر سكان المدينة الى احاطة سور مدينتهم بهذه الجدران الترابية الانزلاقية حتى يمنعوا جدران المدينة من الانجراف والانزلاق. بمعنى آخر فان الهدف منها هو سند ودعم اسوار المدينة المقامة حول منحدرات التلة^(٤٠).

لهذا تضاربت الآراء حول الهدف من هذه الجدران ومعرفة الجهة التي قامت بابتكارها. ولعل الآراء المختلفة المتضاربة السالفة الذكر كلها تكون تفسيرات لهدف اقامة تلك التحصينات وهي بدورها لخير دليل على ما اصابه سكان فلسطين من براعة معمارية عسكرية من ناحية، وهي دليل على وجود حالة تأهب للدفاع عن المدينة والحفاظة على تحصيناتها من الهدم والانجراف من ناحية اخرى.

ان تاريخ نشأة نظام الجدران الزلقة glacis الموجودة في بلاد الاناضول أقدم

قليلا من تلك الفلسطينية فطروادة الاولى Troy I تعود جدرانها الزلقة الى الألف الثالث قبل الميلاد، وربما تعود مرسين السادسة عشرة Marsin XVI إلى الألف الرابع قبل الميلاد^(٤١). بينما جدران بوغوزكوى، الجاهيدك، تعود الى العصر البرونزي الوسيط^(٤٢).

ان التحصينات الزلقة في فلسطين اصيلة وليست متأثرة بالخارج. بدأت وتطورت الى أن وصلت اليه في فلسطين^(٤٣) فهناك موقعان في فلسطين يرهنان على ذلك، اريحا وتعنك. فالاستمرار في الزيادة في ارتفاع التلة (المدينة) وزيادة انحدار الأطراف، يفسران لمراحل الاربع للجدران الزلقة التي ظل الناس يضيفونها الى تحصينات مدينة اريحا ابتداء من العصر البرونزي الباكر كما ظهر في الحفرة ١ (Trench I)^(٤٤) والظاهرة نفسها تشاهد في تعنك^(٤٥). وثمة أدلة يسيرة تشير الى ان نظام الجدران الزلقة glacis ايضا قد بدى به في كل من تل الفارعة وخربة كرك، وتل جات، وعاي في العصر البرونزي الباكر^(٤٦) علما بأن الرأي الذي كان سائدا قبل ذلك في أن التحصينات الزلقة هذه قد بُدئ في اضافتها الى تحصينات المدن الفلسطينية نحو سنة ١٧٠٠ ق.م وما بعد هذا التاريخ حتى سنة ١٦٠٠ ق.م^(٤٧) وبصر رايت Wright والبرايت Albright على نسبتها الى عصر الهكسوس^(٤٨).

التحصينات :

اريحا: ان اسوار العصر البرونزي الباكر المبنية بالطوب (اللبن)، قد اعيد بناؤها في هذا العصر، وقد مرت بثلاث مراحل مختلفة في العصر البرونزي الوسيط الثاني. (انظر لوحة)

واضيف الى الاسوار من الخارج الطبقة الصلصالية الحورية الانزلاقية، وهذه ايضا مرت بثلاث مراحل. ففي المرحلتين الاولى والثانية كان يضاف الى السطح الزلق طبقة من الملاط (القصارة) الناعم الاملس أما في المرحلة الثالثة فقد اضيف جدار حجري استنادي ضخم حتى يمنع الطبقة المنحدرة المنزلقة من الانجراف^(٤٩).

مجدو (تل المتسلم) :

تم الكشف عن تحصينات هذا العصر في ثلاث مناطق جرى التنقيب فيها وهي المنطقة CC, BB, Area AA غير أن المنقبين لم يحاولوا الربط بين هذه المناطق لإيجاد علاقة الطبقات (Strata) بين بعضها، لذلك فأرقام الطبقات وتسمياتها في منطقة Area لا تعني بالضرورة بانها الرقم نفسه في المنطقة الأخرى. وقد حاولت كينون تأريخ الطبقات المختلفة وربط طبقات المناطق Larcus CC, BB, AA بعضها ببعض مستعينة بفخار المقابر المدفونة في التل تحت ارضي طبقات العصر البرونزي وكانت النتيجة أن فصلت فخار القبور الى مجموعات تعود الى تسع مراحل متتابعة مثلها مثل مراحل اريحا، وبذلك تمّ لها وضع تواريخ للطبقات، وربط المناطق بعضها ببعض زمانيا.

وقد تمّ التنقيب عن المراحل الأولى من التحصينات في المنطقة Area AA وهي الجدران الحجرية والزلقة والمعاصرة للطبقة الثالثة عشرة Stratum XIII. التي تعود الى اواخر العصر البرونزي الباكر Early Bronze، غير أن «كينون» ترجع تاريخها الى العصر البرونزي الوسيط الاول Middle Bronze I أو حتى الى العصر البرونزي الوسيط الثاني Middle Bronze II أما المجموعة الثانية من تحصينات مجدو فقد بنيت في مرحلة لاحقة وتعود الى مدينة الطبقة الحادية عشرة XI^(٥٢). ولم يعثر في المنطقة BB على أي اثر للتحصينات، بينما وجدت في المنطقة CC في الطبقتين الثالثة عشرة والثانية عشرة XII, XIII. والاسوار تتكون من جدارين الواحد خلف الآخر، يحيطان بالمنطقة المكشوفة واقامت بين السورين الطبقة الحورية الزلقة، واقامت كذلك حول المنحدر خارج السور الخارجي^(٥٣).

حازور (تل القاضي) : شكل (١٥)

افتقرت مدينة بداية العصر البرونزي المتوسط الثاني MBII على ما سمي بالمدينة العليا Upper city. أما في منتصف العصر البرونزي المتوسط الثاني وأواخره فقد امتدت المدينة لتشمل المدينة العليا والمدينة السفلى (Upper city and

Lower Area حيث بلغت مساحة المدينة ١٨٠ فدانا. كانت المدينة العليا محصنة بسور ضخمة من الحجر. وقد ربطت العلاقة الزمنية بين منطقتين فقط وهي Area H, Area C ومع أن المستخرجات من المنطقة Area H لم تنشر بعد. فيحتمل أن التحصينات الحجرية الطينية تعود الى اوائل تاريخ الاسكان والاستقرار في المدينة السفلى Lower city وبالتحديد في الطبقة الثالثة فيها 3 Stratum أو الرابعة Stratum 4^(٥٤). وليس لدينا تاريخ محدد لهذه التحصينات، غير أن يادين Yadin يؤرخها بشكل عام بأنها تعود الى العصر البرونزي المتوسط الثاني MBII^(٥٥) ومع أن «يادين» قد اعطى تاريخا محمدا للطبقة الرابعة 4 Stratum وهو العصر البرونزي المتوسط الثاني الحقة ب MBII B وللطبقة الثالثة 3 Stratum الحقة ج J. R فان هذا التحديد غير مؤكد حتى الآن، لان ما اكتشف من فخار هذه الطبقات لا يعدو عن ٣١ كسرة فخار، وقليل من قطع كاملة لا علاقة لها بالتحصينات^(٥٦).

تل بيت مرسم:

قسّم «البرايت» Albright فخار العصر البرونزي المتوسط الثاني MBII بين الطبقات الثلاث وهي E1, E2, D وهذه اخرها.

اتخذت التحصينات طبيعة الجدران الزلقة glacis خارج وحول الاسوار الحجرية التي بنيت في العصر البرونزي المتوسط الاول MBI، لمدينة الطبقة G والطبقة F. وفي فترة لاحقة اضيف جدار استنادي الى الاسفل من الجدار الزلق حتى يمنع من الانجراف^(٥٧).

تل الفارعة: شكل رقم (١٨)

يقع تل الفارعة في الشمال الشرقي من نابلس. وقد تأسست أول مدينة عليه في العصر البرونزي المتوسط الاول. MBI بصورة غير مكثفة، وذلك بأن حدد السكان بناء الاسوار المبنية بالطوب اللبن التي كانت قائمة منذ العصر البرونزي

الباكر EB أما اسوار العصر البرونزي المتوسط الثاني MBII، فقد بنيت حول مساحة اصغر من تلك التي سبقتها فوق الجزء الشرقي من مدينة العصر البرونزي الباكر. أما في الجانب الجنوبي من المدينة السابقة فقد بنيت الاسوار هذه المرة بالحجارة فوق أسوار العصر البرونزي الباكر، واطيقت بخندق قليل العمق، وبعد أن تم بناء السور بفترة قصيرة اضيفت اليه الجدران الزلقة. glacis من الخارج، ثم دعمت بجدار استنادي من الخارج ايضا بجذاء الطرف الداخلي للخندق، كي يحفظ الجدران من الانزلاق ولاسباب اخرى ورد ذكرها عند الكلام على هذا النوع من التحصينات^(٥٨).

بلاطة (شكيم):

كما اسلفنا تقع بلاطة (شكيم) ضمن حدود مدينة نابلس وقد شرع الناس يستقرون فيها في وقت مبكر من العصر البرونزي الوسيط الثاني (Early MBII). ويعتبر نظام التحصينات في بلاطه (شكيم) من أروع ما بناه سكان فلسطين في هذه الفترة، فقد احيطت المدينة من جميع جهاتها بعدد من الاسوار الواحد خلف الآخر. فالسور الاول (جدار) هو عبارة عن جدار قائم بنفسه بني بالحجارة ويعود تاريخ بنائه الى الحقبة ب (MBII B) من العصر البرونزي الوسيط الثاني^(٥٩).

أما السور الثاني فهو من النوع الزلق، وقد بني حول السور D ثم دعم بالجدار C وكلها معاصرة للحرم المقدس ٣، 3 Temenos، أي حوالي العصر البرونزي الوسيط الثاني ب، MBII B^(٦٠).

أما الجدار الثالث Wall 3 أهمها هذا الجدار فقد بني لاهميته بالحجارة الضخمة جدا لذلك سمي Cyclopaean. ويعود هذا الجدار الى الحقبة ج H. J. أي الحقبة الثالثة من العصر البرونزي الوسيط الثاني، وهو معاصر الى الحرم المقدس 6 Temenos^(٦١).

أما الجدار الرابع من التحصينات فقد سمي بالجدار B (Wall B) وهو يعتلي التل، وهو معاصر للبوابة الشرقية والحرم المقدس ٧ (Temenos 7) الذي يعود

بدوره الى الحقبة ج (MBII C)^(٦١). أما آخر مرحلة من مراحل بناء هذه الاسوار فتؤرخ بأواخر الحقبة ج (MBII C) حيث أُعدّ بناء البوابة الشرقية مرة ثانية .

عين شمس :

بني سور المدينة من جدار واحد من الحجارة وفي مرحلة واحدة، ويعتقد بأن الطوب اللبن كان يعلو قمته^(٦٢) وقد أُعيد تاريخ بناء السور الى ١٧٠٠ واستمر حتى ١٥٣٢ ق.م .

تل الدوير : (لاخيش) .

لا يبعد تل الدوير كثيرا عن تل بيت مرسم في جنوب فلسطين الى الشمال الشرقي من غزة . هذا وينقصنا الكثير من المعلومات عن تاريخ نشأة مدينة تل الدوير (لاخيش) ، لان الاسلوب الذي تم فيه التنقيب في هذا الموقع ، والنشريات التي صدرت عنه لا تسمح للمكتشف ولا للقارئ لتفهم طبقاته ومراحل البناء فيه بصورة واضحة لذلك ركّز المنقب جهوده فيه على الاسوار والمقابر .

وبالاضافة الى السور الذي يحيط بالمكان ثمة جدار زلق كغيره من جدران هذا النوع ، وقد صقل الانحدار صقلا جيدا . وقد دعم اقصى انحداره بجدار استنادي . وقد حفر حول جدار الدعم من الخارج خندق غير عميق^(٦٤) .

تعنك : شكل رقم (٣)

اعتبرت التحصينات المكتشفة في تل تعنك متأخرة التاريخ إذ عثر على القليل من آثار الحقبة أ ، وب (MBII A, MBII B)^(٦٥) فالسور المكتشف يعود الى العصر البرونزي المتوسط الثاني الحقبة ج ، (MBII) وهو كغيره من التحصينات عبارة عن جدار حجري يحيط بالمدينة . واضيف اليه من الخارج جدار انزلاقي glacis

جزر (Gezer) :

يقع تل جزر بالقرب من القدس بجذاء قرية دير ياسين المشهورة . ونعتمد في دراستنا لتحسينات الموقع على التقرير الاول «لديفر» وصحبه^(٦٦). فمن الحقل I الى IV وكذلك VI يتبين أن الموقع قد هُجر منذ العصر البرونزي الباكر الثاني (EBII) وحتى العصر البرونزي المتوسط الثاني أ. (MBII A) وعلى الأرجح من الحقبة ب (MBIIB). ان اول مبان دفاعية تم الكشف عنها هو البرج رقم ٥٠١٧ (Tower 5017) المرتبط بالسور الضخم الداخلي (Inner Wall) والذي تم بناؤه في الحقبة ج (MBII C) أي حوالي ١٦٠٠ ق. م.^(٦٧).

وفي تاريخ متأخر أُضيف الى هذا السور جدار زلقي glacis من الخارج رقم ٨٠١٢ يعود لسنة ١٥٥٠ ق. م.^(٦٨).

تل العجول ، (غزة القديمة) :

ان الاجزاء التي نقب عنها من المدينة - كما وردت سابقا - تقع في الطرف الجنوبي من التل . ان الظاهرة الاولى التي اتبعت للدفاع عن المدينة كانت عبارة عن خندق يحيط بالموقع من كل الجهات الا من الناحية الشرقية حيث حافة وادي غزة . وهذا الخندق معاصر لاقدم مبنى بني في المدينة وهو القصر رقم ١ ، Palace I^(٦٩) وهو معاصر لمقابر الهكسوس التي تعود الى اواخر العصر البرونزي الوسيط الثاني .

تل الفارة ، (Tell el Fara (S))

يقع تل الفارة الى الشمال من تل العجول . والمعلومات عن هذا الموقع قليلة جدا ، ويعتقد بأن الاسوار الزلقة فيه تعود الى فترة متأخرة جدا من العصر البرونزي الوسيط الثاني^(٧٠).

تل نجيبلا:

تل نجيبلا من المواقع الفلسطينية الجنوبية ويقع الى الشرق من غزة وتعود الطبقة السابقة (Stratum VII) فيه الى العصر البرونزي الوسيط الثاني / ج (MBII C) وتتميز تحصيناتها بجدار طوب تراي يحيط بالمدينة من جميع جوانبها^(٧١).

تل دان

يقع تل دان الى الشمال من بحيرة الحولة في شمال فلسطين وقد تم الكشف عن اسوار الموقع الزلقة (glacis)، وهي تعود الى العصر البرونزي الوسيط الثاني / ب (MBII B)^(٧٢). وقد دمرت المدينة في حوالي القرن السابع عشر قبل الميلاد أي في الحقبة ج، (MBII C).

يبني يام Yabneh-yam

يقع موقع «يبني يام» ما بين يافا في الشمال واسدود في الجنوب على الساحل الفلسطيني، وهو عبارة عن معسكر احيط بجدران طوب ترابية، ويعتقد بأن هذا المعسكر ظل يقوم بواجبه الدفاعي خلال العصر البرونزي المتوسط الثاني الحقبة ب منه (MBII B) وحتى الحقبة ج (MBII C)^(٧٣).

خربة كرك:

تقع خربة كرك على الحافة الغربية من الطرف الجنوبي لبحيرة طبريا وتذكر حاليا على الخرائط باسم بيت يارة. تمّ الكشف في خربة كرك عن جدار طويل يحيط بالموقع من كل جوانبه مبني بالحجارة الضخمة من أسفل وبالطوب من أعلى. واضيف اليه من الخارج السور الانزلاقي glacis، وقد صقل سطحه جيدا^(٧٤).

ومن المواقع الفلسطينية الأخرى التي تمتعت بتحصينات متينة في العصر البرونزي المتوسط الثاني ولكنها غير منشورة بعد تل مبراش^(٧٥). Mevorakh وخربة تل ميشاس Meshash^(٧٦) وعكا^(٧٧)، وتل الذيب^(٧٨)، وتل مشعل (كيسان) إلى الشرق من عكا^(٧٩) وتل جرشة على الساحل الفلسطيني إلى الشمال من يافا^(٨٠). وعسقلان^(٨١)، وتل جما جنوب غزة^(٨٢). وكذلك تل الحسي^(٨٣).

المباني الدينية

المعابد:

لقد اطلق الاثريون اسم «المعبد» على بعض المباني المكتشفة في المواقع الفلسطينية المختلفة عندما يتميز المبنى بتفاصيل معمارية مغايرة ومميزة عن بقية المباني، او احتوائها على مخلفات كان الغرض منها دينيا. ومن المواقع التي تم الكشف فيها عن مثل هذه الابنية هي بلاطة (شكيم) تل المتسلم (مجدو) ونهاريا.

ففي العصر البرونزي المتوسط الثاني ظهر تطور جديد للمعابد الفلسطينية الكنعانية. بينما كانت المعابد في العصر البرونزي الباكر ذات احجام ومساحات متوسطة، أما الآن فهي اكبر حجما ومساحة. لذلك فاقطاعية الآله اصبحت اكثر غنى. ومع مضي الزمن اتخذ المعبد مكانا مرموقا في المدينة، ففي بلاطة (شكيم) اقيم المعبد في اعلى نقطة من المدينة، وفي تل المتسلم (مجدو) اصبح للمعبد ساحة مقدسة في قلب المدينة وظلت كذلك الى عدة قرون، أما في نهاريا ومجدو فقد اقيم اكثر من معبد واحد بمحاذاة بعضها، والمعابد في نهاريا انشئت في منطقة لا يحيط بها أو بالقرب منها اي مدينة او موقع استيطان مثلها مثل مطار عمان في العصر البرونزي المتأخر. وهناك جدار اقيم حول مجموعة المعابد والساحة المقدسة في مدينة تل المتسلم (مجدو)، تفصل الساحة المقدسة عن بقية الابنية. عند تقسيم وتصنيف مخططات المعابد معماريا الى طرز يجد القارئ نفسه في بعض الحالات امام مثال واحد من هذا الطرز، هذا لا يعني عدم تكرار استعمال هذا الطراز من المعابد بصفة شائعة، بل ان العجز في ذكر امثلة اخرى عائد الى عجز الاماكن التي تم الحفر فيها وذلك للأسلوب المتبع الذي اخذ به الاثريون لفلسطين وفي وسائل التنقيب.

وفي محاولة تسمية طراز مباني المعابد الفلسطينية لهذه الفترة وجد ان هناك

ثلاثة طرز مختلفة وهي: (٨٤)

الطراز الاول: على شكل «المجرون» Megaron

(وهذه التسمية مأخوذة من التسمية اليونانية). وهو بناء على شكل مستطيل تمتد جدرانه الجانبية من ناحية المدخل الامامي لتكون مدخلا مسقوفا وبالعادة يكون السقف مرفوعا على عامود أو عامودين. (مثل معبدي مجدو، رقم ٤٠٤٠، ٥١٩٢).^(٨٥) والى جانب القاعة المستطيلة هناك حجرة جانبية صغيرة يفتح بابها الى داخل القاعة المستطيلة. ولعل الغرض من هذه الحجرة هو لاستعمال رجل الدين القائم على خدمة المعبد، من حيث الشكل فإن هذا الطراز يشابه طراز المعابد الهلنستية في بلاد اليونان غير أن هذه كنعانية في كل ملامحها. وقد تم التنقيب عن مثل هذا الطراز في مجدو.

تل المسلم (مجدو): شكل

هناك ثلاثة معابد ملاصقة لبعضها تمت الى هذا الطراز من المعابد (مجرون) Megaron. وقد أُرخت بالسنوات ١٩٥٠-١٨٥٠ ق.م^(٨٦). اقيمت هذه المعابد في الطرف الشمالي من المدينة في المنطقة BB وهي المعبد ٥٢٦٩، و ٥٢٩٢، وكذلك ٤٠٤٠، وكلها تحمل نفس الصفات المعمارية وهي:

- ١ - قاعة عامة (أو قاعة المذبح)
- ٢ - حجرة جانبية (حجرة رجل الدين)
- ٣ - مدخل له اسطوانات ومسقوف

الطراز الثاني: المعبد الحصن

يتكون هذا المعبد من بناء مستطيل، وعلى جانبي مدخله برجان كبيران. وقد عثر على هذا النوع أو الطراز من المعابد في بلاطة (شكيم)، وكذلك في مجدو غير ان المعبد الثاني يعود الى العصر البرونزي الاخير، ولكن هذا التاريخ قد عدل، ومن المعتقد انه يعود الى العصر البرونزي المتوسط الثاني (القرن السابع عشر/السادس عشر قبل الميلاد).^(٨٧)

معبد بلاطة (شكيم): شكل

يعود المعبد (IA) الى اواخر العصر البرونزي المتوسط الثاني اي الى الحقبة ج (MBII C) ١٦٥٠-١٥٥٠ ق.م.^(٨٩). مبني من الطوب واللين، أما أساساته فقد بنيت من الحجارة. وبلغت مساحة المعبد ٢٦٣٠×٢٠٤٢م. وسمك جدرانه ٥٥م. وهذا السمك للجدران قد أدى الى الاعتقاد بأن المعبد كان يتكون من طابقين. للمعبد مدخل واحد من الجانب الضيق منه، وعلى جانبيه برجان. (وهذه هي المرة الاولى التي يتم فيها بناء ابراج على مدخل المعبد. ففي العصر البرونزي الباكر لم يكن لهذا الطراز اي وجود). في البرج الشرقي يوجد درج صاعد من المعتقد بأنه كان يؤدي الى الطابق الثاني من المعبد. أما عتبة المدخل فقد اعتلتها عمود (السطون) تحمل سقف المدخل.^(٩٠) وفي داخل القاعة الاساسية للمعبد عثر على ست قواعد وأعمدة، ثلاث على كل جانب.

تل المتسلم (مجدو). شكل

لقد أرخ لود Loud - كما اسلفنا - الطبقة الثامنة VIII التي عثر فيها على هذا الطراز من المعابد الى ما بين سنة ١٤٧٠-١٣٥٠ ق.م. واستمر هذا المعبد حتى الطبقة السابقة (٧١١) التي تعود الى ١٣٥٠-١١٥٠ ق.م، غير أن هذا التاريخ قد عدّل واصبح ينحصر ما بين السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد^(٩١). لقد مرّ معبد مجدو رقم ٢٠٤٨ بثلاث مراحل من التغيرات ما بين الطبقات الثامنة VIII والسابعة VII.

المرحلة الاولى.

بني المعبد بمساحة ٢١٥٠×١٦٥٠ وعلى شكل مستطيل وقد استعملت في بنائه الحجارة غير المشذبة، غير ان البناء كان منتظم المداميك من الداخل ومن الخارج. وبني في الجدار الجنوبي محراب بعمق ٨٠ سم. أما المدخل فقد اقيم في الجدار الشمالي، وكان محاطا ببرج في كل جانب، بلغ سمك جدرانه ٤٠ر٥٠ م.

المرحلة الثانية .

احدثت تغيرات في المرحلة الثانية للمعبد ٢٠٤٨ في فترة VII B فبدلاً من المحراب اقيم مذبح بلغ ارتفاعه ١٠ر١م وبنائه منتظم الشكل .

المرحلة الثالثة .

في هذه المرحلة بني المعبد بالحجارة أيضاً، ولكن اصبح سمك جدرانه نصف ما كان عليه في المراحل السابقة . ولما كانت الحجارة غير مشدبة فقد قصرت بملاط طيني من الداخل . وقد عاد المحراب الى مكانه ، غير أنه في هذه المرة اصبح أعمق من محراب المرحلة الاولى ، وبني الى الامام منه وعلى طول الجدار الجنوبي مصطبة يمكن الوصول اليها عن طريق درج في الطرف الجنوبي الشرقي منها . وقد قُصرت المصطبة بقصارة تشابه قصارة الجدران الداخلية .

الطرز الثالث .

الطرز الثالث اكثر تركيباً ، فقد تميز بأن له قاعة عامة في جانب منها عدد من الحجرات . وقد مرّ هذا الطراز بعدد من التغيرات عبر مراحل مختلفة الى أن وصل الى حالته الحالية . ومن الامثلة عليه ، معبد نهاريا . شكل

المعبد الشمالي -

يقع هذا المعبد في منطقة نهاريا الواقعة على الساحل الفلسطيني الى الشمال من عكا . وقد مرّ بمرحلتين اساسيتين من التغير^(٩٢) . في المرحلة الاولى كان المعبد عبارة عن قاعة بلغت مساحتها ٨٠ر١٢×٨ م Room I بنيت بالحجارة الطبيعية ، دون تشذيب . ولها مدخل واحد عبر الجدار الطويل الجنوبي . وهناك حجرة Room. IA ، الى الجانب الشرقي من القاعة . ويقوم في وسط القاعة Room I قواعد لأساطين . ويتميز هذا المعبد على وجه الاجمال بما يلي :

١ - حجرة امامية صغيرة IA

٢ - قاعة كبيرة Room I

٣ - حجرة خلفية Room II

٤ - حجرتان للخزين Room III and IV

المعبد الجنوبي -

ويوجد اضافة الى المعبد الشمالي معبد جنوبي اخر، مرّ تاريخه بمراحل ثلاث من التغير^(٩٣). في المرحلة الاولى:

بني المعبد من الحجارة الطبيعية فوق الطبقة الرملية الساحلية. وقد اتخذ شكلاً مستديراً بلغ قطره ٦ م. أما في المرحلة الثانية فقد زادت مساحته، واتخذ شكل قاعة كبيرة مربعة. وتطور هذا الشكل الى أن اصبح مستديراً، وكأن الغرض منه هو اتخاذه مذبحاً بلغ قطره ١٤ م ويمكن الوصول الى قمته عن طريق عدد من الدرجات. وأما مرحلة التغيرات الثالثة فقد كانت طفيفة وظل محتفظاً بشكل المرحلة الثانية.

بعد هذا العرض للمباني الدينية في العصر البرونزي الوسيط الثاني، يمكن أن نستنتج ما يلي:

- ١ - ان بعض المواقع الفلسطينية كان لها اكثر من معبد واحد في مكان واحد (مثل مجدو في الطبقة XV)، ونهاريا. ولعل كل معبد كانت تقام فيه الطقوس الدينية والعبادات لاله مختلف عن الآخر. أو أنه كان لكل فئة من الناس الهها الخاص بها تقوم بعبادته في معبده الخاص.
- ٢ - يظهر أن استعمال الأعمدة كان ظاهرة معمارية تميزت بها المباني الدينية اكثر من المباني المدنية.
- ٣ - في المدينة، كان المعبد يحتل مكاناً مرموقاً فيها، كما هو الحال في تل المتسلم (مجدو) وبلاطه (شكيم)، وكثيراً ما كان يبني سور يفصل الحرم الديني عن بقية اجزاء المدينة.
- ٤ - ان الدخول الى داخل المعبد كان بطريقة غير مباشرة. اما بجعل المدخل ينحرف عن محور القاعة الاساسية كما هو الحال في بلاطه في المرحلة

- الثانية (1b)، أو باقامة حجرة او مدخل او معمد قبل قاعة العبادة .
- ٥ - لا يوجد اتجاه ثابت اتخذه المعبد . من حيث الاتجاهات الاصلية الاربعة .
- ٦ - ثمة مخلفات ذات مغزى ديني عثر عليها في هذه المعابد ، مثل اناء له سبعة فناجين ، وتمائيل معدنية صغيرة . وبعض المباخر الفخارية ، وكذلك تماثيل فخارية صغيرة . وبعض المظاهر الفخارية ، وكذلك تماثيل فخارية صغيرة . وبعض المجوهرات^(٩٤) وقد عثر على هذه المخلفات في كل من نهاريا^(٩٥) ومجدو^(٩٦) وهي تشابه الى حد ما عثر عليه في بيلوس في لبنان التي تعود الى الفترة الانتقالية (أي ما بين البرونزي المبكر والبرونزي المتوسط). وكذلك الى العصر البرونزي المتوسط الاول والثاني^(٩٧).

المباني المدنية

المنازل

ان الدراسة التحليلية لمباني المنازل في المواقع الفلسطينية مثل تل بيت مرسم، اريحا، تل المتسلم (مجدو) تل القاضي (حازور) تل نجيلة، تل العجول، عين شمس، تعنك، تل الفارعة، بلاطة (شكيم) وجبل جرزيم نابلس، تشير كلها الى وجود طرز أو انماط ونماذج لمخططات مختلفة للمنازل، اتبعها الناس في بناء بيوتهم بعضها اتخذ الطابع البسيط، وبعضها الآخر اتخذ الطابع المركب المتطور. وعبر دراسة تحليلية لمخططات المنازل^(٩٨) تبين أنها اتخذت المخططات للنماذج الآتية:

النموذج الأول Type I :

وهو عبارة عن حجرة أو حجرتين تتقدمهما ساحة سماوية مكشوفة (وسط دار). وهذا النموذج بدوره ينقسم الى قسمين

أ (بسيط من حيث اتقان البناء وعدد الحجرات ومادة البناء المستعملة من حجارة او طوب لبن. والمساحة التي يحتلها البناء. تم العثور على هذا النموذج من البناء في كل من تل بيت مرسم، اريحا، تل القاضي (حازور) تل نجيلة، وتل العجول.

ب (المركب. وقد اتبع التخطيط نفسه غير أنه اكبر مساحة، وأكثر حجرات، وأحسن بناء وتخطيطاً ونوعاً. وقد عثر على هذا النموذج من البناء في كل من تل بيت مرسم، وعين شمس.

النموذج الثاني Type II :

ويتكون من ساحة امامية محاطة بالحجرات من جانبيين من جوانب الساحة. وهذا النموذج بدوره ينقسم الى قسمين أ - بسيط، ب - مركب. تماماً مثل النموذج الأول. وقد عثر على هذا النوع في اكثر المواقع.

يتميز هذا النموذج بأن مخططه يتكون من ساحة وسطية (وسط دار) وتحيط بها الحجرات أ- من على طرفيها المتقابلين، ب- أو أن الحجرات تحيط بالساحة من جميع جوانبها الأربعة.

النموذج الرابع Type IV :

تخطيط هذا النموذج عبارة عن وجود ساحة اشترك فيها عدد من المنازل المتكون كل منها من حجرة واحدة، وقد شاركت هذه الحجرات هذه الساحة بشكل عشوائي دون اتخاذ شكل محدد.

النموذج الاول - البسيط : شكل

ان مخطط هذا النموذج من المنازل هو الأشيع في فلسطين. ولعله حل محل البيت الريفي الذي كان شائعاً في فلسطين قبل اتباع المدن نظاماً معتمداً في البناء^(٩٩). حيث أدى نفس الغرض الذي كان يؤديه البيت الريفي من استعمال الحجرة للنوم والساحة الامامية للاعمال اليومية المختلفة ولا يواء الحيوانات. ويحتوي هذا البيت عادة على غرفة رئيسية عريضة امامها ساحة غير مسقوفة. أما المدخل الى الحجرة من الساحة فهو لم يلتزم مكاناً ثابتاً، فمرة نجده عند طرف الحجرة، ومرة اخرى عند وسطها، غير أن الصفة الغالبة لمكانه هو قرب الزاوية في الجدار الطويل من الحجرة. (حتى لا يشاهد المارة من بداخل الحجرة) كما هو الحال في تل نجيبلا، وتل العفولة^(١٠٠). وتل القاضي^(١٠١) (حازور)، وتل بيت مرسم الطبقة F البناء رقم SE30 والحجرة FB, F15^(١٠٢) واربحا^(١٠٣). وبيت آخر في تل بيت مرسم وهو T-4. 12, 11, 10 Loci SE 13 في المنطقة A (Area A)^(١٠٤) ويمكن اضافة البيت ٦٢٠٥ في تل القاضي (حازور) في المنطقة C الطبقة (Stratum 3) الحجرة ٦١٩٢، والساحة ٦١٩١^(١٠٥). والبيت رقم ٣١٦٠ في مجدو في المنطقة BB في المنطقة الحادية عشرة (Stratum XIII)

النموذج الاول - المركب - شكل

ان التميز بين البسيط والمركب في هذا النموذج من مخططات المنازل يعتمد على

الزيارة في مساحة البيت ، وجودة نوعية البناء وهذه ربما تشير الى أن اصحابها كانوا اكثر ثراء من اصحاب النموذج البسيط . وبالإضافة الى ما سبق نجد أن بناءه يتمشى مع المخطط العام للمدينة فهو لم يُبن عشوائياً .

وجد هذا النموذج في موقع تل بيت مرسوم الطبقة G ، المربعات SE 32 ، SE 33 وقد مرّ هذا المنزل بمرحلتين انتهت المرحلة الأولى منهما عندما تعرض البيت الى اشتعال النيران فيه . فقد تم العثور على طبقة من الرماد تفصل بين المرحلة الأولى ، والمرحلة الثانية^(١٠٦) .

هذا وقد قارن « البرايت » بين هذا البيت ، والقصر (او المعبد) المكتشف في عاي والذي يعود تاريخه الى العصر البرونزي الباكر^(١٠٧) . حيث يتشابه الاثنان في كثير من معالمهما . وهناك بيت مشابه لهذا النموذج في المنازل في عين شمس يعود بتاريخه الى ١٧٠٠ وحتى ١٥٠٠ ق . م^(١٠٨) .

أما البيت الذي اطلق عليه « البرايت » اسم قصر ، أو (بيت القضاة) التي عثر عليه في الطبقة D في تل بيت مرسوم المربع SE 22 فيصفه بأنه مكون من ساحة امامية ، والحجرات على جانب واحد من هذه الساحة . بلغت مساحة ساحة هذا البيت ١١ × ٦ م ويعتقد بأنه يتكون من طابقين .

النموذج الثاني : البسيط : شكل

هذا النموذج عبارة عن منزل ذي ساحة امامية تحيط بالحجرات جانبيين متجاورين منهما . وكما بينا سابقا فالفرق بين البسيط منها والمركب . في النموذج الاول هو نفسه هنا .

ان في المنازل (المباني) وفي شكل تخطيطها وفي نوعية بنائها ما يدل على مستوى من يقطن فيها وعلى مركزه الاجتماعي ، فهي الدليل على الفوارق في الثروة والجاه ، والنفوذ . وبازدياد تطور المجتمع تتطور المساكن وتتطور وظيفة كل جزء من اجزائه .

تم الكشف عن منازل تنطبق عليها مواصفات مخططات النموذج الثاني: المركب في كل من تل بيت مرسم، مجدو، تعنك، وكذلك في تل العجول. ففي تل بيت مرسم الطبقة D بني فوق المنزل SE13 السالف الذكر بيت آخر عثر فيه على مستودعات للتخزين في الحجرة رقم ٦ ورقم ٤^(١٠٩). أما في موقع مجدو فقد تم التنقيب عن مجموعة من المنازل لها هذا التخطيط في المنطقة BB الطبقة ١٢ (XII) المربعات O,N 14-15^(١١٠).

وفي تعنك ايضا تم الكشف عن منزل بنفس هذا التخطيط في المربع SW 5-4 و SW 5-3 في الجانب الغربي من التل^(١١١) وفي تل العجول البيت المكون من W,T,W المكتشف في الساحة^(١١٢).

النموذج الثاني المركب:

عبر الحفريات التي اجريت في سنة ١٩٠٤ من قبل البعثة الالمانية تمّ الكشف في موقع تعنك عن منازل لها تخطيط النموذج الثاني المركب^(١١٣). وقد اطلق على احد هذه المباني اسم المبنى الغربي. ويعتبر من أجمل المنازل في تل تعنك، فقد اعطي عناية فائقة في التخطيط وفي مواد البناء ونوعها، وقد بلغت مساحته ٢٣٦٠ م^٢. وقد احيطت مساحته الامامية من الجانبين بصف من حجرات يحتمل انها استعملت للتخزين. أما الحجرة رقم ١٠ فقد احتوت على الفرن. أما بئر الماء فكانت في وسط الساحة الامامية. مدت ارض المنزل بقصارة ناعمة. ويعتقد بأن الحجرة رقم ٢ كانت عبارة عن الدرج الصاعد الى الطابق الثاني. ولا يوجد شبيه لهذا المنزل خارج فلسطين^(١١٤). لذا يعتقد بأن هذا المنزل فلسطيني محلي اتبع تقليدا كنعانيا وقد استمر هذا حتى العصر الحديدي، وهو يشابه البناء رقم ١٧٢٩ في الطبقة الرابعة ب IVB في مجدو^(١١٥).

وجمل القول ان النموذج الثاني: المركب من المنازل يتميز بأن له ساحة مستطيلة ذات حجم مميز وذات بناء جيد وموقع جيد أيضاً. وكان المدخل اليه في منتصف الجدار الطويل للساحة. أما الحجرات المستطيلة فهي الى الخلف من

الساحة. وان سمك الجدران لتشير الى وجود طابق ثان يمكن الوصول اليه اما بدرج او بسلم خشبي من الساحة الامامية. ومن المحتمل أن الساحة الامامية لم تكن مسقوفة كلها بل جزءا بسيطا منها.

النموذج الثالث:

يتميز النموذج الثالث بان له ساحة متوسطة محاطة بالحجرات، وقد بنيت بشكل منتظم متخذة شكلا مربعا في اكثر الحالات. وقد بنيت الحجرات بحيث تفتح ابوابها على الساحة الوسطى. وقد تباينت هذه المنازل من حيث أ- أن حجرات بعضها كانت مقامة على جانبيين متقابلين من الساحة الوسطى. ب- ان الساحة الوسطى كانت محاطة بالحجرات من ثلاث جهات. ج- او ان الساحة الوسطى كانت محاطة بالحجرات من الجهات الاربع^(١١٦).

ان اكثر الامثلة على هذه النماذج وجدت في مجدو، والقليل من بلاطة (شكيم وتل الفارعة. والسؤال هو الى أي مدى يمكن أن تكون منازل مجدو ذات هذا التخطيط ممثلة النموذج في فلسطين كلها؟ بما أن مجدو قد جرى التنقيب فيها بشكل موسع، لذا فنحن نعتقد بوجود الشيء نفسه في المواقع الأخرى.

النموذج الثالث أ:

تم الكشف عن هذا النموذج في مجدو وتل الفارعة في الوقت نفسه الذي اكتشف فيه النموذجان ب و ج منه اكتشف في مجدو في المنطقة BB، الطبقة الثامنة عشرة (Stratum XII, 7,8 K-L) البيت B^(١١٧).

واكتشف في تل الفارعة البيت المنشور في اللوحة الثالثة عشرة (XIII)^(١١٨). وهو يشابه البيت EAD في تل العجول^(١١٩) وتشابه هذه المنازل الى حد ما منازل العمال بمدينة العمال في تل العمارة في مصر^(١٢٠).

النموذج الثالث ب :

وجد ايضا في مجدو بجانب الطراز أ في المنطقة AA الطبقة الثانية عشرة، والطبقة الحادية عشرة AA, Strata XII, XI وفي المنطقة العاشرة من المنطقة BB (Area BB Stratum X)^(١٢١) وكذلك في المنطقة AA الطبقة العاشرة (Stratum E, Area AA, k-8)، وهناك بيت اقرب الى القصر منه الى البيت وهو رقم ٤٠٣١. اقيم في فترة الطبقة العاشرة ثم تطور وكبر حجمه في فترة الطبقة الثامنة والسابعة، الى أن اصبح قصرا^(١٢٢).

النموذج الثالث ج :

وهو النموذج الذي تميز بأن الحجرات تحيط بالساحة الوسطى في جميع الجهات من هذه المنازل المنزل ١٢ و ١٤ و ٢٣ في المجلد الثاني من نشرات مجدو^(١٢٣)، وكذلك المنازل في الشكل ٦٣-٦٥ المنشورة في كتاب Shechem^(١٢٤). والبيت رقم ٣٠٤ في Shechem بلاطه أيضاً^(١٢٥).

النموذج الرابع :

كما أشرنا من قبل عبارة عن ساحة شارك في استعمالها عدد من الوحدات السكنية (الغرف) لذلك لم يتخذ هذا المنزل اي شكل منتظم، فقد اضيفت الحجرات وتجمعت حول الساحة بشكل عشوائي دونما اي تخطيط او انسجام مع ما يحيط بها من مبان (صفة الاحياء الشعبية) وهذه مثل المجموعة الممثلة في المنطقة BB في مجدو في المربعات M-N 11,12 الطبقة XIII B وكذلك XII^(١٢٦).

وفي تل بيت مرسوم الطبقة D^(١٢٧). وقد اطلق « البرايت » على هذا النوع من المنازل اسم Plebian house. وكذلك تم الكشف في عين شمس على نفس النموذج من البيوت المتكونة من الحجرات ٥٩٠، ٥٨٤، ٥٧٠، ٥٧٩ وكذلك ٥٣٠^(١٢٨). هذا وقد ابانت اريحا عن وجود منازل بها تميزت بهذا التخطيط^(١٢٩).

المقابر وعادات الدفن

المقابر -

في العصر البرونزي الوسيط الثاني الحقبة أ:

تم العثور على مقابر هذه الفترة في كثير من الاماكن في فلسطين وقد استعمل الانسان وسائل واماكن مختلفة لدفن موتاه ويمكن تصنيف هذه المقابر على النحو الآتي:

المقابر المحفورة: ان استعمال المدافن المحفورة في التل من اجل دفن الموتى كانت أشيع من غيرها في هذه الحقبة. وكانت العادة ان الحفرة تستعمل لشخص واحد او لاثنين.

وقد تم العثور على هذا النوع في اكثر مواقع العصر البرونزي الوسيط وكان يوضع الى جانب المتوفى القليل من الادوات. وكان الجسم يُسجى على جانبه او على ظهره وبشكل منكمش وركبته الى اعلى. اما الاتجاه فلم يكن على وتيرة واحدة، فقد اتخذ اتجاهات متعددة متغيرة.

القبور المبنية: ثمة نوعان من القبور المبنية احدهما بنيت جدرانها بالطوب والآخر بنيت جدرانها بالحجارة. ففي اريحا عثر على مقابر بنيت بالطوب وكانت سقفها مقببة^(١٣٠). اما الثانية فقد تم كشفها في مجدو، وقد غطيت سقفها ببلاطات حجرية^(١٣١). وقد وجد النوعان الاول والثاني في مجدو، ورأس العين، غير أن في مقابر رأس العين بعض الاضافات، حيث وجدت فيها بعض الحنيات، وضعت بها عظام المتوفين الذين سبقوا الاخير منها.^(١٣٢)

استعمال مقابر قديمة:

أما الطريقة الثالثة فهي اعادة استعمال مقابر قديمة تعود الى عصور سابقة، كما هو الحال في اريحا^(١٣٣)، والجيب^(١٣٤)، وخربة قوفين^(١٣٥)، وفي مجدو حيث استعملت

قبور MBI مرة ثانية في MBII A^(١٣٦). وكذل تل الدوير (الخبش)^(١٣٧). فالكهف الذي كان مستعملا كقبر في العصر البرونزي الباكر الثالث اعيد استعماله في هذا العصر ايضا.

الدفن في جرار:

النوع الاخير من القبور، هو استعمال الجرار الكبيرة مدافن ، وقد عثر على هذا النوع من مجدو وكلها كانت مدافن للاطفال. ولما كانت هذه المقابر بانواعها المختلفة مقابر فردية غير جماعية فقد دفن معها القليل من الاواني والادوات، فقد كانوا يضعون مع المتوفى صحنين، أو قارورتين، أو جرة كبيرة. أما طابع هذه الآنية فكان مختلفا اختلافا كليا عن العصر البرونزي الأول MBI. لذا ، فان مقابر هذا العصر تمت الى مجموعات تختلف عن المجموعات التي سبقتها. وتتشابه أواني العصر البرونزي الوسيط الثاني الحقبة أو المرحلة أ (MBII A) ، مع مثيلاتها في سورية، وهو تشابه يشير الى المكان الذي قدم منه اناس هذا العصر في هذه الفترة.

عادات الدفن في العصر البرونزي الوسيط الثاني الحقبة ب/ج:

ان عناصر الحضارة للحقبة ب/ج متشابهة جدا ويعتبر كل عنصر منها استمراراً للعنصر الآخر، حتى وسيلة الدفن واحدة لم تتغير في فلسطين، والشيء المختلف عن الحقبة أ هو شيوع استعمال المقابر الجماعية. وتتميز المقابر في هاتين الحقتين بما يأتي:

استمرت عادة حفر القبور في الطبقة الارضية الترابية كما كانت في الفترة السابقة. وكان الدفن يتخذ شكل البساطة، فقد احتوى القبر على هيكل أو هيكلين في حفرة مستطيلة أو بيضاوية، وقلما كانت دائرية. وان معظم المدافن وجدت في مقابر قريبة من المدينة (التل)، حيث ان استعمال التل للدفن قد ظل طريقة مستعملة. وكانت المدافن توضع تحت أرض حجرات المنازل.

والنوع الآخر من القبور المبنية بالحجارة أو بالطوب اللبن. كانت على شكل مستطيل تغطي ببلاطات حجرية. وقد تم العثور على هذا النوع في

مجدو^(١٣٨)، وتل العجول^(١٣٩)، وتم العثور على قبور مستديرة او بيضاوية في مجدو خلال الحفريات الالمانية بادارة «شوميخر»^(١٤٠).

أما الطريقة الثالثة: للدفن فهي اعادة استعمال المقابر القديمة، وفي هذه الحال تم استعمال المقابر كمقابر جماعية حيث اعيد استعمال مقابر العصر البرونزي المتوسط الاول MB 1. ولكن الناس الجدد قد أجروا تغييرات في القبر بتناسب مع مناسك الدفن الجديدة.

اما الطريقة الرابعة: فهي استعمال الجرار الكبيرة للدفن وكانت هذه تدفن تحت ارض المنازل او في المقابر^(١٤١).

والطريقة الخامسة: وهي الدفن في غرف في باطن الارض وشكل الغرف اتخذ شكل الكلية لذلك سميت بمقابر الكلية، وكانت هذه الطريقة شائعة في جنوب فلسطين في تل العجول^(١٤٢)، وتل الفارا^(١٤٣)، وكذلك في القدس^(١٤٤). بالاضافة الى تل الدوير (لاخيش)^(١٤٥)، وقد تميزت هذه القبور بانها غرف على شكل الكلية ولها نفق يؤدي اليها. هذا وقد استعمل القبر قبرا جماعيا.

أما النوع السادس: فهو حجرات نحتت في الصخر اما مستطيلة أو مستديرة أو بيضاوية، ولها محاريب على جوانبها ((Loculi)، وقد سجي المتوفى في المحراب (Nich)، بينما وضعت ادوات الدفن في وسط الحجر^(١٤٦).

طقوس الدفن

الدفن في التلال: ان بعض المدافن كما اسلفنا سابقا قد وجدت في المدينة نفسها تحت ارض المنازل أو بالقرب من حواف المدينة وتعتقد «كاثلين كنيون» بأن هذه العادة نابعة من ان الناس كانوا يخافون من عبث العابثين في مدافنهم، لذلك دفنهم بالقرب من مساكنهم.^(١٤٧)

وكانت هذه العادة مستعملة لفترة طويلة في بلاد ما بين النهرين.^(١٤٨)

المقابر الفردية: ان اكثر المقابر شيوعا في فلسطين خلال العصر البرونزي المتوسط الثاني هو القبر المنفرد البسيط، أو المقبرة العائلية (الأب والأم والأولاد)، وخاصة عند انتشار مرض معد، أو عند حدوث كارثة تكون سبب الوفاة، ومقبرة العائلة هذه لم يعثر على الكثير منها واكثرها انحصر في مواقع قليلة مثل تل العجول، وتل فارا ومجدو. ولكن لا يمنع من أن تكون هذه العادة شائعة الاستعمال في المواقع الاخرى.

المقابر الجماعية: ان الدفن في قبور على شكل حجرات (وهي في الاصل قبور الفترة التي سبقت هذا العصر اي قبور العصر البرونزي الباكر واعيد استعمالها في هذا العصر)، عثر عليه في اكثر المواقع الفلسطينية وخير مثل عليها مقابر أريحا. هذا وقد زود القبر بأثاث مختلف الأغراض^(١٤٩). فبعد ان يتم اعداد القبر، يسجى المتوفون في حجرة الدفن على ظهورهم وفي أكثر الأحيان تكون الركبتان مرتفعتين الى اعلى^(١٥٠). وكان المتوفى يسجى على الارض مباشرة، اذ كانت توضع حصيرة تحته. أو تقام مصطبة من الطين او الحجارة يسجى المتوفى عليها^(١٥١). هذا ويعتقد بأن المتوفى كان يلف بقطعة قماش (كفن) يثبت عند الوسط او الكتف بشكالة^(١٥٢). وتدفن بجانبه حاجياته مثل أدوات الزينة للنساء، والسلاح للرجال، واكثر الاشياء شيوعا هي الجعلان (Scarabs). حيث كانت الخواتم ترصع بالجعلان، أو تضاف الى العقود حول الرقبة او المعصم^(١٥٣). وتم العثور على امشاط خشبية كانت تثبت في شعر النساء، او توضع مع ادوات الزينة الاخرى في سلة من القش. أما القوارير الفخارية (زجاجة العطر) وصندوق الزينة المرصع فكانت توضع بجانب الجسم، وتوضع بجانبه ايضا الصحون والزبادي الفخارية ممتلئة بالاطعمة. أما جرار الخزف فكانت توضع فيها المواد السائلة.

عثر في مقابر اريحا على طاولات خشبية، يعتقد بأن الاطعمة قد وضعت عليها، بالاضافة الى العثور على كراسي قصيرة. وفي قبر واحد عثر على فرشاة وضع المتوفى عليها.

بعد وضع كل هذه الاشياء في القبر، يقفل مدخل القبر بحجر كبير ويملاً
النفق بالتربة، وإذا ما اضيف فرد جديد من افراد العائلة بعد ذلك، يفرغ النفق
ويزاح الحجر الذي يعلّق حجرة الدفن بينما يسجى المتوفى الجديد في وسط الحجرة
وتضاف معه ادوات جديدة توضع الى الجانب منه ثم يعاد القبر الى حالته الاولى
مرة ثانية وهكذا.

الادوات الفخارية

ان افضل دراسة وضعت حول فخار هذا العصر هي دراسة الدكتور عوني
الدجاني Awni Dajani "Middle Bronze Age Pottery" ADAJ Vol IV
Ruth Amiran, Ancient and V (1960) pp. ggff
Pottery of the Holy Land.
Rutgers University Press, 1970

وقد تميزت صناعة هذا العصر الفخارية بأن فخارها من النوع الجيد حيث
صنعت على دولاب سريع. وقد تميزت صناعة الفخار في الحقبة ب/ و ج عن
فخار الحقبة أو هو ظهور الزبادي المصنوعة على دولاب سريع والمصقولة جيدا.
وقد قسم الدجاني فخار العصر البرونزي المتوسط الثاني الى ست مراحل زمنية
متتالية فبالاضافة الى وصف الاشكال والنماذج الفخارية كان تقسيمها كالآتي :-

١ - الصحون (والزبادي):

أ (الاواني ذات الحواف الداخلية والجدران المستقيمة، وصحون
لها اجسام ذات زاوية أو أن جسم الإناء له زنا Carinated
Bowls.

ب (صحون كأسية الشكل.

٢ - القوارير الصغيرة وتتميز قوارير اريحا بأن لها قواعد على شكل البوق.
وكذلك قوارير مجدو غير انها اكثر استطالة من قوارير اريحا.

- ٣ - قوارير ذات ارجل ثلاث حلقيه .
- ٤ - القوارير المتلطفة .
- ٥ - قوارير تل اليهودية المرصعة .
- ٦ - قوارير تل اليهودية المتلطفة .

وقد عزيت قوارير النوع الخامس والسادس الى انها من صناعة الهكسوس^(١٥٤) هذا النوع من القوارير لا (الزجاجات) كان منتشرا في قبرص وفلسطين والساحل السوري ومصر . غير ان اكبر كمية وجدت منه كانت في فلسطين وبعدها بالمرتبة تأتي مصر . بما أن اشكال هذا الفخار مأخوذة من عائلة الفخار الفلسطيني الكنعاني لهذه الفترة ، لذلك اعتبر مصدرها فلسطين . اما اعتبار ان المكان الذي عثر فيه على هذه القارورة واعتباره مركزا من مراكز الهكسوس ، فالجواب عن ذلك ان قارورة تل اليهودية يمكن ارجاع تطورها الى العصر البرونزي الباكر ، ثم بدأ سطحها يزين باللون الابيض واللون الاسود في العصر البرونزي المتوسط الحقبة الاولى او الدور الاول منه وخاصة في مجدو في الطبقة (XIV- XIII) وكذلك مقبرة الساحة في تل العجول Couryard Cemetery وفي تل بيت مرسم^(١٥٥)

- ٧ - القوارير الاسطوانية .
 - ٨ - الاباريق :
 - أ (الاباريق ذات الفم المنبعج .
 - ب (الاباريق ذات اليد الواحدة .
 - ٩ - المكايل : المكايل المستطيلة المسحوبة .
- (انظر الشكل)

(وينصح بالرجوع الى كتاب عمران ومقالة الدجاني للزيادة في التفاصيل حيث أجد نفسي مضطرا لعدم الخوض بشكل اكثر من هذا في موضوع الصناعة الخزفية لان ذلك سيكون تكرارا لما اجراه الدكتور الدجاني ، والدكتورة كاتلين كينون في كتابها The Archaeology of the Holy Land وكذلك للدراسة التي اجرتها الدكتورة روث عجلان في كتابها السالف الذكر .

الجعلان

لقد عثر هلى الكثير من الجعلان Scarabs في فلسطين ومصر خلال العصر البرونزي المتوسط. وقد قيل بأن جعلان هذه الفترة هي «جعلان الهكسوس»^(١٥٦).

انه لمن الصعب استعمال الجعلان لتحديد فترة معينة. فالعثور على جعلان في طبقة ما. (فترة) يؤرخ انتهاء المرحلة وليس بدايتها.

ان توزيع الجعلان في المواقع الفلسطينية ووجودها يدعوان الى الملاحظة فقد كثر شيوعها في فلسطين حتى انه قيل ان الكمية المكتشفة في فلسطين تأتي في المرتبة الثانية بعد مصر. هذا وقد شاع استعمال الجعلان في مصر في الفترة الانتقالية الثانية، وبعد ذلك أخذ استعمالها في الاضمحلال^(١٥٧).

لقد تم العثور على اكبر كمية من الجعلان في المواقع الفلسطينية الجنوبية الساحلية والقليل منها تم العثور عليه في المواقع الداخلية الجبلية الشمالية منها او الوسطى. ان المجموعة التي عثر عليها في تل العجول، تل فارا، وتل الدوير وكذلك اريحا تفوق في عددها اية مجموعة عثر عليها في أي موقع مصري (العجول عددها ١٢٤٠، تل فارا ٦٩٢، الدوير ٤٠٠، اريحا ٤٢٧، مجدو ٣١٧، تل الجزر ٣٩٧).

أما الاشكال التي نحتت على الجعلان فهي لولبية، أو دائرية او منحنيات على شكل S أو ما يطلق عليه شكل Anra^(١٥٨). ويلاحظ وجود تطور تدريجي في الاشكال المنحوتة. وقد ازدهرت صناعة الجعلان في كل من تل العجول، تل فارا، وأريحا^(١٥٩) ومع ان الاشكال المنحوتة عليه هي نماذج من الاشكال المصرية غير ان «تفنل» (Tufnell) تشير الى ان (الرداء الحثي) الذي يرتديه بعض الاشخاص في الجعلان لها علاقة وثيقة بالاصل السوري - الحثي - الحوري^(١٦٠)

الممر (الالباستر)

ان المادة الحجرية الرخامية (الممر) معروفة في مصر منذ عصور مبكرة. غير أن استعمال الممر في فلسطين لم يصبح شائعا وعلى نطاق واسع الا في العصر البرونزي المتوسط الثاني^(١٦١) وكثيرا ما كانت صناعة الممر هذه تقليدا لصناعة الممر المصرية. وبعضها يقلد اشكال الأواني الفخارية المستعملة في هذا العصر^(١٦٢) ويمكن تمييز الممر المصنوع محليا حيث ان مادته أقرب الى حجر «الجبصين» منه الى الممر المصري^(١٦٣). هذا ما يحاول «بن نجادور» اثباته، غير أن الدجاني يخالفه الرأي ويقول بأن هناك ممرًا محليا يشابه المصري^(١٦٤). وقد عثر على الكثير من قطع الآنية المصنوعة من الممر في كل من بيسان الطبقة العاشرة (X) وتل العجول، وتل فارا واريحا^(١٦٥)، وبما لا شك فيه ان الممر الفلسطيني متأثر بصناعة الممر المصري.

الادوات القيشانية

ان ادوات القيشاني Faience من الادوات التي تم العثور عليها في طبقات العصر البرونزي المتوسط الثاني. وهي على شكل قوارير (زجاجات) صغيرة مثل الزجاجات التي عثر عليها في تل بيت مرسم الطبقة E و D، وفي تل الجزر، والعجول، ومجدو، وتل فارا، وتل الدوير، وكذلك اريحا^(١٦٦).

الادوات المعدنية

لقد تم العثور على ادوات معدنية بأشكال مختلفة، منها ما كان سلاحا كالخنجر والبلطات والفؤوس ونصال الرماح والسهام، أو تماثيل صغيرة آدمية أو حيوانية كما ورد ذكره سابقا.

ان خير دراسة عن المعادن في العصر البرونزي المتوسط الثاني MBII قام بها الدكتور عوني الدجاني وكذلك الدراسة التي قامت بها الدكتورة ماكسويل هيسلوب عن معادن الشرق القديم^(١٦٧). فقد اتبع الدجاني التقسيمات نفسها التي اتبعتها هيسلوب من حيث تقسيم الخناجر الى نماذج مختلفة، وقد استعمل خمس نماذج منها وخاصة انه تم العثور على الكثير من هذه النماذج في فلسطين التي تعود الى هذا العصر. وهذه التقسيمات هي على الشكل الآتي :

نموذج ٢٥ : وهو عبارة عن خنجر مدبب ذي نصل على شكل ورقة الشجر مع وجود عدد من التحزيزات الطويلة. أما مقبض الخنجر فقصير نسبيا. وهناك عدد من مسامير التعشيق تثبت اليد الخشبية بالمقبض. وقد تم العثور على هذا النوع في كل من مجدو في القبر رقم ٩١١^(١٦٨) وتل العجول في القبر ١٤١٧ من مقبرة الساحة Courtyard Cemetery

نموذج ٢٦ : وهو خنجر نحيف مدبب النصل وله مقبض محني وكذلك له مسمار أو مسماران لتثبيت اليد الخشبية. ان هذا النموذج كان نادر الاستعمال، فقد تم العثور عليه في القبر I في تل الجزر، وعثر على آخر في اريحا في القبر رقم GE وعلى اثنين في تل العجول لوحة ١٨ : ٧ المجلد الرابع^(١٧٠) وخنجر واحد آخر عثر عليه في تل الفارعة في القبر A.

نموذج ١٧ : يتميز هذا الخنجر بأن طرفيه محدبان، وقد زيد بقوة النصل بأن زاد سمكها من سابقتها. وأول نموذج تم العثور عليه كان من اريحا، انظر P.E.Q1954 لوحة ١٧ هذا وقد قسمت السيدة هيسلوب هذا النموذج الى ثلاثة اقسام فرعية اخرى وهي ١٧ أ: وهو خنجر مدبب وله قناة مرتفعة في وسط نصلته، و ١٧ ب: وهو خنجر مبسط من غير وجود قناة وسطى. وهذا النوع كان اكثر شيوعا^(١٧١).

نموذج ٢٧ : وهو عبارة عن خنجر صغير دون وجود مسامير تعشيق، حيث قيل عنه في بعض الاحيان بأنه رأس رمح. وهو مبسط ذو حواف سميقة وعريضة قبل

المقبض ونصله طويلة، وأهم خنجر من هذا النوع عثر عليه في تل الدوير حيث
نقشت عليه كتابة^(١٧٢)

نموذج ٣١: يتميز هذا الخنجر بأن مؤخرة اليد منفرجة وقد طرقت مع النصل
وليس وحدها، وهي دليل على تقدم صناعة الخناجر في هذا العصر^(١٧٣).

انه لمن الصعب تحديد تواريخ هذه النماذج المختلفة بالضبط حيث أن القليل
منها قد تم العثور عليه في مواقع يمكن الاعتماد على تاريخ طبقاتها.

البلطات: تم العثور على نموذج واحد من البلطات يعود الى هذا العصر، وقد
اكثر استعماله طول العصر البرونزي المتوسط الثاني MBII^(١٧٤) أما الفؤوس فأول
نموذج لها عثر عليه في تل بيت مرسم ويعتقد بأنه يعود الى MBII^(١٧٥) أما بالنسبة
الى رؤوس الرماح فاکثرها عثر عليه في العصر البرونزي الاخير، ولا يوجد لدينا الا
موقع واحد يمكن ارجاع رؤوس السهام فيهما الى هذا العصر، وهو تل بيت مرسم
في الطبقة D.

لقد اجريت حديثاً دراسة وافية عن العناصر التي تتكون منها الأدوات المعدنية
للعصر البرونزي المتوسط، ويمكن الرجوع اليها في مقالة برمنجهام في حولية
Levant المجلد التاسع^(١٧٦). فلا مجال هنا للكلام عن العناصر.

التحليل التاريخي للمظاهر الاثرية

ان دراسة اشكال الاستيطان في العصر البرونزي الوسيط الثاني كما بينا، لتدل على ظهور اسلوب جديد اتبعته المدن الفلسطينية في تخطيطها، يصبح راسخا في اواخر الحقبة ب وأوائل الحقبة ج من العصر البرونزي المتوسط الثاني، وتجلي ذلك في بناء التحصينات الزلقة والمعابد المقامة على مرتفع (تراي) مثلها مثل اسوار المدن التي احيطت بالجدران الزلقة الترابية. وفي نفس الفترة التي ظهر فيها نظام الجدران الزلقة كانت ظاهرة اتساع المدن وانتشارها المتزايد وان البعض الآخر من المدن التي كانت قائمة في العصر البرونزي الباكر قد تلاشى كليا دون ان يعاد الى بنائها في العصر البرونزي المتوسط. وكذلك ظهور مدن جديدة كليا وخاص في المنطقة الجنوبية من فلسطين وخاصة في منطقة النقب (انظر الخريطة رقم ١) أضف الى ذلك ما اتخذته المدن الفلسطينية من اسلوب مميز وهو استعمال (المربعات) المستقلة Insulae وما تبعه بالضرورة من ظهور جهاز اداري منظم ومجتمع سكاني له تقاليد اجتماعية ذات اصول راسخة ويستدل على ذلك ايضا في نظام تخطيط المنازل المدنية واتباع تقليد سيظل شائعا حتى بعد العصر البرونزي المتوسط الثاني. ويمكن ان نستنتج من التباين في تخطيط المنازل الى التباين في التركيبة الطبقيّة للمجتمع المدني الفلسطيني.

أما ما نستطيع ان نستنتجه من عادات الدفن والمقابر، فانه ليصعب علينا الخروج بأي تحليل خلافا لما وصلنا اليه من اختلاف في اشكال المقابر وعدم وجود تفاوت في عادات الدفن، أما عن المادة الحضارية الأخرى كالخزف، والجلعان، والمرمر والادوات المعدنية والاسلحة فهي حافظت على الطابع العام في الاستمرارية التطورية المتجانسة مع ملاحظة تأثرها بالمادة الحضارية المصرية والسورية وبصورة اقل مع بلاد ما بين النهرين.

ان ما نستنتجه من مظاهر المعالم الجديدة للمدن وتخطيطها الجديد، على العكس من ذلك في المادة الحضارية الأخرى (كما ورد سابقا) خلال العصر

البرونزي المتوسط الحقبة أ، ب، ج، ليدل على أن فلسطين قد تعرضت لهجرات على مراحل وان موطن هذه الهجرات كان من مناطق على علاقة حضارية وثيقة بفلسطين ألا وهي سوريا، وخاصة أن البيئة الجغرافية الفلسطينية السورية اخذت تتخذ طابعا حضاريا متشابهاً منذ الالف الثالث قبل الميلاد. وقد اشار شافير (كما ورد سابقا) الى أن مدن سوريا قد هجر وبعضها كلياً والبعض الآخر قد صغر حجمها وقل عدد سكانها، وأصابها الاضمحلال، في اواخر ١٧٠٠ ق. م. وسبب ذلك هو هجرة هؤلاء الى فلسطين. ولجل التأكد من هذه الملاحظة لا بد لنا من ان نستعرض تاريخ سوريا وبلاد ما بين النهرين خلال هذا العصر وخاصة عبر الوثائق الكتابية (هذه المرة)، لعلنا بالمقارنة نستطيع ان ندرس تاريخ فلسطين.

ان الوثائق الكتابية المكتشفة في ماري ومع انها تعود الى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن الثامن عشر قبل الميلاد^(١٧٧) فهي تشير الى عدد قليل من المدن السورية، مثل: حلب، قطنا يوغاريت، بيلوس، ومنطقة ابوم، حازور لخيش في منطقة أمور^(١٧٨)، كل هذا يدل على أن هذه المدن كانت عامرة خلال تلك الفترة. أما الكتابات المكتشفة في الطبقة ٧ في موقع اللاخ التي تعود الى حوالي ١٦٥٠-١٧٥٠ ق. م.^(١٧٩)، فقد أوردت ذكر كركامش، وقطنا ويوغاريت، وابلا وأمار، وتونيبه ونشتاربي (Nashtarbi)، وكذلك طوبا^(١٨٠). مما يشير الى وجود هذه المدن خلال القرن الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد. أما المصدر الكتابي الآخر فهو من الجانب المصري عبر نصوص اللعن التي تعود الى اواخر الاسرة الثانية عشرة او أوائل الاسرة الثالثة عشرة^(١٨١) أي حوالي منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد، فهي تشير الى وجود «المدينة الدولة» في فلسطين^(١٨٢) منتشرة في طول البلاد وعرضها. وقد قيل بأن الحوريين هم الهكسوس، وهم سكان سوريا، (وكذلك) فلسطين حيث تم العثور في منطقة الخابور وفي ماري واللاخ على اسماء حورية تعود الى القرن الثامن عشر قبل الميلاد^(١٨٣).

ولعل من بين الجماعات السورية التي كانت تتوجه ناحية فلسطين كان من بينها مجموعات حورية صغيرة كذلك خلال القرن السابع عشر قبل الميلاد.

انه لمن المهم ان تذكر هذه الملاحظة. وهو أن اضمحلال مملكة يمدخ Yamkhod وظهور الولايات الضعيفة في اوائل القرن السابع عشر قبل الميلاد قد حصلت خلال ازدياد قوة الحثيين السياسية والعسكرية في بلاد الاناضول، وتوسعهم باتجاه سوريا وكانت السبب في القضاء على مملكة حلب واللاخ في حوالي ١٦٥٠ ق.م^(١٨٤). ان هذا ليدل على ان الممالك (المدن) السورية بدأت بالاضمحلال والانهيار قبل هذا التاريخ بفترة طويلة- ولعلها كانت من الاسباب التي دعت الى هجرة السوريين الى فلسطين في القرن السابع عشر قبل الميلاد (كما أوردنا) ويظهر أن دخولهم الى فلسطين كان على شكل موجات سلمية بدليل عدم وجود شاهد أثري على دمار المدن الفلسطينية خلال هذه الفترة وهذا مما يفسر ازدياد عدد المدن الفلسطينية الجنوبية نتيجة للزيادة في عدد السكان .

وإذا انتقلنا الى البحث والتحليل التاريخي للمظاهر الاثرية وعلاقتها مع مصر . فاننا نجد أن الدراسات السابقة كلها كانت تشير الى أن علاقة مصر بفلسطين خلال الدولة المتوسطة (١٩٥١-١٧٨٦ ق.م.) كانت ظاهرة ملموسة الى حد كبير، حتى أن «البرايت» ذهب الى القول ان لمصر امبراطورية في سواحل البحر الابيض الجنوبي^(١٨٥). وقد اعتبرت قصة سنوحي، ونصوص اللعن ولوحة « نسومونت» Nosumont «وخسوبك» Khusobk وتمثال « داهوت حوتب» Djehutihotp الذي عثر عليه في مجدو، والكثير من المخلفات الاثرية الاخرى كل هذه اعتبرت دليلاً على تبعية فلسطين لمصر، او على الاقل ظاهرة لعلاقة مصر بفلسطين تجارياً خلال الاسرة الثانية عشرة^(١٨٦)، غير ان دراسة حديثة لهذا الموضوع قام بها «ونستين» افادت بأن الرأي السابق مبالغ فيه، وذهب الى القول في أن المخلفات الاثرية ذات الطابع المصري والتي تم العثور عليها في طبقات العصر البرونزي الوسيط الحقبة أ (MBII A) لعلها تعود الى عصر الهكسوس او ما بعدها^(١٨٦).

ان طبيعة الكتابات المصرية في عصر الدولة المتوسطة تشير الى وجود علاقة مصرية ما بين سكان فلسطين (وخاصة غرب سيناء)، وكان من النادر وجود

علاقة مع داخل فلسطين . وخاصة ان هناك شكاً كبيراً في أن قصة سنوحي قد وقعت أصواتها في فلسطين^(١٨٧) ونجد انه مما لا شك فيه ان مصر قامت بحملة عسكرية على فلسطين ايام سنوسرت الثاني (١٨٧٨-١٨٤٣ ق.م.) وقد ذكرت على لوحة Khusobk (١٨٨) هذا وذكرت الوثائق المصرية مادة كحل العين "Msdmt" على أنها احضرت من عمو Aamw من SW او SWt، وهي منطقة غير معروفة بعد، مع أن الراي الغالب يقول بأنها منطقة الصحراء «الشرقية» التي ذكرت في نقوش بني حسن^(١٨٩).

بالاضافة الى ما سبق فهناك اشارة الى «ابقار اعمو» «Aamu» ذكرت نقوش (مير) mer تعود الى عصر امنبحات الثاني (١٩٢٩-١٨٩٥ ق.م.)^(١٩٠) وكذلك نقش «دهوتي حوتب» Djehutihotep من دير البرشة - Deir el-Bersheh^(١٩١) فقد وجد جعلان هذا المحاسب في قبر ٥٠٦٧ في مجدو وكذلك تمثاله^(١٩٢) مما يدل على وجود علاقة تجارية بين مصر وفلسطين، تقوم فيه مصر باستيراد القطعات من فلسطين . وهنا لا بد لنا من الاشارة الى «نصوص اللعن» Execration texts ومع أنه من الصعب تأريخها، فقد اوردت الكثير من اسماء المدن الفلسطينية^(١٩٣) ويمكن الاستدلال منها على وجود تهديد لمصرآت من الشرق (فلسطين)، أو أن ثمة اهتماماً خاصاً مصرياً بدأ يتجه ناحية (فلسطين) مما يوصي بازدياد قوة «المدن الدول» في فلسطين في فترة العصر البرونزي المتوسط الثاني / ب MBII B

أما ما قيل عن غزو الهكسوس لمصر ابتداء من عصر الاسرة الخامسة عشرة فيجب عدم الخلط بينهما وبين دخول الاسيويين الى مصر قبل عصر هذه الاسرة . وخاصة دخولهم لمنطقة الدلتا خلال عصر الاسرة الثالثة عشرة^(١٩٤) انه لمن الملاحظ لنا أن ازدياد عدد المدن الفلسطينية خاصة في جنوب فلسطين، التي لربما كان سببها ازدياد عدد السكان نتيجة لهجرة السوريين الى فلسطين نتيجة للضغط الحثي كما اوردنا، كان مقدمة لتأسيس هذه المدن الفلسطينية الجنوبية (تل العجول) المحاذية للحدود مع مصر، وبالتالي فهي مقدمة لزحف الهكسوس على

مصر. ان ما اورده مانيثو كما نقل عنه يوسيفوس وما ورد لدى ايسوبوس Eusebius وافركانوس Africanus، حيث قيل ان هؤلاء (الهكسوس) قد غزوا مصر بموجات كبيرة وعلى غفلة من امرها يمكن الاخذ به، وهو انه بعد ان استقر هؤلاء في جنوب فلسطين وبعد ان اختبروا الوضع المتردي في مصر قاموا بغزوتهم المشهورة خلال حكم الاسرة الخامسة عشرة.

ومهما قيل من ان مظاهر الحضارة في فلسطين في العصر البرونزي المتوسط الثاني ب/ ج بأنها حضارة الهكسوس فإنه لا يسعنا ان نقول بأن المظاهر الحضارية الكنعانية الفلسطينية ما هي الا شبيه بمظاهر الحضارة الكنعانية في (بلاد الشام) لذا فمن الصعب ايجاد مظاهر مميزة عن سابقتها الا في مضمار التطور الحضاري.

- 1- W.F. Albright, **Archaeology of Palestine** Penguin Books Inc. (1956) P.84
- 2- W.F. Albright, "Some Remarks on the Archeological Chronology of Palestine before about 1500 B.L," Erich (ED) Chronology in Old World Archaeology (Chicago: University of Chicago Press, 1965, p. 56 "The 18th Century Princes of Byblos and the Chronology of the Middle Bronze" **BASOR**, 176, pp. 38-45-
- 3- **Ibid** p. 56
- 4- **Ibid** p.56
- 5- W.F. Albright, "The Excavation of Tell Beit Mirsim" II **ASOR**, 17 (1938), p. 17
- 6- K.Yassine, **Domestic Architecture in the second Millennium in Palestine**, (1974), p. 115. Unpublished phd dissertation submitted to the University of Chicago.
- 7- Albright, **TBM II**: p. 28
- 8- K.Yassine, **Domestic Architecture**, p.
- 9- p. Lampl's **Cities and Planning in the Ancient Near East**, New York (1969) p. 22
- 10- Suhumacher and C.Steuerangelo **Tell el-Mutesselim Vol I**, Leipzig. 1908-
- 11- C,Watzinger, **Tell el-Mutsselim, Vol. 2**, Leipzig, 1929.
- 12- G.Loud, **Megiddo II** Chicago: University of Chicago Press (1948) stratum XIII, area AA plates 378.
- 13- **Ibid** Text, p. 97ff. Fig. 400
- 14- Loud, **Megiddo II**, pp. 73-81. Fig. 395-
- 15- **Ibid**, Fig. 398 (5038, 5043, 5048 and 5081)
- 16- C.Epstein, "An Interpretation of the Megiddo Sacred Area During Middle Bronze II" **IEJ**.15 (1965) pp. 04-21
- 17- K.Yassine, **Domestic Architecture**, p. 124
- 18- A.M. Lutfiyya, **Baytin: A Jordanian Village**, The Hague, (1699)
- 19- P. Lapp, "1968 Ta'anek" **BASOR** 185 pp. 24-7 also 1966 Ta'anek" **BASOR** 185, p. 13
- 20- Lapp, **BASOR** 185, p. 25
- 21- Petric and mackay, **Gaza**, Plat 1 and 2,32 and 33 (see also section 69, p. 33.)
- 22- K.Yassine, "City Planning of Tell el Ajjul: Reconstructed Plan." **ADAJ Vol XIX** (1974) p. 129 ff.
- 23- F.Petric: **Ancient Gaza** 1 (1931), II (1932), III (1933) IV (1934) V (1952. London: British School of Archaeology in Egypt)
- 24- Yassine, "**ADAJ Vol XIX** (1974) p. 132
- 25- R. Amiran, and "A canaanite-è Hyksos city of Tel Nagila" in A.Eitan, **Archaeological Discoveries in the Holy Land**. Compiled by the Archaeological Institute of America. Ney York; Thomis Y. Crowell, (1967) p. 43.
- 26- Dever, **Gezer 1**, (Jerusalem 1973)
Gezer 11, (Jerusalem 1977)
- 27- Y.Yadin, **Hazor 11**, (Jerusalem: Maynes Press, (1960) Plat 207
- 28- See, **IEJ** 23 (1973, pp 256. **IEJ** 24 (1974), pp. 266. **IEJ** 26 (1976), p. 49

- 29- See, **IEJ 24** (1974) pp. 268-69.
- 30- K.Kenyon; **Archaeology of the Holy Land** (New York, Praeger Publisher) p. 187, Fig. 45
- 31- G.E.Wright, **Schechem**, (New York Haper and Raw, 1966) p. 86
- 32- Wright, **Schechem**, pp. 87-95-
- 33- **R.Engberg, The Hyksos Reconsidered S.A.O.C. 18** (Chicago: University of Chicago Press, 1939) p. 45 also Albright, "Earliest Historical Period" **JPOS2**, p. 122 ff.
- 34- Herbert Ricke "Der Hohe Sand in Heliopolis," **3.A.S 71** (1935) pp. 107-11
- 35- G.R.H.Wright, "Tell el Yahudiyah and Glacis," **3DPV84** (1968), pp. 1-7
- 36- Save-Soderbergh, "The Hyksos Rule in Egypt," **JEA 37** (é%/é), pp. 53-71
- 37- Goralld Fitzgerald," Hyksos Fortification and Chariot Warefare," **Preceeding of the 23rd International Congress of Orientalists 1945**, pp. 95-6-
- 38- Y.Yadin, "Hyksos Fortifications and Battering Ram," **BASOR 37**, (1955), pp. 29-32. Kenyon "Middle Bronze Age, (AH 2nd Ed., Fas 48, p. 39-
- 39- P.Pair, "Origin of Rampart Fortifications of the Middle Bronze Age Palestine and Syria," **3DPV 84** (1968), p. 27-
- 40- **Ibid**, p. 43-
- 41- **John Garstang, Prehistoric Mersin**, (Oxford University Press, 1953), Chap 7. Parr, "Origin of Rampart," pp. 38-43
- 42- Parr, "Origin of Rampart", p- 91-
- 43- **Ibid**, p. 43
- 44- **Ibid**, pp. 39-47
- 45- Lapp, "**BASOR 195** pp. 5-14 and Fig. 4.
- 46- Roland dev Vaux, "Palestine in the Early Bronze Age" **CAHI**, 3rd Ed. (Cambridge: Cambridge University Press, 1971), pp. 215-6.
- 47- Parr, Origin of Rampart, p. 27.
- 48- Albright, **Archaeology of Palestine**, p. 87.
- 49- K.Kenyon, "Palestine in the Middle Bronze Age," **CAH 2nd Ed., Fasc. 48** (Cambridge: (Cambridge University Press, 1096), pp. 15-16. also **AHL**. p. 180
- 50- **K. Kenyon, "The Middle and late Bronze strata at Megiddo," Levant I** (1069), pp. 25-60.
- 51- **Ibid**, pp 25-60.
- 52- Loud, **Megiddo II: Text Fig 378 & p.6.**
- 53- **Ibid**, Figs. 267 & 407, pp. 105 and 113
- 54- Y.Yadin, et.el., **Hazer I** (Jerusalem: Magnes Press, 1958) pp. 2, 74-5.
- 55- Yadin, **Hazor I**, p. 95
- 56- Yadin, **Hazor III-IV** plates, see plate 286 for the pattery of stratum 4 from area k.
- 57- Albright, **ASOR 17** (1938)
- 58- Roland de Vaux, "Les Fouilles de Tell el Farah Report Prelimin aire sur les 7^e, 8^e Campagnes, 1958-60; **Rb 69**, (1962) pp 212-53.
- 59- G.E.Wright, **Shechem**: p 110 ff.

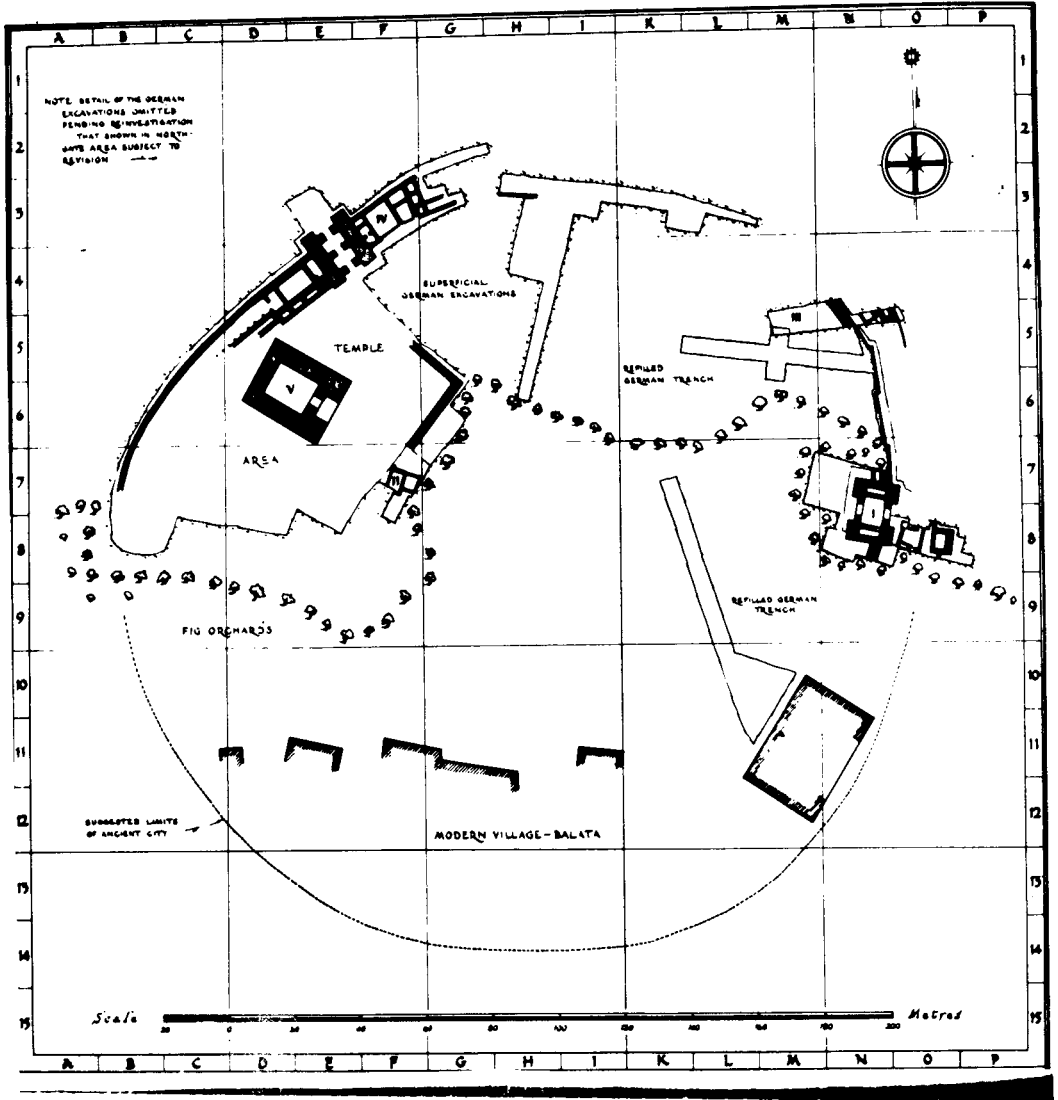
- 60- **Ibid**, 62-66
- 61- **Ibid**, pp. 61-66
- 62- **Ibid**, pp. 66-71
- 63- Eliha Grant & G.E.Wright, **Ain Shams Excavations V: Text** (Haverford Trust, 1939), p. 20
- 64- O. Tufnell, **Lachish IV: The Bronze Age** (Oxford, 1958), p. 45 ff.
- 65- Lapp. **BASOR 195**, pp. 2-49
- 66- Dever, **Gezer I**, pp. 41-ff
- 67- W.Dever, et al., "Further Excavations at Gezer 1967-1971 **BA 34** (1971), pp. 94-132.
- 68- **Ibid**, p. 100
- 69- **Petrie, Gaza II**, Sect. 10, p.2 ff
- 70- F. Petrie, **Beth Pelet I** (London: British School of Archaeology in Egypt, 1930). p. 15 ff.
- 71- Amiran & Eita, **IEJ 13** (1963) p. 144 ff & 333 ff.
- 72- Avraham Biran, **IEJ 19** (1969) p. 121.
- 73- J. Kapla, **IEJ 19** (1969), pp 121-2
IEJ 17 (1967), p. 268
- 74- B. Maislor (Mazar), et al, "The Excavations at Beth- Yerah" 1964-46, "**JEJ** (1952), pp. 165 ff. and 218 ff..
Bar Adon **JEJ 4** (1954), p 128
- 75- See: **JEJ 23** (1973) pp. 256-57
JEJ 24 (1974) pp. 266-68
JEJ 26 (1976) pp. 48-49
- 76- See: **JEJ 24** (1974) pp 268-69
- 77- See: **JEJ 24** (1974) p. 276.
- 78- M. PeUANIRA, **JEJ 13** (1963 z7, p 33-7
- 79- A. Rowe, **QDAP 5** (1935), p 207 ff.
- 80- E.L. Sukenik, **QDAP 10** (1936), p 225.
- 81- Jo Carstang, "The Excavations at Askalan," **PEFQS** (1922), p. 112 ff.
- 82- F. Petrie, **Gerar** (London: British School of Hrchaeology in Egypt 1928.
- 83- F. Petrie, **Tell el Hesy (Lachish)** (London Exploration Fund 1891), p.3 and John Warrel, **ASOR News letters No 8** (1970), p.3
- 84- K. Yassine: **Palestinian Temples in the Bronze Age**, an MS Thesis presented to the University of Pennsylvania (1966), p.16.
- 85- Loud, **Megiddo II** p.78, plate 6
- 86- **Ibid**, p. 78
- 87- Yassine, **Palestinian Temples**, p. 25
- 88- Wright, **Schechem**, p. 100
- 89- **Ibid**, p. 100 ff.
- 90- **Ibid**, p. 94
- 91- Ben- Dor: "A middle Bronze Age Temple at Naharigah," **QDAP voIXIV** (1950) p. 4.

- 92- M. Dothan, "Excavation at Nahariyah" *IEJ* 6 (1956) p. 19
- 93- M. Dothan, "Some aspects of Religions life in Palestine during the Hyksos Rule," *Antiquity and Survival II* (1957), pp. 121-30
- 94- Dothan, "*IEJ* 6 (1966) pp. 19-22
- 95- Loud, *Megiddo II*, plates 233-55.
- 96- Dothan, "Religions Life," pp. 121-4
- 97- See Yassin³, *Domestic Archeticture*
- 98- K. Yassine, "Pre- second Millennium Dwelling in Palestine" *ADAJ XXII* (1974) p. 29
- 99- M. Dothan, "The Excavations at Afula" *Atiqot 1* (1955), PN. 30-33. R. Amiran, *Acanaanite- Hyksos city*. p 114, Fig 3.
- 100- Yadin, *Hazor III* p. 2 plate (CVII) Locus 6192.
- 101- W. F. Albright *TBM II*, plate 49.
- 102- J. Garestang, "Jericho: City and Necropolis," *AAA* 19 (1932) p. 17, Fig. 5.
- 103- Amiran & Eitan, *Tell Nagila* pp. 13-23.
- 104- Yadin, *Hazor II*, P 79 plates. XXIV, CVII
- 105- Albright. T. *BM II*, plates 49 & 56.
- 106- J. Marquet- Krause; "Le Feuilles de Ay (Et- Tell), 1934," *Syria* 16 (1935), p. 327.
- 107- Grant & Wright, "*Ain Shames V*, P. 27, Fig. 2.
- 108- Albright, T. *Bmii*, Plat 51
- 109- Loud, *Megiddo II*, Area BIB strata. XII-XI, Figs. 398-400.
- 110- Lapp, "The 1968 Excavations at Tell Ta'aneq", p. 19
- 111- Petrie *Gaza II* Pla. IIV
- 112- Sellin and Hrozny, "Tell Ta'annek." *Denkschriften der Kaiser Lichon Akademik der Wissenschaftlon Philosophisch- Historische Klasse*, 50, Vienna: Carl Gerold's Sohn, (1904) pp. 43-53.
- 113- J. W. Graham "The Relation of Minoan Palaces to the Near Eastern Palaces of the second Millennium" *Mycenean Studies*, ED. E. Benneh, Jr. Princeton, N.J., 1964) pp. 195-215
- 114- Loud, *Megiddo. I*, Fig 12.
- 115- Yassine, *Domestic Archeticture*, p 58
- 116- Loud, *Megiddo II* p. 8 Fig. 378 & 23, House B.
- 117- De voux, "Les Fouilles de Tell el- Farah pres Naplous," *RB* (1948) p. 556, plate XIII.
- 118- Petrie, *Gaza I*: plate XLIV
- 119- A. Badawy, *A history of Egyption Architecture: The Empire. (The New Kingdom)*. Berkley, 1968) p. 113.
- 120- Loud, *Megiddo II* square O, 14-15
- 121- *Ibid* Fig. 380.
- 122- *Ibid*, Fig. 378, No. 23, House 14 and No. 12
- 123- Wright, *Schechem*. Fig. 63-65
- 124- E. Sellin, *JATW* 59 (1932) p. 304.

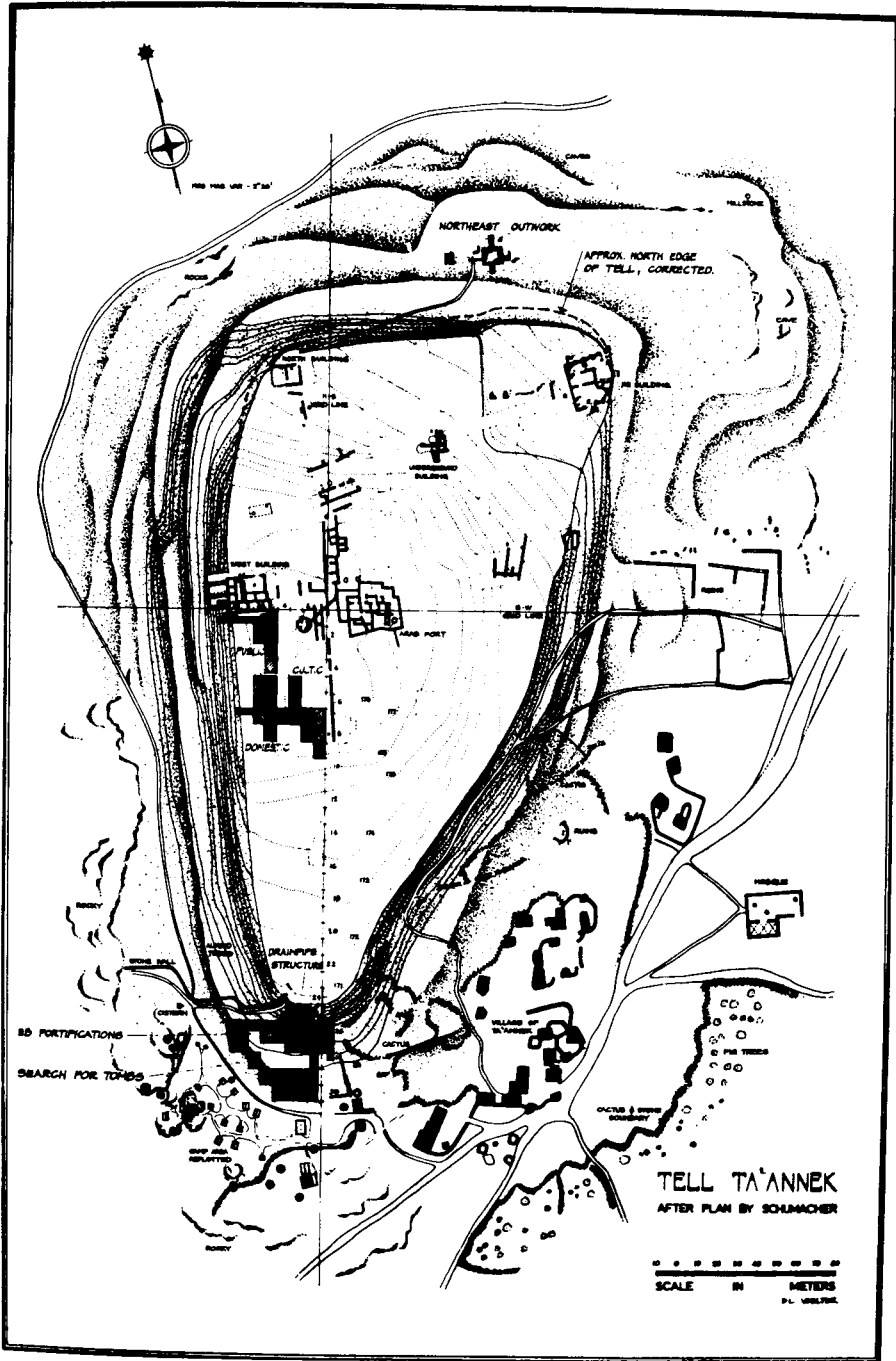
- 125-Loud, **Megiddo II** p. 84 Figs. 396-97.
- 126-Albright, **TBM II**, p. 41
- 127-E. Grant, **Rumeileh (Ain Shems) Excavations, Part II** (Haverford, Pa., 1934), p. 16 map.V.
- 128-Kenyen, **AHL**, p. 187, Fig. 45.
- 129-**Ibid**, **P. 169 K. Kenyon, Excavation at Jericho, PEQ** (1956) p. 81
- 130-Loud, **Megiddo II**, Fig. 296
- 131-J. Ory, Excavation at Ras el Ain II QDAP 6 (1935) pp. 101-104.
- 132-K. Kenyon. **Excavation at Jericho II** (London, 1965) pp. 203-206.
- 133-J.B. Paritchard, The Bronze Age cometary at Gibon. The University of Pennsylvania (1963) pp. 61-62.
- 134-R.H. Smith: **Kerbret Kufia**. pp 17-30
- 135-P.L.O. Guy and R.M. Engborg. **Megiddo Tombs. O.I.P. XXXIII**, 1938, pp. 64-72.
- 136-O. Tufnell, **Lachish IV:**
The Brone Age (xford University Press 1957), pp 256-258.
- 137-Loud, **Megiddo II**, pp. 165-173, 173, 188
- 138-Petrie, **Gaza IV**, plat 68, T. 1928.
- 139-Schumacher and Schumacher, **Mutsaleam I**, pp. 55-58
- 140-Semmocher and Stene, **Mutsaleam I**, pp. 55-58
- 141-de Vaux, **RB 58** (1951) pp. 401-2
- 142-Petrie, **Gaza IV** p1. 59.
- 143-Petrie, **Beth- Pelet I**, plates 8. 17 and 18
- 144-See S. Saller, **JBP** (). p.7
- 145-Tufnell, **Lachish IV** pp. 61, 230-1
- 146-Petric, **Gaza I**, Plat 57 and 54 Tombs 8, 10, 11 and 27.
- 147-Kenyon, **AHL**, p 169.
- 148-A.L. Perkins, **The Comparative Archaeology of to the Early Mesopotamia** (The Oriental Institute of the University of Chicago, C.U.P. 1949) pp. 41, 71-72, 133, 180-181.
- 149-K. Kenyon **Digging up Jericho** p. 251 ff.
- 150-Kenyon, **Jericho II**, p. 575.
- 151-Kenyon, **Jericho I**, pp. 566-570.
- 152-**Ibid**, p. 454.
- 153-Kenyon, **Jericho II**, pp. 571-574.
- 154-Engberg, **Hyksos Reconsidered**, p. 18.
- 155-R.S. Merrillecs, "EL-lisht and Tell el- Yahudiaha Ware" in the Archaeological Museum of the American University of Beirut, **Levant X** (1978) p. 75 ff.
- 156-F. Petrie, **Scarabs and Cylinders with names** (London, 1917).
- 157-See, W.Ward, **Ancient Egyptian Foreign Relation with Western Asia and the Regean from predynastic times to the end of the Twelfth pynasty**. (Unpublished p. D. dissertation, University of Chicago, 1955).

- 158-W. Ward, "Relations between Byblos, Egypt and Mesopotamia at the end of the third millennium B.C.," *Syria* 43 (1966), pp. 165-242.
- D. Kirkbride, "Scarabs," in Kenyon, *Jericho II*, pp. 580-655.
- 159-B. Williams, Representational Scarabs from the second Intermediate period, (Unpublished MA dissertation, University of Chicago, 1970), p. 54.
- 160-Olaga Tufnell, "Hyksos Scarabs from Canaan," *Anatolian Studies* 6 (1956), pp. 67-73
- 161-Ben- Dor, Palestinian Albaster Vases, "**QDAP II** (1944), p. 111.
- 162-L1. Dajani, "Some of the Industries of the Middle Bronze Period," *ADAJ* 8-9 (1965), p. 68.
- 163-Ben- Dor, "Hlabaster," pp. 94-6
- 164-Dajani, "Industries," p. 68
- 165-Ben- Dor, "Alabaster," pp. 97-101
- 166-Dajani, "Industries," pp. 63-70
- 167-**Ibid**, pp. 55-58 also maxwell- Hyslop, *Iraq* 8 (1946) and Western Asiatic Jewellery (London), 1971.
- 168-Loud, **Megiddo Tombs**, plates 122: 9, 115; 5
- 169-Petrie, Gaza II, p1. XIV: 4
- 170-Petrie, **Gaza IV**, p1. XXV: 262 Gaza III p1. XVIII: 7 W. Dever & M. Tadmor, A Copper Hoard of the Middle Bronze Hge I *IEJ* 26 (1976) pp. 163-169
- 171-Petrie, **Beth- Belet I**, p1. IV tomb 551, **Megiddo II** p1. 178: 14 **AASOR**, XVII p1. 41: 6, 17. **RB**, VIII (1947). 7
- 172-Tufnell, **Duweir IV** p. 77 Dajani, Industries (1962) p. 58
- 173-Dajani, "Industries"
- 174-**Ibid**, p. 61.
- 175-**Ibid**, pp. 61-62
- 176-J. Birmingham, "Spectrographic Analyses of some Middle Bronze Age Objects from Palestine". *Le vant* IX (1977) p. 115 ff.
- 177-J. Bottero, E. Cassin and J. Vercoutter (eds.) **The Near East: The Early Civilizations** (London Weidenfield and Nicolson, 1967), p. 205.
- 178-J. Kupper "Northern Mesopotamia and Syria," **CAH** 2nd Ed. Fasc. 14, (Cambridge: University of Cambridge Press, 1966), pp. 16-23.
- 179-Supra, n. 321
- 180-Kupper, "Mesopotamia and Syria," p. 39
- 181-W.C. Hayes. "The Middle Kingdom in Egypt," **CAHI** (3rd Ed.), Chap. 20, p. 50 ff.
- 182-Posener "Syria and Palestine" p. 555.
- 183-Kupper, "Mesopotamia and Syria"
- 184-Gurney, "Anatolia C 1750-1600 BC," p. 14 ff.
- 185-Albright, Palestine in the Earliest Historical Period **J POS** 2: (1922) p. 110-39.
- 186-G. Posener, Syria and Palestine C. 2160-1780 B.C.: Relation With Egypt in **CAH**, Part 2, 1971 532-58

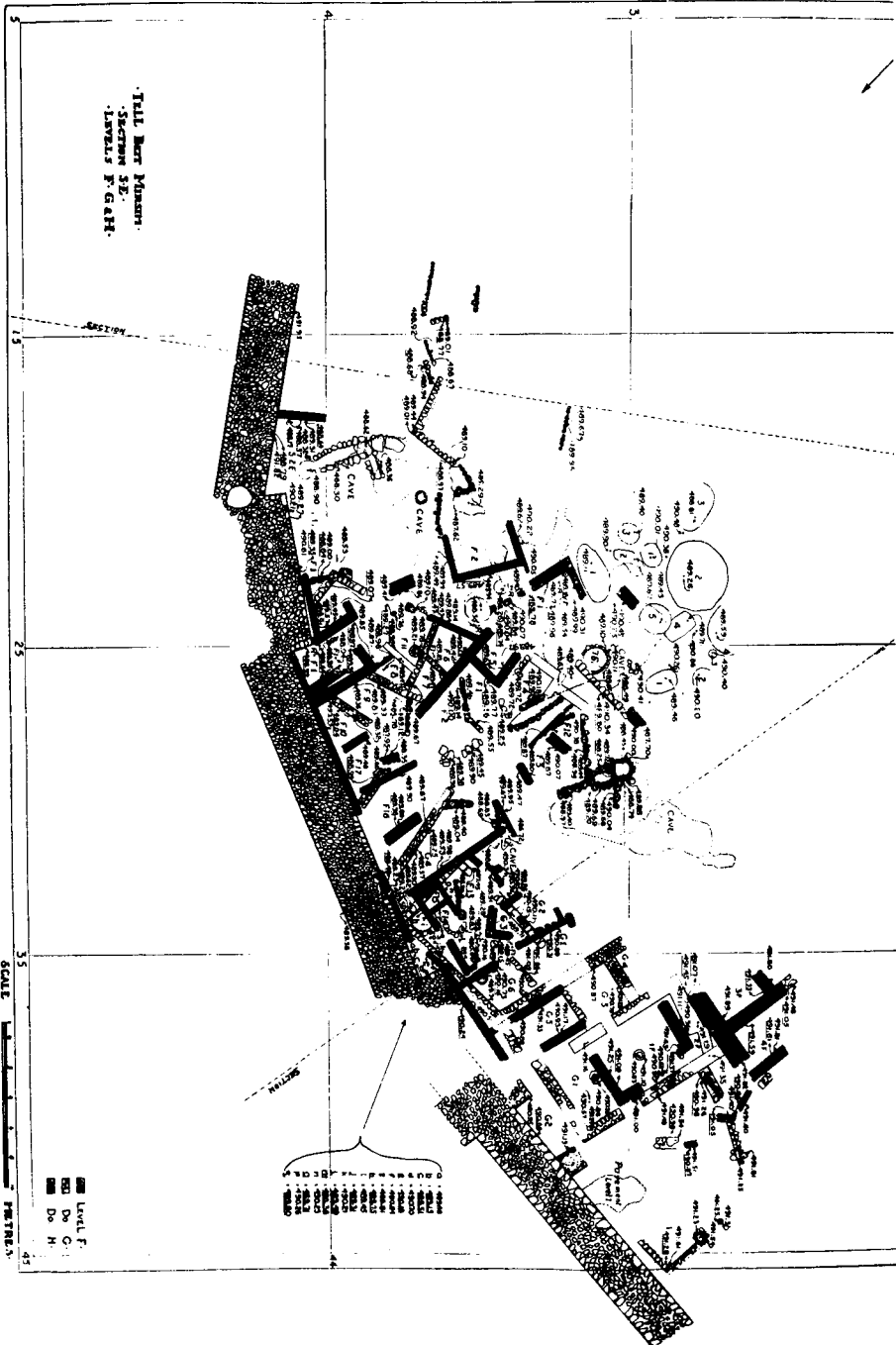
- 187-J.M. Weinstein, *Egyptian Relation With Palestine In the Middle Kingdom*. BASOR 217 (1975) p.1
- 188-A.J. Wilson, *The Inscription of Khu- Sebek, called Djaa*, in ANET (1969) p. 230
- 189-T. Thompson, *The History of the Patriarchal Narratives*: Berlin/ New York: de Graytev, p. 123-26.
- 190-A.M. Blackman, *The Rock Tombs of Meir III*. London, Egypt Exploration Fund, 1915, p1. 4, cf. p. 13
- 191-Wilson (1969) p 230.
- 192-Loud: *Megiddo II* pls. 149: 32, cf. p. 183 and p1- 265 Por th statue.
- 193-Thompson (1974) 111-12
- 194-Van Seters. *The Hyksos: A new Investigation*. New Haven: Yale Univ. 1966.
M. Bietak, *Vorläufiger Bericht über die erste und Zweite Kampagne der österreichischen Ausgrabungen auf Tell Ed- Dab'a im Ostdelta Ägyptens* (1966. 1967) MDAI, Abte, lung, Kairo 23: 79. 114



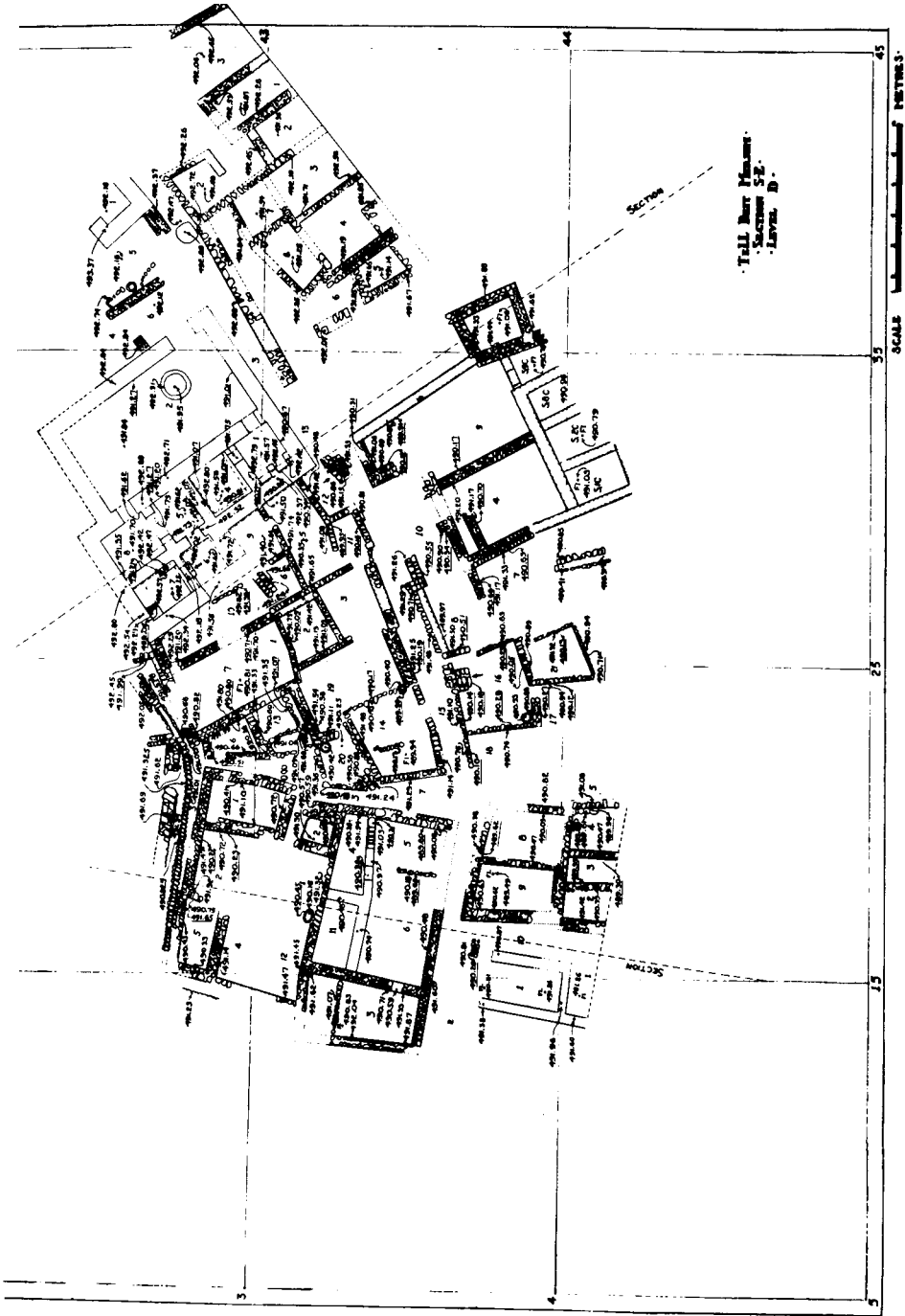
(شکل : ۲)



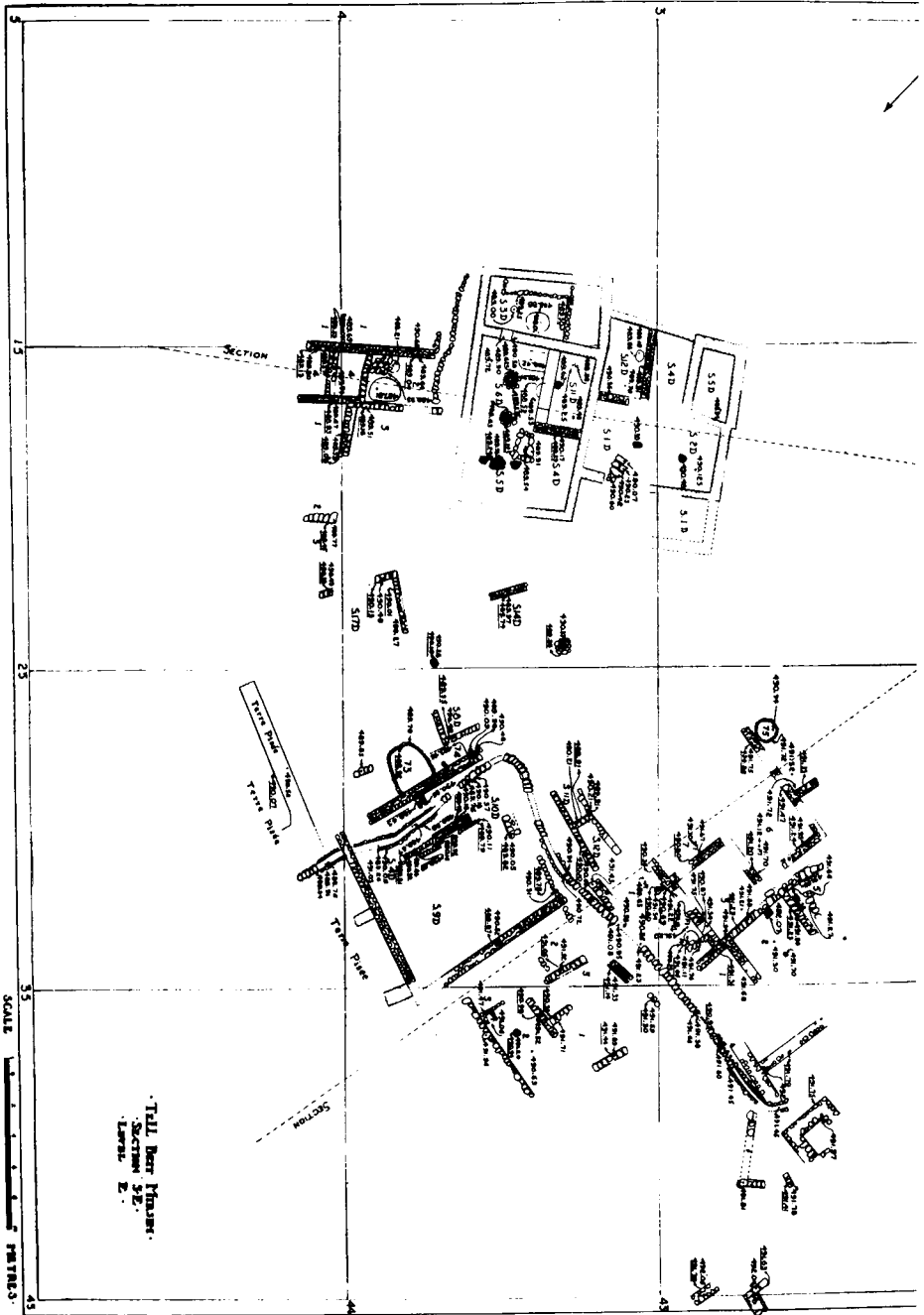
(شکل : ۳)



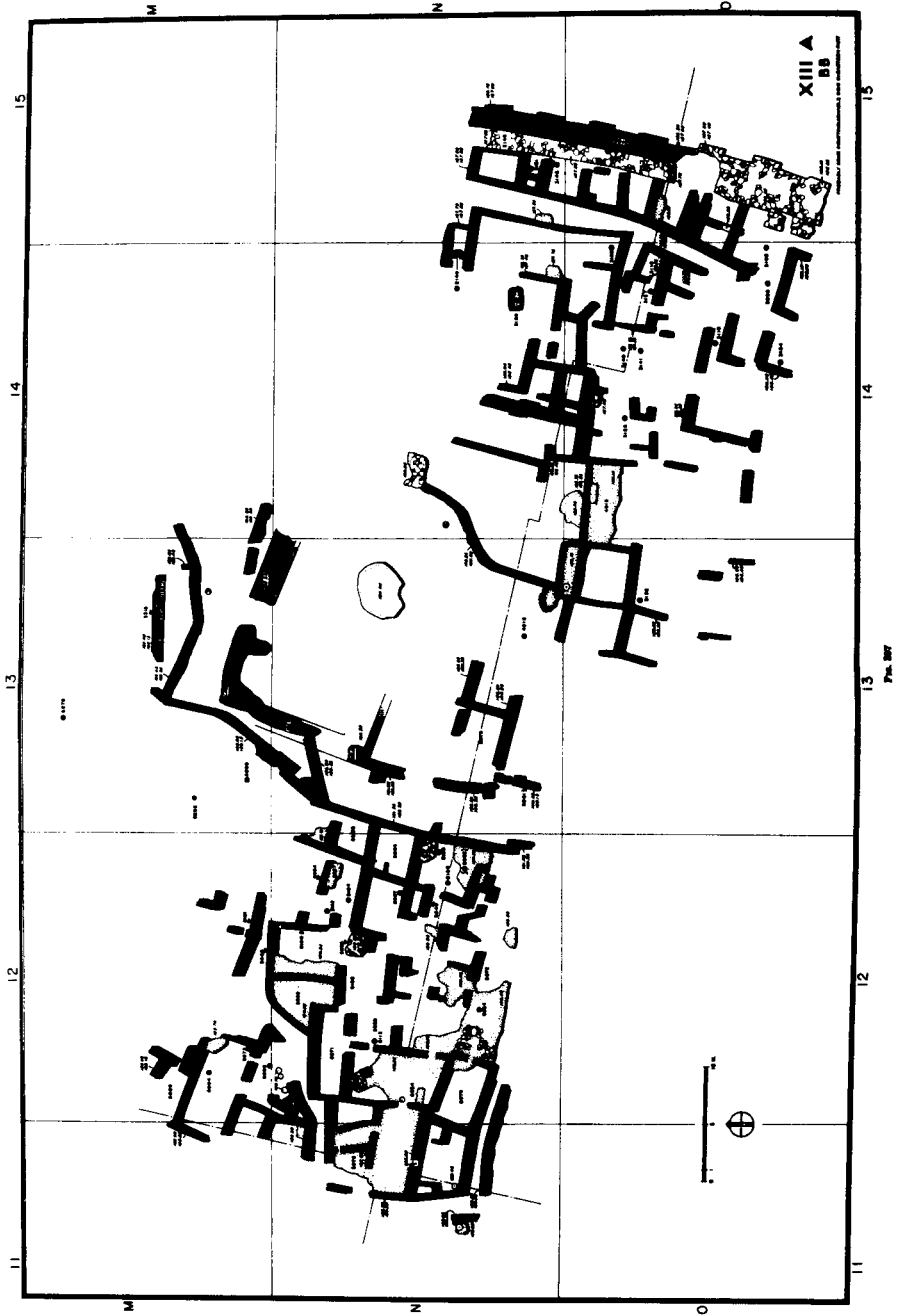
(شکل : ٤)



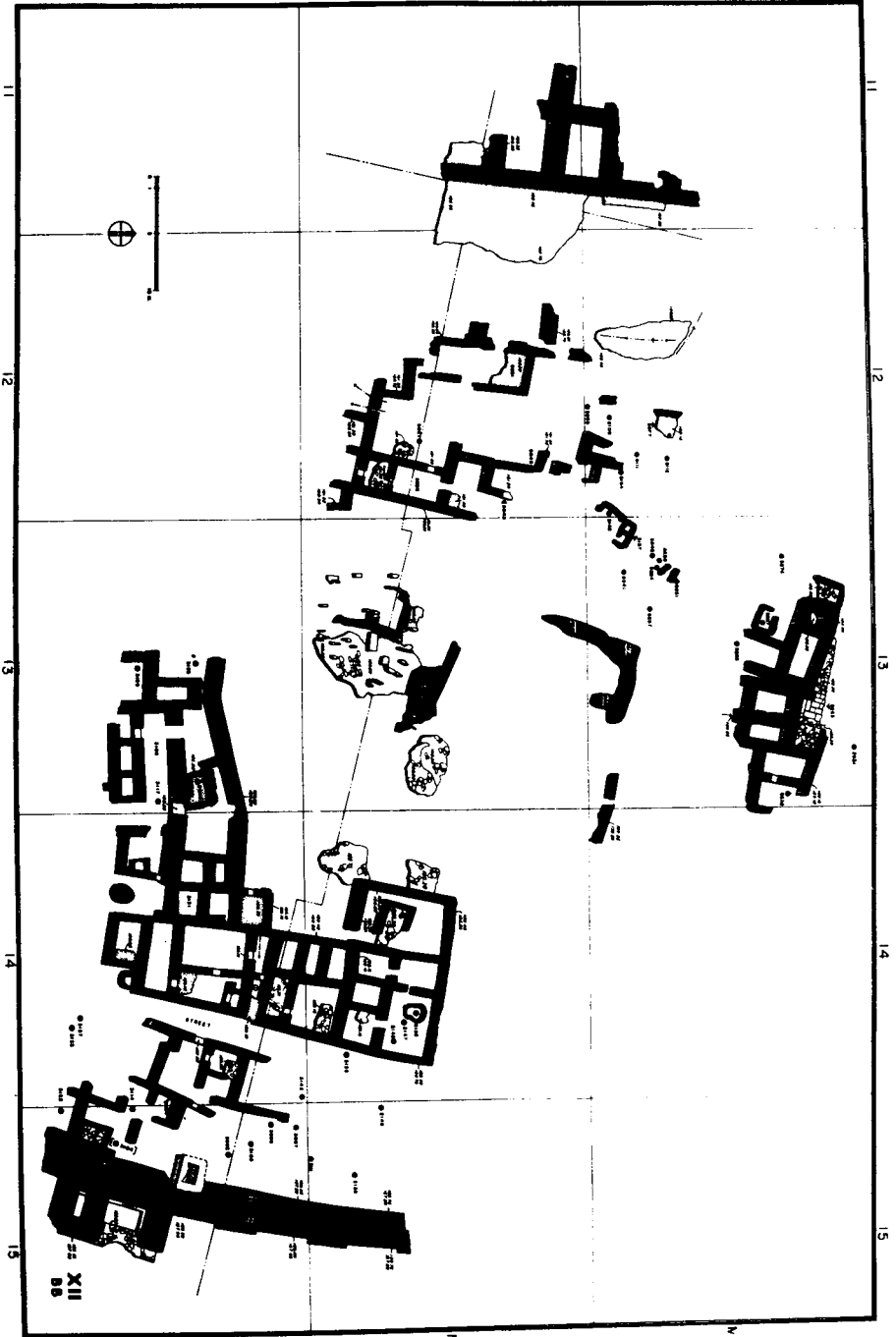
(شكل : ٥)



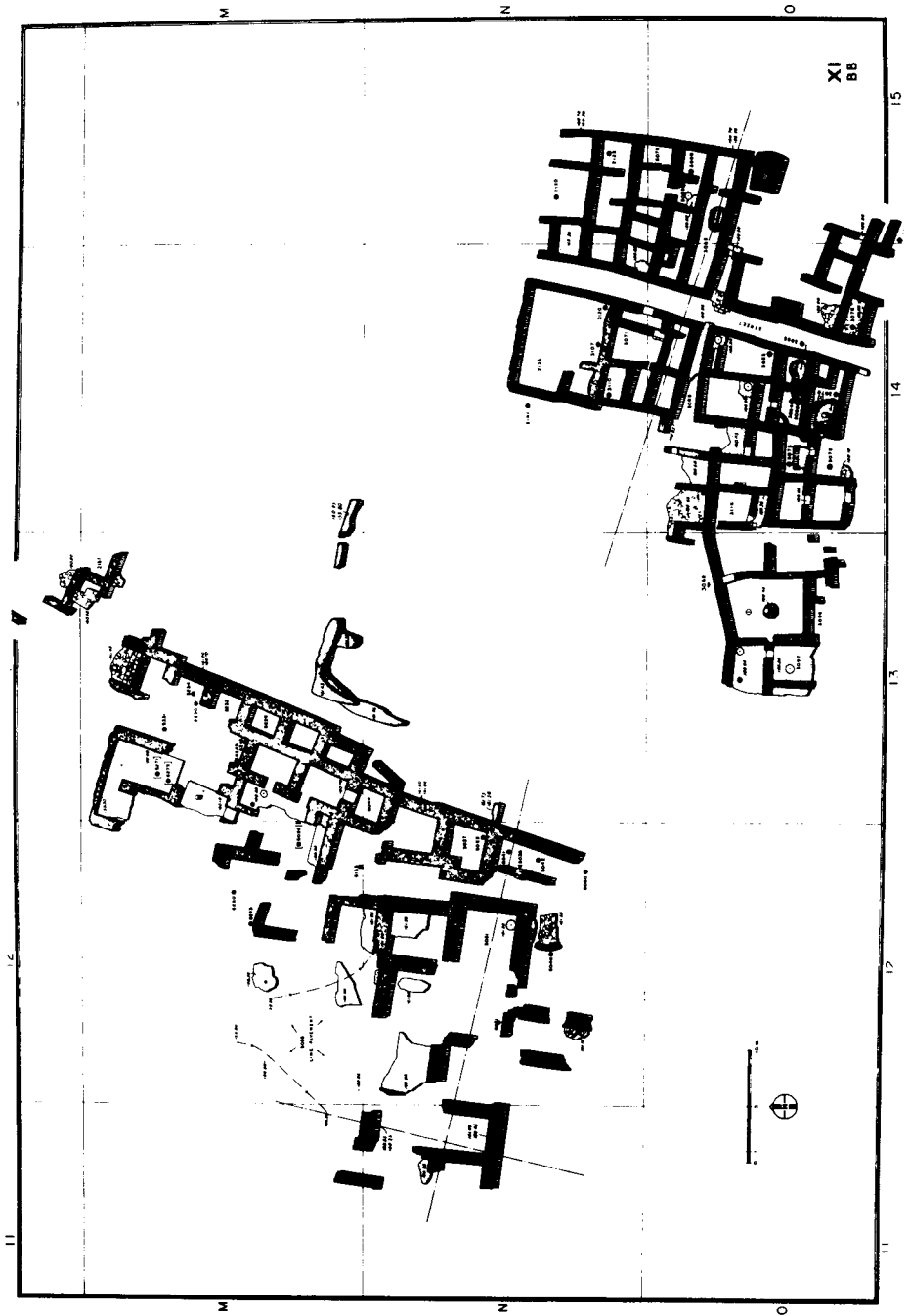
(شکل : ٦)



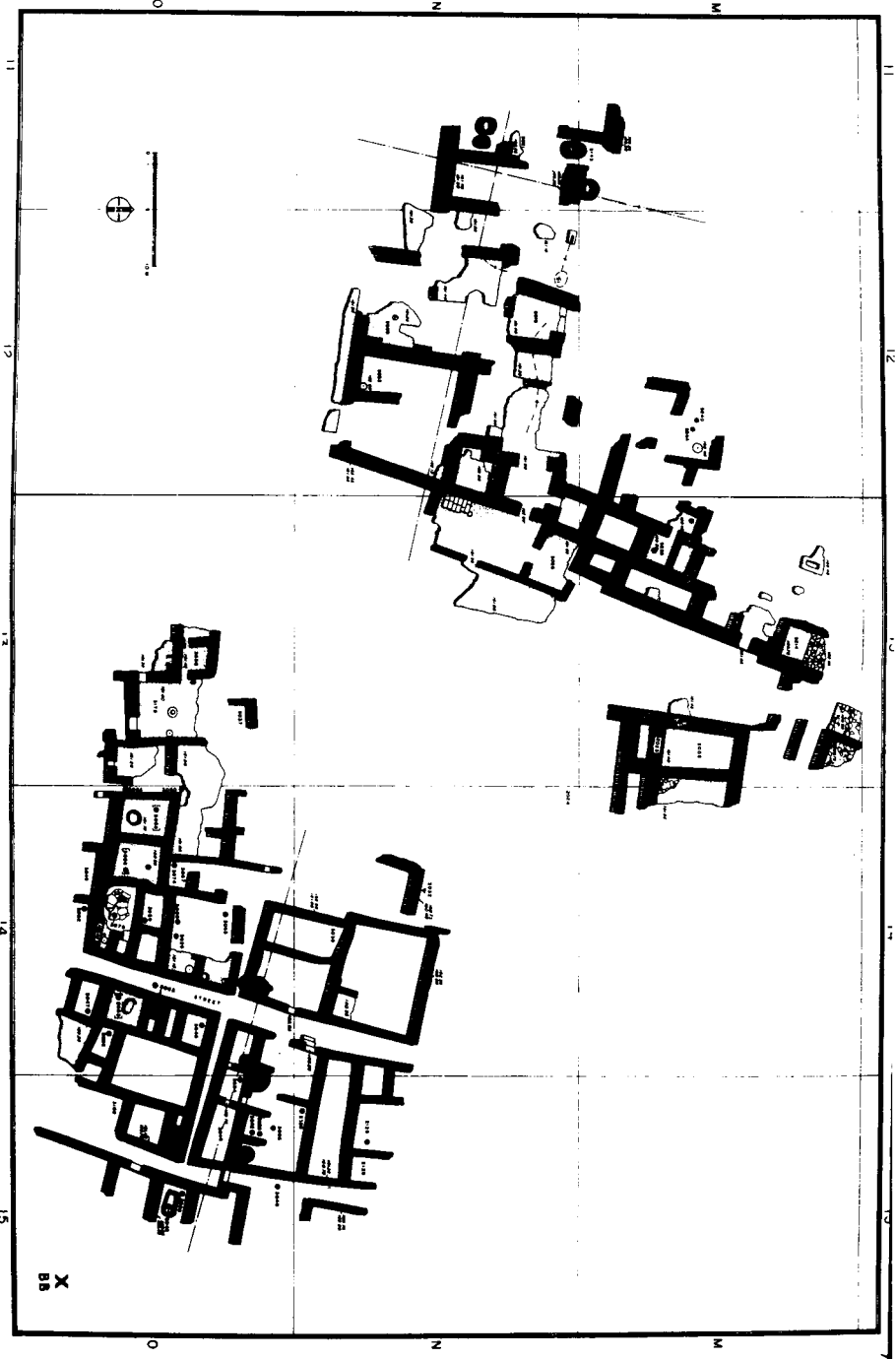
(شکل : ۷)



(شكل : ٨)

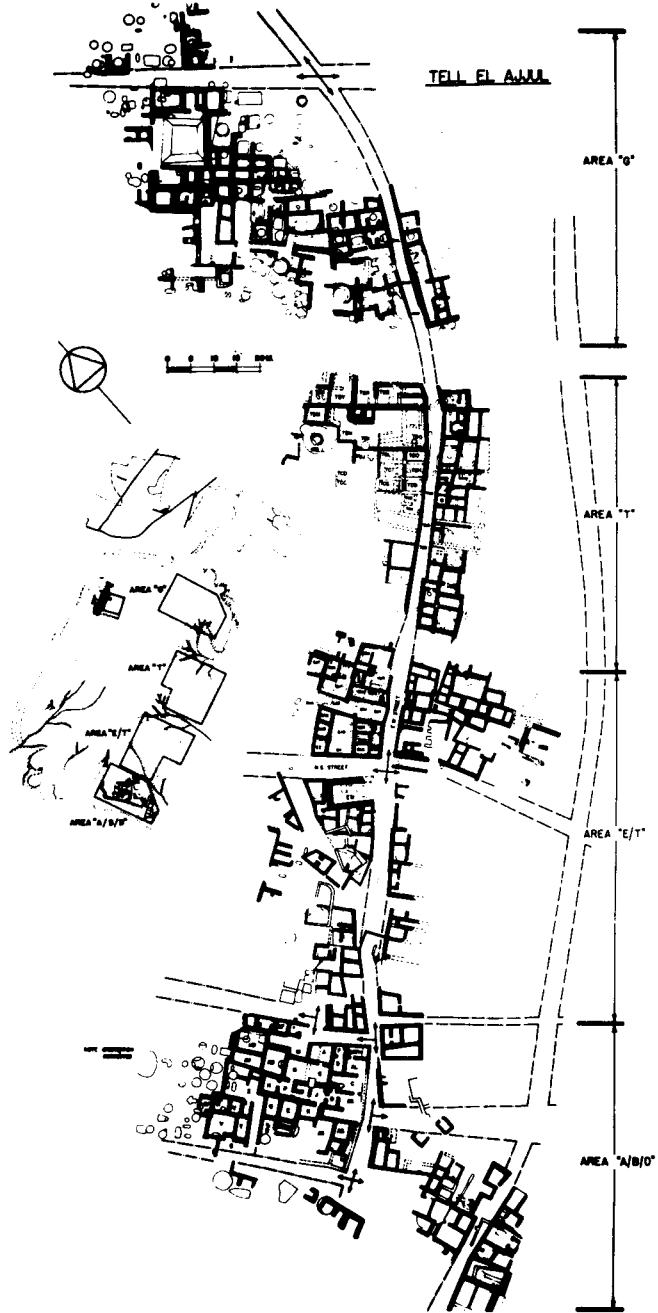


(شکل : ۹)

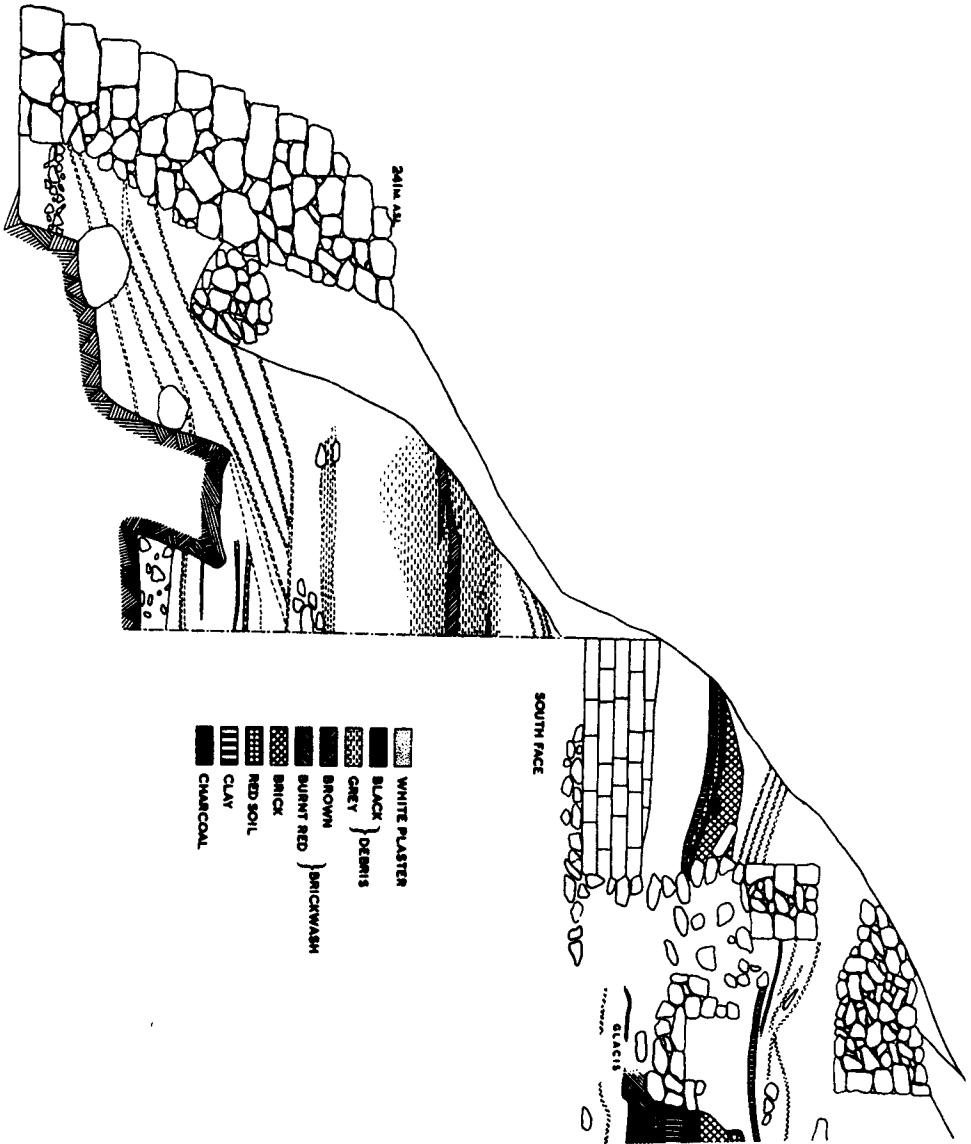


(شکل : ۱۰)

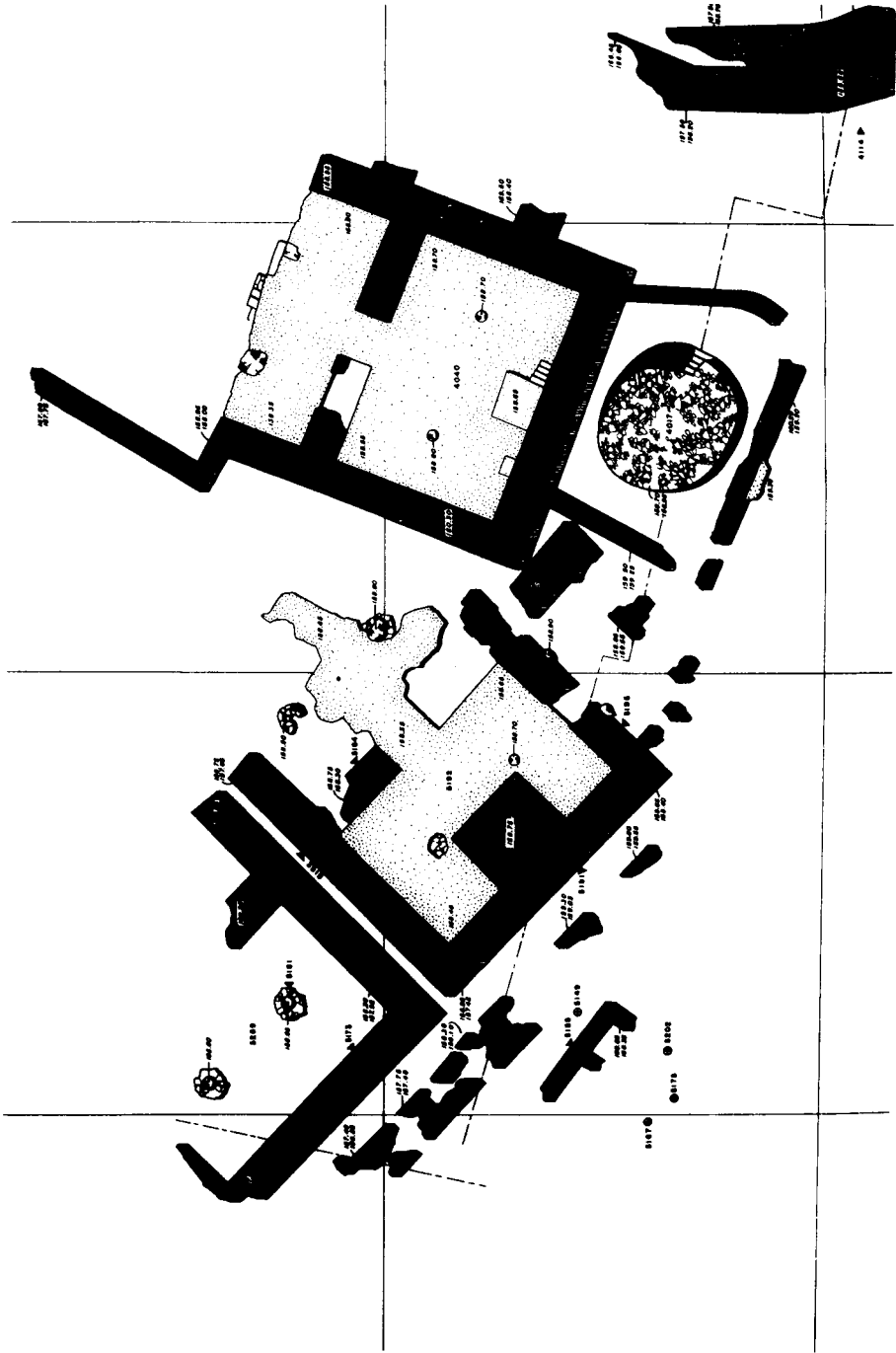
Fig. 1



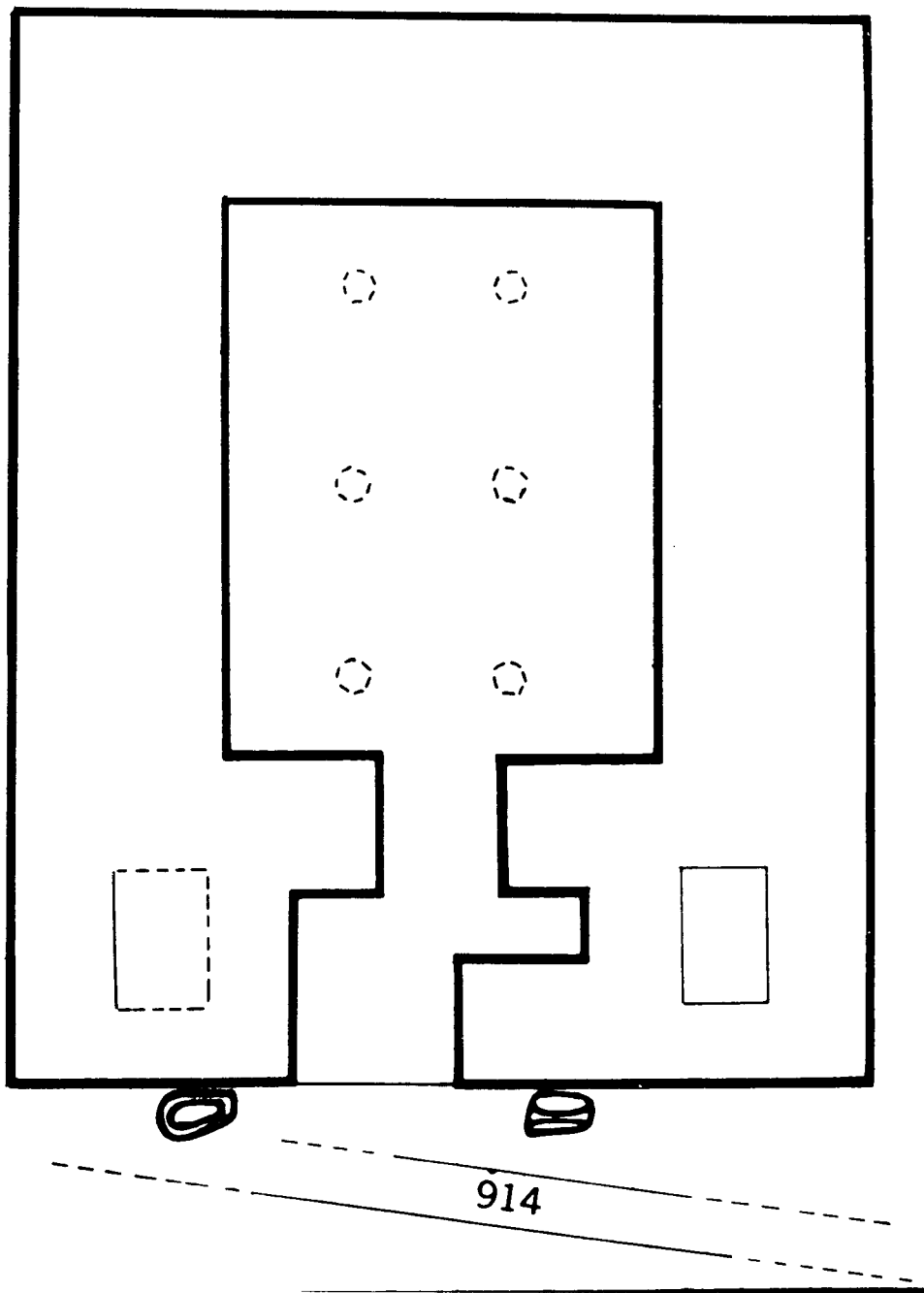
(شكل : ١١)



(شکل: ۱۲)



(شکل: ۱۳)



(شكل: ١٤) (١)

بيت من بني بركة رسم. طبقته (F) (88.89) لوحة 9



بيت من أريحا
(AAA) 1932
لوحة 5



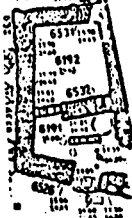
بيت من أريحا
(AAA) 19
1932
لوحة 5



بيت من التلسم
الطبقه 11
شكل 394



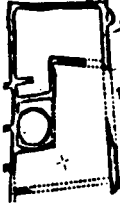
بيت من توالفاني، منطقة (C)
طبقته 3 (PM) رقم 7181-7186



بيت من بني بركة
رسم طبقته
S.S.S
3-4-5
لوحة 5



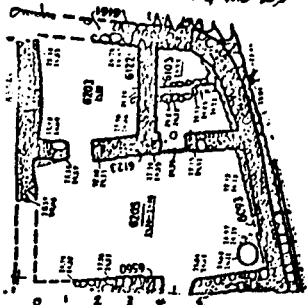
بيت من بني بركة
نقلته A
طبقات 2, 4, 12, 11, 10



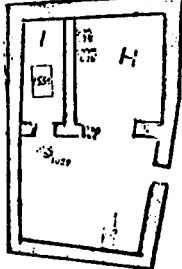
بيت من بني بركة رسم طبقته 8 (S.S.S.)
Sub 0 و S.S.S (W) لوحة 5



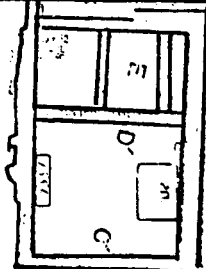
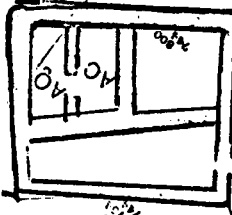
بيت من توالفاني، منطقة C، طبقته 3 (M)
رقم 7627 و 7628



بيت من توالفاني
المجلد الاول
لوحة 56

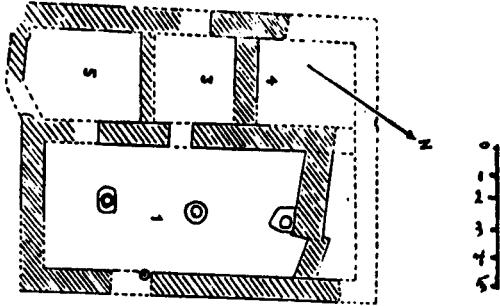


بيت من توالفاني
المجلد الرابع
نقلته G



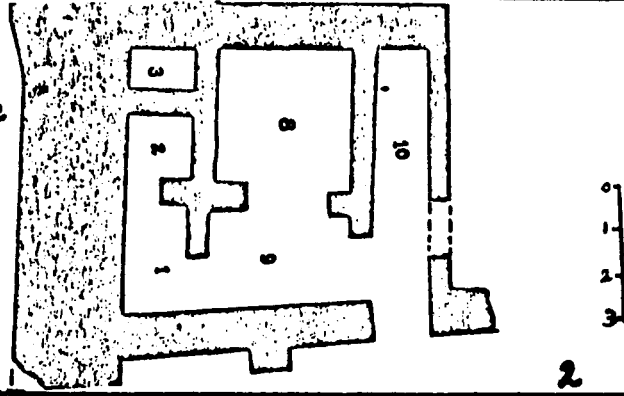
(شكل: 10)

بيت من توبيت رسم
 طبقه ٥٦ و ٥٩



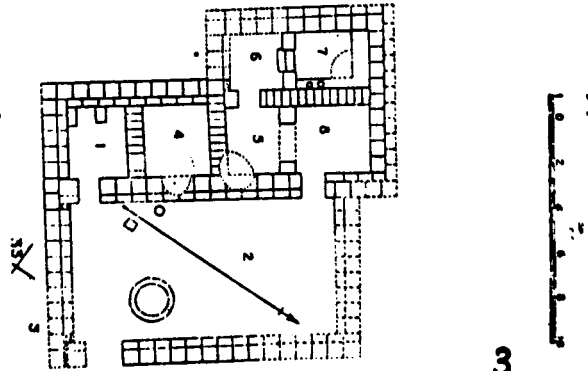
1

بيت من بيت شمس
 طبقه ٧ (٢٩ - ٨٨)



2

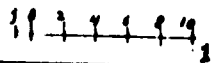
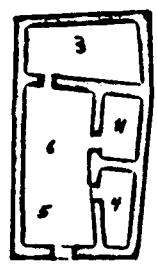
بيت من توبيت رسم
 طبقه D (٢٢ SE)



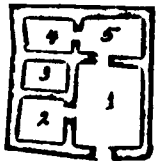
3

(شكل: ١٦)

بيت بن تقيت اسم
طبعة D (S. 19)

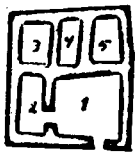


بيت بن تقيت اسم
نقشه BB، طبعة XM
(O.N. 14-15)



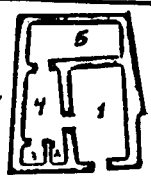
2

بيت بن تقيت اسم
نقشه BB، طبعة XM
(O.N. 14-15)



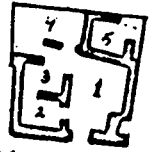
3

بيت بن تقيت اسم
نقشه BB، طبعة XM
(O.N. 14-15)



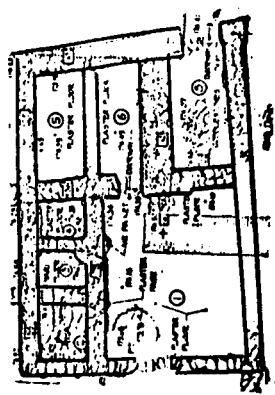
4

بيت بن تقيت اسم
نقشه BB، طبعة XM
(O.N. 14-15)



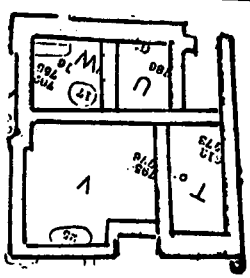
5

بيت بن تقيت
P. 24 (1779) No. BASOR



6

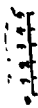
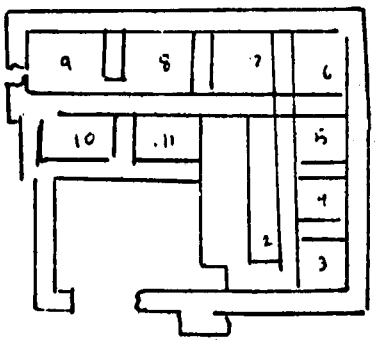
بيت بن تقيت
المجلد الاول لوجه 04



1/200

7

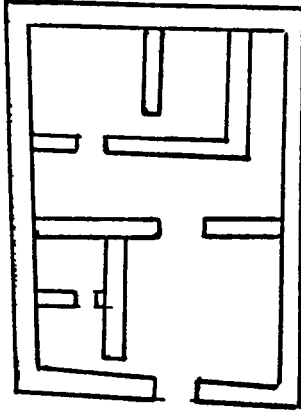
بيت بن تقيت
تصنف E.Solimi
سنة 37



8

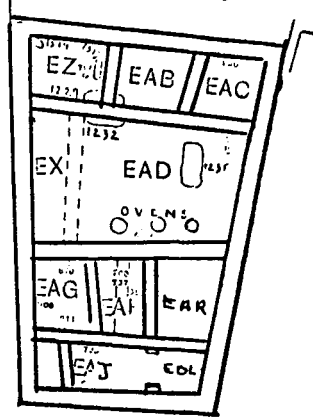
(شكل: 17)

بيت من مجروء منطقة AA، لبيتة XII
شكل ٢٣ بيت B (K-L.V.A)

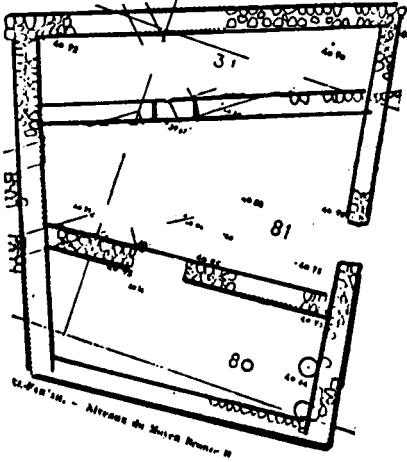


1 10 20 1

بيت من تن الفارعة، (١٩٦٨) ٤٤
لرمة XIII



2 1/200



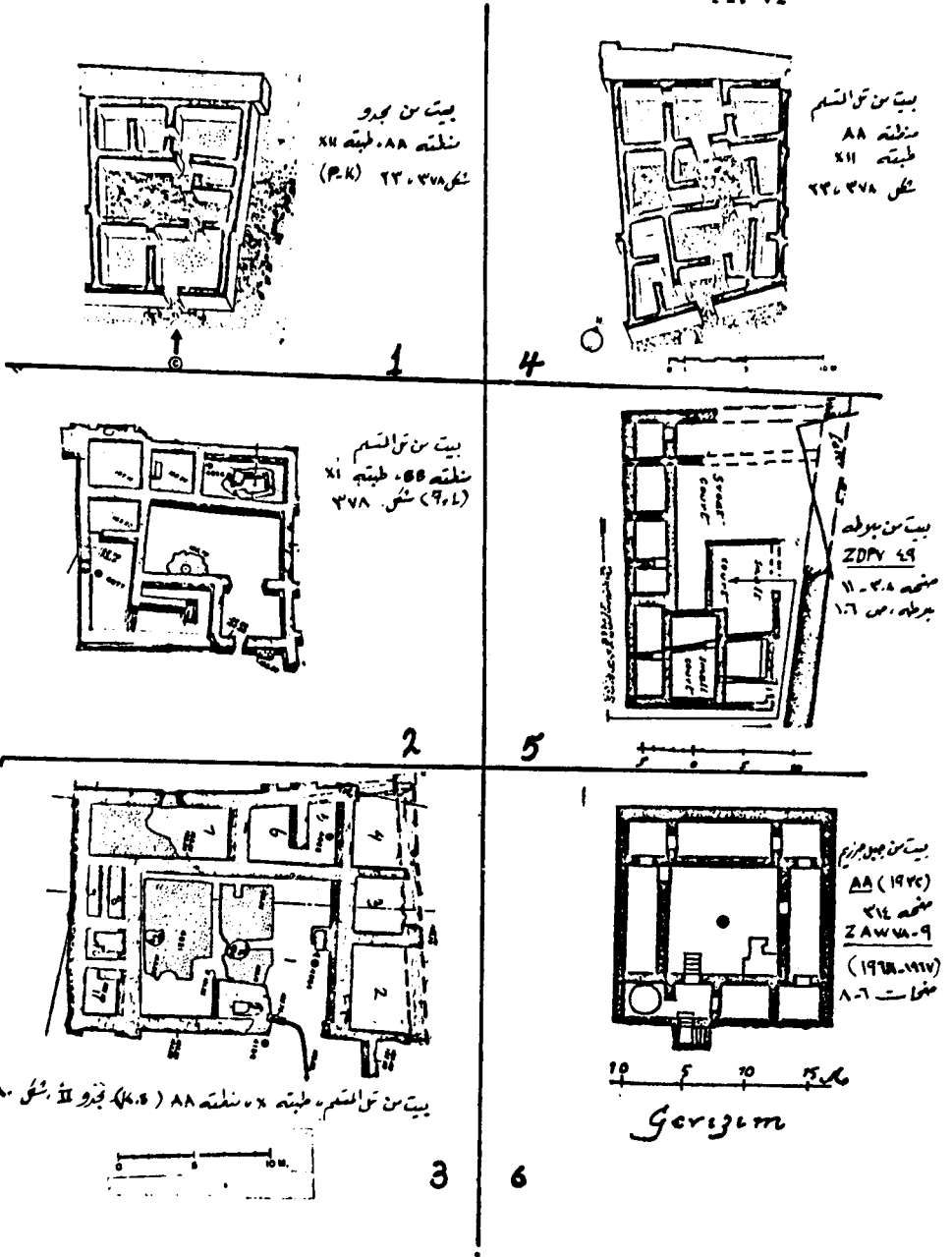
بيت من تن العيون
نزه - ١٥ لرمة XLV

UNIVERSITY - Athens de Nicos Pomer II

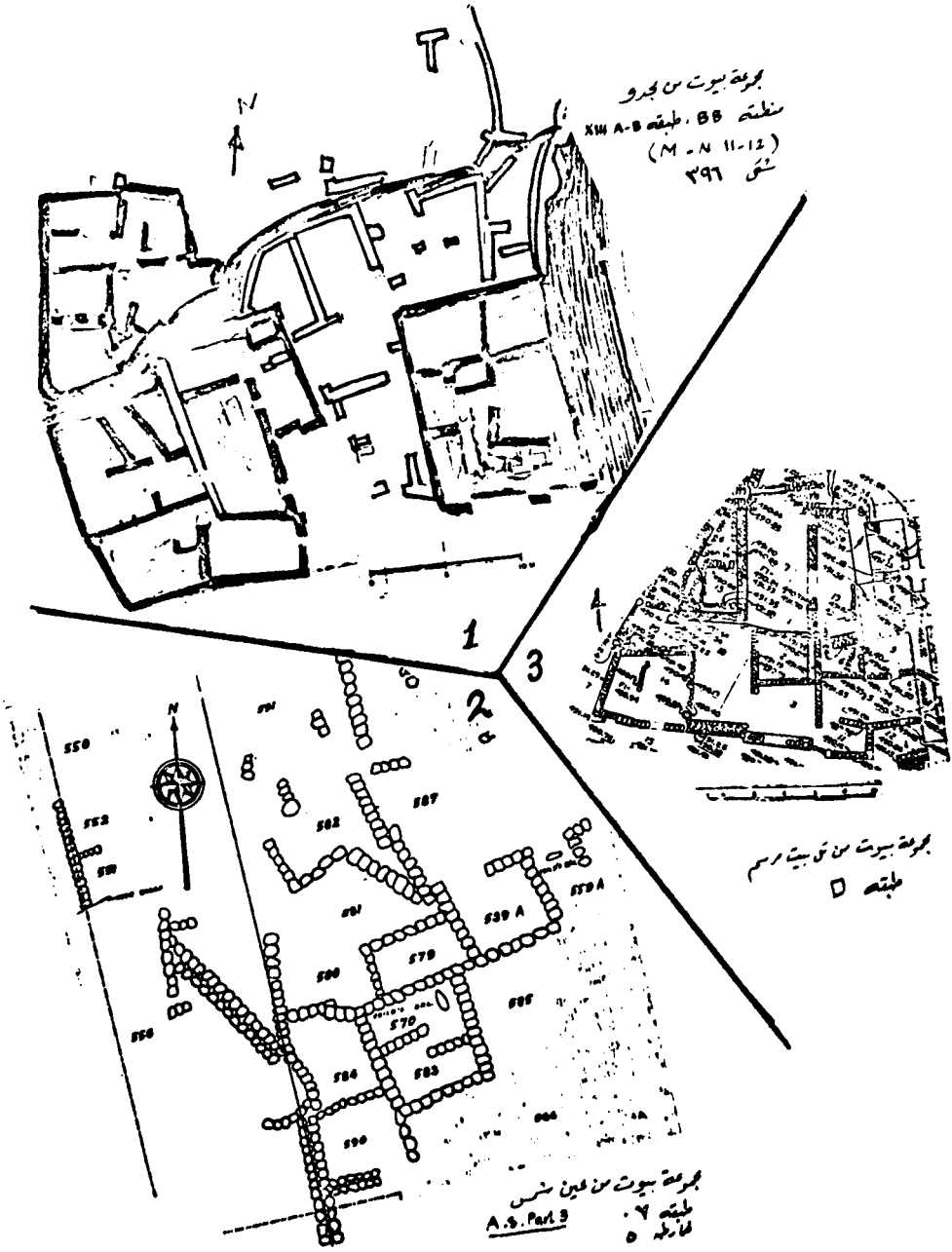
0 1 2 3 4 M.

3

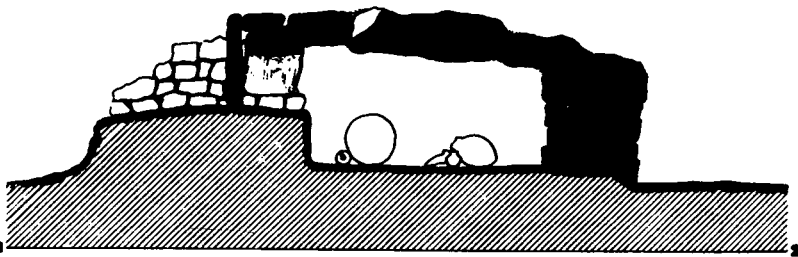
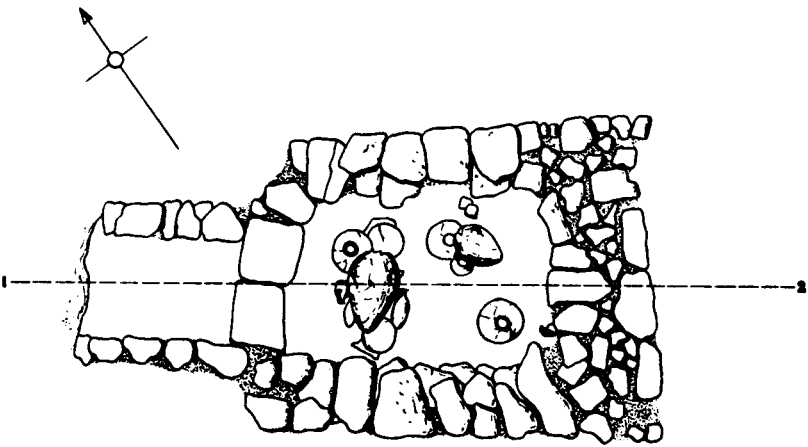
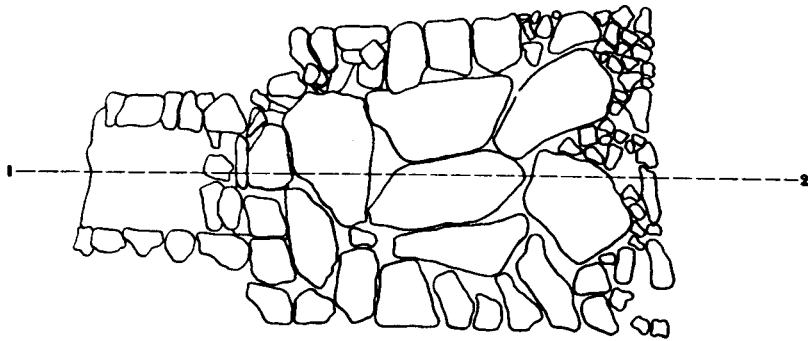
(شكل: ١٨)



(شکل: ۱۹)



(شكل : ٢٠)



(شکل: ۲۱)

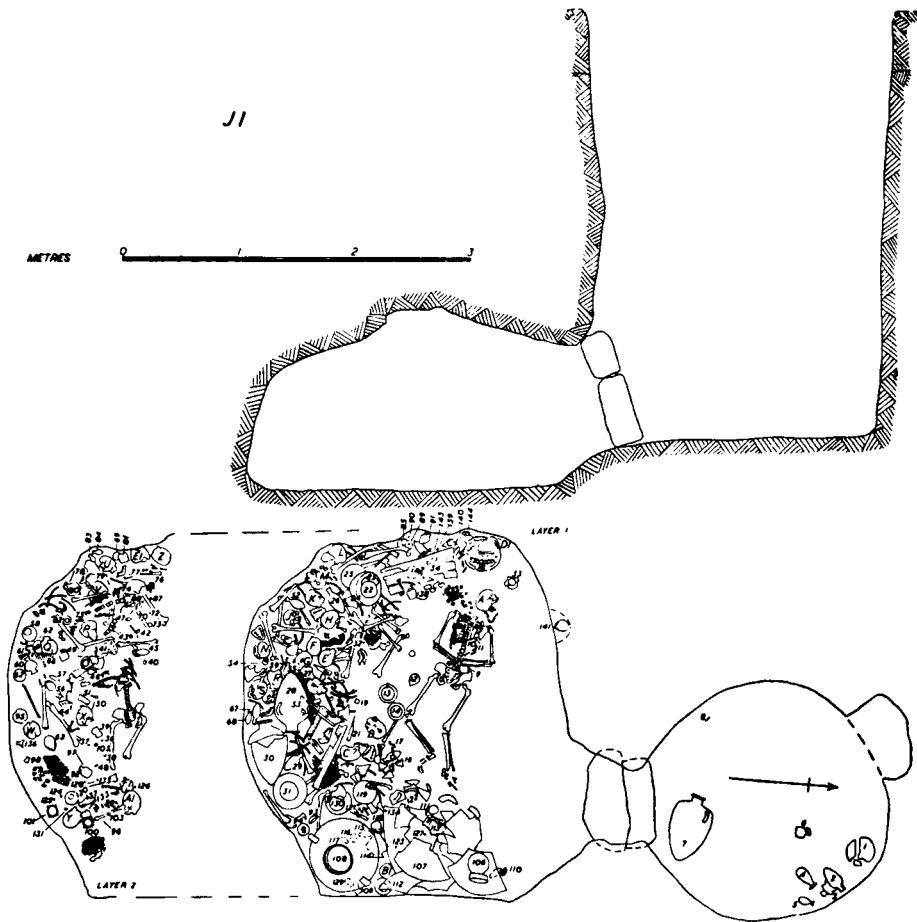
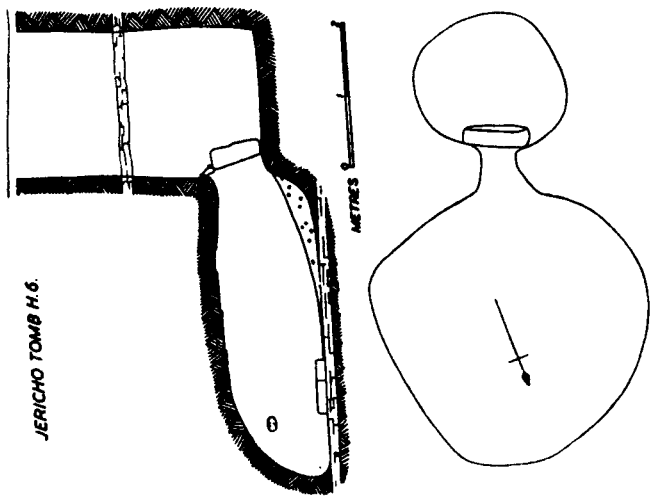
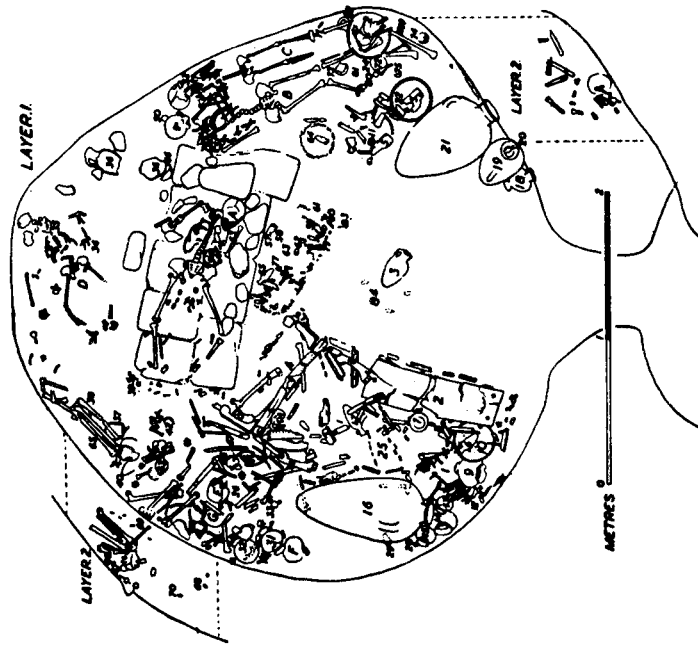


Fig. 178.—Plan and section of Tomb J 1.

426

(شکل : ۲۲)



JERICHO TOMB H 6.

Fig. 193.—Plan and section of Tomb H 6.

(شکل : ۲۳)

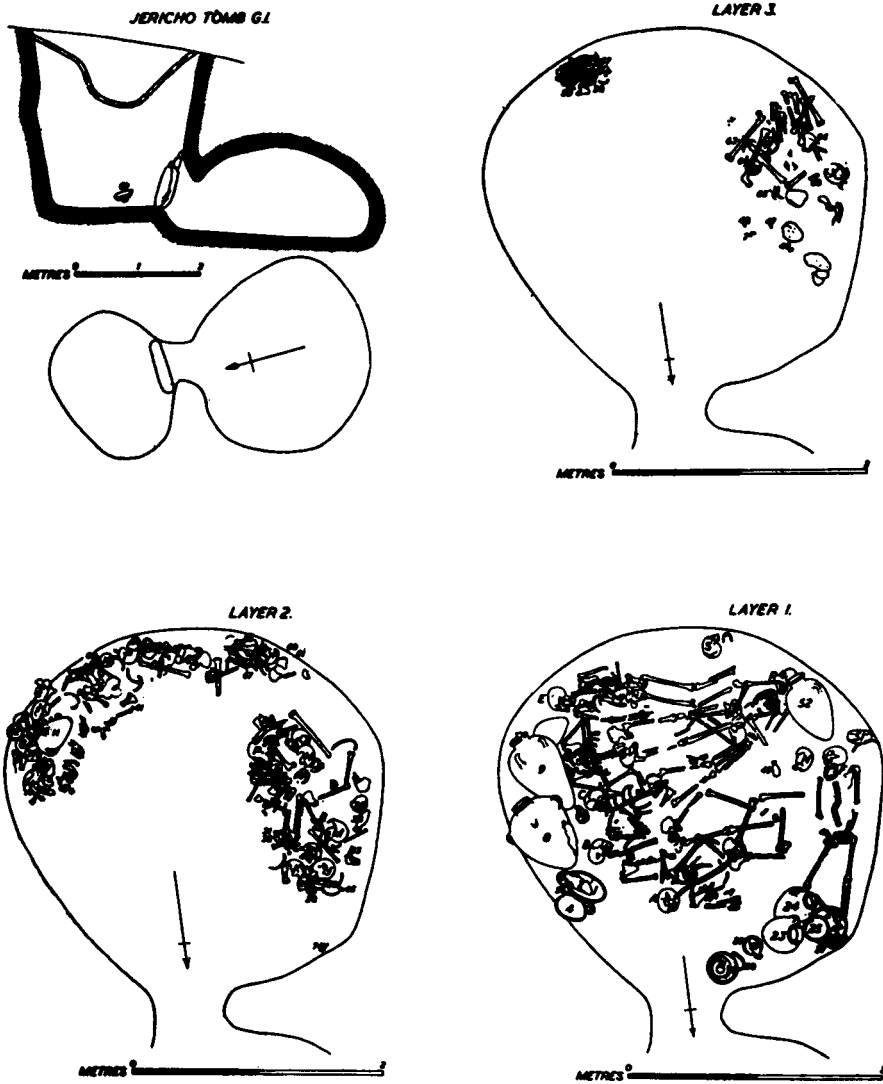


Fig. 188.—Plan and section of Tomb G 1.

444

(شکل : ٢٤)

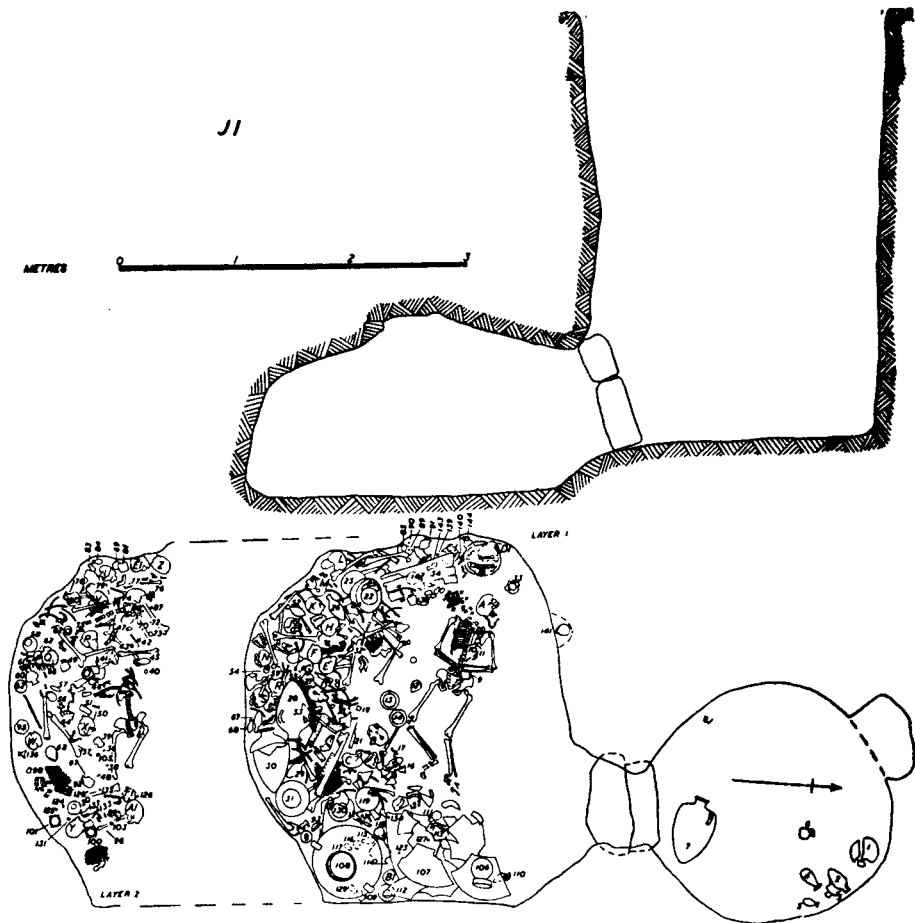
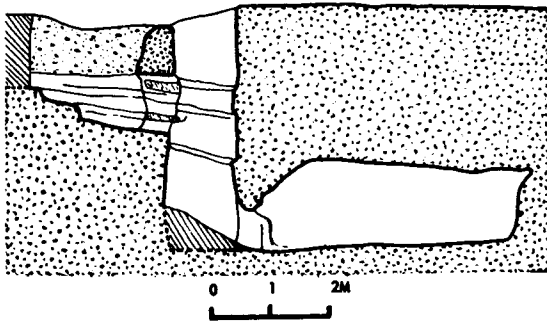


Fig. 178.—Plan and section of Tomb J 1.

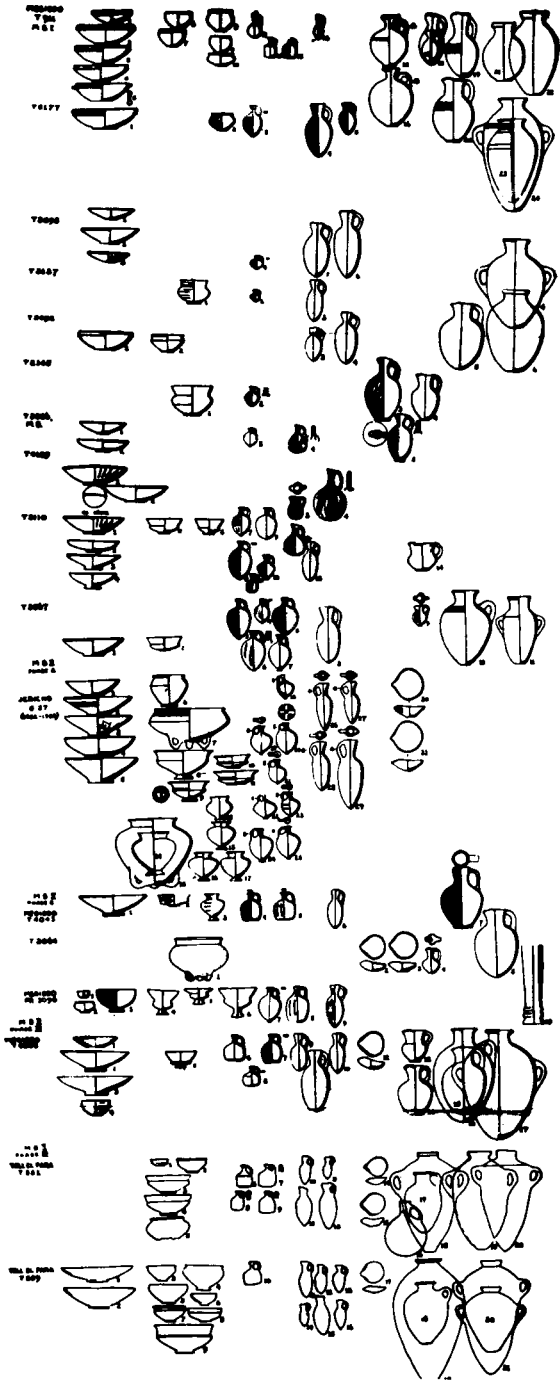
426

(شکل : ۲۵)



T57, plan (above);
Section A-B looking north (below)

(شکل : ٢٦)



(شكل : ٢٧)

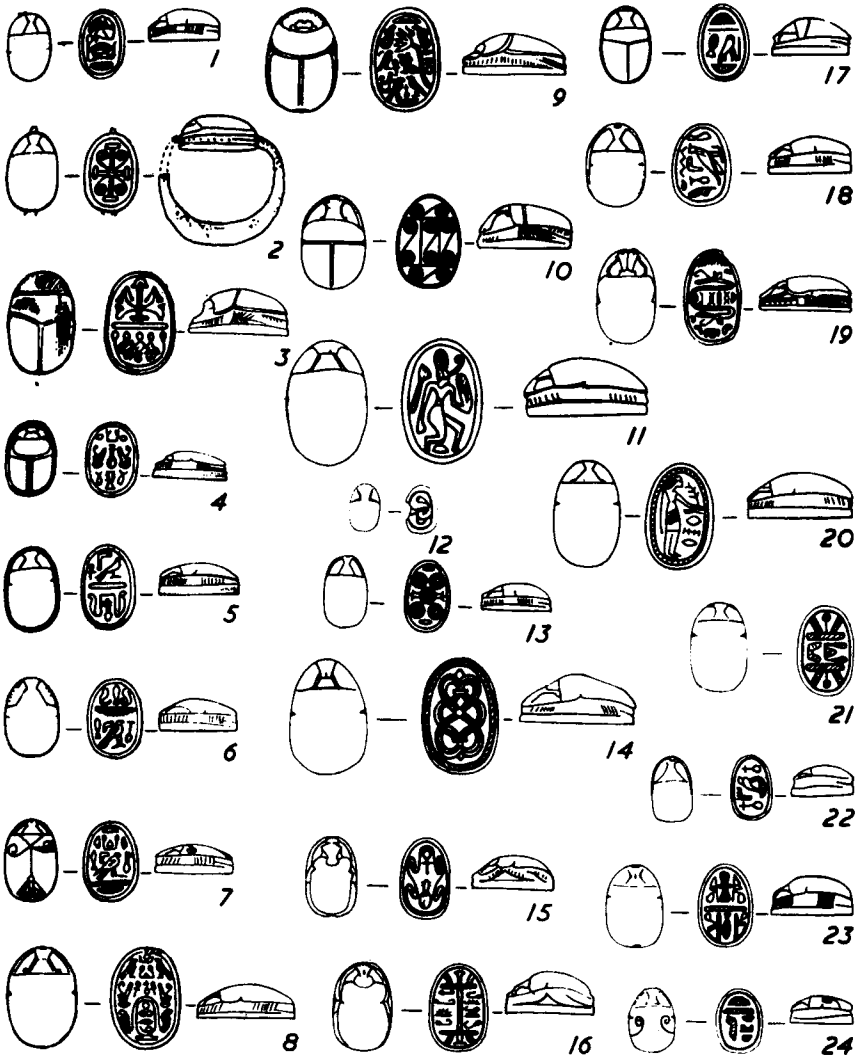


Fig. 282.—Scarabs from tombs J 3 (1), B 48 (2-9), A 34 (10-24). 1/1.

596

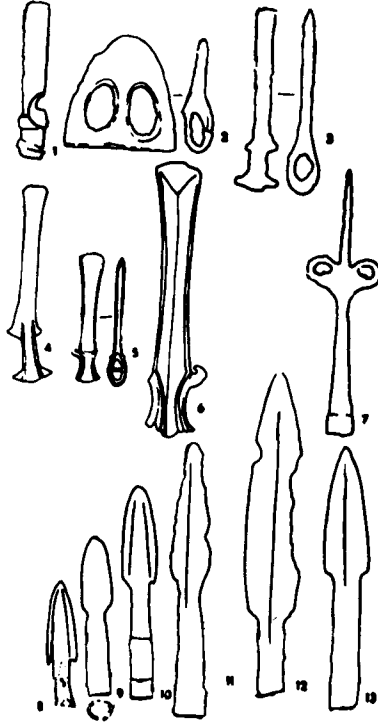
(شکل : ۲۸)



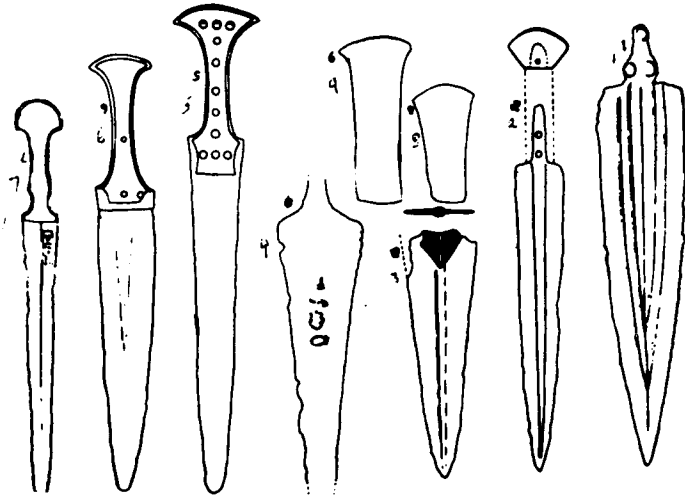
Scale 1:1

SCARABS AND SCARAB IMPRESSIONS (see pp. 115-116)

(شکل : ۲۹)



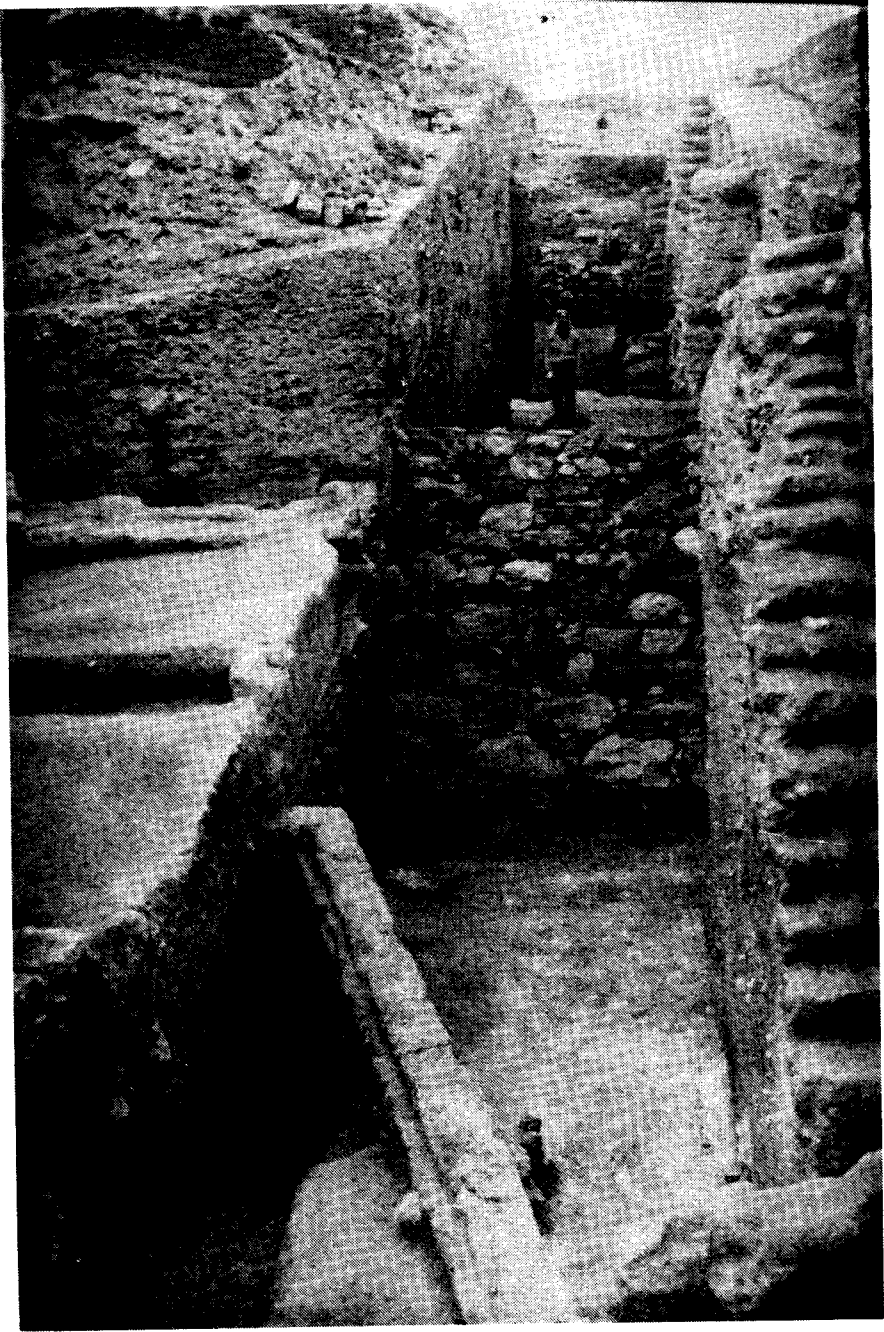
AXE AND ADZE HEADS



(شکل : ۳۰)



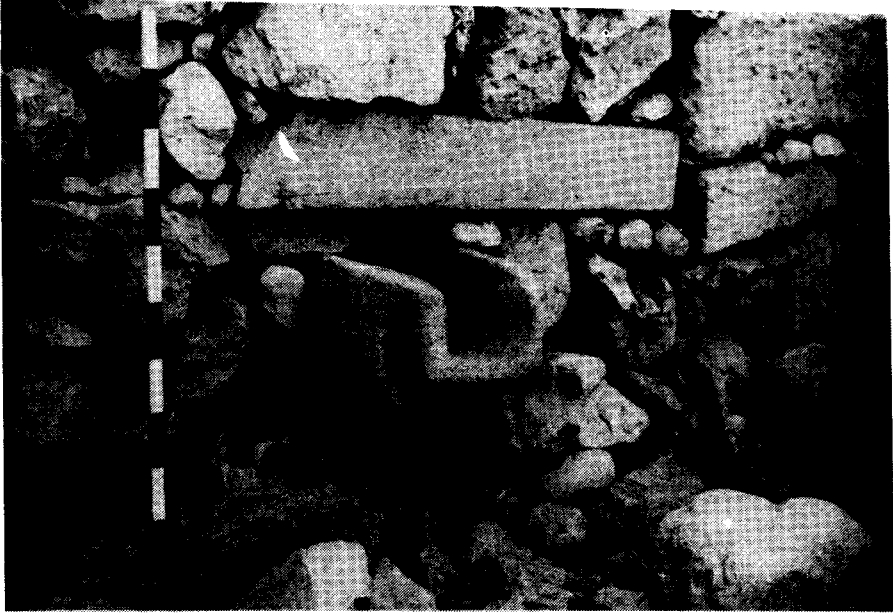
(لوحة: ١)



(لوحة: ٢)



(لوحة: ٣)



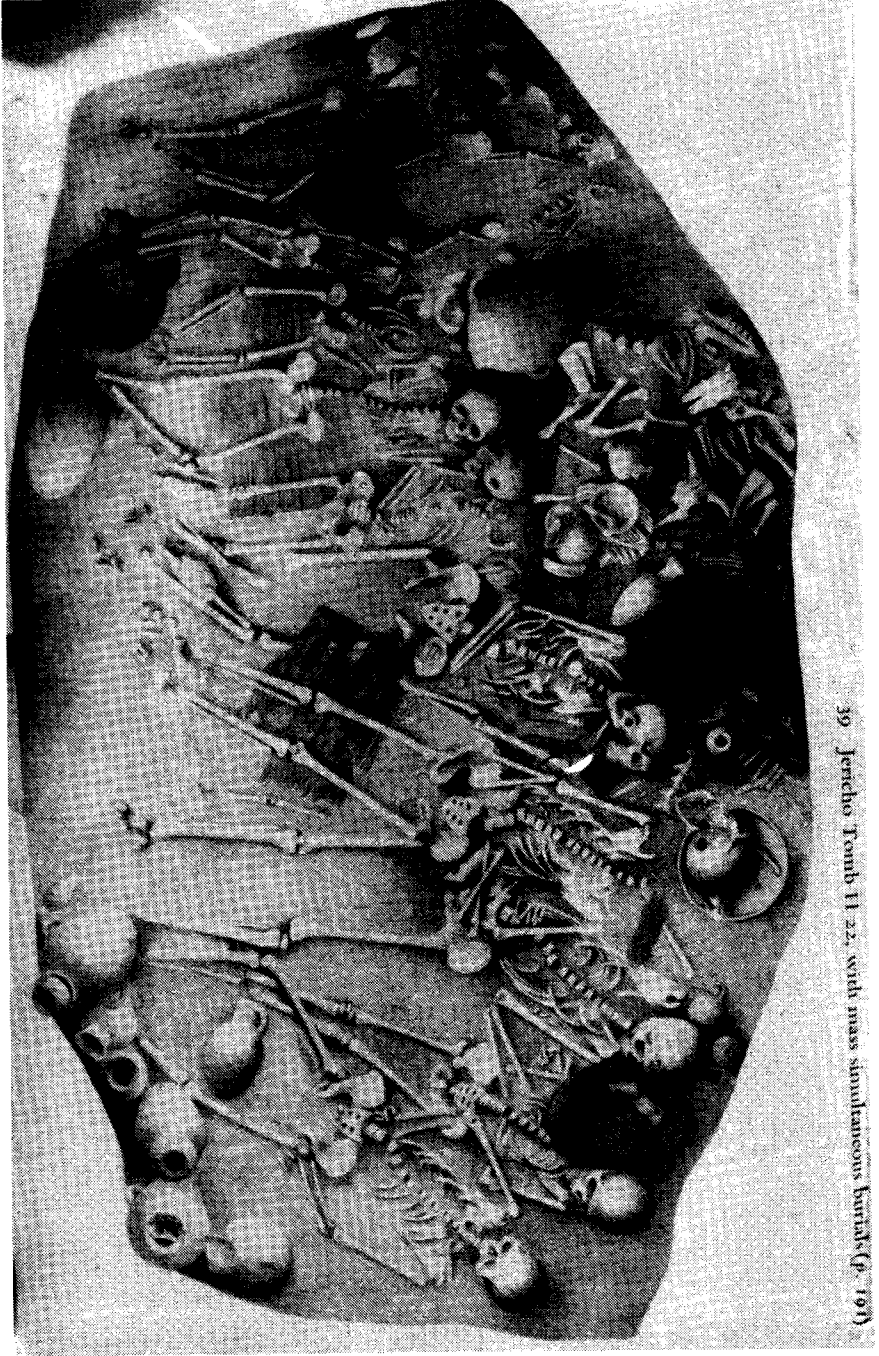
(لوحة : ٤)



Fig. 38. Sacred pillar 1 cemented in place in a portion of the temple's courtyard which is reconstructed. The upper edges of the stone socket are left visible in the center of each side. Fig. 39. Looking west toward the temple at the conclusion of the campaign in 1962. The stone wall around the reconstructed courtyard was erected by the Drew-McCormick Expedition in 1960 and 1962 to hold the debris in place.



(لوحة : ٥)



39 Jericho Tomb 11 27. with mass simultaneous burial (p. 191)

(لوحة : ٦)



(لوحة : ٧)

الصفحة	الباحث	اسم البحث
٥	د. محمد اسعيد	١ - موقف الحكومات الالمانية من الهجرة اليهودية الى فلسطين من ١٨٨٠-١٩٤٠
٣٤	د. محمد البطاينة	٢ - فتح فلسطين وملكيته بعد الفتح الإسلامي
٦٢	د. محمد التميمي	٣ - نص المشروع الاستيطاني لليهود في فلسطين والذي قدمته الحركة الصهيونية الى الدولة العثمانية عام ١٢٩٧هـ-١٨٧٩م وموقف الدولة من هذا المشروع
٧٧	د. صالح حمارنة	٤ - ثورة الفلاحين في فلسطين ايام المعتصم سنة ٢٢٧هـ ٨٤٢م
٩٣	د. احمد الدجاني	٥ - ملاحظات على تطور حياة اليهود في فلسطين حتى الفتح العربي الإسلامي
١٣٥	د. ممدوح الروسان	٦ - مساعي العراق لحل الصراع العربي - الصهيوني ١٩٣٣-١٩٤٣
١٧٥	د. حسن ريان	٧ - الاطماع الصهيونية في فلسطين منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر
٢٢٧	د. سهيلة الريماوي	٨ - الرواد العرب والقضية الفلسطينية ١٩٠٠-١٩١٨
٢٤٥	د. ناصر الدين سعيدوني	٩ - يهود الجزائر وموقفهم من الحركة الصهيونية
٢٧٥	د. احمد طربين	١٠ - مرافق الامن والتعليم والاشغال العامة في فلسطين كما يكشف عنها موظف عربي كبير في الادارة الانتدابية
٣٠٤	د. عبد الرحيم عبد الرحمن	١١ - مصر وفلسطين في العصر العثماني من خلال وثائق المحكمة الشرعية المصرية

الصفحة	الباحث	اسم البحث
٣١٩	د. أسعد عبد الرحمن	١٢- المنظمة الصهيونية العالمية بعد قيام إسرائيل التعارض بين الحلفاء
٤٢٦	د. علي عطية	١٣- الزعامة السياسية للمفتي الحاج أمين الحسيني بين عهدين ثورة ١٩٣٦ وما قبلها
٤٩٢	د. فاروق العمر	١٤- من وثائق البلاط الملكي العراقي اوراق القنصلية العراقية في حيفا
٥١٣	د. زاهية قدورة	١٥- مفكران لبنانيان وقضية فلسطين - نجيب عازوري - ميشال شيحا
٥٣٩	د. وجيه كوثراني	١٦- فرنسا وفلسطين والصهيونية في مطلع القرن العشرين
٥٨٠	د. علي محافظة	١٧- قراءة في وثائق الخارجية الفرنسية الحركة الوطنية الفلسطينية والرايخ الثالث ١٩٣٣-١٩٤٥
٦٣١	د. أمين محمود	١٨- المسألة اليهودية في كتابات ليوبنسكير
٦٥٦	د. احمد مصطفى	١٩- موقف الدولة العثمانية من الهجرة الصهيونية الى فلسطين
٦٨٩	د. سامي مكارم	٢٠- بنو الجراح أمراء الرملة
٧١٠	د. صلاح الدين المنجد	٢١- اللاجئون المقداسة الى دمشق بعد الغزو الفرنجي ونتائج هجرتهم
٧٢٥	سليمان الموسى	٢٢- موقف الشريف حسين من تصريح بلفور
٧٤٨	د. محمد خير ياسين	٢٣- دراسة تحليلية لآثار فلسطين في العصر البرونزي المتوسط الثاني ١٩٥٠-١٥٥٠ ق.م.